

جامعة المنصورة

كلية الآداب

قسم التاريخ

الحياة العلمية في اليمن

من بداية القرن التاسع الهجري حتى سيطرة العثمانيين عليها

(٨٠١ - ٩٤٥ هـ / ١٣٩٧ - ١٥٣٨ م)

رسالة مقدمة من الطالب

عبدالله علي علي عاصم الأمجري .

المدرس المساعد بقسم التاريخ بكلية التربية - جامعة صنعاء

لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي

إشراف الأستاذ الدكتور

محمد عيسى صابر المحبري

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

وعميد كلية الآداب (سابقاً) - جامعة المنصورة

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م



جامعة المنصورة

كلية الآداب

قسم التاريخ

صفحة المشرفين ومساعدتهم

عنوان الرسالة : الحياة العلمية في اليمن من بداية القرن التاسع الهجري حتى سيطرة العثمانيين عليها

(٨٠١ - ٩٤٥ هـ / ١٣٩٧ - ١٥٣٨ م)

اسم الباحث : عبد الغنى على على عائض الأهجري

تحت إشراف :

م	الاسم	الوظيفة	التوقيع
١	أ.د/ محمد عيسى الحريري	أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية المتفرغ - كلية الآداب - جامعة المنصورة	

عميد الكلية

أ.د / فاروق السعيد جبريل

وكيل الكلية للدراسات العليا

أ.د / احمد فتحي شتا

رئيس قسم التاريخ

أ.د/ رضا عبدالجواد رسلان



جامعة المنصورة

كلية الآداب

قسم التاريخ

لجنة المناقشة والمكتم

الطالب : عبد الغنى على على عائض الاهجرى

المادة بعنوان / الحياة العلمية في اليمن من بداية القرن التاسع الهجري حتى سيطرة العثمانيين عليها

٨-٩٤٥هـ / ١٣٩٧-١٥٣٨م

لجنة الاشراف

م	الاسم	الوظيفة	التوقيع
١	أ.د/ محمد عيسى الحريري	الأستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المتفرغ كلية الآداب جامعة المنصورة	

لجنة المناقشة والمكتم

م	الاسم	الوظيفة	التوقيع
١	أ.د / زبيدة محمد عطا	أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المتفرغ بكلية الآداب جامعة حلوان	
٢	أ.د/ محمد عيسى الحريري	الأستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المتفرغ كلية الآداب جامعة المنصورة	
٣	أ.د./ محمد عبد الله النقيرة	الأستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المتفرغ كلية الآداب جامعة الزقازيق	

تاريخ المناقشة ٢٠٠٨/٥/٣

تقدير الرسالة

رئيس القسم

وكيل الكلية للدراسات العليا

عميد الكلية

أ.د/ فاروق السعيد جبريل

أ.د/ أحمد فتحى شتا

أ.د/ محمد

اتحاد الجامعات العربية
الجامعة الاردنية / مركز صندوق ايداع الرسائل الجامعية

نموذج تفويض

أنا عبد الغني علي الهجرى

أفوض الجامعة الأردنية بتزويد نسخ من رسالتي / أطروحتي للمكتبات أو المؤسسات أو
الجهات أو الأشخاص عند الطلب .

التوقيع : [Signature]
التاريخ : 11/6/2008

Association of Arab universities (AArU)
The University of Jordan

Authorization form

I Abdul-Ghani Ali Ali Al-Ahjuri

Authorize the University of Jordan to supply copies of my thesis /
dissertation to libraries or establishments or individual on request.

Signature: [Signature]

Date :

11-6-2008

سورة التوبة

"وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ"

"قَدْ إِنْ صَلَاتِي وَنَسْكَي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"

يجدر بي أن أستهل هذه الدراسة بأبيات القاسم بن محمد الأندلسي التي قال فيها :

يا ناظرًا فيما تدبّت لجمعِهِ

اعدُرْ ، فإنّ أخا البصيرة يعدُرْ

واعلم بأنّ المرء لو بلغ المدى

في العمر لاقى الموت وهو مقصّر

فإذا ظفرت برزّة فافتح لها

باب الجاوز ، فالجاوز أجدر

ومن المحال بأن ترى أحدا حوى

كنه الكمال ، وذا هو المتعدّر

إهداء

إلى امرأتين لا كالتساء :

الأولى : محضني الأول ، ومعلمتي الرائدة ، للمرأة المناضلة الصامدة الصامتة ،
والدني :

سيدّة عبد الله الأمجري

التي أنجبت وربّت خمسة عشر فرداً كلهم كالنجوم في سماء صنعاء وأبوظبي والقاهرة

والثانية : مرشدتي وملهمتي وساعدي وعدتي ، ورفيقة دربي، المعلمة المتألّفة
والأكاديمية المبدعة، وشريكتي في كل نجاح، زوجتي :

الدكتورة أروى علي الطريقي

مدرس الأدب الأنثوي بكلية العلوم الإنسانية بجامعة العلوم والتكنولوجيا - صنعاء

شكر وتقدير

أتقدم باسمي آيات الشكر وعظيم الامتنان للعالم المتواضع والإنسان المتمثل لأخلاق العلماء ، أستاذي الكبير الأستاذ الدكتور محمد عيسى الحريري أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية آداب المنصورة ، الذي أدين له - من بعد الله تعالى - بفضل واسع شملتني به منذ وطئت قنماي هذه الأرض الطيبة، ومعاملة راقية غمرني بها، وعلم واسع كالبحر اغترف الكثير منه وأنا بعد لم أزل على شطآنه، وإليه يرجع الفضل في اختيار موضوع رسالتي هذه بلغت انتباهي إلى أهميته، ومن ثم الإشراف على الرسالة في جميع مراحل إعدادها، وذلك لي كل صعب ، وخفف عني مشاق الغربة ، وهون علي كل عناء في بلوغ ما خرجت من بلدي لأجله، فكان لي خير أستاذ وخير أب وخير صديق، وطوق عنقي بكل مكرمة وجميل، وهو ما يدل على كرم منته، وأصالة منته، والله أسأل أن يديم عليه الصحة ويمتعه بالعافية .

وأتقدم أيضاً بأشمل ألفاظ الشكر ومعاني التقدير لأستاذتي الفاضلة الأستاذة الدكتورة زبيدة محمد عطا أستاذ التاريخ الإسلامي المتفرغ بكلية الآداب بجامعة حلوان أن شرفنتني بالمواقفة على مناقشة هذه الرسالة وتحملت عناء السفر ووعثائه، فأزجي لها شكراً جزيلاً واسعاً ، وأدعو لها بدوام الصحة والعافية .

كما أتقدم بالشكر والتقدير أيضاً لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور محمد عبدالله النقيرة أستاذ التاريخ الإسلامي المتفرغ بكلية الآداب في جامعة الزقازيق على تشريفه لي بقبول مناقشة هذه الرسالة، وتحمل عناء السفر والانتقال ومشاقه، متمنعه الله بصحته وأدام عليه عافيته، وله مني للشكر والعرفان .

ولكلية الآداب بجامعة المنصورة - ممثلة في عبدها الأستاذ الدكتور فارق السعيد ، ورئيس قسم التاريخ بها أستاذي الدكتور رضا رسلان ، وجميع الأخوات الفاضلات بإدارة الدراسات العليا بكلية - شكري الجزيل وتقديري واحترامي .

ولأستاذي الرائد الكبير الأستاذ الدكتور عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع - أستاذ التاريخ الإسلامي وحضارته بكلية الآداب في جامعة صنعاء - أقف إجلالاً وإكباراً واحتراماً، فما أنا - من ناحية كوني باحثاً - إلا غرس يديه، وحصوله جهوده، له مني كل حب وشكر وتقدير وعرفان، متمنعه الله بموفور الصحة ودوام العافية .

ولوالدتي الفاضلة التي ما برحتُ لحقق النجاح ثلّو الآخر ببركة دعواتها لي
طرفي النهار وزلفاً من الليل، لها تتحنّني بحروفي وبراغي طاعة وبرا وشكراً وتقديراً ،
ولجميع أشقائي وشقيقاتي في صنعاء وأبوظبي أزجي كل شكري وعرفاني لهمم بجميل
دعهم وتشجيعهم الدائم لي .

وإن نسيت أحداً فلن أنسى رفيقة عمري وشريكة حياتي ، زوجتي المربية
الفاضلة الدكتورّة أروى علي الطوقي ، التي أدين بالفضل لها من بعد الله تعالى في
تحقيق كثير من آمالي وأحلامي، فهي شريكتي في كل نجاح بلغته، ورفيقتي في كل
درب من دروب الخير سلكته، ومعين لا ينضب من التشجيع والتحفيز لكل غاية نبيلة
ومقصد سام حسن، وتحملت معي الكثير من مشاق الغربة ولأواء فراق الأهل والأحبة
بكل صبر وربطة جاش، وضحت بالكثير من وقتها وجهدها وصحتها كي تذلّ لي كل
صعب ومشقة، وإن ألفاظ الشكر وعبارات الثناء لا توفّيها ولا حتى جزءاً يسيراً مما هي
جديرة به وتستحقه ، فأسأل الله تعالى أن يجزيها عني خير الجزاء، وأن يشملها برعايته
وعنايته .

ولأبنائي الثلاثة مروان ومالز ورؤى كل الشكر على تحملهم انشغالي الطويل
عنهم، وتقصيري في أداء حقوقهم، واعترايي وبعدي عنهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، ثم أما بعد :

بالرغم من الموقع الجغرافي الطرقي لليمن بالنسبة لمراكز النقل السياسي والعلمي والديمقراطي والحضاري في العالم الإسلامي إلا أنها لم تكن بمنأى عن جميع الأحداث التي جرت ، بل إن موقعها الجغرافي هذا قد منحها وزناً كبيراً في حسابات القوى التي وجهت تلك الأحداث ورسمت مساراتها ، وقد كان لطبيعة سطح اليمن وتضاريسها - من جانب آخر - دور كبير في إعطائها بُعداً آخر من الأهمية ، فرجال قبائلها الأشداء وجبالها الشاهقة وحصونها وقلاعها الكبيرة المنيعه جعلتها ملاذاً يأوي إليه كل من خشي أن تطاله أيدي أعدائه في مراكز النقل السياسي والعسكري .

من هنا كانت اليمن تربة خصبة تظهر فيها - لو نتجه نحوها - دعوات كثيرة لم يكتب النجاح لبعضها ، كما قُذِرَ النجاح لبعضها الآخر ، وقد أدى ظهور تلك الدعوات وقيام دويلاتها إلى جعل اليمن ساحة صراعات عسكرية وسياسية ومذهبية وفكرية متواصلة ، وإن كان ثمة ميزة لتلك الصراعات فهي ميزة تحويل اليمين إلى بوتقة امتزجت فيها علوم ومعارف شتى ، من مشارب مختلفة ، وفي حقول متنوعة ، شرعي منها والطبيعي والتطبيقي والفلسفي ، فقد حُمِلَتْ إليها بذور تلك العلوم من قبل كثير ممن قصدوا ، إضافة إلى بعض الجهود الريادية لبعض أبنائها ، فازدهرت الحياة العلمية في اليمن في قرون تاريخها الإسلامي المختلفة ، وتباين معدل ارتفاع منحنى ازدهار تلك العلوم طبقاً للظروف السياسية والاقتصادية وغيرها ، وقد أثبتت كتب الجيولوجيا وفهارس مكتبات المخطوطات اليمنية - الحاضرة والعمارة - وفهارس بعض المتاحف والمكتبات العربية والعالمية أن التراث العلمي اليمني زاخر بالآلاف للمخطوطات في جميع مجالات المعرفة والعلوم .

وقد عانى التراث اليمني المشار إليه من التغييب والإهمال أكثر مما وقع على غيره ، فبقي معظمه حبيس دور المخطوطات المختلفة والمتاحف والمكتبات العامة والخاصة في اليمن وفي غيرها ، وظل كثير منه بعيداً عن يد الفهرسة فعُدَّ في حكم المفقود ، وقد تنوع هذا التراث فشمِلَ شتى المجالات العلمية ومختلف فروع المعرفة ، وهو ثمرة منطقية لحياة علمية زاهرة شهدتها اليمن ، وانعكاس طبيعي لسباق - مقصود

وغير مقصود - بين رجال الفرق والمذاهب من أبناء اليمن ، وهو ما لم تتضح معظم تفاصيله لدى كثير من العلماء والباحثين المعاصرين فرُسم للطبايع غير صائب لديهم يتمثل في القول بـ: أن اليمن لم تجار غيرها من أقطار العالم الإسلامي في ميدان التأليف وتكوين العلوم ، ومصدر ذلك الانطباع هو قلة ما في متلول أيدي الناس من نتاج علماء اليمن على مدار تاريخها الإسلامي ، وضآلة الجهود التي يبذلها الباحثون - اليمنيون في المقام الأول قبل غيرهم - في دراسة وعرض ذلك التراث وذلك التاريخ العلمي المزدهر ، فكان ذلك الانطباع وتلك الصورة بلا شك مجانبية للواقع والصواب .

وقد جاء اختياري لموضوع هذه الدراسة للمتمخورة حول الحياة العلمية في اليمن من بداية القرن التاسع الهجري حتى سيطرة العثمانيين عليها (٨٠١ - ٩٤٥ هـ / ١٣٩٧ - ١٥٣٨ م) محاولة بسيطة للإسهام في رفع حالة الغياب التي تغطي على الجهود العلمية لعلماء اليمن وعلى التراث الإسلامي الغزير والمتنوع في ذلك القطر العزيز ، وهي امتداد لدراسات سابقة قد بذلها باحثون يمنيون قبلي ، خصوصاً لدراسة الحياة العلمية في اليمن في قرون سابقة من تاريخها الإسلامي ، كما أنها أيضاً محاولة لتسليط الضوء على حقبة من أحقاب الازدهار العلمي في اليمن التي كان منحني التطور الفكري والثقافي فيها مرتفعاً ، وهو اختيار منحدر - كذلك - من قناعتي بأهمية الأخذ مبدأ شمولية للتاريخ لجميع مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والفكرية والثقافية والحضارية للأمم ، هذا من جانب ، ولكون التاريخ العلمي للمسلمين أكثر إشراقاً وثقلاً من بقية الجوانب الأخرى في تاريخهم - من جانب آخر ، إضافة إلى تلمس نقاط التأثير والتأثر المتبادل بين اليمن وغيرها من أقطار دار الإسلام الأخرى في الحجاز ومصر والعراق وغيرها .

أما عن الحدود الزمانية للدراسة فهي المدة التاريخية الممتدة من بداية القرن التاسع الهجري (٨٠١ هـ) حتى دخول القوات العثمانية مدينة عدن في سنة (٩٤٥ هـ) ، أي من مطلع القرن الخامس عشر الميلادي تقريباً - سنة ١٣٩٧ م - حتى سنة ١٥٣٨ م ، وقد حددت نهاية المدة التاريخية للدراسة بدخول اليمن تحت السيطرة العثمانية لأن السمات العلمية للحياة اليمنية في كافة جوانبها تغيرت بشكل كبير بعد دخول العثمانيين إلى اليمن ؛ مما يدفع للباحث إلى اعتبار هذا الحدث نقطة تحول في تاريخ اليمن كان له انعكاس كبير على مجمل نواحي الحياة اليمنية ، وأما الحدود

المكانية لها فهي حدود اليمن الطبيعية والتي تتعدى الحدود السياسية للجمهورية اليمنية في تاريخها المعاصر .

الدراسات السابقة :

سبق الإشارة إلى أن هذه الدراسة تعد امتداداً لجهود سابقة لعدد من الباحثين خُصِّصَتْ لدراسة الحياة العلمية في اليمن في قرون سابقة من تاريخها الإسلامي ، وما توصلت إليه من تلك الدراسات السابقة في هذا الموضوع هي كما يأتي :

(١) الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، لعبدالرحمن عبدالواحد محمد الشجاع ، رسالة دكتوراه في التاريخ والحضارة ، كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

(٢) الحياة الفكرية في اليمن في القرن السادس الهجري ، لمحمد رضا الدجيلي ، نشر مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ، ١٩٨٥م .

(٣) الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، لعبدالرحمن أحمد المختار ، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي ، كلية الآداب بجامعة صنعاء ، ٢٠٠٤م .

(٤) الحياة العلمية في زبيد في عهد الدولة الرسولية ، لعبدالله قائد العبادي ، رسالة ماجستير في الحضارة والنظم الإسلامية ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .

(٥) الحياة العلمية في مدينة تعز وأعمالها في عصر الدولة الرسولية ، لعلي بن علي بن أحمد حسين ، رسالة ماجستير في الحضارة والنظم الإسلامية ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

(٦) الحياة العلمية في مدينة جبلة في عهد الدولة الصليحية ، لشوقي درهم الفضلي ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي ، كلية الآداب بجامعة أسيوط ٢٠٠٦م .

هذا وقد قُسمت الدراسة إلى مقدمة وخاتمة ، بينهما ثمانية فصول ، وذلك على

النحو التالي :

• مقدمة : تناولت فيها دواعي اختياري للموضوع واستعراضت ما وصلت إليه - وما بلغني وجوده - من الدراسات السابقة في إطاره .

■ **الفصل الأول :** وهو بمثابة التمهيد الذي هدفت من خلاله إلى قياس مكانة الحياة العلمية لدى اليمنيين قبل مدة الدراسة ، فكان رصداً سريعاً ومقتضباً تبين من خلاله أن الحياة العلمية في اليمن في مدة الدراسة نفسها كانت امتداداً لحياة مزدهرة من قبل ، وإن كان فيها قرائن تدل على ارتفاع منحنى تطورها وازدهارها في مدة الدراسة ، وهو ما أكتنته زيادة الجهود المبذولة في الاهتمام بالعلوم ودراسة وتدريساً وتصنيفاً .

■ **الفصل الثاني :** خصصته لاستعراض أهم معالم للحياة السياسية اليمنية في مدة الدراسة ، واستعرضت خلاله القوى والزعامات السياسية الرئيسية المشاركة فيها ، وتعرضت - ما أمكن - لتأثير تلك القوى والأحداث والشخصيات على الحياة العلمية .

■ **الفصل الثالث :** وهو مكرس لدراسة أهم أماكن التعليم التي شهدت الأنشطة العلمية لأبناء اليمن ، من كتاتيب ومدارس ومعابد وحجر وقرى علمية ، وكذلك أهم المراكز العلمية فيها من بداية القرن التاسع الهجري حتى السيطرة العثمانية عليها .

■ **الفصل الرابع :** وهو مخصص لتناول الأنظمة التعليمية الشائعة في اليمن في مدة الدراسة ، وما ارتبط بها من تفصيل مهمة عن المراحل التعليمية وطرق التعليم والتعلم من بداية القرن التاسع الهجري حتى السيطرة العثمانية عليها .

■ **الفصل الخامس :** خصصته لاستعراض أهم للركائز البشرية للحياة العلمية في اليمن في مدة الدراسة ، وكذلك علاقاتهم العامة بأنفسهم وبطلابهم وكافة شرائح المجتمع ، وأدوارهم في الحياة اليمنية العامة ، وكذلك مصادر تمويل الحياة العلمية عصرئذ .

■ **الفصل السادس :** حمل هذا الفصل عنوان (اهتمام علماء اليمن بالعلوم الشرعية ومصنفاتهم فيها من بداية القرن التاسع الهجري حتى السيطرة العثمانية عليها) وهو تتبع شامل لكل ما أوردته المصادر المتوافرة من الجهود المبذولة من قبل العلماء اليمنيين في خدمة العلوم الشرعية دراسة وتدريساً ،

وكذلك كل مؤلفاتهم فيها ، مع الإشارة إلى أماكن وجود تلك المؤلفات في المكتبات إن وُجدت .

■ **الفصل السابع :** وهو مكرس لرصد جهود اليمنيين في خدمة اللغة العربية وعلومها وآدابها ، وشمل مجمل مؤلفاتهم فيها ، وأماكن وجود تلك المؤلفات في المكتبات ودور المخطوطات .

■ **الفصل الثامن :** وقد خصصته لعرض إسهامات العلماء اليمنيين في كل مجالات العلم والمعرفة التي لم يشملها للفصلان السابقان ، فضم أدوارهم في خدمة علوم التاريخ بكافة فروعها والجغرافيا والإدارة والآداب السلطانية والطب والرياضيات وغير ذلك ، مع تحديد أماكن وجود مؤلفاتهم فيها - ما أمكن - وتحديد أرقامها في بهارس المنشآت التي تتضمنها .

■ **الخاتمة .**

هذا وأرجو أن أكون قد وفقت في تسليط الضوء على تلك الجهود المبذولة من قبل علماء اليمن ، وإبراز إسهاماتهم في خدمة الإسلام وعلومه ، وفي إثراء العلوم والمعارف الاجتماعية والطبيعية والتطبيقية التي كانت معروفة آنذاك، وذلك في إطار الرفع من شأن الفكر الإسلامي والعربي والإنساني عموماً ، كما أتمنى أن أكون قد تمكنت من لفت انتباه الباحثين - اليمنيين قبل غيرهم - إلى مدى غنى تراث اليمن وتاريخها بالموضوعات الجديرة بالبحث والدراسة ؛ ليلجوا أبوابه ويقتحموا عقباته .

والله من وراء القصد

وهو يهدي إلى سواء السبيل

الفصل الأول

السمات العامة للحياة العلمية في اليمن
قبل القرن التاسع الهجري ومظاهر
ازدهارها

السمات العامة للحياة العلمية في اليمن قبل القرن التاسع الهجري

تمهيد :

وضع الإسلام العلم في منزلة سامية ومكانة مرموقة ؛ لذلك كرمه وكرّم حملته، وأنزلهم منزلة سامية عالية ، فالعلم - لدى المسلمين - هو الطريق إلى معرفة الخالق، وهو السبيل إلى العبادة السليمة من الأخطاء والبدع ، وهو الجادة المؤدية إلى الأداء الأمثل لما افترضه الله جل وعلا ، وهو الوجهة المنتهية ببلوغ الوعي بما يضئف علاقة المرء بربه وما يُقرّئها ، وطلب العلم أمرٌ مفروضٌ على كل مسلم ، ليس من كماليات حياته ولا من فضول سماته ، وقد جاءت نصوص القرآن الكريم متضمنة هذه الفرضية ، فكانت أول آية نزلت فيه داعية إلى القراءة التي هي أعظم طرق للتعلم وأشهر وسائله ، فكان فعل الأمر في رأس السورة الأولى هو أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ ، وفعل الأمر في القرآن يقتضى الوجوب والفرضية ، وهو المعنى الذي عززه النبي ﷺ بقوله : " طلب العلم فريضة على كل مسلم " (١) .

وقد رَغِبَ الإسلام في طلب العلم بما رصده من أجرٍ عظيم مكانة مرموقة لأهله ، ورفع درجتهم ، وقرنهم بنفسه - سبحانه وتعالى - وملائكته في الشهادة على وحدانيته وألوهيته فقال عز من قائل : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْحِمْلِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٢٤﴾ ، بل صرح برفعه للذين لوتوا العلم على من سواهم إذا ما اقترن عظمهم بالإيمان به الذي هو رأس كل فضيلة ، فقال جل وعلا : يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٢٥﴾ .

(١) سورة الملق .

(٢) ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبدالبقي ، دار الفكر ، بيروت ، (د ، ت) ، ج ١ ص ٨١ ، رقم (٢٢٤) ، باب (فضل العلماء والحث على طلب العلم) .

(٣) سورة آل عمران .

(٤) سورة المجادلة .

وقد وعى كثير من المسلمين الأهمية الشرعية والدينية لهذا الأمر ، وندبوا أنفسهم للقيام به ، وتكبدوا في سبيل ذلك المشاق ، فصاغوا بجهودهم أنصع صفحات تاريخ البشرية عموماً ، وجابوا أرض الإسلام شرقاً وغرباً ، فحققوا بذلك ما أمثوه من علو المنزلة في الدارين . وكان نصيب اليمن وفيراً في هذا الباب ، فمنه ظهر عدد كبير من العلماء في شتى مجالات العلم والمعرفة الإسلامية ، وقد ازدهرت الحياة العلمية في اليمن في العهود الإسلامية المتعاقبة ، ولم نجد في تاريخ اليمن فترة مجدية علمياً تبدأ طوال تاريخها الإسلامي ، فقد كانت العلوم ومراكزها - على الرغم من الصراعات العسكرية الدائمة والعدم الاستقرار في كثير من الأحيان - مصطط احترام للناس جميعاً ، وكان ازدهارها الدائم مما يشار إليه بالبنان ومثلر إعجاب الدارسين .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن التعليم في اليمن ، سواء في زمن الدراسة - من بداية القرن التاسع الهجري حتى منتصف العاشر - أو ما قبلها ، كان تعليمياً نوعياً نخبياً ، ولعل ذلك كان من طبيعة العصر ، فلم يكن عامة الناس⁽¹⁾ يصاهون النخبة العلمية في الاهتمام بطلب العلم ، حيث لم يكن التعليم هنا كمياً ، إلا أن العلمة كان لها دور كبير في ازدهار الحياة العلمية من خلال ما ساستعرضه من جوانب في هذه الدراسة ، كتوفير الحماية للعلماء والأمان لهم ، أو الإسهام في إنشاء المؤسسات العلمية الممكنة .

ومنحلول استعراض بعض السمات للعلمة للحياة العلمية في اليمن قبل زمن الدراسة ، وسيمتد بنا الحديث عن هذه السمات عبر قرون عديدة من تاريخ اليمن ، ابتداء من أواخر القرن الثالث الهجري وحتى مشارف القرن التاسع ، ساعين من خلال ذلك إلى بيان ملامح الحياة العلمية في اليمن في زمن للدراسة مقارنة بما كانت عليه قبل ذلك ، لسعرف ما إذا كانت امتداداً لحقب سابقة لم مختلفة عنها .

(1) أقصد بهم كل شرائح المجتمع هذا العلماء وطلابهم والحكم .

□ الجدل الكلامي والمناقشات الفكرية القائمة على تنوع الخلفيات المذهبية :

ليس المقصود بالتنوع هنا تعدد الديانات ، فكل من على الساحة اليمنية آنذاك - وحتى يومنا الحاضر^(١) - يدينون بدين واحد هو الإسلام وعقيدة واحدة هي توحيد الله سبحانه وتعالى وإفراده بالربوبية والإلهية ، وما أقصده هنا هو تعدد المذاهب الفقهية والفكرية داخل المجتمع المسلم في اليمن ، وهو موضوع يجب على الدارسين لتاريخ اليمن استيعابه ، والإحاطة بجوانبه ، ففي فهمه تفسيرٌ لكثيرٍ من الأحداث ، وفي استيعابه إدراكٌ لمسببات عدد من الأنشطة الفكرية العلمية والأنشطة العمالية المضادة ، فقد كان تنوع المذاهب وتباين الخلفيات الفكرية دافعاً لكثير من الفعاليات العلمية ، وأسباباً مناسبة لموادٍ مثل من المؤلفات ، ما بين رسائل وفتاوى وكتب وموسوعات ، سنين كثيراً منها في الفصول الخاصة بتناول حركة التأليف في هذه الحقبة ، وقد أنجز بعض الباحثين دراساتٍ خصصوها للحياة المذهبية في اليمن في العصر الإسلامي^(٢) .

وقد كان التدافع قلماً بين أصحاب هذه المذاهب على مدار التاريخ اليمني ، وهذا التدافع لم يتخذ شكلاً واحداً ، أو يتمثل في صورة بعينها ، فنراه أحياناً يأخذ شكل الصراع العسكري الدموي ، وكانت الدائرة بين أصحابه سجالاً ، تُدبر الأيام على هؤلاء تارة ، وتُقبِلُ عليهم تارة أخرى ؛ فيبطلون من خصومهم جسدياً بمن يقتلون منهم ، وفكرياً بما يُثْلِفُونه من أدبياتهم وما كتبه علماءهم ، وبما يؤدي إليه ذلك من انحسار أفكارهم ومذاهبهم ، وإجبارهم أحياناً على العفوة إلى حين ، وقد لا يفوتون من غفوتهم إلا بعد عقود إن لم يتعد ذلك القرن من السنين .

(١) وجدت واليمن أقلية يهودية قليلة جداً ، لم تتعد نسبتها (٠١% واحد بالمائة) قبل رحيل معظمها إلى فلسطين في منتصف القرن الماضي ، انظر جملة هادي الرجوي ، يهود صنعاء ، مركز عبادي للدراسات والنشر ، صنعاء ، ط ١ ، ٦ - ٢٠٠٠ م ، ص ١١٩ ، ١٢٠ ، وهذه النسبة - على صلتها - جاءت نتيجة نموها على مدار قرون عدة ، فلقارئ أن يتخول كم كان عدد أفرادها في فترة الدراسة ، ذلك هو ما جعلني أزعج أن المجتمع اليمني يدين بدين واحد وعقيدة واحدة .

(٢) منها دراسة د. محمد عيسى الحريري المعنونة بـ " الاتجاهات المذهبية في اليمن حتى نهاية القرن الثالث الهجري " ، وكذلك ودراسة محمد أحمد السنين " المذهبان المني والشيعي في اليمن في القرنين الرابع والخامس الهجريين وتأثرهم على الحياة السياسية والاجتماعية " .

وقد يتخذ هذا التدافع شكل الصراع العلمي للفكري^(١) ، وهذا الشكل من التدافع هو ما يعيننا في دراستنا هذه ، ولعل ذلك ما أدى - في بعض جوانبه - إلى إثراء الحياة العلمية على الساحة اليمنية عموماً وعلى ميدان الصراع منها بالتحديد ، وهذا الشكل من التدافع هو الذي جعلنا في العصر الحاضر نتمكن من الاطلاع على مواقف المذاهب الفقهية اليمنية من بعضها ، وهو الذي جعلنا نحصل - من نتائجه - على كم كبير من المخطوطات والكتب .

ومع أن التشيع والتسنن كانتا القاعدتين الأساسيتين للتنوع المذهبي في اليمن إلا أن الشيعة لم يكونوا على هوى واحد ، وأهل السنة أنفسهم لم يكونوا على وفاق دائم ، بل إن الصراع العلمي الفكري والعسكري بين الشيعة أنفسهم كان أشد حدة مما كان عليه بينهم وبين أهل السنة ، ففي نظرة خاطفة على فصول صراع الشيعة الزيدية مع الشيعة الإسماعيلية بشكليه العسكري والعلمي يتضح لنا شدة حدته مقارنة مع صراعاتهم مع أهل السنة ، ابتداءً من أيام الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين الرُّمِّي^(٢)

(١) وقد يأتي التدافع في صورته - العسكرية والطبية الفكرية - بالتوازي ، بل إن أغلب حالاته كانت كذلك ، فكثيراً ما نرى أن هزيمة الفريق بصاحب كتابة الرسائل التي تحدد مبررات قتاله ، وتجير حرق كتبه واستغلال أمواله وما سواها ، وتهدم أسس عقيدته في نغوس هائلة .

(٢) هو الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الرُّمِّي ، أحد أشهر علماء آل البيت وأئمتهم ، عالم فقيه راجد متكلم ، مصنف بارع ، ألف حوالي ٧٤ مصنف ما بين كتاب ورسالة ، دخل اليمن بعد دعوته من بعض قبائل أهلها ، فكان أول من أدخل مذهب زيد بن علي بن الحسين إلى اليمن في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وقد لبى دعوته عدد من قبائل اليمن ووجوهها وأعيانها ، فمماحدثهم لئس أول دولة زيدية في بلاد العرب ، استمرت قائمة حوالي ألف عام ، وسأأتي بمشروته تعالى إلى الحديث عن دخوله اليمن عند ذكر الحلفيات المذهبية في الفقه كجزء من الحياة العلمية في الفصل السادس ، انظر ترجمته عند ربارة ، تحالف المهتدين بفكر الأئمة المجتدين ، مطبعة المقام الشريف ، صنعاء ، ١٣٤٣هـ - ، ص ٤٧ ، الزحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٢ ، ٥٥٣ ، العلوي ، سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ، تحقيق د. سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨١م ، ط ٢ ، ص ١٧ وما بعده ، المحلي ، الحقائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية ، تحقيق د. المرتضى المحطوري ، مطبوعات مكتبة مركز بدر العلمي والثقافي ، صنعاء ، ط ١ ، ٢٠٠٢م ، ج ٢ ، ص ٢٥ ، ابن مظهر ، لفرجعان المفتح لئمرات كمالهم البسمان ، مخطوط ، صورة عن نسخة بمكتبة أحد مشايخ قبيلة لرحب من آل السحيمي ، ص ٨٩ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، صان ، ط ١ ، ١٩٩٩م ، ص ١١٠٣ ، الهاروني ، الإفادة في تاريخ الأئمة السادة ، تحقيق إبراهيم المؤيدي وآخر ، مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية ، صنعاء ، ط ١ ، ٢٠٠١م ، ص ١٠١ .

(ت ٢٩٨هـ / ٩١٠م) حتى نهاية فترة الدراسة عند تحول العثمانيين عن عام (٩٤٥هـ / ١٥٣٨م) ، كما أن عدد ما ألفه علماء الزيدية في الرد على علماء الإسماعيلية^(١) لبيان فساد عقيدتهم وانحرافها سواء كان على شكل كتب كبيرة أو رسائل أو قصائد ، ذلك يفوق كثيراً ما كُتب من قبلهم للرد على أهل السنة ، الذين اتخذ خلافهم معهم - غالباً - صورة للصراع العسكري الدموي ، كثيراً ما كان سببه الحقيقي النزاع على مناطق النفوذ وإن كان الهدف المعلن هو جهاد الظلمة من الحكام . إذا جئنا إلى تفصيل ما مضى فإننا نجد أن الإمام الهادي قد قاد بنفسه صراعاً عسكرياً كبيراً ضد دولة الإسماعيلية الأولى أيام علي بن الفضل^(٢) ، وقيل أن وقائعهم معهم بلغت نيفاً وسبعين وقعة^(٣) ، وكان يرى أن قيامه بقتالهم فرض عليه وعلى أتباعه^(٤) ، وقام - كذلك - بكتابة رسالة بعنوان (بوار القرامطة)^(٥) ، وإن لم تصل

(١) كانت التسمية التي اعتمدها المؤلفون الريدون للدلالة على الإسماعيلية ومعتقديها هي الباطنية والباطنيون ، وقد وردت تسمية القرامطة أيضاً للإشارة إليهم خاصة في الرسائل الريدية القديمة .

(٢) هو علي بن الفضل الجعفي أصلاً ، الجيشاني موطئاً ، القرمطي مذهباً ، أحد اثنين أدخل مذهب الإسماعيلية إلى اليمن سنة ٢٦٨هـ / ٨٨٦م ، في بلاد يقع كانت دعوته إلى المذهب الإسماعيلي ، أظهر النقش والفروع لاستمال كثيراً من الناس إليه وشكل منهم مائة جيشه الذي أقام به دولته التي قصت على كثير من القوى على الساحة اليمنية ، ولم يمض إلا وقد اصطدم برمائله أنفسهم ، قتل مسموماً في مركز دولته المنصورة سنة ٣٠٣هـ / ٩١٥م ، انظر إدريس هاد الدين ، صيون الأخبار وقوت الآثار ، السبع الرابع ، تحقيق د. مصطفى غالب ، دار الأنس ، بيروت ، (د . ت) ، ص ٢٩٩ ، الجدي ، الملوك في طبقات العلماء والملوك ، تحقيق محمد علي الأكوخ ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، ط ١ ، ١٩٩٣م ، ج ١ ص ٢٠١ ، الحبشي ، تاريخ وصاله ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي ، مركز البحوث والدراسات اليمنية ، صنعاء ، ط ١ ، ١٩٧٩م ، ص ٢٣ ، الحمادي ، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، تحقيق محمد علي الأكوخ ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، ط ١ ، ١٩٩٤م ، ص ٨١ ، الحرجي ، العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من اليمن من الملوك ، صورته ورأى الإعلام والثقافة بالجمهورية العربية اليمنية ، دار الفكر ، دمشق ، ط ٢ ، ١٩٨١م ، ص ٢٨ ، ابن سمره ، طبقات فقهاء اليمن ، تحقيق فؤاد سيد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨١م ، ص ٧٥ ، المبني ، هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعمن ، تحقيق خالد الأترعي ، مكتبة الجيل الجديد ، صنعاء ، ط ١ ، ٢٠٠٤م ، ص ٧٤ ، الطوي ، سورة الهادي ، ص ٢٨٩ .

(٣) زيارة ، اتحاد المهتدين ، ص ٤٢ ، المحلي ، الحقائق الوردية ج ٢ ص ٤٨ ، الهاروني ، الإفادة ، ص ١٠٩ .

(٤) لمطي ، الحقائق الوردية ، ص ٤٨ .

إليها هذه الرسالة حتى نطلع على محتواها إلا أن أسلوب الإمام الهادي معروف لدى جميع الدارسين لفكره أنه كان رجلاً واسعاً للعلم ، يجادل معارضيه بالعقل والنقل ليلزمهم الحجة ويهز قوائم عقيدتهم بالتوازي مع نشاطه العملي المتمثل في استخدام سيفه .

لم يكن الإمام الهادي - من بين أئمة الزيدية - وحده هو من أسهم في الإنتاج العلمي الموجه في سياق التدافع بين المذاهب المختلفة في اليمن ، فها هو ولده الأكبر الإمام محمد المرتضى^(٢) (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) يقوم بكتابة ثلاث رسائل في هذا الباب هي (جواب ابن الفضل القرمطي) ، و (الرد على القرامطة أتباع علي بن الفضل)^(٣) ، و (الرد على الروافض)^(٤) ، لما أخوه الإمام الناصر أحمد بن الهادي يحيى^(٥) (ت ٣٢٥هـ / ٩٢٦م) فقد أمدتنا المصادر بأنه ألف كتباً ورسائل للرد على

(١) توجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١١٥ .

(٢) الإمام المرتضى لدين الله محمد بن الهادي يحيى ، عالم ، ورع ، تقى ، أخذ عن أبيه معظم علومه ، وشركه مسؤوليات تأسيس المذهب الزيدي ودولته باليمن ، لذلك أسر ، وبقي في الأسر مدة بيئت بسوس جنوب صنعاء ، وبإيمه الناس بعد موت أبيه ، واشترك في حرب القرامطة ، وتحلى عن الإمامة لأخيه أحمد الناصر ، اعتزل أمور الدولة وانقطع للعبادة بقية أيامه حتى مات سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م ، انظر ترجمته زيارة ، أئمة اليمن ، مطبعة الناصر الناصرية ، تعز ، ١٩٥٢م ، ج ١ ص ٥٢ ، انصاف المهتدين ، ص ٤٥ ، الزحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٢ ، ٦٣٥ ، المرشي ، بلوغ المرام في شرح مصك الفختم ، عناية الأب أنعماس الكرمل ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (د ، ت) ، ص ٣٢ ، ٣٢ ، المحلي ، الحدائق الزيدية ج ٢ ص ٨٠ ، ابن مظفر ، القرجمان ، ص ٩٧ ، الواسعي ، فرجة الهموم والحزن في هوائك وتاريخ اليمن ، مكتبة اليمن الكبرى ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٩٩١م ، ص ١٨٦ ، التوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠١٣ ، قهاروني ، الإفادة ، ص ١٣٣ .

(٣) لعل هذا العنوان والعنوان السابق هما لرسالة واحدة ، كتبت صياغتهما من قبل من نقلهما

(٤) زيارة ، أئمة اليمن ، ج ١ ص ٥٢ ، الشامي ، تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي ، دور النفوس ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٧م ، ج ١ ص ٢٧٤ ، توجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠١٤ .

(٥) هو الإمام الناصر لدين الله أحمد بن الهادي ، أحد أئمة الزيدية المشهورين باليمن ، كان عالماً مجتهداً ، عادلاً شجاعاً ، اجتمعت فيه شروط الإمامة الكبرى عن الزيدية فتولاها خلفاً لأخيه محمد المرتضى السابق ذكره ، وكان أحد أعضاء الحلف الذي شكلته القوى السياسية اليمنية فتجفع في القضاء على علي بن الفضل القرمطي ودولته في مطلع القرن الرابع الهجري ، انظر ترجمته وأخباره عند زيارة ، المرجع السابق ، ص ٦٠ ، انصاف المهتدين ، ص ٤٥ ، الزحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٢ ، ٦٤٣ ، الشامي ، تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي ، ج ١ ص ١٥٧ ، المرشي ، بلوغ المرام ، ص ٣٣ ، الكبسي ، اللطائف

بعض المذاهب - غير القرامطة الإسماعيلية - ولا ندري ما الذي دفعه إلى ذلك، هل وجد نفسه ملزماً بالرد عليها لقيامها بنشاط معين في نطاق المناطق التي يتواجد بها أتباعه ؟ لم أن هناك من ورد إليه ممن يعتقد بعقائدها فأراد الإمام استمالة من خلال نحض الحجج التي يبني عليها قناعاته ، من هذه الكتب نجد (كتاب الرد على القدرية) ، و (الرد على الأباطنية)^(١) ، ولوجود كتابه الأخير دلالة على أن الخوارج كان لهم وجود في أيامه في جهات الجبال من أرض اليمن ، ولعل ذلك ما حملته على القيام بالرد عليهم ، ولما كان حصر الإمامة في الفاطميين من أبناء الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام هي خلاصة مبدئها عند الزيدية ، وجواز قيامها في أي فرد من سائر الأمة هو المبدأ للمقابل لدى الخوارج بما فيهم الأباطنية ، فإن ذلك يجعلنا نرجح القول بأن كتاب (الرد على الأباطنية) ما هو إلا دفاع من الإمام الناصر عن عقيدته فيها ، وقيامه منه بأدلتها لإزاعهم .

إن حديثنا عن بعض صور التدافع العلمي الفكري بين رجال المذهب الرادي ونظرائهم في بقية المذاهب الأخرى في اليمن في القرنين الثالث والرابع الهجريين لا يعني أبداً أن هذا الأمر لم يكن إلا سمة من سمات تلك الحقبة المبكرة من فترة ظهور المذاهب الدينية على أرضها ، فما كان ذلك إلا المبتدأ الذي سار على منواله رجال هذه المذاهب في القرون التالية ، وسأحاول أن أستعرض نماذج محدودة في القرون التالية أثبت من خلالها أن هذا الأمر كان قائماً ومستمراً ، وأنه كان قاعدة لميلاد كثير من صور النشاط العلمي في فترة ما قبل القرنين التاسع والعاشر الهجريين^(٢) .

المنية في أخبار الممالك اليمنية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٨٤م ، ص ١٥ ، المحلى ، الحدائق الوردية ج ٢ ص ٨٨ ، المرتضى ، كتاب الجواهر والدرر في سيرة سيد البشر وأصحابه العشرة للفرع وعثرته الأئمة المنتخبين للزهر ، جزء من كتاب البحر الرخاير الجامع لمذاهب علماء الأمصار ، تصوير دار الحكمة اليمنية ، صنعاء ، ط ١ ، ١٩٨٨م ، ص ٢٢٩ ، ابن مظفر ، الترجمان ، ص ٩٧ ، الوسمي ، لرجة الهموم والحرز ، ص ١٨٧ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٢٠٢ ، الهاروني ، الإفادة ، ص ١٣٥ .

(٢) زيارة ، نفحة اليمن ، ج ١ ص ٦٠ ، المحلى ، الحدائق الوردية ، ج ٢ ص ٨٩ ، الوجيه ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٢) ومن الأمور التي يجب علينا التنبيه إليها أننا عند الاطلاع على عاوين ما صنّفه علماء اليمن في باب الردود على خصومهم ، والمناظرات مع أكرانهم أو معانديهم ، والرسائل بنوعها : المكتوبة للرد على رسائل مؤيد أو مخالف للمصنف في المذهب الفقهي أو الفكري ، أو تلك المكتوبة لتبيين مزاعم خصم --

قام الإمام المهدي الحسين بن القاسم العتباتي^(١) (ت ٤٠٤هـ / ١٠١٣م) بتأليف كتاب سماه (الرد على الملحدين وغيرهم من فرق الضالين) ، إننا وإن لم نجد الإشارة واضحة إلى مَنْ هم هؤلاء الذين أسماهم بالمُلاحدين ، إلا أن ما يُفهم من ذلك هو أنه قد بلغه أن أناساً قد قالوا أو كتبوا ما دفعه - أولاً - لكتابة الرد ولإطلاق هذه الصفة عليهم - ثانياً .

وله أيضاً كتاب (الرد على من أنكر الوحي بالمنام) ، وهو - كما يظهر من عنوانه - أنه مما يدور في إطار الجدل الفكري حول نقاط الفروع غير العقائدية.

— لو فحص حجج معاد ، نجد كل تلك الصاويين إما أن تنفيها بموضوعها وبمن كُتبت بسببه باسمه المشهور - كالكتب المذكورة آنفاً - أو أن تدل على موضوعها ضمنية من كُتبت بسببه باسم يجد كتبها أنه يدل عليه ، وغالباً ما تكون هذه التسميات حاملة لشحنة معنوية سلبية تعكس موقف كاتبها منه ، كتسمية أهل السنة بالقرية أو المشبهة أو الجبرية أو ما شابه ذلك من التسميات الموجودة في كتب الفرق والمذاهب ، وقد يختلف مدلول هذه التسميات عند هؤلاء المؤلفين والكتّاب اختلافاً كبيراً عما هو شائع عند جمهور المسلمين.

(١) هو الإمام المهدي الحسين بن القاسم العتباتي ، تولى إمامة الزيدية بعد وفاة أبيه عام (٣٩٣هـ / ١٠٠٣م) ، وفي هذه תקص نفوذ الزيدية كثيراً حتى انحصر في صعدة تقريباً ، وقع في صراع مع بعض علماء الزيدية ، وكانت عقيدته موضع شك وشبهة من كثير من الناس ، فقلل أنه ادعى أنه المهدي المنتظر ، وقيل أنه زعم أن كلامه الصحيح من القرآن ، وهناك من دافع عنه برغم أن التهم الموجهة إليه غير صحيحة ، نظر ترجمته عند زيارة ، أمة اليمن ، ج ١ ص ٨٣ ، تحالف للمهتدين ، ص ٥٠ ، الزحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٢ ص ٢٠٩ ، العرشي ، بلوغ المرام ، ص ٣٥ ، الكسي ، اللطائف الصنية ، ص ٢٤ ، السلي ، الحقائق الزيدية ج ٢ ص ١٢٠ ، المرتضى ، كتاب الجواهر والدرر ، ص ٢٣٠ ، الواسمي ، فرجة الهموم والحزن ، ص ١٩٠ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٣٨٤ ، وقد نقل الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان بعضاً من عقائده في كتاب (حقائق المعرفة) ، وكتاب (الحكمة القدسية) ، انظر للرسمي ، مسيرة الأمويين الجليلين الشريفيين الفاضلين ، تحقيق ودراسة رسول السيد وأخر ، دار المنتخب العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٣م ، ص ٣٤٥ ، ٣٥١ .

يروى مُسَلَّمُ النَّخْجِي^(١) في ترجمة عمرو القاضي^(٢) أن أباضياً يدعى موسى بن عيسى بن عبد الرحيم بن موسى بن هارون كان قاضياً ببلاد شَنْطَب^(٣) ، فدعا إلى نصه بالإمامة وطلب البيعة^(٤) ، وهو يومئذٍ أُوحد الأباضية علماً ورأياً وتبديراً ، وقد اجتمعت إليه قبائل كثيرة - على ما بينها من خصومات - إلى سوق محدد لعقد البيعة له ، فاغتم عمرو القاضي هذه الخصومات وفرق جمعها قبل انعقاد البيعة ، وقد قام بعد ذلك

(١) هو أبو الفهر مُسَلَّمُ بن محمد بن جعفر النَّخْجِي الشَّنْطَبِي (ت ٥٤٥هـ / ١١٥٠م) ، عالم ، فقيه ، مؤرخ ، نسابة ، زيدي ، يتبع الإمام الهادي يحيى بن الحسين في الفروع ، ويقول بمقائد المَطَرِيَّة في الأصول - سيأتي التعريف بها في الصفحات القادمة - لقد تلقاها سماعاً عن طريق شيخه إبراهيم بن أبي الهيثم عن المؤسس لها مطرب بن شهاب ، وكان يدالع عن المطرانية ويترجم لمطائبا ، وقد ترك لنا كتابه الشهير لُخيار الأئمة من أهل البيت وشيخهم باليمن ، وهو معروف عند المؤرخين بـ طبقات مُسَلَّمِ النَّخْجِي ، ومعظمه منقود ، اطلع عليه المؤرخ يحيى بن الحسين بن الإمام القاسم (ت ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م) ووصفه بما يدل على أنه مسلم اعتنى فيه بأخبار أعلام الزيدية عموماً والفرقة المطرانية خصوصاً ، ورتبه على خمس طبقات ، وقد فقد ظم يوجد منه سوى الجزء الرابع ، وهو من المصادر المعتمدة في هذه الدراسة ، انظر ترجمته عند ، يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية للصغير المعروف بالمستطاب ، صورة عن نسخة بمكتبة د. عبد الرحمن الشجاع ، صنعاء ، ص ١١٦ ، لوجه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٢٨ .

(٢) من رجال المَطَرِيَّة الزيدية في أواخر القرن الخامس الهجري ومطلع القرن السادس الهجري ، ذكره مسلم النَّخْجِي في الطبقة الثالثة ولم يحدد تاريخ وفاته ، انظر النَّخْجِي ، طبقات مُسَلَّمِ النَّخْجِي ، مخطوطة مصورة على قرص ليزر ، صادر عن مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، عمان ، ج ٤ ص ٢٨ .

(٣) شَنْطَب ، بفتحين ، جبل مشهور واسع ، فيه قرى ومزارع ، فوق مجرة السود المنسوبة إليه ، يقع في شمال الغربي من صنعاء ، يقع الآن - بإقليم - في نطاق محافظة عمران ، وكان أهلُه على رأي الخوارج الأباضية ، وصمهم يحيى بن الحسين بأنهم كلوا من أشد الناس بصداً لأهل البيت ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، تحقيق إسماعيل بن علي الأكوع ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، ط ٣ ، ٢٠٠٤م ، ج ٢ ص ٤٥٢ ، المُقْحَنِي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، دار الكلمة ، صنعاء ، المؤسسة الجامعية للدراسات ، بيروت ، ط ٤ ، ٢٠٠٢م ، ج ١ ص ٨٦٦ ، يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية الصغرى ، ص ٩١ .

(٤) النَّخْجِي ، طبقات مُسَلَّمِ النَّخْجِي ، ج ٤ ص ٣٠ .

أحد علماء الزيدية البارزين بدعوة وجوه الأباضية للمناظرة ، وبالفعل فقد عُدَّت
للمناظرة ببلد الأكهوم^(١) .

وقد كان للخلافات الفكرية والصكرية للباطنية مع بقية الفرق والمذاهب في
اليمن دور كبير في ظهور الكثير من المؤلفات - من كتب ورسائل - في سبيل تعريفها
لأمام عامة الناس والرد على عقائدها التي حازت على الإجماع بالرفض والكره من قبل
رجال وعلماء جميع الفرق والمذاهب ، وقد كان لأئمة الزيدية وعلمائها حصة الأسد في
القيام بكتابة هذه المؤلفات ، فهذا الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان^(٢)
(ت ٥٦٦هـ / ١١٧٠م) الذي كانت له وفعت كبيرة مع للباطنية الإسماعيلية من قبائل
هَمْدَان أُولم كانت زعامتهم بيد حاتم بن أحمد الليامي ، وقام بكتابة (الرسالة للمتوكلية
في هناك أَسْأَلُ الإسماعيلية) ، وقام الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة^(٣)

(١) منطقة تقع ضمن ما يسمى بمغارب صنعاء ، حيث وجدت الأباضية ، هي إحدى مراكز مديرية
(جبل عيال يزيد) التابعة لمحافظة عُمران ، المقضي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ٢ ص
١٩٠٧ .

(٢) هو الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان الحسني ، عالم ، زيدي ، تصفه الزيدية في مقدمة
مجتهدية ، دعا إلى نهضة عام ٥٣٢هـ / ١١٣٧م قبايعه كثير من سكان جبال اليمن ، واتسعت رقعة
حكمه حتى شملت صنعاء وزيد وصعدة وبحرلى ، وخطب له بالحجار ، كان له قلم سيال كثير التأليف ،
انظر ترجمته عند الحبشي ، حكاه اليمن المؤلفون ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٩م ، ص
٧٥ ، زبارة ، أئمة اليمن ، ج ١ ص ٩٥ ، اتحاد المهندسين ، ص ٥٥ ، ٥٦ ، الزحيف ، مآثر الأبرار
، ج ٢ ، ٧٤٨ ، الشامي ، تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي ، ج ١ ص ٤٥٤ ، الكبيسي ،
اللطائف السنوية ، ص ٤٧ ، المحلي ، الحقائق الوردية ج ٢ ص ٢١٩ - المرتضى ، كتاب الجواهر
والسر ، ص ٢٣٠ ، ابن مظهر ، الترجمان ، ص ١٢٣ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، تحقيق
عبد السلام عباس الوجيه ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، عمان ، ط ١ ، ٢٠٠١م ، ج ١ ص ١٣٢ ،
الولسي ، فرجة التهموم والحزن ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ ، فوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١١٤ .

(٣) هو الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة ، من أكابر أئمة الزيدية بآلهم علماء وفقهاء وأدباء ، ألزمه
علماء الزيدية في عصره بالتقويم بأمر الإمامة في سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، فخاص معارك كثيرة مع
سلطان آل حاتم الإسماعيليين ثم مع سلاطين الأيوبيين ، وقاد صراعاً فكرياً صاخباً مع فرقة
المُطَرَكِبِيَّة انتهت بقيامه بدمجته لهم في وقت ، ومازلت هذه الحادثة مثار جدل إلى اليوم ، وله عند
كثير من المؤلفات تنوع على الشائين ، انظر ترجمته عند الحبشي ، حكاه اليمن المؤلفون ، ص ٨٢ ،
زبارة ، أئمة اليمن ، ج ١ ص ١٠٨ ، اتحاد المهندسين ، ص ٥٧ ، الزحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٢ ،
٧٩٩ ، الشامي ، تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي ، ج ٣ ص ٣٧ ، الكبيسي ، اللطائف السنوية ،
ص ٥٧ ، المحلي ، الحقائق الوردية ج ٢ ص ٢٤٧ ، المرتضى ، كتاب الجواهر والسر ، ص ٢٣٠ ،

(ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) بالأمر نفسه فكتب (الرسالة النافعة بالأدلة القاطعة في تبیین الزيدية ومذاهبهم وذكر فضائل أمير المؤمنين والإجابة على الإمامية والباطنية والمطرية) ، ومن بعده يأتي الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة الحسيني^(١) (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) فيكتب (الإحكام لأفئدة الباطنية للطغام) ، و (مشكاة الأنوار الهائمة لقواعد الباطنية الأشرار) ، ليكون ممن أسهم في هذا الإطار .

ولم تكن الباطنية الإسماعيلية وحدها هي التي وُجِّهَتْ إليها الردود ، وكتبت لمراجعتها الكتب والرسائل ، فقد وجدت للمصنفات المكتوبة لمناقشة أفكار وآراء بعض المذاهب الأخرى كالأشعرية التي دحلت اليمن مع الأيوبيين^(٢) وقال بعقائدها كثير من رجال الشافعية ، وخاصة بزبيد، فهذا الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) يكتب (الرسالة الإمامية في الرد على المسائل للتهامية) ، وألف القاضي جعفر بن أحمد بن عبدالمسلم^(٣) (ت ٥٧٤هـ / ١١٧٦م) (الكشاف

ابن مطهر ، الترجمان ، ص ١٣٣ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٥٩٦ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ٥٧٨ .

(١) الإمام يحيى بن حمزة الحسيني ، أول أئمة الزيدية الحسينيين باليمن ، وأحد أعلام الفكر الإسلامي فيها ، إمام عالم ، مجتهد مفكر ، موسوعي بارع ، حار القبول لدى الزيدية وأهل السنة ، يوقع بالإمامة سنة ٧٢٩هـ / ١٣٢٨م ، باقح الباطنية بالسنن والقلم واللسان ، وصنع اثنين وستين مؤلفاً لنظر ترجمته عدد الحبشي ، هكلم اليمن للمؤلفون ، ص ١٢٣ ، زيارة ، أئمة اليمن ، ج ١ ص ٢٢٨ ، تحاف المهتدين ، ص ٦٥ ، الترجيف ، مآثر الأبرار ، ج ٢ ، ٩٧٢ ، لشرفي ، اللآلئ المضيئة في أخبار أئمة الزيدية لقسم الخاص بالأئمة المعاصرين لبني رسول ، تحقيق ودراسة سلوى علي المؤيد ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة صنعاء ، كلية الآداب ، ٢٠١٢ ، ص ٤١٤ ، أحمد محمود صبحي ، الزيدية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٩١م ، ص ٢٠٧ ، الإمام المجتهد يحيى بن حمزة وآرؤه الكلامية ، منشورات العصر الحديث ، ط ١ ، ١٩٩٠م ، ص ٢١ وما بعدها ، الكسبي ، القلطنية السنية ، ص ٩٧ ، المرتضى ، كتاب الجواهر والدرر ، ص ٢٣١ ، ابن المؤيد ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٢٢٤ ، الوجيه ، المرجع السابق ، ١١٢٤ .

(٢) يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية الصغرى ، ص ١١٣ .

(٣) هو القاضي جعفر بن أحمد بن عبدالمسلم البهلولي ، عالم ، متكلم ، زيدي ، بينما كان رجال أمرته من علماء الإسماعيلية ووجوهها بصحاء ، كان القاضي جعفر رأس حربة الزيدية في صراعه الفكري مع فرقة المطرية المنشققة عنها ، يُدَوِّنُ له فكر المعتزلة بالفصل في حفظ نراثته عندما نقل الأمهات من مصادرهم من العراق إلى اليمن قبل إتلافها على أيدي خصومه من جهة ومن قبل التتفر من جهة أخرى ، يُنسَبُ إليه - بسبب ذلك - أنه هو الذي دعم الارتباط بين الزيدية والمعتزلة ، وصيق من لجوات الفروق

للبياتر عن جهالات الأشاعر) ، ولحميد بن أحمد المحلي الشهير
بالشهيد^(١) (ت ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م) (الثعلبان للنفث بهلاك أهل المسفل الثالث - في
الرد على القدرية والأشعرية) .

وللرد على بعض المذاهب والفرق الأخرى ضمت كتب الببليوجرافيا مجموعة
من المؤلفات التي كتبها بعض علماء اليمن وأئمتة من الزيدية ، فمما ألف للرد على
بعض رجال العقيدة الحنبلية ما كتبه القاضي جعفر بن أحمد بن عبدالسلام (ت ٥٧٤ هـ /
١١٧٦ م) ، وأعني به كتابه (الدافع بالباطل نقض على بعض مشائخ الحنابل) ، وله
نفسه كتاب وجهه إلى بقايا الخوارج في مغارب صنعاء عندما تظهر عقائدهم في
الإمامة حين يقوم أحد رجال أهل البيت بالدعوة إلى نفسه إماماً ، فيعتصمون على بيعته
، فكان كتابه (إيانة المناهج في بصيحة الخوارج) جهداً منه في مناقشتهم فكرياً ،
ومحاولة منه لتغيير تلك القناعات التي يعتقدونها .

وكان للقدرية والجبرية نصيب كبير من المؤلفات التي أنشأها العلماء والأئمة
ضدهم في مراحل ما قبل فترة الدراسة - القرنين التاسع والعاشر الهجريين - وذلك أن
الزيدية خصوصاً اتهمها بأنها تصبغ الظلم الذي يجري على أيدي كثير من الحكام في
ديار الإسلام بصبغة شرعية من حلال عدم التحرك لإزالته والقول بأنه قد نزل الله على
الأمة ، مهما بلغ ظلم الحاكم وظهر بغى للوالي ، نجد في مقدمة الكستب التي ألف

بينهما ، انظر ترجمته عند الأكوخ ، هجر الظلم ومعاقبه في اليمن ، دار الفكر ، دمشق ، دار الفكر
للمعاصر ، بيروت ، ١٩٩٥ م ، ط ١ ، ج ٢ ص ٩٥٥ ، الجنداري ، الجامع الوجيز في وفيات الطمساء
أولي الثريز ، صورة عن نسخة بمكتبة محمد عبدالله الثرعي ، صنعاء ، ورقة ٢٨ - أ ، الزحيف ،
مآثر الأبرار ، ج ٢ ، ٧٧٠ ، لثامي ، تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي ، ج ١ ص ٥٣٨ ، ج
٢ ص ٢٥٤ ، بن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٢٧٣ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ،
٢٧٨ ، الوزير ، تاريخ بني الوزير ، صورة عن نسخة بمركز التراث والبحوث اليمني ، صنعاء ، ص
٢٢٨ .

(١) هو الفقيه حميد بن أحمد بن محمد التميمي الوادعي ، من كبار علماء الزيدية ، كان من المقربين لدى
الإمام عبدالله بن حمزة (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) ، ووقف بعده مؤيداً للإمام أحمد بن الحسين (ت ٦٥٦ هـ /
١٢٥٨ م) حتى قتل سنة (٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م) ، انظر ترجمته عند الجنداري ، الجامع الوجيز ،
ورقة ٨٣ - أ ، زيارة ، أئمة اليمن ، ج ١ ص ١٦٦ ، لثامي ، تاريخ اليمن الفكري في العصر
العباسي ، ج ٢ ص ٢٢٩ ، بن المؤيد ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٢١ ، الوجيه ، أصنام المرجع
السابق ، ٤٠٧ ، يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية الصغرى ، ص ١٤٩ .

لمناقشة بعض أفكار القدرية وآرائها كتاب (الرسالة الضامنة للواقعية بإقحام ناصر القدرية) للحسن بن محمد الرصاص^(١) (ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨ م) ، ولابنه أحمد بن الحسن الرصاص^(٢) (ت ٦٢١هـ / ١٢٢٤ م) (للجوابات المرضية من اعتراضات القدرية) ، وكذلك كتاب (مسائل على الجبرية) للشريف إدريس بن علي بن عبدالله الحمزي^(٣) (ت ٧١٤هـ / ١٣١٤ م) .

وقد دار داخل بعض المذاهب نفسها صراع فكري كبير كان - بصورة غير مباشرة - إثراء للحياة العلمية في اليمن ، فقد وصلت نتائج اجتهد بعض علماء الزيدية إلى حد ولادة أفكار لم تتفق مع أفكار وآراء جمهور الزيدية ؛ فظهرت الفرقة المسماة بالمُطَرِّقِية^(٤) ، ووقف كثير من أئمة الزيدية وعلمائها ورجالها أمام أفكارها ، مناقشة

(١) هو الحسن بن محمد بن أحمد بن محمد الرصاص ، عالم أصولي فقيه ، هو أشهر تلاميذ القاضي جعفر ابن عبدالسلام ، انظر ترجمته عند الجنداري ، الجامع الوجيز ، ورقة ٧٧ ، للشامي ، تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي ج ٣ ص ٢٩٠ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٢٣٣ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ٣٤٢ .

(٢) هو أحمد بن الحسن بن محمد الرصاص ، عالم فقيه ، أصولي متكلم ، تقلد على يديه ، ومثون كتبه في أصول الدين مما حفظها تلاميذ الزيدية إلى يوم الناس هذا ، انظر ترجمته عند الجنداري ، الجامع الوجيز ، ورقة ٧٩ ، للشامي ، تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي ، ج ٣ ص ٣٠٣ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ١٠٩ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٩١ .

(٣) هو عبدالله بن إدريس بن علي الحمزي النحوي ، أمير مؤرخ ، وعالم أدب ، أشهر علماء الزيدية الذين صلوا في البلاط الرسولي ، فكان له حظوة كبيرة لدى السلاطين المظفر يوسف (٦٤٧-٦٩١هـ / ١٢٤٩-١٢٩٤م) والأشرف عمر (٦٩٤-٦٩٦هـ / ١٢٩٤-١٢٩٦م) والسلاطين المؤيد داود (٦٩٦-٧٢١هـ / ١٢٩٦-١٣٢١م) وكتابه في فتاوي كنز الأخيار في معرفة السيرة والأخبار من المصادر الأولية الأساسية لدراسة التاريخ المبكر للدولة الرسولية ، د. شاكِر محمود عبدالمعزم ، الملك الأشرف النساني وكتابه المسجد المصبوك ، ملحق بكتاب المسجد المصبوك والجواهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك ، للملك الأشرف النساني إسماعيل بن العباس (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) ، دار البيان ، بغداد ، ١٩٧٥م ، ص ٨٦ ، ١٢٤ ، الجنداري ، الجامع الوجيز ، ورقة ٩٢-٩١ ، الخزرجي ، العقود القلوية في تاريخ الدولة الرسولية ، بحاية محمد يسوي عسل ، مطبعة الهلال ، القاهرة ، دار مصادر ، بيروت ، ١٩١١م ، (د ، ط) ، ج ١ ، ص ٢٢٤ ، ريلزة ، أئمة اليمن ، ج ١ ص ٢١٨ ، ملحق بقدر الطبع بمخلص من بعد القرن السابع ، القاهرة ، مصر ، ١٣٤٨هـ ، ص ٥٢ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٢٤١ .

(٤) فرقة زيدية ، أنصارها يتبعون الإمام الهادي يحيى بن الحسين (ت ٢٩٨هـ / ٩١٠م) في الخروج ، ويقولون أنهم هم شيعته الحقيقيون ، ويجعلونه في مقدمة علماء الإسلام ، بل إن بعضهم وُحِرِمَ مخالفته --

ومجادلةً ومناظرةً ، وكان ذلك مما لم يحدث كثيراً في المذاهب والفرق الأخرى ، في اليمن وغيرها ، وقد زادت حدة الخلاف الفكري إلى أن وصل الأمر إلى تحول هذه الأفكار إلى عقائد فلسفية ، وقد استمر الخلاف الفكري عدة قرون ، من أيام الإمام المهدي الحسين بن القاسم العياني (ت ٤٠٤هـ / ١٠١٣م) حتى قيام الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) بالهجوم عليهم وتشتيتهم ، وفي غضون

— ولكنهم في الأصول يشعرون المحترلين للطوائعيان أيا القاسم البلخي والجاحظ ، ظهرت هذه الفرقة في اليمن في منتصف للقرن الخامس الهجري كنتيجة للتقرب الفكري الكلامي الاعتزالي الذي ظهر ابتداء من بعد للقرن الثالث الهجري ، أحدث هذه الفرقة اسمها من اسم واحد من أشهر رجالها ، ولعله المؤسس لها ، إلا أن هناك من يقول أن عقائدها ظهرت قبله ، وكان له دور في بلورتها ومن ثم نشرها ، وهو مطرف بن شهاب بن عمر بن عبد العبادي الشهابي (تقريباً ت ١٦٣هـ / ١٠٧٠م) ، تميز رجالها بصبرهم على طلب العلم ونشر عقيدتهم ، أسسوا ما يسمى بهجرة وكش - سيأتي للتعريف بها - كمعهد ديني تنبعث منه علومهم ، فكان - بشكله الذي رسموه له - واحداً من أقدم معادل العلم في اليمن في تاريخها الإسلامي ، كانت تسمية الطبقية من مرادفات تسمية هذه الفرقة ، في حين أصبح جموع الزيدية التي لم توافقها في الأصول تسمى بالمختلعة ، وقد دار جدل فكري رهيب بين أقطاب الفرقتين الزيديتين ، أخذ صور المناظرات والرسائل والكتب ، ووصل الأمر نزوته في أيام الإمام المنصور عبدالله بن حمزة (٦١٤هـ / ١٢١٧م) ، حيث صدرت الأحكام والفتاوى بكفرهم ووجوب إبادتهم واستباحة ديارهم وأموالهم وأعراضهم ، وحرق كتبهم وطعن معلم فكرهم ، وهو ما حدث بالفعل سنة (٦١٣هـ / ١٢١٦م) ، فلم يبق مما يدل على فكرهم إلا كتاب أخبار الأئمة من أهل البيت وشيعتهم باليمن ، وهو معروف عند المؤرخين بـ طبقات مُسَلَّمُ الأخوي ، قام كاتبه مُسَلَّمُ الأخوي فيه بالدفاع عن المطرانية والترجمة لعلمائها ، وهو مفقود عدا الجزء الرابع منه ، وكذلك كتاب البرهان للرائق المخلص من ورط المضائق ، لسليمان بن أحمد المحلي المطرفي ، وهو يتناول أصول الدين عند المطرانية ، وقد بدأ بـ كُفْرُ المطرانية كما باد أهلها وفكرهم حتى بدأ بعض الباحثين بالتنبه إليه والكتابة حوله ، مثل د. محمد عيسى الحريري، تطور المذهب الزيدي في اليمن - قطعة منتزعة من كتاب شفاء صدور الناس لأحمد بن محمد بن صلاح اللشرفي ، عالم الكتب ، ط ١ ، ١٩٩٨م ، بيروت ، ص ٦٦ - ٧٠ ، علي محمد زيد ، تيارات محترلة اليمن في القرن السادس الهجري ، المركز الفرنسي للدراسات اليمنية ، صنعاء ، ط ١٠ ، ١٩٩٧م ، ص ١٥٦ وما بعدها ، الثاني ، تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي ، ج ٣ ص ٨٣ ، د. عبدالله محمود عبدالمعطي ، الصراع الفكري في اليمن بين الزيدية والمطرانية ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية الاجتماعية ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٢م ، ص ٩ وما بعدها ، فوزير ، تاريخ بني الوثير ، ص ٢٠٢ وما بعده ، زيد الورير ، حوار عن المطرانية ، مركز التراث والبحوث اليمني ، صنعاء ، ط ١ ، ٢٠٠٢م ، ص ١٨ ، يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية الصغرى ، ص ٧٦ ، ٧٧ ، حسن محمد زيد ، محنة المطرانية وشيخ الإسلام العمري ، مجلة المسار ، مركز التراث والبحوث اليمني ، العددان (١١) و (١٢) ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م ، ص ١٢٣ - ١٤١ .

هذه الفترة عقدت الكثير من المناظرات^(١) كذلك التي دارت بين عبدالله بن القاسم البشاري ومطرف بن شهاب^(٢) عندما قام بزيارة وقش^(٣) ، وكذلك جهود القاضي جعفر ابن عبدالسلام^(٤) (ت ٥٧٤هـ / ١١٧٦م) - الذي كان في أول أمره معهم - ولم يتمكن الطرفان من الاتفاق على كلمة سواء بينهم .

وقد تركت لنا تلك الخلاقات الفكرية ثروة لا بأس بها من النتاج العلمي المكتوب، نجد من أهمها ما كتبه الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان (ت ٥٦٦هـ / ١١٧٠م) ، فقد كتب (الهشمة لألف الضلال من مذاهب المطرفية الجاهل) ، وللقاضي جعفر بن عبد السلام (ت ٥٧٤هـ / ١١٧٦م) (أركان القواعد في الرد على المطرفية) ، و (تقويم المائل وتعليم الجاهل في الرد على المطرفية) ، وكان القاضي عبدالله بن زيد العنسي^(٥) (ت ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م) من أشد رجال الزيدية على المطرفية ، وفي عناوين مؤلفاته عنهم من الحدة ما تعكس موقفه الشديد لإراءهم ، فله (التمييز بين الإسلام والمطرفية للطفام) ، وكذلك (الرسالة النافعية المصارحة للكفار

(١) اللخبي ، طبقات مُتَمِّم اللخبي ، ج ٤ ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) هو مُطَرِّف بن شهاب بن عمر بن عباد الهادي الشهابي (تقريباً ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) ، عالم ، فقيه ، راقد ، متكلم ، هنوي ، نسبت إليه المطرفية ، لم يدرَ جدل فكري في اليمن حول فرقة محيية ، ولم يشغل بال الباحثين في الفلسفة الإسلامية باليمن رجلٌ كما شغلهم مطرفٌ هذا وفرقته ، ولئن كتب قد نسبنا حقبة من الزمن كما أسلفت ، لنظر ترجمته في المصادر السابقة عن فرقته ، فلم نجد له ترجمة منفصلة .

(٣) سوانتي التعريف بها عند الحديث عن القرى والهجر العمية باليمن .

(٤) زيد الوزير ، حوار حول المطرفية ، ص ١٨ .

(٥) هو القاضي عبدالله بن زيد بن أبي الخير العنسي ، من فقهاء الزيدية ومجتهديها وأصولييها الكبار ، وكان من أكثر الزيدية المجترعة شدة على المطرفية كما يتضح من قائمة كتبه التي ألقاها ، كما كان من كبار حاشية الإمام المهدي أبو طير (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) وبعد مقتله ركبته ديون كثير ألجأته إلى التوسل على أبواب السلطان المظفر الرسومي (٦٤٧-٦٩٦هـ / ١٢٤٩-١٢٩٤م) الذي لم يُضَهِه ما كان يؤمله ، فعاد إلى منطقة كحلان من مخارب صنعاء وقضى فيها بقية عمره ، الأكوخ ، هجر الطعم ، ج ٤ ص ١٨١٠ ، الجنداري ، الجامع الوجيز ، ورقة ٨٦-ب ، رسالة ، أئمة السيمن ، ج ١ ص ١٨٩ ، الشامي ، تاريخ اليمن اللكري في العصر العباسي ، ج ٣ ص ٣٠٨ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٦١١ ، الرجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ٥٨٩ ، يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية الصغرى ، ص ١٦٣ .

من المطرفية الأشرار) ، و أيضاً (الرسالة المنقذة من العطب المسالكة بالنصيحة إلى أهل شطب)^(١) .

وقد يقول قائل أن أغلب ما أشرت إليه هنا معظمه - إن لم يقال كله - من إسهامات علماء الزيدية على وجه الخصوص ، فهل تفسير ذلك أن هذا الوضع هو صورة حقيقية لما كان عليه الأمر آنذاك ، أو بعبارة أخرى أن علماء بقية المذاهب لم يتصدروا للرد على الرسائل التي وجهها إليهم أئمة الزيدية وعلمائها ، أقول : إن استعراض عناوين ما سبقت الإشارة إليه من الرسائل والكتب تتضمن الإشارة إلى أن هذه الكتب والرسائل في أغلبها ردود على أتباع هذه المذاهب الأخرى ، فكلية (رد) و (للرد) كانت واردة في كثير من العناوين السابقة الذكر ، فهل كانت هذه ردوداً على تساؤلات مفترضة ، أم مناقشات لعقائد وأفكار حوتها أوراق موجهة - قصداً - إلى كاتبها هذه الردود ، وكلا الأمرين ممكن ، فأرجح أن تلك الرسائل والكتب إنما صدرت عن أصحابها كرد فعل طبيعي نتيجة للفعل الأصلي المتمثل في مخاطبتهم برسائل مماثلة ، مكتوبة أو شفهية .

ومما يؤسف له أن مصادر المذاهب الأخرى لم تسعفنا بنكر مثل هذه الكتابات المتوقعة أنها كتبت ووجهت إلى علماء الزيدية ، في حين أننا نجد مثل هذه الإشارات - وإن قلت - بين ثنايا المصادر الزيدية نفسها ، فقد أورد إبراهيم بن القاسم بن المؤيد^(٢) (ت ١١٥٢هـ / ١٧٣٩م) في ترجمته لأحمد صلاح بن إبراهيم بن تاج الدين (ت ٧١٠هـ / ١٣١٠م) إشارة^(٣) إلى أن الإسماعيلية قد كتبت رسائل مماثلة إلى أئمة

(١) كان أهل شطب يومذاك من المطرفية .

(٢) هو إبراهيم بن القاسم بن الإمام المؤيد محمد بن الإمام المنصور القاسم ، عالم ، حافظ ، مسند ، من وجوه الزيدية اليمنيين في القرن الثاني عشر الهجري ، وهو أشهر علماء نقد الرجال عند الزيدية ، ظهر تمكنه من هذا العلم من مؤلفه المهم لكل الباحثين في تاريخ اليمن المسمى " طبقات الزيدية الكبرى " فظهر ترجمته عند الشوكاني ، البدر الطالع بمصابين من بعد القرن التاسع ، تحقيق د. حسين العمري ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط ١ ، ص ٤٣ ، رابعة ، نشر الحرف لنفلاء اليمن بعد الألف ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، (د ، ت) ، ج ١ ص ٥٨ ، د. حسين العمري ، سيد د. ليمس فولد ، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، المعهد الفرنسي الأثار والدراسات الشرقية ، القاهرة ، ١٩٧٤م ، ص ٢٦٨ .

(٣) طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٥٠٦ ، وقد نقلها بدوره عن الزحيف ، مآثر الأشرار ، ج ٢ ، ص

لزيدية ، فقال إن الإمام المطهر بن يحيى^(١) (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م) قد أُلْمِر المترجم له بأن يجيب على الباطنية الإسماعيلية في رسالتهم للمعنونة بـ (الرسالة القاسية) .

وكان للفكر الاعتزالي مكانته في اليمن ، بل كان له الدور الكبير في إنكفاء الجدل الكلامي والانغماس في المناقشات حول أصول الدين ، أي أن اليمن شهدت صورة مصغرة لما كان عليه الوضع في أيام الملمون وخلفائه من العباسيين المعتزلة ، مع التأكيد على منمىة الجدل في اليمن وبرامته من مصاحبة الإكراه الذي مارسه بعض الخلفاء للعباسيين في القصة المعروفة ، ومَرَدُّ هذا الدور هو أن للفكر الزيدي - والهادوي منه على وجه الخصوص - يعد مشابهاً للفكر الاعتزالي بسبب التوافق الكبير بينهما في أصول الدين ، وذلك لا يعني أن جميع رجال الزيدية كانوا يَكُونُونَ الاحترام لفكر المعتزلة ، فقد كان ثمة من خالفها ، ووصل به الحد في خلافه لها أن ألف رسائل تعكس موقفه منها ، سواء كان الموقف منها محصوراً في موقفها من الإمامة فحسب أم شاملاً لكل الروى الاعتزالية ، وفي مقدمة هؤلاء نجد العلامة حُمَيْدَان بن يحيى حُمَيْدَان^(٢) (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) الذي نقل عنه الباحثون مقولته الشهيرة : " وافقناهم - أي المعتزلة - في الأصول ، ولم يوافقونا في الإمامة ، فعلم الاتفاق ؟ " (٣) ، وقد تضمن كتاب (حكاية الأقوال العاصمة من الاعتزال) موقف العلامة حُمَيْدَان من المعتزلة ، وقد نسبت إليه رسالة أخرى بعنوان (للردود المزلزلة لأعضاء المعتزلة) ،

(١) هو الإمام المتوكل على الله المطهر بن يحيى ، من أكبر أئمة الزيدية باليمن فصاحةً وعلماً وفقهاً ، استظم بالدولة الرسولية أيام مجده وازدهارها فكانت له وقائع كثيرة معها ، وغدت بينه وبين الرسولين مصائدات الصلح ، انظر ترجمته عند بروكلمان ، الأقبيات اليمنية في المكتبات والمراكز الثقافية العالمية ، ترجمة صالح بن الشيخ أبوبكر ، مركز الدراسات والبحوث اليمنى ، صنعاء ، ط ١ ، ١٩٨٥م ، ص ٦٤ ، الحبشي ، حكام اليمن المؤلفون ، ص ١٢٠ ، زيارة ، أئمة اليمن ، ج ١ ص ١٩٧ ، اتصاف المهتدين ، ص ٦٣ ، الرحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٢ ، ص ٩٢٣ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ١١٣٧ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٤٢ .

(٢) هو حميدان بن حميد بن القاسم ، من علماء المذهب الزيدي المبرزين في القرن السابع ، كان بليغاً متكلماً ، وكان من المؤيدين للإمام المهدي أحمد بن الحسين السابقة ترجمته ، توفي في هجرة الظهوريين قرب سودة شطب ، انظر ترجمته عند الشامي ، تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي . ج ٣ ص ٣٠٦ ، أحمد محمود صبحي ، الزيدية ، ص ٣١٥ ، ابن المؤيد ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٤١٢ ، الوجيه ، المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٣) أحمد محمود صبحي ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

وإن وُجدَ من نسبها إلى الإمام المطهر بن يحيى^(١) ، ولم أتمكن من الاطلاع عليها لكي أثبت من ذلك .

واللافت للانتباه في هذا الباب هو ندرة النشاط العلمي السني في اليمن المقابل للفكر الاعترالي ، ففي حين اهتمت الزيدية به ، واستقنمت أمهات مصادر من العراق وبلاد فارس^(٢) ، وحافظت على تراثه المكتوب ، نجد أن أتباع المذاهب السنية لم تحفل به ، ومن النادر أن تجد إشارة تذكر مصنفات أهلها هؤلاء في الرد على محبي الفكر الاعترالي على ساحتهم اليمنية^(٣) ، فالكتبان الوحيدان اللذان جاءت الإشارة إليهما من تصنيف علماء السنة هما : كتاب (الحروف السبعة) للإمام أبي عبدالله الحسين بن جعفر بن محمد المراغي المصري^(٤) الذي استوطن اليمن ، فقد وصف الجندي^(٥) محتواه بأن مؤلفه " صممه الرد على المعتزلة ... " ، وكذلك كتاب (الانتصار في الرد على القدرية الأشرار)^(٦) للإمام يحيى بن أبي الخير العمراني ، وهو الذي بالغ فيه في الرد على المعتزلة والأشعرية^(٧) .

والمصادر التاريخية التي ترجمت لرجال مذاهب السنة في اليمن تنقل إلينا العبارات الصريحة المعبرة عن كراهيتهم الخوض في علم الكلام ، من ذلك أن الإمام المحدث علي بن أبي بكر العرشي الشافعي (ت ٥٥٧ هـ / ١١٦١ م) " كان يكره الخوض في علم الكلام " ، وكذلك كان الإمام يحيى بن أبي الخير العمراني الشافعي

(١) بروكلمان ، الأئمة اليمنية ، ص ٦٤ .

(٢) انظر مصادر ترجمة القاضي جعفر بن أحمد بن عبدالسلام السابقة للذكر .

(٣) اللهم إلا إذا وصفنا ما كتبه أئمة الزيدية وعلماءها في الرد على المذاهب الأخرى من قدرية وجبرية وغيرها بأنه نتاج للفكر الزيدي ذي الصبغة الاعترالية فإني إذاً لقي على رأيي السابق بأن هناك دفاعاً صدر عن رجال هذه المذاهب ، وهو الذي - بدوره - ولّد هذه الردود .

(٤) سيأتي الحديث عنه وعن دخوله اليمن واستيطانه لها تحت عنوان الرحلات العلمية من هذا الفصل .

(٥) السلوكة ، ج ١ ص ٢٣٢ .

(٦) مصطلح القدرية في هذا الحول يقصد به صاحبه - وهو من الشافعية - المعتزلة ومن يقول قولهم في الأصول ، بينما نجد للمصطلح ذاته يرد في عناوين كتب الزيدية والمتصود به غالباً هم أهل السنة ، ومراعاة منطلقات هذه المصطلحات عند مستخدميه من رجال المذاهب في ليس أمر مهم ، وهو ما سبق أن لكت عليه في بداية هذا الفصل .

(٧) الجندي ، السلوكة ، ج ١ ص ٢٩٧ .

(ت ٥٥٨هـ / ١١٦٢م) " لا يعجبه ذلك - أي المناظرات في الأصول والمعتقدات - ولا يكاد يخوض بعظم الكلام ، ولا يرتضي لأصحابه من ذلك " (١) .

ولما ظهرت بدع التصوف في اليمن فنبى العلماء لمواجهتها ، وبذلوا كل جهودهم في تعريف الناس بمجانباتها لطريق الصواب ، واتخذت جهودهم أشكالاً عدة ، منها إصدار الفتاوى وإلقاء المواعظ ، وإقامة حلقات للدروس والمناظرات ، وكتابة الرسائل وتأليف الكتب ، ومن أمثلة ذلك كتاب (نصيحة المكلفين ونصيحة المتكلمين) (٢) للفتية العلامة محمد بن موسى الذوالي (ت ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م) ، الذي قيل عنه أنه أول للجهود التأليفية للإنكار على صوفاة اليمن ، إذ أن جهودهم قبل ذلك كانت محصورة في الأشكال السابقة من المناقشات والجدل الكلامي (٣) ، وقد وجدت أن أول عنوان يعني في الرد على الصوفاة عموماً كتبه الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة الحسيني (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) بعنوان (عقد اللاكي في الرد على أبي حامد الغزالي) ، ونكر صاحب أعلام المؤلفين الزيدية (٤) أنه رد على الغزالي في مسألة إباحته للسمع (٥) ، وقد كثرت الردود على المتصوفة في القرن التاسع الهجري نظراً لازدياد أعدادهم وانتشار فكرهم ، ولتولي بعض رجالهم مناصب كبيرة في الدولة للرسولية كما سنبينه - إن شاء الله - تعالى في الفصول التالية .

(١) الجدي ، الملوك ، ج ١ ص ٢٩٦ ، ٣٠٤ .

(٢) الحبشي ، الصوفاة والفتكاه في اليمن ، مكتبة الجيل الجديد ، صنعاء ، ١٩٧٦م ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحات .

(٤) لوجه ، ص ١١٢٩ .

(٥) السماع : تجمعات الصوفاة ، تتلى خلالها الأناكش والأوراد بصوت عال ، وقد تستمد خلاله القصائد المنظومة ، يصحبها آلات الطهر كالنصف والناي والعود ، وقد تحول إلى غناء ورقص ، انظر المرجع السابق ، ص ٣١ ، ٣٢ .

◻ الرحلات العلمية للعلماء وطلبه العلم :

لما كانت آيات القرآن الكريم ونصوص السنة النبوية الصحيحة تصرح - بما لا يدع أي مجال لأي تفسيرات - بالزامية التعلّم وفرضية السعي في سبيل تحصيله^(١) ، وقسمة للخروج في طلبه ، وسمو بذل الجهد في طريق تحقيق القدر الكبير منه ، انبرت جموع من المسلمين لتحقيق ذلك بطرق شتى ، فكانت الرحلة لطلب العلم أشهر هذه الطرق وأكثرها شيوعاً ، ومرجع الرحلة في طلب العلم منبثق من فهم المسلمين لقول الحق جل وعلا : وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْتَفِرُوا كَأَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ^(٢)

ومن منطلق استيعابهم للحديث النبوي الصحيح القائل : " من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة "^(٣) ، وإن كان الخروج لطلب العلم لا يقتضي مفارقة الرجل لبلاده الذي يسكن فيه وأهله ، فالقصد هنا ليس الخروج بحد ذاته ، بل السعي للجلوس إلى العلماء المبرزين للأخذ عنهم قربوا أم بعدوا ، سواء كانوا في بلد الرجل أم في غيرها .

(١) يختلف الإلزام والعرضية في جواب ، فكل مسلم ملزم بالتعلم بمقتضى الحديث المشهور " طلب العلم فرضة على كل مسلم " ولعل المقصود هنا تعلّم كل ما هو من الدين بالصورة ، أي - بكلمات أخرى - تعلم أصول الدين وكيفية أداء المناسك التعبدية التي لا يتم إسلام المرء وإيمانه إلا بها ، وطلب هذا القدر من العلم فريضة غنّ على كل مسلم مكلف عاقل ، وفي العلم أمور يدخل تعلّمها في إطار ما يسموه الفقهاء بـ " فرض الكفاية " تظل الأمة ملزمة به ما لم تنحصر طائفة منها للقيام به ، وهذا المعنى الأخير هو الذي تشير إليه الآية الكريمة : وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْتَفِرُوا كَأَافَةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ^(٤) (سورة التوبة) وهذه الطائفة هي المنتدبة للقيام بمهمة تعليم باقي الأمة للقدر المفروض طلبها من التعلم.

(٢) سورة التوبة .

(٣) الترمذي ، سنن الترمذي ، تحقيق أحمد محمد شاكر وأخري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ج ٥ ص ٤٨ ، رقم (٢٦٨٢) ، باب (ما جاء في فضل لفقّه على العبادة) ، ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، ج ١ ص ٨١ ، رقم (٢٢٣) ، باب (فضل العلماء والحث على طلب العلم) ، أبو داود ، سنن أبي داود ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحسين ، دار الفكر ، بيروت ، (د ، ت) ، ج ٣ ص ٣١٧ ، رقم (٣٦٤١) ، باب (الحث على طلب العلم) .

وقد استوعب المسلمون الأوائل من التابعين الأمر ، وأنزلوه منزلته من الأهمية ، فلنطلقوا دون تقاعس أو كسل ، مشغرين عن سواعد الجسد في تحصيل العلوم ، وارتحلوا إلى مناطق نائية من دار الإسلام سعياً وراء العلم والمعرفة ، ضاربين صفحاً عن المثبطات المعترضة لطريقهم من مشقة وجهد وعناء ونفقة ، ذلك في عهد كان للسفر فيه شاقاً والرحلات مجهدة ، يكتنفها الكثير من المخاطر والعوائق^(١) ، ولم تكن عزمهم هذه الأمور ، بل كانت همّهم عالية ، لارتفعت بهم لتخطي الصعاب والمخاطر ، وخرجوا فرادى وجماعات ، يسمعون بعزم وقوة ومثابرة فائقة^(٢) ، فجعلوا الرحلة في طلب العلم سمةً من سمات التعليم ، وسنةً من سنتهم لخلفهم ، وإن كن موضوعها عندهم محصوراً في طلب الحديث النبوي الشريف ، وجمع رواياته ، فقد جابوا الأمصار التي اقام بها الصحابة لسماعه وتلقيه عنهم ، حتى قال قائلهم : " إن كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الولد "^(٣) .

وقد شاع مفهوم الرحلة في طلب العلم بين المسلمين عامتهم وخاصتهم في القرون التالية حتى تشكلت القناعة النهائية لدى الجميع أنه " لم يبلغ العلم من لم يخرج مسافراً في طلبه " ، بل أصبحت من التقاليد العلمية والتعليمية المهمة عند طلبة العلم أنفسهم^(٤) ، وكما كانت هذه القناعة شاملةً لغات المجتمع المسلم فقد كانت - كذلك - شاملةً لجميع رقعته الجغرافية بالرغم من تعدد وجهاته السياسية وتنوع خلفياته المذهبية، وإن كان هناك من تأثر للسياسة والمذهب في الرحلة لطلب العلم فهو محصور في تحديد الوجهة التي يَتِمُّ الطالب وجهه إليها .

(١) علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في نعر ، ص ٣٠٤ ، د. مريد عسيري ، الحياة العلمية في العراق في العصر العباسي ، مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٩٨٧م ، ص ٢٤٤ .

(٢) د. أحمد شلبي ، التربية الإسلامية ، نظمها - فلسفتها - تاريخها ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٦ ، ١٩٧٨م ، ص ٣١٨ .

(٣) ابن عبد البر ، جامع بيان العلم وفضله ، تحقيق أبي الأئبال الزهيري ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، ط ١ ، ١٩٩٤م ، ج ١ ص ٣٩٦ .

(٤) عبدالله فاضل ، تاريخ التربية عند الإمامية وأسلطهم من الشيعة ، مطبعة أسعد ، بغداد ، ١٩٧٢م ، ص ٢٠٠ .

وكان لرسوخ القناعة بأهمية الرحلة في طالب العلم لدى اليمنيين دوره الكبير في خروج عدد كبير من أبرز علماء المذاهب المختلفة في اليمن ، فقد سارعوا إلى القيام بالرحلات العلمية ، وسعوا وراء تنويع المعرفة عندهم أينما كانت ، غير مباليين بما يعترضهم من المشقة والعناء في سبيل الحصول عليها^(١) ، وجابوا أشهر مراكز العلم في دار الإسلام ، وجلسوا إلى علمائها ، وأخذوا من كل شيخ خير ما عنده علماً وأسلوباً ، وقضى بعضهم سنوات عديدة في التقى والأخذ عن الشيوخ ، فلما عادوا إلى اليمن بعد رحلة طويلة وغيبة مديدة عادوا وهم أكثر علماً ، ولوسع أفقاً ، وأغزر معرفة ، إضافة إلى ما حملوه معهم من التصانيف المفيدة ، وضروب من التأليف النفيسة التي جمعوها خلال رحلاتهم ، وتجمّع الطلبة حولهم طالبين لأخذ عنهم ، فتصدوا لتدريسهم ونفعهم ، وظهر تأثيرهم واضحاً في ميدان العلوم عامة ، والعلوم الشرعية بشكل خاص ، وأسهموا في بيان ورسم صورة اليمن وكيانها العلمي والحضاري مساهمة فعالة^(٢) ، فذاع صيت عدد منهم في الأقطار ؛ فجعلنا نلاحظ أن اليمن - بسببهم - كانت متجهاً لطلبة العلم من غير اليمنيين أيضاً.

وقد جرت عادة طلبة العلم اليمنيين أن يبدعوا بالأخذ عن شيوخ بلدانهم التي يعيشون فيها داخل اليمن ، ثم يرتحلون للأخذ عن المبرزين من علماء اليمن في المدن والمراكز العلمية الأخرى ، فلما يحصون بالتشبع من علومهم ، تنوq أنفسهم للاستزادة فوق ما تعلموه ، وترتقوا نفوسهم للتعمق في دراسة ما أحاطوا به من العلوم التي أجادوها ، فلا يجدون بُغيَتهم ومُتَنفسهم في تحقيق ذلك وبلوغه إلا بالرحلة والسعي على طريقة مشائخهم ، عندها يكون قرارهم بمغادرة اليمن لمُتدٍ غير محصورة بسنين محددة ، إنما يحددها بلوغ الهدف الذي خرجوا من أجله .

وكانت - حينئذٍ - للخلفية المذهبية والفكرية لطلّاب العلم هي التي تجعله يختار البلد والوجهة التي يتجه إليها ، ولتفرع العلم الذي يود الطالب التعمق في أخذه دوره

(١) علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في نجر ، ص ٣٠٧ .

(٢) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، تحقيق عبدالله محمد الحشبي ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٩٩٤م ، ص ١٠٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣٩ ، الجندي ، الملوك ، ج ٢ ص ٤٠٠ ، د. أحمد الخيمي ، أعلام مدرسة الحديث في اليمن وجهودهم في حفظ السنة ، مجلة الآداب ، جامعة الإمارات ، العدد ٥ ، ١٩٨٩م ، ص ٧١ - ٨٦ ، العاسي ، العقد الثمين في أخبار البلد الثمين ، تحقيق فؤاد سيد وآخر ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٥م ، ج ٦ ص ١٢٤ .

كذلك في تحديد بلد الشيخ الذي يهدف للفتاه والأخذ عنه ، فكان طلبة الحديث والعلوم الشرعية من المذاهب السنية في اليمن يتجهون صوب الحجاز عموماً ومكة على وجه الخصوص ، وكذلك كانت مصر والشام والعراق من البلدان التي قصدها ، أما طلبة العلم من أبناء الشيعة اليمنيين - سواء الزيدية أو الإسماعيلية - فكانت مصر والعراق وبلاد فارس والديلم وجبلان وجهتهم ، وذلك لا يعني عدم دخولهم مكة والجلوس إلى علماءها ، فقد برز عدد من أبناء الشيعة الزيدية في علوم الحديث النبوي إلى حد التفوق على بعض أقرانهم من طلبة العلم من أبناء المذاهب السنية الأخرى ، وعلى أيدي المشايخ أنفسهم ، وهذا ما سيتضح لنا هنا وفي الفصول القادمة .

ولتسهيل تناول الموضوع سأقسمه إلى عنوانين ثلاثة ، أتناول الرحلة العلمية الداخلية لطلبة العلم في اليمن أولاً ، ثم الرحلات العلمية الخارجية لهم ثانياً ، وأعطى - ثالثاً - بذكر شيء من الرحلات العلمية لطلبة العلم من غير اليمنيين إلى اليمن .

أولاً: الرحلات العلمية الداخلية:

زخرت المصادر التاريخية اليمنية التي قُدر لنا الاطلاع عليها بالمعلومات الكثيرة عن الرحلات العلمية الداخلية لطلبة العلم في اليمن ، ولو قُمت بعمل إحصائية رياضية لحصر من خرج منهم من بلده طالباً للعلم في مراكزه داخل اليمن لفاقت النسبة في ذلك ٩٥% ، وما ذلك إلا انعكاس لما أسلفت الإشارة إليه أن الرحلة كانت هي العرف السائد والتقليد المتبع لديهم ، كما كان لدى غيرهم من طلبة العلم في بقية أقطار العالم الإسلامي .

ومن الواضح أن الرحلات العلمية كان لها دور كبير في المحافظة على بقاء الأجيال المسلمة في توفيق علمي وفكري كبيرين على الرغم من تباعد بلدانهم ، ووجود الفواصل الجغرافية الكبيرة من حلال وسهول شاسعة فيما بينهم ، وذلك نظراً لسهولة المعارف والعلوم - في مراحل الطلب - من مصادر واحدة على أيدي العلماء أنفسهم ، فقد وُجد في حلقات المبرزين من العلماء طلاباً من جميع مناطق اليمن^(١) ، نشأوا سوياً، وثرقوا في العلوم يدأ بيد ، فكانوا أشبه ما يكونون بنسخ متقاربة لا يختلف بعضها عن بعض إلا بمستوى الاختلاف في قدرات الفهم والاستيعاب عند الفرد عن زميله ،

(١) ذكر الجندي ، للملوك ، ج ١ ص ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، أن زيد اليعاني - سنكتي ترجمته - كان له طلاب بحاضرة الجند من جميع مناطق اليمن ، من بينها عدن وأبين ولحج وتهامة وحصرموت ، وقد بلغ عدد طلابه ثلاثمائة ، وهذا الرقم في عهد لم يكن فيه التعليم العام قائماً بعد من الأعداد الكبيرة جداً .

وهؤلاء الطلاب أنفسهم عادوا إلى بلدانهم ليصبحوا فيها المشائخ والمدرسين ، وليسهموا في بناء أجيال أخرى.

وبعد مسح شامل - تقريباً - لما تمكنت من الاطلاع عليه من مصادر طبقات العلماء اليمنيين وتراجهم على مدار القرون السبعة السابقة للقرن التاسع الهجري ، وكذلك المصادر غير اليمنية التي تناولتهم بالترجمة والتعريف ، قمت بالوقوف على أخبار مجموعة من أبرزهم ، وهي مجموعة أعدّها عينة معبرة عن غيرها ، ومن المؤكد أن هذه المصادر لم تحط بكل العلماء وطلابهم ، بل ربما كان فيمن لم يُذكر من كان أكثر جداً وتشميراً في طلب العلم والرحلة في سبيل تحصيله .

فمن نذكره هنا أبو محمد القاسم بن محمد بن عبد الله الجُمَحي القرشي^(١) (ت ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م) ، ولد بسَهَقَة^(٢) ، وتلقه بطنانها ، ثم انتقل إلى زَبِيد^(٣) قاصداً الأخذ عن أبي بكر بن المضرب الزبيدي ، ولما قضى بغيته عاد إلى الجبال^(٤) فأخذ عن عبدالعزيز بن الربحي - صاحب حُرَازَة^(٥) - فما أن استقر ببلده حتى قصده

(١) الجدي ، السلوك ، ج ١ ص ٢٢٨ - ٣٠ .

(٢) سيأتي التعريف بها عند الحديث عن القرى والهجر العلمية باليمن .

(٣) زَبِيد - في الأصل - هو ولد مشور مدابكة في المدن وبعدان حول مدينة إب ، وتصب سيوله في البحر الأحمر ، يأتي في طبعة الأودية الحصبية في اليمن ، لذلك فقد وُجِدَتْ به كل مقومات الحياة ، وزبِيد في السياق أصلاً هو اسم مدينة اختطها والي المأمون على اليمن محمد بن زياد سنة ٢٠٥ هـ / م ، وكانت تدعى الحَصْبِيَّة فقلب عليها اسم واليها ، وهي أشهر مدن العلم في اليمن على الإطلاق ، وقد اتخذها عدة دول يمنية عاصمة لها ، منها الدول الزيدانية والنجاشية ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٢ ص ٣٨١ . للمقهي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٧٣٢ ، الهندي ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الأكرع ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، ط ١ ، ١٩٩٠ م ، ص ٢٢٢

(٤) من الأمور المهمة لفهم لقارئ حول تاريخ اليمن أن يجعل طبيعتها الجغرافية نصب عينيه ، لأنها تسهل عليه فهم بعض المصطلحات المكانيّة التي ترد في المصادر التاريخية اليمنية ، منها هذا المصطلح (الجبال) ، والمقصود به كل المناطق التي تقع ضمن المرتفعات الجبلية العالية بالقرى ، الممتدة من جوب اليمن على شواطئ بحر العرب ، وتمتد شمالاً بمحاذاة البحر الأحمر حتى تتعدى الحدود الجغرافية لليمن باتجاه الحجاز ، فعندما يقول الجندي أن القاسم القرشي عاد إلى الجبال فهو يقصد أنه عاد إلى قريته - سَهَقَة - الموجود ضمن نطاق المرتفعات الجبلية ، منجد الإشارات المشابهة كثيرة .

(٥) قرية من قرى المناطق الجبلية بالمعافر - ما يسمى اليوم بالخزيرة - تقع ضمن أعمال مديرية المواسط بمحافظة تمز - وسط اليمن - المقهي ، المعاصر السابق ، ج ١ ص ٤٤٢ ، الهندي ، المعاصر السابق ، ص ١٣٧ ، ١٩٥ .

والمُخُول^(١) وأَحَاطَظَ^(٢) وولدي ظباء^(٣) وغيرها من المناطق .

ومنهم أيضاً أبو عبدالله جعفر بن أحمد بن محمد بن عبدالرحيم المخابي (ت ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م) ، كان مسكنه بقرية أحاطَظَ ، وقد وصفه المؤرخون^(٤) بأنه كان رأس الفقهاء وإليه تنتهي الفتوى ، لكنه مع سعة علمه كان كثير التردد من بلده إلى الجند لمراجعة علمائها ، فكان حكامها يتلطفون به ويحسنون إليه قاصدين إقناعه باستيطان الجند والتصدر للفتوى والتكريم^(٥) .

ومنهم شيخ المحدثين اليمنيين الإمام الحافظ أبو الحسن علي بن أبي بكر بن حمير العرشياني (ت ٥٥٧هـ / ١١٦١م) ، يقول عنه ابن سمره والجندي^(٦) : " كان شيخ المحدثين وعمدة المسترشدين ، غلب عليه علم الحديث فكان به عارفاً " ، والمسبب في ذلك أنه كان : " كثير الرحلة في طلبه " ، ولما قلمت المصادر برصد رحلته الطويلة في طلب العلم فإنها تذكر أنه أخذ عن زيد بن الحسن القاشمي بأحاطَظَ ،

(١) حقل زراعي دائم الخضرة ، يشغل مساحة واسعة من محافظة إب في وسط اليمن ، يمتد من جبل سمارة الشاهق في الشمال حتى سفوح عبة مدينة إب في الجنوب ، وكل قرأه وتجمعاته السكانية تشكل مركزاً إدارياً من مديرية المخادر ، وأرضه تشتهر بزراعة الحبوب والخضروات ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٣ ص ٤١٧ ، ٤١٨ ، المقحفى ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٧٧٥ ، الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٩٦ - ١٩٩ .

(٢) سيأتي التعريف بها عند الحديث عن القرى والهجر الطمعية باليمن .

(٣) قرية مازالت عامرة ، تُعرف اليوم بقرية دار الجامع ، وتقع في وادي ظباء ، ولا يصرّب ليهما أحد للتسمية من الآخر ، وهي بين دي السفال شمالاً وسهفة جنوباً ، وهي من القرى الممنود في إقليم الجبال بكثرة الفقهاء ، وبها مسجدٌ قيل أنه بني بأمر عمر بن الخطاب في خلافته ، الأكوع ، هجر الظم ، ج ٣ ص ١٢٧٩ .

(٤) الجندي ، السنوك ، ج ١ ص ٢٣٤ .

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

(٦) ابن سمره ، طبقات فقهاء اليمن ، ص ١٧١ ، ١٧٢ ، الجندي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٣ واللفظ الجندي .

وأُسعد بن ملامس المُشَيَّرَقِي بِالْمَشَيَّرَقِي^(١) ، ويحيى بن عمر الملحمي وعبدالرحمن بن عثمان وأبي بكر بن أحمد الخطيب برقيمة^(٢) ، وعن القاضي المبارك بالجوة^(٣) .

ولم يتنه تقدم العمر عن الارتحال ، فقد ذكرت المصادر نفسها عنه أنه لما بلغ من العمر الحادية والخمسين - أي سنة (٥٤٥هـ / ١١٥٠م) - قدم إب^(٤) فاجتمع بها جمع كثير ، رأسهم إذ ذاك الإمام سيف السنة ، فأخذوا عنه وحضر السماع جماعة من أكبر علمائها ، وارتحل إلى عدن فأخذ بها عنه فقهاؤها وجمع من غير اليمنيين ، وكان

(١) منطقة تقع في أسفل جبل حبيش بمحافظة إب ، وهي إحدى مراكز مديرية حبيش ، وتضم مجموعة من القرى ، وكانت في القرن السادس الهجري من المناطق المعنية بالطماء وطلية العلم ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ١ ص ٧٠٩ ، المنحفي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ٢ ص ١٥٤٢ .

(٢) من أسماء البدلى المشككة في اليمن ، فهي اسم يطلق على أكثر من مكان ، أشهرها ثشان ، أولهم ريصة الأشباه منطقة جبلية واسعة مرتفعة جدًّا عن سطح البحر ، وقد دفع اتساعها الحكومة اليمنية مؤخراً إلى اتخاذ قرار بتشكيل محافظة خاصة بها وبما ألحق بها من المناطق ، وسميت باسمها - محافظة ريصة - وهي تقع إلى الغرب من صنعاء في منتصف الطريق بينها وبين ميناء الخديضة ، وثانيهما ريصة المناخي، بلد يشمل منطقة واسعة من محافظة إب في وسط اليمن ، ولها المناخي هم حكامها عدة فسيلاء للقرامطة بزعامه علي بن الصل عليها في آخر القرن الثالث الهجري ، وفيها تقع منطقة المخيخرة عاصمة القرامطة لذلك ، ولا تحري ليهما المقصودة هنا ، ولنا أرجح أن تكون الثانية كون أغلب المناطق المشار إليها في الدراسة قريبة - جغرافياً - منها ، للحجري ، المصخر السابق ، ج ٢ ص ٣٧٧-٣٧٩ ، المنحفي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٧٢٣ ، وقد ورد ذكرها عند الهذلي ، صفة جزيرة العرب ، ص ١١٨ ، ٢٠٥ .

(٣) وقد تنطق الجوة ، بلدة قريبة من الجند تحت حصن الدملوة من جهة الشرق في مديرية الصلو ، وقد خربت اليوم ، معروفة بكثرة الطماء والفضلاء ، والذي هدمها هو أحمد بن علي بن مهدي الرعيني الخارجي سنة (٥٦١هـ / ١١٦٥م) ، وقيل لها عمرت مرة أخرى ، وهي مما يتبع حالياً منطقة المسافر - الحَجْرِيَّة - التابعة لمحافظة تعز ، الأكوع ، هجر الطم ، ج ١ ص ٤١٠ ، الحجري ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٦ ، الهذلي ، المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

(٤) أجمل مدن اليمن على الإطلاق طيبة ، تبعد عن صنعاء حوالي ١١٠ كيلومتراً جنوباً فوق ربوة على سفح جبل ريمان ، ترتفع كثيراً عن سطح البحر (قول ٦٦٠٠ قدم) وأطرافها كثيرة وجزيرة لذلك فهي دالمة للخصرة ، وهي عاصمة محافظة تسمى باسمها ، بها عدد من المساجد الأثرية والمدارس العلمية القديمة ، وهو ما يدل على أنها كانت عامرة بالطماء ، الحجري ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١ ، المنحفي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠ .

يتردد ما بين بلدتي عَرَشَان^(١) وإب والجند وعدن ، وقصده أهل الحديث من غالب أنحاء اليمن ، رغبة في علمه ودينه وورعه وأمانته وعلو إسناده ومعرفة وتواضعه ، وهو كذلك حتى توفي سنة (٥٥٧هـ / ١١٦١م)^(٢) .

ومنهم الإمام الفقيه الشهير أبو الحسين يحيى بن أبي الخير العُمَرَالِي (٥٥٨هـ / ١١٦٢م) ، واحد من أشهر علماء السنة باليمن ، كان شيخاً لأغلب علماء طبقة سماعاً منه وتفهماً عليه ، وشيخاً لعلماء اليمن في الطبقات التالية تتلمذاً على كتبه ونهلاً منها ، تلقى علومه الأولى في موطنه بقرية سَيْر^(٣) على أيدي ثلثة من خيرة علمائها وعلى من وفد إليها من علماء غيرها ، وكان مبرزاً منذ طفولته ، ذكر الجندى^(٤) أنه " تعلم للقرآن وأكمل حفظه غيباً ، وقرأ المذهب والتنبية والفرائض ولم يبلغ من العمر غير ثلاث عشرة سنة من مولده " ثم نالت نفسه للرحلة استزادة في التعلم على ما بلغه ومسعياً في تحصيل علوم أخرى لم يكن قد تضرع بها ، فقام - وبرفقته أحد أقرانه يدعى الفقيه عمر بن عكمة - بالرحلة إلى أحاطة للجلوس إلى علمائها ، ثم انتقل إلى ذي السفال^(٥) ليدرس ما كان قد قرأه من قبل ، إضافة إلى معارف جديدة .

(١) قرية زالت عامرة من قرى منطقة المكتب التابع لمديرية جبلة بمحافظة إب ، وتقع لسط حصن لتعكر إلى الجنوب الشرقي من مدينة جبلة عاصمة الصلحيين أيام حكم السيدة الصلوحية ، وكانت عامرة بالعلماء وطلبة العلم ، الأكوخ ، هجر العلم ، ج ٣ ص ١٤١٧ ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٢ ص ٥٩٨ ، المقضي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ٢ ص ١٠٤٣ .

(٢) انظر أخباره عند الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

(٣) وتشتهر بمصنعة سَيْر ، منطقة حرة لم يبق منها إلا أطلالها ، تقع في الوادي المسمى باسمها من مخلاف صيدان في الجنوب من مدينة إب ، من أكبر مراكز العلم في تاريخ اليمن الإسلامي ، ليس من علماء السنة باليمن وقبائلها إلا وتفقه بها ، الأكوخ ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٠٦٢ ، المقضي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٣٥ .

(٤) السلوك ، ج ١ ص ٢٩٤ .

(٥) ذي السفال بلد واسع ، جنوب غربي صنعاء ، يقع على بعد ١٠ كيلومترات من مدينة القاعدة بمحافظة إب ، فيما بين مدينتي جبلة وعر ، وهي كثيرة للزروع والأشجار وجدول المياه ، وهي تشكل إحدى مديريات محافظة إب وتسمى المديرية باسمها ، كانت من أشهر معاليم العلم في تاريخ اليمن الإسلامي ، الأكوخ ، هجر العلم ، ج ٢ ص ٧٦٦ ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٣ ص ٤٢١ ، المقضي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٧٩٥ .

ولما سمع يحيى بن أبي الخير العمراني بقوم الإمام زيد اليفاعي من مكة إلى الجند وأنه قد تصدر للتدريس في جامعها ، جمع عدداً من أئبرر تلامذته واتجه نحوه - بكل تواضع العلماء - لينهل من معينه ، وبقي في صحبته حتى مات وهو عنده بعد سنة (٥١٣هـ / ١١١٩م) ، في هذه المرحلة كان الإمام قد بلغ منزلة بين العلماء يغبطه عليها كثيرون ، إلا أن عشقه للعلم ، واستشعاره للأجر المؤكد في السعي في طلبه ، جعله يعقد العزم على الارتحال مرة أخرى ، فقدم سَهْفَةً ليأخذ بها عن القاضي مسلم بن أبي بكر ، ثم النقل إلى ذي أشرق^(١) سنة (٥١٧هـ / ١١٢٣م) ولأخذ بها عن سالم الأصغر بعض كتب الصحاح في الحديث ، بعدها بدأ مرحلة التأليف ، وأخرج أول كتبه - (الزوائد) - سنة (٥٢٠هـ / ١١٢٦م) .

ولما عاد من الحج^(٢) سنة (٥٢٠هـ / ١١٢٦م) تفرغ للتأليف والتدريس بقرينته سَيز حتى حصل من البلاء الصادر عن مشكلات الصراعات القبلية ما حمله على مغادرتها إلى ذي السفال ثم ذي أشرق ، وهناك التقى بالحافظ علي بن أبي بكر العرشاني (٥٥٧هـ / ١١٦١م) فسمع عليه البخاري وسنن أبي دود ، وقد انتقل بعدها إلى ضراس^(٣) ، وكانت وفاته سنة (٥٥٨هـ / ١١٦٣م) في ذي السفال .

كان الإمامان علي بن أبي بكر العرشاني ويحيى بن أبي الخير العمراني خير مثال لطلاب العلم الذي لا يشبع منه ، وأصدق عينة لشريحة طلاب العلم اليمانيين الذين استغلوا أعمارهم خير استغلال في سبيل تحصيل العلم واستيعاب المعارف العالية ، وبنلوا غاية طاقاتهم وفوق احتمالهم من أجله ، فقد ذكر أن علي العرشاني : ' كان يخرج غالب أيام طلبه - للعلم - كل يوم من منزله بعَرشَانٍ فَيَصِلُ وحاطة - وإلا المشيرق - فيقرأ ثم يعود ، فلا يبيت إلا في بيته ، وبين يده وبين أحد الموضوعين

(١) سيأتي التعريف بها عند الحديث عن القرى والهجر العلمية باليمن .

(٢) سنكر رحلته إلى الحج عند ذكرنا للرحلات الخارجية لطلبة العلم اليمانيين ، لأنه استغلها كثيراً في الإفادة والاستفادة .

(٣) هو اسم قرينتين علميتين ، ضراس العليا والسفلى ، والعطلى هي المشهورة بمكنى العلماء وطلاب العلم ، وبها المدرسة التي أقاموا بها أنشطتهم العلمية ، وتقع إلى شرق ذي أشرق وغرب ذي السفال ، الأكوخ ، هجر العلم ، ج ٣ ص ١٢٠٧ ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وبقاؤها ، ج ٣ ص ٤٢٢ ، المقطبي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٩٤٤ .

يَوْمَ لِلْمُجْدِ^(١) ، وبلغ من حرص يحيى العمراني على وقته أن نُقِلَ عنه أنه كان ' إذا مضى وقت من غير ذكر الله تعالى أو مذكورة العلم حوقل - قال لا حول ولا قوة إلا بالله - وقال : ضيعنا الوقت^(٢) ، وهذا هو ما جعل منه إماماً من أئمة العلم البارزين في اليمن الذين يشار إليهم بالبنان إلى يومنا هذا ، ولم تكن منزلته كذلك في اليمن وحدها ، فقد ذكرت المصادر^(٣) أن كتابه (للبيان) لما وصل بغداد جُعِلَ في أطباق الذهب وطُيِفَ به مزخرفاً ، ... وقال جماعة من أهل العراق : ما كنا نظن فسي السيمن إنسان - أي عالم - حتى قدم علينا الليبان .

وممن رحل عن بلده نجد أبا محمد عمارة بن الحسن بن علي بن زيدان الحكمي الشهير بعمارة اليمني (ت ٥٦٩هـ / ١١٧٣م) نشأ في وادي وساع ، وخرج منه سنة (٥٣١هـ / ١١٣٦م) وهو يومئذ شاب إلى زبيد ليتلقى العلم على أكبر فقهاءها ، وكان الفقيه أبو محمد عبدالله بن القاسم الشهير بابن الأبار في مقدمتهم ، وقد انتقل في ظروف خاصة رواها بنفسه في كتابه (المفيد في أخبار صنعاء وزبيد)^(٤) وهناك بدأ تعلم صناعة الأديب على يد الأديب العالم أبو بكر بن محمد العندي^(٥) .

وهذا الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) نشأ في قريته عَيْشَان^(٦) ، فلما حتم القرآن وبلغ في اللغة والنحو مبلغاً عظيماً تقدم إلى صنعاء^(٧)

(١) الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٣٠٣ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٩٦ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٩٨ .

(٤) عمارة ، المفيد في أخبار صنعاء وزبيد ، تحقيق محمد الأكوع ، المكتبة اليمنية ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٩٧٥م ، ص ٢٢ ، ٣٢٨ .

(٥) بامخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، مكتبة مديولي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٩١م ، قسم ٢ ص ١٦٥ ، الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٣٦٠ .

(٦) قرية باسم جبل تقع عليه إلى الشرق من حصن مدينة شهارة ، تبعد عن خوث حوالي ٣١ كيلومتراً إلى الغرب ، للحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٣ ص ٦١٩ ، المقضي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ٢ ص ١١٥٤ .

(٧) سبأني التعريف بها عند الحديث عن القرى والهجر العلمية باليمن .

لدراسة علم الكلام على شيخه الحسن بن محمد الرصاص ، ودرس عليه أصول الفقه وفروعه والأخبار^(١) .

ومنهم عبدالله بن علي بن أبي عبدالله المرادي (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) ، تلقى علومه الأولى في قرينته نَيْبَد^(٢) ، ثم أكثر التردد بين بلاده وعدن وجبّاء^(٣) ، فممن أخذ عنهم بمدينة عدن القاضي أحمد القريطي ، وجبّاء عن يحيى بن محمد بن أبي القاسم الجبائي^(٤) .

وقام الإمام المهدي أحمد بن الحسين (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) بالرحلة عن قرينته - هجرة كُومَة بجبل شاعر^(٥) - التي نشأ بها وتلقى علومه الأولية فيها إلى هجرة مَيْسَلَت^(٦) لينتقل فيها العلم عن عدد من علمائها ، ثم انتقل إلى هجرة حُوث^(٧) لينتلمذ على رجال العلم بها^(٨) .

(١) الزحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٢ ص ٨٠٣ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٥٩٧ .

(٢) قرية عامرة في وادي تشنسي من قرى منطقة بئذال بمحافظة إب ، وهي تبعد شرقاً عن مدينة إب حوالي ٢٥ كيلومتراً ، وكانت من مراكز العلم المقصودة ، وبها مسجد أثري قديم ، وقد انقطع العلم عنها ، ولم يحد بها أحد من حنفته ، الأكوع ، هجر العلم ، ج ١ ص ٢٥٧ ، المنحفي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٢٤٧ .

(٣) وقد تنطق جَبَاً على ورن سبأ ، قرية حربية ، تقع في السبع الغربي لجبل صير المطل على مدينة نعر ، لم يبق منها إلا آثار مسجدها وحمامها ، كانت أكثر بلاد اليمن فقهاً ومتقنين ، وقد كُيِّمَت قرية في الطرف الشمالي من موقعها تحمل لاسم ، الأكوع ، المرجع السابق ، ج ١ ص ١٥١ ، المنحفي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٧٧ ، الهذاني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٩٤ .

(٤) الجندبي ، السلوك ، ج ٢ ص ١٠٠ .

(٥) بلدة قديمة حربية في الشمال الغربي من مدينة صنعاء ، ما تزال أطلالها ظاهرة للعيان ، كانت هجرة علم ، تقع في الجنوب الغربي من مدينة خيبر بمحافظة عُنُس ، على مسافة بضعة كيلومترات منها ، الأكوع ، هجر العلم ، ج ٤ ص ١٩٢١ .

(٦) قرية عامرة في بلاد بني قيس من قبائل بني صُرَيْم من حاشد ، تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة خيبر على بعد ٢٠ كيلومتراً ، وقد كانت مقصودة لطلب العلم بسبب من سكنها من العلماء ، الأكوع ، المرجع السابق ، ج ٤ ص ٢٠٥٠ .

(٧) سيأتي التعريف بها عند الحديث عن القرى والهجر العلمية باليمن .

(٨) ابن المؤيد ، الطبقات الكبرى ، ج ١ ص ١١٤ .

ومنهم الفقيه محمد بن عمر بن عثمان الجبائي (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م) ،
نشأ ببلدته جباه ، وكان من أكبر علماء القراءات للصبغ بها ، وقد غادر جباه إلى زبيد
لينتقله فيها بعلي بن قاسم الزبيدي ، وعمر بن مفلح في أبين ، وترأس بمغربة تعز في
المدرسة النجاشية ، فلما ظهر نبوغه وطول بابه في الفقه جلس إليه علماء تعز
وأخذوا عنه ، وقد آب إلى وطنه أيموت فيها^(١).

ومنهم أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن علي الجدائي الزيلعي (٧٢٣هـ /
١٣٢٢م) أخذ علم القراءات عن أبي الزاكي بحراز^(٢) بعد أن قدمها من جباه ، ثم أخذ
عن الغيثي بوصاب^(٣) ، وعاد إلى جباه ليجلس إلى عبيد بن محمد الجبائي المقرئ ،
ورحلته هذه جعلته في مقدمة القراء المبرزين في علم التجويد في اليمن ، وقد ذكر
الجندي^(٤) أنه قدم إلى جباه زائراً لها سنة (٧٢١هـ / ١٣٢١م) فوجد محمد بن أبي
بكر الزيلعي مدرساً للقراءات وشيخاً لها هناك .

ومنهم أيضاً أبو حسان عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن الحضرمي
(ت ٧٢٤هـ / ١٣٢٤م) ، نشأ في مدينة شبام^(٥) بحضرموت ، ولتحل في طلب العلم

(١) الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٣٩١ .

(٢) مجموعة من الجبال الشامخة ، شديدة الوعورة ، يملؤها عدد كبير من القمم العالية المعطاة غالباً بالصواب ، ويغوص ارتفاع بعض جبالها ٣٥٠٠ متر ، وهي تقع في منتصف الطريق بين صنعاء وميناء الحديدة على شاطئ البحر الأحمر ، ومع هذه الطبيعة القاسية إلا أن جبالها معمورة بالقرى المتناثرة على القمم والمدرجات الجبلية ، وبها بعض مغلل الباطنية لإسماعيلية ، إذ لم يحسب من أعدائها إلا اعتصامها بقسم كهده ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ١ ص ٢٥٢ ، المقضي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٤٤١ ، الهندكي ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٢٢ .

(٣) بلاد واسعة جبلية ممتدة بين أربع من محافظات اليمن - الحديدة ، ريمة ، إب ، نمار - وهي تشرف على السهول الساحلية قرب ريد غرباً حتى المرتفعات الجبلية في نمار شرقاً ، وتتصل ببلاد العنق هي محافظة إب جنوباً ومديرية عتمة بمحافظة ريمة شمالاً ، وهي من أجمل مناطق اليمن وأكثرها خيراً ، وكان لأهلها اهتمام كبير بالعلم وأهله ، لذلك كثروا فيها ، الأكوع ، الحجري ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٧٦٧ ، المقضي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٨٧٣ .

(٤) السلوك ، ج ١ ص ٣٩٤ .

(٥) مدينة في قلب وادي حضرموت ، تقع ما بين سوتون شرقاً والقطن غرباً ، وهي منطقة واسعة تحدها أشجار الخيل لعميقها خصرة وجمالاً ويحدها من الجنوب جبل ، وتتميز بمساراتها الشاهقة في الارتفاع ، للموغة في القدم ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٢ ص ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، السقاب -

إلى زبّيد ، وهناك صاحب مجموعة من خيرة رجالها كإسماعيل الحضرمي وجماعة من اصحاب أبي الغيث وابن عجيل^(١) .

ثانياً الرحلات العلمية الخارجية:

(١) الرحلة إلى مكة :

المسافة بين اليمن والحجاز ليست بالبعيدة ، إذ هي أقرب المناطق التي يلتقاهما الخارج من اليمن باتجاه الشمال في طريقه إلى قلب العالم الإسلامي في مصر وبلاد الشام والعراق ، وقد زاد من قيمة منطقة الحجاز أن بها مكة والمدينة بما لهما من المنزلة الدينية العظيمة والتاريخية الكبيرة ، وقد احتلت مكة - على وجه الخصوص - المنزلة الأسمى في قلوب المسلمين قاطبةً لفضلها ولوجود البيت الحرام بها ، فهي - في موسم الحج - مجمع كثير من الناس من فجاج شتى من الأرض ، العالم والجاهل ، المتكلم والمحدث ، للفقير وطالب العلم ، وكثيراً ما كانت نية الحج تُعَقَّدُ مع تبيت نية أخرى في نفوس العلماء وطلبة العلم خاصة ، ألا وهي نية الجلوس لطلب العلم والأخذ عن أكبر العلماء الذين يقدمون إلى مكة ، سواءً للحج خاصة أو لمجاورة البيت الحرام الذي جاءت النصوص بالحض عليه والقرع فيه كقول المصطفى ﷺ : " لا تشد للرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، مسجدي هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى"^(٢) ، لهذا فقد كانت مكة المحطة الأولى التي تتبادر إلى ذهن العالم وطالب العلم اليمنيين حين نعن لهما فكره الخروج والارتحال في طلب العلم والاستزادة منه .

من أوائل من يُذكر أبو محمد عبدالله بن علي الزرقاني ، وقد تحدث ابن سمره^(٣) عن رحلاته في طلب العلم ، وكان ميسوراً ، وقد ارتحل إلى مكة سنة (٣٥٣هـ / ٩٦٤م) ، فسمع عن الأسيوطي^(٤) .

— إنلم القوت في فكر بلدان حضرموت ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، ط ١ ، ٢٠٠٢م ، ص ٢٥٩ ، المقضي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٨٤٥ ، الهذلي ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٦٩

(١) الجنتي ، الملوك ، ج ٢ ص ٣٢ .

(٢) في حجر ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقى ، نشر وتوزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة الإرشاد ، السعودية ، ١٩٥٩م ، ج ٤ ص ٢٤١ ، مسلم ، صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (٥ د) ، ج ٢ ص ١٠١٤ ، رقم (١٣٩٧) .

(٣) طبقات فقهاء اليمن ، ص ٨١ ، ٨٢ .

قام أبو محمد القاسم بن محمد القرشي (ت ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م) - وبصحبه
أحمد بن عبدالله الصعبي السهفي (ت تقريباً ٤١٠هـ / ١٠١٩م) - بالتوجه إلى
الحج سنة (٣٨٨هـ / ٩٩٨م) فأخذوا عن الحسين بن جعفر المراغي
المصري (ت قبل ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م) ، أخذوا عنه مختصر المزني ، وسمته ، وسمن
الربيع ، ثم تواليف ألفها للحسين نفسه في علم الكلام ، منها كتاب سماه السبعة الأحرف
في الرد على المعتزلة .

ومنهم أبو الخير أيوب بن محمد بن كُنَيْس (ت ٤١٠هـ / ١٠١٩م) نهض إلى
مكة سنة (٤٠٧هـ / ١٠١٦م) ، فلقى بها الحافظ عبد بن أحمد الهروي ، فأخذ عنه
كثيراً من مسموعاته ، وكان من الاشتهار بعلمه وفضله أن نوّدي الناس في الموسم :
من أراد الوراق والورق والسماع العالي فعليه بأيوب بن محمد بن كُنَيْس إلى قلعة طُبَاء
من أرض اليمن^(١) .

ومنهم أيضاً أبو الفتح يحيى بن عيسى بن إسماعيل بن ملامس (ت
بعد ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م) ، تفقه أولاً في المعافر على أيدي جماعة من العلماء بها وبسنة
، ثم حج فلقاه بمكة أربع سنين ، وقد استغل مدة إقامته بها في تأليف (شرح مختصر
المزني) ، ونظراً لأنه كان ميسوراً ذا مال فقد تزوج في مكة بعدد كبير من النساء^(٢) ،
وهناك أيضاً جلس إلى أبي حامد الإسعرائيني (ت ٤٠٦هـ / ١٠١٥م) ، الذي أعجب
به بعد أن اختبره بسنتين مسألة أجابه عنها كلها ، فاقترح عليه أن يصحبه معه إلى
المراق ليحمله معيداً في مدرسته ، فاعتذر بأنه لم يخرج من اليمن بنية كهذه^(٣) .

ومن أشهر الشخصيات العلمية اليمنية التي حققت نصيباً وافراً من العلم في
الرحلات العلمية إلى مكة الإمام أبو أسامة زيد بن عبدالله بن جعفر بن إبراهيم الليفاني

(١) الجندي ، السلك ، ج ١ ص ٢١٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٧ .

(٣) ذكر الجندي أنه تزوج بها بمئتين امرأة ، وهذه رواية مبالغ فيها ولا شك ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٠ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٠ .

(ت بعد ٥١٣هـ / ١١١٩م) ، نشأ ببليته بفاعه^(١) ثم تَنَزَّهَ الجَندُ فَتَفَقَّهَ بها على أبي بكر بن جعفر وإسحاق الصردفي ، ثم ارتحل إلى مكة فأخذ بها عن الشيخين الإمامين الحسين بن علي الطبري وأبي نصر هبة الله بن ثابت البندنجي مصنفات أبي إسحاق الشيرازي ثم مصنفاتهما ، وعاد إلى الجَندِ فاجتمع طلبة العلم حوله ، ومالوا إليه أكثر من ميلهم إلى مشائخه ، وقد بلغ عدد طلاب مدرسته بمسجد الجَندِ ثلاثمائة طالب بينما لم يتجاوز عددهم في مدرسة شيوخه أبي بكر بن جعفر بالمسجد نفسه خمسين طالباً .

وقد خاف حاكم الجَندِ آنذاك - من قِبَلِ السيدة الصليحية - المُفضَّلُ بن أبي البركات الحميري من تجمع الفقهاء في مسجد الجَندِ حول زيد وشيخه فبدأ في محاولة إيقاع الفتنة بينهم ، ولما كاد أن ينجح قرر الإمام زيد اللباعي سنة (٥٠٠هـ / ١١٠٦م) أن يدرأ الفتنة في مهدها فهجر اليمن ثلاث عشرة سنة ، قضاهما كلها في مكة ، وخلالها مات شيخاه للطبري والبندنجي ، فلم يكن بمكة من تتعين عليه الفتوى في العلم والعقده والفضل من يفوقه منزلة وقدرأ ، فكانت الفتوى تدور عليه ، وأقام مجالس للتدريس في المسجد الحرام ، وقد جرت فتنة أخرى في مكة - لم يكن الإمام زيد طرفاً فيها - فوجد نفسه بين فكي رحي ، إلا أنه علم أن شيخه بالجَندِ قد توفي وكذلك المُفضَّلُ الحميري حاكمها ، ففكر حينها في العودة إلى اليمن ، وفعلاً فقد وصلها سنة (٥١٣هـ / ١١١٩م) ، ولما تسامع طلاب العلم بقومه وصلوه من عدن وأتت ولُحج وأنحلتها ، ومن تهامة وحضرموت ، ومن الجبال كالمعافر والمخلاف^(٢) ، ومن بواحي الجَندِ نفسها كسَيرٍ ومنهَنة وغيرها ، واشتغلوا بالقراءة عليه ، وكانوا هم وجسوه أهل العلم في بلدانهم حين عادوا إليها^(٣) .

(١) قرية خربة غير معروفة المكان والموقع ، ذكرت بعض المصادر أنها بالمعافر ، الأكرع ، هجر العلم ، ج ٤ ص ٢٣٧٧ ، الجندي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٢ ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٤ ص ٧٨٤ ، المقضي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ٢ ص ١٩١٨ .

(٢) اسم لأكثر من منطقة باليمن ، والمقصود في هذا السياق هو المنطقة الواقعة إلى الشمال الغربي من مدينة تعز ، وهو من مراكزها الإدارية بمديرية شرعب السلام ، وكان به ثلة من العلماء والفقهاء وطلبتهم ، وهو إلى يومنا هذا أحد المناطق المهمة بالعلم والتعلم ، إذ منه مئات الأساتذة والقيادات الأكاديمية والحربية ، المقضي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٤٥٢ .

(٣) الجندي ، السيرة ، ج ١ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ .

ومنهم الإمام أبو الحسين يحيى بن أبي الخير العُمَرَانِي (ت ٥٥٨هـ / ١١٦٢م) ، قدم مكة سنة (٥٢٠هـ / ١٢٦٦م) ، واجتمع بالفقيه العثماني الأشعري ، فتناظرا في شئ من الفقه والأصولين ، وكانت مناظرتهم في المطاف ، فمن شدة الإحكام للعثماني كان يسمح جيبه بيده من شدة العرق ؛ لأن الإمام كان يقطعه ويقبض عليه الحجة^(١) .

وقد قام عبدالله بن علي بن أبي عبدالله المرادي (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) بالتوجه إلى مكة سنة (٦٠١هـ / ١٢٠٤م) ، ولم يكن الحج وحده هو مبعثه من الرحلة ، فقد لبث بها أربع عشرة سنة ، فزاد علماً ومعرفة ، ولم يكن يترك أحداً من الواردين والمقيمين لديه فضل يُتحقق إلا أخذ عنه ، ثم أخذ عن أبي الصيف ولأرم صحبته ، ثم عاد إلى بلده تيقن ؛ فقصده طلبة العلم من جميع أنحاء اليمن ، وجمعت حلقه تدرسه فوق مئتين طالباً ، وهو يقوم بالمنقطع منهم^(٢) على نفقته الخاصة^(٣) .

ومنهم القاضي عبدالله بن علي بن عبدالله العُرْشَانِي (ت ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م) حفيد الإمامين علي بن أبي بكر العُرْشَانِي ويحيى بن أبي الخير العُمَرَانِي ، ولد سنة (٥٩٥هـ / ١١٩٨م) ، وثقفه في قريته عرشان ، وحج مراراً فأخذ عن المقيمين بها ولولدين إليها ، وكان ذا مسموعات في إجازات من الشيوخ وغيرهم من الأكابر^(٤) .

(٢) الرحلة إلى العراق :

قام أبو عبدالله محمد بن يحيى بن سراقه المعافري (توفي في الربع الأول من القرن الخامس الهجري) بالرحلة إلى العراق لطلب العلم بها ، فأخذ بها عن أبي الحسن بن اللبان الفرائض لأنه كان إماماً بها ، وأدرك للشيخ أبا حامد الإسفرائيني (ت ٤٠٦هـ / ١٠١٥م) ، وأخذ عنه مصنفات في الفقه ، وبه ثقفه جماعة من أهل اليمن^(٥) .

(١) الجدي ، المصنوع ، ج ١ ص ٢٩٥ .

(٢) أي من كان محمداً ، وحبه للعلم دفعه لتحمل المشقة لكي يأخذ عنه العلم ، قام هو بإعائه على نفقته .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٠٠ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٦٨ .

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٢ .

ومنهم كذلك القاضي عبدالله بن علي العنسي (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٥م) ، من علماء الزيدية وفضلائها ، ارتحل من اليمن - عبر العراق - إلى بلاد فارس ، وكان مدعاه الأخذ عن علماء الزيدية في بلاد الدَّيْلَمَ وجيلان ، وقد وفق في أخذ بعض العلوم عن زيد بن علي بن أبي القاسم الهوسمي (ت القرن السادس الهجري) في داره المعروفة في مدينة اللاهجان في ناحية جيلان سنة (٥٠٠هـ / ١١٠٦م) ، وقد مدحه الزحبي^(١) بقوله عنه أنه : " الواصل من جهة الجبل^(٢) والديلم بعلوم أهل محمد " .

وأشهر من رحل إلى العراق في طلب العلم وإتمام السماع هو القاضي جعفر ابن أحمد بن عبدالسلام البهلولي (ت ٥٧٤هـ / ١١٧٦م) ، عالم الزيدية الأول باليمن ، ومتكلمها الأواحد حتى عصره ، لم يشتهر من علمائها - ممن هم دون الأئمة - كما اشتهر هو ، برز نجمه عند الزيدية علمتهم وأئمتهم ، على الرغم من أن أباه وأخاه كانا من أشهر رجال القضاء والفقه والأدب عند الشيعة الباطنية الإسماعيلية ووجهها بضنعاء ، والذي شجعه على الخروج إلى العراق أن زيد بن الحسن البيهقي (ت ٥٥١هـ / ١١٥٦م) كان قد عزم على العودة من اليمن بعد أن قضى فيها مدة من الزمن^(٣) ، فصحبه القاضي جعفر ، ولما مات البيهقي في نهاية واصل للقاضي رحلته منفرداً ، وهناك جلس إلى أكبر علماء الزيدية والمعتزلة ، فأخذ عنهم ، وتسلع في علومهم^(٤) ، وكان يقول : " ناظرت علماء العراق وأقيمت عليهم الحجة حتى رددت جماعة منهم عن مذاهبهم^(٥) " وهذا القول منه يدل على أن دخوله العراق لم يكن دخول طالب العلم الذي جاء ليسمع فقط ، فقد آمن من نفسه القدرة العلمية على ما يجعله يناظر ويُفهم .

(١) الترحيف ، مآثر الأكرار ، ج ٢ ص ٧٥١ ، وحدث الخلاف في كونه هو أم شخص آخر يدعى عبدالله بن زيد العنسي ، فنظر ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٦١٧ ، ٦١٨ .

(٢) اسم آخر مختصر لمنطقة جيلان ببلاد فارس ، كثيراً ما اعتدته المصادر الزيدية كاسم علم يدل عليها .

(٣) سنائي للحديث عن زيارته لليمن ورحلته إليها تحت عنوان الوافدين إلى اليمن .

(٤) عاد وله إنجازات علمية من أشهرهم ، نورد بعض نصوصها ابن المؤيد ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٧٤ .

(٥) الجندي ، الملوك ، ج ١ ص ٢٤٦ .

وقد عاد من العراق وليس فيه من هو أعلم منه على حد قول المصادر الزيدية^(١) ، ونقل معه الأمهات من مصادر الزيدية والمعتزلة ، ما كان منها باللغة العربية أو الفارسية ، وذلك قبل إتلافها على أيدي خصومها - من جهة - ومن قبل التلار - من جهة أخرى ، فينسب إليه - بسبب ذلك - أنه هو الذي حفظ تراث المعتزلة ، ودعّم الارتباط بينها وبين الزيدية^(٢) .

(٢) الرحلة إلى مصر :

وقد نزل الفقيه أبو محمد عمارة اليمني (ت ٥٦٩هـ / ١١٧٣م) مصر مرتين واستوطنها بقية حياته ، ومع أنه كان يُلقب بالفقيه والفَرَضِي في اليمن لعلو قنمه في الفقه عموماً والفرائض على وجه الخصوص إلا أن شهرته بقول الشعر هي التي غلبت عليه هناك ؛ حتى أنه لم يُعرف بها إلا بعمارة الشاعر ، وقد كان له منزلة كبيرة لدى الخلفاء الفاطميين ووزرائهم ، وكان يعقد مجالس للتدريس بمصر ، وله تلاميذ بها منهم الشيخ إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد الأنصاري الكاتب^(٣) (ت ٦١٣هـ / ١٢١٦م) ، غير أنه لم يعد إلى اليمن حتى بعد سقوط للدولة التي استحل العيش بمصر في ظلها ، وقد انتهت حياته بها مشوقاً بعد اتهامه بالتآمر - مع الصليبيين - ضد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي^(٤) .

ومن نزل مصر - بعد رحلة شملت مناطق كثيرة من العالم الإسلامي - نجت الحافظ أبا نزار ربيعة بن الحسن بن علي الحضرمي (ت ٦٠٩هـ / ١٢١٢م) ، تفقه ببلده ، ثم ارتحل إلى البصرة وخراسان وأصبهان وهمدان ومكة ، وسمع فيها كلها على جلة من خيرة علمائها ، ثم حدث في دمشق ومكة وغيرها ، وآواه المطاف إلى مصر

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٢٧٧ .

(٢) انظر أخباره عند الأكرع ، هجر العلم ، ج ٢ ص ٩٥٥ ، الجنداري ، الجامع الوجيز ، ورقة ٦٨-١ ، الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٣٤٦ ، الزحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٢ ، ٧٧٠ ، الشامي ، تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي ، ج ١ ص ٥٢٨ ، ج ٢ ص ٢٥٤ ، ابن المؤيد ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٧٣ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ٢٧٨ ، الوزير ، تاريخ بني الوزير ، ص ٢٢٧ .

(٣) الجنداري ، التكملة لوفايات النخلة ، تحقيق بشار حواد معروف ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨١م ، ج ٢ ص ٣٣٤ .

(٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، (د ت) ، ج ٣ ص ٤٣٥ .

سنة ٥٧٢هـ / م ، فسمع بها وبالإسكندرية أيضاً ، ثم تصدر للتدريس والحديث بها مدة طويلة ، سمع عليه خلالها عدد كبير من أتباعه ومن طلبة العلم وغيرهم ، وقد توفي بها عن عمر يناهز الرابعة والثمانين سنة^(١) .

ثالثاً الرحلات العلمية لعلماء وفدوا إلى اليمن من غير أهلها :

لم يكن موقع اليمن الجغرافي ولا تضاريس سطحها يوماً عقبة كؤود أمام التواصل بين أبنائها وغيرهم ، وفي الصفحات الماضية خير دليل على ذلك ، فقد كانت عوامل الأرض والدين والنسب والتاريخ تمثل أرضية صلبة قامت على أساسها صور شتى من التواصل ، وتواصل أبناء اليمن مع غيرهم لم يكن جديداً ولا مستحدثاً بعد دخولهم في الإسلام فقط ، بل هو قديم قديم وجودهم على أرضها ، فقد شهد تاريخها قيام عدد من الحضارات القديمة كحضارة مَعِين ولُؤسان وقَتَبان وسَبَأ وحِمَير ، وقد أقامت هذه الحضارات علاقات مختلفة مع الحضارات القائمة المماثلة في مصر وبلاد الشام واليونان ، وكانت هذه العلاقات قائمة على أساس من المصلحة المشتركة ، وبالتالي فمصير هذه العلاقة مرهون بقيام هذه المصلحة ، وتتهلر بانتهائها .

ويظل دخول اليمنيين في الإسلام هو نقطة الانعطاف ومركز التحول التاريخي الهائل في مسيرة حياتهم ، فهم منذ شَمُوا أريجَه ، وسمعوا أخباره ، تَلَفَّروا به ، وتشوقوا إليه ، وانجذبوا نحوه ، وتطلعوا للعرش في كتفه ، والمسير على نهجه^(٢) ، وأصبحت علاقتهم بإخوانهم المسلمين في الأقطار الأخرى قائمة على أسس متينة ، لا وجود للمصلحة الآتية فيها ، أسس متينة على وشائج دينية قولها الدين الواحد الذي ربط المصير بالمصير ، ودفعهم إلى الشعور بما يشعر به جسد دار الإسلام كله من رخاء أو عناء ، من علم أو جهل ، من نور أو ظلام .

(١) الأسدي ، طبقات الشافعية ، تحقيق كمال يوسف الحوت ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٧م ، ج ٢ من ٢٨١ ، الحزرجي ، طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن ، صورة عن نسخة الدكتور عبدالرحمن الشجاع ، صماء ، ق ١١٥ ، الذمبي ، مور أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرياءوط وآخرين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨١م ، ج ٢١ من ١٨ ، المنذري ، التكملة لوفيات النفقة ، ج ٢ من ٢٥١ ، ٢٥٢ .

(٢) د. عبدالرحمن الشجاع ، اليمن في صدر الإسلام ، دار الفكر ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٨٧م ، ص ٧ .

وقد انطلق اليمانيون في أرض الإسلام ، لا يقوم في وجوههم حد ، ولا يوقف تدفقهم حاجز ، فكانوا في طليعة الجيوش الفاتحة لبلاد الشام ، كما كانوا في عداد جيوش فتح العراق ، وكانوا بمعبة عمرو بن العاص وهو يفتح مصر ومشارف إفريقية . ولم يَعتَمِ اليمانيون العذر للخروج من بلدهم في حقبة ما بعد الفتوحات ، فكل الخروج في طلب العلم في مقدمة مقاصدهم ، وكان السعي للجلوس بين أيدي أئمة الصحابة والتابعين من أكبر دوافعهم ، واستمر المد قائماً إلى القرون المتأخرة من تاريخهم الإسلامي ، ذلك ما تصرح به المصادر للتاريخية وكتب الطبقات وتعكسه الدراسات الحديثة .

وكما كانت اليمن منطقة دفع لطلاب العلم والعلماء ومصدر هجرة لهم إلى مختلف أصوار الإسلام فبالمقابل أيضاً كانت منطقة جذب وهجرة لطلاب العلم والعلماء من غير أبنائها باستمرار ودون انقطاع ، وذلك لما كانت تشتهر به من وجود كبار العلماء فيها منذ القرن الثاني الهجري ، واستمر الحال كذلك خلال القرون التالية بعده ، فقد اشتهرت بالمراكز العلمية للمتعددة التي تزخر بالعلماء مثل مدن الجند وصنعاء وعدن وزبيد وصعدة^(١) وغيرها من القرى والهجر العلمية ، حيث كانت هذه المراكز مقصداً لطلاب العلم والعلماء من أنحاء كثيرة من بلاد فارس والشام والعراق والحجاز ومصر والسودان وبلاد المغرب وغيرها^(٢) .

ومن الملحوظ أن أغلب من قدم اليمن من العلماء وطلاب العلم من غير أهلها كان أغلب نزولهم على مراكز العلم الواقعة في سهولها الساحلية مثل عدن وزبيد

(١) مدينة قديمة وعزى بنائها إلى الحميريين ، يفيد الهمزاني بأنها كانت تسمى في الجاهلية جُماع ، وهي مرتبطة بالذهب الريدي في اليمن ، فأهلها هم الذين استمدوا الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين سنة ٢٨٠هـ / م ، وهم الذين قامت على جهودهم دولة الرعية الأولى في اليمن ، تقع في شمال اليمن في الأراضي المسدودة في منازل قبائل خولان ، الإصطخري ، الممليك والممليك ، تحقيق د. محمد جابر الحبيبي ، سلسلة النخائر (١١٩) ، مايو ٢٠٠٤م ، ص ٢٦ ، الحجري ، مجسوع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٣ ص ٤٦٧ ، المقحلي ، معجم قبائل اليمن ، ج ١ ص ٩٠٧ ، الهمداني ، صفة جزيرة جزيرة العرب ، ١١٥ ، الواسمي ، البدر المزيل للعز في فضل اليمن ومحسن صنعاء ذات المنن ، مطبعة للتعاون الأخوي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م ، ص ٢٤ .

(٢) عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس للهجريين ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب - جامعة صنعاء ، ٢٠٠٤م ، ص ٤٢٧ .

والشَّحْر^(١) ، ومرد ذلك إلى أمرين : أولها كونها مطلقة على الشواطئ اليمنية - على البحر العربي أو خليج عدن والبحر الأحمر - التي كانت غالباً مراسي لسفن السورديين إليها من التجار وغيرهم ، وهم الذين جاء بصحبته هؤلاء الطلاب والعلماء ، وثانيها : سهولة تضاريس هذا الجزء من اليمن وجغرافيته ، فهو سهل واسع لا جبال فيه ولا مضاب ، وبالتالي فالحركة به ميسورة ، ولا تستلزم للكثير من الجهد .

ومما يؤسف له أن جميع المصادر المتوافرة التي رصنت سير النشاط العلمي في المجتمع اليمني في حَقَب تاريخها الإسلامي لم تأت على ذكر كل الشخصيات التي وُزِنَت اليمن ، بل كان سرداً محصوراً لتلك الفئة التي كانت مُبَرَّزة في العلوم - أصلاً - قبل قدومها ، فهم - في نظر كتّاب المصادر - الفقهاء ، والمحدثين ، والقضاة ، والأصوليين ، وهي في مجملها لقاب علمية تدل على منازل حاملها بين شريحة العلماء ، حتى لو كان من أهداف قدومهم اليمن الاستزادة والتلقي على أمثالهم من علماء اليمن ، أي أن من رحل إلى اليمن في مرحلة للطلب الأولى ، وقبل سطوع اسمه في سماء العلم والعلماء ، فإن نكره كان مغموراً كشخصه ، وإن وُجِدَ ما يدل على وجوده على الساحة فهو إشارات هلمشية بين الكلمات على غرار ذكر الأحداث الجانبية في حياة العلماء والفقهاء الذين تقفوا عليهم واخذوا عنهم ، وأورد في هذا السياق لنموذجين يدلان على ذلك ، فهذا الإمام الحافظ أبو الحسن علي بن أبي بكر بن حنبل العرُماني (ت ٢٤١هـ / ٨٥٧م) كان يحضر درسه بعدن - حين ارتحل إليها قادماً من إب - جمع من للمغاربة والإسكندرانيين^(٢) ، وكان يقبُ إلى قرية سَنِير - وهي منزل الإمام يحيى بن أبي الخير العُرُماني - للطلاب من الحبشة والسودان^(٣) ،

(١) إحدى كبريات مدن الساحل الشمالي لبحر العرب مما يلي بلاد حضرموت في اليمن ، وقيل أن الشَّحْر هو اسم الساحل الممتد من عدن حتى عُمان الذي تقع هذه المدينة في وسطه ، وما زالت هذه المدينة محافظة بسور إلى يومنا هذا ، وجرت بها معركة كبيرة بين أهلها وبين طلائع الأسطول البرتغالي المتجه إلى مصيِّق هرمز ، كما سيأتي ، وتعد واحدة من أكبر مراكز محافظة حضرموت الإدارية ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٣ ص ٤١٧ ، السلف ، إلم القوت في ذكر بلدان حضرموت ، ص ٧٢ ، المتحفي ، معجم البلدان وقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٨٥٢ ، الهندي ، صفة جزيرة العرب ، ص ٩٠ ، ٢٤٨ .

(٢) الجدي ، الملوك ، ج ١ ص ٣٠٤ .

(٣) ابن سمر ، طبقات فقهاء اليمن ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

فمن هم هؤلاء المغاربة ، ومن هم هؤلاء الإسكندرانيين ، والسؤال نفسه يتكرر مع ذكرنا للسودانيين والأحباش ، وهو ما يجعل القارئ يقرر معي أن اليمن فعلاً كانت محطة تعليم كبرى ، يأنس إليها العالم فيجد فيها من يتعلم منه ومن يتعلم على يديه ، كما يرغب فيها الطالب فيجد فيها مبتغاه من العلم وحملته .

وهنا سأقوم بعرض أخبار مجموعة ممن قدم اليمن ومزماءه التلقي على أكبر علمائها ومن شاع ذكره من الفقهاء والمحدثين ، وهم أولئك الذين أشرت إليهم بأن المصادر أوردت ذكرهم وهم الفقهاء ، والمحدثين ، والقضاة ، والأصوليين ، ابتداءً من القرن للهجري الثاني حتى مشارف القرن التاسع الهجري - زمن الدراسة وإطارها الزمني .

في مقدمة من يجدر الإشارة إليه ممن قدم اليمن في القرن الثاني للهجري الإمام المحدث أبو عروة مَعْمَرُ بن رائد (ت ١٥٢هـ / ٧٦٩م) الذي قال عنه بالمخرمة^(١) أنه : " أول من ارتحل في طلب الحديث إلى اليمن " فحقق بغيقه وأخذ الحديث عن همام بن منبه ، وأقام باليمن عشرين سنة ، وتلمذ عليه مجموعة من أشهر رجال الحديث ، ليس على مستوى اليمن وحدها بل على مستوى العالم الإسلامي كله ، منهم من أهل اليمن عبدالرزاق بن همام الصنعاني وقاضي صنعاء هشام بن يوسف الأبنباري ، ومن غير أهل اليمن سفيان بن عيينة وسفيان الثوري وعبدالله بن المبارك ، وفي اليمن صنف كتابه (الجامع) ، الذي يعد من أقدم ما ألف في الحديث النبوي عموماً ، وينكر الجندي^(٢) أنه أول من قُبِرَ في خَزْمَةِ^(٣) .

(١) بالمخرمة ، قلعة النحر في ريفات أحيان الدهر ، تحقيق ودراسة عبدالمعني علي الأحمري ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب - جامعة صنعاء ، ٢٠١٢م ، ج ١ ص ٥٨٦ .

(٢) الجندي ، المنوك ، ج ١ ص ١٢٥ ، أما حريمه فهي مقربة صنعاء الرئيسة إلى اليوم .

(٣) ترجمته عند الجندي ، المنوك ، ج ١ ص ١٢٣ ، ١٢٥ ، ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأسم ، تحقيق محمد عبدالقادر عطا وآخر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٥م ، ج ٨ ص ١٧١ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، باعتناء مكتب التحقيق مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠١م ، ج ٤ ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٧ ص ٥ - ١٨ ، ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ط ١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ج ٥ ص ٣٥٤ ، العسري ، فريال الزمان ، تحت إشراف القاضي عبدالرحمن الإرياني ، طبعة دمشق ، ١٩٨٥م ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

ونذكر أيضاً الإمام محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤هـ / ٨١٩م) الذي قدم اليمن وأخذ عن علمائها كهشام بن يوسف وأبو حنيفة بن مسماك وإسحاق الشنبري ومحمد بن خالد الجندي ، ومطرف بن مازن اللخاني^(١) .

لما في القرن الثالث فنذكر الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ / ٨٥٥م) الذي قدم اليمن واتجه نحو عدن ليأخذ عن إبراهيم بن أبان بن الحكم العنكي ، ولكنه لم يوفق بالجلوس إليه ، ثم ارتحل إلى صنعاء فجلس إلى الإمام عبدالرزاق الصنعاني فأخذ عنه كتابه (المصنف) وأقام عنده مدة ، وأخذ عنه جماعة من محدثي اليمن مثل عبدالملك النُمَاري^(٢) .

وفي منتصف القرن الرابع الهجري قدم اليمن أبو زيد محمد بن أحمد بن عبدالله للمروزي فنزل نَمَار^(٣) ، وجلس لإقراء صحيح البخاري فيها ، وقد أخذ عنه جماعة من أعيان العلماء ، أمثال الفقيه أبو محمد عبدالله بن علي الررقاني (ت بعد ٣٥٣هـ / ٩٦٤م)^(٤) .

وفي سنة (٣٨٨هـ / ٩٩٨م) حج للفقيهان أبو محمد القاسم بن محمد القرشي (ت ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م) وأحمد بن عبدالله الصعبي (ت تقريباً ٤١٠هـ / ١٠٠٩م) وسألا شيخهما الحسين بن جعفر بن محمد المراغي المصري (ت قبل ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م) القدوم معهما إلى اليمن ، وبذلا له ما يحتاجه ؛ فأجابهما إلى ذلك ، وقام بتكريس كتبه - التي أخذها عنه بمكة - لطلبة العلم بمنهجة^(٥) .

(١) الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٣٥ ، بامدرسة ، فلاة النحر ، ج ١ ص ١٣٦ ، محمد لطف عبدالرزاق ، محدث اليمن - الإمام عبدالرزاق بن همام الصنعاني ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ٢٠٠٤م ، ص ٧٥ .

(٣) مدينة قيمة كبيرة ، تقع في سهل وراعي منبسط ، ويبعد عن صنعاء حوالي ٩٥ كيلومتراً جنوباً عسى الطريق للواصل بينها وبين محافظات الجنوب ابتداءً من إب حتى عدن ، للحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبلها ، ج ٢ ص ٢٤١ ، المصنف ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٦٤٩ ، الهذلي ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٠٦ .

(٤) الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٢١٩ ، ابن سمره ، طبقات فقهاء اليمن ، ص ٨١ .

(٥) الجندي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٢ .

في آخر القرن الخامس الهجري قدم اليمن الإمام أبو عبدالله محمد عتقوتيه المهرولاني (٥٢٥هـ / ١١٣١م) فنزل عدن ، وبقي بها مدة ، ثم صار إلى زبيد ، وهناك تعرض لمصادرة جُلِّ أمواله على يد المفضل بن أبي البركات الحميري الباطني عندما اجتاحت زبيد سنة (٥٠٥هـ / ١١١١م) ، فانتقل إلى جزيرة كَمَران^(١) وشاع علمه ، فقصدته طلبة العلم من أنحاء اليمن بتهامتها ونجدها ، يقول الجندي : " وأصحابه - أي طلابه - أكثر من أن يحصوا كثرة ... وكان يقوم بكعاية المنقطعين من أصحابه ... " ^(٢) .

ولما سمع أهل مَرِبَاط ^(٣) برسوُّ المركب الذي قدم عليه أبو عبدالله محمد بن علي بن الحسن القلعي (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) في مينائهم أكرموه ، وكان في مقدمتهم قاضي المدينة ، فطلبوا منه البقاء عندهم واستبطنها لتعليمهم أمور دينهم ، ويدلوا له ألا يتركوه يحتاج إلى شيء ، فرفض ، فلما بلغ به سلطانهم محمد بن أحمد الأكل خبره فلم إليه بنفسه وطلب منه النزول في مَرِبَاط ليفقه الناس ويدل له ما يحبه ، فاستحى منه وقبل ، فأنزله السلطان بدار تليق به ثم أقبل على التدريس ونشر العلم ، فتصامع الناس به في بقية مناطق حضرموت ونواحيها فقصدوه ، وأخذوا عنه الفقه وغيره من العلوم ، فلم ينتشر العلم في تلك النواحي من اليمن كما انتشر عنه وعن تلاميذه ، وقد حج هذا الفقيه مراراً فكان ينزل زبيد ويُعلِّم بها^(٤) .

ومن أنشط الراحلين إلى اليمن للتعليم والتعلُّيم أبو الفضل الحسن بن محمد بن أبي الحسن الصُغفاني (ت ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م) ، قدم اليمن من ممرقند مسرراً

(١) أكبر جزر الأرخبيل اليمني المكون من مجموعة من الجزر الصغيرة مثل حَنَيش الكبرى وحَنَيش الصغرى ورتَر وغيرها ، وكَمَران تقع في مواجهة مدينة الصَلَيْف على بعد ثلاثة أميال فقط من الشاطئ ، وبها عدد كبير من آبار المياه ، وتعيش بها مجموعة من الحيوانات البرية كالعُزلان والحمير الوحشية ، وهي مأهولة بالسكان ولين كانت كثافتهم ليست عالية ، وتتبع - إدرياً - محافظة الحَنَيدَة ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبلها ، ج ١ ص ١٨٧ ، حمرة علي لقمان ، تاريخ الجزر اليمنية ، ١٩٧٢م ، ص ٧ ، المنفي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ٢ ص ١٣٥٢ ، الهَمْداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٩٣ .

(٢) الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

(٣) مدينة قديمة على ساحل بحر العرب قريباً من ظفار ، ولم أجد له ذكر حتى في إدام القوت (معجم بلدان حضرموت) ، لعله الآن أصبح خرباً ، الجندي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥٢ .

(٤) الجندي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٥٤ ، ٤٥٦ .

كثيرة ، أقام بعدن وكان له بها مدرسة ، وصحبه بعض أهل الثمُلو^(١) إلى بلده فأقام بذي يَمْعَد^(٢) ، وأخذ عنه شيوخها ، وقصده جمع من الفقهاء إليها فأهتوا عنه ، وقد كان جواباً للبلاد ؛ لذلك كثُر الأخذ عنه ، إذ لا يقيم بموضع إلا لفد أهله منه ، لذلك انتشر العلم على يديه انتشاراً واسعاً ، وقدم تعز سنة (١٢٣٦هـ / ١٢٣٨م) ، وقد جاور بمكة في آخر أيامه حتى مات بها^(٣) .

كل من ذكرتهم سابقاً من أهل السنة ، ولم يكن الزيدية بأقل منهم وروداً على اليمن وهم من هم في حب العلم وتشجيع بعضهم بعضاً عليه ، وبذل العمر والجهد والمال في سبيل تحصيله ، فممن أشارت إليهم مصنفات رجال الزيدية نذكر أبا الحسين أحمد بن موسى الطبري (ت ٣٤٠هـ / ٩٥١م) كان واحداً من جماعة الطبريين الذين قدموا مع الإمام الهادي إلى الحق ثم ابنه محمد المرتضى ، وأسهموا معه بجهودهم في تأسيس المذهب الزيدي في اليمن بعلمهم وبقتالهم معه ، وكان أبو الحسين الطبري من أنشطهم وأعلمهم ، فتشير المصادر إلى أنه * على يده انتشر مذهب الهادي في اليمن ، وبينه وبين علماء المذاهب مراجعات ومناظرات^(٤) ، وقد همَّ بالرجوع إلى بلده ، وفعلًا توجه إلى زَيْد لُكَيْ يلتقي ببعض سلاطين بني زياد يستعين به على تكاليف السفر ، إلا أنه عدل عن مقابلة السلطان بل والعودة عموماً إلى بلده^(٥) ، فلما عاد بسط عليه أحد زعماء القبائل الزيدية حمايته فدخل جامع صنعاء وجدَّ في الدعوة إلى مذهب الزيدية حتى مات^(٦) .

(١) قلعة حصينة خربة ، لها شهرتها الكبيرة في التاريخ السياسي لليمن في العصر الإسلامي ، فقد جرت حولها كثير من الصراعات بين القوى السياسية المتعاقبة ، وهي تقع فوق قرية المصمورة من جبال المثلو بمحافظة تعز ، وتبلغ المسافة بينها وبين مدينة تعز حوالي ٦٠ كيلومتراً في الجنوب الشرقي منها ، وقد سكنها عدد من العلماء والفقهاء طائفيهم ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٢ ص ٢٣٨ ، المقحفي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٦٢١ ، الهندلي ، صفة جزيرة العرب ، ص ٩٣ .

(٢) قرية غير معروفة حالياً ، كانت تقع في جبل الخريم من منطقة الأعابرة بمديرية القبُـلُـطة من محافظة لحج ، وكان هذا الجبل سابقاً يتبع مخلاف المثلو من أعمال محافظة تعز ، الأكوخ ، هَوْرَ قَطَم ، ج ٤ ص ٨٠٩ ، المقحفي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٩١٧ .

(٣) الجندي ، المثلوك ، ج ١ ص ٤٠١ - ٤٠٢ .

(٤) الزحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٢ ص ٥٨١ .

(٥) تمر بعض المصادر الزيدية أن السبب في ذلك هو رُؤْي رَأْمَا دعاه فيها الإمام الهادي إلى العودة لتعاليم الناس أصول الدين ، انظر الزحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٢ ص ٥٨٢ .

ومنهم - بل أشهرهم - زيد بن الحسن البيهقي (ت ٥٥١هـ / ١١٦٥م) الذي ترك بلدته واتجه نحو لاري ببلاد فارس ، ولما زاد انتشار فكر المطرفية بين كثير من أتباع مذهب الإمام الهادي في اليمن في القرن السادس الهجري استدعاه الإمام علي بن عيسى بن حمزة السليماني (ت ٥٥٦هـ / ١١٦١م) ليأتي ويُنمِّه في الرد عليهم ورد الناس عن اتباعهم ، فلبى الدعوة سنة (٥٤٠هـ / ١١٤٥م) ، وحصل معه كثيراً من المصادر المهمة التي تُخبر في طيلتها ما يتكفل بدعم الآراء والمعتقدات التي تُحجِّم من انتشار الفكر المُطَرِّفي وتُحد من شيعه ، وبما ينعش مذهب الإمام الهادي بين أتباعه ، وقد تعرض أكثر كتبه للنهب بين مكة والمدينة ، ولم تشر المصادر إلى هوية الناهبين لها .

ولما بلغ زيد البيهقي اليمن نزل هجرة محتكة^(١) على عهد الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان (ت ٥٦٦هـ / ١١٧٠م) ، فسمع عليه جمع من أشهر رجال الزيدية ، منهم الإمام المتوكل نفسه ، والقاضي جعفر بن عبدالسلام (ت ٥٧٤هـ / ١١٧٩م) ، وتفق به كثيرون ، وأسهم مساهمة فعالة في المواجهة الفكرية بين الفرقتين الزيديتين للمختزعة والمطرفية ، فكان يمثل المختزعة في كثير من المناظرات في التي عُقدت في معازل المطرفية نفسها ، في وقش ومسناخ ، وحضر مناظرته ألوف من الناس^(٢) ما بين علوي وهسيبي وسنحاني وشهابي وصنعاني وهمداني ...^(٣) ، وجادل من كان على رأيهم في صعدة وتهامة ، وقد مات في تهامة في طريق عودته إلى العراق ، وكان بصحبته - يومئذ - القاضي جعفر ، فدفنه وواصل رحلته إلى العراق كما أسلفنا^(٤) .

(١) المصدر السابق ، نص الجزء والصيغة ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٢١٢ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٩٠ ، يحيى بن الحسين ، طبقات فريدي الصغرى ، ص ٤٧ .

(٢) قرية علمرة في أسفل وادي حيدان على مسافة ٥ كيلومترات جنوباً من منطقة حيدان من مخلاف حولان قرب صنعاء ، وهي من أقدم الهجر العلمية باليمن وأشهرها ، الأكوع ، هجر العلم ، ج ٤ ص ١٩٦١ ، المقطبي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ٢ ص ١٤٣٨ .

(٣) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٤٤٨ .

(٤) القرطبي ، مآثر الأبرار ، ج ٢ ص ٧٥٠ ، المطاع ، تاريخ اليمن الإسلامي ، تحقيق عبدالله الحشبي ، منشورات المدينة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٦م ، ص ٣١٧ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٤٤٦ - ٤٤٨ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٤٣٥ .

ومنهم أيضاً داود بن محمد الجيلاني (ت بعد ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م) ، قدم من جيلان ليلقي العابد الزيدي إبراهيم الكينعي (ت ٧٩٣هـ / ١٣٩٠م) ، وكان من المتصوفين ، وقد عده البعض بأنه شيخ أهل صعدة في العبادة والزهد والورع^(١) .
لقد كان العلماء الراحلون إلى اليمن ، سواء استوطنوها أم لا ، من الكثرة بمكان حتى أن القاضي أحمد بن علي بن أبي بكر العرشاني (ت ٦٠٧هـ / ١٢١٠م) ألف كتاباً لتراجم من قدم اليمن من الفضلاء والعلماء ، لكنه للأسف الشديد مفقود ، أشير إليه الجندي في طبقاته^(٢) .

◻ الهامش الكبير للحرية الفكرية :

العقل الحائف لا يُنتج ، لأنه مصاب - لا شعورياً - بالشلل ، والفكر المحاصر بالأطر الضيقة يركّز فيأَسَنُ كالماء ، ولا يُرْجى منه النبوغ ؛ ذلك لأنه يهوى التوغل في الأبعاد ، ولتصاع ميدان السباق يدفع المتسابق إلى عدم ادخار قواه الكاملة ليبلغ خط النهاية فائزاً ؛ فالحرية مطلب من أساسيات الحياة لا من كمالياتها ، لذلك فقد كفل الإسلام الحريات الكثيرة لكل من يعيش على أرضه مسلماً كلن أم دميّاً معاهداً ، وأسمى تلك الحريات وأرفعها هي حرية المعتقد ، فقد جعل الإسلام الإنسان حراً في اعتقاده ، ذلك ما صرحت به النصوص المتواترة ، فالقرآن الكريم يصرح بأنه : لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ

الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ .

إذا الأمر كذلك فيما يخص الحرية الاعتقادية ، فما بلنا بما هو دونها ، ومهما بلغت أهمية الحرية الفكرية في حياة الإنسان إلا أنها لا تعدل أهمية الحرية الاعتقادية ولا تكافئها ، وذلك لا يعني ترك الحبل على الغارب ، وفتح الباب على مصراعيه أمام كل عابث ؛ لأن ذلك لا يسمى حرية بل هو الفوضى بعينها ، والإسلام عندما أطلق العنان للفكر جعل له حداً ، هو ألا يُلْجَ من المجالات ما يصطدم فيها بثوابته ، وألا يبلغ

(١) ابن المؤيد ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٣٥ .

(٢) الجندي ، المطوك ، ج ١ ص ٣٦٥ .

(٣) سورة البقرة .

مدى يتعارض فيه مع عقيدته ، فالنبي ﷺ عندما أعطى للمسلمين الحرية في تتبع كل ما فيه خيرهم بقوله : " الحكمة ضالة المؤمن ، أنا وجدها فهو أحق بها " (١) هو كذلك يرسم الخط الأحمر الذي لا يسمح بتجاوزه بقوله ﷺ : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد " (٢) .

وكل اليمنيون - كثيرهم من أبناء الإسلام - قد استغلوا هذا المناخ الذي كله الإسلام لهم ، فانطلقوا في ميادين العلوم الشرعية منها والطبيعية ، فكانت اليمن - كما رأينا آنفاً - قهلاً لكثير من طلبة العلم الشرعي منذ القرن الهجري الثاني ، ويكفي للتليل على ذلك أن ثلاثة من أئمة المذاهب السنية الأربعة اتجهوا إليها طلباً للاستزادة من العلم على أيدي من كان بها من أعلامه .

وقد سبقت الإشارة إلى الدور المهم الذي لعبه كل من للطبيعة الجغرافية لليمن وموقعها بالنسبة للعالم الإسلامي في تنويع المعارف لدى أهلها وتعدد الاتجاهات والفكرية والمذهبية على أرضها ، فقد كل التواجد شاملاً للمذاهب الفقهية السنية كالشافعية والحنفية ، والمذاهب الفقهية-الفكرية كالزيدية والإسماعيلية والخوارج ، والمذاهب الفكرية الصرفة كالمعتزلة .

وإذا كان الصراع لم يهدأ طوال العصر الإسلامي لليمن عموماً فليس بالضرورة أن تكون الخلفيات الفكرية والفقهية هي المحرك له والدافع وراءه ، فقد أثبتت المصادر أن صوراً شتى من صور التعايش كانت قائمة بين أصحاب هذه الاتجاهات المتعددة ، سواء من العامة أو العلماء وطلابهم ، وقد لعبت المصالح السياسية لزعامات القوى الفاعلة وقيادتها دوراً كبيراً في استمرارية ذلك الصراع وإنكاء جذوته .

ومن جانب آخر يجب الإشارة إلى أن المصادر نفسها وإن كانت قد تناولت بعض الإشارات إلى مواقف معدودة يمكن أن تمثل أدلة لعدم توافر القدر الكامل من

(١) للترمذي ، سنن الترمذي ، ج ٥ ص ٥١ ، رقم (٢٦٨٧) ، ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، ج ٥ ص ١٣٩٥ ، رقم (٤١٦٩) ، باب (الحكمة) .

(٢) البخاري ، الجامع الصحيح : صحيح البخاري ، تحقيق د. مصطفى ديب البنا ، دار ابن كثير ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٧م ، ج ٢ ص ٩٥٩ ، رقم (٢٥٥٠) ، باب (إذا اصطلموا على صلح جور فالصلح مردود) ، مسلم ، صحيح مسلم ، ج ٣ ص ١٣٤٣ ، رقم (١٧١٨) ، باب (رد الأحكام الباطلة ورد محنتات الأمور) ، ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، ج ١ ص ٧ ، رقم (١٤) ، باب (تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتخليط على من عارضه) .

الحرية الفكرية فإن تلك الإشارات السلبية - مقارنةً مع الإشارات الإيجابية - نعد قليلة، ولنا هنا لا أنفي مصداقية حدوثها، بل أقول أن هذه المواقف هي ما شذ عن الوضع العام والشائع ، وهو المناخ الواسع للحرية الفكرية.

ومن أوضح صور المناخ الفكري الحر الذي اتسمت به الساحة اليمنية أننا نجد أن الدولة للقائمة - لياً كانت - كانت توفر لرعاياها من أتباع الفكر المضاد لفكرها الذي تقوم هي عليه قدراً كبيراً من الحرية يكفل لهم أن يمارسون أنشطتهم العلمية والفكرية بكل يسر ، ولا يهنا هنا إن كانت دوافع إصاح المجال للتعدد الفكري من قبل حكام الدول اليمنية المتعاقبة هو بسبب موازناتهم السياسية ، فحين هنا لمنا بصدد رصد تلك الأسباب ، وما نحاول الإشارة إليه هو أن الحرية الفكرية كانت مكفولة إلى حد كبير ، ونحن هنا منقول بذكر مجموعة من الأدلة - للمواقف التاريخية - المحدودة محاولاً رسم صورة ملامح الحرية الفكرية التي أثمرت إليها .

ففي عهد الدولة الصليحية ، الشيعية للفكر ، الإسماعيلية المذهب ، الفاطمية الولاء ، كان عهدها من أخصب عهود ازدهار الفقه السني الشافعي في اليمن ، فقد عاش في ظلها مجموعة من أشهر فقهاء الشافعية والحنفية باليمن ، وكانت المدارس العلمية تمارس نشاطها في الجند ودي أشرق وسهقنة وغيرها من قرى العلم ومعاقله بكل حرية ونشاط ، فنجد أن الإمام أبا أسامة زيد بن عبدالله بن جعفر بن إبراهيم اليفاعي (ت بعد ٥١٣هـ / ١١١٩م) - كما أشرت سابقاً عند حديثي عن الرحلات العلمية - أنه نشأ ببلدته بفاعنة ، ثم تدرّج الجند فتنقه بها على أبي بكر بن جعفر وإسحاق الصرّنقي ، ثم ارتحل إلى مكة فأخذ بها عن بعض العلماء من المقيمين والحجاج ، ثم عاد إلى الجند فاجتمع للطلبة حوله من عدن وأبين ولحج وأنحائها ، ومن تهامة وحضرموت ، ومن الجبال كالمعافر وغيرها ، ومن نواحي الجند نفسها كسنير وسهقنة وغيرها ، وقد بلغ عدد طلاب مدرسته بمسجد الجند ثلاثمائة طالب ، وفي المسجد نفسه ، وفي الوقت نفسه وُجنت مدرسة أخرى لشيحه أبي بكر بن جعفر بها خمسون طالباً^(١) .

فهذا الرجل - الإمام اليفاعي - يأتي في طليعة العلماء الذين يدع المذهب الشافعي لهم ولطلابهم بالفضل - بعد الله تعالى - في لتشاره فسي جميع المناطق

(١) الجندي ، المستوك ، ج ١ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ .

الجنوبية والشرقية اليمن ، فنجد أنشطته العلمية التي ذكرناها ، من رحلة داخلية إلى الجند ، ورحلة خارجية إلى مكة ، وممارسة للتدريس ، وتجمع للطلاب حوله ، وإقامة مدرستين - له ولشيخه - في مسجد الجند ، كل هذا لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتم في غيب مناخ من الحرية ، إذ لم يكن بأيدي هؤلاء الفقهاء من القوة ما يمكنهم أن يدافعوا به عن أنفسهم لو توافرت إرادة الاضطهاد لهم لدى السيدة الصليحية ، ولم تكن الدولة يومها تعاني من الضعف الذي تجد نفسها أمام الأمر الواقع من ضرورة استمالة للناس إليها ، بل كانت تعيش فترة من ازدهارها .

وإذا ما رأى الولي الصليحي - المفضل بن أبي البركات الحميري - أن في تجمع للفقهاء وطلابهم بمسجد الجند قوة يخاف منها ، فإنه لم يبادر إلى استخدام القوة بما يصب دليلاً على انحصار الحرية الفكرية في عهد دولته ، وليس ثمة ما يمنعه من استخدام القوة في تفريقهم إطلاقاً ، بل لجأ إلى ما يمكن أن يلجأ إليه أي قيادي سياسي في أي زمان وفي أي دولة ، وهو محاولة تفريقهم من خلال الاستعانة ببعضهم في المناصب القضائية دون بعض ، فقال لأصحابه : " هؤلاء - أي الإمام اليفاعي وشيخه أبو بكر بن جعفر وطلابهما - يُكفّرُنّا ولا نلْمَن خروجهم علينا مع القلب فكيف مع الكثرة ... لنظروا كيف تفرقون بينهم وتدخلون البغضاء عليهم بالوجه اللطيف " (١) ، وفي الكلمتين الأخيرتين للشاهد الكافي لما أحول إثباته .

وهذا المؤرخ أبو الضياء عبدالرحمن بن علي بن النبيع الشيباني (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م) يروي لنا أن أسعد بن شهاب الصليحي - ابن عم الملك المؤسس علي بن محمد الصليحي وصهره - لما تولى زبید : " أحسن سيرته لكافة الرعية ، ولأن لأهل السنة في إظهار مذهبهم ... " (٢) .

(١) الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٢٦٢ .

(٢) فرة العيون بلخبار اليمن الميمون ، تحقيق محمد علي الأكوخ ، ط ٢ ، ١٩٨٨م ، ص ١٧٨ ، عمارة ، المفيد في أخبار صنعاء وزبید ، ص ١٢١ ، حسين بن فيصل الله الهمداني ، الصلوحيون والحركة الفاطمية في اليمن ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ٢٠٠٤م ، ص ١١٠ ، د. محمد عبده محمد السروري ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في عهد قنويات المعنقة ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ٢٠٠٤م ، ص ٥٦ .

نعم ، لقد روت لنا المصادر مواقف لبعض حكام الصليبيين تجاه غيرهم من رعاياهم المخالفين لهم في الفكر والمذهب والمعتقد^(١) ، لكن أمثال هذه المواقف صدرت عن حكام آخرين موافقين لرعاياهم فكراً وفقهاً ، ولعل هذا يقودنا إلى أن صفة التسامح والحرية الفكرية كانت مكفولة إلى حد كبير ، وهو ما أسهم بشكل فاعل في ازدهار الحياة العلمية في اليمن في تلك الأحقاب من العصر الإسلامي لليمن .

ومما يُستدل به على هامش الحرية الذي كان قائماً آنذاك أن مجموعة من أشهر هُجَر العلم الزيدية - كسناع ووقش - كانت على مرمى حجر من علي بن محمد الصليحي في صنعاء ، إذ لا تبعد سناع عنه إلا حوالي ستة كيلومترات ، ذلك في وقت دُويح فيها كل القوى اليمنية ، ودانت له البلاد من حضرموت حتى مكة ، فلم يمس سناع بسوء^(٢) ، وكان غالبية ما أخذته الزيدية عليه من التصرفات^(٣) أنه عمد إلى تقريب أهل مذهبهِ والإحسان إليهم والوفاء بحقهم وإسناد الولايات والأعمال إليهم^(٤) .

وفي داخل المذهب الواحد تجد تعدداً للأفكار ، وتتنوعاً في المواقف ، وهو شكل من أشكال الحرية أيضاً ، فنجد - من أمثلة ذلك - أن الاتجاه الزيدي العام المؤيد للاعتزال في الأصول قد وجد من يخالفه من أبناء الزيدية وعلمائها ، منهم العلامة

(١) الجندي ، الملوك ، ج ١ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، اللخجي ، طبقات مُسلم اللخجي ، ج ٤ ص ١٧٤ .

(٢) ويقتضي الإنصاف أن نشير إلى أن علي بن محمد الصليحي مال من بعض علماء الزيدية في المناطق الواقعة شمال صنعاء وبالتحديد منطقة البون من منازل قبيلة حاشد ، فقد هدم بيوت مجموعة من هؤلاء العلماء كبيت القاضي تبع بن المسلم اللخجي ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ١٦ ، ١٧ .

(٣) لا قصد هنا أبداً أن الزيدية لم تر علي الصليحي مأخذ أخرى تخلص عقيدته وفقهه ، ففي كتابها الجديد من الرسائل والكتب التي ألفها أئمة الزيدية وعلمائها ، وهذا القاضي تبع بن المسلم - المعاصر لعلي الصليحي - كان لا يحضر مجالس الصليبيين ولا يستحل زيارتهم (المصدر السابق ، ج ٤ ص ١٣) ؛ لأن عقيدتهم هي نصها عقيدة علي بن الفضل القرطبي الذي جرت بينه وبين إمام الزيدية الأول في اليمن الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين نيف وسبعون موقعة .

(٤) ويقتضي الإنصاف الإشارة إلى بعض المواقف السلبية التي أحدثها علي بن محمد الصليحي وخلفاؤه من بعده ، فمن ذلك أنه مال من بعض علماء الزيدية في المناطق الواقعة شمال صنعاء وبالتحديد منطقة البون - من منازل قبيلة حاشد - وهو بكل الأحوال أمر غير مبرر إطلاقاً ، فقد هدم بيوت مجموعة من هؤلاء العلماء كبيت القاضي تبع بن المسلم ، وكذلك قام السلطان سبأ بن أحمد الصليحي - بسبب مساوئ بعض الوثاة - بتخريب هجرة سباع وتحويل أهلها وقتل أحد أشهر علمائها يومذاك - أبي السعود بن زيد - المصدر السابق ، ج ٤ ص ١٦ ، ١٧ ، ١٢٢ ، ١٢٣ .

حَمِيدَانِ بْنِ يَحْيَى حَمِيدَانِ (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) الذي نقل عنه الباحثون - كما سبق أن أشرت - مقولته الشهيرة : " ولقنناهم - أي المعتزلة - في الأصول ، ولم يوافقونا في الإمامة ، فعلم الاتفاق ؟ " (١) ، وقد تضمن كتاب (حكاية الأقوال العاصمة من الاعتزال) موقف حميدان من المعتزلة ، وقد نسبت إليه رسالة أخرى بعنوان (الردود المزلزلة لأعضاء المعتزلة) ، وإن وُجدَ من نسبها إلى الإمام المطهر بن يحيى (٢) .

وهذا هو أبو الطيب طاهر بن الإمام يحيى بن أبي الخير العمراني (ت ٥٨٧ هـ / ١١٨٢ م) عندما أظهر - كما يشير إلى ذلك الجندي (٣) - من المعتقد ما يخالف اعتقاد أبيه واعتقاد الفقهاء في جهته (٤) ، ما كان موقف أبيه يزيد عن هجره ومقاطعته ، وهذا الموقف من الإمام يحيى بن أبي الخير العمراني يعد تسجيلاً منه لموقفه من اعتقاد ابنه ، وتعبير منه عن رفضه له ، ومن جانب آخر هو صورة للتعبير عن إفصاحه المجال أمام ابنه ليكون حراً فيما يعتقد ، وكان موقفه هذا كفيلاً بأن يراجع الابن فكره ومعتقداته ؛ فيعود عنه بكل رضاً ، ويعلنه من على منبر يوم الجمعة بالمسجد الذي يُدرّسُ به والده في ذي لشرق .

(١) أحمد محسود صبيحي ، الزيدية ، ص ٣١٥ .

(٢) بروكلمان ، الأئمة اليمينية ، ص ٦٤ .

(٣) الملوك ، ج ١ ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٤) كان أبوه والفقهاء حذابة المعتقد ، أما هو فقد كان يميل إلى اعتقاد الأشعرية .

٥ وفرة أماكن التعليم و المراكز العلمية :

تعددت أماكن التعليم وساحات ممارسة الأنشطة العلمية في اليمن ، وذلك أن أماكن التعليم لم تكن محصورة بنمط معين من المباني ولا بتصميم محدد للأماكن ، ولم يكن ثمة ما - أو من - يُملي الموصفات العامة المحددة لها ، فكانت إمكانات المجتمع - من العامة أو الميسورين أو الحكام - المادية هي التي تصوغ المكان وتشكل صورته، ففي حين أننا نجد أن ساحة المسجد وفناءه يلعبان دور المكتب - المعلّمة^(١) في اصطلاح اليمنيين - في بعض المناطق ، نجد للمكتب قائماً منفصلاً بذاته في مكان آخر من اليمن ، وفي رأي أن الإمكانات المادية كانت العامل الرئيس في اضطرار جعل المسجد يلعب مثل هذا الدور .

وسأتي هنا على ذكر مجموعة من أماكن التعليم التي عرفها اليمنيون في حقبة ما قبل زمن الدراسة - القرنين التاسع والعاشر - وإذا كان اليمنيون قد عرفوا من أماكن ممارسة نشاطهم العلمي ما عرفه إخوانهم المسلمون في بقية أقطار العالم الإسلامي الأخرى ، إلا أنهم احتصوا بأنواع معينة لم تكن لغيرهم^(٢) ، وأشار هذا إلى أن الازدهار العلمي الذي عاشته اليمن عصرئذ كان قائماً على وفرة أماكن التعليم ومراكزه ، وسأقتصر على ذكر مجموعة من أشهر الأماكن التعليمية ، ومجموعة أخرى من أكبر المراكز التي تركزت فيها أغلب أماكن التعليم وأشهرها .

(١) المكتب - المعلّمة :

عرّفت المعاجم اللغوية المكتب فقالت إنه: "موضع التعليم" ، والمكتّيب هو للمعلم^(٣) ، إذا فالمكتب هو ما اصطلح اللغويون على إطلاقه للإشارة إلى المكان الذي

(١) الحجري ، محمد بن أحمد ، مساجد صنعاء ، علمها وموفيقها ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ومكتبة اليمن الكبرى ، صنعاء ، (صورة عن طبعة وزارة المعارف ، صنعاء ، ١٩٤١م) ، ط ٢ ، ص ١٢٥ .

(٢) سنأتي إلى استعراض هذا الموضوع بشكل موسع في الفصل الخاص بأماكن التعليم في اليمن ومراكزه من هذه الدراسة .

(٣) نقل الإمام ابن منظور قولاً غريباً لافتاً للانتباه وسببه التبرّد في معنى الكتّاب ، إذ يقول : " والكتّاب - هم - الصبيان ، ومن جعل للموضع الكتّاب فقد أخطأ " فهو إذاً يجعل الكتّاب دالاً على الصبيان أنفسهم الذين يتعلمون في المكتب ، بل ويُحطى - صراحة لا تلميحاً - كل من يطلقون تسمية الكتّاب على مكان تدريس الصبيان ، لذلك رأيت أنه من المهم الإشارة إلى هذه المعلومة لأن فيها الأمرين كليهما ، عرضاً لرأي عالم من أكبر علماء اللغة العربية في دلالة هذا المصطلح ، وكذلك ما يمكن اعتباره تصحيحاً لخطأ

يتعلم فيه الصبيان أبجديات العلم وأساسياته الأولية من كتابة وقراءة وما إليهما من حفظ للقرآن الكريم وبعض الأحاديث وغيرها ، ومن الملاحظ أن مصطلحين كانا قد شاعا في اليمن - إبان حقبة ما قبل زمن الدراسة وبعدها - للدلالة على مكان تعليم الصبيان، هما : المكتب^(١) ، والمعلمة ، والأخير هو الأكثر شيوعاً وانتشاراً حتى التاريخ المعاصر ، وكما يبدو أنه مصطلح مشتق من العلم والتعلم .

ما دمتنا قد عرفنا الدور الوظيفي للمكان قلن نلقت كثيراً إلى المسمى ، فهمنا هو الحديث عن الدور الوظيفي الذي قام به المكان ، وهو - من هذا الجانب - موجود ومُشار إليه كثيراً في مصادر تاريخ الحياة العلمية في اليمن ، ومما يؤسف له أن هذه المصادر وإن كانت قد أُنكرت من ذكر المكان - للمعلمة - إلا أنها لم تعط ما جرى فيه من أنشطة علمية قديماً كبيراً من الاهتمام ، ولا ذكراً كافياً ، كما لم تحدد كثيراً من الأمور حولها ، كما لم تكن إقامتها مثلاً .

ففي ثنايا التراجم لعلماء اليمن وقهاتها وطلابهم ، أو الحديث عن آثار ومنجزات المبرزين من حكماء وسلطينة وأعيانه ووجوهه جاءت الإشارات إلى وجود المعلمة ، ونقلاً بسيطة جداً عما كانت تختص به من نشاط ، من أمثلة ذلك ما ورد في ترجمة الأديب أبو العتيق أبو بكر بن أحمد العنّدي الأيّبي (ت ٥٠٨هـ / ١١١٤م) وزير الدولة الزُرّيعة وصاحب ديوان الإنشاء بها ، فذكر عنه أنه كان متميزاً في مرحلة دراسته في المكتب وهو لم يتعد بعدُ سن العاشرة ؛ حتى أن مؤدبه^(٢) كان يلصق فيه هذا التميز فينوسم فيه النبوغ ويتبأ له بالسيدة والرئاسة^(٣) .

شائع جداً في أغلب الأنظار الإسلامية ، انظر ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٥ ص ٢١٧ ، المعجم الوسيط ، ص ٢٨٩ .

(١) حاولت جاهداً العثور على أي إشارة إلى مصطلح المكتب فلم أعر في المصادر المتوافرة ، المطبوعة منها والمخطوطة ، إلا على إشارة واحدة في تاريخ صارة اليمني (ت ٥٦٩هـ / ١١٧٣م) وهو من أقدم المصادر التاريخية اليمنية ، انظر صارة ، العهد في أخبار صنعاء وزيد ، ص ٣٢٧ .

(٢) ليه هنا إلى أن الإشارات في المصادر تكاد - بمجموعها - أن هناك اصطلاحين يطلقان على من يقوم بتدريس الصبيان ، أما المصطلح الأول فهو المؤدب وأما الثاني فهو المعلم ، وقد تشهر أن المؤدب هو المدرس الخاص بتأديب أبناء الحكام والسلطين والوجهاء وتكريسهم لأساليب العلوم وأبجدياتها وتربيتهم والاهتمام بتعديل ما اوج من سلوكهم ، وهذا هو بدقه ما كان معروف في اليمن ، إلا أن مصطلح المؤدب كان أيضاً مما يطلق على معلم الصبيان ، وقد ارتبطت الإشارة إلى المصطلح الأول - المؤدب - بذكر مكان تعليم الصبيان على أنه مكتب ، أما ما ورد من الإشارات إلى ذلك المكال بكونه معلمة فقد

ولعل عدم قدرة أولياء أمور الصبيان على بناء المعالم المنفصلة والقائمة بذاتها كان يضطرهم إلى اتخاذ المساجد وأقنيتها مكاناً لتأديب أبنائهم وتعليمهم ، إذ تشير المصادر إلى شيء من ذلك ، فهذا مُسَلَّم اللُّخْجِي يشير إلى أن إبراهيم بن جابر - أحد مشايخ الزيدية ومكلمها - قصد أحد مساجد شبام^(١) القريبة من صنعاء فوجد بها معلماً يعلم تلاميذه القرآن^(٢) .

وهنا سأقوم بإيراد بعض الإشارات من المصادر القديمة المتوفرة إلى وجود معلم القرآن كقراءة قوية على وجود الطرف الآخر لوظيفته وهم الصبيان ، فمن ذلك أن إبراهيم بن أحمد الصبري^(٣) كان معلم قرآن في منطقة سَعَوَان^(٤) ، وكذلك كان علي بن أحمد بن أبي رَزَيْن ومالك بن أبي صنعاء من أحسن معلمي القرآن في بلاد اليمن على حد تعبير المصدر^(٥) ، وكان الحسين بن عبد الحميد^(٦) معلم القرآن^(٧) بهجرة مَنَر^(٨)

مَنَتَ القائم بالعمل فيه معلماً ، ولعلنا نقول في المؤيد والمكتب كنا مصطلحين قديمين حل محلها مصطلحا المعلم والمعلمة .

(١) الجَنْدِي ، السلوك ، ج ١ ص ٣٧٠ ، صارة ، المعيد في أخبار صنعاء وزيدية ، نفس الصفحة .

(٢) مدينة لثرية قديمة تقع عند سفوح جبل - حصن - كوكبان لشبير ، تقع إلى الغرب من مدينة صنعاء على مسافة ٤٢ كيلومتراً ، وقد حملت أسماء عدة في المراحل التاريخية المتعاقبة مثل شبام نيلان ، وشبام بضر ، وشبام حنيز ، كانت الموطن الأول لليمنيين الذين حكموا اليمن في بداية العصر العباسي الثاني ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٣ ص ٤٤١ ، ٤٤٣ ، المنحفي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٨٤٤ ، ٨٤٥ .

(٣) اللُّخْجِي ، طبقات مُسَلَّم اللُّخْجِي ، ج ٤ ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٩ .

(٥) وادٍ خصب شهير ، يقع في الشمال الشرقي من مدينة صنعاء ، عند السفوح الشمالية بجبل براش ويقع المطل عليها ، لا تتعدى المسافة بينه وبين مدينة صنعاء العشرة كيلومترات ، يقع ضمن أراضي قبيلة بني حبش ، أحد بطون خولان العالية ، أكثر ملاحة من الطب بمعظم أنواعه ولوانه ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٣ ص ٤٢١ ، المنحفي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٧٩٣ ، الهذلي ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢١٥ .

(٦) اللُّخْجِي ، طبقات مُسَلَّم اللُّخْجِي ، ج ٤ ص ٦٥ ، ١١٦ ، يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية الصغرى ، ص ٩٨ .

(٧) كل الشخصيات التي أنكرها منا عن طبقات مُسَلَّم اللُّخْجِي هي شخصيات زيدية ، لأن اللُّخْجِي لم يترجم إلا لأهل مذهبه ، وكلهم عاشوا قبل القرن الخامس الهجري .

بمشرق حاشد ، أما محمد بن إبراهيم بن رقاد فقد وُصِفَ بأنه كان " صبوراً على تعليم الأحداث والعامة والمبتدئين أصول الدين جملاً وجوامع وتفصيلاً " (٣) .

وفي إشارة صريحة وواضحة إلى وجود طرفي العملية التعليمية من المعلم والصبيان في اليمن في تلك الحقبة ما روي أن إبراهيم بن أبي الهيثم المطرفي (توفي أوائل القرن السادس الهجري) كان يتحدث إلى طلابه في هجرة وقش ف ضرب لهم مثلاً عن أن العلم لا ينفد من المعلم مهما بدله لغيره فقال : " إن المعلم يجتمع حوله حمسون متعلماً فيقرئهم بسم الله الرحمن الرحيم ، فيحفظها كلهم كما يحفظها هو ، ويبقى حافظاً لها " (٤) .

وبعد عهد الدولة الرسولية لخصب العصور اليمنية بالنسبة إلى شيوخ عملية إنشاء الأماكن التعليمية عموماً ومنها المعاملات الخاصة بالأيتام على وجه الخصوص ، فقد أشارت وثائق أوقاف المدارس العلمية التي تمثل وثائق أصلية ولأساسية لهذا الجانب إلى هذه المعاملات كونها جزءاً لا يتجزأ من المدرسة ، وقد أقيم الواقفون على تعيين معلم وأيتام يتعلمون القرآن في كل وثائق الأوقاف المتوافرة لدينا والتي تعود إلى العهد الرسولي ، وما يدعم هذه الوثائق ما تضمنته عشرات التراجم لعدد من سلاطين الدولة ونسائهم ، وكذلك الرجال المحتلين لمناصب متقدمة في هيكل الدولة وغيرهم ، وكان الأمر أضحي صورة من صور التنافس في الخير من خلال إنشاء أكبر عدد من المدارس ، والمعاملات الخاصة بالأيتام كجزء منها جميعاً .

(١) اللُخْجِي ، طبقات مُسَلَّم اللُخْجِي ، ج ٤ ص ٢٢٠ .

(٢) قرية كبيرة عامرة في منطقة أرحب من بلاد بكيل - أحد فرعي قبيلة مُسَدِّل الشهيرة - وهي من المناطق اليمنية القديمة التي مارلت تحمل اسمها دون تغيير ، بها آثار باقية للحضارات اليمنية البائدة كالحميرية ، وصفيه الهَمْدَنِي وصف للمشاهد لها فقال : " فأما سدر فأكبر بلد مُسَدِّل مائراً ومحافظ - بعد ناعط - وفيها أربعة عشر قصراً ... ولم يعد هناك اليوم شيئاً من هذه القصور ، وقد اتحدت من حجارة أطلالها مبانٍ سكنية حديثة ، حتى مسجدنا الذي وصفه الهَمْدَنِي بأن عمارته تفوق عماره للمسجد الحرام ، كانت من أشهر الهجر العلمية ببلاد اليمن ، وكانت أحد معقل الزيدية منذ دخلها الإمام الهادي نسي آخر القرن الثالث الهجري ، الأكوخ ، هجر الطم ، ج ٤ ص ١٩٩٤ - ١٩٩٨ ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبلها ، ج ٤ ص ٦٩٨ ، المفهفي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ٢ ص ١٤٦١ .

(٣) اللُخْجِي ، طبقات مُسَلَّم اللُخْجِي ، ج ٤ ص ٢٥٣ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٨٥ .

من ذلك ما أشارت إليه وثيقة الوقف المرصود للمدرسة الطاهرية بمدينة تعز إلى اعتماد خمسة عشر يتيماً يتعلمون القرآن الكريم في معاملة تتبع المدرسة ، ورتبت الوثيقة لهؤلاء الأيتام المعلم الذي سيعلمهم القرآن الكريم ، وتكفل الوقف براتب شهري لهذا المعلم ولكل يتيم من الأيتام الخمسة عشر^(١) .

وتفيد وثيقة الوقف الخاص بمدرسة سلامة بتعز بتعيين معلم لخمس أيتام ، وحددت مهمته بالقيام بتعليمهم القرآن الكريم تلقيناً وحفظاً ، وأوكلت الوثيقة إلى ناظر الوقف مهمة مراقبة الأيتام ، فمن أقام منهم أربع سنوت ولم يستفد أخرجه ورتب يتيماً آخر عوضاً عنه^(٢) .

وتقوم وثيقة الوقف الخاص بالمدرسة الياقوتية بذي السفال بتحديد أربعة أيتام ومعلم يقوم بتعليمهم القرآن على مرور الأزمان سوى الجمع والأعياد والأوقات التي جرت عادة الطلاب عدم الدراسة فيها ، وأكدت على المعلم المواظبة والقيام بوظيفته ، وألا يغفل عنها إلا بعذر شرعي وبشرط الاستتابة عنه بشخص يقوم مقامه^(٣) .

أما إذا أخذنا بعض الأمونحات مما ذكر في مصادر التراجم والطبقات ، فنجد أن عدة أشخاص قد قاموا بتحديد أشياء معاملة لما ذكرته وثائق الوقف السابقة ، منها - على سبيل المثال لا الحصر - ما قام به السلطان المجاهد علي بن داود الرسولي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) من تأسيس خمس منشآت تعليمية ، منها ما هو مدرسة ومنها ما هو مسجد ، ثلاث منها بتعز ، واثنان بمدينة زبيد ، وأعطت في كل منشأة معاملة للأيتام^(٤) ، " ووقف على الجميع لوقفاً جيدة في وادي زبيد وتعز من محاسن أملاكه ، ورباعاً وضباعاً " ^(٥) .

(٢) المساجد الجامعة :

أسست المساجد في اليمن منذ فجر الإسلام على عهد النبي ﷺ ، فقد قام الصحابي للجليل وبر بن يحيى الخزاعي رحمه الله - بأمر من النبي ﷺ - بتأسيس أول

(١) الوثيقة الضاتية ، وثيقة مدرسة الطاهرية بتعز .

(٢) الوثيقة الضاتية ، وثيقة مدرسة سلامة .

(٣) الوثيقة الضاتية ، وثيقة لمدرسة الياقوتية بذي السفال .

(٤) الخزرجي ، الطود للولوية ، ج ٢ ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٥) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

مسجد في اليمن في السنة السابعة عقب عودته مع وفد الفرس - الحاكمين بصنعاء - من المدينة^(١) ، وكانت مهمته الأولى هي أن يتولى تعليم المسلمين من سكان صنعاء القرآن الكريم وتعاليم الإسلام ، وتتابع بناء المساجد بعد ذلك ، فقام الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه ببناء مسجدين أحدهما في جبل صنيد^(٢) والثاني في مدينة الجند في السنة التاسعة والعاشر للهجرة^(٣) ، وبني أبو موسى الأشعري مسجد الأشاعر في وادي زبيد^(٤) .

وقد كانت الوظيفة الأولى للمساجد في اليمن - كغيرها - وظيفة تعليمية ، ففيها تلقى اليمنيون مبادئ الإسلام ، وسمعوا فيه حديث النبي ﷺ ، وتلقوا فيه توجيهات الصحابة الذين وصلوا إلى أرضهم ، واستمرت هذه الوظيفة في التطور مع الأيام حتى وجدت في المصادر من المعلومات ما يدل على أن المسجد الواحد من المساجد الجامعة الكبرى قد قامت الحركة العلمية في ناحيته ، وفي ساحات هذه المساجد عقدت جلسات العلم للشرعي والدنيوي معاً ، حتى أن بعض المساجد حوت أكثر من مدرسة . ونظراً لكثرة المساجد وعظمة الأدوار التي قامت بها في خدمة الركائز البشرية للحياة العلمية في اليمن في قرون ما قبل زمن الدراسة - القرنين التاسع والعاشر -

(١) ابن حجر ، الإصحاح في تمييز الصحابة ، مؤسسة التاريخ العربي ودار إحياء التراث العربي ، ط ١ ، ١٣٢٨هـ ، ج ٣ ص ٦٣٠ ، الرزي ، تاريخ مدينة صنعاء ، تحقيق د. حسين عبدالله العمري وعبدالجبار زكار ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٤م ، ص ، ابن عبدالبر ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، مؤسسة التاريخ العربي ودار إحياء التراث العربي ، ط ١ ، ١٣٢٨هـ ، ج ٣ ص ٣٦٥ ، ٦١٨ ، (في عاشر كتاب الإصحاح في تمييز الصحابة ، لابن حجر) .

(٢) الهذلي ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٤٩ ، د. عبدالرحمن الشجاع ، اليمن في صدر الإسلام ، ص ١٦٢ .

(٣) المرجع السابق ، نص الصفحة ، عمارة ، المفيد في أخبار صنعاء وزبيد ، ص ٧٣ .

(٤) عبدالرحمن الحضرمي ، زبيد ، مساجدها ومدارسها العلمية في التاريخ ، المركز الفرنسي للدراسات اليمنية ، صنعاء ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، ٢٠٠٠م ، ص ٥٤ ، جامعة الأنصار ، الشركة اليمنية للطباعة والنشر ، صنعاء ، ط ١ ، ١٩٧٤م ، ص ١٦ ، ١٩ ، ابن النقيب ، فرة العيون والخواطر فيما حكاه الصالحون في فضل جامع الأشاعر ، تحقيق عبدالرحمن الحضرمي ، مجلة الإكليل ، العدد الثالث والرابع ، السنة الأولى ، ١٩٨١م ، ص ١١١ ، عبدالله قاسم الوشلي ، المسجد بدوره الاجتماعي على مدار التاريخ ، مؤسسة الكتاب للقافية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠م ، ص ١٩٣ .

سأقوم بالحديث عن مجموعة من أهم المساجد الجامعة في مناطق مختلفة من اليمن على سبيل العينة المعبرة عما سواها .

☐ الجامع الكبير بصنعاء :

سبقت الإشارة إلى أن النبي ﷺ بعث الصحابي الجليل ربر بن يحنس الخراعي مع وفد الأبناء^(١) في السنة السابعة للهجرة ، وكلفه ببناء أول مسجد في صنعاء ، وكانت مهمته - كغيره من مبعوثي النبي ﷺ - هي تعليم القرآن الكريم ومبادئ الإسلام وفرائضه ، وقد حدد له النبي ﷺ موضع تأسيس الجامع في بستان باذان رأس الأبناء ، ومن المرجح أنه أدى مهمته التي لوكلت إليه فيه .

واستمر جامع صنعاء في القيام بهذه الرسالة المعمية ، في القرون التالية ، وقصده العلماء والفقهاء للتدريس فيه ، وقصده طلبة العلم من اليمن وخارجها لأخذ عنهم ، ولا ننس أن الإمام محمد بن إدريس الشافعي قصد اليمن في آخر القرن الثاني للهجرة النبوية ، ودخل صنعاء ، ومن المؤكد أنه دخل الجامع الكبير بها وجلس إلى من فيه من العلماء والمحدثين ، أمثال عبدالرزاق الصنعائي ومطرف بن مازن الكناني وهشام الأبنلوي^(٢) ، وقد كان تحول صنعاء - وجامعها بالتأكيد - كلمات يحدو بها طلاب العلم أثناء رحلتهم إليها ، وأوردت بعض المصادر أن كلمات الحذاء كانت :
لا بد من صنعاء وإن طال السفر لطيبها ، والشيخ فيها من ذير^(٣)

(١) الأبناء في بعض المعاجم اللغوية العربية ومصادر دراسة للتاريخ اليمني هو المصطلح الذي أطلق على الأجيال التي استولدها الفرس - الذين جاءوا مع سيف بن ذي يزن الحميري لتحرير اليمن من الحكم المشي - من أمهات بطنيات ، ذلك لأن آباءهم استقروا باليمن وتزوجوا ورزقوا أولاداً ، فصار اليمنيون يطلقون عليهم الأبناء لأنهم يختلفون عن آبتهم بسبب اختلاف أمهاتهم من جنسهم ، ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١ ص ٣٦٤ ، الشجاع ، اليمن في صدر الإسلام ، ص ٢٤ ، أما نشون الحميري فيطيرهم الفرس القادمين مع سيف بن ذي يزن أنفسهم . ورغم أنهم كان يقال لهم . أبناء سيف ، انظر ، الحميري ، منتخب من أقوال اليمن من شمس العلوم ونوادر كلام العرب من الكلام ، عناية وتصحيح عظيم الدين أحمد ، مطبعة بريل ، لندن ، (د ، ت) ، ص ١١٦ .

(٢) الجندبي ، السلوك ، ج ١ ص ١٣٩ ، ١٤٤ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤٣ .

وتنكر المصادر صوراً شتى من النشاط العلمي الذي جرى في هذا الجامع ، من ذلك أن الإمام الهادي يحيى بن الحسين (ت ٢٩٨هـ / ٩١٠م) لما دخل صنعاء جرت مظاهرة بينه وبين سبعين من علمائها ، استطاع من خلالها لسماعتهم وإحلالهم في مذهب^(١) ، أما أبو الحسين أحمد بن موسى الطبري (ت ٣٤٠هـ / ٩٥١م) - أحد علماء الزيدية - قد نخل في جوار ابن الضحاك الهمداني فبسط عليه حمايته ، فدخل جامع صنعاء وجدّ في الدعوة إلى مذهب الزيدية حتى مات^(٢) .

ولم تسعفنا المصادر بمعلومات كافية عما دار من أنشطة علمية في هذا المسجد في القرون التالية ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تتعمد صور التعلم والتدريس فيه ، خلاصة إذا رأينا أن هناك عدداً من العلماء البارزين في شتى فروع المعرفة كانت صنعاء مسكنهم ، مثل أحمد بن عبدالله الرازي للصنعاني (ت ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م) صاحب كتاب (تاريخ مدينة صنعاء) ، فيه تحدث الرازي^(٣) عن مشائخه الذين درس على أيديهم ليصبح بعد ذلك " إماماً عارفاً بالفقه والحديث "^(٤) ، فمن المرجح أنه تلقى على أيدي كثير منهم في جامع صنعاء نفسه ، إضافة إلى أنه كذلك كان له طلاب يأخذون عنه .

❏ جامع معاذ بن جبل بالجند :

أشرت آنفاً إلى أن الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه قام - بأمر النبي ﷺ - ببناء المسجد الجامع بالجند ، وكانت الوظيفة التعليمية لهذا الجامع مرتبطة بالوظيفة التبشيرية منذ إنشائه ، وقد جعل اليمانيون هذا الجامع في طليعة الجوامع المباركة^(٥) ، وقد كان متجهاً للعلماء ، وقبلة للطلاب ، وهو من المساجد التي من المحتمل أن الإمام

(١) يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية الصغرى ، ص ٤١ .

(٢) فريحي ، مآثر الأبرار ، ج ٢ ص ٥٨٦ ، ٥٨٢ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٢١٢ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٩٠ ، يحيى بن الحسين ، المصدر السابق ، ص ٤٧ .

(٣) تاريخ مدينة صنعاء ، ص ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ .

(٤) الجندى ، الملوك ، الجند ١ ص ٢٨٢ .

(٥) الجندى ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٨١ ، وقد أورد حديثاً حول فصل مسجد الجند ، ولورد ونقاشاً حول الحديث ، ونصه : " تشد الرحال إلى أربعة مساجد . المسجد الحرام ، ومسجد هذا ، والمسجد الأقصى ، ومسجد الجند " ، عبارة ، المفيد في أخبار صنعاء وزيد ، ص ٧٣ ، ٧٤ .

محمد بن إدريس الشافعي درس بها ، فقد ذكر المؤرخون أن من مشائخه باليمن محمد بن خالد الجندي^(١) ، ولعله سمع منه وأخذ عنه بالجند نفسها ، أي في مسجد ها .

ولبتداء من القرن الخامس الهجري لمع ذكر هذا المسجد كواحد من أهم مراكز التعليم وأكبرها في اليمن على مر تاريخها ، ارجعت جناباته بالفقهاء والعلماء والمحدثين ، ولكتظت نواحيه وأفنيته بالطلاب من جميع نواحي اليمن تقريباً .

ولعلنا إذا رجعنا إلى العنوان السابق الخاص برحلة العلماء وطلبة العلم اليمنيين إليه في رحلاتهم الدلالية نجد أنه كان مما يجعل الشخص منهم ذو مكانة عالية أن يكون ممن تخرج في الجند ؛ ذلك أنه لم يكن يحظ بفرصة التدريس به إلا من المبرزين من أعيان العلماء والفقهاء ، وهو ما انعكس إيجاباً على مستوى طلابهم .

ومن أشهر من درس به أبو عبدالله جعفر بن أحمد بن محمد بن عبدالرحيم المحابي (ت ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م) الذي وصفه المؤرخون^(٢) بأنه كان رأس الفقهاء وإليه تنتهي الفتوى ، وقد كان كثير التردد من يلبه إلى الجند لمراجعة علمائها ، فكان حاكمها زيد بن المعمر يتلطف به ويحسن إليه قاصداً إقناعه باستيطان الجند والتصدر للفتوى والتدريس^(٣) ، فأحلبه إلى ذلك بشروط ، وقام بالتدريس بمسجد الجند حتى دخلها علي بن محمد الصليحي .

وخلفه بمكانه ومكانته ابنه أبو العتيق أبو بكر المحابي الشافعي (ت ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م) الذي كان من التميز بمكان أهله لكي يفوق أباه علماً وفقهاً ، بل ويفوق جميع أقرانه في اليمن عموماً ، قال عنه الجندي^(٤) : " كان فقيهاً جليلاً للقدر ، شهيراً للذكر ، محققاً ، مدققاً ، مستخرجاً للنكت العامضة والمعاني الرائقة ، إليه انتهت رئاسة العلم باليمن بتفقه علي أبيه " ، وكان ذا نشاط كبير في طلب العلم وتعليمه ، ذكر عنه أنه كان خصص لنفسه رحلة كل سنة إلى زبيد لينظر خلالها أعلام الفقهاء من الحنفية ، وفي مقدمتهم القاضي محمد بن أبي عوف الحنفي^(٥) ، وكان بحلقة تدريسه بمسجد الجند

(١) الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ١٣٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٤ ، ابن سرة ، طبقات فقهاء اليمن ، ص ٩٤ .

(٣) الجندي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤٤ .

(٥) المصدر السابق ، نفس الجزء والسفحة .

ما بين خمسين إلى ستين طالباً ممن دلوم على حضوره ، منهم من صار من أعلام اليمن كزيد اليفاعي الأتي ذكره ، أما من كان يأخذ عنه لفترات قصيرة فهم - كما يقول الجندى^(١) : " جمع كثير لا يكاد الحصر يدركهم " .

ومن أشهر من تصدر للتدريس بمسجد الجند يأتي أبو أسامة زيد بن عبدالله بن جعفر بن إبراهيم اليفاعي الشافعي (ت بعد ٥١٣هـ / ١١١٩م) ، الذي أجمع أهل زمانه ومن بعدهم على نزاهة عرضه ، وحسن تدريسه ، وجودة علمه ، وشدة ورعه ، كان مسجد الجند في أيام تدريسه يزدان بالطلاب ، وكان له مدرسة خاصة به داخل المسجد ، وكان محبوباً من قبل طلابه لصفاته السابقة ؛ فكثروا بين يديه ، قيل أنهم كانوا يملكون ما بين المنبر والباب ، وكان يقوم بإعالة وكسوة الفقير منهم ، ولم يكن وحده من يقوم بالتدريس ، فقد كان لشيخه أبي بكر بن جعفر مدرسة أخرى في المسجد نفسه ، وإن كان عدد طلابه أقل من عدد طلاب تلميذه زيد اليفاعي^(٢) .

ومنهم أيضاً الإمام أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبدالله بن سلامة البريهي الحنبلي (ت ٥٨٦هـ / ١١٩٠م) ، كان من أعلم أهل اليمن بالحديث وعلومه ، " ومن عظماء علماء المسلمين " ^(٣) ، بلغ من العلم منزلة جعلت أهل اليمن تطلق عليه لقب سيف السنة وناصر السنة^(٤) ، تخرج على بعض المحدثين بمكة ، وفي سنة (٥٨١هـ / ١١٨٥م) نزل إلى الجند وعقد مجلساً لسماع صحيح مسلم ، وحضره جمع كثير من العلماء والطلاب ، ثم انتقل إلى تدريس بعض كتب الشريعة فزاد عدد طلابه^(٥) .

✧ مسجد الأشاعر بزييد :

سبقت الإشارة إلى أن مسجد الأشاعر من أقدم المساجد في اليمن ، وأنه قيل عنه أنه من المساجد التي بنيت على عهد النبي ﷺ على يد الصحابي الحليل أبي موسى

(١) الجندى ، المطوك ، نفس الجزء والصفحة .

(٢) باسخرمة ، قلادة النحر ، ج ٢ ص ٤٩٥ ، الخرجي ، طراز أصلام الزمن ، ص ١١٦ ، ١١٧ ، الجندى ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(٣) الجندى ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٢٠ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣١٨ - ٣٢٠ .

الأشعري ، وقد لعب دوراً مماثلاً للأدوار التي قلم بها المسجدان السابقان ، وقد نرّس به مجموعة من العلماء الذين أشارت إليهم المصادر ، منهم الأخوان محمد وعلي ابنا عيسى اللذان رأهما المؤرخ ابن سمره^(١) (ت ٥٨٦هـ / ١١٩٠م) يدرسان فيه ويرشدان الطلاب ويفقهان السائل ، كذلك كان للفقير عبدالله بن أسعد حلقة تدريس فيه ، يقول ابن سمره^(٢) أنه " رآه مدرساً في مسجد الأشاعر بزييد ، وحوله جماعة يقرؤون عليه " .

ومن أبرز من درس في مسجد الأشاعر أيضاً الشيخ عيسى الهتار (ت ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م) الذي كان طلبة العلم يلتفون حوله بمجرد دخوله المسجد ، ويلتفون عنه ويستفتون به^(٣) .

وقد حظي هذا المسجد بعناية كبيرة من قبل السلاطين الرسولين وأعوانهم ، فقد أمروا - في عهدهم - بالاهتمام به من خلال تزويده ببعض احتياجات العلماء السدين يدرسون به وطلابهم ، مثل قيام الأمير غازي بن المعمار (ت بعد ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م) بنصب منبر^(٤) في جانب المسجد ، ورفع للكتب اللازمة للدراسة ، وأمر بأن تقرأ كتب الحديث والوعظ بعد صلاتي الصبح والعصر من كل يوم^(٥) ، وأشهر من تولى هذه المهمة الفقيه الحطيب عمر بن عبدالرحمن الدملوي (ت ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م) ^(٦) .

(١) ابن سمره ، طبقات فقهاء اليمن ، ص ٢٤٥ .

(٢) المقصود السابق ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

(٣) الشرجي ، طبقات الخواص أهل الصنق والإخلاص ، الدار اليمنية ، صنعاء ، ط ١ ، ١٩٨٦م ، ص ٣٠٣ .

(٤) المنبر هنا ليس ما يصعد عليه خطيب الجمعة ليلقي خطبته ، إنما المقصود هنا كرسي مرتفع يجلس عليه قارئ الحديث عند إلقاء درسه ، للاطلاع على الوصف النقي لمدير الحديث بجامع الأشاعر انظر د. ربيع حامد خليفة ، الفنون الزخرفية اليمنية في العصر الإسلامي ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٢م ، ص ٩١ ، ٩٢ ، العبادي ، الحياة العلمية في مدينة زبيد ، ص ١٤٨ .

(٥) الجندي ، السلوك ، ج ٢ ص ٥٧١ ، ابن القديع ، بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي ، مركز الدراسات والبحوث اليمنى ، صنعاء ، ١٩٧٩م ، ص ٨٥ .

(٦) الشرجي ، الطول للؤلؤة ، ج ٢ ص ٢٤٣ .

وأصدر السلطان الأشرف الثاني إسماعيل بن العباس (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) مرسوماً إلى القاضي القضاة مجد الدين الفيروزآبادي سنة (٧٩٩هـ / ١٣٩٦م) بأن يندب لإمامة مسجد الأشاعر فقيهاً شافعيًا ، ذلك لأن المسجد كان للفقهاء الأحناف حتى ذلك الوقت^(١) ، ولم يحدد المؤرخون سبب انتقاله إلى أيدي الفقهاء الشافعية ، فاختار للقاضي مجموعة من القضاة ليرشح للسلطان بنفسه أحدهم ، فوقع الاختيار على الفقيه موفق الدين علي بن محمد بن قحز (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) ، وفي هذا دلالة واضحة على ما أولاه السلاطين لهذا المسجد من الاهتمام ، فصور مرسوم لا يكون إلا في أمور لها أهميتها ، ثم كان من الممكن أن يوكل إلى القاضي بقية تفاصيل هذه المهمة ، إلا أنه أبقى إلا أن يختار الفقيه بنفسه.

⊠ مسجد أبان بن الحكم العدني بعن:

لم تثر المصادر كثيراً إلى مساجد عدن ، ومن غير الممكن أن يفسر ذلك بأنه يرجع إلى اندثار النشاط العلمي بها ، فهي جزء من الأجزاء المهمة من اليمن ، أي التي كانت مرتبطة ببقية أجزائه الأخرى ارتباطاً وثيقاً ، وذلك نظراً لموقعها الإستراتيجي المهم في مداخل البحر الأحمر ، والأحرى أن يكون موقعها هذا دافعاً لاحتكاكها بمسلمين آخرين ممن يقفون إليها أو يعبرون منها في طريقهم إلى مكة والمدينة ومصر والشام ، إذاً السبب في عدم وجود الإشارات الكثيرة إلى مساجد عدن هو عدم وجود المؤرخ الذي يرصد ما يجري ويسجله لمن يأتي بعده ، وعدن في هذا الشأن مثلها مثل كثير من مدن اليمن وقراء التي ضاعت الكثير من المعلومات الغزيرة عنها بسبب ندرة . بل اندثار - من يؤرخ لها .

من الإشارات القليلة جداً إلى مساجد عدن نجد مسجد أبان ، وهو منسوب إلى أحد عباء التابعين ، وهو أبو مروان أبان بن الحكم بن أبان العدني ، وقد كان بالمسجد أحد أخوة هذا التابعي الجليل ، كان مشهوراً في علم الحديث ، وقد بلغت شهرته للعراق حتى قدم الإمام أحمد بن حنبل إليه ليطلب الحديث عنده في العقد الأخير من القرن الثاني الهجري ، وهذا الرجل العالم المحدث هو إبراهيم بن الحكم العدني ، وقد ذكر

(١) الخرجي ، الطوطبة ، ج ٢ ص ٢٢٨ .

الجندي^(١) أن الإمام أحمد لم يجد إبراهيم في عدن حين قُبِعَها ، فقابل معه المكثّر بن أبيان العدني فقال له : " في سبيل الله الدريهمات التي أنفقناها إلى ابن أخيك ... " ^(٢) .

وقد ورد في المصادر ذكر اسم مسجد عدن ، ولا يعرف هل هذا المسجد هو نفسه مسجد أبيان أم أنه غيره ، من ذلك ما ذكر الحزرجي^(٣) أن من مآثر عمران بن محمد بن سبأ الزريعي المنبر المنصوب في مسجد عدن ، إلا أن هذه الإشارة خلت من تحديد ما إذا كان هذا المسجد هو مسجد أبيان أم غيره ، كما لم تشر إلى من يقوم به ، ومن يتولى التدريس فيه^(٤) .

❏ جامع الإمام الهادي يحيى بن الحسين بصفحة^(٥) :

ويُعرف أحياناً بمسجد صعدة ، ولا توجد أي إشارة في المصادر التي بين يديّ تحدد لنا تاريخ بنائه ، إلا أنه من الممكن أن تسميته جاءت من كونه بني على عهد الإمام الهادي حين اتخذ صعدة عاصمة لدولته - للدولة الزيدية - في آخر القرن الهجري الثالث ، أو لأن الإمام الهادي كان يصلي بالناس فيه جميع الصلوات^(٦) ، ولما كان الإمام الهادي هو أبرز رجال مذهبه في زمنه فمن المرجح أن أغلب من تبعه من أهل اليمن أخذوا على يديه ، وما دام أنه كان يصلي فيه جميع الصلوات إماماً فمن المرجح أن كثيراً من دروسه عقدت في هذا للمسجد .

ومن إشارات المصادر^(٧) إلى بعض صور النشاط التدريسي في هذا المسجد قيام الإمام زيد بن الحسن البيهقي (ت ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م) بالتدريس فيه ، وهو واحد من

(١) الملوك ، ج ١ ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٣٥ .

(٣) المسجد المسبوك ، ص ٩٥ .

(٤) عبدالحجس المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ٥٦ .

(٥) تطلق عليه بعض المصادر لزيدية المشهد المقصود ، انظر مثلاً ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ .

(٦) السحلي ، الحقائق الزيدية ، ج ٢ ص ٣٨ ، قهروني ، الإفادة ، ص ١١٤ .

(٧) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٤٤٧ .

أشهر رجال الزيدية^(١) ، الذي كان له مجالس إلقاء تعقد في كل يوم خميس وجمعة من كل أسبوع على مدار سنتين .

ومن عقد مجالس السماع به أيضاً بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن يحيى الحسني (ت ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م) ، وكان له طلاب متميزون أخذوا على يديه ، واشتهر بعضهم ، وأصبحوا من رجال الزيدية المعروفين ، مثل حميد بن أحمد بن علي القرشي (ت ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م)^(٢) .

(٣) الهجر العلمية:

سنأتي لاحقاً - بمشيئته تعالى - على الحديث عن تطور مدلول كلمة الهجرة في اللغة حتى ولادة مصطلح الهجرة العلمية ، التي لا تعني - في دراستنا للحياة العلمية في اليمن - ما قد يتبادر إلى ذهن الكثير عند الوهلة الأولى لقراءتها من أنها تحمل معنى قولنا : الرحلة العلمية ، فهي ليست هنا إلا مرادفاً لما يمكن أن نطلق عليه القرى العلمية المباركة ، فهي في الأخير قرية ذات خصوصية معينة في نواح عدة تميزها عن غيرها من آلاف القرى اليمنية الأخرى المجاورة لها ، مثل بدايات إنشائها ، ونوعية سكانها من حيث الوظيفة وطبيعة الدور الحياتي ، واهتمامات قاطنيها وسلوكهم ، ووضعها داخل مجتمع القبيلة في اليمن .

وسأتي هنا إلى الحديث عن مجموعة من أشهر الهجر العلمية في اليمن في حقبة ما قبل زمن الدراسة ، جاعلاً تناولي لها ولغيرها - مما سبق وما سيلحق - دليلاً على ازدهار الحياة العلمية في اليمن ، وأن كثرة هذه المراكز العلمية كان سمة من سمات هذه الحياة العلمية لدى أسلاف اليمنيين في تاريخها الإسلامي ، فمن أشهر الهجر العلمية نجد :

[٤] هجرة صنعاء :

ويطلق عليها في تاريخنا المعاصر صنع ، وهي قرية عامرة من متزهات صنعاء حالياً ، تقع إلى الجنوب الغربي منها على بُعد ستة كيلومترات^(٣) ، وهي لقدم

(١) سبقت الإشارة إليه في الحديث عن الوالدين إلى اليمن من غير أهلها .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٤١٧ ، ٤١٨ .

(٣) الأكرع ، هجر العلم ، ج ٢ ص ٩٤٥ ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ١ ص ١٢١ ، المقضي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٨١٩ .

هجرة علمية في تاريخ اليمن ، وقد جازمت بعض المصادر أن مؤسسها هو مطرف بن شهاب بن عمر بن عباد العبدي الشهابي الزيدي (تقريباً ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) وصاحبان له ، ولم يحدد من هما هذان الصاحبان ، كما لم يحدد تاريخ تأسيسها ، ثم يشير إلى أن مطرف بن شهاب وصاحباها نزلوها وبنوا مسجداً فيها^(١) ، ولا يفهم من هذه الإشارة ما إذا كانت هذه الهجرة قائمة كقرية عادية من قبل مجيء هؤلاء الثلاثة أم أنهم هم أول من نزلها وهي أرض غير عامرة .

وهذه الهجرة العلمية هي الحاضنة الأولى للفرقة الزيدية المطرفية ، فنيها قام مطرف بن شهاب وأصحابه بنشر عقيدتهم ، ولعل ازدهارها في عهد تلامذته ومن جاء بعدهم كان أكبر وأكثر مما كانت عليه في عهده ، وبها دار الصراع العكري الكبير بين الفرقتين الزيديتين : المطرفية والمختارعة ، وقد جرت في سناع المظالمات الكثيرة والدائمة بين رجال العلم من الزيدية ، منها ما ذكره مسلم اللخمي^(٢) في ترجمة الحسن بن أحمد بن زايد الجنبي المطرفي ، إذ يقول : " كان الحسن بن زايد ومحمد بن حميد البرسمي ينزلان حدة"^(٣) ، وكانا يعتقدان يومئذ مسائل خلاف من نحو لا اختراع ، فكانا يلتقيان أشياخ الزيدية بسناع للمناظرة .

ويبدو أن المطرفية كانت تقوم بكل أنشطتها داخل المسجد الذي بناه مطرف ، حتى تحول القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام (ت ٥٧٤هـ / ١١٧٦م) من القول بعقائد المطرفية إلى الاعتقاد بالاختراع ، فنبى بحماس للدفاع عن عقيدته الجديدة ، وكان له أتباع وتلاميذه كأحمد بن الحسن الرصاص (ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨م) ، كانوا

(١) يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية الصغرى ، ص ٨٠ ، د. عبد الرحمن الشجاع ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ط ١ ، ٢٠٠٤م ، ص ١٤٢ .

(٢) طبقات مسلم اللخمي ، ج ٤ ص ٥١ ، يحيى بن الحسين ، المصدر السابق ، ص ٩٨ .

(٣) قرية عامرة ، ذات طبيعة جميلة ، من مخلاف بني شهاب بمديرية بني مطر ، هي أحد أشهر مزارعها مدينة صنعاء ، تقع في الجيوب الغربي من صنعاء ، وقد امتد عمران صنعاء إليها فالتهم معظم مزارعها وبساتينها ، وقد سكن بها مجموعة من رجال العلم الزيدية باليمن ، وقد كان الحسن الجنبي من أشهرهم ، الأكوخ ، هجر العلم ، ج ١ ص ٤٤٧ ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٢ ص ٢٥٠ ، البقاعي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٤٣٣ .

هم عماد مدرسة الاختراع التي أسسها بسناع^(١)، فما كان من المطرفية إلا أن حذوا حذوه فأسسوا مدرسة أخرى بجانب المسجد ليعارضوه بها .

ومن أشهر وأقدم من درّس في هجرة سناع الحسن بن زايد الجنبى^(٢) ، كان ينزل حدة - كما أشرت - وكان من العناصر الزيدية المخترعة للنشطة ، فكان يقوم بمناظرة علماء المطرفية بسناع على أيام مطرف بن شهاب نفسه ، حتى اقتنع بصواب موقفهم فانتقل إلى سناع واستوطنها ، وبلغ من العلم مبلغاً كبيراً ، وأصبح ذا تأثير عظيم على أتباع الزيدية ، وهو من أوائل من عقدوا مجالس التدريس ، بصفه مُسَلِّم اللّٰحْجِي^(٣) يقول : " كان عظيم البركة على الزيدية ، سعيد الجد على الملّة ، قوي التأثير ، حسن السيرة ، وذلك لأنه أول من عقد مجالس للتدريس وتعليم الأصول ... وتلقين المسائل الأصولية والكلام عليها ليلاً ، والسر بذكر الله تعالى ، وتعليم توحيده في الليالي بسناع " .

إن ما ذكره مسلم هنا يعد إشارة مهمة جداً ؛ لأنه وإن كان حديثه هنا عن شخصية واحدة ، إلا أن هذا الحديث ينطق بكثير من الأنشطة العلمية والتعبدية التي كان العلماء وطلابهم يقومون بها في الهجر العلمية في اليمن ، وهو ما صرح به مُسَلِّم اللّٰحْجِي نفسه حينما ذكر أن الأنشطة التي أشار إليها في ترجمة الحسن الجنبى كانت على غرار : " ما هو مسنون في هجر الزيدية بعده "^(٤).

وقد كان لجهود الحسن بن أحمد بن زايد الجنبى دور كبير في شهرة هجرة سناع لدى الناس ، فقصدوها من مناطق زيدية كثيرة طلباً للعلم ، وحباً لسي الاجتماع بمن يعين على العبادة ، يقول اللّٰحْجِي : " فكان ذلك مما زادت به شهرة الموضع - يقصد هجرة سناع - عند الناس بالعلم والعبادة والتعليم ، فقصد من كل جهة ، وحباً به الإسلام "^(٥).

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

(٢) من المرجح أنه توفي في آخر القرن الخامس لأنه أترك شهاب وتلمذ عليه .

(٣) اللّٰحْجِي ، طبقات مُسَلِّم اللّٰحْجِي ، ج ٤ ص ٥٢ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الجزء والصحة .

(٥) المصدر السابق ، نفس الجزء والصحة .

ومن درس في سناع أيضاً أحمد الحجازي^(١) وإبراهيم بن أبي الهيثم ، وذلك قبل تفرق المطرفية عن سناع وخروجهم منها لتأسيس عند آخر من الهجرة العلمية الأخرى كوكش وغيرها^(٢).

وقد اشتهر بين الذين نرسموا في سناع الإمام زيد بن الحسن البيهقي (ت ٥٥١هـ / ١١٦٥م) ، الذي كان أول نزوله اليمن في هجرة محنكة - كما أشرت سابقاً - على عهد الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان (ت ٥٦٦هـ / ١١٧٠م) ، وهو الذي كان يمثل الزيدية المخترعة في كثير من المناظرات في التي عُقدت في سناع، وحضر مناظرته ألوف من الناس " ما بين علوي وحسني وسنحاني وشهابي وصلعاني وهمداني ... " ^(٣).

ومن المهم هنا الإشارة إلى أن هجرة سناع قد تعرضت لمشكلات عدة أثرت على الحياة العلمية بها ، من ذلك ما قام به السلطان سبأ بن أحمد الصليحي - بسبب مساعي بعض الوشاة - فقد قام بتحريبها وتخويف أهلها وقتل بعض مشاهير علمائها يومذاك أمثال أبي السعود بن زيد ، وهو ما أدى إلى تفرقهم في البلاد بحثاً عن مواضع أخرى لإقامة هجر علمية جديدة^(٤).

☐ هجرة وأنش :

هي قرية أثرية عامرة ، كانت مقصد المطرفية في آخر القرن الحامس الهجري حتى مطلع القرن السابع ، كما كانت قبلة للابتناء عن إيذاء الناس والحكام ، والتفرغ للعبادة وطلب العلم ، فكانت من أشهر هجر العلم في اليمن وأقدمها ، تقع في منطقة بني قيس من مديرية بني مطر بمحافظة صنعاء ، تبعد عن مدينة صنعاء - من ناحية الجنوب الغربي - حوالي عشرين كيلومتراً^(٥).

(١) من المرجح أنها توفي في أوائل القرن السادس الهجري ، فقد أدرج مُسَلِّمُ اللُّخْجِي (ت ٥٤٥هـ / ١١٥٠م) بعضهم وكان من جملة تلاميذهم .

(٢) اللُّخْجِي ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٣) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٤٤٨ .

(٤) اللُّخْجِي ، طبقات مُسَلِّمُ اللُّخْجِي ، ج ٤ ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٥) الأكوخ ، هجر العلم ، ج ٤ ص ٢٣٤٣ ، الحنري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٤ ص ٧٧١ ، المُفَضَّلِي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ٢ ص ١٨٨٤ .

أما مؤسسها فهو الشيخ إبراهيم بن أبي الهيثم بن كهلان بن محمد المطرفي (توفي أوائل القرن السادس الهجري) ، وكان مستوطناً لسناع ، فلما جرى من الحكام الصليبيين شيء إزاء من بها من مشائخ الزيدية تفرقوا منها ، فخرج الشيخ إبراهيم منها مع من خرج ، وكان نزوله بمنطقة مَتر التي كان سكانها من الزيدية ، فابتقى فيها داراً جيدة ، وقرح أهلها به ، والتفوا حوله ، واطمأنوا إلى أنه سيبقى بينهم ، فلما سمع أن رجالاً منهم شربوا الخمر رحل عنهم - في جماعة من أصحابه - وترك داره وما كان معه من أموال^(١) ، وبدأ يجول في البلاد ، ويطلب المساكن ، ويختار حيث يصلح له ولإخوانه من المنازل ، فلصاب وادي وقش خالياً من السكان بين جيران يرضاهم ... فشاورهم في النزول بينهم ففرحوا بذلك ، وعقدوا الجوار له ، واشترط الشروط عليهم ، وفي مقدمتها أن يكون حاكماً لا محكوماً عليه ، والنصرة له ولإخوانه على من يتغلب عليهم ، فوافقوا ووفوا له ، وكان مسجد الشمس بها من أول ما بني^(٢) .

والمصدر الوحيد الذي يورد حكاية هجرة وقش هو مُسَلِّم اللُّخْجِي ، ومع أنه منفرد بروايته إلا أن معلوماته تحتل منزلة مهمة لكونه تلميذاً للشيخ إبراهيم ومعلماً له ، وشهد كثيراً من الأحداث ، وكان من طلاب هذه الهجرة العلمية وأحد سكانها .

ومما يورده لنا مُسَلِّم اللُّخْجِي هنا نصاً رائعاً عن ماهية هجرة وقش وسماتها ، ومن تشكّل أهلها وطبيعتهم ، وما الأنشطة التي مورست فيها فيقول : " فصارت هجرة تُوَدَّى فيها الفرائض ، ويُعْبَدُ الله - فيها - فلا يُعْصَى . ويُتَعَلَّمُ العلم ، ويُحْتَجَى فيها الدين ، حتى قامت الحجة على أهل العصر مقام الإمام الداعي إلى ربه المُشْهِر سيفه ، من تاب من أهل البلاد لجأ إليها ، وفر بدينه إلى أهلها ، ومن جهل أشياء أتاها للبحث والسؤال عنه ، ومن نابه بمحل ظالم غاشم هرب إليها للأمن ... ومن أهمله أمر معاده ومعلّته أتى متوكلاً على الله فاتاه الله فضله من حيث لا يحتسب ، وتُسَمَّوْغُ بها ... فانتهي ذكرها إلى أطراف الآفاق ، فصُرِبَتْ إليها أباط الإبل ، وطُوِيَتْ إليها المراحل ، ونفع الله بها من أراد من خلقه ... " ^(٣) .

(١) اللُّخْجِي ، طبقات مُسَلِّم اللُّخْجِي ، ج ٤ ص ٩٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٢٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٧٨ .

وقد احتلت هذه الهجرة العلمية المنزلة التي كانت تتمتع بها هجرة سماع من قبلها ، بل إنها فاقتها في الشهرة ، وجرت فيها الكثير من الأنشطة العلمية التي روى الكثير منها مُسلم اللُّحجي في مواضع كثيرة جداً من كتابه ، فكانت تقام بها الحلقات العلمية والمجالس والمناظرات المختلفة ، وازدانت بالعلماء والفقهاء وطلاب العلم ، فكان بها في وقت من الأوقات سبعمئة رجل من المتعلمين^(١) ، فأصبحت وقش في مقدمة معادل الفرقة المطرفية الزيدية في اليمن عموماً ، وبلغت شهرة لم تبلغها هجرة أخرى ، حتى أنها لقيت بـ "الهجرة السعيدة"^(٢).

ومن أشهر من تَرَسَّ بها مؤسسها الشيخ إبراهيم بن أبي الهيثم بن كهلان بن محمد المطرفي (توفي أوائل القرن السادس الهجري) ، الذي بدأ حياته التدريسية في سماع - كما أشرنا - ثم أصبح الأبرز بين علماء هجرة وقش^(٣) ، * انتهت إليه علوم الهادوية^(٤) في علم الأصول وما استشكل عليهم من مسائل بعد مطرف بن شهاب ، فألبه يرجعون في دروسهم^(٥).

ومنهم أيضاً يحيى بن الحسين بن عبدالله بن أحمد البحيري (ت ٥٧٧هـ / ١١٨١م) ، كان من أكبر علماء وقش وفتاها ، وكان من العلم بمنزلة جعلت المزارخين يضعونه بين بطراء نشوان بن سعيد الحميري ، ويصفونه بالعلامة الكبير ، كان مع علمه وفقهه شاعراً مُجيداً ، جرت بينه وبين نشوان الحميري مكاتبات ومساجلات شعرية ، رحل إلى مصر أيام طلبه للعلم فقرأ على عدد من أكبر علمائها ، وكان القاضي جعفر بن أحمد بن عبدالسلام (ت ٥٧٤هـ / ١١٧٦م) يحله ويعظمه

(١) عبدالرحمن المختار، الحياة العلمية في اليمن ، ص ٧٥ ، يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية الصغرى ، ص ٩٠ .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٩٢ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٤) يطلق على الزيدية في اليمن أحياناً (الهادوية) أو (الهذوية) نسبة إلى الإمام الهادي يحيى بن الحسين الذي أدخل الزيدية إلى اليمن .

(٥) يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية الصغرى ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

على ما بينهما من خلاف في المعتد ، وقد قاد أنشطة علمية كثيرة في وقش ، منها المناظرات والمراسلات التي عقدت بينه وبين القاضي جعفر^(١) .

وقد ترجم القاضي إسماعيل بن علي الأكوخ^(٢) - عند حديثه عن هجرة وقش وتعيينه لها - لأربعة وأربعين من أعلام هذه الهجرة ، وهو عدد كبير جداً لم تحظ به كثير من الهجر العلمية الأخرى .

وقد جرت في أيام الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) بين الزيدية المخترعة بقيادته والزيدية المطرفية بقيادة علماء وقش صراع فكري ساخن طويل ، وصدرت على إثره فتاوى مازالت إلى اليوم مثار جدل وبقائين كبيرين ، قضت هذه للفتاوى بتكفير المطرفية ووجوب قتالهم وهدم ديارهم وسلبهم وسيبهم ، وبالفعل - بناءً على هذه الفتاوى - أمر الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة أحد قلائده ويدعى عبدالله بن مرحب الحرازي بخراب وقش سنة (٦١٣هـ / ١٢١٦م) فأخربها ، وأخرب أحد مساجدها ، وسماه بمسجد الضرار ؛ لكونه في هجرة المطرفية من الزيدية... وأمر بجميع أبوابها وأخشابها أن تنقل إلى القاهرة ظهار^(٣) .

☒ هجرة حوث :

هجرة علمية قديمة مشهورة ، تقع في أرض العُصَيْنَات من حاشد ، في منتصف الطريق بين صنعاء جنوباً وصنعذة شمالاً ، وهي من أقدم معاقل العلم في اليمن وأشهرها ، واضطرد لزهارةا العلمي على مدار قرون كثيرة ، ولا يزال للعلم بقية في بعض أهلها إلى يومنا هذا في القرن الهجري الخامس عشر^(٤) ، نكراها الجندى^(٥) فقال عنها أنها : " هي مدرسة الزيدية ، تخرج منها جماعة من علمائهم " .

(١) المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(٢) الأكوخ ، هجر العلم ، ج ٤ ص ٢٣٤٣ - ٢٣٦٢ .

(٣) نقلاً عن الأكوخ ، حيث لم أعر على النص المشار إليه ضمن الجرائن المطبوعين من سيرة الإمام المنصور عبدالله بن حمزة ، المسماة بالسيرة المنصورية للذان حققها د. عبدالمعنى محمود عبدالمعنى ، وتأتي السيرة المنصورية - في مجلها - في ستة أجزاء ، يقال أن الأربعة الأجزاء الأخرى منها مفقودة ، انظر الأكوخ ، هجر العلم ، ج ٤ ص ٢٣٤٥ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٩٠ ، الحجري ، مجموع بستان السهم وقبائلها ، ج ٢ ص ٢٢١ .

المفتي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ٢ ص ٥٢٧ .

(٥) السلوك ، ج ١ ص ٣٠٨ .

وقد ترسّ ودرّسَ بهذه الهجرة العلمية مجموعة من أفاضل العلم وأساطينته في أرض اليمن ، منهم الأديب الفقيه اللغوي الشهير نثوان بن سعيد بن أبي حمير الحميري (ت ٥٧٣هـ / ١١٧٧م) صاحب معجم (شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم)^(١) .

ومنهم أيضاً الإمام المنصور عبدالله بن حمزة (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) أحد أكبر أئمة الزيدية باليمن علماً وفقهاً وأديباً ، كان من أعلم أهل عصره ، ألزمه علماء الزيدية في عصره بالقيام بأمر الإمامة في سنة (٥٨٣هـ / ١١٨٧م) ، وكانت حوث واحدة من أكبر محطاته التي ترسّ بها كثيراً من علومه التي برع فيها ، ولعل عدداً كبيراً من مؤلفاته التي تنوف على الثمانين ألفت في حوث^(٢) .

ومن أعظم من درس بهجرة حوث العلمية الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة الحسيني^(٣) (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) ، وهو أحد أعلام الفكر الإسلامي في اليمن ؛ لأنه كان إماماً عالماً ، مجتهداً مفكراً ، موسوعياً بليغاً ، حاز القبول لدى الزيدية وأهل السنة ، فقد قال عنه الجندي الشافعي^(٤) : " وليس بالناحية أجمع - أي مناطق لتنتشر المذهب الزيدي باليمن - من يُشار إليه بكمال العلم ورموخ للدين غير السيد يحيى ... " .

(١) انظر ترجمته عند الأكوخ ، هجر العلم ، ج ١ ص ٥٤١ ، الشامي ، تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي ، ج ٢ ص ٢١٥ - ٢٥٤ ، ابن مظهر ، الترجمان ، ص ١٣١ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ١١٧٣ .

(٢) سبق ذكر مصادر ترجمته ، ومن أمثا ربارة ، أئمة اليمن ، ج ١ ص ١٠٨ ، الزحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٢ ، ٧٩٩ ، الشامي ، تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي ، ج ٣ ص ٣٧ ، الكبيسي ، للطوائف السنية ، ص ٥٧ ، السلي ، الحقائق الزيدية ج ٢ ص ٢٤٧ ، ابن مظهر ، الترجمان ، ص ١٣٣ ، ابن المؤيد ، طبقات زيدية الكبرى ، ج ١ ص ٥٩٦ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ٥٧٨ .

(٣) الحبشي ، حكم اليمن المؤلفون ، ص ١٣٣ ، ربارة ، أئمة اليمن ، ج ١ ص ٢٢٨ ، الزحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٢ ، ٩٧٢ ، الشرفي ، التآكي المضيفة ص ٤١٤ ، أحمد محمود صبحي ، الزيدية ، ص ٢٠٧ ، الإمام المجتهد يحيى بن حمزة ، ص ٢١ وما بعدها ، الكبيسي ، المصدر السابق ، ص ٩٧ ، ابن المؤيد ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٢٢٤ ، الوجيه ، المرجع السابق ، ١١٢٤ .

(٤) السلوك ، ج ١ ص ٣٠٨ .

ومن أشهر من تتلمذ على علماء هذه الهجرة العلمية الإمام المهدي أحمد بن الحسين (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) ، فقد ذكرت بعض المصادر أن عمه انتقل به إلى هجرة حوث ليتلمذ على رجال العلم بها^(١) .

(٤) القرى العلمية :

يوجد بين القرية العلمية والهجرة العلمية فروق قليلة جداً لكنها كبيرة ، سنتناولها لاحقاً عند الحديث عن أماكن التعليم في اليمن في زمن الدراسة ، وسأتي هنا إلى ذكر عدد من أشهر القرى العلمية التي جرت على أرضها للكثير من الأنشطة العلمية لقادة العلم والفكر من العلماء وطلابهم في اليمن في حقبة ما قبل زمن الدراسة ، منها :

□ قرية سنهنة:

تدعى أحياناً سننة - كما هو الحال في زمننا الحاضر - وهي إحدى قرى العلم المشهورة باليمن من النصف الثاني للقرن الرابع حتى بداية القرن الخامس الهجريين ، تقع جنوب منطقة ذي السفال وشمال مدينة القاعدة على بُعد خمسة كيلومترات منها ، وهما من أعمال محافظة إب في أواسط إقليم المرتفعات الجبلية باليمن ، وهي لا تبعد كثيراً عن الجند^(٢) ، قال عنها الجندي^(٣) أنها : " إحدى قرى الجبال المقصودة لطلب العلم ... لم تكن تخلو عن فقيه مدرّس وطلبة مجتهدين " .

من أشهر من درّس بها - وهو من أهلها - الإمام أبو محمد القاسم بن محمد بن عبدالله الجُمحي القرشي^(٤) (ت ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م) ، هو أول من اشتهر بالعلم من أهلها وليس بأولهم ، فقد تفقه بعلماء سنهنة ، وهذا دليل على أنه كان بها من العلماء من سبقه ولو لم تذكرهم المصادر ، ثم انتقل إلى زبيد فأخذ عن مجموعة من علمائها وعلى رأسهم أبي بكر بن المضرب الزبيدي ، ثم اتجه صوب علماء القرى العلمية في الجبال ، فنزل حرّازة وتفقّه على صاحبها وعالمها عبدالعزيز بن الربحي ، ثم أب إلى سنهنة ، فلما استقر بها قصد الطلبة من صنعاء ونواحيها ، والجند ونواحيها ، وعُيّن

(١) ابن السويّد ، الطبقات الكبرى ، ج ١ ص ١١٤ .

(٢) لمعلومات أكثر عنها انظر الأكرع ، هجر العلم ، ج ٢ ص ٩٧٧ ، الحجري ، مجسوع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٢ ص ٤٣٦ ، السقمي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٨٣٢ .

(٣) الملوك ، ج ١ ص ٢٢٩ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٨ - ٢٣٠ .

وَأَبْنَيْنَ وَأَخْجَ وَتَوَلَّحِيهَا ، وَمِنَ الْمَنَافِرِ وَالسُّحُولِ وَأَحَافِظَةِ وَوَادِي ظُبَاءٍ وَغَيْرَهَا مِنْ
الْمَنَاطِقِ ، فَكَانَ شَيْخاً لَعَدَدَ كَبِيرٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْقُرْنِ الْخَامِسِ الْهَجْرِيِّ بِالْيَمَنِ .

وَنَرُسُ بِهَا - مِنْ غَيْرِ أَهْلِهَا - الْإِمَامَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ
الْمِرَاغِي الْمَصْرِي (ت ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م) ، وَكَانَ الْإِمَامَ الْقَاسِمَ الْجُمَحِي الْقُرَشِي هُوَ
مَنْ اسْتَقْدَمَهُ إِلَيْهَا حِينَ لَقِيَهُ بِمَكَّةَ سَنَةَ ٣٨٨هـ / م ، وَيَبْدُو أَنَّهُ قَدْ أَعْجَبَ بِهِ عِنْدَمَا أَخَذَ
عَنْهُ هُنَاكَ ، وَقَدْ بَلَغَ مِنْ حِرْصِهِ عَلَى اسْتِقْدَامِهِ أَنْ بَدَّلَ لَهُ الْقِيَامَ بِكُلِّ مَا يَحْتَاجُهُ فِي
الْيَمَنِ ، فَلَمَّا قَدِمَهَا يَبْدُو أَنَّهَا أَعْجَبَتْهُ فَتَقَرَّرَ الْإِقْلَامَةُ بِهَا وَاسْتَيْطَانَهَا ، حَتَّى أَنَّهُ عَدَّ فِي
أَهْلِهَا ، فَتَنَشَّطَ فِي التَّكْرِيسِ إِلَى جَانِبِ تَلْمِيذِهِ الْقُرَشِي^(١) .

وَمِنْ الْكُتُبِ الَّتِي اشْتَهَرَ الْمِرَاغِي بِتَكْرِيسِهَا كُتُبُ الْفَقْهِ الشَّافِعِيِّ مِثْلَ (مَخْتَصَرِ
الْمَزْنِيِّ) ، وَ (سُنَنِهِ) ، وَ (سِنَنِ الرَّبِيعِ) ، وَكَذَلِكَ بَعْضُ الْكُتُبِ الَّتِي أَلْفَهَا هُوَ بِنَفْسِهِ
كَـ (الْحُرُوفِ السَّبْعَةِ) فِي الرَّدِّ عَلَى الْمَعْتَزِلَةِ^(٢) .

وَقَدْ جَارَتْ عَلَى سَهْنَةٍ يَدُ الزَّمَانِ بِأَنْ تَسَلَّطَتْ عَلَيْهَا فِي الْقُرْنِ الثَّامِنِ الْهَجْرِيِّ
بَعْضُ الزَّعَامَاتِ الْقَبِيلِيَّةِ الْمَحَلِّيَّةِ مِمَّنْ يَدْعُونَ بِالصَّعْبِيِّينَ ، وَذَلِكَ بِدَوَافِعِ الْجَشْعِ وَحُبِّ
الْمَالِ الَّذِي تَعْدَى حُدُودَ مَا لِأَبَاكَ الشَّرْعِ - فِي غِيَابِ السُّلْطَانِ الرَّادِعِ - فَصَرَفُوا أَوْقَافَهَا
- الَّتِي كَانَتْ مَخْصُصَةً لِلِإِتِّفَاقِ عَلَى الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ وَطُلَّابَةِ الْعِلْمِ بِهَا - فِي غَيْرِ
وُجُوهِهَا ؛ فَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى خَرَابِ سَمْعَتِهَا الْعِلْمِيَّةِ - وَإِنْ لَمْ يَخْرُبِ الْمَسْكُونُ مِنْ مَبَانِيهَا
بِعَامَةِ النَّاسِ - فَهَجَرَتْهَا كَوَادِرُهَا الَّتِي رَسَمَتْ شَهْرَتَهَا الْفِكْرِيَّةَ وَالْعِلْمِيَّةَ عَلَى مَدَارِ
قُرُونٍ ، وَأَصْبَحَتْ خَلْوِيَّةً مِنْهُمْ ، لَا يُمِيزُهَا عَنْ غَيْرِهَا مِنَ الْقُرَى الْعَادِيَّةِ الْمَجَاوِرَةِ
الْأُخْرَى إِلَّا الذِّكْرُ الْحَسَنُ لِمَا مَضَى مِنْ شَأْبِ أَيَّامِهَا وَمِثَالِ عَصْرِهَا ، فَتَتَوَلَّدُ الْحُسْرَةُ
لَدَى مَنْ مَرَّ بِهَا - إِنْ كَانَ يَعْلَمُ بِجَمَالِ مَا مَضَى مِنْ تَارِيخِهَا - وَذَلِكَ مَا يَلْمِصُهُ الْقَارِئُ
فِي كِتَابَاتٍ مِنْ أَشَارٍ إِلَيْهَا ، إِذْ يَقُولُ الْجَنْدِيُّ^(٣) فِي مَعْرِضِ حَدِيثِهِ عَنْهَا فِي مَطْلَعِ الْقُرْنِ
لِلثَّامِنِ الْهَجْرِيِّ : " وَلَمْ يَبْقَ فِيهَا فَقِيهٌ مِنْ أَهْلِهَا وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ لَاسْتِيْلَاءٍ مِنْ لَا تُنْظَرُ لَهُ

(١) الْجَنْدِيُّ ، السُّلُوكُ ، نَصُ الْجُزْءِ وَالصَّفْحَةُ .

(٢) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ ، ج ١ ص ٢٢٨ - ٢٣٠ .

(٣) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ ، نَفْسُ الْجُزْءِ وَالصَّفْحَةُ .

على ما وقفَ لِتَدْرُسٍ وَتَرْسَةٍ^(١) ، فعقب عليه القاضي الأكوغ^(٢) بقوله : " وهي اليوم - أي القرن الهجري الخامس عشر - كذلك ، لا يوجد فيها من له صلة بالعلم أو الفقه ، مثلها مثل سائر القرى المهجورة من العلم " .

✶ قرية ذي الشريق :

قرية عامرة في السفح الشرقي لجبل الحيزم في وادي نحلان القريب من ذي السفال ، وتتبعها إدارياً ، وهي إحدى أهم قرى العلم المباركة ، للمشهرة بكثرة من خرج منها من العلماء والفقهاء^(٣) ، وبها مسجد قديم لشار عمارة اليميني^(٤) (ت ٥٦٩هـ / ١١٧٣م) إلى أنه رأى على أحجار فوق بابه مكتوب : " مما أمر به عمر بن عبدالعزيز بن مروان " .

ومن درس في هذه القرية أبو عبدالله محمد بن سالم بن عبدالله الشعبي اليزيدي (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) ، وهو رجل علم وصلاح ، كان من أوائل فقهاء هذه القرية ، واستمر في التدريس بها حتى وفاته ، وبقيت تربيته تمارس العمل نفسه حتى أدركها الجندى كذلك في مطلع القرن الثامن^(٥) .

ويذكر أيضاً أن الأدبيين العاصلين للحسن بن أبي عباد وابن أخيه إبراهيم بن محمد بن أبي عباد (توفي في مطلع القرن الخامس الهجري) كانا من أعلم أهل عصرهما بعلوم اللغة العربية ، وكان النحو ميدانها ، تضلعا فيه حتى بلغا درجة من الإجادة جعلت بعض من يترجم لهما يقول عنهما أنهما : " إلمى النحو في الزمن في

(١) الترسّة ، مصطلح يعني خاص ، يطلقونه على الطلبة ، وهو الذي شاع على مدار ما يقرب من عشرة قرون حتى منتصف القرن الماضي عند قيام الثورة اليمنية ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م ، ولم يعد مستخدماً الآن ، وقد حل محله مصطلح الطلاب .

(٢) هجرالعلم ، ج ٢ ص ٩٧٧ .

(٣) الأكوغ ، هجرالعلم ، ج ٢ ص ٧٢٥ ، الجندى ، السلوك ، ج ١ ص ٢٤٢ ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ١ ص ٨١ ، المنحفي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٧٠ .

(٤) للمفيد في أخبار صنعاء وزيد ، ص ٧٤ ، علق محمد الأكوغ - محقق الكتاب - بقوله " لا زالت الكتابة شاحصة " .

(٥) الجندى ، السلوك ، ج ١ ص ٢٤٢ .

عصرهما ، وإليهما كان أهل النحس يرتحلون من الأتحاء^(١) ، وفي الجملة الأخيرة ما يكفي للاستدلال على ما عقده من الدروس في ذي أشرق في فنيهما .

وقد درّس بذي أشرق أيضاً أبو الخطاب عمر بن علي بن أسعد السعدي (ت ٥٤٩هـ / ١١٥٤م) ، وكان رجلاً عالماً مشهوراً بفضلته وحسن تربيته ، فاقبت شهرته شهرة كثير من أسلافه ؛ فكثر ذكره عند المؤرخين ، لم يبلغ ما بلغه من العلم إلا بعد رحلات علمية داخلية كثيرة ، فقد درس في عدة قرى علمية في المرتفعات الجبلية ، جمعتها بعض المصادر بقولها : " تقه بالجبل على عبدالله بن عميرة وغيره من فقهاء الجبل^(٢) " ، وقد كثر تلاميذه بقرية ذي أشرق ، من أشهرهم عبدالله بن مسعود الخليدي وأسعد بن إبراهيم .

كما درّس بهذه القرية - لمدة من الزمن - الإمام الشهير أبو الحسين يحيى بن أبي الخير العمزاني (ت ٥٥٨هـ / ١١٦٢م) ، الذي كان أشهر علماء السنة الشافعية باليمن ، وكان شيخاً لأغلب علماء طبقة سماعاً منه وتفقهاً عليه ، وشيخاً لعلماء اليمن في الطبقات التالية تتلمذاً على كتبه ونهلاً منها ، انتقل إلى ذي أشرق سنة (٥١٧هـ / ١١٢٣م) فكان بها طالباً عند بعض علمائها كسالم الأصغر الذي درس عليه بعض كتب الصحاح في الحديث ، وكان بها شيخاً لمن أخذ عنه من طلابها .

وقد آل أمر رئاسة العقه والعلم بذي أشرق في العقود الأخيرة من القرن الثامن إلى علماء أسرة من عشيرة الصعبيين ، وكان مسجد عمر بن عبدالعزيز بها هو ميدان كل أنشطة العلم والتلقي ، فقد كان يزدان بكثرة العلماء والفقهاء وطلاب العلم من أهلها ومن وفد ، حتى قال بعض المؤرخين^(٣) : " وقد أخبر الثقة أنهم - أي الفقهاء والقضاة بني الصعبي - قد انتهت إليهم الرئاسة في العلم والجاه بذي أشرق وما والاها ، وأنه كان يجتمع منهم وقت صلاة الجمعة بذي أشرق نحو أربعين رجلاً ، ما منهم إلا لبس للطلّاسان ، ويشير إليه كل إنسان " .

(١) الجّدي ، السلوك ، ج ١ ص ٢٤٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٨٨ .

(٣) نقله الأكرع ، هجر العلم ، ج ٢ ص ٢٢٦ عن مخطوطة تاريخ البريمي المطبوع ، ولم تمكن من الاطلاع على نسخة منها .

(٥) المدارس العلمية :

هناك خلاف جرى بين الباحثين في تاريخ اليمن حول مسألة بداية ظهور المدارس العلمية في اليمن ، وسوف أوجّل الخوض فيه إلى الفصل المستقل عن أماكن التعليم في زمن الدراسة ، وما سأقوم به هنا هو الحديث عن نوعين من المدارس العلمية ظهرت في اليمن في حقبة ما قبل القرن التاسع الهجري ، وسأكتفي بتناول مثال واحد عن كل من النوعين :

(أ) المدارس غير النظامية :

وأقصد بعنواني هذا ذلك النوع من المدارس الذي حمل اسم المدرسة ولو لم يحمل ملامحها ، وهذا النوع صرحت بوجوده للمصادر ، ويكاد الجزم أن يقع بأن وجوده كان محصوراً في أروقة المساجد أو أفتيتها وما يلحق بها من بناء ، وهو ما مارس فيه كثير من علماء اليمن نشاطهم التدريسي فيما قبل القرن التاسع من قرون . وفي مقدمة هذا النوع من المدارس مدرسة الإمام أبو أسامة زيد بن عبدالله بن جعفر بن إبراهيم اليفاعي (ت بعد ٥١٣ هـ / ١١١٩ م) بمسجد معاذ بن جبل بالحندي ، وقد تحدث عنها الجندي^(١) بقوله : " وكانت مدرسة العقبة - أي زيد المذكور - عن يمين المنبر ، وربما اتكأ وقت التدريس على المنبر " وهي المكان الذي مارس فيه هذا الإمام كل أنشطته التدريسية في الحندي ، سواء قبل هجرته إلى مكة أو بعد رجوعه منها على النحو الذي ذكرناه عند حديثنا عن الرحلات العلمية .

وقد أورد الجندي نفسه الإشارة إلى أن الطالب الفقير المنتسب إلى مدرسة الإمام زيد اليفاعي كان يتلقى منه المعونة على الاستمرار في طلب العلم والاستزادة منه من خلال الإعانة الغذائية والملبوسات اللازمة ، ولكن مصدر هذه الإمكانيات العادية لم يحدد ، وما يجعلنا نعتقد أن مورداً ما - لعله كان وقفاً - هو الذي مكن الإمام زيد من القدرة على الإنفاق على نسبة من طلابه الذين يزيد عددهم على ثلاثمائة طالب ، يملكون ما بين المنبر وباب المسجد^(٢) .

(١) الجندي ، الملوك ، ج ١ ص ٢٦٣ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة

(ب) المدارس النظامية :

هذا النوع من المدارس كان منتشراً جداً وخاصة في المناطق السنية من اليمن ، وهي تشمل أغلب مساحته بما يفوق ٧٥% منها ، وهو ذلك النوع الذي يتمتع ببناء مدرسي مستحدث أصلاً لفرض التدريس ، وله هيئة تدريس محددة العدد ، قد يكون قوامها مدرس واحد^(١) ، وقد يزيد فيشمل الفقيه والمحدث ومعلم الصبيان والمؤذن للمسجد الملحق بها وناظر الوقف وما إلى ذلك ، وغالباً ما كان لها من مصادر الدخل ما يقوم بتوفير متطلبات نشاطها من مرتبات للقائمين عليها والفقراء من طلابها ، وقد قام بعض الباحثين^(٢) بتأجل دراسة مستفيضة عنها ، فحصر ما يفوق تسعاً وسبعين مدرسة في عهد الدولة الرسولية (٦٢٦ - ٨٥٨هـ / ١٢٢٨ - ١٤٥٤م) دون أن يدخل ضمنها ما تم إنشاؤه في القرن التاسع الهجري من عهدها .

ومن أمثلتها المدرسة المنصورية العليا^(٣) وتسمى المدرسة الشرقية^(٤) أيضاً ، تنسب إلى مؤسسها السلطان المنصور عمر بن علي بن رسول (ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) ، وهي أول المدارس الرسولية في مدينة زبيد^(٥) ، وقد أنشأت خصيصاً للتدريس الفقه الشافعي ، كان بها مدرس ومعيذ وطلبة على المذهب^(٦) ، وقد تنسب على التدريس بها مجموعة من خيرة علماء وفقهاء الشافعية بزبيد ، من أشهرهم الفقيه أحمد بن أبي بكر بن عبدالله الحضرمي (ت ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م) الذي كان من أعمدة

(١) ابن مسرة ، طبقات فقهاء اليمن ، ١٩٤ ، الجندي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) عبدالعزيز بن راشد السنيدي ، المدارس السنية في عهد الدولة الرسولية ، ط ١ ، ٢٠٠٣م ، الرياض ، (د ن) .

(٣) الفرجي ، طبقات الخوارج ، ص ٢٧٧ ، عبدالرحمن الحضرمي ، جامعة الأنصار ، مخطوط مسموعة الطبعة الثانية بخط المؤلف نفسه ، صورة عن نسخة بالمكتبة المركزية - جامعة صنعاء مهداة إليها من ورثة المؤلف ، ص ٣٧ .

(٤) ابن النديم ، فتيحة المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، ص ٩٠ .

(٥) الجندي ، السنيدي ، ج ٢ ص ٢٣٥ ، الفرجي ، المسجد المصنوك ، ص ٢٠٨ ، العقود النورية ، ج ١ ص ٨٢ .

(٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٢ .

الفصل الثاني

الأوضاع السياسية في اليمن من بداية
القرن التاسع الهجري حتى السيطرة
العثمانية عليها

تمهيد:

قبل الخوض في تفاصيل الصورة العامة للوضع السيلسي لليمن في زمن الدراسة من بداية القرن التاسع الهجري حتى السيطرة العثمانية عليها ، أرى أنه من المهم هنا أن أشير إلى أن ثمة أمور تخص اليمن مكاناً وإنساناً ، ولا يمكن لكثير من الدارسين لتاريخ اليمن وراثتها الفكري والعلمي استيعابها ما لم يكونوا على قدر من الوعي بها والإدراك الشامل لها، ذلك أن بعض هذه الخصائص كان لها أبلغ الأثر في تشكيل تاريخ اليمن وصياغة ملامح حياة أبنائه الفكرية والعلمية .

تأتي طبيعة المكان الجغرافية في مقدمة هذه الخصائص، فهو يتمتع - أو أقول لعله ابتلي - بطبيعة جغرافية صعبة للغاية تشمل نسبة كبيرة من مساحته، والقيام بأي دراسة حول تاريخ اليمن بمأى عن فهم هذه الطبيعة أو التغافل عن دورها فيه - بقصد أو بغيره - يفقد غالباً إلى نتائج غير دقيقة، ويكفي أن نعرف أن من فوائد الإحاطة به إعطاء الدارس القدرة على اختبار صدق الروايات من كتبها، فمن يعرف - على سبيل المثال - طبيعة موقع مدينة شبام الرابضة عند سفح حصن كركبان لا يمكن له بأي حال من الأحوال التسليم بصدق رواية ابن الديبع^(١) في قوله أن الرياح هبت في سنة (٤٤١هـ / ١٠٤٩م) على مدينة شبام فبلغت من قوتها أن " اقتلعت شجر البرقوق^(٢)، وحملت الكلاب، وكانت تتبجح في الهواء "، فمن يعرف موقع المدينة يعرف أن الرياح مهما بلغت قوتها فإن الجبل الكبير الذي تقع في سفحه يسهم كثيراً جداً في الحد من قوتها وسرعتها ؛ فلا يبقى من قوتها ما يجعلها تبلغ ذلك التأثير .

ومن يعرف موقع شبام - كذلك - يجعل تصديقه مستحيلاً بالمعلومة التي يدلي بها باقوت الحموي^(٣) بقوله : " ومياه صنعاء منها "، فبين صنعاء وشبام جبال شاهقة ومسافات كبيرة تتخللها الأودية والمنخفضات، علاوة على أن موقع صنعاء - لو افترضنا خلو المسافة من الجبال والأودية والمنخفضات - أكثر ارتفاعاً من موقع شبام،

(١) فرة العين، ص ١٧٦ .

(٢) التسمية اليمنية للأكهة المشمش وشجرتها .

(٣) الحموي ، معجم البلدان ، دار صادر ، دار بيروت ، بيروت ١٩٧٩م ، ج ٢ ص ٣١٨ ، ومثله عند الحميري ، الروض المطار في خبر القطر ، تحقيق د. إحسان عباس ، مؤسسة ناصر الثقافية ، ط ٢ ، ١٩٨٠م ، ص ١١٣ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

فلا المنطق العادي ولا الحقيقة العيزائية تسمحان للماء بالجريان من شبلام إلى صنعاء،
فالماء حرب للمكان العالي كما قال حاتم الطائي .

ومن الخصائص التي أقول بوجود فهمها قبل الخوض في دراسة ما يتعلق
باليمن وتاريخها أن اختلاف تضاريسها وتنوع أشكال سطحها هو الذي يقف وراء
انعدام الاستقرار السياسي الذي عاشته اليمن منذ بداية القرن الهجري الثالث عند قيام
القوى المحلية فيه بمحاولات الاستقلال عن الخلافة العباسية حتى أواخر القرن
الرابع عشر الهجري، " فالبيئة الجبلية تعوق السلطة المركزية عن بسط نفوذها
وهيمنتها، من ثم ندر أن كان للعاصمة السيادة المطلقة على جميع أرجاء اليمن خلال
عصور التاريخ ^(١)، وإدراك مثل هذه الحقيقة يجنبنا الابتعاد كثيراً في تفسير وجود
الاضطرابات الدائمة والصراعات المسلحة المستمرة التي سيطرت على العلاقات بين
القوى المختلفة .

كما لا ننسى التأكيد هنا على أن من تلك الخصائص أن هذه الطبيعة كان لها
انعكاسها الواضح الجلي على الناحية المذهبية والفكرية لأبناء اليمن، فهم وإن كان
الإسلام يجمعهم جميعاً إلا أن المذاهب المختلفة الفقهية منها والفكرية قد حلت بينهم،
وفرقت كلمتهم، ومزقت جمعهم، وكان الدافع وراء تنوعها طبيعة البلاد، ووعورة
مسالكها، وصعوبة مجايلها، فقد قصدها أصحاب هذه المذاهب ودعاتها طلباً للحماية من
جيوش القوة المركزية سواء في دمشق على أيام الأمويين أو ببغداد على أيام العباسيين،
إذ قصدها الخوارج الإباضية واحتلوا بقلاعها وحصونها سنة (١٢٩ هـ / ٧٤٦ م) ،
وبذروا بذرتهم الفكرية بين أهلها، وأصبح فيهم للقائد والجندي يوم خروجهم على
الأمويين وبلوغ نشاطهم مكة ^(٢).

(١) سبحي، الإمام المجتهد يحيى بن حمزة، ص ١٢ .

(٢) ابن كثير، الكامل في التاريخ، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٩٨٩ م .
ج ٣ ص ٤٦٤، ٤٦٥، لطبري، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، ١٩٦٧ م .
بيروت، ج ٧ ص ٣٧٤ - ٣٧٦، ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق مكتب التحقيق بدار إحياء التراث
العربي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م، ج ١٠ ص ٢٧ .
نايب محروب، الخوارج في العصر الأموي، دار لطليعة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٦ م، ص ١٨٠ -
١٨٤ .

كذلك وصل إليها الدعاة الشيعة من الإسماعيلية سنة (٢٦٨هـ / ٨٨١م) ليتخذوا من حصونها منطلقاً لإقامة مذهبهم وأفكارهم، ومن ثم توليهم^(١)، وإن كانوا لم يفلحوا كثيراً عندما حاولوا نشر مذهبهم بين أبنائها، وظل وجودهم هامشياً، ولم يمكنهم من الصمود والبقاء سوى اتخاذهم من الجبال المنيعة معقل وحصوناً عصبية على الاقتحام^(٢).

وقامت الشيعة الزيدية بنشر مذهبها وفكرها القائم على الخروج على الحاكم الظالم من غير الفاطميين^(٣)، وذلك على يدي الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين (ت ٢٩٨هـ / ٩١٠م) ابتداءً من دخوله صعدة بشمال اليمن سنة (٢٨٠هـ / ٨٩٣م)^(٤)، ومنذ ذلك التاريخ أصبح أتباع الزيدية وأئمتها رقماً صعباً في المعادلات المذهبية والعلمية والفكرية والعسكرية في اليمن حتى تاريخها المعاصر، لأنهم هم سكان أكثر المناطق اليمنية شدة وبأساً، وأكثرهم تمرداً على السلطات المركزية القائمة، حتى أنهم كثيراً ما ينقلبون على من ساندوه ولو كان من أئمتهم إذا ما اقتضت مصلحتهم ذلك، وما يخولهم بالقيام بالمساندة أو المعارضة هي طبيعة بلادهم التي تضمن لهم إلى حد كبير الابتعاد عن أيدي من - أو ما - يمكن أن يكون مصدر خوف لهم أو خطر عليهم .

(١) إدريس عباد الدين ، صيون الأخيار وفنون الآثار ، المبعع الرابع ، ص ٣٩٩ وما بعده ، الجسدي ، الملوك ، ج ١ ص ٢٠١ ، وما بعدها ، الحمادي ، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، ص ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ٩٦ ، الخزرجي ، المسجد الممبوك ، ص ٣٨ .

(٢) أحمد محمود صبحي ، الإمام المجتهد يحيى بن حمزة ، ص ١٧ .

(٣) لا تشرف الزيدية بشرعية حاكم لا يمت للسيدة الفاطمة الزهراء بنت النبي ﷺ بصلة رحم، أي ليس من نسل ولئبها الحسن والحسين رضي الله عنهم، وترى وجوب الفروج عليه، ويوجب سرعة الخروج كونه ظالماً ، وسأني إلى بيان ذلك في الفصول القادمة .

(٤) د. حس خضير ، قيام الدولة الزيدية في اليمن ، مكتبة مدبولي ، ط ١ ، ١٩٩٦م ، ص ٥٧ وما بعدها ، الخزرجي ، اليمن في عهد الولاة ، الفصول الخمسة الأولى من كتاب [التكفيلة والإصلاح] ، تحقيق راضي دغوس ، منشورات الجامعة التونسية ، تونس ، ١٩٧٩م ، ص ١٢١ ، الطوي ، مسيرة الهادي إلى الحق ، ص ١٧ ، ١١٣ ، المحلي ، الحقائق الزيدية ، ج ٢ ص ٣٧ وما بعدها ، الهاروني ، الإفادة ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

وهكذا نرى أهمية الدور الذي لعبته الطبيعة الجغرافية لليمن في صياغة فكر أهلها وفي تشكيل فناعلتهم العسكرية والسياسية والمذهبية، فكان تاريخهم عبارة عن سلسلة متصلة من الصراعات الدامية التي أصبحت هي الصبغة المعتادة، والاستقرار والهدوء هو الذي يُعدُّ استثناءً .

ثمة خاصية أخرى مهمة، مع إقرارنا بأنها صورة من صور الجاهلية الأولى، وتلك هي على فسادها وخطأ حملها، إلا أنها - للأسف الشديد - كانت موجودة في محبة شريحة فاعلة من اليمنيين، ألا وهي الاعتزاز بالإرث الحضاري للعريق للرجل اليمني، هو ما ميزه عن بقية سكان الجزيرة العربية كلها^(١)، فهو - مع تواجده على مستواه الشخصي وتمسكه بعقيدته الإسلامية وتقاليده في التمسك بها - يعتد بنفسه اعتداداً كبيراً، لا تفتأ تذكريات حضاراته القديمة الأوسمانية والمعينية والسبئية والحميرية تجول في خاطره، فتوقد شعلة عصبية، وتنكي جنوة إحساسه بعدم الرضا والقبول بالانصياع لحاكم ليس من بني قومه، وهذه الحقيقة انعكست لدى المؤرخين اليمنيين فظهرت جلية في مصطلحاتهم، فهم لا يطلقون على الأيوبيين والرسوليين اسمهم الشائع في بقية أقطار المسلمين الذي لا يحمل أي شحنة عنصرية، بل نراهم يسمونهم الفُزَّ وهي تسمية وإن كانت لم تبعد عن الإشارة إلى أصلهم الصحيح إلا أنها تعكس ما يراه اليمني في باطنه من شعور قوي بأنهم من غير أهل، وإن جمعتهم العقيدة للواحدة .

ولم يقتصر نور هذه النظرة على الشعور الذاتي الداخلي لليمني بعدم الارتياح للركون إلى العيش في ظلال حكم أمثال هؤلاء، بل تعدى ذلك إلى أن بلغ درجة تحوله إلى عامل مساعد في التحفيز على الخروج، أو على الأقل التعاطف والمساندة لمن يخرج أو يتمرد، وقد شعر الرسوليين - أكثر من غيرهم - بما يراه اليمنيون فيهم ؛ فحاولوا أن ينسبوا أنفسهم إلى قبيلة يمنية تُلصق بالملك فيها، وهي قبيلة الغساسنة^(٢)،

(١) أشار الدكتور أحمد محمود صبحي إلى شيء من هذه الخاصية بصورة مختصرة، انظر صبحي، الإسلام المجتهد يحيى بن حمزة، ص ١٤ .

(٢) دار جدل واسع بين الباحثين في تاريخ اليمن في العصر الرسولي حول تحقيق نسب سلاطين الدولة الرسولية، فاختصر بعضهم، بينما استرسل البعض الآخر في الدراسة والتحليل فألهب وأطرب وأجسد، وتفتت أظلم هذه الدراسات على ن الرسوليين قد انتطوا النسب البشري مع أنهم أسرة تركمانية، تنحدر أصولها من قبائل العرب الشهيرة، التي خرج عنها سلاجقة، وسأذكر هنا أهم هذه الدراسات لأهميتها، ولكي أذكر عليها من يود الاستزادة في معرفة هذا الجانب، د. محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول وبنو ظاهر

ليصبغوا على أنفسهم ظلالاً من الشرعية، وجنّوا لذلك بعض المؤرخين في بلاطهم من اليمنيين أنفسهم، فوجدوا فيهم من يكرس لمحاولة تثبيت أصلهم كتباً خاصة، مثل كتاب (المحصول في انتساب بني رسول) للمؤرخ الشهير علي بن الحسن الخزرجي (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م) .

ولا يتبادر إلى الذهن أن واحدة من الخصائص التي أشرت إليها - وحدها وبمعزل عن غيرها - هي التي لعبت دور المحرك لليمني على الخروج والثورة على السلطة المركزية، بل كل الخصائص - ما ذكرته منها وما لم أشر إليه - بمجموعها تكاثفت وتغلقت لتشكل حافزاً كافياً للقيام .

ومما يجد الإشارة إليه أن هذا الجو العام المشحون بالصراع الدائم والقتال المستمر والدم والعنف وعدم الاستقرار لم يقف حائلاً أمام الإيمان اليمني في طريق تحقيقه ذاته علماً وفكراً وأدباً، فقد كان انعدام الاستقرار الدائم متزامناً مع نهضة علمية متصلة الحلقات، شاملة لمعظم رقعته الجغرافية، ولم ينشأ أن يكون ضحية لهذه الصراعات أحياناً، وهي بالفعل جنت الكثير على تراث اليمن، فقد فقد كثير منه في غمرة هذه الصراعات، سواء ما كان منه مقصوداً بالتهريب أو ما كان ضياعه ناتجاً عن الإهمال الإجباري في جو الصراع المشحون بالدماء^(١) .

وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م، ص ٤٠ - ٥٠، عبد الله العبادي : الحياة العلمية في زبده، ص ٢٦ - ٢٨، محمد عبدالفتاح عليان : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد بني رسول، رسالة دكتوراة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٣م، ص ٣٢ - ٣٦، محمد علي عسيري، أبو الحسن الخزرجي وآثاره التاريخية، رسالة دكتوراة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٨٦م، ص ٤١٩ - ٤٣٠، حصّة ناصر المبارك، الحياة الاقتصادية في اليمن في عهد الدولة الرسولية، رسالة دكتوراة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٩٩٦م، ص ٥٢ - ٥٩، دتود المنذعي، الزراعة في اليمن في عصر الدولة الرسولية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة اليرموك، ١٩٩٢م، ص ١٩، ٢٠، أما المصادر القديمة فمتعددة، وكلها أشارت إلى تدعيم انتساب الرسوليين إلى المسلسلة اليمنية، وكلهم في ذلك تبع للخزرجي .

(١) قام المهدي محمد الحراري بتناول جنبات الحروب والصراعات المختلفة على تراث اليمن الفكري والعلمي، للاستزادة انظر المهدي محمد الحراري، تراجم علماء اليمن بين الوانع والطموح، ط ١، ٢٠٠٥م، ص ١٢٦ - ١٣٠ .

أولاً : الأوضاع الداخلية

❖ الدولة الرسولية في النصف الأول من القرن التاسع :

سنبدأ حديثنا عن الوضع السياسي في اليمن تحت حكم الدولة الرسولية في مدة الدراسة انطلاقاً من فترة حكم السلطان الأشرف الثاني إسماعيل، وسأأخذ حديثنا عن سلاطين بني رسول في القرن التاسع شيئاً من التوسع، ذلك لأننا في تناولنا للوضع السياسي عموماً إنما نهدف من خلاله إلى وضع التصور الذي يبين لنا مدى صعوبة الأوضاع الأمنية التي عاشها اليمنيون في مدة الدراسة، والتي لم تعفهم عن المحافظة على قدر كبير من التقدم العلمي والازدهار الفكري والمعرفي، في صورة تبعث على الإحساس لدينا بأن حب اليمن للعلم وعشقه للتعلم هما من أكبر دوافعه إلى التغلب على كل أشكال المعوقات والمنطقات في طريق تحقيق ذاته علمياً .

(١) الأشرف الثاني إسماعيل بن الأفضل (٧٧٨ - ٨٠٢ هـ / ١٣٧٦ - ١٤١٠ م) :

بعد السلطان الأشرف الثاني إسماعيل أول السلاطين الرسوليين الذين لهم علاقة ما بمدة دراستنا وموضوعها، فهو وإن كان قد قضى معظم مدة توليه زمام الحكم في البلاط الرسولي في القرن الثامن الهجري إلا أن ما كان منه في القرن التاسع الهجري كان فيه من الأنشطة العلمية ما يحملنا على إعطائه قدراً من الأهمية .

وتشير المصادر إلى أن الأشرف إسماعيل تولى السلطنة وهو دون الثامنة عشرة من عمره، ولم يكن في بداية عهده قائماً بمسؤولياته بشكل سليم، واستعان فيها بوالدته وبخاله الأمير عبدالعزیز الجعفلي ، خاصة أن الأجواء العلمية في بداية حكمه سادها الهدوء والاستقرار المؤقت^(١) .

(١) ابن حجر، إنباء الغر ببناء العصر، تحقيق د. حس حبشي، المجلس لأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٤م، ج ٢ ص ١٥٨، الحرجي، العقود اللؤلؤية، ج ٢ ص ١٣٤، ١٣٥، ١٤١، لمقري، غر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب، بيروت ، ط١، ١٩٩٢م، ج ٢ ص ٤٩٦ .

ما لبثت الأوضاع الراكدة أن تحركت بخروج قبائل المعازبة^(١) بتهمة سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م، فقامت بالإفساد في الأرض، والاعتداء على الناس حتى قتلوا بعض الولاة، فجرد السلطان لهم الحملة تلو الأخرى، وقاد بعض الحملات بنفسه إلا أنه لم يفلح في القضاء عليهم، وإن كان قد حد كثيراً من خطورتهم^(٢).

وكان خطر الأئمة الزيدية هو أشد ما واجهه السلطان الأشرف إسماعيل، سيما في عهد الإمام الناصر صلاح الدين^(٣) (ت ٧٩٣هـ / ١٣٩١م) الذي استولى على كثير من مناطق تهامة كحرض^(٤) وغيرها، بل وصلت قواته إلى أسوار زبيد ونعز

(١) إحدى بطون قبيلة الأشاعر الشهيرة، تسكن مناطق ريد وبيت العقبة وما حولهما من محافظة الخبيصة، تحمل اليوم اسم الرزاتيق، وأهلها من أشد قبائل الساحل بأساً؛ لذلك كان لحروجه على السلطات المركزية وحركاتهم الكثيرة ذكر واسع في كتب التاريخ اليمنية، محمد سالم شجاب، قبيلة الرزاتيق وحركاتهم التاريخية، مجلة اليمن الجديد، السنة ١٦، العدد ١٢، ١٩٨٧م، ص ٤٢، ٥٢، الصفي، الأحوال السياسية في الدولة الرسولية، ص ٣٧.

(٢) د محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص ٢١٧ - ٢١٩، الخزرجي، المسجد المصنوع، ص ٤٣٧ - ٤٤٤، العقود النولوية، ج ٢ ص ١٤٤ - ١٥٩، ابن النديم، فرة القصون، ص ٣٧٧، ٣٨٠.

(٣) محمد بن الإمام المهدي علي بن محمد، أحد أقوى أئمة الزيدية باليمن وفصلاتهم، كان - كما وصفه معاصره الإمام الهادي بن إبراهيم الورير - 'بلغ فوق رتبة الاجتهاد... وبرر في العلوم الدينية كلها تفسيره وحديثها ونحوها ولسانها، ومعالها وبيانها، ومنطقها وأصولها وفروعها، ومعقولها ومسموعها...'. بوع بالإمامة عام (٧٧٣هـ / ١٣٧١م)، وكان قوياً، كثيراً الاتباع، قوي التأثير، حسن السياسة؛ لذلك عشت منه الدولة الرسولية الأمرين، وبلغت جيوشه من المناطق ما لم تصلها قوى زيدية سابقة، وله مع الباطنية الإسماعيلية وقعات، الحبشي، حكاه اليمن المؤلفون، ص ١٦٠ - ١٦٢، رسالة، أئمة اليمن، ص ٢٦١ - ٢٧٨، إتحاف المهتدين، ص ٦٧، الرحيف، مآثر الأبرار، ج ٢، ١٠٢٢، الشوكاني، البدر الطالع، ص ٧٤٢، ابن المؤيد، طبقات الزيدية الكبرى، ج ٢ ص ١٠٢٣، الوجيه، أعلام المؤلفين الزيدية، ٩٧٢، الورير، كاشفة الغمة في حسن سيرة إمام الأمة، مخطوطة مصورة على قرص ليزر، صادر عن مؤسسة الإمام زيد بن علي، صنعاء، ص ١٣٠، ١٣١.

(٤) سيأتي التعريف بها في عنوان مستقل في الفصل الثالث من هذه الدراسة.

وعس^(١)، واستند للكثير من مقدرات الدولة الرسولية وإمكاناتها، ولم تلتقط أنفاسها إلا بمماته وحصول الخلاف بين الزيدية حول خلافة .

ولم تكد الأوضاع تهدأ حتى برزت الاضطرابات مرة أخرى، وقامت بعض الحركات من قبل بعض القوى الداخلية، وكان أبرزها في المناطق الساحلية بتهامة وفي بعض المناطق الجبلية مثل بَعْدَال^(٢) والشُؤلي^(٣)، وكانت ردة فعل السلطان الأشرف عليها أن جرد لها الكثير من الحملات من وقت لآخر، لكنه لم يتمكن من القضاء النهائي عليها، فما كانت الفرصة تلوح لهذه القوى إلا وتقوم باستغلالها والخروج والتحرك والإفساد في الأرض، فيقرم السلطان بتأنيبهم، وهكذا دواليك^(٤) .

وفي مطلع سنة (٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) ألم المرض بالسلطان الأشرف إسماعيل فلم يمهل، ومات بمدينة تعز بعد ربع قرن من الزمان على مدة الحكم، كانت حافلة - من جانب - بالكثير من الأحداث السياسية، والملاحم العسكرية، ومن جانب آخر كانت عصر ازدهار عمراني وكبير، يشهد بذلك ما خلفه هذا السلطان من الآثار التي لورثتها كتابات من عصره من المؤرخين، فقد عد الخرجي^(٥) من آثاره العمرانية الدينية حوالي أربعة ومسعين أثراً، ما بين مدرسة ومسجد وسبيل وغيرها .

(١) زبارة، أمة اليمن، ص ٢٧٤، الخرجي، المسجد المسموك، ص ٤٤٦ - ٤٥٩، الطهود الوئضية، ج ٢ ص ١٥٦ - ١٧٨، ابن النديم، فرة العيون، ص ٢٨٠، يحيى بن الحسين، غنية الأسماء، ص ٥٢٤، ٥٣٥ .

(٢) بُخْدَال، اسم لجبل كبير مشهور . مأهول بالسكان ، يطل على مدينة إب من الجهة الشرقية ، وفيه عدد كبير من القرى والحصون والمزارع والعيون والجدول ، ويمثل أحد المديريات التابعة لمحافظة إب . ونسب إليه عدد كبير من أعين اليمن في مند تاريخه مختلفة ، الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج ١ ص ٤٣ ٤٤ ، ١٢٤ ، المقهي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج ١ ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(٣) الشؤافي اليوم بلدة في جبل خضراء من مديرية حبش بمحافظه إب ، ولكن اسمها في زمن الدراسة كان يطلق على منطقة واسعة تضم بلدان المرتفعات الغربية لمنطقة وادي السحون ، وهي اليوم إحدى مراكز مدينة إب الإدارية ، الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٣ ص ٤٥٨ ، المقهي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج ١ ص ٨٨٣ .

(٤) زبارة، أمة اليمن، ص ٢٥٧، ٢٥٨، الخرجي، المسجد المسموك، ص ٤٨٠ - ٥٠١، الطهود الوئضية، ج ٢ ص ٢٠١ - ٢٥١ .

(٥) الخرجي، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٨٠ ، ٢٦٠ ، المسجد المسموك، ص ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ .

وكان السلطان الأشرف إسماعيل معدوداً بين مقنمي علماء عصره، إذ اشتهر بالنحو والآداب والتواريخ والأنساب والحساب والفقه والحديث، وكانت له معرفة بالإنشاء والنظم، وله أشعار حسنة^(١)، لذلك قرب العلماء والمتعلمين، وأجزل لهم العطية، وأكرم من نزل اليمن من العلماء من غير أهلها، ومن أشهر من استضافهم شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر للعسقلاني^(٢)، وكان بروزه في علم التاريخ أكثر من غيره، فألف فيه عدداً من الكتب التي تدل على طول باعه، ومسعة اطلاعه^(٣).

(٢) السلطان الناصر الأول أحمد بن الأشرف إسماعيل (٨٠٣-٨٢٧هـ / ١٤٠٠-١٤٤٢م):

يعد السلطان الناصر الأول أحمد بن الأشرف أهم السلاطين الرسولييين الذين حكموا في مدة الدراسة، وأكثرهم تأثيراً على الحياة العلمية والفكرية على الساحة اليمنية، كما أنه من أكثر سلاطين الرسولييين شدة، وأكثرهم بطشاً، وقسوة، وهيبة، وحزمًا، وكانت هذه الصفات هي سمة تعامله مع الخارجيين عليه، وله - مع ذلك - من الصفات العالية ما يجعله معدوداً ضمن فضلاء ملوك الرسولييين، فقد جاء ذكره عند المؤرخين موصوفاً بالصفات السالفة السالبة والموجبة، وكان تورطه في الوقوف إلى صف الفلاسفة المتصوفة - القائلين بوحدة الوجود - والقيام معهم بدور مماثل للدور الذي لعبه الخليفة العباسي المأمون مع المعتزلة سبباً لتركيز عدد كبير من المؤرخين على

(١) د. شاكر محمود عبدالممنعم، الملك الأشرف النصلي وكتابه المسجد المسبوك، ص ٦٩.

(٢) استضافه مرتين، الأولى سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م والثانية سنة (٨٠٦هـ / ١٤٠٣م)، انظر السعاوي، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، تحقيق د. حامد عبدالمجيد و د. طه الزبيدي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٦م، ج ١ ص ٨٦ - ٩١.

(٣) من أشهر مؤلفاته: (منتقى المسجد في شرح تفصيل حروف الأبجد)، و (هاككة الزمن ومفاككة نوي الآداب والقطن في أخبار من ملك اليمن)، و (مرآة الزمن في تصانيف أخبار اليمن)، وقيل أن الأخيرين كتاب واحد، ولعلهما ثلثان، و (المسجد المسبوك والجواهر المحكوك في طبقات العلماء والملوك)، انظر الأشرف الثاني الرسولي، المسجد، ص ٦٤ - ٧٧، بروكلمان، تاريخ الأديب العربي، ج ٧ ص ١١٢، ١٥٤، الحبشي، حكم اليمن المؤلفون المجتهدون، ص ١٦٩، ١٧٢، د. أيمن فؤاد سيد، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، ص ١٥٨، د. شاكر محمود عبدالممنعم، الملك الأشرف إسماعيل النصلي وجهوده الثقافية، مجلة المورخ العربي، بغداد، العدد ٨، ١٩٨٧م، ص ١٠٤ - ١١٣.

صفاته السيئة^(١)، ففي حين أننا نجد بعض المؤرخين اليمنيين كالعفيف الدائري^(٢) (ت ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م) وابن النديم^(٣) (٩٤٤هـ / ١٥٣٧م) يصفونه بأنه كان موصوفاً بوفور الحلم التام، والكرم الجم، ورباطة الجأش، وقوة احتمال ما لا تحتمله الملوك إزاء الأمور العظيمة، نجد عدداً آخر^(٤) - غالبيتهم من المؤرخين المصريين^(٥) - يصفونه بأنه كان فاجراً، ظالماً، شديد الجور .

حكم بعض الباحثين^(٦) على عهد السلطان الناصر يحيى بأنه يمثل بداية لعهود السلاطين الرسولييين الضعفاء، وهو حكم غير دقيق، فكل مجريات الأحداث التي جرت

(١) إلا أن السلطان الناصر لم يتم إلجاء الناس على اعتقاد قول بعينه، وكان أشهر مظاهر تأييده للصوفية ممثلاً في تمكينهم من المناصب، وأمر الفقهاء بعدم الفتوى بتكفيرهم، وهو ما ساعد على انتشار عقيدتهم

(٢) هو عثمان بن عمر بن أبي بكر الدائري، من العلماء المبرزين، من مبادئ علمه الفقه والقراءات والفرائض والأدب والشعر، قضى معظم حياته خاضعاً للعلم، مائلاً له، حيث كان من المدرسين بمدارس الدولة الرسولية في زبيد وتبر وحب حتى وفاته، أشهر مؤلفاته (البستان الزاهر في طبقات علماء بني ناضر) ، أما قوله في وصف السلطان الناصر فقد نقله عنه السخاوي، الضوء الملتصق لأهل القرن التاسع، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٣هـ، ج ١ ص ٢٤٠ .

(٣) قرعة العيون، ص ٣٩٢، بغية المستفيد، ص ١٠٥ .

(٤) ابن تغري بردي، المتوكل الصافي والمستوفى بعد الوفاة، تحقيق د. محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة ١٩٨٥، ج ١ ص ٢٤٤، ابن حجر، إنباء الفهر، ج ٣ ص ٢٣١، نيل السمر الكاشفة، تحقيق عثمان درويش، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٣٠٠، الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق د. حسن حبشي، ورلة الثقافة، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ١٩٧٠ - ١٩٧٢م، ج ٢ ص ٦٢، الحيني، علك الجمان في تاريخ أهل الزمان القسم الخاص بحوادث ٨٢٤ - ٨٥٠هـ، تحقيق عبدالرزاق الطنطاوي، دار الزهر للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٢٤٣، ٢٤٤، المبريري، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى ريادة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م، ج ٤ ص ٦٧٥ .

(٥) يبدو لي أن سبب ذلك هو نقلهم عن الحافظ ابن حجر كونه أفتهم، إضافة إلى أنه عاصر السلاطين الناصر، بل وراره في بلاطه، وبعث موقف الحافظ ابن حجر منه الاستعراب، فهو نفسه قد مدحه بعمر القضاة، واستناول ذلك - إن شاء الله - في الفصل الخامس .

(٦) د. محمد عبدالمال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ٢٢٧، المندعي، الزراعة في اليمن، ص ٢٠، Kamerer, M., La Mer Rouge L'Alyssinie L'Arabie L'antiquite, La Cairo, Memoires De La Societe De Geographie D, 1929, pl 72 نقلاً من النعني، الأحوال السياسية في الدولة في ١٩٢٩، De La Societe De Geographie D, 1929, pl 72، الرسولية، ص ٨٤،

في عهده تبين أنه كان له نصيب الأسد في تسيير دفتها، إذ قضى على أغلب بؤر الخروج والتوتر التي لم يتمكن من سبقه من القضاء عليها، ووطد الأمن في بلاده إلى حد كبير ، بل لعله - بشدته وقسوته في معاملة الخارجين عليه - فاق بعض أسلافه في إعادة الهبة للدولة .

نشط السلطان الناصر منذ توليه السلطة في التحرك في البلاد وجوب نواحيها بنية تفقدتها - من جانب - والقضاء على أي تمرد يسمع به أو يتوقع حدوثه - من جانب آخر ؛ فأخضع كثيراً من حركات التمرد والعصيان التي قامت بها بعض القبائل والقوى المحلية في مناطق المرتفعات الجبلية، واسترجع عدداً من الحصون المهمة التي خرج ولائها عن طاعة الدولة^(١) .

وبعد ذلك وجه السلطان الناصر جهوده إلى منطقة تهامة التي كانت مساحات واسعة منها قد خرجت عليه، فنزل بنفسه على رأس جيشه وشن كثيراً من الغارات على القبائل التي استنفدت طاقات الدولة للرسولية وإمكاناتها في عهد أسلافه، وفي مقدمة هذه القبائل تأتي قبيلة المعازبة، فشدد وطأته عليها حتى جعلها تركز إلى الطاعة^(٢)، ووجه ضربته القوية بإخضاع الحصون المطلة على تهامة لسيطرته، وذلك لأنها كانت الملاد للعارين من سطوته، ومنها يعاودون الكرة مرة أخرى^(٣) .

وَلَدَ نَاقِشُ الْبَاحِثِ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى الْبَغْدَادِيُّ هَذَا الْجَانِبَ فَأَحْسَنَ وَأَجَادَ، انظر العمري، المرجع السابق ، ص ٨٤ ، ٨٥ .

(١) ابن النديم، فرة العيون، ص ٢٨٧ ، ٣٨٨ ، المقري، ضوان الشرف الوافي في علم الفقه والعروض والتاريخ والنحو والقوافي، تحقيق عبدالله إبراهيم الأكلاري، مكتبة الإرشاد ، ص ٢٠٠٤م، ص ١٧٣ ، مجهول، تاريخ الدولة الرسولية في اليمن، تحقيق عبدالله العيشي، دار الجيل، ص ١٩٨٥م، ص ١٣٣ .

(٢) ابن النديم، المصدر السابق، ص ٢٨٧ ، ابن النديم ، بغية المستفيد، ص ١٠٢ ، المقري، المصدر السابق، ص ١٧٣ ، مجهول، المصدر السابق ، ص ١٣٧ ، ١٤٦ ، ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٣) الحداد، التاريخ العلم لليمن، منشورات المدينة، بيروت، ط ١ ، ١٩٨٦م، ج ٣ ص ١٨٨ .

وثر محمد بن القاسم بن نجاح على السلطان الناصر في زبيد عام (٨٠٦هـ / ١٤٠٣م)، إلا أنه قصى على هذه الثورة في الساعات الأولى لها، فصارت قصتها مثلاً يصرب بين العامة فيقال: "مالك نجاح ساعة وراح" (١).

وأبرز الحركات التي واجهها السلطان الناصر أحمد هي حركتا أخيه الحسين بن الأشرف، الأولى كانت بزبيد في سنة (٨٢٢هـ / ١٤١٩م)، إلا أن السلطان الناصر تمكن من مباغتته بسرعة وأسره في يوم الثورة نفسه، وأودعه السجن في حصن تعز، أما الثانية فقد حدثت في سنة (٨٢٣هـ / ١٤٢٠م) من داخل الحصن الذي سجن فيه، فقد تمكن من التخلص من السجن واستولى على الحصن، فبادر السلطان بمحاصرته، والاستيلاء على الحصن، ثم أغلظ في معاملته في هذه المرة، وتصرف بحكم شدته المعروفة، وقصوته المعهودة فأمر بسمل عينيه، وبعث به إلى حصن آخر (٢).

نشطت للحركة العلمية كثيراً في عهد السلطان الناصر، وكان هو نفسه من المشجعين للعلماء والفقهاء، ومكرماً لأسائر المعكرين ومقترراً لهم، وقد انتشرت أخبار عطايه السنية لهم في بطون كثير من المصادر اليمنية وغيرها (٣)،

وكان يقدم الجوائز الكبيرة للعلماء على كتبهم التي يقومون بتأليفها، فقد روى المؤرخ الإمام إسماعيل بن أبي بكر المقرئ (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) أنه أجاره بألف دينار على كتابه الشهير (عنوان الأشرف للرافي في علم الفقه والعروض والتاريخ والنحو والقوافي) وأجرى له المرتب (٤).

(١) ابن النديم، فرة العيون، ص ٣٩١، بغية المستفيد، ص ١٠٥، المقرئ، عنوان المقرئ المسمى مجموع القاضي الفاضل الإمام العلامة شرف الدين أبي النديم إسماعيل بن أبي بكر المقرئ، جمعه أحد تلاميذه ولم يُسمى من هو، مطبعة نخبة الأحبار، بومبي، الهند، ١٣٠٥هـ / ١٨٨٧م، ص ١٨٠، ١٨١، مجهول، تاريخ الدولة الرسولية، ص ١٣٧.

(٢) ابن النديم، المصدر السابق، ص ١٠٤، ابن النديم، فرة العيون، ص ٣٨٩، ٣٩٠، مجهول، تاريخ الدولة الرسولية، ص ١٩٣ - ١٩٩، يحيى بن الحسين، غاية الأمل، ص ٥٦٥.

(٣) البريبي، طبقات صلاح الدين، ص ٥٣، ١٦٠، ٢٠٠، ٢٠٦، ٢١٢، ٢٥٥، ٢٩٧، ٣٠٠، دبطه أبو زيد، إسماعيل المقرئ حياته وشعره، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار الأدب، بيروت، ط ١، ١٩٨٦م، ص ٥، المقرئ، عنوان الأشرف للرافي، ص ١٨٩.

(٤) المقرئ، المصدر السابق، نفس الصفحة.

وكان السلطان الناصر - كغيره من أسلافه - محباً لبناء الصروح العمرانية عامة، وذات الصبغة العلمية على وجه الخصوص، فقد شيد كثيراً من المدارس، وإن كان المؤرخون المعاصرون له لم يعصلوا ذكرها إلا أنهم أشاروا إليها، فهذا الإمام إسماعيل المقرئ^(١) يقول في مدحه مشيراً إلى المدارس في عهده، واهتمله بالمساجد وعمارتها، وجمعه للكتب وتوفيرها للعلماء وطلابهم :

وَضَبَّتْ مُلْكُهُ فَلِلْبَيْتِ كَمَنْ دَنَا	فِي الْأَرْضِ وَالْمَلِ الْمَضَاعِ مَصُونُ
وَأَعَدَّتْ لِلدِّينِ الْحَنِيفِ جَمَالَهُ	قَلَّةَ مُحْتَسِبٍ مُشْرِقٍ وَجَبِينِ
أَحْيَيْتَ رُسُلًا لِلْهُدَى عَهْدِي بِهِ	وَسَطَ الْمَدَارِسِ مَيِّتَ مَسْقُونِ
وَرَدَدْتَ أَسْلَابَ الْمَسَاجِدِ بِخَوْفِهَا	فَلَيْسَ مَنْ مَا يَبْقَى بِهَا وَزِينِ
وَالصُّحُفِ تَتْلَى وَالصَّلَاةُ مَقَامَةٌ	وَالذِّكْرُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّأْنِينِ
وَالْكَتَبُ تُتَشَرُّ وَالْمَدَارِسُ قَدْ زَهَتْ	بِالْعِلْمِ فِيهَا وَالْعُلُومُ فَتُونِ
وَنَهَضَتْ بِالْإِسْلَامِ نَهْضَةً فَائِرٍ	حَتَّى تَطْأُولَ وَاسْتَقَامَ الدِّينِ

وقد ظل السلطان الناصر أحمد بن الأشرف قائماً بمسؤولياته بكفاءة عالية، وكان لشدة مع خصومه دور كبير في هيبة القوى المحلية له وإحجامها عن الخروج عليه، لذلك قال عنه ابن الدبيع^(٢) أنه ظل " قائماً بأمر المملكة، حافظاً لها في التهايم والجبال حتى انتهت منته وانتقل إلى رحمة الله تعالى ... "، وكانت وفاته - بعد حكم دام ربع قرن تقريباً - في أحد حصون وصاب في سنة ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م^(٣).

(٣) السلطان المنصور الثاني عبدالله بن الناصر الأول (٨٢٧-٨٣٠هـ / ١٤٢٣-١٤٢٦م):

كان السلطان المنصور يوم توليه العرش صغير السن، ومع ذلك أخذت له البيعة باتفاق رجال الدولة دون حدوث ما ينفي صفة الإجماع عليه، وكسان - على

(١) المقرئ، ديوان المقرئ، ص ١٤٠.

(٢) ابن الدبيع، قوة العيون، ص ٣٩٢.

(٣) ابن الدبيع، المصدر السابق، نفس الصفحة، مجهول، تاريخ الدولة الرسولية، ص ٢٠٧.

صغر سنه - * ذا رأي وتبدير لسياسة المملكة ... ^(١) ، لذلك استطاع فرض هيئته وتثبيت سلطانه على البلاد ^(٢) ، وكان له من الصفات الحسنة ما لم يتوفر لكثير ممن خلفه في الحكم الرسولي، فقد وصفه بعض المؤرخين ^(٣) بأنه كان عدلاً شجاعاً، ذا دين متين ... جواداً ممدوحاً، محباً للفقهاء والمساكين، وكما كان موقف السلطان الناصر أحمد من المتصوفة شبيهاً، نوعاً ما، بموقف الخليفة المأمون العباسي من المعتزلة - كما سبق أن أشرت - فقد كان موقف ابنه السلطان المنصور منهم شبيهاً جداً بموقف الخليفة العباسي المتوكل على الله من المعتزلة، فقد قام بإزالة مسكراتهم، وأبعد كبار رموزهم، ورفض حتى مجرد السماح لهم بمقيلته، وأثر سلكن عزم أهل السنة، ومنع أصحاب الطرب من النساء من الغناء على بابيه، وكان محباً لفعل الخير، قائماً بالعيادات على وجهها الحسن، حتى اشتهر عنه أنه كان يحضر صلاة الفجر مع الجماعة في المسجد ^(٤) .

ولم يطل عمر هذا السلطان، إذ وافته المنية بعد ثلاث سنوات من بداية حكمه، أي سنة (٨٣٠هـ / ١٤٢٦م) ^(٥) ، ومن المرجح أنه لو طال عمره - بناءً على ما بدأه من السيرة الحسنة - لجنّد كثيراً من شباب الدولة وقوتها، ولأحيا الكثير من مكائنها التي كانت تتمتع بها في ظل أسلافه الأوائل .

^(١) ابن النديم، فرة العيون، ص ٣٩٢، وكذلك مثله عند الأملد ، كشف الغطاء عن حقائق التوحيد وعقائد الموحدين ونكر الأئمة الأشعرين ومن خالفهم من المبتدعين وبين حل ابن حريي وأتباعه المرافين ، تحقيق أحمد بكير محمود ، تونس، ١٩٦٤م ، ص ٢٢٢ .

^(٢) د. محمد عبدالعل أحمد، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٢٣٢، الأملد ، المصدر السابق ، ص ٢٢٢ .

^(٣) ابن النديم، فرة العيون، ص ٣٩٢، بغية المستفيد، ص ١٠٦ .

^(٤) المصدران السابقان ، نفس الصفحات .

^(٥) ابن تنري بردي، الفجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق د. علي طرhan، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١م، ج ١٥ ص ١٤٥، ابن النديم، المصدران السابقان ، نفس الصفحات .

كان السلطان المنصور - كاسلافه - محباً للعلماء، مقرباً إياهم في مجلسه، وكان يكرم الوافدين منهم، ويجزل لهم للعتاء الحسن، وكان يجلس للسمع عليهم، والأخذ من علومهم، وكان مشاركاً في بعض العلوم كالنقه والعربية^(١).

(٤) السلطان الأشرف الثالث إسماعيل بن الناصر (٨٣٠هـ - ٨٣١هـ / ١٤٢٦ - ١٤٢٧م):

تولى السلطان الأشرف الثالث إسماعيل بن الناصر الحكم خلفاً لأخيه السلطان المنصور عبداً لله، وكان صغير السن أيضاً^(٢)، إلا أن شخصيته كانت لا تتمتع بما كانت تتمتع به شخصية سلفه من الصفات، لذلك قام بتكبير أمور المملكة جماعة من أعيان

(١) البرهني، طبقت صلاحات النعم، ص ٢٤٧، ابن حجر، إنباء النعم، ج ٣ ص ٢٤٢، ابن النديم، فرة العيون، ص ٣٩٢، السخاوي، الضوء اللامع، ج ١ ص ٢٥٩.

(٢) لورد ابن النديم، المنصور السابلي، ص ٣٩٣ قولاً غريباً عن عمر السلطان الأشرف الثالث يوم مبايعته، فقد ادعى أنه تولى الحكم وهو صغير لم يخل بعد، وقد فأت المؤرخ الكبير أن هذا السلطان هو أخو المنصور وليس به، فكيف يكون صغيراً حتى أنه لم يحتل بعد في سنة (٨٣٠هـ / ١٤٢٦م) ، بينما كان أبوه السلطان الناصر أحمد قد مات سنة (٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) ، فطلى ففترض أن الأشرف الثالث ولد في اليوم الذي مات فيه أبوه - أو حتى بعد وفاته بشعة أشهر - فإن عمره سيكون يوم مبايعته ثلاث سنوات أو سنتين وثلاثة شهور تقريباً، فهل من المعقول أن يتأخر ختانه إلى هذا السن ؟ لئنك في ذلك كثيراً، وقد ناقص ابن النديم نفسه - حيناً لا تصريحاً - حيناً قال أن السلطان الظاهر يحيى - بعد أن بويع سلطاناً سنة (٨٣١هـ / ١٤٢٧م) - أرسل الأشرف الثالث إسماعيل إلى أحد الحصون ومسجبه هناك، فهل يعقل أن يسجن طفلاً ختن قبل سنة واحد تقريباً؟ لذلك أرجح أن السلطان الأشرف الثالث كان صغير السن نكتة كان قد بلغ من العمر ما يجعل عمه السلطان الظاهر يحيى لا يخرج من سجنه، فربما كان عمره يعوق العاشرة بعدة سنوات، وفي ديوان الإمام المقرئ، ديوان المقرئ، ص ٢٨٣ ما يدل على أنه كان أكبر من مما تصفه هذه المصادر، فقد طلب الأشرف الثالث نفسه من الإمام الشاعر أن يظم له قصيدة تكون اللفظة الأولى واللفظة الأخيرة في كل بيت من أبياتها كلمة زبيد، فظمت تلك القصيدة، وهذا الطلب - لا يمكن بأي حال من الأحوال - أن يصدر عن صبي صغير، فهو يدل على أنه صادر عن شخص حقق قدر محباً من التعلم نشأت عنه ملكة التدقيق الأتني، وهو ما يعني صغير سنه إلى الحد الذي ذكره ابن النديم، ولعل القرينة الأقوى التي تبين على الجزم بأنه لم يكن صغيراً كما صور أنه قد وكذ له طفل سنة (٨٣٤هـ / ١٤٣٠م) ناس على حكم الدولة الرمويلة سنة (٨٤٧هـ / ١٤٤٣م) ، وهو السلطان المسعود صلاح الدين أبو القاسم بن الأشرف الثالث، الذي ذكر ابن النديم نفسه، فرة العيون، ص ٤٠٣ أن عمره في تلك السنة كان ثلاثة عشر عاماً فهل من المنطق أن يروق الأشرف الثالث بأطفال وهو في سن الصبا؟

الدولة الذين لم يكونوا على وفاق دائم ، فاختلقت كلمتهم وتفرقت آراؤهم^(١)، ولم يكن السلطان بينهم إلا صورة يحفظون بها نظام للدولة، ويستمدون من خلالها شريعة تحكمهم، وقد صور لنا ذلك الواقع الإمام إسماعيل المقرئ^(٢) في واحدة من غرر قصائده التي وجهها من زبيد إلى الطاهر يحيى - عم السلطان الأشرف وخليفته - وقد كان المقرئ معاصراً وشاهد عيان لما يجري، فيقول :

وَلَيْسَ لِلْإِسْمَاعِيلِ ^(٣) ذَنْبٌ لِأَنَّهُ	عَلَى يَدِهِ أُنْزِلَ لَوْلَاهُ مَا أَقْوَى
وَمَا كَانَ إِلَّا صُورَةً يَحْمِلُونَهَا	عَلَى بَعْضِ مَا يَهْوُونَ لَا بَعْضِ مَا يَهْوَى
فَدَيَّرَ أَمْرَ الْمَلِكِ مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ	مَنْجَاةُ الْمُلُوكِ الْفُسْرُ وَالْهَيْمُ الْعَلِيَا
أُيْرَجَى صِلَاحُ الْمَلِكِ وَالْأَمْرُ قَدْ عَدَا	لِمَنْ لَمْ يَكُنْ زِيٌّ لِلْمُلُوكِ لَهُ زِيَا

وقد انعكست هذه الأجواء على أحوال البلاد فتعرضت لكثير من المشكلات، كخروج القبائل وتعرضهم لأموال الناس، وانتهاب أموال الضعفاء، خاصة أن الجذب كان قد حل بكثير من مناطق اليمن في تلك السنة، ففقد الأمن وغاب الاستقرار^(٤)، وشاع الفقر وانتشر الجوع^(٥)، وقد شعر عدد من ممالك البلاط الرسولي وعبيده بالخطر على الدولة في مثل هذا الطرف فاتجهوا إلى يحيى بن الأشرف الثاني - عم السلطان الأشرف الثالث - وأخرجوه من سجنه^(٦) وبإيعوه سلطاناً، وخلصوا بذلك السلطان الأشرف الثالث الذي تم إرساله إلى السجن^(٧).

(١) ابن النديم، فرة العيون، ص ٣٩٣، يحيى بن الحسين، بغية الأمل، ص ٥٦٧ .

(٢) ديوان المقرئ، ص ٢٨٦ .

(٣) المقصود هنا السلطان الأشرف الثالث إسماعيل بن الناصر أحمد .

(٤) ابن النديم، فرة العيون، ص ٣٩٣، مجهول، تاريخ الدولة الرسولية، ص ٢٠٩، المقرئ، الملوك، ج ٤ ص ٣٧٢، ٣٧٣ .

(٥) ديوان المقرئ، ص ٢٨٦ .

(٦) كل أخوه السلطان الناصر قد سجنه سنة (٨٢٢هـ / ١٤١٩م) ، يحيى بن الحسين، بغية الأمل، ص ٥٦٥ .

(٧) ابن النديم، فرة العيون، ص ٣٩٣، مجهول، تاريخ الدولة الرسولية، ص ٢٠٩، المقرئ، ديوان المقرئ، ص ٢٨٥ .

(٥) السلطان الظاهر يحيى بن الأشرف الثاني إسماعيل (٨٣١-٨٤٢هـ/١٤٢٧-١٤٣٨م):

يبيع السلطان الظاهر يحيى بن الأشرف الثاني إسماعيل خلفاً لابن أخيه، وثقل بالظاهر، ومن خلال ما جرى من أحداث تلت توليه زمام الأمور في العرش الرسولي يتضح لنا أنه كان ذا همة عالية، له ميل إلى التدين السليم البعيد عن صور البدع والمكرات، ويتمتع بشخصية قوية وعقلية سياسية حكيمة؛ ولقدنا لدية لفيرة على مكانة السلطان الرفيعة التي اهتزت في عهد سلفه الأشرف الثالث، وكأني به كان يحلم بإعادة أمجاد الدولة إلى ما كانت في عهد أسلافه.

كان لازماً على السلطان الظاهر يحيى للقيام ببعض الإصلاحات الإدارية والاجتماعية والدينية - إن جاز لنا استخدام هذه المصطلحات المعاصرة - لذلك رتب لنفسه بعض الأولويات، فما أن تمت البيعة له حتى هب إلى إقامة العدل ونشره بين الناس، وأبطل الكثير من البدع وما أحدثه الناس في دينهم مما لم تقم عليه الأدلة^(١)، وأزال كثيراً من مظالم الولاة والأمراء، وقرر القواعد التي كانت تعاقبها الرعية في أيام أسلافه العظام، وأنفق على جميع فئات جيشه النفقات السخية، وأدخل السرور على جميع طبقات المجتمع اليمني، ولكي يجعل من ملوكه هذا بهجاً دائماً لا مظاهر فرحة طارئة أصدر المراسيم السلطانية بها، وأرسلها إلى كلغة مناطق البلاد الخاضعة لسلطة الدولة الرسولية^(٢).

ولم يغب عن بال السلطان الظاهر يحيى القيام بأمرين مهمين في سبيل إعادة الاعتبار لمكانة السلطان الكبيرة في نظام الحكم الرسولي التي تعرضت لهزة عنيفة - في عهد الأشرف الثالث - شوهت وجهها في نظر العامة ورجال الدولة عموماً، والمماليك والعبيد منهم على وجه الخصوص، وأول هذين الأمرين القيام بالتخلص من أعيان الرجال الذي استكثروا بالأمر دون سلفه الأشرف الثالث وفي مقتنمهم أكبرهم

(١) عند ابن الديبع ما يناقض ذلك، فقد أشار إلى أنه كان قد ألجأ بعض البدع التي رعاها هو بنفسه، انظر ابن الديبع، فرة العيون، ص ٣٩٨، ٣٩٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٩٣، الأهل، كشف الغطاء، ٢٢٣، مجهول، تزيخ الدولة الرسولية، ص ٧١، علي بن علي أحمد، الحياة العلمية في تعز، ص ٧١.

وأشهرهم الوزير القاضي شرف الدين إسماعيل بن عبدالله العلوي^(١)، أما الأمر الآخر - وكان أكثر إلحاحاً وأهمية من سابقه - فيتمثل في القضاء على العبيد والمماليك الذين حلوا ابن أخيه ونصبوه سلطاناً، ويبدو أنه لم يكن يُسَيِّت نية الإساءة إليهم والتخلص منهم حتى لمس فيهم من الغرور والتجبر والكبرياء ما دفعه للعزم على القيام بذلك، فقد طعوا وبغوا وزعموا أنهم يقيمون من شأؤوا ويخلصون من شأؤوا^(٢)، فلما حانت الفرصة للسلطان للقضاء عليهم وكسر شوكتهم قام - في سنة (٨٣٣هـ / ١٤٢٩م) - بإبانتهم قتلاً وتغريقاً ونفياً وسجناً وتغريقاً وتكديلاً^(٣).

وقد قامت كثير من قبائل تهامة بالحروج على طاعة السلطان الظاهر يحيى، وانتشر التمرد والعصيان في كثير من قرى تهامة ومنهها، وجرد السلطان الحملات ووجهها إليها، وما كانت تخمد ثورة حتى تتدلج أخرى، وما تنهزم القبيلة الواحدة حتى تستجمع قواها وتعلن العصيان مرة أخرى، واستهلكت هذه الحركات الكثير من إمكانات الدولة وجهودها، ولم ينجح السلطان في القضاء على أغلبها ؛ وكانت كثيراً منها ما تنتفع بالفقهاء والعلماء لدى السلطان ليعضو عنهم^(٤)، وجملة القول أن كثيراً من هذه الحركات استمرت في خروجها حتى وفاة السلطان الظاهر يحيى سنة (٨٤٢هـ / ١٤٤١م)^(٥).

(١) ابن النديم، فرة العين، ص ٣٩٤، وفيه إشارة إلى أن القاضي لم يقترف ذنباً سوى قولمه بتنفيذ وصية السلطان الناصر أحمد في أخذ البيعة لولديه، وهذه الحادثة من الحوادث القليلة جداً في العصر الرسولي التي يطال العلماء السوء على أيدي الحكام.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة، وعن مكانة العبيد وأحورهم في اليمن إسان العهد الرسولي - بما فيها هذه المدة بالتحديد - انظر د. حسين عبدالله المصري، الأمراء العبيد والمماليك في اليمن، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١، ١٩٨٩م، ص ٤٣ - ٤٨، فتحى علي حسن هلال، الحياة الاجتماعية والفكرية من منتصف القرن السادس الهجري حتى منتصف القرن التاسع الهجري، رسالة نكتوراه، كلية الآداب، جامعة طنطا، ١٩٩٢م، ص ٤٣ - ٤٦.

(٣) ابن النديم، المصدر السابق، ص ٣٩٤، ٣٩٥، مجهول، تاريخ الدولة الرسولية، ص ٢١٤، ٢١٦، ديوان المقرئ، ص ٣٠١، يحيى بن الحسين، خاتمة الأملاني، ص ٥٦٨.

(٤) ابن النديم، المصدر السابق، ص ٣٩٥، ٤٩٦، مجهول، المصدر السابق، ص ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٦٩، ٢٧٢، ٢٧٧، ٢٧٩، يحيى بن الحسين، المصدر السابق، ص ٥٦٩.

(٥) د. محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول وبنو ظاهر، ص ٢٣٥.

وفي غمرة هذه الأوضاع الأمنية المتردية قام العباس بن الأشراف الثاني إسماعيل - آخر السلاطين الظاهر يحيى - بالخروج على أخيه سنة (٨٣٩هـ / ١٤٣٥م) ، واستناد من الخارجين عليه من العبيد، إلا أنه ما لبث أن صالح أخاه في السنة التالية^(١) .

(٦) السلطان الأشرف الرابع إسماعيل بن الظاهر (٨٤٢ - ٨٤٥هـ / ١٤٣٨ - ١٤٤١م) :

لجمع رجال الدولة وأعيانها وأهل الحل والعقد فيها على بيعة السلطان إسماعيل ابن الظاهر يحيى سلطاناً^(٢)، وحمل لقب الأشرف ، فكان بذلك رابع السلاطين للرسوليين الذين حملوا اللقب نفسه ، ووصفه المؤرخون بأنه كان شجاعاً بطلاً له شدة وحزم، وإقدام وجرأة على سفك دماء أعدائه الخارجين عليه، وذكر بعضهم^(٣) أنه كان يلقب بالمجنون لشدة إقدامه وجرأته .

وكانت كثير من قبائل تهامة م زالت خارجة عن طاعة للدولة منذ عهد أبيه، فجرد عدة حملات للتصدي لهم، إلا أن الحرب بينهم كانت سجالاً، وكانت جيوشه تمنى بالهزائم أحياناً، وكاد في إحدى المعارك أن يُقتل هو بنفسه بعد هزيمة جيشه^(٤)، وقد عجز فعلاً عن القضاء على هذه الحركات حتى آخر أيامه، ولو أن هذه القوى القبلية للثائرة كان لديها من الوعي السياسي بأهمية التكتل أو حتى التسيق بين جهودها لكان القضاء على الدولة ميسوراً وقتئذ، إلا أن الغالب على حركتها كان دافعه الكسب للمادي من السلب والنهب المرتبط بحروبها، أو للثأر من جنود الدولة لمن سقط من قتلاها . ولم تطل أيام السلطان الأشرف الرابع كثيراً، فقد وافته المنية في مدينة تعز بعد ثلاث سنوات فقط من حكمه، أي سنة (٨٤٥هـ / ١٤٤١م) ، وكانت أيامه بداية لأقول نجم الدولة الرسولية كما منبئنه .

(١) ابن الدبيع، فرة العيون، ص ٣٩٧، يحيى بن الحسين، غاية الأمل، ص ٥٧٢ .

(٢) ابن الدبيع، فرة العيون، ص ٤٠٠، فرب نظر إليه يحيى بن الحسين على أنه " كان شاباً تعصب عليه رأي الجبل والسنة، فسفك الدماء، ولأثر الفتن الحطمي " ، انظر يحيى بن الحسين، غاية الأمل، ص ٥٧٨ .

(٣) ابن الدبيع، المصدر السابق، ص ٤٠٠، يحيى بن الحسين، المصدر السابق، ص ٥٧٩ .

(٤) يحيى بن الحسين، المصدر السابق، نفس الصفحة .

❖ الصراع الرسولي الداخلي وسقوط الرسولية :

(٧) السلطان المظفر الثاني يوسف بن عمر (٨٤٥ - ٨٥٤هـ / ١٤٤١ - ١٤٥٠م) :

يقول السلطان المظفر الثاني يوسف بن عمر العرش الرسولي كانت الدولة الرسولية قد دخلت مرحلة جديدة وحاسمة من تاريخها، نستطيع أن نسميها مرحلة التدهور والاضمحلال، أو مرحلة الذبول والانحيار، أو لعلها مرحلة الشيخوخة والسقوط ، فقد سادتها ملامح للضعف، وتكاثبت على هيكلها أعراض الغروب، وضاعت هيبتها بالتفريط في نفوس رجالها قبل أعدائها، ولم يكن ذلك إلا نتيجة طبيعة لصراعاها الدائم مع الخارجين عليها من القوى المحلية المختلفة، سواء الأمراء أو القبائل، وإن كان صراعاها مع القبائل يأتي في مقدمة من استنزف إمكانياتها واستهلك معظم جهود حكماها، وتفسير ذلك ما سبق أن أشرنا إليه في تمهيد هذا الفصل .

ولا يغتف في عضد الدولة - أي دولة - صراعاها مع أعدائها بقدر ما يهرها صراع أبنائها على العرش، فهو يأتي على قوتها، ويكشف حالة المهابة التي تتمتع بها منزلة ملوكها في عيون رعيها وأعدائها، ويطمع الطامحين إلى بلوغ المظالم الشخصية والمناقع الآتية، ويريد من جرأة من يخاف عقبة الإطلال بكيدة والتطلع إلى بلوغ مآربه، فيجد فيه المتربصون بالدولة الجو المناسب لممارسة نشاطهم في تقويض دعائمها، أو على الأقل استنزاف أكبر قدر من مقدراتها .

وشواهد التاريخ كثيرة على أن صراع أبناء الأسر الحاكمة على السلطة هو بداية للنهاية لدولهم، أستحضر منه ما رواه أئمة المؤرخين من حوادث صراع الأمويين على الخلافة بعد وفاة هشام بن عبد الملك سنة (١٢٥هـ / ٧٤٢م) ، حتى قتل بعضهم بعضاً^(١) ، فقال قائلهم - وكأنه كان يعي حقيقة خطورة مثل هذا النوع من الصراع - : " يا بني مروان، إني أظن أن الله قد أذن في هلاككم ... " ^(٢) ، ولم تدم دولتهم بعده أكثر من ست سنوات حتى انهارت وانتهت أيامها .

(١) الذهبي، العبر في خبر من غير، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، ١٩٦٠م، ج ١ ص ١٦١، ١٦٢، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٧ ص ٢٣١ - ٢٥٣، ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٠٤ - ٤٠٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٩ - ١١ .

(٢) د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف، العلم الإسلامي في العصر الأموي، دار الوقاء للطباعة، مصر، ط ١، ١٩٨٤م، ص ٢٠١ .

والصراع على عرش السلطنة بين أبناء البيت الرسولي قديم قدم دولتهم، فقد جرت أول حلقاته بعد وفاة المؤسس السلطان الملك المنصور عمر سنة (٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) ، وتوالى الحلقات في عهد السلاطين الأولين من أبناء وأحفاده، فبلغ الأمر مداه في مدة حكم السلطان المجاهد الذي خرج عليه خمسة من أمراء البيت الرسولي هم: عمه أيوب، وابنه عبدالله بن أيوب، وبعد ذلك ثلاثة من أبنائه هو ، ومن الملاحظ أن هذه الصراعات الداخلية لم تشكل خطراً كبيراً وجدياً على الدولة في بدايتها نظراً لقوتها وقوة السلاطين أنفسهم، أو لعل الدولة كانت مازالت فتية متمسكة، وقادرة على الصمود، إلا أن أخطر نتائجها تمثل في أن الخروج بعد ذاته لم يعد أمراً مستغرباً لدى المتأخرين من الأمراء الرسوليين، الذين عاشوا في حقبة لم تكن الدولة فيها قادرة على تحمل المزيد من نزيف الجهود والإمكانات والطاقات، في وقت كانت تعاني فيه تبعات صراعها مع قوى محلية متنامية في مناطق شتى من تهامة .

من خلال حديثنا عما تبقى من مدة حكم الدولة الرسولية سيتضح لنا كيف أسهم الرسوليون أنفسهم في الإجهاز على بقية قوتهم بخروجهم على بعضهم .

كان بين السلطان المظفر الثاني يوسف - قبل توليه الحكم - وبين خلفه ابن عمه السلطان الأشرف الرابع ما يستوجب منه التخفي والابتعاد عن مقتول يده، ولم تُشير المصادر إلى ماهية ذلك الأمر، إلا أنها أشارت إلى أنه حينما توفي السلطان الأشرف كان في وصاب مقيماً عند أحد زعمائها هرباً منه^(١)، وكان المظفر يتميز بصفات الحل والإتصاف، وهو ما كان مشهوراً عنه بين الناس ؛ لذلك كن أول من وُضع اسمه بين يدي جماعة من أهل الحل والعقد في البلاط الرسولي، فقاموا بعقد البيعة له وتمكينه من زمام العرش^(٢) .

ولم يكن تولي السلطان المظفر الثاني للعرش مُرحباً به من قبل بعض رجال الدولة، فقد خرج عليه - منذ أيامه الأولى - بعض ممالك الدولة وعبيدها، واتجهوا إلى زبيد بزعملة أحدهم يدعى يشبك الخاصبي، وأقاموا بها الأمير محمد بن إسماعيل بن عثمان بن السلطان الأفضل، وبايعوه بالسلطنة، وأطلقوا عليه لقب السلطان الأفضل، ولرأى أن يستقوي بقبائل تهامة الحارجة على الدولة منذ أيام السلطان الظاهر يحيى.

(١) ابن الديبع، فرة العيون، ص ٤٠٢، بغية المستفيد، ١١٤، يحيى بن الحسين، غاية الأمل، ص ٥٧٩ .

(٢) المصادر الثلاثة السابقة ، وفي نفس الصفحات .

وخاصة قبائل المعازبة والقرشيين^(١)، على السلطان المظفر، فاستدعاهم إلى زبيد وأنفق عليهم الكثير من الأموال، فاستقروا بها، وبدلاً من لتعلون معه حصل الشقاق بينهم - بين المعازبة والقرشيين - وجرت معركة بينهم، واغتصبوا من أهل زبيد نخلهم، واقتصدوا في زبيد، وأخافوا أهلها ومن حولها^(٢).

تصدى السلطان المظفر لهذه الحركة، وجرّد لها حملة تمكّنت من هزيمة المفضل ومن معه من العبيد والمماليك، وأسره مع عدد من كبار قواده، ولقّنه إلى نعر، وتتبع المماليك، وصل على الانتقام منهم، وقتل مقدمهم يشبك الخاصبي، وذلك كله سنة (٨٤٦هـ / ١٤٤٢م)^(٣).

وقام بعد ذلك بقطع الجامكية^(٤) على المماليك للذين استمروا في خروجهم لجأوا إلى القيام بنهب محاصيل الأراضي الزراعية المحيطة بزبيد، وعاثوا في الأرض فساداً^(٥)، وعلموا أنه لا يكره السلطان المظفر منهم عملاً كما يكره نيلهم من شخصيته كسلطان، فأشاعوا أنه قد ضعف عن أمر السلطنة، ولم يعد صالحاً للاستمرار في تحمل أعبائها، ولما علموا بوجود الأمير أحمد بن يوسف - أحد أحفاد السلطان المجاهد الرسولي - بحثوا اتجهوا إليه، والتفوا حوله، وزينوا له الخروج معهم ومبايعته بالسلطنة، ولقبوه بالناصر، فدخلوا به زبيداً سنة (٨٤٦هـ / ١٤٤٢م)، وكثر بغيتهم مع الناصر، فكانوا يتمالأون على نهب زبيد، ويقتلون أهلها، ويثيرون للرعب والفرع

(١) ويوم القرشيين، ويسمى أحياناً القرشيين، أحد بطون قبيلة الأشاعر الشهيرة، وهم بالإسكفة إلى المعازبة - من أشد قبائل تهامة بأساً، وأكثرهم شجاعة، لذلك كانوا كثوري الخروج على السلطات المركزية التي تحاول السيطرة عليهم على مدار تاريخهم، منازلهم في أسفل وادي رمع ومنطقة فقرتية من محافظة الحديدة، انظر الشرجي، طبقات الخوارج أهل الصدق والإخلاص، ص ٢٣٣، ٢٩٠.

(٢) يحيى بن الحسين، غاية الأمان، ص ٥٨٠، ابن النديم، بغية المستفيد، ١١٥، قرة العين، ص ١٠٢.

(٣) المنصور السليل، ص ١٠٢، ٤٠٣، ابن النديم، بغية المستفيد، ١١٥، ١١٦، د. محمد عبدالمعالي أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص ٢٣٨، ٢٣٩.

(٤) الجامكية، كلمة فارسية، مصابها الراتب المقدر لشهر أو أكثر، وهي كلمة مركبة من لطين . جلمه بمعنى قيمة، وهي أداة النسبة، وجمعها جوامك، انظر مصطفى عبدالكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٩١م، ص ١١٩، محمد أنيل البقلي، التعرف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣، ص ٨٢.

(٥) ابن النديم، قرة العين، ص ٤٠٣، بغية المستفيد، ١١٦، يحيى بن الحسين، غاية الأمان، ص ٥٨٠.

فيها، ولم يتجرأ أحد على التصدي لهم، وفشلت محاولة أهالي المدينة في إخراجهم منها^(١)، وأحالوا زبيد - كما يقول يحيى بن الحسين^(٢) - : "كلن لم تغن بالأمس، وتفرق أهلها أيدي سبا"^(٣)

كان عجز السلطان المظفر وضحاً عن القيام بأي إجراء ضد هؤلاء العبيد والمماليك الخارجين على دولته، وكفى بذلك إشارة إلى عجز الدولة وضعفها، فما كان للمظفر إلا مجمداً لها وصورة من صورها، ولو لم يختلف هؤلاء الخارجون مع الناصر أحمد في أوائل سنة (٨٤٧هـ / ١٤٤٣م) لبقى مدة أطول^(٤) .

ما أن خرج الناصر أحمد وأبنائه من زبيد حتى سارع للمماليك والعبيد إلى تنصيب أمير رسولي آخر هو صلاح الدين أبو القاسم بن الأشرف الثالث إسماعيل بن الناصر لأول أحمد، ولم يكن عمره يتجاوز الثالثة عشرة، ولقبوه بالسلطان المسعود^(٥)، وكان له تطلع إلى الاستيلاء على جميع ما في يد السلطان المظفر، لذلك احتدم الصراع بينهما على مناطق النفوذ، وقد استطاع المسعود فعلاً انتزاع عدن، ثم الحُج، وزحف ببقوته نحو تعز وحاصر المظفر في قلعتها مرتين، الأولى سنة (٨٥٠هـ /

(١) د. محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ٢٣٩، ٢٤٠، ابن النديم، قرة العيون، ص ٤٠٣، بغية المستفيد، ١١٦، يحيى بن الحسين، غاية الأمل، ص ٥٨٠ .

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة .

(٣) وهو مثلُ بقوله اليمينيون كناية عن الشتات الذي يصيب قوماً ما إثر حادث جلي، وهو مما تولدته اليمينيون من أسلافهم منذ حفة ما قبل الإسلام، عندما تفرق جموع أبناء سبا وتشتتوا في الأقطار نتيجة تهديم سد مأرب العظيم في سيل الحرم الشهير الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، فسي سورة سبا، الآيات ١٩ - ١٩ .

(٤) لم يحدد المؤرخون لسبب هذا الاختلاف، ولكن يبدو أن الناصر الثاني أحمد لم يكن يواظبهم في كل أصال الإصاا التي كان يقومون بها، وتنصيبهم أميراً صغيراً بدلاً عنه يقوي هذا التوقع، انظر ابن النديم، قرة العيون، ص ٤٠٣، بغية المستفيد، ١١٦، يحيى بن الحسين، غاية الأمل، ص ٥٨٠ .

(٥) ليحيى بن الحسين وقفة طيبة مع هذا اللقب، فهو يقول : "به - أي بالسلطان المسعود - كالي بقراس دولة بني رسول، كما فقرضت دولة بني أيوب بالملك المسعود ... انظر يحيى بن الحسين، المصدر السابق، ص ٥٨١ .

١٤٤٦م) والثانية سنة ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م، وتولى زمام السلطنة بشكل تام في سنة (٨٥٤هـ / ١٤٥٠م)^(١) .

(٨) السلطان المسعود صلاح الدين بن الأشرف الثالث (٨٥٤-٨٥٨هـ / ١٤٥٠-١٤٥٤م) :

اختفى السلطان المظفر الثاني يوسف من مسرح الحياة السياسية في اليمن عند ابتلاء المسعود لحصن تعز عام (٨٥٤هـ / ١٤٥٠م) ، وسكتت المصادر عن طبيعة هذا الغياب، فلم تبين فيما إذا كان قد أجبر على التنازل وترك في حال سبيله، أم أنه قُتل على أيدي جيش المسعود، على كل ؛ فقد تولى السلطان المسعود السلطة في تلك السنة، ولم يلبث أن وقع الخلاف بينه وبين العبيد والمماليك الذين نصبوه سلطاناً، ولعله أراد أن يكرر الموقف الذي وقفه السلطان الظاهر يحيى من الذين نصبوه من قبل، أو لعله خيب أملهم في أن يطلق أيديهم ليعيشوا فساداً في الأرض كما عملوا بزبد عندما نصبوا الناصر الثاني أحمد .

تشير المصادر^(٢) إلى أن أولئك العبيد والمماليك قاموا - في سنة (٨٥٥هـ / ١٤٥١م) بتصيب سلطان آخر من أبناء البيت الرسولي في زبيد، هو السلطان المؤيد حسين بن الظاهر يحيى بن الأشرف الثاني إسماعيل، فلما علم السلطان المسعود بذلك توجه بنفسه على رأس حملة إلى زبيد، وعزم على القضاء على حركته، غير أنه هوجئ بحمى الخيانة تسري في جيشه، فتركها وعاد إلى تعز، ومنها إلى عدن حيث نخل في صراع مع الأمراء الظاهريين انتهى بتنازله عن السلطنة في بداية سنة (٨٥٨هـ / ١٤٥٤م) بالشكل الذي سنبيئه لاحقاً .

طمع المؤيد حسين في الاستيلاء على عدن عندما علم بخروج المسعود منها، فاتجه إليها من زبيد، ودخلها متسللاً في منتصف السنة نفسها، فقبض عليه الظاهريون فيها وأمّئوه، ثم سمحوا له بمغادرتها إلى زبيد التي تركها لاحقاً وسافر إلى مكة، ولم يعرف له خبر بعدها^(٣)، وبخروجه تكون شمس الدولة الرسولية قد غربت تماماً بعد

(١) د. محمد عبدالمعالي أحمد، بنو رسول وبنو ظاهر ، ٢٤٠ - ٢٤٢، يحيى بن الحسين، غلبة الأماني، ص ٥٨١، ٥٨٣، ابن الديبع، قرة العيون، ص ٤٠٣، ٤٠٤، بغية المستفيد، ١١٧، ١١٨ .

(٢) المصدر السابق ، ١١٩، ١٢٠، ابن الديبع، قرة العيون، ص ٤٠٤، يحيى بن الحسين، المصدر السابق ، ص ٥٨٤ .

(٣) يحيى بن الحسين، المصدر السابق ، ص ٥٨٥ .

❖ قيام الدولة الطاهرية :

كانت أسرة الطاهريين مغمورة قبل القرن التاسع الهجري، إذ لم يُعرف شيء عن تاريخها، ولم يتطرق المؤرخون لشيء منه إطلاقاً، وزعم بعض المؤرخين^(١) أن أول ظهور لاسمها في المصادر التاريخية جاء في نهاية القرن الثامن الهجري عندما نُكر أن الشيخ طاهر بن عامر (ت قبل ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) كان يعمل في خدمة السلطان للرسولي الأشرف الثاني إسماعيل (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) نائباً على جهات رداغ^(٢)، ولا يوجد أي سند تاريخي يؤكد أن هذا الشيخ هو فعلاً من الأسرة الطاهرية نفسها التي أسست هذه الدولة المعروفة فيما بعد سوى ما نكره يحيى بن الحسين^(٣) تعقيباً على نكره للشيخ طاهر بن عامر، إذ قال : " وهذا الشيخ طاهر بن عامر أول من تسلطن من أهل هذا البيت - يقصد للبيت الطاهري - وملك الأمر بالنيابة عن بني رسول، وسبأني ذكر أولاده وأقربيه وما ملكوا من اليمن ... "، فهل كون اسم هذا الرجل طاهراً فيه دلالة تحمل على الجرم بأنه أول من تسلطن من البيت الطاهري؟ فما أورده يحيى بن الحسين - مع جلالة قدره بين المؤرخين اليمنيين - لا يعدو أن يكون محض استنتاج شخصي منه، وثمة أمر مهم آخر، هو عدم ورود اسم الشيخ طاهر بن عامر في المصادر المتوافرة - غير (غاية الأمان) وتبعه صاحب تاريخ (أئمة اليمن)^(٤) - فنحن لا نجد أي إشارة إلى اسمه، وبالتالي لا ربط بين اسمه وبين السلاطين الطاهريين، وكان الأحرى بمؤرخ الدولة الطاهرية الأول ابن الدبيع الشيباني - المعروف بحرصه على إعلاء شأن الطاهريين لكثرة إنعالمهم عليه - أن ينكره لو كان له علاقة رحم بهم، ففي نكره ترسيخ لقدم هذه الأسرة في الإمارة والحكم، إلا أنه لم ينكره نهائياً في أي من تواريخه الثلاثة المعروفة .

(١) د. محمد عبدالحال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٢٤٧، ٢٤٨، محمد ربيع المنطقي، الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية في عصر السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري، رسالة ماجستير ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٩٨٥م، ص ٢٢ .

(٢) يحيى بن الحسين، غاية الأمان، ص ٥٤١ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٤) ربارة، أئمة اليمن، ص ٢٨٢ .

ومن جانب آخر يتصح من رواية يحيى بن الحسين أن الوثام والولاء كان هو صفة العلاقة بين الرسوليين والشيخ طاهر بن علمر وابنه علي بن طاهر (ت ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م) من بعده، أما جد سلاطين الدولة الطاهرية^(١) الشيخ معوضة بن تاج الدين (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م) الذي أوردته المصادر المعاصرة للأحداث في مطلع القرن التاسع فقد تناوله في سياق حديثها عن الأمراء المحليين الذين كانت تربطهم بالدولة الطاهرية علاقة صراع دموي، والإشارات إلى بعض صور صراعه مع قادة جيش السلطان الرسولي للناصر أحمد (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) سنة (٨٠٩هـ / ١٤٠٦م) موجودة في كتابات المؤرخ الرسولي المجهول الذي كان مقرباً للبلاط السلطاني الرسولي وعاملاً فيه^(٢)، كما وردت - أيضاً - أخيراً عقد الصلح بينه وبين السلطان الناصر أحمد^(٣).

ثم أن المكان الذي كانت السلطة فيه للشيخ طاهر بن علمر هو منطقة رذاع^(٤) وما حولها، أما أول ظهور لاسم الشيخ معوضة بن تاج الدين - جد السلاطين الطاهريين - فقد ورد عند البريهي^(٥) على أنه صاحب منطقة الصبيات^(٦)، وهي منطقة مازالت عامرة إلى يوم الناس هذا في الجهة الجنوبية لمنطقة الضالع^(٧) على بُعد عشرة

(١) هكذا وصفه ابن النديم، قرّة العيون، ص ٢٨٩.

(٢) مجهول، تاريخ الدولة الرسولية في اليمن، ص ١٤٧، ١٤٨.

(٣) المصدر السابق، ص ١٤٨.

(٤) واحدة من أجمل مدن اليمن المجدية، وأحسنها موقعاً، وأجملها منظرًا، ولطعمها هواء، ذات حدائق عشاء، وقصور شماء، وهواء طلق، تقع في وسط وادٍ رحب على بعد ٥٣ كيلو متراً من مدينة دمار في وسط اليمن، وهي اليوم تشكل واحدة من مديريات محافظة البيضاء، ابن النديم، قرّة العيون، ص ١٤٦، حاشية رقم ٣ من تعليق المحقق، المقحف، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج ١ ص ٦٨١، ٦٨٢، الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١٠١.

(٥) البريهي، طبقات صنعاء اليمن، ص ١٨٠.

(٦) قد يورد رسمها بالخط يدلاً عن الصاد.

(٧) منطقة وبلدة واسعة تقع على مضبة قرب جبل جُحلف، مرتفعة حوالي أربعة آلاف قدم عن مستوى سطح البحر، تتخللها أودية كثيرة، وجميع وديانها حصبة، تكثر فيها زراعة الحبوب وبعض ثقلوكه والحب والفاثات، وقد توسعت في العشرين السنة الأخيرة فصارَت مدينة كبيرة بالقدر الذي جعل حكومة اليمن تملن اتخاذ عاصمة لمحافظة جديدة حملت اسمها عام ١٩٩٨م، وأصبحت منطقة الصبيات =

كيلومترات تقريباً منها^(١)، وهي منطقة تبعد نسبياً عن منطقة رذاع منطقة نفوذ الشيخ طاهر بن عامر وأبنائه، وكان الشيخ معوضة بن تاج الدين معاصراً للشيخ طاهر بن عامر وأبنائه، فلو فرصنا جدلاً أن الجميع من أسرة واحدة فهل من الممكن أن تكون علاقتهم بالدولة الرسولية ذات وجهين في وقت واحد ١٢٢ .

اختفى ذكر أسرة الشيخ طاهر بن عامر ابتداءً من سنة (٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م) بعد وفاة علي بن طاهر، ولم نجد عند يحيى بن الحسين ما يفسر ذلك ، ففعل الرسوليين أخذوا عنهم نيابة رذاع بعد فشلهم في صد هجوم الإمام الزيدي المنصور علي بن الفاضل صلاح الدين^(٢) الذي استهدف به للسيطرة على رذاع وانقراعاها من الرسوليين سنة (٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م)^(٣)، ويبدو أن السلطان الفاضل الرسولي في هذه الفترة قد حاول أن يستميل أبناء الشيخ معوضة بن تاج الدين ويكسب ولاءهم بعد وفاته، لذلك اعتمد قيام ابنه طاهر بن معوضة بن تاج الدين بزيارته سنة (٨١٧ هـ / ١٤١٤ م)^(٤)،

== من ملحقاتها الإدارية، الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج ٣ من ٥٥١، المتحف، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج ١ من ٩٣٥، ٩٣٦ .

(١) الأكرع، حجر القطم، ج ٣ ص ١١٨٧، المتحف، المصدر السابق ، ج ١ ص ٩٤١ .

(٢) هو الإمام المنصور بالله علي بن الإمام الفاضل الدين علي بن الإمام المهدي علي بن محمد ، من أشهر علماء الزيدية، بلغت مدة إمامته حوالي نصف قرن، ابتداءً من سنة (٧٩٣ هـ / ١٣٩٠ م حتى سنة ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م) ، وجاعت شهرته بسبب المناهضة الشديدة على الإمامة التي وقعت بينه وبين عدد من علماء الزيدية الآخرين في مقدمتهم أشهر علماء الزيدية على الإطلاق الإمام المهدي لدين الله أحمد بن يحيى المرتضى (ت ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م) ، كما أسهم في شهرته وجود عدد من أعلام الفكر الإسلامي في اليمن في مجلسه كالإمام الشهير محمد بن إبراهيم السوزير (ت ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م) وأبيه الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير (ت ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م) اللذين قلما بالدفاع عن أحقيته في الإمامة، قال الإمام محمد بن إبراهيم الوزير كتابه " الحسام المشهور في الذب عن مسيرة الإمام للمنصور " وغير ذلك، وكان من أشد علماء الزيدية شدة في قتال الباطنية الإسماعيلية، وانتزع منهم كثيراً من حصونهم، فلم يتمكنوا بعد ذلك من استعانتها إلى اليوم، زيارته، لقمة اليمن، ص ٢٨٠ - ٣١١، إتحاف المهتدين، ص ٦٧، الزحيف، مآثر الأبرار، ج ٢، ١٠٥٦، الشرفي، النكت المضيئة، ص ٤٧٠ - ٤٧٨، الشوكاني، البدر الطالع، ص ٤٨٨ .

(٣) يحيى بن الحسين، غاية الأمل، ص ٥٥٨، ٥٦١ .

(٤) مجهول، تاريخ الدولة الرسولية في اليمن، ص ١٧٢، يحيى بن الحسين، المصدر السابق ، ص ٥٦٢

فأكرمه وبألف في الاهتمام به، وأمره أن يبني له داراً في المقرنة^(١) أسماها دار النعيم^(٢)، ويبدو أنه أوكل إليه نياحة ردّاع وما حولها بالإضافة إلى ما كان لهم من أيلام أبيهم، فالمقرنة تقع في المنطقة الواقعة بين منطقتي الضبيات وردّاع، يأتي ذلك واضحاً من خلال إشارة بعض المصادر المعاصرة^(٣) إلى هجرم الإمام الزيدي المنصور علي ابن صلاح الدين علي بلاد طاهر^(٤) بن معوضة بن تاج الدين، وكان الحديث عنها يتناولها على أنها مناطق ردّاع وما حولها حتى منطقة الضبيات .

توثقت عرى العلاقة بين البلاط الرسولي وبين الأمراء الطاهريين حتى بعد وفاة زعيمهم طاهر بن معوضة بن تاج الدين، فقد تحدثت المصادر عن بعض الزيارات التي قام بها الأمير شمس الدين علي بن طاهر للسلطان الطاهر يحيى بن الأشرف (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م)^(٥)، وقد بلغت قوة العلاقة الحصنة بين البيتين الرسولي والطاهري تروتها عندما تزوج السلطان الطاهر يحيى بأخت الأمير علي بن طاهر بن معوضة سنة (٨٣٦هـ / ١٤٣٢م)^(٦) .

(١) بلدة وحصن في عزلة بني حجاج من مديرية جَبْن بمحافظة الضالع، على مسافة ٢٠ كيلومتراً منها، وتبعد عن مدينة الضالع بحوالي ٥٠ كيلومتراً، ولم يبق من البلدة سوى عدد قليل من البيوت الصامرة ومسجد صغير، مع أنها كانت حاضرة للدولة الطاهرية في النصف الأخير من القرن التاسع وصنّوا من القرن العاشر للهجرة، ولم يبق من هذه الدار المقصودة بالحديث إلا أطلالها بعد أن هجمها المماليك لشراركة والإمام المطهر بن شرف الدين إثر مقتل السلطان الطاهري الأخير سنة (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) كما ستبينه لاحقاً، الأكوخ، هجرٌ ناعم، ج ٤ ص ٢١٠٢، لحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج ٤ ص ٧١٧، المقحفى، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج ٢ ص ١٦١٥ .

(٢) علق يحيى بن الحسين، غاية الأمانى، ص ٥٦٤ على هذه التسمية فقال : " ما كان لجدرها أن تسمى بدلى الحطب للمقيم، إذ لا يحق هذا الاسم إلا لدار الخلود ... " .

(٣) مجهول، تاريخ الدولة الرسولية في اليمن، ص ١٨٢ .

(٤) أسماء ابن النبيع، قرة العيون، ص ٣٨٩، ويحيى بن الحسين، غاية الأمانى، ص ٥٦٤ أسماها بلاد بني طاهر، أما رياردة، أئمة اليمن، ص ٢٩٨ فجعلها أرضاً أخرى غير ردّاع، فقد ذكر قيام الإمام التوجه نحو " بلاد ردّاع وبني طاهر ... " .

(٥) ابن النبيع، المصدر السابق، ص ٣٩٦ .

(٦) المصدر السابق، نفس الصفحة .

ويُظهرُ سياق الأحداث في العقد الخامس من القرن التاسع الهجري أن الطاهريين قد دخلوا مرحلة جديدة من تاريخهم، مرحلة كانت بمثابة القفزة العملاقة التي دفعت بهم إلى مقدمة القوى ذات التأثير على الأحداث ومجرياتها على أرض اليمن، فقد أصبحوا نواباً للرسوليين على لحج وعدن^(١) بالإضافة إلى بلادهم السابقة بلاد بني طاهر، ولعل هذا التوسع في مناطق نفوذهم جاء نتيجةً للمصاهرة السابقة الذكر مع السلطان الظاهر يحيى، وتولي نيابة منطقة مثل عدن ليس بالأمر الهين، فهي شريان الحياة لاقتصاد الدول اليمينية المتعاقبة، كيف لا وهي معبر اللوج إلى البحر الأحمر، فلا تمر سفينة تجارية قائمة من الهند أو الصين أو شرق أفريقيا إلا بادن متوليها، وبعد دفع ما يحدده من الرسوم والضرائب عليها .

غيرت طبيعة عدن التجارية اهتمامات الأمراء الطاهريين، فقد أصبحوا تجاراً ينافسون أهلها في تجارتهم^(٢)، وحاصصة تجارة القوة^(٣)؛ فأثروا وزادت إمكاناتهم المادية، فأنسوا في أنفسهم القوة؛ وولّد ذلك لديهم الطموح إلى ما هو أسمى من مجرد النيابة للرسوليين على أرض محددة، وتعلقت عيونهم على العرش، ودعّم طموحهم ما رأوه من تكالب أمراء بني رسول عليه، وقتالهم بعضهم بعضاً سعياً إليه، فكان في ضعف الدولة وانهيار قواها قوة لهم وزيادة في طموحهم أن يرثوها، وكانوا رقماً صعباً في حسابات الصراع بين الأمراء الرسوليّين، استعان بهم بعضهم فأجذوه مرات ووقفوا على الحيلاء أخرى^(٤) .

فعندما دخل السلطان المسمود الرسولي عدن سنة (٨٤٧هـ / ١٤٤٤م) - أثناء خروجه على ابن عمه السلطان المعظفر - جرد الأمراء الطاهريون أتباعهم لقتله،

(١) يظهر ذلك من خلال ما تورده المصادر في حديثها عن دور الأمراء الطاهريين في صراع الأمراء الرسوليّين مع بعضهم على العرش ودعم البعض ضد البعض الآخر فيما مضى وما سيأتي ذكره من الأحداث .

(٢) لها مخزومة ، تاريخ ثغر عدن، قسم ١ ص ١٢ .

(٣) نوع من التيات التي تستخدم في الصباغة، د. محمد عبدالمعال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٢١٧ .

(٤) تدل مشاركة الأمراء الطاهريين في الصراع بين الأمراء الرسوليّين أنهم انتهجوا سياسة عدم الإسهام في القضاء لتمام على أي من الأطراف المتحاربة، ففي ذلك قوة للطرف المتبقي، فكانوا لا يصلون بالأمور إلى الحسم لو حد البت فيها .

وهم بلّخج يومئذ، فقلوبهم للمسعود^(١)، واستمروا أمامه دون التحرك لحسم الموقف حوالي سنة تقريباً، ثم انسحبوا من الميدان، وسمحوا له بدخول لحج في سنة (٨٤٨هـ / ١٤٤٤م)^(٢)، ولما قام السلطان المسعود بحصار السلطان المظفر في حصن تعز (٨٥٠هـ / ١٤٤٦م) استجد الأخير بالشيخ عامر بن طاهر فخف لنجدته من بلاده، ونزل بأحد معقل تعز تدعى دار القسطل، فأدرك السلطان المسعود نقل الأمير الطاهري، وأنه ربما هزمه ، بل وقضى عليه وجيشه ، لذلك بذل كل جهده لكي يشري حياته وعدم تدخله في الحصار القائم، وكان الشهاب الصباحي - أحد وجوه أصحابه - هو منوبه في ذلك، وقد نجح فعلاً في إخراج الأمير عامر بن طاهر من دار القسطل راضياً مختلاً، وعاد إلى بلاده^(٣) .

كان لدى الطاهريين الرغبة الكبيرة في تحييد القوة الزيدية المجاورة لهم في نمار وما حولها، وهي قوة الإمام الناصر بن محمد^(٤)، فقاموا بعقد الصلح معه^(٥) لكي يأمنوا جانبه عندما يضطرون سير أحداث الصراع بين الرمولين إلى ترك بلادهم في رداع والصبيات وما حولهما والنزول إلى تعز ولحج وعدن وما حولها .

وبعد ذلك بسنتين تقريباً، أي في رمضان من سنة (٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) ، قام الأمراء الطاهريون بمهاجمة السلطان المسعود في تعز، ولم يصرح المؤرخون بسبب قيامهم بحركتهم هذه، ولعلها جاءت بسبب استجد السلطان المظفر بهم للمرة الثانية، لأنه كان في صحبتهم، وأرجح أن دافعهم الرئيس والأول كان إحسانهم بتقاضي قوة المسعود وازدياد خطره عليهم، وقد تمكنوا من الانتصار على السلطان المسعود، إلا أنهم لم يجهزوا عليه، بل أمروا بمغادرة تعز دون أن يمسه بسوء، وسمحوا له بإخراج كل ما معه، فتوجه إلى عدن، وفي ذلك دلالة واضحة على أنهم كانوا يرون أن

(١) استخدم ابن الدبيح، قرة العيون، من ٤٠٤ كلمة " فقلوبهم الملك المسعود ... " وهي كلمة تدل - في رأيي - على أن زمام المبادرة كانت في أيدي الأمراء الطاهريين ، وكلمة الفصل كانت في متناولهم، فالمعلوم ليس إلا في مقام المدافع لا المهاجم، وإلا فالأخرى بالقول : تصد هجومهم، أو فتلهم مثلاً .

(٢) ابن الدبيح، قرة العيون، من ٤٠٤ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، بغية المستفيد، من ١١٨ .

(٤) المصدران السابقان ، نفس الصفحات .

(٥) يحيى بن الحسير، غاية الأمل، من ٥٨٣ .

مصلحتهم تقتضي عدم القضاء على أي طرف من الأطراف المتصارعة، أو السماح لأي منها بأن تصبح قوة تمتلك القدرة على وقف للتدهور والانحيار القادم للدولة الرسولية .

وفي ذي القعدة من السنة نفسها (٨٥٢هـ / ١٤٤٩م) دارت معركة بين الأمراء للظاهريين - وهم بلحج - والسلطان المسعود وهو بعدن، ولا يعرف المطلع على المصادر أين جرى اللقاء، في عدن أم في لحج، ومعرفة موقع ميدان المعركة يدلنا على ما إذا كان الظاهريون في مقام صد الهجوم أو في مقام للمبارز، ولكل من الموقعين قرامته، وإن كان بعض الباحثين يشير إلى أن ذلك كان رغبة السلطان المظفر وأنه هو الذي سعى إلى ذلك للقضاء على منافسه، أيأ كان الأمر فإن المعركة أسفرت عن عدم تغيير في ملامح الموقف العسكري للطرفين، إلا أن الأمراء الظاهريين غادروا المنطقة واختيارهم تاركين السلطان المظفر وحده هناك، وهو ما أدى إلى انسحابه مجبراً إلى تعز، حيث لحقه المسعود وأجبره على تسليم المدينة سنة (٨٥٤هـ / ١٤٥٠م) ، اختفى السلطان المظفر من مسرح الحياة السياسية في اليمن عند استلام المسعود لتعز وسكنت المصادر عن طبيعة هذا العياب، فلم تبين فيما إذا كان قد أجبر على القتال وترك في حال سبيله ، أم أنه قُتل على أيدي جيش المسعود^(١) .

ولم تكد الأوضاع تهدأ حتى دخل دائرة الصراع الرسولي الرسولي على العرش أمير جديد هو حسين بن الظاهر يحيى بن الأشرف الثاني إسماعيل، الذي تلقب بالسلطان المؤيد، وذلك في سنة (٨٥٥هـ / ١٤٥١م)^(٢) ؛ فزاد ذلك من استنزاف مقدرات السلطان المسعود وإهدار إمكاناته .

في هذه الأثناء أحس الأمراء الظاهريون بأن ساعة الحسم قد أرقت، ولن أوان الظهور كمنافس على العرش قد حان، فلم يعد بالإمكان البقاء خارج حلقة الصراع على السلطة، والركون إلى مجرد الانتظار حتى السقوط الذاتي للدولة الرسولية، فجهزوا في أول سنة (٨٥٨هـ / ١٤٥٤م) جيشاً كبيراً، وبدوا أنه كان أقصى ما استطاعوا جمعه، ووضعوا كل إمكاناتهم في خدمته، ومن بلادهم - بلاد بني طاهر - كانت بداية مسيرته باتجاه لحج وعدن حيث السلطان المسعود للرسولي، وكان الأمير الشيخ عامر بن طاهر

(١) ابن النديم، قرة العين، ص ٤٠٤ ، بغية المستفيد، ص ١١٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٩ ، ابن النديم، قرة العين ، ص ٤٠٤ .

هو قائد الجيش، ويبدو أنهم استوثقوا من استيلائهم على جميع المناطق الواقعة في طريقهم، بما في ذلك مدينة تعز نفسها، وألحس السلطان المسعود بالخطورة فرصد للجيش القادم جيشاً مناضراً، واستطاع من خلاله الوقوف المؤقت في وجه الأمير علي بن طاهر بعد أن نال كل طرف من خصمه^(١).

توالت المعارك بين السلطان المسعود والطاهريين، ووصفها ابن الديبع^(٢) بأنها كانت سجالاً، حتى بدأت كفة الأخيرين بالرجحان، ومما زاد الطين وقوع الخلاف الكبير بين أكبر قبيلتين تسكنان مدينة عدن، هما قبيلة كاذ - وهم الغالبية من سكانها - وقبيلة آل أحمد، وتطور الخلاف حتى أخذ صورة الحرب داخل المدينة المحاصرة، ولما حاول السلطان المسعود أن يصلح بينهما لم يعبروه اهتماماً ولم ينفقوا له^(٣)، وفي ذلك دلالة على مدى إحساسهم بضعفه، وقلة حيلته، حتى أنه رُمي بالحجارة لما حاول التفريق بينهما في إحدى فصول الصراع بينهما، فضاغ الأمن، ووقع السلب والنهب لبيوت التجار بها^(٤)، ولما أحس آل أحمد بأنهم هم الأقل خافوا من انتصار كاذ عليهم؛ فراسلوا - مرأً - الأميرين الطاهريين علي وعلمر لبني طاهر بن معوضة، واتفقوا معهما على تسليم المدينة لقاء شروط وضعوها، منها إخراج خصومهم الكلبيين منها دون قتل أحد منهم.

لم يكتف الأخوان الطاهريان بذلك، بل استغلوا إمكاناتهم المادية الكبيرة، فبدلوا جهداً كبيراً في سبيل شراء ولاء الجند الرسولي المحاصرين داخل المدينة، وذلك على يدي أحد أكبر رجالهم - يدعى علي بن سفيان - الذي كان يدخل عدن متظاهراً بالتجارة فيفرق الأموال على الجند الرسولي لإفسادهم على السلطان المسعود وضمان ولائهم لبني طاهر^(٥).

(١) ابن الديبع، بغية المستفهد، ص ١١٩، فرة العين، ص ٤٠٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٠٥، ابن الديبع، المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٣) بامخرمة، قلادة النحر، ج ٣ ص ٧١٤.

(٤) المصدر السابق، نفس الجزء، ولفسحة.

(٥) بامخرمة، قلادة النحر، ج ٣ ص ٧٢٦.

إزاء هذا الوضع لم يسع السلطان المسعود إلا الخروج من عدن منكسراً يبحث عن مأوى بعد أن عز عليه الحصول على الأتباع الذين يمكن له بهم استرجاع ما ضاع منه، ويبين نتائج الأحداث أن خروجه لم يكن معروفاً من قبل سكان عدن والطاهريين، وذلك قبل انتهاء الحصار بمدة، وعرف السلطان المؤيد الرسولي - الذي كان خارجاً على السلطان المسعود منذ عام (٨٥٥هـ / ١٤٥١م) - بخروجه قبل أن يعرف الطاهريون، لذلك بانر بالتسلل إلى عدن^(١) سعياً منه لمسح البساط منهم قبل دخولهم إليها، ولعل الطاهريين لم يشعروا كذلك بتسلله إليها إلا عندما قبضوا عليه يوم دخولهم، أما المسعود فإنه قد وصل إلى القنطرة العامة بأن أيامهم قد أدبرت، وأن نجمهم قد أفل؛ فبانر إلى خلع نفسه^(٢) في آخر سنة (٨٥٨هـ / ١٤٥٤م) .

ومما يؤكد أن الطاهريين لم يعرفوا أن عدن قد خلت من السلطان المسعود طريقة دخولهم إليها، فقد تسلل الأمير شمس الدين علي بن طاهر في جماعة قليلة من جنده ليلاً، وتسلقوا أسوار حصن التعكر بالتواطؤ مع الجنود الذين اشتروا ولاءهم، وبمساعدة قبيلة آل أحمد، وأعلنوا استيلاءهم على المدينة، وفي صبيحة اليوم التالي دخلت فلول الجيش الطاهري واستولوا على كل شيء فيها، ووفى الطاهريون لآل أحمد ما وعدهم به، فقد نادى مناديتهم بأن من وجد في المدينة من آل كند بعد ثلاثة أيام قدمه مهذور، وأمنوا بقية أهل عدن^(٣)، أما السلطان المؤيد فقد أمنه الطاهريون وأكرموه، واشتروا ما معه من مال وسلاح، وأنزلوه في بيت يليق به، وأجريا عليه النفقة اللازمة^(٤)، وهذا الوضع لم يرض المؤيد وهو يرى من كان بالأمس أنه من أتباع أبيه الظاهر يحيى وقد أصبح اليوم متفصلاً عليه، لذلك غادر المدينة بالصورة التي وضحت سابقاً .

(١) د. محمد عبدالمعالي أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص ٢٥٤، ابن النديم، قرعة العيون، ص ٤٠٥، بغية المستفيد، ص ١٢٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٢، ابن النديم، قرعة العيون، ص ٤٠٦، السبكي، هدية الزمن، ص ١١١، ١١٢.

(٣) تشتت شمل الكلبيين وتفرق جمعهم، وتوجه معظمهم إلى الشحر، ولجأ الباقون إلى بعض الجبل في البحر الأحمر ومدن الساحل الإفريقي للبحر الأحمر، بامخرمة، قلادة النحر، ج ٣ ص ٧١٥.

(٤) ابن النديم، قرعة العيون، ص ٤٠٦، بغية المستفيد، ص ١٢١، السبكي، هدية الزمن، ص ١١١.

أصبح المؤرخون منذ هذه المرحلة لقب الملك المجاهد على الأمير شمس الدين علي بن طاهر، ولقب الملك الظاهر على الأمير صلاح الدين عامر بن طاهر بن معوضة بن تاج الدين^(١).

❖ ملوك الدولة الطاهرية وأيام دولتهم :

(١) الملك المجاهد شمس الدين علي بن طاهر (٨٥٨-٨٨٣هـ/١٤٥٤-١٤٧٨م):

(٢) والملك الظاهر صلاح الدين عامر بن طاهر (٨٥٨-٨٧٠هـ/١٤٥٤-١٤٦٦م):

كانت هناك مهمتان كبيرتان وجب على الأخوين الملكين علي وعامر ابني طاهر إنجازهما، أما المهمة الأولى فهي تقاسم الأدوار والمسؤوليات بينهما، إذ كان من اللازم أن يتقدم أحدهما أمام الناس بصفته رأس السلطة، كي يكون رمزاً للدولة وقابضاً على زمامها، ولكي تكون المكائبات - منه وإليه - باسمه، بينما يكون الآخر بمثابة الساعد الأيمن له، لا يصدر عن أمر بدونه، ويبدو - من خلال مجربات الأحداث وما أشارت إليه بعض المصادر - أن الاتفاق جرى بأن يُقدّم أصغرهما سناً^(٢) - وهو الملك الظاهر عامر بن طاهر - لمدة محددة من الزمن ثم ينتقل الدور إلى أخيه الأكبر الملك المجاهد علي بن طاهر، مع تأكيد احتفاظ كلا الأخوين بلقب الملك، وهو ما تم فعلاً، فقد استأثر الملك الظاهر عامر بالخطبة وضربت للسكة باسمه حتى سنة (٨٦٤هـ -

(١) ابن النديم، فرة العيون، ص ٤٠٥، بغية المستفيد، ص ١٢١.

(٢) يقول د. محمد عبدالمال أحمد^{*} ويعتقد أن إعلان الخطبة والسكة للظاهر عامر - رغم كونه الأصغر - قد ترجع إلى الدور الكبير الذي قام به في تأسيس دولة بني طاهر، أو لأنه كان صاحب فكرة الاستيلاء على ملك بني رسول ... ، انظر ، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٢٥٨ ، ولا أدري إلى ما استند إليه، فليس ثمة ما يثبت أهمية دور أحد الأمراء الطاهريين مقارنة بدور الآخر، خاصة أن المصادر كانت تتحدث عن الأخوين وهما يبذلان الجهد لتأسيس الدولة يداً بيد، وخطوة بخطوة، وإذا كان الأخوي عامر وعلي قد اشتهرا قبل هاتك ثلاثه أخوة آخرين لهما، هما : داود وعبدالمك ومحمد، ولم تتحدث عنهما المصادر في هذه المرحلة مع أنهم كانوا موجودين على الساحة، إضافة إلى ذلك لم توجد أي إشارة - مهما كانت - تدل على أن فكرة الاستيلاء على ملك بني رسول كانت للظاهر عامر و فاحتال صدور هذه الفكرة من للظاهر عامر بماوي تماماً احتمال صدورها عن أي من لأخوة، بل من الممكن صدورها عن بعض الخاصة المقربين للأمراء الطاهريين، ويقالشي لهذا الرأي هنا لا يعني أن هناك رأياً آخر أكثر احتمالاً، فالمصادر لم تعطوا أدنى إشارة، ولو صغرت، تكفيها لوصح تفسيرات تحظى باحتمالات صحيحة أكثر .

/ ١٤٥٩م) ، حيث أعلنت الخطبة للمجاهد علي بن طاهر، وصريت السكة باسمه في جميع أنحاء الدولة، وبرضا أخيه الأصغر الملك الظاهر عامر^(١) .

وأهم أسباب التناوب على العرش بين الأخوين الطاهريين يعود إلى حرصهم على تجنب الوقوع في ما كانوا حديثي العهد بمرآه من تكالب الرسوليين وإسهابهم في نهيار دولتهم^(٢) .

ومما تقاسمه الأخوان الطاهريان أيضاً مناطق النفوذ والنشاط، فكان كل نشاط الملك الظاهر عامر موجهاً إلى المناطق الجبلية الشمالية، وبالتحديد مناطق نفوذ الأكمة الزينية، بينما ركز الملك المجاهد علي نشاطه في المناطق الأخرى، والساحلية منها كزبيد وعدن ونواحيهما على وجه الخصوص^(٣) .

لما المهمة الثقلية أمام الأخوين فكانت ممثلة في القيام بتأكيد مبايعة الناس وطاعتهم لهما، فجندا لذلك كل طاقتهما، واستعاناً بكل من كان على استعداد للعمل لحسابهما حتى لو كان من صنائع الرسوليين، وكان ذلك تصرفاً حكيماً منهما، فمن كان ذا منزلة في أيام الرسوليين ووجد في قيام الطاهريين ما يمس منزلته ومكانته فإنه بلا شك إن لم يمثل خطراً على الدولة فإنه - على الأقل - سيثير المتاعب في وجهها^(٤) .

وقد تتابعت المكاتبات من عدة نواحٍ إلى الأخوين تعلن مبايعتهما والطاعة لهما، ومن هذه المكاتبات ما أرسله الشيخ إبراهيم بن عمر الثائبي صاحب الخنيزة^(٥)، وكذلك

(١) ابن الدبيع، قرّة العيون، ص ٤١٠، بغية المستفيد، ص ١٢٩، يحيى بن الحسين، غيبة الأماني، ص ٥٨٩، ٥٨٨ .

(٢) د. محمد عبدالمال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٢٥٨ .

(٣) محمد ربيع المدخلي، الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية، ص ٤٦ .

(٤) من ذلك استعانتهم بالقائد الرسولي زين الدين جياش بن سيمان السبلي، مع أنه كان من أعيان المعاليك لدى السلطان المسعود الرسولي، وكان من مقامي قادة جيشه، وكان له دور كبير في تفرق كلمة بقيّة المماليك الرسوليين في زبيد، وقتل أكبر رجائهم، وتفرقهم، ومن ثم إعلان زبيد ولايتها للطاهريين، ابن الدبيع، قرّة العيون، ص ٤٠٧، بغية المستفيد، ص ١٢٢، ١٢٣ .

(٥) هذه هي أول إشارة إليها في كتب التاريخ اليمنية، ويبدو أنها كانت من قبل عبارة عن ولادة من نرى الصيادين للصميرة ، وأصبحت مرسى للسفن في هذه الفترة، وبدأت الإشارة إليها كواحد من الموانئ اليمنية في عهد آخر السلاطين الطاهريين، وهي الآن تفتي لكبر موانئ اليمن - بعد عدن - وهي واحدة من أجمل مدن الساحل الشرقي للبحر الأحمر، بل هي أكبر مدن تهامة على الإطلاق ، ويتبعده عن --

أرسل كباراء زبيد وأعيانها - دون علم المماليك الرسولييين - إلى الأخوين بعدن ببذل الطاعة وتسليم الأمر إليهما^(١)، وانصاع السواد الأعظم من الناس إلى الطاعة، خاصة لما لمسوه من الأخوين من الصفات ما افتقدوه في آخر السلاطين الرسولييين ، حتى قال ابن الدبيع^(٢) عن الملك المجاهد علي بن طاهر : " استلكت قلوبهم محبة له لما بلغهم من عدله ورفقه بالرعية ... " .

كان لزاماً على الظاهريين إثبات وجودهم، ورسم هيبتهم في نفوس المرجفين من المخالفين لهم، ووضع حدود تهلونهم وسطوتهم، لذلك جردوا الحملات العسكرية القتالية سعياً في سبيل القضاء على بذر التمرد، سواء ما كانت تقوم به بعض القوى القبلية في تهامة وغيرها، أو تلك التي قامت بها بعض القوى المحلية كالأئمة الزيدية، أو الزعامات الأخرى .

فمن الحملات التي جردت لمواجهة القوى القبلية تذكر لنا المصادر^(٣) الحملة التي قادها الملك المجاهد علي بن طاهر بنفسه مستهدفاً بها قبائل للمعازبة سنة (٨٦٠هـ / ١٤٥٥م) بعد أن رفضوا الاستجابة لدعوته إلى الطاعة والكف عن السلب والنهب وإغافة السبيل، وقد حقق - بصعوبة شديدة - النصر عليهم، وقتل عدداً من رجالهم، ثم عاودوا الكرة في السنة التالية مرة أخرى، فأغاروا على بلدة مثل، وقتلوا بعض رجال حاميتها، فتوجه إليهم الملك المجاهد وعزم على معاقبتهم، فلما أحسوا بالهزيمة طلبوا الصلح مقابل الدخول في الطاعة وتسليم ستين رأساً من الخيل .

وكانت قبائل القرشيين لا تختلف كثيراً عن المعازبة على الرغم من أنهم كانوا على وفاق مع الظاهريين في بداية أمرهم، ويبدو أن نزعتهم الكامنة إلى التمرد، ورغبتهم للجامحة في السلب والنهب قد عاودتهم، فأحس الملك المجاهد علي بن طاهر بذلك فقام سنة (٨٦٠هـ / ١٤٥٦م) بإصدار أوامره بالقبض على رؤوسهم وكبار

- صنعاء حوالي ٧٥٠ كيلومتراً غرباً، الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبلتها، ج ٢ ص ٢٥٠، ٢٥١،
المحفري، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج ١ ص ٤٣٦، ٤٣٧ .

(١) ابن الدبيع، قرة العيون، ص ٤٠٦، ٤٠٧ .

(٢) المصدر السابق، ص ٤٠٧ .

(٣) المصدر السابق، ص ٤٠٨، ٤٠٩، ابن الدبيع، بقوة المستفرد، ص ١٢٦، ١٢٧، يحيى بن الحسين،
شجرة الأمان، ص ٥٨٨ .

أعيانهم، فاستجاروا بالشيخ إسماعيل بن أبي بكر الجبرتي الصوفي (ت ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م) فأجارهم، وضمن زعماءهم بما يحدث، فأطلقهم الملك وانتزع ما في أيديهم من الخيل والفخيل بوادي زبيد^(١)، وفرقه بين الناس كي يفت من عضدهم بتجفيف منابع اقتصادهم وقوتهم، فلما بدر منهم ما يخالف الاتفاق قام بترحيل أكبر زعمائهم إلى المقرنة، حيث حبسهم هناك^(٢).

وتوالى حركات قبائل المعاربة وتمردهم بشكل شبه سنوي؛ فرصد المؤرخون بعضاً من حركاتهم في سنوات (٨٦٣هـ / ١٤٥٩م)، و (٨٦٨هـ / ١٤٦٤م)، و (٨٦٩هـ / ١٤٦٥م)، و (٨٧١هـ / ١٤٦٦م)، و (٨٧٥هـ / ١٤٧٠م)، و (٨٧٦هـ / ١٤٧١م)، و (٨٧٩هـ / ١٤٧٥م)^(٣)، وذلك لما عرّفوا به من الشجاعة والإقدام المقرون بالنزعة الكبيرة إلى عدم الرضوخ لأي سلطة مهما كانت، وكذلك لصفة العناد التي تأخذهم، فلا تزيدهم الشدة إلا نفوراً، ولا يزيدهم التراخي واللين إلا طمعاً وجشعاً، وهو ما يؤكد القناعة بأن أمثال هؤلاء لا يرددهم إلا تقوية الوازع الديني لديهم، فمن لا يردعه سلطان ولا جيش، لا يوقفه إلا وازع ذاتي من العقيدة القويمة الرلاعة.

ويبدو أن حركات المعارضة المتوالية، وفشل الملكين في القضاء التام عليها، وما ترتب على ذلك من تحقيقها للمكاسب المادية مما نغمه من جولات صراعها معهما، يبدو أن ذلك قد أطمع غيرها من القبائل المجاورة في أن تحنو حنوها، ومثال ذلك قيام قبائل بني حفيص^(٤) سكان منطقة الزيدية^(٥) ببعض صور التمرد ومواجهة قوات

(١) ابن النديم، قرّة العيون، ص ١١٠، بغية المستفيد، ص ١٢٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٩، ابن النديم، المصدر السابق، ص ٤٠٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٤١٤، ٤١٥، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ابن النديم، بغية المستفيد، ص ١٢٩، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٥١، د. محمد عبدالمال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص ٢٩٣ - ٢٩٨.

(٤) ورد اسم هذه القبيلة في صورتين مختلفتين، فهو عند ابن النديم، قرّة العيون، ص ٤١٢ (بني حفيظ)، وعند باسخرمة، فلاة النهر، ج ٣ ص ٧٣٤، ٧٣٨ (بني حفيص)، ويصعب التمكن بأيهما الصحيح، خاصة إذا ما عرفنا أن باسخرمة نفسه يصرح بأن ما نقله من أخبار القرن الهجري التاسع هو أصلاً عن تاريخ ابن النديم، وقد اعتمد الدكتور محمد عبدالمال د. محمد عبدالمال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص ٣٠٠ ما أورده باسخرمة، وربما جاء اسم (بني حفيظ) بهذه الصورة في قرّة العيون كتصحيح.

للتطاهريين، وكانت هذه القبائل قد سبق أن أوفدت سنة (٨٩٧هـ / ١٤٩٣م) اثنين من زعمائها - هما أحمد بن أبي الغيث بن حفيص و محمد بن القاسم - إلى الملك المجاهد علي بن طاهر بزبيد، وأكدوا إعلان طاعة أتباعهما للدولة الطاهرية، وقد أحسن المجاهد استقبالهما وبالف في إكرامهما^(٢)، ثم ما لبثت أن خلعت يد الطاعة عدة مرات ، فواجهها للملك المجاهد وولاته بالشدة والعنف، وكانت كفة الدولة هي الراجحة في أغلب حلقات هذه المواجهات^(٣) .

وقد سبقت الإشارة إلى أن هناك أيضاً بعض القوى والزعامات - غير القبليّة - فتحت حسابات الطاعة للتطاهريين والتمرد عليهم ؛ دخلت في مواجهات معهم، وأول تلك القوى حاكم مدينة الشحر في منطقة حضرموت أبو نجاة محمد بن سعيد بن فارس الكندي، وصراعه مع التطاهريين له جذور تعود إلى أيام حصار التطاهريين للسلطان المسموع الرسولي في مدينة عدن والتمحاضهم لها، فقد سبقت الإشارة إلى احتدام المناهضة بين بعض سكانها من قبائل كَلَد وآل أحمد، وأن آل أحمد اتفقوا مع الأمراء التطاهريين على تسليمهم المدينة مقابل إخراج كل أفراد قبيلة كلد منها، وهو ما وافق عليه الطاهريون ووفروا به، ففتشت جموع الكنديين، وفر بعضهم بنفسه لا يلوي على شيء

- موقع فيه محققه القاضي محمد علي الأكوع، وما يقوي هذا الاحتمال كثيراً أن هذا الاسم ورد بالصورة نفسها التي أوردتها بالمعجمة في كتاب آخر لابن الديبع نفسه، هو كتاب بغية المستفيد، ص ١٣٣ .

(١) الربيعة هذا البذ وليس المذهب، ولا علاقة لهما ببعض، فأهل هذه المنطقة كلهم سيون شافيو للمذهب، وسيت المنطقة باسم القبائل التي سكنتها، وهي من فروع قبائل عكف التسمية القديمة، ومن أشهر زعمائها في فترة الدراسة بني حفيص المشار إليهم، وتقع هذه المنطقة في الشمال الشرقي لمدينة الحديدة بمسافة ٦٥ كيلومتراً تقريباً قبالة جزيرة كمران الشهيرة، قريب من مصب وادي سُرُند، وقد أصبحت المنطقة الآن مدينة، وتشكل مع ما حولها من المناطق واحدة من مديريات محافظة الحديدة، المجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج ٢ ص ٣٩٧ - ٤٠٠، المحقق، معهم لبلدان والقبائل اليمنية، ج ١ ص ٧٥٥ .

(٢) ابن الديبع، قرة العيون، ص ٤١٢، بغية المستفيد، ص ١٣٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٣، ١٣٥، ١٤٢، ١٤٣، ١٥٤، ابن الديبع، قرة العيون، ص ٤١٢، ٤١٦،

٤١٧.

حتى نزل مدينة الشّحر، مثل أحد أكبر زعماء الكلدانيين هو الشيخ مبارك الثّابتي الكادي، الذي نزل على حاكمها أبي نجاة^(١).

لم ينزل الشيخ مبارك الكادي يزين لأبي نجاة محمد بن سعيد مهاجمة عدن والاستيلاء عليها في غمرة انشغال الطاهريين بإرساء دعائم دولتهم ومحاربة بعض القوى القبلية المعادية لهم، ولعله قدم لأبي نجاة مؤشرات كثيرة دعمت فكرته، منها أنه يعرف عدن حق المعرفة، وأنه يعرف مداخلها ونقاط الضعف بها، لذلك تحمس أبو نجاة لهذه الفكرة تحمساً لضمه عن الأخذ بالحيلة والاحتراز، أو مجرد سماع نصيحة المخلصين من المقربين إليه مثل أمه ووزيره الفقيه سليمان بن عبود^(٢).

شكل أبو نجاة حملته للبحرية من تسعة مراكب مستعیناً بقبائل كند والمهرة وذلك سنة (٨٦١هـ / ١٤٥٦م)^(٣)، واتخذ من الإجراءات ما ضمن بها عدم تسرب خبر تجريدها إلى الطاهريين، ولكن ساء ظنه وخاب أمله، فقد تسلل لغيث من الموالين لبني طاهر والمعادين لأبي نجاة في قارب، وتمكنوا من الوصول إلى عدن قبل وصول الحملة وإنذار حاكمها الشريف علي بن سفيان، الذي يادر بدوره بالكتابة إلى الملك الظافر عامر وأخيه الملك المجاهد علي ليتداركا الموقف^(٤).

ويبدو أن أبا نجاة قد علم باستعداد حامية المدينة بقيادة واليها له ففتت ذلك من عضده، وزاد الأمر سوءاً عليه أن عاصفة ضربت أسطوله فتسببت في تكسير بعض

(١) د. محمد عبدالمعال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص ٢٦٢، ٢٦٣، بصرمة، قلادة النحر، ج ٣ ص ٧٣٠، ٧٣١، ابن النبيع، قرّة العيون، ص ٤٠٩، ٤١٠، بغية المستفيد، ص ١٢٧، ١٢٨، الشاطري، أنوار التاريخ الحضرمي، دار المهاجر، المدينة المنورة، دار المهاجر، تريم، ط ٣، ١٩٩٤م، ج ٢ ص ٢٣٩، محمد ربيع المدخلي، الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية، ص ٤٩ - ٥٢.

(٢) بامطرف، الشهداء الصبغة، دار الحرية للطباعة، بغداد، بشرام وزارة الثقافة والسياحة بجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بالتعاون مع حكومة العراق ١٩٧٤م، ص ٢٧.

(٣) بامفرمة، قلادة النحر، ج ٣ ص ٧٣٠، ٧٣١.

(٤) د. محمد عبدالمعال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص ٢٦٣، بامفرمة، قلادة النحر، ج ٣ ص ٧٣٠، باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي، مكتبة الثقافة، عدن، (د. ت.)، ص ١١٥، ابن النبيع، قرّة العيون، ص ٤١٠، الكندي، للعدة المفيدة للجامعة لتواريخ قديمة وحديثة، تحقيق عبدالله الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط ١، ٢٠٠٣م، ج ١ ص ١٤٧، محمد ربيع المدخلي، الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية، ص ٥٠.

بعض مراكبه، فلم يجد بداً من الانسحاب عائداً إلى بلده، إلا أن عاصفة أخرى أصابت ما تبقى من أسطوله فتشتت، وتكسرت سفينته التي تحملها، وتقاذفته الأمواج إلى الشاطئ حيث وجد فرقاً من جيش الطاهريين - بقيادة الملك الظاهر عامر - في انتظاره ؛ فاقتادته أسيراً ومعه عدد من أتباعه، منهم الشيخ مبارك الثابتي الكندي الذي تم إعدامه مباشرة^(١) .

ومن الزعامات التي واجهت الطاهريين أيضاً يثني الشيخ عباس بن الجلال بن عبد الباقي الحبشي وأخيه إدريس، وكان ميدان الصراع بين الطرفين منطقة الجبال المحيطة بذي جبلة^(٢)، وذلك ابتداءً من آخر سنة (٨٦١هـ / ١٤٥٧م) حيث وردت الأنباء إلى الملك المجاهد علي بن عباس الحبشي قد استولى على بعض المناطق بذي جبلة فاتجه إليه وهزمه وقتل عدداً كبيراً من أصحابه^(٣) .

استمر النزاع بين الطرفين حتى أوائل سنة (٨٨٣هـ / ١٤٧٨م) ، أي حوالي اثنتين وعشرين سنة، تحللتها معاهدات صلح ونزاعات لم تخمد جنوتها إلا بوفاة الشيخ عباس الحبشي أولاً^(٤) ثم وفاة أخيه إدريس مقتولاً على يدي ابن عمه عمر بن عبدالعزيز الحبشي سنة (٨٨٣هـ / ١٤٧٨م)^(٥) ، وهي السنة التي توفي فيها للملك المجاهد الطاهري علي بن طاهر بعد حكم الدولة حوالي اثني عشر عاماً بالاشتراك مع أخيه الظاهر عامر بن طاهر ومنفرداً حوالي ثلاثة عشر عاماً بعد مقتل

(١) د محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٢٦٣، بلمخرمة، قلعة البحر، ج ٢ ص ٧٢٠ ، ٧٣١ ، ابن الديبع، قرّة العيون، ص ٤١٠، بغية المستفيد، ص ١٢٨ .

(٢) مدينة تقع عند سفح حصن التَّنَكُر في الجنوب الغربي من مدينة فيّة على مسافة قريبة لا تتعدى أربعة أميال منها، أسسها الصليبيون سنة (٤٥٨هـ / ١٠٦٦م) ، انتقل إليها ثلثي الملوك الصليبيين - فلكرم بن علي الصليحي - وزوجته الشهيرة الملكة السيدة بنت أحمد الصليحية لتصبح بذلك العاصمة الرسمية لدولتهم حتى سقوطها في القرن السادس الهجري، وهي إلى اليوم عامرة، وتُعدّ من أشهر المعالم التاريخية اليمنية، بامخرمة، التسمية إلى المواضع والبلدان، ق ١٠١، ١٠٢، الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبلاتها، ج ١ ص ٣٤، ٣٥، المقحفي، معجم بلدان والقبائل اليمنية، ج ١ ص ٢٨٥ .

(٣) ابن الديبع، قرّة العيون، ص ٤١٠، بغية المستفيد، ص ١٢٨ .

(٤) لم نشر المصادر إلى تاريخ وفاته .

(٥) أخبار هذا الصراع عند د. محمد عبدالعال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٣١٠، ٣١١، ابن الديبع، قرّة العيون، ص ٤١٠، ٤١٢، ٤١٤، ٤٢١، بغية المستفيد، ص ١٢٨، ١٢٣، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩ .

للملك الظاهر في إحدى معارك الصراع الطاهري مع أئمة الزيدية سنة (٨٧٠هـ / ١٤٦٦م) كما سلبينه في حديثنا عن الأئمة الزيديين المعاصرين لهذه الدولة .

(٣) الملك المنصور تاج الدين عبدالوهاب بن داود بن طاهر (٨٨٣-٨٩٤هـ/١٤٧٨-١٤٨٩م):
لم يكن للأمير داود بن طاهر بن معوضة بن تاج الدين الطاهري - أخي الملكين الظاهر عامر والمجاهد علي ابني طاهر بن معوضة - سابق ذكر في تاريخ الدولة الطاهرية، ولا يعرف سبب ذلك، وهو يشترك في هذا الأمر مع أخوته الآخرين عبدالملك وعبدالوهاب وتاج الدين أبناء طاهر، إلا أن ابنه عبدالوهاب بن داود بن طاهر كان له - خلافاً لأبيه - باع طويل وذكر واسع في تاريخ الدولة الطاهرية، سواء قبل توليه عرشها أو بعد ذلك، بل إن مروييت المؤرخين عن جهوده في إرساء دعائم الدولة، ومقارعة المخالفين لها، ورسم هيئتها عند الخارجين عليها في عهد عمه الملكين الظاهر والمجاهد، جعلته في مقدمة الجيل الثاني من أمراء الدولة الطاهرية، فنكره فاق ذكر بقية الأمراء من أبناء عمومته، بما في ذلك أبناء الملكين نفسيهما، وما كان ذلك إلا لتفانيه في بذل جهوده ووضعها في خدمة عمه، خاصة الملك المجاهد علي بن عامر .

وإذا كان اتفاق الأخوين الملكين الظاهر عامر والمجاهد علي على عدم التقاس في مقدار التمتع بالصلاحات داخل أروقة دولتهم ومؤسساتها - إن جز لنا استخدام هذا التعبير المعاصر - بالكيفية التي تمت الإشارة إليها آنفاً، إذا كان ذلك يمثل دليلاً على حرصهما التام على تجنب الدولة كل ما من شأنه إشغالها عن القيام بمهامها، وحفظ كل جزء من ممتلكاتها وإمكاناتها من أن تهدر في صراع داخلي يقوض دعائمها، وإخار كل طوائفها لصرفها في مقارعة أعدائها للمتربصين بها، فإننا نجد أنفسنا مدفوعين إلى الوقوف أمام مسألة ولاية العهد، ذلك لأنها تقود إلى القناعة بأن هذين الملكين كانا يقدمان مصلحة دولتهما على كل مشاعرهما الذاتية الشخصية، فلم يسع أحدهما إلى عقدهما لأحد أبنائه، وكأني بهما أجلا هذا الأمر حتى تبين لهما الأيلام معادن أحفاد أبيهما الشيخ طاهر بن معوضة بن تاج الدين من أبنائهما وأبناء أخوتهما الآخرين محمد وداود وعبدالملك وعبدالوهاب وتاج الدين أبناء طاهر بن معوضة، بل معن المحتمل أيضاً أنهما كانا يوجلان مسألة الحسم فيها إلى الموقف الذي تصبح فيه لازمة عند إحساسهما بأن العرش سيخلو ممن يشغلن، لذلك لم يتطرق إليهما المؤرخون إلا

في سنة (٨٧٧هـ / ١٤٧٢م) يوم أن حصل على السلطان الملك المجاهد مرض عظيم بمدينة زبيد، وخيف عليه منه ...^(١) فكانت مصلحة الدولة هي المقدمة من قبله إذ استخلف ابن أخيه عبدالوهاب بن داود بن طاهر، مع أن أبيه لم يكن له دور يسجله المؤرخون - كما أسلفت - في الأحداث آنذاك، ويبدو أن عين الملك للمجاهد كان ترمق تصرف جميع الأمراء الطاهريين على مدار سنين، يتفحص شخصياتهم، ويختبر قدراتهم ومهاراتهم الإدارية والعسكرية، ولعله وصل إلى للقناعة التامة من خلال ما رآه من معالم شخصية ابن أخيه أنه الأمير الأجدر بأن يخلفه على العرش، وهو ما أثبتت الأيام صحته، فقد كان ذا عزيمة قوية، وشدة وصرامة مع المخالفين حتى لو كانوا من أهل بيته، كما كان محباً للخير، كثير الصدقة، عظيم الشفقة على رعيته، محباً للعلم مقدماً للعلماء في كل موطن^(٢).

وحتى يدرأ الملك المجاهد عن أسرته الخلاف الذي من المحتمل أن يشوب بين الأمراء الطاهريين من بعده قام بإجراء جميع مراسم التولية، يقول ابن الديبع^(٣) المعاصر للحدث: " فاستخلف ابن أخيه مولانا عبدالوهاب بن داود، وقلده الملك، وحلف له العرب ومائت العساكر ... " .

كُتبت العاقبة للملك المجاهد علي بن طاهر في هذا المرض، وقام واستأنف حياته السياسية مدة جاوزت السنوات الخمس، إلا أن هذه البيعة التي كانت في أعناق من بايعوا الأمير عبدالوهاب بن داود كانت بمثابة احتلاله للمنزلة الثانية في سلم قيادة الدولة، واعتُبر من قبل الجميع - بما في ذلك الملك المجاهد نفسه - ولياً للعهد، ولم يسجل المؤرخون من اعترض على هذه التولية إطلاقاً .

ولما مات الملك المجاهد في مدينة جبن سنة (٨٨٣هـ / ١٤٧٨م) كان عنده أخواه عبدالوهاب وعبدالملك وأبنائهما، وكذلك ابنا أخويه الأميران عبدالوهاب بن داود ابن طاهر وأحمد بن الظفر عامر، وبعض الأعيان والفقهاء، فخرج الجميع بالتفلق على تجديد البيعة للأمير عبدالوهاب بن داود، الذي أصبح مدعواً بالملك المنصور، فانتقل

(١) ابن الديبع، بغية المستفود، ص ١٤٧، فرة العيون، ص ٤١٨ .

(٢) المصدر السابق، ص ٤٣٠ .

(٣) المصدر السابق، ص ٤١٨، ابن الديبع، المصدر السابق، ص ١٤٧ .

من فوره مع بعض من معه إلى عدس - لمكانتها السياسية والاقتصادية بالنسبة للدولة -
نون إعلان وفاة الملك المجاهد حتى يضمن بيعه من بها له^(١) .

اعترض الأمير يوسف بن الملك الظاهر عامر على البيعة، وهو يومئذٍ والٍ على
زبيد، وكذلك أخوته وأمه وهم في قلعة تعز، فحاصر المنصور من بالقلعة وأخرجهم
منها، ثم اتجه إلى زبيد، حيث كان يوسف بن عامر قد أعد العدة للقلعة بجيش لا يحبه،
بل يميل إلى الملك المنصور، ونزل أغلب أفراد - إن لم نقل كلهم - هم من الذين
سبقت منهم البيعة للمنصور سنة (٨٧٧هـ / ١٤٧٢م) . لذلك تم خذلان الأمير
يوسف فلم يجد بداً من الإذعان لابن عمه الملك المنصور الذي وأكرمه وأجّله، ولم يزد
في ردة فعله على عصيانه على أكثر من العتاب^(٢) .

لم تطب نفس الأمير الثائر إلى الاستمرار في التسليم والطاعة، لذلك ألح على
الملك المنصور في السماح له بالمغادرة إلى مكة المكرمة وهو مضمّر في نفسه إعادة
الكرّة في الخروج عليه، فلما بلغها لم يجد من حاكمها الشريف محمد بن بركات
الاستعداد لمساعدته في حرب ابن عمه، فأتجه إلى الشريف أحمد بن ثريب حاكم جاران
بلحناً عن السند والمعونة عندهم، فخاب ظنه إذ خذلوه، عندها عاد أدراجه كسيراً إلى
آخر منطقة ظن أنه قد يجد فيها ما يؤمله، ألا وهي منطقة الزيدية وقبائلها من بني
حفيص، فأحسن زعيمها أحمد بن أبي الغيث بن حفيص وفادته، وبلغ من إكرامه له أن
زوّجه بابنته، فأحسن الملك المنصور بالخطر في اجتماعهم، فرأى أن يبادرهم بالقتال
قبل أن يتسع الخرق على الراقق ويؤلبوا للقبائل عليه، وتكثر جموعهم، فكان في
مبادرتهم ما أربكهم، وشاركه في خروجه للقائهم كثير من أمراء بني طاهر، وفي
مقدمتهم الأمير الشيخ أحمد بن عامر - أخو يوسف - وقد بذل الملك المنصور الأمان
لهم إن هم استسلموا، فلم يجيبوا إليه، فدارت المعركة، ورأى الأمير يوسف بن عامر
الزيديين يقتلون أخاه الأمير أحمد، فتأثر بالحادث وانضم من فوره إلى صفوف الملك

(١) ابن النديم، فرة العين، ص ٤٢٢، ٤٢٣، بغية المستفيد، ص ١٥٩، ١٦٠ .

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٠، ١٦١، ابن النديم، المصدر السابق، ص ٤٢٣، ٤٢٤ .

للمنصور ضدهم، وانجالت المعركة عن مقتلة عظيمة في بني حفيص تربو على
أربعمئة قتيل^(١).

ولم يأمن الملك المنصور جانب ابن عمه الأمير يوسف، وخاف أن يكرر
خروجه مرة ثالثة، فالمؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين، أما هو فقد لدغ مرتين
بالفعل، فاتخذ قراراً بحبسه مقيداً في قلعة تعز، أخذ ينقله من سجن إلى آخر حتى استقر
به أخيراً في سجن رداغ، وقضى بقية عمره فيه حتى توفي سنة (٨٩٨هـ /
١٤٩٢م) في عهد الملك الظاهر الثاني عامر بن عبد الوهاب الطاهري^(٢)، وكان قد ألحق
به في سنة (٨٩٠هـ / ١٤٨٥م) أخاه الأمير إبراهيم بن عامر ؛ لأنه خرج عليه، مع
لحه فشل في خروجه منذ بداية أمره^(٣).

كانت القوى القبليّة في منطقة نهامة هي العامل الأكبر في صرف معظم جهود
الدولة الطاهرية في غير وجوها طيلة حكم الملكين الظاهر عامر والمجاهد علي،
وكانت قبائل المعازبة - كما أسلفنا - هي المثوليّة لكثير أغلب حوائث العصيان بها، إلا
أن تتابع الصربات عليها، وتلاحق الحملات المجردة ضدها أدباً إلى كسر شوكتها،
وفتور همّتها، فلم يرصد المؤرخون حركة لها في الفترات اللاحقة لوفاة الملك المجاهد
علي، إلا أن قوة قبليّة أخرى لم تكن ذات وزن كبير في السابق أصبحت هي المثيرة
للقلق في المنطقة في عهد الملك المنصور، ولعبت دوراً شبيهاً بالدور الذي لعبته
المعازبة سابقاً، هذه القوة هي قوة قبائل الزيدية - البلد وليس المذهب - وفي مقدمتهم
بني حفيص.

ويبدو أن المنجحة الكبيرة التي أقامها الطاهريون في هذه القوة يوم أن خرجت
مع الأمير يوسف بن عامر قد أوقدت في نفوس أفرادها حب الانتقام، وفقدان عند يبلغ
أربعمئة فرد من أبنائها كان كبيراً بأن يجعل الشعور بالقهر يدخل في كل بيت من
بيوتها، فكانت نتيجة ذلك - حركاتهم متكررة، وخروجهم لا يتوقف، ولا يزيدهم

(١) محمد ربيع المدخلي، الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية، ص ٦٤، ٦٥، ابن الديبع، قرّة العيون،
ص ٤٢٤، ٤٢٥، بغية المستفيد، ص ١٦١ - ١٦٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٤، ابن الديبع، قرّة العيون، ص ٤٢٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٢٨.

بطش الدولة إلا عناداً، وكانت الكفة الراجحة في أغلب الجولات هي كفة الدولة الطاهرية^(١).

(٤) الملك الظاهر الثاني صلاح الدين عامر بن عبد الوهاب (٨٩٤-٩٢٣هـ/١٤٨٩-١٥١٧م): يُشار إلى مدة حكم السلطان الظاهر الثاني صلاح الدين عامر بن عبد الوهاب الطاهري - وهي تربو على ربع قرن من الزمان - بالبنل، وتسترعي لفتباه الباحثين في تاريخ اليمن والمُطالعِينَ عليه فيَتوقفون عندها، فهي في نظرهم جديرة بالدراسة لأمر عدة، أهمها: أنها أطول مدة حكم فيها ملك طاهري^(٢)، ولما تميز به هذا السلطان من الصفات المتميزة حكماً وإدارةً وعلماً وعمراناً، وكذلك لما عُرف به عهده من شدة الصراع وقوة احتدامه بين الأطراف الداخلية الكثيرة، فمن تنافس على العرش بين السلطان نفسه والأمراء الطاهريين من أخواله أبناء السلطان الظاهر الأول عامر بن طاهر، إلى صراع كبير بين الدولة الطاهرية والأئمة الزيدية على مناطق النفوذ والتوسع - وإن أعطى كل طرف صفة أخرى لصراعه مع الطرف الآخر - إلى صراع شديد بين الأئمة الزيدية أنفسهم بعد أن تعدد للخارجون والدعون إلى أنفسهم بالإمامة منهم، إلى عدد كبير من التمردات والحروب والعصيان على للدولة من قبل أغلب القوى القبليّة في تهامة ويافع^(٣) ويبحان^(٤) وغيرها من المناطق، وللقوى والزعامات الأخرى فيها.

(١) ابن الديبع، قرّة العيون، ص ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، بعمّة المستفيد، ص ١٦٣، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٠، ١٧١، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٢.

(٢) فامت هذه الدولة سنة (٨٥٨هـ / ١٤٥٤م)، وحكمها المتكلى الأخوى الظاهر الأول عامر بن طاهر والمجاهد علي بن طاهر مدة ٢٥ سنة، ثم حكمها الملك المنصور عبد الوهاب بن دلود مدة ١١ عاماً، ولتمتكت فترة حكم الملك الظاهر الثاني عامر بن عبد الوهاب إلى حوالي ٢٩ عاماً، وبقي الأمراء الطاهريون في نزاع دائم حتى انتهى أمرهم بعد وفاة الملك الظاهر الثاني عامر بعشرين سنة تقريباً، أي في ظهورها تسمر حوالي ٨٥ عاماً، فتكون مدة حكم الملك الظاهر عامر تلك المدة تماماً، بل تزيد قليلاً.

(٣) يافع اسم لقبيلة جَبَرِيَّة كبيرة، وأطلق اسمها على المنطقة التي يسكنها أفرادها، وتقع منازلهم بين الضالع ولحج، وهي أرض جبلية صخرية شديدة الوعورة، ترتفع عن مستوى سطح البحر بحوالي ٢٢٠٠ قدم، ويبلغ ارتفاع بعض جبالها إلى ٢٥٠٠ قدم، وهي أعلى المناطق في المحافظات الجنوبية والشرقية من اليمن وأكثرها ارتفاعاً، وبقدر ما أسهمت هذه الطبيعة الصعبة جداً في عزلة أهلها تسهمت أيضاً في إكسابهم قسراً عالياً من الشجاعة والإقدام، وجعلتهم مغرمين بالسفر والهجرة إلى نواح يمنية مجاورة أو أنظار أخرى، ومن غادرها من أبنائها في تاريخنا المعاصر إلى شتاء بقاع الأرض يهفون المستقرين بها

ومما يجعل مدة حكم السلطان الظاهر الثاني عامر بن عبد الوهاب الطاهري مميزة عن غيرها - أيضاً - أنها تعد من أخطر المراحل التاريخية التي مر بها اليمن، وخاصة العشرين سنة الأخيرة منها، فقد ظهر على المسرح الدولي - ثم الإقليمي - قوة بحرية استعمارية عاتية - بمقياس ذلك العصر - ألا وهي قوة البرتغاليين، وكانت اليمن واحدة من أكثر الأطراف تضرراً من هذا التحول الكبير، ذلك التحول الذي أحدث هزة - بل بركاناً - نصف موازين القوى على مستوى معظم العالم القديم، وهذا التحول بدوره أدى إلى دخول اليمن في صراع مع بعض القوى الخارجية، في مقدمتها قوة المماليك الجراكسة الحاكمين لمصر في هذه الفترة، ونتج عنه - في آخر مراحل هذا الصراع - القضاء على السلطان الظاهر الثاني، وتعرض الدولة الطاهرية عموماً إلى الانهيار .

ومما يسهل دراسة هذه الفترة المهمة من تاريخ الدولة الطاهرية خصوصاً وتاريخ اليمن عموماً، أرى أن يتم تقسيمها إلى ثلاث مراحل مهمة، وذلك كما يأتي :

□ المرحلة الأولى : صراع الملك الظاهر مع الأمراء الطاهريين على العرش :

مما سكنت عنه المصادر ويمكننا ترجيعه أن الملك المجاهد علي بن طاهر لم يرزق بأولاد، أو على الأقل لم يكن له من الذكور أحد، وذلك لا يفسر توليته العهد من بعده لابن أخيه المنصور عبد الوهاب بن داود، فقد سبق تناول حرصه الشديد على ألا يتولى أمور الدولة من بعده غير الأصالح والأكفأ من أحفاد أبيه الشيخ طاهر بن سعوضة

فوق قم الجبال وفي بطون الأودية، بامخرمة، القسبة إلى المواضع والبلدان، ق ٤٠٢، الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبلاتها، ج ٤ ص ٧٧٣، ٧٧٤، المقفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج ٢ ص ١٨٩٤ - ١٨٩٦ .

(١) يتحان حقلٌ لثري واسع في قاع ضريح يمتد باستطالة ابتداء من سفوح الجبال الواقعة شمال مدينة البيضاء إلى أطراف رملة السبعين التي تعد أحد أكبر أقسام صحراء الربع الخالي، ويتحان أحد مذكر قبيلة مُسَراد المنحجية الشهيرة، التي ينتمي إليها قاتل الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الخارجي الشهير عبد الرحمن بن ملجم المرادي، وأرض يتحان روائية خصبة، غنية بالمياه المسخرة إليها من جبال قبيضاء، ومياهها الجوفية متوافرة على أعناق قرية، لذلك نكثر فيها مرروعات الحبوب وبعض الفواكه والخضروات، وتكثر فيها المناهل، ويتحان تقع أطلال مدينة تمع الأثرية القديمة، التي كانت عاصمة لدولة قُتبان اليمنية في فترة ما قبل الميلاد، وهي تشكل واحدة من مديريات محافظة شبوة المقاطعة لصحراء الربع الخالي، بامخرمة، المصدر السابق، ق ٧٥، الحجري، قمصر السليق، ج ١ ص ١٣٢، ١٣٣، المقفي، المصدر السابق، ج ١ ص ٢٠٨، ٢٠٩ .

ابن تاج الدين، ولو نظرنا إلى المسألة بغير هذا المنطق فيكون أبناء الملك الظاهر الأول عامر بن طاهر هم الأولى بتولي الحكم بعد وفاة عمهم الملك المجاهد علي، بعد الأخذ بفرض عدم وجود أبناء ذكور له، ذلك لأن أباهم كان أول ملوك الدولة، وقضى نحبه نوداً عنها ودفاعاً عن حياضها، بينما لم يكن لعمهم داود ذكر، ولو لم يكونوا الأكمل بين الأمراء الطاهريين، والتفكير بهذا المنطق الأخير هو الذي اعترى أبناء الملك الظاهر الأول فعلاً، لذلك رأينا إبيه يوسف وإبراهيم ابني عامر بن طاهر يخرجان على ابن عمهم الملك المنصور عبدالوهاب مدعين لأحقيتهم في تولي العرش الطاهري .

في أيام حكم الملك المنصور عبدالوهاب بن داود لم يعارض توليه العرش الطاهري غير اثنين من أبناء عمه الملك الظاهر الأول عامر^(١)، هما : يوسف وإبراهيم، بينما كان أخوتهم الأربعة للبقول غير معترضين عليه، بل قتل أحدهم - أحمد - في إحدى معارك الدفاع عن أحقية بالعرش، ولعل موقفهم ذلك جاء من منطلق أن توليته كانت رغبة عمهم للملك المجاهد نفسه، التي جسدها من خلال أخذ البيعة له في مرضه الأول كما مر معنا، إضافة إلى أنه كان صهرهم، فأختهم الأميرة فاطمة بنت الظاهر الأول هي زوجته، ويبدو أن هذه الحجة لم تكن منطبقة - في نظرهم - على ابنه الظاهر عامر بن عبدالوهاب، فحجتي تولية أبيه لا يمكن سحبها عليه، ويجب وضع الأمر في نصابه، وعودة الحق إلى أهله، ولم يشفع للظاهر الثاني عامر بن عبدالوهاب أنه ابن أختهم، لذلك كانت معارضتهم هي أول الصعوبات التي واجهها، والتي كان من الواجب عليه - لإزائها - إثبات أهليته للعرش من جهة، وخطأ منطقهم الذي لا يصب في مصلحة الدولة للطاهرية - من وجهة نظرهم - من جهة أخرى .

لم يبادر السلطان الظاهر الثاني عامر بن عبدالوهاب إلى إطلاق سراح خاليه - يوسف وإبراهيم - المسجونين منذ أيام أبيه، وهو تصرف ينبئ عن إحساسه بحظر خروجهم، توجسه خيفة منهم، وخشيته من خروجهم عليه، وركز اهتمامه على الطلقاء من أحواله وهم ثلاثة : عبدالله ومحمد وعمر أبناء جده للظاهر الأول عامر بن طاهر، فلستدعاهم جميعاً وحلّفهم على السمع والطاعة، فحلفوا له على ذلك وأطهروا الرضا والتسليم^(٢) وفي أنفسهم ما فيها من تبين نية الخروج والعصيان، ويبدو أنهم كانوا

(١) كان عددهم ستة أبناء، هم : أحمد ويوسف وإبراهيم عبدالله ومحمد وعمر .

(٢) ابن قديم، قرّة العيون، ص ٤٣١، بغية المستفيد، ص ١٨٥، ١٨٦ .

خائفين من أن يجمع الظافر الثاني بينهم وبين أخويهم المسجونين فيما لو رفضوا البيعة له، وقد أقطع الملك الظافر الثاني عامر أكبرهم - خاله الشيخ عبدالله بن عامر - البلاد الشرقية كلها تطبيقاً لمحاظرة^(١).

انتقل الملك الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب من المقرّنة إلى تعز بعد تسعة أيام من وفاة أبيه، ولم يلبث بها إلا خمسة أيام حتى وصلته الأنباء بما كان متوقعاً لديه، ألا وهو نقض أخواله الثلاثة للعهد، ثم أنهم جيّشوا رجالاً كثيرين من جُبْن وقبائل يافع وغيرها، ولوثكبوا بعض التصرفات غير المسؤولة وغير المبررة، فهاجموا مدينة جُبْن، وانهبوا بها بيوت كل من والى الملك الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب، ولم تستمّ منهم بيوت التجار والقصور العامة، فقاموا بهدمها؛ وكانت ردة فعل الملك الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب سريعة، إذ بادر إلى حشد جيش كبير، ذكر المؤرخون أن عنده بلغ عشرين ألف مقاتل، وهذا العدد الكبير - إن سلمنا بصحته - يدلنا على مدى إجماع الملك الظافر بالخطر الذي يمثله خروجهم، فخروجهم يختلف عن خروج غيرهم من القوى القبليّة والزعماء المحليّة الأخرى، فهم يساوونه في كثير من دواعي ادعائه للشرعية، لأنهم أبناء ملك طاهري مثله، ويل لعل وفاة أبيهم مقتولاً يعطيهم في عيون غيرهم الأولوية عليه، وغير ذلك من هذه الدواعي، فكان القضاء على حركتهم في مهدا - وبصورة عنيفة - يمثل مسألة مصيرية للملك الظافر الثاني؛ لأن فيها وضع حد لهم، وعبرة لغيرهم، "وخروجه بهذه الطريقة يعطي انطباعاً للسياسة التي سوف يسلكها ضد منلوئيه..."^(٢).

شعر الأمراء بالخطر عندما سمعوا عن جيش ابن أختهم الملك الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب، فيبدو أنهم اتفقوا على أن يهرب أكبرهم - الأمير عبدالله بن عامر - ومعه ما يكفي من الرجال بالمال المنهوب من بيوت التجار والمولين للظافر الثاني بجُبْن إلى حرير^(٣)، فعلم الظافر الثاني بذلك فأرسل وراءه أحد قادته، ولما اشتبك

(١) بغية المستفهد، ص ١٨٥.

(٢) محمد ربيع المدخلي، الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية، ص ٧٦.

(٣) سلسلة جبال بمنطقة الخصتين شرق الصالح وجنوب قطّبة، بها رزوس نافذة وحواف هاويست شديدة الانحدار، تتخللها الكثير من الأودية ومجاري السيول، هذه الجبال شديدة الارتفاع حتى أن كل على قممها يمكنه الإشراف على مساحات شاسعة من الجهات الأربع، وجبال حرير جبال أهلة بالسكن، حيث

الجانبان أسفر اللقاء عن هزيمة الخارجيين، وقتل عدد كبير ممن معهم، وأسر الأمير داود بن أحمد بن عامر - ابن أخيه - واستعادة المال منهم، وهروب الأمير عبدالله بن عامر إلى جبال باقع، وتحصنه بها^(١).

وقعت اشتباكات عدة بين الملك الظاهر الثاني عامر بن عبد الوهاب والأميرين محمد وعمر ابني عامر، ظهرت فيها رجحان كفته؛ فبدأت صفوفهم بالتفكك، وقتل عدد كبير من الطرفين؛ وأدى ذلك إلى حصارهم في حصن جَبْن، فسعى العيرون على الدولة^(٢) إلى الصلح بين الجانبين خوفاً من الاستمرار في عملية استنزاف القوة أرواح الأمراء، فاتفق الصلح على أن يحدد الأمراء البيعة للملك الظاهر مقابل أن يقطعهم أرضاً محددة إضافة إلى مبلغ أربعين ألف دينار من خراج عدن^(٣).

لم يكن الأمراء أبناء الظاهر الأول جادين في الصلح، ويبدو أن قبولهم به كان سياسة منهم ليتمكنوا من فك الحصار عنهم وإعادة الكرة مرة أخرى، لذلك فقد بانر الأمير محمد بن عامر إلى نقض الصلح بمهاجمة تعز - وواليتها يومذاك هو القائد عمر بن عبدالعزيز الحبشي - في أوائل رمضان من السنة نفسها (٨٩٤ هـ / ١٤٨٩ م) ، وكان موقف الوالي سلبياً بعدم قتال المهاجمين^(٤)، وتولى الدفاع عن المدينة القاضي للمقري شمس الدين يوسف بن بوس الجبائي ، وتمكن فعلاً من هزيمتهم^(٥).

تتناثر فقرى علي جوانبها، المفحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج ١ ص ٤٥١، ٤٥٢، للهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١٤٧، ١٧٤.

(١) ابن النديم، فرة العين، ص ٤٦١.

(٢) هما القائد عمر بن عبدالعزيز الحبشي والسيد أبو بكر بن عبدالله العبدروس.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٣١، بغية المستفيد، ص ١٨٧، العبدروس، محجة السالك وحجة الناسك، ط ٢، ١٩٣٦م، القاهرة، (د ، ن) ، ص ١٣٤، وذلك نقلاً عن محمد ربيع المدخلي، الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية، ص ٧٧، ٧٨.

(٤) وهو ما عُدَّ تواطؤاً معهم، ولذا لا أرجح أن تفسير موقفه هذا يعود إلى وجود بنية فتواطؤ، بل يمسود إلى قناعة الوالي بعدم صواب هذا الصراع وخطورته على الدولة، فقد رأيناه سابقاً يسعى إلى الصلح بين الطرفين أثناء حصار جَبْن كما تمت الإشارة إليه، وقد اعتمد هذا الموقف المعادي للوالي فأغروا للملك الظاهر الثاني به، فلما قبله أساء معاملته، وفهده وسجنه، ابن النديم، بغية المستفيد، ص ١٨٨.

(٥) المصدر السابق، ص ١٨٧، ١٨٨، ابن النديم، فرة العين، ص ٤٣١، ٤٣٢.

لتجه الملك الظافر الثاني عامر بن عبد الوهاب إلى صُنَيْيَا^(١) لكي يلتقي بخاله الأمير محمد بن عامر ويرافقته ابن عمه الأمير عبد الباقي بن محمد بن طاهر بن معوضة ومن معهما - بعد هزيمتهم في تعز - وقد حصل الصدام الكبير بين الغريقيين في منطقة النُجْد الأحمر^(٢)، حيث دارت الدائرة على المخالفين، ووقعت فيهم مقتلة كبيرة، وأسر منهم خمسمائة رجل، وهرب الباقون تاركين أموالهم وراءهم^(٣).

كان الموقف المالي للأمراء الخارجيين سيئاً للغاية، فقد استعاد الملك الظافر الثاني كل الأموال التي جمعوها في جُبْن يوم أن أسر الأمير داود بن أحمد بن عامر في حَرِير وهي بصحبته، وخسروا معظم ما تبقى لديهم في معركة للجد الأحمر، وهم يُدركون أنهم لن يتمكنوا من جمع الناس حولهم إلا بقدر ما ينفقوه عليهم من الأموال، لذلك رأوا أن الاستيلاء على عدن سيحقق غرضين في آن واحد، فهي - من جهة - ستركز عليهم مالا وفيراً يقوم بحاجة نزاعهم من ابن لأختهم الملك الظافر الثاني، ومن جهة أخرى سيكونون - باستيلائهم عليها - قد وجهوا ضربة قوية له، لأنها شريان قوته، فاحتياجه إلى المال يفوق احتياجهم إليه؛ لذلك يمم أحدهم - الأمير عبد الباقي بن محمد بن طاهر - وجهه صوب عدن، إلا أن استماتة واليها الأمير محمد بن عبد الملك ابن طاهر جعلت مهمته مستحيلة، فقد هزم الأمير عبد الباقي، وكسر له نراعه، واضطره إلى الفرار بنفسه، وأسر عدداً كبيراً من أتباعه^(٤).

تتالت حلقات الصراع بين الملك الظافر الثاني عامر بن عبد الوهاب وبين أخواله الأمراء أبناء الملك الظافر الأول عامر بن طاهر، وكان النصر فيها كلها حليفاً له، وقد تمكن في آخر المطاف من القبض عليهم وعلى كبار أعوانهم واحداً تلو الآخر، إذ قبض أولاً على الأمير داود بن علي بن تاج الدين بن طاهر ومعه حاكم الشوافي محمد بن

(١) منطقة تقع إلى الجنوب من مدينة إب قريباً من جبلّة، وتشمل مجموعة من الحصون والقرى، بأسعرة، النسبة إلى المواضع والبلدان، ق ٢٧٣، المجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج ٣ ص ٤٢٣، ٥٤٨، السفحي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج ١ ص ٩٢٣.

(٢) إحدى مناطق محافظة إب، وتبعد عنها - جنوباً - بمسافة قصيرة على الطرق المؤدي إلى تعز، وسمي لعمراً لعمرة تربته، السفحي، المصدر السابق، ج ١ ص ١٧١٩.

(٣) ابن النديم، قرة العيون، ص ٤٣٧، بغية المستفيد، ص ١٨٨.

(٤) المصدر السابق، ص ٤٣٢، ٤٣٣، ابن النديم، بغية المستفيد، ص ١٨٩.

عباس خال الأمير عبدالله بن عامر في منطقة الرُبَيْمَتَيْن^(١) في أوائل سنة (٨٩٥هـ / ١٤٨٩م)^(٢)، كما قبض على خاله الأمير محمد بن طاهر بعد اقتحامه لحصن عَمْرَقَان^(٣) في آخر سنة (٨٩٦هـ / ١٤٩٠م)^(٤)، ثم قبض على الأمير عبد الباقي بن محمد بن طاهر في سنة (٩٠٣هـ / ١٤٩٧م)^(٥)، ولودع الجميع في سجن رداغ، جالساً بينهم وبين من سبقهم ممن نارعه ونزع لباه من قبله على العرش الطاهري .

كشفت المرحلة الأخيرة التي سبقت القبض على أمير الخارجين وكبيرهم الأمير عبدالله بن عامر معلومات مثيرة، تترك انطباعاً لدى القارئ بأن هناك نقلة نوعية في أسلوب النزاع وطريقة المواجهة من قبل الأمير الأخير، وقد لعب القدر دوره في كشف الأمرين كليهما : هذه المعلومات ومكان وجود الأمير عبدالله بن عامر، تم التعرف على أحد مماليكه المقربين إليه جداً في مدينة تعز في شوال من سنة (٩٠٥هـ / ١٤٩٩م) ، وقبض عليه وأحضر إلى الملك الظاهر الثاني، فكشف - بالترغيب أو

(١) منطقة جبلية شامخة الارتفاع مبنية جداً، بها العديد من الحصون والقلاع الشامخة، لذلك وصفه ابن الديبع ، قرّة العيون، ص ٤٣٤ بقوله " وهي موضع يستجار به بتلك الناحية، من دخله آمن على روحه وماله ... "، وعلق القاضي محمد علي الأكرع على ذكرها بقوله : " وهي أمنع من عقاب الجو " وفي هاتين القولتين دلالة على وعورة هذه المنطقة، وصعوبة طرفها، وخطورة مجاهاها، مع أنها أهلة بالسكان، لأن قممها مسطحة وخصبة، فتتمو فيها عدد من المحاصيل الزراعية، وتقع إلى الجنوب الشرقي من جَبَلِ الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج ٢ ص ٣٥٥، للمحمي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج ١ ص ٦٧٢ .

(٢) ابن الديبع، قرّة العيون، ص ٤٣٤، بغية المستفيد، ص ١٩٣ .

(٣) لم نجد له ذكر في معجم البلدان إلا ما علق به القاضي الأكرع عند ذكره بقوله : " وحصن عَمْرَقَان ... في جبل جُحَات " ابن الديبع، قرّة العيون، ص ٤٣٦ حاشية رقم ٣، إلا أن جبال جُحَات معروفة مشهورة، إذ هي سلسلة من الجبال الشامخة الارتفاع جداً، يبلغ ارتفاعها حوالي ٧٨٤٠ قدم عن مستوى سطح البحر، وتأتي أعلى قمم هذه الجبال في المرتبة الثانية بعد جبل النبي شعيب - الواقع إلى الجنوب الغربي من صنعاء - من ناحية الارتفاع على مستوى جبال الجزء الآسيوي من بلادنا العربية، المحمدي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج ١ ص ٢٩١ .

(٤) ابن الديبع، بغية المستفيد، ص ١٩٨ ، قرّة العيون، ص ٤٣٦ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٤٤٣، الفضل للمزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق د. يوسف شلح، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار العودة، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٢٤١، الكندي، القعدة المطبوعة، ج ١ ص ١٥٤ .

بالترهيب - عن خطة خطيرة تنبر في الخفاء تهدف إلى قتل الملك الظاهر الثاني، وتولية الأمير عبدالله بن عامر ملكاً بدلاً عنه، كما كشف عن أن أبطالها هم مجموعة من أكبر رجال الحاشية على رأسهم ابن عمه الأمير محمد بن عبدالله بن طاهر^(١) - الذي كان من أخلص الناس له ومن أصدقهم ولاء له - وكان هناك عدة حلفاء يتم عن طريقها التواصل بينهم وبين الأمير عبدالله بن عامر، فصدرت الأوامر بالقبض على الجميع، وفقد الملك الظاهر الثاني عامر بن عبد الوهاب بعد ذلك نفته في جميع من حوله، وأصبح شديد الحذر من حاشيته .

يبدو أن الأمير عبدالله بن عامر لم يسمع بالكشف الخطة، لذلك لم يتخذ أي إجراءات تتناسب مع الظروف الجديد، فتفاجأ بقوة مرسلة من قبل صاحب الخيرية^(٢) قبضت عليه قريباً من يفرس^(٣)، وأرسلت به إلى تعز، حيث كان الملك الظاهر الثاني في انتظاره، وكان الأخير في غاية اللطف والكرم مع خاله، إذ أنه أرسل إليه بثياب حسنة قبل دخوله إلى المدينة في ثيابه الرثة التي كان يتكرر بها، ومع الثياب مراكب حسنة تلحق بالأمراء، وأحسن استقباله، وأظهر للجميع مدى إكرامه له، وعلى الرغم من أنه قيده بعد ذلك إلا أنه لم يسئ معاملته، ثم نقله إلى رداغ ليجتمع في سجنها بالسابقين له من أصحابه وأخوته^(٤)، وبالقبض عليه انتهت تماماً كل صور الصراع الطاهري

(١) واشترك معه في المؤامرة عدد من رجال الحاشية والولاة والقادة والوعاءات المحلية، صرحت المصادر بأسماء بعضهم، هم: والفيقه عبدالله بن المقرئ يوسف الجبائي، وأحمد بن محمد بن مزاحم، وعلي بن عز الدين الظاهري، علي المذني، وعمار بن المعلي، مرقوق الجزائري، ورجال آخرون ممن أتباع الأمير عبدالله بن عامر كانوا منتشرون في تعز، ابن الديبع، الفضل المزيد، ص ٢٥٤ .

(٢) بلد جبلي واسع جداً، يشمل جزءاً كبيراً من محافظة تعز، ذو كثافة سكانية مرتفعة، كان يُعرف قديماً بالمتعفر، ومركزه مدينة بنحان تسمى التربة، وينبع الحجرية حوالي عشر مديريات فرعية، به عدد من القلاع والحصون الشهيرة في تاريخ اليمن، كحصن النملوة وقلعة المقاطرة وغيرها، الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج ٢ ص ٢٣٢ - ٢٤٠، المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج ١ ص ٤٢٢ .

(٣) مدينة كبيرة في الحجرية بالجنوب الغربي من مدينة تعز بحوالي ٢٣ كيلومتراً، وهي مركز لإحدى مديريات الحجرية الكثيرة، وتدعى مديرية جبل حبشي، وهي مشهورة جداً في اليمن لأن بها صريح واحد من أشهر رجال الصوفا، يدعى أحمد بن طول، الحجري، المصدر السابق، ج ٤ ص ٧٨٥، المقحفي، المصدر السابق، ج ٢ ص ١٩١٩، ١٩٢٠ .

(٤) ابن الديبع، قرأ العيون، ص ١٤٥، ٤٤٦، الفضل المزيد، ص ٢٥٤ - ٢٥٧ .

لداخلي على العرش، وتفرع الملك الظاهر الثاني عامر بن عبد الوهاب لما منتقله في المرحلة التالية .

ومن المهم الإشارة هنا إلى أن المشكلات التي واجهها الملك الظاهر الثاني عامر بن عبد الوهاب في هذه المرحلة لم تكن محصورة في منافسة أخواله له على العرش فحسب، فقد كان له في الفترة نفسها جولات مع بعض القوى القبلية والرعامل المحلية، وكان كل حملاته عليها ناجحة وموفقة .

□ المرحلة الثانية : الصدام بالأئمة الزيدية والتوسع على حسابهم:

يوجد تداخل واضح بين هذه المرحلة وسابقتها، فقد بدأت أولى صور هذا الصدام في سنة (٨٩٥هـ / ١٤٩٠م) عندما استطاع الإمام محمد بن علي السراجي الوُثلي^(١) أن يستعدي رعاء مدينة نمار على الملك الظاهر الثاني عامر بن عبد الوهاب، فخرجوا عن طاعته، واستعدوا لصدده عنها إذا ما حاول مهاجمتها من خلال سور بنوه حولها، ولعل نشاط هذا الإمام في نمار كان قد ابتدأ على عهد السلطان المنصور عبد الوهاب، وقد بادر الملك الظاهر بالخروج إليهم - رغم انشغاله الكامل بقتال منازعيه على الحكم من أخواله كما سلفت الإشارة - واستعد نمار، بعد أن شرط على أهلها تخريب السور الذي بنوه^(٢) .

مع حلول سنة (٩٠٠هـ / ١٤٩٥م) كان في المناطق الجبلية الشمالية من الساحة اليمنية ثلاثة أئمة من أئمة الزيدية متعارضون، هم : الإمام الناصر الحسن بن الإمام الهادي عز الدين بن الحسن في أقصى شمال اليمن، والإمام المنصور محمد بن علي الوُثلي السراجي في قرية القابل^(٣)، والإمام المؤيد محمد بن الناصر في صنعاء وما حولها^(٤) .

(١) كان ذلك قبل إعلان دعوته إلى نصه بالإمامة بخمس سنوات، يحيى بن الحسين، غيبة الأماني، ص ٦١٨، ٦٢١، ٦٢٢ .

(٢) ابن الدبيع، قرعة العيون، ص ٤٣٥، يحيى بن الحسين، غيبة الأماني، ص ٦١٨ .

(٣) بلدة بأسفل وادي ظهير، إلى الشمال الغربي من صنعاء، محاطة بمرور الأعصاب ومختلف أنواع الفواكه، وهي إحدى متنزعات صنعاء، الحوري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج ٤ ص ٦٤١، لمقهي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج ٢ ص ١٢٣٩ .

(٤) الكبسي، اللطائف السنية، ص ١٢٦، ١٢٧، يحيى بن الحسين، غيبة الأماني، ص ٦٢١ - ٦٢٣ .

كان الملك الظاهر الثاني عامر بن عبد الوهاب حريصاً على ألا يدخل في صراع مع الأئمة في مرحلة انشغاله مع أهواله، وهو ما أدركه بعض الأئمة الزيدية، فعولوا استغلال هذه الظروف لتحقيق ما أمكن من المكاسب على حساب مناطق نفوذه، وكان نشاطهم في ذلك الإمام المنصور محمد الوشلي، الذي قام بالتحرش ببني طاهر من خلال عدد من الغارات^(١)، وإن لم يحقق منها الكثير من المكاسب إلا أنه استثار الملك الظاهر الثاني عامر بن عبد الوهاب، وجعله يعقد العزم على أن يقصده - هو وبقية الأئمة الزيدية الآخرين - وينتزع ما في أيديهم من الأرض .

وما أن تحصّل الملك للظاهر الثاني عامر بن عبد الوهاب من منافسة أكبر أعدائه خاله عبدالله بن عامر حتى ثفرع للإعداد لمواجهة الأئمة الزيدية والتوسع على حسابهم، وقد جرد حملة كبيرة، وقصد صنعاء بنفسه في سنة (٩٠٧هـ / ١٥٠٢م) ، وضرب الحصار عليها، وهي يومئذ بيد الإمام المؤيد محمد بن الناصر - كما أسلفنا - فاستعان صاحبها بالإمام للوشلي وصاحب صغدة الأمير محمد بن حسين الحمزي الشهير بالنبهال، اللذين سارعا لتجديته نظراً لاتفاقهم حول كونه عدوهم المشترك، ولمكانة صنعاء في ميزانهم، فهي رمز لصمودهم وعلو كعبهم، فلرجأوا ما كان بينهم من الخلافات، وتمكنوا من إجبار الملك الظاهر الثاني عامر بن عبد الوهاب على فك الحصار عنها والاتسحاب في أوائل سنة (٩٠٨هـ / ١٥٠٢م)^(٢) .

٥ المرحلة الثالثة : المواجهة مع الخطر الخارجي :

ومجمل هذه المرحلة هو ما سنتناوله في القسم الثاني من هذا الفصل ، وهو قسم القوى الخارجية وأثرها على الأوضاع اليمنية .

(١) د. محمد عبدالخالق أحمد، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، رابرة، أئمة اليمن، ص ٣٦٠ ، ابن الديبع، قرة العيون، ص ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، الفضل المزيد، ص ٢٣٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، يحيى بن الحسين، غاية الأمل، ص ٦٢٤ ، ٦٢٥ .

(٢) رابرة، المرجع السابق ، ص ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ابن الديبع، المعصر السابق، ص ٤٤٩ ، الفضل المزيد، ص ٢٦٨ ، ٢٧١ - ٢٧٣ ، يحيى بن الحسين، المعصر السابق ، ص ٦٢٨ ، ٦٢٩ .

❖ الأئمة الزيدية من بداية القرن التاسع الهجري حتى السيطرة العثمانية

عليها :

اعتاد كثير من الباحثين الذين خاضوا في تاريخ اليمن غير السياسي أو درسوا جوانب الحضارة والعلوم فيه، اعتادوا أثناء استعراضهم لجزيئات الأوضاع السياسية في دراساتهم وتناولهم للقوى على سياحته على للوقوف السلبي من إدراك الثقل الذي كانت تتمتع به الأئمة الزيدية في إحدى صورتين، وكلاهما معص في الابتعاد عن الحقيقة والواقع القائم على الأرض، فهم إما: مغفل لهم مغرض عن بكرهم، وإما ذاكر لهم على الهامش كأنهم قوة ثانوية لم يكن بيدها قلب الأمور ولا خلط الأوراق وقلب موازين القوى في كثير من مراحل تاريخ اليمن .

ومرد ذلك في نظري إلى عوامل عدة، في مقدمتها قلة الوعي - أو انعدمه - حول مكانة القوى السياسية في اليمن على مدار تاريخها والثقل الذي تتمتع به بعضها في مقابل الأخرى، وهي أمور غير ثابتة ولا مضطربة، فمن رأى هذه القوة أو تلك هي فرس الزهان في مدة معينة وسحب هذه الصفة عليها طوال تاريخ اليمن فقد ظلم العلم والحقيقة، كما أن الذي يرى القوة الأخرى ضعيفة التأثير يومها فيتخذ «طباعه عنها صفة الثبات هو شريك أيضاً في ظلم الحقيقة، وسعة الاطلاع الأفقي والعمودي على المصادر المكتوبة من قبل رجال كل القوى حرياً بتجنب هذا الانزلاق.

ولا ننفل أن إصدار الأحكام واتخاذ المواقف إزاء بعض التيارات السياسية والفكرية والفقهية قبلولوج في ميادين البحث عنها والدراسة حولها هو اللطامة التي يقع فيها كثير من الباحثين، وبعض الانتقاص الذي يصيب الأئمة الزيدية أثناء تناول أدوارهم في تاريخ اليمن يعود إلى أن هناك من يحكم عليهم مسبقاً - ودون استئناف - فيضعهم في خانة الرفض وباب من هم غير جديرين بالتركيز والإبراز، ولا أقول ذلك عن تعاطف أو تصريح بالتماء، فالموقف لا يسمح بمناقشة ذلك، وإنما هو منطق البحث العلمي الصحيح والمنهج الأكاديمي السليم.

وإذا ما عدنا إلى الحديث عن الأئمة الزيدية من مطلع القرن التاسع الهجري حتى منتصف العاشر فلنأخذ نجدها مدة نموذجية عن وضعهم في تاريخ اليمن عموماً، ذلك للوضع المتمسم بالمد والجزر، والتعدد والاكتمال، طبقاً لما يمليه الواقع وتقرضه سنة

الله في الكون أن : " وَتِلْكَ الْأَيَّامُ تُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ " (١) ، فمع مطلع

القرن التاسع كان الإمام المنصور بالله علي ابن الإمام الناصر صلاح الدين - الذي كان يقضي العام الثامن من إمامته - هو القائم الفعلي الوحيد منهم بأمر الإمامة (٢) .

(١) الإمام المنصور علي بن الناصر صلاح الدين (٧٧٥هـ - ٨٤٠هـ / ١٣٧٣م - ١٤٣٦م) :

هو أول الأئمة الزيدية العشرة الذين أعلنوا إمامتهم في سنوات مدة الدراسة ، نشأ وتربى في بيت الإمامة ، فقد كان أبوه الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي من أكبر الأئمة الزيدية وأشدهم بلساً ، وكذلك كان جده الإمام المهدي علي بن محمد ، وقد عارضه في الإمامة لثنان ، هما الإمام المهدي لدين الله أحمد بن يحيى المرتضى (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) والإمام الهادي علي بن المؤيد (ت ٨٣٦هـ / ١٤٣٢م) ، وإن كانت معارضة الأول قد انتهت في غضون السنة التي بدأت فيها وهي سنة (٧٩٣هـ / ١٣٩١م) إلا أن معارضة الأخير دامت حتى وفاته .

كان الإمام المنصور عالماً مبرراً ، على قدر كبير من القوة والطول ، تمكن من مقارعة الباطنية الإسماعيلية في مناطق نفوذهم ، وأجلاهم عن أمنع حصونهم ،

(١) سورة آل عمران .

(٢) أقول : " القائم الفعلي الوحيد " عن قصد ؛ لأن التمازض بين الأئمة الزيدية كان قد أصبح ظاهرة جليلة وواضحة ، في مدد مختلفة ، سابقة ولاحقة ، كان للصراع يحتكم بين أكثر من إمام ، وكل يدعي الأحقية في الإمامة لحجيات الكفاءة والسبق في إعلان الإمامة ولامتلاك السيف ضد الظالمين وغيرها من مفومات شرعية الإمامة لدى الزيدية التي لم يسلم منها هذا الإمام نفسه ، ووصفته بالفقهي لأن الإمام الهادي الأتشي ذكره كان معارصاً له دون أن يكون له شأن يذكر .

(٣) نقولت المصادر والمراجع الآتية أخبار هذا الإمام ، رسالة ، أئمة اليمن ، ص ٢٨٠ ، تصانف المهتدين ، ص ٦٧ ، خلاصة المتون في أنباء ونهلاء اليمن الميمون ، تحقيق أحمد محمد زهارة ، مركز التراث والبحوث اليمني ، صنعاء ، ٢٠٠٢م ، ج ٢ ص ٦٣ وما بعدها ، الرجيف ، مآثر الأبرار ، ج ٢ ص ١٠٥٦ وما بعدها ، الشرفي ، اللآلئ المضيئة ، ص ٤٧٠ ، الكبسي ، اللطائف السنية ، ص ١٠٢ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأماني ، ص ٥٣٨ وما بعدها ، الشوكاني ، البدر الطالع ، ص ٤٨٨ .

وتخبرنا المصادر الزيدية^(١) عن مدى صبره على حصارهم وتحمله لعامل الزمن الذي كان أكبر رهان في أيديهم ، وخاصةً حول حصن ذي مرمر^(٢) .

وقد سبق - في أثناء الحديث عن قيام دولة بني طاهر - الإشارة إلى محاولات الإمام المنصور للتوسع على حساب نفوذ القوى اليمينية الأخرى ، فهاجم رداع وما حولها^(٣) ، ودخل في صراع مع الزعامات الموالية للدولة الرسولية يومئذٍ ، وتلك الجهود إن دلت على شيء فهي تدل على مدى ما كان يتمتع به هذا الإمام من الحنكة السياسية التي مكنته من استغلال فرصة ضعف الدولة الرسولية الناشئة من صراع الأمراء على العرش ، إضافة إلى طموحه في توسيع رقعة نفوذه ، ومثل هذا الطموح لا يثنائي إلا بقوة يشعر صاحبها بوجودها .

(٢) الإمام الهادي علي بن المؤيد^(٤) (٧٥٧هـ - ٨٢٦هـ / ١٣٥٦م - ١٤٣٢م) :

هو الإمام الهادي علي بن المؤيد بن جبريل بن المؤيد ، ينتهي نسبه إلى الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين المؤسس لدولة الزيدية ومذهبها في اليمن ، دعا الناس إلى بيعته بالإمامة في محرة قطاير^(٥) سنة (٧٩٦هـ / ١٣٩٤م) .

(١) زيارة، أئمة اليمن، ص ٢٨٣ ، ٣٠١ - ٣٠٤ ، خلاصة المثلون ، ج ٢ ص ٨٨ ، الفحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٢ ص ١٠٥٨ ، يحيى بن الحسين، غاية الأمل ، ص ٥٦٧ .

(٢) حصن تاريخي منيع وشهير ، له ذكر كثيف في النقوش التاريخية القديمة ، يقع في محل وادي السُر من مديرية بني حشيش بمحافظة صنعاء ، يبعد عن مدينة صنعاء بحوالي خمسة عشر كيلومتراً ، أطلق اسمه الآن على مركز إداري يصم حوالي ثمانى قرى ، الحوري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج ٢ ص ٣٥٠ ، المقحفى، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج ٢ ص ١٤٩٤ .

(٣) أسناد ابن التميمي، قرعة العيون، ص ٢٨٩ ، يحيى بن الحسين، غاية الأمل ، ص ٥٦٤ أسياها بلاد بني طاهر، لما زياره، أئمة اليمن، ص ٢٩٨ فجعلها رأساً أخرى غير رداع، فقد ذكر قيام الإمام للتوجه نحو " بلاد رداع وبني طاهر.. " .

(٤) تناولت المصادر والمراجع الأتية أخبار هذا الإمام ، ربارة ، المصدر السابق ، ص ٣١٩ ، تحالف المهتدين ، ص ٦٩ ، خلاصة المثلون ، ج ٢ ص ٩٣ ، ٩٤ ، الفحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٣ ص ١٠٩٣ وما بعدها ، الشرقي ، اللآلئ المضيئة ، ص ٥٠٦ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأمل ، ص ٥٧٠ .

(٥) واحدة من أشهر هجر الطم ومقاتله في قيس ، يطلق اسمها الآن على مديرية بمحافظة صنعاء ، تقع ضمن منازل قبائل جماعة من خولان بن عمرو الهمدانية ، الأكوع، هجر الطم، ج ٣ ص ١٦٨٨ ، المقحفى، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج ٢ ص ١٢٨١ .

كان الإمام الهادي قبل دعوته من المتعاطفين مع الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى ، ولم يخرج إلى الناس بدعوته - معارضاً الإمام المنصور علي كما أسلفنا - إلا بعد قتل الإمام المهدي بثلاث سنوات ، وقد تعلّصداً سورياً وخاصةً على المستوى الإعلامي في إشارة نكل على تنحي المهدي عن المناقصة لصالح الهادي ، فقد ترك الثقل بأمر المؤمنين ، كما كان يذنب عن الهادي ويرفض معارضته^(١) .

ولم يكن للإمام الهادي - مع طول باعه في العلوم^(٢) - من القوة وكثرة الأتباع ما كان للإمام المنصور ، وهو ما جعله محصوراً في مناطق محددة من نواحي صعدة ، ولعل وضعه هذا هو الذي جعل الإمام المنصور يفضّل الطرف عنه ، فلم نره يأخذ معارضته مأخذاً يدفعه لتجريد الحملات للتخلص منه والقضاء عليه ، وقد دامت معارضته للإمام المنصور طيلة أربعين عاماً ، انتهت بوفاة قبل الإمام المنصور بأربع سنوات ، أي سنة (٨٣٦هـ / ١٤٣٢م) .

ثلاثة أئمة كبار في آن واحد :

ما إن مات الإمام المنصور علي بن الناصر صلاح الدين حتى ابصر ثلاثة من رجال آل البيت النبوي الزيديين كلّ منهم يرى نفسه أحق بالإمامة ، وكلهم على قدر كبير من العلم والطموح ، ومنهم من كان قد بلغ مرتبة الاجتهاد ، فوقع التصادم بينهم ، وضعف أمر الزيدية بسبب ذلك ، حيث انكسرت على نفسها ، تستنزف كل قوة ، وتستهلك كل طاقة ، ولو تزامن هذا للطرف مع قوة في للدولة الرسولية أو الطاهرية لامتكت سيطرتها على كل شبر في مناطق الزيدية بشمال اليمن .
أما الأئمة الثلاثة فهم - حسب ترتيب وفاتهم - كما يأتي :

(١) ربيعة ، خلاصة المتن ، ج ٢ ص ٩٣ ، الشرفي ، الأئمة المضيلة ، ص ٥٠٨ ، الرحيف ، مآثر الأئمة ، ج ٣ ص ١١٠٢ ، ١١٠٣ .

(٢) لوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٧٢٤ .

(٣) الإمام المهدي صلاح بن علي^(١) (... - ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م) :

هو الإمام المهدي لدين الله صلاح بن علي بن محمد بن أبي القاسم ، كان اصطدامه في البداية بواحد من أكبر موالى الإمام المنصور علي ، وكان يدعى قاسم سنقر ، لأن الإمام المهدي صلاح رأى أنه المستبد بالأمر دونه في صنعاء ، فتمر به ليقنله ، فبادره قاسم سنقر بأن قبض عليه وحبسه ، وأقام مكانه الناصر بن محمد .

تمكن الإمام المهدي صلاح بن علي من الفرار من السجن والتوجه إلى سعدة في أقصى شمال اليمن ، حيث قام من هناك بتجريد أكثر من حملة لمقارعة خصومه ومنافسيه على الإمامة والنفوذ ، إلا أنه فشل فيها كلها ، فقرر - في سنة (٨٤٦هـ / ١٤٤٢م) - أن يجمع كل ما يمكنه الوصول إليه من الإمكانات العادية والبشرية ، مشكلاً منها حملة كبيرة ، وتوجه بها صوب صنعاء ليقضي على منافسه الإمام الناصر بن محمد وينزعها من يده ، ف وقعت بين الطرفين معركة ضروس في حمراء غلب^(٢) ، كانت الدائرة فيها عليه ، وغنم الناصر كل ذخائره ، وأسره ، وبقي في سجنه ثلاث سنوات تقريباً حيث مات فيه سنة (٨٤٩هـ / ١٤٤٥م)^(٣) .

(٤) الإمام المنصور بالله الناصر بن محمد^(٤) (... - ٨٦٧هـ / ١٤٦٢م) :

هو الإمام المنصور الناصر بن محمد بن أحمد بن الإمام المطهر بن يحيى ، سبط الإمام المنصور علي بن الناصر صلاح الدين السابق ذكره ، كان أصغر الأئمة

(١) تناولت المصادر والمراجع الأتية أخبار هذا الإمام ، زيارة ، ألعة اليمن ، ص ٣٢١ ، ٣٢٢ ، تحالف المهتدين ، ص ٧٠ ، خلاصة المتون ، ج ٢ ص ١٠٦ ، الرحيف ، مآثر الأكرار ، ج ٣ ص ١٥٤ وما بعدها ، الشرفي ، اللآلئ المضيئة ، ص ٥١٩ ، الكيسي ، اللطائف السنية ، ص ١١٠ .

(٢) قرية زراعية خصبة تقع على السطح الجنوبي لجبل نغم الحاض لمدينة صنعاء من ناحية الشرق ، تتبع حالياً مديرية سحار ، ويقال أن بها قبر المحدث الشهير الإمام عبدالرزاق الصنعائي صاحب المصنف ، وشيخ لإمام الشافعي في الحديث ، المحقق ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ٢ ، ص ١١٠٤ .

(٣) تفصيل هذه الأحداث في المصادر السابقة بالإضافة إلى يحيى بن الحسين ، غلبة الأماني ، ص ٥٧٤ ، ٥٨٠ ، ٥٨٢ .

(٤) تناولت المصادر والمراجع الأتية أخبار هذا الإمام ، زيارة ، ألعة اليمن ، ص ٣٢٢ وما بعدها ، تحالف المهتدين ، ص ٧٠ ، خلاصة المتون ، ج ٢ ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، الرحيف ، مآثر الأكرار ، ج ٢ ص ١١٦٧ وما بعدها ، الشرفي ، اللآلئ المضيئة ، ص ٥٢٤ .

المتعارضين الثلاثة سناً ، لكنه كان الأوفر حظاً ، ألقمه - في بداية أمره - قاسم سنقر على صنعاء إثر سجنه للإمام المهدي صلاح بن علي سنة (٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) ، مستغلاً صغر سنه ، ودعاً الناس إلى بيعته ، وضرب المسكة باسمه ، إلا أنه شب عن الطوق سريعاً في السنة ذاتها ، فخافه قاسم سنقر على نفسه ، وعزم على التخلص منه ، إلا أنه احتال للخروج من صنعاء إلى ذمار قبل وقوع المكيدة فسلم .

اجتمع حول الإمام المنصور الناصر بن محمد عدد كبير من موالى جده المنصور علي وغيرهم ، واتخذ من هران^(١) مقراً له ، وشكل بهم نواة قوته التي استعان بها لاستعادة صنعاء وتوسيع رقعة نفوذه وقمع المناهسين له على الإمامة ، كما أن المؤرخ يحيى بن الحسين^(٢) يشير إلى أنه استعان ببني طاهر ، وكان أول ثمار جهوده للهزيمة التي لحقها بالإمام المتوكل المطهر بن محمد وقاسم سنقر ، حيث أسر الأول وقتل الثاني ، وذلك عندما توجهوا لقتاله في قرين^(٣) ، إلا أن الأسير قد فر من محبسه بعد مدة قصيرة^(٤) .

أصبحت الطريق إلى صنعاء سالكة أمام الإمام المنصور الناصر بن محمد ، فانتزعها من أيدي أعوان المهزومين في قرين^(٥) ، وامتدت يده إلى أغلب ما كان لجده الإمام المنصور علي بن صلاح الدين من المناطق ، كما تمكن من صد الهجوم الذي قاده الإمام المهدي صلاح بن علي في سنة (٨٤٦هـ / ١٤٤٢م) على صنعاء وتمكن من أسره واعتقله حتى مماته كما ذكرناه آنفاً .

وأهم المحطات التاريخية في مسيرة الإمام المنصور الناصر بن محمد هي علاقته بالطاهريين ، فقد تراوحت بين التحالف أحياناً وعقد الصلح بين الطرفين أحياناً

(١) حصن يقع على جبل بركاني أسود إلى الشرق من مدينة ذمار ، وقد اتصل به فرح العرقي لمدينة ذمار ، يقع على مرأى البصر لكل مسافر عبر ذمار إلى صنعاء وغيرها ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٤ ص ٧٥١ ، المقحفى ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ٢ ص ١٨١٤ .

(٢) غاية الأمل ، ص ٥٧٥ .

(٣) حصن فوق قرية رصانة من مديرية أنيس التابعة لمحافظة ذمار ، يطل على قاع جهرا ، وقد أصبح اليوم لطلاً وحراث ، المقحفى ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ٢ ص ١٢٦٩ .

(٤) رابرة ، ثمة اليمن ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأمل ، ص ٥٧٥ .

(٥) لشرفي ، الدلائل المضبوطة ، ص ٥٢٦ ، يحيى بن الحسين ، المعاصر المتأخر ، ص ٥٧٥ .

أخرى واحتدام الصراع العسكري أحياناً ثلاثة على مدار ستة وعشرين عاماً ، من سنة (٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) حتى أسره سنة (٨٦٦هـ / ١٤٦١م) ، كان أكبر حواشيها الهزيمة التي ألحقها الإمام المنصور بالطاهريين في إحدى ضواحي رداغ ، وتمكن فيها من قتل الأمير محمد بن طاهر ، أحد أئمة السلاطين المؤسسين للدولة الطاهرية^(١) .

وقد غدرت بعض القبائل الواقعة بين صنعاء وعمار بالإمام المنصور الناصر بن محمد - أثناء انسحابه من عمار بعد هزيمة تلقاها على أيدي الطاهريين سنة (٨٦٦هـ / ١٤٦١م) - فقبضوا عليه وسلموه لأكثر مناقسيه على إمارة الزيدية^(٢) ، وهو الإمام المتوكل المطهر بن محمد ، الذي سجنه في حصن الغروس^(٣) التابع له ، واستمر في محبسه حتى وفاته سنة (٨٦٧هـ / ١٤٦٢م) .

(٥) الإمام المتوكل المطهر بن محمد الحمزي^(٤) (٨٠١هـ - ٨٧٩هـ / ١٣٩٩م - ١٤٧٤م) : هو الإمام المتوكل على الله المطهر بن محمد بن سليمان بن محمد الحمزي ، ينتهي نسبه إلى عبدالله بن الحسين - أحي الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين مؤسس دولة الزيدية ومذهبها في اليمن - وهو صهر الإمام للمهدي أحمد بن يحيى المرتضى وأحد أشهر تلامذته ، استدعاه قاسم سنقر إلى صنعاء بعد فرار الإمام

(١) يحيى بن الحسين، غاية الأمل، ص ٥٨٩ .

(٢) شرفي ، الثلاث المضيئة ، ص ٥١٥ ، ٥٢٦ ، يحيى بن الحسين ، المصدر السابق ، ص ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ابن الأثير ، روضة الأعيان ونزهة السمار في حوادث اليمن الكبار ، تحقيق محمد علي الأكوع ، اللجنة العامة لدراسة التسمية للكتاب ، صنعاء ، ١٩٩٥م ، ص ١٥٢ .

(٣) جبل منيع من مديرية بني مطر بمحافظة صنعاء ، يحاذي جبل كوكبان الشهير من جهة الجنوب ، ويضم مجموعة من القرى تحيطها المدرجات الزراعية الخضراء ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ١ ص ١٢٢ ، ج ٣ ص ٥٩٩ ، المنحفي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ٢ ، ص ١٠٥٥ .

(٤) تناولت المصادر والمراجع الأثرية أحجار هذا الإمام ، ريلزة ، أئمة اليمن ، ص ٣٢٦ وما بعده ، اتحاد المهتكمين ، ص ٧١ ، خلاصة المنون ، ج ٢ ص ١٠٦ وما بعدها ، الزحيف ، مآثر الأئمة ، ج ٣ ص ١١٢١ وما بعدها ، شرفي ، الثلاث المضيئة ، ص ٥١١ وما بعدها ، يحيى بن الحسين ، غاية الأمل ، ص ٥٧٣ وما بعدها .

المنصور الناصر بن محمد منها ، فأقام الخطبة على منابرهما ، وحرض الناس للخروج معه للقضاء على معارضيهِ المشار إليهما .

كان الطرف الآخر في الحروب الأولى التي خاضها الإمام المهدي صلاح بن علي ، وكان النصر حليفه فيها بسبب مساندة قاسم سنقر له ، وقد جرد نفسه سنة (٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) نفسها للخروج - وبصحبه قاسم سنقر - لمواجهة الإمام المنصور الناصر بن محمد لكنه - كما سبقت الإشارة - تعلب عليهما ، وفكك بقاسم سنقر وأسر الإمام المتوكل المطهر بن محمد ، وزعمت بعض المصادر^(١) أنه ما كان قاصداً إلا السلطان الرسولي وليس الإمام المنصور الناصر .

تنقل الإمام المتوكل من منطقة إلى أخرى بعد خروجه من الأسر يبحث عن المالوي والمعين للناصر ، فمر بالأفجر^(٢) ، ومنها إلى السود^(٣) وغيرها ، ولما

(١) الرحيب، مآثر الأبرار ، ج ٣ ص ١١٢٢ ، لشرفي، الأثر المضيلة ، ص ٥١٢ .

(٢) واحدة من أحصى مناطق القيس وأكثرها غيولاً ، وتعتبر رأساً لوادي سرند الذي يصب في سهل تهامة ، تقع تحت جبل كوكبان إلى الجنوب منه ، وتبعد عن صنعاء غرباً بمسافة ٤٥ كيلو متراً في وسط وادٍ تحيطه للجبال من جميع الجهات وتتناثر القرى على جوانبه ، الحجري، مجموع بلدان السهول وقبائلها، ج ١ ص ٩٢ ، المقحفى، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج ١ ص ١١١ .

(٣) مديرية من أعمال محافظة عمران إلى الشمال الغربي من صنعاء ، والسود اسم لمركز هذه المديرية ، وتقع على ذروة جبل عالٍ بطل على عدد من الوديان مشهور بمرعاة البنّ ببلاد حاشد ، الحجري، المعصر السابق ، ج ٣ ص ٤٣٤ ، المقحفى، المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٢٨ .

مات صاحب كوكبان^(١) لتتولى الإمام المتوكل على الله^(٢) ، وملك من بعده حصوناً كثيرة في مغارب اليمن^(٣) والشرف وغيرهما ، واتخذ من كوكبان مركزاً لحكمه .

وقد جرت كثير من الحروب والمناوشات بين الإمام المنصور الناصر بن محمد وبين الإمام للمتوكل المطهر ، كانت في أغلبها سجالات ، والطاهريون يفنون هذا الصراع لأنهم رأوا في انتهائه خطراً محيقاً بدولتهم الناشئة^(٤) .

ويبدو أن مصلحة القضاء على العدو المشترك قد جمعت الأعداء ، ونقصد بذلك العلاقة التي نشأت بين الإمام للمتوكل المطهر بن محمد وبين الأمير الإسماعيلي علي بن الحسن الهمداني^(٥) من جهة وبين الأمير الهمداني نفسه والسلطين الطاهريين من جهة أخرى ، وكذلك بين الإمام المتوكل المطهر وبين السلطين الطاهريين من جهة ثالثة ، إذ كان الإمام المنصور الناصر بن محمد عدواً للجميع ، وتتجلى هذه

(١) اسم لجبل كبير وحصن ومقل تاريخي شهير ، يطل على مدينة شبام المنسوبة إليه من ناحية الشمال الشرقي ، وطلعي وادي الأفجر والنجم من ناحية الشمال الغربي ، وقد ورد ذكره عند الهمداني باسم جبل دُحار ، وهو مرتفع عن مستوى سطح البحر بنحو ثلاثة آلاف متر تقريباً ، ومساحته كبيرة ومبينة بمزارع الحبوب وصهاريج المياه التي تتجدد من مياه الأمطار ، وهو ما جعل الجبل والحصن ومن فيهما بصمداً في وجه كل حصار يضرب عليهما مدناً طويلة ، وهما معمران حتى يومنا هذا ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٤ ص ٦٦٨ - ٦٧٣ ، المتحفي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ٢ ص ١٢٦٩ ، الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٣١٢ .

(٢) زيارة ، أئمة اليمن ، خلاصة المتون ، ج ٢ ص ١١٢ ، الشرفي ، اللألي المضينة ، ص ٥١٥ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ص ٥٨٢ .

(٣) مصطلح المؤرخون اليمنيون على إطلاق تسمية " مغارب اليمن " على المناطق الواقعة إلى الغرب من العاصمة صنعاء ، انظر مثلاً الشرفي ، المصدر السابق ، ص ٥١٥ .

(٤) يعبر يحيى بن الحسين ، ص ذلك بقوله : " وكان يلو طاهر يحرصون الناصر بن محمد على حرب الإمام المطهر بن محمد ، ويحرصون المطهر على حرب الناصر " انظر ، غاية الأمان ، ص ٥٨٨ .

(٥) لم نجد ترجمة مفصلة لهذا الرجل بين المصادر المتوافرة لدي ، وخاصة في ظل التكتّم للرهب القسي تعرضه الإسماعيلية على أدبياتها عموماً بما فيها المصادر التاريخية ، إلا أن إشارات المصادر الراجعة مثلاً - يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ص ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ - تشير إليه كونه أميراً على إسماعيلية عدان لقريبة من صنعاء ، وأن منطقة تركزه هي قلعة طيبة على مشارب وادي ظهر المحدود بين مقلزعات صنعاء .

العلاقة من خلال الإشارة التي أوردتها بعض المصادر^(١) بأن السلطان الظاهر الطاهري قد كتب إلى الإمام المتوكل المطهر بن محمد والأمير علي بن الحسن الهمداني يحرضهما على حرب الإمام الناصر بن محمد وانتزاع أضع معاقله وحصوره لأنه اغتتم لتشغال السلطان الظاهر بالقضاء على التمردات التي ظهرت في الشحر من بلاد حضرموت ، إلا أن المتحالفين فشلا في تحقيق مأربهما .

وقد خلا الجو إلى حد كبير للإمام المتوكل المطهر بن محمد بعد وصول الإمام المنصور الناصر بن محمد مكبلاً إليه بالطريقة التي أشرنا إليها ، فكانت السيطرة على صنعاء أكبر غاياته ، وهو ما أحس به محمد بن الإمام المنصور الناصر وأراد أن يفوت الفرصة عليه فراسل السلطان الظاهر عامر الطاهري بإذلاً له صنعاء - بيعاً - بمبلغ خمسين ألف دينار ، فتمت الصفقة وتسلمها عماله^(٢) بالرغم من العلاقة التي أشرنا إليها آنفاً بين الإمام المطهر والطاهريين ، ولمتداداً لهذه العلاقة - أيضاً - أرسل الإمام المتوكل المطهر ابنه محمد من كوكبان في مطلع سنة (٨٧٠هـ / ١٤٦٥م) ليعين السلطان الظاهر عامر في حصاره لصنعاء - بعد أن كان قد استتردها محمد بن الناصر سنة (٨٦٩هـ / ١٤٦٥م)^(٣) .

لما قُتل السلطان الظاهر عامر بن طاهر حول صنعاء - كما سنبينه قريباً اضطربت كثير من المناطق على أخيه السلطان المجاهد علي ، وهو ما جعله في شغل كبير عن مواجهة مطامع القوى الزيدية في الشمال ، فأدرك الإمام المتوكل المطهر بن محمد حقيقة الوضع فجمع من أتباعه ما أمكنه جمعه وانتزع دمار من أيدي القوات للطاهرية ، واستقر فيها حتى وفاته سنة (٨٧٩هـ / ١٤٧٤م)^(٤) .

(١) يحيى بن الحسين، غابة الأمان، ص ٥٩١ ، ٥٩٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٩٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٩٧ ، ٥٩٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٠٣ ، زبارة ، خلاصة المتون ، ج ٣ ص ١٧ .

(٦) الإمام المؤيد بالله محمد بن الناصر بن محمد^(١) (... - ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ م) :

هو الإمام المؤيد بالله محمد ابن الإمام المنصور بالله الناصر ابن محمد ، وكان فتىً يلقباً عند وقوع أبيه في أسر الإمام المتوكل المطهر بن محمد ، موصوفاً بالنبل والوقار ورباطة الجأش والثبات في الملمات^(٢) ، ولم يكن له طمع في الرئاسة والإمامة ، فقد انصرف عن كل ما يدور في فلكها منذ باع صنعاء إلى الطاهريين ، يقول الزحيف^(٣) : " وأما صنعاء فخرأها عامر الكبير - يقصد السلطان الظاهر عامر بن طاهر - فلما ملكها وقف ابن الناصر من سائر من وقف بها من السادة أهل المدارس والمساجد ، وما يختلف إليه أمر ولا نهي أحد من الناس ، وتفرق عنه عبيده ، ودخلوا في المهن التي يحصل بها النفقة والكسوة ، ومنهم من بُعد عن صنعاء وأعمالها يطلب المعاش ... "

يصنق في علاقته بالسلطان الظاهر عامر بن طاهر مقولة العرب الشهيرة : " جئتُ على نفسها براقش " ، فنحن نراه يقوم باستعدائه - بعد سنتين ونصف من شرائه لصنعاء - عندما طلب من عامله عليها محمد البغداني أن يرسل إليه محمد بن الناصر بحجة الخوف منه أن يهدد سيطرته عليها ، فلما بلغ ابن الناصر ذلك قام بمراسلة عامل أبيه على حصن ذي مرمر وهو الأمير محمد بن عيسى شارب يستصرخه ، فتمكن الأخير من انتهاز فرصة غياب الأمير البغداني عن المدينة فاستعادها منه^(٤) ، وأعلن ابن الناصر لملمته .

كان سقوط صنعاء بمثابة الصدمة التي أحس بوقعها السلطان الظاهر الطاهري ؛ فقاد أكثر من حملة لاستعادتها ، ونجح الإمام المؤيد محمد بن الناصر في صدها كلها

(١) تناولت المصادر والمراجع الأتية أخبار هذا الإمام ، زيارة ، أئمة اليمن ، ص ٣٣٤ ، تحائف المهتدين ، ص ٧٢ ، خلاصة المتون ، ج ٢ ص ١٥ ، الرحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٣ ص ١٢٩٤ وما بعدها ، يحيى بن الحسين ، المصدر السابق ، ص ٥٩٣ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٩٣ .

(٣) مآثر الأبرار ، ج ٣ ص ١٢٩٥ ، ١٢٩٦ ، ابن الألف ، روضة الأخيار ونزهة السمر ، ص ١٦٠ .

(٤) زيارة ، أئمة اليمن ، ص ٣٣٦ ، خلاصة المتون ، ج ٢ ص ١٦ ، الرحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٣ ص ١٢٩٦ ، ١٢٩٧ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأمقي ، ص ٥٩٦ ، ٥٩٧ .

رغم معارضة الإمام المتوكل المطهر وابنه محمد للطاهريين^(١) ، بل لقد بلغ به النجاح أن تمكن من قتل السلطان الظاهر وتشتيت جنده في سنة (٨٧٠هـ / ١٤٦٦م)^(٢) موجهاً بذلك ضربة قوية هزت دعائم الدولة الطاهرية ، وتسببت في حدوث اضطرابات في نواح عدة بذل السلطان المجاهد علي بن طاهر الكثير من الجهد لمحاولة تجاوزها .

وبموت السلطان الظاهر الطاهري استقر الأمر للإمام المؤيد محمد بن الناصر في كثير من المناطق بشمال اليمن^(٣) ، وغض الطرف عن وجود بعض المعارضين لإمامته ، ممن سبقه في إشهارها - كالإمام المتوكل المطهر بن محمد - أو من أعظمها بعده - كالهادي عز الدين بن الحسن - ، كما تغافل عن تمكك بعضهم لما يمكنه وضع اليد عليه من المناطق ، إذ كان للإمام المتوكل المطهر بن محمد عدد منها مثل كوكبان ونمار وغيرهما حتى وفاته كما أسلفنا ، وكذلك للإمام الهادي عز الدين بن الحسن عدد غير قليل من مناطق صعدة وما يقع في جنوبها .

وحتى سنة (٩٠٧هـ / ١٥٠٢م) لم يكن الإمام المؤيد محمد بن الناصر طرفاً في أي حدث يذكر ، وكان الهدوء هو السمة العامة التي غلبت على معظم مناطق شمال اليمن الجبلية الزيدية ، ويعود السبب الكبير في ذلك إلى انشغال السلطان الظاهر الثاني علمر بن عبدالوهاب الطاهري بمواجهة منافسيه على العرش من أقاربه من جهة ، ومن جهة أخرى إلى تدنّب مواقف المرشحين لإمامة الزيدية أنفسهم ما بين الضعف أو التعقل والحكمة في الحفاظ على صفحة التناقص الداخلي مطوية إلى حين ، وإن كان هناك من الحوادث شيء يُشار إليه فهو الحصار الذي ضربه السلطان المذكور على صنعاء ففشل بالطريقة التي نكرت لثناء الحديث عن السلاطين الطاهريين ، وقد مات الإمام المؤيد في سنة (٩٠٨هـ / ١٥٠٢م) تاركاً صنعاء لأخيه أحمد بن الناصر .

(١) يحيى بن الحسين ، غلبه الأمانى ، ص ٥١٩ ، زيارة ، خلاصة المتون ، ج ٢ ص ١٦ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٣ ص ١٧ ، زيارة ، لقمة اليمن ، ص ٣٢٨ ، الرحيف ، مسائر الأبرار ، ج ٢ ص ١٢٩٧ ، ١٢٩٨ ، يحيى بن الحسين ، المصدر السابق ، ص ٦٠٩ .

(٣) الرحيف ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٢٩٨ ، يحيى بن الحسين ، المصدر السابق ، ص ٦٠٢ .

(٧) الإمام الهادي عز الدين بن الحسن^(١) (٨٤٥هـ / ١٤٤٢م - ٩٠٠هـ / ١٤٩٥م) :

هو الإمام الهادي عز الدين بن الحسن ، حفيد الإمام الهادي علي بن المؤيد المذكور سابقاً ، واحد من أجل أئمة الزيدية وأكبرهم شأناً ، وأكثرهم شهرةً ، وأغزرهم علماً ، جمع علم الزيدية وأهل السنة من خلال تتلمذه على ثلة من أكبر علماء الطائفتين باليمن ، ومصادر الزيدية تزخر بمدحه والثناء عليه^(٢) .

أعلن إمامته عقب وفاة الإمام المتوكل على الله المعظم بن محمد سنة (٨٧٩هـ / ١٤٧٤م) ، والتف حوله معظم الحاضرة والعامة من رجال الزيدية ، وكان لتسامح الإمام المؤيد محمد بن الناصر وبُله دورٌ كبيرٌ في إنجاح دعوته ، فقد بلغ به الأمر أن غض الطرف عن كل من غادر صنعاء^(٣) متوجهاً إليه في حررة قللة^(٤) وهو يعلم علم اليقين أنهم متجهون إلى من سيقوم بمعارضة إمامته ، وكأن لسان حاله يقول : " طيبق من يرى في جديراً بالولاء والطاعة " .

وقد تنقل الإمام الهادي عز الدين في كثير من المناطق عدتها المصادر^(٥) ، وكانت أغلب الموجهات العسكرية التي قادها موجهة ضد الأشراف الحمزيين في مدينة صنعاء وبلاد الظاهر حول حوث ، وكان من أبرز قوادهم الأمير محمد بن الحسين الحمزي - الشهير بالبهل - الذي استعان به الإمام المؤيد أثناء حصار السلطان الظاهر الثاني علمر الطاهري لصنعاء كما سبق .

وقد حصر الإمام الهادي عز الدين بن الحسن تحركاته في مناطق نفوذه حتى وفاته في مسقط رأسه سنة (٩٠٠هـ / ١٤٩٥م) .

(١) تناولت المصادر والمراجع الأئمة أخبار هذا الإمام ، زبارة ، أئمة اليمن ، ص ٢٤٤ ، اتحاد المهتدين ، ص ٧٣ ، خلاصة المنون ، ج ٣ ص ٢٥ ، ٢٦ ، الزحيف ، متأثر الأبرار ، ج ٣ ص ١٢٠٦ وما بعدها ، يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ص ٦٠٦ وما بعدها .

(٢) انظر مصادر ترجمته السابقة بالإضافة إلى تشوكانى ، فهدى الطالع ، ص ٤٢٠ ، ٤٢١ ، الكبسى ، اللطائف السنوية ، ص ١١٦ ، الوجيه ، أعلام المزمّلين للزيدية ، ص ٦٤١ .

(٣) الزحيف ، متأثر الأبرار ، ج ٣ ص ١٢١٥ .

(٤) سيأتي الحديث عنها في فصل لمكان التعليم ومراكزه .

(٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ص ٦٠٦ ، ٦٠٨ .

مستهل قرن جديد يشهد وجود ثلاثة أئمة زيدية متعارضين :

أطل القرن العاشر الميلادي وفي الساحة الزيدية - المذهبية والجغرافية - ثلاثة أئمة متعارضون ، إلا أن تعارضهم اتخذ صورة السلم وتجنب للصدام ، وهم : الإمام المؤيد محمد بن الناصر في صنعاء وما حولها ، والإمام الناصر الحسن بن الإمام الهادي عز الدين بن الحسن في أقصى شمال اليمن وله نفوذ وطاعة فيما سواها ، والإمام المنصور محمد بن علي الوائلي السراجي في قرية للقابل ، وقد سبق الحديث عن أولهم ، فمن البقية ؟.

(٨) الإمام الناصر الحسن بن عز الدين^(١) (٨٦٢هـ - ٩٢٩هـ / ١٤٥٦م - ١٥٢٣م) :

نسبه غير خاف ، فقد تناولنا أباه وجده ، أعلن دعوته وإمامته فور وفاة أبيه ، وبعث رسائله إلى كثير من الجهات ، وقيل أمير صعدة محمد بن الحسين الحمزي للبهل إمامته ، وأقام الدعوة له على منابرهما بالرغم من أنه كان معارضاً لأبيه^(٢) ، ورفض إمامته عدد من كبار أهل بيته مثل عمه صلاح بن الحسن وابنه علي بن صلاح^(٣) ، وقد وقعت المناظرة بينه وبين معارضه الإمام المنصور بالله محمد بن علي الوائلي السراجي في للسودة حول مسوغات الخروج والتعارض ، ولم يسلم أحد منهما لصاحبه^(٤) ، ولم يذكر في عهد الإمام الناصر بعد ذلك ما يشتهر سوى تحالفه مع الشريف محمد بن عبدالله الشويح - أحد أشراف المنطقة الشمالية الشرقية لليمن - ضد الإمام المتوكل شرف الدين منة (٩٢٤هـ / ١٥١٨م)^(٥) .

(١) تناولت المصادر والمراجع الأتية أخبار هذا الإمام ، زيارة ، أئمة اليمن ، ص ٣٥٧ ، تعاقب المهتدين ، ص ٧٣ ، خلاصة المتون ، ج ٢ ص ٤٢ ، الكبي ، الطائف السننية ، ص ١١٧ ، المؤيدي ، نيل البسملة ، (ملحق بكتاب مآثر الأبرار) تحقيق عبدالسلام الوجيه وآخر ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، عمان ، ط ١ ، ٢٠٠٢م ، ص ١٣٧ وما بعدها ، يحيى بن الحسين ، غاية الأماني ، ص ٦٢١ وما بعدها .

(٢) زيارة ، أئمة اليمن ، ص ٣٥٧ ، يحيى بن الحسين ، المصدر السابق ، ص ٦٢١ .

(٣) المؤيدي ، نيل البسملة ، ص ١٣٧٥ .

(٤) يحيى بن الحسين ، غاية الأماني ، ص ٦٢٥ .

(٥) زيارة ، أئمة اليمن ، ص ٣٩٢ ، يحيى بن الحسين ، المصدر السابق ، ص ٦٥٨ .

(٩) الإمام المنصور محمد بن علي الوشلي السراجي^(١) (٨٤٥هـ - ٩١٠هـ / ١٤٤٢م - ١٥٠٤م) :

هو الإمام المنصور بالله محمد بن علي بن محمد بن أحمد الوشلي السراجي ، ذكرنا سابقاً طرفاً من نشاطه التحريضي ضد الدولة الطاهرية في نمار وغيرها ، وكان ذلك كله قبل إعلان دعوته ، فهو لم يسم نفسه إماماً إلا في سنة (٩٠٠هـ / ١٤٩٥م) ، والتف حوله عدد لا بأس به من رجال الزيدية وعلمائها ، كان في مقمتهم صلاح بن الحسن وابنه علي بن صلاح ، أي : عم الإمام السابق وابن عمه^(٢) .

ويبدو أن الإمام للمنصور محمد الوشلي كان قد عزم على تكريس معظم جهوده في مواجهة الطاهريين ، لذلك أغار سنة (٩٠٤هـ / ١٤٩٨م) على البلاد الحاضنة للسيطرة الطاهرية لكنه هُزم فعاد أدراجة^(٣) إلى سبلا^(٤) ، ثم أعان الإمام المؤيد محمد بن الناصر في صد هجوم السلطان الظاهر الثاني على طاهر الطاهري على صنعاء سنة (٩٠٧هـ / ١٥٠٢م) ، فما كان من الإمام المؤيد إلا أن خطب له على منابر صنعاء^(٥) ، كما كان في طلبه المتصددين للهجوم الكبير الذي قلده السلطان الطاهري المذكور على صنعاء سنة (٩١٠هـ / ١٥٠٤م) ، ومعه الأمير محمد بن الحسين

(١) تناولت المصادر والمراجع الأتية أخبار هذا الإمام ، زيارة ، أئمة اليمن ، ص ٣٥٨ وما بعده ، تحالف المهتدين ، ص ٧٤ ، خلاصة المتون ، ج ٣ ص ٤٣ ، ٤٤ ، الرحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٣ ص ١٢٦٩ وما بعدهما ، الكسي ، للطوائف السنية ، ص ١١٨ ، يحيى بن الحسين ، المصدر السابق ، ص ٦٢٢ وما بعده .

(٢) زيارة ، المرجع السابق ، ص ٣٥٧ ، الكسي ، المصدر السابق ، ص ١١٧ ، ١١٨ .

(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأمل ، ص ٦٢٤ ، ٦٢٥ .

(٤) سبلا ، بكسر الهمزة وفتح اللام ، ويبدو أنها كانت تقطع بصم لثاء ، مدينة كبيرة معروفة على قلعة حصينة بالشمال العربي من مدينة صنعاء ، تبعد عنها بمسافة ٤٥ كيلومتراً ، تعرف بطيب هوائها وماءها وتربتها ، وبها مسجد عامرة بالعلماء والفصلاء ، كانت إحدى مراكز الإشعاع العلمي والفكري في فترات مختلفة من تاريخ اليمن ، ويحتضنها من جهة الغرب حصنها الشاهق الذي يبعد ارتفاعه ٣٠٠٠ متر عن مستوى سطح البحر ، وثلاً اليوم أحد مديريات محافظة صمرن ، زيارة ، نضر العرف ، ج ١ ص ١٥٩ ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ١ ص ١٦٦ - ١٦٨ ، المعقبي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ، ص ٢٥٨ ، ٢٦٠ .

(٥) د. محمد عبدالعال أحمد ، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٣٢٤ ، الرحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٣ ص ١٢٧٦ .

الحمزي البهال ، إلا أن الدائرة كانت عليه ، فأسر ، وكان وقع خبر هزيمته وأسرره محبباً لجموع الزيدية ، فانهارت قواهم ، وتمكن السلطان الظاهر الثاني من المدينة ، وأخذ في بسط سيطرته على أغلب مناطق الشمال وحصونه وقلاعته^(١) .

لم يلبث الإمام المنصور محمد الوشلي طويلاً في سجن السلطان الظاهر الثاني ، إذ أعلن عن وفاته فجأة في السنة نفسها التي أُرِسَ فيها ، وهو ما فسرتَه المصادر الزيدية بأنه مات مسموماً ، وقد تتبع الطاهريون معظم وجوه أهل البيت خوفاً من قيامهم بحركات معارضة وتمرّد ، ووضعتْ أعداداً كبيرة منهم تحت الإقامة الجبرية في مدينة تعز ، حتى مات معظمهم هناك ، هو ما عبر عنه مؤرخهم^(٢) بقوله : " ثم إن السلطان علماً أمر بأحمد بن الناصر وعبدالله بن الإمام المطهر وشارب ونويه إلى تعز بأهلهم وأولادهم ، وقاسوا معه ما قاسى آل الحسين في كربلاء ، وتجرعوا من فعالة كرباً وبلاء ... ولم يبرح عامر بن عبد الوهاب يقتل الأشراف للكرام ، ويوردهم موارد الحمام ، والله من ورائه محيط ... " .

(١٠) الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين^(٣) (٨٧٧هـ - ٩٦٥هـ / ١٤٧٢ / ١٥٥٧م) :

هو الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين^(٤) بن شمس الدين بن أحمد بن يحيى بن المرتضى ، حفيد الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى الذي كان معارضاً للإمام المنصور علي بن صلاح في أواخر القرن الثامن الهجري ، وسبط الإمام

(١) د. محمد عبدالمعالي أحمد ، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٣٢٤ ، رابرة ، أمة اليمن ، ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأملاني ، ص ٦٣٣ ، ٦٣٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٣٤ ، ومثله عند ابن داعر ، سيرة الإمام يحيى شرف الدين ، مخطوط ، صورة عن نسخة خطية بمكتبة زيد الحوثي ، صنعاء ، ق ١ ب ، ق ١٧ .

(٣) تناولت المصادر والمراجع الأتية أخبار هذا الإمام ، ابن داعر ، المصدر السابق ، ق ٤ وما بعدها ، زيارة ، أمة اليمن ، ص ٣٦٩ وما بعدها ، تحالف المهتدين ، ص ٧٤ ، خلاصة المتون ، ج ٣ ص ٥٥ وما بعدها ، شرف الدين ، المواهب السنية بما من به الله تعالى من الفواكه الجنية من اغصان الشجرة المتوكلية ، مخطوط ، صورة عن نسخة إبراهيم عبدالكريم شرف الدين ، كوكبان ، ص ١٦ وما بعدها ، شرف الدين ، المتوكك الذهبية في خلاصة السيرة المتوكلية ، (د ، ت ، ن) ، ص ١ وما بعدها ، المؤيدي ، نيل القيسية ، ص ١٣٩٠ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأملاني ، ص ٦٣٥ وما بعدها .

(٤) حمل الأسمين معاً : يحيى وشرف الدين ، أي أن شرف الدين ليس لقباً له ، وقد اشتهر باسمه شرف الدين أكثر من شهرته باسم يحيى ، فنظر مصادر سيرة .

المتوكل على الله المطهر بن محمد بن سليمان الحمزي ، أعلن المتوكل بحبي إمامته للزيدية في ظرف من أحلك ظروفها ، فقد تمكن السلطان الظافر الثاني عامر الطاهري من قهر قواتها وتشتيتها ، واسترع منها أعز حصونها وقلاعها وأمنعها ، وفرق كثيراً من رجالها ما بين مقتول أو أسير أو هائم في البلاد ، ولم يبق من مُعلني الإمامة سوى الإمام الناصر الحسن بن عز الدين الذي كان على ما يشبه الانطواء في أقصى شمال اليمن ، ولم يكن بيده من مفاتيح تحريك الأمور ما يجعله يخطو الخطوة الأولى لإقالة العثرة الزيدية أو تحريك ما ركز من ماتها .

أعلن الإمام المتوكل شرف الدين إمامته سنة (٩١٢ هـ / ١٥٠٦ م) ، وبعث رساله يطلب البيعة من خلاصة الزيدية وعامتها^(١) من حصن الظفير^(٢) ، ولم تكن الاستجابة له كبيرة في بداية أمره نظراً للسطوة التي كانت للدولة الطاهرية وشذتها في التعامل مع العناصر الزيدية والمتعاونة معها كما أشرنا ، إضافة إلى أنه لم يكن قد عُرف لديهم كشخصية يعلق عليها الآمال في إحداث الفرق في الوصح القائم يومئذ .

كانت السنوات التالية لإعلان إمامة الإمام المتوكل شرف الدين تشهد تنامي امتداد اليد الطاهرية إلى ما لم تكن قد وصلت من المناطق الزيدية في شمال صنعاء وغربها مثل ثلا وكوكبان سنة (٩١٧ هـ / ١٥١١ م) وحصنين آخرين بجوارهما ، وفي سنة (٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م) أرسل السلطان الظافر الثاني عامر نائباً عنه إلى صعدة مشفوعاً بحامية صغيرة غير أنه قُتل في بلوغ مرامه ، ثم وضع يده على مناطق أخرى إضافية لتبلغ الدولة الطاهرية عندئذ أقصى امتداد لها على الأرض اليمنية .

كانت الأساطيل البرتغالية في هذه الأثناء قد رفعت من وتيرة نشاطها العدواني على السفن التجارية العربية في المحيط الهندي بما لا يسمع القوى المتضررة للمكوت عليه ، وكانت مصر المملوكية هي المتضرر الأكبر - كما سنبينه لاحقاً - لذلك أرسلت

(١) ريادة ، أئمة اليمن ، ص ٣٧٢ ، خلاصة المتن ، ج ٣ ص ٥٨ ، شرف الدين ، للمواهب السنية ، ص ١٧ ، شرف الدين ، للملوك الذهبية ، ص ١٩ ، ٢١ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأمل ، ص ٩٣٥ .

(٢) أحد أشهر معارك العلم والحصون الشهيرة في تاريخ اليمن ، به كهوف حديدة وصيقة ، يقع في قمة جبل إلى الشمال من مدينة حجة ، ويبعد عنها بمسافة ١٥ كيلومتراً تقريباً ، وتنتشر على جوانبه الكثير من المدرجات الزراعية ، وهو اليوم مركز إدري من مديرية مَين بمحافظة حجة ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وحقولها ، ج ٣ ص ٥٦٧ ، المقضي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٩٧٥ ، ٩٧٦ .

حملتان بحريتان لمواجهة البرتغاليين، انطلقت الحملة الثانية منهما سنة (٩٢١هـ / ١٥١٥م) ورسيت في جزيرة كمران ، وقد رأى الإمام المتوكل شرف الدين في وجود هذه القوة فرصة لكسب موقفها وتوظيفه في دعم جهوده في مواجهة الطاهريين ، لذلك قام بمراسلة أمير الحملة - حسين الكردي - شكياً السلطان الظافر الثاني إليه ، معدداً مظاهر اضطهاده لأهل البيت النبوي ومسئولي حكمه ، ومطالباً بإياه بالنصرة^(١) ، وكان الأمير الكردي في حاجة إلى استجلاء موقف السلطان الظافر الثاني من حملته ، فلما بلغه موقفه المتخاذل منها ، واستعداده لمواجهتها ، رد على الإمام المتوكل شرف الدين بما يؤكد له دعمه .

ولما وقع الصراع بين الحملة المملوكية وبين الدولة الطاهرية سنة (٩٢٢هـ / ١٥١٦م) ، وتحقق الهزيمة الكبيرة للطاهريين في السنة التالية ، ومقتل السلطان الطاهري في هذا الصراع ، وسيطرة للمماليك على كثير من المناطق اليمنية بما فيها صنعاء^(٢) ، كان موقف الإمام المتوكل شرف الدين سلبياً من الطرفين ، وذلك في انتظار ما سيسفر عنه الصراع الدائر ، ولكنه أحس بأن المماليك عازمون على مواصلة التوسع في اليمن ، وهو ما دعاه إلى رفض هذه التوجه والقيام بأولى خطوات الصدام بدخوله حصن ثلا في السنة ذاتها (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) ، فضرب عليه المماليك حصارهم الذي رفعوه بمجرد وصول خبر سقوط دولتهم على أيدي الجيوش العثمانية^(٣).

بدأت القبضة المملوكية على المناطق اليمنية المختلفة تضعف ، وتفرقت كلمتهم، وتوجه الإمام المتوكل شرف الدين لانتزاع صنعاء من أيديهم بعد أن استدعاه أهلها في السنة نفسها (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) ، واستطاع أن يخرجهم منها^(٤) ، ليكون بذلك قد

(١) شرف الدين ، المواهب السنية ، ص ٢٦ - ٢٨ ، شرف الدين ، السلوك الذهبية ، ص ٢٥ - ٢٩ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأمل ، ص ٦٤٢ ، عبدالمطيم خطاب ، قاتصوه الغوري وبهاية الدولة المملوكية ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٣م ، ص ٢٠٩ .

(٢) مسبب ذلك بشكل أكثر تفصيلاً في الحديث عن دخول القوات المملوكية إلى اليمن .

(٣) زبارة ، خلاصة المتن ، ج ٣ ص ٧٦ ، شرف الدين ، المواهب السنية ، ص ٣١ ، أمة اليمن ، ص ٣٨٨ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، زبارة ، خلاصة المتن ، ج ٣ ص ٧٨ ، شرف الدين ، المصدر السابق ، ص ٣١ ، ٣٣ ، شرف الدين ، السلوك الذهبية ، ص ٣٩ .

بدأ المرحلة الرئيسية من إقامته ، إذ أصبحت قوته هي أكبر القوى اليمنية تأثيراً في الصحابة ، وبدأ في مواجهة بقايا مجموعات المماليك ، والأمراء الطاهريين الذين كانوا يملكون عدداً من المدن والمناطق منذ أيام السلطان الظاهر الثاني عامر بن عبدالوهاب ، إضافة إلى بعض القوى الزيدية والإسماعيلية التي أظهرت مخالفتها في المناطق الشمالية لليمن ، وكان نزاعه الأبرز في معظم أحداث هذه المدة هو ابنه المطهر بن شرف الدين.

تمكن المطهر بن شرف الدين - مستخدماً سياسة العنف والقوة - من انتزاع عدد كبير من المناطق في المدة ما بين (٩٣٤هـ / ١٥٢٧م) حتى (٩٤٢هـ / ١٥٣٥م) ، فدخل للمقرنة عاصمة الطاهريين ، وحمل منها الكثير من ذخائر السلطان الطاهري المقتول ، وواصل تقدمه حتى رتبته أسوار مدينة عدن ، كما دخل سنة (٩٤٣هـ / ١٥٣٦م) في صراع مع المجموعات المملوكية المتبقية في زبيد وما حولها من مناطق تهامة^(١) ، إلا أنه فشل في محاولة الاستيلاء عليها - فأصبحت عدن وزبيد وعدد قليل من المناطق اليمنية الأخرى في وسط وجنوب اليمن بمثابة الجزر في وسط مناطق نفوذ الإمام المتوكل شرف الدين .

كان على الإمام المتوكل شرف الدين أن يواجه القوى المنافسة له في السيطرة على مناطق الشمال ، وهي مناطق يدور الصراع التقليدي فيها بين المتعارضين من الأئمة الزيدية بعضهم بعضاً ، أو بين أحدهم والقوى الإسماعيلية الموجودة هناك في أماكن محصورة في بعض منازل همدان قريباً من صنعاء ، إضافة إلى بعض الأنشطة العسكرية المرتجلة لبعض القبائل المتناثرة في تلك المناطق .

كانت القوى الزيدية المنافسة للإمام المتوكل شرف الدين ممثلة في الأمير محمد بن عبدالله الشويح الحمزي المعاضد لبقايا المماليك الذي خرجوا من صنعاء يوم دخلها الإمام شرف الدين ، والإمام الناصر الحسن بن عز الدين السابق ذكره ، وقد دخل في

(١) ربيعة ، أئمة اليمن ، ص ٣٩٣ ، ٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، خلاصة المنسوخ ، ج ٣ ص ٨٢ ، ٩٧ ، ١٠١ ، شرف الدين ، المواهب السنية ، ص ٣١ ، ٣٣ ، شرف الدين ، روح القروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، تحقيق إبراهيم المقضي ، مركز عبادي لدراسات والنشر ، صنعاء ، ٢٠٠٣م ، ط ١ ، ص ٥٩ ، ٧٨ ، ٨١ ، ١٠٤ ، شرف الدين ، السنوك الذهبية ، ص ٨٧ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٣٣ ، ١٣٦ .

صراع معهم ، كانت كفته الراجحة دائماً فيه^(١) ، كما واجه الإسماعيلية في همدان^(٢) ، واستطاع أن يفتح المنقَب^(٣) وقلعة طَبَّيَّة^(٤) ، كما كان لابنه المطهر وقعات مع قبائل خولان سنة (٩٣٤ هـ / ١٥٢٨ م) ، بلغت شدته وقسوته معهم أن مثل بقتلاهم بتقطيع لوصالهم^(٥) .

لم تصفُ الأيام للإمام المتوكل شرف الدين بعد ظهور القوات العثمانية على مسرح الأحداث في اليمن سنة (٩٤٥ هـ / ١٥٣٨ م) ، فقد وضعت حداً لتفرده بامتلاك القوة الأبرز في الساحة ، فتكمش وجوده ، وتحتسرت سيطرته بأنكفائه نحو مناطق الحصون والقلاع التي كانت منطلقه الأول ، وتفصيل ذلك يتجاوز الحدود الزمنية لدراستنا هذه .

(١) شرف الدين ، المواهب السنية ، ص ٣٤ ، ٣٦ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأمل ، ص ٦٥٨ ، ٦٦٣ .

(٢) زهارة ، أئمة اليمن ، ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، شرف الدين ، المصدر السابق ، ص ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥ ، شرف الدين ، السلوك الذهبية ، ص ٧١ ، ٧٥ - ٧٨ ، شرف الدين ، روح السروح ، ص ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ .

(٣) المنقَب ، بلدة تقع على جانب جبر أسود أصم ذي ثوب كثيرة ، من أهم معقل الباطنية الإسماعيلية في منازل قبيلة همدان ، يقع في منتصف الطريق بين صنعاء وشبام كوكبان وثلاث في الغرب منه ١٦٦١ ، المعطي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ٢ ص ١٦٦١ .

(٤) طَبَّيَّة ، منطقة حمينة على الجبل الذي تقع على سفوحه قرية القابل ووادي ظهر من متزهات مدينة صنعاء ، ويرتفع عليهما بنحو ألف متر ، كان اسمها قلعة الحجاز وأسماء الإمام شرف الدين بهذا الاسم في القرن العاشر ، وهي أشهر معقل الباطنية الإسماعيلية بهمدان إطلاقاً ، ولها ذكر واسع في تاريخ اليمن لحصانتها ، وقد حمت مراراً وأعيد بنائها ، الحجري ، بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٣ ص ٥٦٠ ، شرف الدين ، المواهب السنية ، ص ٤٥ ، المقضي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٩٦٨ .

(٥) زهارة ، أئمة اليمن ، ص ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأمل ، ص ٦٧١ .

ثانياً : القوى الخارجية وأثرها على الأوضاع اليمنية

(١) النشاط البرتغالي في المحيط الهندي وأنشطته العدائية في المياه اليمنية:

كان بلوغ البرتغاليين رأس الرجاء واتخاذهم طريقاً إلى مصادر التوابل في شبه القارة الهندية بمثابة البركان الهائل الذي قلب مجمل موازين القوى السياسية في المنطقة المطلة على المحيط ، كما وجه صربة قوية إلى كل من كان يمثل ذلك المحيط شريان اقتصادياتها الرئيس^(١) .

ولسنا هنا بصدد تناول دوافع البرتغاليين إلى رفع وتيرة عدوانهم على كل القوى الاقتصادية والسياسية القائمة في المنطقة المذكورة ، وما يهمننا هو التركيز على مجريات أحداث ظهورهم ، لما له من تأثير - بصورة أو بأخرى - على الأوضاع في اليمن ، ولأن ذلك انعكس على الحياة العلمية تحديداً بأشكال مختلفة .

ولأن الأنشطة العدوانية البرتغالية التي واجهتها السواحل اليمنية لم تكن إلا ضمن منظومة أنشطتهم العامة التي بواسطتها امتلكوا رمل المبادرة في المحيط الهندي والبحار المفتوحة عليه فقد توجب علينا الحديث - بصورة بعيدة عن الإسهاب - عن أهم مجريات الأحداث التي قاموا بها في المنطقة .

كانت حملة فلنكو داجاما V.Dagama المنطلقة عام ١٤٩٧م هي أول المحاولات البرتغالية التي نجحت في الوصول إلى المحيط الهندي - عبر رأس الرجاء الصالح - إلا أنها فشلت في الانتهاء إلى الوجهة التي توصلها إلى السواحل الهندية ، لذلك كان مخطط تحريكها محصوراً في السير بمحاذاة الساحل الشرقي لقارة أفريقيا والرسو - ما أمكن - في الموانئ التجارية المزدهرة هناك ، وقد حصل هذا المستكشف على دليل عربي مسلم ماهر بالملاحة ، عارف بطريق الهند أيما معرفة ، يقال أنه

(١) حسان الرمال ، صراع المسلمين مع البرتغاليين في قعر الأحمر ، ١٩٨٥م ، ص ١٠٤ ، ١١٠ ، سيد رغول عجربة ، البرتغاليون والبحر الأحمر ، ضمن أبحاث ندوة البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية للمعاصرة ، من أبحاث الأسبوع العلمي الثالث (١٩٧٩م) ، جامعة عين شمس ، ١٩٨٠م ، القاهرة ، ص ٢٠٨ ، ٢١٣ ، عبد الرحيم عبد الرحمن ، النشاط التجاري في البحر الأحمر في العصر العثماني ، ضمن أبحاث ندوة البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية للمعاصرة ، من أبحاث الأسبوع العلمي الثالث (١٩٧٩م) ، جامعة عين شمس ، ١٩٨٠م ، القاهرة ، ص ٢٤٤ .

الملاح الشهير أحمد بن ماجد ، وقيل بل كان رجلاً من مسلمي الهند يُدعى (ماليمو كانا الكجراتي) ^(١) ، وأياً ما كان الأمر فقد رست سفن السلكو داجاما V.Dagama في أهم موانئ الهند يومذاك وهو ميناء كاليكوت ^(٢) في منتصف عام ١٤٩٨م ، وقابل حاكمها - الساموري - ومع أنه فشل في عقد أي اتفاق معه إلا أنه عاد إلى البرتغال محملاً بالكثير من المعلومات المشجعة وكميات كبيرة من المنتجات الهندية الثمينة ^(٣) .

أغرت نتائج هذه الرحلة البرتغاليين ، فلم تعد رغبتهم محصورة في كشف الطريق البحري إلى الهند وتحقيق عدد من المكاسب الاقتصادية ، بل أصبح طموحهم شاملاً لاحتكار تجارة الشرق عموماً ، والسيطرة على مصادرها الأصلية ، وإقامة المراكز العسكرية على طول سواحل المحيط الهندي ، أي : إقامة أول حكومة

(٢) والحالف في شخصية هذا الملاح كبير ، فنظر بشير كاظم ، حركة الكشف البرتغالية وأهدافها ، ضمن أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية ، مركز الدراسات والوثائق ، رأس الخيمة ، ١٩٨٧م ، ص ١٢٥ ، حس شهاب ، لضيء على تاريخ اليمن البحري ، دار لغارابي ، بيروت ، لجنة نشر للكتاب اليمني ، عدن ، ١٩٧٧م ، ص ١٤٤ ، ابن ماجد والملاحة في المحيط الهندي ، سلسلة الملاحة العربية الفلكية ، رقم ٨ ، مركز الدراسات والوثائق في الديوان الأميري برأس الخيمة ، (د ، ت) ، ص ٤٣ - ٤١ ، صبري الهيبي ، الشيخ شهاب الدين أحمد بن ماجد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط ١ ، ١٩٨٩م ، ص ١٧ ، محمد السليمن ، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة من ١٥٠٧ - ١٥٢٥م ، مركز زايد للتراث والتاريخ ، العين ، ٢٠٠٤م ، ص ٤٢ - ٤٤ ، محمد ياسين الحموي ، الملاح العربي أحمد بن ماجد ، مكتب النشر العربي ، دمشق ، ١٩٤٧م ، ص ٧ وما بعدها ، الفهرولي ، البرق اليمني في الفتح العثماني ، منشورات المنية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٦م ، ص ١٨ - ١٩ ، وقد أكد د. شوقي عبدالقوي عثمان بأ الهود لم يخوضوا غمر الملاحة البحرية ، ولم ترد لسماء بحارين أو ملاحين هود في الروايات التاريخية والجغرافية ، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة رقم ١٥١ ، يوليو ، ١٩٩٠م ، ص ٦٥ ، وهذا ينقض الرأي لقاتل بأن البحر المقصود هنا لم يكن عربياً .

(٢) تسميه بعض المصادر (قاليقوط) ، يقع في الساحل الغربي للهند المسمى ملبار (أو مالابار) ، كانت قلب للتجارة البحرية الآسيوية صعباً كانت تجري مقايضة بضائع الشرق الأقصى وجنوب شرقي آسيا ببعضها أفريقيا وأوروبا والشرق الأدنى والأوسط ، كما كانت تمثل المركز الرئيسي لتجارة التوابل ، انظر أحمد شيبان ، الوجود المملوكي في اليمن ، در الثقافة العربية ، الشارقة ، جامعة عدن ، ط ١ ، ص ٦٥ .

(٣) سيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص ٦٥ ، ٦٦ ، محمد السلطان ، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج ، ص ٤٧ - ٥٠ .

استعمارية أوروبية في الشرق ، مستندين في ذلك إلى تفوقهم العربي على كل القوى الاقتصادية والسياسية القائمة في المنطقة^(١) .

توالت الانتصارات البرتغالية في المنطقة ، على الأصعدة الاقتصادية والعسكرية، وذلك بعد أن قاموا بحملة قرصنة كبيرة ، شملت معظم طرق التجارة البحرية النشطة من المحيط الهندي ، فأغرقوا كل سفينة عربية تصادفهم - بعد نهب محتوياتها طبعاً - وبسطوا نفوذهم على أهم الموانئ التجارية بالهند بالقسوة والعنف والتمييز^(٢) ، فقد لوكل فاسكو دالحما V.Dagama سنة (٩٠٨هـ / ١٥٠٣م) إلى فسنت سوبري Vicente Sodre وهو أحد ضباط حملته الثانية - التي قادها نحو الهند قبل ذلك بعام - مهمة تعقب السفن العربية في المحيط الهندي ، فأدى ذلك إلى نزوب التوابل في الأسواق المصرية والشامية واليمانية ، وبالتالي فقدان هذه المناطق لقدر كبير من عائداتها المعتادة^(٣) .

كان الوجود البرتغالي حتى عام (٩١٠هـ / ١٥٠٥م) يُدار من على ظهور سفن أساطيلهم ، إذ لم يكن لهم يوماً قلعةً حربيةً أو مركزاً ساحلياً ، فقرر ملكهم إمانويل الأول Emmanuel I تعيين أول نائب له في الهند ، في باخرةٍ حطت البرتغال أول قوةٍ أوروبيةٍ استعماريةٍ تشكل حكومةً لها في مناطق نفوذها خارج أراضيها الأصلية ، وهو المنوال الذي سارت عليه بقية القوى الاستعمارية اللاحقة فيما بعد ، وقد وقع اختيار الملك على القائد فرانسيسكو دي الميدا Francisco de Almeda ليكون أول نائب له ، وكانت مهمته الأولى تقتضي السعي لتأسيس القلاع والحصون الحربية التي ستحمي هذه السيطرة البرتغالية وترسخها ، كما أصدر أوامره

(١) سيد مصطفى سالم ، قلعج العثماني الأول لليمن ، ص ٦٦ ، محمد سلمان ، لغزو قيرنقالي الجنوب العربي والخليج ، ص ٥١ - ٥٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥١ - ٥٣ ، سيد مصطفى سالم ، المرجع السابق ، ص ٦٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧١ ، ٧٢ ، محمد سلمان ، المرجع السابق ، ص ٥٤ .

بإلزام كل السفن التي تجوب المحيط - وبغض النظر عن جنسيتها - بالحصول على تصاريح من حكومته مقابل مبالغ مالية حددها^(١).

لو عدنا إلى العدة التي جرت فيها هذه الأحداث فإننا سنجد السلطان الظاهر الثاني عامر ابن عبدالوهاب الظاهري شديد الانشغال بصراعه مع بعض القوى المحلية، وفي مقدمتها الأتمة الزيدية، فكان موقعه سلبياً جداً، ولعله لم يدرك مدى خطورة ظهور هذه القوة الجديدة في المحيط الهندي، أو لعله أدرك ذلك إلا أنه كان مدركاً لعجزه في مواجهتها بسبب عدم امتلاكه لأسطول بحري يمتلك الحد الأدنى من مقومات مواجهته للخصوم، وقد بدأ موقعه منها يتحول إلى الإيجاب عندما لفت انتباهه الانحدار السريع والمفاجئ لعائدات ميناء عدن، فقد حكى المؤرخ المعاصر ابن الديبع^(٢) أن حملة بحرية قد جرت سنة (٩١٢هـ / ١٥٠٧م) لمحاربة البرتغاليين - وقد سماهم الإفرنج - وقوامها أربعة عشر مركباً تحمل ستمائة رجل يدخل فيهم المتطوعون من العلماء وطلابهم، إلا أن الخبر انقطع، ولم يبين المؤرخ لنا المصير الذي آل إليه أمر هذه الحملة، كما لم نجد شاهداً آخر على أثرها في المصادر غير اليمينية.

وكان السلطان قانصوه العوري أكثر إيجابية في التعامل مع الخطر البرتغالي، بالرغم من أنه كان يعاني الكثير من الإشكالات الداخلية مع أمراء المماليك^(٣)، فقد استجاب لإحساسه بمدى جدية هذا الخطر، إضافة إلى تلقيه نداءات الاستغاثة من بعض حكام الهند المسلمين، ومن اليمن كذلك^(٤)، فجرد حملة إلى الهند سنة (٩١١هـ / ١٥٠٥م) لمواجهة البرتغاليين بقيادة الأمير حسين الكردي، ورسب الحملة في عدن

(١) الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج، ص ٥٦، يوسف بن علي التقي، مؤسفة المماليك ودول الخليج العربي من النفوذ البرتغالي، ضمن أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة، ١٩٨٧م، ص ١٤٨.

(٢) بغية المستفيد، ص ٣٠١.

(٣) ابن لياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى ريادة، القاهرة، ١٩٦١م، ج ٤، ص ٥٨.

(٤) محمد سلمان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج، ص ٦٨، د محمد عبدالعال أحمد، البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه، نصوص جديدة مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمني بامخرمة كما سجلها في مخطوط قلعة النحر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص ٨٩، النهر والي، البرق اليماني في الفتح العثماني، ص ١٩.

للتموين ، وكان موقف حاكمها مرجان الظافري مشرفاً من الحملة ، دافعاً إياها^(١) ، وواصلت الحملة طريقها إلى الهند حيث اشتبكت مع أسطول نائب الملك البرتغالي في معركة بالقرب من ميناء هندي يسمى (شيول) وكان النصر فيها حليفاً للمماليك وحلفائهم من الأمراء الهنود ، وذلك في سنة (٩١٣هـ / ١٥٠٨م) ، غير أن البرتغاليين سارعوا في تجهيز أسطولهم بما ساعدهم على هزيمة الحملة المملوكية عند ميناء (الليو) الهندي في السنة التالية مباشرة ، وعاد الأمير حسين الكردي مهزوماً إلى مصر^(٢) .

وقد أصبح الخطر البرتغالي محدقاً بالسواحل اليمنية عندما غدا القائد البرتغالي أفونسو دالبوكيرك Afonso Da Lbuquerque نائباً لملك البرتغال في حكومة الهند ، وذلك لأطماعه التوسعية الموجهة نحو سواحل البحرين العربي والأحمر ، وكذلك رغبته الصليبية للجامعة في الوصول إلى الأراضي المقدسة في الحجاز ، وقد كانت أول أنشطته بهذا الصدد قيامه سنة (٩١٣هـ / ١٥٠٧م) باحتلال جزيرة سقطرة اليمنية^(٣) بعد أن استمات حاكمها في الدفاع عنها ، فاستشهد معه ٢١٧ رجلاً من أتباعه ، بيد أن

٦٨٠

(١) ابن النديم، بغية المستفيد ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، عبد العظيم خطاب ، فتصوه الغوري ونهاية الدولة المملوكية ، ص ٢٠٤ .

(٢) القفي ، موقف المماليك ودول الخليج العربي من النفوس البرتغالي ، ص ١٥٠ ، د. أحمد دراج ، المماليك والفرنج ، دار الفكر العربي ، ١٩٦١م ، ص ١٣٧ ، سيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص ٧٨ ، ٧٩ ، محمود سليم ، الأشرف قنصوه الغوري ، الدور المصرية للتأليف والترجمة ، (د ، ت) ، ص ١١٥ ، ١١٦ ، محمد السلمان ، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج ، ص ٦٨ - ٧٦ ، النهروالي ، البرق اليمني في الفتح العثماني ، ص ١٩ .

(٣) وتطلق أحياناً سقطرى - بالآلف المقصورة - جزيرة يمنية كبيرة تقع ما بين المحيط الهندي وبحر العرب ، تبعد حوالي ٨٥٠ كيلومتراً عن شاطئ عدن ، و ٥٠٠ كيلومتراً عن النكلا بحضرموت ، و ٢٥٠ كيلومتراً عن المهرة ، ومساحتها ٣١٠٠ كيلومتراً مربعاً ، وكثافتها سكانها ممثلة جسداً ، يغطي معظم سطحها الجبال الشاهقة التي تتخللها بعض الأودية ، ولكنها آية في الجمال وتنوع الحياة الحيوانية والنباتية فيها ، لذلك هي اليوم إحدى المحميات البيئية باليمن ، المقصي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٢٩٧ - ٢٩٩ .

البرتغاليين أدركوا لاحقاً عدم جدوى الجزيرة في تحقيق هدفهم في التحكم بالسواحل العربية والأفريقية منها^(١).

كان وضع البلد البرتغالية على عدن هي الخطوة التالية لأفونسو دالبوكيرك Afonso Da Lbuquerque وإن كان بينها وبين الخطوة الأولى فارق زمني لا بأس به ، ففي مطلع سنة (٩١٩ هـ / ١٥١٣ م) ظهرت عشرون سفينة برتغالية على شواطئ اليمن المطلّة على البحر العربي ، وأخذت طريقها حتى توقفت قبالة ميناء عدن ، وكانت خطة حاكمها الطاهري مرجان الظفري^(٢) تتمثل في إغلاق أبواب المدينة وعدم المبادرة بأي عمل دفاعي ما لم يبدأ البرتغاليون بالهجوم ، ولم يتردد البرتغاليون في نصب سلام اقتحم عدد كبير منهم بواسطتها الأسوار ، ونفذوا إلى داخل المدينة ، وقد كان تعاضد أهالي عدن مع حاكمها ، إضافة إلى وقوف السلطان الظافر الثاني عامر بن عبد الوهاب وراءهم بإمداداته ، والاستيصال الكبير الذي أبداه الجميع في الدفاع عن المدينة ، كان ذلك كله كعبلاً باستحقاق النصر على للبرتغاليين ، وكافياً لرد أفونسو دالبوكيرك Afonso Da Lbuquerque على أعقابهم مهزوماً^(٣).

لم تفت هذه الهزيمة في عضد القائد البرتغالي ، بل تحلوزها إلى المحطة التالية من خطته وهي التوغل في البحر الأحمر ومحاولة بلوغ الأراضي المقدسة ، لذلك عبر

(١) القتيبي ، موقف المماليك ودول الخليج العربي من التلغوز البرتغالي ، ص ١٤٨ ، أحمد شيبان ، الوجود المملوكي في اليمن ، ص ٦٦ ، ٦٧ ، بافقيه ، تاريخ الشجر وأخبار القرن العاشر ، تحقيق عبد الله محمد الحبشي ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، ط ١ ، ١٩٩٩ م . ص ٨٢ ، بمطرب ، الشهداء السبعة ، ص ٤٦ Miles, S. B. The countries and Tribes of Persian Gulf, 2nd Ed, London, 1966, p 124- 158; Serjeant, R.B., The Portuguese off the South Arabian Coast, London, 1963, p46-158; Sousa, M. F., The History of the Discovery and Conquest of India, Translated from German by John Stevens, 2nd Ed, W. Germany, 1971, vol I, p 118 .

(٢) الطاهري : نسبة إلى الدولة الطاهرية التي يقوم بحكم عدن باسمها ، والظفري : نسبة إلى السلطان الظافر الثاني عامر بن عبد الوهاب آخر حكام لدولة الطاهرية الذي سبق تناولنا له : لأنه كان أحد موالئه .

(٣) ابن الدبع ، فرة العيون ، ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، الفضل للمزيد ، ص ٣٤٥ ، ضان الرمال ، صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ١٣٣ ، ١٣٥ ، بافقيه ، تاريخ الشجر وأخبار القرن العاشر ، ص ١٠٢ . د. محمد عبدالمعال أحمد ، البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه ، ص ١١١ - ١١٩ ، بمطرب ، الشهداء السبعة ، ص ٥١ ، ٥٢ ، Serjeant, R.B., The Portuguese off the South Arabian Coast, p46 .

مضيق باب المندب وجلس خلال الجزء الجنوبي للبحر الأحمر دون رادع حتى رست سفنه في جزيرة كَمَرَان في السنة نفسها (٩١٩ هـ / ١٥١٣ م)^(١) ، وتقدم بعدها نحو جدة التي كان السلطان فائصوة العوري قد أمر بتحصينها منذ أن بلغته لبناء عبور السفن البرتغالية لباب المندب ، وكان هدف أفونسو دالبوكيرك Afonso Da Lbuquerque من السيطرة على جدة محصوراً في اتخاذها متقدماً بحرياً له يصل من خلاله إلى المدينة المنورة لينش قبر النبي ﷺ^(٢) ، إلا أن عاصفة شديدة ردتته على أعقابهِ إلى كَمَرَان ، ليقضي بها شهرين آخرين ، يعود على إثرها إلى عدن في أغسطس (١٥١٣ م / ٩١٩ هـ) ، وهناك قام بمحاولته الأخيرة للاستيلاء عليها ، فأنشله يقظة أهلها وترصدهم لرجائه ، مما أدى إلى رأسه وعودته النهائية إلى الهند^(٣) .

وقد تتبع أحد المؤرخين المعاصرين^(٤) - من خلال ما توافر لديه من النصوص البرتغالية التي لم أعتدّ لها إلى مكانها وغيرها من المصادر العربية - أخبار الحملات البرتغالية التالية على عدن فوجدها خمساً ، كلها جاءت محاولة لرد الاعتبار للقوة البحرية البرتغالية التي فشلت فشلاً ذريعاً في محاولتيها السابقتين ، إلا أن هذه المحاولات الخمس - وإن حققت مكاسب آنية - لم تتركس إلا حالة اليأس والقيوط لدى البرتغاليين ، فأدى ذلك - إضافة إلى سماعهم بظهور القوة العثمانية على مسرح الأحداث - إلى إضرابهم عن مجرد التفكير في تكرار المحاولة .

(١) ابن النديم، قرة العين، ص ٤٥٨، الفضل المزيدي، ص ٣٤٥، د. محمد عبدالمال أحمد ، البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه ، ص ١٢٢ .

(٢) عثمان الرمالي ، صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، فالح حنظل ، الأطماع البرتغالية في المقامات الإسلامية ، ضمن أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية ، ١٩٨٧م ، مركز الدراسات والوثائق ، رأس الخيمة ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ ، جمال قاسم ، الصراعات المحلية والدولية في البحر الأحمر ، ضمن أبحاث ندوة البحر الأحمر في التاريخ والسوانسة الدولية المعاصرة ، من أبحاث الأسبوع العلمي الثالث (١٩٧٩ م) ، جامعة عين شمس ، ١٩٨٠م ، القاهرة ، ص ٢٢٠ .

(٣) دراج ، المسالك والطريق ، ص ١٥٥ ، ابن النديم، قرة العين، ص ٤٥٨ ، الفضل المزيدي، ص ٣٤٧ ، سيد مصطفى سالم ، الفتوح العثمانية الأولى لليمن ، ص ٨٨ ، ٩٠ ، محمد السلطان ، الفزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج ، ص ٢٦٨ - ٢٧٢ .

(٤) محمد السلطان ، المرجع السابق ، ص ٢٧٢ - ٢٧٨ ، وقد عدها شهاب ، أضواء على تاريخ اليمن البحري ، ١٤٦ - ١٥٦ .

(٢) دخول جبهوش المماليك الجراكسة اليمن وعلاقتها مع القوى اليمنية:

لم تكن اليمن ومصر والقوى السليمانية والعسكرية للفاعلة فيهما بمأى عن الأحداث الدائرة في المحيط الهندي لما له من أهمية قصوى بالنسبة إليهما كما أشرنا ، وكان لموقع اليمن الجغرافي المتوسط بين المجالين الحيويين للمماليك من جهة والبرتغاليين من جهة أخرى دوره في إجبار اليمنيين على التأثير والتأثر بمجمل ما يدور في المنطقة حتى لو افترضنا - جـداً - وجود الرغبة لديهم في للمكون وعدم الولوج في حلبة الصراع ، إذ أنه من المستحيل أن يقوم المماليك بأي نشاط عسكري مضاد للبرتغاليين في المحيط الهندي والبحر الأحمر دون الدعم المعنوي والعيني للسلطات القائمة في اليمن ، كما أن الاستحالة قائمة في وجه للبرتغاليين إذا ما عزموا على سد البوابة الجنوبية للبحر الأحمر في وجه التجار المصريين والسليبيين وبعض الأفرقة ، وكذلك الوصول إلى تحقيق الشق الصليبي من أهداف حملاتهم ببلوغ الأراضي المقدسة بالحجاز ، الاستحالة قائمة في وجههم إذا لم يؤكدوا سيطرتهم على الموانئ اليمنية المهمة وجزرها الكبيرة سواء في البحرين العربي أو الأحمر ، أي : إن اليمن كانت نقطة الارتكاز الجغرافية في أحداث هذه المرحلة من تاريخ المنطقة .

ومن الواضح بجلاء أنه لم يكن هناك ثمة مطامع مملوكية في اليمن ، سواء قبل هذه المرحلة المصيرية من تاريخ المنطقة أو قبلها ، وكان هذا الأمر - من خلال اضطراب المسيرة التاريخية للعلاقات الودية القائمة بين القوى والدول الحاكمة في المنطقتين - راسخاً لدى الجميع، فلم نشهد مؤشرات لانعدام الثقة أو حلول الشك على هذه العلاقات ، وهو ما انعكس الهدايا المتبادلة بين العروش الحاكمة ، وما استعانة الطاهريين بالسلطان قانصوة الغوري ضد القرصنة البرتغالية ثم الموقف المشرف لحاكم عدن - مرجان الظفري - من الحملة المملوكية الأولى التي قادها الأمير حسين الكردي إلى الهند سنة (٩١١هـ / ١٥٠٥م) كما سبقت الإشارة إليه - إلا أدلة إضافية على صفاء العلاقات الثنائية بين الطرفين الطاهري والمملوكي عصرئذ^(١) .

يَبْدُو أن سوء الفهم الذي صاحب مسير الحملة المملوكية الثانية سنة (٩٢١هـ / ١٥١٥م) يُعَدُّ استثناء في علاقة اليمن بمصر سياسياً ، فقد وصلت الحملة المكونة من حوالي عشرين سفينة - محملة بما يقرب من ستة آلاف جندي معهم كثير من مؤنهم

(١) عبدالمظيم خطاب ، قانصوة الغوري وبهاية القولة المملوكية ، ص ٢٠٤ .

الحربية والحياتية اللازمة - إلى جزيرة كمران، * وكان هدفها النهائي هو الهند وتأمين التحصينات العسكرية في البحر الأحمر وطرق الهند ضد الأسطول البرتغالي، وخوفاً من معاودة البرتغاليين الهجوم على البحر الأحمر وجدة على شاكلة ما فعلوا عام (٩١٩هـ / ١٥١٣م) (١).

ما أن سمع الإمام الريمي المتوكل شرف الدين بنزول الحملة في جزيرة كمران حتى حاول استمالة أميرها - حسين الكردي - وإقحامه في الصراع الدائر بينه وبين السلطان الظاهر الثاني عامر الطاهري، فأرسل إليه رسالة - قد سبق تناولها - فأرجأ الأمير الرد عليه لأنه لم يصع في حساباته أن يخرج الحملة عما جرت من أجله، ولعله لم يؤجل الرد عليه إلا تحسباً للظنون التي تمكن الإمام شرف الدين من إثارتها عنده بخصوص السلطان الطاهري (٢).

بعث الأمير الكردي برسالته الثانية إلى السلطان الظاهر عامر - مشفوعةً بهدايا جليلة من السلطان الغوري - يستعجله في إرسال ما يحتاجه جند الحملة من الزاد وغيره، فاستشار السلطان بطانته فاحتفقوا ما بين مؤيدٍ ومعارضٍ، وكانت حجة المعارضين أن دعوى خروج الحملة إلى الهند وجهاد للبرتغاليين ما هي إلا ستاراً لبسط النفوذ على اليمن، وأن هذه المساعدة إذا ما بُذلت فإنها ستصبح حقاً مكتسباً يصعب رفض بنائها لاحقاً، وقد مال السلطان الظاهر الثاني إلى هذا الرأي، فأغلظ الرد لمبعوثي الأمير الكردي، وأرسل إلى ابنه عبدالوهاب - حاكم زبيد - بمنع الصف من

(١) محمد السلمان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج، ص ٢٨٢، محمود سليم، الأشرف قايسويه الغوري، ص ١١٨.

(٢) يبدو أن البطانة السيئة كان لها الدور الكبير في إغثار صدر السلطان الظاهر الثاني عامر بن عبدالوهاب الطاهري على الحملة التي بلغته أخبارها عندما وصلت إلى جازان، فقد أرسل أميرها رسولاً منه إليه يخبره ببلوغ الحملة جازان، وأن وجهتها الهند بفرض جهاد للبرتغاليين، ويستحثه إلى بعث معونته المالية والعينية، انظر شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ١٤٧، شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ط ٥، مطابع القردوق، الرياض، ١٩٩٠م، ص ٢٣٣، ٢٣٤، ويحكي المؤرخ باقتضاه، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، ص ١٠٦: أن السلطان اترعج للخبر وأعرض عن الجواب، وإذا أخذنا بهذه المعلومة فإنها ستكون التفسير القوي لإرجاء الأمير حسين الكردي لرد على الإمام شرف الدين، وكله لم يكن قد استوثق بعد من موقف البلاط الطاهري من حملته.

التوجه في البحر الأحمر نحو الشمال^(١) ، قاصداً بذلك حرمان الحملة من مصادر غذائها ، فصدقت الظنون التي كان الإمام شرف الدين قد أثراها لدى الأمير حسين الكردي ، فرد عليه رداً يعرب له عن تضامنه معه .

في مثل هذا الوضع أصبح استمرار الحملة المملوكية في مواصلة طريقها بالغ الصعوبة ، خاصة أن المسافة المتبقية بينها وبين وجهتها النهائية مازالت بعيدة جداً ، وأنها إذا كانت غير قادرة على الحصول على ما يكفيها من المؤن وهي مازالت في النطاق الحيوي لها فلنْها ستكون أعجز في مواجهة قوة عظمى بحجم البرتغاليين وإمكاناتهم ، ولعل الأمير حسين الكردي رأى في موقف الطاهريين هذا ممالأة للبرتغاليين ووقوفاً إلى صفهم^(٢) ، فوجد نفسه مضطراً إلى معاقبتهم ، ولما كنا على علم بمدى قوة شخصية السلطان قانصوه الغوري فأنتنا ندرك أن تغيير مسار الحملة - كما سنراه - كان عن مشورة منه ، وليس محض اجتهد شخصي من قائد الحملة .

تحولت الحملة بقولها كاملاً إلى السواحل اليمنية ، وتغلطرت القوى المعارضة للحكم الطاهري، من القبائل وغيرهم ، إلى الأمير الكردي بلذلين له المساعدة والعون ، مقدمين أنفسهم جنوداً في حملته ، فصعب ذلك الأمر على الطاهريين^(٣) ، الذين انهزموا أمام المماليك في أول اختبار لهم أمامهم ، ف وقعت ربيد تحت السيطرة المملوكية ، وذلك سنة (٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) ، وسقط الأمير عبدالوهاب بن السلطان الظفر الثاني جريحاً ليموت بعدها بأيام في عز ، وكان لبنداق المماليك الحديثة التي لم يعدها اليمينيون نور الفصل في هذه المعارك^(٤) .

(١) ابن الديبع، قرّة العيون، ص ٤٦٠ ، الفضل المزيد، ص ٣٥٨ ، باقره ، تاريخ الشجر وأخبار القرن ثامن ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، يحيى بن الحسين ، غابة الأمان ، ص ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، عبدالمعظم خطاب ، قانصوه الغوري ونهاية الدولة المملوكية ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٢) وكان الإمام شرف الدين - في رسالته إلى الأمير الكردي وهو بكران - قد ألصق بالسلطان الطاهري هذه التهمة ، يُنظر نص الرسالة في المصدر المشار إليها في حديثنا عن الإمام شرف الدين .

(٣) باقره ، المصدر السابق ، ص ١١٤ ، يحيى بن الحسين ، المصدر السابق ، ص ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ابن الديبع، المصدر السابق ، ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، الفضل المزيد، ص ٣٦١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٦١ ، ابن الديبع، قرّة العيون، ص ٤٦٤ ، شهروالي ، البرق اليمني في الفتح العثماني ، ص ٢١ .

ظهر الأمير بربساي في مقدمة الحملة المملوكية في هذه المرة ، وغاب الأمير حسين الكردي ، وتتابعت هزائم الطاهريين على يديه ، بما فيهم السلطان الظاهر الثاني نفسه الذي خسر أول معركة يقودها أمامهم سنة (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) في منطقة التُّرَيْيَّة^(١) ، فانسحب إلى مدينة تعز ، ثم غادرها إلى إربأ أملم زحفهم ، فأقاموا الخطبة للسلطان الغوري على منابرها^(٢) .

واصلت القوات المملوكية تقدمها حتى دخلت العقارنة - مركز الحكم الطاهري ، وتقهقر السلطان الظاهر عامر الثاني حتى وقعت بين الطرفين المعركة الفاصلة عند أسوار صنعاء في ربيع الآخر من سنة ٩٢٣هـ الموافق مايو ١٥١٧م ، وانجالت المعركة عن مقتل السلطان الطاهري وأخيه عبدالمالك^(٣) ، وبذلك استحكمت قبضة المماليك على أهم المناطق في اليمن ، في تهامة والجبال ، ولم تستعصر عليهم من المناطق التي قصدها سوى عدن .

وقد سبقت الإشارة إلى علاقة المماليك بالزيدية ممثلة بالإمام شرف الدين ، وأن الصراع قد احتكم بينهما على صنعاء ، بعد أن حاصروه في ثلأ وحالوا القضاء عليه . ولما سقطت مصر في أيدي العثمانيين في السنة نفسها أعلن المماليك في صنعاء ولاءهم للقوة الجديدة ، وتم تعيين إسكندر المحضرم - الذي تلى بربساي في قيادة المماليك باليمن - والياً عثمانياً على اليمن^(٤) ، ولم يكن موقف الأمير إسكندر محل

(١) تصغير تربة ، قرية كبيرة إلى الجنوب الشرقي من مدينة ريد ، وليست بعيدة عنها ، وهي اليوم إحدى مراكز مديرية ريد الإدارية بمحافظة الحديدة ، لمحقفي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢) أحمد شيبان ، الوجود المملوكي في اليمن ، ص ١٦٥ ، بافقيه ، تاريخ الشجر وأخبار القرن العاشر ، ص ١٢٥ ، النهروالي ، البرق اليمني في الفتح العثماني ، ص ٢٩ ، ابن النديم ، قوة العيون ، ص ٤٦٨ ، الفضل المزيد ، ص ٣٦٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٧٠ ، ابن النديم ، قوة العيون ، ص ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، يحيى بن الحسين ، غابة الأماني ، ص ٦٥١ ، شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ ، ص ٢٣٥ .
Smith, G. Rex, The Tahirid Sultan of the Yemen, in Studies in the Medieval history of the Yemen and South Arabia, Variorum, 1997, p141.

(٤) عبدالمعظم خطاب ، فتصود الغوري ونهاية الدولة المملوكية ، ص ٢١٧ ، أحمد شيبان ، الوجود المملوكي في اليمن ، ص ١٧٣ ، المورعي ، الإحصان في دخول اليمن تحت ظل آل عثمان ، تحقيق

اتفاق جميع للمماليك ، فوقع الخلاف بينهم ، فغادر الأمير إسكندر صنعاء متجهاً إلى زبيد ، حيث هاجمته للقبائل اليمانية في أكثر من موضع ، فخسر معظم رجاله ، وكل ذخائر الأموال ونفائسها التي غنمها المماليك طيلة معاركهم ، ولم يصل إلى زبيد إلا بشقة كبيرة ، وسقطت صنعاء في يدي الإمام شرف الدين كما عرفنا سابقاً .

لكننا معظم للمماليك على أنفسهم في زبيد تحت قيادة إسكندر المخضرم ، وبدأ وجودهم في الاضمحلال تدريجياً حتى انعدم في منتصف القرن العاشر بطهور العثمانيين على الساحة منذ أغسطس سنة ١٥٣٨م وحلول قوتهم محل كل معظم القوى اليمنية تقريباً .

(٣) ظهور العثمانيين على الساحة اليمنية :

من عجيب تدابير الأقدار أن نرى كيف قضى العثمانيون على دولة المماليك في مصر وقتلوا آخر سلطانين من حكامها في الوقت الذي تقوم فيه الجيوش المملوكية بالقضاء على للدولة الطاهرية في اليمن وقتل آخر سلاطينها ، أي في سنة (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) ، وكانت مهمة القضاة على النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي والبحار العربية المفتوحة عليه والوقوف في وجههم إزاء محاولة الوصول إلى الأراضي المقدسة ونش قبر النبي ﷺ ، كانت هذه المهمة من أهم ما فرتب على بسط العثمانيين سيطرتهم على مصر ؛ لأنها هي المهمة التي كان السلطان قانصوه الغوري يبذل قصارى جهده وإمكاناته لتحقيقها كما أشرنا آنفاً ، وقد أعطى تحالف البرتغاليين مع الشيعة الصفويين - الأعداء التقليديين للعثمانيين - دافعاً إضافياً كبيراً لجعل المواجهة حتمية وواردة لا محالة^(١) .

ومع خطورة هذه المهمة ومدى الحاجة إليها إلا أن العثمانيين لم يتخذوا خطوات جادة في طريق إنجازها فور وقوع مصر في قبضتهم ، فقد تأخرت هذه الخطوة حتى

عبدالله الحبشي ، منشورات وزارة الأوقاف وإرشاد بالجمهورية العربية اليمنية ، (د ، ت) ، ص ٢٢ .
٢٣ ، النهروالي ، الهرق اليمني في الفتح العثماني ، ص ٢٢ .

(١) د. فلروق أباطة ، عن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،
١٩٨٧م ، ص ٤٩ ، الحكم العثماني في اليمن ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦م ، ص ٢٠ ،
٢١ .

سنة (١٩٤٥ هـ / ١٥٣٨ م) أي حوالي اثنتي عشرة سنة ، ويُعزى ذلك إلى الاتساع الكبير الذي كانت الدولة العثمانية قد بلغته ، وانشغالها بنشاطها العسكري الكبير في القارة الأوروبية وغيرها^(١) .

كان النفوذ العثماني قد بلغ اليمن سليماً من خلال إعلان القيادات المملوكية هناك الطاعة للعثمانيين وبذل الولاء لهم ، فكان هذا النفوذ إسمياً ومحصوراً في الدعاء للسلطان ومجاملة رموز الإدارة العثمانية في مصر ، وقد شابهها بعض صور الصراع والتصفيات الجسدية بين القادة المتنافسين على النفوذ هناك^(٢) ، ودارت معظم هذه الأحداث في المناطق الساحلية المحاذية للبحر الأحمر ، أم بقية مناطق اليمن الداخلية فقد بسط الإمام المتوكل شرف الدين سيطرته عليها ما عدا عدن التي كان - وحدها تقريباً - مازالت تحت سيطرة آخر الأمراء الطاهريين^(٣) .

وكان من البديهي أن اضطلع العثمانيون بمهمة مواجهة الخطر البرتغالي يَحتم عليهم التفكير الجدي بإخخال اليمن ضمن سلطتهم الفعلية ، فهي بحكم موقعها الممتاز وإشرافها على مضيق باب المندب ستحقق لهم الأهداف التي أشرنا إليها ، إصافةً إلى أنها ستعتبر خط الدفاع الأول عن الإمبراطورية العثمانية من ناحية الجنوب^(٤) .

قام الوالي العثماني في مصر سلمان باشا الخادم بتنفيذ رغبة السلطان سليمان القانوني وتطبيق أوامره بإرسال حملة بحرية كبيرة إلى السواحل اليمنية والهند بقيادته

(١) د. فاروق أباظة ، الحكم العثماني في اليمن ، نفس الصفحة ، سيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٢) لمعرفة تفاصيل هذه الأحداث انظر السهروالي ، الهربل اليمني في الفتح العثماني ، ص ٣٢ وما بعدها ، د. محمد السبيطلي ، الدولة العثمانية والأزمة في تاريخ اليمن الحديث ، المنتدى الجامعي للنشر والتوزيع ، صنعاء ، ط ٢ ، ٢٠٠٢ م ، ص ٤٠ .

(٣) د. حسين العمري ، تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، دار الفكر ، دمشق ، ودار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٧ م ، ص ١٢ .

(٤) د. فاروق أباظة ، عدن والمساهمة البريطانية في البحر الأحمر ، ص ٤٩ ، د. قصي كامل شبيب ، أهمية مضيق باب المندب في التاريخ الحديث والمعاصر ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، ط ١ ، ١٩٩٤ م ، ص ٤٣ ، د. إبراهيم حلول أحمد ، مراحل الاحتلال العثماني المبكر لليمن الكبير وولود الفعل الوطنية إزاء ذلك ، أحد أبحاث ندوة " اليمن عبر التاريخ " عدن ، ١٩٨٩ م ، ص ٨٢ .

سنة (٩٤٥هـ / ١٥٣٨م)^(١) ، فيمم وجهه شطر عدن متوجهاً إليها لاحتلالها ، ولما خرج أميرها عامر بن دلود الطاهري للترحيب به ومقابلته على إحدى سفنه قام بالغدر به ، إذ أمر بشنقه وعدد من رجاله على صواري السفينة ، فرسم بذلك انطباعاً سيئاً عن العثمانيين في مخيلة اليمنيين جميعاً بما فيهم أعداء الطاهريين أنفسهم^(٢) .

ومنذ العام (٩٤٥هـ / ١٥٣٨م) بدأت اليمن تدعن للدولة العثمانية شيئاً فشيئاً حتى حلت محل جميع قواه المحلية ، وإن كان أئمة الزيدية لم يقص عليهم بل انزروا لفترة من الزمن ثم علونوا نشاطهم ضد القوة العثمانية المخالفة لهم في المذهب والمصالح ، لتدخل اليمن بذلك حقبة جديدة من تاريخها ، تغيرت فيه كثير من ملامح حياتها الاجتماعية والسياسية والعلمية .

(١) ابن داعر ، الفتوحات المراتية في الجهات اليمنية ، صورة بمكتبتي عن نسخة بخط المؤلف في مكتبة القاضي محمد علي الأكوخ ، صنعاء ، ج ١ ، ص ١٦٥ ، د. عبدالوهاب القيسي ، العجالة البرتغالية العثمانية في المياه العربية ، سمر أبحاث ندوة رأس الحيمة التاريخية ، مركز الدراسات ولوثائق ، رأس الحيمة ، ١٩٨٧م ، ص ١٧٠ ، د. إبراهيم خليل أحمد ، مراحل الاحتلال العثماني المبكر لليمن الكبرى ، ص ٨٥ .

(٢) بانقيه ، تاريخ الشجر وأخبار القرن العاشر ، ص ٢٥٣ ، د. حسين السري ، تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص ١٣ ، حسن شهاب ، عدن فرضة اليمن ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، ط ١ ، ١٩٩٠م ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، د. عبدالحمد البطريق ، من تاريخ اليمن الحديث ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩م ، ص ٢٥ ، لما للموزعي فإنه يعزو هذه الحادثة إلى مساعي الإمام شرف الدين وولده المطهر لدى سليمان باشا الخادم بأن الأمير عامر مداهم للبرتغاليين ، الإحصان في دخول اليمن تحت ظل آل عثمان ، ص ٢٥ ، د. محمد السبيطلي ، الدولة العثمانية والأئمة في تاريخ اليمن الحديث ، ص ٤١ ، ٤٢ .

الفصل الثالث

أماكن التعليم والمراكز العلمية في
اليمن من بداية القرن التاسع الهجري
حتى السيطرة العثمانية عليها

أولاً : أماكن التعليم

تمهيد :

انتشرت في اليمن العديد من أماكن التعليم المختلفة كذلك التي انتشرت في غيرها من الأقطار الإسلامية ، متحدة معها في الدور الوظيفي وفي التسمية المصطلح عليها ، لذلك فإننا إذا ما قمنا باستعراض هذه الأماكن فإننا سوف نتحدث عن المساجد والكتاتيب (وإن أطلق عليها اليمنيون المغلّمة) والمدارس وغيرها ، مع مراعاة تمييز اليمن عن تلك الأقطار بوجود شكل من أشكال أماكن التعليم التي لم توجد في غيرها ، وهي ما اصطلحوا عليه بـ (الهجر العلمية) .

وإذا كنت قد سبق أن أشرت بأن أماكن التعليم ومساكن ممارسة الأنشطة العلمية في اليمن في مدة ما قبل الدراسة لم تكن محصورة بنمط معين من المباني ولا بتصميم محدد للأماكن ، وأنه لم يكن هناك ما يُعَلَى للمواصفات العلمية المحددة لها إلا الإمكانيات المادية المتوفرة للمؤسسين لها والمستفيدين من الخدمة التي تؤديها ، فإنني هنا أقول : إن المرحلة التاريخية التي نتناولها - وما يقرب من قرن من الزمان قبلها - قد اتضح فيها بجلاء وجود عدد من المرافق العمرانية التي لم تنشأ إلا بغرض التعليم فيها ، وذلك بعد أن اضطلعت بعض الجهات - من أشخاص أو قوى سياسية قائمة - بالقيام بشيء من المسؤوليات التنموية والالتفت إلى الأدوار الخدمية للمجتمع اليمني⁽¹⁾ ، بما فيها تأسيس الأبنية التعليمية والقيام بتحمل تكاليف العاملين فيها ، ولعلنا بصدد التعرض للأهداف التي سعت هذه الجهات لتحقيقها من وراء ذلك ، مع التأكيد أن الدافع السديني من السعي لاكتساب أجر الصدقة الجارية كان في ولجة هذه المآرب .

ولكنني أؤكد هنا على أن التطور الذي طرأ على شكل الأماكن المخصصة للتعليم وممارسة الأنشطة العلمية المختلفة لم يغير من وظيفتها ، أو يولد تسميات جديدة لها ، فإننا سنلاحظ أن التسميات التي كانت شائعة من قبل هي بعينها التي أطلقت على هذه الأماكن ، كما أؤكد - أيضاً - على أن التجديد في أشكال أماكن التعليم لم يشمل رقعة

(1) قد أستخدم هنا بعض المصطلحات المعاصرة (المسؤوليات التنموية) و (الأدوار الخدمية للمجتمع) متحفظاً للمدة التاريخية الطويلة بين المرحلة التي نتناولها والعصر الذي ظهرت فيه هذه المصطلحات فقط لكي أبين ما أرمي إليه .

اليمن الجغرافية كاملة ، فراء ينتشر في طبقات معينة ، وينحصر عن أخرى ، تبعاً للنفوذ الذي تمتد إليه - أو تنحصر عنه - الجهات التي تقف وراء هذا التجديد ، فإننا وجدنا أن أمكن للتعليم وساحات ممارسة الأنشطة العلمية في مساحات كبيرة من اليمن استمرت على ما هي عليه منذ القرن الهجري الخامس .

وقد كل الاهتمام بالتعليم وتقديم الخدمات لطلاب العلم والعلماء المبررين في نشر العلم سمة العصر - كما كانت من قبل - وكانت ظاهرة تسابق الجهات إلى تيسير سبل رفع مستوى المعرفة ونشرها شائعة ، وهو ما أدى إلى الازدهار العلمي الذي عاشته اليمن عصرئذ ، وما ميز اليمن عن كثير من الأقطار هو انتشار أماكن التعليم - بكثرة لافتة للنظر - في المراكز غير الحضرية بشكل يفوق انتشارها في مراكز التحضر المجاورة لها ، وبالتالي كثرت الأنشطة التعليمية فيها أكثر من الأخرى .

ومما يسترعي الانتباه فعلاً في تاريخ اليمن الإسلامي أنه بالرغم من أن هذا البلد بُعد من أكثر أقطار دار الإسلام حروباً وصراعات في جميع مراحل تاريخه إلا أن هذه الصراعات لم يكن لها أثر مصيري على استمرار الحياة العلمية ، ولا أستبعد أن تشجيع العلم والعلماء وطلابهم كان في بعض الأحيان وسيلة من الوسائل التي استخدمتها بعض أطراف هذه الصراعات في سبيل كسب هذه الشريحة المهمة إلى جانبها لما يمثلها ذلك من أهمية كبرى في حسم الصراع لصالح هذا الطرف أو ذاك ، فوقوف العلماء في صف أحد الأطراف المتنازعة - أو على الأقل مناصرتهم الدعائية له عند شعب أنزل العلماء منزلة تفوق كل تصور - كفيل برجحان كفته في موازين القوى المتصارعة .

هذا الأمر جلي وواضح من خلال عدم وجود إشارة في المصادر التاريخية المتوافرة إلى قيام الزعامات المتحاربة بالاعتداء على الصروح والمؤسسات التعليمية التي تصادفهم في المناطق التي يتم استيلاؤهم عليها ، والحديث هنا يشمل على حد سواء المؤسسات التي كانت ذات مهام تعليمية ثانوية - بجوار مهامها التعبدية الرئيسية - كالمساجد ، وتلك المؤسسات ذات المهام التعليمية المحضة كالمدراس وغيرها .

وفي تصوري أن حسابات كسب تأييد العلماء وطلابهم من قبل الأطراف المتنازعة لم تكن وحدها التي قادت إلى حماية هذه الأماكن من تبعات الصراعات ، بل إن كون أغلب قيادات تلك القوى يتمتعون بقدر كبير من العلم والمعرفة كان كافياً لقيامهم ببسط حمايتهم لها ، فقد كان العدد الكبير منهم موصوفاً بالتشجيع لكل ما له صلة بالعلم وأهله ، وكان معظم هذه القيادات معوداً في طبقات العلماء والفقهاء والمصنفين .

تبقى الإشارة إلى أمرٍ مراعاته بالغة الأهمية ، ذلك أن المؤسسة الواحدة من المؤسسات التعليمية المتعددة لم تنتشر في جميع مناطق اليمن كلها ، عدا للمساجد والكتاتيب بالطبع ، فقد ازدهرت المدارس في مناطق معينة في حين أن مناطق شاسعة أخرى لم تعرفها إلا سماعاً ، وكذلك لم يكن للهجر العلمية أي وجود في غير المناطق التي انتشر فيها المذهب الزيدي ، أما الزوايا والأربطة فلم تعرفها إلا المناطق التي عرفت التصوف ، وهي محدودة بالقياس إلى مساحة اليمن الكبيرة.

أولاً الكتاتيب أو المعلومات :

من نافذة القول أن تشير إلى أن المكتب هو بيت العلم الأساس ولبنته الأولى^(١) ، فهو بحق المصفاة التي يمر من خلالها من هو جدير باعتراف مراتب للعلم العليا ، فيه يتلقى الصبية أساسيات العلم كالقراءة والكتابة وأبجديات الحساب ، ومن العلم الشرعي للقرآن الكريم ومبادئ العبادات اليومية ، ولكننا - وللأسف الشديد - لم نجد في المؤرخين من تصدى لتسجيل قدرٍ كافٍ من المعلومات عن مدى انتشار المعلومات ، ووصف النشاط القائم فيها ، إلا ما كان نقفاً بسيطة في ثنايا التراجم لعلماء اليمن وفقهائها وطلابهم ، أو عند الحديث عن الأعمال الخيرية العمرانية التي أنشئت عصرئذٍ، أو في سياق تناول اهتمام السلاطين بتعليم أبنائهم ، وقد وفرت لنا وثائق تلميس المدارس العلمية في زمن الدراسة معلومات ذات أهمية كبيرة ، تتمثل في إشارتها إلى أن معلومات الأيتام كانت جزءاً لا يتجزأ من كل مدرسة أنشئت ، بل وحدد بعضها عدد الأيتام الذين تم اختيار معلم مؤهل لتعليمهم كما سنرى .

ومن المؤكد أن هذا الاهتمام الذي حظي به الأيتام لا يقل أبداً عن الاهتمام الذي حظي به الصبيان الذين لم يفقدوا آباءهم ، وإن كانت المصادر لم تسعفاً بنكر تفصيلات وإشارات إلى بعض صور ذلك الاهتمام إلا أنه مما لا شك فيه أن عدداً كبيراً جداً من المعلومات كانت قد شاعت وانتشرت على نطاق واسع في جميع مناطق اليمن ، فمن البديهي أن يحرص الآباء على تعليم أبنائهم الحدود الدنيا من العلوم اللازمة لضروريات حياتهم الدينية والدنيوية ، وكثيرون من مخرجات هذه المعلومات هم الذين مثلوا الطرف المقلني بين أيدي العلماء والفقهاء في المدارس والمساجد والهجر العلمية .

(١) د. نجاح قنسي ، المعاهد والمؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد ١٩ ، ١٩٨١م ، ص ١٧٧ .

ومن خلال الإشارات في المصادر المتوافرة إلى هذا النوع من المرافق التعليمية نخلص إلى أن المعلومات أتت في ثلاثة أنواع : إما ملحقة بالمدارس ، وهي معلومات الأيتام ، أو معلومات عامة ملحقة بالمساجد ، ولعلها بالتحديد في أئمتها ، وبوع آخر بعيدة عن المساجد ، منفصلة قائمة بذاتها .

(١) المعلومات الملحقة بالمدارس (معلومات الأيتام) :

من أعظم صور التكافل الاجتماعي في ديننا الحنيف الاهتمام بالعجز الضعيف ، صغيراً كان أو كهلاً كبيراً ، وجعل التعاطي مع هذا الشأن واجباً على المجتمع المسلم ، وبإزاء على ذلك كان الأجر المترتب على القيام به كبيراً ، وكان في مقمة لشكل الاهتمام بالضعيف للقيام بأمر اليتيم ، والحث على رعايته ، والترغيب في كفالته ، إذ يقول الله عز وجل : **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تَنصِي ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ حَرَمٌ ۚ وَإِنْ تَحَابَطُوهُمْ فَلَاحُوتُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَنَّكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (١) ، ويتجلى وجوب الرفق باليتيم في قوله تعالى : **فَأَمَّا الَّتِي تَنصِي فَلَا تَقْهَرْ** (٢) ، وكفى بمرافقة النبي ﷺ في الجنة ثواباً لكافل اليتيم لكي يتسابق الخيرون على اكتسابه ، فقد ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قوله : " أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين ، وأشار بأصبعيه ، يعني السبابة والوسطى " (٣) ، ومن هنا كانت - كما سبق أن أشرت - معلمة الأيتام في كل مدرسة أنشئت في هذه المدة من تاريخ اليمن ، وسنذكر فيما يلي عدداً منها كنماذج كافية للدلالة على وجود عدد كبير منها :

(١) سورة البقرة .

(٢) سورة المصوى .

(٣) البخاري ، ج ٥ من ٢٢٣ ، رقم (٥٦٥٩) ، كتاب (الأئب) ، باب (فصل من يمسول يتيماً) ، مسلم ، صحيح مسلم ، ج ٤ من ٢٢٨٧ ، رقم (٢٩٨٣) ، باب (الإحسان إلى الأرملة والممكن واليتيم) .

● معلمة المدرسة الأشرفية^(١) الكبرى :

أنشأها سنة (٨٠٠هـ / ١٣٩٧م) السلطان الأشرف الثاني إسماعيل (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) جنوب حصن نغز ، ورثب^(٢) بها - من ضمن من عينهم - معلماً وخمسة عشر يتيماً يتعلمون القرآن على يديه ، ووقف عليها عدة من الكتب النفائس في كل فن ، ووقف عليها وعلى لمرتبين فيها وقفاً جيداً يقوم بكفلاهم^(٣) .

● معلمة الأيتام في المدرسة الفرحتية^(٤) :

أنشأها سنة (٨٣٦هـ / ١٤٣٢م) السلطان الرسولي الظاهر يحيى ابن الأشرف الثاني إسماعيل (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) في زبيد - وتحتيداً عند تربة الشيخ المتصوف طلحة بن عيسى الهتلر - ويذكر ابن النبيع^(٥) أنه : " رثب فيها إماماً وخطيباً وأيتاماً ومعلماً لهم ... ورثب ما يقوم بكفليتهم " .

● معلمة الأيتام في المدرسة الظاهرية^(٦) :

أيضاً أنشأها سنة (٨٣٥هـ / ١٤٣١م) السلطان الرسولي الظاهر يحيى بن الأشرف إسماعيل (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) في نغز^(٧) ، وقد أوردت الوثيقة - التي أوقف بموجبها السلطان الظاهر الأراضي عليها - كثيراً من المعلومات للمفصلة عنها وعن المهام المناطة بطاقمها ، والتي تعد أنموذجاً عن وثائق الأوقاف المتعلقة بالمدارس في اليمن في العصر الإسلامي ، ومما جاء فيها : " وعلى معلم سعلم القرآن الكريم في المدرسة المذكورة ... على مرور الأزمان إلا في الجُمُع والأعياد والأوقات التي

(١) نسبة إلى مؤسسها وبانيها السلطان الأشرف الثاني إسماعيل (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) .

(٢) أصبح هذا اللفظ شائعاً أثناء الحديث عن تعيين أسماء هيئة التدريس ومعاونيهم في المدارس في مدة الدراسة وما قبلها ، وكذلك للإشارة إلى من تم إختيارهم للقيام بشؤون المدارس إدارياً وخدمياً ، فعندما يرد لفظ (رثب) فلفظسود به (عش) .

(٣) الخزرجي ، المسجد الممجد ، ص ٥٠٥ ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٦٠ ، الرافعية الفسقية ، وثيقة المدرسة الأشرفية الكبرى ، ص ١٣ وما بعدها .

(٤) نسبة إلى أم الملوك جهة الطواشي جمال الدين فرحان ، أم السلطان الظاهر الرسولي يحيى بن الأشرف الثاني المتوفاة سنة (٨٣٦هـ / ١٤٣٢م) ابن النبيع ، بغية المستفيد ، ص ١٠٩ .

(٥) بغية المستفيد ، ص ١٠٩ .

(٦) نسبة إلى السلطان الظاهر يحيى بن الأشرف الثاني (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) .

(٧) المصدر السابق ، ص ١١٠ .

جرت عادة المتعلمين بالمدراس بالبطالة فيها ، أو لعنبرٍ ظاهرٍ بشرط الاستئابة ...
وعلى خمسة عشر يتعلمون القرآن الكريم في المدرسة المذكورة ...^(١) .

(٢) المعلومات الملحقة بالمساجد :

بالرغم من أنه قد عُرف أن بعض العلماء قد حذروا من إنشاء المكاتب - جمع
كُتُب - في المساجد ، وذلك بدافع الحرص على تنزيهاها عما يحسنه الصبيل من
شويد الحيوان وتنجيس الأرض ، فهم - بطبعهم كأطفال - لا يتحرزون من البول
وسائر النجاسات ، ورغبوا في إنشائها على صورة حوانيت في الدروب وأطراف
الأسواق^(٢) ، على الرغم من ذلك إلا أن هناك في اليمن وغيرها من لم يأخذ بهذا التحذير
لو ربما لم يبلغه ، فأقام مكاتب ومعلومات للأطفال - من أيتام وغيرهم - في المساجد .
لم نجد إشارات كثيرة عن المعلومات التي ألحقت بالمساجد في زمن الدراسة ،
وأوضح إشارة إلى ذلك ميفت للعدة التي تناولها بمسنوات قليلة لا تتجاوز العقدين -
غالباً - وفي هذه الإشارات كلها ما يدل على أن المعلومات التي ألحقت بالمساجد هي
أيضاً موقوفة على الأيتام ، وهذا يجعلني أقرر أن هذه المعلومات لم تنشأ إلا على غرار
ما كان شائعاً بناؤه آنذاك من المعلومات العامة للخاصة بعير الأيتام في المجتمع ،
فانتشار بنائها بالطريقة ذاتها يرسم الانطباع الراسخ بأن بناءها في المساجد كان معروفاً
وغير معترضٍ عليه ، ومن هذه المعلومات :

• معلومة بمسجد الأمير بهادر الأشرفي :

أنشاء الأمير بهاء الدين بهادر الأشرفي (ت ٨٠٢ هـ / ١٣٩٩ م) لأحد مماليك
المسلطان الأشرف الثاني إسماعيل السابق ذكره ، وكان إنشائه عام (٧٨٥ هـ /
١٣٨٣ م) ، وقد ذكر الخزرجي^(٣) أنه رتب فيه معلماً وأيتاماً يتعلمون القرآن الكريم .

(١) الوثيقة الخسائية ، وثيقة المدرسة الظاهرية ، ص ٣٨ وما بعدها .

(٢) لشيزري ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، طبعة دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨١ م ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ ،
ابن الأخوا ، معلم القرية في أحكام الحسبة ، تحقيق محمد مصمود شعيان وآخر ، الهيئة المصرية العامة
للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ م ، ص ٢٦٠ ، سعود محمد المصنوع ، الحياة الثقافية في دمشق في عصر
المملوك الجراكسة ، رسالة دكتوراه ، قسم التاريخ بكلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٩٥ م ، ص
١٢٥ .

(٣) طراز أعلام الزمن في طبقات علماء اليمن ، ق ٩٤ - ب ، العهد الفاطمي الحسن في طبقات أكابر اليمن
، نسخة المكتبة الخيرية بالجامع الكبير ، صنعاء ، رقم ٤٣ (تراجم) ج ١ ، ق ٢١٥ - ب ، عبدالله
العبادي : الحياة العلمية في زبيد ، ص ١٦١ .

• معلمة جامع المملاح :

ثم بناؤها مع الجامع سنة (٧٩١هـ / ١٣٨٨م) ، أسسه وشيده للملطان الأشرف الثاني إسماعيل (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) ، وقد عتد الحزرجي^(١) - وهو معاصر لأحداث هذه المدة - الوظائف التي حدد السلطان الثقاتمين عليها في هذا المسجد ، وذكر من بينهم : " ومعلماً يعلم الأيتام القرآن ... " .

(٣) للمعلومات المنفصلة عن المساجد والمدارس :

أما المعلومات المنفصلة والقائمة بذاتها فيبدو أنها كانت قليلة ونادرة ، وقد ورد ذكرها عند المؤلف المجهول^(٢) المعاصر والقريب من البلاط الرسولي ، فقد ذكر أنه " دخل مولانا محمد بن الناصر في المعلقة نهار ٢٤ من شهر جمادى الأولى سنة (٨١٨هـ / ١٤١٥م) ، وذلك في نخل وادي ربيد " وهذا النص على قصره - يعطينا إشارة إلى أن هناك (في نخل وادي ربيد) وجدت معلمة ، فهي منفصلة عن المسجد والمدرسة ، ويستوحى من هذا النص أن مثل هذه المعلقة كانت لأبناء الشرائع الاجتماعية الرفيعة كالملاطين ، فالمقصود هنا هو الأمير محمد بن السلطان الناصر للرسولي (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) ، ولأرجح أن مثل النوع من المعلومات كان شائعاً في كثير من المناطق .

(١) المقصود القلوي، ج ٢ ص ١٧٠ ، ١٧١ ، وذكرها ابن النديم ، بغية المستفيد ، ص ١٠٠ .

(٢) تاريخ الدولة الرسولية في اليمن ، ص ١٧٥ ، وقد نظم الإمام إسماعيل المقرئ قصيدة يهني لواء سلطان الناصر بمناسبة حوله المعلقة (المكتب) يقول فيها :

أتم سرور أن يرى الولد الإبتا	ينافس في الأعلى ويسمو عن الدنيا
وما كان حباً الناصر الملك أبته	محذو حياً عن تشبه بلا معنى
ولكن قضت فيه الفراسة عنده	بل له من دون أبنته شاكاً
فإنها ابن إسماعيل أن محمداً	تربح في كتابه ضاحكاً مناً
إذا قال : بسم الله ، قالت له العلا	عليك من الأسماء وأسماءه الحمى
ولما ابتدئ يهجو الحروف تطاولت	رقاب المعالي نحوه وصفت لآناً
تعوذه بالله وهو يخطها	ويحفظها لفظاً ويفهمها معنى
إذا خطها في اللوح لاحت مخال	بها عنه يثنى عن قريب بما يثنا
ويعترف المهدي له العلم إنه	أرق وأصلى من مطه ذهنا

لنظر القصيدة كاملة في ديوان المقرئ ، ص ٢٣٢ .

والإشارة الثانية إلى مثل هذا النوع من المعلومات ما أورده المؤرخ زياره^(١) عند حديثه عن صبا الإمام الزبيدي المنصور علي بن الناصر صلاح الدين (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) ، فقد ذكر أنه لما أدرك المكتب^(٢) بعد أن حفظ القرآن الكريم وعدداً من المتون نقله ولده إلى حصن ظفار الظاهر^(٣)، فأرسل إليه الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير^(٤) (٨٢٢هـ / ١٤١٩م) أبيات من الشعر يشجعه بها علي الإقبال علي التعلم وحفظ القرآن المتون بهذه الأبيات :

يا ابن الإمام ومن أعز بسيفه	دين النبي وشانه وجماه
كن حينما يهوى أبوك فإنه	يهولك أن تهوى الذي يهواه
وتغيب القرآن نقلاً ثابتاً	ولقد فعلت وذلك ما تهواه

(١) أئمة اليمن ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١

(٢) يبدو أن هذه التسمية (المكتب) جاءت من قبل المؤلف نفسه السدي تسوفي في القرون الماضية (ت ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م) ، فلم يعرف مصطلح المكتب آنذاك كما أورده سابقاً ، والذي يقوي هذا الظن أن هذا النص لم يورده غيره من المؤرخين الزيدية للمباينين الذين عاشوا في زمن الدراسة .

(٣) أصبح اليوم حصناً ثريباً يقع إلى الشمال الشرقي من مدينة دي بون ، يبعد عن صنعاء بمسافة تبلغ ٨٥ كيلومتراً ، ولا يبعي للوقوف - عند ذكر اسمه - عند نقطة (ظفار) وحدها ؛ لأنه مشترك في هذا الاسم مع عدد آخر من حصون اليمن ، فوجب قرنه بما يميزه عن غيره ، ويأتي تمييزه بإضافته إلى (ظفار) وهي المنطقة التي يقع في نطاقها ، كان - في آخر القرن السادس ومطلع السابع الهجريين - مركز حكم الإمام المنصور عبدالله بن حمزة (٦١٤هـ / ١٢١٧م) ، وقد اشتهر هذا الحصن بكونه كان مركز علم شهير ، كان به مكتبة مزدهرة وغنية بالكتب إلى القرون المتأخرة ، الحجري ، مجسموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٣ ص ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، المفطي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، اليمناني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٣١٩ .

(٤) هو الإمام الهادي بن إبراهيم بن علي الوزير ، شقيق الأكبر للإمام الشهير والمجتهد الكبير معتمد بن إبراهيم الوزير صاحب كتاب (العواصم والفواصم في الذب عن سنة أبي القاسم) ، أحد أعلام الفكر الإسلامي في اليمن ، وأحد رموز الفكر الزبيدي وعلمائه المتبحرين ، عالم مجتهد ، إمام في شتى العلوم ، رحل كثيراً في طلب العلم ، فمن مسقط رأسه بهجرة الظهراوين من بلاد شظب إلى مسعدة ومكة وغيرهما ، ساجل وراسل العلماء والأدباء والشعراء من أهل مذهب ومن أهل السنة باليمن ، وكان بينه وبين إسماعيل المقرئ الشافعي الربيدي مودة خاصة ، وبينهما مراسلات شعرية حوفا نبول المقرئ ، وكان - علي عكس أخيه الإمام محمد - أكثر ميلاً لمذهب الزيدية والندود عنه ، وهو ما أدى إلى قيام المحاورات والمناظرات بينهم ، لنظر ترجمته عند زياره ، أئمة اليمن ، ص ٢٩٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، لوجه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٦٩ وما بعدها .

وَحُذِّدَ الْفَرَاتُضَ أَوَّلًا بِكَمَالِهَا قَبْلَ الْبُلُوغِ وَقَبْلَ طَيْبِ جَنَاهُ

ثَانِيًا الْمَسَاجِدُ:

عندما وصل النبي ﷺ إلى قباء على مشارف المدينة جعل بناء المسجد في صدارة مهامه، ففي خمسة أيام هي التي قضاها هناك في ضيافة بني عوف بن عمرو أسس مسجدهم^(١)، وما إن نزل المدينة حتى شرع في بناء مسجده^(٢) مرسياً ذلك التقليد الذي اتبعه أصحابه - ﷺ - من بعده في جعل المسجد نواة لأي تجمع مسلم ناشئ، فهو أول ما وُضِعَ أساسه عند احتطاط المدن الناشئة عقب الفتح الإسلامي لكثير من الأمصار.

ولم يكن المسجد - على عهد النبي ﷺ - مكاناً لإقامة وأداء الشعائر التعبدية فحسب، بل كان مركزاً للعبادة والقيادة والدفاع والتعليم وغيرها، فهو بحق كان نواة دولة الإسلام الأولى ومركزها، منه انطلقت الجيوش المجاهدة للمشاركين الصائدين عن سبيل الله، وفيه عُقِدَتِ ألوية كتائب الفتح، وفيه انتظمت دروس الإيمان والتقوى على مدار ما يقرب من أحد عشر عاماً، فتخرج فيه حملة الإسلام إلى الأفاق من الصحابة - رضوان الله عليهم.

وكانت المساجد على مر العصور منارة للعلم، ومثابة للعلماء، في مساحاتها انعقدت حلقات الدروس وأقيمت المناظرات، وتشتق المذاهب والآراء، فكان ذلك لثراء البعيد في تقدم العلوم والآداب والفنون، وعلى منابرها وقف العلماء والخطباء والأئمة والخلفاء، وأثر عنهم القول بالعلم والنصح والتوجيه، وهو ما تناقلته الرواة وأودعوه بطون الكتب والأسفار^(٣).

ولم يقتصر الدور العلمي والتثقيمي للمسجد في ارتباطه بما سبق من الفعاليات العلمية، بل إن دوره العلمي والحضاري قد زاد خطورة بعد أن ألحقت به العديد من

(١) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، دار طيبة، الرياض، ط ٢، ١٩٨٥م، ص ٥٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٥، ٥٦.

(٣) الرزكشي، إعلام المساجد بأحكام المسجد، تحقيق أبو الوفا مصطفى المراغي، لجنة إحياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط ٦، ٢٠٠٥م، مقدمة المحقق ص ٣.

معاهد العلم التي ابتدعها المسلمون مع الأيام بما تملّيه عليهم الخبرة للمتجددة ، وبما تفرضه عليهم الحاجة للقائمة ، فامتلت ساحات المساجد بمجالس العلم وحلق الذكر ، وجدرانها بخزائن الكتب ، وأغنيتها بالمكاتب والنزل والمبلى ، وفي كثير من الأحيان يستشف القارئ للمصادر أن المسجد قد غدا مجمعا يشمل أماكن العبادة والتعليم والوعظ والإرشاد والضيافة لأبناء السبيل^(١) .

و لعلني لا أبلغ إن زعمت أن المساجد في اليمن قد لقبت من الاهتمام والاعتناء - باعتبارها نور علم وعبادة - ما لم تحظ به مثيلاتها في أنحاء الجزيرة العربية عموماً ، فقد تسابق السلاطين ونسلاؤهم وجواريهم ، وقائنتهم وأمرؤهم ، ووجهاء المجتمع في عهدهم ، كلهم يبعي الإسهام في الاعتناء والرعاية بالمساجد وما ترتبط بها من مرافق أخرى ، أو التأسيس والإنشاء لعدد جديد منها ، ويكفيها في ذلك إشارة واحدة أوردها المؤرخ المعاصر الخرجي^(٢) عن جهود السلطان الرسولي الأشرف الثاني إسماعيل (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) وأحد أمرائه - ويدعى فخر الدين أبو بكر بن بهادر السنبلي - المتمثلة في إصدار التوجيهات بتعمير المساجد وأماكن التعليم الملحقة بها وترميم القائم منها في مدينة زبيد فقط ، فبلغ عدد ما امتدت إليه يد العناية حوالي خمسة وستين مرفقاً .

غير أن التعليم في المسجد في اليمن في مدة الدراسة والعقود القليلة التي سبقها لم يعد مرتجلاً كما كان معهوداً من قبل ، بل أصبح للنظام التعليمي موجهاً في الجوامع الكبيرة منها ، بحيث حُدد من يدرس ، وعدد الطلبة لكل مدرس ، ورسمت لهم الأعطيات والأجور والرواتب^(٣) ، وذلك لا ينفخ إلى تخيل أن التخل هذا قد جاء - سلبياً - على صلب جودة الأداء التعليمي فيها ، أو من باب منع دوي الاتجاهات المذهبية والطمية غير المرغوبة من مزولة أنشطتهم بها ، فلذلك مستبعد تماماً لأننا لو فكرنا بهذه الطريقة فلنأنا سنكون كمن يقوم بمحاكمة الشخصيات للتاريخية والجهات

(١) د. سعيد عشور ، العلم بين المسجد والمدرسة ، من أبحاث ندوة تاريخ المدارس الإسلامية في مصر ، للهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م ، ص ١٧ ، ١٨ .

(٢) العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٨٠ ، وتكرها ابن الديبع ، بغية المستفيد ، ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(٣) الخرجي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٧٠ ، ١٧١ ، عبدالله الحادي ، الحياة الطمية في زبيد ، ص

الاعتبارية فيه بمعايير العصر الحديث وعقلية توجيه التعليم القائمة في كل البلدان في تاريخنا المعاصر ، ويدرك ذلك الظن أن النظرة الأولى على أسماء هيئات التدريس في المساجد آنذاك تثبت أنهم هم أبرز علماء العصر وأكثرهم علماً وأوسعهم فهماً وأصقهم فهماً وأكثرهم تأليفاً .

ومما يجدر الإشارة إليه أن ظهور المدارس النظامية في اليمن لم يبلغ الدور التعليمي للمسجد قطعياً ، فقد ظلت المساجد تؤدي وظيفتها العلمية على أكمل وجه ، وسارت جنباً إلى جنب مع المدارس وغيرها من المرافق التعليمية ، فعقدت فيها للحلقات العلمية ، وقصدها الطلبة من شتى أنحاء اليمن لتلقي العلم على العلماء البارزين في عصرهم^(١) .

وقد راد عدد المساجد باليمن في الأحقاب التاريخية المتأخرة من العصر الإسلامي بشكل مدهش ، جعلنا - مع يقيننا بأن ما ذكرته المصادر التاريخية لا يعدو أن يمثل الربع مما هو قائم - ندرك أن التتبع لها كاملة يحتاج إلى رسائل ودراسات خاصة ، فقد أمر السلطان الرسولي الأشرف الثاني إسماعيل (ت ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م) - على سبيل المثال - بحصر المساجد ، ومعها المدارس العلمية النظامية ، في مدينة زبيد وحدها فقط فبلغت مائتين وبضعاً وثلاثين موضعاً^(٢) .

ونحن - مع يقيننا بأن بعض المساجد التي لم نذكرها المصادر قد شهدت نشاطاً علمياً وحراراً فكرياً يفوق كثيراً تلك الواردة فيها - سنقوم بأخذ عينة فقط من المساجد التي كثرت الإشارات إليها ، وإن كان بعضها قد سبقَت الإشارة إليه في الفصل الأول ، وذلك لأن منزلتها وذكرها في المصادر الدال على استمرارها في أداء دورها العلمي قد فرضها علينا ، وسنقوم بتحديد أشهر من قام بالتدريس فيها بقدر ما تمدنا المصادر من مادة .

(١) جامع الشُّحُر بحضرموت :

أما مدينة الشُّحُر فهي - كما سبق أن عرفنا بها في الفصل الأول من هذه الدراسة - إحدى كبريات مدن الساحل الشمالي لبحر العرب ، وقيل أن الشُّحُر هو اسم الساحل الممتد من عدن حتى عُمان الذي تقع هذه المدينة في وسطه ، وتعد واحدة من

(١) علي بن علي أحمد، الحياة العلمية في تعز، ص ٢٢٦ .

(٢) الخزرجي ، العقود النزلوية، ج ٢ ص ٢٠٣ .

أكبر مراكز محافظة حضرموت الإدارية ، أما الجامع فلم تذكر المصادر من مؤسسه ولا تاريخ يثائه ، لكنها تذكره في معرض الترجمة لعدد من أبرز علماء حضرموت الذي قادوا النشاط العلمي في جوانبه وأركانه ، وكانوا في مقدمة الطلبة حيناً ومتصدرين لإطلاق العلم ومجالسه حيناً آخر .

ومن أشهر العلماء الذين تصدروا التدريس في جامع الشحر تذكر المصادر^(١) الإمام العلامة والقاضي الفقيه عبدالله بن محمد بن حسن بن عُبَين (ت ٩٠٧هـ / ١٥٠١م) ، يقول عنه العبدروس^(٢) : " اشتغل بالعلم فبرع ، وسلك طريق التحقيق ، فلحق مَنْ قبله ، وفات مَنْ بعده ، وتصدر في الشحر للفتوى والتدريس ، وتخرج عليه الطلبة ، وانتفعوا به كثيراً ، وكان سيداً شريف النفس ، كريماً سخياً مفضلاً ، وصولاً للطلبة ، كثير الإحسان إليهم ، وكان يجتهد في جمعهم وترغيبهم للطلب ، ويسعى لهم في الرزق ، باذلاً بهم نفسه ، حسن التعليم ، لين الجانب ، في غاية التواضع " .

ويبدو أن هذا العالم الكبير كان يؤدي واجباته التدريسية في مدرسة خاصة به في الجامع نفسه على الطريقة التي كانت معروفة قبل ظهور المدارس للنظامية ، يتضح ذلك في إشارة المصدر نفسه^(٣) عن جهود الإمام ابن عُبَين التي استرد بها أوقاف جامع الشحر والمدرسة التي كانت الدولة قد وضعت يدها عليها ، فأعاد بذلك الحياة إلى النشاط العلمي في الجامع والمدرسة بعد أن " كاد أن ينطمس ويندرس " على حد تعبير المصدر .

ويعود الفضل للإمام ابن عُبَين في استدعاء الإمام عبدالله بن عبدالرحمن بالفضل (ت ٩١٨هـ / ١٥١٢م) إلى الشحر وتنصيبه إماماً بجامعها الكبير ليقوم بخلافته في قيادة معظم الأنشطة العلمية في جامع الشحر ومدرستها^(٤) .

(١) قسُني ، السناء الباهر بتكميل التور السفر في أخبار القرن العاشر ، تحقيق إبراهيم المقحفي ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، ط ١ ، ٢٠٠٤م ، ص ٥٣ ، العبدروس ، التور السفر عن أهل القرن العاشر ، دار لكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٥م ، ص ٤٣ .

(٢) العبدروس ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٤) قسُني ، السناء الباهر ، ص ٥٤ ، العبدروس ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .

ومن العلماء الذين تصدروا التدريس في جامع الشحر نذكر القاضي الإمام عبدالله بن عبدالرحمن بالفضل (ت ٩١٨هـ / ١٥١٢م) الذي أشرنا إليه ، فقد قدم إلى الشحر بمعية الإمام ابن عثيمين ، وصفته المصادر بأنه " كان أواحد وقته علماً وعسلاً وورعاً ، كان قد ارتحل في طلب العلم إلى عدن وغيرها ... ودأب في الطلب وأكسب على الاشتغال حتى برع وتميز ، واشتهر ذكره ، وبغض صيته ، ولثني عليه الأئمة من مشائخه وغيرهم ... وكان حافظاً أوقاته ، لا يرى إلا في تدريس علم ، أو مطالعة كتب ، أو اشتغال بعبادة لو ذكر (١) .

استجاب الإمام بالفضل للقاضي الفقيه عبدالله بن محمد بن حسن بن عثيمين عندما دعاه للتدريس في جامع الشحر - كما مر - فتولى التدريس به ، وانتصب فيه للامتناع والفتوى ، وصار عمدة الأنحاء ، وانتهت رئاسة الفقه ، وانتفع به الناس كثيراً ، وكان عمدة أهل زمنه في التدريس والفتوى (٢) .

(٢) جامع الأشاعر بزبيد :

سبقت الإشارة - في الفصل الأول - إلى أن مسجد الأشاعر من أقدم المساجد في اليمن ، وأن هناك من يقول أنه من المساجد التي بنيت على عهد النبي ﷺ على يد الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري ، وقد احتل هذا المسجد مكانة عالية في نفوس المقيمين بزبيد أو الواردين إليها ، وكذلك حکام اليمن المتعاقبين في السيطرة على المنطقة ، لذلك لم تتأثر منزلته التعليمية بمرور دور المدارس النظامية ، فقد اضطرد النشاط العلمي فيه دائماً ، وكان خيرة العلماء يُندبون للتدريس والإفتاء فيه ، وكان حب العلماء له دفعاً لبعضهم للتأليف عن فضائله وأخباره وأخبار من قلم بالتدريس فيه ، منهم محمد بن عبدالوهاب المقداد الشهير بابن النقيب (ت ٩٩٢هـ / ١٥٨٤م) صاحب كتاب (قرة العيون وشرح الخواطر فيما حكاه الصالحون في فضل مسجد الأشاعر) ، ومحمد بن دبا صاحب كتاب (تحفة الناظر في أخبار مسجد الأشاعر) (٣) .

(١) لحدروس ، التور للسافر عن أخبار القرن العاشر ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٣ .

(٣) الأول هو أحد مصادر دراستنا ، والآخر ذكره الريدي ، نفائس النفائس فهم أنشأ وعمر من المساجد والمدارس ، نسخة مصورة لدى القاضي إسماعيل الأكرع ، صنعاء ، ق ٦ .

وقد تحدثت المصادر عن الشخصيات التي قادت بعض الأنشطة العلمية فيه ،
وتقلد بعضها بعض المهام الدائمة به ، مثل الإمامة والخطابة والتدريس وغيرها ،
وأشهر من درس به في القرن التاسع الهجري الإمام شرف الدين إسماعيل بن أبي بكر
بن عبدالله الشاوري للشرجي الشهير بالمقري (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) ، مستحدث
عن بدايات نشأته العلمية في الصفحات القادمة عند حديثنا عن مركز أبحاث حسين
العلمي ، يكنيه تزكية أن وصفه الإمام ابن حجر العسقلاني^(١) بأنه : " عالم البلاد
اليمنية " ، كما قال عنه الخزرجي^(٢) بأنه كان يتوقد ذكاء ، وكان قد قدم زبيد شاباً يطلب
العلم ، فقرأ كثيراً من العلوم على أيدي أفضل علمائها ، فبرز في كل علم قرأ فيه حتى
فاق أهل عصره ، وطال صيته ، وصار إماماً في الفقه والعربية والمنطق والأصول ،
وصارت له اليد الطولى في الأدب نظاماً ونثراً^(٣) .

تحدثت المصادر^(٤) عنه بأنه كان إمام الناس في جامع الأشاعر عندما ذكروا أن
بعض تلاميذ قد خلعه في إملة الجامع بعد وفاته ، ومنهم الإمام موفق
الدين علي بن محمد قحر (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) الآتي ذكره .
من ذلك قيام قاضي القضاء مجد الدين الفيروزيادي - صاحب القاموس
المحيط - بتعيين الفقيه الإمام موفق الدين علي بن محمد قحر (ت ٨٤٢هـ /
١٤٣٨م) لإمامة المسجد وتدريس الفقه به بأمر من السلطان الأشرف اللثاني
الرسولي^(٥) كما أشرنا إليه في الفصل الأول .

ويعد الإمام الفقيه الشافعي محمد بن إبراهيم الحسيني (ت ٨٥٣هـ / ١٤٤٩م)
من كبار الفقهاء الذين تصدروا للتدريس فيه ، قال البريهي^(٦) في التعريف به : " الفقيه
العالم الصالح جمال الدين محمد بن إبراهيم ناصر الحسيني ، قرأ على الإمام شرف
الدين إسماعيل بن أبي بكر المقري ، وهو أكبر مشائخه في اليمن ، وعلى غيره من

(١) إنباء الفخر بأبناء العصر ، ج ٣ ص ٥٢١ .

(٢) العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٣١٨ .

(٣) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢١٣ ، الشوكاني ، نهد الطالع ، ج ١ ص ١٥٨ - ١٦١ .

(٤) الخزرجي ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٣٨ ، البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣١١ ، ٣١٢ .

(٥) الخزرجي ، المصدر السابق ، نفس الجرد والصفحة .

(٦) طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣١١ ، ٣١٢ .

العلماء ، فجدّ واجتهد حتى صار عالماً عالماً عابداً زاهداً صالحاً ، عليه سكينه العلم ووقار التقوى ، وقد أجاز له الإمام الجزري والإمام كمال الدين الضجاعي ، فدرس وأفتى ، ورُتّبَ إماماً بمسجد الأشاعر بعد موت الإمام شرف الدين المقرئ والإمام ابن حجر ... وكان منقولاً^(١) كُتِبَ للحلوي الصغير ... " .

ومن تولى إمامة هذا الجامع المبارك الفقيه محمد بن إبراهيم العلوي (ت ٨٢٢هـ / ١٤١٩م) وولده أبو القاسم الملقب بالهام^(٢) .

(٣) الجامع الكبير بزبيد :

تشير بعض المصادر إلى أن هذا المسجد هو أحد المساجد التي تم بنائها في العهد النجاشي على يد قائدهم الشهير للحسن بن سلامة في أوائل القرن الهجري الخامس^(٣) ، وهو أكبر مساجد زبيد مساحةً وأكثرها اتساعاً ، وثانيها في المنزلة الروحية لدى الناس ، لذلك كان معظم الوافدين إليها - سواءً من قصدها لذاتها أو من كان ماراً بها في طريقه إلى غيرها - ينزلون فيه ليستندوا إلى أعمدته في لقائهم لدروسهم على كبار علمائها وطلابها ، وكانت الخطبة على منبره من حق وجوه العلماء ومرزقيهم ، ولا يتبادر إلى ذهن البعض أن الخطبة على منبر الجامع الكبير بزبيد كانت محصورة فقط في الجمع والأعياد ، فقد أشار البريهي^(٤) أثناء تلوله لبعض من تولى إمامة الجامع الكبير بزبيد والإقراء به إلا أن الدروس كانت تنتظم فيه على مدار أشهر عدة ، لذلك فقد أولاه السلاطين للرسوليين والطاهريين عنايتهم الخاصة ، فكثر الإقبال عليه من طلبة العلم حتى أن بعض حلقاته زادت على مائتي طالب^(٥) .

ومن العلماء الذين اشتهر نشاطهم العلمي في هذا الجامع خطابةً وتديساً الإمام العلامة الواعظ كمال الدين موسى بن محمد الضجاعي (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) ، ترجم له بعض المؤرخين^(٦) المعاصرين له فقال : "قرأ وسمع على الأئمة من بني

(١) في منهجه المستند في التكريس

(٢) عبدالله العبادي ، الحياة العلمية في زبيد ، ص ١٤٩ .

(٣) الفزرجي ، المسجد المسبوك ، ص ١٥٧ .

(٤) طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣١٠ .

(٥) بلخزمة ، تاريخ شرف عدن ، ص ٢١٥ .

(٦) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣١٠ .

الناشري^(١) وغيرهم ، وأجازوا له فدرس وأفتى ، وأضيف إليه الخطابة بجامع زبيد ، فكان لوعظه موقع في القلوب ، ودل على ذلك مدة طويلة ... وانتهت إليه الرئاسة في علم الحديث بعد موت الفقيه عثمان الأحمر ، وكان يدرس في علم الحديث في الثلاثة الأشهر : رجب وشعبان ورمضان ، ويدرس الفقه باقي السنة ... واشتهر هذا الفقيه بالعبادة والرهادة .

ومن أبرز فقهاء العصر الذين اتخذوا ساحات الجامع الكبير بمدينة زبيد موطناً لنشر العلم يأتي الإمام العلامة جمال الدين محمد الطيب بن أحمد الناشري ، " الإمام المجمع على جلالة وفضله وتضلعه في العلوم ، قرأ على والده ولي الله القاضي شهاب الدين أحمد الناشري ، ثم على غيره من فقهاء مدينة زبيد وغيرهم بجميع فنون العلم ، وأجاز له الشيوخ الكبار في مكة المشرفة والمدينة الشريفة عند أن سافر للحج والزيارة ، وأجاز له الشيخ مجد الدين الشيرازي والشيخ شمس الدين الجزري ... واشتهر بحسن التدريس والصواب في الفتوى^(٢) .

ومن أشهر العلماء الكبار الوافدين على زبيد وعقدوا في جامعها الكبير مجالس الإقراء والتدريس تذكر المصادر^(٣) الفقيه محمد بن خضر الكابلي (ت ٧٩٤هـ / ١٣٩١م) ، كان في طريقه إلى الحج فمر على زبيد - بعد أن تحطمت مراكبه قبالة ساحلها - فكثر الجالسون إليه في الجامع المذكور ، وفيهم كبار علمائها من الشافعية والأحناف ، حتى بلغ عددهم رهاء المائتين ، وقرأوا عليه الجامع الكبير للشيباني ، وأصول الفقه للبرزدي ، ومختصر الكنز وعوارف المعارف ، وكان يجلس للدرس من بعد صلاة الظهر إلى صلاة العصر ، واستمر مجلسه من جمادى الأولى حتى شوال من سنة (ت ٧٩٣هـ / ١٣٩٠م) .

(١) واحدة من أكبر أسر العلم في زبيد ، سيأتي الحديث عن بعض أعلامها والتعريف بقريتهم العلمية في شابا هذا الفصل للدراسة .

(٢) البرهبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣١٧ ، ٣١٨ ، السخاوي ، الضوء للامع ، ج ٤ ص ١٤ ، ج ٦ ص ٢٩٨ ، الشرجي ، طبقات الخواص ، ص ٩٢ .

(٣) بامخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ص ٢١٥ ، الخزرجي ، العقد الملمع الحصن في طبقات تكابر اليمن ، صورة عن نسخة بمكتبة القاضي إسماعيل الأكوخ ، صنعاء ، ق ١٤٦ - ب ، عبدالله العبادي ، الحياة العلمية في زبيد ، ص ١٥٣ .

وفي عهد الدولة الطاهرية حظي هذا الجامع بعناية كبيرة من سلاطينها ، سواء من ناحية اختيار أفضل العلماء لمهمة الخطابة في منبره والتدريس فيه ، أو من ناحية وقف الأراضي المثمرة والعقارات عليه ، وقد كان حرصهم على ترتيب أفضل العلماء فيه أن من لحقته شبهة ما رتبوا غيره بدلاً عنه ، من ذلك أن السلطان الظاهر الثاني عامر بن عبد الوهاب عزل سنة (٨٩٩ هـ / ١٤٩٤ م) الفقيه الخطيب عبد المنعم الضجاعي عن وظيفته في الخطابة بجامع زبيد لهفة حصلت من ولد موسى^(١) ، ورتب عوضاً عنه الفقيه أبا القاسم بن عبد الرحمن اليربر الذي كان خطيباً بالحديدة ، وفوض إلى الفقيه عمر ابن جعمان تدريس الفقه فيه ، وولي الفقيه أحمد الزبيدي تدريس القراءات في الجامع المذكور ، ورتب في الجامع ثلاثين مقرأً يقرأون بعد كل صلاة ، وجعل في الجامع ثلاثة خدام يقومون بالعناية به ، وأمر أن يفرش جميع المسجد ولا يطوى فرشته^(٢).

وفي السنة نفسها لوقف السلطان الظاهر على جامع زبيد أرضاً نفيسة تعرف بأمر للرزق ، وأراض أخرى غيرها ، كما لوقف " جميع ما دخل في مسجد الجامع من بناية من الطين والآجر والأخشاب والحديد وغير ذلك " ^(٣).

(١) هذا الإجراء فيه شدة غير مستساغة ولا مبررة من وجهة نظري ، إذ كيف يؤخذ الرجل بجريرة ولده .

(٢) بأسخرمة ، قلادة النحر ، ج ٢ من ٧٧٨ ، ٧٧٧ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء والمصحة .

(٤) جامع السلطان المظفر بذي عدينة^(١) :

أنشأ السلطان المظفر الأول يوسف بن المنصور عمر (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م) ثاني سلاطين الدولة الرسولية وأحد عظماء الحكماء في تاريخ اليمن ، وقد نسب هذا الجامع إليه ، وهو من المساجد الجامعة التي كانت - وما زالت إلى يومنا هذا - في القرن الخامس عشر للهجري - من منارات العلم والمعرفة ، وقد توارث نشر العلم به عدد من أعلام الفقهاء والمحدثين في اليمن .

وممن تولى التدريس بالجامع المظفري في مدة دراستنا للفقهاء العالم وجيه الدين عبدالرحمن بن محمد النحواني (ت ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م) ، كان من أكابر علماء اليمن وفقهائه ، تقلد مهمة التدريس في أماكن عدة قبل تصدره لها في الجامع المذكور ، مدحه المؤرخ المعاصر البريهي^(٢) كثيراً ، ومما قاله فيه : " كان إماماً متضلعا من العلوم النافعة ... قرأ على الإمام رضي الدين الشنيني الأصبحي^(٣) كتب المذهب والوسيط والوجيز والبيان ، وجملة من كتب الحديث ... وقرأ الحديث على الإمام نفيس العلوي وعلى مجد الدين الفيروزبادي ... وكان دأبه التحصيل والتدريس ، واجتمع له من الكتب جملة صالحة ، وكان أبلغ أهل وقته وأفصحهم في الشعر والخطبة ... " .

وممن تولى التدريس فيه الفقهاء العالم صفى الدين أحمد بن محمد بن علي التباعي (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م) ، طلب العلم على عدد من أشهر أعلامه باليمن ، مثل للفقهاء جمال الدين الريمي في الفقه ، وعفيف الدين الشنيني في القراءات ، والإمام نفيس العلوي في الحديث ، وغيرهم كثير ، وقد أجازوه كلهم ، وتصدى للتدريس والفتوى في مناطق كثيرة قبل أن يتولى يحبس للتدريس بالجامع المظفري ، ولم يكن بغريب على هذا العالم أن يبرز طالباً للعلم ومدرساً له ، فهو ناشئ في بيئة علمية ، إذ

(١) منطقة تقع على سفح جبل صنبر ، في الطرف الجنوبي لمدينة تمز ، وليل أنها هي للوثة التي تشكلت مدينة تمز حولها في الفترات التاريخية المتأخرة ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبلها ، ج ١ ص ١٤٦ ، المصطفى ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ٢ ص ١٠٣١ .

(٢) طبقات صلحاء اليمن ، ص ٩٠ ، ٩١ ، الأكرع ، المدارس الإسلامية في اليمن ، مؤسسة الرسالة ، دمشق ، ط ٢ ، ١٩٨٦م ، ص ٢٩١ .

(٣) أحد كبار علماء منطقة السعول بمواهي مدينة إب ، تخرج عليه معظم أعلام الفقهاء والقضاة بمنطقة إب ومن نخلها طلباً للعلم ، أخباره كثيرة لدى البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٨٤ وما بعدها .

كان معظم أقربائه أمثاله ، تصرح بذلك بعض المصادر^(١) فنقول : " كان من أهل بيت فقه ورئاسة ... " .

كما درس به المقرئ العلامة شمس الدين علي بن محمد الرفدي المشهور بالشرعبي (ت ٨٧١هـ / ١٤٦٦م) ، وهو من أكبر علماء اليمن في القراءات وأشهرهم على مدار تاريخها العلمي ، رحل كثيراً في طلب العلم ، فلجازه شيوخ مكة والمدينة ومصر ، واجتمع بالمقرئ شمس الدين الجزري ، والراجح أن اجتماعه به كان بعد زيارته لليمن ، فقرأ عليه بالقراءات السبع ، وسمع الحديث والتفسير على الإمام نفيس الدين العلوي وجمال الدين بن الخطاط ، " كل وحيد عصره في علم القرآن وفي إيضاح ما أشكل منه ... لم يبق بمدينة تعز وما قاربها مقرئ إلا وهو من ذرئته لو دراسة درسته ، وكان جهوري الصوت ، لاقطاً حقيقاً ، ثباتاً محققاً ، وإذا وعظ وجلت القلوب لوعظه ... ودام على الخطابة والإمامة في جامع ذي عدينة نحو أربعين سنة^(٢) .

(٥) الجامع الكبير بمدينة إب :

لم تصرح المصادر بمن أنشأ هذا الجامع ، ولا بتاريخ إنشائه ، ولكنها رصدت كثيراً من الأنشطة العلمية فيه ، وفي مقدمة النشاط للتكريمي ، فجددها تسجل ما عمله العلماء فيها ، ومن أشهر من وردت أسمائهم في المصادر^(٣) نجد أبو الخطيب عمر بن حسين بن أبي النهي (ت ٥٦٧هـ / ١١٧١م) وأبا الحسن أحمد بن محمد البرهبي (ت ٥٦٨هـ / ١١٩٠م) وأبا عبدالله محمد بن مضمون (٦٣٣هـ / ١٢٣٥م) .

وفي المدة المتأولة في لدراسة نجد البرهبي وهو يورد لنا أسماء مجموعة من الفضل علماء اليمن ، ويشير إلى تصديهم للتكريس في هذا الجامع ، وكثيراً ما يصفه بالجامع المبارك ، وهي صفة تعكس منزلة التي يحتلها هذا الجامع في قلبه كونه أحد الذين جلسوا فيه للتلقي .

(١) البرهبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢١٥ ، الأكوخ ، المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ ،

(٢) علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في تعز ، ص ١٣٢ ، البرهبي ، المعاصر الصفيق ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٣) الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٣١٨ ، ٣٥٥ ، ٣٩٧ ، ابن سيرة ، طبقات فقهاء اليمن ، ص ١٧١ .

وممن جاء في نكرهم أنهم قاموا بالتكريس في جامع مدينة إب نذكر الإمام الفقيه النحوي الفرضي صفي الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر البريهي (ت ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م) ، كان - وأبوه من قبله - من أشهر المدرسين للعلم بمدينة إب ، وقد برز بين العلماء رغم صغر سنه ، فجمع ما تفرق من العلوم ، ودبى ببراعته القلوب والكلوم ، " أخذ للفقه عن عمه الإمام أحمد بن أبي بكر البريهي والإمام جمال الدين محمد الكاهلي ، والنحو عن والده - وكان قاصياً باب - ، والقراءات السبع على المقرئين عبدالرحمن الملحاني وعثمان النجراني ، والحديث عن الإمامين نفيس الدين الطوي وتقي الدين القاسبي ، تولى نيابة القضاء عن والده ... ثم استقل بذلك ، واشتغل بالتكريس والإفتاء ، وانتفع به جماعة من الطلبة ... وكان مصراً بالتعليم ، يعين الطالب على قصده حتى أن بعض شيوخه قرأ عليه ، وكان فطناً يسهل عليه حل المشكلات ، فكانت ترد عليه المسائل العويصة فيبادر إلى الجواب عليها من غير تلثم ... " (١) .

وكما درس فيه للمقرئ الإمام تقي الدين عمر بن عيسى الخطيب (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م) ، وكان عالماً موصوفاً بالفضل والسيرة الطيبة المحمودة ، برع في علم القرآن الكريم والفقه والنحو على وجه الخصوص ، وكان خطيباً مفوهاً شديد التأثير ، قال البريهي (٢) : " كان خطيباً في مدينة إب ، ولكلامه ووعظه في القلوب موقع ، وكان قريب العبارة ، حسن الصوت ... انتفع به جماعة من الدرس في النحو والقراءات السبع ، وكان كثير الاعتكاف في الجامع المبارك ، باذلاً نفسه للطلبة ، ودم على ذلك سنين كثيرة إلى أن توفي " .

وقد سرد البريهي أسماء عدد من العلماء والمقرئين الذين تولوا في هذا الجامع وظائف عدة كالإقراء والخطابة وغيرها ، منهم الفقيه المقرئ المكفوف أحمد عبدالله (ت ٨٣١هـ / ١٤٢٧م) ، " كان رجلاً فاضلاً ، دأبه قراءة القرآن وإقراء الدرس للقرآن العظيم بالجامع المبارك في سبيل الله تلقيناً ... " (٣) ، وكذلك المقرئ

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٠٠ ، ١٠١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١١ ، ١١٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

الصالح تقي الدين عمر بن أبي بكر الكلاي^(١) (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) ، والفييه
عفيف الدين عبدالله بن عبدالحق الكاهلي^(٢) (ت ٨٣٥هـ / ١٤٣١م) ، والفييه جمال
الدين محمد بن حسن البريهي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) ، وغيرهم كثير .

ثالثاً المدارس :

كان المجتمع الإسلامي يرتقي في السلم الحضاري والاجتماعي مع مرور الأيام،
وكان الاهتمام بالعلم عقيدة عند أفرادهِ ، ليس من كماليات حياته ولا من صور شرف
عقليته ، لذلك كانت العناية تتركز على العلم وما يتعلق به وبأمكن نشره ودراسته ،
وأوجدت الظروف السياسية والمذهبية مسوغات أخرى تدعو إلى العناية الكبيرة به
كونه أحد ركائز قيامها وبقائها في ظروف محددة وجدت نفسها في مراجعتها ، مثل
الحاجة الملحة التي وجد السلاجقة الأتراك أنفسهم أمامها متمثلة في وجوب إقناع
المذهبيين الشيعة الزيدي والإسماعيلي ، حيث أن الأول كان البعد المذهبي الذي قامت
عليه دولة النويهييين ، والثاني كان له تواجد لا يستهان به في بعض قلاع فارس
وحصونها المنيعه ، فانبرى الوزير نظام الملك لتأسيس أول مدرسة بالعراق سنة
(٤٥٧هـ / ١٠٦٤م)^(٣) - تم تسميتها إليه - لتسهم في تحقيق ما ربه في اجتثاث الفكر
الشيعة المشار إليه ، وبنى أخرى في نيسابور^(٤) ، ولأسمباب مشابهة قسام السلطان
الناصر صلاح الدين الأيوبي بتأسيس مدرسته الناصرية المنسوبة إليه في مصر سنة
(٥٦٦هـ / ١١٧٠م)^(٥) .

إلا أن هناك بعض النصوص التاريخية التي تشير إلى أن هذه المدارس لم تكن
أول ما أنشئ من نوعها في العالم الإسلامي ، فقد كان هناك مدارس سبق بنائها
بحوالي نصف قرن من الزمان ، ويشار بذلك إلى المدرسة الصلارية التي بناها أحد

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٠٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

(٣) ناقش هذه المسألة الزركني ، إعلام الساجد بأحكام المساجد ، ص ٣١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٢ ، د. نجاح القابسي ، المعاهد والمؤسسات التنظيمية في العالم الإسلامي ،
ص ١٨٨ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ص ١١٠ ، ابن دقاق ، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ، تحقيق
محمد كمال الدين عز الدين ، بيروت ، ١٩٨٥م ، ص ١٧ .

أمراء دمشق ويدعى الأمير شجاع الدين صابر بن عبدالله وذلك عام (٣٩١هـ / ١٠٠٠م)^(١) وبعدها بسنوات قليلة جداً أنشئت الدار الرشائية لتعليم القرآن الكريم وعلومه بدمشق أيضاً^(٢) ، كما أشار الزركشي^(٣) إلى أن هناك أربع مدارس كانت قد أنشئت في نيسابور قبل المدرسة النظامية السابق ذكرها .

وعود إلى اليمن حيث يجد المروء نفسه مجبراً على الوقوف طويلاً أم مسألة ظهور المدارس العلمية فيها خلال تاريخها العلمي في عصرها الإسلامي ، وذلك للدور الخطير الذي لعبته المدارس في نشر العلوم وبعثها ، وللمكانة التي احتلتها لدى الركائز البشرية المعنية بالعلم ونشره وطلبه ، خاصة أن هذه المسألة قد لكتنفها الغموض لدى بعض المؤرخين القدامى من كتّاب المصادر أو الباحثين المعاصرين ؛ فدار - بسبب ذلك - جدلٌ غير مقصود بين الأخيرين ، إذ نجد أن البعض^(٤) ينسلق وراء الإشارة التي أوردها المؤرخون اليمنيون^(٥) بأنها نشأت في أواخر القرن الهجري السادس على

(١) النعمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، طبعة دار الكتب الجديد ، دمشق ، ١٩٨١م ، ج ١ ، ص ٥٣٧ . د. رضوان أحمد الليث ، الحياة العلمية في بلاد الشام خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ٢٠٠٤م ، ص ٨٧ .

(٢) سمود محمد العصفور ، الحياة الثقافية في دمشق في عصر المماليك الجراكسة ، ص ١٣٠ .

(٣) إعلام الساجد بأحكام المساجد ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٤) من هؤلاء (البعض) نجد : آلاء أحمد الأصبحي ، المدرسة الأشرفية بفتح ، من إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ٢٠٠٤م ، ٤٨ ، الأكرع ، المدارس الإسلامية قسي السيمن ، ص ٥ ، ٦ ، الحبشي ، حياة الأديب اليمني في عصر بني رسول ، منشورات وزارة الإعلام والثقافة بالجمهورية العربية اليمنية ، ط ٢ ، ١٩٨٠م ، ص ٧١ ، الشيعة ، دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية واليمينية ، من أبحاث ندوة تاريخ المدارس الإسلامية في مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م ، ص ٤٣٤ ، ٤٣٥ . د. عصام الدين عبدالرؤوف الفلي ، اليمن في ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام الدولة الرسولية ، دار الفكر العربي ، ط ١ ، ١٩٨٢م ، ص ٣٦٠ . د. هاروق أحمد مجاهد ، التنظيم في اليمن في عهد دولة بني رسول خلال القرنين السابع والثامن الهجريين ، إصدارات جامعة صنعاء ، ٢٠٠٤م ، ص ١١٧ . د. محمد سيف النصر ، نظرة عامة على تخطيطات المدارس اليمنية ، مجلة الإكليل ، العدد الأول ، ١٩٨٥م ، ص ١٠٠ . د. محمد عبده السروري ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في السيمن في عهد الدولات المستقلة ، ص ٥٥١ .

(٥) المؤرخون الذين أوردوا هذه الإشارة هم الجلدي ، الملوك ، ج ٢ ، ص ٥٣٦ ، الحرجي ، المسجد المنصور ، ص ١٧٣ ، ابن عبدالمجيد ، بهجة الزمن في تاريخ اليمن ، تحقيق عبدالله الحبشي ومحمد المنباني ، دار الحكمة اليمنية ، صنعاء ، ط ١ ، ١٩٨٨م ، ص ١٣٥ ، إلياسي ، السقط الخالي الثمن في أخبار

أبدي الأيوبيون الذين حكموا اليمن ابتداءً (٥٦٩هـ / ١١٧٣م) ، بينما البعض الآخر يقوم بإثبات قَدَم ظهورها على هذا التاريخ^(١) ، ومن أجل ذلك أردت أن أرمي بسهمي بينهم محاولاً الوقوف عند النصوص التاريخية المتوافرة ، مستضيئاً بآراء الباحثين الذين سبقوني في دراسة جوانب المشكلة المذكورة ، خاصة أن بعضهم^(٢) قد أجاد كثيراً - مع حاجتي إلى الوقوف مع آرائه - في استجلاء أرجح الأقوال في بداية ظهور المدارس العلمية في اليمن .

لبدأ حديثي بتعريف المدرسة اصطلاحاً ، لأن وضوح دلالة المصطلح يعين كثيراً على فهم جوانب متعلقة بالمسألة موضوع النقاش ، فقد عُرِّفَت المدرسة بـصور مختلفة منها :

- تعريف الدكتور أحمد فكري^(٣) : " المسجد الجامع الذي أقيمت في حرمه بيوت لمكثى فريق مختار من الفقهاء أو الطلاب ، ورُتَّب لتدريسهم فيه مدرسون بأجر معلوم ، ووفِّرت للجميع فيه سبل البحث والدراسة والمعيشة ، وأجريت عليهم الجرايات الوافرة " .

الملوك من الغز باليمن، تحقيق ركس سميت، طبع ضمن مجموعة جيب التذكارية، لندن، ١٩٧٤م ، ص ٤٠ .

(١) منهم : عبدالعزيز بن راشد السندي ، المدارس اليمنية في عهد الدولة الرسولية ، ص ٤٥ - ٤٧ ، عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ١٠١ - ١١٤ ، عبدالله عبدالسلام الحداد ، مدينة هيس اليمنية تاريخها وأثرها الدينية ، دار الأفاق العربية ، ط ١ ، ١٩٩٩م ، ص ٩٢ ، د. عبدالرحمن حسن جار الله ، ذي السفال : مدينة الآثار الإسلامية ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ٢٠٠٤م ، ص ٦٤ ، عبدالله العبادي : الحياة العلمية في زبيدة، ص ١٦٤ - ١٦٩ ، علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في نجر، ص ٢٣٨ - ٢٤٠ .

(٢) المقصود هنا هما الباحثان د. محمد علي العروسي ، مدارس العلوم الإسلامية في اليمن - الأيوبيون والمدارس في اليمن ، مجلة الإكليل ، صنعاء ، العدد ٢٥ ، أبريل - يونيو ، ٢٠٠١م ، ص ٩ - ٣٩ ، وعبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ١٠١ - ١١٤ .

(٣) مساجد القاهرة ومدارسها - العصر الفاطمي ، الأيوبي ، دار المعارف ، القاهرة ، (د ، ت) ، ج ٢ ص ١٩٢ .

■ وعرفها الدكتور أيمن فؤاد سيد^(١) بأنها : " المكان الذي يُتَّخَذُ لتلقي علم واحد ، على أيدي شيوخ موقوفين عليه ، وذلك لتمييزه عن حلقة المسجد ، وأن يكون ملحفاً به مكن لسكن المدرسين والطلاب ، مع وجود معاليم دارية عليهم ولمن يقوم بالتدريس فيها " .

■ وعرفها الدكتور محمد ماهر حمادة^(٢) بأنها : " مكان لتدريس عدد معين من الطلاب ، على أيدي أساتذة مخصصين ، مواد دراسية ذات مستوى معين " .

■ وأعرفها أنا مراعيًا للحدود الدنيا لمقومات قيامها بأنها : " هي المكان الذي يقرره شخص ما - عالماً أو سلطاناً أو من في حكمهما - بهدف تخصيصه لقيام هيئة علمية معينة بنشاط تدريسي موجه لعدد من المتلقين في علم واحد أو أكثر ، في وجود مصدر تمويل لتلبية متطلبات تسيير ذلك النشاط " .

■ وعلى ذلك أستطيع التوصل إلى تحديد المقومات اللازمة لقيام المدرسة ، على أن هذه المقومات التي سأوردها تظل في مستوى السقف الأعلى ، وهذه المقومات هي :

(١) المكان ، أو المساحة الجغرافية التي تستخدم ميداناً لإلقاء الدروس وعقد مجالس التدريس والإقراء ، وقد يكون مسجداً ، أو غرقاً ملحفاً به ، أو بناءً أُسِّنَ خصيصاً ليُتَّخَذَ مدرسة .

(٢) الهيئة العلمية ، وقد يقل عدد أعضائها في بعض الحالات إلى الرقم [١] بينما من الممكن ارتفاعه حتى يتجاوز العدد [١٠] ، ويدخل في ذلك الفقيه والمحدث والقيّم والمعيد ومعلم الصبيان والمقرئ والنّاظر وغير ذلك

(١) المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي ، من أبحاث ندوة تاريخ المدارس الإسلامية في مصر ، الهيئة المصرية للعلم للكتاب ، ص ٩٩ .

(٢) المكتبات في الإسلام : نشأتها وتطورها ومصارفها ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٨ م ، ص ١٣٥ .

- (٣) الطلاب المتفنين للعلم ، المشككين لقوام الحلقات الدراسية .
- (٤) المنهج المقرر ، حتى لو لم تذكر عناوين مواد ومفرداتها في أدبيات خاصة مكتوبة بالمفهوم القائم في العقلية المعاصرة .
- (٥) مصادر تمويل دائمة أو شبه دائمة ، يصرف منها على الهيئة العاملة والطلاب وما تستلزمه أماكن الدراسة وما في حكمها .
- (٦) أماكن مخصصة لفرز الطلاب وأعضاء الهيئة العاملة .
- لذا أرنو من خلال سرد المقومات اللازمة لقيام المدرسة العلمية إلى جعلها معياراً أحكم من خلاله على مدى امتلاك تلك المرافق التي استخدمها بعض علماء اليمن - قبل وصول الأيوبيين إليها - للحدود الدنيا من البنية الأساسية للمدرسة ، لذلك أقرر بأن المقومات الأربعة الأولى تمثل الحد الأدنى للمدرسة ، إذا افتقد أحدها لم يعد من الجائز لنا أن نسمي المرافق مدرسة .
- ومن خلال تلخيصنا لما توفره المصادر من معلومات عن تلك المرافق التي

أطلق

عليها (مدارس) قبل وصول الأيوبيين إلى اليمن فإننا سنجد أنفسنا أمام نوعين منها :

النوع الأول : نفق أمامه مجبرين على تجنب استخدام كلمة مرفق ؛ لأن هذه المدارس كانت كلها مرتبطة بالمسجد ، فهي :

❖ إما في مقدمة المسجد كما هو حال مدرسة الإمام زيد بن عبدالله اليفاعي (ت بعد ٥١٣هـ / ١١١٩م) بسمجد الجند ، التي كانت عن يمين المنبر ، وكان يتكئ عليه أثناء التدريس^(١) .

❖ أو أن تكون في إحدى روابي المسجد مثل مدرسة الإمام أبي بكر بن جعفر بن عبدالرحيم المحابي (ت ٥٠٠هـ / ١١٠٦م) - شيخ الإمام زيد السابق ذكره^(٢) .

❖ أو في غرف ملحقة بالمسجد كما هو الحال مع مدرسة ابن عبدويه (ت ٥٢٥هـ / ١١٣١م) في جزيرة كمران ، فقد زارها ابن سمره المؤرخ فقال : " فببركت بزيارة هذا المسجد ولقبرين وأثار الفقهاء ومواضع التدريس " فإقراده لذكر

(١) ابن سمره ، طبقات فقهاء اليمن ، ص ١٢٠ ، ١٥٠ ، الجندي ، الملوك ، ج ١ ص ٢٦٣ .

(٢) الجندي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤٥ ، ٢٦٣ .

مواضع التدريس بعد ذكر المسجد يؤكد بجلاء أن المدرسة لم تكن داخل المسجد^(١) .

أياً ما كان موضع المدرسة في ما أوردناه فإن هذا النوع منها قد امتلك الحد الأدنى من المقومات الأساسية للمدرسة ، وهي المقومات الخمسة الأولى من قائمة المقومات السابقة ، فعلى سبيل المثال مدرسة الأخير ابن عبدويه ، قد عرفنا وجود مكان للتدريس ، وهيئة تدريسية مكونة من شخص واحد هو نفسه المؤسس إضافة إلى من يعينه من المبرزين من تلامذته ، وكان كما ذكر عنه أنه كان غنياً كثير المال ، ينفق كثيراً منه على طلبته^(٢) ، وإذا كان غيره لم يكن غنياً فإن هناك من كل يتصدر للإتفاق على طلبته من المؤسسين والأمراء ، وإمام مثل ابن عبدويه يجعلنا نرى أنه من البديهي أنه كان يدرس منهجاً قائماً محدداً .

ما ذكرناه هنا ليس إلا مثلاً عن عدد كبير من المدارس القديمة المذكورة في المصادر ، كلها كانت تتمتع بالمقومات نفسها التي كانت لهذه المدارس .
النوع الثاني : هذا النوع يشترك مع مدارس النوع الأول في امتلاك المقومات الخمسة الأساسية ، غير أنها لم تكن مرتبطة بالمسجد ، أي أنها امتلكت مبنى خاصاً بها ، أسس لفرض اتخاذه واستخدامه مدرسة^(٣) ، ومن أمثلة هذا النوع :

❖ المدرسة التي درس بها الفقيه أبو عداة محمد بن عيسى بن سالم الميمني سنة (ت بعد ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م) ، وهي من إنشاء الشيخ أبي الحسن علي بن إبراهيم بن أبي الأمان سنة (٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م) لأنه كان غنياً يملك الكثير من العقارات في مدينة جبلة^(٤) .

(١) ابن سمره ، طبقات فقهاء اليمن ، ص ١٤٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٣) عبدالرحمن المختار ، الحياة الطموية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ١١١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٩٤ ، الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٢٤٠ ، د . محمد علي العروسي ، مدارس العلوم الإسلامية في اليمن - الأيوبيون والمدارس في اليمن ، ص ٣٢ .

❖ المدرسة التي درس فيها الفقيه سليمان بن فتح بن مفتاح ، وهي في منطقة الشوافي ، وكان قد أحدثها وأسس بناءها الشيخ حسن بن عيسى بن عمر بن أبي النهي^(١) .

ولما كان مؤسسا هاتين المدرستين من المومنين فقد تكفلا بتمويلها لضمان استمرار نشاطها بعد أن وفرا لها كل الأساسيات السابقة ، هذا كله قبل دخول الأيوبيين إلى اليمن بحوالي عشر سنوات تقريباً^(٢) .

ومع أن كل ما ذكرناه من المعلومات واضح الدلالة ومتناثر في المصادر التاريخية المطبوعة إلا أن هناك حالة من الخلط لدى بعض الباحثين في استقرارها ، ولمحاولة معرفة سبب ذلك نقوم بالتعامل مع التساولين الآتيين اللذين يبرزان أمماً إزاء ما سبق :

❖ أيهما ظهر أولاً في اليمن : المدرسة مكاناً أم المدرسة مصطلحاً ؟

❖ ما مدى إسهام المؤرخين - كتاب المصادر - في تضليل الباحثين المعاصرين في هذا الشأن ؟

بعد استعراض ما سبق أجد نفسي مدفوعاً إلى الاعتقاد بأن المدرسة (كمكان له دور وظيفي تعليمي) قد وجدت في اليمن منذ مدة طويلة ، تسبق بكثير حتى تلك الإشارات التي تعود إلى القرن السادس الهجري ، ولقصد تحديداً النوع الأول المرتبط وجوده بالمسجد ، فنحن نعرف بداية أن الدور التعليمي للمسجد لم يتوقف منذ تأسيس أول مسجد في المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية ، وهو الدور الذي انسحب على معظم المساجد والجامع في العالم الإسلامي قاطبةً ، وما أقوله عن المدارس في اليمن من هذا الجانب ينطبق على الأقطار الإسلامية الأخرى ، أما المدرسة (كمصطلح) فقد كانت ولادته متأخرة بالشكل الذي بيناه في استهلالنا الحديث عن المدارس ودور الوزير السلجوقي نظام الملك في نشرها ، بل إنني أكاد أجزم بأن الأيوبيين هم فعلاً أول من أدخل هذا المصطلح إلى اليمن ليطلق على المرافق التي أنشئت من قبلهم ، وهذا المعنى هو ضمن ما توجيهه العبارة الشهيرة التي نقلتها المصادر : " وهو^(٣) أول من

(١) الجندي ، قسوه ، ج ١ ص ٣٤١ .

(٢) عبدالرحمن المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ١١٢ .

(٣) الصمير هنا يعود على السلطان الأيوبي المعز بن طختكين (ت ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م) .

بنى من الفر - أي الأيوبيين - مدرسة في اليمن ...^(١) ، فأتينا لركز على الشاهد المتضمن في العبارة ، وهو كلمة (مدرسة) ، أما اعتبار هذا النص دليلاً على ريادة الأيوبيين في تأسيسها فهو - في رأيي - دليل لا يقوم بالحجة بمجرد المناقشة اللغوية للدالية لها، فكوني أنا أول صنعاني يدرس في جامعة المنصورة المصرية لا يعني بالضرورة أن يمتناً آخر لم يدرس فيها قبلي ، فأقول مجيباً على التساؤل الأول : لقد كان ظهور المدارس في اليمن (كمكان ودور وظيفي) سابقاً بمراحل تاريخية طويلة للمدارس (كمصطلح) .

هناك احتمال قوي يبرز هنا ، هو أن المؤرخين اليمنيين القدامى قد أسهموا بقدر كبير في إيجاد الخلط للعلم ، خاصة عندما نعلم أن معظمهم عاشوا في المدة التي تزامنت مع الوجود الأيوبي أو بعده، فهم قد تسببوا في ذلك الخلط من باب إطلاقهم لمصطلحات وجدوها مستخدمة في أيامهم على مرافق تعليمية ، فأطلقوها على المرافق التعليمية المشابهة في القرون التي سبقتهم ، فيظهر للقارئ لنصوصهم - لوهلة الأولى - أن ذلك المرافق قد حمل الاسم الذي أنعم به أولئك المؤرخون عليه ، ومما لاحظته أن هذا الخاطر لم يدر في خلد أي من الباحثين ، وأراه جديراً بالتوقف عنده ، فهو يشبه قولنا بأن الحاكم بأمر الله الفاطمي هو مؤسس جامعة الأزهر ، فهل كان الحاكم بأمر الله الفاطمي يعرف أنه يؤسس جامعة ، وهل سمي الزمان ذلك المبنى الذي أمر بإنشائه جامعة ، نحن في هذه الحالة نستخدم المصطلح المعاصر بأثر رجعي على المؤسسات التي تشبه في دورها الوظيفي للدور تلعبه الجامعات في تاريخنا المعاصر .

شواهد هذا الخاطر كثيرة تجعلني أرجح كونه السبب الرئيس في الجدل الذي دار بين الباحثين حول نسبة ريادة إنشاء المدارس في تاريخ اليمن في عصرها الإسلامي ، وعمارة اليمنى (ت ٥٦٩هـ / ١١٧٣م) هو أول هؤلاء المقصودين بالحديث ، فهو قد عاش في مصر شطراً كبيراً من حياته كما سبق بيانه في الفصل الأول ، ورأى المدارس هناك ، ولعله درّس في بعضها ، ورأى أن هذه المدارس تشبه كثيراً تلك للمرافق التي يستخدمها أقرانه من العلماء اليمنيين في زبيد وغيرها لممارسة نشاطهم للتدريس ، فلم يجد غشاضة في إطلاق مصطلح (المدارس) عليها ، فهو يقول عن نفسه وذكرياته في مرحلة الطلب الأولى في مدينة زبيد : " فكان الفقهاء في

(١) الخزرجي ، المسجد المسبوك ، ص ١٧٢ ، ابن النديم ، فرة العيون ، ص ٢٨٥ .

جميع المدارس يتمجبون من كوني لا ألحن بشيء من الكلام ...^(١) ونكرها أيضاً عند إيراده لخبر خروج جيش بن نجاح وأخيه سعيد الأحول لقتل علي الصليحي سنة (٤٥٩هـ / ١٠٦٦م) ، وأنه قد شاع " حتى لا تكاد المساجد والمدارس والأسواق والطرق تخل من الخوض في ذكر ذلك "^(٢) ، والمؤرخ الجندي^(٣) (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) يصف مدينة حوث بأنها " مدرسة الزيدية ، وتخرج منها جماعة من علمائهم" ، وذكرت بعض المصادر أن للفرقتين الزيديتين ، المطهرية والمختارعة ، أسسًا مدرستين في مسجد حجرة سماع في فترة مبكرة جداً ، في أواخر القرن الخامس الهجري^(٤) ، مع أن مناطق الزيدية إجمالاً لم تعرف المدارس إلا ابتداءً من سنة (٩٢٦هـ / ١٥١٩م)^(٥) ، بل إن المؤرخ لزيدي مسلم اللحجي^(٦) لما رصد معظم الأنشطة التي دارت في ذلك المسجد لم يشر نهائياً إلى ما سماه البعض بالمدرستين مع أنه ترجم لمن زعمت المصادر الأخرى أنهما أسسا المدرستين ، وأظن أن ما سبق ذكره يعد جواباً للتساؤل الثاني حول إسهام المؤرخين في إحداث الخط في هذه المسألة. لم يطل القرن التاسع الهجري على اليمن إلا وقد أصبح للمدارس دور الصدارة في إنعاش الحياة العلمية فيها ، وذلك لما أولاه السلاطين الرسوليون - خلفاء الأيوبيين - من العناية والاهتمام بها، وقد بلغت من الكثرة وبروز الأثر أن قلم بعض الباحثين بكتابة رسالة أكاديمية مستقلة عنها وعن أثرها على الحياة العلمية في اليمن في عهد الدولة الرسولية^(٧) ، وقام مؤرخ يعني معاصر بإصدار كتاب حول موضوعها^(٨) ،

(١) عمارة ، المفيد في أخبار صنعاء وزيد ، ص ١٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ، د. محمد علي التروسي ، مدارس العلوم الإسلامية في اليمن - الأيوبيون والمدارس في اليمن ، ص ٢٣ .

(٣) الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٣٠٨ .

(٤) انظر تفصيل ذلك في الفصل الأول من هذه الدراسة .

(٥) الأكوخ ، المدارس الإسلامية ، ص ٢٦٥ ، ريانة ، قمة اليمن ، ص ٣٩٦ ، خلاصة المتسوق ، ج ٣ ص ٨٥ ، شرف الدين ، المواهب السنية ، ص ٤٠ ، ٤٦ ، شرف الدين ، السلوك الذهبية ، ص ٦٠ .

(٦) طبقات مسلم الخنجي ، ج ٤ ص ٥١ .

(٧) هو الباحث عبدالمعز بن راشد السيد ، المدارس وأثرها على الحياة العلمية في اليمن في عصر الدولة الرسولية . رسالة الماجستير ، كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

وكانت هذه المدارس هي الميدان الأبرز الذي مارس فيه رموز الفكر الإسلامي والعربي في اليمن نشاطهم العلمي ، وفي ساحاتها نهل من معينهم للكثير من الوافدين على أرض اليمن من أبناء الإسلام كما ببناء في الفصل الأول وسنبين طرفاً آخر لاحقاً .

وفي إحصائية تشمل كل المدارس العلمية التي بنيت لبثاء من عهد الرسولية المبكر في بداية القرن السابع الهجري ، ومروراً بعهد الدولة الطاهرية كاملاً ، ومن عاصرها من الأئمة الزيدية ، حتى نهاية الإطوار التاريخي لدراساتنا في منتصف القرن الهجري العاشر ، في إحصائية شملت كل ذلك بلغ عددها مائة وثلاثة وتسعين مدرسة علمية^(١) في أغلب مناطق اليمن ، وعندما شمل هذا الرقم المدارس التي بنيت قبل مدة للدراسة فنلك على اعتبار أن هذه المدارس جميعها لم تكن معتمدة في تمويلها على ما ينفقه مؤسسوها عليها من أموالهم النقدية ، بل إن للمدرسة منها لم تكن تتبلور فكرة إنشائها إلا بعد أن يضمن لها مؤسسها من الموارد العينية - وغالباً ما كانت أراضي زراعية مثمرة - ما يضمن استمرارها في أداء نشاطها ما دام ريع وقفها يجري إنفاقه عليها ، لذلك فقد كان المؤسس يتوفى ويتوفى بعده لكثير من جيل من أبنائه وأحفاده والمدرسة مستمرة في أداء رسالتها كما لو كان المؤسس مشرفاً عليها يسدد مسيرتها ويدفها إلى الاستمرار .

رابعاً : القرية العلمية :

القرية العلمية مصطلح استخدمه الباحثون في تاريخ اليمن في عصرها الإسلامي ، أستطيع - من خلال ما أراء من سماتها العلمية ووصف الباحثين السابقين أن أحصر مدلوله اللفظي في التعريف الآتي : القرية العلمية هي تلك القرية التي تتمتع بقوة جذب لطلاب العلم تجعلهم يؤمنونها بغرض التلقي والتحصيل العلمي على يد فقهاء وعلمائها ، وتوفر لها بعض المرافق للصالحه لتدريس العلوم ، من مساجد ومدارس وأربطة وزوايا ومنازل العلماء ، بعضها أو كلها، وليس لها من ضمانات

(١) هو القاضي إسماعيل الأكوخ ، وكتبه هو (المدارس الإسلامية في اليمن) وهو أحد مراجع دراستنا هذه.

(٢) الأكوخ ، المدارس الإسلامية ، ص ١٣٧ - ١٤٥ ،

Sadek, Noha, Patronage and architecture in Rasuld Yemen , 626-858 A.H. / 1229-1454 A.d., PH.D. thesis, the university of Toronto, Canda, 1990, p 190 - 200

عن الفيبي ، الأحوال السياسية في الدولة الرسولية ، ص ١٥ .

الحماية من الهجوم عليها إلا المكانة الروحية لعلمائها وبقدر ما يبذله الناس من الاحترام والتقدير لمنزلتهم العلمية ، وامتلاكها لهذه السمات لا يتخذ صفة الثبات بالضرورة .

لعل اليمن هي القطر الإسلامي الوحيد الذي تمتعت كثير من قراء بهذه الصفة ، قالقرية العلمية بهذا الشكل تنافس المدينة في الوزر العلمي والتأثير الثقافي ، وإن كان هذا التأثير مرهون بعدد العلماء والفقهاء من ساكنيها ، وسواء كانوا من أهلها الأصليين أو من الوافدين عليها ، قد يقل عددهم أو يزيد بين قاطنيها ، ويضعف تأثيرها أو يقوى تبعاً لذلك .

ومن خلال استعراضنا المختصر في الفصل الأول لسمات الحياة العلمية في اليمن نلاحظ أن أشهر العلماء وأبرزهم في مدة ما قبل الإطار الزمني لدراستنا هذه هم من أبناء هذه القرى والهجر العلمية - الآتي ذكرها - وقد استمر نشاط كثير من القرى العلمية التي عرفت بازدهار للنشاط العلمي والتدريسي فيها من قبل ، وفقد بعضها لسمات المشار إليه في التعريف أعلاه ؛ فانقضى عنها صفة العلم ، وفي المقابل ظهرت قرى أخرى جديدة لتتضم إلى قائمة القرى العلمية في اليمن .

ومما يؤسف له أن العلماء والفقهاء اليمنيين كانوا غير أبيهين - في الغالب - لتكوين نشاطهم العلمي والترجمة لبعضهم ولتعريف بأوطانهم - من القرى والهجر العلمية والمدن - بالقدر الذي يتناسب مع عددهم ومبلغ التميز والرقى العلميين اللذين وصلوها ، ولا يتضح ذلك إلا عندما يبرز أحدهم ليؤرخ لمنطقة بعينها فتجد من مبرور للنشاط الثقافي وكثرة الجهود المبذولة في إطار تدريس العلوم والتأليف حولها ما يبعث على التعجب والاستغراب ، وهو ما يدفع إلى الظن بأن المنطق الأخرى لو وجنت من يدون مجريات أنشطتها العلمية لتساوت مع تلك التي كُتب عنها إن لم تتجاوزها ، فهذا المؤرخ الأهل (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) يتناول مجريات ذلك للنشاط على مساحة زمنية ممتدة عبر ما يقرب من ثلاثة قرون لمنطقة تهامة وحدها ، فيحدثنا عن حوالي ثلاثة وستين قرية علمية فيها فقط ، أما القرى العلمية التي عرضها القاضي الأكوخ في (هجر العلم ومعلقه في اليمن) وترجم لكبار علمائها فقد زاد عددها عن مائة وستين قرية علمية على مستوى اليمن كلها ، ويدخل في هذا العدد جزء كبير من تلك التي تناولها الأهل ، وكانت كل هذه القرى مراكز علم ومبرات هدى دائمة ، منها :

❖ قرية الناشرية^(١) :

قرية مازالت عامرة في منطقة بني جامع من وادي مور من تهامة ، تقع بين اللحية غرباً والزهرة شرقاً ، وهي إلى الزهرة أقرب ، إذ أنها لا تبعد عنها إلا بحوالي ١٧ كيلومتراً ، أول من نزل موضعها وجعلها قرية نشر الأصغر بن عامر بن ناشر الأكبر العكي في أوائل القرن الخامس الهجري ، وهو من نسبت إليه ، ومن ينتسب إليها يقال له : الناشري ، قال الحبشي^(٢) : " الناشريون فقهاء اليمن ، وهم أكبر بيت في العلم والفقه والصلاح"^(٣) ، وكان ينتفع بهم في أكثر بلاد اليمن ... ، وقد كثر العلماء والفقهاء والقضاة من أبناء هذه القرية المباركة حتى انتشر ذكركم في معظم - إن لم نقل كل - كتب الرجال والتواريخ اليمنية ، وقد ورد في منحهم على وجه الخصوص قول الشاعر :

قوم لهم من كل علم مشرب
وجلالهم وكمالهم مشهور

وجمالهم فوق الورى ، ولصدرهم
من فيض علم العالمين صنور^(٤)

ترجم للقاضي الأكوغ^(٥) لاثني وتسعين منهم ، وقام بعضهم بتأليف كتب مخصصة بالترجمة لأبناء قرية الناشرية فقط ، سنقوم بتناولها في الفصل الخاص بمؤلفات علماء اليمن في مدة دراستنا بعثيته تعالى .

(١) الأكوغ ، هجر العلم ، ج ٤ ص ٢١٦٣ ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٤ ص ٧٣٠ ، المحمدي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ٢ ص ١٧٠٦ ، باحدرمة ، التسمية إلى المواضع والبلدان ، ق ٣٨٠ .

(٢) عطاء بني ناشر ، بحث ملحق بكتاب انتهاز الفرص في الصيد والقتل لنتي الدين حمزة الناشري ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، ٢٠٠٢م ، ص ٣٧١ .

(٣) ما قصده الحبشي بقوله : " وهم أكبر بيت في العلم والفقه والصلاح " هو أنهم أكبر بيت في تهامة ، والتصميم على اليمن كلها حكم متسرع في نظري ، خاصة أن البحث الذي وضع فيه الحبشي رأيه هذا هو ضمن سلسلة : بيوت العلم في تهامة .

(٤) البربري ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٨٤ .

(٥) هجر العلم ، ج ٤ ص ٢١٦٣ - ٢١٨٧ .

من أشهر رجال هذه القرية نذكر القاضي الإمام أحمد بن أبي بكر بن علي بن محمد الناشري^(١) (ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م) ، غادر الناصرية ونزل زبيد فكان فقيها وقاضيا ، قال عنه بامخرمة^(٢) : " كان غاية في الحفظ وإتقان المذهب ، باذلاً نفسه لطلب العلم ، متواضعاً زاهداً ، قائماً من الدنيا بالقليل ، إليه انتهت الرئاسة والفتوى بزبيد " ، وقد تعلم على يديه عدد من أبرز علماء زبيد واليمن في عهده .

كان شجاعاً مهلباً ، لا يخاف في الله لومة لائم ، تروي بعض المصادر^(٣) في وصف شدته أنه : " ولي القضاء بزبيد مرتين ، وحمل الناس على الحق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير أن يأخذه في الله لومة لائم ، يقابل بذلك الأمراء والكبراء ، حتى كرهه كثير من الناس ممن يكره الحق ، وكان ينكر على صوفية الوقت بزبيد كالجبرتي وابن الرداد وأتباعهما - لكثرة الإمعان في السماع وكثرة الدعاوى والشطح واشتغالهم بكتب ابن عربي الفلسفي المتصوف ... ولما أحس بكراهة الناس لقضائه وليس بتارك الحق عزل نفسه وأهمل على التدريس والفتوى وانتهت إليه ريلتها لمعرفته وصلاحه وزهده وورعه ... " ، ومثل هذه المواقف لا تصدر إلا عن تترك الدنيا ومصلحتها وراء ظهره ، ولم يحفل بها ، ويلهث وراء معرياتها ، فقد استعدي بحبه للحق وتقائه في الوقوف معه عتبة القوم ومن ييدهم القلر يومئذ ، يتصح ذلك من التفصيل الذي أورده المخرجي عن الشريحة التي ضاقت به ، فما يكون لعامة الناس أن تكره الحق أو تحيد عنه وعن دعاته ، يقول الشرجي^(٤) : " ينكر على السلطان فمن تونه ... فمشى بالناس طريقة الجد والأخذ بالحق ، فضلق لذلك أكثر الناس خصوصاً غلمان السلطان ، فإنه جرت لهم معه وقائع متعددة ، ولم يسمح معهم في شيء منها ... " .

(١) ترجم له ابن حجر ، إنباء الفهر بآباء الفهر ، ج ٢ ص ٥٢٥ ، المخرجي ، طراز أعلام الزمان في طبقات أعيان اليمن ، ج ١ ص ٥٩ ، الطوق للولوية ، ج ٢ ص ٢٢١ ، السحوي ، الضوء اللامع ، ج ١ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، الشرجي ، طبقات الخووص ، ص ٩١ ، ابن المباد ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٨م ، ج ٧ ص ١٠٩ ، المقريزي ، نور الطلوع الفريدة ، ج ١ ص ٢٧٧ .

(٢) خلاصة الفهر ، ج ٣ ص ٦٧٣ .

(٣) الأمل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٩٦ ، ٧٠ .

(٤) الشرجي ، طبقات الخووص ، ص ٩١ ، ٩٢ .

ومن علماء هذه القرية المباركة الإمام العلامة ، قاضي القضاة ، شيخ الإسلام جمال الدين الطيب بن أحمد بن أبي بكر النشري (ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م) ، أحد أبناء القاضي السابق ذكره ، كان من وجوه علماء اليمن وعبادها ، موصوفاً بأنه " الإمام للعلامة ، الصالح العابد الزاهد ... الإمام المجمع على جلالته وفصله وتضلعه في العلوم ... " (١) ، لم يحز الإمام للطيب هذه المنزلة إلا بتفانيه الكبير في طلب العلم ، وسعيه للجلوس إلى أكبر العلماء الذين يلتقي بهم ، سواء من الوافدين إلى اليمن أو الذين يجدهم في غيرها مثل مكة المكرمة ، يقول عنه تلميذه المؤرخ البريهي (٢) : " قرأ على والده ... ثم على غيره من فقهاء زبيد وغيرهم بجميع فنون العلم ، وأجاز له الشيوخ الكبار في مكة المشرفة والمدينة الشريفة عند أن سافر إلى الحج والزيارة ، وأجاز له الشيخ مجد الدين الشيرازي (٣) ، والشيخ شمس الدين الجزري ، وقد جمع المشايخ الذين قرأ عليهم وأجازوا له في كراسة جعلها عنده ... " .

كان الإمام الطيب النشري ذا قبول عند الناس ، ومنزلة كبيرة في نفوسهم ، أحبه كل من عرفه أو حتى سمع عنه ، وأنزله السلاطين الرسوليون المنزلة الرفيعة ، وخاصة السلطان الظاهر الرسولي (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) ، فقد ولاه قضاء الأقضية أو القضاء الأكبر ، يقول البريهي (٤) : " ناب لعمه القاضي شمس الدين علي النشري بالقضاء الأكبر ، ثم استقل به بعد موته ، ورزق الجاه الكبير عند الخالص والعالم ، ورفع له السلطان الظاهر على جميع الناس بما استحقه من فضل العلم مع ورعه وزهاده للمجمع عليه ، وأحبه الناس ، وانتفعوا به انتفاعاً كثيراً ، وقصد للمهمات ، وأطاعوه وامتثلوا أمره ... " ، ولم تتغير منزلته بتغير الدولة لرسولية وروالها ، فقد حاز منزلة سامية لدى سلاطين الدولة الظاهرية لا تقل عما بلعه في عهد الرسوليين أنفسهم ، فقد روى لنا بامخرمة (٥) ما يعبر عن تلك المنزلة عندما روى أن السلطان المجاهد الطاهري علي بن طاهر (ت ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م) ووالي زبيد من قبله حضرا القراء

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣١٧ - ٣١٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣١٨ .

(٣) يقصد به مجد الدين الفيروزآبادي الشيرازي صاحب القاموس المحيط .

(٤) المصدر السابق والصحة .

(٥) ثلاثة الفهر ، ج ٣ ص ٧٢٥ .

عليه بعد موته ، وقام للسلطان بنفسه بتقديم واجب العزاء لأهله ، ثم وقف معهم يتلقى العزاء فيه ، وقام بتعيين ابنه عبدالله بن الطيب الناشري في منصب قضاء الأقضية خلفاً لأبيه .

❖ قرية الشُرْجَة^(١) :

لشُرْجَة ، اسم لأكثر من موضع في اليمن ، أشهرها موضع بجوار حَرَض في شمال تهامة اليمن ، وقد أصبح مهجوراً غير مسكون ، والآخر قرية علمية شهيرة عامرة^(٢) ، تقع في منطقة المَعَاصِلَة من زادي زبيد ، تقع بين مدينتي زبيد وحَيْس ، وهي المقصودة بحدیثنا هنا ، وقد خلط بينهما أناس فجعلوها واحداً^(٣) ، وميز بينهما آخرون^(٤) بقولهم : شرجة حرَض وشرجة حيس ، كان أهل قرية الشرجة كلهم أحناف، وبرع منهم جماعة في تدريس المذهب الحنفي وفقهه، وكانوا من رواد العلوم في اليمن .

من علماء هذه القرية المباركة الإمام العالم الحافظ أبو عبدالله عبداللطيف بن أبي بكر بن أحمد الشرجي^(٥) (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) ، كان شيخ النجاة في اليمن في مدته، وإمامهم في عصره ، بعد أن نشأ في قريته ولأخذ عن فقهاء اتجه صوب زبيد لينهل من معين علمائها ، فقرأ النحو والأدب على الفقيه أحمد بن عثمان بن بُصْتَبَص (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) ، وكان أجل تلاميذه ، لذلك ما إن مات حتى أصبح هو عمدة النحو في اليمن كلها ، وكان يدرسه في المدرسة الصلاحية إحدى مدارس زبيد^(٦) ،

(١) الأكوخ ، حجر العظم ، ج ٢ ص ١٠٤٢ ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٣ ص ٤٤٩ ، المنعمي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٨٥٨ ، بامخرمة ، للنسبة إلى المواضع والبلدان ، ق ٢٥٦ .

(٢) وصفها الأكوخ ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٠٤٢ بأنها حربة ، أي مهجورة وغير مسكونة .

(٣) منهم المؤرخ بامخرمة النسبة إلى المواضع والبلدان ، ق ٢٥٦ .

(٤) منهم الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٣ ص ٤٤٩ .

(٥) ترجم له ابن حجر ، إنباء الفهر بأبناء العمر ، ج ٤ ص ١٦٧ ، الفرجي ، طراز أعلام الزمن في طبقات أهل اليمن ، ج ٢ ص ١٣٩ ، الطود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٣١٤ ، السقاوي ، الضوء الماسع ، ج ٤ ص ٣٢٥ ، الشرجي ، طبقات الخواص ، ص ٣٠٧ ، ابن الصاد ، شذرات الذهب ، ج ٧ ص ١٧ ، بامخرمة ، قلادة النصر ، ج ٣ ص ٦٦٩ .

(٦) الأكوخ ، المدارس الإسلامية ، ص ٢٦ .

وكان مشهوراً بحسن الخط ، لذلك جمع كتباً كثيرة من خط يده، وكان هريصاً على ضبطها على أمهاتها ، فأصبحت كتبه معياراً لتصحيح النسخ الأخرى عليها ، وقد بلغ من العمق في فهم النحو وعلوم اللغة إجمالاً حتى تتلمذ على يده بعض سلاطين الدولة الرسولية ، وعلى رأسهم السلطان الأشرف الثاني إسماعيل (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) وابنه السلطان الناصر أحمد (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) ، ورجل إليه الطلبة من أنحاء اليمن^(١) ، وقد ألف عدداً من كتب النحو واللغة بتكليف من السلطان الأشرف أشهرها كتاب (الإعلام بمواضع اللام في الكلام) .

ومن أبرز علماء هذه القرية أيضاً المؤرخ الحافظ المحدث أحمد بن أحمد الشرجي^(٢) (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م) ، صاحب كتاب (طبقات الخوارج أهل الصدق والإخلاص) ، كان حنفي المذهب مثل بقية أفراد قريته ، ترجم له الإمام السخاوي^(٣) بقوله : " أحد أعيان الحنفية ... سمع اتفاقاً مع أخيه علي النفيس العلوي والنقي الفلسي ، وبنفسه علي ابن الجرري ، سمع عليه - أي علي ابن الجرري - النسائي وابن ماجه ومسند الشافعي والعدة والحصن الحصين وكلاهما له ، والتيمس على أبي الفتح المراغي وكذا على الزين البرشكي^(٤) أعلم وصوله إلى اليمن مع ابن الجرري سنة (٨٢٩هـ / ١٤٢٥م) وللشفاء والمطأ والعمدة ومصنفه طرد المكافحة عن سنة المصافحة ... " .

مع أن أحمد الشرجي كان محدثاً حافظاً إلا أنه كان ذا ميل كبير إلى التصوف ، والغربة في موقفه أنه اختلف عن بقية محدثين في اليمن بحبه للتصوف الذي كان قائماً آنذاك وهو التصوف الفلسفي القائل بوحدة الوجود ، فكان يجلس رجاله ويعظمهم ،

(١) بامخرمة ، قلادة النهر ، ج ٣ ص ٦٦٩ .

(٢) ترجم له الشرجي ، طبقات الخوارج ، مقدمة المحقق ص ٦٠٥ ، ابن النديم ، بغية المستفيد ، ص ١٨١ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ١ ص ٢١٤ ، ابن فهد ، لحظ الاحكام بقول طبقات الحفاظ ، صححها وعلق عليها عبدالرحمن بن يحيى المعلمي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د ، ت) ، ص ٢٥٩ ، بامخرمة ، قلادة النهر ، ج ٣ ص ٧٥١ .

(٣) الضوء اللامع ، ج ١ ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٤) كل هذه الأسماء المذكورة هم من علماء مصر والشام ، قدموا اليمن زيارة لها ، وعصروا مجالس التدريس في بعض مدنها ، ولعلك ستعثر من رحلاتهم في مبحث الرحلات العلمية إلى اليمن .

ولعل ذلك وراثته عن أبيه الذي كان على علاقة حسنة بهم ، حتى أن السخاوي^(١) ذكر أن الذي سماه أحمداً هو الشيخ أحمد بن أبي بكر الررداد ، وهو أحد أبرز علماء الصوفية في زبيد عصرئذ كما سنرى في الفصول القادمة بمشيئته تعالى .

خامساً : الهجر العلمية :

الحديث عن (الهجر العلمية) في تاريخ اليمن يستدعي التوقف طويلاً ، فهو حديث عن ظاهرة فريدة لم يعرفها العالم الإسلامي كله ، وهو حديث عن نوع مميز من أماكن التعليم اليمنية الموطن والفكرة ، فمن المعروف أن اليمن اشترك مع بقية أقطار العالم الإسلامي قاطبة في وجود معظم أنواع أماكن التعليم ، ولكنه انفرد بلفري العلمية نوعاً ما ، وشذ عن البقية تمام الشذوذ بوجود الهجر العلمية ووفرتها ، فما هي الهجر العلمية وما موضعها في خارطة أماكن التعليم في اليمن في عصرها الإسلامي ؟ .

سأقفر إلى الأمام خطوات بقيامي بالتعريف بـ (الهجرة العلمية) في اصطلاح اليمنيين ، كي يكون القارئ منجذباً معي في تتبع ما سأتى لاحقاً لتتأوله من نشأة هذه (الهجر العلمية) وأولها الوظيفية العلمية في المجتمع اليمني ، فمصطلح (الهجرة العلمية) عند اليمنيين يشير إلى " القرية التي يهاجر إليها من رغب عن سكنى المدن ... ليجعلها دار إقامة له ، ويتخذ منها مكاناً لنشر العلم فلا تلبث أن تكون - في كثير من الأحيان - مقصودة لطلب العلم ، تشد إليها الرحال ، وتهوى إليها أفئدة العلماء وطلبة العلم ... " ^(٢) ، وقد فصل القاضي إسماعيل الأكوخ^(٣) كيفية نشوء الهجرة بما ينبئ عن معنى مصطلحها أكثر فقال : " يختار بعض العلماء مكاناً قريباً من القرية التي يسكن فيها ليبنى له داراً عليها ، فيستأذن أهل تلك القرية - إذا لم يكن من أهلها - ليسمحوا له بالبناء حتى يتفرغ للقيم بواجباته من العبادة والتعليم والإفتاء والإصلاح بين الناس بعيداً عن صخب مجتمع القبائل ، فيهبوا له تلك المكان تكريماً له واعتزازاً بوجوده بين أظهرهم ، ويمدونه بما يستطيعون من عون ومساعدة حتى يكتمل بناء داره، ويقومون مسجداً مجاوراً لداره ، ثم يتتابع البناء هناك لمن يلحق به من العلماء

(١) الضوء اللامع ، ج ١ ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٢) الأكوخ ، هجر العلم ، ج ١ ص ٥ .

(٣) المعقل إلى معرفة هجر العلم ومعاقله في اليمن ، دار الفكر للمعاصر ، بيروت ، دار الفكر ، دمشق ، ص ١٧ ، ١٨ .

ومطلبة العلم الذين يتوافدون على تلك البلدة حتى تكبر وتصير بلدة خاصة بأهل العلم ، فتدعى حينئذ هجرة كذا ، مضافة إلى اسم القرية المجاورة لها التي نشأت في كنفها " .

فما مفهوم الهجرة اللغوي ، ومن أين اشتق هذا المصطلح ؟ وما الظروف التي ولدت فيها هذه النوعية من الأماكن للتعليمية في اليمن ؟

للإجابة على التساؤل الأول نقول : لم تبتعد المعاجم العربية للعوية - القديمة والمعاصرة - عن بعضها في تحديد معنى كلمة (الهجرة) ، وكلهم اشتقوها من المصدر (هجر) ، ويكادون يجمعون على لفظ واحد في التعريف بأنها " الخروج من أرض إلى أخرى " (١) ، وأنها أيضاً تدل على : " خروج البدوي من بادية إلى المدن ، ويقال هاجر الرجل إذا فعل ذلك ، وكذلك كل مuhl بمسكنه منتقل إلى قوم آخرين بسكناء فقد هاجر قومه ، وسمي المهاجرون مهاجرين لأنهم تركوا ديارهم ومسكنهم التي نشأوا بها لله ... فكل من فارق بلده من بدوي أو حضري أو سكنى بلداً آخر فهو مهاجر ، والاسم منه الهجرة " (٢) .

بيد أن هناك دلالة اصطلاحية دينية قد شاعت عن هذه اللفظة (الهجرة) منذ عصر النبوة، فهي عند الإمام الجرجاني (٣) (ت ٨١٦هـ / ١٤١٣م) " ترك الوطن الذي به الكفار والانتقال إلى دار الإسلام " ، وهذا هو المعنى الذي توحى به كل كتب السيرة والمغازي ، وسارت على منوالها كل كتب التواريخ المشهورة بلا استثناء ، وقد أعطى لها بعض القدماء من علماء البيت العلوي معنى ذا بُعد عقائدي وعلمي خاص عندما انعزل بأهله جانباً عن المجتمع بدعوى هجرة الظلمة والمفسدين (٤) ، لكننا هنا نقف أمام لفظة مشابهة في لغة اليمن القديمة ، اللغة الحميرية ، وهي كلمة

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٦ ص ٤١٦ ، ٤١٧ ، القيرورآبادي ، القاموس المحيط ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥٢م ، ج ٢ ص ١٦٣ ، د. إبراهيم أنيس وآخرون ، المعجم الوسيط ، ج ٢ ص ٩٧٣ .

(٢) ابن منظور ، مصدر سابق ، ج ٦ ص ٤١٧ .

(٣) كتاب التعريفات ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الريس للتراث ، القاهرة ، ١٩٨٢م ، ص ٣١٩ .

(٤) هو الإمام القاسم بن إبراهيم الرسي ، جد الإمام الهادي يحيى بن الحسين ، مؤسس المذهب الزيدي في اليمن ، انظر د. علي محمد ريد ، تيارات معتزلة في اليمن في القرن السادس الهجري ، لمركز الفرنسي للدراسات اليمنية ، صنعاء ، ط ١ ، ١٩٩٧م ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(مَجْر) ، وتشير إلى القرية أو المدينة المسورة والبعيدة عن الناس^(١) ، وبالتالي فمن المحتمل أن مصطلح (الهجرة العلمية) لدى اليعنيين قد جاء مستوحى مما أشارت إليه المعاجم اللغوية وكذلك البعد الديني الإسلامي لها ، ثم إن الجذر التاريخي الحميري القديم قد جاء مكملًا لكل ذلك^(٢) .

حافظ مصطلح (الهجرة العلمية) على حدوده التي رسمها له اليعنيون منذ القرون الهجرية الأولى ، فهو محدود إبدأً من هذه الساحة بين المصطلحات الجامدة ، فكما أننا وجدنا إشارات قديمة إليه في القرن الهجري الثالث^(٣) فإننا نراه بنفس حدود دلالاته في الكتب التاريخية الحديثة والمعاصرة ، وقد تناولنا في الفصل الأول اثنتين من أقدم الهجر العلمية في اليمن هما : هجرة سناح وهجرة وقش ، والأخيرة هي التي ذكرها ياقوت الحموي^(٤) (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) وعرفها بقوله : " وقش بلد باليمن قرب صنعاء ، وهجرة وقش موضع فيه كالخنفاء يسكنه العباد وأهل العلم ... " ويستطرد قائلاً : " وفي اليمن عدة مواضع يقال لها هجرة كذا ... " (٥) ، هذه الإشارة مهمة جداً ، وذلك لأنها تشير إلى كليهما : التعريف بالهجرة والدور الوظيفي لها ، فهو قد قام بتشبيهها بالخانقاه ولم يقل إنها خانقاه ، وما ذلك إلا لأنه رأها مختلفة عنه ، فالخانقاه معروف بارتباطه الكلي بالصوفية كما سنبينه قريباً ، والصوفية منعزلة في الهجر العلمية تماماً ، ولا يوجد ربط بين إشارة الحموي إلى سكنى العباد للهجر العلمية وبين التصوف ، فالهجر العلمية وجدت بشكل أساسي في مناطق انتشار المذهب الزيدي الذي لم يتكيف التصوف معه ، وبالتالي فمفهوم (العباد) في مناطق الزيدية ليس شبيهاً بمفهومه السائد الذي يذكر قارئه بالصوفية في أقطار العالم الإسلامي الأخرى ،

(١) د. يوسف محمد عبدالله ، أوراق من تاريخ اليمن وآثاره ، دار النور للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٩٠ م ، ج ١ ص ٣٨ .

(٢) عبدالرحمن المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ٦٦ ، ٧٠ .

(٣) النخعي ، طبقات مسنم للنخعي ، ج ٤ ص ٧٨ ، الأكوخ ، فمدخل إلى معرفة هجر العلم ومعاقبه في اليمن ، ص ٦٠ ، ٦١ .

(٤) الحموي ، معجم البلدان ، ج ٥ ص ٢٨١ .

(٥) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

بل حتى في مناطق اليمن التي سنتناولها قريباً في بقية حديثنا عن امكان التعليم ، ولعل النص الذي أورده أحد أقدم المؤرخين اليمنيين - مُسَلَّم اللُّخَجِي (ت ٥٤٥هـ / ١١٥٠م) - واصفاً هجرة وقش عصر كثيراً مما غمض من نص الحموي حول دورها، يقول مُسَلَّم اللُّخَجِي^(١) : "فصارت هجرة ، فُؤِدِي فِيهَا الْفَرَاثِصُ ، وَيُعْبَذُ اللَّهُ - فِيهَا - فَلَا يُعْصَى ، وَيَتَعَلَّمُ الْعِلْمُ ، وَيُحْتَجَى فِيهَا الدِّينُ ، حَتَّى قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَى أَهْلِ الْعَصْرِ مَقَامَ الْإِسْلَامِ الدَّاعِي إِلَى رَبِّهِ الْمُشِيرِ سَبِيحَهُ ، مَنْ تَابَ مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ لَجَأَ إِلَيْهَا ، وَفَرَّ بِدِينِهِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَمَنْ جَهِلَ أَشْيَاءَ قُتَاها لِلْبَحْثِ وَالسُّؤَالِ عَنْهُ ، وَمَنْ نَابَهُ بِمَحَلِّ ظَالِمٍ غَاشِمٍ هَرَبَ إِلَيْهَا لِلْأَمْنِ ... وَمَنْ أَهَمَّهُ أَمْرُ مَعَادِهِ وَمَعَاشِهِ لَمْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَأَتَاهُ اللَّهُ فَضْلَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَتَسْتَوْنِغُ بِهَا ... فَانْتَهَى ذِكْرُهَا إِلَى أَطْرَافِ الْأَفَاقِ ، فَضُرِبَتْ إِلَيْهَا أَبْطَاطُ الْإِبِلِ ، وَطُوبِيَتْ إِلَيْهَا الْمَرَاكِلُ ، وَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا مَنْ أَرَادَ مِنْ خَلْقِهِ ... " ، وهذا النص الأخير يجعلنا نصل إلى قناعة كبيرة باحتمال انسلاخ مصطلح (الهجرة العلمية) من :

- المعنى اللغوي للصرف لها الذي أشارت إليه المعاجم اللغوية .
- إضافة إلى المدلول التي حملته اللفظة نفسها في اللغة الحميرية اليمنية القديمة .

- إضافة إلى تعريف الإمام الجرجاني للهجرة مع فارق أن (الكفار) المشار إليهم في تعريفه سيحل محلهم أفراد القبائل اليمنية المتلاحرة ، وسيحل محل (دار الإسلام) أرض (الهجرة العلمية) نفسها .

من الواجب علينا مناقشة الظروف التي ولدت فيها (الهجرة العلمية) ، لكي نعرف فيما إذا كان إيجادها ترفاً أم استجابة لحاجة ملحة ، وتناول هذه الظروف يحتاج إلى نظرة واسعة تشمل التركيبة الاجتماعية اليمنية والظروف السياسية والمذهبية التي عاشتها اليمن في القرون الهجرية الثالث والرابع والخامس ، لأنها المدة التي شهدت تشكل مفهوم (الهجرة العلمية) وبرورها على السطح ، ونطرق لصيق المجال هنا فسأكتفي بإشارة مناسبة إلى تلك الظروف :

(١) مما هو معروف بداهة عن اليمن عموماً ، والمناطق الشمالية من المرتفعات الجبلية اليمنية الوسطى خصوصاً ، أنها عاشت صراعات سياسية وقبلية دائمة ، بعضها بين القبائل المتعددة حول مصالحها المعروفة والمتعمورة حول أماكن

(١) طبقات مُسَلَّم اللُّخَجِي ، ج ٤ ص ٧٨ .

التفوذ والتواجد ، ومنها ما هو بين القوى السياسية الكبيرة ، كالدولة الصليبية والأئمة الزيدية والنجاحية وغيرها ، وقد أصبح السلاح ملاصقاً لليمني في كل حركاته ، واستقرت في ذلك أيام حربه وأيام سلمه ، وتنعكس ذلك الرواية التي أوردها بعض المؤرخين في احتجاج السيدة الصليحية (ت ٥٣٢هـ / ١١٣٧م) أمام زوجها في قرارها نقل مركز حكمهم من صنعاء إلى جبلة ، تقول للرواية : " إن الحرية الصليحية بصنعاء قالت للمكرم : يا مولانا ، استحضروا أهل صنعاء ومخاليفها إلى هذا الميدان ، فلما حضروا قالت : أشرف يا مولانا عليهم ، فلم يقع بصره إلا على لمعان السيوف وبريق الأسنة والنبص ، فلما نزل معها إلى ذي جبلة أمرت الرعايا من مخلاف جعفر أن يحضروا ، فقالت : يا مولانا أشرف عليهم ، فأشرف فلم يبصر إلا من يقود كبشاً أو يحمل بُراً أو سمناً أو صلاً ، فقالت : العيش بين هؤلاء أصلح ، فقال المكرم : صدقت ، ثم مكنا جبلة جميعاً ^(١) ، ودلالة النص واضحة ، وفي خضم هذه الأجواء المشحونة بالصرع ورائحة الموت كان العلماء يتعرضون لما يتعرض له غيرهم من الأذى والمشقة ، فبرزت الحاجة إلى خلق قناعة عامة لدى الناس جميعاً بليواء العلماء واحترامهم ، ويتعذر ذلك كثيراً في حالة اختلاط منازلهم بغيرهم .

(٢) شهدت المناطق صراعاً مذهبياً في نهاية القرن الرابع الهجري وأوائل الخامس بين أبناء المذهب الزيدي نفسه ، وقد تطرقت إلى ذكر ذلك في الفصل الأول ، فقد نشأت بينهم فرقتان رئيسيتان هما : المخترعة والمطرفية ، وكان الخلاف الفكري والجدل الكلامي يحتمل بينهما بطريقة استحال فيها صبر بعضهم على بعض ، فبدأت صور الأذى المادي تصل من بعضهم نحو الآخر ، وهو ما ولد حاجة الطرف المجني عليه (المطرفية) إلى تأسيس (الهجرة العلمية) ، وهم بحق رواد (الهجرة العلمية) ومؤسسيها الأوائل ، (إلا أن الهجرة العلمية لم تزل بزوال هذه فرقة (المطرفية) بل انتقل عدواها إلى بقية أفراد الزيدية عموماً .

(١) الأجل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ من ٤٠٣ ، الجندي ، السلوك ، ج ٢ من ٤٨٩ ،

ابن الصبيح ، قرة العيون ، ص ١٨٨ .

(٣) كانت صور التجاوز للحدود الشرعية التي يقوم بها بعض أفراد القبائل الناتج عن الجهل المتفشي بينهم مثار قلق وإزعاج دائم للعلماء والعُلماء ، وكانوا جراء ذلك ينفرون من مساكنة هذه القبائل التي هم من صميم أبنائها ، وقد يكون المتجاوزون أبناء عمومته ، ووصل نفورهم إلى الخروج عن ديارهم وبناء وتأسيس (الهجر العلمية) لكي يتكون نسيج مجتمعا من مجموعات متجالسة في طريقة الحياة والسلوك الشخصي الملتزم ، وهو ما يعكسه النص الطويل السابق الذي وصف به مُسلم اللُخْجي هجرة وقص التي كان هو نفسه أحد أحد سكانها ، وكذلك ما رواه هو نفسه عن خروج الشيخ إبراهيم بن أبي الهيثم بن كهلان بن محمد المطرفي (توفي أوائل القرن السادس الهجري) من هجرة مقر بسبب شرب بعض أهلها للخمر^(١) .

لم يكن دور (الهجر العلمية) محصوراً في نشر العلم وإيواء العلماء وطلابهم ، بل كان لها أنوار اجتماعية مهمة ، وهي التي أشار إليها القاضي لأكرع^(٢) في تعريفه السابق لها ، ومن ذلك قيام رجال (الهجر العلمية) بالإصلاح بين الناس حين احتدام الخلافات القبلية بينهم ، هذا إضافة إلى دورها التوعوي في نشر العلم بين أفراد القبائل وإقنائهم في أمور دينهم وإسلامتهم في مناسكهم التعبدية ، وهذه الأدوار هي التي رسخت مكانة (الهجرة العلمية) وسكانها في قلوب أبناء القبائل التي تجاورهم .

انعكست المكانة الرفيعة والمنزلة السامية التي احتلتها (الهجرة العلمية) في قلوب القبائل اليمنية من خلال (تَهْجِيرِهِمْ) ، ومفهوم (التَهْجِير) هنا له دلالة خاصة أيضاً ، فهو مشتق من (الهجرة العلمية) ومرتبطة بها ومنحدر من مفهومها نفسه ، وهو : " اتفاق ذوي الشأن من رؤساء القبائل وزعماء العشائر على جعل القرية التي يلوي إليها العلماء والفضلاء وأهل الصلاح والتقوى (هجرة) بإصدارهم وثيقة تسمى (التَهْجِير) ، وتتضمن تعهد أعيان القبيلة - أو القبائل - لمكان (الهجرة) من العلماء والفقهاء التي تقع بين أظهرهم بحمايتهم ورعايتهم وكفالتهم ... ويعلن هذا (التَهْجِير) في المحافل العامة التي يجتمع فيها القبائل كالأسواق الأسبوعية وغيرها بأن قبيلة ... أو قبائل ... قد جعلوا قرية هجرة ، أرضاً وسكاناً ... وحينئذٍ تتميز (الهجرة)

(١) اللُخْجي ، طبقات مُسلم اللُخْجي ، ج ٤ ص ٩٠ .

(٢) لأكرع ، المدخل إلى معرفة هجر العلم ومعاقلة في اليمن ، ص ١٧ ، ١٨ .

عن سائر القرى الأخرى التي يسكنها عامة الناس بحصانتها الثلثة ، فلا يدخل الجنود بيوتها ، ولا تقام في ساحاتها الألعاب التي تعتمد على الطبل والمزمار ، كما أن أهلها مستثنون من التجنيد الإجباري الذي يفرض على القبيلة عند الحاجة إليه ، وإذا من أحدهم ضرراً لعدوان نزل به من غير أهل (الهجرة) فإن العقوبة على المعتدي بأربعة أمثالها^(١) ، ولم تكن للزعامات القبلية بهذا التكريم للعلماء ، بل إنها وفرت لأهل (الهجر العلمية) أسباب الرزق ، فأعطتهم زكاة أموالها حينما لا يوجد إسلام أو حاكم قوي نافذ الأمر في مناطقهم ، فينفقون منها على أنفسهم وعلى طلبه العلم وعلى الواقنين إليهم ، وفي حال وجود إمام يتقاضاهم الزكاة وينفعونها إليه فليهم أحياناً تعطي وجوه (الهجرة العلمية) مثل مقدار الزكاة التي أخذت منهم حتى يعيشوا في كنفها ورعايتها مطمئنين ، لا يكثر لهم صعو ، ولا يغير عليهم حال ما داموا متحليين بالصدق والأمانة وحسن الحلق ، ملتزمين بالعدل في أحكامهم بين من يختصم إليهم^(٢) .

هذه المميزات التي توفرت للهجر العلمية هي التي كملت لها الاستمرار قرون طويلة تؤدي مهمتها العلمية والاجتماعية العظيمة ، ولا تفقد صفاتها وامتيازاتها ما دام أهلها محافظين على الحد الأدنى من التزاماتها ، لذلك وجد ذكر الهجرة العلمية الواحدة على مدار قرون عدة ، وانتشرت على طول المناطق الزيدية كلها ، وبرز من أبناءها عدد كبير من رموز الفكر العربي الإسلامي الذين تغلخروا بهم اليمن وتباهى بعطائهم ومنزلتهم العلمية على قطار العالم الإسلامي الأخرى .

وقد حصر القاضي إسماعيل الأكوخ في كتابه القيم (هجر العلم ومعاقله في اليمن) معظم الهجر العلمية التي ورد ذكرها في المصادر اليمنية ، ما كان منها قد أسس قبل مدة الدراسة وأثناءها ، وهو الأغلب والأكثر ، وتلك التي أسست بعد مدة الدراسة ، فبلغ عددها كاملة ثلاثمائة وسبعة وأربعين هجرة علمية ، وهو عدد هائل وكبير ، وقام بالترجمة لأشهر رجالها فكأنه قد ترجم لمعظم علماء اليمن ، وسأقوم بالحديث عن هجرتين فقط من هذه الهجر العلمية ، وأتناول واحداً من علماء كل هجرة منهما .

(١) الأكوخ ، المدخل إلى معرفة هجر العلم ومعاقله في اليمن ، ص ٢٠ - ٢٦ ، هجر العلم ، ج ١ ص ٦ .

(٢) المرجعان السابقان ، نفس الصفحات .

❖ هجرة الظهراوين بشطب^(١) :

من أشهر هجر العلم في تاريخ اليمن ، حملت أسماء عدة ، منها : هجرة شطب ، وهجرة بني حجاج ، وهجرة الظهراوين وهو الأشهر ، وهي بلدة في جبل شطب بعزلة بني حجاج من مديرية السودة في محافظة عمران ، تقع إلى الشمال من مدينة عمران بنحو ٤٥ كيلومتراً ، وعن صنعاء بمسافة ٩٥ كيلومتراً تقريباً شمالاً ، وهي اليوم خربة مهجورة ، لم يبق منها إلا بيتان مسكونان فقط ومسجدها .

أنجبت هذه الهجرة عدداً من أعيان علماء اليمن ووجوه الفكر الإسلامي وقادته فيه ، وإن أربت الاستدلال على ذلك فيكتفي أن أشير إلى الإمام الأكثر شهرة في اليمن ، والمجتهد الأكثر حظوة ، الإمام العلامة محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن الفضل الوريث الحسني^(٢) (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) منها ، ما رأيت أحداً نال من المدح والثناء من علماء اليمن قاطبة كما ناله هو ، ولا نال رجل من علماء مناطق الزيدية من الشهرة إلى زمة كما نالها هو ، أوسع العلماء والمؤرخون اليمنيون وغيرهم في ترجمته ، وونت أن أحصر مدحهم له بيد أن السياق لا يسمح بذلك ، فقد وصف بأنه " إمام أئمة الاجتهاد من دون منار ، مجدد زمانه ، وحامل لواء محاربة التقليد من دون لين ولا هوادة "^(٣) ، وهو " السيد الحافظ ، خاتمة المحققين ، المحيط بالعلوم من خلفها وأمامها ، والحري بأن يدعا بإمامها ولين إمامها ، كان متبلياً غايات ، وصاحب آيات وعلامات ، بلغ من العلوم الأفاصي ، واقتادها بالنواصي ، وله في علوم

(١) الأكوغ ، هجر العلم ، ج ٣ ص ١٣٣٩ ، المقضي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ، ص ٩٧٩ .

(٢) ترجم له الأكوغ ، هجر العلم ، ج ٣ ص ١٣٦٧ ، ابن الرشد ، بغية المرید وأئمة الفريد ، صورة عن نسخة بمكتبة جامعة صنعاء ، ق ٦١ ب ، ٦٢ ، زهرة ، أئمة اليمن ، ص ٣١١ ، الشوكاني ، الهدى للطالع ، ص ٥٩٩ - ٦١٠ ، عبد الملك صيد الدين ، فروض الأغني في معرفة المؤلفين باليمن ومصنفاتهم في كل فن ، دار الحارثي ، المطابع ، (د ، ت) ، ج ٣ ص ٥ ، عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ج ٨ ص ٢١٠ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ، ص ٨٩٦ - ٩٠٢ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٨٢٥ ، الوريث ، تاريخ بني الوزير ، ص ٣٥ ، الوزير (آخر) ، ترجمة موسعة للإمام محمد بن إبراهيم الوزير ، مخطوط بالمكتبة الدريسة في الجامع الكبير بصنعاء ، رقم ٢٩ مجاميع ، ق ١٢٦ ، يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية الصغرى ، ق ٢٥٨ - ٢٦٢ .

(٣) الأكوغ ، هجر العلم ، ج ٣ ص ١٣٦٧ .

الاجتهاد المحل الأعلى ، والتدح المعلى ، بلغ مبلغ الأوائل بل زاد ، وألف وصنف وأفاد ... كان اجتهاده اجتهاداً كاملاً مطلقاً ... وكان أنكى الناس قلباً ، وأزكاهم لباً ، وكان فولاده جنوة نار تتوقد ، وهو الخبير الخريت الماهر في كل مقصد ^(١) ، وقد وقف الإمام الشوكاني ^(٢) مع ترجمته طويلاً ، ووصفه بما لم يصف به غيره ، وختم وصفه له بقول : " والذي يغلب على الظن أن شيوخه لو جُمعوا جميعاً في ذات واحدة لم يبلغ علمهم إلى مقدار علمه ، وناهيك بهذا ... والحاصل أنه رجل عرّفه الأكابر ، وجهله الأصاغر ، وليس مختصاً بعصره ؛ بل هو كائن فيما بعده من المصور إلى عصرنا هذا ، ولو قلت : إن اليمن لم تجب مثله لم أبعء عن الصواب " .

كان الإمام ابن الوزير نموذجاً لعلماء اليمن في مجمل الصفات ، فهو رَحَّالٌ في طلب العلم ، جاب في سبيله أغلب مناطق اليمن - سَنِيَّهَا وشَبَعِيَّهَا - وجلس إلى أكابر علماءها ، تآقت نفسه إلى التلقي عن أشهر العلماء في غيرها فبِمِمْ وجهه صوب الحجاز ، وهناك قرأ على أشهر علماء مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وبرز بين تلاميذهم بروزاً لفت أنظار الجميع ، اعترف بإمامته وطول بعه واجتهاده المؤيد والمخالف .

كانت أسرة الإمام محمد بن إبراهيم الوزير - ولا زالت - من أكبر بيوت العلم في اليمن - ومعظم رجال عشيرته هم من أعيان الزيدية ، وهو نفسه يمتد نسبه إلى الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين مؤسس مذهب الزيدية ودولتها في اليمن ، وكان المتوقع ألا يخرج به اجتهاده إلى مخالفة وجوه الزيدية وأئمتها - المعاصرين له والسابقين - في الأصول والعروع ، إلا أن ما بلغه من العلم مع توالف الرغبة في اتباع ما ثبت في الشريعة عقيدةً وفقهاً من مصادر المعتمدة جعلته ينأى بعيداً عن كليهما : عن مسار أهله من الزيدية القائلين بحجية ما رواه علماء آل البيت النبوي وأئمتهم على ما رواه سواهم من جانب ، وعما عرفت به المذاهب الفقهية السنية المشهورة من النقيض الكبير في اتباع لجهودات الفقهاء الأربعة من جانب آخر ، فكان الإمام الوزير - بعد تصلعه التام بعلوم أهل مذهبه وعلوم أهل السنة - رائداً في الدعوة إلى الاجتهاد

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ، ص ٨٩٦ - ٩٠٢ .

(٢) البحر الطالع ، ص ٦٠٩ ، ٦١٠ .

الشخصي بالبحث عن الدليل واتباعه^(١) ، والدوران معه حيث دار ، يتضح ذلك من رده على شيخه محدث مكة محمد بن عبدالله بن ظهيرة عندما قال له : " لو قلنت الإمام الشافعي ؟؟ فقال : يا سبحان الله ، لو كان يجوز لي التقليد لم أعدل عن تقليد جدي الإمام للقاسم والهادي ، فهما بالتقليد أولى... " (٢) .

جلب لجهته عليه الكثير من المشكلات ، وتغير عليه لقرب المقربين إليه ، وكان أحد كبار شيوخه - علي بن محمد بن أبي القاسم^(٣) (ت ٨٣٧هـ / ٤٣٣م) -

(١) يتحدث عن نفسه واصفاً مسيرته إلى أن لقي رحاله في مرسي لكتاب والسنة . " وقد وهبت ألام شبابي ، وزمان لقتابي لكثيرة علم الكلام والجدال ، والنظر في مقالات أهل الطلل حتى عرفت قول القائل :

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسئلت طرقي بين تلك المقام
فلم أر إلا واضعاً كسف حسنة على ذنن أو قلراً بين نسام

وسبب إثاري لذلك ، وسلوكي تلك المسالك لـ أول ما قرع سمعي ورسخ في طبعي وجوب النظر - أي الاجتهاد - والقول بأن من قلّد في الاعتقاد كُفراً ، فاستعرت في ذلك حدة نظري وباكورة عصري ، ومازلت أرى كل فرقة من المتكلمين تنادي لقوالاً مريضة ، وتقوي لجنحة مبيضة ، فلم أحصل على طائل ، وتمنت فيهم قول القائل :

كلُّ يداوي سقيماً من معاليه فمن لنا بصحيح ما به سقم

فرجعت إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وقلت : لا بد أن يكون فيهما برهين وردود على مخالفتي الإسلام ، وتعليم وإرشاد لمن اتبع الرسول عليه والصلاة والسلام ، فتبريت ذلك ، فوجدت لشفاء قلبه ، بقةً وجلةً ، وانشراح صدري ، وصلاح أمري ، ورأى ما كنت به مبتلي ، وأنشدت متمثلاً :

فأفقت عصاه واستقر بها قنوى كما فرّ عونا بالإهاب المسافر

نظر تفصيل خبر ذلك كله في كتابه ، العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم ، تحقيق شعب الأرناؤوط ، دار البشير ، عمان ، ط ٢ ، ١٩٩٤م ، ج ١ من ٢٠١ ، ٢٠٢ ، الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم ، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٩٨٥م ، ص ٩ .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ، ص ٩٠١ ، ابن فرشيد ، بغية المرید وأمن الفرید ، ق ٦٦ ب .

(٣) أحد كبار علماء فريديّة في عصره ، عالم مجتهد محقق ، سكن صنعاء ودرس بها عدد من أشهر علماء اليمن في وقته ، ومن أشهر تلاميذه الإمام إبراهيم الورير ، وكان معروفاً بتمسكه الشديد بأقوال وعقائد جمهور الزيدية ، وهو ما أدى إلى وفرع الخلاف بينه وبين تلميذه ، وهو الذي قام الإمام الوزير بنسليم كتابه لتبشير العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم رداً عليه ، زهارة ، أئمة اليمن ، ص ٣٠٧ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ، ص ٧٧٨ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٧١٧ .

الذي كان لا يفتأ يمتدحه ويشير إلى طلابه الآخرين بالسير على نهجه والتلويح بهمة وعزيمة في أيام طلبه للعلم ، أصبح ينال منه وينسبه إلى الهوى والخروج عن الحق ، ودارت المراسلات والنقاشات الشعرية بينه وبين المنكرين عليه منهجه الجديد ، وأشهرهم شيخه السابق والإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) الآتي ذكره في هجرة للطعير ، ويتجلى بذلك صورة من أبهى صور الحراك العلمي في اليمن .

كان الإمام محمد بن إبراهيم الوزير - نظراً لعلمه الواسع - ذا قلم سيال ، لذلك فقد ألف كثيراً من الكتب والرسائل ، مازال معظمها كغيرها من عيون تراث اليمن في طي النسيان في صورتها المخطوطة ، ولم يعرف الناس منها سوى ما طبع وهو لا يمثل عشرينها ، فقد أورد صاحب (أعلام المؤلفين لليمنية)^(١) واحداً وأربعين من مؤلفاته ، وحدد أماكن وجود أغلبها ، وقد حظي هذا الإمام في الفترة الأخيرة باهتمام الباحثين في مجال الفكر الإسلامي والفلسفة الإسلامية ، وقاموا بكتابة عدد من الأطروحات والدراسات الأكاديمية عنه^(٢) .

^(١) الوجه ، ص ٨٢٦ - ٨٣٠

^(٢) من أشهر دراسة علي بن علي جابر العربي ، ابن الوزير وآراؤه الاعتقادية ، مكتبة عبدالله عمر ، مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٩٩٦م ، ودراسة محمد عبداللطيف علي أبو غنم ، الإمام محمد بن إبراهيم الوزير ومنهجه في كتابه العواصم والقواصم ، رسالة ماجستير ، جامعة صدام للعلوم الإسلامية ، ١٩٩٩م ، ودراسة رزق أحمد الحجر ، ابن الوزير ومنهجه الكلامي ، رسالة ماجستير ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٧م ، الأكوع ، الإمام محمد بن إبراهيم الوزير وكتابه العواصم والقواصم ، دار البشير ، عمان ، ١٩٨٨م ، ص ١٠ وما بعدها ، ألقة العظم المجتهدون في اليمن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ٢٠٠٢م ، ص ٧ - ١٤٢ .

❖ هجرة الظفير^(١) :

يُعرف أحياناً بظفير حجة ، وهو حصن منيع ، وهجرة علمية عامرة شهيرة ، تقع إلى الشمال من مدينة حجة على مسافة تبلغ حوالي ١٥ كيلومتراً ، يمثل مركزاً إدارياً من مراكز مديرية مَنِين بمحافظة حجة ، وجاءت شهرتها من ناحيتين : من ناحية كونها حصناً منيعاً له أهمية استراتيجية كبرى في ميزان القوى اليمنية ، ومن ناحية كونه هجرة علمية أشعت بنور العلم فأضاعت كثيراً من مناطق اليمن ، وخاصة تلك التي يغلب على أهلها المذهب الزيدي ، ولم يزدهر العلم فيه إلا من بداية المائة الهجرية الثامنة ، وازادت شهرته منذ أن استوطنه الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) في مطلع القرن التاسع الهجري .

ارتبطت هجرة الظفير - في مدة دراستنا - بتراجم عدد من أكبر علماء اليمن ، ترجم للقاضي الأكوخ^(٢) لأربعين علماً منهم ، وكما ارتبط أيضاً بسيرة اثنين من أشهر أئمة الزيدية ، هما : الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) وحفيده الإمام المتوكل يحيى شرف الدين (ت ٩٦٥هـ / ١٥٥٧م) .

يظل الإمام المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى بن أحمد بن المرتضى بن الفصل الحسن^(٣) (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) هو أهم شخصية في تاريخ هجرة الظفير ،

(١) الأكوخ ، حجر العظم ، ج ٣ ص ١٣١٢ ، للحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٣ ص ٥٦٧ .
المقضي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ، ص ٩٧٥ .

(٢) حجر العظم ، ج ٣ ص ١٣١٢ - ١٣٣٧ .

(٣) ترجم له الأكوخ ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٣١٤ - ١٣١٩ ، ريادة ، أئمة اليمن ، ص ٣١٢ - ٣٢٠ ، الزحيف ، متأثر الأبرار ، ج ٢ ص ١٠٧٣ ، المرتضى ، تاج علوم الأئمة وقانون عسلاهم العرب ، دراسة وتحقيق د. نوري ياسين حسين الهيثي ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ٢٠٠٤م ، ج ١ ص ١٥ - ٤٨ ، الشرفي ، اللآلئ المضيلة ، ص ٤٧٩ - ٥٠٤ ، الشوكاني ، القدر الطالع ، ص ١٣٩ - ١٤٣ ، عبدالمالك حميد الدين ، الروض الأغر ، ج ١ ص ٩٠ ، ٩١ ، عمر رصا كحالة ، معجم المؤلفين ، ج ٢ ص ٢٠٦ ، د. محمد محمد الكعالي ، الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى وأثره في الفكر الإسلامي ، دار للحكمة اللبنانية ، صنعاء ، ط ١ ، ١٩٩١م ، ص ٦٧ - ١٤٥ ، المرتضى ، كنز الحكماء وروضة العلماء ، مخطوط بالمكتبة العربية في الجامع الكبير بصنعاء ، رقم ١١٥ ، ق ٢ وما بعدها ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ، ص ٢٢٦ - ٢٣ ، الوجه . أعلام المؤلفين للزيدية ، ص ٢٠٦ .

بل لأحد أشهر ستة أئمة من أئمة الزيدية في تاريخ اليمن عموماً^(١) ، وقد شغل علماء مذهبه بكتبه شرحاً وتوضيحاً وتعليقاً واستدراكاً وتكريماً حتى بعد وفاته بأكثر من خمسة قرون ، ولا زالت كتبه إلى اليوم أهم مناهج التربية لدى جمهور الزيدية وعلمائها ، لا سيما في الفقه والأصولين ، فقد حاز من العلم ما فاق به معظم علماء عصره ، وصفه الوجيه^(٢) بقوله : " أحد عظماء الإسلام ، وأئمة العترة الكرام ، عالم ، فقيه ، مجتهد مطلق ، علم شامخ في شتى الفنون ، أثرى المكتبة الإسلامية بمؤلفاته الشهيرة الخالدة التي لازالت عمدة المذهب الزيدي ، ومرجعاً للفقه الموسوعي ... " ، وقال آخر : " كان فضله وعلمه السابغ ، وانتفاع المسلمين به النفع البالغ ، ليس لأحد من الأئمة مثله من العناية الإلهية في بركة علمه ومصنفاته التي هي كالطراز للمذهب ، وعليها اعتماد المذهب ، الخارجة على طريق علماء الحقيقة والمجاز ، التي هي بالمرتبة الثانية من حد الإعجاز ... " ^(٣) .

كان من نظراء الإمام محمد بن إبراهيم الوزير وإن كان أكبر منه سناً ، وتربطهما أيضاً قرابة رحم قوية ، فهما يجتمعان في جدهما المرتضى بن المفضل ، وجرت بينهما الكثير من النقاشات والحوارات حول حواش مهمة من لوجه الخلاف ، وخاصة في علم أصول الدين ، ودارت بينهما الكثير من المكاتبات والرسائل الشعرية والنثرية ما امتلأت به كتب النراجم والنواريخ اليمنية ، وألغا كتباً في سياق ذلك الحراك العلمي والأدبي الرائع^(٤) ، وكانا قد بلعا من العلم مبلغاً فاقا به جميع الأقران ، وكان الإمام المهدي يتمسك بمذهب آبائه وأجداده بينما خرج عنه الإمام الوزير كما أسلفنا ،

(١) في القائل بشهرتهم أكثر من غيرهم من خلال ما لاحظته من الانتشار العريض لذكرهم في مصادر تاريخ اليمن وقائمة مؤلفي تراثه ومصادر الفكر العربي الإسلامي فيه ، والخمسة الباقون هم : الإمام للمؤسس الهادي يحيى بن الحسين (ت ٢٩٨هـ / ٩١٠م) ، الإمام المعصور بالله عبدالله بن حمزة (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) ، الإمام المؤيد يحيى بن حمزة الحميري (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) ، الإمام القموكل يحيى شرف الدين (ت ٩٦٥هـ / ١٥٥٧م) ، الإمام المعصور بالله القاسم بن محمد (ت ١٠٧٩هـ / ١٦٢٠م) .

(٢) أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٢٠٦ .

(٣) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ، ص ٢٣٢ .

(٤) مما ألهه الإمام الوزير في ذلك السياق كتابه (قبول البشرى في تفسير اليسرى) و (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) ، وألف الإمام المهدي كتابه (للمرئ في الرد على المرخصين في الملاحى والمزمار) ، انظر مصادر ترجيحتهما السابقة .

ويبدو أن الموقف السياسي كان منكباً لأوار ذلك الحراك العلمي والنقائض الأدبية ، فقد أعلن الإمام المهدي إمامته بعد وفاة خاله الإمام الناصر صلاح الدين (ت ٧٩٣هـ / ١٣٩١م) معارضاً بذلك بيعة الإمام المنصور بالله علي بن الناصر صلاح الدين كما أسلفنا ذكره في الفصل الثاني ، ووقف الإمام محمد بن إبراهيم الوزير مؤيداً للأخير ضده فتسبب ذلك الصراع في هزيمة الإمام المهدي وسجبه سبع سنوات .

كان سجن الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى ثم خروجه منه سنة (٨٠١هـ / ١٣٩٧م) ومن ثم تخليه عن دعوى الإمامة فاتحة خير للعلم وأهله ، بل للفكر الإسلامي في اليمن ، فقد كان بعد ذلك دأبه التنقل من مكان إلى آخر ، ومن هجرة علمية إلى أخرى ، وكان أينما حل واستقر ينقطع للتأليف والتدريس ، وأثمر قلمه ثروة عظيمة من المؤلفات النافعة في كثير من الفنون ، وما كان باستطاعته أن يؤلف شيئاً من ذلك لو شغل بالإمامة ومتطلباتها^(١) .

لنتهى المطاف بالإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى في هجرة الظفير فاستقر بها ، وتفرغ للتدريس والتأليف ، وأصبح الظفير منذ ذلك الوقت إحدى الهجر العلمية الأشهر علماً والأكثر علماء وطلاباً ، وقد بلغ عدد مؤلفاته سبعة وستين كتاباً ، معظمها مازال مخطوطاً ومتناثراً في المكتبات الخاصة والعامة ودور المخطوطات في السيمن وغيرها .

يجدر بنا في آخر حديثنا عن الهجرة العلمية أن نشير إلى تحلي فرقين كبيرين بين (القرية العلمية) و (الهجرة العلمية) ، أولهما في مناطق الانتشار ، فالقرية العلمية وجدت في مناطق المذاهب الفقهية السنية ، وهي المنطقة الشاملة لمعظم مساحة اليمن ، بينما انتشرت (الهجرة العلمية) فقط في مناطق انتشار المذهب الزيدي كما أسلفت ، أما الفرق الثاني فهو الفرق الأكبر ، وأقصد به (التهجير) ، فالهجرة العلمية تتمتع بالحصانة وبالتالي لا يجرو أحد على التعدي عليها قطعياً ، بينما لا تتمتع القرية العلمية غالباً بأي نوع من الحماية إلا ما يملكه العلماء والفقهاء الذين ينزلونها من مكانة روحية محددة تدفع القوى المجاورة إلى احترامهم وعدم التعرض لهم ، فإذا ما غابت مسألة مراعاة هذه القوة الروحية فإن القرية العلمية قد تتعرض للاعتداء ولا يسلم حينئذ من فيها عالماً كان أم متعلماً ، مثال ذلك ما حصل للإمام

(١) الأكرع ، هجر العلم ، ج ٢ من ١٣١٥ .

الشهير يحيى بن أبي الخير العزّازي الشافعي (ت ٥٥٨هـ / ١١٦٢م) الذي غادر قريته سِتْر ونزل بذي السفال بعد ما أصابها بعض تبعات صراع القوى المحيطة ، يقول الجندي^(١) : " ثم حدث على قومه بَسِتْر خوف عظيم وحروب من العرب - أي القوى القبلية - حولهم ، فخرج الشيخ منها إلى ذي السفال " .

سادساً : الأربطة والزوايا والخانقاوات :

الحديث عن التصوف وتاريخ وجوده في اليمن يحتاج إلى وقفة ليس هذا مكانها، ولعلنا نقفها في الفصول الآتية ، غير أنه من الواجب هنا الإشارة إلى أن انتشار التصوف في اليمن قد صاحبه انتشار نوعية جديدة من أماكن التعليم ، هي الزوايا والأربطة والخانقاوات ، وما كان منها في اليمن هو نسخة مطابقة لما كانت عليه مثيلاتها في كل أماكن وجود التصوف والصوفية في كل أقطار العالم الإسلامي ، إلا أن الحياة المذهبية اليمنية لم تكن عاملاً مساعداً لانتشار التصوف في كل أنحاء اليمن ، وبالتالي لم يكن هناك من مجال لانتشار الزوايا والأربطة والخانقاوات في كل مناطقها ، فجزء من المرتفعات الوسطى والشمالية التي غلب على أهلها التمسك بالمذهب الزيدي فكراً وفقهاً لم تحبّ بالتصوف نهائياً ، فهي - من مطلق تمجيدها للعقل وإطلاقها لسلطانها - نظرت إلى التصوف وكثير مما يرتبط به من الحديث عن الكرامات وغيرها نظرة نفور شديدة ، والمنتبع للمصادر الزيدية يجد ذكر التصوف ورجاله في مناطقها شبه منعدم ، وإن وجد فهو لحالات تعد على أصابع اليد الواحدة على مدار تاريخ الزيدية كله الممتد على مساحة زمنية تفوق الألف عام .

(١) الأربطة والزوايا :

جاء اسم الرباط من المراقبة ، بمعنى ملازمة شعر العدو ، وأصله أن يربط كل من الفريقين خيله ، ثم صار لزوم الثغر رباطاً^(٢) ، ومع التطور التاريخي للمفهوم اللغوي أصبح الرباط دالاً على البناء المحصن الذي يقام بالقرب من الحدود ويرابط فيه

(١) السلوك ، ج ١ ص ٢٩٦ .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٣ ص ١٦٥١ ، العروزي ، القاموس المحيط ، ج ٢ ص ٣٧٤ ، إبراهيم نيس وآخرون ، المعجم الوسيط ، ج ١ ص ٣٢٣ .

المجاهدون لمهاجمة الأعداء ورفع خطرهم^(١) ، ولم يثبت أن أصبح الرباط مصطلحاً يطلق على المكان الذي ينزل به الصوفية^(٢) ، ولعل التطور الأخير جاء من زعم الصوفية بأنهم يربطون في ذلك المكان جهاداً للنفس من منطلق تشابه الغرض بين أصل المعنى والوظيفة التي يؤديها^(٣) .

كثرت الأربطة والزوايا للصوفية في اليمن في مدة الدراسة ، وكان هناك عدد لا بأس به مما كان أنشئ في القرون السابقة وقام عليها أبناء مؤسسيها وخرياتها وأتباع طريقتهم ، وكان انتشارها في منطقة تهامة أكثر من غيرها ، إذ جاء ذكر ستة أربطة منها لدى المؤرخ الأهل^(٤) وأربعة عشر زاوية^(٥) ، وجعلها الشرجي سبعة أربطة^(٦) وإحدى وعشرين زلوية^(٧) ، أما الأربطة والزوايا في المناطق اليمينية الأخرى فقد كان عددها قليلاً ، منها رباط في منطقة بالقرب من تريم بحضرموت^(٨) وزلوية^(٩) ، وآخر في الشحر^(١٠) وعدة زوايا^(١١) ، وأربعة أربطة في عدن^(١٢) ، وواحد في ريمة^(١٣) ، وآخر

(١) د. سعيد عاشور ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، دار النهضة ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٩٢م ، ص ١٨٦ .

(٢) إبراهيم أنيس وآخرون ، المعجم الوسيط ، ج ١ ص ٢٢٣ ، المقريري ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ج ٢ ص ١٢٧ ، (د ت) .

(٣) د. محمد الخطيب ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ، مطبعة الحسين الإسلامية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩١م ، ص ٧٤ ، ٧٥ ، عبدالله العبادي ، الحياة العلمية في زبيد ، ص ٢١٢ ، المقريري ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج ٢ ص ٤٢٧ .

(٤) الأهل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٦ ، ١٣ ، ٢٠٨ ، ٣١٢ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٧ ، ٢٨ ، ٤٤ ، ٦١ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ٩٩ ، ٢٠٨ ، ٢٢٢ ، ٢٤٩ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣٣٨ .

(٦) الشرجي ، طبقات الخوارج ، ص ١١٥ ، ٢٩٩ ، ٣١٩ ، ٣٣٥ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٩٨ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٨٢ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١١٦ ، ١٩٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٢٣ ، ٢٩٣ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٤٣ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٦٩ ، ٣٨٦ ، ٣٩٨ ، ٤٠٦ .

(٨) الأهل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٤٣٥ .

(٩) قشلي ، المنام الباهر ، ص ٦ .

(١٠) الشرجي ، طبقات الخوارج ، ص ٢٥٩ .

وآخر في إب^(١) ، ورباطان في صهبان^(٢) ، ونكر الشرجي^(٣) أن هناك زوايا لآل بلوزير بحضرموت.

لم تركز المصادر على ذكر الدور التعليمي للأربطة والزوايا، إلا أن مؤسسيها كانوا في الغالب من المعنودين في العلماء المبرزين ، وهذا يجعلنا نجزم بأن دوراً تعليمياً كانت تمارسه هذه الأربطة وإن كان يقل في تأثيره على غيره من أماكن التعليم الأخرى .

كما أنه من المتعذر القول بأن الحياة العلمية في الأربطة والزوايا كانت تلتزم بمنهج موحد ، بل كانت تخضع في الدرجة الأولى إلى ميول المنشئ أو الشيخ ، فكان للطلبة والمريدون يلتفون حول شيخهم ويلتزمونه ، وكل شيخ مع طلابه ومريديه يمثل مدرسة قائمة بذاتها ، تنقسم بأفكر وتيارات فكرية ، ترتبط برباط معين^(٤) . وقد تصدر كثير من شيوخ الأربطة للتدريس والفتوى ، واشتغل عليهم كثير من الطلبة سنوات عديدة^(٥) ، وكانوا يدرسون الفقه والحديث وغيرهما من العلوم الأخرى بجانب علوم التصوف^(٦) .

(١) الأمل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٤٢٥ ، الشرجي ، طبقات الخواص ، ص ٢٥٩ .

(٢) الأمل ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤١٩ ، الشلي ، السقاء الباهر ، ص ٢٧ ، بامحرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٦٧٠ ، ٦٨٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٦ .

(٣) الشرجي ، طبقات الخواص ، ص ٢٨٦ .

(٤) البريدي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٠٥ .

(٥) الشرجي ، طبقات الخواص ، ص ٣٢٧ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٧٢ ، ١١٨ ، ١٧٧ ، ٣٣٥ ، ٤٢٢ ، علي بن علي أحمد ، الحياة الطبيعية في تعز ، ص ٢٩٤ .

(٨) الشرجي ، المصدر السابق ، ص ١٣٣ ، ٣٣٥ ، الجندي ، السلوك ، ج ٢ ص ١٤٣ ، علي بن علي أحمد ، المرجع السابق ، ص ٢٩٤ .

(٩) الجندي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٤٣ ، الشرجي ، المصدر السابق ، ص ١٠٧ ، ١١٨ ، ١٨٨ ، ٢٣٣ ، ٣٤٨ ، ٣٧٨ ، ٣٩٠ ، ٤٢٢ .

(٢) الخانقاوات :

الخانقاه^(١) كلمة فارسية تعني البيت أو الدار ، وجمعه خوانق أو خانقاوات ، وقد اُصطلح عليها في العصر الإسلامي لتطلق على الأماكن التي تعدها رجال الدول - من الملوك والسلاطين والأمراء والمومنين - للزهاد ولتباع للطرق الصوفية ومن فسي حكمهم ، وقد أولى السلاطين الرسوليون عنايتهم بالخوانق في إطار الاهتمام العام الذي حظيت به الصوفية ورجالها في عهدهم ، وبناء أول خانقاه في اليمن يعود إلى النصف الثاني من القرن السابع الهجري في عهد السلطان المظفر الأول للرسولي (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م)^(٢) ، ثاني السلاطين الرسوليين ، وهو الخانقاه المظفرية^(٣) بخيـس^(٤) ، ثم تتابع بعد ذلك بناء الخانقاوات من الأمراء ونساء البلاط الرسولي^(٥) .

سار السلاطين المتأخرون على نهج أسلافهم في الاهتمام بالصوفية وبناء الخانقاوات لهم ولمريديهم ، من ذلك نجد أن السلطان الأشرف الثاني إسماعيل (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) بنى خانقاه في مدرسته الأشرفية الكبرى التي أنشأها سنة (٨٠٠هـ / ١٣٩٧م) جنوب حصن عز ، ورتب فيها شيخاً صوفياً وعشرة من

(١) محمد أحمد دهمان ، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، دار الفكر ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٩٠ ، ص ٦٦ ، مصطفى عبد الكريم الحطاب ، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ، ص ١٥٨

(٢) الخزرجي ، المسجد المسبوك ، ص ٢٧٢ .

(٣) أورد الباحث عبدالله العبادي ملاحظة مهمة حول مصطلح الخانقاه في المصادر التاريخية اليمنية ، يرى فيها أن ما أطلق عليه المؤرخون اليمنيون (دار الصيف) هو نفسه الخانقاه ، ويستدل على ذلك بأن بعض المؤرخين أطلقوا اسم (دار الصيف) على منشآت محددة ثم سموها بالخانقاوات في مواضع أخرى من كتبهم ، كما أن مؤرخين يمنيون آخرين أطلقوا على تلك المنشآت والمرافق نفسها اسم الخانقاه فقط ، وهو رأي له وجاهته ، انظر عبدالله العبادي ، الحياة العظمية في زبيد ، ص ٢١٥ .

(٤) مدينة قديمة تقع جنوب مدينة زبيد ، وتبعد عنها بمسافة تقدر بحوالي ٣٥ كيلومتراً ، وصفت بأنها أقدم مدن تهامة على الإطلاق ، وقد أولاه السلاطين الرسوليون عناية خاصة ، فصوروا بها المساجد ، وعصروا عليها لتولي المناصب الرسمية ، وهي مشهور في اليمن بصناعة الأواني الفخارية المسبوبة إليها ، وهي اليوم مركزاً إدارية تشتملها والمناطق المحيطة بها ، البحري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٢ ص ٢٠١ ، المتحفي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٥٤٦ ، ٥٤٧ .

(٥) الخزرجي ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٠١ ، ١٠٦ ، ابن الدبيع ، بغية المستفيد ، ص ٩٤ ، عبدالله العبادي ، الحياة العظمية في زبيد ، ص ٢١٥ .

المريدين ، وقدر لهم النفقات النقدية والمعنوية شهرياً وسنوياً ، وتكفل بإطعامهم وتأمين المسكن والملبس لهم^(١) ، حتى يتفرغوا للعلم والعبادة على حد سواء ، يسهموا في النهوض بالحركة العلمية مع بقية المرافق التعليمية الأخرى^(٢) .

وما يؤكد الدور العلمي للخانقاه تلك الشروط التي اشترطها الواقفون فيمن تولى أمر الخانقاه ، إذ نصت الوثائق المتوافرة * على شيخ من مشايخ الطريقة السالكين للمحققين المتصفين بصفة الصوفية ، وعلى عشرة من المريدين السالكين المقطعين ، ويفضل اثنان منهم لمزيد من النفقة وإلى الخلفه المذكورة بالمدرسة من الفقهاء والسالكين ...^(٣) ، كما اشترط بعض الواقفين على شيخ الخانقاه تجنب البدع التي عُرِف بها عموم الصوفية مثل إحداث الغناء أثناء السماع وغيرها ، تقول الوثيقة : "وعلى الشيخ المذكور أخذ العهد على السالكين وجماعة أتباعه لا يعتري الخانقاه المذكورة للشيخ بدعة ولا لهو يضل عن سبيل الله تعالى ... ولا يأكل بسماع مدح ملاح أو حاد أو منكر أقوال مما يرغب على دار القرار ويزهد في هذه الدار ...^(٤) ، وهو ما يؤكد أن الخانقاه في العصر الرسولي كان منظماً بدرجة عالية ، وعمله سير وفق إطار محدد مرسوم مسبقاً ، ولأن ترتيب شيوخ الخانقاوات وتعيينهم كان من الأمور التي يقطع فيها السلطان نفسه^(٥) .

ونجدر الإشارة إلى أن آخر عهد اليمن بالخانقاه - من خلال المصادر التاريخية اليمنية المتوافرة - كان مع بداية القرن التاسع الهجري ، أن السلاطين الرسوليين المتأخرين جداً وكل سلاطين الدولة الطاهرية قد أغفلوا الخانقاوات ، فلم نعد نسمع عن تلك التي سبق إنشاؤها ولا عن خانقاوات جديدة .

(١) الوقفية المسماة ، وثيقة وقف المدرسة الأشرفية ، ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في تعز ، ص ٢٩٠ .

(٣) الوقفية الفضائية ، وثيقة وقف المدرسة الأشرفية ، ص ١٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٧ .

(٥) الخزرجي ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٣٦ ، علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في تعز ص ٢٩٠ .

ثانياً : المراكز العلمية

◻ المراكز العلمية في المناطق السنية :

الفرق بين أماكن التعلم والمراكز العلمية كالفرق بين اللبنة والبناء ، فالمركز العلمي عبارة عن مساحة جغرافية محددة ، قد يضم مدينة واحدة أو مجموعة من المدن والقرى ، وفي كل واحدة من هذه المدن والقرى يوجد عدد من أماكن التعلم المختلفة .

لم يُبنَ التمييز بين المراكز العلمية في اليمن في مدة الدراسة وتقسيمها إلى مراكز في المناطق الشيعية والسنية على أساس مذهبي لذاته ، إنما جاء هذا التقسيم بناءً على الاختلاف في طبيعة أماكن التعليم بين المنطقتين ، وهذا الاختلاف لعبت فيه عوامل عدة ، لم يكن للبُعد المذهبي إلا أحدها ، وهو ما سبق الحديث عنه ، ومن جانب آخر لا أدعي فخراً إن رعت أن اليمن بمجمله، وعلى مدار رقعة الجغرافية كان عبارة عن نسج متداخل من المراكز العلمية وأماكن التعلم ، يستوي في ذلك السهل والجبل ، والهضبة والمنخفض ، بل إن تميزه على غيره من الأقطار الإسلامية جاء من أن النشاط العلمي الذي قادتته المناطق غير الحضرية كان أكثر ازدهاراً وأبلغ أثراً من مثيله في المناطق الحضرية.

ولو أردنا حصر كل المراكز التي تركزت فيها أماكن التعليم ومورست فيها كثير من الأنشطة العلمية لخرجنا عن السياق المرسوم لهذه الدراسة ؛ بسبب كثرتها ، لذلك سأكتفي بتناول عينة منها للاستدلال على ازدهاره في غيرها ، ومنها :

(١) تهامة اليمن :

هي اسم يطلق على النطاق الجغرافي السهلي الساحلي الواقع غرب اليمن ، تصوره الخرائط الجغرافية على هيئة شريط طويل يمتد بمحاذاة شاطئ البحر الأحمر ، وهو الجزء الفاصل بين منطقة المرتفعات الجبلية الغربية والبحر الأحمر نفسه ، يترشح عرض هذا النطاق ما بين ٣٠ إلى ٦٠ كيلومتراً ، أما طوله فهو لا يقل عن ٥٠٠ كيلومتراً بمساحة تقدر بحوالي ٢٠,٠٠٠ كيلومتراً^(١) ، وهناك من جعله يمتد كذلك على

(١) عبدالرحمن الحضرمي ، تهامة اليمن ، مجلة الإكليل ، صنعاء ، السنة الأولى ، العدد ٢ ، ١٩٨٠ م ، ص ٤١ ، ص ١٠٤ - ١١٣ ، د. عوض إبراهيم الحفان ، الجغرافيا العلمية للجمهورية اليمنية ، إصدارات جامعة صنعاء ، ٢٠٠٤ م ، ص ٧١ ، د. عبدالجبار فصيح الغريزي وآخرون ، جغرافية

طول ساحل بحر العرب إلى حدود عُمان^(١) ، إلا أننا في دراستنا هذه منحصر إطلاق
هذا المصطلح - كما هو مرجح ومعمول به لدى الجغرافيين المعاصرين - على ما يقع
منه موازياً للشواطئ الشرقية للبحر الأحمر فقط .

تميز هذا النطاق بخصوبة أرضه وسهولة تضاريسه ، وكثرة الوديان الزراعية
التي تصب مياهها فيه فتجعله غنياً بخصوبة التربة^(٢) ، وثرياً بمقومات الحياة النشوية ،
فارتفعت فيه الكثافة السكانية ، وانتشرت - تبعاً لذلك - مراكز التحضر فيه ، إذ
انتشرت فيه مدن عديدة أمثال زبيد وأبيات حسين^(٣) والحظيذة وحيس وغيرها ، ولم
تشهد منطقة يمنية من تعدد الخلجات المذهبية والفكرية للحياة العلمية وما بُني عليه من
تعدد في أنشطتها واختلاف أشكالها كما شهدهته تهامة بمدنها وقراها ، ولأنه من
الصعوبة حصر مجمل النشاط العلمي الذي دار في هذه المنطقة فإننا سنقوم باستعراض
مذكرات قليلة من أهم ما أشارت إليه المصادر، تاركين مهمة تتبع التفاصيل للباحثين
المهتمين بدراسة تاريخ اليمن .

❖ مدينة زبيد :

تأتي مدينة زبيد في مقدمة مدن تهامة ولوسعها ذكراً في هذا الباب ، وشهرتها
أكبر من أن تحتاج إلى وصف ، وقد كانت زاخرة - منذ قرون طويلة قبل مدة دراستنا
وبعدها - بعدد كبير جداً من العلماء الأعلام ، الذين أصبح بعضهم رموزاً للفكر
الإسلامي في مجمله كالفيروزبادي صاحب (القاموس المحيط) ، وكان لهم ذكر حاضر
في كتب الطبقات والتراجم التي كتبها أعلام المؤرخين المسلمين في الأقطار الأخرى
كابن حجر العسقلاني والسخاوي والسيوطي والفاسي وغيرهم ، وقد استعرضنا كثيراً

اليمن، المكتبة المركزية، تمز ، ٢٠٠٠م ، ص ٤٣ ، حسين بن علي اللبسي ، اليمن الكبرى ، مكتبة
الإرشاد ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٩٩١م ، ج ١ ص ٣٧ .

(١) الجندي ، السلوك ، ج ٢ ص ٣١٠ .

(٢) د عوض إبراهيم الحقيان ، الجغرافيا العامة للجمهورية اليمنية ، ص ٧٣ ، د ، عبدالعالم هصيص
الغريزي وآخرون ، جغرافية اليمن ، ص ٤٤ .

(٣) مدينة قديمة ، أصبحت اليوم معدومة صس قرى تهامة ، تقع إلى الجنوب من وادي مور ومركد ، وقد
أخربت القبائل النملية في بعض مجامعها في آخر القرن التاسع فلم تدر بعد ذلك ، وموقعها يتبع حالياً
مديرية الأحبة بمحافظة الحديدة ، لأكوع ، حجر العلم ، ج ١ ص ٣٤ ، المنصفي ، معجم البلدان والقبائل
اليمنية ، ج ١ ص ٢٠ .

من صور النشاط العلمي فيها عند حديثنا عن أماكن التعليم من هذا الفصل ، سواء في معلومات للصبيان أو جوامع المدينة وكذلك في مدارسها الشهيرة ، لذلك فحاجتنا إلى تناول غيرها لكبر .

❖ مدينة أبيات حسين :

من مدن تهامة الشهيرة بالعلوم مدينة أبيات حسين ، تلك المدينة التي أهدت اليمن عدداً من أبرز أعلامها ، تعددت فيها أماكن التعليم ، فكان ذلك مرتعاً خصباً للمبرزين من أبنائها ، فمارسوا فيها أنشطتهم ، التدريس والتأليف وغيرها ، وقد ترجم القاضي الأكوغ^(١) لولحد وأربعين منهم ، وهو ما دفع عدداً من رجال اليمن في المناطق الأخرى لزيارتها ، سعياً لطلب العلم إذا كانوا في المراحل العمرية الصغرى ، أو حرصاً على التدريس فيها وزيارة علمائها إذا كانوا من العلماء المعروفين في مناطقهم .

ولا ننكر مدينة أبيات حسين إلا ويتبادر إلى ذهن القارئ والسامع أنها النجيب الإمام شرف الدين إسماعيل بن أبي بكر بن عبدالله الشاوري الشرجي الشهير بالمقرئ (ت ٨٣٧هـ / ٤٣٣م) ، الذي يعد بين أشهر شعراء اليمن في عصرها الإسلامي ، ولم يحلُ الشعر بينه وبين أن يبرز في كثير من العلوم بروزاً جعل ذكره كبيراً في المصادر التي تناولت علماء اليمن في القرن التاسع الهجري ، حتى أن الإمام ابن حجر العسقلاني^(٢) وصفه - كما سبقت الإشارة - بأنه : " عالم البلاد اليمنية " ، واستهل البريهي^(٣) ترجمته له بقوله : " الإمام العلامة ، فخر اليمن ، وبهجة الزمن ... كان إماماً يضرب به المثل في الدكاء ، مرتقياً أعلى ذروة الفضل بلا امتراء ، نادرة الدهر ، وأعظم فضلاء العصر ، ملأ بعلمه الصدور والسطور ، وأبان بمشكاة فهمه ما كان عويصاً على أعلام الصدور ... " ووصفه الخزرجي^(٤) بأنه كان يتوقد نكاة ، وهو ما

(١) هجر العظم ، ج ١ ص ٢٤ - ٤٨ .

(٢) إنباء الفهر بأبناء العصر ، ج ٣ ص ٥٢١ .

(٣) طبقات مشاهير اليمن ، ص ٣٠٢ .

(٤) خطوط اللؤلؤة ، ج ٢ ص ٣١٨ .

أهله ليفوق كثير من أقرانه من علماء عصره ، فصار إماماً في التاريخ الفقه والعربية والمنطق والأصول ، وصارت له اليد الطولى في الأدب نظماً ونثراً^(١) .

ومن دواعي شهرته أن كان المنافع الأكبر عن السنة النبوية في الفقه والعقائد في اليمن أمام رياح التيار الصوفي الفلسفي ورموزه ، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن تُنكر الصوفية في اليمن ولا يذكر معها الإمام إسماعيل المقرئ كرمز لخصومها ولساناً للمعادين لها ، وله في تلك القصائد الكثيرة التي يزخر بها ديوانه الكبير ، وقد واجه بسبب ذلك محناً شتى ، وطاله التكيل والتشريد ، ولم تزول محنته إلا بانحسار النفوذ السيلسي للصوفية في اليمن بوفاة السلطان الرسولي الناصر الأول أحمد (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) .

من أهم علماء مدينة أبيات حسين وأشهرهم يأتي الحسين بن عبدالرحمن بن محمد بن أبي بكر الأهدل (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) ، الذي يعد أكبر مؤرخي اليمن في القرن التاسع الهجري ، ترجم لنفسه في كتابه (تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن) ليكون بذلك أول مؤرخ مسلم يكتب سيرته الذاتية - حتى أن الذين اتبعوه في ذلك كانوا يحتجون به كما سنبينه في فصل قادم - وطلب العلم في أكثر من منطقة بتهامة ، فلما برز على أقرانه بال ثقة شيوخه ، حتى أن بعضهم كان يوكل إليه مهمة جواب العتاي للوردة عليه وهو لما يزل فتى يافعاً^(٢) ، وكان بعضهم يصرح بأنه هو الذي سيخلفه في مجلسه في حال وفاته^(٣) ، وكان من علماء اليمن الأثبات والعدول ؛ وذلك لأنه اتخذ لنفسه نهجاً في الأخذ والتلقي يضمن لعلمه الرصانة والعمق ، إذ يقول عن ذلك : " ومن طريقي أنني لا أحب الرواية إلا عن ثقة ، ولا آخذ عن نبأ ودرج ، ولا عن لا أعرف ديانتَه ، ولم أحسب عقيدته ... " ^(٤) ، وقد حاز من العلوم الكثير ، فهو عمدة في الفقه والأصولين ، والحديث والتفسير وغيرها ، ومن ينظر في الكتب والأمهات التي أوردتها في سيرته الذاتية وصرح بأنه درمها على أيدي مشايخه فإنه سيدرك إلى

(١) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٣ ، الشوكلي ، قمر الطالع ، ج ١ ص ١٥٨ - ١٦١ .

(٢) الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، تحقيق عبدالله الحشني ، المجمع الثقافي ، أبوظبي ، ٢٠٠٤م ، ج ٢ ص ٢٥٢ .

(٣) الأهدل ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٥٥ .

أي مدى من العلم قد بلغت درجة هذا العلم الكبير^(١) ، وقد ذكر عدداً من مؤلفاته^(٢) ، ومردّها محقق كتابه المذكور فبلغت سبعة عشر كتاباً في التفسير والتاريخ وأصول الدين والحديث والرفائق والأدب والشعر وغيرها^(٣) .

❖ مدينة حرّض :

ومن مدن تهامة المعروفة بالعلم أيضاً مدينة حرّض ، وهي مدينة وادٍ ، تقع في الشمال الغربي لمحافظة حجة وتتبعها إدارياً ، وولديها هو أكبر الوديان الشمالية لتهامة^(٤) ، وقد عرفت بكثرة العلماء فيها ، ترجم الأهدل^(٥) لتسعة وثلاثين من أشهرهم ، منهم يوسف بن محمد بن علي بن عبدالله العامري (ت ٨٣١ هـ / ١٤٢٧ م) ، الذي تحول عن حرّض ساعياً في طلب العلم إلى زبيد وأبيات حسين ، وبرز في علم الفرائض وعلوم الجبر والمقابلة والمساحة حتى أصبح عمدة فيها ، وقصده الطلبة من نواح شتى ، ومع ذلك فقد كان شديد التواضع^(٦) .

ويأتي الإمام الحافظ والمحدث أبو زكريا عماد الدين يحيى بن أبي بكر بن محمد بن يحيى العامري (ت ٨٩٣ هـ / ١٤٨٧ م) في مقدمة علماء حرّض وأكثرهم شهرة على مر العصور ، فهو من معاصر اليمس وأعلام الحديث فيها ، تتلمذ على يد عدد من خيار العلماء في حرّض وأبيات حسين ومكة وغيرها ، ومع أنه كان لا يزال صغيراً ومعموراً في عهد المورخ الأهدل إلا أنه ذكره عرضاً في ترجمته لأبائه فقال : " ولأبي

(١) عدد الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٢٥١ - ٢٥٥ معظم الكتب التي درسها في سيرته ، وأشار في شأنيها إلى أن له إجازات في كتب كثيرة لم يذكرها وأنه قد ذكرها في فهرسته ، وقبّاهه بجمعها في مؤلف كامل (فهرسته) دليل على كثرتها ، وإن كان هذا الكتاب لم يعرف مكان وجوده حالياً .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٨ ، ٩ من مقدمة لمحقق عبدالله الحبشي .

(٤) الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٢ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، المقضي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٤٤٦ ، ٤٤٧ .

(٥) الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٣٦ - ٤١ .

(٦) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٧ .

بكر هذا ولد اسمه يحيى ، فقيه عارف بالحديث ورجاله ، وقد طلب مني إجازة فأجرت له مروياتي ومصنفاتي ... »^(١) .

وقد حاز الإمام يحيى العامري على القبول لدى كل من عرفه من علماء السنة والشيعنة الزيدية، بل إن بعض أئمتهم قد تتلمذ على يديه^(٢) ، وتجده موصوفاً بعبارة الاحترام في تواريفهم وكتب أسانيدهم ، جاء في ترجمته في (طبقات الزيدية الكبرى) : " الفقيه الحافظ المحدث العلامة ... ناعش سنة سيد المرسلين ، الإمام العالم الحافظ ، الصالح العابد ... »^(٣) .

وحلاصة القول إن تهامة قد ازدهانت في مدة الدراسة وقبلها بأماكن التعليم المختلفة ، من معلمات ومدارس وجوامع ومساجد ، وكانت معظم قراها ومدنها مراكز علم ومنارات هدى دائمة، ولو تمكنا من تجسيم خارطتها الجغرافية ومثلنا كل قرية أو مدينة علمية فيها بمصباح كهربى بالغ الصغر لأصبحت الخارطة كلها بمثابة مشكاة واحدة من المصابيح لكثرتها ، فقد بلغ عدد ما أشار إليه الأهل منها - كما أسلفنا - ثلاثة وسبعين قرية ومدينة ، ولعله لم يشر إليها كلها ، ومع أنه قد رصد كل هذه القرى والمدن ، وأشار إلى كثير من علمائها بالترجمة ، واستعرض معظم أنشطتهم العلمية من تأليف أو تدريس وما في حكمهما ، مع ذلك إلا أن من ذكرهم قد لا يبلغون نصف من قادوا للعلم وأنشطته فيها ، فهو قد توفي سنة (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) ، أي في منتصف القرن التاسع الهجري ، فهناك مدة قرن كامل لاحق من دراستنا لم يقبض الله تعالى لها المؤرخ الذي يقوم بما قام به الأهل لنرى أن ما أنجزه أبناء تهامة في مجال خدمة العلوم والفكر الإسلامى عموماً .

(٢) مدينة تعز :

تعز مدينة كبيرة في السفح الشمالى لجبل صبر الشهير ، تقع إلى الجنوب من صنعاء على بعد مسافة تبلغ حوالي ٢٤٥ كيلو متراً ، لم يكن لها ذكر في المصادر

(١) الأهل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٢٨ .

(٢) هو الإمام عزالدين ابن الحسن المذكور في الفصل الثاني ، انظر ذلك عند ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٣ ص ١٦٦ ، زيارة ، ألعة اليمن ، ٣٥١ .

(٣) ابن المؤيد ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٦٥٩ ، زيارة ، المصدر السابق ، نفس الصفحة ، الشوكاني ، البحر المظلل ، ص ٨٤٦ .

التاريخية قبل دخول الأيوبيين اليمن في القرن السادس الهجري عندما اتخذها توران شاه الأيوبي مسكناً له ومركزاً لمسلطته ، وزادت أهميتها بعد أن اعتمدها السلاطين الرسوليون عاصمة لهم ، وكثر اسمها يوم أن أسست (نو عُدَيْنة) ، وكان (تعز) اسماً لقلعتها الحصينة التي تتوسطها ، ثم غلب عليها اسم القلعة ، فصارت المدينة تعرف بتعز ، كما غلب على القلعة اسم (القاهرة) إلى يوم الناس هذا ، وهي اليوم مركز محافظة يطلق عليها اسمها ، تأتي في طليعة المحافظات اليمنية أهمية لتقلها الديمغرافي وموقعها المتوسط في المرتفعات الجبلية في اليمن^(١) .

وكان الأيوبيون ومن بعدهم الرسوليون قد قادوا وشجعوا في هذه المدينة كثيراً من صور الحراك العلمي المزدهر ، فأسسوا بها الجوامع والمدارس والمعالمات وغيرها من أماكن التعلم ، فصارت مركز إشعاع للعلم ، وزارها بسبب ذلك عدد غير قليل من علماء اليمن وطلاب العلم فيه، وجلس عدد كبير منهم للتدريس في مدارسها وجوامعها ، وسكنت في هنا بعض بعض نماذج من أماكن التعليم فيها ، وكذلك عدد من أشهر من عرف من علماءها .

تأتي الجوامع والمدارس ودور الضيافة^(٢) في مقدمة أماكن التعليم في مدينة تعز، وقد سبق أن تحدثنا عن الجامع المظفري ، وهو من أكبر جوامع تعز إطلاقاً ، وسنأخذ نموذجاً آخر من جوامعها وهو جامع المملاح (الجامع الأشرفي) .

أنشأ سنة (٧٩١هـ/١٣٨٨م) السلطان الأشرف الثاني إسماعيل (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م)^(٣) ، وكان السلطان الأشرف قد رسم له ملامح دوره العلمي منذ تأسيسه، لذلك شكل هيئة علمية تقوم بأموره وتدير النشاط التدريسي فيه ، ولما كان المؤرخ اليمني الخزرجي معاصراً لهذه الأحداث وأحد أعضاء هيئة التدريس المحتررة لهذا الجامع فإننا نجده يزودنا بمسرد للمهام التي أوكلت إلى أعضاء هذه الهيئة ،

(١) تحدث عنها كتاب معاجم الأئمة اليمنية بشأن من التفصيل ، انظر الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبلتها ، ج ١ ص ١٤٥ - ١٥٥ ، المقحفي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

(٢) نوع من المرافق الحكومية ، يشبه الدور الوطني الذي تؤديه ما تقوم به دور الضيافة للرسمية في التاريخ المعاصر ، غير أنها آنذاك - وبمقتضى ثقافة ذلك العصر - كانت تؤدي دوراً تعليمياً كبيراً ، إذ كانت تهيئ لها هيئات تدريس من حيرة العلماء ، وتعد بها جلسات العلم وحلقته ، وسنذكر مثلاً عليها في السياق القادم .

(٣) الخزرجي ، العقود النولوية ، ج ٢ ص ١٧٠ ، ١٧١ ، ابن الصبيح ، بنية المستفيد ، ص ١٠٠ .

فيقول: * ورتب السلطان للفقهاء المدرسين في الجامع المبارك الأثري ... ولهم بالتدريس وجمع الطلبة ونشر العلم ، وكانوا ستة مدرسين : قرئ لكتاب الله تعالى بالقرآنات السبع ، ومحدث بأحاديث رسول الله ﷺ ، ومدرس في الشرع على مذهب الإمام أبي عبدالله محمد بن عبدالله بن إدريس الشافعي ، ومدرس في الفرائض ، ورتب مع كل وزاحد منهم جماعة من الطلبة ، ورتب إماماً ومؤننين ، وقيمين وخطيباً ، ومعلماً يعلم الأيتام القرآن ، وشيخاً صوفياً^(١) ثم يستطرد فيقول : * وكنت أحد المدرسين للمرتبين فيه لإقراء القرآن بالقرآنات السبع ، فأعجبني ما رأيت من اجتماع العلماء في الجامع المذكور ، واشتغال كل طائفة بما نذبت له ...^(٢) .

ومن الجوامع الكبيرة يتعز أيضاً نذكر جامع شعبات ، أنشأه السلطان الرسولي المجاهد علي بن المؤيد داود (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م)^(٣) في النصف الأول من القرن الثامن الهجري ، ومع أن هذا التاريخ بعيد عن زمن الدراسة إلا أن الجامع استمر في أداء وظيفته العلمية بشكل طبيعي حتى القرن التاسع ، إذ تذكر المصادر أن الفقيه عمر بن داود بن عبدالله الشعبي (ت بعد ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م) عمل مقرناً للحديث النبوي في جامع شعبات ، وشغل إلى جانب ذلك مهمة للخطابة فيه^(٤) ، وكذلك قام الفقيه علي بن محمد الشعبي (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) بتدريس الحديث النبوي الشريف في جامع شعبات^(٥) .

لما المدارس فهي تأتي في طليعة مرافق التعليم في تعز ، وقد حظيت هذه النوعية من المباني التعليمية باهتمام فاق غيرها من قبل السلاطين الرسوليين ونسائهم ، وكذلك بقية شرائح المجتمع من الأمراء والموسورين وغيرهم .

(١) الحزرجي ، العقود الزلوية، ج ٢ ص ١٧٠ - ١٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٧١ .

(٣) الأنصل الرسولي ، تعاليم المنية والمواهب الهندية في المنافع اليمنية ، تحقيق عبدالواحد عبدالله الخامري ، من إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ٢٠٠٤م ، ص ٤٨١ .

(٤) نقل خبر هذا الفقيه الباحث علي بن علي أحمد عن مخطوطة تاريخ الشعبي (ت بعد ٨٠٠هـ / ١٤٩٧م) ، وهي النسخة التي لم أستطع الحصول عليها ، انظر ، الحياة العلمية في تعز، ص ٢٣٥ .

(٥) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٢٤ .

وقد قمت بحصر كل المدارس العلمية التي أنشئت في نجر وحدها في عصر الدولة الرسولية منذ عصرها المبكر في القرن السابع الهجري حتى آخر أيامها في منتصف القرن التاسع الهجري فبلغ عددها أربعاً وثلاثين مدرسة ، وهذا العدد بلا شك يعد - بمنطق ذلك العصر - عدداً مهولاً ، وإن كان معظم هذه المدارس قد أنشئت قبل مدة دراستنا هذه إلا أن الأراضي الواسعة الموقوفة عليها قد ضمنت لنشاطها الاستمرار على الوجه الأكمل ، يدلنا على ذلك وجود الإشارات في المصادر التي نل على قيام علماء القرن التاسع الهجري بالتدريس في مدارس قد مصى على إنشاءها أكثر من قرن من الزمان .

من أمثلة ذلك المدرسة المطيرية التي أنشأها السلطان المظفر الأول يوسف بن المنصور عمر (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م)^(١) واستمرت في أداء دورها بشكل يبعث على الإعجاب ، حتى وجدنا من علماء القرن التاسع من يتصدى للتدريس فيها ، منهم الفقيه عبدالله بن أبي بكر التعزي (ت ٨١٠هـ / ١٤٠٧م)^(٢) ، والفقيه عبدالعزيز بن علي بن أحمد الفويري (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢١م)^(٣) ، والفقيه محمد بن عمر بن عيسى العماكري (ت ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م)^(٤) .

وهناك بتعز أيضاً عدد من المدارس الأخرى التي بنيت في زمن الدراسة ، كانت رديفاً لتلك التي بنيت قبلها ، نذكر منها المدرسة الفرحانية الملحقة بجامعة دي عُدَيْة^(٥) ، ولم تكشف المصادر هوية من نسبت إليه ، وإن كان بعض الباحثين^(٦) يرى أنها نسبت إلى جهة فرحان سلامة (ت ٨٣٦هـ / ١٤٣٢م) - زوجة السلطان

(١) الأخصل الرسولي ، العطايا السنوية ، ص ٦٩٧ ، الجندي ، السوك ، ج ٢ ص ١٧٣ .

(٢) ابن حجر ، إنباء الغمر بإنباء العصر ، ج ٢ ص ٣٩١ ، فذل على الدرر الكلمة ، ص ١٩٢ ، الضوء القلعي ، ج ٥ ، ص ١٧ .

(٣) القاضي ، العقد الثمين في تاريخ بلاد الأمين ، ج ٥ ، ٤٥٢ ، البريهي ، طبقات مشاهير اليمن ، ص ٣٤٣ .

(٤) الأكوخ ، المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ١١٥ ، البريهي ، المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

(٥) ذكرت في شيا تراجم عدد من العلماء والفقهاء الذين عملوا فيها ، انظر مثلاً المصدر السابق ، ص ٣٩ ، ٨٩ .

(٦) علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في نجر ، ص ٢٧١ ، وعبدالله الحبشي في حاشية طبقات مشاهير اليمن ، ص ٢٩ .

الأشرف الثاني إسماعيل ، وهي أم ولده السلطان الظاهر يحيى (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) ، وقد صرح ابن الدبيع^(١) أما بانيها فهو السلطان الظاهر يحيى الرسولي بعد وفاة والدته .

من الفقهاء المبرزين الذين درسوا في هذه المدرسة عبدالرحمن بن محمد النحواني (٨٢٣هـ / ١٤٢٠م) الذي سبق أن أوردنا - في ذكر المساجد - ما ذكره المؤرخ المعاصر البريهي^(٢) في مدحه ، ومنه أنه : " كان إماماً متضلعا من العلوم النافعة ... قرأ على الإمام رضي الدين الشنيني الأصححي كتاب المذهب والوسيط والوجيز والبيان ، وجملة من كتب الحديث ... وقرأ الحديث على الإمام نفيس العلوي وعلى مجد الدين الفيروزبادي ... وكان دأبه التحصيل والتدريس ، واجتمع له من الكتب جملة صالحة ، وكان أبلغ أهل وقته وأفصحهم في الشعر والخطبة ... " ، ومن تصدوا للتدريس في هذه المدرسة أيضاً للفقهاء أحمد بن محمد الحراري^(٣) (ت ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م) ، والفقهاء عبدالرحمن بن أبي بكر بن عيسى الحراري^(٤) (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) ، والفقهاء أحمد بن محمد البريهي^(٥) (ت ٨٧٠هـ / ١٤٦٥م) ، والفقهاء الطيب محمد بن أحمد بن أبي بكر الباشري^(٦) (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) ، وغيرهم ، وهذا العدد يدل على مدى عسى اليمن - بما فيها - تعز بالعلماء ، ومدى ازدهار النشاط العلمي في هذه المدرسة .

(٣) مدينة عدن :

عدن مدينة - كما سبق أن عرفنا بها - ساحلية تجارية قديمة ، وهي أحد أسواق العرب في الجاهلية ، تقوم على شبه جزيرة صخرية بركانية ، محاطة بجبال من جهات

(١) بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، ص ١٠٩ ، وكذلك مجهول ، تاريخ الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢) طبقات صلحاء اليمن ، ص ٩٠ ، ٩١ ، الأكوخ ، المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ٢٩١ .

(٣) البريهي ، المصدر السابق ، ص ٣٢٥ ، الأكوخ ، المرجع السابق ، ص ٢٩٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٩١ ، البريهي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٦ ، الأكوخ ، المرجع السابق ، ص ٢٩٢ .

(٦) السخاوي ، الضوء للامع ، ج ٤ ص ١٤ ، ج ٦ ، ص ٢٩٨ ، الأكوخ ، المرجع السابق ، ص ٢٢٣ .

ثلاث والبحر من الجهة الرابعة ، تقع إلى الشرق من مضيق باب المندب ، لذلك فهي قادرة على التحكم في الملاحة على الطريق البحري بين بلدان المحيط الهندي ودول الشمال في مصر وحوض البحر المتوسط وأوروبا ، لذلك وجدت بها الجاليات التجارية العربية والهندية ، فاستهدفها البرتغاليون لكي يحكموا السيطرة على التجارة العالمية .

كانت السمات العامة لمدينة عدن مصدر قوتها في جذب عدد كبير من الناس لسكانها ، وكل منهم يجد فيها ضالته ، فالتاجر يجد فيها من مقومات الأعمال التجارية ما لم يجده في غيرها من مدن اليمن ، كما أن فرص توافر العمل فيها قد لفتت انتباه الباحثين عن مصدر معيشة لهم فانسأبوا نحوها ، واستدعت حالة اليسار التي حظي بها أهلها أن يكون فيهم للعالم والفقير والقاضي ، وهو ما اقتضى أن يتجه طلاب العلم إليها من كثير من مناطق اليمن ، ورسخ القناعة بصواب اختيارها موطناً لدى الكثير من اليمنيين أنها كانت أكثر المدن اليمنية استقراراً ، وأقلها نشاطها عسكرياً ، فقد كانت حصتها من الاضطرابات والتمردات التي عرفت بها المناطق اليمنية على مدار تاريخ اليمن ضئيلة ، ومرد ذلك عائد إلى الأهمية الاقتصادية لهذه المدينة بالنسبة للدول القائمة ، فكانت توليها من الاهتمام ما لا توليه حتى لعواصمها في تعز أو المقربة وصنعاء ، إضافة إلى أن طبيعة تفكير سكان مثل هذه المدن المتحضرة كثيراً ما ينأى عن إقحام نفسه في الصراعات القائمة ، بل إن سعيه لحصر أي خلاف قد ينشأ - مهما كانت أطرافه - يتقدم أي تفكير يتجه نحو المواجهة .

وما يجدر بنا الإشارة إليه هنا هو أن مدينة عدن قد كانت محطة (ترانزيت) لكثير من الحجاج من العلماء وغيرهم في طريقهم من - وإلى - بلدانهم في شبه القارة الهندية ، ومن يركب البحر من أبناء جنوب فارس وخراسان ، وهذا أدى إلى إثراء العلوم بسبب نزول بعضهم وجلووسهم للإقراء في مساجد عدن وغيرها من مدن السواحل اليمنية ، ومثال ذلك نزول الفقيه محمد بن خضر الكابلي (ت ٧٩٤هـ / ١٣٩١م) - القلام من خراسان - في عدن وبعد ذلك في زبيد^(١) .

أنا أردت بهذه التوطئة أن أضر كيف أن أشهر علمائها وأبرز فقهاءها ليسوا من المتجنزين في نسبتهم إليها ، فهم إما من عشائر حضرموت أو تعز أو زبيد وغيرها ،

(١) بخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ص ٢١٥ ، الخرجي ، العقد للفاخر الحسن في طبقات أكابر اليمن ، ق

١٤٦ - ب ، عداة العبادي ، الحياة العلمية في زبيد ، ص ١٥٣ .

يتضح ذلك بجلاء تام بمجرد استعراض ألقاب عشائر هؤلاء العلماء ووجوه العلم في مدينة عدن .

لم تركز المصادر كثيراً على تناول أماكن التعليم في مدينة عدن والمرافق التي استوعبت الأنشطة العلمية والتدريسية لرجال العلم فيها ، فقد كانت عبارة عن شذرات وإشارات مجمة متلثرة هنا وهناك ، هذا مع أن المصادر نفسها لطنت كثيراً في الترجمة للعلماء والفقهاء من المقيمين بها ، وتناولت مجمل أنشطتهم التأليفية والفكرية، ومردت أسماء أشهر من طلب العلم في عدن ورحل إليها للجلوس إلى هؤلاء العلماء ، حتى مؤرخها المعاصر الطيب بن عبدالله بامخرمة (٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) في كتابه (تاريخ ثغر عدن) الذي خصصه لرصد مجمل الأحداث والأنشطة فيها لم يؤل هذا الجانب ما يستحقه من الاهتمام .

من مساجد مدينة عدن وجوامعها التي أشارت إليها المصادر نجد جامع أبان بن الحكم العدني الذي تناولنا - في الفصل الأول من هذه الدراسة - نسبة هذا المسجد وبعض نشاطه ، ومنها أيضاً مسجد مسعود ، ومسجد ابن حقس^(١) ، ومسجد الزيد ، ومسجد الخما ، وجامع الملاح^(٢) ، وكذلك مسجد المدرسة^(٣) ، وهي إشارة تدعونا إلى التفكير حول ماهية هذه المدرسة ، وكيف أن المسجد نُسب إليها وليس العكس ، وهو ما يوحي بأن ثمة مدرسة بنيت في عدن ، وكان المسجد أحد ملحقاتها ، ولا يكون المسجد ملحقاتاً إلا ببناء كبير ، قد يفوقه في الحجم والإمكانات ، ولكن من بنى هذه المدرسة ؟ ومتى بنيت ؟ وما اسمها ؟ كلها أسئلة لم تتبّع المصادر فضولنا بالإجابة عنها ، وقد ذُكرت مدرسة في عدن باسم المدرسة السفينية^(٤) ، وكذلك المدرسة الظاهرية ، والمدرسة المنصورية^(٥) ، ومدرسة رابعة بناها أحد تجار عدن الموسورين يدعى محمد

(١) بامخرمة ، قلعة النحر ، ج ٣ ص ٨١٠ .

(٢) العبدروس ، النور المسافر عن أخبار القرن العشر ، ص ٤٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٨ ، ٨٥ ، الأكرع ، المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ٣٣٦ ، وقد نسبت إلى مؤسسها الشريف علي بن سفيان ، انظر بامخرمة ، قلعة النحر ، ج ٣ ص ٧٩١ .

(٥) نسبت الأولى إلى بانيها السلطان الرسولي الظاهر يحيى (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) ، والثانية إلى السلطان الرسولي المؤسس عمر بن علي (ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) ، انظر عبدالعزيز بن راشد السنيدي ،

بن أحمد باحنان الحضرمي بسوق الخبز وأوقف على مصالحها فنشأ بعدن وأرضا بأخج^(١)، فظل إحدى هذه المدارس هي التي تُسبب إليها المسجد المذكور أو غيرها، مع أنني أتوقع أن عدن لم يكن لها أن تضم هذا العدد من المدارس فقط، فسمعتها العلمية المزدهرة ترسخ الاعتقاد بأن مرافق التعليم وأمكنه - بما فيها المدارس - كانت منتشرة فيها بشكل أكبر مما تناولته المصادر ببعد.

من أكبر الشخصيات العلمية التي تصدت للتدريس في مدينة عدن في القرنين التاسع والعاشر الهجريين تذكر المصادر القاضي جمال الدين محمد بن مسعود بن سعد بن أحمد أبو شيكيل الحزرجي^(٢) (ت ٨٧١هـ / ١٤٦٦م)، أصله من حضرموت، كان والده قاضياً بالشحر، ابتداءً طلب العلم في بلاده حتى أحس بالحاجة إلى الاستزادة فتصد عدن، وجلس إلى أشهر رجالها، فأخذ عن القاضي محمد بن سعيد كبن الفقه والحديث والتفسير وغيرها، وكان يحب يسخ الكتب بنفسه، وامتحن التجارة حرصاً منه على تطييب مأكله، ولما بنيت المدرسة الظاهرية بعدن رتب فيها معيذاً، وولي القضاء بعدن في عهد آخر سلاطين الرسولين المسعود، واستمر فيه حتى بعد قيام الدولة للظاهرية - إلى سنة (٨٦١هـ / ١٤٥٦م).

وممن اشتهر بالتدريس في مدينة عدن شيخ الإسلام الإمام الشهير محمد بن أحمد بن علي بافضل^(٣) (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م)، حضرمي أيضاً لستوطن عدن بعد

المدارس اليمنية في عهد الدولة الرسولية، ص ٨٠، ٤٠٨، بامخرمة، قلادة النهر، ج ٢، ص ٧٩٢، الأكوخ، المدارس الإسلامية في اليمن، ص ٥٧، ٣٠٦.

(١) بامخرمة، المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٠٧.

(٢) البريهي، طبقات صلحاء اليمن، ٣٣٦، الحداد، علود الأمان بمنقلب الإمام العارف بالله الحبيب أحمد بن حسن العطاس، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٩٨م، ج ٢، ص ٦٥، بحثي، جواهر تاريخ الأحقاف، راجعه ووضع فهارسه وصححه حس جاد حسن، مطبعة الفجالة، القاهرة، ١٩٩٢م، ج ٢، ص ١٧٠، شبل، تاريخ حضرموت المعروف بتاريخ شبل، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، ط ١، ١٩٩٤م، (د، ن)، ص ١٩٣، باوزير، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، دار الطباعة الحديثة - مصر ١٣٨١هـ - ١٩٦١م، ص ١٣٣.

(٣) البريهي، طبقات صلحاء اليمن، ٣٣٦، ٣٣٧، ابن الديبع، الفضل المزبد، ص ٢٤٣، المدروس، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، ص ٢٤، بافضل، صلة الأهل بتقوى ما تفرق من من مناقب بني فضل، مكتبة تريم، حضرموت، ط ١، ٢٠٠٠م، ص ١٣٤ - ١٤٢، بالقبه، تاريخ الشحر

أن قدمها سعيًا في طلب العلم ، فأخذ عن كبار علمائها أمثال القاضي جمال الدين محمد بن أحمد بالحميش ، فلما توفي شيخه أقيم مقامه في التدريس ، فنشط في ذلك كثيرًا ، يقول عنه تلميذه الطبيب بامحرمة^(١) : " فعمر الله به الدين ، وأحيا به معالمه ، وقرأ على القاضي محمد بن مسعود باشكيل في كتب الحديث والتفسير ، وأجازة القاضي أبو حميش وأبو شكيل ، وأفتى ودرس ، ونشر العلم ، وقصدته الطلبة من أنحاء اليمن لعلمه وفضله وصلاحه ، وبالجمله فلم يكن في الوقت مثله ... وكان متفنا في العلوم حسن للمذاكرة موظف لوقاته على العبادة والطاعة لا تلقاه إلا في طاعة من تدريس أو تصنيف أو قراءة قرآن أو ذكر ، ومجالسه محفوظة ... انتفع به جمع كثير وصلوا فضلاء ... وبالجمله فلا يأتي الزمان بمثله ، وغالب ظني أنه مجدد قرنه * ، وكتب الطبقات والتوليفات اليمنية تنطق بأن أغلب علماء اليمن في آخر القرن التاسع وبداية العاشر - وخاصة في عدن وحضرموت - هم من طلبته .

ويأتي بعد الإمام بفضل في الشهرة العلمية من علماء عدن الإمام العلامة أبو الطيب عبد الله بن أحمد بن علي الشهير بامحرمة^(٢) (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٧) ، دخل عدن لطلب العلم ، فقصد للقاضي محمد بن أحمد بالحميش فقرأ عليه ، وسمع كثيرًا من كتب الفقه ، وأقبل عليه القاضي بالحميش إقبالًا كليا لما رأى من نجافته ونكاته ، وأجازة إجازة عامة ، وقرأ النحو على العقبة ابن أزر ، وقرأ على القاضي محمد بن مسعود باشكيل كثيرًا من كتب الحديث والتفسير وغيرها ، وأجاز له إجازة عامة في جميع أنواع العلوم ، يقول عنه ابنه الطبيب بامحرمة^(٣) : " ولي قضاء عدن مدة يسيرة فبأشره بعة ، وجد واجتهد فألصف الضعيف من القوي ، وكان في خلقه حجة ، فخرج من عدن مختفيًا متبرمًا من القضاء فقصد الشحر ، ثم رجع إلى عدن وقد تولى قضائها

(١) وأخبار القرن العاشر ، ص ٢٩ ، الكندي ، العدة المفيدة ، ص ١٥٣ ، بورير ، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي ، ص ١٤٢ .

(٢) قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٨٤ .

(٣) التريفي ، طبقات صلحاء اليمن ، ٣٣٧ ، ابن النبيع ، الفضل المزيّد ، ص ٢٣٨ ، السناوي ، الضوء اللامع ، ج ٥ ص ٩ ، الحيدروس ، النور الساطع عن أخبار القرن العاشر ، ص ٣٠ - ٣١ ، بالفقيه ، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر ، ص ٢٥ ، الكندي ، العدة المفيدة ، ص ١٥٣ ، باوزير ، الفكر والنظرة في التاريخ الحضرمي ، ص ١٣٧ .

(٣) قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٨٢ ، ٧٨٣ .

للقاضي عبد الرحمن بن عبد العليم البريهي ... وقرأ عليه جمع ، واستقنوا وصاروا
لُمة ، منهم شيخنا الإمام عبد الله بن عبد الرحمن بالفضل ، والفقير عمر بن أحمد بالكثير
... وكان رحمه الله يصدع بالحق ، لا تأخذه في الله لومة لائم .

وقد برز كثير من أبناء هذا الإمام للعلم ، وصاروا يشار إليهم بالبنان ، منهم
مثلاً : الفقيه شهاب الدين أحمد بن عبد الله مخرمة^(١) (٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م) ، كان من
بارزاً في علوم عدة ، شرعية كالفقه والحديث وعلوم القرآن الكريم والفرائض ،
وطبيعية مثل الحساب والجبر والمقابلة ، وذكره أخوه المؤرخ الطيب بامخرمة^(٢) لأنه
نزل في الفقه في مدرسة المنصورية بعدن ، كما درس الحديث في المدرسة الظاهرية ،
وكذلك الفقه عبد الله - المعروف بالعمودي - ابن عبد الله بن أحمد بامخرمة^(٣)
(ت ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م) ، ومحمد بن عبد الله بن أحمد بامخرمة^(٤) (ت ٩٠٦ هـ /
١٥٠٠ م) ، إلا أن أبرزهم وأكثرهم شهرة وعظماً هو الإمام العلامة ، مؤرخ عدن
الأول ، المؤرخ أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد بامخرمة (٩٤٧ هـ / ١٥٤٠ م) ،
وصفه المؤرخ الشُّلِّي^(٥) بقوله : " علامة علماء الإسلام ، وفهامة فضلاء الفقهاء
العظام ، مالك ناصية العلوم ، وفارس ميدانها ، وحائز قصب السبق في حلبة رهانها " ،
ملك زمام الكثير من العلوم فتكاثر عليه طلبه للعلم ، وازدادت أعداد المنضمين إلى
حلقات درسه ، وقد جذبهم إليه علمه الواسع ، ومعرفته الشاملة ، وطلاعه الكبير على
ما لم يجده غيره ، فقد روى أحد تلميذه أنه كان يقول : " إني أقرأ في أربعة عشر
علماً ، والله أعلم^(٦) ، كما أجاد التدريس بطريقة جعلت : " الجماعة من الطلبة وغيرهم
يذكرون أنهم لم يروا مثله في التدريس وحل المشكلات في الفقه^(٧) ، وذلك لأنه " كان

(١) النور المسافر عن أخبار القرن العاشر ، ص ٥٧ ، باقيه ، تاريخ الشعر وأخبار القرن العاشر ، ص
٧٧ ، بورير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، مكتبة الثقلة ، عدن ، ص ١٣٧ ، (د ، ت) .

(٢) فلاة النهر ، ج ٣ ص ٧٩٢ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٧٨٥ ، باقيه ، تاريخ الشعر وأخبار القرن العاشر ، ص ٣٥ .

(٤) فلاة النهر ، ج ٣ ص ٧٨٦ .

(٥) السلام الباهر ، ص ٣٤٩ .

(٦) باقيه ، تاريخ الشعر وأخبار القرن العاشر ، ص ٢٧٧ .

(٧) المصدر السابق ، نص الصفحة ، المدروس ، النور المسافر عن أخبار القرن العاشر ، ص ٢٠٤ .

من أصبح الناس ذهنًا ، وأذكاهم قريحة ، وأقربهم فهمًا ... وكان حمن السيرة والمحاضرة ، لطيف المذاكرة والمحاضرة ، وكان كثير الاستحضار لفروع الأحكام التي تخفى على كثير من العلماء الأعلام ، خصوصاً ما في كتب الشيخين وغيرهما من المتأخرين ^(١) ، لذلك جزم بعض من ترجم له بأنه كان من محاسن الدهر ، لما جمع الله تعالى فيه محاسن الصفات من : التواضع وحسن الخلق والنشأة ولين الجانب وكرم النفس والسياسة والصبر والرفق وتحمل أذى الناس وحسن التدريس والمواظبة على الطاعات ^(٢) .

إن المجال غير المفتوح هنا لا يسمح بالاستطراد في التعريف بكل من قام على أكتافهم النشاط العلمي في عدن في زمن دراستنا هذه ، وذلك لكثرتهم ، وأنا إذ اقتصر على من ذكرتهم فذلك فقط عينة تدل على غيرهم ، وكتابنا (تاريخ ثغر عدن) و (قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر) وكلاهما للطبيب بن عبدالله بالمخرمة (٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) يزخران بأخبارهم وترجمهم ، وهو الشاهد من أهلها على جهودهم ، فهو أحد تلاميذ معظمهم ، وقرين للبقية .

وفي الجملة لقد كانت الحياة العلمية في عدن من الازدهار أن جعلت الإمام أحمد بن عمر المُرْجَد (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) يقول بعد أن وصل إلى مدينته زبيد قادماً من عدن التي ولي قضائها لمدة : " جئنا من عدن إلى عَدَم " ^(٣) ، وهذه المقولة من شخصية مرموقة في الوسط العلمي اليمني بحجم المُرْجَد ، وفي مدينة زبيد التي كانت بمثابة قبلة للطلاب ومتجهاً للعلماء والفقهاء دليل على مدى ما قطعته مدينة عدن من شوط طويل في الازدهار العلمي في مدة دراستنا .

(٤) حضرموت :

تأتي حضرموت في مقدمة كبريات أقاليم اليمن مساحةً ، إذ تمثل ما يقرب من ثلث مساحتها ، إلا أنها منخفضة الكثافة السكانية ، والناحية في تاريخ حضرموت - أو أي من جوانبه الحضارية والعسكرية وغيرها - يواجه مشكلات عدة ، يأتي على رأسها

(١) الشُّلِّي ، السقاء الباهر ، ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، الجيروس ، النور الساطع عن أخبار القرن العاشر ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، باقية ، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر ، ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

قلة المصادر التي تناولته، وقد حرصت كل الحرص على الوصول إلى أكبر عدد ممكن فلم أجد منها ما يتناول تاريخها في القرن التاسع الهجري إلا مصدر واحد فقط ، ولم يورد من المعلومات ما تكفي ، أما القرن العاشر فقد وفقت في الحصول على عدة مصادر ومراجع حضرية ، ومع قلتها إلا أنها أثرت للدراسة بمعلومات قيمة ، نستطيع من خلالها أن نقول أنها مؤشر على أن حضرموت قد كانت - في مدة الدراسة وما قبلها وما بعدها - ميداناً لنشاط علمي ، لا يجعلها أقل من غيرها من مناطق اليمن الأخرى .

ما يعيب المصادر الحضرية أنها لا تركز على نشاط العلماء العلمي عموماً والتدريسي خصوصاً ، فهي لا تشير إليه إلا بشكل عرضي في تراجمهم ، وخاصة ستوات طلبهم للعلم ، فهي تشير إلى أن العلم منهم قد تزامن في تريم^(١) ، ولكنها لا تذكر أين درس تحديداً ، ولا على أيدي من درس ، وما هو المرفق الذي درس فيه ، أهو مدرسة أم جامع ، وما لفت الانتباه أن تلك المصادر لم تكن زاخرة بذكر المدارس العلمية في حضرموت ، ولعل حضرموت لم تشهد بناء المدارس بالكثرة التي كانت عليها في زبيد وتعز مثلاً ، إلا أن أحد كتب معاجم البلدان الحضرية المعاصرة^(٢) قد أشار إلى وجود مدرسة تعود إلى زمن الدراسة .

❖ مدينة تريم :

وفيما يأتي سوف أستعرض أكبر الإشارات إلى النشاط العلمي لعلماء حضرموت ، مكتفياً بإشارة واحدة عن كل منطقة حضرية ذكرتها المصادر ، وفي مقدمة هذه المناطق منطقة تريم ، حيث يذكر أن هذه المدينة كانت غنية بالمساجد

(١) تريم ، مدينة حضرية قديمة ، يعود تاريخ تأسيسها إلى القرن الرابع قبل الميلاد ، تقع في نهاية وادي حضرموت إلى الشمال الشرقي من مدينة سيئون بحوالي ٣٢ كيلومتراً ، وهي من أجمل مدن الإقليم ، حتى أن أهل حضرموت يطلقون عليها (الغناء) لكثرة الأشجار التي تحيط بها ، وخاصة النخيل ، وهي أشهر مدن حضرموت تاريخياً ، وأكثرها اهتماماً بالعلم ونشره ، ولهم في هذا التعريف التركيز على المعلومة التي أدلى مؤرخ حضرموت في القرن الثامن الهجري عند ما قال : " وهي قديمة يقال إنها كانت قديم الأيام عامرة جداً ، ولما الآن فهي ضعيفة إلى العاية " ، قطر التنوير السافر عن أقطار القرون العاشر ، ص ٧٣ ، للحجري ، مجمرع بلدان اليمن وقبلها ، ج ١ ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، السعاف ، إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت ، ص ٤٩٠ وما بعدها ، بالحرمة ، نقسبة إلى المواضع والبلدان ، ص ٨٥ ، ٨٦ ، المقضي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٢٢٨ - ٢٣١ .

(٢) انظر السعاف ، المصدر السابق ، ص ٥٢٤ .

والجامع ، وأن عددها فيها قد بلغ ٣٦٥ مسجداً وجامعاً ، أي بعدد أيام السنة^(١) ، غير أن جامعاً واحداً كان قد استكثر بأغلب إشارات المصادر ، فهي تشير إليه باسم (الجامع) وكأنه كان من الشهرة بحيث لا يحتاج إلى تخصيص ، ولعله مسجدها الجامع الذي كانت تعقد فيه أغلب مجالس التكريس وحلقاته ، ولم تعدنا المصادر يذكر من بناءه ، ولعله لخدم مساجد مدينة كلها ، إلا أن أول ذكر له ورد عام (٢١٥ هـ / ٧٣٠ م)^(٢) ، مع أن الثُّلثي^(٣) (ت ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م) لم يذكر عمارته - التي لعلها كانت ترميماً وتجديداً لا تأسيساً - إلا سنة (٥٨١ هـ / ١١٨٥ م) ، وكان للسلطان الظاهر الثاني عامر بن عبدالوهاب الطاهري قد كلف شخصاً يدعى محمد بن أحمد بالسكوتة ليقوم بتوسيعه سنة (٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م) بعد أن ضاق بالناس هنم ذلك على أحسن وجه^(٤) .

من العلماء الذين ولدوا في تريم وأخذوا علومهم الأولى على أيدي كبار مدرسيها نذكر شيخ الإسلام الإمام محمد بن أحمد بن عبدالله بافضل (ت ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م) ، إذ تذكر المصادر أنه ولد في تريم ، ثم تلقى العلم فيها ، وجد في الطلب حتى برع في العلوم ، ثم ارتحل إلى عدن بعد ذلك ليصبح أبرز وجوه علمائها^(٥) ، وأحد أكبر علماء اليمن الكبار الذين أطلق عليهم كتاب التراجم لقب : شيخ الإسلام^(٦) . ومن علماء تريم الذين اشتهروا فيها وفي غيرها ، ودار على أكتافهم النشاط العلمي والتدريسي فيها نذكر : الشيخ الحسين بن عبدالله العبدروس^(٧) (٩١٧ هـ / ١٥١١ م) ، والعلامة الفقيه محمد بن عبدالرحمن الأسقع أبا علوي^(٨) (٩١٧ هـ /

(١) المقحفي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٢٢٩ .

(٢) انظر السابق ، إمام القوت في ذكر بلدان حضرموت ، ص ٤٩١ .

(٣) المشروع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي ، ط ٢ ، ١٩٨٢ م ، بيروت ، ج ١ ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(٤) الثُّلثي ، المناء الباهر ، ص ١١٤ .

(٥) العبدروس ، انوار السفر عن أخبار القرن العاشر ، ص ٢٤ .

(٦) الثُّلثي ، المناء الباهر ، ص ٩٩ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٨٨ ، ٩٠ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(١٥١١ م) ، والشيخ المقرئ عبدالرحمن بن علي بن أبي بكر^(١) (٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م)، وعلوي بن محمد المعلم بن علي باجندب^(٢) (ت ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م)، والشيخ الكبير عبدالله بن أبي بكر بن عبدالله السقاف (ت ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م) الذي اُتُنب في مدحه الشلي^(٣) كثيراً ، ومما قاله فيه : " كان السيد عبدالله هذا ممن جمع بين الفقه والحديث ... كان صدر المحافل إذا عُقبت ، وصيرفي المسائل إذا انتُقدت ، ولد في تريم وتعلم في سوحها العظيم ، وحفظ القرآن الكريم " .

وفي آخر حديثنا عن تريم أعرض مقولتين مهمتين للعيدروس^(٤) - مؤرخ حضرموت في القرن العاشر - في شأنها ، يقول في الأول : " هي معشر الأولياء ومعذتهم ، ومنشأ العلماء وموطنهم " ، ويقول في الثاني مبالغاً : " يذكر أنها تنبت الصالحين كما تنبت الأرض البقل ، واجتمع بها في عصر واحد من العلماء الذين بلغوا رتبة الإفتاء ثلاثمائة رجل ... " .
❖ مدينة الشحر:

وتأتي مدينة الشحر في المنزلة الثانية بين المدن الحصرمية بعد تريم في النشاط العلمي ، وقد تعرضنا لطرف من ذلك النشاط عند حديثنا عن جامع الشحر كأحد أماكن التعليم في زمن دراستنا هذه ، ويذكر الشلي^(٥) أن الفقيه الصوفي عوض بن سالم باهرولة كان الناس يرتحلون إليه من غيرها ، وأن الشيخ الصوفي الإمام عبدالرحمن بن عمر باهرمز (ت ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م) - الذي ولد في شَبَام^(٦) ونشأ بها وحفظ فيها

(١) الشلي ، السناء الباهر ، ص ١٠٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٩ .

(٤) النور السافر عن أخبار القرن العاشر، ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٥) السناء الباهر ، ص ٨٩ .

(٦) مدينة في قلب وادي حضرموت ، في المنطقة الواقعة ما بين ميئون شرقاً والقطن غرباً ، تقع في قضاء واسع مترامي الأطراف ، وتحدها واحات أشجار الحويل ، وتتميز على غيرها من مناطق اليمن الأخرى بممارستها للشاهقة الموهجة في القدم ، الحجري ، مجسوع بلدان اليمن وهائلها ، ج ٣ ص ٤٤٢ ، السقاف، إدام اللقوت في نكر بلدان حضرموت ، ص ٢٥٩ وما بعدها ، بالمخرمة ، فتسبة إلى المواضع والبلدان، ق ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، المقضي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٨٤٥ .

القرآن الكريم وغيره - قد ارتحل إليه ، ولازمه وأخذ عنه ، فاحتفل به شيخه واعتنى بتربيته ، وأشغله بفن الفقه ، وحفظه المتنون ، فجد في الاشتغال به حتى تخرج .
وعلى وجه الإجمال فلنقول : إن حصر موت قد أسهمت في ازدهار العلوم في اليمن بمهم وافر ، وأن رجالها قد جابوا معظم المناطق اليمنية بلحثين عن العلم وطالبين له ، متتبعين كل مراكز العلم فيه ، فتنلمذوا على أشهر رجاله ، واستوطنوا مناطق عدة ، فكانوا أبرز رجال العلم فيها ، ومن تلقى نظرة على قائمة علماء مدينة عدن - على سبيل المثال - في القرنين التاسع والعاشر الهجريين فإنه سيرى أن أكثرهم علماء وأوسعهم تقرأ هم في الأصل حصرميون ، وهو ما سبق أن أشرنا إليه .

■ المراكز العلمية في المناطق الشيعية :

أعيد فأكرر ما ذكرته سابقاً من أن التمييز بين مراكز العلم في المناطق السنية والشيعية وتقسيمها لم يُبنَ على أسس مذهبي لذاته ، إنما جاء التقسيم بناءً على الاختلاف في طبيعة أماكن التعليم بين المطلقين ، وهذا الاختلاف لعبت فيه عوامل عدة، لم يكن البعد المذهبي إلا أحدها .

كما أن هناك نقطة مهمة يجب الإشارة إليها ، وهي أن الشيعة في اليمن - كما هو معروف - إما زيدية ، وهم الأكثر ، وإما إسماعيلية ، إلا أن الإسماعيلية بتكتتها المفرط على تراثها ، وحرصها الشديد على عدم وصوله إلى أيدي غير أبنائها يجعل الباحثين يولجھون مصاعب كبيرة في الحصول على الحد الأدنى من المادة العلمية اللازمة للكتابة عنها ، بل إن الصعوبة تصل إلى حد الاستحالة في معظم الأحيان ، ويجعل الإشارة إلى النشاط العلمي لهذه الطائفة - القليلة العدد جداً - غائبة في الدراسات الأكاديمية الحديثة ، وأن من يتصدى للكتابة حولها لن يجد أن يكون اعتماده على الإنشاء منه إلى دراسة الرصينة ، خاصة فيما يتعلق بتاريخ هذه الطائفة وتراثها من بعد القرن السادس الهجري ، لذلك ستكون الإشارة محصورة فقط في الحديث عن المناطق التي غلب على أهلها الفكر للزيدي وفقهه .

(١) مدينة صنعاء :

تحتل صنعاء منزلةً وجدانيةً كبيرةً في قلوب كل اليمنيين ، فهي لبدهم بمثابة الراس للجسد، أو كالأم لأبنائها ، وقد كان الصراع دائماً على السيطرة عليها ، تشهد بذلك المصادر التي تناولت تاريخ اليمن منذ صدر الإسلام ، فمن وضع يده عليها فقد اكتسب قدراً كبيراً من الشرعية أمام خصومه .

وقد تطورت الحياة العلمية في صنعاء على مدار تاريخها ، ولم تتأثر كثيراً بالحروب والنزاعات الدائمة للسيطرة عليها ، يتضح ذلك من أن علماء كبار كانوا يبرزون فيها باضطراد ، منذ صدر الإسلام حتى التاريخ المعاصر ، وكانت المساجد في مقعة أماكن التعليم فيها ، إذ لم يُعرف فيها - اعتماداً على المصادر - أي نوع من أماكن التعليم الأخرى سوى المدرسة التي بناها الإمام المتوكل شرف الدين سنة (٩٢٦هـ / ١٥١٩م)^(١)، وحتى هذه المدرسة لم تتحفظ المصادر بذكر الشيء الكثير عنها ، فهي تشير إلى بنائها وتحجم عن أي تفاصيل أخرى ، حتى أنها لا تذكر من ترس فيها ومن أشهر من تخرج فيها ، وهو العيب الكبير الذي يعتور المصادر الزيدية بشكل عام ، فهي قليلاً ما تشير إلى المكان الذي مارس فيه علماءها الأفاضل نشاطهم ، ونراها تكتفي بذكر أن الإمام أو العالم قد ترس - أو ترس - في صنعاء أو صعدة مثلاً ، ونادراً ما تشير إلى المكان الذي درس فيه ، وتترك المهمة صعبةً على الباحث في محاولة الاستقراء للنصوص في المصادر للكثيرة المتناثرة في دور المحفوظات وغيرها لعله يصل إلى بغيته .

من هنا كان المعول على تتبع ما دار في المساجد من أنشطة كونها هي المكان الأول الذي لا مراء حول دوره التعليمي الدائم ، وقد كثرت للمساجد في صنعاء بسبب كثرة سكانها ، وقد بلغ عددها في القرن الرابع الهجري (تحديداً سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م) مائة وستة مساجد^(٢) ، وهو عدد كبير جداً إذا ما قارناه بالعدد القائم حالياً ، ففي آخر

(١) الأكوخ ، المدارس الإسلامية ، ص ٣٦٥ ، ريلرة ، أمة اليمن ، ص ٢٩٦ ، خلاصة المتنون ، ج ٢ ص ٨٥ ، شرف الدين ، المواهب المصنية ، ص ٤٠ ، ٤٦ ، شرف الدين ، السلوك الذهبية ، ص ٦٠ .

(٢) الرازي ، تاريخ مدينة صنعاء ، ص ١١٥ ، وقد شكك عبدالرحمن المختار في هذه الإحصائية ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ٤٨ .

إحصائية لمساجد صنعاء في أواخر التسعينات من هذا القرن بلغ عددها (١١٢) مائة واثنًا عشر مسجدًا^(١) .

من مساجد صنعاء التي ورد اسمها في المصادر^(٢) مقروناً بأسماء العلماء نجد الجامع الكبير ، ومسجد الأحم^(٣) ، مسجد المعدي^(٤) ، ومسجد معاذ^(٥) ، ومسجد داود^(٦) ، ومسجد الزمر^(٧) ، ومسجد الزبير^(٨) ، ومسجد النعتان^(٩) ، ومسجد الحسين بن القاسم^(١٠) ، ومسجد الحرار^(١١) ، وجامع الروضة^(١٢) ، ومسجد الأخضر^(١٣) ، ومسجد أبو شملة^(١٤) ، ومسجد الطبري^(١٥) ، مسجد فروة^(١٦) ، مسجد الفلنجي^(١٧) ،

(١) محمد المروني ، الوجيز في تاريخ بناية مساجد صنعاء القديم والجديد ، مطابع اليمس العصرية ، صنعاء ، ط ١ ، ١٩٨٨م ، ص ٣٦ .

(٢) سأكتفي هنا بذكر مواقع ورود اسمها في أشهر المصادر اليمنية وهو طبقات الزيدية الكبرى لابن المؤيد لأنه اشتمل المصادر للزيدية ، ولم يشمل ذكرها كلمة أي مصدر آخر .

(٣) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٨٩٧ ، ١٠٣٠ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٦ .

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٦١ .

(٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٩٩ .

(٧) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٨) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٩٥٤ .

(٩) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٦٦ .

(١٠) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(١١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٧٠ .

(١٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٧٦ .

(١٣) محمد المروني ، الوجيز في تاريخ بناية مساجد صنعاء ، ص ٢١ .

(١٤) المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(١٥) المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(١٦) المرجع السابق ، ص ٦٨ .

(١٧) المرجع السابق ، ص ٧١ .

مسجد النهرين^(١) ، ومسجد الفزالي^(٢) ، ومسجد رهب^(٣) ، ومسجد الرونة^(٤) ، ومسجد
نقم^(٥) ، ومسجد سنقر^(٦) ، وهذه المساجد الإثني عشرين ليست إلا غيض من فيض ،
ولعل هناك من المساجد التي لم تذكر صراحة باسمها ما يفوق المذكورة بكثير في
منزلتها والدور الذي لعبته ، ويكفي للتدليل على ذلك أن أشهر جوامعها ، بل أشهر
جوامع اليمن على الإطلاق - الجامع الكبير - لم يأتي ذكره إلا بشكل عرضي وبسيط
في هذه المدة من تاريخ المدينة ، ومع ذلك يظل الجامع الكبير ومسجد الأجدم ومسجد
الطنجي هي أكبر تلك المساجد ذكراً - مع قلة هذا الذكر - فقد وردت شذرات صريحة
بذكر طرف من النشاط العلمي فيها^(٧) .

❖ الجامع الكبير :

من أشهر من أشارت إليهم المصادر بأنهم من العلماء الذين تصدوا لإمامة
الجامع الكبير - وبالتأكيد - التدريس فيه القاضي العلامة مطهر بن كثير الجمل
الشهابي^(٨) (٨٦٣هـ / ١٤٥٨م) ، أحد أشهر مدرسي الجامع الكبير بصنعاء في مدة
دراسته ، وقد كان عالماً كبيراً محققاً ، وفاضلاً شهيراً ، متقناً في كثير العلوم ، ولما

(١) محمد المروني ، الموجز في تاريخ بناية مساجد صنعاء ، ص ٧٨ .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات قزوين الكبرى ، ج ٢ ص ٧٢٧ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٩٠٢ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٥) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٦٥ .

(٧) وقد ذكر بعض المؤرخين عن تجمع الناس وتوابعهم في الحلق العلمية المعقدة في جوامع صنعاء
ومساجدها ، والتي درس فيها القرآن الكريم وعلوم السنة النبوية للمطهرة وغيرها من العلوم لأحرى ،
وخاصة في شهر رمضان ، بما يعكس مدى اهتمام شريحة واسعة من سكان صنعاء بارتداد المساجد ليس
فقط فحسب ، بل لتكون مكاناً للتعليم والدراسة ، جوامع صنعاء ، انظر الشهابي ، وصف صنعاء -
مستل من كتاب المنشورات الجليلة ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي ، المركز الفرنسي للدراسات اليمنية ،
صنعاء ، ط ١ ، ١٩٩٣م ، ص ٩١ ، ٩٢ .

(٨) ترجم له أبو الرجال ، مطلع القيدور ومجمع البحور ، صورة عن نسخة بمكتبة د. عبدالرحمن الشجاع ،
صنعاء ، ج ٤ ق ٢٩٤ ، الأكوخ ، حجر العلم ، ج ١ ص ٤٥٠ ، ريارة ، ملحق البدر الطالع ، ص
٢١٢ ، عبدالملك حمود النيس ، الروض الأخرى ، ج ٣ ص ١٢٧ ، ابن المؤيد ، طبقات قزوين الكبرى ،
ج ٢ ، ص ١١٢٦ ، لوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٣٣ .

زار أحد العلماء اللواتي على صنعاء من خارج اليمن رآه يدرس في الجامع الكبير ، ورأى مدى اجتماع طلاب العلم حوله وكثرتهم ، ورأى من تنفق علمه ومدى إتقانه وسعة علمه ما جعله يقول :

إني رأيتُ عجيبةً في ذا الزمن
شاهدتها في وسط صنعاء اليمن
إن تسألوني ما الذي شاهدته :
جَملاً بها يُقري لوري في كل فن

وكذلك الفقيه العلامة يحيى بن محمد بن حسن البها^(١) ، الموصوف بأنه :
"الفقيه العلامة ، الحبر الصمصامة ، الفاضل العابد ، الزاهد الورع ، أكبر المتقين"^(٢) ،
وهذه الأوصاف جاءت من أحد تلاميذه - ستأتي ترجمته - والتي وإن كان يطغى عليها
مشاعر إعجاب التلميذ بشيخه إلا أن عين الرضا مهما بسطت قوة تأثيرها على كاتبها -
وهو من كبار العلماء - فلن تخرج به عن الصدق في ما يفوق نسبة ٧٠% من
مجمل ما وصفه به ، وقد ذكر أنه كان جامعاً لطريقة العلماء والرهاد وأهل
الطريقة^(٣) ، ولرف ذلك بقوله : " وهو كان شيخ كثير من الناس "^(٤) .

ويظل الإمام الكبير العلامة صارم الدين إبراهيم بن محمد بن عبدالله بن
الهادي الوزير^(٥) (ت ٩١٤هـ / ١٨٠٥م) من أشهر من ذكر من العلماء هنا ، فقد
كان ذكره مرتبطاً بعلماء الزيدية في هذه المدة ، فهو تلميذ لأشهرهم في منتصف القرن
التاسع للهجري وشيخ لمعظم البارزين منهم في القرن العاشر ، أطنب بعضهم في مدحه

(١) لم يحدد المؤرخ تاريخ وفاته ، إلا أن المؤرخ من مواليد مطلع القرن العاشر كما ستأتي ترجمته في علماء
هجرة الأبناء من وادي السمر .

(٢) المفرائي ، مكنون السمر في تحرير تحاريد السمر ، تحقيق ريد بن علي لوزير ، مركز التراث والبحوث
اليمني ، ط ١ ، ٢٠٠٢م ، ص ١٢٢ .

(٣) المقصود بأهل الطريقة : السومية .

(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٥) ترجم له أبو الرجال ، مطلع البهور ومجمع البحور ، ج ١ ق ٣٥ ، الأكوخ ، حجر الطم ، ج ١ ص
١٧٨ ، زيارة ، لمة اليمن ، ص ٣٧٤ ، الشوكلي ، لهدر الطلع ، ص ٥٠ ، عبدالمك حميد الدين ،
الروض الأخر ، ج ١ ص ٢٩ ، الميراني ، مكنون السمر في تحرير تحاريد السمر ، ص ١٢٣ ، السمر
المزيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ، ص ٨٠ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٦٩ .

فقال^(١) : " كان السيد صارم الدين ... مشغلاً بخويصة نفسه ، حافظاً للإسناد ، وإماماً للزهاد والعباد ، مستزكياً على الأوائل ، جامعاً لأشتات الفضائل ، مطلعاً على أخبار الأوائل والأواخر ... " ، وقد نُكِبَ في أولاده على يد السلطان الظاهر عامر بن عبدالوهاب الطاهري ، حيث قُتل أحدهم في حصاره لصنعاء بحجر المنجنيق ، ونفي آخران إلى تعز ووضعاً تحت الإقامة الجبرية حتى ملأنا ، وكانت معاناة الإمام صارم الدين إبراهيم لعقدهم أليمة^(٢) .

وإذا نظرنا إلى كل من تحدثت المصادر الزيدية عنهم بأنهم من شيوخ صنعاء وعلمائها في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، إذا نظرنا إليهم على أنهم هم شيوخ الجامع الكبير فإن حصته ستكون وفيرة ، وقدمه في خدمة العلم في اليمن عالية ، وهذا هو ما نرجحه ، فلعل المؤرخين لم يحسوا بضرورة الإشارة إلى كونهم من علماء الجامع الكبير لنداهة المعلومة لديهم ، لولا ضيق المتسع لهذه النقطة في دراستنا هذه لأسهبنا في الترجمة لهم والتعريف بجهودهم وتلاميذهم .

❖ مسجد القلبي :

لم يُعرف بالضبط تاريخ إنشاءه ، إلا أن مؤسسه وصاحبه كان حياً في سنة (٧٨٨هـ / ١٣٨٦م) ، فقد ذكر ابن المؤيد^(٣) بأنه بنى قبةً على قبر عبدالله بن الإمام يحيى بن حمزة ، ويبدو أن هذا المسجد كان من معقل العلم الشهيرة في صنعاء ، فقد ذكرت بعض المصادر أن الإمام القاضي المؤرخ تقي الدين أحمد بن علي للفلسي^(٤) (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٩م) قد جلس للتدريس في هذا المسجد سنة (٨٢٦هـ / ١٤٢٤م) في زيارته الثانية لصنعاء^(٥) ، مع أنني لم أجد إشارة إلى تاريخ زيارته الأولى لها ، ومن غير المنطقي أن يذهب زائر بحجم القاضي الفاسي ليلقي دروسه في مسجد مغمر ، كما كان الإمام المتوكل المطهر بن محمد بن سليمان الحمزي (ت ٨٧٩هـ /

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ، ص ٨٥ .

(٢) عن معرفته ونكته نظر الزحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٣ ص ١٣٦٣ ، ١٣٦٤ .

(٣) طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٦٥٠ .

(٤) أخطأ المصدر في ذكر اسمه بريادة (محمد) في البداية ، وهو من شهرة بحيث لا يخفى اسمه .

(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١١٣٣ .

١٤٢٤م) من ضمن الذين أجازهم^(١) ، وهي قرية تؤكد شهرة هذا المسجد في تدريس العلوم وتصدر المشهورين للإلقاء فيه .

وفي سنة (٩٢٥هـ / ١٥١٩م) خرج العلامة أحمد بن محمد الهادي - إمام مسجد الفليحي - على الإمام المتوكل شرف الدين (ت ٩٦٥هـ / ١٥٥٧م) ودعا إلى نفسه بالإمامة ، غير أنه لم يلق من الأتباع ما يحدث بهم فرقاً في الوضع القائم ، فتمكن الإمام شرف الدين من هزيمته وأسر^(٢) ، وهذا يؤكد مكانة مسجد الفليحي الكبيرة ، فما كان لإمام مسجد مغفور أن يتصدر الحياة السياسية ويجد في نفسه القدرة على منافسة الإمام القائم .

❖ مسجد الأجنم :

وروت إشارة واحدة إلى هذا المسجد ، ذكرها صاحب (طبقات الزيدية الكبرى)^(٣) ، حيث أشار إلى أن أحد علماء الزيدية الكبار في مطلع القرن التاسع للهجري كان يسكن ويدرس فيه ، وهو العلامة الناصر بن أحمد بن المطهر بن يحيى (ت ٨١٠هـ / ١٤٠٧م) ، وكان أجنبياً تلامذته الإمام الشهير محمد بن إبراهيم الوزير (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) ، وقد أورد المصدر^(٤) نفسه نص إحدى إجازاته له مؤرخة بسنة (٨٠٠هـ / ١٣٩٧م) .

(٢) وادي السُر^(٥) :

يقع وادي السُرّ على مشارف حوض صنعاء ، ويبعد رأسه عن مدينة صنعاء نفسها حوالي ٥٠ كيلومتراً أما أسفله فلا يبعد عنها سوى ٢٣ كيلومتراً تقريباً ، ويقع للوادي إجمالاً إلى الشمال الشرقي من صنعاء ، ولا تتجاوز مساحته الكلية ٢٠ كيلومتراً مربعاً ، غير أنه مثير بدوام خضرته وكثرة مزارعاته ، وخاصة الأعشاب

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، نفس الجزء والصفحة .

(٢) زيارة ، أمة اليمن ، ص ٣٩٥ .

(٣) ابن المؤيد ، ج ٢ ، ص ١١٦٧ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨٩٧ .

(٥) الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٢ ص ٢٦١ ، المقضي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٧٨٧ ، المقراني ، مكنون السُر في تحرير نخلير السُر ، ص ٦٨ حاشية المحقق رقم ٩ ، الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، لؤاسي ، البئر المزبل للحزن ، ص ١٩ .

بجميع أنواعها ، وهو من أقدم المناطق اليمنية سكناً، إذ أن اسمه ولسم ساكنيه قد ورد في نقوش قديمة ، وقد شهد هذا الوادي حياة علمية مزدهرة ، جعلته ينافس أشهر مناطق العلم في اليمن ، واتجهت صوبه أنظار طلاب العلم من أماكن شتى ، تجلوز بعضها حدود اليمن الطبيعية ، كما سنرى ، واستوطنته مجموعة من أعلام اليمن .

وقد حرصت كثير من القوى السياسية اليمنية على السيطرة على وادي السر وبالتحديد حصونه المنيع ، وخاصة حصن ذي مرمر الذي سبقت منا الإشارة إليه في الفصل الثاني من هذه الدراسة ، وقد قبض الله لهذا الوادي من يقوم بكتابة تاريخ علمائه في القرنين التاسع والعاشر ، وهو العلامة الفقيه المؤرخ عماد الدين يحيى بن محمد بن حصن بن حميد المقراني الذي أفرد له مؤلفاً خاصاً به ، وأطلق عليه (مكنون السر في تحرير نحرير السر)^(١) ، وقد أبان هذا الكتاب من صور النشاط العلمي وارتفاع أسهم هذا المكان الصغير في مساحته ما يبعث على الإعجاب ، خاصة عندما نعلم أنه منطقة زراعية غير حضرية، الحياة فيه تعني مواجهة الصعاب في التنقل بين أجراعه ووديانه الفرعية وحصونه وقلاعته المنتشرة ، ومع ذلك يقول المؤرخ المقراني^(٢) : " إن هذا الوطن سكنه للعلماء الفضلاء والأقوياء ، واشتأقت إليه للرجال ، وقصدت لـ (سره) للرجال ، وكان لمن سكنه حل الشبهات وعرائص المسائل الملتبسات ، وكان يطلب منهم كثير من أمور الدنيا والدين ، ويلوي إليهم الضعفاء والمسلكين ... " (٣) .

كما أن هذا الكتاب يثير تساؤلاً كبيراً حول نسبة هذا الازدهار العلمي الذي شهده هذا الوادي مقارنة مع الفترات التي سبقت القرنين المتتولين فيه ، فكما أن الاحتمال قائم بأن هذا الازدهار قد ارتفعت وتيرته في هذه المدة فإن احتمالاً آخر بقدر سابقه - إن لم يكن يفوقه - يفرض نفسه بأن هذا النشاط لم يكن إلا استمراراً للنشاط الذي جرى فيه في القرون السابقة للقرن التاسع الهجري ، وينتصب هذا الاحتمال الأخير بعد معرفتنا بأن مقومات الحياة وعوامل الجذب في هذا الوادي لم تتغير بتاتاً من الناحية الجغرافية .

(١) وردت كلمة السر مرتين في عنوان هذا الكتاب ، الأولى المقصود بها السر الذي ينافس الجهر ، والأخرى المقصود بها اسم الوادي المقصود بالتأليف .

(٢) المقراني ، المصدر السابق ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

بعد حصر أماكن للتعليم في هذا الوادي برز نوعان منها بروراً ملحوظاً ، وهما المسجد والهجرة العلمية ، إذ ورد منها لدى المقراني تسعة مساجد وست هجر علمية ، ومما لا شك فيه أن هذا المؤرخ لم يأت إلا على ذكر ما اشتهر من المساجد بالدور العلمي والتكريسي على وجه الخصوص ، فهو نفسه يقول : " وكانت مساجد هذه الجهة من أعظم المساجد حياة وإقامة ... " (١) .

أما المساجد (٢) فهي كما يلي : مسجد الدار ، مسجد للموسم ، مسجد ابن مفتاح ، مسجد دار معكر ويسمى أيضاً مسجد الهادي ، والمسجد المبارك ببني يزيد ، ومسجد بني المرادي ، ومسجد نيهان ، وأما الهجر الست المشتهر إليها فهي : هجرة الحنكة ، وهجرة شعب زايد ، وهجرة بهمان ، وهجرة هَيْفَاء ، وهجرة الأبناء ، وهجرة ذي مرمر .

وستتناول هنا هجرة من هذه الهجر ومسجداً واحداً نستدل بهما على ازدهار العلم في هذه الجهة :

❖ هجرة الأبناء (٣) :

الأبناء هنا اسم للمكان وليس بالضرورة أن يكون منسوباً إلى من استوطنه ، فقد ينصرف ذهن القارئ إلى شريحة الأبناء الذين ينحدرون من أصول فارسية كما سبقت الإشارة إليهم والتعريف بهم في الفصل الأول عند حديثنا عن جامع صنعاء ، وإن كان ذلك الاحتمال قائماً .

تقع هذه الهجرة في قلب وادي السر من مديرية بني حشيش في الشمال الشرقي من صنعاء على مسافة تبلغ ٣٠ كيلومتراً تقريباً ، وهي أشهر الهجر العلمية في هذا الوادي النضر ، " وكان هذا المكان الذي هو الأبناء ... من محاسن بلاد صنعاء ، بل من محاسن بلاد الزيدية ، يَفِدُ إليه الخالص والعلم من جميع الأقطار والأنام ... " (٤) ، وقد بلغ ازدهار العلمي بهذه الهجرة أن ناقضت النساء فيها الرجال وتسابقوا

(١) المقراني ، مكنون السر في تحرير تحرير السر ، ص ٦٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٩ ، ٧٠ ، ١٠١ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٨ .

(٣) الأكوخ ، هجر العلم ، ج ١ ص ٢١ ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ١ ص ٥٤ ، المقحمي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ، ص ١٨ ، المقراني ، مكنون السر في تحرير تحرير السر ، ص ١٣٦ ، ٦٨ .

(٤) الأكوخ ، هجر العلم ، ج ١ ص ٢١ وسببه إلى كتاب مكنون السر إلا أنني لم أجد هذا القول فيه .

في تحصيل العلوم ، يقول المقراني^(١) : * وهذه الهجرة من محاسن الجهة ، وأهلها فقهاء فضلاء أهل معارف ، ونسأهم كرجالهم في الديانة وقراءة^(٢) القرآن ... " ،

وقد استفتح القاضي إسماعيل الأكوخ كتابه القيم (هجر العلم ومعلقه في اليمن) بهجرة الأبناء ، فعرفها واستعرض تراجم عدد كبير من علمائها ، وبلغت التراجم التي ذكرها ثلاثة وخمسين عالماً بعضهم عاشوا فيها بعد فترة دراستها هذه^(٣) .

ومن أشهر علماء هذه الهجرة وأكثرهم ذكراً القاضي العلامة يحيى بن أحمد مرنغ (ت ٨٦٥ هـ / ١٤٦٠ م) ، عالم فقيه ، عبد زاهد ،^(٤) أحد أشهر تلاميذ الإمام للمهدي أحمد بن يحيى المرتضى (ت ٨٤١ هـ / ١٤٣٦ م) أحد أشهر فقهاء الزيدية على الإطلاق ، وهو أحد رواة مؤلفه الشهير (البحر الزحار الجامع لمذهب علماء الأمصار) ، وكان من وجوه أصحاب الإمام المتوكل المطهر محمد بن سليمان الحمزي المذكور في الفصل الثاني ، وصفه الإمام المتوكل شرف الدين بقوله : " هو القاضي العلم الأعبد ، الزاهد ، عماد الدين ... " ^(٥) ، وكتاب (مكنون السر) يزرخر بتراجم العلماء الكبار من تلاميذه .

ومن علماء هجرة الأبناء أيضاً العلامة محمد بن حسن بن خميد المقراني (ت ٩١٠ هـ / ١٥٠٥ م) ، هو أول من قدم إلى هجرة الأبناء من أفراد أسرته^(٦) ، وأحفاده إلى يوم الناس هذا من وجوه البلد وأعيان المنطقة ، فقد كان والده من أهل صعدة والمحسوبين في أهل العلم بها ، وستأتي ترجمته في من عُرف من علمائها ، وقد مدح كثيراً من قبل المترجمين له ومشائخه الذين أجازوه ، ومدحه إشارة على رسوخ

(١) مكنون السر في تحرير نচারير السر ، ص ١٣٤ .

(٢) درج اليمينون على إطلاق لفظ لقراءة للدلالة على لتكريس نصه إجمالاً ، أي أن لقراءة في السياق أعلاه المقصود به تعلم القرآن وعلومه بشكل عام لا مجرد تلاوته فقط ، فالقراءة بدأ هنا هي مرادف للتعلم والدراسة

(٣) الأكوخ ، هجر العلم ، ج ١ ص ٢١ - ٣٤ .

(٤) ربابة ، أمة اليمن ، ص ٤٠٢ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٨٩ ، ابن المؤيد ، طيفات الزيدية الكبرى ، ج ٣ ص ١٢٠٦ ، المقراني ، مكنون السر في تحرير نচারير السر ، ص ٧٠ .

(٥) ابن المؤيد ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٢٠٧ .

(٦) المقراني ، مكنون السر في تحرير نচারير السر ، ص ١١٤ .

قدمه وعلو كعبه بين العلماء ، وصفه القاضي أبو الرجال^(١) بقوله : " العلامة الفاضل ، المحقق للرايح ، من مشاهير العلماء ... " ، كما جاء في إحدى إجازات مشائخه له أنه : " هو الأفضل الأكمل ، الأوجد الأمجد ، النبيل الأثيل ، زينة العلم والعلماء ، بدر للدين ، خادم حديث سيد المرسلين ... " ^(٢) .

كان العلامة محمد بن حسن المقرائي كثير الرحلة في طلب ، وقد مات أبوه وهو غائب في رحلة علمية إلى مكة المكرمة ، يشير إلى ذلك ابنه المؤرخ يحيى المقرائي^(٣) بقوله في ترجمته له : " وفد من صعدة إلى هذا المكان - أي هجرة الأبناء - بعد أن رجع من مكة المشرفة وغيرها لطلب الكمال في جميع العلوم ؛ لأنه بلغه موت والده ... رجع إلى صعدة فباع ضياعه وأملكه ودوره ، ورجع بما بقي هناك من كتب والده فاستوطن الأبناء ... " .

لم يتوقف هذا العالم عن تحصيل العلوم ، ولم يحس بتثبته منها قط ، فقد استمر في التحصيل الذاتي عن طريق القراءة والاستجازة من العلماء الكبار المعروفين ، ويجمع الكتب ، ويبدل جهده وماله في تحصيلها حتى بلغ الغاية القصوى ، وكان له مؤلفات في التاريخ والفرائض والفقه وغيرها ، وكان من المهتمين بتحسين مرافق التعليم في هجرة الأبناء ، وبذل في سبيل ذلك ناعن جهده وماله ، وقد شهد له بذلك القاضي محمد بن أحمد مرغم - الآتي ذكره - بأنه هو الذي أقام مسجد قرية الدار بالأبناء ووفر له ما كان يحتاجه من مستلزمات الترميم ، حتى جعله من أكبر مرافق التعليم في وادي السر ، ومما يتجه نحو العلماء للتدريس والطلاب للتحصيل^(٤) .

وازدهار العلم في هذه الهجرة جعلها قبلة لطلاب العلم وأهله من كثير من الجهات ، حتى أن عدداً من أعلام العلماء في مناطق عظيمة شهيرة اتجهوا إليها إما للجلوس إلى علماتها أو للإقامة والتدريس فيها ، فوصف ذلك أحد المؤرخين بقوله : " وفد هذه الأماكن - يقصد الأبناء - خلق كثيرون واستوطنوها ، وعمرها فيها

(١) أبو الرجال ، مطلع البهور ومجمع البحور ، ج ٤ ص ١٧٨ .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٩٥٧ ، ومن ترجم له عبد الملك حميد الدين ، العروض الأغر ، ج ٣ ص ١٢ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٨٨٧ .

(٣) المقرائي ، مكنون السر في تحرير تحارير السر ، ص ١١٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١١٦ - ١١٧ ، ١١٩ .

للمعارف، وتأسسوا فيها بالأنفس والأهل ، من أعيان الأعيان وتراجم أهل تلك الأزمان، ودرسوا وتدارسوا ، وألفوا المؤلفات الكبار ، وقصدهم الطلبة والمتحاضرون من جميع الأقطار ، القريبة والبعيدة ... لطلب العلم والحكم والفتيا ، وأحبوا مساجدها حتى اشتهرت وظهرت على الأمصار ^(١) .

❖ مسجد الموسم :

وهذا المسجد يقع قريباً من هجرة الأبناء السابقة لأنه مبني في نطاقها ، لذلك عُذَّ علموه مع علماء هجرة الأبناء نفسها ، ومن أبرز علماء هذا المسجد القاضي العلامة محمد بن أحمد بن محمد مرغم (ت ٩٣١ هـ / ١٥٢٤ م) ، كان من أعلام الفكر الإسلامي في اليمن عموماً ، بلغ اعتداده الزيدية به أن قال عنه مؤرخهم الكبير القاضي أحمد أبو الرجال ^(٢) بأنه : " حامي حمى الإسلام ، ولسان الشريعة ، شحاك الأعداء ، وأحد شيوخ الإسلام ، وإنسان علماء الشريعة ، كان عالماً فاضلاً وجيهاً ، له حيلة في الدين " ، وقد نال ثقة شيوخه وأساتذته حتى أفرطوا في الثناء عليه في إجازاتهم له ، ومن ذلك ما ورد في نص إحدى إجازات مشائخه له مكتوبة في سنة (٨٧٨ هـ / ١٤٧٣ م) ، إذ يقول عنه شيخه : " هو القاضي العالم ، الأعمل ، الزاهد الورع ، الأكرم ، ناظورة الرمان ، وعين الأعيان ، جمال الإسلام ، ثقة المسلمين والإسلام ... " ^(٣) .

وقد ذكر المقرائي ^(٤) في فاتمة تلاميذه : محمد بن الحسن المقرائي - والده - ويحيى بن محمد المقرائي - يقصد نفسه - ويحيى بن محمد مرغم ، ومحمد بن يحيى بهران ، وعلي بن عبدالله رافع ، وعبدالهادي السودي ، وأحمد بن محمد بن عفة ، والحسن بن محمد مرغم ، والمطهر بن محمد تاج الدين ، وكل واحد من هؤلاء ممن يُشار إليهم بالبنان في علماء اليمن في القرنين التاسع والعاشر الهجريين .

(١) المقرائي ، مكنون السر في تحرير تحرير السر ، ص ١٠٣ .

(٢) أبو الرجال ، مطلع البدر ومجمع البحور ، ج ٤ ص ١٣٨ .

(٣) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٩٢٢ .

(٤) مكنون السر في تحرير تحرير السر ، ص ٧٦ ، ابن المؤيد ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٩٢١ .

(٣) منطقة صعدة :

لما عندما حددت العنوان بـ (منطقة صعدة) فأتينا لقصدها بالمعنى الجغرافي ، فإن المفهوم الجغرافي لـ (منطقة صعدة) يتسع كثيراً عن مفهوم (مدينة صعدة) أو (صعدة) مجردة من أي لفظ يستقها ، وذلك لأن أقصى شمال المرتفعات الوسطى اليمنية التي يغلب على أهلها التمسك بالمذهب الزيدي - أصولاً وفروعاً - يرتبط ارتباطاً وثيقاً من الناحية الجغرافية والإدارية والوجدانية بمدينة صعدة ، فيصبح من البديهي أن يُعرف كل هذا الإقليم بـ (منطقة صعدة) ، وهذا المفهوم هو الذي حدا بالقيادة السياسية اليمنية بعد ثورة عام (١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م) أن تجعل من صعدة مركزاً لمحافظة كاملة تشملها وكل المناطق المحيطة بها التي نتحدث عنها .

وحدثنا عن صعدة كونها أحد مراكز التعليم في اليمن في مدة دراستنا لا يعني إلا أننا نقوم باستقطاع جزئية محددة من تاريخها العلمي للراهر ، فهي معقل الزيدية الأولى ، سياسة وعلماً ، من الإجحاف أن نقول أن جنوة العلم قد خبت فيها يوماً ما ، فما فتئت صعدة - بمفهوما الجغرافي الواسع الذي أشرنا إليه - تفيض على من حولها من المناطق علماً ونضارة ، فإذا ما أصاب الإمامة الزيدية الانحلال تحت ضربات أعدائها وخصومها فإن صعدة تظل الملجأ الأخير الذي من النادر أن نرى أحد خصومهم يصل إليها بنفوذه .

تعددت أماكن التعليم في منطقة صعدة ، وكان أشهرها المساجد والهجر العلمية ، وهما النوعان اللذان حفل بهما الزيدية بشكل ملحوظ في كل مناطقهم ، لذلك انتشرت حول صعدة الهجر العلمية منذ وقت مبكر من تاريخ اليمن الإسلامي ، وفي مدة دراستنا سنشير إلى بعضها على سبيل الاستدلال على وجودها ودورها ، أما المساجد فلم تشر المصادر الزيدية - كمئاتها - إليها بصورة واضحة ، ولكننا نستطيع أن نقول أن المسجد كان نواة للهجرة العلمية ، ومركز كل قرية وحارة في منطقة صعدة ، وحديث المصادر عن رموز علمائها وأدوارهم العلمية والتدريسية ما هو إلا حديث عن أحد ركائز العملية التعليمية التي يعد المكان - المسجد - أحد دعائمها .

❖ جامع الإمام الهادي يحيى بن الحسين بصنعة :

سبقت الإشارة في الفصل الأول إلى أن هذا الجامع قد ورد ذكره في المصادر الزيدية أحياناً على أنه (مسجد صعدة) أو (المشهد المنقش)^(١) ، وفي هذا المسجد الجامع تلقى معظم من ذكرت المصادر أنهم درسوا في صعدة علومهم ، فهو يعسوب مساجدها وعميد أماكن التعليم فيها ، خاصة أن الزيدية تعطيها من المكانة ما يفوق غيره ؛ لأنه منسوب إلى مؤسس مذهبها ودولتها في اليمن ، وسنأتي إلى ذكر مجموعة من رموز الزيدية الذين درسوا أو درسوا فيه في مدة دراستها هذه .

نذكر هنا من العلماء فقيه صعدة الكبير وحافظ منطقة الجبال في عصره ومحدثها الأول ، الإمام العلامة الحافظ المحدث أحمد بن سليمان الأوزري^(٢) (ت بعد ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م) ، أحد معاصر الزيدية على علماء الحديث من أهل السنة ، وأحد قنوات انتقال العلم بين المذهبين ، كان كثير الرحلة في طلب العلم ، طال عمره حتى تجاوز المائة ، عرفته كثير من مناطق اليمن وغيرها طالباً جاداً ، بلغ من حديثه أنه رحل إلى أكثر مدن تهامة كربيد وأبيات حسين بطلب علم الحديث النبوي وهو يحمل نسخة من الأمهات الست^(٣) ، وللقارئ أن يتصور مدى العنت والجهد الذي واجهه في حملها معه عبر هذه المسافات الطويلة ، وكأنه لم يرد أن يطلب الحديث إلا عليها ، تصحيحاً لها وضماناً لوجودها ، ولم يجعل همه في الحديث وحده ، فقد أخذ على علماء تهامة علم الأصول والفروع ، والنحو والصرف واللغة ، وبلغ من العلم ما جعله شيخاً لأكثر من ثلاثة أئمة من أئمة الزيدية ، وصفه صاحب (طبقات الزيدية الكبرى)^(٤) بقوله : " كان الوزري فاضلاً ورعاً ، كاملاً محدثاً ، محققاً ، شيخاً ، إماماً ، زاهداً ، براً نقياً ... رحل إليه العامة والخاصة " ، وقال غيره : " فقيه صعدة وعالمها ، كان فاضلاً عالماً ، معمرأ مسنداً ... " ^(٥) ، تتناول المصادر الزيدية ترجمته بكل الإجلال والتعظيم والاحترام .

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٤١٧ ، ٤٤٧ .

(٢) ترجم له ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ، ص ١٣٥ ، أبو الرجال ، مطلع البحور ومجمع البحور ، ج ١ ص ٧٦ ، الجنتراري ، الجامع الوجيز ، ق ١٠٦ .

(٣) الأهدن ، تحفة الزمن في تزيخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ١٥٥ .

(٤) ابن المؤيد ، ج ١ ، ص ١٣٦ .

(٥) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

ومن علمائها كذلك القاضي عبدالله بن الحسن بن عطية الدواري^(١) (ت ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م) وعلماء الدواري من وجوه صعدة وأعيانها ، وهم كذلك من أبواب العلم فيها ، أما صاحبنا هذا فقد كان واسطة العقد هبهم ، كان موصوفاً بأنه العالم الفقيه المجتهد ، شيخ المجتهدين ، وأستاذ المبرزين ، كانت إنجازاته موضع التقدير والثناء ، يطلبها الأعلام ليزداد بها قدرهم ، كانت له اليد الطولى في تثبيت الإمامة في يد الإمام المنصور بالله علي بن الناصر صلاح الدين المذكور في الفصل الثاني من دراستنا هذه ، كان - هو والأوزري السابق - أبرز العلماء في صعدة ، ومما لا شك فيه أن أبرز العلماء لن يدرسوا إلا في أبرز المساجد ، وهو ما يدفعنا إلى ترجيح أنه كان يتخذ من جامع الإمام الهادي الكبير بصعدة مدرسة له .

قال فيه الإمام الشوكاني^(٢) : " كان الطلبة للفنون العلمية يرحلون إليه ، ويتنافسون في الأخذ عنه ، وليس لأحد من علماء عصره ما له من تلامذة ، وقبول الكلمة ، وارتفاع الذكر ، وعظم الجاه ، بحيث كان يتوقف الناس عن مبايعة الأئمة حتى يحضر ... " ، ويكفيه من الفخر والمدح أن يعرف أن من تلامذته معضرة اليمن للكبرى ، وإمامها المجتهد المطلق ، الإمام محمد بن إبراهيم الوزير (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) ، صاحب (العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم) ، وأخيه الإمام الشهير الهادي بن إبراهيم الوزير (ت ٨٢٢هـ / ١٤١٩م) ، وقد قل فيه الأخير : " كنا بين يديه جماعة من الطلبة يملئ علينا من بحر علمه الفرائد المنقاة ، ويمطر علينا من شآبيب فهمه المستنفاة ، وكان للعلم في زمنه كالحديقة المزهرة ، ووجوه العلوم الدينية بنتور وجهه ضاحكة مستبشرة ، وكانت ركائب الطلبة تحدي إلى سوحه من أداني الأرض وأقاصيها ، وبلغ في العلم والتعليم وحيطة الدين ما لم يبلغه أحد ، جمع بين محاسن العلم والعمل ... " ^(٣) .

وبلّغني في ذكر علماء صعدة في هذه المدة للعلامة القاضي حسن بن خُمَـوْذ بن مسعود بن عبدالله المقراني (ت ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م) ، ترجم له حفيده المؤرخ يحيى

(١) ترجم له زيارة ، قصة اليمن ، ص ٢٨٨ ، الشوكاني ، البدر الطالع ، ٣٨٨ ، عبدالمالك حميد الدين ، الروض الأشن ، ج ١ ص ٥٣ ، المؤيد ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٨٩ - ٥٩٤ ، الوجه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٥٧١ ، يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية الصغرى ، ق ٢١٢ .

(٢) البدر الطالع ، ٣٨٩ .

(٣) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ، ص ٥٩٢ .

بن محمد بن حسن المقراني^(١) فقال : " كان المذكور مجتهداً جامعاً لفنون العلم من التفسير وما يتعلق به من علم القراءة والإقراء ، وعلمي المعاني والبيان وغير ذلك ، وعلم الحديث وما يتعلق به من معرفة الرجال والجرح والاعتدال وغير ذلك ، والأصولين والفقه ، والفرائض وعلوم العربية ، والسير والتواريخ ، والطب والنجوم ، وغير ذلك من سائر العلوم العقلية والنقلية ، وله تأليفات وموضوعات واستنراكات وحواشي في جميع العلوم والتواريخ والسير وعلم الأنب والنجوم والطب وغير ذلك ... " .

إن المتفحص لترجمة هذا العلم ليجد نفسه أمام هامة سامقة في سماء العلم ، وطود شامخ في دنيا التأليف والرحلة في سبيل تحصيل العلوم ، وإن عدم اشتهاره في هذه المناطق ليمثل دليلاً كبيراً وقرينة واضحة على أن كثرة أمثاله وتعدد أقرانه ومن هم في منزلته قد كانوا من الكثرة بحيث أن الإشارة لا تنف إلا عند من أمتاز عنهم وتناول قدره عليهم ، إن القاضي حسن المقراني لم يُعرف في كتب الرجال والطبقات عند الزيدية إلا كواحد من غلارهم ، ولولا أن حفيده - وصفه وهو الخبير به - لما تبين لنا من منزلته إلا كما يظهر أنز الجمل للنظر إليه ، إن هذه المنزلة لا تُنال إلا على جسر من التعب ، والرحلة الحثيثة في طلب العلم ، وهو ما أكد عليه المقراني الحفيد، إذ يقول بعد أن سرد مؤلفات جده المتعددة ، وتناول إنجازاته للكثيرة وعلو سنده فيها واتصاله في معظمها بالإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعنه بائني عليه السلام : " وسافر لذلك وتغرب السنين والأعوام ، وقصد كثيراً من أمصار المؤلفين والمخالفين ، حتى عرف ما عند أهلها من المحققين والمبطلين ... " .

وكان هذا الرجل من أكثر الناس حرصاً على اقتناء الكتب فقد " حصل كثيراً من كتب تلك العلوم فوق خمسمائة مجلد كبار ، منها ما هو بخط يده ، ومنها ما هو من تنسيخه وتملكه ... " ولم يكن حبه لجمع الكتب بدافع الاشتهار بين الناس بامتلاكها ، فهو يقرأها قراءة تدبر ونقد وتأييد ، ويعكس موقفه مما هو فيها في تعليقاته على حواشيها إذ أنه : " لم يخلُ مجلد منها مما هو بغير خطه عن وضع شيء من العوائد

(١) مكتون السر في تحرير تعاريف السر ، ص ١١٩ ، كما ترجم له ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ، ص ٢٩٩ ، ١٥٩ ، ربيعة ، أئمة اليمن ، ص ٣٢٩ ، عبدالمك حبيب الدين ، فروض الأئمة ، ج ١ ص ١٤٦ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٣١٨ .

والتماليق والحواشي والتنبيهات والاستدراكات بخط يده ، بحيث أن بعض تلك الكتب وُضِعَ فيها بخط يده أكثر من المئتين ... " .

❖ مسجد الصرخة بصنعة :

لم يُذكر هذا المسجد في المصادر كلها إلا مرة واحدة ، لكنه ذُكرَ مقررناً بأحد أعلام صعدة - بل اليمن عموماً - الكبار ، وأحد أبرز رموز الفكر الإسلامي في اليمن في القرن العاشر الهجري ، ألا وهو القاضي الأجل ، والشاعر الأديب ، الإمام محمد بن يحيى بن أحمد يَهْرَان الصُّعْدِي^(١) (ت ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م) ، اختلفت بداية هذا العلم الإمام عن غيره من الأقران ، فقد كان في بداية أمره تاجراً ، تحتم عليه تجارته الانتقال من مكان إلى مكان ، إلا أن حبه للعلم قاده إلى الجمع بين الغائتين ، غاية التاجر في كسب المال وطلاب العلم في تحصيل العلوم ، فكان لا يفوته درس في مكان ينزل به " يدخل الحبشة ، ويدخل كثيراً من بلاد اليمن ... إذا وفد قرية فيها قراءة حضر معهم ... وكان يأكل من كسبه ، يمتن بصنعة الحرير ... " ^(٢) .

قال تلميذه المؤرخ المقرئ^(٣) مطنباً في مدحه : " سيدي وشيخي الفقيه المبرز المقام ، الإمام الحبر القمقام ... علم عصره وإمام دهره ، وكان إليه النهاية في حل العقود ، وحكمًا فيصل في المقصود ، في شامها ويمناها^(٤) ، وشرقيها وغربيها ، يرجع إليه نحارير العلماء ، ويلتمس منه الأحكام الفقهاء والحكماء ، قد انتشر علمه في تلك الجهات ، وارتفعت تألفاته إلى أعلى الدرجات ... " ، وقد مرد صاحب { أعلام المؤلفين الزيدية } ^(٥) حوالي عشرين كتاباً من مؤلفاته ، في كثير من مجالات العلوم العقلية والنقلية والطبيعية ، وكان لتأليفه المكانة الكبيرة ، ولقيت من الحفوة ما لم تلقه مؤلفات غيره من العلماء بل حتى الأئمة أنفسهم ، وقصة أنتهاءه من تأليف كتابه الشهير

(١) ترجم له زيارة ، أئمة اليمن ، ص ٤١٨ ، ٤٣٧ ، الشوكاني ، البحر الطالع ، ٧٩٦ ، عبد الملك حميد الدين ، الروض الأخر ، ج ٣ ص ١١٣ ، ١١٤ ، المقرئ ، مكنون السر في تحرير نحارير السر ، ص ٨٣ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ، ص ١١٠٣ - ١١٠٩ ، لوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠١٩ ، يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية الصغرى ، ق ٣٧٠ .

(٢) ابن المؤيد ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١١٠٨ ، ١١٠٩ .

(٣) مكنون السر في تحرير نحارير السر ، ص ٨٣ .

(٤) المقصود بالشام هنا جهة الشمال ، اليمن جهة الجنوب ، وهي ترد بهذه الصورة كثيراً في المصادر الزيدية ، فكان المؤلف يقول : في شمالها وجنوبها ، ويتضح للمعنى هذا من بقية سياق النص المقتبس .

(٥) لوجيه ، ص ١٠١٩ - ١٠٢٢ .

- في علم التفسير - الموسوم بـ (التكميل الشاف لتفسير الكشاف) شهيرة ، بل هي أكبر الأدلة على احتفاء الحكام في اليمن ، من الأئمة والسلاطين ، بالعلماء المبرزين ، فقد صورت المصادر مظاهر الفرح الكبير والحفاوة المبالغ التي أولاها الإمام المتوكل شرف الدين - آخر الأئمة الذين تناولناهم في الفصل الثاني - ورجال دولته بهذا الكتاب وصاحبه ، وذلك سنة (٩٤٥ هـ / ١٥٣٨ م) ، يقول المصدر^(١) : " وجمع ذلك في ثمانية أجزاء تامة ... وسر ذلك إمام زماننا ، وعلماء وقتنا ، وأظهروه ورفعوه في صنعاء اليمن على محمل ، وأعلن بجلالته وإفانته ، ونودي بذلك ، ورفع التكبير والتسبيح والتقديس والذكر في مساجدها وأسواقها وسائر بقاعها ، وطاف بذلك طوائف من المسلمين ، وزف بالأرتاج والريات والطبلخانات وغير ذلك ما يوضع للإشعار والإعلان " وزاد مصدر آخر^(٢) بأنهم زفوه بالمسيرة المشتر إلىه وهو محمول في صندوقين ، حتى دخلوا به الجامع الكبير في صنعاء ، وصعد الخطيب وألقى خطبة جعل منها تفسير سورة الفاتحة من هذا الكتاب ، ثم خرجوا وطاقوا به على المدارس والقصور^(٣) .

وقد استقر للمقام بهذا الإمام والعلم الكبير في مسجد الصرحة بصعدة ، ينشر علمه ، ويفيد أئمة ومجتمعه حتى وافته المنية في التاريخ المقرون بذكر اسمه^(٤) . وقد ازدهر نشاط الهجر العلمية في منطقة صعدة ، وناضت هذه الهجر مدينة صعدة نفسها في ممارسة النشاط العلمي ، حتى أن بعض أئمة الزيدية في هذه المدة ظهوروا من هذه الهجر العلمية ولم يظهر منهم أحد من مدينة صعدة نفسها ، وقد بلغ عدد ما تتلوه القاصي الأكوع من الهجر العلمية في منطقة صعدة - في كتابه هجر العلم ومعاقله في اليمن - ثمانية وعشرين هجرة علمية ، ولما كان الحديث عنها كلها يتطلب دراسة أخرى منفصلة فنحن سنأخذ مثلاً عنها هجرة فلة فقط .

(١) المقراني ، مكنون السر في تحرير تعاريف السر ، ص ٨٤ .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ، ص ١١٠٨ .

(٣) لهذا في حاجة كبيرة إلى التعليق على مدى قوة النخبة المعنوية الهائلة التي اجتاحت مصاحب الكتاب ، وتلاميذه وزملاءه وهم يرون أن العلم وحده هو الذي أورش هذا المجد وهذا الفخر ، ولو كان لدينا متسع للإسهاب لقما بتحليل هذه الحادثة .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١١٠٩ .

❖ هجرة قلّة^(١) :

المشهور في نطقها : قلّة ، وكانت - ولا زالت - هجرة علمية عامرة في بني جماعة بمحافظة صعدة ، تقع إلى الشمال الغربي من مدينة صعدة بمسافة ١٥ كيلومتراً ، وهي معدودة بين أهم معاقل العلم في اليمن ، جزم الأكوع^(٢) بأن مؤسسها هو الإمام المؤيد علي بن جبريل (ت ٨٣٦هـ / ١٤٣٢م)^(٣) ، وقد أنجبت هذه الهجرة مجموعة من أعلام الفكر الإسلامي في اليمن ، ترجم القاضي الأكوع^(٤) لاثنتين وأربعين منهم ، على رأسهم أربعة من أئمة الزيدية ذكرنا ثلاثة منهم في الفصل الثاني هم : الإمام المؤيد علي بن جبريل وحفيده الإمام الهادي عز الدين بن الحسن وابنه الإمام الحسن بن عز الدين .

وممن قدم إلى هجرة قلّة وذرّس وأقام بها القاضي أحمد بن عبدالله بن الحسن الدواري^(٥) ، وهو من العلماء الزيدية المشهورين في كثير من العلوم ، وكان في بداية أمره في مدينة صعدة ، بلده وبلد آبائه ، وقد مررنا على نكر آبائه هناك ، قدم إلى هجرة قلّة مأسوراً من قبل الإمام المؤيد علي بن جبريل لما كان من موقف أبيه القاضي عبدالله الدواري المعارض له ، فقدم إلى قلّة ومعه معظم تلاميذه ، وكان مقدمه دفعة كبيرة للعلوم بها ، فقد استوطنها وقضى فيها بقية حياته حتى توفي بها سنة (٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) .

(١) الأكوع ، هجر العلم ، ج ٣ ص ١٦١٨ ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، ج ٤ ص ١٦٢٩ ، المقحفى ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ٢ ، ص ١٢٢٥ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٣ ص ١٦١٨ .

(٣) الأكوع ، المرجع السابق ، ج ٣ ص ١٦١٨ - ١٦٢٠ ، نظر ترجمته عبد ربّرة ، ملحق البدر الطالع ، ص ١٨٢ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٧١٥ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأسماء ، ص ٥١٦ .

(٤) الأكوع ، المرجع السابق ، ج ٣ ص ١٦١٨ - ١٦٣٨ .

(٥) المرجع السابق ، ج ٣ ص ١٦٢٠ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ ، ربّرة ، أئمة اليمن ، ص ٢٩٤ ، عبد الملك حميد الدين ، الروض الأضن ، ج ١ ص ٥٠ .

وممن درس بهجرة قللة وأقام بها الإمام الهادي عز الدين بن الحسن^(١) (ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م) ، حفيد مؤسسها الإمام الهادي علي بن المؤيد المذكور سابقاً ، وهو واحد من أجل أئمة الزيدية وكبرهم شأناً ، وأكثرهم شهرةً ، وأغزرهم علماً ، جمع علم الزيدية وأهل السنة من خلال تعلمه على علماء وأئمة مذهبه في مدينة صعدة أمثال علي بن موسى الدواري ، وعلي بعض علماء السنة في اليمن أمثال محدث اليمن وحافظها في آخر القرن التاسع الإمام يحيى بن أبي بكر العلمازي المذكور في علماء مدينة حرّض ، ، ومصادر الزيدية تزخر بمدحه والثناء عليه^(٢) ، حتى قال عنه شيوخ الإسلام الإمام الشوكاني^(٣) بعد استعراض مساعيه ورحلاته لطلب العلم : " وهو من أكبر أئمة الأئمة في العلم والعمل ، والكرم وسائر الخصال الشريفة ، وله شغف بالعلم عظيم ، ولديه من التسليم للحق واتباع الدليل ما لم يكن لغيره ... " ، وقد ازدهرت هجرة قللة في عهد الإمام عز الدين ، حتى ذكرت بعض المصادر^(٤) بأنه بنى فيها مدرستين : إحداهما لتعليم القرآن الكريم وعلومه والأخرى لطالبي العلم الشريف ، وصار الإمام نفسه " رحلةً للفاصلين ، ومنتجعاً للوافدين ، يأمه طلبة العلم من أكثر الأمصار واليوادي والحضر ... وتوجهت إليه المسائل والرسائل من كل جهة ، ومقته الأعين ، ونطقت بفضلته الأكس وحظي من الإقبال عليه بما لم يحظ غيره " .^(٥)

ولا يفوتنا الإشارة إلى أن العلامة الحسن بن علي - والد الإمام الهادي عز الدين - كان قد بنى مدرستين سابقتين في هذه الهجرة قبل مدرستي ولده ، وعلى هذا يصبح عدد المدارس في هجرة قللة أربع مدارس ، وكان الحصن هذا من أكابر علماء جهته ، وكان قائماً بالتدريس ونشر العلم في منطقته بما توفر له من زكوات نواح كثيرة من

(١) فتاوات المصادر والمراجع الآتية لأخبار هذا الإمام : زيارة ، أئمة اليمن ، ص ٢٤٤ ، تحف المهتدين ، ص ٧٣ ، خلاصة المتن ، ج ٣ ص ٢٥ ، ٢٦ ، الزحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٣ ص ١٢٠٦ وما بعدها ، يحيى بن الحسين ، غلاة الأماني ، ص ٦٠٦ وما بعدها .

(٢) انظر مصادر ترجمته السابقة بالإضافة إلى الشوكاني ، البدر الطالع ، ص ٤٢٠ ، ٤٢١ ، الكشمي ، فلقطف السنية ، ص ١١٦ ، الوجه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٦٤١ .

(٣) البدر الطالع ، ص ١٢٠ ، ٤٢١ .

(٤) الأكوخ ، هجر نظم ، ج ٣ ص ١٩٢١ ، الشرفي ، الثلاثي المضينة ، ص ٥٠٩ .

(٥) الزحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٣ ص ١٢١٠ .

منطقة صعدة مما كان يجبي لأبيه الإمام المؤيد علي بن جبريل ، وقد توفي سنة (٨٩١هـ / ١٤٨٦م) فرثاه ابنه الإمام عز الدين بقصيدة تعد من درر قصائد المراثي في الأنس اليمنى ، يقول في مطلعها :

مُصَابِكُ هَذِهِ الشَّامِخَاتِ الرُّوَسِيَا

وَصَيَّرَ طَرْفَ الْفَحْرِ وَالْمُنْجِدِ بَاكِيًا

وبلغ من إعجاب العلماء بها أن لتبرى لها أحدهم ليشرحها ، وسمى شرحه (الرسالة الناطقة لشرح معاني الترتيبة للصادقة)^(١) .

(١) هو المؤرخ محمد بن علي بن يوسف الزحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٣ ص ١٢٥٨ .

الفصل الرابع

نظام التعليم في اليمن من بداية القرن
التاسع الهجري حتى السيطرة العثمانية
عليها

أولاً : نظام التعليم في اليمن في حقبة الدراسة

(من بداية القرن التاسع الهجري حتى السيطرة العثمانية عليها)

لسمات الرئيسة نظام التعليم في اليمن في حقبة الدراسة :

إن ما يقال هنا هو نفسه ما قيل في الفصل السابق ، فكما أن اليمن - لكونها جزءاً لا يتجزأ من العالم الإسلامي وقطراً من أقطاره - قد شهدت وجود أماكن للتدريس المناظرة لتلك التي عرفها العالم الإسلامي^(١) ، فهي كذلك قد سدرت على نفس منوال الأقطار الأخرى في اعتماد أنظمة التعليم ومتعلقاتها التي عُرِفَتْ فيها ، وسيلأحظ أن ما نقوله هنا هو عينه الذي يقال عن العالم الإسلامي قاطبة ، وبالتالي سنعتمد في حديثنا عن أنظمة التعليم في اليمن في حقبة الدراسة على تلك المصادر التي يعود إليها كل دارسي التاريخ العلمي والحضاري لأي قطر إسلامي آخر ، لكننا سننتقي استدلالنا من إشارات المصادر اليمنية .

لكن ثمة أمور هناك يجب التوقف معها قبل الخوض في موضوع هذا الفصل ، ومنها التأكيد على أنه لم يكن هناك ما يمكن أن نسميه حدوداً معينة لأنظمة التعليم المستخدمة ، بل إننا عندما نطلق عليها (أنظمة تعليمية) فذلك لا يكون إلا من باب المجاز الذي يساعد على فهم الجزئية التي نمسى إلى تناولها وتوضيحها ، فالمفهوم كان غاية في البساطة ، خالياً من التعقيد ، سهلاً وقابلاً للتنفيذ ، لا يوجد له أهداف مكتوبة - وإن كانت في مخيلة كل معلم وطالب - وبالتالي لم تتخذ معياراً خالصاً تقوم عليه عملية التقويم والتقييم ، ولكنه استُخِمْ طريقاً لتعليم الآخر من منطلق شيوخه وتناقله عن الأجيال السالفة وانتقله بصورة شبه متواترة إلى الأجيال الخالفة اللاحقة .

ومما يجدر الإشارة إليه أنه لم يكن لأي سلطة - من حكومة أو إمارة أو ما سواها - أي دور في تحديد معالم هذه الأنظمة أو تسمية لمقرراتها أو رسم لحدودها ، وأن الجهة الوحيدة التي كانت مخولة بذلك تأكيداً أو تعديلاً هي فئة العلماء (المعلمين) ، فهم الذين يعززون وجود المقررات لنجاحاتها ، أو يرون أن غيرها أبلغ أثراً وأكثر بركة وأهمراً منها لكي يتم استبدالها ، وهو ما أعطى للعلم الإسلامي - رغم تشتهه بين أيدي السلطات الحاكمة المختلفة في الهوى والميول - حالة عالية ومتقدمة من

(١) مع تميز بسيط في تأسيس وإملاك (الهجرة الطموية) و (القرية العلمية) .

الانتماء الفكري والتوحد في مقتضيات العلم وأساسياته ، جعلت اليمني بنشد الفائدة العلمية في مصر والشام والحجاز ، والمصري يجد بعضاً من ضالته العلمية في مجالس العلم المنعقدة في مدن اليمن وقراها ، ولا يرى في ذلك بلباً ولا نفوراً ، ولم ينظر إلى الاختلاف والفتن في بعض الرؤى والأفكار إلا كصورة حية للتعدد والتكامل وأشكالاً للتقوع الثقافي المحمود في الغالب.

إن مما يجب التأكيد عليه قبل البدء في الحديث عن نظام التعليم في اليمن خصوصاً - في العالم الإسلامي على وجه العموم - هو تلك المميزات العامة التي حظي بها ، والسمات الرئيسة التي اتصف بها ؛ لأن ذلك يعكس مدى نجاحه ومبلغ إثماره وكبر حصيلته ، مع التأكيد على أن ما نعينه من سمات ونقصه من مميزات إنما يطبق على مجمل النظام التعليمي لا على مرحلة معينة منه ، فنحن نستخلصها من النظرة الإجمالية إلى نتائجه ، والفعالية الكبيرة لمخرجاته ، والنزاهة الواضحة لآثاره ، فمن أهم تلك السمات والمميزات :

(١) الغياب الكبير للدوافع المادية وراء مواصلة التحصيل في ظلاله وبروز الدافع الديني : إنه لم يوجد بصورة رئيسية انعكاساً لرغبة رسمية وتلبية لرغبة سلطة قائمة ، ولم يأت بشكل أساسي ليحقق حاجة جهة ما بتزويدها بما تحتاجه من كوادر مؤهلة لكي تقوم بتغطية فجوات قائمة في هيكلها ومجتمعها ، بل كان وجوده نابعاً من كون العلم - الذي هو وقوده - جزءاً من تعبد المسلم ، وتحقيق لمطلب رباني مكرس في القرآن والسنة النبوية للمطهرة ، وبالتالي كانت حسابات المكسب والخسارة المتوخاة من تحصيله - إن وجدت - في قاع الاهتمام وذيل الطموحات ، وكانت مظنة بلوغ غاية رضا الله سبحانه وتعالى القائمة على بذل الجهد في تنهيز ما نذب المعلم إليه ، وبذل للوسع من أجل معرفة وإحياء ما شرعه الله ورسوله الكريم ﷺ ، والوعي بمنزلة العالم وأجر الساعي في سبيل العلم درساً وتكريماً ، كان ذلك كله أكبر الدوافع والمحفزات للسعي والتشمير في طلبه ، وهو ما عجزت عن تحقيقه الأنظمة المعاصرة على مستوى واسع ، وأشر إليه الأولاد منهم ولم يغفلوه^(١) ، وقد رأينا العلماء

(١) الموردي ، أدب الدنيا والدين ، تحقيق مصطفى السقا ، سلسلة الدخائر (١٢٧) ، القاهرة ، سبتمبر ٢٠٠٤م ، ص ٣٧ - ٣٩ ، ابن جماعة ، تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم ، تحقيق محمد هاشم الندوي ، ١٣٥٣هـ ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، الهند ، وقد نشرته مصوراً دار

يتحاشون المناصب الرسمية والمناخم الدنيوية خوفاً من النخس في نوابهاهم
 وثورعاً وزهداً^(١) ، مع أنهم بذلك كانوا يمدون ثغرات يحتاجهم فيها المجتمع ،
 وشواهد ذلك كثيرة في تاريخ اليمن ، منها أن الإمام أبو الطيب عبدالله بن أحمد
 بن علي بالمخرمة (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م) كان يفر من منصب القضاء حتى
 ألزمه الطاهريون القيام به في عدن ، فتولاه مدة ثم هرب خلسة من المدينة
 يلجأها إلى الشحر ، ولم يعد إلى عدن حتى تأكد له أن شخصاً آخر قد
 لقيم مكانه^(٢) ، وكانوا يتواصلون فيما بينهم إذا ما رأوا عزيزاً عليهم وقد ظهر
 منه بوادر السعي في مجاري غيرهم من العلماء وحملة الرسالة العلمية ، من
 ذلك ما رأيناه من الإمام محمد بن إبراهيم الوزير (٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) وهو
 يستنكر على شقيقه وشيخه الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير (٨٢٢هـ /
 ١٤١٩م) عندما وجده وقد استولى البقاء ضمن حاشية الإمام الزيدي الناصر
 صلاح الدين (ت ٧٩٣هـ / ١٣٩١م) ، واستحال استنكاره إلى قصيدة يذكره فيها
 بما يجب عليه من مجافاة السلاطين والابتعاد عنهم ، يقول فيها^(٣) :

يا نجل إبراهيم لا تكن ما
 كان عليه بالتقلي أبوك
 فلن أباعك لو شامدوا
 بمض الذي فعله أبوك
 ما لك لا تسلك نهجاً وقد
 من لنا فيه أبوك المثلوك

الكتب العلمية ، بيروت ، ص ٥ - ١٤ ، ابن قاسم ، آداب الطعام والمتعلمين ، الصدر اليمني للنشر
 والتوزيع ، ط ٢ ، ١٩٨٧م ، ص ٢١ ، ٥٩ ، لشوكاني ، آداب الطلب ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي ،
 مركز الدراسات والأبحاث اليمنية ، صنعاء ، ١٩٧٩م ، ص ١٥ ، ١٧ .

(١) ما نقوله هنا لا يتمسح على حالات كثيرة يرى المعلم نفسه مجبراً على القيام بأمور المناصب التي توكل
 إليه عندما يرى أن استكفافه عن القيام بها سيمثل ثغرة يؤذي الدين والمجتمع من قبلها ، كل يتصدى لها
 بدلاً عنه من هو غير أهل لها أو من أهل الأمواء فوصل غيره بقوة المنصب وسطوة السلطان

(٢) بالمخرمة ، قلادة قنحر ، ج ٣ ص ٧٨٢ ، ٧٨٣ .

(٣) الأكوخ ، أئمة النظم المجتهدون في اليمن ، ص ٧١ ، ٧٢ .

إلى أن قال :

وَابْعَدَ عَنِ الْمَالِ وَأَرْيَاهُ
وَأِنْ هُمْ يَوْمَانَهُ أَهْلُوكَ

وَلَا تَنْظُرَنَّ يَوْمًا إِلَى قَلَمٍ
وَلَا تَنْظُرْ إِلَى مَا قَلَّةُ نَاصِحُوكَ

وما يصدق ورعهم وزهدهم في الدنيا وتقلهم منها الصعاب التعبدية
الكثيرة التي احتوتها كتب التواريخ والطبقات وهي تناول تراجمهم .
بيد أن هذه الميزة لا تتناقص أبداً مع ما سنورده في الأدوار
الاجتماعية للعلماء اليمنيين وطلابهم ، مثل تولي بعض المناصب الرسمية
التي كانت توكل إليهم ، فإن ذلك كان من صميم ما يقتضيه علمهم بخطورتها
ومكانتها من الدين ومن حياة الناس ، كالتقضاء وتولي نظارة بعض المدارس
ودور العلم الأخرى ، بل لعل تتصلهم من القيام بأمرها يعد مما يجرمه العلم
الذي يحملونه ؛ لأنهم بذلك يتركون من الثغرات ما يمكن للعابثين التصدر لها،
وهو ما سنناقشه لاحقاً بمشيئته تعالى .

(٢) فاعلية العلماء وواقعية علومهم :

إن ما تقتضيه صفة تجرد طلب العلم والسعي لاكتسابه من أي دوافع
مادية وحب تحقيق مكاسب دنيوية عاجلة هو أن يكون هذا العلم حافظاً للعمل
الصالح والتمسك بالفضيلة، والتأمل بالمبادئ والقيم التي يدعو إليها هذا العلم ،
وإلا يكون العلم محصوراً في كونه كمّاً كبيراً من المعلومات تستخرج حين
الحاجة إليها فقط ، فليس هناك اتصال أو تقاير بين ما يتعلمه الطالب على
المستوى النظري وبين ما يراه من حياة معلميه على المستوى العملي التطبيقي
، وهذا هو ما عرفه المسلمون في علمائهم منذ القرون الأولى لهذا الدين ، وقد
أدرك العلماء قبل غيرهم أنهم معنيين بتنفيذ قول الله تعالى : وَمَا آتَاكُمُ

الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا^(١) ، وأنهم إذا لم يكونوا

كذلك فإن الفرد منهم سيكون المقصود بما حكاه الحديث الصحيح المشهور

(١) سورة الحضر .

القاتل : " يؤتى بالرجل يوم القيامة قبله في النار فتتدلق القلاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان ! مالك ؟ ألم تكن تلزم بالمعروف وتنهي عن المنكر ؟ فيقول بلى ، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتية ، وأنهى عن المنكر وآتية ^(١) ، وقوله ﷺ : " لا تزل قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس ... ومثلًا عمل فيما علم ^(٢) ، كما أن نظرة الاحترام التي أعطاهما المجتمع للعلماء وطلابهم واتخاذهم لهم في موقع القوة وموضع التلوي جعلهم حريصين على تحقيق هذه النظرة والقيام بمقتضياتها ، وأن يكونوا عند حسن ظن المجتمع بهم ، وكان قول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام " يا حملة العلم ، اعملوا به ، فإنما العالم من علم ثم عمل ووافق علمه ^(٣) بين أعينهم ^(٤) . تشير المصاخر إلى أن علماء اليمن عموماً ، في مدة الدراسة وما قبلها وما بعدها ، كانوا نماذج رائعة للعالم الذي يوافق علمه عمله ، وكانوا - في الغالب - موصوفين بالعلم والعمل ، وانتشرت أوصاف كثيرة تؤكد تحقق ذلك فيهم ، أمثال : " وحيد عصره في العلم والعمل ، ووحيد وقته في الورع والزهد ^(٥) وكذلك ما وصف به أحدهم من أنه " كان مع سعة علمه عابداً مجتهداً ، مشهوراً بالصلاح والورع ... ^(٦) ووصف آخر بأنه كان متحريراً

(١) البخاري ، صحيح البخاري ، ج ٣ ص ١١٩١ ، رقم (٣٠٩٤) ، باب (صفة النار) ، مسلم ، صحيح مسلم ، ج ٤ ص ٢٢٩٠ ، رقم (٢٩٨٩) ، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يعطه ويبهي عن المنكر ويعمله) .

(٢) الترمذي ، سنن الترمذي ، ج ٤ ص ٦١٢ ، رقم (٢٤١٦) ، باب (القيامة) .

(٣) ابن عبد البر ، جامع بيان العلم وفضله ، ج ١ ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٤) عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٥) بامخرمة ، قلادة الفخر ، ج ٢ ص ٧٦٣ .

(٦) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

للحلال في مأكله ومشربه ، فكان : " يأكل من كسبه ، يمتن بصناعة الحرير ... (١) .

كل النماذج السابقة تحكي تميز النظام التعليمي من خلال تميز مخرجاته وتحقيق أهدافه فيها ، وإن لم تكن هذه الأهداف مصوغة على شكل ما هو مستقر في عصرنا إلا أنها كانت ترمي إلى إيجاد العالم العامل بعلمه ، الذي يحيل المبادئ حقيقةً ماثلة .

(٢) للتوسع الأفقي والرأسي في تلقي العلوم :

ما قصده بالتوسع الأفقي في تلقي العلوم هو سعي العالم وطالب العلم إلى دراسة أكثر من علم واحد في آن واحد ، فلم يكن هناك وجود لمعنى التخصص في حدود دلالاته القائمة الآن ، ولا لتحصار الاهتمام بعلم واحد دون غيره ، وهو ما أوجد في اليمن العلماء الموسوعيين الذين حلزوا علوماً كثيرة ، فكان الواحد منهم في مصاف المبرزين في العلم الأول ، وتجدد كذلك في للعلوم الأخرى يزاحم رجاله ويفهم أهله .

من أمثلة العلماء الموسوعيين في اليمن في مدة الدراسة نجد الإمام علي بن أحمد بن موسى بن علي أبو الحسن الجلابي (توفي في العقد الأول من القرن التاسع الهجري) الذي وصف بأنه " كان عارفاً بالفقه والنحو واللغة والقراءات والحديث والقرائن والجبر والمقابلة والحساب والهندسة وغير ذلك ، بارعاً في كل فن ، مفرطاً في الذكاء ، كامل الألب ، حافظاً لأشعار العرب " (٢) ، ومثله أيضاً الإمام العلامة الصالح وجيه الدين عبدالرحمن بن عمر الحبشي الوصابي الذي وصفه البريهي (٣) بأنه كان " محققاً للفنون كلها كال تفسير والحديث والنحو واللغة والأصول والفروع وسائر العلوم ... " وكذلك الإمام أبو محمد الطيب بن عبدالله بن أحمد بالمخرمة (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) الذي وصفه المؤرخ الشلبي (٤) بقوله : " علامة

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ، ص ١١٠٨ ، ١١٠٩ .

(٢) بامخرمة ، قلادة النهر ، ج ٣ ص ٢٧٩ .

(٣) طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٨ .

(٤) إسفا الباهر ، ص ٣٤٩ .

علماء الإسلام ... مالك ناصية العلوم ، وفارس ميدانها ، وحائز قصب السبق في حلية رهاؤها " ، وإن كان التفصيل هنا لم يظهر في ماهية هذه العلوم وما عددها إلا أن بافتيه^(١) قد بين ذلك - نقلاً عن أحد تلاميذه - أنه حدثهم بقوله : " إني أقرأ في أربعة عشر علماً " ، وهو ما أدى إلى تكاثر طلبية العلم عليه ، ولزيادة أعداد المضممين إلى حلقات درسه ، لكننا مع ذلك لا نستطيع أن نعرف ما هي هذه العلوم الأربعة عشرة المذكورة ، فقائمة مؤلفاته قد شملت علم الرجال والحديث والتاريخ بصورة لاسمية ، وذلك بفسر أنه لم يؤلف في كل العلوم التي ألقاها .

وهناك من العلماء من يفوق الإمام الطيب بأمخمة في شهرته وإتقانه وكثرة مؤلفاته ، وقد تحدثنا عن الإمامين محمد بن إبراهيم الوزير (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) والإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) ، وعرضا لن الأول قد ألف حوالي أربعين كتاباً في كثير من التخصصات ، وألف الأخير سبعة وستين مؤلفاً ما بين كتاب ورسالة في كثير من فروع العلوم ، من العربية والفقه وأصوله ، وأصول الدين وعلم الكلام والشعر وغيرها الكثير .

ولما التوسع الرأسي فالمقصود به التعمق في علوم معينة أكثر من غيرها ، وذلك لا علاقة له بمفهوم التخصص في تاريخنا المعاصر وإن كان شبيهاً به ، غير أن ميول العالم وطالب العلم قد يجعله - بجوار دراسته لعلوم كثيرة - يولي عدداً منها عناية خاصة ، فتراه يتوهم فيها ، ويبحث عن دقائق تفصيلاتها ، ويرحل إلى المبرزين من رجالها ، ويسعى إلى الحصول على الإجازات منهم ، من خلال لقائه بهم أو عن طريق مراسلتهم إن تعذرت عليه للقاء .

وقد كثرت في المصادر التاريخية وكتب الطبقات أوصاف تنل على تعمق بعض العلماء في علوم معينة ، مثل : المحدث ، المقرئ ، الشاعر ، المؤرخ ، وكان كل واحد منهم ذا باع طويل في العلوم الأخرى ، بل لعله يفوق من حُصِبوا على تلك العلوم كما ذكرنا .

(١) تاريخ الشعر وأخبار القرن الثامن ، ص ٢٧٧ .

(٤) عدم وجود سقف زمني معين لمرحلة طلب للعلم :

وهذه السمة المهمة تقتضي للتنوع الكبير في المستويات العمرية ، وهو تنوع مشوب بالتفاوت بين أعمار طلاب العلم ، فقد تجد في الحلقة العلمية أو مجلس الإهراء أو الاستماع طالب بني علم الفرق بين عمرَيهما كالفرق بين عمرِ الوالد وولده ، بل قد يجلس الطالب وأستاذه في موضع التلقي سوياً ويكون الكتف إلى الكتف عند قدوم العلماء والوافدين على البلد ، ومما رسخ هذه الظاهرة أن مقدار العلم الذي يسعى الطالب إلى تحقيقه محدد بحسب رغبته هو ، فقد يحس أحدهم بالتشبع سريعاً بينما يرى زميله أن المراحل مازالت طويلة أمامه كي يجد هذه القناعة ، من هنا وجدنا في المصادر من طلب العلم لمدة سبع سنوات^(١) ، وآخرون لمدة أحد عشر عاماً^(٢) ، وبعضهم أربعة عشر عاماً^(٣) ، وأحياناً أربعين عاماً^(٤) ، وقد سبقهم إلى ذلك الإمام عبدالله بن المبارك الذي أجاب على من سأله : إلى متى تطلب العلم ؟ بقوله : " حتى الممات إن شاء الله " ^(٥) ، وهو نهج رسخه الأكثر المشهور " لطلب العلم من المهد إلى اللحد " .

(٥) قناعة المجتمع بوجوب التكفل بتوفير متطلبات التعليم :

نتج عما أشرنا إليه من اتخاذ المجتمع للعلماء وطلابهم قدوة يتأسى بهم ويرى فيهم النموذج الذي يسير على مواله ، نتج عن ذلك سعيه نحو التكفل بتوفير متطلبات النور التعليمي لهم ؛ وذلك لأنه - من جانب آخر - كان يرى في ذلك تصديناً لخدمة يقومون بها نحو أفراد من الأجيال الصاعدة ، ولم يكن العلماء أبداً فئة منعزلة عن المجتمع تتوقع على نفسها ، وتتكفى حول أدء

(١) للجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٣٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٩٧ .

(٣) العاسي ، العقد الثمين في أخبار البلد الأمين ، ج ١ ص ٣٧٦ ، بامخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٣٠٠ .

(٤) بامخرمة ، قلعة النحر ، ج ٢ ص ٧٠٥ ، عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العظيمة في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ١٦٠ .

(٥) ابن عبدالبر ، جامع بيان العلم وفضله ، ج ١ ص ٤٠٦ .

ولجبها فقط ، بل إن أدوارها الاجتماعية كانت تجعلهم في موقع الصدارة بين القوى المؤثرة اجتماعياً ، حتى صدقت عليها أحياناً مقولة أن " الحكام ملوك على الناس والعلماء حكام على الملوك " ، وهو ما ستحاول تسليط الضوء عليه في الفصل القادم .

إننا عندما نتحدث عن قناعة تكفل المجتمع بتوفير متطلبات التعليم فنحن لا نقصد القناعة التي كانت شائعة بين كل شرائح المجتمع ، فالقناعة وحدها لا تكفي ما لم تكن القدرة المادية كافيةً للتحرك في ظلال هذه القناعة ، ومن هنا فإن الإشارة ستختصر فقط في تلك الشرائح القادرة على إسقاط تلك القناعة وتطبيقها ، وكانت في المجتمع اليمني ممثلة في الأئمة والسلطين وأمرائهم ، وغيرهم من المبسورين كالتجار وغيرهم .

(٦) انتشار العلم كيفاً واتحصاره كما :

جوهر ما أود الوصول إليه هنا هو أن معاهيم التعليم العلم وشيوع التعليم والإلمام لم يكن لها ذكر على أرض الواقع ، بل لعله من غير المنطقي الحديث عن وجودها في العقلية القائمة عصرئذ ، وإن وجدت فصور بدائية منها فقط ممثلة في المرحلة الأولى من نظم التعليم التي كانت قائمة ، والمقصود بها المرحلة الأولى الخاصة بتعليم الصبيان الناشئة أبجديات العلوم، وبالتحديد القراءة والكتابة ، كم منفصله ، ونستشف ذلك من خلال انتشار المعلومات في كثير من مناطق اليمن ، فلم توجد مدرسة تقريباً إلا وبها معلماً للأيتام ومعلم يعلمهم القرآن ، وهو بالأحرى أن يكون لغير الأيتام أوسع وأشمل ، أما المرحلة الثانية فقد كانت مقصورة على ذوي الهمم والقدرات العقلية العالية وإمكانات للمادية الميسرة .

لن الظروف التي نعت طلاب المرحلة الثانية إلى مواصلة تعليمهم أسهمت إلى حد كبير في جعلهم علماء أفذاذ في الغالب ، فقد كان علمهم نوعياً في تعمقهم ، نوعياً في جديتهم ، نوعياً في شموليتهم له .

(٧) ارتفاع يد الحكام والأمراء عن التدخل السلبي في شؤون التعليم :

ما ظهر في التاريخ المعاصر من تحول التعليم وأنظمته إلى عملية سياسية بالدرجة الأولى ، يقوم الحاكم - سواء كان فرداً أو حزباً أو سلطة مستبدة أو غير مستبدة - بصياغة كل أنظمته وأهدافه نحو تخريج كوادر

تحقق مطالبه وتوفر له القاعدة البشرية التي تقوم عليها سلطته ، هذا المفهوم للمشوء كان منعماً في أحقاب التاريخ المتقدمة في كل أقطار العالم الإسلامي عموماً ، اللهم إلا في حالات محددة لا نستطيع أن نجعلها قاعدة تذكر كتلك التي سعى من ورائها السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله - إلى اجتثاث جذور الفكر الإسماعيلي ومذهبه من مصر من خلال التشجيع على إنشاء المدارس ونفع العلماء إلى التعليم السني على المذهب الشافعي ، وهذا النموذج - وإن وجد غيره - لا يعد إلا الاستثناء الخارج عن القاعدة التي كان مفادها أن العلماء هم للجهة الوحيدة المخولة بتحديد ملامح النظام التعليمي ، وهم الذين يسمون مناهجه ومقرراته ، وذلك لم يكن مبنياً على تأمر وإتفاق مبهم منهم ، بل كان يسري مسرى الاتفاق الثقلي والتوارد للأفكار والخواطر والقاعات ، القائم على الإحساس بالحاجة ومصادر الإشباع منها ، وغيرها من صور التواصي وتتلذذ بعضهم على يد بعض .

وقد وردت الإشارة في عنوان هذه الفقرة إلى التدخل السلبي من قبل للحكام حتى يخرج عنها كل الجهود الإيجابية التي بذلها كثير من الحكام المسلمين عموماً بما فيهم حكام اليمن بهدف إعانة العلماء على أداء مهمتهم التعليمية ، كبناء المدارس والأربطة والخانقاهات ، ورصد الرواتب ووقف الضياع والأراضي الزراعية عليها ، وذلك لم يكن مشروطاً بتوجيه دفة العلم وأهدافه نحو وجهة معينة ، وعدم وجود أدنى إشارة إلى عكس ذلك في كل المصادر المتوفرة دليل انتقاء وجودها .

(٨) مجيب التأثير المذهبي في الدرجة الثانية بقائمة القوى المؤثرة على النظام التعليمي بعد تأثير العلماء :

عدم ذكر هذه السمة والملح المهم ضمن السمات العامة للنظمة التعليمية عصرئذ يُفسَّرُ بالتغافل المقصود عنه أو الجهل بمدى تأثيره ، فقد كانت للخلفية المذهبية حاضرة في ذهن الطالب وهو يعزم على الخروج مرتحلاً في طلب العلم ، وقد رأينا ذلك جلياً في الفصل الأول ، فكان طلاب العلم من أبناء الزيدية يُتممون وجوههم نحو العراق وفارس حيث يوجد أعلام مذهبهم ، وكان العلماء يكترون من تأليف الشروح للكتب المهمة التي تعمل على تدعيم أسس الفقه والفكر الذي يقوم عليه مذهبهم ، مثال ذلك أن علماء

الزبدية قد أكثروا جداً من شرح (كتاب الأزهار) في الفقه للإمام المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى (ت ٨٤٠ هـ / ٤٣٦ م) ، حتى أن شروحه قد فاقت العشرين شرحاً واستدراكاً ، وهو الأمر الذي قام به علماء السنة من الشافعية مع كتب الإمام أبي إسحاق الشيرازي ، وخاصة كتابه (التنبية) كما سنرى في الفصول القادمة ، إضافة إلى ذلك فإن الخلفية للمذهبية كانت سبباً لدراسة مقررات إضافية تدرس هنا ولا تدرس هناك ، أو استبدال كتاب - في الموضوع نفسه - بآخر ، ومن أمثلة هذا التأثير أيضاً انصباب اهتمام علماء الصوفية بدراسة كتب الرقائق والمقررات التي تركز على الرياسة الروحية ، وتستهنف تركية النفس والمجاهدات البدنية ، وتدعو إلى ممارسة حياة الزهد والنقش ، وتكرس تقديم مقامات أعلامهم في صورة - كانت أحياناً - تتجه إلى الاستهانة بالعقل واتخاذ أداة للمعرفة^(١) .

وهنا يجب الإشارة إلى أمر مهم آخر هو أنه لم يكن ثمة سُلّم تعليمي واضح في الحياة العلمية القائمة عصرئذ ، وأن هذا الشأن كان شائعاً في مناطق وأقطار العالم الإسلامي قاطبة ، فلم تُشر المصادر المتوفرة إلى شيء من ذلك بقليل ، وإن كان هناك ما يشبه الاتفاق الضمني لدى أفراد المجتمع عموماً والعلماء على وجه الخصوص على أن عمر الشخص وقدراته العقلية ومقدار ما حققه من العلم هو المحدد الرئيس لأمرين مهمين : أولهما : طبيعة ما يجب عليه تعلمه ، وثانيهما : المكان والمرفق التعليمي الذي يجب عليه التلقي فيه .

لم يكن من المنطقي القول بأن ما تحتاج إليه الناشئة من الصبيان هو عين ما يحتاجه من فوقهم عمراً وعلماً ، وهو ما يبنى عليه اختلاف مكان تلقي الصبيان عن مكان تلقي العلم لأولئك الذين يستقونهم عمراً وتحصيلاً ، وذلك يقود إلى اختلاف المقررات الدراسية وطرق التعليم ووسائله ، في تسلسل يوصلنا إلى القول بأن هناك تمايز ووضوح بين مرحلتين متتابعين من مراحل التعليم ، إحداهما تقود إلى الأخرى، وكلا المرحلتين لهما - ضمناً لا تصريحاً - أهدافهما وغاياتهما .

(١) د. توفيق لطويل ، من تراثنا العربي الإسلامي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة رقم ٨٧ ، مارس ١٩٨٥ م ، ص ١٦٠ - ١٦٣ .

(١) المرحلة الأولى (تعليم الصبيان)

من الضروري هنا استحضار ما تحدثنا عنه في الفصل السابق عن أماكن التعليم، وبالتحديد المعلومات (المكاتب) بأنواعها المختلفة ، فكل تلك المعلومات لم تنشأ إلا لتلبية حاجة المجتمع إلى تعليم الأطفال فيه ، ونحن هنا سنبدل ما لمكن من الجهد لتوضيح ما كان يدور في تلك المعلومات من أنشطة تعليمية وتربوية لنكمل ما تناولناه من الحديث عن وجودها كونها واحدة من أماكن التعليم .

ومن خلال ما تفصح عنه المصادر حول هذه المرحلة نستنتج أنها لم تحظ باهتمام المؤرخين وكتّاب الطبقات ، فقد قلت الإشارة كثيراً إلى تفصيل ما دار فيها ، وكل ما نظرت تلك المصادر إلى ذكره هو من قبيل الإشارة العرضية في ثلثها تراجع العلماء البارزين والحكام وأبناء السلاطين والأئمة .

❖ أهداف المرحلة الأولى :

يأتي في مقدمة أهداف هذه المرحلة إكساب الصبيان أبعاديات العلوم اللازمة للعبادة من المناسك التعبدية اليومية كالقرآن الكريم ووكيفية أداء تلك العبادات وأحكامها الأساسية ، وذلك هو من صميم مهام الآباء في المجتمع ، فقد حرص الإسلام كثيراً على تنشئة الأبناء تنشئة سليمة ، وجعل ذلك مما يؤخذ عليه الآباء ويحاسنون عليه كصالحهم على مسؤولياتهم الأخرى .

وردت في السنة النبوية المطهرة كثير من النصوص الصحيحة التي تبين مدى خطورة تعليم الأبناء وجسامة المسؤولية الملقاة على عاتق غير القاطنين بها ، منها الحديث الصحيح الذي أورده الإمام البخاري^(١) عن النبي ﷺ للقاتل : " كلتم راعٍ وكلتم مسؤول عن رعيته " وجاء للتوجيه النبوي الضمني أكثر وضوحاً في الحديث الصحيح الآخر عند قوله ﷺ : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه

(١) صحيح البخاري ، ج ٢ ص ٨٤٨ ، رقم (٢٢٢٨) ، باب (العبد راع في مال سيده .. ، وفي ج ٢ ص ٩٠٢ رقم (٢٤١٩) ورقم (٢٤١٦) ، وهو عند مسلم ، صحيح مسلم ، ج ٣ ص ٤٥٩ ، رقم (١٨٢٩) ، باب (فضيلة الإمام العادل وعوية الجائر ...) .

يهوديته أو ينصرته أو يمجسه ...^(١) ، ولعل من أهم وسائل حفاظ الأبناء على سلامة فطرة أبناءهم تعليمهم مبادئ الإسلام وتحفيظ القرآن الكريم وأحكام العبادات الأساسية .

ومن الواضح أن المعلم في مرحلة التعليم الأولى كان نظره معلقاً بهدفين أساسيين ويبدل قصارى جهده لكي يبلغهما ويحققهما في من يقوم بتعليمهم من الصبية ، وهما :

■ إعداد للصبي لكي يكون قادراً على مواجهة مهامه التعبدية والحياتية فور خروجه من مرحلة الدراسة في المعلمة .

■ إكسابه المهارات اللازمة التي تؤهله إلى لقتحام المرحلة للتأدية بكل جدارة وجاهرية، معداً لياه لكي يكون في مستقبله في عداد العلماء العاملين والفاعلين في المجتمع .

ونستطيع أن نقول أن الغالبية العظمى من المعلمين في هذه المرحلة قد نجحوا إلى حد كبير في تأهيل تلاميذهم ، وهو ما انعكس كتب للتاريخ من تناولها لعدد كبير من العلماء الأفاضل الذين كانوا في الأساس من مخرجات هذه المرحلة الأساسية .

❖ أهم المقررات الدراسية في المرحلة الأولى :

مما لا شك فيه أن القرآن الكريم وما ارتبطت به من العلوم اللصيقة به كالتجويد هي أهم المقررات في هذه المرحلة ، وليست الحاجة قائمة إلى البحث عن ما يدعم هذا القول في المصادر ، فمما لا شك فيه أن العلوم طيلة القرون الإسلامية الوسطى كانت تدور حول العلوم الشرعية في الأساس في المراحل الأولى ، فمن غير المعقول أن يغيب القرآن الكريم عن ذلك وهم منها بمنزلة القلب للجسد .

وقد ورنيت للنصوص القرآنية والنبوية الحثة على تعلم القرآن الكريم وتعليمه ، ولأن ذلك من أهم القربات إلى الله تعالى ، فهو للقاتل جل وعلا : وَأَتْرَكْنَا آلَمَكَ

(١) مسلم ، صحيح مسلم ، ج ٤ ص ٢٠٤٧ ، رقم (٢٦٥٨) ، باب (معنى كل مولود يولد على الفطرة) ، الإمام مالك ، الموطأ ، تحقيق بشر عواد محروب وآخر ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٣ م ، ج ١ ص ٥٧٥ ، كتاب (الجنائز) .

الذِّكْرَ يُثَبِّتُ لِلنَّاسِ مَا كُرِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١﴾ ، فقام النبي ﷺ به خير قيام ، وكان القرآن الكريم شغله الشاغل ، يعلمه ويدرسه ويبيته لأصحابه آية آية ، وسورة سورة ، حتى إذا ما تعلموها وحفظوها وفهموها ما فيها طبقوا تعاليمها ، ثم انتقلوا إلى غيرها مع قيامهم بتعليم ذلك لمن خلفهم من أولادهم ومن يعولونهم^(١) .

كما أن فرضية التعليم في الإسلام والإلزامية المتصلة في قول النبي ﷺ : " طلب العلم فريضة على كل مسلم "^(٢) قد جعلت القرآن في مقدمة ما فرض على المسلم تعلمه ، وهو مما يفهم بداهة ، وهذا الفهم هو ما أدركه الصحابة عليهم رضوانه الله تعالى وتابعيهم ، وتناقلته الأجيال المسلمة عنهم جيلاً بعد جيل ، وعضدهم في ذلك تصريح النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم بأن بعض طرق بلوغ الخيرية في الدنيا والآخرة مربوطة بتعليم القرآن الكريم ، فهو القائل : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه "^(٣) ، فكان اهتمام السلف بالقرآن الكريم واضحاً من خلال ما توردته المصادر عن أنهم كانوا يكثرُونَ من تلاوته وتكرار آياته فكان بعضهم يختم تلاوته للمصحف كل شهر مرة ، وبعضهم في كل عشرة أيام وآخرون في كل ثلاثة أيام^(٤) ، ويكفي ما في ذلك من دلالة على تعلقهم به ، وذلك ما جعلهم يكرسون للكثير من وقتهم لتعليمه للناشئة من أبنائهم .

وقد ذهب بعض العلماء إلى وجوب تعليم القرآن الكريم للأبناء ما دام الأب ميسوراً ، وما لم يكن كذلك فإن للوجوب يقع على الأقارب الأدنى فمن يليه حتى تنتهي

(١) سورة النحل .

(٢) عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ١٤٤ .

(٣) ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، ج ١ ص ٨١ ، رقم (٢٢٤) ، باب (فصل للعلماء والحث على طلب العلم) .

(٤) البحاري ، صحيح البخاري ، ج ٤ ص ١٩١٩ ، رقم (٤٧٣٩) ، باب (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) ، ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، ج ١ ص ٧٧ ، رقم (٢١١) ، باب (فصل من تعلم القرآن وعلمه) ، الترمذي ، سنن الترمذي ، ص ٦٥٣ ، رقم (٢٩٠٧) ، باب (ما جاء في تعليم القرآن) .

(٥) النووي ، التبيين في أدب حملة القرآن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٣ م ، ص ٣٠ ، ٣١ .

بالحاكم القائم بأمر الناس^(١) ، وهو ما جعل تعلم القرآن الكريم وتحفيظه في اليمن كما هو في سائر أقطار العالم الإسلامي إلزامياً؛ لأن معرفة الصبي للقرآن يعني معرفته بالدين الإسلامي الذي ينير له الطريق في حياته ، فهو يبين له الحلال والحرام ، ووجباته نحو ربه ورسوله والمسلمين والمجتمع الذي يعيش فيه ، فإذا تمسك به إلى جانب شيء من سنة المصطفى ﷺ عاش حياة مطمئنة بعيدة عن الزيف^(٢) ، وتمثل بالأثر النبوي الخالد : " تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة رسوله " ^(٣) .

مما زاد من أهمية تعلم القرآن الكريم وحفظه أنه كان أساساً للانتقال إلى المرحلة التالية من التعليم ، وقد رأينا في أئمة التابعين من اشترط حفظه لكي يقبل بتلقي التلميز على يديه أمثال الإمام الأعشى الذي جاءه إليه أحدهم يقول له : حدثني ، فقال له : أتحفظ القرآن ؟؟ فلما كانت الإجابة سلبية قال له : اذهب فاحفظ القرآن ثم هلم أحثثك^(٤) ، ومنع آخر ابنه من الاشتغال بالحديث وتعلمه إلا بعد قراءة القرآن^(٥) ، كما أن في تاريخ الأهدل^(٦) أن الفقيه أبا محمد عبدالله بن أبي بكر بن عمر الخطيب لما شب في قرينة وقرأ القرآن خرج في طلب العلم ، فكان حفظ القرآن ودراسته سابقة لكل مهمة تحصيل علمي أخرى .

(١) القابسي ، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين ص ١٠٠ موسوعة الفكر التربوي العربي الإسلامي ، تحليل وتحقيق د. عبدالأمير شمس الدين ، شركة المطبوعات للكتب ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠م ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ١٤٦ .

(٢) د. رضوان أحمد الويث ، الحياة العلمية في بلاد الشام ، ص ١٣٢ .

(٣) الموطأ ، ج ٢ ص ٨٩٩ ، رقم (٣) .

(٤) الزمهريري ، المعتمد الفاضل بين الروي والواعي ، تحقيق د. محمد عجاج الخطيب ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٤م ، ص ٢٠٣ .

(٥) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق د. عبدالفتاح الحلو ، ود. محمود الطناحي ، مطبعة هجر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٩٢م ، ج ٣ ص ٣٢٥ ، عبدالرحمن أحمد المصنف ، الحياة العلمية في الحجاز في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة سماء ، ٢٠٠٣م ، ص ٦٣ .

(٦) تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ص ٣٥٦ ، لشرجي ، طبقات الفواص ، ص ١٨٠ .

وقد كانت هذه الأعراف التعليمية هي نفسها السائدة في اليمن في مختلف حقبتها في العصر الإسلامي بما فيه مدة دراستها هذه ، فلم يكن يتصدر الفرد للتلقي في العلوم الأخرى إلا بعد إكماله حفظ القرآن وتعلمه ، من تلك أن الإمام الحافظ أبو عبد الله عبد اللطيف بن أبي بكر بن أحمد الشرجي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) لم يرحل من قريته إلى زبيد للانطلاق في فضاء العلوم والتلقي على كبار علمائها إلا بعد أن حفظ القرآن^(١)، ولم يتعلم الإمام المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٧م) شيئاً من العلوم إلا بعد أن حفظ القرآن الكريم وجوده^(٢) ، وكان القرآن الكريم هو أول ما قام الإمام المتوكل المطهر بن محمد بن سليمان الحمزي (ت ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م) بتعليمه لابن السجان الذي عينه الإمام المنصور بالله الناصر بن محمد (ت ٨٦٧هـ / ١٤٦٢م) عليه^(٣) .

وقد كان اهتمام اليمنيين بالقرآن الكريم واضحاً ، تعكسه إشارات المصادر التي أوردناها في الفصل السابق بأن المدارس كلها ضمت ضمن قوام هيئة التدريس بها معلماً للقرآن الكريم ، وأيتماً يتعلمون القرآن على يديه ، كما أنشأ الإمام الهادي عرلدين بن الحسن (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٥م) في هجرة فللة مدرستين : إحداهما لتعليم القرآن الكريم وعلومه^(٤) ، وهي دلالة صريحة بمدى اهتمام اليمنيين بتعليم القرآن الكريم كأحد المقررات الأساسية لتعليم الناشئة .

بأني تعلم الفرائض التعبدية في المرتبة للثانية من المقررات التعليمية في المرحلة التعليم الأولى في اليمن ، وقد أشرنا إلى أن من أهمية تعلم القرآن الكريم أنه أساس المشاعر التعبدية اليومية الأساسية المتمثلة في الصلاة والتلاوة ، وكان الاهتمام بتعليم هذه الفرائض محط العناية لدى اليمنيين ، رئيسهم ومرووسهم ، تأتي الإشارة في قصيدة للإمام الهادي بن إبراهيم الوزير (ت ٨٢٢هـ / ١٤١٩م) التي خاطب بها الإمام الزيدي المنصور علي بن الناصر صلاح الدين (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) وهو

(١) السخوي ، الضوء قلام ، ج ٤ ص ٣٢٥ .

(٢) المرتضى ، كنز الحكماء وروضة العلماء ، ق ١٥٨ ، د. محمد محمد الكمال ، الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى وآثره في الفكر الإسلامي ، ص ٧٧ .

(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ص ٥٧٦ .

(٤) الأكوخ ، هجر العلم ، ج ٣ ص ١٦٢١ ، الشرفي ، اللآلئ المضيئة ، ص ٥٠٩ .

ما زال صبيّاً بحثه فيها على تعلم ما لمصطلح الناس على تعلمه في هذه المرحلة ، فنكر حفظ القرآن الكريم واستظهاره غيباً ، وكانت الفرائض^(١) في قائمة ما أوصاه بتحري تعلمها قبل مرحلة البلوغ ، تقول الأبيات :

يا ابن الإمام ومن أعز بسيفه
دين النبي وشأذه وحماه
كن حينما يهوى أبوك فإنه
يهوئك أن تهوى الذي يهواه
وتغيب القرآن غلباً ثلباً
ولقد فعلت وذاك ما تهواه
وخذ الفرائض أولاً بكمالها
قبل البلوغ وقبل طيب جناه^(٢)

ومن قبله أوصى الأمير نصير الدين أبي الطامى جباش بن نجاح (ت ٤٩٨هـ / ١١٠٤م) - حاكم زبيد - مؤدب ولده بأن يهتم بتعليمه الصلوات وما يتعلق بها ، إذ يقول في رسالة إليه عندما سلمه إياه : " ... ورؤضه بالصلوات في أوقاتها ، ليتمرن على أداء مفترضاتها ، وعلمه إسباع الوضوء من ابتدائها إلى انتهائها ... " ^(٣) .

لما المقرر الثالث في المرحلة التعليم الأولى فهو الخط والكتابة ، ولا يحفى أهمية تعلم الكتابة في الحياة لدى المجتمعات الإسلامية ، فهي وإن لم تكن مطلوبة لذاتها فهي أساس وجسر مهم لنقل العلوم الأخرى ، فنحن نعرف أن حفظ القرآن للنشئة لا يقتضي معرفتهم التامة للقراءة ، فالحفظ والاسترجاع هما القدرتان العقليتان اللتان يحتاج إليهما الصبي ، وبالتالي يجب أن يكون للكتابة والخط نصيب في المساحة المنهجية في هذه المرحلة^(٤) ، ونعلم الخط يعني أنه قلم في الخطوة التالية لتعلم الكتابة نفسها ، فهما

(١) أرجح هنا أن المفصود بالفرائض هو الفروض التعبدية وليس الفرائض المصطلح الشائع في تصنيف العلوم والذي كان يشار به إلى علم الموارث .

(٢) زبارة ، أمة اليمن ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٣) الجندي ، السلوك ، ج ٢ ص ٥٠٦ ، ٥٠٧ .

(٤) د. محمد عبده السروري ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في عهد الدويلات المستقلة ، ص ٥٤٥ .

مكملان لبعضهما ، وإن كنا لم نتهدِ إلى إشارة صريحة بذلك في مدة دراستنا إلا أننا يمكننا الاستضاءة بإشارة مابقة في تلك الرسالة التربوية التي أرسلها الأمير نصير الدين أبي الطلمي جيش بن نجاح السابق ذكره إلى مؤدب ولده حين سلمه إليه يقول فيها : " ... وإذا أراد الكتابة فشق قلمه ، وصور له وضع الخط بمثال التصوير في مواضعه ، وعلمه للفرق بين اللوات والفاقات ، وعلمه ثلاث المختلفات ؛ ليسلم له سلوك الصنعة من الآفات ، ولا تقبل من دواته إلا الإصلاح ، ومن أقلامه غير العقْد الصحاح ... ^(١) ، ونحن نستطيع أن نقول إن ما يكلف به المؤدب هو مطابق إلى حد كبير ما يضطلع به معلم الصبيان في المعلمة ، وإن كان هناك من فرق فهو في ما يحتاجه أبناء الأمراء والسلطين من أساسيات إضافية لازمة لما هو متوقع لهم من تحمل مهام الحكم والإدارة .

وتأتي الإشارة الثانية^(٢) إلى كون تعليم الخط والكتابة أحد مقررات مرحلة التعليم الأولى في اليمن في مدة الدراسة لدى أحد المؤرخين المعاصرين هو الإمام إسماعيل المقرئ^(٣) (٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) في أبيات شعرية يمدح فيها ابن أحد السلطين ويصف نشاط الصبي في تلقي مبادئ الكتابة والخط وحفظ القرآن الكريم ، تعرض فيها إلى ذكر بعض ما هو متوقع من الصبي إنجازاه في المعلمة ، ومنها تهجئة الحروف بالكتابة على اللوح ، يقول فيها هذا المؤرخ للشاعر :

فِيهَذَا ابْنُ إِسْمَاعِيلَ أَنْ مُحَمَّدًا	تَرْبِعُ فِي كُتَابِهِ ضَاحِكًا مَنًا
إِذَا قَالَ : بِسْمِ اللَّهِ ، قَالَتْ لَهُ الْعَلَا	عَلَيْكَ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَأَسْمَاءُ الْحَمْنَى
وَلَمَّا ابْتَدَى يَهْجُو الْحُرُوفَ تَطَاوَلَتْ	رَقَابُ الْمَعَالِي بِحَوْهٍ وَصَفَتْ أَدْنَى
تَمُوذُهُ بِأَشْرِهِ وَهُوَ بِخَطِّهَا	وَيَحْفَظُهَا لَفْظًا وَيَفْهَمُهَا مَعْنَى
إِذَا خَطَّهَا فِي اللُّوحِ لَاحَتْ مَخَائِلُ	بِهَا عَنْهُ يَشِي عَنْ قَرِيبٍ بِمَا يُثْنَى

(١) الجَدِّي ، الملوك ، ج ٢ ص ٥٠٧ .

(٢) قدمت الإشارة السابقة عليها مع قدمها عن مدة الدراسة لصريحة الإشارة فيها وتفصيل ما لولده الأب من مؤدب ولده في هذا الجانب .

(٣) ديوان المقرئ ، ص ٢٣٣ .

ولا ندري هل كان الوصف في اليمن شبيهاً بما وصفه ابن جبير^(١) - في رحلته الشهيرة - لما رآه فيما ساء بالبلاد المشرقية من أن معلم الخط رجل متخصص لا علاقة له بتعليم شيء آخر غيره، فهو يقول : " وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين ، ويعلمون الخط في الأشعار وغيرها تنزيهاً لكتاب الله تعالى عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو ، وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حده والمكتب على حده ، فيفصل من التلقين إلى التكتيب " وهذا القول شبيه جداً بما قاله ابن بطوطة^(٢) أيضاً عما رآه في بلاد الشام ، فهو يقول : " معلم الخط غير معلم القرآن ، يعلمهم بكتب الأشعار وسواها ، ولا يكتبون القرآن على اللواح تنزيهاً له ، فينصرف للصبي من التعليم إلى التكتيب ، وبذلك جاد خطه ؛ لأن معلم الخط لا يعلم غيره " ، وقريباً من ذلك ذكر الإمام ابن خلدون^(٣) .

وتأتي علوم اللغة العربية الأساسية - كالنحو والصرف والشعر وما يرتبط به من بيان ومعاني - من أهم المقررات الرئيسية في هذه المرحلة التعليمية ، لأنها تمثل قاعدة الفهم الواسع لكل ما يمكن للصبي بعد ذلك قراءته ومطالعته في الكتب ، بل إن إتقانها تعد من العوامل المساعدة لفهم القرآن الكريم نفسه واستيعابه ، ومن أمثلة ذلك ما ورد في سيرة الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) فإنه بدأ - فور انتهائه من حفظ القرآن الكريم - في تعلم اللغة العربية على يد أخيه الهادي وأخته الدهماء (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) ، وقضى سبع سنوات في صباه في دراسة النحو والصرف والمعاني والبيان حتى فاق لقرائه واشتهر بينهم^(٤) ، والإشارة إلى الأقران هنا دليل أن تميز الإمام المهدي لم يقده إلى دراسة ما لا يدرسه غيره في هذه المرحلة .

(١) رحلة ابن جبير ، تحقيق د. حسين نصار ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٩٢م ، ص ٣٤٢ .

(٢) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، دار الشروق العربي ، حلب ، (د ، ت) ، ج ١ ص ٧١ .

(٣) المقامة ، دار الجيل ، بيروت ، (د ، ت) ، ص ٥٩٥ .

(٤) المرتضى ، كنز الحكماء وروضة العلماء ، ق ٥٨ ، د. محمد محمد الكمال ، الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى وأثره في الفكر الإسلامي ، ص ٧٢ .

❖ الطرق والوسائل المستخدمة في المرحلة الأولى للتعليم :

التعامل مع تلاميذ هذه المرحلة التعليمية يستلزم معاملة خاصة لا تشبه تلك التي يستخدمها المعلمون مع الطلاب البالغين ، فالمعلم في هذه المرحلة معني بتحبيب المعلمة ومجمل الأنشطة التعليمية إلى التلميذ ، فهو - إن أساء التصرف بالشدة مثلاً - قد يجعل الصبي ينفر نفوراً تاماً من التعليم مع احتمال كونه مؤهلاً من ناحية القدرات العقلية والإمكانات المادية لبلوغ مكانة العلماء الأكفاد ، فيكون للمعلم بذلك قد حرم الأمة منه ومن جهوده ، كما أنه بصبره وتشجيعه للصبي يمكنه أن يفجر منه طاقات كامنة لم يشعر بها أبواه ، فيستحث منه كل ملكة ، ويبعث فيه كل موهبة ، من هنا قال السابقون من نوي للخبرة والاطلاع على أحوال المعلمين والمتعلمين أنه " ليس كل من تَعَلَّمَ يُحْسِنُ أَلْ يَعْلَمُ " (١) وهي عبارة تملك رصيذاً عالياً من الصنق والدقة في وصف العلماء مع العملية التعليمية .

ومن المؤسف له أننا لم نجد في المصادر المتوافرة لهذه الحقبة التاريخية - القرنين التاسع والعاشر الهجريين - من الإشارات والمعلومات ما يكفي لرسم صورة الطرق التدريسية والوسائل المستخدمة من قبل المعلمين في اليمن ، لكننا في ظلال معرفتنا بأن الملامح الإجمالية للعملية التعليمية في العالم الإسلامي عموماً كانت متشابهة إلى حد كبير من ناحية المناهج والأساليب والطرق التدريسية والوسائل المستخدمة ، بل وتشابها إلى درجة التطبيق في القطر الواحد من حقبة تاريخية إلى أخرى ، من خلال استحضارنا لهذا الفهم نستطيع أن نستعين ببعض النصوص التي وردت في هذا الشأن في مصادر تناولت مراحل تاريخية سابقة للمدة الزمنية التي نتناولها .

لدينا هنا نصان ثربويان مهمان يعودان إلى القرن الخامس الهجري لاثنتين من رجال اليمن الكبار ، أولهما للأمير نصير الدين أبي الطامي جيش بن نجاح (ت ٤٩٨هـ / ١١٠٤م) - حاكم زبيد - وهو النص ذاته الذي اقتبسنا أجزاء منه في الصفحات السابقة ، والنص كتف بمناسبة تسليمه لابنه إلى المؤيد الذي اختير له ، والنص بكامله هو كالآتي : " الأمانة دينة ، تحزَمُ فيها للخيانة ، والمرء مرتهن بعمله بمقادير ، فإن راعى فمزعج ، وإن أضاع فمجزى ، وقد رأيت لتفادلك ... فكن -

(١) اللُّجْجِي ، طبقات مُسَلِّم اللُّجْجِي ، ج ١ ص ٢٥١ .

لبيك الله - عند ظني بك ، إني أتيتك بضعةً مني ... فذهبتُ إلى نوط الأمانة بك ، والحازم يوصي بالمال من قبله ، ولنا أوصيك بمن اكتسبتُ المال له ، فاستصغيتُك ، فاصف ذهك بوصايتي ، واستكفيتك فيما أثرتك به عن كفايتي ، فحذه بالتعبس والابتنام ، وعلمه وقار القعود وعدل القيام ، ولا تُسئِمْهُ بطول المكث بين يديك ، ولا ترخي له في الإبطاء إن استأذك ، وروضه بالصلوات في أوقاتها ؛ ليتمرن على أداء مقترضاتها ، وعلمه إسباغ الوضوء من لبثائها إلى انتهائها ، وإذا أراد الكتابة فسوّ قلمه ، وصور له وضع للخط بمثال التصوير في مواضعه ، وعلمه الفرق بين الواوات والقافات ، وعلمه ثلاث المختلفات ؛ ليسلم له سلوك الصنعة من الآفات ، ولا تقبل من بولاه إلا الإصلاح ، ومن أقلامه غير العبد الصالح ، وعلمه كتاب الله ، فإنه الحبل المتين ، ولا ترخص له في نسيانه ، فإنه للخسران المبين ، وعلمه قراءة أبي عمرو ، فإنها أشهر للقراءات في البدو والحضر ، واختر له مذهب الشافعي الشيخ محمد بن إدريس - رحمة الله عليه - فإذا بلغني فيه المأمول جريتك الحسنى بمشيئة الله ، والله يبلغنا وإياك ، ويسعد عقابنا وعقبك ، والسلام الجزيل على المؤتب الجليل ورحمة الله وبركاته ^(١) ، وأما النص الثاني فلأنه ورد في مخطوطة قديمة فقد طُمسَتْ بعض عباراته ، وبعضها كان من المتعذر قراءتها ، وهو في أصله وصية من الشيخ علي بن حرب أحد أشهر رجال الفرقة الزيدية المطرُفِيَّة - التي ذكرناها في الفصل لأول - وجهها إلى معلم أرسل إليه ابن أخته أحمد بن القاسم الربيعي الذي أصبح بعد ذلك ممن لهم ذكر في الوسط العلمي في اليمن في القرن الخامس الهجري ، ومما تمكنا من قراءته من الوصية ما يلي : " إني قد أتيتك بغلام عاقل ، فلا ترده إلي مجنوناً ، إياك أن تفرغه بحيث يستشعر الخوف منك فيُشرِّدُهُ خوفاً ، فإنك متى فعلت ذلك لم آمن أن تعلمه ، أو تَعُوده فلا يأمن أن يكون ، اغتتم أوقات نشاطه وإقباله إليك ، ولا تقع بحالات ضيقه وفقره ، ولا تعلق عليه عند ملامه ^(٢) .

للتصين السابقين أهمية بالغة تكمن فيما تضمناه من إشارة إلى جوانب من متعلقات العملية التعليمية ، فأنا أرى أنهما من الوثائق التربوية التاريخية اليمنية التي تسترعي الانتباه وتستدعي التوقف عندهما ، ولا سيما الأول منهما فقد تضمن إشارة

(١) الجَدِّي ، سلوك ، ج ٢ ص ٥٠٦ ، ٥٠٧ .

(٢) الفُجْجِي ، طبقات مُسَمِّم الفُجْجِي ، ج ١ ص ٩٥ .

واضحة إلى بعض جوانب المحتوى الدراسي والمقررات التي كانت معتمدة آنذاك في مرحلة التعليم الأولى ، فلا أظن كاتبه فيه إلا مقررأ لما كان متعارفاً عليه لا مقترحاً لجديد ، وهو ما دفعنا للاستشهاد به في الصفحات السابقة ، كما أن في النصين كليهما دلالة عظيمة على مدى وعي صفوة المجتمع بأهمية أن يدرك المعلم في المرحلة الأولى من التعليم طبائع تلاميذه من الصبيان ، وما يجب عليه مراعاته سواء من ناحية أساليب التعامل الثنائي أو طرق التدريس وأساليبه وأدواته .

نخلص مما سبق إلى أن المعلمين في المرحلة الأولى من التعليم - سواء كانوا معلمين في معلمات أو مؤدبين خصوصيين - كانوا منتهجين أساليب تقتضي اتصافهم بالصبر على التعليم وسعة الصدر وقوة التحمل ، فهم ملزمين بجانبين مهمين :

□ الأول من ناحية أساليب التعامل مع الصبيان :

الموازنة بين التحسيس والالتزام ، وتحسس مواطن فاعلية الأول وتجاغة الثاني . وعدم حمل للصبي على الشعور بالمثل سواء بطول المكوث مستمعاً دون تحفيز أو برتابة أسلوب التعليم والطريقة التدريسية ، وتخير أوقات نشاطه وإقباله واستعداده الذهني للتلقي ، وتجنب تدريسه في ساعات فتوره وتضايقه ، وتجنب الخلطة في ملامته ، إضافة إلى عدم التهاون معه إذا قصر فيما كلف به ، وعدم التهاون لا يقتضي الشدة التي تصل به إلى حد الفرع من المعلم بما يفرس في نفسه الخوف منه ، فمهابة الصبي للمعلم لا تقتأى بتحويفه الذي قد يؤدي إلى شروده من التعليم وتسريه من المعلمة .

□ الثاني من ناحية طرق التدريس :

المعلم مطالب بأن يبتعد عن استخدام للرموز اللفظية المجردة ، والقيام بكتابة ما يدعو الصبيان إلى تعلمه وحفظه لكي يستحضروه ويسهل عليهم تحيله وتصوره أثناء المذاكرة خارج المعلمة ، وخاصة فيما يستدعي ذلك من العلوم كتدريس الخط والكتابة ، بل إنه مطالب بتفقد أدوات الطالب كالقلم أو ما يستخدمه في ذلك ، وعليه تسوية ما يحتاج إلى تسوية من تلك الأدوات ، كما أن عليه التركيز على إيضاح المتشابهات والتركيز على الفروق بينها بما يساعدهم على التمييز ، كالفرق بين " الروايات والقفلات " على حد تعبير النص الأول .

وعلى العموم فقد كان المعلمون في اليمن - كغيرها - يبذلون كثيراً من الجهود لتحقيق أقصى درجات التحصيل للصبيان الذي يقومون بتعليمهم ، وقد قضى كثير من المعلمين عقوداً طويلة في التدريس ، ووجنت الإشارات المتعددة في المصادر إلى أولئك الذين ماتوا وهم مزالوا ممارسين لمهنة التعليم^(١) ، وتحملوا مشاق تعليم الصبية، وهذا يعزز قناعتنا بأن استبعادهم الأجر المرتبط بهذا العمل كان يفوق كثيراً ذلك الحافز المادي الذي كان يمنح لهم أحياناً ، فقد وصف بعضهم بأنه : " كان صبوراً على تعليم الأحداث والعوام والمبتدئين ... " (٢) كما وصف آخر بأنه : " كان لطيف التآني للمتعلم ، حسن الخلق ... وإذا قد لا يستحل أن يُحنَّثَ أحداً ولا يقوم لحاجة ... يتمتع المتعلم محنة بعد أخرى حتى يتقن لحفظه لما يتعلم ثقةً صحيحةً " (٣) ، ومعلم آخر " كان يحسن التأديب أو التأديب والترتيب والتبشير في تعليم القرآن وتخريج الصبيان ، ودخل عليه قوم من بلد آخر فأعجبهم طريقته وسرته مبرته ؛ فسألوه أن يصحبهم إلى مساكنهم ويؤدب لهم أولادهم ، فأبى عليهم ، واعتذر إليهم في ذلك " (٤) ، فالمعلمين الذين يتحلون بهذه الصفات من الأمانة والحرص لا شك في بلوغهم ما يرمون إليه من النجاح في تحقيق صبيانهم أقصى درجات التحصيل العلمي^(٥) .

وإذا ركرنا الحديث عن طرق التدريس المستخدمة آنذاك في هذه المرحلة فإننا سنجد أن طريقة التلقين هي لم الطرق عموماً ، وهو ما كان شائعاً في جميع أقطار العالم الإسلامي عموماً طيلة فترات تاريخية طويلة ، خاصة أن الصبي في هذه المرحلة ليس له من القدرة على الفهم ما تمكنه من هضم هذه العلوم التي تعطى له كلها ، فإننا سنكون مبالغين عندما نتخيل أن الصبيان كانوا يدرسون علوم القرآن الكريم واللغة والفقه وغيرها من العلوم عن فهم ودراسة ، وهو ما صرح به ابن جبير واصفاً التعليم في المشرق الإسلامي عموماً ، فهو يقول : " وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد

(١) البرهبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) بحري بن الحسين ، طبقات الزيدية الضفري ، ص ١٠٣ .

(٣) للأخشي ، طبقات مُسْتَمِّمٍ للأخشي ، ج ٤ ص ٣١٩ ، ٣٢٠ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢١٥ .

(٥) عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثامن والسماس الهجريين ، ص

المشرقية كلها إنما هو تلقين^(١) ، بل إن انطباعه هذا جعله يسمى المعلم في المعالجة - المكتب - ملفناً بدلاً عن صفته المشهور بها ، فهو يقول : " وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حده والمُكْتَبُ على حده^(٢) ، وللمعلمين والمؤدبين العثر في ذلك فالقدرة على الحفظ والاستذكار هي القدرة الشائعة لدى الصبيان ، وهي من الملكات التي تتضج قبل غيرها لدى الإنسان عموماً ، واستغلالها في حفظ المتن الشاملة لبعض العلوم هو استغلال للقدرات قبل فواتها .

❖ أدوات التعليم :

إن الحديث عن أدوات للتعليم فيه شيء كثير من المجاز ، فهي عبارة عن بعض الألواح الخشبية البالغة البساطة والخالية من التعقيد ، مع بعض القطع الصغيرة من أشجار معينة ، وبعض أشكال من الكلس والحبر يستخدم للكتابة .

كان اللوح الخشبي قائماً كواحدة من أدوات التعلم التي صاحبت طلاب العلم سواء في مرحلة التعليم الأولى أو الثانية منذ وقت مبكر من العصر الإسلامي^(٣) ، وقد ورد ذكره في إشارات محددة في المصادر المعاصرة للمدة الدراسة ، والعجيب أنه ذكر كأداة يستخدمها أبناء السلاطين وغيرهم من عامة الناس ، ولا أدري هل كان هناك تشابه بين ذلك اللوحين ، أم أن التشابه كان محصوراً في المسمى فقط ، يذكر المؤرخ الإمام الطيب بن عبدالله باخرمة^(٤) أن أباه الإمام عبدالله بن أحمد بن علي بن أحمد بامخرمة (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م) كان ذكياً منذ صباه وأنه قال : " لما عرست لوحى على المعلم في سورة الأعراف قرأت ﴿ قُلْ غِذَائِي أُصِيبُ بِهِ مِنْ لِسَانٍ ﴾^(٥) بالسين المهملة وفتح الهمزة الأخيرة من الإساءة ، فرده عليه ﴿ مِنْ أَشَاءٍ ﴾ بالعين المعجمة وصم الهمزة الأخيرة ، من المشيئة ، فوافق ذلك ما اتفق لإمامنا الشافعي رحمه الله في صباه عند حفظه لهذه الآية " ، فاللوح مذكور هنا صراحة أنه كان مستخدماً في دراسة

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٣٤٢ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) شوكتي درهم عبدالله الفصلي ، الحياة الطمعية في إقليم جبلة خلال عهد الصليبيين ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة أمبوط ، ٢٠٠٥م ، ص ١٠٥ .

(٤) بامخرمة ، فائدة النحر ، ج ٣ ص ٧٨٢ .

(٥) الآية رقم : ١٥٦ .

القرآن وحفظه ، ومن قبله ذكر الإمام إسماعيل المقرئ^(١) (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م)
اللوح كأداة لتعليم القرآن - وغيره - في أبياته الشعرية التي تناول فيها دخول الأمير
محمد بن السلطان الناصر أحمد الرسولي للمعلامة ، إذ يقول :

ولما ابتدى بهجو للحروف تطاولت

رقاب المعالي نحوه وصفت أذناً

تعوذه بالله وهو يخطها

ويحفظها لفظاً ويفهمها معنى

إذا خطها في اللوح لاحت مختللاً

بها عنه يثني عن قريب بما يُثنا

وبالإضافة إلى اللوح يأتي ذكر القلم كأداة من الأدوات المستخدمة ، وقد مررنا
على ذكره في بعض الأمير جياش بن نجاح السابق ، ولعل الورق لم يكن مستخدماً في
هذه المرحلة التعليمية لأنه لم يكن من الوفرة بحيث يستخدم بكميات كثيرة ، فقد وردت
الإشارة في القرون السابقة لمدة دراستنا أن بعض العلماء كانوا يستقدمون الورق من
مكة ، وكان الورق المعروف آنذاك هو الورق المصري والورق البغدادي^(٢) .

❖ الجدول الدراسي اليومي في المرحلة التعليمية الأولى :

من الصعوبة الجزم بجدول دراسي يومي محدد وثابت للتعليم في المعالمات في
اليمن في زمن الدراسة أو قبلها ، والسبب أن المؤرخين المعاصرين لم يولوا هذا
الجانب أي اهتمام ، ولم يتعرض أحدهم لذكره صراحة ، ولعلهم لم يروا فيه ما هو
جدير بالذكر لبداهته واتفاق الناس عليه بصورة محددة ، كما أنهم لم يتعرضوا للإشارة
إليه حتى عَرَضْنَا في تراجم العلماء المعلمين .

(١) ديوان المقرئ، ص ٢٢٣ .

(٢) الجدي ، السلوك ، ج ١ ص ٣٢٢ .

(٢) المرحلة الثانية :

نقصد بالمرحلة الثانية تلك المرحلة التي يبلغ الطالب فيها من العمر ما يخرج به عن وصف الصبي جداً وتفكيراً ، وبالتالي فأماكن التعليم التي تناولناها في الفصل الثالث جميعها - عدا ما ذكرنا أنه كان مخصصاً للصبيان - هي المرافق التي تلقى فيها البالغون من الطلاب كل العلوم السائدة آنذاك ، وفيها تخرج أعلام اليمن ورموز الفكر الإسلامي والعربي فيه .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مخرجات المعلومات كلها من كبار الصبيان - وهم في أعداد كبيرة - لم يكونوا قادرين على التوجه نحو أماكن التعليم الخاصة بالمرحلة التالية - المرحلة الثانية - للتلقى على أيدي كبار العلماء ، وكان التسرب كبيراً في هذه الفئة ، والأسباب في ذلك متعددة ومختلفة ، فهناك من كانت قدراته العقلية لديه لا تؤهله إلى المواصلة كبطى الفهم وضعف الذاكرة ، ومنهم من كانت قدراته الجسدية - من الضعف والمرض - دافعاً للاكتفاء بما حصله في المرحلة الأولى، وكانت القدرات المادية والإمكانات المالية لوالدي الطالب من أهم أسباب التسرب والعزوف عن المواصلة ، فهناك من كان الفقر يدفع أبائهم إلى منعه من التوجه إلى أماكن التعليم إما لتعذر القدرة على دفع ما يمكن أن نسميها أجور المعلمين - في حال وجودها - وإما للاحتياج الكبير إليهم في الاشتغال بحرف الآباء ومنهم كالزراعة مثلاً^(١) ، والسبب الأخير هو الذي منع ثلثاً من الطلاب المبرزين الذين توفرت لهم معظم مقومات الاستمرار في الدراسة والتحصيل ، وإن كانت هم بعضهم وعزائهم تحيل هذا العائق الكبير إلى سلم الرقي العلمي وطريق لتتوسع التحصيل العلمي ، ومن هؤلاء الإمام محمد بن يحيى بن أحمد بهرّان الصنعدي (ت ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م) ، فقد كان في بداية أمره تاجراً ، تحتم عليه تجارته الانتقال من مكان إلى مكان ، إلا أن حبه للعلم قاده إلى الجمع بين الغائتين ، غاية التاجر في كسب المال وغاية الطالب في تحصيل العلوم ، فكان لا يفوته درس في مكان ينزل به " نخل الحبشة ، ودخل كثيراً من بلاد اليمن ... إذا وفد قرية فيها قراءة حضر معهم ... " ^(٢).

(١) المقراني ، مكتون السر في تحرير تحارير السر ، ص ٢٠ من مقدمة المحقق .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الصغرى ، ج ١ ، ص ١١٠٨ ، ١١٠٩ .

ولأجد من الضروري هنا التذكير بما سبقت الإشارة إليه في السمات العامة للأنظمة التعليمية في مدة الدراسة ، وأقصد به عدم وجود سقف زمني محدد لطلب العلم، فهذه المرحلة التعليمية هي المقصودة بتلك السمة ، فقد أشرنا هناك إلى أن بعض طلبة العلم قد يشعر بالتسرع سريعاً بينما يرى زميله أن المراحل مازالت طويلة أمامه كي يجد هذه القناعة ، من هنا وجدنا في المصادر من طلب العلم لمدة سبع سنوات^(١)، وآخرون لمدة أحد عشر عاماً^(٢) ، وبعضهم أربعة عشر عاماً^(٣) ، وأحياناً أربعين عاماً^(٤) ، وقد سبقهم إلى ذلك الإمام عبدالله بن المبارك الذي أجاب على من سألته : إلى متى تطلب العلم ؟ بقوله : " حتى الممات إن شاء الله " ^(٥).

❖ الأهداف :

لن يكون الحديث عن أهداف المرحلة التعليمية الثانية هنا بمعزل عما سبقت الإشارة إليه من سمات النظام التعليمي عصرئذٍ وأهداف المرحلة التعليمية الأولى ، فقد كان هناك أهدافاً معينة شائعة لسطح عليها مجتمع العلماء في بلاد الإسلام عموماً بما فيها اليمن ، ويمكننا أن نصف هذه الأهداف ضمن فئتين هما : أهداف رسمت في مخيلة العلماء المعلمين توخوا تحقيقها في طلابهم ، وأهداف أخرى كانت عالقة في ذهن الطلاب المتعلمين أنفسهم ، وقد تضافرت هذه الأهداف كلها لتشكل دوافع كافية تحفز طرفي العملية التعليمية لبذل الجهد لبلوغها .

١. أهداف العلماء المعلمين :

مما لا شك فيه أن الرعية في نيل الأجر الكبير الذي قضى الله سبحانه وتعالى به للعلماء كان أول الأهداف التي بذلوا من أجلها جهودهم التدريسية الكبيرة ، فاللصوص القرآنية والنبوية المرغوبة في ذلك الأجر والمنزلة بعقوبة التقاعس عن أداء واجب تبليغ العلم كانت ماثلة أمامهم تدفعهم إلى بذله لغيرهم

(١) الجندي ، الملوك ، ج ١ ص ٣٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٩٧ .

(٣) الفاسي ، عقد الثمين ، ج ١ ص ٣٧٦ ، بامخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٣٠٠ .

(٤) بامخرمة ، قلعة النحر ، ج ٢ ص ٧٠٥ ، عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ١٦٠ .

(٥) ابن عبدالبر ، جامع بيان العلم وفضله ، ص ١١٥ .

بكل ما توافر لهم من إمكانات ذاتية ومعادية ، من أمثلة ذلك قول الله تعالى :
وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُونُ لَهُ
فِتْنَةٌ وَآءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ نَمَّا قَلِيلًا^(١) فَيَسْأَلْ مَا يَسْتُرُونَ

﴿١﴾ ، ومنها قول النبي ﷺ : " نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ثم

بلغها كما سمعها ، قرب مبلغ أوعى من سامع ...^(٢) وقوله ﷺ : " من نظم
علماً مما يُبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا ، لم
يجد عرف الجنة يوم القيامة ...^(٣) ، وقد توجهت همه العلماء المعلمين إلى
العناية بطلابهم منذ بداية الالتقي على أيديهم إعداداً وتهذيباً وتدريباً ، وصقلأ
لنفوسهم ومراهمهم ، ودفعاً للنفس للأخذ بمعالي الأمور والترفع عن سفاسفها ،
فشمّل الإعداد الروح والعقل معاً ، فكانت أولى أهداف العلماء ومقاصدهم
وأرفعها شأنأ إصلاح بية طلابهم وتوجيه قلوبهم إلى التجرد في طلبهم للعلم
وإخلاص قصدهم فيها لله تعالى وحده لا شريك له ، وتنقية نفوسهم - قدر
الاستطاعة - من حظوظها البشرية والأعراس الدنيوية كطلب الجاه
والمنصب^(٤) .

وكان لدى بعض العلماء من الأهداف ما ينصب نحو نصرة المذهب
الفقهي والفكري الذي يتبعه ، ولم تكن هذه الشريعة بالواسعة ، ولكنها وجدت
في اليمن بسبب التعدد المذهبي القائم فيها ، ولعل هذا الهدف هو الذي حمل أحد
علماء ربود ليتصدى لأحد السلاطين الرسوليين القدامى يلومه أن يبى للشافعية

(١) سورة آل عمران .

(٢) للحاكم ، المستدرک علی الصحیحین ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠م ، ج ١ ص ١١٢ ، رقم (٢٩٤) ، كتاب (العلم) ، الترمذي ، سنن الترمذي ، ج ٥ ص ٣٤ ، رقم (٢٦٥٧) ، باب (ما جاء في البحث على تبليغ السماع) ، ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، ج ١ ص ٨٤ ، رقم (٢٣٠) .

(٣) ابن ماجه ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٩٢ ، رقم (٢٥٢) ، باب (الانتفاع بالعلم والعمل به) ،
الحاكم ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٦٠ ، رقم (٢٨٨) و (٢٨٩) ، كتاب (العلم) .

(٤) د. أحمد محمد بور سيف ، من أب المحققين في التربية والتعليم ، در البحوث للدراسات الإسلامية
وإحياء التراث ، دبي ، ط ١ ، ١٩٩٧م ، ص ٢٣ .

مدرسة ولم يبن للحنفية مدرسة مثلها^(١) ، وذلك لا يتناقض مع ما ذكرناه في السمات للأنظمة التعليمية في التمهييد لهذا الفصل ، فما ذكر هناك هو القاعدة ، وما نورده هنا هو الاستثناء .

ولا نغفل هنا أن العلماء كانوا ينتقدون من طلابهم أن يكونوا قادرين على خلافتهم سواء في موطن التدريس والفتوى أو في مناصبهم الرسمية التي كانوا يتقلدونها مثل مناصب القضاء ودواوين الإنشاء أو التأنيب لأبناء الخاصة كالسلطين وحاشيتهم ، وفي ذلك قيام بواجب سد الثغرات التي لا ينبغي لغير ذوي العلم والصلاح توليها ، وهو هدف ذو شقين : شق منه مرتبط بالدافع الديني المشار إليه ، وشق يندرج تحت ما يمكن أن نسميه رد الجميل لرجل الدولة والسلطين في مقدمتهم الذين أنشأوا المدارس وغيرها من مرافق التعليم الأخرى وبالفوا في رعايتها ، ورد الجميل هنا يتمثل في إعداد الكوادر الكافية المؤهلة لتلقيام بوظائف الدولة المختلفة ، لذلك رأينا أنهم كانوا يوصون بالمبرزين من طلابهم لتعيينهم في المناصب المناسبة لقدراتهم^(٢) .

ويأتي في قائمة أهداف العلماء من التصدي للتعليم في المرحلة الثانية أيضاً الإسهام الاجتماعي بنشر الأخلاق الفاضلة وتعزيز أركان الشريعة بشعر علومها بين أفراد مجتمعاتهم، والسعي إلى رفع مستوى الوعي الاجتماعي بمكانة العلم وأهله وضرورة التكفل بتوفير أساسياته ، وهو ما يتضح من أن المتصدين للتعليم كانوا من أهل القدوة الحسنة لغرس الأخلاق الفاضلة في نفوس طلابهم^(٣) ، وكانت الصفة الغالبة في المصادر التاريخية لمن عُرف بالتدريس هو الفقه والصلاح والعلم المرتبط بالعمل الخير .

(١) الجندي ، الملوك ، ج ٢ ص ٥١ .

(٢) كما كان يفعل القاضي محمد بن أحمد العنسي قاضي عدن ، انظر بالمخزومة ، تاريخ ثغر عدن ، ص ١٥٦ .

(٣) د. فاروق أحمد مجاهد ، التعليم في اليمن في عهد دولة بني رسول خلال القرنين السابع والثامن هجريين ، ص ٧٢ .

٢. أهداف الطلاب المتعلمين أنفسهم :

لما أهداف و دوافع ندب الطلاب أنفسهم لمواصلة التحصيل العلمي التي يجب أن تنصدر الحديث بها هو - كما سبق الحديث عن معلمهم - ابتغاء الأجر الكبير من الله سبحانه وتعالى، فقد علموا مبلغ النذير الذي يواجهه من سعى في طلب العلم لأغراض عاجلة دنيوية، منها قوله ﷺ : " من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة ... " (١) ، وكذلك للحديث الصحيح الآخر الذي ورد فيه عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال : " إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه - وذكر الشهيد - ثم قال : ورجل تعلم العلم وعظمه وقرا القرآن فأتى به فعرّفه نصه فعرّفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك للقرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال : عالم. وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ " (٢) .

وهذا الجانب لا يجعلنا ننظر بمثالية مفرطة في أولئك الرجال ، فهم كثيرهم بشر تقتابهم الأهواء وتتنازعهم الغرائز المحببة في المناصب والشهرة ، وتتدافعهم المطالب الدنيوية والحياتية والحاجة إلى تلمس سبل العيش للرغيد ، فكان فيهم من يعلق في ذهنه شيء من وهن العزيمة وضعف الإيمان فيرسخ في بهالة شيء من التطلع إلى تحقيق المكسب السياسي الديني، كالبحث عن مناصب رسمية أو استكمال شروط إمامة وما في ذلكها (٣) ، فقد كان شرط بلوغ رتبة الاجتهاد أحد أهم شروط الإمامة الكبرى لدى الزيدية ، كما كان أيضاً شرطاً تولي بعض المناصب كالقضاء الأكبر لدى غيرهم من أهل السنة ، وهذه الحالات لا تعصم ، ولكن وجودها لا ينكر .

وكان في الطلاب فئة كبيرة لم تجد نفسها إلا في طلب العلم والمعنى وراء تحصيله ، وتناهاوا في تحمل المشاق التي واجهتهم في سبيله ، من بُعد مكان

(١) سبق تخرجه في الصفحة السابقة .

(٢) مسند الإمام أحمد ، ج ٢ ص ٣٢١ ، رقم (٨٢٦٠) ، الحاكم ، المستدرک علی الصحیحین ، ج ١ ص ١٨٩ ، (٣٦٤)

(٣) شوقي درهم المضلي ، الحياة العلمية في إقليم جبلية خلال عهد القليبيين ، ص ١٠٨ .

التلقي ، وقلة ذات اليد ، والأخبار الاجتماعية والأسرية المشتتة للذهن ، وغيرها من الصعاب ، فرفض بعضهم الاطلاع على كل ما يرد من الرسائل من بلاده حرصاً على ألا يجد فيها من الأخبار ما يكرر صفوه ويضيق بها صدره فيعيق نشاطه في التلقي والتحصيل ، وكان يجمعها عنده حتى إذا ما أحس بأنه قد قضى ما ربه من العلم فتحها فوجد في بعضها (مائت أمك) ، وفي بعضها ما يناسب ذلك مما يضيق به الصدر ، فقال : ' لو كنت قرأتها قطعنتي عما كنت فيه من التحصيل '(١) ، وحصر آخر - هو يحيى بن عمران بن ثوب اليافعي اليماني - اللذة في شينين فقط ، هما : طلب العلم والعبادة ، وعبر عن ذلك شعراً فقال :

شَيْنَانِ أَحَلَّى مِنْ عِناقِ الخُرْدِ
وَالَّذُ مِنْ شُرْبِ القُرَاحِ الأسودِ
وَأَجَلُ مِنْ رَتَبِ الملوكِ ، عَظِيمُ
وَشَيْءُ الحَرِيرِ مَطَرُراً بالعَمُجِدِ
سُوْدُ الذَّفائِرِ أَنْ أَكُونَ نَدِيمُهَا
طَوْلُ النَّهَارِ ، وَبُرْدُ ظِلِّ المَسْجِدِ
فَإِذَا هُمَا لَجِمَتَا لِشَخْصٍ فارِغِ
عَنْ كُلِّ هَمٍّ نَالَ أَبْعَدَ مَقْصِدِ
وعَلَا المَقَاخِرَ كُلُّهَا مَتَرَقَعاً
وَحَوَى المَحَامِدِ فِي الحَيَاةِ وَفِي غَدِ (٢)

وحصر ثالث - هو العلامة الإمام جمال الدين محمد بن عبدالرحمن بن عمر الحَبْيَشِي (ت: ٨٠٢هـ / ١٣٩٩م) - لذة الحياة في طلب العلم ، ونقل فناعته إلى ولده شعراً كأنه يحثه على اتباع الأثر ، يقول :

ما لَذَّةُ الخَلْقِ فِي الدُّنْيَا جَمِيعُهُمْ وَلَا المُلُوكِ وَأَهْلُ اللُّهُوِّ والطَّرَبِ

(١) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٤ ص ٣٨٨ - ٣٩٠ .

(٢) الأملد ، نطفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٣٧١ .

كَلَنْتِي فِي طِلَابِ الْعِلْمِ يَا وَلَدِي فَالْعِلْمُ مَعْتَمِدِي حَقًّا وَمُكْتَسَبِي^(١)

وهذا هو الفقيه بدر الدين حسن بن علي بن عبدالرحمن الملحاني (ت ٨٢٠هـ - ١٤١٧م) ينشئ قصيدة بحث فيها أبه أحمد على العلم والتحصيل ويوصيه بالتعلم وعدم التواني فيه ، وفيها تعبير واضح على مدى ارتفاع منحنى الدافعية الذاتية لدى هذا الفقيه إبان مرحلتى الدراسة والتلقي ، وهي التي أملت له ليصبح واحداً في عداد أعيان علماء اليمن في عصره ، يقول في مطلع قصيدته:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي يَا أَحْمَدُ

إِذَا فَاتَكَ الْعِلْمُ هَلْ تَسْتَعِذُ

وَهَلْ يُفْصَلُ الْحُكْمُ فِي مَحَلِّ

إِذَا أَلْتَ فِي النَّسَبِ مُسْتَرْشِدُ

فإني جهنتُ لِيَالِي الشُّبَا

بِ وَمَنْ عَشِقَ الْعِلْمَ قَدْ يَجْهَدُ

نَهَارِي فِي الْعِلْمِ مُسْتَعْمَلُ

وَفِي اللَّيْلِ جَفَنِي لَا يَرْقُدُ

وَفِي الْعِلْمِ عِزٌّ لَأَهْلِ النَّقَى

وَجَسَاءُ يُقَاسُ بِهِ الصَّنَجَةُ^(٢)

❖ المقررات الدراسية :

كانت المقررات الدراسية في المرحلة التعليمية الثانية كثيرة العدد ، متنوعة التخصصات ، وبالتالي فالحديث عنها واسع ومتشعب ، وقد دخل في تحديدها عوامل عديدة ، من أهم تلك العوامل : اجتهد علماء الإسلام السابقين وأعلام العلوم في القرون الأولى ، فقد كان تحديد بعض هذه المقررات متوارثاً من العالم للمعلم السابق إلى حليفته من طلابه ، سواء كانا من بلد أو قطرٍ واحدٍ أو كانا من قطرين مختلفين ، كما كان للاتجاه الفكري للعالم المعلم دوره في السعي إلى إضافة مقررات أخرى يرى هو ضرورتها ، وينظر إليها على أنها جسر يكرس من خلاله رؤاه في طلابه وينقلها إليهم

(١) البرهسي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٤ .

عبرها ، أو تكون بمثابة المُنهَد لما يود طرحه عليهم من أفكار واجتهادات خاصة ، كما يلقي العامل المذهبي في قائمة أهم العوامل المحددة للمقررات الدراسية ، وفيما يتعلق ببعض العلوم الشرعية الفقهية والأصولية بالتحديد لارتباطها بمنظومة الأساسيات الأولى التي كانت قاعدة نشوء هذه المذاهب نفسها ، فالملموس أن ثمة قاعدة كانت شائعة مفادها أن طلبية العلم في المناطق الحنفية لن يبدلوا بدراسة الفقه بغير بمنظار الإمام أبي حنيفة وأبرز رجال مذهبه ، وهو ما ينطبق على أتباع مذهب الإمام الشافعي أو المذهب الزيدي ، أو أولئك الذي يصنفون ضمن مريدي الطرق الصوفية ومن در في فلکها .

تلقي مقررات أصول الدين وعلم الكلام في المرتبة الثانية بعد المقررات الفقهية التي دخل العامل المذهبي في تحديدها ، فقد كان هناك فراق كبيرة بين أتباع المذاهب المختلفة في اليمن في هذا العلم ، وهذه الاختلافات هي التي أسهمت في نشوء هذه المذاهب أكثر من مما أسهمت به الاختلافات الفقهية ، ويتضح هذا الأمر بجلاء ووضوح بالغ بين أتباع المذاهب السنية وأتباع المذاهب الشيعية ، والزيدية على وجه الخصوص^(١) ، لأن الأخير كان متسبباً عقائد المعتزلة إلى حد الاقتراب من التطابق ، وهو ما جعل أحد أبرز رجال الفكر الزيدي في اليمن - الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير (ت ٨٢٢هـ / ١٤١٩م) - يقول : "إنهما^(٢) فرقة واحدة في التحقيق ..."^(٣) ، ولما تعرض في أحد كتبه لذكر علماء الزيدية والعلماء المعتزلة قدم علماء المعتزلة على علماء مذهبه معللاً ذلك بقوله : "لأنهم مشايخ مبادئنا وعلماؤنا القادات ..."^(٤) ، وموقف أهل السنة من عقيدة المعتزلة معروف ، وقد كان أساساً لصراعات فكرية سابقة ومبكرة ، وكان فيها من مواطن الجدل ما ألفت فيه كثير من الكتب ، لذلك كان سعي رجال المذاهب المختلفة في اليمن جلياً لترسيخ أصول الدين لدى طلابهم من خلال تسمية المقررات التي تحقق ذلك .

(١) سنستشي الحديث عن الإسماعيلية لتعذر الحصول على شيء من مصادرها.

(٢) لصمير هذا عائد على الزيدية والمعتزلة.

(٣) المقبلي ، الضمّ المشايخ في تفضيل الحق على الآباء والمشايخ ، عناية لقاصي عبدالرحمن بن يحيى الإيراني ، مكتبة البيان ، دمشق ، ١٩٨٦م ، ص ١١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٢ .

تبقى نقاط الاتفاق بين معظم العلماء المعلمين في اليمن في مدة الدراسة وما قبلها في ترتيب دراسة المقررات بحسب الأهمية ، فكانت علوم القرآن - مثل التفسير وأسباب النزول والقراءات - والفقه وأصوله والحديث والنحو والصرف وعلوم اللغة والفرائض وأصول الدين ، كانت هذه المقررات تأتي في المقدمة ، يلي هذه العلوم علوماً أخرى غالباً ما تكون مرتبطة ببعض العلوم السابقة ، مثل الحساب والجبر والمقابلة والمساحة ، وهي مرتبطة بالفقه والفرائض - أي المواريث - بروابط متينة ، وفي ذيل قائمة المقررات تأتي تلك التي تشبه ما يطلق عليه الآن في المناهج المعاصرة بالمقررات الاختيارية كالطب والفلك والعلوم الطبيعية الأخرى .

سنستعرض هنا أهم عناوين الكتب وأشهرها التي ورودت في تراجم الأعلام من علماء اليمن ، وما نُكِرَ في نصوص بعض الإجازات العلمية التي حصلنا عليها ، ونحن إذ نمردها فإننا نستطيع أن نعدّها بمثابة الجريدة الشاملة للمقررات الدراسية التي لم يخرج عنها ما تمّ دراسته في اليمن في مدة دراستنا - إلا ما ندر ولم نصل ليدينا إليه - وكثرتها الواضحة لا تقتضي أدأً فهم إجبارية دراستها كلها ، ولا تقتضي - أيضاً أن هذه العناوين كانت من التناظر والتكافؤ مع بعضها في الأهمية لدى العلماء والمعلمين، فما اعتبره هذا العالم بالغ الأهمية قد يعده قرينه - من أهل بلده أو من غيرها - غير مهمّ بذلك القدر ، فإلى عناوين المقررات :

أولاً : علوم القرآن :

- (١) النشر في القراءات العشر للإمام محمد بن محمد الجزري .
- (٢) التيسير في القراءات للإمام أبي عمر الداني .
- (٣) منظومة طيبة النشر في القراءات العشر للإمام محمد بن محمد الجزري .
- (٤) منظومة الشاطبية في القراءات للإمام الشاطبي .
- (٥) الثمرات في تفسير الآيات للقاضي يوسف بن أحمد بن عثمان الثلاثي الزيدي .
- (٦) تفسير الواحدي للإمام أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي بن متويه الواحدي .
- (٧) تفسير البيضاوي .
- (٨) تفسير البخوي .

- (٩) تفسير النقاش .
- (١٠) تفسير مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي .
- (١١) تأويل القرآن للسلمي .
- (١٢) الكشف عن حقائق التنزيل لجار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري.
- (١٣) البرهان في تفسير القرآن للإمام أبي الفتح الديلمي .
- (١٤) عقود العقيان في النسخ والمنسوخ من القرآن للإمام محمد بن المطهر الزيدي .
- (١٥) البيان في النسخ والمنسوخ من القرآن للقاضي العلامة عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أبي النجم الزيدي .

ثانياً مقررات الفقه :

- (١) التجريد في فقه الإمامين الهادي والقاسم في فقه الزيدية .
- (٢) الانتصار الجامع لمذاهب علماء الأمصار للإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة الزيدي .
- (٣) مختصر للمزني في فقه الشافعية للإمام المزني تلميذ الإمام الشافعي .
- (٤) المهذب للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي الشافعي .
- (٥) التنبية للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي الشافعي .
- (٦) المجموع الكبير في فقه الزيدية للإمام زيد بن علي من نكسب إليه الزيدية .
- (٧) الوجيز لحجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد العزالي الشافعي .
- (٨) الوسيط لحجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد العزالي الشافعي .
- (٩) البسيط لحجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد العزالي الشافعي .
- (١٠) البيان للإمام يحيى بن أبي الحير بن سالم العزالي الشافعي .
- (١١) البيان الشافعي المنتزع من البرهان الكافي للعلامة يحيى بن أحمد بن مظفر الزيدي .
- (١٢) منهاج الطالبين للإمام شرف الدين يحيى بن زكريا النووي الشافعي .
- (١٣) الحاوي الصغير للإمام القرويني الشافعي .

- (١٤) إرشاد الغاوي في مصالک الحاوي للإمام شرف الدين إسماعيل المقرئ الشافعي .
- (١٥) الأزهار في فقه الأئمة الأطهار للإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى الزيدي .
- (١٦) الغيث للمدرار المفتاح لکلام الأزهار للإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى الزيدي .
- (١٧) العباب للمحيط بمعظم نصوص الشافعي والأصحاب للإمام القاضي أحمد بن عمر بن محمد المزجد الشافعي .
- (١٨) العزيز للإمام الرافعي الشافعي .
- (١٩) روضة الطالبين وعمدة المفتين الشهير بـ (الروضة) للإمام شرف الدين يحيى بن زكريا النووي الشافعي .
- (٢٠) المهمات على روضة جمال الدين محمد بن عبدالرحيم الإسوي الشافعي .
- (٢١) الكفاية في تحصين الرواية للإمام الحسين بن عبدالرحمن الأهل الشافعي .
- (٢٢) معين أهل الفتوى على التدريس والفتوى للإمام أبو الحسن علي بن أحمد بن أسعد الأصبحي اليماني الشافعي .

ثالثاً مقررات أصول الفقه :

- (١) التمع للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي الشافعي .
- (٢) معيار العقول في علم الأصول للإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى الزيدي .
- (٣) منهاج الوصول إلى تحقيق معيار العقول في علم الأصول للإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى الزيدي .
- (٤) منظومة البرماوية وتسمى (النبذة الكافية في الأصول الفقهية) للإمام محمد بن عبدالدائم بن موسى البرماوي الشافعي .
- (٥) صفوة الاختيار للإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة بن سليمان الزيدي .
- (٦) العقود الثلوثية للإمام إبراهيم بن محمد بن عبدالله الوزير الزيدي .
- (٧) العقد للفقهاء يحيى بن حسن بن موسى القرشي الصنعدي الزيدي .

رابعاً : مقررات الحديث وعلومه :

- (١) صحيح الجامع للإمام محمد بن إسماعيل البخاري .
- (٢) صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج القشيري البغدادى .
- (٣) صحيح الجامع للإمام محمد بن عيسى بن سورة الترمذى .
- (٤) سنن النسائي .
- (٥) سنن أبي داود .
- (٦) سنن ابن ماجه .
- (٧) موطأ الإمام مالك .
- (٨) مسند الإمام زيد بن علي .
- (٩) شفاء الأوام في أحاديث الأحكام للأمير الحسين بن بدر الدين بن أحمد بن يحيى الزيدى .
- (١٠) أصول الأحكام للإمام للمتوكل أحمد بن سليمان الريدى .
- (١١) ألفية العراقي في أصول الحديث للحافظ عبدالرحيم بن الحسين بن عبدالرحمن العراقي .
- (١٢) أمالي أحمد بن عيسى للإمام أحمد بن عيسى الزيدى العلوى .
- (١٣) أمالي أبي طالب للإمام أبي طالب الزيدى .
- (١٤) أمالي المؤيد بالله للإمام الزيدى .
- (١٥) علوم الحديث للإمام ابن الصلاح .
- (١٦) جامع المختصرات .
- (١٧) جامع الأصول في أحاديث الرسول للإمام المبارك بن محمد الشهير بابن الأثير .
- (١٨) تيسير الوصول إلى جامع الأصول للإمام عبدالرحمن بن الدبيع الشيباني .
- (١٩) الأربعين النووية للإمام شرف الدين يحيى بن زكريا النوى .
- (٢٠) الأربعين السليبية وشرحها للإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة الحسنى الزيدى .

خامساً : مقررات النحو وعلوم اللغة:

- (١) مختصر الحسن بن أبي غلبا في النحو للحسن بن إسحاق بن أبي غلبا .

- (٢) مختصر إبراهيم ابن أبي عباد في النحو لإبراهيم بن إسحاق بن أبي غياث .
- (٣) الجمل الكبير لأبي القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجلاجي .
- (٤) الكافي لأبي جعفر أحمد بن محمد بن الصفار .
- (٥) الكافية لابن الحاجب .
- (٦) التمع في النحو لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي .
- (٧) مقدمة ابن بابشاذ لأبي الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ المصري .
- (٨) ملحة الإعراب ونخبة الأدب لجمال الدين القاسم بن علي بن محمد الحريري .
- (٩) المفصل في صناعة الإعراب لجار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري .
- (١٠) الكشف عن حقائق التنزيل لجار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري .
- (١١) الغاية والمثال في العروض للفقير محمد بن الحسن الصمعي .
- (١٢) عنوان الشرف الوافي للإمام إسماعيل بن أبي بكر المقرئ .
- (١٣) ألفية ابن مالك في النحو للإمام محمد بن عبدالله بن مالك الطائي .
- (١٤) مفتي اللبيب عن كتب الأعراب في النحو للإمام عبدالله بن يوسف بن هشام المصري .
- (١٥) ضياء العلوم للعلامة محمد بن شوان الحميري .
- (١٦) التلخيص في المعاني والبيان للقرظيني .

سادساً : مقررات أصول الدين وعلم الكلام :

- (١) الحروف السبعة في علم الكلام والرد على المعتزلة للإمام الحسين بن جعفر بن محمد المراغي المصري الشافعي .
- (٢) التبصرة للإمام أبي الفتوح .
- (٣) الانتصار على القدرية الأشرار للإمام يحيى بن أبي الخير العمري الشافعي .
- (٤) الشريعة للأجري .

- (٥) كشف الغطاء في عقائد التوحيد والموحدين للإمام الحسين بن عبد الرحمن الأهدل .
- (٦) التجويد في معرفة معاني التوحيد .
- (٧) منتهى العول والأمل في علمي الأصول والجدل لأين الحاجب .
- (٨) مصباح العلوم في معرفة الحي القيوم للعلامة أحمد بن الحسن الرصاص الزيدي .
- (٩) الخلاصة النافعة بالأئمة الفاطمية للعلامة أحمد بن الحسن الرصاص الزيدي.
- (١٠) برة الفواص نظم خلاصة الرصاص للإمام الهادي بن إبراهيم الوزير الزيدي .
- (١١) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم للإمام الكبير محمد بن إبراهيم الوزير.
- (١٢) المعراج شرح المنهاج للإمام الهادي عز الدين بن الحسن بن الهادي المؤيدي الزيدي .

سابعاً : مقررات العنة النبوية وما في حكمها :

- (١) الأذكار من كلام سيد الأبرار للإمام شرف الدين يحيى بن زكريا النووي .
- (٢) رياض الصالحين للإمام شرف الدين يحيى بن زكريا النووي .
- (٣) الحصن الحصين للإمام محمد بن محمد الجزري .
- (٤) عدة الحصن الحصين للإمام محمد بن محمد الجزري وهو شرح للسابق .

ثامناً : السيرة والتاريخ والأنساب :

- (١) سيرة ابن هشام للإمام عبد الملك بن هشام المعافري .
- (٢) عيون الأثر في المغازي والسير للإمام محمد بن محمد بن سيد الناس
- (٣) بهجة المحافل وبغية الأماثل في السير والمعجزات والشعائل للإمام الحافظ يحيى أبي بكر بن محمد العنبري الشافعي .
- (٤) السلوك في طبقات العلماء والملوك للإمام محمد بن يوسف بن يعقوب بن حسين الجندي.

- (٥) تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن للإمام المؤرخ الحسين بن عبدالرحمن الأهل .
- (٦) الإفادة في تاريخ الأمة السادة للإمام يحيى بن الحسين الهاروني الزيدي .
- (٧) الفوائد في زيارة المشاهد للفقير صفى الدين أحمد بن أبي بكر البريقي .
- (٨) تاريخ الرسل والملوك للإمام محمد بن جرير الطبري .
- (٩) مآثر الأبرار في تفصيل مجملات جواهر الأخبار للعلامة محمد بن علي بن يونس الزحيف الزيدي .
- (١٠) الحدائق الوردية في ذكر أنمة الزيدية للعلامة حميد بن أحمد بن محمد المحلي الزيدي .

تاسعاً : علوم الصوفية والرقائق :

- (١) الرسالة القشيرية للإمام عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك بن أبي طلحة القشيري .
- (٢) إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي .
- (٣) عوارف المعارف للإمام السهروردي .
- (٤) بداية الهداية لحجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي .
- (٥) شرح أسماء الله الحسنى لحجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي .
- (٦) المعرفة للحارث بن أسد المحاسبي .
- (٧) سلافة العارف في شرح عوارف المعارف للشيخ محمد بن محمد بن علي الكاشغري .
- (٨) اللطائف للإمام ابن عطاء الله السكندري .
- (٩) اللطائف واجتلاء عويص المعارف للشيخ طلحة بن عيسى بن إبراهيم الهتار .
- (١٠) روض الرياضين في حكايات الصالحين للإمام عبدالله بن أسعد اليافعي .
- (١١) التذكرة للإمام القرطبي .
- (١٢) نشر المحسن للإمام عبدالله بن أسعد اليافعي .

(١٣) المائتي حكاية في مناقب العبدروس الأكبر عبدالرحمن بن محمد بن الخطيب الشافعي.

عاشراً : مقررات أخرى :

- (١) الكافي في الفرائض للإمام إسحاق بن يوسف بن يعقوب الصردفي الشافعي.
- (٢) التامع في الفرائض للعلامة العصفري الزيدي .
- (٣) الوافي في الفرائض للإمام الحسن بن أبي البقاء بن صالح التهامي الزيدي .
- (٤) الجبر للإمام محمد بن موسى الخوارزمي .
- (٥) شرح مختصر الخوارزمي في الجبر والمقابلة للعلامة أحمد بن عمر بن هاشم المزيفي الزبيدي .
- (٦) منظومة المزيفية للعلامة أحمد بن عمر بن هاشم المزيفي الزبيدي .
- (٧) لبحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأنصار للإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى .
- (٨) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .
- (٩) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض بن موسى بن عياض البحصبي المالكي.

❖ أنظمة التدريس :

الحديث عن نظم التدريس هنا فيه استعارة للفظه قد تحمل مدلولاً أكبر مما هو مقصود ، وجاء استخدامها في هذه الدراسة من منطلق اصطلاح الباحثين في مجال التاريخ الحضاري والعلمي الإسلامي عليها ، وكذلك الباحثين في الدراسات التربوية والفكر التربوي التاريخي ، ولعل الأخرى بنا هنا استخدام مصطلح (أساليب التدريس) كونه يشير إلى معنى محدد ودائرة أضيق تتمثل في الأساليب والطرق التي استخدمها المعلمون لنقل ما راموا نقله إلى طلابهم من المفاهيم والقيم والمعرف .

وفي هذه الناحية أيضاً نعيد الإقرار بالاستعانة بنصوص وردت في المصادر اليمنية عن الحياة العلمية في اليمن في أحقاب تاريخية سابقة للقرنين التاسع والعاشر الهجريين ، وذلك كون المصادر الخاصة بالدراسة في القرنين المذكورين لم تولي هذه الجوانب اهتماماً كثيراً قياساً مع تلك الأقدم منها .

وقد كان التشابه كبيراً في أنظمة التدريس التي استخدمها اليمينيون وتلك التي استخدمت في المناطق الأخرى من العالم الإسلامي ، وتعكس الدراسات الحديثة عن الحياة العلمية في بلاد الشام والعراق والحجاز والمغرب هذا التشابه ، فهي في مجملها تجمع على أن نظم الحلقات الدراسية والمناظرات والمذاكرة والمجالس العلمية من سماع وقراءة وفتوى ووعظ وغيرها هي التي كانت شائعة ومعمولاً بها في كثير من تلك المناطق إن لم نقل فيها كلها .

• أولاً : نظام الحلقات الدراسية :

جاء اسمها من شكلها حيث يتحلق الطلاب حول شيخهم الذي يستند إلى أحد سوارى المسجد غالباً أو إلى أحد جوانب المنبر ، فيجلس في موضع يمكنه منه رؤية الجميع وتبادل السماع بينه وبينهم ، ويحدد حجم الحلقات للتدريسية عدد الطلاب المنضمين إليها ، فالعلاقة بين حجم الحلقة وعدد الطلاب علاقة طردية ، إذ كلما كبر عدد الطلاب كبر حجم الحلقة والعكس بالعكس ، والعمل المؤثر في كثرة الطلاب في الحلقة للواحدة أمور عدة ، منها : مدى أهمية العلم الذي يدرس فيها ، وكونها مفتوحة أمام كل وارد أو لخصصارها في الفئة المنتظمة باستمرار ، وكذلك مدى قبول المعلم فيها لكل قادم مهما كانت الخلفية الاجتماعية التي جاء منها ، وتشكل السمعة العلمية وشهرة المعلم عاملاً كبيراً في تحديد عدد الطلاب في الحلقات التدريسية ، ومما لا شك فيه أن مساحة المسجد لها أثرها الكبير في حجم الحلقة ، فتلك الحلقات المنعقدة في المساجد الكبرى كالجامع الكبير في صنعاء أو مسجد الجند ستكون أكبر من مثيلاتها المنعقدة فيما دون هذه المساجد مساحة وشهرة .

هذا النظام هو أقدم ما استخدم في للتدريس والتعليم في تاريخ الإسلام ، إذ تعود إبداعات استخدامه إلى العهد النبوي ، فقد كان النبي ﷺ يستخدمه في تربية أصحابه وتعليمهم أمور دينهم ، وخاصة بعد الهجرة النبوية ، وقد شهد مسجده المبارك كثيراً من حلقات التدريس على مدار عشر سنوات تقريباً هي مجمل ما عاشه النبي ﷺ في المدينة المنورة ، وتنوعت أغراض الحلقات العلمية في العهد النبوي ، فكان منها ما هو لتعليم

القرآن الكريم والمناسك التعبدية والسنن ، وكان منها ما هو للذكر^(١) ، وكان النبي ﷺ بحث على ارتياد تلك الحلقات ويدعو إلى الجلوس فيها^(٢) ، منها قوله ﷺ : " إذا مررتُم برياض الجنة فارتعوا ، قيل وما رياض الجنة يا رسول الله ؟ قال : حلق الذكر"^(٣) .

ولنظام الحلقة التدريبية دور كبير في انتقال علم الصحابة عليهم رضوان الله تعالى في القرن الهجري الأول عند انتشارهم في الأمصار ، فقد ساروا على نهج النبي ﷺ في عقدها بصورة دائمة ، واستمرت هذه الحلقات في الاعتقاد على أيدي العلماء جيلاً بعد جيل حتى زمن الدراسة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، بل إن كثيراً مما سنستعرضه من أنظمة للتدريس الأخرى كالمجالس كانت تتخذ شكل الحلقة ، وما نفع الباحثين إلى تمييزها عنها هو طبيعة الطرح ومصدره فيها ، حيث كان العالم المعلم فيها يكتفي بدور السامع المراقب للأداء ، في حين أنه في الحلقة التدريبية هو محور النشاط وبقية الحضور سلبيون مستمعون فقط .

الحلقات التدريبية مرتبطة بشخص العالم الذي يلقي العلم فيها ، لذلك قد تنفض بسفره أو موته ما لم يكن هناك من يخلفه من أقرانه أو طلابه ، وقد رأينا أن حلقة الفقيه زيد بن عبدالله اليفاعي (ت بعد ٥١٣هـ / ١١١٩م) استمرت طويلاً في مسجد الجند ، وكان بين يديه فيها ثلاثمائة طالب ، ثم انه ارتحل عنها إلى الحجاز مدة طويلة ففرق تلاميذه إلى نواح شتى من اليمن ، ولم يخلفه أحدٌ من تلاميذه عليها ، فلما عاد من سفره عادت إلى الانتظام مرة أخرى^(٤) ، وفي القرن التاسع الهجري روى الإمام المؤرخ الحسين بن عبدالرحمن الأهدل (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) أن شيخه الإمام علي بن أبي بكر الأزرق سئل : من سيكون بعدك في مقامك في العلم ؟ فقال : فلان ، لأقل العبيد .

(١) ابن قدامة ، مختصر منهاج القاصدين ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٥م ، ص ١٩ ، ٥٣ ، عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٢) ابن عبدالبر ، جامع بيان العلم وفضله ، ج ١ ص ٦١ .

(٣) قنمزي ، سنن القنمزي ، ج ٥ ص ٥٣٢ ، رقم (٣٥١٠) ، ورقم (٢٥٠٩) ، مسند الإمام أحمد ، ج ٣ ص ١٥٠ ، رقم (١٢٥٤٥) .

(٤) الجندي ، المسنوك ، ج ١ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، بامخرمة ، قلعة قنم ، ج ٢ ص ٤٩٧ .

يصف الأهل نفسه^(١) ، إذًا فالعلماء الذين لم يتحوروا من طلابهم من يخلقهم من تلاميذهم كانت تتعرض حلقاتهم للتكريسية للانقطاع ، وأما أولئك الذين كانوا يحملون هم دولما فقد كان اختيار الحليفة لهم من بعدهم أحد همومهم .

وقد ارتبط وجود الحلقات التدريسية بكل مراكز التعليم في اليمن المنتشرة في معظم أحيائها ، وكانت أحد روافد الحياة العلمية في اليمن بالعلماء والمدرسين ، ويبدو أن المساجد في الغالب كانت أفضل الأماكن لانعقادها ، وبالتالي نستطيع القول بأنها انتشرت في عموم المدن اليمانية كالجند وربيد وصنعاء وعدن وتريم والشحر وصعدة وغيرها^(٢) .

ومن أشهر الحلقات التدريسية التي استمرت مدة طويلة متمحورة حول منشئها ما أوردته بعض المصادر التاريخية في تراجم بعض علماء اليمن في مدة الدراسة ، مثل حلقة الإمام العلامة جمال الدين محمد بن أبي القاسم الضراسي (٨٠٦هـ — / ١٤٠٣م) الذي كان محققاً مدققاً في علوم الفرائض والحساب والجبر والمقابلة وفروعها وكذلك الطب والتشريح ، وقصد حلقاته الراغبون من كل صوب حتى أتى حين من الدهر لم يكن فيها بأواسط اليمن مدرس يعلم الفرائض والطب إلا من درسته ودرسه درسته ، وقد استمر انعقادها سنين سنة كاملة ، كان طوالها بلاذلاً نفسه للطلبة^(٣) .

وورد في ترجمة الفقيه علي بن محمد بن عمر بن راشد المالكي^(٤) الشافعي (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م) أن أباؤه بعثه إلى زبيد لدراسة كتاب (روضة الطالبين وعمدة المفتين) للإمام شرف الدين يحيى بن زكريا النووي في فقه الشافعية ، فلما وصل إلى زبيد ، وهو شاب حديث السن ، دخل بعض مدارسها العلمية على شيخ بالمدرسة قاعد

(١) الأهل ، نطفة الزمن في تلويغ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٢٥٢ .

(٢) عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ١٧٤ .

(٣) لأبراهيم ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٤) المالكي هذا نسبة إلى أحد أجداد لرجل المترجم وليس إلى المذهب المالكي المشهور ؛ لأن هذا العالم كان شافعي المذهب .

في وسط حلقة تدريسية وحوله عدد كبير من الطلبة والمناظرين ، فانتظم فيها ليصبح أحد الفقهاء المعدون في ناحيته^(١) .

■ ثانياً : نظام المجالس العلمية :

نقصد بالمجلس المكان الذي يحتجم الناس فيه للحديث والاستماع حلوساً ، وقد اتخذ صفة العلم لأننا لا نقصد به كل مجلس انعقد لمناقشة الأمور العامة والخاصة من شؤون الناس الاجتماعية وغيرها ، وما نقصده بالتحديد هي تلك المجالس التي لم يكن وراء انعقادها من غرض غير نشر العلم والاستماع إلى العلماء أو الأدباء والشعراء ومن على شاكلتهم ، وكثيراً ما تكون المساجد ميداناً لها ، ولعل الأخيرة هي التي وصفت بالبركة ، وورنت الأثر بأن الملائكة تشهدها^(٢) .

مع تطور الحياة العلمية في المجتمعات الإسلامية تعددت صور النشاط الفكري والحراك العلمي الثقافي ، فانتشرت ظاهرة انعقاد مجالس العلم حتى باتت تعقد في المدراس ومنازل العلماء وقصور الأمراء ، وخاصةً تلك التي كان محور الحديث فيها يدور حول علوم عقلية وطبيعية متنوعة، أو ما كان فيها شيء من ارتفاع الصوت كمجالس الشعر والمناظرات^(٣) ، أما ما كان محور ما يُلقى فيها هو العلوم الشرعية المختلفة فقد كان العلماء يفضلون عقدها في المساجد على غيرها ، حتى أن الإمام عبدالكريم السمعاني^(٤) (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٦م) قد أفرد فصلاً خاصاً عن المجالس العلمية في المساجد لأنها خير الأماكن^(٥) .

(١) بامغرمه ، قلادة النهر ، ج ٣ ص ٦٩٠ .

(٢) عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس للهجريين ، ص ١٧٥ .

(٣) ابن عبدالبير ، جامع بيان العلم وفضله ، ج ٢ ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، د. عبدالرحمن الشجاع ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع ، ص ٧٧ .

(٤) آداب الإماماء والاستعلاء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨١م ، ص ٤٢ وما بعدها .

(٥) عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس للهجريين ، ص ١٧٥ .

ونظراً لاختلاف الأغراض التي عقدت من أجلها المجالس العلمية - كما أسلفنا - فسنحاول تناول عدد من أنواعها بقدر ما توفره لنا المصادر من مادة ، وأهم أنواعها كما يأتي :

١. مجالس التدريس :

هذا النوع من المجالس هو الأشهر والأكثر شيوعاً بين المجالس العلمية ، وهو عمدة العلماء للمعلمين في نقل معظم علومهم إلى طلابهم ، وقد يعده البعض مرادفاً من مرادفات للحلقة العلمية ، تشير معلومات المصادر إلى أن مجالس التدريس كانت عامة في حقبة ما قبل مدة الدراسة لكل من مر بها ورغب في التلقي من خلالها ، فقد رأينا مجلس الإمام أبي محمد عبدالله بن أبي القاسم المشهور بابن الأبار (ت قبل ٥٦٩هـ / ١١٧٣م) كان يعقد مجالس التدريس في جامع الأشاعر بزييد فكان الجامع يزدهم بالحضور فمر أحد الثمراء ولم يجد مكاناً للجلوس فيه فقال مخاطباً ابن الأبار :

مَجْلِسُكَ الرَّحْبُ مِنْ تَرَاخُيهِ لَا يَمْنَعُ الْمَرْؤَ فِيهِ مَقْعَدُهُ
كُلُّ عَلَى قَنْزِهِ يَنَالُ ، فَذَا يَقْطُطُ مِنْهُ وَذَاكَ يَخْصَدُهُ^(١)

وكان أحد علماء مسجد الجند يعقد مجالسه فيه ، وكان عدد الحاضرين لمجالسه يملأون ما بين المنبر وباب المسجد بكثرتهم^(٢) ، وكان السبب الرئيس في عموميتها وشيوع الجلوس فيها للمتتلمذين وغيرهم أنها كانت تقوم بدور المدرسة قبل ظهور المدارس وانتشارها ، بل إن بعض المؤرخين كان يسمي مجلس التدريس الدائم لعالم ما في مسجد ما - (المدرسة) وينسبها إليه ، وهو ما تناولناه في حديثنا عن بدايات ظهور المدارس في اليمن في الفصل السابق .

مع ظهور المدارس للنظامية وشيوع بنائها ، ومع انتشار المساجد التي سمي السلاطين الرسوليون هيئات التدريس لها أصبحت مجالس التدريس مميزة عن غيرها من المجالس العلمية - الآتي نذكرها - بانحصار أحقية حضورها ، إلى حد كبير ، هي الفئة التي يرى فيهم العالم المعلم أنهم تلاميذه ، وكان انعقاده شائعاً في تلك المدارس العلمية المنتشرة في مناطق كثيرة من اليمن ، وفي تلك المساجد المشار إليها كما

(١) الجندي ، المطوك ، ج ١ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٣ ، باسمرة ، قلعة النهر ، ج ٢ ص ٥٠٧ .

رأينا في معرض حديثنا عن جامع المملاح في الفصل السابق وما كان على شاكلته.

وقد اشتهرت في مدرة دراستنا مجالس التدريس للإمام الحافظ شيخ المحدثين باليمن نعيم الدين سليمان بن إبراهيم العلوي الحنفي (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢٣م) ، وفيها تلقى معظم أبناء اليمن علوم الحديث وكتب الأمهات والسنن ، وقد كان مجلسه دائم الانعقاد ، كما كان معموراً بأبناء السنة من الشافعية والحنفية ، وبأبناء الزيدية ورجلها ، وأجاز في مجلسه لعدد من ثمة الزيدية أنفسهم ، كالإمام أحمد بن يحيى المرتضى (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) وغيره ، ولهذا لا نستغرب إن علمنا أن الإمام سليمان للعلوي كان قد بعث رسالة إلى الإمام المؤرخ الحسين الأهل يخبره فيها بأنه - أثناء تحرير الرسالة - يقرأ صحيح البخاري للمرة الخمسين بعد المائتين في مجلسه^(١)، وعن جميع تلاميذ الإمام العلوي الذين تردوا على هذا المجلس التدريسي العام ترسخ علم الحديث في أغلب أرجاء اليمن ومدنها وقراها وهجرها ، ولو كان هذا الإمام الحافظ غير يمني لمألت شهرته الآفاق ، ولضربت إلى مجلسه أبلط الإبل من مختلف الأنحاء ، ولكان في سمعته وشهرته يصاهي ابن حجر للعسقلاني والجلال السيوطي وغيرهما ، ولن نبالغ إن زعمنا أن معظم رجال اليمن الذي اشتهرت معرفتهم بالحديث من أولخر القرن الثامن حتى نهاية القرن التاسع الهجريين هم تلاميذ هذا المجلس وتلاميذ تلاميذهم ، بل إن شهرة هذا المجلس قد تخطت حدود اليمن فحرص على الجلوس فيها عدد من الوافدين ، ومهما تعددت أسباب زيارتهم لليمن فإن الجلوس إلى علمائها - بمن فيهم الإمام الحافظ العلوي - كان في مقدمة ما عزموا على القيام به، فهذا الإمام العلامة شرف الدين موسى بن مري الغزولي (ت ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م) قد وفد إلى تعز ، ويمم وجهه شطر هذا المجلس الذي كان أغلب انعقاده في المدرستين للمجاهدية والأشرفية ، وعن الإمام العلوي أخذ صحيح البخاري وختمه في ثلاثة وعشرين مجلساً^(٢) ، وكان يحضر القراءة مع الإمام الغزولي جمع من العلماء الأكابر ،

(١) الأهل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٣١٦ .

(٢) عند استحضار ما أخبر الإمام سليمان العلوي به الإمام الحسين الأهل أنه يقرأ صحيح البخاري للمرة الخمسين بعد المائتين ، وما ورد هنا من إجازة الإمام العلوي للإمام الغزولي في صحيح البخاري منحت له بعد دراسته له في ثلاثة وعشرين مجلساً تدريسياً فأجما - وبساية حسيية بسيطة - نستطيع أن نقول أن قراءة صحيح البخاري مائتين وخمسين مرة مستم بهذا المعدل - في خمسة آلاف ومبعضة وخمسين

فأجاز لهم الإمام سليمان العلوي جميعاً ، وأرخ في نصها للقراءة والإجازة ، وترجم في ثلثيها للمُجاز^(١) .

جاءت الإشارة صريحة إلى مجلسين تدريسيين في تعز في تاريخ البريهي في ترجمة القاضي جمال الدين محمد بن حسين البجلي (ت حوالي ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م) ، أحدهما هو المجلس السابق ذكره ، وأما الآخر فهو مجلس الإمام الفيروزآبادي ، يقول البريهي^(٢) : " ... انتقل لطلب العلم ، فقرأ على جماعة من الأئمة ، وحضر مجلس التدريس للإمام مجد الدين الفيروزآبادي والفقهاء نقيس الدين العلوي ، فأجاز له ... " .

ومنها كذلك مجلس الإمام المفسر يوسف بن أحمد بن محمد الثُلثي (ت ٨٣٢ هـ / ١٤٢٩ م) الذي كان يعج بالطلبة ، وكان جامع ثلاً هو مكان اعتقاده ، تروي المصادر أن هذا الجامع كان يمثل - رغم اتساعه - بالطلبة ويبقى بعضهم وفي أيديهم كتبهم في نوافذ الجامع بسبب الأزدحام^(٣) .

وكان للفقهاء صفي الدين أحمد بن عمر بن جعفل (٨٣٤ هـ / ١٤٣٠ م) هو أكبر علماء أهل، بل وأكبر علماء قريته بيت الفقيه ، وكان المشار إليه بالفتوى ومجالس التدريس للغة والحديث ، وقيل أنه كان متفرغاً لذلك ، وقد عاصره بعض المؤرخين المتأخرين ورأوه في مجلس تدريسه فوجدوه على الحال إلى آخر أيامه في سنة^(٤) .

وكان للعلامة جمال الدين محمد بن عبدالله بن محمد الكاهلي (ت ٨٣٩ هـ / ١٤٣٥ م) مجلس تدريس دائم ، وكان الفقه محوره في الغالب ، إذ أنه كان من أئمة

مجلساً ، وقد صرح العلوي بأن أول قرءة لصحيح البخاري كانت قد تمت في سنة (٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م) [انظر الأهل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٣١٦] وكانت وفاته في سنة (ت ٨٢٥ هـ / ١٤٢٣ م) ، فعلى افتراض أنه كتب هذا التصريح في آخر حياته فإنه بذلك يكون قد عقد هذا العدد الكبير من مجالس التدريس في مدة تبلغ ثمانية وخمسين سنة من عمره المبارك ، مع العلم بأن هذا الإمام لم يكن يدرس صحيح البخاري فقط ، بل كان يدرس جميع أمهات الحديث والفقه والعربية وعدد من العلوم الأخرى .

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٨٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦١ .

(٣) زيارة ، أئمة اليمن ، ص ٣٠٥ .

(٤) الأهل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ١ ص ٣٤٨ .

العلماء الشافعية في عصره وسلمت رئاسة للفقهاء ببلده على الإطلاق ، أجمع أهل وقته على جلالتهم وبراعتهم ، وأنه ممن لا يجارى في الفقه ولا يمارى ، فكان المرجوع إليه في المعضلات من المسائل الفقهية ، وكان قد تتلمذ على ثلثة من أبرز الفقهاء في اليمن ، كما أنه قد قرأ بمكة على بعض الأئمة هناك ، ثم عاد إلى إب فقام في تدريس العلوم والفقه خصوصاً مدة طويلة تزيد على أربعين عاماً ، وقد يحضر مجلسه العلمي نيف وأربعون رجلاً من القضاة والفقهاء ، فما بالك من دولهم ، وعرف بأنه كان ثبناً محققاً للأقوال والوجوه ، وخصوصاً في (التبيين) و (المهذب) و (الحاوي)^(١) .

٢. مجالس السماع :

كانت مجالس السماع في الغالب تتعقد بمناسبة نزول أحد العلماء في البلد ، سواء كان من أهل القطر أو من خارجه ، فيقوم أهل العلم فيه بعقد المجلس لاغتنام نزول هذا الضيف بين أظهرهم لتلقي علومه عنه ، وكانت المهمة الرئيسية لمجالس السماع تتمحور حول علم الحديث وما يرتبط به من العلوم الأخرى ، وذلك لا يمنع انعقادها لسماع علوم أخرى كالفقه وعلوم العربية وغيرها^(٢) ، وانعقاد مجالس السماع هو من التقاليد العلمية القديمة في كل ديار الإسلام قاطبة ، وقد عرفه اليمنيون منذ القرن الهجري الثاني ، وكان لعلو كعب بعض علماء اليمن الأوائل في الحديث خصوصاً دوره الكبير في كثرة انعقاد مجالس السماع ، وقد تناولنا في الفصل الأول رحلة عدد من أئمة الإسلام - كالإمامين الشافعي وابن جنبل - إلى اليمن للجلوس في مجالس السماع أمام كبار المحدثين بها مثل معمر بن راشد وعبد الرزاق الصنعائي وغيرهما .

وقد توارث للخلف من علماء اليمن المتأخرين هذا التقليد العلمي عن السلف من أولئهم ، فكان شيخ محدثي اليمن في القرن السادس الهجري ، الإمام الحافظ أبو الحسن علي بن أبي بكر بن حمشير القرطبي (ت ٥٥٧هـ / ١١٦١م) يعقد مجالس السماع في معظم المناطق اليمنية التي يزورها ، منها مجلس سماع صحيح البخاري الذي عقده

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) عبد الرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص

في مدينة إب سنة (٥٤٨هـ / ١١٥٣م) ، والمجلس الذي عقده في قرية ذي شريق لسماع سنن أبي داود وصحيح البخاري وحضره الإمام يحيى بن أبي الخير العمراني في سنة (٥٥٥هـ / ١١٦٠م) ، كما ازدهرت مجالس السماع التي عقدها في عدن وحضرها جمع من المغاربة والإسكندرانيين^(١).

ومما تجدر الإشارة إليه هو أن مجالس السماع تستدعي حضور القلب والذهن أكثر من غيرها ، لأن الملقى للدروس فيها غير مستقر ، فما يمكن أن يكون غامضاً قد يظل غموضه قائماً لمدة ، كما أن طبيعة السماع لا تتيح من الوقت ما يكفي لتكوين الكثير من المعلومات الملقاة ، لذلك كانت حصيلة العلم فيها تختلف اختلافاً كبيراً من طالب إلى آخر بناءً على القدرات العقلية للفهم والاستيعاب المتباينة فطرةً بين الناس . ومن أشهر من عقد مجالس السماع في مدة دراستنا إمام أئمة اللغة والتفسير والحديث الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزآبادي الشيرازي (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م)^(٢) الذي وفد إلى اليمن سنة (٧٩٦هـ / ١٣٩٣م) ، وعقد مجالس السماع^(٣) في زبيد وفي تعز ، وحضرها خلق كثير من طلبة العلم ، وكان السلطان الأشرف الثاني إسماعيل (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) يرضى مجالسه تلك ويعتني بها ويمنّ جلوس فيها عناية خاصة ، إذ أنه تكفل بإقامة مائدة علمية بكل طيب من الأكل والشرب لكل من حضرها ، واحدة في أول النهار قبل البدء فيها وأخرى في آخره ، وجعل الخدم يدورون على الناس أثناء القراءة بمجامر العود والعنبر ، وكانت العلماء

(١) الجدي ، السلوك ، ج ١ ص ٣٠٤ ، ٣٤٢ ، ابن سيرة ، طبقات فقهاء اليمن ، ١٧١ ، ١٨١ ، بامخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢) فسخاوي ، الجواهر والفرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ، ج ١ ص ٢١٦ ، قريشي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩٤ - ٢٩٨ .

(٣) لفرق بين هذه النوعية من المجالس التي تناولها ضمن هذه الفئة والمجالس الفكرية السابقة لى مجالس السماع نعتقد ضمن إرادة الاستفادة من الواقع الذي لا يرتجى استيطانه لليمن ويقاؤه بها ، أما المجالس الفكرية فهي دائمة الاعتقاد ، وبالتالي فصاحبها مستقر في الفطر ومستوطن له ، لذلك فإننا عندما نتحدث عن مجالس السماع للإمام مجد الدين الفيروزآبادي فإننا نقصد به تلك التي عقدت إبان التعامل معه كصيف واحد عابر في المدة التالية لوصوله اليمن ، ولما المجالس التدريسية له نفسه فهي تلك التي دأب على عقدها بعد أن رمى عصا الفرحال وفرت نفسه بهستيطان اليمن والمكوث بها في جوار السلاطين الرسولين .

... إذا حضروا مجلساً هو فيه لزموا الأئمة معه ، فمن كان منهم مفيداً صار بين يديه مستفيداً ، فيكتبون معظم ما يتكلم به ، ويعلقونه في كتبهم^(١).

وممن عقد مجالس السماع من علماء الإسلام العظام الذين وفدوا على اليمن شيخ الإسلام الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المصري (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) في زيارته إلى اليمن ، الأولى سنة (٨٠٠هـ / ١٣٩٧م) على آخر مدة حكم السلطان الأشرف إسماعيل الرسولي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) ، والأخيرة في سنة (٨٠٦هـ / ١٤٠٣م) في لوائل مدة حكم السلطان الناصر أحمد الرسولي (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م)^(٢) ، وقد أورد الإمام السخاوي^(٣) - أثناء مرده لأسماء جميع تلاميذ الإمام ابن حجر - أسماء عدد كبير ممن سمعوا عنه الحديث وغيره من العلوم في اليمن ، ومن تبادلوا معه الإحازات العلمية وعقدوا مجالس كثيرة للمذاكرة والمؤانسة .

وعقدت مجالس السماع أيضاً في للإمام المقرئ والمحدث شمس الدين أبا الخير محمد بن محمد بن يوسف الجزري (ت ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م) عند زيارته لليمن ووصوله إلى زبيد سنة (٨٢٨هـ / ١٤٢٤م) أيام سلطنة المنصور الثاني عبدالله الرسولي (ت ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م) ، وكان جامع الأشاعر ميدانها كما ذكره الإمام الأهدل^(٤) .

كما عقدت مجالس السماع للفاضل العلامة عز الدين عبدالعزيز بن علي بن أحمد النويري (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢١م) وحضرها جماعة كبيرة من فقهاء تعز وغيرهم ، وكان السلطان الناصر أحمد (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) من بين الذين حضروا مجالسه^(٥) .

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، السخاوي ، الجواهر والقرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ، ج ١ ص ٢١٦ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٦ ، ٩١ ، ١٣٥ ، ١٧٧ .

(٤) تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٣٣٢ .

(٥) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٤٣ .

وتذكر المصادر عن بعض العلماء - في معرض تراجهم - بأنهم قد سمعوا كتباً كثيرة ، والإشارة إلى سماعهم تقتضي جلوسهم في مجلس السماع ، أمثال القاضي العلامة جمال الدين محمد بن عمر بن محمد بن صالح البريهي (ت ٨٣٦هـ / ١٤٣٢م) الذي سمع كتب التفسير على الإمام مجد الدين الفيروزبادي ، وكما سمع كتب الحديث على الإمام الحافظ نفيس الدين سلیمان بن إبراهيم العلوي^(١) .

ومنهم كذلك الإمام المقرئ عفيف الدين عثمان بن عمر الناشري (ت ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م) الذي سمع كثيراً من العلوم على أيدي جماعة من أئمة العلم في اليمن ، ذكرت المصادر منهم عنه شيخ الإسلام الإمام شمس الدين علي بن أبي بكر الناشري وشيخ الإسلام الإمام محمد بن أبي بكر الخياط والإمام الحافظ سليمان العلوي والإمام إسماعيل المقرئ، وسمع عدداً من الأئمة الوافدين إلى اليمن كشيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني والقاضي المؤرخ تقي الدين القاسبي المالكي والإمام محمد الجزري وغيرهم^(٢) .

٣. مجالس الإملاء :

إن الخدمة التي قدمتها مجالس الإملاء للعضارة الإسلامية عموماً ، والحياة العلمية منها خصوصاً ، كبيرة جداً ، فهي التي أسهمت بحظٍ وفيرٍ في لتنتشار الكتب عن مؤلفيها أنفسهم أو عن تلاميذهم يوم أن كلن للنسخ باليد هو الجسر الوحيد للحصول على المؤلفات المتنوعة والمختلفة ، وكان انتقال العلم عن طريقها أرسخ وأثبت ، فالتعلم فيها يتم عن طريق حضور العقل والأذن بدرجة أكبر مما يستلزمه حضورهما في التعلم عن طريق السماع وحده ، كما أن بقاء الوثيقة المكتوبة بيد الطالب تعينه على الاستنكار في أي وقت شاء ، إضافة إلى أنه يستطيع أن يمنح من لم يحضر مجلس الإملاء فرصة التعلم بنقل ما تم كتابته ، وقد عده بعض العلماء أحد أقسام السماع نفسه ، وجعلوه أرقى طرق لتلقي^(٣) .

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٣) ابن الصلاح ، مقدمة ابن الصلاح ، مؤسسة فكتب الثقافية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٧م ، ص ٨٧ .

ومن المؤكد أن طبيعة مجالس الإملاء تختلف عن مجالس التدريس ومجالس السماع ، فهي تستلزم البطء في العرض كي يتمكن الطالب المستملي من متابعة شيخه المُعَلِّم ، أما إذا كان العدد الحاضر كبيراً فإن الاحتياج سيكون ملحاً إلى من يبلغ كلام الشيخ إلى من لا يبلغه صوته ، وقد روت بعض المصادر بأن بعض المحدثين في العراق وغيرها مجلسهم كان به ما بين خمسة أو ثمانية مستمليين يبلغ كل منهما الآخر ليوصل البلاغ إلى آخر المجلس ، بل إن أحد العلماء كان في مجلسه نحو عشرين شخصاً يبلغون كلامه إلى الحضور الكبير الذي جاء لكتابة ما يملأه عليهم^(١) .

وبعد القرنان الخامس والسادس الهجريين بداية لتعاش مجالس الإملاء في جميع الأقطار الإسلامية وخاصة في بلاد الشام والعراق^(٢) ، وكان اليمن في ذلك مواكباً لغيره من الأقطار الإسلامية ، فقد كان بعض علمائه يخصصون الخميس والجمعة للإملاء فقط ، والبعض الآخر خصص يوماً واحداً^(٣) ، في حين جعلت بقية الأيام للمجالس العلمية الأخرى^(٤) ، لذلك اشتهرت فيها الكتب المسماة بـ (الأمالي) ومعظمها في الحديث ، وهي تسمية تشير في أول ما يتبادر للذهن عند قراءتها إلى ما كان العلماء يملونه على طلابهم أو ما يستملونه من غيرهم من كبار العلماء ، وقد ورد ذكر كتب الأمالي كثيراً في المصادر الزيدية على وجه الخصوص ، منها (أمالي أحمد بن عيسى) و (أمالي أبي طالب) و (أمالي المؤيد بالله) و (أمالي ظفر بن دعي) وغيرها^(٥) .

ومن عقد مجالس الإملاء من علماء اليمن في القرنين التاسع والعاشر الهجريين نذكر الإمام العلامة نور الدين علي بن أبي بكر الأزرق (ت ٨٠٩ هـ /

(١) السمعاني ، آداب الإملاء والاستملاء ، ص ٨٤ ، ٨٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦ ، ١٧ ، ٢٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٣ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٤٤٧ .

(٤) عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ١٨٠ .

(٥) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٤١٧ ، ٤١٨ ، ج ٢ ص ٧٣٧ ، ج ٣ ص ١٢٠٢ ، ١٢٧٣ ، عبدالرحمن أحمد المختار ، المرجع السابق ، ص ١٨١ .

١٤٠٧م) أحد أكبر علماء نهامة ، وهو العالم الأفضل في أبيات حسين في فروع العلم المختلفة ، كان موصوفاً بأنه كثير المطلعة لمبسوطات المذهب الشافعي ، كثير الحفظ لغرائبها ، حافظاً لكثير من حكايات العلماء والصالحين في اليمن ، حتى قلَّ عنه أقرب تلاميذه شاكياً وأكثرهم التصاقاً به - الإمام الحسين بن عبدالرحمن الأهل (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) - أنه : " لو شاء أن يملئ من حفظه من ذلك كراساً وأكثر في مجلس واحد لكان سهلاً عليه ... " (١) ، فافتراض الأهل أن لمشيحه القدرة على الإملاء لكم كثير من المعارف في مجلس واحد بما يملأ الكراسة أو أكثر فيه دلالة على أن مجالس الإملاء كانت قائمة كواحدة من المجالس العلمية الشائعة ، ولعل شيوعها هو سبب عدم ذكرها في المصادر ، لأنه في مقام الحديث عن البديهي المعروف .

وكان الفقيه علي بن بدر بن أحمد النقي من طلاب الإمام الحسين الأهل نفسه للذين ورثت الإشارة إلى استفادتهم من إملاءه ، فبعد أن قرأ على الأهل الفرائض وبحث في علمها وحسابها ، حصل تفسير البغوي وصحيح الإمام مسلم إملاءً في مجلسه بأبيات حسين في تهامة (٢) .

ولما تناولت بعض المصادر مظاهر الحفاوة التي حظي بها الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الفيروز ابادي الشيرازي (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) عندما نزل اليمن في ضيافة السلطان الأشرف الثاني إسماعيل الرسولي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) ، فكان مما ذكروه أن العلماء اليمنيين - ومعهم الكثير من الطلاب والتلاميذ - قد جلسوا بين يديه بلا ترفع ولا تأفف ، وأنهم إذا حضروا مجلساً هو فيه لزموا الأدب معه ، فمن كان منهم مفيداً صار بين يديه مستفيداً ، فيكتبون معظم ما يتكلم به ، ويعلقونه في كتبهم (٣) ، وهذا شاهد واضح على اعتماد الإملاء في لوساطتهم .

(١) الأهل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ١٥٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٩٩ .

(٣) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩٧ .

٤. مجالس الإفتاء :

اتجه الناس في العالم الإسلامي كله إلى العلماء والميرزين من طلابهم ليسألوهم عما يجهلون من أمور دينهم ، وذلك امتثالاً للأمر الرباني الذي يأمر كل المسلمين بعدم استمراء الجهل والبقاء على العمى في ما يظهر لهم في مواقف حياتهم اليومية التي تستدعي التوقف عند حدود الشرع الحنيف ، فقد قال الله تبارك وتعالى : فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ، وكان علماء اليمن يتصدرون للإفتاء أينما حلوا ، ويقومون بتوجيه الناس الوجهة الصحيحة في العبادة والاعتقاد ، وسنتطرق إلى هذه المهمة بشيء من التفصيل في حديثنا عن علاقاتهم ولوائهم الاجتماعية في فصل قادم .

المتتبع لتراجم علماء اليمن عموماً يجد أن كثيراً منهم قد وُصف بأنه كان مفتياً ، أو أنه كان عمدة الفتوى في بلده ، وذلك يجعلنا نرجح أنهم كانوا يعتقدون مجالس للاستماع إلى أسئلة الناس والرد عليها ، ويأتي الحديث عن مجالس الإفتاء ضمن المجالس العلمية باعتبار أن طلاب العلم الذين حضروها وإن لم يكونوا معنيين بأجوبة مشائخهم على الفتاوى المطروحة عليهم من باب الاحتياج إلى معرفة الحكم للتنفيذ إلا أنهم كانوا يجعلون منها تطبيقات عملية لكيفية إنزال مشائخهم قواعد الفقه وأدلته على الوقائع الاجتماعية والحياتية اليومية ، كما أنهم بلا شك كانوا يرقبون من خلالها طرق استنباط الأحكام واستقراء النصوص للحكم على ما لم تأت الإشارات إليه صريحة في تلك النصوص قرآنية كانت أو نبوية .

من العلماء اليمنيين الذين أُسبغت عليهم المصادر صفة المفتين الإمام العلامة نور الدين علي بن أبي بكر الأزرق (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٧م) أحد أكبر علماء تهامة ، وهو العالم الأفضل في أبيات حسين في فروع العلم المختلفة ، وكانت مشاركته في الفقه من القوة أن ألف فيه أكثر من أربعة كتب كبيرة سيرد نكرها في الفصول القائمة بمشيئته تعالى ، كان " مرجع الفتوى إليه من كل جهة قريبة وبعيدة ، من الجبال والتهام ، كزبيد وصعاء وعدن ، والبلاد الشامية وبلاد العجم ، تأتيه المسائل من هذه الجهات ، وتقبل فتواه فيها ، وينقطع النزاع ... وكان - رحمه الله تعالى - مع كثرة

(١) سورة الأنبياء .

اطلاعه على النصوص ومأخذ الوجوه قد يفتي بخلاف ترجيح الرافعي والنووي إذا كان قد رجحه غيرهما وظهر له وجه ترجيحه أو مصلحة تترتب عليه ...»^(١) .

ومنهم كذلك شيخ الإسلام الإمام إسماعيل بن محمد بن عمر الحنبلي الحضرمي (ت ٨٢٤هـ / ١٤٣٠م) الذي كان بلغ النهاية في تحقيق عدد من العلوم ، منها : الفقه والتفسير والأصول والنحو واللغة ، واشتهر بالفتوى ، وقصد من أجلها من جميع الجهات اليمنية ، ولا سيما حصر موت ، وانتشرت فتاواه واشتهرت ، وقد اطلع المؤرخ الإمام أبو محمد الطيب بن عبدالله بامخرمة على بعضها فقال : " وانتشر عنه الفتوى المشهورة ، من طالعها وتأمل مسلكه في تنقيح أجوبتها وتحريرها وعدم اقتصره على حكاية المعتمد من الطريقتين أو القولين أو الوجهين أو غير ذلك حتى يأتي بجميع ما في المسألة من الخلاف بين الأصحاب ، ثم في آخره يختصر ما بسطه أولاً ، فيقول : فتمخض من هذا - أو فتلخص ، أو فتحصل ، أو نحو ذلك - كذا وكذا .. »^(٢) ولعل مثل هذا الجهد الذي بذله هذا العالم قد صدر عن كثير من كثير الفقهاء المفتين ، غير أن المؤرخين اليمنيين درجوا على عدم التفصيل في شأن فتاواهم ، إذ أن أكثر ما أشلوا إليه بخصوص العشرلت من الفقهاء للعلماء أنهم " أفتوا ودرسوا " ، وهو عين ما ذكره الإمام بامخرمة في آخر ترجمة الإمام الحنبلي الحضرمي نفسه ، إذ قال : " وبذل نفسه في بلده وحيثما كان للتدريس والفتوى ابتغاء وجه الله تعالى ... »^(٣) ، فلو لم يكن قد فصل عنه في بداية الترجمة لما عرفنا براعته في الفتوى .

ومن اشتهروا بالعود في مجالس للفتوى الإمام أبو الطيب عبدالله بن أحمد بن علي بن أحمد بامخرمة (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م)^(٤) ، الذي كان على دراية واسعة بالفقه على مذهب الإمام الشافعي ، وله في ذلك إجازات عامة من أكبر أئمة عصره بإبليس ، منهم القاضي محمد بن أحمد باخميتش (ت ٨٦١هـ / ١٤٥٧م) والقاضي محمد بن مسعود باشكيل (ت ٨٧١هـ / ١٤٦٧م) والإمام عبدالرحمن بن عمر

(١) الأهل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ١٦٠ .

(٢) بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٦٩٢ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٤) بامخرمة المذكور هنا هو والد الإمام المؤرخ أبو محمد الطيب بن عبدالله بامخرمة صاحب (قلادة النحر) و (تاريخ نجر عدن) ، وقد لزم القلوبه تحاشياً للخلط .

بأهزمز (ت ٩١٤هـ / ١٥٠٨م) ، وقد جمعت فتاواه وتم ترتيبها على أبواب الفقه^(١) .

أما الذين أصبح عليهم المؤرخون اليمينيون لقب (المفتي) ، والذين وردت الإشارات في تراجمهم أنهم أفتوا دون إيراد شيء من التفصيل فهم كثيرون جداً ، وذلك يعني بالضرورة أنهم مارسوا الفتوى ، سواء جلسوا لها في مجالس خاصة ضمن حلقات التدريس وعقب الصلوات ، أو من خلال استقبال أسئلة المستفتين في رفاع وما شابهها ، فهم قد قاموا بمهمة مجالس الإفتاء التي كانت أحد أهم المجالس العلمية والتي أوجد منها عامة الناس - على وجه العموم - والطلاب منهم على وجه الخصوص ، وسنورد هنا أسماء عينة من أولئك الفقهاء الذين أشرنا إليهم ، منهم الفقيه صفي الدين أحمد بن عمر بن جهمان (٨٣٤هـ / ١٤٣٠م)^(٢) المفتي في بيت الفقيه ابن عجيل ، والفقيه العالم عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن نصابة (ت بعد ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) ، كان المفتي المعتمد في قريتهم (عريش ابن عسكر) بالقرب من حرض^(٣) ، ومنهم الفقيه العلامة جمال الدين أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن مبارز (ت ٨٦٨هـ / ١٤٦٣م) " مفتي زبيد وعالمها " ^(٤) ، والفقيه العلامة شهاب الدين أحمد بن شيخ الإسلام الطيب بن أحمد بن أبي بكر النشاري (ت ٨٧٨هـ / ١٤٧٣م) " أحد فقهاء زبيد ومفتيها " ^(٥) ، والفقيه العلامة شمس الدين علي بن إبراهيم الزليعي (ت ٨٨٠هـ / ١٤٧٥م) " أحد المفتين بزبيد " ^(٦) ، و " فقيه زبيد ومفتيها " ^(٧) الإمام العلامة إسماعيل

(١) بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٨٢ ، ٧٨٣ .

(٢) الأمد ، تحفة الزمن في تاريخ ملوك اليمن ، ج ١ ص ٣٤٨ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٤) بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٢٢ ، ابن النبيع ، بغية المستفيد ، ص ١٣٤ ، السخاوي ، الضوء قلاص ، ج ٦ ص ١٤٠ .

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٢٠ ، بامخرمة ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٧٢٩ ، ابن النبيع ، المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٥٣ ، السخاوي ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ١٦٠ ، بامخرمة ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٧٢٩ .

(٧) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٧٤٩ ، ابن النبيع ، المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

بن إبراهيم بن بكر (ت ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م) ، والأديب الشاعر للعلامة "مفتي نعر" (١) حسن بن عبد الرحمن الصباحي (ت ٨٩٨هـ / ١٤٩٣م) ، والإمام العلامة جمال الدين أبو النجباء محمد بن الصديق الصائغ (ت ٩٢٠هـ / ١٥١٤م) الذي "أقلم بزبيد ينشر العلم تدريساً وإفتاءً ، ويقصد بالفتوى من الجهات البعيدة ... " (٢) .

٥. مجالس الوعظ والذكر :

عند حديثنا عن مجالس الوعظ والذكر يحضرنا ما استصدرنا به هذا الفصل عند حديثنا عن السمات العامة للأنظمة التعليمية عصرئذٍ ، وخاصةً ما ذكرناه عن الغياب الكبير للدوافع الدنيوية المادية وراء السعي في طلب العلم وتحصيله ، فقد اتصف علماء الإسلام على مر العصور بالصلاح والترفع عن الدنيا ، وتجنب السرير فيما يخالف تلك المبادئ والمثل الرفيعة التي يدعو الإسلام إليها ، وكانوا دائماً موضع الاحترام الكبير بسبب ذلك من قبل كل الشرائع الاجتماعية الأخرى ، كما منزلة العالم وطالب العلم ترتفع في المجتمع تبعاً لأمرين مهمين : أولهما مدى كثرة الحصيلة العلمية التي حازها ، وثانيهما مدى التزامه بالسلوك القويم وشدة اقتبائه للتعاليم الإسلامية .

وكان العلماء يتصدرون لوعظ الناس وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر امتثالاً للأوامر الربانية والنبوية التي تجعل ذلك في مقدمة مهامهم ، وكانت هذه المجالس من طرق تلقي العلم على أيديهم .

ومن أمثلة مجالس الوعظ المنعقدة في مدة الدراسة تلك التي درج على إقامتها الفقيه صارم الدين دلود بن أبي بكر بن محمد بن علي بن بشر (معاصر للمؤرخ البريهي - القرن التاسع الهجري) ، وهو المعروف بإحداثه الوعظ والخطابة ، حتى وصفه المصدر بأنه " كان واعظاً مصقلاً ... " (٣) ، وكان - أحياناً - يعطي منبر الجامع الكبير بمدينة إب ليلقي مواعظه (٤) .

(١) باسخرمة ، قلادة القهر ، ج ٣ ص ٧٥٥ ، ابن النديم ، بغية المستفيد ، ص ٢٠١ .

(٢) باسخرمة ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٧٩٥ ، ابن النديم ، الفضل المزيد ، ص ٣٥٠ ، ٣٥١ ، المجدروس ، انوار السلف ، ص ٩٧ .

(٣) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٨٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٠ ، ٨١ .

كما كان الفقيه أحمد بن محمد بن يوسف بن حفيص الأموي القرشي المشهور بموضوعة (ت ٨١٦هـ / ١٤١٣م) مشهوراً بوعظه ، وكان مسجد بني شَيْبَةَ في قرية الحرز من وادي موز بتهامة هو ميدان مجالسه الوعظية ، إذ كان موصوفاً بصفاء الذهن ، وحسن الصوت بالقرآن الكريم ، وكان خطيباً واعظاً مؤثراً ، وكان بخطابه يشجي القلب ، لا يكاد يسمعه أحد إلا رق لصوته أو بكى ، وربما بكى هو على المنبر^(١) .

وكان المقرئ تقي الدين عمر بن عيسى الخطيب (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م) واعظاً فصيحاً ، شانه للتواضع ، يطيل مجالسة الأخيار والشيوخ والخضوع ، ولما كان خطيباً في مدينة إب ، فقد أكثر من مواعظه التي كان لكلامه ووعظه فيها في القلوب موقع ، وكان قريب العبارة حسن الصوت كثير الصمت ، وكان إذا صعد المنبر أتى بوعظه ترجل منه للقلوب وتجري به العيون باللفظ الرقيق والمعنى الدقيق^(٢) .

ومنها أيضاً المجالس الوعظية التي كانت تقوم فيها أسماء بنت كمال الدين موسى الضجاعي (ت ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م) بوعظ النماء وتأديبهم في مدينة زبيد كما وصفه المؤرخ العيدروس^(٣) وذلك بعد أن قرأت في القرآن الكريم والتفسير وكتب الحديث ما جعلها تنصدر لهذه المهمة النبيلة .

أما مجالس الذكر - وقد تسمى بحلقة الذكر في بعض المصادر - فقد اشتهر بها الصوفية أكثر من غيرهم ، فقد كانت هذه المجالس تتعقد باستمرار في كل المناطق التي وجدوا فيها ، ومن طبيعة هذه النوع من المجالس أنها لا تتعقد إلا في الليل وطرفي النهار ، وكانت تتنوع مانتها وموضوعاتها بين ترديد الأوراد من الأدعية المأثورة وتلاوة القرآن وتناول بعض المسائل العلمية ومناقشتها ، وهذا يؤكد لنا أن هذه المجالس لم تكن علنة لمن يحب ارتيادها من الناس ، بل كانت محددة للخاصة ، سواء كانوا من شريحة العلماء وطلابهم أو من رجال الصوفية ومريديهم ، وكان انعقادها يتراوح في الانعقاد ما بين المساجد والزوايا أو منازل بعض العلماء ، ومن أقدم مجالس الذكر في تاريخ اليمن العلمي في العصر الإسلامي تلك المجالس التي عقدها رجال المطرفية من

(١) الأمل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٥٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١١ .

(٣) فنون السفر عن أخبار القرن للعالم ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

للزيدية في القرن الخامس والسادس الهجريين ، كمجلس أحمد بن الريان المعقد في منزله مع مشائخ طائفته ليلاً ، يذكرون الله تعالى فيها مع إضافة شيء من المسائل العلمية لمناقشتها ، ومنها مجالس الذكر التي سنها الحسن بن زاهد الجنبلي المطرفي في مسجد مناع وسار على نهجها الكثير من أهل الهجر العلمية في مناطق الزيدية^(١) .

وكانت هناك مجموعة من الأذكار للمعتدة لدى الصوفية ، بعضها من استقى من المأثورات النبوية وبعضها من وضع أعلامهم ، منها ما ذكره البريهي^(٢) أن الشيخ (ولي الله تعالى) محيي الدين أبو حفص عمر بن محمد العراقي الشافعي (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) ألف نكراً ، فلما استحسنه المتصوفون في كل بلد نصبوا أنفسهم لقراءته في مجالس الذكر التي درجوا على عقدها ، فكانوا يثقلونه من الصبح إلى طلوع الشمس ومن المغرب إلى العشاء ، بعد كل صلاة من هذه الأوقات .

ومن مجالس الذكر التي كانت تُعقد في مدة دراستنا هذه نذكر المجلس الذي دُلِبَ على عقده للفقير عفيف الدين عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر بن عمر الأصبحي الشنيني (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) بين المغرب والعشاء وبعد صلاة الصبح في قريته ، وكان يداوم على حضوره أولاده وتلامذته ، وكان التلاوة تغلب على فقرات هذا المجلس^(٣) .

ومن قبله كان الفقيه العماق ذكره أحمد بن محمد بن يوسف بن حفيص المعروف بمعوضة القرشي الأموي (ت ٨١٦هـ / ١٤١٣م) يداوم على حضور حلقة الذكر التي كانت تقام دوماً في مسجد بني شيبه الذي كان إماماً فيه^(٤) .

لما مجالس الذكر التي كان يعقدها الشيخ صارم الدين داود بن صالح المصنف (ت ٨٣٥م / ١٤٣١م) فقد كانت على وجه من الغرابة في مكان تعقدها ، فهو يتخير كل ليلة موضعاً خالياً من الناس ، وكان يسير بجماعة من أهل بلده كانوا من مريديه

(١) اللخبي ، طبقات مُعلِّم اللخبي ، ج ٤ ص ٢٨ ، ٥٠ ، عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ١٨١ .

(٢) طبقات صلحاء اليمن ، ص ٤١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤١ .

(٤) الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٥٠ .

فيمنعون أنفسهم النوم ، ويقومون بالصلاة والذكر والدعاء ، كما كان يخرج بالليل من المساجد إلى المقابر ومعه جماعة يجهرون بالذكر^(١) .

وكان للقاضي العلامة جمال الدين محمد بن عمر بن محمد بن صالح البريهي (ت ٨٣٦هـ / ١٤٣٢م) مجلس ذكر يؤمه معه أولاده ودرسته ويختمون فيه القرآن الكريم كاملاً ، واستمر انعقاده حتى وفاته^(٢) ، وقد تحدثت بعض المصادر عن مجالس الذكر والاستغراق التي كان يعقدها الشريف الفقيه عبدالرحيم بن عبدالله بن مهنا (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) ، ودلوم على عقدها عمراً طويلاً إذ هو من المعمرين الذين عاشوا أكثر من مائة سنة^(٣) .

• ثالثاً : نظام المذاكرة والمناقشة :

هذا النوع من نظم التدريس والتعلم تتخذ غالباً الشكل الثنائي ، وهو ما جعلنا نتردد في احتسابها مجالساً ، خاصة إذا ما استحضرنّا التعريف السابق للمجلس بأنه المكان الذي يجلس فيه الناس للحديث والاستماع ، وعموماً كان لهذا النوع من النظم دور كبير في دراسة العلماء للقضايا المثيرة للنقاش فيما بينهم ، وخاصة لأصحاب المذهب الواحد ، إذ يخرجون من النقاش والمذاكرة برؤى متفق عليها فيما بينهم ، ويتلقاها عنهم تلاميذهم خالصة في صورة نهائية ، سواء حضروا معهم النقاش أو لم يحضروه ، كما أن له دوراً محورياً في حفظ العلوم الشرعية الأخرى عموماً والسنة المطهرة على وجه الخصوص ، وذلك من خلال اختبار قوة الحفظ بين طلبة العلم أنفسهم ، فإن الواحد منهم يمكنه أن يتأكد من حفظه لمسألة أو كتاب أو متن ما بمذاكرة ذلك ومناقشته مع من هو أحفظ منه من زملاءه ، لذلك فقد لولى المحدثون والمشتغلون به عنايتهم الخاصة بالمذاكرة لأنهم رأوا فيها فوائد عديدة لخدمة

(١) أزعجت هذه الطريقة - خاصة الأخيرة في المقابر - فأس فاعترض على هذه الجماعة أحد أكبر فقهائ مدينة إيب ، متعللاً بتكبيهم للنامين وإزعاجهم الأطفال بأصواتهم العالية ، فأفتى بعدم جواز ما يفعلون . وطلب من متولي البلد الإعانة على منعهم فأجابته إلى ذلك ، البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٦٥ .

(٢) تمصير السابق ، ص ١٤٠ .

(٣) الأمد ، تحفة الزمن في تاريخ ملوك اليمن ، ج ٢ ص ١٨١ .

السنة النبوية حفظاً وفهماً وتذكراً واستحضاراً^(١) حتى قال أحدهم : "القلوب تُرتب ، والعلم غراسها ، والمذاكرة ملؤها ، فإذا لاقطع عن القرب ملؤها جف غراسها " ، وقال آخر : " بما مثل صاحب الحديث بمنزل السمسم ، فإذا غلب عن السوق خمسة أيام تغير بصره "^(٢) أي فقد قدرته على تقدير ثمن الأشياء ، بل إن بعض السابقين من علماء السلف - وهو الإمام الحافظ المزي - قد جعل المذاكرة حياة للعلم وفي تركها إملاته ، وعبر عن ذلك شعراً حيث قال :

مَنْ حَلَزَ الْعِلْمَ وَذَكَرَهُ
حَصَلَتْ نَيْبَةٌ وَأَخْبَرَتْهُ
فَلَيْتَ لِلْعِلْمِ مُدَاكَرَةً
فَعَيَاةَ الْعِلْمِ مُذَاكَرَتُهُ^(٣)

كما أن هناك دوراً آخر لعبته هذه الصورة التعليمية ، وهو ترسيخ العلاقات الثنائية بين العلماء وتكريسها لترمي بظلال الود والوثام على العلاقات فيما بينهم في الغالب ، وقد كان العلماء يستعملون مرور بعضهم على مناطق بعض فيستضيفونهم في منازلهم ، وهناك كانت تعقد معظم المباحثات والمذكرات ، بل وحتى طلب الإجازات العلمية في نهايتها أحياناً .

من أهم ما أورنته المصادر في هذا الشأن ما روى الإمام المؤرخ الحسين الأهدل^(٤) أن شيخه الإمام العلامة نور الدين علي بن أبي بكر الأزرق الهمداني (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٧م) أحد أكبر علماء نهضة قد كان " حسن المحاورة ، كثير المسامرة بالليل ، بحيث يسام جميع من حضر وهو يزيد في الحديث والروايات

(١) د. أحمد محمد نور سيف ، مجلس المذاكرة وأهميتها في حفظ السنة وتقديرها ، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ، دبي ، ط ١ ، ٢٠١٤م ، ص ١٢ .

(٢) الخطيب البغدادي ، الجمع لأخلاق الزواجر وأدب السامع ، تحقيق د. محمود الطحان ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤٠٣هـ ، ج ٢ ص ٢٧٨ .

(٣) ابن المزي ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٣ ص ١٦٣٥ .

(٤) سيلاحظ كثرة اعتمادنا على تاريخ الإمام الأهدل ، وذلك أنه كان أفضل مؤرخي عصره في اليمن في إيراد التفاصيل التي هي غنية بشواهد ما يبحث عنه وفرقتها ، والباحث محكوم بمظنة توافر المادة العلمية ، التي توفرت له فهو مجبر على الوقوف عليها ، وليس هو الحاكم فيها باختياره .

والمذكورة ...^(١) ، وكذلك نكر عن شيخه الآخر العلامة أبي بكر بن علي الحائري (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) أنه " كان منصفاً في المذاكرة ، ويؤثر المذاكرة في علم الرقائق مع من وجد ، له نوقاً في ذلك ، حتى كنت إذا ذاكرته - في حال قرأنتي عليه - يكاد يؤثر ذلك على القراءة ، وإذا ذكرت له نكتاً من علم التصوف أعجبه ذلك كثيراً^(٢) .

كما روى الأهل أيضاً ما جرى بينه وبين الإمام محمد بن علي بن عبدالله بن إبراهيم الخطيب الموزعي الشهير بابن نور الدين (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م) عندما نزل بمدينة أبيات حسين - وهي موطن الأهل - فاستدرك الأهل بنزوله فيها ما فاتته من التلمذ على يديه عندما رحل هو إلى بلده مؤزّع فلم يجده فيها ، يقول الأهل^(٣) : " ولم يتفق لي الأخذ عن ابن نور الدين وقت رحلتي إلى مؤزّع حتى وفق الله وصوله إلى أبيات حسين ... نزل عندي في بيتي ، فأخذت عليه (اللمع) قراءة متقنة كما وصف في إجازته ، وهي عندي بخطي تخصر وتعم بحمد الله تعالى " ، ومع لفظ القراءة والإجازة هما اللذين وردا هنا ، وأن لفظ المذاكرة والمنقشة لم يرد في هذا النص إلا أن معرفتنا بأن الإمام الأهل كان - في الأصل - قد حصل (اللمع) في سنوات طلبه الأولى ، وربما عدة مرات ، حتى حفظها غيباً كما ذكرها عن نفسه^(٤) ، فإننا سندرك أن جو المناقشة والمذاكرة هو الجو الذي ساد قراءة الكتاب المذكور التي دارت بين الإمامين في تلك الليلة المشار إليها .

ويذكر الإمام الأهل - أيضاً - أنه اجتمع بالفقيه أبي بكر بن الطيب بن دعيبس وتذاكرا معاً فرسخ الانطباع لدى الأهل عن مدى فضل رفيقه وقوة حفظه مع انتقاده في أشياء رآها فيه ، إذا يقول : " وهو فقيه محقق عارف بالتصوف ، اجتمعت به وذاكرته فرأيتُه فاضلاً كاملاً ، كثير التلاوة والذكر ، حافظاً للأذكار وكلام الأئمة والتصوفية ، زاده الله وإيانا من فضله ، إلا أنه كان يحفظ ثلثية ابن الفارض

(١) الأهل ، تحفة الأزمن في تاريخ ملوك اليمن ، ج ٢ ص ١٦١ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٨٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٦٠ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٥٩ .

ويستمعونها، غير عالم بقبح ما فيها من الإتحاد ...^(١) ، كما اجتمع الأهل نفسه بآخر هو الفقيه أبو بكر بن مشمر الأشعري فجرت بينهما المذاكرة والمنقشة ، يقول :^{*} فوجدته فقيهاً نبياً حسن القابلية للحق ...^(٢) ، كما أنه - أي الأهل - اجتمع باثنين مع علماء بني جعمان أهل القرية العلمية المباركة قرية بيت الفقيه ، وهما : إبراهيم بن عبدالله بن جعمان محمد بن يحيى بن جعمان فذاكرهما كثيراً ، وخاصة في الفقه^(٣) .

ولما نتذكر ما عُرف به سلاطين بني رسول من العلم والفضل والمشاركة الكبيرة للعلماء ومجتمعهم في كثير من أنشطتهم وفعالياتهم فإننا لا نستغرب إذا لم نجدنا أحد هؤلاء السلاطين - وهو السلطان الظاهر يحيى الرسولي (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) - يقوم بدعوة علماء تهامة للقاء في مدينة المنهجم أثناء حروجه لقتال بعض الخارجين عليه في تهامة ، فقام الإحسان إلى العلماء الوافدين عليه والحفاوة بهم ، وعقد معهم جلسة مذاكرة ومنقشة ، ليس بصفته سلطاناً خرج للقتال بل بصفته عالماً من العلماء^(٤) .

وهذا الإمام المؤرخ ابن الديبع (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م) يتحدث - أثناء ترجمته لبعض علماء وصاب - عن الفقيه بدر الدين حسن بن عثمان المنبهي (من شيوخ ابن الديبع) قد استفاد من مذكراته معه فوائد جملة^(٥) ، كما أنه مدح الفقيه إبراهيم بن محمد الريمي بأنه كان " صاحب شهرة حميدة ومذاكرة مفيدة ...^(٦) .

وقد أفاد الإمام للطبيب بن عبدالله بامخرمة (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) بأنه صاحب الشيخ محمد بن حسن المعلم بن محمد باعلوي وجلس إليه كثيراً ، وكانت المذاكرة تتخذ بجلوسهما ، فيتدارسون القرآن الكريم^(٧) ، كما وُصِفَ شيخ الإسلام

(١) الأهل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٣٦١ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٦٢ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٤٨ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٣٤ .

(٥) ابن الديبع ، نشر المحاسن اليمنية في خصائص اليمن ونسب القحطانية ، تحقيق أحمد راتب حموش ، دار الفكر المحاصر ، بيروت ، دار الفكر ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٩٢م ، ص ٢٢٣ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٢٤ .

(٧) بامخرمة ، قلادة النهر ، ج ٣ ص ٧٠٢ .

الإمام جمال الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن علي بافضل الحضرمي (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٨م) بأنه "كان متقناً في العلوم ، حسن المذاكرة ، ومجالسه محفوظة" (١) .

❖ صور تلقي العلم :

هناك اشتراك بين حديثنا السابق حول أنظمة التدريس وحديثنا هنا عن صور التلقي ، وترتفع درجة الاشتراك في الصورة الأولى - السماع - إلى درجة أنهما يتفقان لفظاً ويتشابهان معنىً ، فمجلس السماع الذي تحدثنا عنه كان من جانب رؤيتنا إلى العالم المتكلم في المجلس كونه مَرْتَبِلاً ، أما حديثنا هنا فهو - وإن كان يتناول المكان والنشاط السابقين ذاتهما - يشير إلى دور طالب العلم كنه مستقبل ، ويتضح ذلك من خلال شيوع عبارات (أخذ عن ، حدثنا ، أنبأنا ، وري عن ، سمع ...) في المصادر من كتب التاريخ والطبقات وكتب الجرح والتعديل .

وبصور تلقي العلم التي كانت مستخدمة في القرنين للتاسع والعاشر الهجريين هي نفسها التي كانت مستخدمة في العالم الإسلامي من قَبْلِ المحدثين والنقهاء والمؤرخين وغيرهم منذ القرون الهجرية الأولى ، وإن كان هناك من تطوير فيها فهو في شمولها لعلوم كثيرة أخرى غير تلك التي كانت قائمة في تلك الحقبة المبكرة .

١. السماع :

هو سماع لفظ الشيخ إملاءً أو تحدثاً ، سواء كان من حفظه أو من كتاب ، وهو أرفع الطرق عند الجمهور (٢) ، وتتمتع الطالب بالسماع المباشر من شيخه هو المسوع الوحيد له أن يقول - أثناء الخوض في مسائل العلم في مجال للتدريس أو النقاش أو الفتوى أو غير ذلك - سمعت ، أو حدثنا فلان ، أو أخبرنا ، أو أنبأنا ، تلك الألفاظ التي اصطلاح عليها العلماء المسلمون .

(١) بامخرمة ، قلادة القهر ، ج ٣ ص ٧٨٤ .

(٢) ابن الصلاح ، مقدمة ابن الصلاح ، ص ٨٧ ، السيوطي ، تدريب الراوي في شرح تقريب النسوي ، تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف ، المكتبة العلمية ، المدينة المنورة ، ط ٢ ، ١٩٧٢م ، ج ٢ ص ٨ ، القاضي عياض ، الإلماع إلى معرفة الرواية وتفيد السماع ، تحقيق أحمد صفر ، دار التراث ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٨م ، ص ٦٩ ، ابن كثير ، الباءت الحثيث شرح المختصر علوم الحديث ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د . ت) ، ص ١٠٩ .

وكان منشأ هذه طريقة التلقي هذه عند المحدثين ، حيث كانوا دقيقين في استخدامها وفي التعبير عنها أثناء نقل ما تعلموه عن طريقها إلى طلابهم ، بحيث أنهم باتوا يفرقون بين لفظتي (أحبرنا) و (حدثنا)^(١) ، ثم ما لبثت هذه الطريقة أن شاعت حتى شملت معظم العلوم العقلية والعقلية للطبيعية .

وقد اعتمد اليمينيون السماع كواحد من أهم معابر التلقي والتحصيل العلمي لديهم ، ونوارثته أجيال العلماء جيلاً بعد جيل ، فزاهم - من خلال المصادر - يتلقون العلوم المختلفة سماعاً عن مشائخهم ، وقلما وجدت ترجمة لأحدهم لا تتضمن الإشارة إلى ألفاظ السماع المعروفة ، ولما كانت طريقة السماع تأتي في الصدارة بين صور التلقي الأخرى فقد كان العلماء يتميزون بكثرة مسموعاتهم ، ويبحثون عن كثرتها عن طريق الرحلات العلمية للداخلية أو الخارجية ، فكان العالم منهم بعد ذلك يتحدث عن (مسموعاتي ومقروءاتي) ، ويتحدث الطالب أنه أستجاز من شيخه " كثيراً من مسموعاته " (١) .

والأمثلة على السماع في حياة علماء اليمن كثيرة جداً ، سواء ما كان منها في ألوان طلبهم العلم وتحصيلهم له أو ما كان منها في مرحلة نضجهم العلمي والجسدي عند قنوم المبرزين من أقرانهم من العلماء اليمينيين وغيرهم ، وتزخر المصادر بعدد عزيز من الإشارات إليها ، ولعلنا هنا نكتفي بعينة منها ، فنذكر ما لوردته المصادر عن سماع الفقيه عفيف الدين عبدالله بن أبي بكر البرهسي (ت بعد ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م) للحديث عن الإمام مجد الدين الفيروزبادي والإمام نفيس الدين سليمان بن إبراهيم العلوي وإجازتهم له^(٢) ، ومثله سماع الإمام محمد بن إبراهيم الوزير (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) لكتب السنن والشمائل وأمهات الحديث النبوي الشريف من جماعة من أشهر محدثي عصره في اليمن ومكة المكرمة ، منهم شيخ الحرم المكي جمال الدين محمد بن عبدالله بن ظهيرة القرشي (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) ومحدث اليمن في عصره الإمام نفيس الدين سليمان بن إبراهيم العلوي (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢٣م) وشيخ محدثي

(١) د. عبدالرحمن شجاع ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع ، ص ٨١ .

(٢) الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٢٣٧ .

(٣) البرهسي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٤١ .

صنعاء الحافظ شرف الدين حسين بن محمد العلمي (ت أوائل القرن التاسع الهجري /
لوائل القرن الخامس عشر الميلادي)^(١) .

وهذا الإمام المؤرخ بدر الدين أبي عبدالله الحسين بن عبدالرحمن الأهل^(٢)
(ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) يورد - أثناء عرضه لمحطات طلب العلم في مسيرة حياته -
أنه سمع كتابي الغزالي (بداية الهداية) و (منهاج العابدين) وبعضاً من تفسير
الواحدي على شيوخه للفقهاء العلامة علي بن آدم الزيلعي (ت العقد الأول من القرن
التاسع الهجري / العقد الأول من القرن الخامس عشر للميلادي) ، كما سمع كتاب
(لطيفة المرضية للشاذلية) و (عيون الحقائق) من شيخه الفقيه المتصوف علي بن
عمر القرشي ، وسمع منه أيضاً كتاب (اللطائف) لتاج الدين بن عطاء السكندري .

ولن نبالغ إن قلنا : إن المعلومات التي أوردها الإمام المؤرخ ابن الدبيع^(٣)
(ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م) في سيرته الذاتية التي حررها عن نفسه وعرض فيها مدى
اعتماد طالب العلم - في اليمن وخارجها - على السماع بصورة كبيرة جداً في تلقي
العلم ، لن نبالغ إن زعمنا أن فيها الكفاية في الاستنباط عن أي إشارات أخرى ، ولعلنا
نقول : لو حرر كل عالم سيرته الذاتية أو أننا وجدنا مجلدات العلماء التي حصروا فيها
إجازاتهم التي حصلوها وترجم مشائخهم الذين تلقوا عنهم لوجدناها تزدهن بشواهد
السماع ، فقد جاء في السيرة الذاتية المذكورة أن ابن الدبيع سمع صحيحي البخاري
ومسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي ومطاً مالك والشافع للقاضي عياض وعمل
اليوم والليلة لابن المني والشمائل للترمذي والرسالة القشيرية وجميع مؤلفاته
ومصنفاته، سمع ذلك كله عن شيخه الإمام العلامة المحدث زين الدين أحمد بن أحمد بن
عبداللطيف الشرجي (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م) ، وكذلك سمع صحيحي البخاري ومسلم
مرة أخرى في مجلس الفقيه العلامة برهان الدين أبي إسحاق إبراهيم بن أبي القسم
بن جعفان (ت ٨٩٧هـ / ١٤٩١م) ، كما سمع بمكة المكرمة على شيخه المؤرخ

(١) البريهي ، طبقات صنعاء اليمن ، ص ٢٠ ، ابن الرشيد ، بغية المرید وأئمة الفريد ، ق ٦١ ب ، ٦٢ ،
ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ، ص ٨٩٦ - ٩٠٢ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص
٨٢٥ ، الورير ، تاريخ بني الوزير ، ص ٢٥ ، الوزير (آخر) ، ترجمة موسوعة للإمام محمد بن
إبراهيم الوزير ، ق ١٢٦ ، يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية للصغور ، ق ٢٥٨ - ٢٦٢ .

(٢) تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

(٣) بغية المستفيد ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ .

الشهير شمس الدين أبي الخير محمد بن عبدالرحمن السخاوي المصري (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م) كثيراً من صحيح البخاري ومسلم ، ومن كتاب (مشكاة المصابيح) للإمام التبريزي وجملة من (ألفية الحديث) للحافظ العراقي ومن شرحها له المسمى بـ (فتح المغيب بشرح ألفية الحديث) .

لو استعرضنا قائمة المقررات التي درسها الإمام ابن الدبيع الشيباني وحصلها وجعلت منه محدث اليمن الأبرز في عصره ولأحد أكبر المحدثين في تاريخ اليمن على الإطلاق فلننا سنلاحظ أنه تلقاها كلها بطرق محصورة ما بين السماع عن مشايخه - بالدرجة الأولى - ثم بالقراءة عليهم بنفسه أو بقراءة غيره من الزملاء - في المقام الثاني .

٢- القراءة على الشيخ (العرض) :

وتكون بقراءة الطالب على شيخه من كتاب ما أو مما يحفظه ، أو بسماعه من يقرأه على الشيخ وهو حاضر ، ويكون الكتاب المقروء إما أحد مؤلفات الشيخ أو من مروياته أو مما يعرفه من مذهبه أو علومه ، ويكون الشيخ في هذه الحالة متابعاً للطالب للقارئ من خلال نسخة للكتاب داته في يده أو معتمداً على حفظه له^(١) ، وقد تسمى هذه الطريقة لدى المحدثين بطريقة العرض^(٢) ، كما أن هناك ضرباً آخر من القراءة تقع بقراءة الشيخ نفسه من كتاب ما أو من أصل حفظه وجميع طلبته بين يديه يستمعون إلى قراءته^(٣) ، وغالباً ما ينحصر الضرب الأخير في قراءة الشيخ لمؤلفاته هو ، والنوع الأول هو الأكثر شيوعاً والأعم استخداماً .

كانت القراءة ملازمة للعلماء في مسيرتهم التعليمية ، منذ مراحل الطلب الأولى إلى آخر مراحل التدريس والتعليم ، وكانت تمثل للدعاة الأخرى - بعد السماع - التي يركز عليها النشاط العلمي التدريسي عموماً ، بل إن البعض عدّها الأفضل عند

(١) ابن الصلاح ، مقدمة ابن الصلاح ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، السيوطي ، ترتيب الراوي في شرح تقريب النوازل ، ج ٢ ص ١٢ ، القاضى حياض ، الإلماع إلى معرفة الرواية وتفهيد السماع ، ص ٧٠ ، د. عبدالرحمن الشجاع ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع ، ص ٨٥ .

(٢) ابن الصلاح ، المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(٣) د. وضوان أحمد اللبث ، الحياة العلمية في بلاد الشام ، ص ١٩١ .

العلماء^(١) ، وقد اعتمدها علماء اليمن كما اعتمد عليها غيرهم منذ القرون المبكرة للعلم فيها ، ومن متقدميهم الفقيه أحمد بن الحسين الأكوغ (من علماء القرن السادس الهجري) والإمام أبو الحسن علي العرشاني (ت ٥٥٧هـ / ١١٦١م) وغيرهما^(٢) .

وثأني الإشارة إلى القراءة كواحدة من صور تلقي العلم في اليمن في مدة الدراسة بل تشير إلى أن العالم يقوم باستقراء الطلاب كتباً معينة كالإمام علي بن محمد بن أبي القاسم (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) الذي كان يقرأ الطلبة في جميع علوم الاجتهاد وفي الأمهات الست والتفسير^(٣) أو باللفظ الصريح أن الطالب قد قرأ على شيخه كتاب كذا وهي الأشهر والأكثر وروداً في المصادر .

ولعلنا نكرر هنا شيئاً مما ذكرناه عن السماع ، فقلما ترد ترجمة لعلماء اليمن في مصادر الدراسة إلا وفيها إشارة أو أكثر إلى القراءة على الفقهاء والمشائخ ، وهو ما يقودنا إلى اليقين بأن اليمنيين قد عولوا عليها كثيراً كقناة يتلقى الطالب من خلالها علم أساتذته .

من الأمثلة التي يمكن الاستشهاد بها قراءة الفقيه صفي الدين أحمد بن حسن بن إبراهيم بن يحيى البريهي (٨٠١هـ / ١٣٩٨م) صحيح البخاري على المحدث الكبير الإمام الحافظ نفيس الدين سليمان بن إبراهيم العلوي وضبط نسخه من لفظه ، وقرأ عليه أيضاً صحيح مسلم وسنن الترمذي في مدينة تعز ، فكان بعد ذلك كثير الإقراء ، وما قرأ عليه أحد من الطلبة إلا انتفع بقراءته عليه ، وكان دأب هذا العالم الإقراء ليس في الحديث فقط ، فقد اشتهر بإقراءه في كتب الفقه كالوجيز والوسيط للغرالي والمنهاج للنووي والحاوي للقرويني ، ومن حسن إقراءه للطلبة أن كتبه كانت من أحسن الكتب ضبطاً ، وكانت كتبه كلها مُحَضَّاة معدومة للنظير في ضبطها وحسنها^(٤) .

وهذا القاضي العالم وجيه الدين عبدالرحمن بن محمد النحواني (ت ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م) نرد في ترجمته أنه قرأ كثيراً من الكتب الفقهية على كبار الفقهاء في بلاده ،

(١) د. سبحي الصالح ، علوم الحديث ومصطلحه ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١٠ ، ١٩٧٨م ، ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٢) الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ابن المبرد ، طبقات الزينية الكبرى ، ج ١ ص ١١٦ .

(٣) رهبر ، أئمة اليمن ، ص ٢٠٧ .

(٤) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٨٦ .

منها أنه قرأ على النقيه داود بن عبدالله الحراري بوصاب كتاب (التنبيه) للشيرازي والفرائض ، كما قرأ على الإمام صفى الدين أحمد الأصمحي الشنيني كتب (المذهب) للشيرازي ، و (الوسيط) و (الوجيز) الغزالي ، و (البيان) لابن أبي الخير العمراني ، وقرأ أيضاً عليه جملة من كتب الحديث^(١) .

واعتاد طلبه العلم على قراءة صحيح البخاري طوال شهر رمضان كل عام على الإمام العلامة صفى الدين أحمد بن عبدالله الكاهلي (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م) ، وقل من قرأ عليه إلا انتفع به ، وكانت القراءة عليه تتنوع بين قراءة على الطلبة أو قراءته هو بنفسه عليهم حتى وفاته^(٢) .

وكان الإمام المقرئ أبو بكر بن عبدالله اللحجي (ت ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م) قد كثر طلابه الذين قرأوا عليه العلوم التي أجادها وشارك فيها ، كعلوم اللغة والنحو والقراءات والفقهاء ، وكان أغلبهم من الباحثين عن علم للقراءات لديه ، منهم الإمام المؤرخ الحسين بن عبدالرحمن الأهدل (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) الذي قال : " كان لي أخذٌ عليه ، قرأت عليه كتاب (التيسير) في القراءات لأبي عمرو الداني قراءة بحث وتصحيح ... " ^(٣) .

ويتحدث الإمام ابن النسيم^(٤) (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م) عن نفسه أنه قرأ القراءات السبع - مفردة ومجموعة - على خاله العلامة جمال الدين أبي النجا محمد الطيب بن إسماعيل بن مبارز (ت ٨٦٨هـ / ١٤٦٣م) ، كما قرأ (كتاب الزبد) في لفقه للإمام شرف الدين البارزي علي العلامة تقي الدين أبي حفص عمر بن محمد بن معيبد الأشعري (ت ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م) ، وقرأ - أيضاً - على العلامة جمال الدين أبي أحمد محمد الطاهر بن أحمد بن عمر بن جفغان (ت ٩٠٠م / ١٤٩٥م) كتاب (منهاج الطالبين) للنووي وكتاب (الحاوي الصغير) في لفقه للنجم القزويني ، ومختصره (تيسير الفتاوى من أسرار الحاوي) للبارزي ونظمه لابن الوردي ، ثم قرأ كتاب (الأنكار) للنووي ، و (الشمائل) للترمذي ، و (عدة الحصن الحصين)

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٩٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٥ .

(٣) الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ١٢٩ .

(٤) بغية المستفيد ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ .

للجزري على العلامة برهان الدين أبي إسحاق إبراهيم بن أبي القاسم بن جعفران (ت ٨٩٧هـ / ١٤٩١م) ، وأخيراً قرأ كتاب (بلوغ المرام من أدلة الأحكام) للحافظ ابن حجر ، وبعضاً من كتاب (عيون الأثر) في السيرة لابن سيد الناس ، وبعضاً من كتاب (رياض الصالحين) للنووي ، وثلاثيات البخاري ، وما لا يحصى من الأجزاء والمسلسلات ، وهذا الكم الكبير من الكتب التي قرأها ابن الدبيع على مشائخه ترمخ في الذهن أن القراءة حازت مكانة مرموقة في النظام التعليمي السائد عصرئذ في اليمن وغيرها من أقطار العالم الإسلامي ، فهو لم يقرأ في اليمن فحسب بل قرأ على علماء المسجد الحرام بمكة المكرمة .

وإذا كان الإمام ابن الدبيع قد جمع لنا هذا الكم الكبير من إشارات قراءة الطالب على مشائخه في سيرته الذاتية فهو قد أهمل عدداً آخر من قراءاته الأخرى ، أو نعله وأصل قراءاته - بعد تحريره لترجمته الذاتية المذكورة - على أقرانه من العلماء بعد أن أصبح في مصافهم بل ومن أشهرهم ، فهو ينكر في كتاب آخر له أنه قرأ على العلامة حسن بن عثمان المنبهي (آخر القرن التاسع الهجري) عدة كتب من مسموعات للفقه والفرائض^(١) .

ويتداول الإمام المؤرخ أبو محمد الطيب بن عبدالله بن أحمد بامخرمة الحضرمي (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) في تاريخه القيم (قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر) القراءة كواحدة من أهم وسائل تلقي العلم في اليمن عموماً وفي عدن وحضرموت على وجه الخصوص ، فمن النادر أن يترجم لعالم إلا وينكر أهم قراءاته ، كما ذكر طرفاً من القراءة التي باشرها كثير من الطلبة عليه نفسه ، منها ما ذكره عن أخيه الأصغر محمد بن عبدالله بن أحمد بامخرمة (ت ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م) حيث يقول: 'رحل إلى عدن لطلب العلم في سنة (٨٩٢هـ / ١٤٨٦م) ، فقرأ عليّ (التنبيه) جميعه ، قراءة فهم وتثبيت ، وقرأ غير ذلك من الكتب الفقهية والنحوية ... وقرأ على أخيه شيخنا الفقيه أحمد قليلاً ...'^(٢) .

وقبل اختتام الحديث عن القراءة والسماع كصورتين رئيسيتين لتلقي العلم في اليمن - وغيرها - في مدة الدراسة وقبلها ، يجب للتوقف عند نقاط تتناول

(١) ابن الدبيع ، نشر المحاضرات القماتية ، ص ٢٢٣ .

(٢) بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٨٦ .

جوانب مهمة عنهما ، من ذلك أن الحديث عليهما لا يكون منفصلاً ، بكلمات أخرى أقول : إن السماع يترافق مع القراءة كما تترافق القراءة مع السماع أيضاً ، وهو وضع يجعلنا ننأى بما قد يخطر في بالنا من سلبية الطالب حين السماع أو سلبية الشيخ حين القراءة ، وذلك لأن الطرفين كليهما كانا يتوقفان عند نقاط معينة يريان فيها ما يستدعي التوقف ، فقد يسمع الطالب من شيخه ما يستتفر فيه الذهن فيدفعه إلى طلب الإذن بالتعليق والاستدراك والمداخلة ، كما أن للشيخ قد يرى أن المسألة التي يقوم الطالب بقراءتها غامضة ، ويحتمل وقوع اللبس في فهمها على الطالب السامع والقارئ فيوقف القراءة حتى يتم توضيحها ، أو يقوم بتوضيح ما يدرك أنه مشكلة علمية بوزن معين، كأن تكون محتوية على معنى كبير أو دقيق^(١) .

وهناك جانب آخر في الحديث عن السلبية والإيجابية عند السماع والقراءة ، فإن الشيخ لم يكن وحده المحور الرئيسي فيهما ، بمعنى أن هناك شكلاً من أشكال تبادل الأدوار ما بين السماع الذي هو لفظ الشيخ والقراءة على الشيخ التي هي لفظ الطالب ، فأحياناً يكون السماع بلفظ أحد الطلاب قراءة وبقيّة زملاءه يستمعون إليه ، فيسمى ذلك استماعاً على للشيخ بقراءة الزميل ، وفي القراءة أحياناً قد يشترك اثنين من الطلاب في قراءة كتاب واحد^(٢) ، وهذا أدعى إلى تجاوز الملل والسأم الناتج عن طول الوقت الذي يقضيه طرفا القراءة في المجلس ، ثم إن في هذا التنوع فرصة للتغيير ، بحيث أن الشيخ قد يقرأ كتاباً أو أكثر على طلابه ثم يكلف من يراه من طلابه بقراءة غيره عندما يشعر بالتعب أو أي ظرف آخر يستدعي الراحة والتوقف ، وقد يحبذ الشيخ قراءة أحد طلابه على قراءته الشخصية إذا ما توافرت لديه مهارات جهورية الصوت وسلامة اللغة وإجادة القراءة ، فقد ذكر ابن سيرة (ت ٥٨٦هـ / ١١٩٠م) أن العقيّه أسعد بن مسروق بن فتح بن مفتاح قد سمع سنن الترمذي على شيخه أبي بكر بن سالم بقراءته مر^(٣) ، كما سمع جماعة من الطلاب على القاضي أنير الدين بقراءة زميلهم إبراهيم بن

(١) الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٢٤٥ ، ابن المزيّد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٢٧٤ ، بالمخرمة ، قلادة القهر ، ج ٢ ص ٧٣٦ ، ٧٣٧ .

(٢) ابن سيرة ، طبقات فقهاء اليمن ، ص ١٥٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٣٣ ، الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٣٥٢ .

أحمد القريظي (ت بعد ٥٨٢هـ / ١١٨٦م)^(١) ، وذكر ابن النديم^(٢) (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م) عن نفسه انه سمع صحيحى البخاري ومسلم وبعضاً من كتاب (الإرشاد مختصر الحاوي) للإمام العلامة شرف الدين إسماعيل ابن المقرئ بقراءة غيره بين يدي الفقيه العلامة برهان الدين أبي إسحاق إبراهيم بن أبي القاسم بن جهمان (ت في أواخر القرن التاسع الهجري / أواخر القرن الخامس عشر الميلادي) .

كانت القراءة أيضاً وسيلة فاعلة في التدريب على مهارة القراءة السليمة وتقويم اللسان ، حتى لو كان موضوع القراءة بعيداً عن اللغة ، كأن يكون في الفقه أو الأصول أو التاريخ أو بعض العلوم العقلية ، وكانت العلاقة على ما يبدو طردية بين كثرة القراءة على العلماء وبين إجادة القراءة وإتقانها ، فكما زانت مرات القراءة والسماع ارتفع منحنى الإتقان فيها ، وقد عبر بعض العلماء في إجازاتهم التي منحوها لطلابهم عن لوائحهم إلى مستوى إتقان هؤلاء الطلاب من خلال ألفاظ المدح لهم ، كالمقائل في معرض نص إجازة علمية : " بقراءته قراءة من كان واقفاً على معانيه دقيقة وجليلة " (٣) ، أو الآخر المقائل عن نفسه : " قرأت (كتاب الزبد) في لفقه ... قراءة بحث وتحقيق وفهم وتثقيق " (٤) .

٣. التَّوَجَّاهُ :

المقصود بها أن يتبنى العالم نصاً قرأه في كتاب ، أو تعليقاً على مسألة وجده في ورقة أو أوراق ، دون أن يأخذ محتواها عن كاتبها مباشرة ، ولعله لا يعرفه أو لم يسمع منه ولم يقرأ عليه ، فيرويه عن كاتبه دون أخذ الإنن أو طلب الإجازة منه ، معبراً عن ذلك بقوله : " وجدت بخط فلان ... " أو " قال فلان " (٥) ، وذلك لكي

(١) بامخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٧٧ ، عبدالرحمن أحمد المحتر ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ١٩٦ .

(٢) بغية المستفيد ، ص ٢٣٠ .

(٣) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٢٧٤ .

(٤) ابن النديم ، بغية المستفيد ، ص ٢٣٠ .

(٥) د. منير الدين أحمد ، تاريخ التعليم عند المسلمين ، ترجمة سامي الصغار ، دار المريخ ، الرياض ، ١٩٨١م ، ص ٦٥ ، القاضي عياض ، الإجماع إلى معرفة الرواية وتقليد السماع ، ص ١١٦ ، ١١٧ .
د. عبدالرحمن الشجاع ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع ، ص ٨٨ .

يُوحى إلى سماعه أنه لا ينقل ذلك عن كاتبه ولم يسمعه أو يقرأ عليه ، وقد قال بعض العلماء أن من يروي علم غيره وصله عن طريق الوجدادة نون أن يستجز من كاتبه قائلاً : " أخبرنا فلان ... " أو " عن فلان ... " فقد وضع نفسه في قائمة المُذَلَّسِينَ^(١) .

تعد الوجدادة واحدة من أبهى صور الأمانة العلمية لدى المسلمين ، وما يقال عنها يقال عن القراءة والسماع أيضاً ، ولكنه في شأنها أوضح وأشد جلاءً ، وقد فتح اعتماد العلماء المسلمين لها واحدة من طرق نقل العلوم وتلقيها الأبواب مشرعةً للسمي الذاتي لجمع العلوم المختلفة عن طريق الاطلاع على الكتب والشروح المختلفة التي يتعذر على أهل العلم وطلوبته الوصول إلى مؤلفيها للسماع المباشرة عنهم والقراءة عليهم ، وخاصة عندما تنقف الإمكانات المادية والمسافات الجغرافية الطويلة والأوضاع الاجتماعية والأسرية عائقاً بمنعهم من الرحلة والسعي إلى أولئك العلماء المؤلفين للكتب المهمة في العلوم المختلفة .

المطلع على لوجه النشاط العلمي في تاريخ اليمن الإسلامي يدرك الدور الكبير الذي لعبته الوجدادة في انتشار العلوم وشيوع امتصاص الكتب وعرضها على مؤلفيها ، وبالتالي لم يتعد شيخ الإسلام الإمام الشوكاني^(٢) (ت ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م) الصواب عندما زعم أن أكثر علوم أهل الديار اليمنية مأخوذ عن طريق الوجدادة لعدم توافر شيوخ للكتب الواقعة إلى اليمن .

سننتدى تعميم النظرة التي عبر عنها الإمام الشوكاني متلمسين ما صرحت به المصادر المتوافرة عن علماء يمينيين من حقبة دراستنا هذه بأنهم قد رَوَوْا نصوصاً عدة وجاهدة ، منها ما ورد عن المؤرخ الفقيه الحسين بن عبدالرحمن الأهدل (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) متحدثاً عن نفسه بالعلامة يؤكد الاعتماد على الوجدادة في رواية العلم ونقله ، يقول الأهدل^(٣) : " ووجدت بخط الفقيه محمد بن يوسف المزجد أنه وجد بخط الإمام محمد بن إسماعيل الحضرمي ... ما معناه : أنه حج فرأى الفزالي في حال التجريد

(١) القاضي هياض ، المصدر السابق ، ص ١١٧ .

(٢) أنب الطلب ، ص ١٠٧ .

(٣) تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٢١٠ ، ٢١١ .

فجعل يمشي خلفه والعزالي يهر منه حتى بعد عنه ، فلما رأى أنه لا يرجع عنه قرأ هذه الآية المذكورة^(١) ، ثم انصرف عنه .

ومن أمثلة الوجدانة أيضاً ما رواه الإمام المؤرخ الأهل^(٢) نفسه في تاريخه عن نفسه ، إذ يقول : " ووجدت بخط بعض الفقهاء الأخيار فضيلة حسنة لنزيرة الشيخ علي الأهل ونزيرة الشيخ أحمد بن الجعد ونزيرة الفقيه عمر بن رشيد ... أنهم لا يعرضون على النار^(٣) " ، وهي مروية عن الفقيه الإمام قطب الدين إسماعيل بن محمد الحضرمي بإسناد متصل في رجادة بخط الفقيه أحمد بن وهاب عن خط الفقيه أحمد بن يعقوب بن الفضل ... " ، وله رجادة أخرى قال فيها : " ووجدت تعليقه بخط شيخنا ابن الأزرق علي الجندي أنه توفي سنة تسع وثلاثين وسبعمائة ، فيكون موته بعد موت الجندي ، لأن الجندي مات سنة اثنتين وثلاثين - يقصد وسبعمائة - والله أعلم ، وقد تقدم تاريخ وفاته ، هكذا صحت فصحت الوجدانة عن شيخنا رحمه الله تعالى^(٤) .

ولما كانت وفاة الإمام المحدث أبي إسحاق إبراهيم بن عمر بن علي العلوي (ت ٧٥٢هـ / ١٣٥١م) متقدمة فإن ابنه للمحدث الإمام الحافظ نفيس الدين سليمان بن عمر العلوي (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م) لم يدركه طويلاً ، لذلك فإن روايته عن والده كانت بالإجازة والوجدانة في الغالب ، ولم يكن منها بالسماع إلا شيئاً يسيراً في الصغر^(٥) .

(١) الآية المشار إليها في النص هي قوله تعالى : " ومن يمش على ذكر الرحمن نفيس له شيطاناً فهو له قرين " .

(٢) تحفة الزمان في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٣) وهذا كلام باطل لا يمكن حتى مناقشته ، ومع أن الإمام الأهل كان حازماً في التعامل مع مرويات بعض طائفة الصويفية في عهده سوء فيما يتعلق بمعتقدهم في الحلول والاتحاد أو الشطح في ادعاء الكرّمات وغيرها إلا أنه قد ملته أن يحص مثل هذه الوجدانة ، وربما أن السبب كون جده علي الأهل متضمن فيها ، والله أعلم ، رحمه الله تعالى .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٨٤ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣١٥ .

وللمؤرخ الأهلل وجلدات متعددة نثرها في كتابه المنقول عنه^(١) ، وذلك لا يعني أن غيره من علماء اليمن في عصره لم يعولوا على الوجادة أو لم يأخذوا بها ، إلا أنهم - على الأرجح - لم يؤكثوا على ذكرها بسبب شيوع استخدامها ، أو لعلمهم كانوا يعبرون عنها باللفظ القراءة والأخذ والرواية وغيرها ، كما أن الذين وضعوا كتب في التواريخ والتراجم منهم قليلون بالقياس إلى غيرهم ، ومن يدري؟ ربما لو أنهم كتبوا في هذا العلم لوجدنا في كتاباتهم العديد من الإشارات التي تتناول الوجادة وما في حكمها .

❖ الإجازة العلمية :

هناك عدة تعريفات للإجازة في اللغة والاصطلاح ، تناولتها المعاجم وكتب التعريفات وشبهاتها ، نذكر أهمها ، ففي اللغة تُعرَّفُ الإجازة بأنها مأخوذة من جواز الماء الذي يُسْقَاهُ المَالُ من الماشية والحرث ، فيقال منه : استجزرت فلاناً فأجازني ، إذا سقاك ماءً لأرضك وماشيتك^(٢) ، وينحدر من هذا المصدر الفعل المداسي استجاز ، بمعنى طلب الإنن^(٣) ، وحدود دلالة الإجازة في الاصطلاح معين بكونها إذنُ الشيخ للرواي شفاهاً أو كتابةً أو رسالةً أن يروي عنه حديثاً أو كتاباً أو كتاباً ، أو ما صح من مسموعاته ، من غير أن يسمع ذلك منه مباشرةً أو يقرأه عليه^(٤) .

والإجازة العلمية لها مكانة كبيرة في الأوساط العلمية بالمجتمعات الإسلامية ، وقد عدّها كثير من الباحثين في مجال الحياة العلمية للأقطار الإسلامية بوصفها واحدة من صور التلقي وطرق التدريس ، وهم بذلك يتبعون أعلام علم الحديث الذين جعلوها

(١) الأهلل ، تحفة الزمن في تاريخ سلف اليمن ، ج ٢ ص ٢٧٥ ، ٢٠٣ ، ٣٠٤ .

(٢) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩١ م ، ج ١ ص ٤٩٤ ، ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٢ ص ٥٢٩ ، الفهرورآبادي ، القاموس المحيط ، ج ٢ ص ١٧٦ .

(٣) الرازي ، مختار الصحاح ، مؤسسة علوم القرآن ، بيروت ، ١٩٨٦ م ، ص ١١٧ .

(٤) الخطيب البغدادي ، الكفاية في علم الرواية ، تحقيق عبد الحليم حسن محمود ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٢ م ، ص ٤٦٦ - ٤٩٥ ، ابن الصلاح ، مقدمة ابن الصلاح ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، القاسمي عياض ، الإلماع إلى معرفة الرواية وتفيد الصحاح ، ص ٨٨ ، ابن كثير ، لمباحث الحديث ، ص ١٢١ ، علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في تغز، ص ٣٢٠ .

إحدى طرق حمل الحديث ونقله^(١) ، إلا أن هناك رأياً آخر ينظر إليها كصورة من صور الشهادات المعتمدة الممنوحة من العلماء لطلابهم أو لمن طلبها من غيرهم بشروط معروفة منتقاة بعضها .

اختلف كبار علماء الإسلام الأوائل - وخاصة الفقهاء والمحدثين والإمام الشافعي منهم - وعدّد ممن جاء بعدهم في جوازها واعتمادها طريقاً لاستحقاق الرواية للعلم ونقله ، حيث قال قائلهم : ' لو جازت الإجازة لقطّلت الرحلة ' وبلغ ببعضهم التشديد في رفضها إلى الإنكار على المعتمدين لها فقالوا : ' إن من قال لغيره : أجزت لك أن تروي عني ما لم تسمع فكأنه يقول : أجزت لك أن تكذب علي ' ^(٢) ، إلا أن الجمهور قد ذهب إلى اعتمادها وجواز العمل بها وبمقتضياتها^(٣) .

وظاهر الأمر أن الفئّة التي لم تعتمد الإجازة لرواية العلم كانت تتحرف من عدم أهلية المُجاز ، فقد يكون مجروح العدالة أو من غير أهل العلم الجديرين بحمله ، ولتُعذر التحقّق من ذلك كون كثير من الإجازات تصدر دون لقاء المجيز بالمُجاز ، ولعلمهم صانفوا من حملهم على اتخاذ ذلك للحكم ، وعكسه هو الذي جعل غيرهم لا يتردد عن منح الإجازة العلمية للكثير ممن طلبوها ، ومجمل القول أن الإجازة في القرون الهجرية الأولى هي الغالب لم تكن تمنح إلا لعالم - أو طالب علم - معروف بأهليته وعدالته ، فلم نجد في المصادر أن هناك من تراجع عن إجازة كان قد منحها ، أو تعبيراً من عالم عن عدم رضاه تجاه إساءة لمقتضيات إجازة علمية منحها لغيره .

وقع الاختلاف بين علماء أصول الحديث ومصطلحه حول تصنيف الإجازة بين طرق تحمل الحديث ونقله وروايته ، فمنهم من وضعها في المرتبة الثالثة بعد السماع والقراءة ، ومنهم من جعلها في المرتبة الخامسة ، إذ قدم عليها السماع والقراءة والمناولة والكتابة ، ومما لا شك فيه أنها جاءت - من ناحية الترتيب التاريخي للاستخدام - بعد السماع والقراءة لأنها مرتبطة بوجود المدونات ، والتدوين جاء لاحقاً

(١) الخطيب البغدادي ، الكفاية في علم الرواية ، ص ٤٦٦ - ٤٩٥ ، لقاصي عياض ، الإلماع إلى معرفة الرواية وتقييد السماع ، ص ٨٨ ، ١٠٧ ، علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في نغز ، ص ٣٢٠ .

(٢) ابن الصلاح ، مقامة ابن الصلاح ، ص ٩٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

الاعتماد للمحدثين على السماع والقراءة ، بل إنها لم تعتمد إلا بعد ظهور المسانيد الموثوقة التي قرئت على أصحابها وقوبلت على نسخهم^(١) .

وقبل الخوض في موضوع الإجازات في الحياة العلمية لدى اليمنيين يجب التنويه إلى أمور ثلاثة مهمة :

□ أولها : أن الإجازات إذا كانت قد بدأ العمل بها لدى المحدثين فحسب فإن العمل بها في مدة للدراسة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين قد شمل كل العلوم للقائمة تقريباً ، الشرعية منها كلقراءات والفقه والتفسير ، واللغوية كالنحو والأدب والتصريف ، والطبيعية العقلية كالطب والفلك والحساب والمساحة وغيرها^(٢) .

□ ثانيها : أن أغراضها تطورت من حمل الحديث وروايته ونقله في بداية الأمر إلى الإجازة في التدريس والفتوى والقضاء وغيرها من الأغراض ، كما أنها لم تكن مكفولة للمنتسبين إلى أماكن النظامية للتدريس كالمدراس ، بل كانت من اختصاص العلماء وصلاحياتهم ، يمنحونها لمن يرون ، سواء كان منتسباً إلى تلك المرافق التعليمية أو لم ينتسب^(٣) .

□ ثالثها : وهو الأهم ، أن الإجازات كان غرض منحها سامياً وعالياً ، إذ كان الهدف منه يتمثل في الحرص على ضبط الرواية وضمان نشر الحقائق العلمية سليمة غير مشوهة ، كما أنها كانت دليل قدرة المجاز له على رواية العلم المجاز به ، إلا أنها انحدرت كثيراً لتصبح شهادة باللقاء والسماع دون أي دلالة على تعمق حاملها أو معرفته بما حُدد له ، واستمر للتدهور في دواعي منحها حتى أصبحت من الأمور الفخرية التي تمنح لمستحقها وغير مستحقها ، وأضحت وسيلة للمهاداة والتقدير العلمي والاعتراف بعمل الآخرين ، فأبنا في المصادر

(١) القاضي عباس ، الإلماع إلى معرفة الرواية وتقيد السماع ، ص ٦٨ ، د. محمد عبدلطيف الغرور .
أدب الإجازات عند المسلمين ، مجلة الفيصل ، السعودية ، العدد ٧٩ ، محرم ١٤٠٤ هـ ، ص ٦٨ ،
عبدالله قائد العبادي ، الحياة العلمية في زبده ، ص ٢٢٨ .

(٢) د. مريون عسيري ، الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ، مكتبة الطائفة الجامعي ، مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٩٨٧ م ، ص ٢٤٩ ، د. محمد عبدالحاميد عيسى ، تاريخ التعليم في الأندلس ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٢ م ، ص ١١٤ .

(٣) عبدالله قائد العبادي ، الحياة العلمية في زبده ، ص ٢٣٠ .

كثيراً من العلماء والفقهاء بمنحون إجازاتهم لزملائهم وأقرانهم من كبار العلماء والفقهاء ، وغدت الإجازة تطلب بالمراسلة^(١) .

وقد بذل اليمنيون جهوداً قصوى في سبيل نيل العلوم وبلوغ أعلى الدرجات فيها، وكان حرصهم على الإجازة كبيراً ، وكانوا يرون فيها دلالة على لقائهم لمناحها وجلو سهم بين يديه ، بل إنهم كانوا يعدونها بمثابة شهادة استحقاق صفة الإحاطة بالعلم الذي أجيروا به ، ولم نجد في المصادر ذلك النوع من الإجازات الذي منح تقديراً أو مهادةً ، وكان المجيزون يمهررون الإجازات بخطوطهم أو بتوقيعاتهم ، ويحرصون أشد الحرص على وضع تاريخ تلك الإجازات ، وهذه الإجازات هي التي روت لنا - بصورة غير مباشرة - سلاسل الأسانيد العالية التي كان كثير من علماء اليمن يتمتعون بها في كثير من العلوم ، فقد وجد في علماء اليمن في مطلع القرن التاسع من لم يكن بينه وبين الإمام البخاري صاحب الصحيح إلا ثمانيّة رجال ، وهي أعلى درجات العلوم في الإسلام في هذه الحقبة التاريخية في العالم الإسلامي قاطبةً .

وقد تحدث السابقون من المحدثين عن أركان الإجازة وأنواعها (أي لأصنامها) ، فلما الأركان فهي أربعة محصورة في : المُجيز والمُجَار له والمُجَاز به ولفظ الإجازة ، ولم يقع الاختلاف والجدل حولها ، بينما تعددت أقوالهم في أنواعها ، فهناك من عدّها تسعة^(٢) ، وغيره قل بأنها سبعة^(٣) ، والبعض الآخر جعلها أربعة فقط^(٤) ، ولنا هنا بصدد التفصيل فيها ، وما يهمنا فقط هو الحديث عما كان معمول به من أنواعها في اليمن ، وهي الأربعة الأنواع الآتية :

النوع الأول : الإجازة من معين لمعين :

ويقصد بها أن يجيز الشيخ لشخص معين كتاباً يسميه ويحدده ، كأن يقول مثلاً : أجزئك أن تحدث عني بهذا الكتاب أو هذه الكتب ، وهذا النوع هو أعلى أنواع

(١) د. محمد عبد الحميد عيسى ، تاريخ التنظيم في الأقطار ، ص ٤١٤ ، علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في تعز ، ص ٣٢١ ، ٣٢٢ .

(٢) الأمل ، لفتنس اليماني في إجازة القضاء بني الشوكلي ، تحقيق ونشر مركز الدراسات والأبحاث اليمنية ، صنعاء ، ١٩٧٩م ، ص ٢٥٤ .

(٣) ابن الصلاح ، مقدمة ابن الصلاح ، ص ٩٨ - ١٠٥ .

(٤) ابن كثير ، طباعث الحديث ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .

الإجازات وأقواها ، وسماها البعض بأنها (إجازة المألوثة) (١) ، من أمثلتها تلك الإجازة التي كان طرفاها اثنين من أقطاب العلم في ترويح اليمن ، واكتملت فيها جميع أركان الإجازات على شروط المحدثين ، كما أنها من أطول الإجازات التي روتها المصادر اليمينية ، وهي إجازة المحدث الكبير نفيس الدين سليمان بن إبراهيم العلوي (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢٣م) - شيخ المحدثين باليمن في القرن التاسع الهجري - التي منحها للإمام الشهير المجتهد محمد بن إبراهيم الوزير (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) الذي سبق ذكره في الحديث عن الهجرة العلمية في الفصل الثالث من هذه الدراسة ، ونص هذه الإجازة كما رواها المجاز له شخصياً كما يأتي :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله حمداً يوافي نعمه ، ويكافي مزيده ، لا نحصى ثناءً عليه ، والصلاة والسلام على رسول الله محمد النبي المي ، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأصهاره ، كلما ذكرهم الذاكرون وغفل عن ذكرهم الغافلون ، وبعد : فإنه شرفني الله تعالى ورحل إليّ وقدم عليّ إلى بلدي تَعَرَّ المحروس - مستقر المملكة اليمينية الرسولية ، عمرها الله بالعلم الشريف - الشريف سيدنا الإمام حقاً والمجتهد صدقاً ، الفائق على أقرانه من الأغصان النبوية والأقنان المصطفوية ، المؤيد بالتأييد الإلهي ، المختار لله تعالى ، للموفق في اجتهاده ، جمال العقرة النبوية : محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل بن منصور بن محمد العفيف بن المفضل الحسني السني بحمد الله تعالى ، وسمع من لفظي ، وقرأ عليّ ثلث كتاب (الجمع بين الصحيحين) - صحيح البخاري ومسلم رحمة الله عليهما - جمع الإمام الحافظ أبي عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح بن حميد الأزدي الحميدي ، الأندلسي ، الظاهري المذهب ، من كبار تلامذة ابن حزم ، مولده في سنة عشرين وأربعمائة ، أجمع العلماء أنه لم يكن في العلماء له نظير في براعته وعفته وورعه ، وتوفي سابع عشر من ذي الحجة (٤٨٨هـ / ١٠٩٥م) ، وأجزته باقي الكتاب لأهليته لذلك وبينه وأمانته وعلمه وبراعته ، وسمع معه ما ذكرته الفقيه الصالح للنبية صالح بن قاسم بن سليمان بن محمد الحنبلي ثم المعمر بن القاسم معه وآخرون من بلادنا ، وأخبرتهم أنني قرأته على شيعي الإمام الحافظ المجتهد المقدم على مقرئي كتاب الله تعالى أبي الحسن موفق الدين علي بن أبي بكر بن محمد بن شداد المقرئ الهمداني ، ومولده سنة

(١) ابن كثير ، الباعث المنيب ، ص ١١٩ .

(٦٩٤هـ / ١٢٩٤م) ووفاته في شهر شوال سنة (٧٧١هـ / ١٣١١م) قال : أنا الشيخ الإمام الحافظ المجتهد أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي الخير بن منصور بن أبي الخير التماخي السعدي ، ومولده في سنة (٦٥٧هـ / ١٢٥٩م) ووفاته سنة (٧٢٩هـ / ١٣٢٨م) ، قال : أنا والدي الإمام الحافظ المجتهد أبو الخير ، ومولده في سنة (٦١١هـ / ١٢١٤م) ووفاته في (٦٧٣هـ / ١٢٧٤م) قال : أخبرنا الحافظ أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن علي بن عبدالعزيز الفسلي ، قال أنا الإمام برهان الدين أبو الفرج نصر بن علي الحصري البغدادي ، عرف بالبرهان ، بروايته عن أبي الفتح عبد الباقي بن أحمد الحنفي ، عرف بابن البطي ، بروايته عن الحميدي .

وأرويه عن والدي الإمام الحافظ أبي إسحاق برهان الدين إبراهيم بن عمر العلوي الحنفي ، إجازة منه لي في سنة (٧٥٢هـ / ١٣٥١م) ، قال : أنا الإمام أحمد بن أبي الخير بسنده ، قال والدي رحمه الله : أخبرنا الإمام الحافظ أبو الحجاج يوسف بن عبدالرحمن المزني والشيخ الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي وغيرهما قالوا : أخبرنا الشيخ المسند علي بن أحمد البخاري عن الإمام أبي محمد بن أبي بكر بن أبي القاسم بروايته عن الإمام الحافظ أبي القاسم إسماعيل بن أحمد بن عمر السمرقندي بروايته عن المصنف الحميدي .

وأرويه عن والدي عن الذهبي قال : قرأته على أبي الفهم بن أحمد المسلمي ، قال : أنا أبو محمد بن قدامة ، قال الذهبي : وقرأت على أبي سعيد الحلبي عن عبداللطيف بن يوسف ، قالوا : أنا أبو الفتح محمد بن عبد الباقي عن الحميدي .

ولجزته - أي الإمام محمد بن إبراهيم الوزير - وصاحبه جميع رواية صحيح الإمام الحافظ المجتهد المقلد ، المتبع لكتب الله وسنة رسول الله ﷺ بالجامع الصحيح المسند من أمور سيدنا رسول الله ﷺ وأيامه ومغازيه ، أبي عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن برزبه البخاري الجعفي رحمه الله تعالى ، وأخبرته أنني قرأته جميعاً على الشيخ الصالح العابد الناسك ، شرف الدين أبي عمران موسى بن مر بن رباح العزولي الحنفي الدمشقي ، الزبتي المنسوب إلى القبيلة المعروفة ، رحمه الله ، وقد قدم علينا نيارنا إلى تعز المحروس من البلاد اليمنية في خامس ربيع الأول من سنة (٧٩٥هـ / ١٣٩٣م) وتم ذلك في ثلاثة وعشرين مجلساً ، آخرها يوم الخميس ثاني وعشرين شهر ربيع الأول من السنة المذكورة ، ومولده في سنة

(٧٤١هـ / ١٢٤٠م) ، وتوفي عننا في نعر المحروس في المدرسة المجاهدية في
لجنة الأحد من شهر جمادى الأول من سنة (٧٩٥هـ / ١٣٩٣م) ، وكأنه لم يصل
إينا إلا لأخذ طريق الحجاز عنه محقة فله الحمد .

ووالدي رحمه الله وآخرون قالوا : أخبرنا بالجامع الصحيح المنكور - الذي هو
أصح للكتب بعد القرآن العزيز عند جماهير العلماء - الشيخ الصالح الكبير ، ملحق
الأصاغر بالأكابر ، والأحفاد بالأجداد - بعد أن استدعي به إلى مدينة دمشق المحروسة
- أبو العباس أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم بن علي بن حسن بن بيان ، عرف بابن
الشحنة ، الحجاز ، وهو للمعمر الذي أجمع علماء مصر والشام على الأخذ عنه لقرب
سنده ، وعلو مشايخه ، ومولده سنة (٦٢٤هـ / ١٢٢٧م) ، وفاته في حاش
وعشرين صفر من سنة (٧٣٠هـ / ١٣٢٩م) وبلغ عمره ١٠٦ رحمه الله تعالى ،
قال : أنا الشيخ الصالح الحسين بن المبارك بن عمران بن مسلم الزبيدي - بفتح الزاي
- ومات في صفر سنة (٦٣١هـ / ١٣٣٠م) ومولده في سنة (٥٤٥هـ / ١١٥٠م) ،
قال : أنا الشيخ الصالح أبو الوقت عبدالأول بن علي بن شعيب الصوفي الهروي
السجزي ، ولد في سابع ذي القعدة في سنة (٤٥٨هـ / ١٠٦٦م) ومات في ذي
القعدة سنة (٥٥٣هـ / ١١٥٨م) قال : أنا الشيخ الفقيه أبو الحسن عبدالرحمن بن
محمد بن المظفر بن محمد بن داود بن أحمد بن معاذ بن سهل بن الحكم الداودي
الشافعي ، ولد في شهر ربيع الآخر سنة (٣٦٤هـ / ٩٧٥م) ومات في شوال
سنة (٤٦٩هـ / ١٠٧٧م) ، قال : أخبرنا للشيخ أبو محمد عبدالله بن أحمد بن حمويه
للحموي المرخسي ، ومولده في سنة (٢٩٣هـ / ٩٠٥م) ومات في ذي القعدة لليلتين
بقينا منه سنة (٣٨١هـ / ٩٩٢م) قال : أنا الشيخ الصالح محمد بن يوسف بن
مطر الفربري بفرير ، ولد في سنة (٢٣١هـ / ٨٤٥م) ومات سنة (٣٢٠هـ /
٩٣٢م) ، قال : أنا الشيخ الإمام الحافظ أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن
المغيرة بن بردزبه البخاري الجعفي مولاهم ، ومولده بعد صلاة الجمعة لثلاث عشرة
خلت من شوال سنة (١٩٤هـ / ٨٢٠م) وتوفي ليلة السبت ، هي العطر بعد صلاة
العشاء وذلك سنة (٢٥٦هـ / ٨٧٠م) .

قلت : فبينى وبين البخاري سبعة رجال ، وللمجاز له ثمانية رجال ، وهذا غاية العلم في وقتنا ، قال مشائخنا : ليس على وجه الأرض أعلى من هذا السند ، وإنما كان كذلك لأن كلاً من المشايخ عُمُرَ مائة أو قريباً منها أو زيادةً عليها^(١) .

وأجزته أيضاً رواية صحيح مسلم بن الحجاج بن مسلم بن الوارد بن شاهنشاه القشيري ، ورواية من الإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ، ورواية جامع الإمام أبي عيسى بن محمد بن عيسى بن سورة بن سلمة بن الضحاك الترمذي ، وكتابه الشمائل ، ورواية سنن الإمام أبي عبد الرحمن النسائي ، وصحيح أبي حاتم بن حبان ، وابن خزيمة ، ومسنند الشافعي ، وأبي حنيفة ، وغير ذلك .

وسمع من لفظي الأربعين للإمام الحافظ القطب أبي زكريا يحيى بن شرف النووي في مجلس واحد ، وأجزته بحق سماعه لذلك من لفظه هو وصاحبه صالح المذكور بروايتي لها قراءة على شيعي الإمام موفق الدين علي بن أبي بكر بن محمد بن شاذان بروايته عن جبريل عن الحريري عن المؤلف .

وأجزت الشريف المذكور رواية جميع ما أرويه من سائر العلوم الدينية ، فليرو ذلك عني موثقاً مسنداً ، بتاريخ يوم الثلاثاء ثامن ذي القعدة سنة (٨٠٦ هـ / ١٤٠٤ م) ، وكان ذلك في منزلي من مدينة تعز المحروس حرمها الله ، وكتب العبد الفقير إلى الله تعالى سليمان بن إبراهيم بن عمر بن علي العلوي الحنفي ، خادم السنة

(١) علق الإمام محمد بن إبراهيم الورير على هذه المعلومة القيمة بقوله : هو كما قال فانيس العلوي ، فإني قد وقعت على إجازة الفقيه العالم للمحدث شهاب الدين أحمد بن سليمان الوزري الصمدي للإمام الأعظم أمير المؤمنين الناصر لدين الله محمد بن علي بن محمد بن علي بن منصور بن يحيى بن منصور بن منصور بن المفضل كتب الحديث فوجدت هذه الإجازة أعني إسناداً وأقدم ميلاداً ، فإني بسبب تقبلي الوزري وبين البخاري أحد عشر رجلاً ، وللمجاز له اثني عشر رجلاً ، وطريق الفقيه أحمد الأوزري - نعم الله به - طريق الفقهاء بني مطير ، وقد حقت ذلك لوجدته كذلك ، وكذلك وقعت على إجازة الأوزري - رحمه الله - لحي السيد العلامة جمال الدين علي بن محمد بن أبي القاسم الهادي رحمه الله تعالى فوجدت بين الفقيه الأوزري وبين البخاري أحد عشر رجلاً ، وبين المجاز له وبين البخاري اثني عشر رجلاً ، وهذا سند صحيح منه إلى البخاري والله أعلم ، انظر الوزير ، العواصم والقواصم في الثقب عن سنة أبي القاسم ، ج ١ ص ٢٠ .

النبوية ، لطف الله به وغفر له وتاب عليه ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ^(١) .

نعد هذه الإجازة الطويلة أفضل النماذج للإجازات العلمية ليس في مدة الدراسة وحسب ، بل في التاريخ العلمي لليمن في العصر الإسلامي ، فهي كاملة الأركان ، المجيز فيها معروف وهو الإمام نفيس الدين سليمان العلوي ، والمجاز له محدد وهو الإمام محمد بن إبراهيم الوزير ، والمجاز به معين وهو كل كتب الحديث المنصوص عليها في مثل الإجازة وسائر العلوم الدينية التي يرويها المجيز ، ولفظ الإجازة وارد بالنص المكتوب بيد المجيز شخصياً بحسب تصريحه في نهايتها ، بل إنها بالغة الدقة في تحديد أنها لم تُمنح إلا بعد عاء الدراسة والقراءة والاستماع لمدة تبلغ حوالي سبعة عشر يوماً متواصلة ، ومن مظاهر دقتها أنها حددت أن صور تلقى المجاز له كان بعضها سماعاً بلفظ الشيخ نفسه ، وبعضها قراءة عليه ، وأنه لم يكن المجاز الوحيد بها ، فله زميل جاء معه بالإضافة إلى من حضر للمجالس الثلاثة والعشرين من أبناء مدينة تعز نفسها ، ولم ينس المجيز أن يؤرخ الإجازة حتى تكتمل لتمثل واحدة من أهم الوثائق التربوية في تاريخ اليمن الإسلامي .

وإجازة أخرى قريبة الشبه من إجازة الإمام الحافظ سليمان العلوي للإمام محمد الوزير صدرت عن الإمام العلوي نفسه للإمام العلامة شرف الدين موسى بن مري بن رماح العزولي الحنفي النمشي (ت ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م) الذي قد سبقت الإشارة إليه ، إذ أجازته الإمام الحافظ سليمان العلوي في صحيح البخاري بمدينة تعز - في المدرسة المجاهدية - بعد حضوره القراءة ومشاركته فيها لمدة طويلة انعقد فيها ثلاثة وعشرون مجلساً تدريسياً ، وقد ضمن المجيز في نص الإجازة تاريخ القراءة والإجازة ، وترجم في ثلثيها للمجاز له ^(٢) .

(١) هذا نهاية الإجازة التي منحها نفيس الدين سليمان بن إبراهيم العلوي للإمام محمد بن إبراهيم الوزير في كل لمبات الحديث الشريف وكل العلوم الشرعية التي يرويها عن مشايخه بسنده إلى مؤلفيها، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦ - ٣١ .

(٢) البرهني ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٨٩ ، إلا أن المصدر لم يتطرق إلى ذكر هذا التاريخ .

النوع الثاني : الإجازة لمعين في غير معين :

وهي إذن الشيخ لطالب معين برواية كل مسموعاته أو مروياته دون أن يحددها أو يسميها ، وهذا النوع جائز ومعمول به لدى العلماء^(١) غير أنه أقل قدرأ من النوع الأول ، ومن أمثلتها الجزء الأخير من إجازة الإمام العلوي لابن الوزير السابقة ، لأنه قال له فيها : " وأجزت الشريف المذكور رواية جميع ما أرويه من سائر العلوم الدينية ، قليرو ذلك عني موقفاً مسدداً^(٢) ، فالمجيز هنا لم يحدد ما هي هذه العلوم الدينية التي يرويهها ، ومما لا شك فيه أنها كانت معروفة ومحصورة بالسنة للشخص المجاز له .

ومن أمثلة هذا النوع من الإجازات في تاريخ اليمن في مدة دراستنا تلك الإجازة العلامة غير المعينة بعلم معين التي منحها الإمام العلامة جمال الدين محمد بن عبدالله الريمي (ت ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م) للفقير جمال الدين محمد بن أبي بكر بن عمر بن منصور الأصبحي الشنيتي بعد طول ملازمة واجتهاد وقراءة عليه ، حتى أصبح لجل تلامذته ، يقول المصدر : " ولم يزل للفقير جمال الدين يلتقط فوائد الإمام الريمي مجتهداً بالقراءة والتحصيل إلى أن ورد عليه أسر والده يرجوعه ... ففعل بعد أن ودع الإمام الريمي واستجاز منه ، فلجاز له إجازة عامة^(٣) .

وهذا الفقيه عماد الدين إدريس بن إسماعيل بن عبدالرحمن بن عمر البريهي (ت ٨٠٣هـ / ١٤١٠م) أجاز إجازات عامة في كل مقروءات ومسموعات الفقهاء من أماليه آل البريهي في الفقه والحديث والتفسير^(٤) .

ومن أمثلتها أيضاً إجازة لإمام الحافظ نفيس الدين سليمان بن إبراهيم العلوي (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢٣م) للفاضل جمال الدين محمد بن محمد بن عمر الصعبي (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م) في الحديث على وجه الإجمال ، فدرس بذلك وأفتى واشتهر حتى لقبه الناس بـ (مجد الدين)^(٥) لما أحدث من أثر في ناحيته^(٦) .

(١) ابن كثير ، طباعت الحديث ، ص ١١٩ .

(٢) الوزير ، العواصم والفواصم في فقه عن سنة أبي القاسم ، ج ١ ص ٣٠ .

(٣) البريهي ، طبقت صلحاء اليمن ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٤٠ .

(٥) قبل أن الإمام سليمان العلوي هو من لقبه بذلك ، انظر المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

وقد منح الإمام المؤرخ الحسين بن عبدالرحمن الأهل (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) إجازة عامة في جميع مروياته ومصنفاته للإمام الحافظ المؤرخ المحدث أبو زكريا يحيى بن أبي بكر بن محمد العامري (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م)^(١) ، وكما هو واضح أنها كانت إجازة لمعين في غير معين .

النوع الثالث: الإجازة لغير معين في غير معين :

وهي تتعد بإذن الشيخ لأهل بلد أو عصر معين برواية كل مسموعاته أو مروياته دور أو يحددها أو يسميها ، ومنها في مدة دراستنا تلك الإجازة المنظومة التي أجاز فيها الإمام الحافظ والمحدث المؤرخ وجيه الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد بن الديبع (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م) لأهل عصره ومن أدرك حياته بأن يروي عنه قال :

أَجَزْتُ لِمُنْرَجِي وَتَقْتِي وَغَضْرِي
رَوَايَةَ مَا تَجَوَّزَ رَوَايَتِي لَسَا
مِنْ الْمَقْرُوءِ وَالْمَسْمُوعِ طَرًّا
وَمَا أَتَيْتُ مِنْ كُتُبٍ قَلِيلَةً
وَمَا لِي مِنْ مُجَلِّدٍ مِنْ شَبُوحِي
مِنْ الْكُتُبِ الْقَصِيرَةِ وَالطَّوِيلَةِ
وَأَرْجُو اللَّهَ يَحْتِمَ لِي بِخَيْرٍ
وَيَرْحَمَنِي بِرَحْمَتِهِ الْخَبِيرَةِ^(٢)

النوع الرابع : الإجازة بالمكتبة :

وهي واقعة بكتابة الشيخ إلى أحد طلابه شيئاً حدثه وهو حاضر أو غائب ثم يجيزه في روايته عنه ، وهذا النوع انتشر في العالم الإسلامي بما فيها اليمن بعد انتشار الكتب وشيوعها ، فهي أحدث من سابقها ، فقد صار الشيخ يكتب الإجازة للطلاب أو

(١) الأهل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٣٨ .

(٢) ابن الديبع ، نشر المحسن اليمانية ، ص ٣٤ .

العالم الآخر مثله في بلده المقيم فيه ثم يرسلها إليه^(١) ، ومن أمثلتها الإجازة التي كتبها القاضي عبدالله بن محمد بن عبدالله اللشاري للإمام المؤرخ الحسين بن عبدالرحمن الأهل (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) وبعثها إليه في موضعه بأبيات حسين^(٢) .

ومن أمثلة الإجازة بالمكاتبة أيضاً ما رواه الإمام المؤرخ الأهل^(٣) أن للفقير إبراهيم بن محمد بن علي بن عجيل (٨٢٥هـ / ١٤٢٢م) قد كتب إليه يطلب الإجازة في كتب معينة وفي سائر مروياته ، فأجاز له ، وكتب له الإجازة بخطه وبعثها إليه ، كما أنه - الأهل - قد حصل عن طريق المكاتبة على إجازتين من الإمام الحافظ نقيس الدين سليمان العلوي ، إحداهما إجازة على الخصوص في أمهات الحديث والأخرى على العموم في جميع مروياته ، وقد كتبها في كراسة بعثها إلى المجاز^(٤) .

كما أن للفقير أبو بكر بن يحيى بن أبي بكر بن أحمد بن موسى بن عجيل قد حصل على إجازة عن طريق المراسلة - للمكاتبة - مع عالم فارسي اسمه الفقيه محمد البرلر من أهل مدينة تدعى هيرام ، والإجازة كانت في بعض مقروءاته في كتب الإمام للنووي رحمه الله^(٥) .

ومن حصلوا الإجازات العلمية عن طريق المكاتبة القاضي جمال الدين محمد بن سعيد بن علي بن محمد كسين (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) أحد قصاة مدينة عدن المشهورين ، إذ ورد في ترجمته أنه : " استجاز من خلق عظيم بالمكاتبة وغيرها ... " ^(٦) ، كما ورد فيها أيضاً أنه : " استجاز من عدة شيوخ بالمكاتبة من دمشق ومصر والقاهرة ... " ^(٧) .

(١) ابن الصلاح ، مقدمة ابن الصلاح ، ص ١١١ ، د. عبدالرحمن الشجاع ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع ، ص ٨٧ ، عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ٢٠٢ .

(٢) الأهل ، تحفة الزمن في تزيين ساعات اليمن ، ج ٢ ص ٢٤١ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٩٦ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣١٥ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٠٠ .

(٦) بمخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٢٠٠ .

(٧) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

❖ تعليم المرأة في اليمن :

حديث الباحث في تاريخ اليمن العلمي في عصرها الإسلامي عن تعليم المرأة يولد للشجون والإحساس بالحسرة ، ولعل ما يشعر به الباحث هنا هو الشعور نفسه الذي يشعر به أولئك الذين يبحثون في التاريخ العلمي لمعظم الأقطار الإسلامية الأخرى في قرون التاريخ الإسلامي المتعاقبة .

موطن النخبة يكمن في أن ذلك العدد الكبير من العلماء الأعلام والرجال الأفاضل الذين صاغوا صوراً مشرقة للحضارة الإسلامية لم يهتموا فقط بالتعريف بعدد كبير من أقرانهم من العلماء الذين عاشوا في مناطق مختلفة من اليمن من خلال حصر المؤرخين منهم اهتمامهم بالترجمة إما لرجال الإقليم الذي يعيشون فيه (التاريخ المحلي) أو بالترجمة لرجال المذهب والطريقة التي ينتمون إليها ، بل امتد إهتمامهم إلى التفسير المفرط في رصد تفاصيل كثيرة عن أنشطتهم الجندرية بالاحترام والرصد والتكوين ، سواء بدافع سوء تقدير للمهم والأهم من سيرهم وجهودهم ، أو بالميل إلى الاختصار في وضع التصنيفات التاريخية وكتب الطلقات ، فلم نجد من مصادر التاريخ اليمنية كلها غير أكثر من عشرة قرون مصدراً واحداً يسترسل في التعريف برجال العلم في اليمن بطريقة تشبه طريقة الحافظ ابن عساكر الذي وصع لدمشق تاريخاً تعدى عدد مجلداته السبعين مجلداً .

أود من خلال ما سبق التمهيد لحدِيثي عن شريحة عريضة من أبناء اليمن أصابهم التفتيب ، ولا أقول للمياب ، إذ الفرق شاسع بينهما ، وهذه الشريحة المقصودة هي شريحة النساء ، وللتفتيب واقع فقط في مستوى الحضور على صفحات معظم المصادر التاريخية وأغلب كتب السير ، أما في أرض الواقع فالشجرات من تراجم النساء التي تسربت إلى عدد قليل من تلك المصادر لتمثل جزراً بالغة الصغر في محيط هائل من التراجم الرجالية تكفي للدلالة على الحضور القوي والتأثير اللافت للنظر لهذه الشريحة الاجتماعية في تاريخ الحياة العلمية في اليمن .

يواجه الباحث صعوبة بالغة تصل إلى حد الاستحالة في الحصول على مادة علمية كافية لتوضيح معالم الوجود النسائي - بمستوياته العمرية المختلفة - في أماكن التعليم ومرافق التدريس ، فلم توجد معلومة واحدة في مجمل المصادر التي تم الحصول عليها تشير إلى طرق تعليم الفئات في المرحلة التعليمية الأولى وسماته وخصائصه ،

وهل كان الاختلاط قائماً أم كان تعليمها منزلياً منعزلاً، بل إن السؤال يبرز بقوة حول ما إذا كان هناك تعليم لها من حيث الأساس في هذه المرحلة أم لا ، وهو ما نرجح استبعاده بقوة لوجود النماذج اللغوية التي ذكرها قريباً .

عندما وقعت بعض المصادر عند تراجم للمبرزين والأئمة من علماء اليمن وتناولت تراجمهم بشيء يسير من التفصيل أفصحت عن معلومات بالغة الأهمية بخصوص الوجود النسائي في الوسط العلمي اليمني ، وما يؤسف له أن هذه المعلومات لم تأت إلا بشكل عرضي وهامشي ، ولم تكن تلك المعلومات بعينها هي المقصودة بالإبراز والعرض ، إنما جاء ذكرها من باب تبين أن الأوساط التي جاء منها أولئك المبرزين والأئمة كانت تزخر بالعلم وأهله ، وهذا هو السبب الرئيسي في عدم تناول تلك المصادر لمن لم تكن له علاقة من النساء بصورة أو بأخرى بأولئك المترجم لهم ، فكل المعلومات النسائية هي تخص قريبات أولئك العلماء من أخوات وبنات وأمهات وقريبات من الدرجات القريبة في الرحم والقربى .

الموقع - في أضيق الحدود - أن العلماء كلهم هم الفئة التي اهتمت بتعليم بناتهم وتدريسهن في المنازل على أضعف التجهيزات إن لم يكن يحضرن دروس المعلمات ثم الدروس والمجالس العلمية العامة معهم ، فإذا قبلنا بهذا الحصر الضيق فإنه من المفترض أن تخرج منه بحصيلة كبيرة من للعالمات اليمنيات ، قد يفوق عددهن الرجال أو ينقصن عنهم بقليل ، هذا مع استبعاد أن بقية الفئات الاجتماعية اهتمت بتعليم فتياتها ، فأين هذه الأعداد ، قام للخزرجي في طبقاته (طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن) بالترجمة لعدد لا بأس به من هؤلاء النساء إلا أن أغلبهن كن من نساء البلاط الرسولي ، ومن - وإن اشتهرن بأعمال الخير والصلاح وإنشاء المرافق التعليمية العديدة - لم يشتهرن بالعلم ولم تكن أغلبهن من أهله أصلاً .

سنستعرض ما توفر لدينا من النماذج التي أشرنا إليها من قريبات العلماء والأئمة بحسب رواية المصادر التاريخية المتوافرة ، ومن خلالها سنرى أن هذه النماذج أثبتت من الجدارة العلمية ما يجعلها أهلاً للترجمة والإبراز لتمييز أنوارها العلمية ، ومن خلالها سنرى أنها حصّلت العلم بطرق التقني ونظم للتدريس نفسها التي تحدثنا عنها آنفاً، من قراءة وسماع وإملاء وإجازة وغيرها ، والفرق بينها وبين ما سبق تناوله قمم في أماكن للتقني ، فمعظمهن تلقين العلم في منازل أقربائهن ، والقلة القليلة منهن هي

التي تعاملت مع مجتمع العلماء الآخرين ، وإن وجد ذلك فبواسطة الزوج أو الولد أو من هو في مقام المحرم لهم ، ويستخذ حديثاً عنهن صورة الترجمة الموجهة إلى إبراز علمهن وكيف وصلن إليه .

من هذه النساء العالمات اليمنيات نذكر الشريفة الفاضلة العالمة صفية بنت المرتضى بن المفضل بن منصور بن العفيف الحسنية (ت ٧٧١هـ / ١٣٦٩م) ، ترجم لها أبو الرجال^(١) فقال عنها : " السيدة الكاملة فضلاً وعلماً ، وبركة وحلماً ، أوزهداً ومجداً ، وشرفاً ونبلاً وعقلاً ... جمعت العلم إلى العمل ، وبلغت في مدارك للعلوم منتهى الأمل ... اشتغلت بالعلم من أوان الحداثة ، ودرست على والدها قراءة محققة ، وحقت وحصلت بالقلب والقلم ، وفاقت في الفقه والأصول والعربية والإخباريات ، ولم يكن لها شغل غير العلم والاجتهاد فيه " ، وهذه الجهود التي وصفها المصدر أهلها للتأليف ، فألفت وألفت وترسّت ، وكانت تراجع كبار الأئمة عندما يصلون بلدتها وتذاكرهم وتناقشهم ، ومنهم الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) الذي عقب على ما رآه من علمها ورجاحة عقلها بقوله : " صفية بنت المرتضى فائقة لنساء زمانها ، خارجة عن النظراء والأشباه لها^(٢) ، وقد قيل أنها لم تتزوج إلا بعد الثلاثين من عمرها ، وتزوجت بأحد أكبر رجال علم الكلام ، ويدعى بالمسيد محمد بن يحيى القاسمي ، ليس حباً في الزوج والسزواج نفسه ، بل لكي تقرأ عليه علومه ، وكانت تعرفه في النحو والعربية ، فأخذ كل منهما عن صاحبه^(٣) .

ومن وصفت بالعلم وعدت بين العلماء من أهل اليمن السيدة الفاضلة زينب بنت الإمام أحمد ابن أبي بكر بن علي الناشري (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) ، وقد سبقت ترجمة أبيها في الفصل الثالث عد الحديث عن قرينتهم (الناشرية) ضمن القرى العلمية في اليمن ، انتقلت بالزواج من بيت أبيها الإمام العالم الكبير إلى بيت ابن عمها

(١) أبو الرجال ، مطلع الهدى ومجمع البحور ، ج ٢ ق ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٢) زبارة ، أئمة اليمن ، ص ٢٥٨ .

(٣) أبو الرجال ، مطلع الهدى ومجمع البحور ، ج ٢ ق ١٥٥ ، زبارة ، المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

العالم أيضاً أبي بكر بن محمد بن علي الناشري ، وقد ترجم لها الإمام السخاوي في الضوء اللامع^(١) .

برز في بيت الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) السابق ذكره وترجمته عند الحديث عن هجرة الظهير العلمية في الفصل الثالث امرأتان من فضليات النساء وأعلمهن في تاريخ اليمن ، الأولى أخته الدهماء بنت يحيى المرتضى (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٤م) والثانية ابنته فاطمة بنت أحمد ، أما الدهماء فقد وصفت بأنها صاحبة العلوم الواسعة والتصانيف النافعة ، لها مؤلفات في الفقه والفرائض ، وأخرى في أصول الدين وعلم الكلام سنستعرض مؤلفاتها في فصل قادم بمشيلته تعالى ، واشتهرت بالتدريس في مدينة تلا ، وقضت فيه معظم حياتها حتى الوفاة^(٢) ، أما السيدة العاضلة الشريفة العالمة للعامة فاطمة بنت الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى فيكفيها دلالة على مبلغ علمها وعلو كعبها في العلوم أنها تلميذة أبيها وهو أحد أبرز أعلام الفكر الإسلامي عموماً ، وخاصة في الفقه وعلم اللغة والكلام ، تلقت عنه معظم علومه ، وبلغت المنزلة التي جعلته يقول - بعد مراجعتها ومناقشتها في مسائل دقيقة - : " إن فاطمة ترجع إلي نفسها في استنباط الأحكام "

وَنِسَاؤُنَا فَأَلَمَتْ أَلَمَةً غَيْرَنَا

في الفضل والتدريس والأخلاق^(٣)

ولما تزوجها الإمام المتوكل المطهر بن محمد بن سليمان الحمزي (ت ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م) كانت مرجعه - مع علمه الغزير - في المشكلات ، وكان إذا اشكلت عليه وعلى أصحابه مسألة في مجلسه خرج يحلها عندها ، فيقول لأصحابه : هذا ما هو منك ، هو من خلف الحجاب^(٤) .

(١) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ص ٣٩ ، عبدالله الحبشي ، معجم النساء اليمنيات ، دار الحكمة اليمنية ، صنعاء ، ط ١ ، ١٩٨٨م ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) أبو الرجال ، مطلع البدر ومجمع البحور ، ج ٢ ق ١٠١ ، ريادة ، أمة اليمن ، ص ٣٠٨ ، الشوكاني ، البدر الطالع ، ص ٢٥٩ ، المرتضى ، كنز الحكماء وروضة العلماء ، ق ٥٨ أ ، الوزير ، تاريخ بني الوزير ، ص ٣٠٦ .

(٣) عبدالله الحبشي ، معجم النساء اليمنيات ، ص ١٤٩ .

(٤) أبو الرجال ، مطلع البدر ومجمع البحور ، ج ٤ ق ٦ ، الوزير ، تاريخ بني الوزير ، ص ٣٠٧ ، عبدالله الحبشي ، المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

أما أسماء بنت كمال الدين موسى الضجاعي (ت ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م) فقد ترجم لها العبدروس^(١) ضمن كبار علماء اليمن في القرن العاشر ، ووصفها بأنها من علامات النساء بمدينة زبيد، وعدد العلوم التي قرأتها ، فذكر القرآن الكريم والتفسير وكتب الحديث ، ثم ذكر أنها كانت تعقد مجالس الوعظ والتذكير للنساء ، فتعظهن وتؤدبنهن ، وكان لقلوبها وقعاً في النفوس ، وربما توسطت بين العامة والسلطان فتقبل شفاعتها فيهم^(٢) .

وأخر من نختم به هي السيدة الفاضلة الشريفة شمس الحور بنت الهادي بن إبراهيم الوزير (ت ٨٩٤هـ / ١٤٨٩م) التي لم تختلف عن سابقتها ، وما يميز ترجمتها أن الإشارة جاءت صريحة في ترجمة أبي الرجال لها إلى تحديد مَنْ من الأقارب الذي كان يمكنه تدريس الفتاة ، يقول أبو الرجال^(٣) عنها : " لها مطالعة في الكتب ومحاجة حسنة ومحاسن من أبيها وعمها - الإمام محمد بن إبراهيم الوزير - ومن خالطها من العلماء من الأخوال والأعمام والإخوان... " ، وبفض النظر عن تأصيل هؤلاء لحصر تدريس الفتاة في هذه القرابة إلا أنها كانت كما يبدو السائدة والمعمول بها .

(١) لنور السافر عن أواخر القرن العاشر، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) عبدالله الحبشي ، معهم النساء النبويات ، ص ١٥ .

(٣) مطلع البدور ومجمع البحور ، ج ٢ ق ١٤٤ ، الوزير ، تاريخ بني الوزير ، ص ٥٥ ، عبدالله الحبشي ، المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

الفصل الخامس

العلاقات العامة للركائز البشرية
للحياة العلمية في اليمن في مدة الدراسة
وأدوارهم في الحياة اليمنية العامة

❖ الركانز البشرية للحياة العلمية :

أجد أنه من الأهمية بمكان إيضاح مدلول عبارة (الركانز البشرية للحياة العلمية) في العنوان للسالف ، فاقول : إنهم كل الأفراد الذين لعبوا دوراً في التعليم في اليمن في مدة الدراسة وأسهموا فيه بصورة أو بأخرى ، وأرنت بهذه التسمية إيجاد اسم جامع لهم اصطلاح عليه لنا ومن يقرأ معي هذه الدراسة ، بحيث يكون شاملاً لكل أطراف العملية التعليمية المرشدة - المثقفة - والمستقبلة - المثقفة - حتى أولئك القائمون على النواحي الإدارية في أماكن التعليم المستخدمة .

بيد أنه من الضروري جداً تفصيل الحديث بشكل كافٍ عن هؤلاء الأفراد الذين اصطلاحنا على إطلاق بالتسمية المشار إليها في العنوان عليهم ، وتسهيلاً لتناولهم تعريفاً ووصفاً لأدوارهم منقوم بتصنيفهم إلى ثلاث شرائح طبقاً لموضعهم من العملية التعليمية كونهم مثقفين أو مثقفين أو إداريين في أماكن الدراسة ، وهذه الشرائح الثلاث هي :

أولاً : العلماء (المدرسون) :

تمثل هذه الشريحة دائماً - في كل زمان ومكان - حجر الزاوية في الحياة العلمية ، وإن اختلفت مسمياتها من مكان إلى آخر ومن زمان إلى غيره ، واحتل أفرادها على مر القرون التاريخية الإسلامية أرفع المكانة ، وحظوا بالاحترام الكبير من بقية أفراد المجتمع المسلم ، بل كان الحكام أنفسهم يجنونهم حباً فيهم أو هيبه لهم - إلا ما ندر - وذلك لتأثيرهم الهائل على كل الشرائح الاجتماعية الأخرى ، وهنا نتذكر المقولة الشائعة : " الملوك حكم على الناس والعلماء حكم على الملوك " ، وإن كانت هذه للمنزلة قد فقدت كثيراً من تأثيرها وتدنيت حظوظها من الاحترام في العصور المتأخرة إلا أنهم في زمن الدراسة كانوا هم صفوة المجتمع وأصحاب التأثير الذي قد يكافئ تأثير الملوك والسلطين إن لم يفقه .

لم يكن العلماء المدرسون على مستوى واحد في الحصيلة العلمية والخبرة التدبسية والمراحل العمرية ، وبالتالي تباينت أدوارهم التعليمية طبقاً لذلك ، وتعددت وظائفهم العلمية ، وهذا الاعتبار يدفعنا إلى تقسيمهم إلى فئات بناءً على نوعية عملهم التعليمي الذي مارسوه واضعين في بالنا الفئة التي تلقت العلم عنهم ، سواء من حيث

مستواها العُمُري أو المكانة الاجتماعية التي تشغلها الأسر التي ينتمون إليها ، فنستطيع أن نقسمهم كما يلي^(١) :

(١) معلمو المرحلة الأولى :

والحديث عن معلمي المرحلة الأولى في الحياة العلمية في اليمن في القرنين التاسع والعاشر الهجريين يدعونا إلى تقوله في محورين هما : (معلمو المعلومات) و (المؤيدون) باعتبار أن هاتين الفئتين قاما بدور مماثل مع فروق معينة سيأتي ذكرها ، وتقصيل ذلك فيما يلي :

■ معلمو المعلومات :

هم من أسمتهم المصادر بالمعلمين ، ومعلمي الصبيان ، ومعلمي الأيتام ، الذين أشرنا إليهم في الفصل السابق بأنهم من اضطلع بمهمة تعليم الصبيان أبجديات العلوم الأساسية الأولى في للمعلومات وإعدادهم لكي يكونوا قادرين على مواجهة مهامهم التعبدية والحياتية فور خروجهم من مرحلة الدراسة في المعلمة ، وكذلك إكسابهم المهارات اللازمة التي تؤهلهم لاقتحام المرحلة التالية بكل جدارة وجاهزية ، معدين إياهم لكي يكونوا في مستقبلهم هي عداد العلماء العاملين والفاعلين في المجتمع .

إن جلالة الدور المناط بمعلمي المعلومات جعلهم يمثلون أهمية خاصة في منظومة الحياة العلمية في اليمن ، فقد كان بإمكانهم تحبيب الصبيان في العلوم ودفعهم إلى الصعي لاكتساب المزيد منها أو صرفهم عن مجرد التفكير في الاستمرار بعد تعدي مرحلة التعليم في للمعلمة .

لم تصرح المصادر المتوافرة بالمؤهلات المطلوب توافرها في معلمي المعلومات إلا أننا نستطيع أن نستشف ذلك من خلال ما كان مناطاً بالصبي تعلمه في هذه المرحلة من إجادة لتلاوة القرآن الكريم ومعرفةً بأساسيات فقه العبادات ، بالإضافة إلى تعلم الخط والكتاب وبقيّة ما ذكرناه في الفصل السابق ، فهذا كله يقتضي الإدراك بأن معلم الصبيان كان على قدرٍ كافٍ من العلم بالقرآن الكريم وعلوم اللغة والفقه ، ولا ننسى أهمية لتصفاه بالنقى والورع وسمو الأخلاق لأن فاقده الشيء لا يعطيه .

(١) مع حرصنا - غالباً - على استخدام التسميات التي أطلقها عليهم المصادر المتوافرة بعضها .

ونشير هنا إلى أن المعلم المتخصص في تدريس فن واحد قد وجد بصورة أو بأخرى ، وهو ما تكلفنا عليه إشارات متعددة في بعض المصادر المتوافرة إلى معلم القرآن الكريم ومعلم الخط وغيرهما .

■ المؤدبون :

ما المؤدبون إلا رديف لأئلك الذين يعلمون الصبيان في المعلومات باعتبار أن من يجلس بين أيديهم للتلقي هم الصبيان ، غير أن ثمة فوراق تكمن في مؤهلات المؤدبين والأوساط الاجتماعية التي ينتمى إليها تلامذتهم ، وكذلك في الأهداف التي يتوخى للمؤدبون تحقيقها في أولئك التلاميذ ، فالمؤدب هو معلم بالدرجة الأولى إلا أن تميزه في الأداء والخبرة والسمعة والملوك الحسن والحصيلة العلمية الكبيرة أفضله إلى أن يختص بتعليم أبناء الخاصة من السلاطين والملوك أو الأئمة ، أو رجال الدولة من الأمراء والوزراء والقادة ، أو التجار والوجهات الاجتماعية والقبلية ، وبالطبع تختلف أهداف للتعليم عند أبناء هذه الشرائح عن تلك الأهداف التي يرنو من هو دونهم لبلوغها، وإن كان هناك اتفاق في عدد لا بأس به منها .

يروى البريهي^(١) في ترجمة رضي الدين أبي بكر بن محمد الصيري (ت ٨١٠هـ / ١٤٠٧م) بأنه كان فقيهاً تحوياً ومشاركاً في سائر العلوم ، وقرأ وسمع الحديث على جماعة من أئمة وقته فجعله السلطان الناصر أحمد (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) معلماً لأولاده ومؤدباً لهم ، فدلالة النص واضحة أن اطمئنان السلطان إلى مستواه العلمي العالي هو الذي أهله ليصطفيه مؤدباً لأسائه ، ومن قبله قام والده السلطان الأشرف إسماعيل (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) بتعيين العلامة جمال الدين محمد بن أبي القاسم المقدشي (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) مؤدباً لأولاده الذين يصغرون عن السلطان الناصر ، بمن فيهم يحيى بن الأشرف الذي أصبح سلطاناً وتلقب بالظاهر فيما بعد ، وقد وصفت للمصادر^(٢) المقدشي بأنه كان محققاً مدققاً لعلم النحو والأدب وغيرهما .

(١) طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٠٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

وكان المقرئ الفقيه جمال الدين محمد بن إبراهيم السلودي (ت ٨٦١هـ / ١٤٥٦م) قد أوعز إلى الإمام المنصور بالله الناصر بن محمد (ت ٨٦٧هـ / ١٤٦٢م) أن يستدعي تلميذه الفقيه المقرئ مفضل بن عمر بن الحرري (ت بعد ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م) من تعز إلى صنعاء ليحمله مؤدباً لولده ، فتم ذلك ، ورثب له الإمام ما يكفيه ، واستمر في أداء عمله حتى وفاته^(١) ، وهذا الأسلوب هو ما سار عليه جميع الخاصة في اختيار المؤدبين .

ومن البداية إدراك أن الأحوال المادية - وبالتالي - المعيشية للمؤدبين كانت أفضل حالاً مما هو عليه عند معلمي الصبيان في المعلامات ؛ لما ينفقه عليهم آباء تلامذتهم من العطاء لقاء جهدهم ، أو الهدايا عند الشعور بالتحسن في مستوى تحصيل الأبناء .

وهناك أمر مهم تجب الإشارة إليه ، وهو أن هناك خلطاً قد وقع لدى بعض المؤرخين - والعامه أيضاً - في إطلاق التسميات السابقة على معلمي المرحلة الأولى بفقيهِهم ، فكان البعض يطلقهما على الشخص نفسه ، ولعل مرد ذلك إلى التشابه الكبير في طبيعة الدور الوظيفي الذي قاموا به ، وسأكتفي بإيراد مثل واحد لهذا الخلط ، وهو ما ورد في (طبقات صلحاء اليمن)^(٢) ، حيث نجد المؤرخ المعاصر البريهي (ت ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م) يورد نصاً - على لسان أحد العلماء متحدثاً عن بعض ذكريات طفولته - فيقول : " رأيت في النوم شخصاً جاعني فاطعمني شيئاً فانتبهت وأنا أتكلم كأفصح الناس ، وزالت العجمة التي كانت بلساني ، فجنث إلى والدي وقصصت له ما رأيت ففرح بذلك وأدخلني إلى المؤدب ليعلمني القرآن العظيم ، فعلمني شهراً فلم يفتح عليّ شيئاً ، فعذرني المعلم عن القراءة تلك الساعة إلى وقت آخر فتمت مهموماً " ومن خلال هذا النص يتضح أن المتحدث ومعه المؤرخ قد أطلقا التسميتين على معلم المعلمة وجعلوه المعلم والمؤدب ، ولعل ما أورده من خلط كان موجوداً عند غيرهم آنذاك .

(١) البريهي، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .

٢) معلوم المرحلة الثانية :

الحديث عن معلمي المرحلة الثانية في اليمن في مدة الدراسة يعني الحديث عن عموم علماء اليمن ، فقد كانوا - كلهم وبلا استثناء - معلمون تزجح جدول أعمالهم اليومية بالمهام التدريسية والعلمية ، في صورها المختلفة من إلقاء وإلقاء ومذاكرة وتأليف ووعظ وفتوى وغيرها من المهام ، والمتتبع لأخبارهم في المصادر التي تناولت أنشطتهم الحياتية يصل إلى قناعة بأن ما قدموه للمجتمع من خدمات تدريسية لم يكن صادراً عن إحساس منهم بأنها من فضول الأعمال ولا من نوافل العبادات ، بل كانوا يقضون أغلب سني حياتهم فيها باعتبارها من أوجب الواجبات عليهم ، وأنهم لم يكونوا أكثر من مؤدين لما يفرضه عليهم العلم الذي يحملونه .

ونظراً لاختلاف الاهتمامات لدى طلاب للعلم وتعدد الميول وتنوعها عندهم فقد تباينت مستويات إجادتهم لفروع العلوم المختلفة عندما غدوا في عداد العلماء ، ففي حين تجد الفرد منهم عمدة في اللغة والفتوى تجد غيره حجة في القراءات وعلوم التفسير ، وتجد ثالثاً إماماً في الحديث ورجاله ومصطلحاته ، وهكذا بواليك ، وانبنى على ذلك تصدرهم لتدريس العلوم التي أجادوها أكثر من غيرها ، وتبع ذلك تفرع الألقاب والتسميات التي أطلقت عليهم ، واشتقت هذه التسميات من العلوم التي تصدروا لتدريسها وارتبطوا بها ، ولا يعني ذلك انعدام العلماء المميزين الذين بلغوا من الإجابة حد الاجتهاد في معظم فروع المعرفة العلمية الشرعية وغيرها ، وبالتالي قاموا بتدريس معظم العلوم التي أحاطوا بها للمتلقين عنهم من الشرائع الاجتماعية المختلفة .

ثمة أمر لا ينبغي أن تغفل الإشارة إليه ، وهو أن كثيراً من فئات ومسميات معلمي المرحلة الثانية قد ارتبطت بشكل كامل ووثيق بأماكن التعليم التي شاعت وانتشرت في مناطق اليمن التي لم ينتشر فيها المذهب للزيدي ، أي تلك المناطق التي خضعت لسيطرة الدولة الرسولية ومن بعدها لسيطرة الظاهريين ، وهي من الناحية الجغرافية تشغل معظم مساحة اليمن الطبيعية ، وكانت أماكن التعليم فيها ما بين مدارس علمية وأربطة وخانقاوات ومساجد ، أما المنطق التي كان للزيدية فيها الحضور القوي، فكراً ومذهباً وسيطرة ، فقد كانت الهجر العلمية هي الشائعة كأمكنة للتعليم ، وقد تماهت فيها فئات المعلمين حتى كانت تتصحي وتتدمج في فئة واحدة فقط ، ولا نكاد نجد

فيها مسميات المعلمين المشتقة من وظائفهم التدريسية ، بل جاءت ألقابهم لتشير إلى فروع العلوم الشرعية التي أجادوها - تحصيلاً وتدریساً - أكثر من غيرها .

سنقوم هنا باستعراض أشهر فئات معلمي المرحلة الثانية في الحياة العلمية باليمن في مدة الدراسة ، متوخين عدم الإطناب في تفصيلات تعريف مهامهم ، وهم كالآتي :

■ الفقيه :

الفقيه هو ذلك الشخص العالم الذي يتصدر تدريس العلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه وأصول ، وعلوم اللغة من نحو وصرف وغيرها^(١) ، مع التأكيد على أنه لم يكن هناك قالب ثابت لوظائف الفقيه في المدارس العلمية في اليمن في مدة الدراسة ، وأن وضع الفقيه فيها كان امتداداً لما كان عليه من قبلها ، وكثيراً ما كان الواقفون - من الحكام وغيرهم - يقومون بوصف المهام المطلوب تنفيذها من قبل الفقيه ، فكانت المهام المذكورة في صدر التعريف تزيد أحياناً ، وتنقص أحياناً أخرى حتى تكاد تنحصر في تدريس لفقه فقط .

تدل الوثائق الوقفية التي تصممت بعض الوصف لمهام الفقيه على الأهمية الكبيرة التي احتلها الفقهاء في المؤسسات التعليمية في اليمن في مدة الدراسة ، فهي تبين - من خلال وصفها لطبيعة المسؤوليات التي تقع على عاتقهم - أنهم كانوا أعمدة العملية التعليمية كاملة ، وأن المدرسة أو الهجرة العلمية لم تكن تكتسب سمعتها ونتجها نحوها أنظار طلاب العلم في المناطق الأخرى إلا بسبب المكانة العلمية التي يتمتع بها فقيها ، ومن هذه الوثائق التي تناولت المهام المتعددة التي تقع على عاتق الفقيه وثيقة مدرسة جوهر بمدينة تعز ، ففيها : " وعلى فقيه ، يدرس العلم الشريف في المدرسة المذكورة على مذهب الإمام أبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي المطلبي رضي الله عنه وأرضاه ، يقرئ للطلالين المرتبين في فنون العلم الفقهي ، فروعاً وأصولاً ،

(١) الفقهندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، والمؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، (د ، ت) ، ج ٥ ص ٤٣٦ .

ويقربهم الحديث النبوي والتفسير والفرائض والوعظ والرقائق ، وباللغة ، ويقرؤون عليه سماعاً واستماعاً^(١).

نخلص إلى القول بأن مصطلح (الفقيه) وإن كان قد جاء مشتقاً - من الناحية اللغوية - من الفقه إلا أنها لا تقتضي إقتصار اهتمام حامله على هذا الفرع من العلوم ، بل إنه كان لصيقاً بمعظم علماء اليمن في كل قرون تاريخها الإسلامي المتأخرة ، مع أن هؤلاء العلماء كانوا مبرزين في فروع العلوم الشرعية المختلفة أكثر من إجادتهم للغة نفسه .

• للمعيد :

تأتي منزلة المعيد في الدرجة الثانية بعد للفقيه ، إذ هو مساعده ويده اليمنى ، فهو الذي يقوم بمهمتين : أولاهما استباقية للدرس بقيامه بالتوطئة له قبل أن يلقيه الفقيه بنفسه ، في صورة أشبه ما تكون بالتحضير للمسبق ، وثانيهما لاحقة ، وذلك بأن يعيد للدرس بعد انصراف الفقيه من إلقائه وتدريبه ، لكي يفهمه الطلبة ويحسنوه ، خاصة ما استعصى فهمه وصعب إدراكه ، ولا أظن اسمه مشتقاً إلا من (عادته للدرس ، وهو ما قرره الإمام ابن جماعة^(٢) وغيره^(٣)).

تناولت المصادر اليمنية وكثير من وثائق أوقاف أماكن التعليم اليمنية^(٤) اسم المعيد كواحد من أعضاء الهيئات التدريسية فيها ، فلم يذكر المدرس للفقيه إلا وتبعه المعيد ، ولم تبعد وظيفته الموصوفة فيها عما مارسه نظرائه في أقطار العالم الإسلامي الأخرى ، ويبدو أن المعينين كانوا في الأصل من الطلبة المتفوقين والمبرزين في أدائهم وتحصيلهم ، وهو ما جعل منهم لاحقاً فقهاء وعلماء معروفين^(٥).

(١) الوقفية الغسانية ، وثيقة المدرسة الجوهرية ، ص ٦١ .

(٢) فكرة الصنيع والمنكلم ، ص ٢٠٤ .

(٣) السبكي ، معبد النعم وعبد النعم ، تحقيق محمد علي النجار وآخرون ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٤٨م ، ص ١٠٨ ، قلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٤٦٤ .

(٤) الوقفية الغسانية ، وثيقة المدرسة الجوهرية ، ص ٦١ .

(٥) علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في تعز ، ص ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، السبكي ، المدرس اليمنية في عهد الدولة الرسولية ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

■ الْمُحَدَّث :

اشتقاق اسم المحدث من علم الحديث جاء مفصلاً عليه بدون زيادة ولا نقصان ،
مختلفاً بذلك عن الفقيه الذي تجاوز اهتمامه وتدريبه حدود علم الفقه ، فقد كان للمحدث
مشتغلاً بالحديث لا بغيره ، وهو ما عبر عنه كبار العلماء المسلمين الذين قاموا - في
بعض مؤلفاتهم - بتعريف المصطلحات الشائعة في الأوساط العلمية الإسلامية ، فقد
عرف القلقشندي^(١) للمحدث بأنه " من يتقن أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم بطريقة
الرواية والدراية ، والعلم بأسماء الرجال وطرق الأحاديث والمعرفة بالأسانيد ونحو
ذلك " ، وقد جعل الإمام السبكي^(٢) شروط استحقاق حمل هذا اللقب العلمي أكثر
صعوبة ، فهو يصرح بأن المحدث هو " من عرف الأسانيد والعلل وأسماء الرجال ،
والعالي والنازل ، وحفظ مع تلك جملة مستكثرة ، وسمع الكتب الستة ... وضم إلى هذا
القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثية ، هذا أقل درجاته ، فإذا سمع ما ذكرناه ، وكتب
الطباق ودار على الشيوخ وتكلم في العلل والوفيات والأسانيد ، كان في أول درجات
المحدثين ، ثم يزيد الله من شاء ما شاء " .

كان المحدث في أماكن التعليم في اليمن في مدة الدراسة في القرنين التاسع
والعاشر الهجريين يقوم بما يقوم به نظرائه في أقطار العالم الإسلامي الأخرى ،
وتناولت بعض وثائق أوقاف المدارس الإسلامية في مدة الدراسة جوانب من مهام
المحدث ، واشترطت عليه أن يكون ثابت الرواية صحيح السند ، وأن يقوم بتدريس
الطلبة الحديث النبوي ليأخذوا العلم عنه سمعاً واستماعاً في كل يوم بكرة وعشياً بما
سهله الله تعالى ، وأن يكون دائم البحث والاجتهاد في فنه هو وطلبته^(٣) ، وهو ما
أضفى صبغة من الجدية للعالية على أداء المحدث والمقلتين عنه .

■ قارئ الحديث :

يستوفينا - عند ذكر معلمي الحديث - وجود هذه الوظيفة الثانوية لوظيفتهم
الأساسية دلائل الأماكن التعليمية في مدة الدراسة ، وفي الحقيقة أن هذا الوضع جاء

(١) صحيح الأعشى ، ج ٥ ص ٤٦٤ .

(٢) معبد التمام ومبيد النقم ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

(٣) الوثائق الغسلية ، وثيقة المدرسة الظاهرية ، ص ٣٩ ، وثيقة جامع ثبات من ٩١ ، وثيقة المدرسة
الأفضلية ص ١٠٤ .

امتداداً لما كان عليه في فترات سابقة لمدة دراستنا كما تحكيه بعض وثائق الأوقاف على المدارس والجوامع المتوافرة لدينا^(١) ، فقد كان معلمو الحديث النبوي الشريف من كبار العلماء يقومون بها بأنفسهم أو تتطاط بالمبرزين من تلاميذهم ، وتتمثل هذه الوظيفة بإسماع الحديث النبوي للمتطوعين والمحبين لسماعه من العامة وغير الطلبة المنتظمين في الحلقات والمجالس العلمية الدائمة^(٢) ، وهو ما يعكس صورة من صور تنظيم الأداء التدريسي الذي يفصل بين المتفرغين للحصول الذين حققوا قدراً لا بأس به من العلم وبين أولئك العابرين أو بالأحرى غير المنتظمين في الاستماع والجلوس للحصول ، وفي ذلك تحقيق لمبدأ الحقبة الجميع في التعلم وعدم احتكار تحصيله^(٣) .

• المقرئ :

وقد يعرف بأنه مدرس القراءات وشهرته بالمقرئ أكثر شيوعاً ، وهو الشخص الذي يتصدر لتدريس القرآن الكريم ومعه جميع علومه المرتبطة به مثل التجويد وعلوم الوقف والابتداء على طريقة المشايخ للقراء السبعة أو العشرة المشهورين في أنحاء العالم الإسلامي قاطبة ، وهكذا عرفه القلقشندي^(٤) .

وقد ارتبط المقرئ بالحياة العلمية في اليمن على مر القرون الإسلامية ، ولم تخل هيئة تدريسية من مدرس للقراءات وتجويد القرآن العظيم^(٥) ، وهو ما يدل على اهتمام اليمنيين بالقرآن وعلومه دراسة وتدريماً ، واشتهر فيها عدد كبير من القراء الذين تولوا تدريس القراءات ، وتزخر التواريخ اليمنية بتراجهم^(٦) .

(١) الوقفية النصائية ، وثيقة مدرسة سلامة ، ص ٧٧ .

(٢) من أمثال ذلك ما في الوقفية النصائية ، وثيقة المدرسة الأفضلية ، ص ١٠٣ ، وثيقة جامع شبعت ص ٩١ .

(٣) علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في تعز ، ص ٥٢٢ .

(٤) صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٤٦٤ .

(٥) الوقفية النصائية ، وثيقة المدرسة الأشرفية ، ص ١٤ ، المدرسة الظاهرية ، ص ٣٩ .

(٦) التبرهني ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، الحبيشي ، تاريخ رصاف ، ص ٢١٤ ، الخرجي ، العقود اللؤلؤية ، ص ٢ ص ٦٩ .

■ مدرس النحو واللغة :

ظهر معلم النحو واللغة في المدارس العلمية في اليمن مع انتشار المدارس العلمية منذ القرن السابع الهجري برعاية الرسولين ، وكان وجوده لازماً للهيئات التعليمية في عهدهم ومن بعدهم ، وقامت بعض وثائق الأوقاف بتناول شروط تعيينه في تلك المدارس ، إذ اشترطت أن يكون " عارفاً بأصوله وفروعه ، بصيراً بأدبته ، مستحضراً لنصوصه ، ذاكراً لشواذه وغوامضه ، مفيداً للطلبة ... يصلح من أئمتهم ركبها ، ويجلو عن صدورهم شكوكها ، عارفاً باللغة ، بارعاً فيها ، نقلاً لفصيحها ، مستعملاً لصحيحها " (١) .

■ شيخ الخانقاه :

لم تكن الخانقوات معروفة في اليمن حتى العصر الرسولي ، كما أنها لم تكن ملحقة بالمنشآت التعليمية كلها ، وبعضها كان منفرداً عنها ، وقد أشرنا إليها في الفصل الخاص بآماكن التعليم ، إلا أننا هنا بصدد الحديث عن الرجل الأول فيها ، وهو ما كان يدعى بشيخ الخانقاه ، وكما أن وجود الخانقاه يقتضي وجود الشيخ فإنه كذلك يستلزم وجود المريدين من الطلبة الصوفية الذين سيتولى الإشراف عليهم ويقوم بتربيتهم (٢) ، كما أنه يعد المسؤول الأول عن جميع الأعمال التي تتعلق بالخانقاه التي طلبها الواقفون ، ومراعاة الشروط المحددة له سلفاً من قبلهم ، مثل عدم إتيانه ومريديه للتبذع التي كثيراً ما تنتشر في أوساطهم كالنفخ في المزمار والضرب على الدفوف (٣) ، ولزم شيخ الخانقاه " الاستقامة على سنن طريقته من مراعاة التسلك والتبذل والانقطاع إلى الله عز وجل ، وعلى أتباعه التماسي بهديه والاستئان بسننه ولا يخالف رأيهم رأيه على مقتضى السلوك والإرشاد ، يوقرون كبيرهم ويرحمون ضعيفهم ، رحماء بينهم ... " (٤) .

(١) الوثيقة الغسانية ، وثيقة المدرسة الطاهرية ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في تعز ، ص ٥٢٠ ، الوثيقة الغسانية ، وثيقة المدرسة الأشرافية ، ص ١٧ ، المدرسة الأكاديمية ١٠٥ .

(٣) الوثيقة الغسانية ، وثيقة المدرسة الأشرافية ، ص ١٧ .

(٤) الوثيقة الغسانية ، وثيقة المدرسة الأكاديمية ص ١٠٥ ، عبدالعزيز بن راشد السندي ، المدارس اليمنية في عهد الدولة الرسولية ، ص ١٩٢ .

ثانياً : طلبه العلم :

إذا حصرنا أطراف العملية التعليمية في الحياة العلمية في اليمن - سواءً في مدة الدراسة أو امتدادتها السابقة لها واللاحقة - في طرفين اثنين ، فإننا سنجد أن طلبه العلم هم أحد هذين الطرفين ، ويقف - بطبيعة الحال - المعلمون في الطرف الآخر ، وعلى هذا الأساس فإن العملية التعليمية برمتها تصبح غير ذات جدوى بدون الطلاب ، ولكي يتم تناول هذه الشريحة بشكل سلس فإنه من الممكن تقسيمها إلى فئتين بناءً على المستويات العمرية والعقلية لهم ، وفئتين أخريتين بحسب تفرغهم للتعليم العلمي من عدمه ، فأما الفئتان المصنفتان بحسب المستويات العمرية والعقلية للطلاب فتأتي على هذا النحو :

(١) طلاب المرحلة الأولى (الصبيان) :

لعل الحديث هنا يتقاطع مع ما سبق أن أوردناه في الفصل الرابع أثناء تناول المرحلة الأولى من النظام التعليمي في اليمن في مدة الدراسة ، ومما لا جدال حوله أن هذه الفئة هي التي مثلت المادة الخام الأولية التي امتحنت بعوامل متشابهة من ظروف المادة والفراغ والصحة ، واعتبارات الحاجات الحياتية والقدرات العقلية وغيرها لتفرز أرقام طلبه العلم للصحيحة القادرة على مواصلة طريق التلقي والتدرج في سلم العلماء في المرحلة الثانية .

وقد صنفت هذه الفئة بناءً على اعتبار المستوى العمري لطلاب العلم ونوعية ما يتلقاه من قشور العلوم وأبجدياتها وأوليائها الأساسية ، ومن خلال العنوان يتضح أن هذه الفئة محصورة بسقف عمري لا يتجاوز أكثر من مرحلة المراهقة في الغالب ، ودون أن ننسى أن هناك من قفزت بهم همهم ومواهبهم للعقلية إلى الفئة التالية مع أنهم - من الناحية العمرية - كانوا في عداد هذه الفئة ، من المحتمل - كما سبق الإشارة في الفصلين السابقين - أن السواد الأعظم ، إن لم نقل كل ، الصبيان في المجتمع قد كانوا بصورة أو بأخرى ضمن هذه الفئة ، سواء استمر بهم المقام للدراسة إلى غاية ما يحدده المعلمون أم انقطعوا بعد قضاء مدة معينة منها .

وقد كانت المعلومات : سواء تلك التي ألحقت بالمساجد وأئمتها ، أو تلك المحسوبة على المدارس العلمية التي بناها الأمراء والسلاطين والوجهاء ، كانت تلك المعلومات هي أماكن التلقي والدراسة لهذه الفئة .

(٢) طلاب المرحلة الثانية (البالغون) :

كل من جلس للتلقي في غير المعلمة فهو مصنف ضمن هذه الفئة ، بمعنى أنهم طلبة العلم الذين قد بلغوا من العمر ما يخرجهم عن وصف للصبي جسداً وتفكيراً في الغالب ، وإذا أخذنا في بالنا أن كبار العلماء من أعلام اليمن ورموز الفكر الإسلامي والعربي فيه مهما بلغوا من السن والنضج والعلم فإنهم كانوا على استعداد دائم للجلوس في موضع التلمذ عند ورود من يشعرون بحاجتهم إلى علمه فإننا سنقول : إنهم كانوا - من هذه الناحية - مدرجون ضمن هذه الفئة مع اعتبار خصوصيتهم أنهم لم يكونوا كذلك إلا في مواقف محصورة ومحدودة .

كان طلبة العلم الذين جلسوا بين يدي العلماء والفقهاء والمحدثين والمقرئين وغيرهم في المدارس والهجر العلمية والخلقات المسجدية ومجالس العلم والزوايا والأربطة هم قوام هذه الفئة بشكل رئيسي ، وإذا كان طالب العلم في المرحلة الأولى يتعدها في مدة زمنية لا تطول فهذه المرحلة قد تمتد به إلى مستوى عمري متأخر ، يحدد نهايتها الظروف الموضوعية المعيشية والصحية والاجتماعية ، كما تدخل فيها العوامل الذاتية والنفسية كالقدرات العقلية والطمع في استزادة التحصيل وعلو الهمة وقوة العزيمة .

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن فتى طلبة العلم المصنفين بذاء على التفرغ التام للتحصيل والتلقي العلمي من عدمه فتأتي على النحو الآتي :

(١) طلبة العلم غير المتفرغين :

كان للسواد الأعظم من طلبة العلم في اليمن في مدة الدراسة يعتمدون على مصادرهم الحاصلة في تمويل مسيرتهم الدراسية ، إذ كان البعض منهم يعمل في التجارة أو الزراعة بالتوازي مع طلبه للعلم الشريف^(١) ، وهو ما يدعونا بجلاء إلى التسليم بأن عدداً كبيراً من الطلبة لم يكونوا متفرغين تملأ للتحصيل ، ولا ينسى

(١) من أمثلة ذلك قصة محمد بن يحيى بهران (ت ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) الذي كان يمارس التجارة بالإضافة إلى تحصيله في كل منطقة يزلها ، أو صارم الدين إبراهيم بن محمد الوزير (ت ٩١٤هـ / ١٥٠٥م) الذين كان يتحدث كان سكناه متردداً ما بين وادي السمر ومدينتي صنعاء وصعدة ، كان يتناول في أشعاره نصائح للعلاخين وهو في موقع الخبرة بمهنتهم بما يفوق إلى توقع ممارسته لها بصورة أو بآخرى ، المقراني ، مكنون السمر في تحرير تحرير السمر ، ص ١٢٤ .

التذكير بما سبقت الإشارة إليه من أن هناك من أوقف مسيرة طلب العلم بسبب الظروف المادية الصعبة التي كانت تعانيها أسرهم ، مع أن شروط التحصيل الموضوعية والذاتية والنفسية كانت كلها مواتية للمواصلة .

(٢) طلبة العلم المتفرغون :

لم تظهر هذه النوعية من الطلاب إلا في المدارس العلمية والمساجد التي سارت على منوالها في إنجاز مهمتها التعليمية والتي طهرت على مساحة واسعة من اليمن طيلة العصر الرسولي وامتد نشاطها - وإن كان بوتيرة أقل - إلى العصر الطاهري ، فقد جرت العادة أن تكون مهمة تعيين للمدرسين لفروع العلم المختلفة التي أشرنا إليها في مستهل هذا الفصل مقرونة بتعيين الطلبة الذين سيتم تفريغهم تماماً للتلقي والتحصيل العلمي ، وتقوم أوقاف المدرسة أو المسجد بمؤنتهم ودفع تكاليف معيشتهم ومتطلبات دراستهم ، وذلك جنباً إلى جنب مع أساتذتهم ومعلميهم ، ولم تكن أعدادهم ثابتة دائماً ، بل كانت متغيرة من مدرسة إلى أخرى ، وفي حين أن بعض المصادر حددت عددهم مجملاً دون تفصيل^(١) نجد أن وثائق بعض الأراضي الزراعية للموقوفة على المدارس العلمية قد فصلت لكل مدرس عدداً محدداً من الطلبة ، فهذه وثيقة المدرسة الطاهرية - على سبيل المثال لا الحصر - ترتب عشرة طلاب لدراسة الفقه الشافعي وخمسة طلاب لدراسة الحديث للنبي الشريف ، ومثلهم لدراسة القراءات العشر ، إضافة إلى خمسة عشر يتيماً لتعلم القرآن الكريم على يدي معلم مخصص لهم ، وتعهدت بصرف مبلغ معين من المال يكفي الجميع ، بالطبع لكل فرد منهم على حدة^(٢) ، وجاءت بعض الإشارات إلى أن بعض المدراس كانت تصرف مستحقات عينية - لا مالية - للطلبة المرتبين فيها ، مثل الكسوة وتوفير كل المواد الأساسية اللازمة للدراسة والتحصيل كالورق والمداد والكتب^(٣) .

(١) البرهوي ، طيفات صلحاء اليمن ، ص ٥٤ .

(٢) الوثيقة القضائية ، وثيقة المدرسة الطاهرية ، ص ٢٩ ، ٤٠ .

(٣) الأكوع ، المدارس الإسلامية في اليمن ، ٢٥٧ ، عبد الله قائد المبلدي ، الحياة العلمية في زبيد ، ص

٣) مريدو شيخ الخانقاه (الطلبة الصوفية) :

بتسليوى قيامنا بإدراج هذه الفئة ضمن الفئة السابقة - فئة طلبة العلم المتفرغة للتحصيل - مع جعلنا إياها فئة قائمة بذاتها ، فإن نظرنا إليها من ناحية كونها متعمدة بالرعاية والعناية من قبل الواقفين والمنشئين للمدارس والخانقوات فهي تدخل في إطار فئة طلبة العلم المتفرغين ، أما إذا نظرنا إليها من منطلق أنها فرغت للعبادة أكثر من تفرغها لطلب العلم - كمادة المتصوفة - فلنأخذ من جعلها فئة إضافية خامسة ، ولم تكن هذه النوعية من الطلبة موجودة في كل المدارس العلمية سوى تلك التي ألحق بها خانقاه ، كما أنهم وُجدوا في أربطة الصوفية المنتشرة في أماكن عدة أشرنا إليها في فصل سابق ، واشترط الواقفون على هذه الفئة تجنب البدع التي كثيراً ما تنتشر في أوساطهم كالنفع في المزامير والضرب على الدفوف^(١) ، ولزوم الناسي بهدي شيخهم والاستئذان بمنته ، وألا يخالف رأيهم رأيهم على مقتضى السلوك والإرشاد ، ولأن يوقروا كبيرهم ويرحموا ضعيفهم^(٢) .

ثالثاً : شاغلو الوظائف الإدارية والدينية وما في حكمهما :

في البداية يجب التنويه إلى أن المقصود بشريحة شاغلي الوظائف الإدارية والدينية وما في حكمهما هو أولئك الذين أنجزوا وظائف مرتبطة بالمدارس العلمية والمساجد التي شكلت لها هيئات تدريسية مشابهة للمدارس العلمية ، إلا أن هذه الوظائف لا ترتبط بالعملية التدريسية بصورة مباشرة ، وإن كانت تستهدف تقديم خدمات وتسهيلات علمية وحياتية متعددة يأتي المعلمون وطلبة العلم في تلك المدارس والمساجد في طليعة المستفيدين منها ، وهذا يقودنا إلى التأكيد على أن هذه الوظائف لم تكن سائدة في كل أماكن التعليم على المساحة الجغرافية اليمنية كلها ، بل كان وجودها واضحاً - صفةً ومسمىً - في أماكن وجود المدارس العلمية كما سبقت الإشارة ، أي أن هذه الوظائف تكاد تنعدم في الهجر العلمية حيث ندرت المدارس العلمية .

وهنا سنقوم باستعراض مختصر لأهم الوظائف الإدارية والدينية المشار إليها في العنوان أعلاه ، وهو - من باب أولى - حديث عن شاغلها :

(١) الوثيقة الفسقية ، وثيقة المدرسة الأشرفية ، ص ١٤ ، ١٧ .

(٢) الوثيقة الفسقية ، وثيقة المدرسة الأصبليّة ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(١) الناظر :

هو المسؤول الإداري الأول عن المنشأة التعليمية ، لذلك فقد تولى هذه الوظيفة بعض الواقفين على المنشآت أو المؤسسون أنفسهم ما لم يشغلوا بأمور أخرى ، وكانت المسؤولية على الناظر كبيرة تستلزم منه بذل الجهد الكبير للحفاظ على المدرسة وملحقاتها وهيئة التدريس فيها وطلبة العلم المعينين بها ومصادر دخلها ووارداتها وضبط مصروفاتها ، مستعيناً بعدد من المساعدين في الوظائف الإدارية والدينية الأدنى.

يتضح خطورة الدور الذي يقوم به الناظر من خلال إدراكنا أن أي تهاون أو تقاعص عن القيام بواجب النظر الدقيق والصحيح في شؤون المنشأة قد يؤدي إلى تفرق العلماء وطلابهم عن المدرسة وبالتالي توقفها عن أداء واجبها التعليمي الذي أنشئت من أجله ، وهو ما حدا ببعض الواقفين المدركين لهذا الجانب أن يوصي بتولي النظر من بعده على المدرسة للتي أنشأها الأصلح والأرشد من ذريته نكوراً وإنشأها أبداً ما تتسلوا ، ثم من بعدهم الأصلح والأرشد العدل التقى الثقة الأمين من مواليه الذكور ثم من بعدهم حكام المسلمين أو متولي القضاء الأقربين إلى موضع وجود هذه المنشأة^(١) .

أشارت وثيقة المدرسة الجوهريّة إلى جانب آخر من جوانب مسؤولية الناظر ، تتمثل في قيامه بدور رقابي على أرباب الوظائف المعينين في المنشأة وملاحظة اتباعهم لشرط الواقفين ، ويبدو أن ذلك كان يشمل أداء المعلمين والطلبة وغيرهم ، والمقابل إيصال الحقوق المادية والعينية المرصودة إلى أصحابها بانتظام^(٢) .

(٢) النائب :

أشارت بعض وثائق الأوقاف^(٣) إلى وجود هذه الوظيفة الإدارية ، ويبدو أن الذين استحدثوها هم أولئك الواقفون الذين لم يمكنهم ظروفهم من متابعة المنشآت التعليمية التي بنوها بأنفسهم ، لذلك فإن وصف المهام التي يفترض على النائب القيام بها ينطبق إلى حد كبير على الناظر نفسه .

(١) الوثيقة الخسائية ، ص ١٨ ، وثيقة المدرسة للظاهرية . ص ٤١ ، وثيقة المدرسة لجوهريّة ، ص ٦٥ .

(٢) السنيدي ، المدارس الخيرية في عهد الدولة الرسولية ، ص ١٨٨ .

(٣) الوثيقة الخسائية ، وثيقة المدرسة المؤيدية ، ص ٧٧ ، وثيقة المدرسة اليافوتية بدي السفال ، ص ١٦٥ .

٣) الإمام :

من البديهي أنه لا يوجد ارتباط مباشر للإمام بالمدرسة ما لم يكن المسجد واحداً من أهم مرافقها العمرانية ، ووجود المسجد ملحقاً بالمدرسة لا يعني بالضرورة أن المصلين به هم فقط المرتبطون بالمدرسة فقط ، فهو عام لكل من قصده للصلاة ، إضافة إلى أن وجود الإمام أساسي للمساجد والجوامع إجمالاً ، سواء كان لهذه المساجد والجوامع دور تربوي رفيف للمدارس العلمية أم لا .

ومن البديهي أن ما يشترط في الإمام هنا هو عين ما يشترط في الأئمة في أي مكان آخر ، فمن اللازم عليه إجادة تلاوة القرآن الكريم مع حفظه له عن ظهر قلب ، وتحدث بعض التواريخ والوثائق الوقفية^(١) عن اشتراط حسن الصوت في الإمام ، ودوام ملازمته للمسجد في جميع الصلوات المفروضة بأوقاتها ، إضافة إلى الصلوات النافلة كالترواح و ليلة النصف من شعبان والخصوف والكسوف ، وعدم إطالة الصلاة ، وتجنب ما تكرهه الجماعة ، مع معرفة بفروض الوضوء ومسئله وفروض الصلاة وسننها ، ومحافظة على طهارة الثوب والبدن .

٤) أمين المكتبة :

وعرف أيضاً بحافظ الكتب أو خازن الكتب ، وقد جاء اسمه في وثائق أوقاف المدارس كواحد من هيئاتها المعنية من قبل الواقف ، كما جاء اسمه مشتقاً من طبيعة الوظيفة التي قام بها ، وهو من جانب آخر قرينة قوية تشير إلى كون خزانة الكتب قد لازمت المدارس والمساجد كرافد من روافد مصادر العلم الأخرى ، وفي النص الآتي مثال على حدود مهمة حافظ الكتب التي رسمتها الوثائق ، وعلى حافظ للكتب الموقوف بها على طلبه العلم الشريف ، لا يمنعها مستحقها ، ولا يعطيها غير مستحقها ، فإذا طلب الطالب كتاباً أعاره وقدر له مدة يعلم انقضاء الحاجة من الكتاب فيها ، ثم يطلبه عند انقضاء المدة ، ويفتقدها - أي الكتب الموقوفة في خزانة الكتب - عن الأوقات التي تعرض للكتب كالعث والأرصة ونزول الماء وغير ذلك ...^(٢) .

(١) الخزرجي ، العقود للؤلؤية ، ج ٢ ص ٣١٧ ، الوقفية الفسقية ، وثيقة المدرسة لمؤيدية ، ص ٧٦ ، وثيقة المدرسة الظاهرية ، ص ٣٨ ، وثيقة المدرسة الجوهريّة ، ص ٦٢ وغيرها .

(٢) الوقفية الفسقية ، وثيقة المدرسة الظاهرية ، ص ٤٠ .

٥) القِيم :

من خلال النظرة العامة إلى مجمل المهام التي اضطلع بتنفيذها القِيم ينضح لنا أنه كان مكافئاً للفراشين في تاريخنا المعاصر ، فمن واجبه تنظيف المسجد أو المدرسة من داخلها وخارجها ، وفرش ما تحتاجه المدرسة أو المسجد من البُسُط والخُصُر ، وإشعال المصابيح والشمع فيهما عند الحاجة وإطفائها عند الاستغناء ، وحفظ آلة المدرسة من البُسُط والخُصُر والفرش والقناديل والمصابيح والأسقية^(١) ، ومما سبق نخلص إلى أن وجود القِيم مهم جداً للمسجد والمدرسة ، ولأنهما بدونه يستحيلان إلى ما يشبه الإسطبلات التي لا تليق بالبشر ؛ لذلك فقد كان - كما تحكي المصلا^(٢) - في مقدمة من يتم تعيينهم ، وبظراً لكثرة التكاليف التي يقوم بها القيم ولأن بعضها تحتاج إلى جهود عضلية كبيرة فإن بعض المدارس الكبيرة قد عين لها قِيَمَتَيْن^(٣) .

هذه هي مجموعة من الوظائف الإدارية التي ارتبطت بصورة غير مباشرة بحياة العلماء وطلابهم في المدارس والمساجد الرديفة لها ، ولا يعني ذلك أنه لم يكن هناك غيرها ، فقد تناولت المصادر وظائف إدارية ودينية أخرى يمنعنا من نكرها لارتباطها بالحياة العلمية بشكل أقل من سابقتها ، والوظائف الأخرى هي : المؤذن ، وقارئ القرآن ، وقيم الساقية أو الدارح .

❖ العلاقات العامة للركائز البشرية وأثرها على الحياة العلمية:

لم تكن الركائز البشرية إجمالاً ، والعلماء وطلبة العلم منهم على وجه الخصوص ، يتسمون بالسلبية في تعاملهم مع بقية أفراد مجتمعهم من الحكام والسلطين والأئمة والأمراء أو عامة الناس وسوادهم ، كما أنهم لم يكونوا أبداً فئة منعزلة تتفوق

(١) الوثيقة الضمائية ، وثيقة المدرسة الظاهرية ، ص ٣٩ ، وثيقة المدرسة الجوهريّة ، ص ٦٢ ، ٦٣ ، وثيقة المدرسة الميمنية ، ص ٧٩ ، ٧٧ . وثيقة جامع ثبات ، ٩٠ ، ٩٢ ، وثيقة مدرسة الباقونية ، ١١٥ ، ١١٦ .

(٢) الخزرجي ، العقود النوازية ، ج ١ ص ٢٣٣ ، ٢٨٥ ، ج ٢ ص ٥٧ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، المسجد الميمني ، ٢٧٢ ، ٤٠٩ ، ٤٣٢ ، ٥٠٥ .

(٣) الوثيقة الضمائية ، وثيقة المدرسة الأشعرية ، ص ١٣ ، وثيقة المدرسة الظاهرية ، ص ٣٩ ، وثيقة المدرسة الأصلية ، ص ١٠٢ .

على نفسها ، وتتكفى حول أداء واجبها فقط ، فقد جعلتهم أنورا هم الاجتماعية والعلمية والدينية والجهادية والتوعوية في موقع الصدارة بين القوى المؤثرة ، حتى صُنفت عليهم أحيانا مقولة : " إن الحكام ملوك على الناس والعلماء حكام على الملوك " كما أسلفنا الإشارة ، وبالتالي كانت لهم علاقات واسعة ومتعددة مع مختلف شرائح المجتمع اليمني نفسه من جانب ، ومع أقرانهم من علماء الأقطار الإسلامية الأخرى من جانب آخر .

وفيما يلي سنتناول أهم هذه العلاقات في عدد من المحاور لكي تساعدنا على تسلسل الطرح وتسهيل المذاكرة ، وذلك على النحو الآتي :

❧ الرحلات العلمية :

يقول ابن خلدون^(١) : " إن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعلماً وإلقاءً ، وتارة محاكاةً وتلقيناً بالمباشرة ، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً ، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها ، والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مخطئة على المتعلم حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم ، ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين ، فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيد تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها ، فيجرد العلم عنها ، ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصيل ، وتنهص قواه إلى الرسوخ والاستحكام فسي الملكات ، ويصحح معارفه ويميزها عن سواها ، مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتها من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم ، وهذا لمن يسر الله عليه طرق للعلم والهداية ، فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال " ، ويقول طائش كبرى زاده^(٢) في التأكيد على ضرورة الرحلة والسفر في مسبيل طلب العلوم : " ويسافر - أي طالب العلم - في طلب الأستاذ إلى أقصى البلاد الشاسعة ، ولو مسح الأرض كلها بقمحه وضرب أباط الإبل في طلبه لكان أحق ولولى ... " ،

(١) مقننة ابن خلدون ، حقاها وشرحها وعلق عليها د. علي عبدالوحد والي ، سلسلة مكتبة الأسرة ، دار النهضة مصر ، القاهرة ، ٢٠٠٦م ، ج ٣ ص ١١٢٠ .

(٢) مفتاح السعادة ومصباح السعادة ، مراجعة وتحقيق د. كامل كامل بكري وآخر ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٨م ، ص ٢٠ .

هذان نصان يعكسان مدى قناعة كبار العلماء وأعلام الفكر الإسلامي بأهمية الرحلة العلمية ، وليس إلا امتداداً للقناعة الراسخة لدى عموم الأمة بضرورتها ، ونحن نورد هنا عطفاً على ما سبق مرده - في الفصل الأول - من دلائل لزومها لكل جاد في تحصيل العلوم وعازم على المسبق في مضمارها .

ولعلني أكرر هنا ما سبقت أن أشرت إليه من أن رسوخ القناعة بأهمية الرحلة في طلب العلم لدى اليمنيين قد كان له دوره الكبير في خروج عدد كبير من أبرز علماء المذاهب المختلفة في اليمن ، فقد سارعوا إلى القيام بالرحلات العلمية ، وسعوا وراء تنويع المعرفة عندهم أينما كانت ، غير مباليين بما يعترضهم من المشقة والعناء في سبيل الحصول عليها^(١) ، وجابوا أشهر مراكز العلم في دار الإسلام ، وجلسوا إلى علمائها ، وأخذوا من كل شيخ خير ما عنده علماً وأسلوباً ، وقضى بعضهم سنوات عديدة في التلقي والأخذ عن الشيوخ ، فلما عادوا إلى اليمن بعد رحلة طويلة وغريبة مديدة عادوا وهم أكثر علماً ، وأوسع أفقاً ، وأعزّر معرفة ، إضافة إلى ما حملوه معهم من التصانيف المقيمة ، وضروب من التأليف النفيسة التي جمعوها خلال رحلاتهم ، وتجمّع الطلبة حولهم طالعين الأخذ عنهم ، فتصنّوا لتدريسهم ونفعهم ، وظهر تأثيرهم واضحاً في ميدان العلوم عامة ، والعلوم الشرعية بشكل خاص ، وأسهموا في بيان ورسم صورة اليمن وكيانها العلمي والحضاري مساهمة فعالة^(٢) ، فذاع صيت عدد منهم في الأقطار ؛ فجعلنا نلاحظ أن اليمن - بمسببهم - كانت متجهاً لطلبة العلم من غير اليمنيين أيضاً.

وقد جرت عادة طلبة العلم اليمنيين أن يبدعوا بالأخذ عن شيوخ بلدانهم التي يعيشون فيها داخل اليمن ، ثم يرتحلون للأخذ عن المبرزين من علماء اليمن في المدن والمراكز العلمية الأخرى ، فلما يحسسون بالتشبع من علومهم ، تنوq أنفسهم للاستزادة فوق ما تعلموه ، وترنوا نفوسهم للتحقق في دراسة ما أحاطوا به من العلوم التي أجادوها ، فلا يجدون بُفَيْتَهُمْ ومُتَنَفِّسَهُمْ في تحقيق ذلك وبلوغه إلا بالرحلة والمعنى على

(١) علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في تعز ، ص ٣٠٧ .

(٢) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٠٣ ، ٢٣٠ ، ٢٢٩ ، الجندي ، الملوك ، ج ٢ ص ٤٠٠ ، د أحمد الطوسي ، أعلام مدرسة الحديث في اليمن وجهودهم في حفظ السنة ، ص ٧١ - ٨٦ ، الفاسي ، العقد الثمين في أخبار البلد الأمين ، ج ٦ ص ١٢٤ .

طريقة مشائخهم ، عندها يكون قرارهم بمغادرة اليمن لمُدَّ غير محصورة بسنين محددة ، إنما يحددها بلوغ الهدف الذي خرجوا من أجله .

ولتسهيل تناول الموضوع سأقسمه إلى عناوين ثلاثة ، أتناول المرحلة العلمية الداخلية لطلبة العلم في اليمن أولاً ، ثم الرحلات العلمية الخارجية لهم ثانياً ، وأخيراً الوافدون من العلماء إلى اليمن ، وذلك كما يلي :

(١) المرحلة العلمية الداخلية لطلبة العلم اليمنيين :

تزخر المصادر التاريخية وكتب التراجم اليمنية بمئات الأمثلة على هذا النوع من الرحلات العلمية ، بل إننا نقول مطمئنين أنه لم يكن أحد في عداد العلماء من لم يرحل طالباً للعلم إلى مناطق يمنية عدة ، وسنقوم هنا بمرور عدد من أشهر هذه الأمثلة للدلالة على ثبات ظاهرة الارتحال عندهم ، وللتأكيد على وجود نماذج أخرى كثيرة ومماثلة .

من ذلك نذكر الرحلات العلمية الداخلية للإمام المجتهد محمد بن إبراهيم الوريث (٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) الذي وصف بأنه نشأ في طلب العلم ببلدته هجرة الظهراويين من شطَب ، تتلمذ في أول أمره علي يدي أخيه الأكبر الإمام الهادي بن إبراهيم الوريث (٨٢٢هـ / ١٤١٩م) ، ثم تنقل بين مدن اليمن يسعى للقاء العلماء وينهل من فيض علومهم ، درس في صعدة على يدي ثلة من وجوه علمائها في الأصول والفقه واللغة والأدب وغيرها ، وساح في الهجر العلمية المحيطة بصعدة كهجرة قلعة الزاخرة بمرور العلم وأعلام الفكر والسياسة ، ورحل إلى ثُلا ووقف عند إمامها الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) ووقف بمائله وراجع به وبحثه مدة طويلة ، وفي مدينة صنعاء كان تتلمذه على عدد كبير من العلماء ، ونال إجازات من بعضهم لوردها صاحب (طبقات الزيدية للكبرى)^(١) ، ولما نزل إلى مدينة تعز طلب علم الحديث وقرأ الأمهات كلها على محدث اليمن وحافظها في عصره الإمام بنيسن الدين سليمان بن إبراهيم العلوي (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢٣م) وأجازته فيها بإجازة شاملة تناولنا نصها الكامل في الفصل السابق^(٢) .

(١) ابن المؤيد ، ج ٢ ، ص ٨٩٧ - ٨٩٨ .

(٢) زبارة ، أمة اليمن ، ص ٣١١ . ابن الرشيد ، بغية المرید وأئمة الفريد ، ق ٦١ ب ، الوجيه ، أصنام المؤلفين الزيدية ، ص ٨٢٥ ، السحلو ، الضوء اللامع ، ج ٦ ص ٢٧٢ ، الشوكاني ، اللبدر الطالع ، ص ٥٩٩ - ٦١٠ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية للكبرى ، ج ٢ ، ص ٨٩٦ - ٩٠٢ .

وهذا الإمام جمال الدين محمد بن عمر بن مبارك بخرق الحضرمي (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) الذي وصفته بعض المصادر^(١) بقولها : " كان من العلماء الراسخين والأئمة المتبحرين ، اشتغل بالعلوم ، وتفطر بالمنطوق منها والمفهوم ، تميز في المنثور والمنظوم ، وكانت له اليد الطولى في جميع العلوم وصنف في كثير من الفنون كالحدِيث والتصوف والنحو والصرف والحساب والطب والأدب والفلك وغير ذلك ... " لم يبلغ هذه المنزلة الكبيرة إلا بعد رحلة طويلة وعناء ومشاق في سبيل طلب العلم وتحصيله ، ابتداء مسيرته في بلاده حصر موت فحفظ القرآن الكريم ومعه للكتوبر من المتنون في القراءات والنحو والفقه والأصول ، اتجه صوب الشَّحْر فتلمذ فيها على يدي شيخها الأبرز العلامة عبدالله بن عبدالرحمن بافضل (ت ٩١٨هـ / ١٥١٢م) ، وكانت مدينة عدن وجهته الثانية حيث لازم أشهر علمائها كآبي الطيب عبدالله بامخرمة (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م) والإمام محمد بن أحمد بافضل (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م) مدة طويلة ، ثم رحل إلى زبيد وتلمذ على عدد من أكابر علمائها ، وأخذ العلوم الشرعية عن الإمام العلامة المؤرخ الحسين بن عبدالرحمن الأهل (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) في بعض قرى تهامة ، ثم عاد إلى زبيد مرة أخرى بعد أن ارتحل إلى الحرمين للحج والتحصيل العلمي ، وبها تزوج ابنة شيخه الإمام حمزة بن عبدالله الناشري (ت ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م)^(٢) .

لما عاد الإمام محمد بن عمر بن مبارك بخرق الحضرمي من هذه الرحلة الطويلة الغنية جداً بالجد والتحصيل استقر في مدينة عدن للإكراه والتكريس ، وقصده الطلبة من حذب وناحية في اليمن ، وقربه الأمراء الظاهريون وحلصة حاكم عدن مرجان الظفاري وأحسن إليه كثيراً ، فلما توفي خرج الإمام إلى الهند حيث توفي بها^(٣) .

(١) الميبروس ، فنون السفر ، ص ١٢٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٣ - ١٤٠ ، السحاي ، الضوء اللامع ، ج ٨ ص ٢٥٣ ، الشُّلِّي ، شمسنا الباهر ، ص ٢٠٩ - ٢١٤ ، صر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، ج ٦ ص ٣١٥ ، ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٨ ص ١٧٦ .

(٣) الميبروس ، المصدر السابق ، ص ١٣٦ ، الشُّلِّي ، المصدر السابق ، ص ٢١٣ .

ومن العلماء الراحلين في طلب العلم الفقيه أحمد بن علي بن سليمان بن زُعَيْب (ت ٩٣٤هـ / ١٥٢٨م) كانت بداية تحصيله العلمي في بلاد الأندلس^(١) ، فلما عزم على الرحلة العلمية اتجه نحو صنعاء ، فمكث بها أربعة عشر عاماً ، قضاهما كلها في الجد والتلقي وتحصيل العلوم على أغلب شيوخها ، وكان أشهر أئامته بها الإمام المنصور محمد بن علي الوُثَلِي السرجي (ت ٩١٠هـ / ١٥٠٤م) ، لذلك كان من جملة رجاله في حروبه من السلطان الظاهر الثاني عامر بن عبد الوهاب الطاهري كما بيناه في الفصل الثاني ، وقد تنقل بعد ذلك ما بين حجة والهجـر العلمية فسي محيطها طالباً ومعلماً^(٢) .

وهذا الإمام المحدث والفقيه العلامة المؤرخ عبدالرحمن بن علي بن الديبع الشيباني (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م) رحل من زبيد - بعد أن تشبع بعلوم من تتلمذ على أيديهم بها - إلى قرية بيت الفقيه^(٣) لزيارة العلماء من آل جُفَآن والسماع منهم والقراءة عليهم ، فكانت رحلته مثمرة وحافلة بتلقي العلوم الشرعية النفيسة ، وقد لُورِد

(٢) سلسلة جبلية وعرة مأهولة بالسكان ، تنتشر الحصون المنيعـة في جميع أرجائها ، تقع جغرافياً ضمن منازل قبيلة حاشد الهمدانية إلى الشمال الغربي من صنعاء مع أن أغلب سكانها من قبائل بكيل الهمدانية . وهي من الاتصاع إلى قُصْنَتَ إلى مديرتين ضمن مديريات محافظة عذراي هما : مديرية المدان ومديرية شبنارة ، وقد كانت مزدانة بالهجـر العلمية إلى عهد قريب ، وكانت متجه الطالبين للعلوم الشرعية وقبلتهم في جبال اليمن الشرقية حتى قال أحدهم في وصفها :

للحرب فيها والقراءة والحصاة مكارم ومدارس وجوامع

الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبالها ، ج ١ ص ٩٥ - ٩٩ ، لمفطحي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية .

ج ١ ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

(٣) عذت اليوم مدينة ، تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة الحنيفة ، وتبعد عنها بحوالي ٦٧ كيلومتراً ، وهي تنسب إلى الفقيه أحمد بن موسى بن عجيل (ت ٦٩٠هـ / ١٢٩١م) ، ولها ذكر كبير في تاريخ اليمن الطلي ، وهي اليوم مركزاً مديرية تحمل اسمها ، وتتبع محافظة الحديدة ، وتربة أرضها خصبة ، لذلك فهي تشتهر بزراعة عدد من المحاصيل الزراعية في مقدمتها اللواكه والخضروات والحبوب ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبالها ، ج ٢ ص ٦٢٦ ، لمفطحي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ٢ ص ١٢٢١ .

في سيرته الذاتية التي حررها عن نفسه أنه سمع وقرأ بها أكثر من أحد عشر كتاباً في الحديث والفقه والعربية والرقائق وغيرها^(١) .

ومما يلقي في الروح رسوخ الرحلة العلمية الداخلية لدى أبناء اليمن من أتباع المذهب الزيدي ترويد عبارة : " ولم يزل منتقلاً من هجرة إلى هجرة للقراءة " في مواضع عدة من مصادر تراجمهم^(٢) .

(٢) الرحلة العلمية الخارجية لطلبة العلم اليمنيين :

إذا كانت الرحلة العلمية داخل الإطار الجغرافي لقطر اليمن قد قام بها جميع حملة العلم في اليمن ، تقريباً ، فإن هذا النوع - الرحلة الخارجية - كان فيه شئ من الخصوص ، فقد كان أقل انتشاراً من سابقه ، وذلك يعود إلى جملة من الأسباب ، منها: غنى اليمن بعلماء أفاضل شعر لزاء وجودهم كثير من الطلبة بالاكتماء والتشبع من نهل علومهم ، إضافة إلى أن العوائق والروابط الاجتماعية كانت حاجزاً أمام البعض منهم ، كما أن الإمكانات المادية والمالية والصحية كان لها دور كبير في إحجام البعض عن القيام بالرحلة العلمية الخارجية .

قد يتبادر إلى ذهن البعض - بعد ذكر ما سبق - أن نماذج الرحلة الخارجية كانت قليلة لدى حملة العلم اليمنيين ، وذلك غير صحيح ، فالمصادر تشير إلى عدد كبير من هذه الرحلات ، وإن كانت هذه النماذج تقل كثيراً عن النوع السابق إلا أنها مازالت من الكثرة بمكان تؤكد به رسوخ القناعة لدى هذه الشريحة .

من نماذج الرحلة العلمية الخارجية رحلة الفقيه علي بن أحمد بن سالم الزبيدي (ت ٨١٨هـ / ١٤١٥م) إلى مصر والشام ، حيث أخذ عن جماعة من علماء العصر البارزين ، ثم رجع إلى مدينة ربيع ، وتولى التدريس في بعض مدراسها حتى وفاته^(٣) .

ومن ارتحل من العلماء إلى خارج اليمن لتحصيل العلم الإمام الحافظ شيخ الإسلام جمال الدين أبو حامد محمد بن أبي بكر الخياط (ت ٨٢٩هـ / ١٤٢٥م) الذي

(١) ابن الديبع ، بغية المستفيد ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٢) ابن المريد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ١٨٠ ، ١٨٢ .

(٣) ابن حجر ، إنباء الفخر بانباء العصر ، ج ٣ ص ٨٢ ، العلي ، العقد الثمين ، ج ٦ ص ١٢٤

ارتحل إلى الحجاز وجلس إلى العلماء في مكة المكرمة ، سواء من أهلها أو المجاورين بها ، ثم تقلد على من كان منهم في المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة ، وهناك ربطته علاقة أكيدة بعدد كبير من الأقران الذين جمعته بهم زمالة الطلب وصحبة التفقي ، وجمع بالحرمين من الكتب النافعة ما وصفته بعض المصادر^(١) ، ولما عاد إلى اليمن استكمل مسيرة الطلب فبرز في الحديث والفقه حتى جعله البعض حافظ اليمن ومحدثها بعد شيخه الإمام فليس الدين سليمان بن إبراهيم العلوي (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢٣م) وترجمت له كتب الطبقات بصفته شيخ الإسلام وحامل لواء السنة باليمن في عصره وحافظ البلاد اليمنية^(٢) ، يقول البريهي^(٣) في ترجمته : " كان شيخ العلوم وإمامها ، ومن في يديه زمامها ، له فيها اتباع العديد ، والشلو البعيد الذي ليس عليه مزيد ... كمل له معرفة جميع العلوم من الحديث والتفسير والفقه والنحو ، وكان يسمى الباقر لسعة علمه وفهمه واستنباطه وحفظه ، والتفرد بزيادة المتخصص لتحقيق علم الحديث ، سلمت له الرئاسة فيه فكان لا يُمَارَى بشئ منه " ، لذلك كان مجلسه حافلاً بالعلماء والمتعلمين ، ويسعى الجميع للاستجازة منه .

وهذا الفقيه المقرئ الشهير عثمان بن عمر بن أبي بكر الناشري (ت ٨٤٨هـ / ١٤٤٥م) الذي جمع علم القراءات للسبعة للقراء المشهورين قبل بلوغه سن العشرين ، وتزعم هذا العلم في عصره باليمن وألف فيه الكتب النفيسة التي سنأتي إلى ذكرها في الفصل القادم ، ذكرت بعض المصادر أنه جمع إجازاته وهي بخط المجيزين أنفسهم - التي حازها في مرحلة طلب العلم - في مجلد ووقفه على أهله ، وبه خطوط جماعة كثيرين من علماء عصره بمصر والشام وبيت المقدس وغيرها - إلى مصر والشام والقدس^(٤) .

(١) ابن فهد ، لحظ الألفاظ بذيل طبقات الحفاظ ، ص ٢٧٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٠٠ - ٣٠٦ ، الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ منادات اليمن ، ج ٢ ص ٤٠١ ، البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ابن حجر ، طبقات الضمير بأبناء العصر ، ج ٤ ص ٣٤ ، ٣٥ ، المغلوي ، الضمير للامع ، ج ٧ ص ١٩٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١١٥ .

ومنها أيضاً قيام الفقيه شمس الدين علي بن محمد الحضرمي (ت ٨٦٦هـ / ١٤٦١م) بالسفر إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة للحج والزيارة وجلس إلى كثير من العلماء هناك ، ثم أنه لما قصى منسكه سافر إلى مصر فقرأ على فقهاء طرقات من العلوم ، واستجاز الكثير منهم في رواية مسموعاتهم ومروياتهم^(١) .

ومنهم أيضاً الإمام المحدث والفقيه العلامة للمؤرخ عبدالرحمن بن علي بن الديبع الشيباني (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م) الذي رحل إلى مكة المكرمة أكثر من مرة ، وهناك تتلمذ على عدد من أكبر علمائها والمجاورين بها ، في مقدمتهم الإمام المؤرخ الشهير شمس الدين أبي الخير محمد بن عبدالرحمن السمخوي المصري (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م) الذي سمع منه كثيراً من كتب الحديث والفقه أوردها في ترجمته للذاتية^(٢) .

(٣) العلماء والطلبة الوافدون على اليمن :

كانت عوامل الجذب العلمية في اليمن للعلماء والطلبة غير اليمنيين كثيرة ومتعددة ، فالبيئة العامة اليمنية في مجملها - رغم ما شابها من صراعات دموية شبه دائمة - بيئة تعطي العلوم وحملتها مكانة سامية تبعث على الشعور بالأمان والسكينة والاطمئنان إلى توافر المناخ المناسب لجني العائدة العلمية ، كما أن كثرة العلماء اليمنيين المميزين وبلوغ شهرتهم إلى خارجها كانت أحد عوامل الجذب هذه ، وأضف إلى ذلك العلاقات الثنائية التي ربطت علماء يمينيين مع بعض نظرائهم من خارجها ، فكانت الدعوات توجه إليهم لزيارة اليمن ، ولعل الأولى أن نذكر في مقدمة هذه العوامل تشجيع السلاطين والحكام والأئمة اليمنيين للعلماء إجمالاً ، وحفلاتهم البالغة التأثير بكل وفد من خارجها ، إضافة إلى ما سبق فإن كثرة أمكن التعليم ووفرته وانتشارها في أنحاء اليمن شجع على زيارتها والأخذ على أيدي رجالها ، ولعل التنوع المذهبي القائم في اليمن كان عاملاً - ثانوياً - من عوامل الجذب أيضاً ، وأخيراً نذكر أن الموقع الجغرافي لليمن على الطريق الجنوبية للحج - وخاصة السهول الساحلية منها - قد لعب دوراً مهماً في مرور العلماء عليه في طريقهم إلى الأراضي المقعدة .

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

(٢) ابن الديبع ، بقية المستفيد ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ .

جاءت الفائدة العلمية كبيرة جداً لوفود العلماء على اليمن حتى لو كان وفودهم عليها على سبيل المرور فقط إلى غيرها ، فقد تبادلوا الإجازات العلمية مع العلماء اليمنيين وطلبتهم ، كما أنهم أحضروا معهم من الكتب ما يحتاجون إليه للأغراض العلمية كالتيريس والاطلاع ؛ فمثل ذلك إثراء لخزائن الكتب اليمنية الموجودة في أماكن التعليم المنتشرة ، سواء مما أهدي إليهم منها أو مما استسخوه .

واللافت للنظر أن الوافون إلى اليمن في مدة الدراسة هم عدد من أكابر رموز الفكر الإسلامي على الإطلاق ، وجلهم ينطبق عليهم الوصف المعاصر بأنهم كانوا شخصيات موسوعية ، فتجد الواحد منهم - رغم شهرته وتعمقه في فرع معين من العلوم - مشاركاً وبقوة في أغلب ما عرف من العلوم والمعارف آنذاك ، ونظراً لكثرة عددهم فأننا سنتناول - كأمثلة ونماذج - أشهرهم وأوسعهم صيتاً ، فنذكر في مقنعتهم إمام ثمة اللغة والتفسير والحديث الإمام مجد الدين محمد ابن يعقوب بن محمد الفيروزآبادي الشيرازي (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) ^(١) (صاحب القاموس المحيط) الذي وفد إلى اليمن سنة (٧٩٦هـ / ١٣٩٣م) عبر ميناء عدن ، وسيأتي ذكر مظاهر الجعارة التي استقبله بها السلطان الرسولي الأشرف الثاني إسماعيل (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) .

كان علماء اليمن - كسلطينهم - يعرفون للمجد الفيروزآبادي ^(٢) قدره ، وينزلونه منزلة عالية سامية ، كيف لا وقد أصبح معظمهم - إن لم نقل كلهم - من تلاميذه ، وكان من مفاخر الأفراد منهم أن يكون ممن سمعوا أو قرأوا عليه ، يتضح ذلك من خلال حديثهم عنه وترجمتهم له ، قال أحدهم : " كان رحمه الله في العلم بالمحل الأعلى والمكان الأسنى ، إماماً كبيراً متضلعا من العلوم ، له في كل فن من ذلك مصنفات جيدة وبسطة ، وبه طولي في التصنيف ، وله قوة قريحة مطبوعة ، وقدم في العلوم راسخة قارعة ، يفوق أبناء جنسه فلا يكاد أحد يضاهيه ، بل لا يدانيه ، وفضائله

(١) السخاوي، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، ج ١ ص ٢١٦ ، البريهي، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩٤ - ٢٩٨ ، السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م ، ج ١ ص ٢٧٤ .

(٢) هكذا اصطلاح كثير من مؤلفي المصادر على اختصار تسميته كلما ورد اسمه عندهم ، انظر مثلاً السخاوي، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، ج ١ ص ٢١٦ .

في ذلك أكثر من أن تحصر ، يشهد بها وينطق بصحتها ما دون من مصنعاته وتواليه
ورسائله ونظمه ونثره ، وعلى الجملة فكان أحد أعيان الزمان ، والمشار إليه بالبنان في
البيان ، ومن سحب على سبحان ذيل التسميان ^(١) .

كان دخول للمجد للفيروزآبادي على اليمن فتحاً علمياً ، فقد أفاض على أهلها
من علمه الغزير ، ولما عُرِفَ من تواضع العلماء فقد جلسوا بين يديه بلا ترفع ولا
تأفف ، وكان السلطان الأشرف السابق ذكره يرعى مجالسه العلمية ويعتني بها وبمن
يجلس فيها عناية خاصة ، إذ أنه تكفل بإقامة مأدعة عامرة بكل طيب من الأكل والشرب
لكل من حضر درسه ، واحدة في أول النهار قبل القراءة عليه وأخرى في آخره ،
وجعل الخدم يدورون على الناس أثناء القراءة بمجامر للعود والعنبر ، " وكانت العلماء
... إذا حضروا مجلساً هو فيه لرموا الأدب معه ، فمن كان منهم مفيداً صار بين يديه
مستفيداً ، فيكتبون معظم ما يتكلم به ، ويعلقونه في كتبهم " ^(٢) .

ومن علماء الإسلام العظام ورموز العلوم الشرعية الكبار الذين وفدوا على
اليمن في مدة الدراسة الإمام الحافظ والمحدث الشهير شيخ الإسلام ^(٣) أحمد بن علي
بن حجر العسقلاني المصري (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) ، زار اليمن مرتين ، الأولى
سنة (٨٠٠ هـ / ١٣٩٧ م) على آخر مدة حكم السلطان الأشرف إسماعيل الرسولي
(ت ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م) ، والأخيرة في سنة (٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م) في أوائل مدة
حكم السلطان الناصر أحمد الرسولي (ت ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م) ^(٤) .

التقى ابن حجر في زبده ثم في تعز بكثير من علماء اليمن ، وتلقوه بقدر من
الحفاوة والإكرام قد يفوق ذلك الذي عملوه من قبله للمجد للفيروزآبادي ، وفي مقنعتهم

(١) البرهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩٤ - ٢٩٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩٧ .

(٣) هناك مقنة لطيفة مطولة للسخاوي حول معاني المشهور من مصطلحات أهل العلوم الشرعية في وصف
بعضهم ، كشيخ الإسلام والمحدث وغيرهم ، السخاوي ، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن
حجر ، ج ١ ص ١٤ وما بعدها

(٤) البرهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٣٩ ، ٣٤٠ ، السخاوي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٦ ،

الفيروزبادي نفسه^(١) والإمام إسماعيل المقرئ (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) ، وقد أورد الإمام السخاوي^(٢) - أثناء سرده لأسماء جميع تلاميذ الإمام ابن حجر - أسماء عدد كبير ممن سمعوا عنه الحديث وغيره من العلوم في اليمن ، وممن تبادلوا معه الإجازات العلمية وعقدوا مجالس كثيرة للمذاكرة والمؤانسة .

تلقى الإمام ابن حجر الصقلاني كثيراً من علوم أهل اليمن عموماً ، وزبيد وتعز علي وجه الخصوص ، علي وجوه علمائها ، يدل علي ذلك قول السخاوي^(٣) : " ورجع من اليمن - وقد زانت معارفه ، وانتشرت علومه ولطائفه - مع المحمل الذي جهزه السلطان الأشرف صاحب اليمن إلى مكة وما جاء في وصفه للإمام ابن المقرئ من أنه ما رأى في اليمن أنكى منه ، وقوله في موضع آخر : " ما أعلم أعلم منه ولا أفصح في الشعر ... " ^(٤) ، يدل علي طول مناقشة ومذاكرة وتبادل للعلوم بالقدر الذي جعله يلمس هذه الصفات في الإمام ابن المقرئ ، وقد تضمن ديوان الأخير بعض المساجلات واللطائف الشعرية التي تبادلها مع الإمام ابن حجر ، منها قول ابن المقرئ:

قُلْ لِلشَّهَابِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ حَجَرٍ
مُسَوِّراً عَلَى مَوَاقِفِي مِنَ الْغَيْرِ
فَسُوِّرٌ وَدِّيٌّ مِنْكَ قَدْ بَنَيْتُهُ
مِنَ الصِّفَا وَالْمَرْوَتَيْنِ وَالْحَجَرِ^(٥)

فأجابه الإمام الضيف بقوله :

عَوْنْتُ سَوْرَ الْوُدِّ مِنْكَ بِالْمُسَوِّرِ
فَهُوَ عَلَى الْعِلْيَاءِ بِالْحَكَمِ حَجَرٌ

(١) كان الفيروزبادي قد سبق الإمام ابن حجر في زيارة اليمن والنزول على أهلها بسمع سنوات تقريباً ، لأن الفيروزبادي قدمها سنة ٧٩٦هـ والمسقاني سنة ٨٠٣هـ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٦ ، ٩١ ، ١٣٥ ، ١٧٧ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٩ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٧ .

(٥) ديوان المقرئ ، ص ٣٨١ ، ٣٨٥ ، الهريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٠٦ .

يا مَنْ رَقِيَ فِي الْمَجْدِ أَنْهَى غَلِيَّةَ
بِالْحَقِّ أَعْيَتْ مَنْ بَقِيَ وَمَنْ غَبَرَ

يا أَيُّهَا الْقَاضِي الَّذِي مُرَّكَدُهُ
يَأْتِي بِهِ حُكْمُ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ^(١)

حمل الإمام ابن حجر معه كثيراً من الكتب إلى اليمن ، وهو بذلك أسهم في رفد مكتباتها بالجديد ، سواء أهداه أم باعه ، فقد أشارت بعض المصادر إلى أنه أهدى للسلطان الأشرف كتاب (خريدة القصر وجريدة العصر) للعماد الأصفهاني في أربع مجلدات كبيرة ، وكذلك من تذكرته الأنيبة نسخة مكونة من أربعين مجلداً لطيفاً ، فأعشق عليه السلطان من العطاء الكثير^(٢) .

والنموذج الثالث للعلماء الوافدين على اليمن يُذكر الإمام المقرئ والمحدث شمس الدين أبا الخير محمد بن محمد بن يوسف الجزري (ت ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م) ، أشهر علماء القراءات في القرن التاسع الهجري في العالم الإسلامي قاطبة^(٣) ، كانت له الحظوة الكبيرة عند كل الناس - حكاماً ومحكومين - أينما حل وحيثما نزل ، كان رَحْلاً في طلب العلم ، لم يترك بلداً من دار الإسلام وغيرها يوماً إلا ودخله ، عددها بعض المؤرخين فكانت قريب عشرين بلداً^(٤) ، وكان دخوله اليمن في إطار هذه الرحلات العلمية ، وقيل أن مشائحه بفوقون على ثلاثمائة شيخ ، يأتي في مقدمتهم عدد من أشهر علماء الإسلام كالإمام ابن كثير والسبكي والأسنوي .

(١) ديوان المقرئ ، ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٠٦ .

(٢) السخاوي ، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ، ج ١ ص ٩١ .

(٣) باسخرمة ، تاريخ نثر عدن ، ص ٢٢٩ ، البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٤٥ - ٣٤٧ ، الشوكاني ، القدر الطالع ، ص ٧٥٧ ، ابن الجزري ، غاية النهاية في طبقات القراء ، نشره ج . برايسنر وبريستل ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٢٣ م ، ج ٢ ص ٢٤٧ ، طائر كبري زاده ، مفتاح السعادة ، ج ١ ص ٣٩٢ ، العلمي ، الأئمة الجليل بتاريخ القدس والخليل ، النجب الأشرف ، العراق ، ١٩٦٨ م ، ج ٢ ص ٤٥٤ (بدون ناشر) ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٩ ص ٢٥٥ ، السيوطي ، طبقات الحفاظ ، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٣ م ، ج ٣ ص ٨٥ .

(٤) البريهي ، المصدر السابق ، ص ٣٤٦ .

وصل الإمام ابن الجزري إلى زبيد سنة (٨٢٨هـ / ١٤٢٤م) أيام سلطنة المنصور الثاني عبدالله الرسولي (ت ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م) الذي أحسن إليه إيماناً وإحساناً، وعقدت له مجالس العلم في أكبر مساجدها ، وحضر بين يديه كبار علمائها ، كان طلبة العلم الذين حضروا حلفته يوصفون بأنهم " خلائق كثيرة " (١) ، وأغلب ما قرأوا عليه وسمعوا منه الحديث النبوي الشريف وعلوم القرآن الكريم والقراءات منها خصوصاً ، وتلقفته منازل العلماء بكل ترحاب ومحبة ومودة، فكان بيده وبينهم المطارحات والتساؤلات والعلمية ، ونُطِمت خلالها بينهم البديعيات الشعرية واللطائف النثرية ، منها ما أنشأه الإمام ابن الجزري في الإمام إسماعيل المقرئ - السابق ذكره - يمنحه لما لقيه منه من الإجلال والتقدير :

أشتاقُ للبيتِ العتيقِ وزمزمِ

ومقامِهِ والركنِ والتَّعْيِيلِ

والآنَ بالشَّرفِ العَليِّ لِي الهنا

لَمَّا خُصِصْتُ بِحِجْرِ إسماعيلِ

فلجابه الإمام ابن المقرئ بقوله :

وما حِجْرُ إسماعيلِ لولا مِمْدَ

تداركه حجراً معداً لذي حجرِ

ولا غرو إن أخاه والعرقُ واحدٌ

أَلسَتَ تَري كُلَّما يُقالُ لهُ المقرئِ

خَلَقْتَ رسولَ الله ، أنتَ مُحَمَّدٌ

وأنتَ ابنُهُ وابنُ ابنِهِ طيبُ الذِّكْرِ

بُحْرُ علومِ أغرقَ البحرَ مَدْمًا

فَكَفَفَتْهُ بِالْحِجْرِ خَوْفاً عَلَى البِرِّ

فَمِنْ أَجْلِ هَذَا البِرِّ بالبِرِّ خَيْرِهِم

محمدٍ وهو البحرُ يُعرفُ بالجزري (٢)

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٤٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٤ ، ديوان المقرئ ، ص ٢٨٤ .

انتقل الإمام ابن الجزري من مدينة زبيد إلى تعز فما إن وصلها إلا والفقهاء والعلماء وطلبة العلم قد اجتمعوا للترحيب به والقراءة عليه ، فاجتمع منهم بمجلسه من نسخ كتابه الشهير (الحصن الحصين) - وهو في الحديث - نحو مائة وخمسين نسخة فانشرح صدره وحمد الله على ذلك ، وقرأ عليهم كتابه الأشهر (النشر في القراءات العشر) وكتب الصحاح الحديثية^(١) ، ولم يغادر اليمن إلا وقد أحدث فيها نقلة بل قفزة عملاقة في علوم القراءات ، وساح طلابه في أنحاء اليمن ينشرونها ، فلا تجد من علماء القراءات في القرن التاسع الهجري في اليمن إلا وهو من تلاميذ ابن الجزري أو من تلاميذ تلاميذه .

وقد عدد المؤرخ البريهي^(٢) الواقفين إلى اليمن من علماء غيرها خلال القرن الهجري التاسع فقط فبلغوا سبعة عشر عالماً ، مع أنه يقتصر على ذكر الأعلام الكبار المشهورين دون سواهم ، غير طلبة العلم المغمورين الذين لو حصروا لبلغوا المئات . وقد طال المقام ببعض العلماء الواقفين إلى اليمن دون أن يكونوا قد عزموا على استيطانها ، وتنقلوا من مدينة إلى أخرى حتى وافتهم المنية فيها قبل عودتهم ، وهو دليل استطابة نفوسهم ولطمئنانها لقضاء بعض الوقت بين أهل اليمن ، كالشيخ المقرئ الزاهد صفي الدين أحمد بن محمد بن يوسف الدمشقي (ت ٨٢٢هـ / ١٤١٩م) الذي اجتمع في مكة بالإمام المقرئ عبدالله الشاذلي (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) فاستفاد كل منهما من صاحبه وتحابيا في الله محبة أكيدة ، فسافر الدمشقي إلى اليمن معه وتنقل في كثير من مناهجها وقراها العلمية ، مثل تعز وإب ووصاب وزبيد ومبشور^(٣) وغيرها ، حتى أن أحد أبنائه قد جاء يستعجل عودته إلى بلاده ، ومع أنه عزم على العودة إلا أن تبطله استمر حتى مات في تعز سنة (٨٢٢هـ / ١٤١٩م)^(٤) .

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٨٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٨٤ - ٣٥٢ .

(٣) قرية في قاع السحول جنوبى المخاخر بمحافظة إب وهي من أصلها ، كانت في القرن التاسع إحدى قرى العلم المشهورة في اليمن ، وخاصة لى مدرسة علمية كانت قد ببيت فيها ، المقفني ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٨٧٩ .

(٤) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٤١ ، ٣٤٠ .

❧ علاقات العلماء مع بعضهم :

في هذا المحور والمحاور القائمة سيكون الحديث متمركزاً حول العلماء ، ويمتد لتناول علاقاتهم مع بقية فئات المجتمع وشرائحه المختلفة ، ونحن بذلك سنكون قد شملنا معظم العلاقات القائمة بين بقية من ضمهم مصطلح الركائز البشرية للحياة العلمية في اليمن في مدة الدراسة .

نظراً لوجود أكثر من مذهب فكري وفقهي في اليمن نجد أنفسنا ملزمين بالتنويه إلى وجوب أن يرسخ في الذهن أن كثيراً من الخلافات الفكرية والتباينات الثقافية والتنوعات الفقهية التي ثار حولها الخلاف والتنازع بين أبناء المجتمع المسلم في اليمن وغيرها من الأقطار لم تكن مبنية إلا على الجهل بحقيقة كثير من تلك الخلافات ، ولذلك نجد أن أكثر المنحرفين والمتورطين فيها هم من لولي الحصيصة العلمية المتدنية ، وبالأحرى الغوغاء من جهلة الناس وسواد العوام الذين يدفعهم الانفعال الموجه أو التلقائي إزاء نقاط ومواقف بعينها إلى الخلاف والتنازع ، أما العلماء - إلا ما ندر - فإنهم نظروا إلى أن الخلاف يكفل التكامل لا التعارض والتصادم ، ومن هذا المنطلق فإن اختلاف المرجعيات الفكرية والبيئات المذهبية لم تكن عوامل قطيعة بينهم ، وإن كان في حدود ضيقة ، وكانت تسودهم أجواء الوثام والنواد ، ووضعوا الأمور في نصابها ، وجعلوا لمواطن الخلاف والجدل مواضعها ومواقفها ، وعاضد بعضهم بعضاً في مواقف عديدة .

نضرب مثلاً لما سبق الموقف الذي أيد فيه الإمام الهادي بن إبراهيم الورير (ت ٨٢٢هـ / ١٤١٩م) المعتزلي العقيدة الشيعي الولاء والانتماء ، أيد الإمام إسماعيل المقرئ (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) الشافعي المذهب والسني الهوى والأشعري المعتقد ، وذلك في الصراع الفكري الكبير الذي دارت رحاه بين المتصوفة من أتباع طريقة ابن عربي القائلين بوحدة الوجود - من جانب - والإمام المقرئ وتلامذته وعند من العلماء من أقرانه من جانب آخر ، وسجل التاريخ بعض هذه المواقف سنأتي على ذكرها بمشيئته ، وقد تناول بعض الباحثين القصائد التي ترسل بها هذين العالمين الجليلين ، ومنها القصيدة التي جاء فيها قول ابن المقرئ :

أيمك طرفي دمع عينيه قائماً

وقد حلت الأشواق منه العواليا

فهلّا كعتم عن رحي كف أنمعي
أما قد علمتم أن فيها الدواليا
إلى أن قال :

لئن كان إسماعيل بالشوق قد رضي
فإن ابن إبراهيم قد كان راضيا
إمام هدى تُروى لسانيد فضله
يُنسقها نسق الكعوب عواليا

مجالسه تشفي الصدور فمن يسرُغ
يرى الداء في هجرانها والدواهي
هو الرأس والهادي لآل محمد
فلا زال للسرب الرسولي هاديا

له فِطْنٌ تُعدي المجلس فكم جَلَّتْ
لذي حيرة ذهناً وروته صاديا
نقد زلوني مشياً على بُعد دله
فكيف تراقي !! ليت لو كان جاريا

ولما أتى بالكتب منه رسوله
تلاوتُ منها باليمين كتليها
أبا للمرضى خذها قواب جَلَسوتُها
لكم ، بل على الأعداء حتفاً قواضيأ^(١)

(١) ديوان المقرئ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ ، الهادي الورير ، هداية الراغبين إلى مذاهب العشرة الطاهرين ،
تحقيق عبدالرقيب بن مطهر حجر ، مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية ، مسعدة ، ط ٢ ، ٢٠٠٣ م ،
ص ٢١ ، ٢٢ من مقدمة المحقق .

وإذا كان والوداد والألفة والحميمية قد حملتها أبيات القصيدة السابقة بين هذين العالمين ، فإن الأبيات التالية تعكس التأييد الذي دعما به بعضهما بعضاً في الخلاف المشار إليه آنفاً ، فقد بلغت الإمام الهادي الوزير قصيدة ابن المقرئ التي نظمها في إنكار يدع للصوفية التي أحدثوها في مسلج زبيد ، والتي قال في مستهلها :

يرغم سفة خير العجم والعرب
أضحت مساجدنا للهو والطرب
ما كان - صلى عليه الله - يأمرنا
بضرب نف ولا زمر ولا قصب
بل صد عن مزمر الراعي معاصمه
صوناً لها ولنا عن هذه اللعاب^(١)

فانبرى الإمام الهادي ينظم هذه الأبيات تأييداً له ، وشدد من أزره ، وقياساً بواجب نصرته الحق ، يقول فيها :

وافى إلينا نظام غير مؤشبه
أعنى وأقنى لذي التقوى من النشب
قد أوضح السنة الغراء صاحبه
وقام بالقسط لم يعجز ولم يتهب
وأظهر الدين حتى لا خفاء به
ديناً ومميز بين الصدق والكذب^(٢)

ووجدنا أيضاً أن علماء السنة وفقهائهما من الشافعية لم يجدوا حرجاً في الجلوس بين يدي أئمة الزيدية بصنعاء وغيرها للتلمذ عليهم في شتى العلوم التي برزوا فيها^(٣) ، والأمر ذاته كان قائماً من الجانب الآخر ، بل إن بعض أعلام الزيدية - هو الفقيه الحسن بن محمد الشطبي (ت ٨٣٤هـ / ١٤٣٠م) - قد جمع علوم قومه بصنعاء ثم

(١) ديوان المقرئ ، ص ٤ .

(٢) الهادي الوزير ، هداية الراغبين إلى مذاهب العترة الطاهرين ، ص ٢٢ .

(٣) البريبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٦ ، ١٧٣ ، ١٧٤ .

ثم توجه إلى نعر فاحتفى به علماؤها وأحسنوا إليه كثيراً حتى ألف العيش بينهم ، واتجه إلى استجماع بقية العلوم مثل الحديث والقراءات السبع والفقه الشافعي ، ثم انقطع للتدريس في بعض المدارس العلمية بتعر إلى أن عُذ من علمائها^(١) .

وقصة تلقى علماء اليمن للمختلفي المذهب الفقهي والفكري من بعضهم والسعي لاكتساب الإجازات العلمية من الطرفين راسخة في المصادر ومراجع الشيعة والسنة ، حتى إنك تهس وكأن شيئاً من التناظر لم يكن له وجود يُذكر في مواقف التحصيل والدراسة عندهم ، وذلك على جميع المستويات ، حتى أن الإمام أحمد بن حنبل المرتضى (ت ٨٤٠هـ / ٤٣٦م) وهو أحد أشهر أئمة الزيدية على مر تاريخها - عالماً وفقهاً وسياسة - قد توجه إلى نعر لأخذ الحديث عن الإمام المحدث والحافظ الكبير نفيس الدين سليمان بن إبراهيم العلوي (ت ٨٢٥هـ / ٤٢٣م) ، واستجازه في كل مروياته من أمهات الحديث النبوي المشهورة بالكتب الستة الصحاح والسنن الحديثية الأخرى^(٢) ، وكان الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير (ت ٨٢٢هـ / ٤١٩م) قد سبقه إلى المحدث نفسه واستجازه في الكتب ذاتها^(٣) .

إذا كان هذا هو شأن علماء المذاهب المختلفة فما بالنا بأبناء المذهب الواحد والإقليم الواحد، لقد كان الحب العظيم والأحوه للراحة هي التي تحكم علاقتهم ببعضهم، يفرح الواحد منهم بسماعه للزول أحد العلماء في بلده فيسعى لاستضافته ، وإنزاله بين أهله وعياله ، في صورة هي أعلى صور الإخاء والمودة ، ويعقدون مجالس للمذاكرة ، ويمنحون الإجازات لبعضهم بعضاً ، وكانوا يعبرون عن عظمة تلك العلاقات التي ربطت بينهم في ثانياً كتبتهم^(٤) ، حتى قيل في وصف علاقة ربطت اثنين من علماء مدينة عدن : " كان بينهما من التواد والتناصف ما هو مشهور ، حتى كأنهم روحان في جسد واحد ... " ^(٥) .

(١) الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٢٢٧ .

(٣) قد سبق ورود نص إجازة العلوي الشاملة بكتب الحديث التي سحبا للإمام محمد بن إبراهيم الوزير في الفصل السابق.

(٤) البرهني ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٧٣ .

(٥) العبدروس ، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، ص ٢٤ ، ٢٥ .

كما كانوا يتقدمون لعقد المصالحات بين بعضهم إذا ما وجدت ، وهي نادرة جداً ، وينبرون لإزالة مظاهر الشحناء والمراء إذا احتكمت بين بعض زملائهم ، ومن أشهر ذلك تلك المصالحة التي عقدها محمد بن علي الكناني بين الإمام محمد بن إبراهيم الوزير (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) وبين شيوخه العلامة علي بن محمد بن أبي القاسم (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) ، وكذلك بينه وبين الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى بعد المناظرات والنقاشات الشعرية التي ثرت بينهم^(١).

ومما لا خلاف عليه أن هذا الحب والود القائم بين العلماء لا يؤدي إلى عدم إنكارهم لما يرونه من مجانبة بعضهم للصواب في مواقف محددة يقومون بها ، بل إن هذا الإنكار يعد من مقتضيات المحبة الراسخة بينهم ، حتى لو أدى ذلك الإنكار إلى مراسلات أو مقابلات بينهم تعقد فيها المناقشات والمناظرات ، وقد تتعلم فيها القصائد من الطرفين لإثبات صواب الموقف لو خطئه ، مثال ذلك أن الإمام إسماعيل المقيري - المذكور آنفاً - قد أرسل إلى الفقيه وجيه الدين عبدالرحمن بن إبراهيم الخولاني (ت ٨٣٥هـ / ١٤٣١م) يستفتح ما فعله في الإسماعيلية الذين ظهرُوا في منطقة وصاب - كما سيأتي تفصيله قريباً - وذلك لأنه قتل منهم كثيراً وأمر باسترقاق أولادهم وتسائهم دون أن يستتيبهم ، فجرى بينهما جدال ومكاتبات ورسائل كثيرة ، قام الإمام ابن الديبع الشيباني لاحقاً بجمعها في مصنف كامل أصبح مفقوداً لما يوسف له ، إلا أنه قد تحدث عن صفته وطبيعة محتواه في كتاب آخر^(٢).

ومما يحسن إيرادَه في علاقة العلماء ببعضهم أن المناظرات والجدل العلمي كان ينشب بينهم إذا ما وقع الخلاف حول بعض مسائل العلم ، وكان ذلك لا يفسد ما بينهم من حسن الصحبة وصفاء العلاقة ، من ذلك أن خلافاً وقع بين القاضي الفقيه عبدالله بن محمد بن حسن بن عَمَسَيْن (ت ٩٠٧هـ / ١٥٠١م) والإمام جمال الدين محمد بن عمر بن مبارك بَحْرَقَ (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) حول بعض مسائل الفقه ، وطال الخلاف حتى اشتهر بين الناس ، فجاء ابن عَمَسَيْن إلى الأخير بالكتب التي تؤكد صحة قوله ، فقام الإمام محمد بَحْرَقَ إلى المنبر وحطب قائلاً : " ألا بن المسألة التي

(١) زهرة ، لغة اليمن ، ص ٣٠٧ .

(٢) ابن الديبع ، فشر المحاسن الثمانية ، ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

اختلفت فيها أنا والقاضي ابن عَسَمِين وجدت الحق فيها معه ...^(١) وهو موقف يدل بوضوح مدى سمو العلاقة بينهما وخاصة تواضع الإمام محمد بحرق .
لما عن علاقة علماء اليمن بالعلماء الواقدين عليهم فقد كانت أصدق تمثيل وأحسن تطبيق لكرم الضيافة ، حيث بالغوا في الحفاوة بمقامهم وإحسان استقبالهم وتوفير كل متطلبات قريحة لكي يأنسوا في المقام بينهم ، وتعتمد تلك العلاقات حتى بعد غياب هؤلاء الواقدين وعودتهم إلى بلادهم ، وظل التواصل بالرسائل والقصائد قائماً ليعكس مدى تجذر هذه العلاقات ورسوخها ، وفيما مضى في الحديث عن الواقدين على اليمن كابن حجر والجزري وغيرهما ما يكفي للاستدلال على ذلك .

☐ علاقات العلماء مع طلابهم :

إن العلاقة التي ربطت العلماء بطلابهم كانت أشبه بعلاقة الأبوة أكثر منها بعلاقة التلمذ والمشيخة ، فكانوا يبذلون جهوداً كبيرة في إيصال ما لديهم من العلوم إليهم ، مقدرين بذلك ما يبذله هؤلاء الطلاب من وقتهم ومالهم وجهدهم وصحتهم في سبيل الترفي بين مدارج العلوم وميادينها ، حتى أن بعض العلماء قد تفرغ تفرغاً كاملاً للتدريس والتعليم والتأليف^(٢) .

ومع أن الله قد ابتلى العلماء - في الغالب - بضيق ذات اليد حتى كانت أن تصبح صفة لازمة لهم إلا أنهم صرفوا كثيراً مما كانوا يحصلون عليه من الأموال على طلابهم ، ويقدمونهم على أنفسهم ، ولكأنهم كانوا من رعيته الذين يسألون عنها ، وإذا ما تولى عدد منهم شيئاً من أمور الأوقاف على المدارس العظيمة والجامع الكبيرة حرصوا أشد الحرص على أن يصرفوا كل ما يجعله الأوقاف حقاً لهم - مقابل رعاية الوقف - على طلبتهم ، دعماً لهم ، وتسهيلاً للصعاب التي تواجههم ، وتحفيزاً لهممهم ، من أمثلة أولئك العلماء المقرئ عفيف الدين عبدالله بن عمر بن منصور الصراري (ت ٨٠٤هـ / ١٤٠١م) الذي كانت تحمل إليه الزكاة والصنقة فيصرفها على وجوها وينال المستحقين من طلبته منها ، بل كان يعطي طلابه كل ما شرطه الواقفون له لقاء تدريسه ، واعتمد على ربع أرض قليلة كانت له وما كان يحصل عليه من نسخة للكتب

(١) العبدروس ، النور السافر ، ص ٤٤ .

(٢) البربري ، طبقات صنعاء اليمن ، ص ١٩١ .

والمصاحف^(١) ، ومثله الفقيه عمر بن عيسى العماكري (توفي العقد الأول من القرن التاسع الهجري / العقد الأول من القرن الخامس عشر الميلادي) الذي كان يتورع أن يقبض العطاء من الملوك أو أن يأكل من طعامهم ومع ذلك كان لا يأكل مما شرطه له الواقفون وينفقه على طلبته^(٢) .

وسعى الميسورون من العلماء إلى توفير متطلبات الدراسة لطلابهم ، كالذي رتب بمدرسته عشرين طالباً ليدرسهم بنفسه ، وقام بكفالتهم صباحاً وعشياً ووفر لهم المسكن اللزوم ، وزاد فضله إلى إكرام الضيف وإجازة الواهد^(٣) ، وقام آخر بجعل ريع ومحاصيل كل ما يملكه من أراضي النخيل وما تتناسب مع زراعة الحبوب على نفقه وطلابه على حد مواء ، ووفر لهم الكتب الجليلة التي بلغ مجموعها زيادة على ألف مجلد ، كلها بالشراء أو الاستئساخ^(٤) .

وضرب عدد آخر من العلماء أروع الأمثلة في رعاية الطلاب وتشجيعهم على البحث والدراسة والتحصيل على حساب راحتهم ووقت نومهم ، ووجدنا فيهم من قسم بزيارة الطالب الذي غاب عن الدرس لمرض أو علة إلى بيته وإعادته للدروس التي ألقاها في يومه حتى لا يفوته شيء منها كالإمام عبدالله بن محمد بن حسن بن عيسى (ت ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م)^(٥) ، وكان بعضهم بعد أن يقضي معظم نهاره في التدريس والتعليم والتوجيه والتوى لا يرد أحداً من طلابه إذا ما طرق بابَه قاصداً تلافياً ما قلته من المسائل العلمية ، منهم الفقيه المقرئ الصراري - السابق ذكره - أنفاً - الذي كان لا يمر عليه وقت في النهار غالباً إلا وهو يقرأ فيه أو يحصل شيئاً من كتب العلم أو ينسخ كتاب الله تعالى ومع ذلك كانت قراة جماعة من الذرسة عليه ليلاً لما لم يتسع لهم النهار^(٦) ، وقام الإمام المحدث نفوس الدين سليمان بن إبراهيم العلوي

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٩١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٧ .

(٥) الشلبي ، الصنا الباهر ، ص ٥٤ .

(٦) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٩١ .

(ت ٨٢٥ م / ١٤٢٣ م) بترك خلفه العلمية وهب لاستقبال طالبيه جديدين على المدرسة الأشرفية واحتفى بهما وأمر بهما إلى بيته وأضافهما دون سابق معرفة^(١) ، وبالتأكيد أن مثل هذه المعاملة المتناهية في العناية كانت تحرس في نفوس الطلبة من اللروح المعنوية ما يجعلهم في غاية الطموح وعلو الهمة لكي يكونوا عند حسن ظن أساتذتهم ومشائخهم .

ومن مظاهر رعاية العلماء بطلابهم أيضاً أنهم كانوا يختارون من أثبت جدارة في التحصيل وحقق تقدراً كبيراً من العلم ليصبح معيداً معهم في المدارس والمعابد والجامع التي يدرسون بها ، وكان بعض العلماء يستنبطون المعرزين من الطلاب ليشتغلوا مكانهم في موضع التدريس إذا ما تشغلوا بأمر طارئة ، غير أن بعضهم كان يتوسم في بعض طلابه النجابة والطفنة والذكاء والحرص على الترقى في منازل العلماء فيوليه عناية فائقة ويعدّه حتى يصبح قادراً على خلافة في مجلسه ومكانته ، وصرح بعضهم بذلك عندما مسئل عن سيخلفه في التعليم والتوجيه^(٢) .

وأهم ما تميزت به العلاقة بين العلماء وطلابهم أن العالم لم يجد غضاضة أو حرجاً في أن يقوم بتزويج تلميذه الذي يرى فيه من الدين والخلق والأمانة بابتنته أو اخته^(٣) ، بل إن بعضهم لم يصبر حتى يتقدم للطلاب لخطبة البنت حتى يبارك هو بالإشارة إليها أو عرضها عليه^(٤) .

❧ علاقات طلبة العلم بالعلماء :

نستطيع القول أن العلاقة التي ربطت العلماء بطلابهم والطلاب بمشائخهم كانت من الجانبين خير مثال على أقوى القوى العنصرية وأنصع العلائق ، ذلك لأنها كانت مجردة من مظنة السعي وراء تحقيق مكاسب آنية عاجلة ، فهي وإن وجدت فهي أضيق للحدود ، خاصة أن أعداداً كبيرة من الطلبة والعلماء كانوا إلى أفقر أقرب منه إلى الغنى ، وكما

(١) البرهبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٠٩ .

(٢) الأهل ، تحفة الزمن في تاريخ ملوك اليمن ، ج ٢ ص ٢٥٢ .

(٣) بالمخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٨٧ ، العنبروس ، التور للسافر ، ص ١٢٧ ، الشلبي ، السنا للباهر ، ص ٢١٠ ، البرهبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٢٧ .

(٤) البرهبي ، المصدر السابق ، ص ٧٩ ، عبد الرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ٤٦٣ .

أن العلماء كانوا يتعاملون مع الطلبة بما ينبئ عن العطف والبذل والرفق والتواضع والكرم فإن الطلبة قد منحوهم كل التقدير والإجلال والاحترام ، وكان شعور الطلبة بالعجز عن الإيفاء بحق هؤلاء العلماء دائماً ، فيستحيل ذلك إلى صور متعددة من التعبير عن عمق ذلك الشعور وعن صدق تلك العلاقة ، وسنكتفي بذكر نموذج واحد - مع وجود العديد من النماذج - تمثل في مذهب تلميذ منهم - وهو الشيخ سراج الدين عمر بن عبدالرحمن بن محمد باعلوي (ت ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م) - لشيخه ، وهو شيخ الإسلام الإمام جمال الدين محمد بن أحمد بافضل الحضرمي (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٨م) ، فضمن قصيدته من المعاني ما يعكس مدى المحبة الطاغية التي بذلها لشيخه ، يقول في ثنائياها :

وتدريسه في كل فن مؤنس
بتعاليله يا صاحبني والدلائل
ويرقى بالقاري البليد كأنه
له أم ثدي مشفقاً بالمسائل
كبحر خضم في العلوم قد امتلى
وفاض على الجنبات فوق السواحل
هو للشيخ والأستاذ والنور والهدى
وخير منجيب عن جميع المعائل
إمامي وأستاذي وشيخي وسيدي
ومحبوب قلبي صادقاً غير هازل
غزير الحياء كل الحجا حاز والصفا
مليح الخلا شيخ الشيوخ الأفاضل^(١)

☐ علاقة طلبة العلم مع بعضهم :

لما تكون العلاقة بين البشر علاقة تنأى عن الحسابات المادية والذنيوية فإن الروابط بينهم تكون أقوى بكثير مما هي عليه في حال وجود روابط مصالح عاجلة غير

(١) المدروس ، فنون المسطر عن أخبار القرن العاشر، ص ٢٦ .

روابط الإخاء وما شابهها من علائق الرفقة في طلب والعلم وبطيراتها ، لذلك تعكس لنا المصادر - ولو بإشارات قليلة عابرة - مدى صلاية العلاقة التي قامت بين طلبة العلم في اليمن ، فتمر السنين وتتقلب الأيام دون أن تتل من قوة أخوتهم ، الأمر هذا من البديهي إدراكه ، فمثل هذه العلاقات تنوم وتُجمع الأجيال على سموها وعلوها ، وما يلمسه الإنسان في عصرنا هذا مع تعقيداته وتشابك الحمابات في الحياة المعاصرة بعد امتداداً لما كان عليه الوضع بين طلاب العلم في العصور المتقدمة ، بما هيها المدة التي نتناولها بالدراسة في القرنين الهجريين التاسع والعاشر .

من ذلك ما ذكره المؤرخ البريهي عن العلاقة الشخصية التي ربطته بالقاضي الأجل غيف الدين عبدالله بن محمد الحبشي (ت ٨٥٨هـ / ١٤٥٤م) منذ أيام التلقي والتحصيل العلمي ، يقول البريهي : " وافق بيني وبينه مودة عظيمة بعد أن صحبته في حال طلب العلم ... " ثم أشار إلى ما كانت بينهما من المراسلات الأخوية ، الشعرية والنثرية ، بما يعكس عمق الأصرة ورسوخ العلاقة بينهما^(١) .

وهذا الإمام المحدث والمؤرخ ابن الدبيع (ت ٩١٤هـ / ١٥٣٧م) يتحدث عن علاقة مشابهة ربطته بالفقيه العلامة عماد الدين يحيى بن عمر بن عثمان الديابي ناتجة عن معايشرة الطلب وزمالة الدراسة والتلقي ، يقول : " وافقت بيني وبينه - أي الفقيه يحيى بن عمر الديابي - صحبة وأخوة في الله عز وجل في أيام البداية والاشتغال بالعلم الشريف "^(٢) ، ثم أنه أورد في مدحه قصيدة جميلة ، يخيل لقارئها بأنها في مدح رجل عظيم ذو سلطان ووجاهة لا زميل من الأقران ، يقول في فيها :

بِرَبِّكَ يَا طَرْمِصِي^(٣) إِذَا جِئْتَ مَنِيرًا

بِمَدْرَسَةِ الضُّجُوجِ^(٤) دَارِ الْأَحْبَةِ

(١) طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٧٣ .

(٢) نشر المحاسن اليمنية ، ص ٢٢٥ ، ٢٣٢ .

(٣) قال محقق نشر المحاسن اليمنية ، ص ٢٢٦ في الحاشية أن : الطرمس هو الصحيفة ، أو أنها فقط تلك التي محبت ثم كتبت أو ما تم التي كتبت .

(٤) الضُّجُوج هو اسم واحدة من أشهر المدارس العلمية في اليمن في مطلع القرن العاشر الهجري ، ولا يعني ذلك أنها لم تكن عامر بالعلم من قبل ، وقد كان الممنوح في القصيدة بارلاً للتفريس فيها ، وجاء

لدى المنظر الشرقي بشقٍ يمالي
 عليه عمادُ الدين تاجُ الأئمةِ
 فقبلُ بسلطِ الأرضِ من بابِ قبلةِ
 إلى المنظرِ المذكورِ تقبيلُ خدمةِ
 مواضعِ سجادٍ وحيثُ تلاوةِ
 وترتيله للذكرِ بعدَ الفريضةِ بمدرسةِ
 وبطنِ أقدامِ خطاها تكررَتْ
 هناكَ فقبلها نزلُ كلِّ رفعةِ
 وقلَّ جئتُ من عددِ الرُمَيْلي^(١) مُبارداً
 مُحِبُّكُمْ الذاعي شروطَ المحبةِ
 بعثني إليك الآنَ يا أرفعَ الوري
 مقاماً ولو فاهمُ بشرطِ الأخوةِ
 يَخْصُصُكَ بالتسليمِ في المصنوعِ والمنصا
 ويهوى ألقا في كلِّ يومٍ وليلةِ
 ولكنْ أعاقتهُ المعيناتُ ، والقصا
 على الأنمي يجري بحكمِ العنينةِ
 وفي قلبه شوقٌ إليكم ولوعةُ
 بأهوائه زادت على كلِّ لوعةِ
 فيا نعمَ يحيى مَقْصِدِ الناسِ كُلِّهمْ
 نواصِ المَدَى فيما بدا من مهمَّةِ

لسمها مستعاراً من اسم القرية التي بنيت بها في منطقة وصاب ، ابن النديم ، شهر المحاسن اليمانية ، ص ٢٠٨ ، وقد أشد إليها الخزرجي ، المسجد المصبوك ، ص ٥١٧ .

(١) التوضيح من السياق أن المشار إليه بهذا الاسم هو المادح ، ولعل ابن النديم كان ينادي به بين أرفقه كالممدوح يحيى الدناي .

لَقَدْ أَوْفَى عَقْلًا وَأَسْخَفَهُمْ بِدَا
وَأَكْمَلَهُمْ عِنْدَ الْأُمُورِ الْمُلِمَّةِ
وَلَوْ سَعَتْهُمْ حِلْمًا وَأَقْوَى تَوَكُّلاً
وَأَصْرَفَهُمْ بِاللَّهِ رَبَّ الْبَرِيَّةِ
مُهَنْدِبُ أَخْلَاقٍ وَمَحْمُودُ سِيرَةٍ
وَجَامِعُ أَوْصَافِ الْحَيَا وَالْمُرُوءَةِ
لَهُ خَلْقٌ سَهْلٌ وَلَطْفٌ وَرَحْمَةٌ
يُنَبِّئُهُ أَخْلَاقَ النَّبِيِّ الْمُنْتَبِئَةِ^(١)

نقول مطمئنين بأن ما قيل في النموذجين السابقين ينطبق على معظم - إن لم نقل كل - العلاقات الرابطة بين طلبة العلم في اليمن في مدة الدراسة ، ويدعم ذلك أننا لم نجد أي إشارة في المصادر التي توأمت لنا تتحدث عما يناقش اضطراب سير العلاقة بالنمط الذي أشرنا إليه في النموذجين المشار إليهما .

❧ علاقات العلماء مع الحكام والسلاطين والأئمة :

الحديث في هذا المحور طويل ومتشعب ، فعلاقة العلماء وطلبتهم بالحكام والسلاطين والأئمة كانت على أنماط متنوعة وأشكال مختلفة ، وتناول هذا الجانب بالتفصيل يحتاج إلى دراسات مكتملة ومقتصرة عليه ، وذلك لاتساع المجال فيه وكثرة ما أورد المؤرخون حوله من إشارات في مصادرهم ، ولا تخفى خطورة المكانة التي يحتلها هؤلاء السلاطين والأئمة في حياة الناس ، الدينية والدنيوية ، وهذا ما حدا ببعض العلماء إلى الاهتمام بهم ومحاولة تهنيت أدايتهم ومد ثغرة فساد بطانتهم ، وصدق السابق في الأثر القائل : " إن الله ليزع بالسلاطين ما لا يرع بالقرآن " ، فبصلاح الحاكم أو السلطان أو الإمام يكون صلاح الناس ، ويستطيع المصلح من العلماء بلوغ غايته من خلال توجيه نوي السلطة ممن ذكرنا في زمن قصير ، ولعله لا يبلغ تلك الأهداف والغايات ولو بذل في سبيل بلوغها سني عمره .

^(١) ابن قتيبة ، شر المحاسن البقية ، ص ٢٢٦ .

بيد أنه من المهم الإشارة إلى أن العلاقة بين العلماء والحكام لم تتخذ شكلاً واحداً لو تسير على نمط محدد باتجاه واحد ، وكانت عدد من العوامل تتدخل لتشكيل نوع العلاقة بين العالم والحاكم ، بعضها متعلق بالعالم كزده ونفوره من الحكام مهما كان صلاحهم ، أو أثرته لنفسه ونوازعها الأرضية وتوجهه إلى أبواب السلاطين لمناذمتهم وتبذير القصاد والمدايح في حقهم ، أو اتخاذ مواقف التأييد لبعض الأنظمة السياسية المتصارعة على الحكم فينال من جراء ذلك ما يناله من التكيل والمصادرة والقتل أحياناً ، وبعضها متعلق بالحاكم نفسه كأن يكون على قدر عالٍ من العلم والمعرفة والحكمة ، أو أن يتخذ موقف المحايد في مواطن الخلاف الفكري والمذهبي ، أو يميل إلى طرف دون آخر ، هذه العوامل وغيرها جعلت المواقف تتشابه وتباين ما بين نارة وأخرى ، لذلك سنتناول صوراً من العلاقة بين العلماء والحكام في عدة محاور لتصنيف أشكالها بيسر وشمول ، وذلك على النحو الآتي :

■ مواقف العلماء من التعامل مع الحكام :

سبق الإشارة إلى أن العلاقة بين العلماء والحكام لم تتخذ شكلاً واحداً أو تسير على نمط محدد باتجاه واحد ، وذلك عائد إلى أسباب عدة أشرنا إلى بعضها ، ومما لم نذكره أن نظرة العالم إلى أهمية التقرب من بلاط الحكام والسلاطين والأئمة أو ابتعاده عنه وحسن تقديره لدوره في ذلك الباب جعل العلماء يتخذون مواقف متعددة ، فستنتج رؤية فئة منهم لوجوب سد الثغرة التي تنفذ منها بطائن السوء إلى بلاط الحكام فيجدون في أنفسهم للقناعة بوجوب التردد الدائم عليهم لأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وقضاء ما يلزم من مصالح الناس وإيصال مطالبهم التي حُجبوا عن إيلاغها إلى هؤلاء الحكام ، وذلك في وجود فئة أخرى استجازوا المخالطة الدائمة أو شبه الدائمة للحكام والسلاطين ولكن لدوافع قد تختلف عن أسباب مخالطة الفئة الأولى لهم ، وفئة أخرى لا يرغبون في مخالطة الحكام والسلاطين أو قبول عطاياهم وعروضهم لتولي المناصب المتعددة لهم ، وتفصيل الحديث عن هذه الفئات^(١) كما يلي :

(١) جاءت فكرة التقسيم إلى ثلاث فئات بالشكل المشار إليه من عبد الرحمن أحمد المختار للجزئية هذه نفسها من علاقة العلماء بالحكام في دراسته ، فطر الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ٤٦٨ ، ٤٧٢ .

(١) الفئة الأولى :

وهي الفئة التي أدركت - كما أشرت - خطورة المكانة التي يحتلها هؤلاء الحكام السلاطين والأئمة في حياة الناس ، الدينية والدينية ، فندبت نفسها - فردياً وعلى غير اتفاق مسبق - لاهتمام بهم ومحاولة تهذيب أدائهم وسد ثغرة فساد بطولاتهم ، وزيارتهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن هؤلاء العلماء القاضي الفقيه أحمد بن أبي بكر الناشري (ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م) الذي كان ينكر على السلطان - فمن دونه - كل مكر أو تعسف بالعامية يصدر عنهم ، ولما تولى القضاء في زبيد كان شديداً في قول الحق حتى ضاق منه غلمان السلطان ، فجرى له معهم وقائع متعددة ، ولم يتسامح معهم في شيء^(١) .

وهكذا كان الإمام أبو الطيب عبدالله بن أحمد بن علي بالمخرمة (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م) في تعامله مع رجال الدولة الطاهرية ، ملوكاً وأمراء ، ففي عهد أول ملوكهم ، الملك المجاهد علي بن طاهر (ت ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م) ، كان شديد الإنكار على أي مظهر يرى فيه مجاعة للتريعة ، ولما تولى القضاء في عدن - على كره منه - "بأمر الوظيفة بنزاهة تامة ، وصنّاع بالحق ، وإقامة العدل ، واجتهاد في إيصال الحقوق ، وإغلاظ للظلمة من الأمراء والوزراء وغيرهم ، وتمعنهم عن الظلم ، وتحكيم الشرع فيهم ..."^(٢) ، فما وسّع الملك المجاهد إلا أن كل "كثير التعظيم له ، والاحتياط به ، والامتثال لأمره ، والانقياد له ، والتأديب معه ..."^(٣) .

وكان القاضي الفقيه عبدالله بن محمد بن حسن بن عيسى (ت ٩٠٧هـ / ١٥٠١م) من أشهر من يمكن الإشارة إليهم في فهم الواجب المناط بهم في تهذيب أداء الملوك والأمراء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعدم مداونتهم على ما يبدور عنهم من أخطاء ، فقد وُصف بأنه كان "طارحاً للتكلف ،

(١) ابن قتيبة ، الفضل المزيّد ، ص ٣٧٣ ، يحيى بن الحسين ، غلبة الأماني ، ص ٦٣٩ .

(٢) العبدروس ، النور الصائر عن أخبار القرن العاشر ، ص ٣١ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

أمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، ينكر على الملوك والوزراء ...^(١) ، لا يمتدعه جفوة السلطان من التردد عليه وأمره ونهيّه ، حتى أنه استدعى السلطان نفسه للمثول بين يديه في قضية رفعها عليه أحد التجار بعد أن امتنع عن دفع ثمن بضاعة اشتراها ثم رأى إعادتها بدعوى اكتشاف العيب فيها ، وبالفعل انتزع حق التاجر منه^(٢) .

ولما اضطرت الظروف الاقتصادية المتردية والامتهورة التي مرت بها الدولة الطاهرية بعد أن جمدت الأساطيل البرتغالية مجمل النشاط التجاري في المحيط الهندي في مطلع القرن للعشر - كما سبق توضيحه في الفصل الثاني - لجأ السلطان الطاهري الظاهر الثاني عامر بن عبدالوهاب (ت ٩٢٣هـ / ١٥١٧م) إلى أموال الأوقاف وإيراداتها ، فوضع يده سنة (٩١٨هـ / ١٥١٢م) على نصفها وصمها إلى خزانة ديوانه ، فوقع للعجز في حقوق المستحقين لها ، وأنكر عليه الفقهاء والعلماء ذلك فلم يرعوا وأصر على مخالفتهم والاستيلاء على ما قرره من أوقافهم ، فتوجهوا للدعاء عليه ، وهنا عقب بعض المؤرخين المعاصرين له بأن انهيار دولته وسقوطه قتيلاً بعد هذه الحوادث بخمسة سنوات تقريباً لم يكن إلا نتيجة لسلطوه على الوقف وتجراؤه عليه^(٣) .

(٢) الفلة الثانية :

هي تلك التي استجازت المخالطة الدائمة أو شسبه الدائمة للحكام والسلطين ، ولكن دوافع اتخاذ هذا الموقف كانت عديدة ، منها رؤية البعض منهم أن الوجود في مثل هذه المواضع أدعي لجلب الخير للناس ودرء الشر عنهم الذي قد يصدر عن الحكام في لحيان غفلتهم وتزيين البطانة لهم جوانب من الأعمال التي يتصرر الناس منها ، والبعض الآخر لم يزل بأساً من المخالطة للحكام والأخذ من عطاياهم ، وخاصة الأدياء والشعراء منهم ، وكان بعض

(١) الشُّلِّي ، السنا الباهر ، ص ٥٤ ، الميخروس ، المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٢) الشُّلِّي ، المصدر السابق ، ص ٥٤ ، الميخروس ، فنور السافر عن أخبار القرن العشر ، ص ٤٤ .

(٣) فشرجي ، طبقات الخواص ، ص ٩٢ .

السلاطين يتخفون منهم ندماء دائمين لهم ، وبلغ بعضهم درجة الوزارة عندهم ، وهذه الفئة غالباً ما كانت عطايا الحكام والسلاطين هي مصادر دخلهم ومدار معيشتهم ، وجدير بالإشارة القول هنا أن هذه الفئة كانت ضئيلة وقليلة العدد إذا ما قورنت بالفئة السابقة واللاحقة .

من أمثلة العلماء الذين حملوا هذه النظرة وعرف عنهم كثرة مخالطتهم للسلاطين نذكر الأديب الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن إسماعيل الناشري (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م) كان أوجد زمانه وفريد أقرانه، حسن المحاضرة كثير المحفوظات عرقاً بالأخبار والتواريخ والأنساب ، مشركاً في كثير من العلوم لأنه قرأ جل مسموعات الفقه والنحو بزهد، وسمع كثيراً من الحديث ، لكن غالب عليه الشعر فمدح السلطين ووزرائهم وأمرائهم ، واختص بالسلطان الأشرف إسماعيل الرمولى ، فأجيز الجوائز السنية^(١) .

ومنهم أيضاً العلامة جمال الدين محمد بن أبي القاسم المقدسي (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) الذي قيل عنه بأنه خالط ملوك الوقت - الرسولييين - فنال منهم الإحسان ، كما وُصف بأنه كان " كثير الصدقة وأفعال الخير وحسن الظن بجميع الناس ... " ^(٢) .

ويُنكر أيضاً القاضي موفق الدين علي بن أحمد الناشري (ت ٨٨٦هـ / ١٤٨١م) الذي كان بيه وبين السلطان المنصور عبدالوهاب الطاهري (ت ٨٩٤هـ / ١٤٨٩م) صحبة وملازمة ، وتواصل ذلك مع ابنه السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب (ت ٩٢٣هـ / ١٥١٧م) الذي ربطته بالقاضي علي الناشري محبة أكيدة حتى قال المؤرخ المعاصر بامخرمة^(٣) " وحصل بينهما اتحاد عظيم ، ونحبه للظافر حباً شديداً وأبقى على أسبابه فتسمع جاهه ... " .

(١) بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٦٧٣ ، الحرجي ، طراز أعلام الزمن ، ج ٣ ص ٩٢ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٥ ص ٢٩٠ . ابن حجر . إنباء الفخر بآباء العمر ، ج ٢ ص ٤٤١ ، ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٧ ص ٩٨ .

(٢) البرهبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣١٣ .

(٣) قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٤٦ .

وأخيراً نذكر الفقيه بدر الدين حسن بن عبد الرحمن الصباحي (ت ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م) الذي تتلمذ على أكبر علماء زبيد في العلوم الشرعية كاللغة والحديث والعقليات كالقوانين والجبر والمقابلة ، وأجازوه للإفتاء والتدريس فمارسهما مدة ليست بالقصيرة في مدينة زبيد ، ثم تصدر للفتوى في تعز حتى صار المعتمد فيها ، وهو مع ذلك شاعر معلق ذو قريحة جيدة ، استوزره السلطان الظافر الثاني عامر بن عبد الوهاب الطاهري - المذكور آنفاً - فانقطع عن التدريس والإفتاء بسبب ذلك^(١) .

(٣) الفئة الثالثة :

هي الفئة التي رغبت تملأ عن مخالطة الحكام والسلاطين والأئمة ، ورأت في ذلك تورعاً عن الشبهة وتنزيهاً للعلم الذي تحمله من أن يقف على عتبات القوم مهما كان السبب والدافع ، بل وكانت ترفض أخذ العطايا الممنوحة لهم ، وإن أخذتها صرفتها في وجوه الخير من الطلبة وغيرهم . نماذج هذه الفئة كثيرة في مدة الدراسة ، نذكر منهم الفقيه الصالح شمس الدين يوسف بن عمر العطاب (ت ٨١٦هـ / ١٤١٣م) كان من علماء مدينة إبّ ولحوييها وشعرائها وزهادها الكبار ، استدعاه السلطان الناصر أحمد الرسولي لمقابلته فرفض الوقوف بابه ولا طمعت نفسه بقبض شيء من أسباغ^(٢) .

وهذا القاضي العالم الصالح وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد النحواني (ت ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م) كان مع تصدّره للقضاء يرفض الوقوف على أبواب الحكام وينفر من ذلك جداً ، وقد قال ناصحاً غيره في ذلك :
اقنعَ تعزُّ ، ولا قناعة في تعزُّ^(٣)

إلا إذا استبدلت عنها أرضَ عِزٍّ

(١) بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٥٥ ، البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٢) البريهي ، المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

(٣) تمز الأولى فعل عكسه : تزل ، و تمز الثانية اسم المدينة اليمنية الشهيرة التي اتخذها الرسوليون عاصمة لهم ، واتقوه هنا يرمزون بها باعتبارها منزل السلطان وموطن عرشه ، لذلك تجد الأولى كلمة (فعل) معربة قبيلة للتصريف ، وجد الثانية اسماً غير منصوب .

لا خير في فخر يُنل بذلة
والخير في خفض إذا هو جابِغ
فإذا فُتحت ولم تكن تأتي إلى

الملك العزيز^(١) فإنك الملك المعز^(٢)

وهذا الإمام المجتهد الشهير محمد بن إبراهيم الوزير (٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) الذي سبقت الإشارة إلى استنكاره على شقيقه وشيحه الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير (٨٢٢هـ / ١٤١٩م) عندما وجده وقد استحل البقاء ضمن حاشية الإمام الزيدي الناصر صلاح الدين (ت ٧٩٣هـ / ١٣٩١م) ، واستحال استنكاره إلى قصيدة يذكر فيها بما يجب عليه من محافة السلاطين والابتعاد عنهم ، يقول فيها :

يا نجل إبراهيم لا تنس ما
كن عليه بالتخلي أبوك
فإن أباك لو شاهدوا
بعض الذي فعله أبوك
ما لك لا تسلك نهجاً وقد
سن لنا فيه أبوك السلوك

إلى أن قال :

وابعد عن المنك وأربيه
وإن هم يوماً لآه أفنوك
ولا تنظر يوماً إلى قائم
وانظر إلى ما قاله ناصحوك^(٣)

(١) المقصود بالملك العزيز هنا الحاكم كائناً من كل ، وهو لا يقصد حاكماً من الحكام بعينه ، والعريز والمعز لقب لبعض الخلفاء الفاطميين .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩١ .

(٣) الأكوخ ، أئمة العلم المجتهدين في اليمن ، ص ٧١ ، ٧٢ .

هذا مع العلم أن الإمام الناصر المذكور كان أحد أعلام الفكر الإسلامي في اليمن
ولحد أشهر الأئمة الزيدية ، وذلك لم يشفع لدى الإمام الوزير أن يعذر أخاه في
مصاحبته .

■ مواقف الحكام من العلماء ونظرتهم إليهم :

ما أثبتته المصادر التاريخية أن أغلب حكام اليمن كانوا على قدر كبير من
المعرفة ، ولأنهم حازوا نصيباً كبيراً من العلوم ، وحصلوا على إجازات من كبار
العلماء فيما أخذوه عنهم من فروع المعرفة الشرعية والطبيعية ، ولا ننسى أن شرط
بلوغ منزلة الاجتهاد هو أحد أهم شروط الإمامة لدى الزيدية ، وأن سلاطين بني رسول
كانوا يداخسون العلماء في عصرهم في التأليف ، وهو ما حدا ببعض الباحثين أن يؤلف
كتاباً تحت عنوان (حكام اليمن المؤلفون المجتهدون)^(١) ، وأغلب حكام وسلاطين هذه
المدة التي نتناولها بالدراسة جاءوا في مقدمة من أشير إليهم في الكتاب المذكور .

أردت أن أصل - من خلال ماسبق - إلى أن أقرر بأن للخلفية العلمية المتوافرة
لهؤلاء الحكام أكسبتهم القدرة على تقدير العلماء واحترامهم وإجلالهم أكثر مما لو لم
يكونوا كذلك ، وذلك هو الغالب في علاقتهم بهم ، ووجدنا في المصادر صوراً كثيرة
لهذا الاحترام والتقدير والتشجيع ، كما لا يجب أن نعمم هذا السلوك على تعاملات
الحكام مع العلماء ، فقد حدث بين الطرفين أحياناً - كأفراد من الجانبين - مواقف
تضرر منها العلماء وشرد بعضهم وصودروا وقتلوا ، ولكن ذلك يظل في حكم الشاذ
والنادر جداً ، ومنستعرض هنا جوانب من أهم صور علاقة الحكام بالعلماء في مدة
الدراسة :

(١) احترام العلماء ومعاملتهم بإحسان :

كان السلاطين والأئمة يجلسون العلماء ويكنون لهم الاحترام ، وهو ما كانت
تعكسه سلوكياتهم معهم ، فكانت إشارات المصادر تدل على صور متعددة لهذا
الاحترام والتقدير ، وكان الغالب على معاملة الحكام للعلماء بأنها معاملة حمسة إلا
ما ندر ، ووصل الأمر ببعضهم أن صاهروا الفقهاء والعلماء^(٢) وذلك يسأتي في
أعلى صورة الاحترام والتقدير .

(١) هو عبدالله محمد الحبشي ، والكتاب ولحد من مراجع دراستنا هذه .

(٢) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٠٠ .

ومن أمثلة الإحسان إلى العلماء إسقاط ما يوجب تحصيله من الأموال لمتعهدي إيراداتها على الأراضي المزروعة ، وذلك أن كثيراً من العلماء كان يقتاتون من ريع أراضيهم التي يزرعونها بأنفسهم أو تحت إشرافهم كما سيأتي تفصيله ، لهذا قال المؤرخ الحبيشي : " وكانت العادة قديماً وحديثاً بأن جميع فقهاء وصاب وغيرهم لا يملكون لأرباب الدولة شيئاً قط ، احتراماً لجانبهم ورعاية لحقهم وفقهم وعلمهم ... وكذا كل من تفقه من الرعايا سُمح فيما عليه ... " (١) ، وذلك ينطبق على كل العلماء في المناطق الأخرى ، لذلك يروي الأهدل (٢) أن السلطان الناصر أحمد الرسولي (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) كان لا يأخذ على أراضي علماء بيته من آل الأهدل شيئاً ، إجلالاً وتقديراً لهم ، إلا ما قدموه هم بأنفسهم على سبيل الهدية ، وأن هذه العادة قد سار عليها حلفاءه السلاطين المنصور عبدالله (ت ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م) والأشرف الثالث إسماعيل (ت ٨٣١هـ / ١٤٢٧م) والظاهر يحيى (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) .

وقد تناولت بعض المصادر أسماء مجموعة من العلماء الذين كانوا محط احترام السلاطين وإحسانهم ، منهم الفقيه الصوفي إسماعيل الجبرتي (ت ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م) الذي حاز مكان عظيمة عند السلطان الأشرف الثاني إسماعيل الرسولي حتى غدا من نعمائه وجلسائه ، وكان السلطان يجله ويكرمه حتى نكأن كلمته لا تُرد عنه (٣) ، ومثله محمد بن محمد المزجاجي (ت ٨٢٩هـ / ١٤٢٥م) الذي كان ضمن الصوفية الذين قدمهم السلطان الناصر أحمد ، وكان المزجاجي محظياً عنده فكان يلازمه ويناديه ، ويعضد معه جميع ما يصنع (٤) .

ومن العلماء الذين اختصوا بصحبة السلطان المنصور عبدالله الرسولي من ستأتي الإشارة إليهم كالإمام ابن المقرئ (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) والفقيه عبداللطيف بن محمد العزالي الهتار (ت ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م) وقد علت مسألة

(١) الحبيشي ، تاريخ وصاب ، ص ١٨١ .

(٢) تحفة الأزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٢٥٠ .

(٣) الشوكاني ، البدر الناطق ، ص ١٥٦ .

(٤) ابن حجر ، إنباء الغمر بنبأ النصر ، ج ٣ ص ٣٨٠ .

الأخير لدى المنصور حتى شملت نعمة كل نور أسرته وباتت محترمة مصونة ،
يلجأ إليها الخائفون فيأمنوا^(١) .

وقد وكانت المعاملة الحسنة للعلماء تمتد حتى بعد وفاتهم ، وذلك من خلال
التمشي في جنازتهم وحضور القراءة عليهم ، وذلك ما تميز به السلاطين للطاهريون
على غيرهم ، حيث تذكر بعض المصادر أن الملك المجاهد علي بن طاهر
(ت ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م) صلى على الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن الطح
(ت ٨٦٠هـ / ١٤٥٥م) بالجامع الكبير في مدينة زبيد ، ومشى أمام جنازته^(٢) ،
كما حضر القراءة على قاضي القضاة الإمام القاضي جمال الدين محمد بن أبي
الفضل الناشري (ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م) ومعه عدد من أكبر أمرائه ، بل إنه أقام
أحدهم - علي بن سفيان والي مدينة زبيد - في مقام من يتقبل التعاري فيه مع أهله
بعد أن عزاهم هو بنفسه^(٣) .

(٢) تواضع الحكام مع العلماء والجلوس بين أيديهم للتلقي :

لم يأنف السلاطين والأئمة من الجلوس بين يدي العلماء المبرزين للتلقي بعد
أن تولوا مناصبهم وعروشهم ، وهذا الخلق الرفيع جاء من كونهم في الأصل علماء
بالواقسطاً وقرأ من العلوم المختلفة قبل الوصول إلى مصاف السلاطين والأئمة ،
وبالتالي أوجدت هذه الخلفية لديهم حرصاً على الفائدة ، وخاصة إذا كان العالم وأحد
يرتجى من الجلوس بين يديه تعلم الشيء الجديد ، وكان التلقي عنه لمثل هؤلاء
العلماء في مجالسهم العلمية التي تعقد للعامة وأحياناً في قصورهم .

فهذا السلطان الأشرف إسماعيل الرسولي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) كان
موصوفاً بحبة العلم والعلماء ، فقد كان أخذاً بنصيحة والده السلطان الأفضل
(ت ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م) الذي قال : " ينبغي للملك أن يعتني بسائر العلوم دقيقتها

(١) التبرسي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٠٧ ، عبدالله قائد المبادي ، الحياة العلمية في زبيد، ص ١٢٨

(٢) ابن الديبع ، فرة العيون ، ص ٤٠٩ .

(٣) بلخزمة ، قلادة النهر ، ج ٣ ص ٧٢٥ .

وجليلها ، ويعظم شأنها ويحث عليها ...^(١) فأكثر من الجلوس بين أيديهم ، وكان لأكثر جلوسه أمام علماء زييد ، إذ أخذ الفقه على يدي الفقيه علي بن عبد الله الشاذلي (ت ٧٩٨هـ / ١٣٩٥م) ، وتلقى النحو على إمام النحاة واللغويين في اليمن في عصره العلامة للفقيه عبد اللطيف بن أبي بكر بن أحمد الشرجي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) ، قرأ عليه السلطان عدداً من أهم ما تداوله أهل اليمن من كتب النحو مثل مختصر الحسن بن أبي عباد ومقدمة طاهر ولَمَعَ ابن جني وجُمِلَ الزجاجي ، وقيل أن ابنه السلطان الناصر أحمد لرسولي (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) كان يحضر هذه المجالس معه^(٢) ، وقد اتقن النحو بما جعله يشير على شيعه بتأليف بعض الشروح والمختصرات التي اشتهرت لاحقاً^(٣).

كما سمع السلطان الأشرف نفسه صحيح البخاري مرات عديدة ، أكثرها على الإمام إسماعيل بن المقرئ في قصره^(٤) ، وسمعه مرة أخرى على القاضي مجد الدين الفيروزي في مجلس الحديث المنعقد في زييد سنة وصوله إليها^(٥) . ومن بعد السلطان الأشرف نجد ابنه السلطان الناصر أحمد (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) معدوداً بين السلاطين العلماء الذين جلسوا بين أيدي العلماء بقواضع الطلبة أسوةً بأبيه كما أشرنا ، وتتحدث المصادر عنه أنه حضر قراءة القاضي العلامة عز الدين عبدالعزیز بن علي بن أحمد النويري (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢١م) مع جماعة كبيرة من فقهاء تعز وغيرهم^(٦) .

(١) الأصل لرسولي ، نزهة الطرف ونحفة الخلد ، دراسة وتحقيق نبيلة عبدالمعزم دود ، مكتبة الثقافة ، مكة المكرمة ، ص ٦٨ (د، ت) .

(٢) باسمرة ، قلعة النحر ، ج ٣ ص ٦٦٩ ، الفزرجي ، طراز أعلام الزمن ، ج ٢ ص ١٣٩ ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٣١٤ ، السيوطي ، بغية الوعاة ، ج ٢ ص ١٠٧ ، السخاوي ، الضوء المانع ، ج ٤ ص ٣٢٥ ، عبدالله قائد العبادي ، الحياة العلمية في زييد ، ص ١٠٧ .

(٣) باسمرة ، المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٤) نبولان ابن المقرئ ، ص ٨٣ .

(٥) الفزرجي ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٣٥ ، المسجد المسبوك ، ص ٤٩٠ ، الشوكاني ، البدر الطالع ، ص ٧٩٩ ، عبدالله قائد العبادي ، الحياة العلمية في زييد ، ص ١٠٧ .

(٦) البرهبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٤٣ .

كما أن السلطان المنصور الثاني عبدالله الرسولي (ت ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م) الذي عرف بالتدين وملازمة الجماعات بمسجد الأشاعر بزييد^(١) - كلن معتاداً على ارتياد حلقات العلم فيه ، ومنها سماعه على الإمام المقرئ محمد بن محمد الجزري عندما نزل زبيد في سنة (٨٢٨هـ / ١٤٢٤م) شيئاً من الحديث في المجلس الذي عقده بمسجد الأشاعر^(٢) .

وفي عهد الدولة الظاهرية كان للملك المجاهد علي بن طاهر (ت ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م) يستدعي للفقهاء أحمد بن عبدالله بلعس اليافعي (ت ٩١٠هـ / ١٥٠٤م) إلى قصر دار السعادة بعدن ، كما أن الملك نفسه كان يحضر مجالس القراءة في الحديث التي يعقدها الفقهاء اليافعي كل جمعة في المسجد الجامع ، وربما أقام بمقصورة المسجد يسمع الحديث حتى صلاة العصر^(٣) .

(٣) دعم الحركة العلمية عمرانياً ومالياً :

بات كالحقيقة الراسخة تاريخياً أن الرسولين والظاهرين هم واسطة العقد لحكام اليمن اهتماماً بإنشاء أماكن التعليم ودور التدريس في معظم المناطق التي كانت سيطرتهم تمتد إليها ، يشهد بذلك العدد الكبير من النصوص التاريخية المعاصرة لهم والآثار الباقية لأطلال هذه المنشآت ، ونحن لما نقول (الرسولين والظاهرين) فنحن لا نقصد السلاطين أنفسهم فحسب ، بل الإشارة تشمل نساء قصورهم وأمرأهم الذين ناقسوا السلاطين في إنشاء المدارس العلمية والعناية بها . لم يقف الأمر عند إنشاء المدارس ودور العلم الأخرى ، بل إن عملية الإنشاء لم تكن تبدأ إلا وقد حدد لها مؤسستها مصدر تمويل الطاقم الذي سوف يرتبون للعمل بها وللطلاب الذين سيتم تعيينهم للدراسة فيها ، ويدلنا على كثرة هذه المنشآت الخبر الذي ورد في بعض المصادر أن السلطان الأشرف الثاني إسماعيل قلم بعملية ترميم

(١) ابن الديبع ، بغية المستفيد ، ص ١٠٦ .

(٢) الأمل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٣٢٢ ، البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٤٦ .

(٣) بلخزمة ، فلاة النهر ، ج ٣ ص ٧٩١ .

وتجديد دور العلم بزبيد سنة (٧٩٣هـ / ١٣٨٩م) شملت هذه العملية خمساً وستين منشأة ما بين مسجد ومدرسة^(١) .

وقد أفرد ابن الديبع^(٢) صفحتين في تاريخه ليعدد مآثر السلطان الظاهر الثاني عامر بن عبد الوهاب التي تنوعت ما بين مدرسة وجامع ، غير ما قلم بترميمه من المدارس القديمة التي كانت من منشآت الرسوليين .

(٤) التشجيع برصد الجوائز وإغداق العطاء على إنجازات العلماء :

للجوائز المتنوعة التي رصدها حكام اليمن وسلطانها وأتمتها للعلماء وتلاميذهم لقاء كل إنجاز علمي يحدثونه دورها الهائل في تسابقهم نحو نيل ذلك الشرف ، ولعل مكن التطلع إلى نيل تلك الجوائز لم يكن كامناً في قيمتها المالية الكبيرة بقدر ما أن قيمتها المعنوية كانت هي المائلة أمامهم لما ينفي عليها من علو القيمة بين أفراد المجتمع وسمو المكانة بين الأقران .

وقد أورد المؤرخون عنداً من الإشارات إلى طبيعة تحفيز السلاطين والأئمة للعلماء والحفاوة بمجزاتهم العلمية ، من ذلك أن الإمام مجد الدين الفيروزيهادي أهدى للسلطان الأشرف إسماعيل كتاباً كان قد حمله إلى مجلسه في أطباق فملاها له السلطان درهماً^(٣) ، غير ما كان منه من الحفاوة البالغة منه التي أشرنا إليها سابقاً من أنه أعطاه برسم الضيافة ألف دينار وأغدق عليه عطائه أضعاف ذلك^(٤) ، وقرر له من الأسباب ما جعله يعيش بحبوحة من العيش ، فبلغت كتبه فقط قيمة تفوق الخمسين ألف مثقال من الذهب^(٥) ، وقد وصفه الإمام ابن حجر^(٦) بأنه كان متلاف للمال مسرفاً من كثرة إنفاقه ، ولا يهمنها في هذه الإشارات إلا دلالاتها التي تؤكد

(١) الخزرجي ، العقود اللؤلؤية ، المسجد المسبوك ، ص ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ابن الديبع ، بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) قرة العيون ، ص ٤٧٠ ، ٤٧١ .

(٣) لشوكاني ، البدر الطالع ، ص ٧٩٩ .

(٤) البربري ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩٧ .

(٥) لشوكاني ، البدر الطالع ، ص ٧٩٩ .

(٦) إنباء الضر بانباء الضر ، ج ٣ ص ٤٨ .

مدى تشجيع السلاطين للعلماء ، فليس من المعقول أن هذا العطاء الكبير الذي حازه الفيروز آبادي كان نادراً لم يمنح لغيره .

ونذكر هنا أيضاً بما سبقت الإشارة إليه من أن السلطان الأشرف نفسه قد منح الإمام ابن حجر العطاء الكثير بحسب تعبير السخاوي^(١) عندما أهداه كتابين هما (خريدة القصر وجريدة العصر) للعماد الأصفهاني في أربع مجلدات كبيرة وتكرمه - أي تذكره ابن حجر - الأدبية المكونة من أربعين مجلداً لطيفاً .

وكان السلطان الناصر الرسولي (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) مثل أبيه الأشرف في تقديم الجوائز الكبيرة للعلماء على كتبهم التي يقومون بتأليفها، فقد روى المؤرخ الإمام إسماعيل بن أبي بكر المقرئ (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) أنه أجازته بألف دينار على كتابه الشهير (عنوان الشرف الواقفي في علم الفقه والعروض والتاريخ والنحو والقوافي) وأجرى له المرتبات^(٢) .

ولما فرغ المؤرخ عبدالرحمن بن علي بن الديبع الشيباني (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م) من تأليف كتابه (نفية المستفيد في أخبار مدينة زبيد) وقف عليه السلطان الطاهري الظافر الثاني علمر بن عبدالوهاب فطلب حضوره إلى مجلسه ، ونلقه في جوانب من الكتاب ونهيه إلى جوانب أخرى كان غفلاً عنها بما ينبئ عن وعي وعلم رفيع لديه ، وهو ما شجع ابن الديبع أن يقوم بكتابة تاريخه المختصر - المفقود - المسمى بـ (العقد الباهر في تاريخ دولة بني طاهر) ، ولما بلغ السلطان الظافر خبر الكتاب الجديد أجزل العطاء للمؤلف ، يقول ابن الديبع: " ثم حصلت في هذا التاريخ تحصيلاً عظيماً ، وتقدمت به إلى مولانا السلطان وهو إذ ذاك بمحروسة المقرانة مقيماً ، وقدمته إليه فأثابني بثواب عظيم عليه ، وأفاض عليه من مواهب كرمه ما يقصر صوب الغمام عن غزير ديمة ، ولم أزل عنده في روض أريض وجود فائض عريض حتى أنن لي في الرجوع إلى وطني ، وخلع خلعة نفيسة وأكرمني ، وتصدق علي بدمنة سلطانية بمدينة زبيد للسكنى ، وأعفى لي قطعة نخل بوادي زبيد " ^(٣) .

(١) الجواهر والفرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، ج ١ ص ٩١ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) ابن الديبع ، نفية المستفيد ، ص ٢٣٢ .

وكان أئمة الزيدية من أكثر حكام اليمن تشجيعاً للعلم وأمله ، وليس ذلك بغريب عليهم وهم المجتهدون فيه ، ودعمهم للعلماء وطلبة العلم هو ما ساروا عليه وعرفوا به ، من ذلك ما أوردته بعض المصادر الزيدية من أن العلامة محمد بن علي الزحيف نظم قصيدة فريدة ذكر فيها وجوب طاعة الأئمة ومدح القبائل التي تؤيدهم ، فاحتفى بها الإمام الناصر الحسن بن عز الدين بن الحسن (ت ٩٢٩هـ / ١٥٢٣م) وأمر بها فطيف بها على أكثر المناطق تقرأ على الناس حتى قرئت في الجامع بمدينة صنعاء^(١) .

وفي سنة (٩٤٥هـ / ١٥٣٨م) على عهد الإمام المنوكل يحيى شرف الدين (ت ٩٦٥هـ / ١٥٥٧م) أكمل الإمام العلامة محمد بن يحيى بن أحمد بهزان المصنفي (ت ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م) كتابه للشهير الموسوم بـ (التكميل الشاف لتفسير الكشاف) فكان يوم اختتام تأليفه مشهوداً ، يقول المصدر^(٢) : " وجمع ذلك في ثمانية أجزاء تامة ... وسمي ذلك إمام زماننا ، وعلماء وقتنا ، وأظهروه ورفعوه في صنعاء اليمن على محمل ، وأعلن بجلالته وإفادته ، ونودي بذلك ، ورفع التكبير والتسبيح والتقدس والذكر في مساجدها وأسواقها ومناشر بفاعها ، وطاف بذلك طوائف من المسلمين ، وزف بالأرتاج والرايات والطبلخانات وغير ذلك ما يوضع للإشعار والإعلان " وزاد مصدر آخر^(٣) بأنهم زفوه بالمسيرة المشار إليها وهو محمول في صندوقين ، حتى حلوا به الجامع الكبير في صنعاء ، وصعد الخطيب وألقى خطبة جعل منها تفسير سورة الفاتحة من هذا الكتاب ، ثم خرجوا وطافوا به على المدارس والقصور ، لئلا في حاجة إلى التعليق على مدى قوة للدقة المعنوية الهائلة التي تملك صاحب الكتاب ، وتلاميذه وزملاءه ، وهم يرون أن العلم وحده هو الذي أورث هذا المجد وهذا العمار ، ولو كان لدينا متسع للإسهاب لقمنا بتحليل هذه الحادثة .

(١) لا تتماثل عن أن القصد الميلسي كان أحد الدوافع قلماً وراء هذا التصرف غير أن القرائن الأخرى عنده وعدد غيره - كما في المثلث الثاني - تثبت أن الزيدية هم من مراسل الطوم وروادها ، الزحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٣ ص ١٢٦٤ ، ١٢٦٥ .

(٢) المقراني ، مكنون السر في تحرير تحارير السر ، ص ٨٤ .

(٣) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ، ص ١١٠٨ .

(٥) الحفاوة بالعلماء للوافدين إلى اليمن :

لو استحضرنّا ما تم استعراضه سواءً عند الحديث الرحلات العلمية للوافدين على اليمن أو عند تناول تشجيع الحكام للعلماء فإننا سواجه تلك النماذج المميزة بحق من مواقف السلاطين الرسولين في التعامل مع العلماء الوافدين ، فقد نفاهاوا في الحفاوة بهم وحسن استضافتهم ، فالسلطان الأشرف إسماعيل قد بالغ في استقبال الإمام مجد الدين الفيروزآبادي وأعطاه رسم ضيافة يبلغ ألف دينار^(١) ، كما أشدق عليه عطائه أضعاف ذلك ، وأنزله في دار تليق به وبمنزلته ، وجلس إليه يسمع صحيح البخاري^(٢) ، وأقر له من الأسياغ ما جعله يعيش بحبوبة من العيش ، بلغت كتبه فقط قيمة تفوق الخمسين ألف مقال من الذهب^(٣) .

لم يقف الأمر بالسلطان الأشرف إسماعيل عند ذلك لحد من الرعاية للمجد الفيروزآبادي، بل محه من الثقة ما لا مزيد عليه عندما قام بخطبة ابنته لنفسه وتزوجها ، ثم عينه في منصب هو أعلى منصب يصل إليه العلماء في اليمن آنذاك، وهو (قاضي القضاة)^(٤) ، وفي منتصف سنة (٨٠٠هـ / ١٣٩٧م) فرغ الفيروزآبادي من تأليف كتابه (الإصعاد إلى درجة الاجتهاد) فحُمل إلى باب السلطان الأشرف مرفوعاً بالطبول والمغانى ، حضر سائر الفقهاء والقضاة والطلبة وساروا أمام الكتاب وهو ثلاثة مجلدات يحمله ثلاثة رجال على رؤوسهم ، فلم يدخل على السلطان ونصفحه أجزء بثلاثة آلاف دينار^(٥) .

(١) ذكر الخرجي أن المبلغ الذي أمر به السلطان الأشرف للمجد الفيروزآبادي كان أربعة آلاف درهم لكي يستعين به للوصول إليه في زيد ، وفي ريب أعطاء مغلها ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢١٨ .

(٢) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩٧ ، الخرجي ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢١٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

(٣) الشوكاني ، البدر الطالع ، ص ٧٩٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٧٩٨ ، ٧٩٩ .

(٥) الخرجي ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٤٤ ، وقد سبقت إشارة الإمام الشوكاني ، البدر الطالع ، ص ٧٩٩ ، عن أن السلطان الأشرف أجاز المجد الفيروزآبادي عن كتاب أهداه إليه بأن ملأ الأطباق التي أحضره فيها ذهباً ، ولا أدري هل المقصود في الروايتين هو الكتاب نفسه أم أنهم كتابان مختلفان .

ولما قدم الإمام ابن حجر العسقلاني لمصري (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) لزيارة اليمن مرتين ، الأولى سنة (٨٠٠هـ / ١٣٩٧م) والأخيرة في سنة (٨٠٦هـ / ١٤٠٣م) (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) ^(١) بقي من الحفاوة والاهتمام والرعاية من السلطانيين للرسولين الأشرف إسماعيل وابنه الناصر أحمد ما جعله ينظم في مدحهما غرر القصائد التي يزدان بها ديوانه ، منها أربع قصائد في مدح الأشرف ^(٢) وواحدة في مدح الناصر ، قل في الأولى:

الأشرف الملك بن الأفضل

ابن المؤيد حامي الملك دلوذ

المائع الفضل صفواً لبيض راحته

والعيب إن جلا ثقبان ومكنوذ

والمائع السرخ حيث الأرض من قم من

عاداء في خدّها المغبر تؤزيد

نام الرعيا وقلب البرق يخفق من

رعب به ، وبطرف النجم تسهيد

.....

.....^(٣)

يا من تطول جسوداً : ها بضاعتنا

عرض المدائح ، والتقصير موجود

وإلى غلاك قطعت البحر في سفر

يراصل القلب رأساً فيه تنكيد

نظرت نحوي بعين الخطف من كرم

(١) البريهي ، طبقات صلاح الدين ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، السخاوي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٦ .

(٢) عدد أبيات لأوى خمسون بيتاً ، والثانية تسعة وأربعون بيتاً ، والثالثة واحد وأربعون بيتاً ، والرابعة أربعة وأربعون بيتاً .

(٣) المقصود بالخط المنقط أن هناك بيتاً أو أكثر قد تم تجاوزه لعدم اعتناؤه على شاهد الاستدلال ووجهه .

فاسمع مديحاً له في الصنقِ توكيدُ

إن كنتُ بالحُسنِ لم أطلقْ قوافيهُ

فبالكَلالِ لِمِذْمِي اليومَ نقييدُ

.....

.....

طَوَّقُ بِحُلِيِّ لِنَدَى عُنُقِي يَكُنْ لَكَ مِنْ

نَظْمِي وَسَجْعِي عَلَى الْأُورَاقِ نُحْرِي

وَدُمُ مَلِكاً عَلَى الْجَدِّ قَرْنَعُ فِي

رَبِيعِ عَتَاكَ شَاءَ الْقَوْمِ وَالْمَيْدُ^(١)

وقال في قصيدة أخرى :

مولايَ نحوكَ قد رفعتُ قضيتي

وحزمتُ منكُ بنَجحِ قصدي فاقصُ لي

إني قصدتُ جِمالَكَ لَوَّلَ مرةٍ

فلقيتُ عِزّاً زَالَ مَعَهُ تَدَلُّي

ورحلتُ عنكَ لِسَانُ شُكْرِي عَامِراً

وحققتُني مملوءةً وأنا الفُتَى

فلقدُ قَصَرْتُ عَلَى عَالَمِ مدائمي

لَمَّا تَلَقُّتُنِي بِبَاعِ أَطْوَلِ

ونظمتُ في مدحي لِمَلِكِكَ مُعْجِماً

لأَكُونُ فِي تَنْبِإِي لَسْتُ بِمُنْهَمِ

ورجائي تَشْرِيفِي بِمَرُئِسُومِ بِهِ

غَضَبُ الْعَدُوِّ إِذَا بَدَأَ وَرِضَى الْوَلِيِّ

(١) ابن حجر ، ديوان ابن حجر الصفاحي ، تحقيق د. صبحي رشاد عبدالكريم ، دار الصحابة للتراث ،

طبع ، ط ١ ، ١٩٩٠م ، ص ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، والقصيدة تتكون من ٥٠

بيتاً .

لأَكُوزَ بِالْعَمَمَيْنِ : جَاهِلَةً وَالنَّدَى
 وَيَكُونُ فَرَضِي كَامِلًا يَتَّقَلِي
 لَا لَوْمَ إِنْ أَسَأَلْتُ نَدَاكَ عَلَيَّ بَلَّ
 كُلُّ الْعَلَامِ عَلَيَّ إِنْ لَمْ أَسْأَلِ
 حَاشَى مَكَارِمَكَ الْغَرِيبَةَ أَنْ أُرَى
 مِنْ مَا أُرْجَى مِنْكَ غَيْرُ مُؤَهَّلٍ (١)

ولما قصيدته التي نظمها في مدح السلطان الناصر أحمد فقد جاء فيها :

الناصرُ الملكُ بنُ الأشرفِ المعروف
 عُزْرَقًا بِمِفْضَالِ بْنِ مِفْضَالِ

.....

مَنْ أَلِ غُصَّانَ سِلَاطِ الْمُلُوكِ وَمَا
 يُقَالُ فِي غَيْرِهِمْ : سِلَاطُ أَقْيَالِ
 فِي مَدَائِحِ حَسَنِ وَنَابِغَةِ
 بِهِمْ عُزْرَاتٌ مِنْ بَلَدِ وَأَفْضَالِ
 هُمْ مَهْدُوا الشَّامِ مِنْ ظَلَمٍ وَمَنْ ظَلَمَ
 مِنْ قَبْلِ وَالْيَمَنِ الْآنَ اغْتَدَى تَالِي

.....

رَقَمَ ، عَلَوْتُمْ ، حَمَيْتُمْ ، جُدْتُمْ كَرَمًا
 أَضَلَّكُمْ وَهَدَيْتُمْ سُبُلَ ضَلَالِ
 شَارَكْتُمْ الزُّهْرَ فِي أَسْنَى الصَّفَاتِ وَقَدْ
 فُقِيتُمْ بِقُرْبِ وَالصَّاحِ وَإِنْكَالِ
 عَطَوْتُمْ زُحْلًا قَدْرًا لِأَنُّكُمْ

(١) ابن حجر ، ديوان ابن حجر الصقلاني ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

بالحباء أُرِدْتُمْ والميم والبدل
كلُّ الملوكِ ملوكُ الأرضِ دونكمُ
في الجودِ والنسبِ العاليِ الذكي الغالي

.....

.....

والآن يا ملكَ العليا قصدتك في
جَبَرِ انكساري وفي إصلاحِ أحوالي
مولاي هل أشتكي ما قد عَلِمْتَ به
أَمْ لَكُنِّي بالذي قد لَاحَ من حالي
قد ضَعُضَعَ الدهرُ حالي عِنْدَمَا نُهَيْتُ
بالشامِ أَيْلَامَ تيمورلنكِ لِموالي
وبعدها بَلَغَتْ مِنِّي الحوائِثُ مِنْ
يَدِ ابنِ عجلانَ ما لاقاه أُمّالي
وقد قَصَدْتُ بآنِ أحياءِ بَطْلِكُمْ
فكان ما كان من خوفِ وأهوالِ
وَعُثْتُ مُسْتَعْمِرًا في الحادثاتِ بِكُمْ
فأنتَ - حشاك - لَنْ تَرْضَى بِأُمّالي
مالَ تَمَرَّقَ في سَهَبٍ وفي غَرَقِ
إِنْ فَاتَ مَالِي مَسَلَقِي مِنْكَ آمَالِي
مَلَكْتُ طَرَفِي وَكُفِّي هَيْبَةً وَغْنَى
حَتَّى تَقَرُّعْتُ لِلأمداحِ يا مَالِي^(١)

لم يكن عرض هذه الأجزاء الطويلة من القصائد هنا إلا محاولة لاستعراض ما
حوتها من مشاعر الاحترام والتقدير التي حملها الإمام ابن حجر لهذين السعطين ،

(١) ابن حجر ، ديوان ابن حجر الصقلاني ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، الأكرع ، أعراف وتقليد

حكم اليمن في العصر الإسلامي ، دار العرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٤م ، ص ٤٠ ، ٤١ .

وكذلك لاستيتيان مدى الامتتان الذي كان يكنه لهما هذا العالم الجليل ، ومن اللافت للنظر أيضاً أن القصائد - خاصة الأخيرة - قد تضمنت إشارات إلى أن الإمام ابن حجر كان يمر بطروف مالية متردية عند زيارته الثانية لليمن ، سواء بسبب نهبها في بلاد الشام أو تعدي ابن عجلان حاكم الحجاز عليه أو الغرق الذي تعرض له بعض ماله ، وهذا الظرف العصيب يجعل الإحسان الذي لاقاه ذا طعم آخر ، يختلف عنه لو حظي به في رخاء وسعة ، فلم يكن إداً غريباً من الرجل أن يمدحهما بهذه القصائد .

وفي النموذجين السابقين ، نموذج استقبال الرسوليين للمجد القيروزيادي وابن حجر العسقلاني ، فيهما ما يكفي للدلالة على أن حكام اليمن كانوا يحسنون إلى العلماء الوافدين على بلادهم في إطار احترامهم للعلم وأهله .

(٦) قبول شفاعتهم في الخارجين حينما تنقرر عقوبتهم :

من البديهي أن ينزل الحاكم المنتصر العقوبة البالغة والشديدة في حق الخارجين عليه والمتمردين على سلطته حين تقع يده عليهم ، وهذه الحقيقة مانعة بين عيني المطلوب والغالب على السواء ، لذلك كان المطلوب يسعى للبحث عن يقينه من العقوبة التي هي نازلة به لا محالة ، فكان العلماء عموماً والمتصوفة منهم على وجه الخصوص يفتحون صناديقهم وبيوتهم لحماية المستجيرين بهم معتمدين في ذلك إلى المكانة الكبيرة والاحترام الشديد التي أولاها إياهم الحكام ، ثم يتقدمون بشفاعاتهم إليهم ليعفوا عن هؤلاء المستجيرين ، فكانت طلباتهم وشفاعاتهم ما تستجاب على الأغلب ، وكان الحكام من السلاطين وغيرهم إذا ما أرادوا التعبير للعلماء عن احترامهم لهم جعلوا بيوتهم محترمة ، وصفة (محترمة) هنا يقصد بها أنها محصنة من أن يدخلها جنود السلطان لقبض كل من استجار بها .

ومن أشهر المصادر إلى أن بيوتهم صارت محترمة بأمر السلاطين الفقيه عبداللطيف بن محمد الغزالي الهناري (ت ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م) الذي علت منزلته لدى السلطان المنصور عبدالقادر لرسولي (ت ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م) حتى شملت ذمته كل دور أسرته وبناته محترمة مصونة ، يلجأ إليها الخائفون فيأمنوا^(١) .

ومن قبله كان الفقيه إسماعيل بن إبراهيم بن عجلان (توفي في مطلع القرن التاسع الهجري / مطلع القرن الخامس عشر الميلادي) ذا دنيا واسعة ، ولأنه كان

(١) البربري ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٠٧ ، عبدالله قائد الجادي ، الحياة الضميمة في زيد ، ص ١٢٨ .

ذ جاء عربض عند السلاطين فس دونهم من رجال الدولة ، فقد كل كثيراً ما يشفع
عندهم في نوابه أهل بلده المعازية الذين كان الخروج على الحكام بينهم كما
اتضح في الفصل الثاني^(١) .

وقد جاء وصف عدد كبير من العلماء اليمنيين - في كتب التراجم - في مدة
الدراسة بما يؤكد تمتعهم بالقبول لدى الحكام ونفاذ الكلمة عندهم إذا ما شفّعوا في
أمر ما أو توسطوا للعفو عن بعض الخارجين ، كقول بعض المصادر^(٢) : " كان "
مجاب الكلمة ، مسرع القول ، مقبول الشفاعة " ومثلها العديد من النماذج .

(٧) قبول توسطهم لحل الخلافات الناشئة بين الحكام والأمراء وزعماء القبائل:
من المعلوم أن الخلافات بين الحكام ومن دونهم من الأمراء وزعماء القبائل
ليست كخلافات غيرهم ، بما في أيديهم من إمكانيات القوة والمال تجعل حدة
الصراع بينهم متعدي للضرر إلى غيرهم من عامة الناس ، ومن هنا كان العلماء
يرون أن استمرار حلقات الصراع بين بعض هؤلاء الأخيرين مع الحكام يقود إلى
سفك الدماء واستحلال المحرمات ، فكانوا كثيراً ما يندبون أنفسهم للقيام بواجب
التوسط لفك الصراعات ومحاولة حلها .

فمن ذلك ما قام به الشيخ الفاضل جمال الدين محمد بن عبدالله بن أحمد
الخلواني (ت ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م) من التوسط لفك الارتباط بين قبيلتين
عظيمتين في أواسط اليمن هما بغدان - وشيخها الجلال بن محم السميّري -
والشوافي - وشيخها علي بن الحسام الزاهر - وقد دارت بينهما حروب متعددة
تضرر فيها رعية الجانبين ، فكان في وساطة العالم المذكور نهاية لتلك الصراعات
وحقق للدماء وصلاح لأحوال العباد^(٣) .

(١) الأمل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٢٤٧ .

(٢) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٠٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٧ .

ومن ذلك أيضاً قيام المقرئ العلامة شمس الدين يوسف بن يونس الجبائي (ت ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م) بالتوسط بين السلاطين الطاهريين وأهل بلاد صَبْر^(١) وما والاها عندما كثرت الصراعات بينهم وتشعبت الفتن وكثرت ، فسعى لإصلاح ذات القبين ولأمن العباد بالصالح بين الطرفين ، فأحبه لذلك السلاطين وقربوه وأعلوا مرتبته حتى استقام بدرجة الوزارة لهم ، ثم جمع بينها وبين قضاء الأقضية^(٢) .

ومن ذلك أيضاً قيام عدد من العلماء - ومعهم بعض وجوه للدولة ورجالها - بالتوسط لحل الخلاف المتشب بين السلطان الظاهر الثاني علمر بن عبدالوهاب وأبناء عمومته وأخواله من أمراء البيت الطاهري حول العرش بعد أن أتت الحرب بينهم على أغلب مجهودات الدولة وإمكاناتها - كما سبق بيانه في الفصل الثاني - فقصت المصالحة على أن يقسم الأمير يوسف بن علمر خمسين يمينا بالوفاء والمحافظة على القيام بحق البيعة للسلطان الظاهر على أن يحلف السلطان مثله على الوفاء للأمير بوعده تأمينه على حياته وأن يطلق يد الأمراء من أخواله في بعض المناطق المسلمة في المصدر وأن يمنحهم أربعين ألف دينار من خراج عدن كل عام^(٣) .

(٨) إنزال الأذى ببعض العلماء على أيدي الحكام :

مما لا شك فيه أن مواقف تلك الفئة من العلماء التي كان لها نصيب من الإسهام في الحياة السياسية - كتولي بعض المناصب المهمة القريبة من الحكام - قد أوجدت لدى المتضررين من وجودهم أو من تصرفاتهم من الحق عليهم ما

(١) اسم جبل شامخ جداً بالغ الكبر والضخامة هرمي الشكل وإن كان سطحه غير منتظم ، تقع مدينة تعمر عند سفوحه الشمالية ، ترتفع قممه ٣٠٠٠ متر عن مستوى سطح البحر ، وهو محاط بالمحدرات الشديدة ، ومع ذلك تنتشر للقرى السكنية على معظم مساحته وقممه ، وهي من الكثرة أن تم تقسيمها إلى ثلاث مديريات (مديرية الموادم ، مديرية المعراج ، مديرية مَشْرَعَة وحشكان) ، وتغطي جوانبه المدرجات الزرعية المتنوعة وبخاصة البن والحبوب والفواكه ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبالها ، ج ٣ ص ٤٦٧ ، المقهي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٨٩٤ .

(٢) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

(٣) ابن الديبع ، بغية المستفيد ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، المبدروس ، ديوان محجة الصلوك وحجة الناسك ، نقلاً عن محمد ربيع المدخلي ، الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

جعلهم يمدون إليهم أيادي سوء والأذى حين حانت لهم الفرصة ، كما نال العلماء الذين ألدوا بعض الحكام في صراعهم مع غيرهم الأذى الكبير عند هزيمة من ساندوهم ، أقل ما واجهوه الإقامة الجبرية حتى الممات بعيداً عن الأهل والأقارب لبعضهم كما سيأتي .

ومما بلغت النظر أن آل العلوي^(١) من علماء المذهب الحنفي في المناطق المجاورة لمدينة زبيد قد تكررت لهم للنكبات على أيدي السلاطين الرسولين مع أنهم كانوا يقدمونهم ويولونهم المسؤوليات المتعددة في دولتهم ، فهذا الفقيه عبدالرحمن بن محمد بن يوسف العلوي الحنفي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) كان ممن ترقى كثيراً في خدمة السلطان الأشرف الثاني إسماعيل (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) وتقل في البلاد متولياً لمسطقة بعد أخرى ، فلما نقل حاكمه وأعداؤه عنه ما ليس فيه إلى السلطان غضب عليه فاعتقله وتركه في السجن مدة ، ثم لما لم يجد ما يؤكد تلك الدعوى عليه أطلقه وقربه مرة أخرى^(٢) .

ومنها نكبة الفقيه إسماعيل بن عبدالله بن عبدالرحمن العلوي (ت ٨٣٥هـ / ١٤٣١م) على أيدي السلطان الظاهر يحيى الرسولي (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) الذي كان من جملة بطانة السلطان الناصر أحمد - أخي للسلطان الظاهر يحيى - وأبنيه من بعده المنصور عبدالله (ت ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م) والأشرف الثالث إسماعيل (ت ٨٣١هـ / ١٤٢٧م) ، بل تولى لهم الوزارة وكان نافذ الكلمة لديهم ، ويبدو أن الفقيه كان له علاقة بالسجور الذي تعرض له السلطان الظاهر يحيى سنة (٨٢٢هـ / ١٤١٩م) على يد أخيه السلطان الناصر أحمد^(٣) ، لذلك ما إن تولى مقاليد الحكم وأزمته في سنة (ت ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م) حتى بادر إلى مضايقة الفقيه إسماعيل بن عبدالله العلوي مما اضطره إلى الفرار من وجهه حتى

(١) لا يوجد بين هذه العشيرة وبين آل البيت النبوي رابط رحم ، فهم ينسبون إلى أحد أجدادهم يدعى (علياً) ولهم نسبتهم إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه مما قد يتبادر إلى الذهن ، انظر الهادي الورير ، هدية الراغبين إلى مذهب العشرة الطاهرين ، ص ٢٠ .

(٢) باسمخمة ، تاريخ ثغر عدن ، ص ١٢٠ ، فلكة الفجر ، ج ٣ ص ٦٦٨ .

(٣) يحيى بن الحسن ، بقية الأمان ، ص ٥٦٥ .

جاءت هتود اليمن كلها إلى مكة المكرمة ، وهي حالة تعكس مدى خوف وتوقعه لما سيناله منه .

صادر السلطان الظاهر يحيى أموال النقيه إسماعيل بن عبدالله العلوي وتتبع أثره وهدم منزله ، ومد يد الأذى إلى أقربيه إذ هدم بيوتهم وقبض على أخيه أحمد بن عبدالله الحضرمي وقتله سنة (٨٣٣هـ / ١٤٢٩م) متهماً بإياه بأنه هو المتسبب في تهريب أخيه إسماعيل^(١) ، وقد علق أحد الباحثين على هذه الحادثة قائل : " ومهما تكن الأسباب فإن ما أقدم عليه السلطان الظاهر بعد نقطة سوداء في تاريخ الدولة الرسولية ، وإن كان هذا الفعل لا يستغرب من الظاهر ، إذ سبق وأن سمل عيني أخيه حصين الأشرف حين خروجه على السلطان الناصر ... " (٢)

لورنت بعض المصادر إشارات إلى أن بعض العلماء كانوا ينتقلون من منطقة إلى أخرى فراراً أو خوفاً من جور السلطان ، ولم تحدد هذه المصادر نوعية ذلك الجور ، ولعله لا يعدو أن يكون زيادة في ضرائب الأراضي المزروعة أو قسوة في جبايتها ، من ذلك انتقال النقيه عفيف الدين ناجي بن محمد الشرقي اليمامي (ت ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م) من تهامة إلى وصاب " من جور سلطان الوقت " (٣) .

ويجب ألا نغفل الإشارة إلى أن أكثر العلماء تضرراً من الحكام في آخر مدة الدراسة - مطلع القرن العاشر الهجري - هم علماء الزيدية ، وذلك على يدي السلطان الظاهر الثاني عامر بن عبدالوهاب الطاهري (ت ٩٢٣هـ / ١٥١٧م) في إطار صراعه مع أئمة الزيدية بالصورة التي أوضحناها في الفصل الثاني من دراستنا هذه ، وذلك أن هؤلاء العلماء كانوا يقفون بقوة في وجه السلطان ويحشون

(١) الأندلس ، تحفة الزمن في تاريخ سلاوات اليمن ، ج ٢ ص ٣١٧ ، ٥٣١ ، ابن أسير ، الجوهر الفريد في تاريخ مدينة زبيد ، نسخة مصورة عن معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، تحت رقم (٧٣ تاريخ) ، ق ١٩١ - ب ، ابن النديم ، بغية المستفيد ، ص ١١٠ ، مجهول ، تاريخ الدولة الرسولية ، ص ٢٢٥ ، يحيى بن الحسين ، بغية الأماني ، ص ٥٦٨ ، عبدالله قائد العبادي ، الحياة العظمى في زبيد ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

(٢) عبدالله قائد العبادي ، المرجع السابق ، ص ٤٠٥ .

(٣) البرهبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

أبناء القبائل للوقوف مع أمتهم في مقاتلته^(١) ، وكانوا يرون ذلك من واجباتهم ، فنكل السلطان الظافر الثاني بهم ، وشنتهم في البلاد قبيل سقوط دولته على أيدي المماليك الجراكمة^(٢) ، وقد حمل عدداً منهم معه إلى تعز وغيرها ووضعهم تحت الإقامة الجبرية ، وألزم بعضهم المير في ركابه في السلم والحرب^(٣) ، لذلك كان الحديث عن استقصاء العلماء للرعاية عموماً وآل البيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم منهم خصوصاً من أهم محور الرسالة التي أرسلها الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين إلى حسين الكردي زعيم المماليك الجراكمة قبل دخولهم إلى الأراضي اليمنية يحرضه على محاربة السلطان الظافر^(٤) .

وفي الأخير نقول : إذا كانت القاعدة الشائعة تصرح بأنه : " لكل قاعدة شواذ ، وأن الشاذ لا يقاس عليه " فيجب هنا التأكيد على أن ما صدر من الحكام في حق الفقهاء والعلماء مما ذكرناه هنا لا يعدو - من حيث قلة الحدوث - أن يوصف بأنه حالات شاذة ونادرة ، فلا ينبغي أن نحملها أكثر مما تحتمل وألا نعطيها غير حجمها الطبيعي التي أعطته لها المصادر ، فهي غيضٌ أمام فيض الإحسان والاحترام الكبير الذي بدله الحكام للعلماء والفقهاء وطلابهم ، والأمانة العلمية وحدها هي التي تحتم على الباحث ذكر جوانب الملب بقدر ما يذكر من جوانب الإيجاب وإلا لما أشرنا إليها لضالة حجمها في منحنى العلاقة القائمة بسين الطرفين - للعلماء والحكام .

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ١٠٠ .

(٢) شرف الدين ، المواهب السنية ، ص ٢٦ - ٢٨ ، شرف الدين ، الملوك الذهبية ، ص ٢٥ - ٢٩ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ص ٦٤٢ ، عبدالمعطي خطيب ، فتاوى الغوري ونهاية الدولة المملوكية ، ص ٢٠٩ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ١٠٠ .

(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ص ٦٤٩ ، ٦٥٠ .

(٤) شرف الدين ، المواهب السنية ، ص ٢٦ - ٢٨ ، شرف الدين ، الملوك الذهبية ، ص ٢٥ - ٢٩ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ص ٦٤٢ ، عبدالمعطي خطيب ، فتاوى الغوري ونهاية الدولة المملوكية ، ص ٢٠٩ .

❖ دور العلماء في الحياة اليمنية العامة :

مع تسليمنا بالتأثير القوي للحكام والسلاطين والأئمة على شرائح المجتمع المختلفة ودورهم الفاعل في تحديد طبيعة حياتهم اليومية وطريقة سيرها ، رغم ذلك إلا أن العلماء كان لهم التأثير الثقافي الأبلغ والحضور الفكري الأكبر والدور الاجتماعي الأبرز تظل واضحة لكل متابع ، بل كما رأينا أن تأثيرهم كان قائماً - بصورة تبادلية - حتى على السلاطين أنفسهم .

ولم يكن تأثير العلماء وحضورهم فقط موجوداً في ناحية واحدة من مناحي الحياة العامة اليمنية ، بل كان شاملاً لكثير من جوانبها ، وسنتطرق هنا لعدد من أهم هذه الجوانب التي أسهم العلماء فيها بصورة أو بأخرى :

❧ أدوار العلماء الاجتماعية الخيرية :

كان العلماء والفقهاء هم ملاذ عامة الناس ، يفرعون إليهم في المهمات ، ويقصدون أبوابهم في الملومات ، يتجهون إلى المبرزين منهم عندما ترصد في وجوههم أبواب الحكام وتقف دونهم تعقيدات الحُجُب والأمرأ ، كما كان العلماء والفقهاء بحسب أكثر الناس إحساساً بمعاناة الفقراء والمساكين ، وأعمق إدراكاً لمواطن الحاجة إليهم ، فتجد الفقير والمساكين والجائع لا يرى له مأوى غير بيوت الميسورين من العلماء أو المتولين منهم لمسؤوليات الصدقات والأوقاف ، وهم من جانب آخر مقصد العامة إذا أسهم أمرٌ وافقتوا فيه إلى المشورة والرأي الصائب ، وغير ذلك الكثير من أشكال التعاضد والتكافل .

كان انشغال العلماء والفقهاء - من جانبهم - كبيراً بمشاركة أفراد المجتمع الهموم والألام ، فتجدهم يتفقدون الأرمال والأيتام والمساكين ، ويبادرون إلى رعايتهم ، ويسعون في حاجة المحتاج حتى تقضى حاجته ، ومع المديون حتى يقضى دينه ، وهم في ذلك متجردون محتسبون الأجر من ربهم ، وذلك هو عين ما تمليه عليه علومهم التي جعلوها^(١) ، وتواصلت جهودهم في خدمة الناس وتربيتهم وتوعيتهم - كما سيأتي - وتدرّس أبنائهم ، فاكتمبوا بذلك تقديراً واحتراماً وإجلالاً جعل الناس ينزلون عند

(١) عبدالمحسن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص

رأيهم ، ويتقبلون كلمتهم بالتعظيم والتفخيم ، ويحتفون بمقدمهم ، ويبدلون قصارى الجهد للوقوف معهم في مواقفهم بعد أن رأوا فيهم نوراً للمجتمع ورموزاً لتكافله .

بالنظرة إلى طبيعة ما سنتناوله في هذه الجزئية نقول : لعل الأحرى بهذا العنوان أن يُصاغ على نحو (علاقة العلماء بعلمة الناس) حتى يلمح مع طبيعة العناوين السابقة - من جهة - وعنوان الفصل إجمالاً من جهة أخرى .

تعددت الإشارات الواردة في المصادر إلى أنوار العلماء الاجتماعية الخيرية في عون الناس في مدة الدراسة ، وتجنباً للإسهاب والإطالة سنستشهد بعدد محدود منها ويكفي ما فيها للدلالة على توافر غيرها ، منها ما ورد في بعض المصادر^(١) أن الفقيه إسماعيل بن إبراهيم بن عَجَل (توفي في مطلع القرن التاسع الهجري / مطلع القرن الخامس عشر الميلادي) كان ذا دنيا واسعة ، كما كان له جاه عريض عند السلطان فمن دونه من رجال دولته ، لا يكاد يخلو الأمر من المشافعات عندهم في نوائب وأهل بلده .

وهذا الفقيه الصالح وجيه السدين عبدالرحمن بن عبدالصمد الصميري (ت ٨٣٦هـ / ١٤٣٢م) " كان يصنع الأوفلق والطلسمات^(٢) لقضاء الحوائج وفك المحبسين ، ورزق مالا كثيراً وجاهاً عند أرباب الولايات ... وأقبلت الدنيا عليه فجاد بها ولم يمسك منها شيئاً ، ووفد الفقراء والمساكين والشعراء فيعطونهم العطايا النالعة ... " (٣) .

وكان الفقيه تقي الدين عمر بن محمد الحبشي كثيراً ما يسعى عند السلطانين الطاهريين علي وعامر ابني طاهر لقضاء حوائج الناس^(٤) ، وبذل مثله الفقيه جمال الدين محمد بن علي الحداد (ت ٨٩١هـ / ١٤٨٦م) جاهه عند السلطانين الطاهريين

(١) الأمل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٣٤٧ .

(٢) لم ألتجئ إلى معادها في هذا السياق ، وأستفيد أن تكون مما تنهر السحرة بفعله ، فالسحر إحدى الموبقات السبع التي لا ينبغي للمسلم العادي فعله فما بالنا بهذا العالم الذي وصف بالصلاح والاستقامة .

(٣) البرقي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٠٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

علي بن طاهر والمنصور عبد الوهاب بن دلود لقضاء حوائج الناس ، وذلك لأنه كان مسموع الكلمة عندهما^(١) .

❧ تولي بعض المناصب الدينية والإدارية :

كان العلماء وطلابهم لكثا شرائح المجتمع تأهيلاً وبعداً واستعداداً للاستطلاع بالمهام والمناصب الدينية بدرجة أساسية وغيرها من المواقع الإدارية بدرجة ثانوية ، إلا أن أغلبهم كان يحجم عن القبول بتولي كثير من هذه المهام تورعاً وزهداً هيئ ، كما سبقت الإشارة في علاقتهم بالحكام والسلطين بهم ، وكان إحجامهم إزاء الوظائف الإدارية أكبر منه إزاء الوظائف الدينية المتمثلة في القضاء والتكريم الرسمي (في المدارس العلمية والجوامع الكبيرة) والإمامة والخطابة وغيرها .

وكان السلطين يتخيرون كبار العلماء وأشهرهم لتولي المناصب الكبيرة - كقضاء الأهلية - والوزارة الكبرى ، بل وجمع المنصبين لعدد منهم^(٢) ، ويتركون لهم الصلاحية في اختيار ما دون ذلك من الوظائف الأدنى ، كالقضاء في المدن والبلدان الصغرى ، ولذلك انتشر لقب (القاضي) بين العلماء ووضع ذلك في كتب الترجيم والمصادر التاريخية^(٣) ، كما كان السلطين يندبون المبرزين من العلماء ذوي الخبرة التدريسية للتعليم في المدارس التي أنشأوها .

وقد كان عدد من العلماء ذوي شخصيات إدارية ن واسلكوا من الصفات والمهارات ما أهلتهم لأن يعينهم السلطين في مناصب مختلفة المستويات ، وهذا القاضي أبو القاسم بن عمر بن أبي القاسم بن معبد الشكيري (ت ٨٣٠ هـ / ١٤٢٧ م) الذي كان له لجهاد في طلب العلم منذ صغره ، حتى أنه حفظ عدداً من متون أمهات الفقه والنحو ، وله قراءة على أئمة عصره في الحديث واللغة ، اختاره السلطان الناصر الرسولي (ت ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م) ليتولى أمر الاستيفاء وهو من مناصب إدارة الأموال

(١) بامخرمة ، قلادة النصر ، ج ٣ ص ٧٥١ .

(٢) لأكوع ، أعراف وتقاليد حكام اليمن في العصر الإسلامي ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) التريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣١ ، ٣٣ ، ٤١ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٩ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٠ .

السلطانية للخطيرة ، فدير قوانينه تديراً حصناً ، وبلغ ما لم يبلغه غيره بوظيفته ، وهو مع ذلك جاز على الشريعة للمطهرة ومجاهداً لمصالح المسلمين^(١) .

وهذا للفقير عبدالرحمن بن محمد بن يوسف العلوي الحنفي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) كان ممن ترقى كثيراً في خدمة السلطان الأشرف الثاني إسماعيل (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) وتنقل في البلاد متولياً لمنطقة بعد أخرى ، وكان كثير الصدقة على أقاربه وجيرانه وغيرهم ، وكان لا يُسأل شيئاً فيرد سائله خائياً^(٢) .

وهذا الفقير عبدالله بن محمد الهبي (ت ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م) ، كان كثيراً ما يتولى شؤون قسم الصدقات التي يتصدق بها السلطان المجاهد علي بن طاهر (ت ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م) بزبد ، ترة مستقلاً وتارة مشاركاً لغيره ، ولما عزم السلطان المجاهد على تفقد أوقاف بزبد ووجد غالبها مع من لا يستحقه ، أمر الفقير عبدالله المذكور وغيره من أقرانه للعلماء بأن يباشروا ضبط أوضاع الوقف وأن يواسوا به بين جموع عشائر الفقهاء الكبار الذين انقطعوا عن الأسباب وتفرغوا للتدريس والتوجيه والتنقيف لعامة الأمة ، وأمرهم أن يرتبوا لكل واحد منهم ما يناسب حاله ، ففعلوا ذلك ، وحصل به النفع العام ، ولما نجح الفقهاء والعلماء المكلفين - ويتقدمهم عبدالله بن محمد الهبي المذكور - في إنجاز مهمتهم اصطحبهم السلطان المجاهد علي بن طاهر معه إلى تعر ليفعلوا بأوقاف تعر والجبال ما فعلوا بأوقاف بزبد^(٣) .

❧ الإسهام في التنقيف الديني والتوعية الدائمة :

لعل هذه المهمة الخطيرة هي المهمة الأم والرئيسية التي يجب أن يضطلع العلماء بها ، بل هي عين ما صرحت به الآية الكريمة " وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا

(١) التبريبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .

(٢) بامخرمة ، تاريخ نجر عن ، ص ١٢٢ ، قلعة قنعر ، ج ٣ ص ٦٦٨ ، ٦٦٩ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٧١٨ ، بن النبيع ، بغية المستفيد ، ص ١٧٣ .

إِنَّهُمْ لَعَلَّكُمْ تَحَذَّرُونَ ﴿١٠﴾^(١) وعده علماء الملف من فروض الكفاية على الأمة ،

ومرمى ذلك وغايته هو تفقيه الناس وتوعيتهم والأخذ بيدهم ليعبدوا ربهم على بينة .
وكان علماء اليمن في مدة الدراسة على وعي كامل بهذه المسؤولية الجميمة ،
وفاموا بها خير قيام ، وذلك أنهم كانوا يتعبدون الله تعالى بأداء هذا الجانب قبل أن
يكون إسهاماً في الحياة اليمنية العامة ، ونكاد نقول إنهم كلهم قد أسهموا بصور شتى في
التتقيف الديني والتوعية الدائمة ، وما التدريس والتعليم الذي تحدثنا عنه كثيراً في
الفصول الماضية إلا واحداً من أنشطة هذا التتقيف وهذه التوعية ، ولكننا هنا نخصص
هذا العنوان لما كان منه موجهاً لعامة الناس ومولاهم .

للمتبع لكتب التراجم اليمنية والمصادر التاريخية الأخرى يجد كثيراً من العلماء
وقد وردت في ثنايا تراجمهم إشارات إلى كونهم جلسوا لتدريس عامة الناس
وإمامتهم في المناسك التعبدية وإفنائهم ووعظهم وإرشادهم ، وتعد هذه الأنشطة
أوضح صور التتقيف الديني والتوعية العبادية .

فهذا الفقيه العلامة البليغ رضي الدين أبو بكر بن يوسف بن إسحاق ابن
المستأذن (ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م) اشتهر بالوعظ وحسن الصوت وسرعة العبارة
فعين خطيباً في جامع عدن ، فكانت ترق لمواعظه القلوب وتخضع لها الأفئدة^(٢) ،
ومثله للفقيه المقرئ نقي الدين عمر بن عيسى الخطيب (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٦م)
كان لكلامه ووعظه في القلوب موقع ، إذا صعد المنبر أتى بوعظ توجل منه القلوب
وتجري به العيون ، باللفظ الرقيق والمعنى الدقيق^(٣) .

❧ الأمر بالمعروف وإنكار المنكر على العامة والسياسيين والمبتدعة :

من الثابت أن أحد أسباب حيرية هذه الأمة قيامها بالأمر بالمعروف ونهيها عن
المنكر ، مصداقاً لقوله تعالى : " كُنْتُمْ حَرَمٌ أُمٌّ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

(١) سورة التوبة .

(٢) البرزهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٢٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١١ .

وَتَهَوَّتْ عَنِ الْمُعْكَرِ وَتُؤَيِّنُونَ بِاللَّهِ ... ﴿١١﴾ ، وكان حديث النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : * من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان ^(٢) بين أيديهم يدفعهم إلى الوقوف الإيجابي من المنكرات التي رأوها تُعْتَرَف من قبل بعض أفراد المجتمع ، سواء كانوا من العامة أو السلاطين وأعاونهم أو بعض المبتدعة المحسوبين على شريحة العلماء أنفسهم.

ومن المنكرات التي التي جاء ذكر وقوف العلماء في وجه مقترفيها بدعة صلاة الرغائب في شهري رجب وشعبان ، وهي اثنتا عشرة ركعة بين العشاءين من أول خميس من رجب ومن شعبان ، وتلى فيها آيات مخصوصة وتصلح معينة ^(٣) ، وقد شاعت في زبيد وتعز وما حولهما ، وأسهم في شيوعها تشجيع بعض العلماء للمتصوفة لها ، فتصدى لهم عدد من الفقهاء ، واشتهر منهم الفقيه الشافعي الحسين بن عبدالرحمن الأهدل (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) ، فكشف عن بطلان هذه البدعة ، وأنها ليست من الدين في شيء ، وألف في ذلك رسالة أسماها بـ (إنكار صلاتي الرغائب في رجب وشعبان) ، وأيده في محتواها العلماء الكبار كسليمان بن إبراهيم العلوي (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢٣م) إمام محدثي اليمن بعد أن أرسل إليه الأهدل نسخة منها فأنشئ عليه وارضى الرسالة ^(٤) .

وفي مطلع القرن التاسع الهجري (بداية القرن الخامس عشر الميلادي) وصل إلى منطقة وصاب رجل من العلماء يدعى للفقيه وجيه الدين عبدالرحمن بن إبراهيم الخولاني (ت ٨٣٥هـ / ١٤٣١م) واستوطن المكان ، ولما أحبه أهل البلد اشتكوا إليه

(١) سورة آل عمران .

(٢) مسلم ، صحيح مسلم ، ج ١ ص ٦٩ ، رقم (٤٩) ، باب (بياض كون النبي عن المنكر من الإيمان ...)

(٣) انظر تفصيل خبرها عند محمد عبدالسلام الشافري ، العنق والمبتدعات المتطرفة بالأفكار والصلوات ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٨م ، نقلاً عن عبدالله خالد العبدوي ، الحياة العلمية في زبيد ، ص ٤١٠ .

(٤) الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ١٥٧ ، عبدالله قائد الجبدي ، الحياة العلمية في زبيد ، ص ٤١٠ .

بدع الإسماعيلية الذين بذاحتهم وما يظهرونه من فساد العقيدة وسوء السلوك ، فاستدعى بعضهم للاستبانة عما لديهم فلم يقرؤا ولم ينكروا ، فأعلن النفير في كل من حوله مسن البلاد وأخرج القوم من حصنهم ، فوصل إلى يده من الكتب ما تبين له سوء المعتقد وفساده ؛ فأمر بقتل الكثير منهم ، كما أمر باسترقاق أولادهم ونسائهم دون أن يستتيبهم؛ فلامه الإمام إسماعيل المقرئ على الاستعجال بإنزال هذه العقوبة القاسية بهم دون استتابتهم ، واستقبح فعله وكتابه بذلك ، فأصر الفقيه الخولاني على صحة موقفه في المكتبات والرسائل الكثيرة التي جرت بينهما كما سبق أن أوضحنا^(١) ، وهذه الحادثة وما بني عليها يبين أن العلماء لم تمنعهم الصداقة والأخوة القائمة بينهم من قول الحق وتوجيه اللوم والعتب ، فكما أن الإمام المقرئ لا يقر الإسماعيلية في سوء العقيدة والسلوك إلا أنه لا يسعد بتجاوز الشرع في التعامل معهم وينكر على من قام بذلك .

يظل موقف العلماء من الفقهاء والمحدثين من الفتنة التي علا شأنها في مطلع القرن التاسع الهجري باستلام السلطان الناصر الرسولي (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) لمفاهيم الحكم في البلاط الرسولي الذي كان المتصوفون - من أتباع لتيار الفلسفي الصوفي القائلون بوحدة الوجود وغيرها من العقائد التي تضمنتها كتب ابن عربي للمتصوف المشهور - قد احتووه وكسبوه إلى صفهم ، فقربهم منه واتخذ منهم بطانته ، وأسند إلى أحد رموزهم ، وهو القاضي أحمد بن أبي بكر الرداد (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) ، القضاء الأكبر في اليمن كله ، فزادت وظائفهم على الفقهاء والمحدثين ، الذين لم يستكينوا في الإنكار عليهم ، وللتصدي لما كانوا يمارسونه من البدع مثل عقد مجالس السماع ونق الدفوف والطبول في المساجد مع النفخ بالمزامير فيها .

ومن الأهمية أن نورد هنا جهود أكبر العلماء الذين لم يهنوا في الوقوف في وجه تلك البدع المنكرة وهذا التيار رغم أن المنصهر له هو السلطان الناصر نفسه ومعه قاضي القضاء أحمد بن أبي بكر الرداد ، وقد كانوا مدركين لما في ذلك من الخطورة عليهم ، إلا أن استعمارهم خطورة السكوت عنه والمسؤولية التي في أعناقهم وسيمسألون عنها جعلتهم يستصعرون ذلك كله ، ونذكر منهم الفقيه أحمد بن إبراهيم العسقلي (ت ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م) الذي أفكر عليهم استباحتهم عقد مجالس السماع بما

(١) ابن السبيح ، نشر المحاسن اليمانية ، ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص

فيها من الاختلاط الفاحش وغيره ، وألف قصيدة تتجاوز أبياتها ثلاثمائة بيت رد فيها عليهم ، وأشار فيها إلى أدلة الكتاب والسنة على تحريم آلات اللهو من الغناء والدف والشبابة واختلاط النساء بالرجال .

ومنهم القاضي الفقيه أحمد بن أبي بكر النائيري (ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م) الذي كان عمدة في الفتوى ، فقيهاً مجتهداً ، مشاركاً في كثير من العلوم ، وكان الإنكار على المتصوفة المذكورين ديدنه حتى من قبل أن يعظم شأنهم ، وانتهج في وقوفه ضدهم المناظرات والتأليف للوعظ والتفجير ، فصبوا عليه جام غضبهم ، وسعوا إلى التخلص منه ، فسعوا به إلى السلطان بكل ممكن ، ومنعوه من الفتوى ، وراموا إخراجهم من زبيد ، وإعدام صورته منزلة وهيبته تماماً ، فلم يفت ذلك في عضده ، وواصل حتى لقبه الإمام المخاوي بـ (ناصر السنة وقامع البدعة)^(١) .

ويعد الإمام إسماعيل بن أبي بكر المقرئ (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) هو أحد علماء اليمن على هذا التيار للصوفي الفلسفي ، إذ قاد ما يمكن أن نسميه جبهة الفقهاء والمحدثين ، وعضده في ذلك تلاميذه ورملاؤه وأصدقائه ، حتى أن بعض علماء المذاهب الشيعية الأخرى قد عصبه وأنبوه في هذه الحملة كما أسلفنا من قبل ، ولم يشبهه أنه بذلك يصل إلى نفسه بنار السلطة وجبروت المتنفذين في أوج سطوتهم ، وقد استهدفوا شخصه بمحاولة تصفيته واغتياله عندما هاجم جنود السلطان منزله بمدينة زبيد لولا أنه فر منهم إلى خارج المدينة قاصداً قرية بيت الفقيه ، فزاد ذلك من إنكساره عليهم ، فأقام ما استطاع من المناظرات مع من وجده من رجالهم ، وألف أكثر من رسالة وكتاب في بيان ذلك ، منها رسالتان في الرد على المتصوفة أتباع ابن عربي ، وكتاباً آخر اسمه بـ (مرتبة الوجود ومنزلة الشهود) ، ونظم غرر القصائد في التشديد عليهم وفصح عقيدتهم ، منها القصيدة التي سبق إيرادها - التي يقول في مطلعها :

(١) لقصور اللامع ، ج ١ ص ٢٥٨ ، الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ابن حجر ، إنباء الغر بآباء الغر ، ج ٢ ص ٥٢٥ ، ابن قاضي شهاب ، طبقات الشافعية ، تحقيق د. الحافظ عبدالمليم خان ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٧م ، ج ٤ ص ١٠ ، عبدالله قائد العبادي ، الحياة الطمعية في زبيد ، ص ٤١٣ ، ٤١٤ .

برغم سنة خير النجم والعرب
أضحت مساجدنا للهو والطرب
ما كان - صلى عليه الله - يأمرنا
بضرب نف ولا زمر ولا قصب
بل سدد عن مزمر الراعي مسلمته
صوتنا لها ولنا عن هذه اللعب
فضحتمونا وصيرتم مساجدنا
وهي المصونة كالحانات للعب
شؤنكم الدين ، غيرتم محاسنه
فعلتم فيه فعل النار في الخشب^(١)

وهي مكونة من ١٦٩ بيتاً ، وله قصيدة أخرى جاءت في مجلدتها في ٢٤٢ بيتاً^(٢) يقول فيها :

فقد حدثت بالمسلمين حوادث
كبار المعاصي عدها كالصغائر
خونون كتب حارب الله ربها
وغر بها من غر بين الحواضر
تجاسر فيها ابن العريبي واجترأ
على الله فيما قال كل التجاسر
فقال بأن الرب والعبد واحد
فربي مربي بغير تعازير^(٣)

(١) ديوان المقري ، ص ٤ ، ٥ .

(٢) د. طه أبو زيد ، ابن المقري حياته وشعره ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٣) ديوان المقري ، ص ١٠ - ١٩ .

ولما قام الفقيه المتصوف محمد بن محمد بن القاسم المزجاجي (ت ٨٢٩هـ — / ١٤٢٦م) بتأليف كتابه (هداية السالك إلى أسنى المسالك) للرد على ابن المقرئ والدعوة إلى مذهب التصوف على طريقة ابن عربي، قرأه الإمام ابن المقرئ، وكان بينهما سابق محبة وصداقة ومودة، فنظم قصيدة ثالثة مكونة من ٢٤٦ بيتاً في الإنكار عليه، يقول في مطلعها:

هو الله من حُبِّي وَرَبِّكَ قُربُ

فأين الحيا - يا شيخ - أين التهيبُ

أتحسب - جهلاً - أنْ عَذْرَكَ واضحُ

بتقليد زنديق^(١) على الله يكذبُ

فوالله ما ينجو ولا يفلح امرئُ

له مذهبٌ والمصطفى الطاهرُ مذهبُ

أترغبُ عن دينِ النبي وترتضي

لنفسك ديناً غيره وتُصَوِّبُ^(٢)

إلى أن قال - مشيراً إلى الكتاب المذكور وإلى الصداقة والود القديم بينهما -
وأنه سيهجره ويعاديه تقرباً إلى الله:

وطالعتُ في تصليفه فوجدتهُ

بتعظيم من يزري على الله يتعبُ

ويثني بخيرٍ عن الكفرِ دينه

ويستجلبُ الحمقى إليه ويجتنبُ

فعاديتُهُ في الله مِنْ بعدِ ما مضى

لنا زمنٌ وهو الصديقُ المحبُّ

(١) لعله يقصد ابن عربي مؤسس هذا المذهب، أو لعل المقصود به الكرمني وأضح بؤرة المذهب هذا في اليمن، ولكن معاصراً للمقرئ، أو ربما كان المقصود للقاصي أحمد بن الرداد، فكلا الخييين كان له دور في استمالة المرجاجي إلى المذهب الصوفي المتطوّل.

(٢) ديوان المقرئ، ص ٤١.

وجانبته إذ لم يكن لي مخلفاً
من الله إلا هجرة والتجنب

وما كنت أرضى هجرة ورفاقه
ولكن رضى الباري أمراً وأوجباً^(١)

وقد توفي للقاضي ابن الرداد سنة (٨٢١هـ / ١٤١٨م) فمعد موته فرجاً
عظيماً لأهل السنة من الفقهاء والمحدثين ، إذ انقضت الظلمة عنهم ، ويبدو أن السلطان
الناصر الرسولي في هذه المدة قد وعى خطورة موقفه للمؤيد للصوفية على شعبيته ،
فقد كان المؤيدون للصوفية يقتلون كثيراً عن غيرهم ، فبدأ في إصلاح كثير مما أفسدته
الأيام الماضية ، غير أنه لم يأخذ على أيدي المتصوفة ، وإنما أفسح المجال أمام
معارضهم ، يدل على ذلك أن الجفوة الشديدة التي كانت بينه وبين الفقهاء ورأسهم
الإمام ابن المقرئ قد زالت ، وحدث بينهما نزول ، ومدحه ابن المقرئ ، إلا أنه توفي
- أي السلطان - بعد ذلك بسنوات قصيرة سنة ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م^(٢) .

اشتدت حملة الفقهاء على المتصوفة في عهد السلطان المنصور الرسولي
(ت ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م) بدعم من السلطان نفسه الذي كان على النقيض من أبيه في
موقفه منهم ، فضعف أمر المتصوفة كثيراً وتبع السلطان دعائهم ، وحزم الفقهاء
أمرهم فأصدروا فتوى شرعية ، وحكموا فيها بردة كل من ارتضى مقالات ابن عربي
عن الإسلام ، وقضوا بإقامة حكم الردة على أصر على منهم ، وصانق السلطان
المنصور على الفتوى فنبه كثيراً الكثير من المتصوفة من عقيدتهم وبرأوا منها ، ودونت
توبتهم في منشور ، وتلاه الفقيه المحدث موسى بن محمد الضجاعي (ت ٨٥٢هـ /
١٤٤٨م) على منبر جامع ربيد ، وقرئ أيضاً في منابر كثير من مساجد اليمن^(٣) .

(١) ديوان المقرئ ، ص ٤٧ .

(٢) المقرئ ، شرح الفريدة الجامعة للمعالي الرائعة ، تحقيق عبدالرحمن عبدالله الحصري ، وزارة الإعلام
والثقافة ، صنعاء ، ط ١ ، ١٩٨٥م ، ص ١٧ - ٢٣ .

(٣) الأمد ، تحفة الزمن بتاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٢٣٨ ، عبدالله قائد المبادي ، الحياة الطمينة في
زهد ، ص ٤١٢ .

لما لم يحكم السلطان المنصور سوى ثلاث سنوات تقريباً فقد حاول محمد الكرماني (ت ٨٤١هـ / ١٤٣٧م) العودة إلى إقامة دعوى ابن عربي فتصدى له الفقهاء أنفسهم ، ومعهم الفقيه المؤرخ الحسين بن عبدالرحمن الأهدل (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) أحد أشهر تلاميذ الإمام إسماعيل المقرئ ، إذ لقتحم ميدان الرد والإنكار عليهم ، وألف كتابه (كشف الغطاء عن التوحيد وعقائد الموحدين ، ونكر الأئمة الأشعريين ومن خالفهم من المبتدعين ، وبيان حال ابن عربي وأتباعه المارقين) ، وله في بعض تفاصيل عقيدتهم كتاب (القول للنضر ، في الدعوى الفارغة بحياة أبي العباس الخضر) ، وله أيضاً كما يقول عن نفسه : " قصيدة في البحث على العلم وتعيين ما يعتمد من العلم ، لكتب من الشرع والتصوف ، وبيان حكم الشطح ، والنص على مروق ابن عربي وابن الفارض وأتباعهما من الملحدين ... وشرحها في قدر ثلاثين ورقة " (١) .

وخاتمة القول في شأن صراع الفقهاء والمحدثين مع الصوفية أتباع مذهب ابن عربي أنه كما كان صورة من صورة الحراك العلمي والفكري الكبير في اليمن آنذاك إلا أنه أبان عن جلد لدى العلماء في الصبر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذ لم يفت طول الوقت ومروره من عصدهم ، ولم تقلح الصعوبات التي وضعتها المتنفخون من الصوفية في طريقهم من زرع الإحباط في نفوسهم ، وإذا كانت أغلب فصوله قد دارت في زبيد وما حولها من قرى تهامة ومدنها إلا أن فقهاء المدن اليمنية الأخرى كان لهم كفلٌ منه ، وقد سبق أن أشرنا إلى تأييد الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير الزيدي للإمام ابن المقرئ ، وأصدر فقيه تعز الأكبر الإمام أبي بكر بن محمد بن الخياط (ت ٨٠١هـ / ١٣٩٨م) فتاوى عدة في شأنهم ، وألف كتاباً للرد عليهم (٢) ، كما أنكر الإمام جمال الدين محمد بن علي بن عبدالله بن إبراهيم الخطيب الموزعي للشهير بابن نور الدين (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م) على القاضي ابن الرداد شرائه لكتب ابن عربي ومطالعته فيها ، فأحضره - وهو يومئذ قاضي القضاة - إلى زبيد وجمع أغلب الفقهاء ورجال الصوفية في مجلس حافل وطلب الخطيب للمناظرة ، فلما غلبه

(١) الأهدل ، تحفة الزمن بتاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٢٥٦ ، عبدالله قائد المبادي ، الحياة الطمعية في زبيد ، ص ١١٧ .

(٢) السملوي ، الضوء اللمع ، ج ١١ ص ٧٨ ، البرهني ، طبقات سادات اليمن ، ص ١٢٠ .

الحطيب همت الصوفية بالفتك به ، فحماء أحد الأمراء ، ولما عاد إلى موزع ألف كتابه (كشف للظلمة عن هذه الأمة) في الرد عليهم^(١) .

هذا وقد أوردت المصادر عدداً من المنكرات التي كانت تظهر من حين إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى في مدة الدراسة ، كما تحدثت عن جهود الطمءاء في مواجهة هذه المنكرات والتصدي لها وللمبتدعين والظلمة من الأمراء أينما ظهرُوا ، فهذا الإمام إسماعيل المقرئ يطلع على أمير السلطان الرسولي في زبيد يدعى الزنبول ، كان يستبد بالناس ويتخذ العنف والجور سبيلاً لجمع الضريبة وإزعاجهم ، فعزم ابن المقرئ على قمع هذا المنكر بإبطال الضريبة نفسها ، فحرر طلباً منظوماً - إلى السلطان بإعفاء الناس المقصودين منها ، يقول في طلبه :

البحرُ أنتَ وهذا العالمُ السمكُ

فإن تَحُلُّيتَ عنهمُ ساعةً هلكوا

هُمُ للرعايا العبيدُ الطائعونَ هُمُ

وأنتَ أنتَ المطاعُ السيدُ الملكُ

فلا تَكِلْهُمُ إلى مَنْ ليسَ برحمهم

ولا يَرى هَلَكَهُمُ لَمَرَأَ بهِ نَرَكُ

فأنتَ لكرمُ ، يا مَنْ لم يَخِبْ لَمَلٍ

في فضلهِ كلما مُدَّتْ له شَبَكُ

أمهلتَهُمُ وفعلتَ الخيرَ أجمعهُ

ولم يكنْ منكْ تعنيفٌ ولا نَهَكُ

فأمننْ بأخرى ، وسامحهم ، وخطُ ولا

تتركْ عوائدَكَ الحسنَى وإنْ تركوا

فلما وقف السلطان على طلبه قبل شفاعته وحقق طلبه^(٢) .

(١) الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ من ٧٠ ، ٧١ ، ٣٦٠ ، البريمي ، طبعت مسلمات
اليمن ، ص ٢٧٢ .

(٢) ديوان المقرئ : ٣٦ ، شرح لفريدة الجامعة للمعاني للرافعة ، ص ١٩ ، ٧٠ .

تحكي لنا التواريخ المتوافرة عدداً من المواقف التي انبرى فيها العلماء - أفراداً وجماعات - للإنكار على مقترفي المنكرات^(١) دون خوف أو وجل ، وكثيراً ما وُصِفَ العلماء بالصدوع بكلمة الحق دون أن يخافوا لومة لائم أو يهابوا صولة طالم وجولة جبار ، أمثال القاضي الفقيه أحمد بن أبي بكر الناشري (ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م) الذي - كما سبق ذكره - قام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون خوف ، وكان ينكر على السلطان فمن دونه ، ولما تولى القضاء في زييد كان شديداً في قول للحق حتى ضلّق منه غلمان السلطان ، فجرى له معهم وقائع متعددة ، ولم يتسامح معهم في شيء ، فلما كثر ذلك عليه عزل نفسه^(٢) ، ومثله الفقيه أبو محمد عبدالله بن محمد بن عثمان العمودي (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) صاحب الخُرَيْبَةِ بوادي دوعن^(٣) ، حيث أقام هناك يدعو الناس لإقامة الشريعة وإطفاء البدع والمنكرات للقائمة ، فسلط عليه المبتدعون وحاربوه وهدموا بيته وأحرقوا كتبه ، فلم يهر ولم ويستكن ، فزاد أذاهم له حتى اضطروه للخروج عنهم إلى مدينة دمل^(٤) ، ويصل الأمر مفتاه عند الفقيه محمد بن أبي بكر الناشري - أخي أحمد بن أبي بكر السابق ذكره - فقد قام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون خوف من متنفذ ولا مراعاة لظالم فأدى ذلك إلى استشهاده عندما قام أحد المتضررين منه باستدراجه إلى مقبرة مهجورة بمدينة حيس ثم قتله فيها^(٥) .

(١) إنكار المنكر بفتضي - بداعة - الأمر بالمعروف ، فمن نهى عن التهاون في أداء الصلاة مثلاً فهو - صرح لم لم يصرح - يأمر بأدائها في وقتها ، ومن نهى عن الابتداع فهو يأمر بالترام للسنة المطهرة .

(٢) الشرجي ، طبقات الخوارج ، ص ٩٢ .

(٣) هي تصغير لـ (خربة) ، مدينة كبيرة مشهورة بوادي دوعن من حضرموت ، تقع بالجانب الغربي من الوادي ويسكنها كثير من العلويين وبعض القبائل الحضرية ، وقد عدد المقضي أشهر عشائرها ، السقاف ، إيلم القوت في ذكر بلدان حضرموت ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ ، المقضي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٥٦٦ ، ٥٦٧ .

(٤) بالعلوي ، البرقة المشبقة في ذكر لباس الخربة الأكيقة ، القاهرة ، ١٣٤٧هـ / ١٩٢٨م ، ص ١١٨ ، بمخرمة ، قلعة النحر ، ج ٣ ص ٦٩٦ ، بالصل ، جواهر تاريخ الأحفاد ، ج ٢ ص ١٦١ ، شنبيل ، تاريخ حضرموت المعروف بتاريخ شنبيل ، ص ١٧٥ .

(٥) الأهدى ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٧٢ ، ٧٣ .

❏ الاشتراك في صد البغاة والغزاة :

مما أجمع عليه علماء الأمة في كل العصور أن جهاد الطلب^(١) فرض كفاية يسقط عن سائر الأمة إذا قامت به طائفة منها ، وأما جهاد الدفع^(٢) فهو فرض عين على كل مسلم عندما يقتصب المشرك الكافر من أرض الإسلام شبراً واحداً ، وقد توقف جهاد الطلب منذ قرون ، ولم يطل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) إلا وقد أصبحت الأمة في موضع الدفاع عن حياضها ، وقد تعرضت لهجمات كثيرة من قبل التتار والمغول ومن قبلهم - ومن بعدهم - الحملات الصليبية المتكررة .

علم فقهاء اليمن وعلمائها هذه الفرضية فتعين عليهم الوقوف يداً واحدة في حل حصول نواحي الجهاد ، وقد كان العدو البرتغالي للصليبي هو المتربص بالسواحل اليمنية - مع غيرها من السواحل الإسلامية في الهند والخليج العربي والقرن الأفريقي - وذلك في مطلع القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، وكان أول ظهور لطلائع أسطوله على شواطئ جزيرة سقطرة في سنة (٩١٣هـ / ١٥٠٧م) حيث وقع الصدام بين الأسطول المتطور وأهالي الجزيرة ، فتم للبرتغاليين احتلالها بعد أن استمات الأهالي - يتقدمهم حاكم الجزيرة - في الدفاع عنها ، فاستشهد الحاكم مع ٢١٧ رجلاً من أتباعه ، وإن كانت المصائر لم تعينا بإيراد إشارات تفكر العلماء ضمن هؤلاء الأهالي إلا أنه مما لا شك فيه أنهم كانوا في عددهم ، فليس من المعقول أن يكون الأهالي أكثر إقداماً منهم ، ولعل المقاومة الشديدة التي لاقاها البرتغاليون هي التي دفعتهم - مع أسباب أخرى تتعلق بموقع الجزيرة وطبيعتها الجغرافية - إلى الانسحاب المبكر منها^(٣) .

(١) يقصد به أن تطلب بجيش الإسلام العدو في لوصه لتحقيق مصلحة للأمة وللرسالة السماوية الخاصة ، كما جرى في مرحلة الفتوحات الإسلامية في القرون الأولى ، أو ما جرى على أيدي العثمانيين الأتراك في البلقان والجنوب شرقي نقرة أوروبا في القرون الوسطى .

(٢) المقصود به أن تقوم يرد الجيش المغير على ثغور الأمة ودار الإسلام ، لذلك ففرصته عينية ، لأن الخوف من العدو في هذه الحالة قائم أن يعيث في الأرض الفساد وينتهك حرمة المسلمين .

(٣) انقضى ، موقف المماليك ودول الخليج العربي من النفوذ البرتغالي ، ص ١٤٨ ، أحمد شيبان ، الوجود المملوكي في اليمن ، ص ٦٦ ، ٦٧ ، باقويه ، تاريخ الشهر وأخبار القرن للعنصر ، ص ٨٧ ، باطرف ، الشهداء السبعة ، ص ٤٦ .

وقد سبقت الإشارة في الفصل الثاني إلى أن البرتغاليين بقيادة زعيمهم أفونسو دالبوكيرك Afonso Da Lbuquerque قد عزموا على وضع يدهم على مدينة عدن في مطلع سنة (٩١٩ هـ / ١٥١٣ م) ، وأرادوا مباغطة المدينة وأهلها ، فلم واليها الطاهري مرجان الظاهري^(١) بهم ، فتكاتف مع علماء المدينة وأهلها للدفاع عن المدينة ، وتعاهدوا على أن رد العدو عنها أو الاستشهاد نونها ، وكانت خطتهم تتمثل في إغلاق أبواب المدينة وعدم المبادرة بأي عمل دفاعي ما لم يبدأ البرتغاليون بالهجوم ، ولم يتردد البرتغاليون في نصب ملامم لتتحكم عدد كبير منهم بواسطتها الأسوار ، ونفذوا إلى داخل المدينة ، وكان السلطان الظاهر الثاني عامر بن عبد الوهاب وقتئذ في زبيد ، فأمر بالقنوت في الصلوات للحمس وخطبة الجمعة ، واجتمع طلبة العلم ومشائخهم في المساجد والمدارس للدعاء وقراءة صحيح البخاري دعماً للمجاهدين في عدن^(٢) ، غير ما أرسله السلطان من الإمدادات ، وكان الاستيصال الكبير الذي أبداه الجميع في الدفاع عن المدينة ، كفيلاً باستحقاق النصر على البرتغاليين ، وكافياً لردهم على أعقابهم مهزومين^(٣) ، وقد روى الفقيه المحدث المؤرخ الطيب بامخرمة

(١) الظاهري : نسبة إلى الدولة الطاهرية التي يقوم بحكم عدن باسمها ، والظاهري : نسبة إلى السلطان الظاهر الثاني عمر بن عبد الوهاب آمر حكام الدولة الطاهرية الذي سبق تناولنا له ، لأنه كان أحد مواليه.

(٢) يبدو أن السلطان كان يرى أنه لن يدرك المدينة أو أنه كان وفقاً من مدتها وحصانتها ، فلم نره يبادر للحصور بنصه أو إرسال حملة إمداد عاجلة ، وكما يظهر أن عقيدته كانت تعطي عليه أن الاجتماع لتلكوة القرآن (كانت تقرأ أربع ختمات يوماً إضافة إلى عشرين ختمة في كل جمعة ، ثم قراءة سورة الملك) والقنوت في جميع الصلوات ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والدعاء عقب ذلك ، يبدو أنه كان يهيم أن ذلك وحده - على الفرائص صحته وثبوته من ناحية الفقه والسنة النبوية - كافٍ لمواجهة مثل ذلك الأسطول .

(٣) ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ١٥٧ ، ٤٥٨ ، الفضل المعزى ، ص ٢٤٥ ، غسان الرمال ، صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ١٣٣ ، ١٣٥ ، بالقبه ، تاريخ الشهر وأخبار القرن العاشر ، ص ١٠٢ ، د. محمد عبدالمال أحمد ، البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه ، ص ١١١ - ١١٩ ، بامطرف ، للشهداء السبعة ، ص ٥١ ، ٥٣ .

(ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) وهو أحد شهود المعركة والمشاركين فيها لأن بعض الفقهاء من زملاءه شاهد قُتل البرتغاليين الذين وجدهم في طريقه فقط فوجدهم تسعة^(١) .

في سنة (٩٢٩هـ / ١٥٢٣م)^(٢) وصلت طلائع حملة برتغالية مكونة من سبع سفن تحمل حوالي أربع مائة مقاتل إلى شاطئ الشحر بمساحل حضرموت ، كان حاكم المدينة يدعى مطران بن منصور ، رجلاً باملاً شجاعاً ، وكان مفد حاكم المدينة بنبأه عن السلطان يشرك الفقهاء والعلماء وتجار المدينة في إدارتها ، فلما علم بوجود البرتغاليين أحاط معاونيه علماً بهم وقرروا الاستماتة في صدهم والجهاد في سبيل الله دفاعاً عن أرضهم ، وكان أكبر معاونيه ستة أشخاص ثلاثة منهم هم أكابر علماء المدينة وفقهائها ، وأسفرت المعركة عن استشهاد الأمير ومعاونيه الستة فتم دفنهم في موضع واحد ، عُرف بقبر الشهداء المبيعة ، واستشهد معهم عدد كبير من المدافعين عن المدينة - قيل أنهم بلغوا سبعمائة شهيد - في ملحمة من أكبر ملاحم التاريخ اليمني ، ومع ذلك فشل البرتغاليون في احتلال المدينة بسبب وصول جدة كبيرة للمدينة اضطرتهم للانسحاب .

وأشهر من استشهد يومئذ هو الفقيه الإمام أحمد بن عبدالله بن عبدالرحمن بالفضل (ت ٩٢٩هـ / ١٥٢٣م) الذي وصفه بعض المؤرخين بأنه " قاتل قتال الأبطال وفعل الأفاعيل في هجماته ... " ^(٣) ، وكان هذا العالم الكبير على فقهه وعلمه العزيز قوي الذهن شريف النفس ، محباً كثير الصدقة وفعل الخير ، محباً للصالحين والفقراء ... كثير المواصلات لهم ، مواظباً على الطاعة، ولم يزل كذلك حتى استشهد^(٤) .

(١) غلاة النصر ، ج ٣ ص ٨١٣ ، في هذا الخبر الأخير دلائل ، الأولى : اشترك الفقهاء في المعركة بفاعلية ، فالراوي والناقل للخبر كلاهما منهم ، والثانية : شدة ضرووة المعركة التي دارت بين الطرفين .

(٢) بالنبه ، تاريخ الشحر وأخبار القرن العشر ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، يسطرف ، الشهداء السبعة ، ص ٦٥ - ٧٩ .

(٣) يسطرف ، المرجع السابق ، ص ٧٦ ، نقلًا عن محمد بن هاشم ، تاريخ الدولة العنبرية .

(٤) الحيدروس ، النور السائر عن أخبار القرن العشر ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ ، الشُّلِّي ، المساء الباهر ، ص

❖ الأوضاع المالية والمعيشية للركائز البشرية للحياة العلمية :

يجب أن ندرك في بداية الحديث عن هذا الجانب من حياة العلماء وطلابهم ومن كان معيّنًا لهم في أداء رسالتهم العلمية والتعليمية أن ما ينطبق على الناس من الغنى والفقر والعسر واليسر في المعيشة ينطبق أيضاً عليهم ، وأن حياتهم جميعاً لم تكن على نمط واحد ولم تميز على أسلوب محدد ثابت ، كما أن الشواهد تدل بوضوح على أن العلماء لم يسعوا يوماً للكسب من علمهم وعرضه على من يدفع لهم أكثر ، وأنهم بذلوا لكل طالب له ، بل وبذل عدد كبير منهم زهرة أموالهم لطلابهم - كما سبق أن تناولناه - عن طيب خاطر محتسبينه عند الله تعالى .

ومن الملحوظ أيضاً أن الفقر كان له وجود قوي في حياة كثير من العلماء والفقهاء وطلابهم ، ويبدو أن مرد ذلك إلى زهدهم وتورعهم من الإغفال في التقرب إلى الحكام والسلاطين ، وكثرة انهمالهم في العلم تدريجاً وتحصيلاً وتأليف بما صرفهم عن أن يبذلوا الجهد اللازم لاحتراف المهن التي تضمن لهم العيش الكريم الميسور . ولا نغفل الإشارة إلى فئة من العلماء قد نذرت نفسها لتدريس العلم بشكل كامل حتى قاربوا ما يمكن أن نسميه - بلعة عصرنا - لتفريح العلمي ، وخاصة أولئك الذين انقطعوا للتعليم بطلب من مؤسسي المدارس العلمية الذين أوقفوا على العاملين بها ما يكفي لتغطية تكاليف عملهم ومعيشتهم .

وقد أسهم الحكام والأئمة والأمراء والقادة والميسورون من وجوه المجتمع بحظ وفقر في التأثير الإيجابي على الحالة المعيشية لفئة محدودة من كبار العلماء والمبرزين من الفقهاء بذهلهم العطايا والجوائز التشجيعية وإقطاعهم الأراضي الزراعية لهم ، وتكليفهم للقيام بنظارة الأوقاف وتصريف صدقاتهم .

ويظل العلماء الذين رأوا أن مكن قوتهم في أداء مهامهم ووظائفهم وعند إنكار المنكر على الحكام ومن دونهم في اعتمادهم على مصادر الدخل الخاص الذي لا يرتكن على جود الآخر وعطاياه ، يظل هؤلاء هم لفئة الأكثر عدداً والأبلغ أثراً في حياة المجتمع وفي فكر طلابهم ، بل ولعلمهم الأكثر احتراماً وتعظيماً ، وكان مصدر دخلهم متنوعاً ومختلفاً بحسب الإمكانيات المادية والمهارية ، فمن كان لديه أرض استصلحها وزرعها وتعهدها بنفسه أو بالإتابة عنه ، ومن كان له مالا عينيّاً تاجر به وبذل الجهد

في أن يضرب أروع مثال على صدق التاجر وأمانته ، ومن كان لديه مهارة حسن الخط وإجادة الضبط للكتب والرسائل امتحن نسخ الكتب وضبطها وعاش من ريعها .

فمن اعتمد على نسخ الكتب وبيعها مصدراً لقوته نذكر الفقيه الصالح شمس الدين يوسف بن عمر العطاب (ت ٨١٦هـ / ١٤١٣م) كان من علماء مدينة إربل ونحويها وشعرانها وزهداها الكبار ، اجتهد في العبادة وطلب الحلال لا يقتات إلا من أجره يده في تحصيل الكتب ونسخها ، استدعاه السلطان الناصر أحمد الرسولي لمقابلته فرفض الوقوف بابه ولا طمعت نفسه بقبض شيء من أسبابه^(١)

ومنهم الفقيه أبو بكر بن علي الحائري (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) ، قيل عنه أنه : " كان عبداً ورعاً متعففاً عن الناس ، غالب أوقاته بنسخ الكتب بأجرة^(٢) " ، ومنه الإمام العلامة صفي الدين أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن أحمد البريهي (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢٣م) الذي وصفه بعض تلاميذه فقال : " ما رأيت أهدأ قلباً مني في يقظة ولا منام ، ولا عاينت أكثر أتباعاً منه لشرائع الإسلام المتقاة من الشارع عليه أفضل الصلاة والسلام ... عاش - رحمه الله تعالى - على طريقة السلف الصالح من الاستغفار بالعلم والعمل به ... بذل نفسه للطلبة ، وانزوت عنه الدنيا^(٣) " كان حريصاً على تنزيه نفسه عن التكسب من أي مصدر غير جهده وعمل يده ، فقد وهبه الله قدرة على الكتابة بخط حسن ، فكان يقضي معظم وقته في نسخ المصاحف وكتب الحديث والفقه ، وجعل معظم قوته من أجرته على تحصيلها^(٤) .

ومنهم الفقيه المقرئ عثمان بن أحمد السلامي (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م) كان ذا عبادة وزهد وورع ، دأبه تعليم القرآن الكريم وتدرسه ، مع تفرغه عن الشبهات في المطعم والملبس ، فكان " دأبه النسخة ، ومعظم قوته منها^(٥) " .

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٠٨ .

(٢) الأمل ، تحفة الزمان في تاريخ ملوك اليمن ، ج ٢ ص ١٨٠ .

(٣) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٧ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١١٠ .

ومن العلماء الذين جمعوا بين أكثر من عمل كالزراعة والتجارة ونسخ الكتب للاعتماد عليها في معيشتهم مع كونهم مسؤولين على تصريف الزكاة والصدقات على مستحقيها يأتي المقرئ عفيف الدين عبدالله بن عمر بن منصور الصراري (ت ٨٠٤هـ / ١٤٠١م) الذي كانت تحمل إليه للزكاة والصدقة فيصرفها على وجوها وينال المستحقين من طلبته منها ، بل كان يعطي طلابه كل ما شرطه الواقفون له لقاء تدريسه، واعتمد على ريع أرض قليلة كانت له وما كان يحصل عليه من نسخة للكتب والمصاحف مع أنه كان يسكن بيتاً صغيراً هو ولولاده ، وقد عرص عليه السكنى في الدور الكبار فأبأها^(١) .

ومثله الفقيه عمر بن عيسى العمكري (توفي العقد الأول من القرن التاسع الهجري / العقد الأول من القرن الخامس عشر الميلادي) الذي كان يتورع أن يقبض لاعطاء من الملوك لو أن يأكل من طعامهم ومع ذلك كان لا يأكل مما شرطه له الواقفون وينفقه على طلبته^(٢) .

وكان للقاضي جمال الدين محمد بن مسعود باشكَيْل (ت ٨٧١هـ / ١٤٦٧م) شئ من حطام الدنيا يتسبب فيه بالتجارة والتيسر ويستعف به عن الحاجة إلى الناس مع كونه كان في بداية أمره معيداً بالمدرسة الظاهرية بعدن ، وكأنه أراد أن يستقل عن الارتكاز على ما يصرفه له الناظر على المدرسة مع أنها كانت تحت رعاية السلطان للظاهر الرسولي^(٣) .

لما للقاضي العلامة جمال الدين محمد بن أبي بكر البريهي (٨٣٦هـ / ١٤٣٣م) والفقيه موفق الدين علي بن عطية الأملوي (٨٣٦هـ / ١٤٣٣م) فقد كانا لا يلتفتان إلى أهل الرئاسة والوجاهة ، ولا يذاهنان حفاظاً على حقوق مفترضة لهما ، وكان غالب عيشهما من التجارة التي احترفها مع الصدق والأمانة وتجنب الخيانة ،

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٩١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٣٦ ، باجرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٢٤ ، بلحسان ، جواهر تماريح الأحكام ، ج ٢ ص ١٧٠ ، الحداد ، عقود الأيمان بمناقب العارف بالله الحبيب أحمد بن حسن العطاس ، ج ٢ ص ٦٥ ، السحاوي ، الضوء اللامع ، ج ١٠ ص ٥٠ ، شبل ، تاريخ حضرموت المعروف بتاريخ شبل ، ص ١٩٣ .

وصالهما الله تعالى من الظلمة وكفهم عنهما طول عمرهما ، وكفاهما الله بما رزقاه من البيع والشراء عن التعرض لأوقاف المدارس^(١) ، وكانا من الاستقامة إلى حد أن وصِفَ أحدهما في المصادر بأنه : * كان كثير الصدقة سرّاً وجهرّاً ، يدفع الزكاة إلى مستحقيها ، لا يتطفل عن ذلك ولا يؤخره ، فقيل له : التاجر الصدوق ، لجريه على القاعدة الشرعية ، واحترازه عما لا يجوز في البيع والشراء مما يتغفل عنه غيره من أهل المعاملات والربا والصرف ، مع حسن سيرة وأمانة وديانة وورع ظاهر ...^(٢) .

إن النملاذج والأمنطة التي أوردناها هنا لا تحملنا على الجزم بأنه لم يكن في العلماء والفقهاء من يعتمد على ما حنّده الواقفون لأراضيهم على المدارس العلمية والجوامع الكبيرة التي عُرفت بالنشاط التعليمي ، فقد أمدتنا وثائق الأوقاف التي تمكنا من الحصول عليها بمعلومات تفصيلية مهمة عن الأجور التي حُدّتْ لمن تم ترتيبه وتعيينه فيها ، ليس فقط من العلماء المدرسين بها بل والطلاب والقائمين على الجوانب الإدارية بها ، ولم تكن تلك الأجور على قدر واحد في جميع المدارس ، بل هي متنوعة ومختلفة من مدرسة إلى أخرى ، ويحدد ذلك مساحة الأرض الموقوفة وموقعها وخصوبتها ومعدل محصولها .

فقد كان مدرس الفقه - على سبيل المثال - في بعض المدارس التي أنشأها سلاطين بني رسول - كما تحكي الوثائق - يتقاضى مرتبين : شهري وسنوي ، منها ما هو عيني ومنها ما هو نقدي وقد يجمعاً معاً ، فهو في المدرسة الأشرفية يتقاضى في غرة كل شهر ثلاثة وثمانين رُشدياً^(٣) وثلاث زندي وخمسين ديناراً ، وله كسوة سنوية

(١) البريجي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠١ .

(٣) الزبّدي : مكيال عُرفي يمي ، يختلف من مدينة إلى أخرى كالزبّدي القمري - نسبة إلى مدينة قم - والزبّدي السنقرى بمدينة زبيد ، ويمكن تقريب مقاديره كالآتي :
الزبّدي القمري للحبوب :

كل مقداره في أوائل عصر الدولة الزموية ما يماوي = ٨ أرطال مصرية من الحبوب ، وهو مقدار يكفي الفرد الواحد لمدة شهر ، ثم تمت الزيادة فيه حتى أصبح = ١٤ رطلاً مصرية ، وبما أن الرطل المصري مند عهد الدولة الفاطمية وبعد = ١٤٠ درهماً (الدرهم = ٣,١٢٥ جم) فإن الرطل = ٣,١٢٥ × ١٤٠ = ٤٣٧,٥ جم ، وطيه فإن الزبّدي القمري = ٤٣٧,٥ × ١٤ = ٦١٢٥ جم = ٦,١٢٥ كجم تقريباً .

عجالة عن مقطع بياض^(١) بالإضافة إلى مائة دينار^(٢) ، في حين أنه كان يتقاضى مائتي زبدي في المدارس للظاهرية والمعتبية والأفضلية^(٣) ، وأما مدرس الحديث الذي تم تعيينه في المدرسة الأشرفية فيُصرف له مرتباً شهرياً قدره أربعون زبدياً وثلاثاً زبدي بالإضافة إلى عشرين ديناراً ، وله في السنة مقطع بياض وأربعون ديناراً^(٤) ، وكان نظيره في المدرسة الظاهرية يتحصل على مائتي زبدي شهرياً^(٥) ، وفي جامع ثعبات مائة وعشرين زبدياً^(٦) ، وفي المدرسة الأفضلية مائة زبدي فقط^(٧) .

II. الزبدي المنقري الزبيدي للحبوب :

كان في العهد الأيوبي يساوي ٢٤٠ درهماً ، ثم توالى الزيادات عليه حتى قرر مقداره السلطان الأشرف الثاني سنة (٧٨٧هـ / ١٣٨٥م) بـ (٥٠٠ درهماً) وهو ما يعادل ٥٠ لوقية ، حيث أن اللوقية تعادل ١٠ دراهم ثلثة ، وبما أن الدرهم يساوي ٣,١٢٥ جم فإن الزبدي الزبيدي = ٣,١٢٥ × ٥٠٠ = ١٥٦٢,٥ جم = ١,٥٦٢ كجم .

III. الزبدي الخاص بكل السوائل :

ذكر الخورجي أن مقداره ١٢ رطلاً ، والرطل = ٢٠ أوقية ، وبما أن الأوقية = ١٠ دراهم فإن للرطل = ١٠ × ٢٠ = ٢٠٠ درهماً ، = ١٢٥ جم ، وعليه فالزبدي لمكول السوائل = ٦٢٥ × ١٢ = ٧٥٠٠ جم = ٧,٥ كجم .

الجندي ، السلوك ، ج ٢ ص ١٠٥ ، الخورجي ، الطوبى للولوية ، ج ٢ ص ١٥٤ ، ٢٥١ ، الوقفية الخصانية ، وثيقة جامع ثعبات ، ص ٩١ ، فائز هنس ، المكاييل والأوزان الإسلامية ، ترجمة د. كامل العسلي ، منشورات الجامعة الأردنية ، ط ٢ ، (د ، ت) ، ص ١٢ ، ٣١ نقلاً عن عبدالله كاتد الهادي ، الحياة العظمية في زبيد ، ص ٣٩٠ ، الموسوعة اليمنية ، مؤسسة العفيف الثقافية ، صنعاء ، ط ٢ ، ٢٠٠٣م ، ص ٢٧٩٢ ، ٢٧٩٣ .

(١) يقصد به قطعة من القماش الأبيض المناسب لبس الرجال ، وهي لغة درجة مازالت شائعة إلى يوم الناس هذا .

(٢) الوقفية الخصانية ، وثيقة المدرسة الأشرفية ص ١٥ .

(٣) الوقفية الخصانية ، وثيقة المدرسة الظاهرية ، ص ٤١ ، وثيقة المدرسة المعتبية ص ٥٥ ، وثيقة المدرسة الأفضلية ص ١٠٤ .

(٤) الوقفية الخصانية ، وثيقة المدرسة الأشرفية ص ١٥ .

(٥) الوقفية الخصانية ، وثيقة المدرسة الظاهرية ، ص ٤١ .

(٦) الوقفية الخصانية ، وثيقة جامع ثعبات ص ٩١ .

(٧) الوقفية الخصانية ، وثيقة المدرسة الأفضلية ص ١٠٤ .

بالعودة إلى قائمة الوظائف التعليمية والإدارية والدينية في المدارس العلمية وديفاتها من الجوامع والمساجد التي سبق الحديث عنهم في مطلع هذا الفصل سنجد أن كل فرد منهم كان مكول المعيشة إلى حد كبير من قبل للمنشئين لهذه المنشآت التعليمية وإن ثباينت واختلفت مقادير ما كانوا يتقاضونه ، ولهم كانوا أكثر حظاً وأحسن عيشاً من غيرهم ، وكثرة عدد تلك المنشآت يجعلنا نخمن أن عدد المستفيدين منها من العلماء والفقهاء والطلاب كان كبيراً أيضاً .

ويجب التأكيد أخيراً على بعض ما أشرنا إليه في بداية حديثنا عن أحوال العلماء للمعيشة من أن للحكام نور إيجابي كبير على حياة العلماء والفقهاء ، وذلك ما تميز به السلاطين الرسوليون على غيرهم ، ويمكننا أن نحصر ذلك الدعم في أمرين مهمين ، لما أولهما فهو إعفاء أراضيهم من الخراج المفروض على أمثالها ، وقد مر معنا هذا الأمر عند الحديث عن احترام الحكام للعلماء من هذا الفصل ، ويمكننا أن نقرأ تلك الحاصية التي منحها الحكام للعلماء بأنها جاءت نتيجة رفض الكثير من العلماء أخذ العطاء المالي المباشر كما أن تفسيرها يحتمل ما سبق ذكره من أنها إحدى صور التعبير عن احترام العلماء وإجلالهم ، وما لم نذكره أن إعفاء الأرض المزروعة من الخراج كما كان ممنوحاً لكل عالم وفقه فقد كان - أيضاً - ممنوحاً لكل من يحفظ القرآن الكريم مهما كانت أرضه كثيرة الخراج^(١) ، ولا يجري ذلك على ما كان مملوكاً لهم قبل الإعفاء فقط بل يشمل كلما اكتسب من بعده ، وتظل هذه المسامحة متوارثة بين أفراد أسرة الفقيه والعالم طوال مدة حياتهم^(٢) ، وترصد هذه المسامحة وتسجل في الديوان العلم^(٣) .

(١) البربري ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٧٤ ، الحبيشي ، تاريخ وصاب ، ص ١٢٩ ، ١٨١ ، علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في تعز ، ص ٥٤١ .

(٢) الحبيشي ، المصدر السابق ، ص ١٨١ ، عسيري ، أبو الحسن الخزرجي وأثره التاريخية ، ص ٤٤ .

(٣) الحسيني ، ملخص الفطن والأكياب ومصباح الهدى للكتاب ، نسخة مصورة بمكتبة الفاضلي إسماعيل الأكوح ، صنعاء عن نسخة مخطوطة في الأمبرورولنا ببيطاليا ، رقم H ١٣٠ ق ٩ - أ ، المسدعي ، الزراعة في اليمن في عصر الدولة الرسولية ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة اليرموك ، إربد ، الأردن ، ١٩٩٢م ، ص ٢٠٢ .

ولما الأمر الثاني الذي أثر من خلاله الحكام - بصورة إيجابية - على حياة العلماء والفقهاء فهو إغراق العطاء لهم ومنحهم الجوائز التشجيعية على كل إنجاز يحققونه ، وقد استعرضنا بعضاً من ذلك فيما مضى من هذا الفصل ، ومما لم نذكره هناك من النماذج أن السلطان الأشرف الثاني إسماعيل الرسولي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) قد أجاز الإمام العلامة جمال الدين محمد بن عبدالله الريمي بألف دينار عندما قدم له كتابه (التفتيحه في شرح التنبيه) في فقه الشافعية^(١) ، وأنه جمع من المال في عهد السلطان الأشرف الثاني وأبيه السلطان المجاهد من قبله - ما لم يجمعه أحد من الفقهاء غيره^(٢) .

وهذا الإمام إسماعيل المرقئي (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٢م) نال من السلاطين الرسوليين الكثير من العطاء في مناسبت مختلفة ، ذكرنا بعضها من قبل ، ومنها أن السلطان الظاهر يحيى (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) قد أغدق عليه من الصلوات والهبات ما حسده عليها كثير من أقرانه ، إذ وهب له أكثر من أربعين ألف دينار على قصيدة واحدة - ذات أربعين بيتاً - نظمها في منحه ، أعطاه ألف دينار عن لكل بيت فيها ، وغيرها من الهبات الأخرى^(٣) .

ونختم بالقول : إن هناك من العلماء من لم يكن له مصدر دخل ثابت أبداً ، وأنه كان عالة على ما يُصرف لقاء تولي أمور شتى من الأوقاف ونظارتها ، ويتضح ذلك من مما رواه بامخرمة^(٤) من أن العقيبه عبدالله بن محمد الهبي (ت ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م) الذي كان كثيراً ما يتولى شؤون قسم الصدقات للسلطان المجاهد علي بن طاهر (ت ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م) يزببد ، قد نفقذ أوقافاً يزببد بأمر السلطان فوجد غالبها مع من لا يستحقه ، فقام بضبط أوضاع الوقف ، وواسى به بين جموع عشائر الفقهاء الكبار الذين انقطعوا عن الأسباب وتفرغوا للتدريس والتوجيه والتنقيف لعامة الأمة ، ورتب لكل واحد منهم ما يناسب حاله فحصل به النفع العلم .

(١) الخرجي ، المسجد المسبوك ، ص ٤٤٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٦٣ ، العقود النزلوية ، ج ٢ ص ١٨٣ .

(٣) ديوان المرقئي ، ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، الزببدي ، طبقات صلاح الدين ، ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في تغر ، ص ٥٤٦ .

(٤) قلادة النهر ، ج ٣ ص ٧٤٨ ، ابن الدبيع ، بنية المستفيد ، ص ١٧٣ .

الفصل السادس

اهتمام علماء اليمن بالعلوم الشرعية

ومصنفاتهم فيها

من بداية القرن التاسع الهجري حتى السيطرة العثمانية عليها

تمهيد :

إن موضوع هذا الفصل - والذي يليه - يعد أهم جانب في هذه الدراسة عموماً، فهو يتناول بشكل مباشر إسهام علماء اليمن في دراسة العلوم وتطويرها ، وهو الذي يعرض للإنتاج العلمي والتأليفي لهم ، فهو إذن يتحدث عن أثر اليمنيين في الفكر العربي والإسلامي وبالتالي في الفكر الإنساني عموماً ، وكان هذا الفصل مرصداً يرقب اهتمام أولئك العلماء بالعلوم السائدة في العالم الإسلامي عصرئذٍ ، دراسة وتصنيفاً وتدریساً ، ثم إنه عبارة عن بيلوجرافيا شاملة لجميع مؤلفات علماء اليمن وحكامها - من السلاطين والأئمة - من بداية القرن التاسع الهجري حتى دخول العثمانيين في أواسط القرن العاشر الهجري .

ثمة خصائص لطبيعة اهتمام العلماء اليمنيين بالعلوم وبطبيعة مصنفاتهم فيها ، يجب تناولها للفت الانتباه إليها ، فكما أنهم قد صنفوا كتباً تحتوي على أفكار ذاتية غير مستقاة من كتب أخرى كانوا قد اطلعوا عليها إلا أنهم - هي للغالب - انشغلوا بما انشغل به غيرهم من علماء العالم الإسلامي ، وذلك بالشرح والاختصار لكتب الأوائل السابقين من مجتهدی الفكر الإسلامي ، أو كتابتها ثانية بطريقة تختلف عن طريقة مصنفیها الأوائل ، كأن يقوموا بتحويلها إلى منظومات شعرية تسهل على طلبة العلم حفظها واستيعابها ؛ لأن الشعر يسهل حفظه قياساً مع النثر وغيره ، أو القيام بإعادة ترتيبها بما يسهل على القارئ هضمها .

ونحن في هذا الفصل سنأتي إلى الحديث عن اهتمام العلماء اليمنيين بالعلوم الشرعية وما ارتبط بها من العلوم اللغوية والأدبية ، وهي علوم يقوم بينها وبين العلوم الشرعية من الصلات القوية ما يجعل الصعوبة قائمة تحول دون الفصل بينها ، فالعالم لا يمكنه اقتحام العلوم الشرعية ما لم يتقن اللغة وأدبها ؛ لأن الشرعية جعلت اللغة العربية وعاءً لنصوصها وقناة لنقل علومها وتكوين نفسها وتصيلات دقائقها .

(١) علوم القرآن الكريم :

حما لا شك فيه أن القرآن الكريم قد كان له مكان له الصدارة في اهتمام المسلمين عموماً ، أفراداً وجماعات ، على مدار التاريخ الإسلامي ، وذلك لأن الاهتمام به ودراسته هو أحد أفضل الأعمال التعبدية قبل أن تكون واحدة من مجالات العلوم السائدة ، فقد أدرك المسلمون جميعاً أنهم مأمورون بالعناية به تلاوة وتعلماً وتعليماً ، فهو نستور الأمة وعروتها الوثقى التي تجتمع حوله كل طوائفها ، فمهما اختلف المسلمون حول كثير من القضايا فلم - ولن - يختلفوا حوله ولا حول علم قراءاته ، فالقرآن الكريم هو منار الأمة ونورها وهداها كما جاء في قوله تعالى : **قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** (١) وجاء اهتمام المسلمين بالعناية به وتنبيره من منطلق الاستجابة لأوامر الله سبحانه وتعالى التي جاءت في كثير من الآيات القرآنية الكريمة ، كقوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّن تَبُورَ** (٢) وقوله تعالى : **وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** (٣) **وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ** (٤) وقوله سبحانه : **أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ أُرِ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** (٥) وجاءت نصوص الأحاديث النبوية الشريفة تحت اهتمام المسلمين على قراءة القرآن الكريم وتعليمه للناشئة وإقراءهم ، كقوله ﷺ : " يقال لصاحب

(١) سورة المائدة .

(٢) سورة فاطر .

(٣) سورة النمل .

(٤) سورة محمد

القرآن : اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها^(١) ، وقوله أيضاً : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه "^(٢) .

ومما يأتي مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ

حَافِظُونَ ﴿٣﴾ أنه قد قبض لخدمة القرآن الكريم في كل قرن من القرون في الشرق والغرب رجالاً مخلصين اعتنوا بحفظه ، ومعرفة أوجهه وقراءته ، وضبط نظمته ، وكيفية أدائه ، ومعرفة وقوفه ، وشرح معانيه ، وبيان أحكام ترتيله ، وتوضيح قراءته وروايته وطرقه^(٤) ، ابتدأت سلسلة هؤلاء الرجال من عهد الصحابة عليهم رضوان الله تعالى جميعاً وكثير من رجال التابعين ومن يلهم في القرون التالية ، وقد اتخذت عنايتهم بالقرآن الكريم أشكالاً عدة ، ابتداءً من تلقيه وحفظه والعمل به ، إلى استحداث عدد من العلوم المتمحورة حول كتاب الله عز وجل ، منها ما هو متصل به اتصالاً كلياً مثل علوم القراءات والتفسير والناسخ والمنسوخ وغريب القرآن وإعجازه وأسباب النزول وما شابه ذلك من العلوم التي اصطلاح العلماء على تسميتها بعلوم القرآن الكريم، ومنها ما ارتبط به بصورة غير مباشرة ، مع كونه الأساس المتيين لما سبق من العلوم الأولى، ومما ارتبط بالقرآن الكريم من العلوم بصورة غير مباشرة علوم اللغة والنحو وأصول العقيدة والفقه والمواريث والوصايا والتاريخ والبلاغة من بيان ومعاني وينبع

(١) الترمذي ، معن الترمذي ، ج ٥ ص ١٧٧ ، رقم (٢٩١٤) ، باب (أنه الذي ليس في حوفه من القرآن كالبيت الحرب) ، أبو داود ، معن أبي داود ، ج ٢ ص ٧٣ ، رقم (١٤٦٤) ، باب (استحباب الترتيل في القرآن) .

(٢) البخاري ، صحيح البخاري ، ج ٤ ص ١٩١٩ ، رقم (٤٧٣٩) ، باب (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) ، ابن ماجه ، معن ابن ماجه ، ج ١ ص ٧٧ ، رقم (٢١١) ، باب (فضل من تعلم القرآن وعلمه) ، الترمذي ، معن الترمذي ، ص ٦٥٣ ، رقم (٢٩٠٧) ، باب (ما جاء في تعليم القرآن) .

(٣) سورة الحجر .

(٤) ابن الجزري ، التمهيد في علم التجويد ، تحقيق غانم قدوري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٦م ، ص ٥١ - ٣٢٧ ، علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في نغز ، ص ٣٢٩ .

وغيرها^(١) ، وإن تناول هنا من علوم القرآن الكريم إلا ما كان لعلماء اليمن إسهام في العناية بها والتصنيف فيها ، وفي مقعنتها :

❏ علم القراءات :

علم القراءات هو أحد أكثر العلوم ارتباطاً بالقرآن الكريم وخدمة له ، فهو العلم الذي يتناول قراءته بحسب رواية الصحابة رضوان عليهم له عن رسول الله ﷺ بطرق مختلفة في بعض ألفاظه ، وكيفية الحروف في أدائها^(٢) ، وللظروف التي نشأ في ظلها علم القراءات قصة تبدأ جذورها في عهد النبي عليه الصلاة والسلام وتلقيه للقرآن الكريم وحياً من ربه بواسطة جبريل الأمين عليه السلام ، فقد جاء في الأثر أن ابن عباس رضي الله عنهما نقل عن النبي ﷺ قوله : " أقرأني جبريل على حرف فراجعته ، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف " ^(٣) ، وقال ﷺ أيضاً في موضع آخر : " إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأقرأوا ما تيسر منها " ^(٤) ، ولما انتشر الصحابة - عليهم رضوان الله تعالى - في الأمصار مع حركة الفتوحات الإسلامية اتخذهم الناس مصدراً للعلم الشرعي عموماً وعلوم القرآن الكريم وأحكامه ووجوه تلاوته خصوصاً ، إذ قرأوه عليهم ولقنوه إياهم كما تلقوه عن النبي ﷺ ؛ فتعددت أوجه القراءة ، وبدأ الخلاف بين المتلقين في الأمصار المختلفة ، ولما كانت أعداد القراء من الصحابة قد بدلت في النقصان - موتاً واستشهاده - رُفِع الأمر إلى الخليفة عثمان بن عفان ؓ فأمر بكتابة القرآن الكريم من المصحف الذي جُمع في زمن خليفة رسول الله أبي بكر الصديق ؓ ، وساعده في ذلك زهاء اثني عشر ألفاً من الصحابة والتابعين ، وجعل منه نسخاً بعدد الأمصار الكبرى ، وأمر باجتماع المسلمين

(١) السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط ١ ، ١٩٨٧م ، ج ٢ ص ٣٥٠ - ٣٥٧ ، عبدالله فاقد لعبادي ، الحياة العلمية في زيب ، ص ٢٣٤ .

(٢) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، ج ٣ ص ٩٣٢ .

(٣) البخاري ، صحيح البخاري ، ج ٣ ص ١١٧٧ ، رقم (٣٠٤٧) ، باب (بدء الخلق) ، مسلم ، صحيح مسلم ، ج ١ ص ٥٦١ ، رقم (٨١٩) ، باب (إن القرآن أنزل على سبعة أحرف) .

(٤) البخاري ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٥٤١ ، رقم (٦٥٣٧) ، باب (ما جاء في المتأولين) ، وفي ج ٤ ص ١٩٢٣ ، رقم (٤٧٥٤) ، مسلم ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٦٠ ، رقم (٨١٨) ، باب (بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف) .

عليها ونبذ ما عداها ، وبحث مع كل مصحف قارئاً توافق قراءته أهل المصر في الأكثر الغالب^(١) .

وقد أولى التابعون وتابعوهم في كل الأمصار القرآن الكريم عناية كبيرة ، وبرزت فيهم طائفة حصرت كل اهتمامها في دراسته وضبطه وتعليمه وإقرائه حتى غدا أئمة يرحل إليهم ، وكثرت أعدادهم ، فلع من بينهم - أيضاً - اسم عدد محدد ، صارت تقسب إليهم قراءات ترتبط بأسمائهم ، فكانت قراءة عاصم وقراءة نافع وغيرهما ، وقد قيل أن من اشتهر منهم فاقوا الخمسة والعشرين قارئاً ، ولما كانت لواخر القرن الثالث الهجري قام أحد أبرز علماء القراءات - وهو أبو بكر بن موسى الشهير بابن مجاهد (ت ٣٢٤هـ / ٩٣٥م)^(٢) - باختيار سبعة منهم ، رأى - وهو الإمام في القراءات - أنهم متميزون " بصحة النقل وإتقان الحفظ والأمانة على تادية الرواية واللفظ "^(٣) ، وأن قراءاتهم قد استوفت شروط القبول ، وتمتعت بالسند الصحيح المتواتر ، وكان لها وجه شائع في اللغة العربية ، ووافقت قراءتها ما كان مخطوطاً في المصاحف العثمانية^(٤) ، وزاد بعضهم ثلاثاً أخرى فأصبحت عشر قراءات انعقد

(١) علي بن علي لحد ، الحياة العلمية في تعز ، ص ٢٢٠ ، القمبي ، الإبانة عن معاني القراءات ، تحقيق عبدالفتاح إسماعيل شليبي ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، ط ١٩٨٥م ، ص ٢٤ ، ٧٢ - ٧٤ ، الناشري ، الشرح على متن النور في القراءات الثلاث المتممة للقراءات العشر ، تحقيق عبدالرزاق علي إبراهيم ، المكتبة المصرية ، بيروت ، ١٩٨٩م ، ص ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) شيخ صناعة القراءة ، سمع الحديث وقرأ القرآن الكريم على شيوخ عصره ، ثم تصدر لقراء فأخذ عنه جمع من الطلاب في القراءات حتى قال ابن الجزري : " ولا أعلم أحداً من شيوخ القراءات أكثر تلاميذاً منه ، ولما اختلاره للقراء السبعة للكبار المشهورين فقد صممه في كتابه (القراءات السبعة) ، نظر ابن الجزري ، غاية النهاية في طبقات القراء ، ج ١ ص ١٣٩ - ١٤٢ ، النجدي ، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأصناف ، تحقيق بشار معروف وآخرون ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٨م ، ج ١ ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ .

(٣) ابن خالوية ، الحجة في القراءات السبع ، تحقيق د. حسن عبدالعال سالم ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٧١م ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، قطار ، مباحث في علوم القرآن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٩ ، ص ١٣٧ ، ١٧٤ .

(٤) ابن الجزري ، النشر في القراءات العشر ، صححه علي محمد الصباغ ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، (د ، ت) ج ١ ص ٩ ، د. سيد رزق الطويل ، في علوم القراءات ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٩٨٥م ، ص ٣٢ ، ٥٤ ، عبدالله قائد المبادي ، الحياة العلمية في زيد ، ص ٢٣٦ .

الإجماع عليها بين سائر علماء الأمصار ، وعُتتْ القراءات دونها ثلاثة لا تصح القراءة بها^(١) .

وكان اليمنيين كثيرهم من الأمصار الكبرى قد استقبلوا نسختهم من المصحف الشريف على عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وأولوا القرآن الكريم عنايتهم واهتمامهم ، ولم يختلف حول تعلمه ودراسته أبناء المذاهب المختلفة ، ولعله العلم الشرعي الوحيد الذي لم يكن بين أبناء اليمن خلاف حول أحكام تلاوته ومبادئ تجويده وإن وجد فهو تعدد لأوجه القراءة وإثراء لأحكامها نتج عن التعمق في دراسته ، فقد تعددت أوجه تلاوته لديهم تبعاً لما كان ينور في الأوساط العلمية في الأقطار الإسلامية الأخرى ، وذلك بحكم الصلات الوثيقة بين العلماء اليمنيين وطلابهم مع قرانهم في تلك الأقطار وما بني عليها من التأثير والتأثر .

وكان اهتمام اليمنيين بدراسة القراءات يتطور من قرن إلى آخر ، وانتشرت بينهم في القرون السبعة الهجرية الأولى قراءات معينة أكثر من غيرها ، وكان في مقدمتها قراءة أبي عمرو بن العلاء ، التي جاءت للرويات التاريخية مشيرة إلى أن اليمنيين اُكتوا على المربين ومعلمي الصبيان أن يعلموها لأبنائهم من الصغر^(٢) ، وكانت قراءة باقر برواية تلميذه قالون منتشرة في أوساط علماء القرآن الكريم في صنعاء وما حولها^(٣) .

كان اهتمام علماء اليمن في مدة للدراسة بالقرآن الكريم وقراءاته كبيراً ، وقد استعرضنا في الفصول الثالث والرابع والخامس كثيراً من أمثلة أماكن التعليم ومناهج تعلم القرآن الكريم والقراءات ومعلميه بين أعضاء الهيئة التعليمية في أماكن التعليم ، بل لقد جاء ذكر مدرّس مخصصة للقراء في زبيد وغيرها^(٤) بما يعكس مدى الاهتمام

(١) الزرقاني ، مآهل العرفان في علوم القرآن ، تصحيح الشيخ أمين سليمان الكردي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٥م ، ج ٢ ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، القطان ، مباحث في علوم القرآن ، ص ١٧٩ ، ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٢) الجندي ، السلوك ، ج ٢ ص ٥٠٦ ، ٥٠٧ .

(٣) اللخمي ، طبقات مسلم اللخمي ، ج ٤ ص ٢١٩ ، وهي المأبى هناك حتى اليوم .

(٤) الأمدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٣٢٣ ، الرحيب ، مآثر الأبرار ، ج ٣ ص ١٢١ .

الذي أولاه اليمينيون لهذا العلم الشريف في مدة الدراسة من بداية القرن التاسع حتى
أواسط القرن العاشر الهجريين^(١) .

وإذا ألقينا نظرة على كل وثائق أوقاف المدارس العلمية في العهد الرسولي
المبكر والأخير فإن واحداً من العناصر التي لم تهملها أي وثيقة واحدة منها هو وجود
مدرس بضطلع بتدريس القرآن الكريم وعلم القراءات وتعيين طلبة يقرأون عليه هذا
العلم ، غير معلم الأيتام الذي كان تعليم القرآن الكريم لهم من أهم المهام الموكلة إليه ،
وهو ما عكس تقدم علوم القرآن الكريم عموماً والقراءات خصوصاً في تلك المدة ،
ومدى الازدهار الذي شمل هذا العلم المهم كنتيجة حتمية لعناية الحكام والواقعين
والعلماء والطلاب به فكان حفظ القرآن شائعاً بين أوساط اليمينيين حتى وردت بعض
الإشارات التاريخية التي تحكي عن وجود ثلاثمائة وستين حافظاً في أسرة واحدة فقط ،
كفوا يجتمعون في مسجدهم في أوقات الصلاة فيختمون بعد صلاة الصبح وبعد
صلاة العصر^(٢) .

وقد كثر علماء القراءات في اليمن في مدة الدراسة حتى بلغوا عدداً يستحق
إبرادهم بالدراسة وحدهم ، وسأنتي إلى ذكر عدد منهم ، فنذكر في أوائل القرن التاسع
الهجري الفقيه عياد الله بن محمد بن علي الصرلري (ت ٨٠٤هـ / ١٤٠١م) الذي
طلب العلم واجتهد في التحصيل واستجاز عدد كبير من علماء عصره ، وبرز كواحد
من أشهر المدرسين للعلم الشريف ، فدرس في عدد من المدارس الرسولية كالأفصلية
وغيرها ، وإليه انتهت الرئاسة في علم القراءات ، فأخذ عنه كثير من الطلبة هذا العلم
فأجازهم فيه وفي غيره^(٣) .

وممن ألت إليه رئاسة علم القراءات في مدينة زبيد عند مطلع القرن التاسع
أيضاً المقرئ أبو بكر بن علي بن نافع الحضرمي (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) الذي

(١) استقصى الباحث عياد الله عثمان علي المنصوري جهود اليمينيين خلال الثمانية الأولى للهجرة في العناية
بالقراءات ودراساتها وتدريسها وأشهر رجال القراءات اليمانيين ومركز هذا العلم ، انظر عياد الله عثمان
علي المنصوري ، علم القراءات في اليمن من صدر الإسلام إلى القرن الثامن الهجري ، رسالة دكتوراه ،
كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ، ٢٠٠٢ / ٢٠٠٣ ، ص ٦٠ - ٢٤٥ .

(٢) الشرجي ، طبقات الخواص ، ص ٥٢ .

(٣) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٩٠ ، ١٩١ ، الأكوخ ، المدارس الإسلامية ، ص ١٩٢ .

وصفه ابن الجزري بأنه : " شيخ القراء بمدينة زبيد " (١) ، أخذ عن الإمام المقرئ علي بن شداد (٢) ، وجلس للإقراء ، فسمع عليه جمع من معاصريه من زبيد وغيرها (٣) .

واشتهر من العلماء بالاهتمام الكبير بعلم القراءات الفقيه الحنفي أبي بكر بن البرهان الضجاعي (ت في مطلع القرن التاسع الهجري) ، فقد كانت له مشاركة كبيرة في علم القراءات والتصنيف فيها ، حيث جاءت الرواية التاريخية تحكي عنه أنه وضع كتاباً في هذا العلم بلغ ثلاثين جزءاً وأسماء (مقدمة في القراءات السبع) (٤) ، وزعم البعض أنه كتبه بالذهب والفضة وأوقفها على مسجد الأماعر بزبيد (٥) .

وممن برز في علم القراءات والتجويد للفقيه المقرئ رضي الدين أبو بكر علي بن المقرئ (٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م) ، ذكر بعض المؤرخين أنه رحل في طلب علم القراءات إلى بعض نواحي تعر ، واجتهد فيها حتى برز في القراءات السبع وتجويد القرآن الكريم ، ودرّس فيهما (٦) ، ومثله كان المقرئ صفي الدين أحمد بن أبي بكر بن متبع العودي (ت حوالي ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م) مجيداً للقراءات السبع ، انتفع به محبي هذا العلم من الطلبة ، فتخرج على يديه عدد منهم (٧) .

(١) ابن الجزري ، غاية النهاية في طبقات القراء ، ج ١ ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٢) الإمام المقرئ أبو الحسن موفق الدين علي بن أبي بكر بن محمد بن علي بن شداد الحميري (ت ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م) ، فقيه مقرئ نحوي لغوي محدث محقق مدقق في هذه العلوم كلها ، وإليه إنتهت الرئاسة في هذه العلوم في اليمن ، خصوصاً علم القراءات ، وكان تقفه وأخذه عن جمع من كبار العلماء ، كان مبارك للتدريس ، ما قرأ عليه أحدٌ إلا انتفع به ، وإليه إنتهت الرحلة في علمي الحديث والقراءات ، وقصده الطلبة من أطراف النواحي ، انظر ، الخزرجي ، طراز اعلام الزمن ، ج ٣ ص ٧٦ ، الشرجي ، طبقات الخواص ، ٢٣١ ، بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٦٢٣ ، ٦٢٤ .

(٣) ابن الجزري ، غاية النهاية في طبقات القراء ، ج ١ ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٤) المنخاري ، الضوء للامع ، ج ١١ ص ٢٨ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٤ .

(٥) الحبشي ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٦) البريوي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٦٠ .

(٧) المصدر السابق ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

ومنهم أيضاً العلامة المقرئ وجيه الدين عبدالرحمن بن هبة الله بن عبدالرحمن الملحاني (ت يعد ٨١٥هـ / ١٤١٢م) الذي برز في القراءات السبع بدرسته لها على عدد من مقرئي بلده، وأخذ أيضاً في النحو واللغة وغيرهما، وعُين إماماً في المدرسة الأثرافية الجديدة بمدينة تعز، فلم يكتفِ بالإمامة فيها فقط، بل درّس بها وانتفع بعلمه - واثقراءات على وجه الخصوص - عدد كبير من الطلبة^(١).

ومنهم أيضاً المقرئ شرف الدين أبو القاسم بن محمد السهامي (٨١٧هـ / ١٤١٤م)، وهو أحد تلاميذ المقرئ علي بن شداد، وأخذ عن غيره أيضاً، أجاد القراءات السبع حتى أصبح المشار إليه فيها بمدينة زبيد، جلس للتدريس بها فأفاد كثير من الطلاب الزبيديين والوافدين إليه من غيرها^(٢).

وكان في القراء لليمنيين أيضاً المقرئ نقي الدين عمر بن أبي بكر الكلبي (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م)، قيل في وصفه بأنه كان مقرئاً ناسكاً، برع في القراءات السبع، وأجاد التلاوة مع حسن صوته وقدرته على التدريس فيها، وبذل نفسه للطبفة فأقرأهم القراءات السبع مع اشتغاله بأعمال الزراعة ومباشرتها بيده وقيامه بحق إمامة الجامع الكبير بمدينة إب حتى وفاته^(٣).

ومنهم أيضاً المقرئ الإمام جمال الدين محمد بن يعقوب بن محمد الهمداني الأسخني المشهور بالشارقي صاحب صغفان ببلاذ حراز (ت ٨٢٠هـ / ١٤١٧م) الذي أجاد القراءات والنحو حتى قصده الطلاب من الأقالق البعيدة والقريبة، وكثر تلاميذه، وكان فيهم من وفد إليه من خارج اليمن كالمقرئ أحمد بن سعد بن مسلم الأريحي الدمشقي القادم من بلاد الشام، والمقرئ علي النخلي، واشتهر تلاميذه ونودوا بالمقرئين إذ اشتهر منهم: المقرئ أحمد الشويطي، والمقرئ علي الأبيّني، والمقرئ عبدالرحمن الملحاني السابق نفسه، والمقرئ سعيد الصورقي^(٤).

وقام الإمام العلامة صفي الدين أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن أحمد البرزنجي (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م) بجمع مسائل في القراءات وعلق عليها تعليقات

(١) البرزنجي، طبقات صلحاء اليمن، ص ٢٠٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٩٨، النرجي، طبقات الخواص، ص ٥٢.

(٣) البرزنجي، المصدر السابق، ص ١٠٥، ١٠٦.

(٤) المصدر السابق، ص ٤٢، ٤٣.

ناقعة جمعها من كتب كثير لينتفع بها الطلبة^(١)، غير أن الكتاب لم يصلنا ، ولا حتى اسمه وعنوانه .

ومن أعلام المقرئين باليمن في فترة الدراسة أيضاً الإمام العلامة المقرئ صفى الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أحمد بن محمد البريهي (ت ٨٣٣هـ / ١٤٣٠م) الذي تلقى القراءات السبع عن مجموعة من مقرئي عصره أمثال المقرئ عبدالرحمن الملحاني والمقرئ عثمان النجراني وغيرهما ، كما تلقى الحديث عن الشريف تقي الدين الفاسي المالكي المؤرخ وعن حافظ اليمن ومحدثها الإمام نفيس الدين سليمان العلوي حتى صار إماماً فيهما - أي في القراءات والحديث^(٢) .

غير أن الفترة العظمى في تطور علم للقراءات في اليمن كان في نهاية العقد الثالث من القرن التاسع الهجري عندما نزل على اليمن واحد من أشهر علماء القراءات على الإطلاق على مستوى العالم الإسلامي ، ألا وهو الإمام المقرئ شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن يوسف الجزري (ت ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م) ، الذي كان رجلاً في طلب العلم ، لم يترك بلداً من ديار الإسلام وغيرها يوماً إلا ودخله ، عدداً بعض المؤرخين فكانت قريب عشرين بلداً^(٣) ، وكان دخوله اليمن في إطار هذه الرحلات العلمية ، وكان وصول الإمام ابن الجزري إلى زبيد سنة (٨٢٨هـ / ١٤٢٤م) أيام سلطنة المنصور الثاني عبدالله الرسولي (ت ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م) الذي أحسن إليه أيما إحسان ، وعقدت له مجالس العلم في أكبر مساجدها ، وحضر بين يديه كبار علمائها ، وكان طلبة للعلم الذين حضروا حلقاته يوصفون بأنهم " خلائق كثيرة"^(٤) ، سمعوا عنه أغلب مؤلفاته في علم القراءات مثل (تحبير التيسير) ومنظومة (طيبة النشر في القراءات العشر) و (تقريب النشر في القراءات العشر) و (النشر في القراءات العشر) ، فنشروا - هم وتلامذتهم - هذا العلم في جميع أرجاء اليمن بعد ذلك ، وألفوا فيه الكثير من الكتب كما سيأتي .

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٩٩

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٤٦ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

فمن أخذ علم القراءات عن الإمام ابن الجزري فنكر المقرئ أحمد بن محمد الأشعري (ت ٨٤١هـ / ١٤٣٧م) الذي لازمه وسمع منه أغلب مؤلفاته ، نكر المعاصرون له من المؤرخين أنه : " حقق للقراءات السبع ، وأخذ تمام العشر على ابن الجزري وغيره ، وهو الآن المرجوع إليه في القراءات ورسم المصاحف " (١) ، وقد جلس لإقراء القراءات في زبيد ، واشتهر طلابه وبرز عدد منهم ، يأتي في مقدمتهم للفقهاء المقرئ المشهور عثمان بن عمر الناشري الأتي نكره ، واستجازه في علمه العلماء من خارج اليمن (٢) .

ومن تلاميذ الإمام ابن الجزري أيضاً القاضي المقرئ جمال الدين عبدالله بن محمد بن علي الناشري (ت ٨٤١هـ / ١٤٣٧م) (٣) ، حفظ القرآن الكريم وحفظ منظومة الشاطبية في القراءات ، وأخذ القراءات السبع على المقرئ الكبير علي بن محمد الشرعبي (ت ٨٧١هـ / ١٤٦٦م) وأحمد بن محمد الأشعري ، وأتم الثلاث تمام العشر على الإمام ابن الجزري لما نزل زبيد ، ولما رحل إلى مكة أخذ القراءات هناك مرة أخرى عن طريق أشهر علمائها والنزلين بها ، ودرس في هذا العلم وفي الفقه أيضاً ، حيث رتب مدرساً له في المدرسة المؤنسية بتعز وبعض مدارس زبيد (٤) .

ومن أشهر تلاميذ الإمام ابن الجزري وأشهر علماء القراءات في اليمن في القرن التاسع الإمام المقرئ عفيف الدين عثمان بن عمر الناشري (ت ٨٤٨هـ /

(١) ابن كسير ، الجوهر المفيد ، ق ٢٠٠ - ب .

(٢) ابن فهد ، معجم المشيوخ ، تحقيق محمد الزاهي ، دار اليمامة ، الرياض ، ١٩٨٢م ، ص ٨٤ .

(٣) خرج من قرية الناشرية عدد من أبرز رجال الفكر الإسلامي في اليمن ، أطلق بعض المؤرخين على عدد منهم لقب (شيخ الإسلام) ، وقولي مصعب (فاضل قضاء اليمن) منهم خمسة رجال ، وهم من معاصر لليمن على مدار قرون ، وتورد هنا ما ذكر المؤرخ البريهي في ترجمة الإمام المقرئ عفيف الدين الناشري الأتي نكره عنه وعن أهل بيته ، إذ يقول : " صاحباً للفقهاء المقرئ عفيف الدين عثمان بن عمر الناشري ، واسطة بيت ميمور بالأمم الأجلة ، التي تطلع سماؤه أجلة بعد أجلة ، سكت لهم العبادة والإفادة ، مشهود لهم بالحلم والزهّد والعبادة :

قَوْمٌ لَهُمْ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ شَرْبٌ وَجَلَّتْهُمْ وَكَمَلَتْهُمْ مَشْهُورٌ
وَجَمَلَتْهُمْ فَوْقَ الْوَرَى ، وَلِصْنَدِهِمْ مِنْ فَوْسِ عِلْمِ الْعَالَمِينَ صُنُورٌ

نظر البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١١٤ .

(٤) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٥ ص ٥٨ ، الأكوخ ، المدارس الإسلامية ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

١٤٤٤م) ، مدحه المؤرخون بكونه إماماً في البلاغة وحسن المحاضرة والفتنة والذكاء وجودة الفهم ، حفظ القرآن الكريم وتلقى علم القراءات السبع على المقرئ أحمد الأشعري قبل أن يتجاوز العشرين من عمره ، تلقى عدداً من العلوم الأخرى كالنحو والحديث والفقه والأصول على عدد من أشهر العلماء كشيخ الإسلام الإمام ابن حجر العسقلاني والإمام علي بن أبي بكر الناشري والإمام للطبيب بن أحمد الناشري والإمام جمال الدين بن الحياض والإمام المحدث نفيس الدين العلوي والإمام إسماعيل ابن المقرئ والإمام المقرئ علي بن محمد الشرعبي^(١) ، وقد مضى ذكر معظم من سبق مرات عدة في الفصول السابقة ، وما منهم إلا من اشتهر بلقب شيخ الإسلام وهو ما انعكس على هذا الرجل ، فكان تميزه في العلوم ، ولما ولد الإمام محمد بن الجزري إلى زبيد جمع عليه العفيف عثمان الناشري علم القراءات العشر ، وقرأ عليه كتباً كثيرة وأجاره فيها ، وقد اشتهر بالتدريس ، فرتبه السلطان الظاهر يحيى الرسولي (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) مدرساً بالمدرسة الظاهرية والمرشدية بتعز ، ثم انتقل إلى التدريس في المدرسة الأسمدة بمدينة إب .

صنف الإمام عفيف الدين عثمان الناشري عدداً من الكتب في علم القراءات بما يثبت جودة علمه وتعمقه فيه ، ومن أشهر كتبه (إيضاح الدرّة المضيئة في قراءة الثلاثة الصحيحة المرضية)^(٢) وهو شرح على كتاب (الدرّة المضيئة) لشيخه الإمام ابن الجزري ، وله أيضاً كتاب (الدر الناظم لرواية حفص عن عاصم)^(٣) وكتاب

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١١٥ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٦ ص ١٣٤ .

(٢) منه عدة نسخ مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير للشرقبة لوزارة الأوقاف ، وهي تحت أرقام (١٥٤٩ ، ١٥٦٧ ، ١٦٠٦ قراءات) ، انظر الرقيحي ، فهرس مخطوطات الجامع الكبير بصنعاء ، شارك في فهرسة عبدالله محمد الحبشي وعلي وهاب الأنسي ، نشر وزارة الأوقاف بالجمهورية العربية اليمنية ، ط ١ ، ١٩٨٤م ، ج ١ ص ٢٤ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، ط ٣ ، ٢٠٠٤م ، ص ٢٨ .

(٣) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية التابعة للهيئة العامة للكتاب والمخطوطات ودور الكتب تحت رقم (٢٢٥٦ قراءات) ، انظر الرقيحي ، المرجع السابق ، ج ١ ص ٤٤ ، الحبشي ، المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(الهداية إلى تحقيق الرواية) ^(١) وكتاب (قدر المكنون في رواية الدوري عن حفص وقالون) ^(٢) وكتاب (نفائس الهمزة في وقف هشام وحمزة) ^(٣) .

وكان للفقهاء بدر الدين حسن بن محمد بن سعيد الشاذلي (٨٣٥هـ / ١٤٣٠م) مشاركة في علم القراءات نتج عنها مصنفه فيها الموموم بـ (الزراري المفسرة نظم للدرة) نظم بها كتاب (الدررة المضيئة) في علم القراءات للإمام محمد بن الجبري ^(٤) . كما كان الفقهاء المقرئ عفيف الدين جعفر بن الهمام الشرعبي الجبري ^(٥) (ت ٨٣٦هـ / ١٤٣٢م) على معرفة تامة في القراءات السبع يتلمذه على المقرئ جمال الدين الشارقي ، واستقر في بمئات القحاف من جبل حبشي بتعز ، وتخرج به جماعة من طلبة علم القراءات ، ومنهم من برز فيه وطار صيته حتى فاق شيخه كالمقرئ المشهور شمس الدين علي بن محمد الرافدي الشرعبي ^(٦) .

ومن علماء القراءات المشهورين بصنعاء في مدة الدراسة نذكر المقرئ العلامة جمال الدين محمد بن إبراهيم الساودي الخولاني (ت ٨٦١هـ / ١٤٥٦م) ، قرأ في علم القراءات فأجاد السبع منها ، وجمع معها الحديث والحق والأصول على جماعة من أئمة عصره وأجازوا له ، قيل عنه : " كان وحيد عصره ، ومقرئ عصره ، وفريد دهره في بلده ... اتفقوا على أنه لم يكن في زمانه بصنعاء ودمار وصعدة وغيرها من

(١) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير لفريق تحت رقم (٢٩ مجاميع) ، انظر الرقيعي ، فهرس مخطوطات الجامع الكبير بصنعاء ، ج ١ ص ٢٦١ ، الحبشي ، المصدر السابق ، ص ٢٣ .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة جامعة الملك سعود تحت رقم (١٢١٢) ، ونسخة أخرى بالمكتبة المركزية لجامعة صنعاء تحت رقم (٩٣ مجاميع) ، انظر الحبشي ، المصدر السابق ، ص ٢٢ ، عبدالله قاسم العبادي ، الحياة العلمية في زبيد ، ص ٢٤٣ .

(٣) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير لفريق تحت رقم (٩٣ مجاميع) ، انظر الرقيعي ، فهرس مخطوطات الجامع الكبير بصنعاء ، ج ١ ص ٨٢ ، الحبشي ، المصدر السابق ، ص ٢٨ .

(٤) البرهبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٢٢ ، الحبشي ، المصدر السابق ، ص ٢١ ، السحوي ، الضوء الفلامج ، ج ٢ ص ١١١ ، الوجيه ، اعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٣٤٦ .

(٥) نسبة إلى قبيلة وليس إلى المذهب الاعتقادي ، انظر البرهبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٦٠ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٦٠ .

تلك الجهات العليا من يمانته وبدانيه في علم القراءات السبع^(١) ، وفدت عليه الطلبة من جهات عدة فلأخدمهم في كل علومه ، وصنف في القراءات كتاباً حافلاً في ثلاثة مجلدات كبيرة ، وأسماء (فكاهة البصر والسمع في معرفة القراءات السبع)^(٢) ، ووضع كتاباً مختصراً في قراءة نطق وأبي عمرو بن العلاء .

ومن أشهر علماء القراءات - أيضاً - في اليمن في مدة الدراسة يأتي المقرئ العلامة شمس الدين علي بن محمد الرفدي الشرعي (ت ٨٧١ هـ / ١٤٦٦ م) الذي يُعدُّ من أشهر المقرئين لليمنيين عموماً في القرن التاسع الهجري ، تلقى هذا العلم على عدد من أكبر رجاله وأئمنه في اليمن ، وجلس إلى أقرانهم في مصر والمدينة المنورة ومكة المكرمة ، وهو معدود في تلاميذ الإمام الشهير شمس الدين محمد بن محمد الجزري ، إذ لازمه في مدة وفادة إلى اليمن - المشار إليها سابقاً - فأجازه في القراءات العشر ، فكان العمدة في تدريسها ، وأصبح محور علومها ، ويكفي للدلالة على ذلك قول المؤرخ البريهي^(٣) ، وهو معاصر له ، يقول : " كان وحيد عصره في علم القرآن وما أشكل منه ... حتى لم يبق بمدينة تعز وما قاربها مقرئ إلا من درسته أو نرسته نرسته ... كان جهوري الصوت ، لافظاً ، حافظاً ، ثباتاً ، محققاً ... " ، ولم يكتفي علم للقراءات فقط ، فقد كانت مشاركته قوية في الحديث والتفسير ، وكان من أشهر الخطباء وأبلغهم في اليمن ، لذلك فقد رتب خطيباً في أكبر مساجد الجامعة بمدينة تعز - حاضرة الدولة ، فدام على الخطابة فيه أربعين سنة ، وكان " إذا وعظ وجلت القلوب لوعظه ، وشفيت الصدور ببليغ لفظه ، وأسكبت الدموع وحصل الخشوع ... " ^(٤) .

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٤ .

(٢) من المجلد الثاني نسخة مخطوطة مكتبة الجامع الكبير القريبية ، وهي تحت رقم (٦ قراءات) ، ومن المجلد الأول نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (١٥٥٧) ، ونسخة أخرى بالمكتبة الأخيرة نفسها تجمع المجلدين الثاني والثالث معاً ، وهي تحت رقم (١٥٥٨) ، فظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٨٣٠ ، الرقيمي ، فهرس مخطوطات الجامع الكبير بصنعاء ، ج ١ ص ٦٢ ، ٦٣ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٤ .

(٣) طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٤٢ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

ولما كان الإمام جمال الدين محمد بن عمر بن مبارك بخرق (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) من أكثر علماء اليمن تأليفاً ، ومن مفلخها في سعة المعرفة وجودة التصنيف^(١) فقد ترك - ضمن موروثة التأليف - مصنفات في القراءات ، هما كتابا (مختصر النهاية للناصري) و (شرح الجزرية)^(٢) .

وكما عرفت الزيدية ورجالها بكثرة اشتغالهم في العلوم العقلية والفلسفية كعلم الكلام وغيره ، وكذلك في علوم الفقه والتفسير ، إلا أن عطاؤهم - على الأقل من وحي المصادر التاريخية اليمنية الزيدية وغيرها - قد قلَّ إلى حد غريب في علوم القراءات في مدة دراستنا ، إذ لم يُسَرَّ صاحب (طبقات الزيدية الكبرى) (إلا إلى العلامة علي بن إبراهيم بن علي العابد (ت ٩٣٣هـ / ١٥٢٧م) الذي أخذ علم القراءات للسبع على علماء بيت الفقيه ابن عجيل بتهامة^(٣) .

وهناك عدد كبير آخر من المقرئين اليمنيين الذين يمكن وصفهم - من خلال تراجمهم - بأنهم كانوا أقل شهرة وإجادة في علم القراءات ممن نكرباهم ، فقد انتشرت في كتب التاريخ والتراجم اليمنية أخبارهم ، وتم حصر ما يزيد عن عشرين مقرباً آخر غير المذكورين هنا ، وفي الإشارة مواضع تراجمهم ما يكفي للعودة إليها^(٤) .

إن هذه النلة الكريمة من علماء القراءات في اليمن هم في الحقيقة المقرئين المشار إليهم في هذا العلم في القرن التاسع - في الغالب - إذ لم يقبض الله تعالى لرجال

(١) وصفه المؤرخ محيي الدين عبدالقادر العيدروس في النور المسافر ، ص ١٣٣ فقال : ' كان من العلماء الراسخين والأئمة المتبحرين ، تشتمل بالعلوم ، وتغن بالمنطوق منها والمفهوم ، وتتميز في المنثور والمنظوم ، وكانت له اليد الطولى في جميع الفنون ... ما رأيت أحداً من علماء حصر موت أحسن ولا لوجز عبارة منه .

(٢) العيدروس ، النور المسافر ، ص ١٣٦ ، الشُّلِّي ، السفا الباهر ، ص ٢١١ ، ولم أفتد إلى الكتاب المشار إليه بـ (النهاية) للناصري ، وي العلماء الناشرين المنسوب إليه ، وقد الجزرية هي منظومة (طبعة النشر في القراءات فشر) للإمام محمد الجزري .

(٣) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ١٨٩ .

(٤) ابن النبيع ، فطر المحاسن اليمنية ، ص ٢٠٦ ، بامخرمة ، قلادة النهر ، ج ٢ ص ٦٧٩ ، العيدروس ، النور المسافر ، ص ١٣٣ - ١٤٠ ، الشُّلِّي ، السفا الباهر ، ص ٢١١ ، البرقي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٤ ، ١١١ ، ١٣٧ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ٢١٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

❧ التفسير :

التفسير في اللغة هو والكشف والإيضاح والتبيين ، وهو المعنى السارد في قوله تعالى : وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿١﴾ ، أما معنى التفسير في الاصطلاح الشرعي فهو : ' توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها وسبب نزلها بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة (٢) ، وقد اتسع المعنى الاصطلاحي لتصبح دلالة (التفسير) التي ينصرف إليها ذهن القارئ والسماع أنه ' علم يبحث عن القرآن الكريم من حيث دلالاته على مراد الله تعالى بقدر الطائفة البشرية (٣) .

والمعروف أن النبي ﷺ هو أول من بين أصحابه - رضوان الله عليهم أجمعين - معاني القرآن ومدلولات ألفاظه كجزء من مسؤوليات قيامة بواجب تبليغ رسالته ، وامتنالاً لقول الله تعالى : لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١﴾ ، فكان الصحابة إذا أخذوا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، ولم يكتفوا بما كان يبادر النبي ﷺ إلى بيانه وإيضاحه من معاني الآيات وتفسيرها في المناسبات المختلفة ، بل كانوا يلقون عليه الأسئلة المباشرة عما كان يعن لهم من الاستفسارات حول ما يتلونه من كتاب الله الكريم (٤) .

تدافعت أجيال المسلمين المتلاحقة عبر قرون طويلة للاهتمام بالقرآن الكريم ، وكما سبق توصيح دواعي اهتمامهم بعلم القراءات فإن تلك الدوافع هي نفسها التي ارتكز عليها انصرافهم إلى الاهتمام بالتفسير باعتباره أحد العلوم اللصيقة بالكتاب الكريم بصورة مباشرة ، وينبغي الإشارة إلى أن الاهتمام بدراسة التفسير كانت أوسع

(١) سورة الفرقان .

(٢) الجرجاني ، كتاب التعريفات ، ص ٨٧ .

(٣) لزرقاتي ، مفاهيل العرفان في علوم القرآن ، ج ١ ص ٣٣٤ .

(٤) سورة فتح .

(٥) عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والستين الهجريين ، ص

بكثير من الاقتصار عليه أو للتأليف والتصنيف فيه ، فمن غير المعقول أن يكون هناك طالب علم لم يكن للتفسير في مقدمة العلوم التي درسها ، إلا أن الخوض في هذا العلم والإسهام في الكتابة فيه تستلزم إتقان علوم أخرى تمثل أنوات لمسية وشروط أولية ، وبدونها يصبح العمل ضرباً من العبث في حقل لا يجوز فيه الخوض لكل عبث ، وأهم هذه العلوم علم اللغة والنحو والتصريف وعلوم البيان والمعاني وأصول الفقه والقراءات^(١) .

استشعار العلماء لخطورة الكتابة للتفسير ووجود احتمالية الخطأ في اجتهد استخراج الأحكام والمعاني بما يذهب الفكر بعيداً عن مراد الله تعالى في الآيات جعل العديد منهم يكتفي بدراسة التفسير المتوافرة والاحتفاظ بالرؤى الشخصية حوله للذات والطلاب المتلقين عنهم ، وانصرفوا عن التصنيف فيه مع امتلاكهم لنواصي كل العلوم المشروطة توافرها لدى المفسر ، وهذا هو التعليل الذي يأتي وراء قلة المصنفات في هذا العلم مقارنة مع غيره من العلوم الشرعية الأخرى .

كان للصحابيان الحليلان عبدالله بن مسعود وعبدالله بن عباس رضي الله عنهما أشهر الصحابة في نقل التفسير وإشاعته تدريجاً بين التابعين في الأمصار التي حلوا فيها ، وكان ابن عباس أشهر الاثنين وهو المعروف بحبر الأمة وترجمان القرآن ، وعلى يديه تتلمذ عند من أبناء اليمن ونقلوه إلى أرضهم ، وبرزت في هذا العلم أسماء بعضهم بشكل لافت ، وفي مقدمة هؤلاء طلوس بن كيسان^(٢) (ت ١٠٥هـ / ٧٢٣م) ورهب بن منبه^(٣) (ت ١١٤هـ / ٧٣٢م) ، وجاء معمر بن راشد (ت ١٥٢هـ / ٧٦٩م)

(١) د. محمد حسين الذهبي ، التفسير والمفسرون ، مكتبة ودية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٥م ، ج ١ ص ١٦ ، ١٧ .

(٢) حليفة ، الطبقات ، دار طيبة ، الرياض ، ط ٢ ، ١٩٨٢م ، ص ٢٨٧ ، ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ٥ ، ص ٣٤٩ - ٣٥٢ ، ابن أبي حاتم ، الجرح والتعديل ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بميدان آباد الدكن ، الهند ، ودار الكتب العلمية ، بيروت ، ج ٤ ، ص ٥٠٠ ، ليافمي ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٧م ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، العلوي ، هربال الزمان ، ص ١٠٠ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ ، النووي ، تهذيب الأسماء واللغات ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٦م ، ج ١ ، ص ٢٣٩ .

(٣) خليفة ، الطبقات ، ص ٢٨٧ ، ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ٥ ، ص ٣٥٣ ، ابن أبي حاتم ، الجرح والتعديل ، ج ٤ ، ص ٢٤ ، ليافمي ، مرآة الجنان ، ج ١ ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ ، العساري ،

إلى اليمن ونزلها - كما سبق بيانه في الفصل الأول - ونقل إلى اليمن علم التفسير الذي كان قد تلقاه على علماء البصرة ، وكان الأخير هو صاحب أول محاولة للتأليف في التفسير ، وجاء تفسيره معتمداً على المأثور من الحديث الشريف وأقوال السلف من الصحابة والتابعين ، وأسهم المحدثون اليمنيون - من تلاميذ من سبق ذكرهم - كعبدالرزاق الصنعاني (ت ٢١١هـ / ٨٢٦م) في نشر علم التفسير على طريقة معمر بن راشد فصنف (تفسير القرآن العظيم)^(١) ، ولذلك كان التفسير المشهور آنذاك هو التفسير بالمأثور^(٢) ، ثم توالى اهتمام اليمنيون بعلم التفسير بنسب متقلوته على مدار القرون التالية ، وظهر التفسير بالرأي خاصة عند الزيدية متأثر بالزعة الاعتزالية ، إلا أن اهتمامهم بالتأليف فيه - إجمالاً - كان أقل بكثير من اهتمامهم بالتأليف في غيره .

وفي مدة دراستنا كان الاهتمام بهذا العلم الشريف قد ازداد مقارنة مع ما كان عليه من قبل - دراسة ومترحاً وتصنيفاً - فتكررت الإشارة في تراجم العلماء إلى دراستهم ومشاركتهم في التفسير ، وأقبل عليه طلاب العلم ، وكان للتفسير مادة أساسية لدى كل المعلمين في المدارس والهجري والقرى العلمية في أرجاء الساحة اليمنية ، وتعددت تصانيفهم فيه ، وغلب على تصانيفهم الشروح والحواشي والمختصرات على التفسير المعتمدة من علماء المسلمين خارج اليمن ، هذا بالإضافة إلى تفسيرهم المستقلة ، وبرزت لديهم ظاهرة التأليف في مجال تفسير الآيات القرآنية المتعلقة بالأحكام .

وقد تم بيان قائمة المقررات الدراسية الأساسية التي غلب على طلبة العلم في اليمن دراستها على أيدي العلماء ، ومن التفسير التي لقيت رعاية كبيرة من العلماء وطلبتهم يأتي تفسير (الكشاف عن حقائق التنزيل) لجار الله أبي القاسم

غريب الزمان ، ص ١١١ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ج ٤ ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، القنوي ، تهذيب الأسماء واللغات ، ج ٢ ، ص ٤٤٥ .

(١) نشرته مؤخراً مكتبة الرشد بالرياض ، وصدرت طبعته الأولى عام ١٩٨٩م بتحقيق مصطفى مسلم محمد .

(٢) الجندي ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٢٨ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ١٣ ، عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ / ١١٤٣م) الذي انتشرت دراسته وشروحه في كثير من مناطق اليمن ، واعتنى به علماء الزيدية بشكل خاص لانفتاحهم مع الزمخشري في العقيدة الاعتزالية ، وكذلك (تفسير النفلش) الذي اعتنى به طلبة العلم في المناطق اليمنية بشكل أوسع ، ودرسه طلبة العلم حتى أن بعضهم كان يستحضره غيباً^(١) ، وبأني ذكر (تفسير الواحدي) - أيضاً - كواحد من التفسير التي اعتنى بها اليمنيون كثيراً ، ودرسها أغلب علمائهم منذ القرن السادس الهجري ، واستمرت العناية بها حتى مدة دراستنا ، وورد اسمه في كثير من تراجم العلماء وإجازاتهم العلمية .

فمن العلماء للذين اهتموا بعلم التفسير في القرن التاسع الهجري يُذكرُ الفقيه برهان الدين إبراهيم بن علي بن إبراهيم البريهي (٨٠١هـ / ١٣٩٩م) الذي وصف بأنه كثير التلاوة للقرآن العظيم ، وكانت له مشاركة في علم التفسير^(٢) ، ومنهم أيضاً الإمام العلامة الحافظ المحدث شهاب الدين أحمد بن إبراهيم بن علي الحسني (ت ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م) ، كان من متعدد المواهب ، واسع الاطلاع ، كانت مشاركة قوية في عدد من العلوم ، فهو فقيه نحوي لغوي مفسر محدث ، والغالب عليه الفقه والحديث والتفسير ، فكان أغلب مفسري تهامة ومحدثيها وفقهائها - في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري حتى أوائل القرن التاسع - من تلامذته ، وكانت له معرفة تامة بالرجال والتواريخ والسير أصول الدين^(٣) .

وكان للإمام العلامة القاضي جمال الدين محمد بن عمر العوالي (ت ٨١٠هـ / ١٤١٧م) يد طولى ومشاركة قوية في التفسير والحديث والفقه ، وذلك أنه كان من أنجب تلاميذ الإمام المفسر الكبير مجد الدين الفيروزابادي الشيرازي^(٤) .

(١) الجندی ، المصنوع ، ج ٢ ص ١٥٧ ، ٢٣٤ ، الخرجي ، الطهارة للزولوية ، ج ١ ص ٢٤٢ ، العقد الفلح الحسن ، ق ١٠٠ - ١ .

(٢) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٨٧ .

(٣) الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٤٧ .

(٤) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٥١ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ .

أما واسطة العقد بين العلماء المفسرين في اليمن في مدة الدراسة فهو الإمام اللغوي المفسر المحدث مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروزآبادي الشيرازي (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) ، الذي استوطن اليمن حتى توفي بها فعد في أهلها، وأغلب المفسرين في مدينتي تعز وزبيد - ومن هاجر إليهما لتحصيل العلوم - هم تلاميذه ، وقد تضمنت تراجمهم الإشارة إلى تتلمذهم عليه كواحدة من شواهد تميزهم، وأوردت المصادر وكتب البليوجرافيا كثيراً من مؤلفاته بما بين علو كعبه على كل علماء اليمن ، بل على علماء عصره عموماً ، فمن مصنفاته في التفسير كتاب (بصائر نوري التمييز في لطائف الكتاب العزيز)^(١) وهو في ستة مجلدات كبيرة ، وله في التفسير أيضاً (تنوير المقياس في تفسير ابن عباس) ، وكتاب (الدر النظيم المرشد إلى مقاصد القرآن العظيم) ، وكتاب (حاصل كورة الخلاص في فضائل سورة الإخلاص) ، وكتاب (تفسير فاتحة الكتاب) ، وكتاب (شرح قطبة الخشاف في شرح خطبة الخشاف)^(٢) ، وله أشعار تدل على إلمامه بالتفسير ، منها ما قوله :

أَلَا إِنَّمَا الْقُرْآنُ تِسْعَةُ أَحْرَافٍ
أَتَيْتُ بِهَا فِي بَيْتِ شِعْرِ بِلَا خَلٍّ
خِلَالِ حُرَافٍ مُحَكَّمٍ مُتَشَابِهٍ
بَشِيرَةٍ نَذِيرَةٍ قِصَّةٍ عِظَةٍ مَلَلٍ^(٣)

ومنهم أيضاً الإمام محمد بن علي بن عبد الله بن إبراهيم الخطيب الموزعي الشهير بابن نور الدين (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م) بارعاً في التفسير ، وصنف فيه كتاباً

(١) طبعه المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالأزهر الشريف - بتحقيق محمد علي النجار - ضمن إصداراته في قائمة أمهات كتب التراث الإسلامي في العام ١٩٦٢م ، وما زالت طبعاته تتابع عن المجلس نفسه

(٢) الأمدل ، نسخة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، البرهسي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩٥ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ١٠ ص ٨١ ، حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٠م ، ج ٢ ص ١٧٤٧ ، ١٠٨١ ، العلي ، العقد الثمين في أخبار البلد الأمين ، ج ٢ ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

(٣) البرهسي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩٨ .

يعد من أفضل مؤلفات اليمن في فيه ، وسماه (تيسير البيان في أحكام القرآن)^(١) ، وقد وصفه الأهدل^(٢) - تلميذ ابن نور الدين الموزعي - فقال : " وهذا الكتاب سيج وحده ، وفريد عقده " .

ومن أعلام الزيدية في التفسير الإمام العلامة يوسف بن أحمد بن عثمان العيني الثلاثي (ت ٨٣٢ هـ / ١٤٢٩ م) ، كان له في التفسير مصنفات نفيسة ، اعتمدها الزيدية ضمن مقرراتهم الدراسية طيلة قرون ، وأهمها في التفسير كتاب (الثمرات الياضة من آي القرآن للمجتة من كلام الرحمن)^(٣) في تفسير آيات الأحكام ، وهو الذي استخرج منه الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير (ت ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م) كتابه ، (منهاج الخيرات في اقتطاف نفائس الثمرات)^(٤) ، ولالإمام يوسف أيضاً كتاب (التيسير في التفسير)^(٥) .

(١) منه نسختين خطيتين في مكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (١٦٠ نصير) و (٢٦٧ نصير) ، كما لورد علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في تعز ، ص ٣٤٩ لى أحمد محمد يحيى المقري قد قام بتحقيقه ، وبال به درجة الدكتوراه من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض (١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م) ، ونقل من المقدمة قول المصنف ابن نور الدين : " استخرت الله الحكيم العظيم في تصنيف صغير حجمه ، خفيف حملة ، كثير نفعه ، كبير قدره ، يكون تنبيهاً للطالبين على منهاج العلماء السالفين في استخراج الأحكام ومعرفة الحلال والحرام ليطلعوا صيغهم ويفتقروا أثرهم ، يسبق فصل الله عليهم ورحمته لهم ... " الموزعي ، تيسير البيان في أحكام القرآن ، ص ٢ - ٣ .

(٢) تحفة الزمن في تاريخ مبدات اليمن ، ج ٢ ص ٣٦٠ ، البرهي ، طبقت صلحاء اليمن ، ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

(٣) وقد حقق جزءاً منه محمد محفوظ زين العابدين وبال به درجة الدكتوراه من جامعة الأزهر ، ومن الكتاب نسخ مخطوطة عديدة منها في مكتبة الجامع الكبير العربية ثلثا عشر مجلد تحت أرقام (٢٦ - ٣٥ نصير) و (٩٩ نصير) و (٢٤١ فقه) ، وفي مكتبة الجامع الكبير الشرقية سبعة مجلدات لم يورد المصدر أرقامها ، ومنها نسختين بمكتبة محمد بن عبد الملك المروسي ، وأخرى بمكتبة العلامة مجد الدين المؤيدي بصعدة ، وأخرى في مكتبة يحيى رواية بصعدة أيضاً ، وسنسخة أخرى في مكتبة جامع المدرس بمحاضرة حجة ، لظفر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١١٧٣ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٦ .

(٤) الحبشي ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٥) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ١٢٧٩ .

من العلماء اليمنيين الذين حققوا علم التفسير وأشير إليه كأحد العلوم التي برزوا فيها يأتي شيخ الإسلام العلامة الإمام إسماعيل بن محمد بن عمر الجنائي الحضرمي (ت ٨٣٤هـ / ١٤٣٠م) الذي قال عنه المؤرخ بامخرمة : ' كان فقيهاً إماماً جامعاً لفنون العلم ... كانت له اليد الطولى في الفقه والنحو واللغة والتفسير والحديث والأصوليين ، وبلغ في تحقيق هذه العلوم النهاية ...' (١) .

ومن أعلام الزيدية أيضاً - واليمن عموماً - في التفسير العلامة علي بن محمد ابن أبي القاسم الهادي (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) الذي كان من أعمدة أهل مذهبه في التفسير ، وله فيه كتاب شهير بينهم هو كتاب (تجريد للكشاف مع ريادة نكت لطاف) (٢) ، وصفه الإمام الهادي عز الدين بن الحسن بأنه أحسن التفسير ، ولابن أبي القاسم تفسير آخر مختصر ، أكثر اختصاراً من سابقه سماه (الدر الشفاف المفتزع من الكشاف) (٣) ، وقيل له أيضاً كتاب (التفسير الكبير) في ثمانية مجلدات ، ولعله الأول نفسه (٤) .

ومن المشتغلين بالتفسير في مدة للدراسة أيضاً المقرئ الفقيه وحيد الدين عبدالرحمن بن أحمد أحمد بن محمد بن سالم (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٦م) ورد في ترجمته أنه تلقى للكثير من العلوم على عدد من أبرز علماء اليمن في عصره ، وقد ذُكر - في معرض بعض إحازلته لتلاميذه - أن مشائحه في فنون العلم نحو خمسين شيخاً ، وكانت أبرز العلوم التي برر فيها القراءات لمسبع والتفسير والحديث واللغة والفقه والأصوليين وغير ذلك (٥) .

(١) فلاحه النحر ، ج ٢ ص ٦٩٢ .

(٢) منه ثلاث نسخ مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير الغربية تحت أرقام (٤٥ ، ٤٧ ، ٢٥٠ تفسير) ، وبسطة أخرى في الأمبروريانا B1٥ ، وبسطة بقلم ابن المؤلف في مكتبة محمد عبدالعظيم الهادي في صعدة باليمن ، انظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٧ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٧١٧ ، ٧١٨ .

(٣) منه نسخة مخطوطة في مجلد في حداثش ، انظر الوجيه ، المرجع السابق ، ص ٧١٨ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٧٧٩ .

(٤) الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٧ ، الوجيه ، المرجع السابق ، ص ٧١٧ .

(٥) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٦٧ .

وممن اهتموا بالتفسير من علماء القرن التاسع الهجري القاضي جمال الدين محمد بن سعيد بن علي بن محمد كَبْنِ الحضرمي (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) ، وقد نتج عن اهتمامه بالتفسير تصنيفه لكتاب (الدر النظيم في الكلام على بسم الله الرحمن الرحيم)^(١) ، وكان غالب حديث الشيخ المتصوف محمد بن حسن المعلم بن محمد باعلوي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) - بحسب إقادة المؤرخ بامخرمة^(٢) - في غرائب القرآن الكريم .

ومن المفسرين الأحناف الذين استوطنوا مناطق الزيدية وعنوا في رجالها العلامة عبدالله بن محمد بن أبي القاسم العكي النجري (ت ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م) ، عرفت عنه رحلته إلى مصر في سنة (٨٤٨هـ / ١٤٤٤م) حيث تقلد فيها هناك على أيدي نخبة من أفاضل العلماء المصريين المبرزين في علوم شتى ، فبرز في كثير من العلوم ، منها : المعاني والبيان والمنطق وعلم الوقت (الفلك) ، وله في علم التفسير كتاب (شافي العليل في شرح الخمسمائة آية من التنزيل)^(٣) .

ومن المفسرين أيضاً الإمام الحافظ أحمد بن أحمد بن عبداللطيف الشرجي (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م) ، فقد ورد في بعض كتب الليبليوجرافيا^(٤) ذكر كتاب له في التفسير ، هو كتاب (الطريق الواضحة إلى أسرار الفاتحة) ، واشتهر للإمام حمزة بن عبدالله بن محمد النشري (ت ٩٣٦هـ / ١٥١٩م) منظومة في غريب القرآن^(٥) .

في سنة (٩٤٥هـ / ١٥٣٨م) على عهد الإمام المتوكل يحيى شرف الدين (ت ٩٦٥هـ / ١٥٥٧م) أكمل الإمام العلامة محمد بن يحيى بن أحمد جهزان الصنعدي (ت ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م) كتابه الشهير في التفسير الموسوم بـ (التكميل الشاف لتفسير الكشاف) ، وقد ورد في الفصل للخلص مظاهر الاحتفال البهيجة التي أقيمت بمناسبة الفراغ من تأليفه ، وأنه كان يوماً مشهوداً ، يقول

(١) بامخرمة ، قلادة النهر ، ج ٢ ص ٧٠١ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٧٠٢ .

(٣) ابن المبرد ، طبقات الزيدية للكبرى ، ج ٢ ص ٦٣٦ - ٦٣٩ .

(٤) منه نسخة مخطوطة في المتحف البريطاني تحت رقم (١١٥٨) ، وأخرى بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة برقم (٣٨٩٣) ، انظر الحشبي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٥) المعبروس ، فنون السالف ، ص ١٢١ .

المصدر^(١) : " وجمع ذلك في ثمانية أجزاء تامة ... وسر ذلك إمام زماننا ، وعلماء وقتنا ، وأظهروه ورفعوه في صنعاء اليمن على محل ، وأعلن بجلالته وإفادته ، ونودي بذلك ، ورفع التكبير والتسبيح والتكبير في مساجدها وأسواقها ومساكن بقاعها ، وطاف بذلك طوائف من المسلمين ، وزف بالأرتاج والرايات والطبلخانات وغير ذلك ما يوضع للإشعار والإعلان " وزاد مصدر آخر^(٢) بأنهم زفوه بالمسيرة المشار إليها وهو محمول في صندوقين ، حتى دخلوا به الجامع الكبير في صنعاء ، وصعد الخطيب وألقى خطبة جعل منها تفسير سورة الفاتحة من هذا الكتاب ، ثم خرجوا وطافوا به على المدارس والقصور .

وللإمام ابن بهرلن في التفسير أيضاً كتاب (التفسير الجامع بين الرواية والدراية) جمع فيه بين تفسير الزمخشري وتفسير ابن كثير^(٣) .

وهناك عدد آخر من العلماء الذين اشتغلوا بالتفسير ، وكانت مشاركتهم فيه دون من ورد ذكرهم ، وقد انتشرت تراجمهم في المصادر ، وإن كانوا لم يختصوا بالتفسير وحده إلا أنه كان من العلوم التي عنت في أطار ما حققوه وأجابوه وندبوا أنفسهم لتدريسه ودراسته ، ومن أشهرهم الإمام العلامة جمال الدين محمد بن عبدالرحمن بن عمر الحبيشي (ت ٨٠٢ هـ / ١٣٩٩ م)^(٤) ، الفقيه جمال الدين محمد بن حسن بن الشمس (ت ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م)^(٥) ، الفقيه أحمد بن محمد بن يوسف بن حفيص المعروف بمحوضة القرشي الأموي (ت ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م)^(٦) ، والقاضي جمال الدين محمد بن أبي بكر بن عمر بن صالح بن أبي الرخاء (٨٢١ هـ / ١٤١٨ م)^(٧) ، والشيخ وجيه الدين عبدالرحمن بن إبراهيم بن أبي بكر بن إبراهيم بن مسبح

(١) المقراني ، مكتون السر في تحرير تحارير السر ، ص ٨٤ .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ، ص ١١٠٨ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١١٠٦ .

(٤) البرهوي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٨ .

(٥) الأمد ، نقطة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٤٩ .

(٦) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٠ .

(٧) البرهوي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٥١ ، ٢٠٢ .

(ت ٨٢٤هـ / ١٤٢١م) ^(١) ، وشيخ الإسلام الإمام الحافظ محمد بن أبي بكر بن محمد بن صالح الهمداني الشهير بالحليط (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م) ^(٢) ، والقاضي جمال الدين محمد بن عبد الصمد بن أبي بكر العريفي السكسكي النرجي (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) ^(٣) ، والفقير العلامة عفيف الدين عبدالله بن علي المراج الحنفي (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٩م) ^(٤) ، والعلامة شرف الدين أبو القاسم بن علي المعروف بابن زبيدة (ت ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م) ^(٥) ، والمقريء العلامة شمس الدين علي بن محمد الرقدي الشرعبي (ت ٨٧١هـ / ١٤٦٦م) ^(٦) وغيرهم كثير .

(١) التريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٦٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٨٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣١٣ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٢) علم الحديث :

لحديث في اللغة عكس القديم ، وهو من التحديث والإخبار ، وفي المصطلح هو خبرٌ نسب إلى النبي ﷺ قولاً أو فعلاً أو سكوتاً منه عند أمرٍ يعاينه ، وفي مصطلح علوم الشريعة هو العلم الذي يقتدر به على معرفة أحوال أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وجه الخصوص كالاتصال والإرسال ونحوهم ، ويطلق على معلومات وقواعد مخصوصة^(١) .

جاء اهتمام المسلمين بالحديث النبوي الشريف لأنه المصدر الثاني للتشريع ، وهو جزء من الرسالة السماوية التي كلف النبي ﷺ بتبليغها ، فهو رديف للقرآن ومفسر له ومكمل لما لم يرد ذكره أو تفصيله فيه ، وجاء الأمر بالأخذ به في صريح القرآن الكريم في مثل قوله تعالى : وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا^(٢) وَاتَّقُوا اللَّهَ^٣ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ^(٤) ، وتوارث المسلمون الاهتمام بالحديث ، لبثه بجيل الصحابة والتابعين ، وكان فيهم من حفظ معظم - إن لم نقل جميع - أقوال النبي ﷺ وأفعاله ، وكانت أمهات المؤمنين في مقدمة من أخذ عنهم أحاديثه عليه الصلاة والسلام .

وكان لتفرق الصحابة في الأمصار بعد اتساع رقعة دار الإسلام دوره في انتشار رواية الحديث ، وكثر المشتغلون بدراسته وروايته ، فوافق ذلك الخوف من ضياع بعضه أو تسميته ، وكذلك برزت الخشية من الوضع فيه والكذب وإسبال فيه ما ليس منه ، فجاءت بواكير التدوين في منتصف القرن الهجري الأول حلاً للتخوف الأول ، واستمرت عملية التدوين خلال القرنين الثاني والثالث حتى لم يبق حديث إلا وقد اشتملت عليه إحدى الأمهات الحديثية أو المعانييد أو المنن كما اصطلاح أهل التخصص على تسميتها ، وقد اعتكلت علم الحديث لليتخذ شكله النهائي ، فكان علم (أصول الحديث) وهو علم الدراية بالحديث الذي يتناول ما اختلف فيه وعظه وناسخه ومنسوخه

(١) القنوجي ، أبعاد العلوم ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٢ م ، ص ٣٦١ ، ككافجي ، المختصر في علم الآثار ، تحقيق د. علي روين ، دار قرشيد ، الرياض ، ط ١ ، ١٩٨٧ م ، ص ١١٠ ، عبدالله كاند الجادي ، الحياة العلمية في زبيد ، ص ٢٤٨ .

(٢) سورة النحر .

وغريبه^(١) ، جاء (رواية الحديث) ليختص ببحث كيفية اتصال الأحاديث بالرسول عليه الصلاة والسلام من حيث أحواله عرواته ضبطاً وعدالة ، ومن حيث المسند اتصالاً وانقطاعاً^(٢) .

وكانت لليمن ورجال العلم فيها دور كبير وأساسي في حفظ الحديث النبوي الشريف وصيانتته من فترة مبكرة ، ولقد أوصحننا طرفاً من ذلك في الفصل الأول ، حيث قدم إلى اليمن عدد من أكبر المحدثين للجلوس بين يدي المحدثين اليمنيين للتلقي عنهم ، وفي مقدمة من قدم إليها يأتي الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل والإمام البخاري .

وأول اليمنى نال قصب السبق في تدوين الحديث هو المحدث همام بن منبه^(٣) (ت ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م) ، وهو بذلك يكون أول من ذوّن الحديث من التابعين على مستوى العالم الإسلامي وليس اليمن وحدها ، وسبق بذلك جمهور المحدثين في التصنيف ، وقد وصلت صحيفته كاملة كما رواها ودونها همام عن أبي هريرة رضي الله عنه^(٤) ، ونقلها الإمام أحمد بتمامها في مسنده ، ونقل عنها الإمام البخاري عدداً من الأحاديث في أبواب متفرقة من صحيحه^(٥) ، والعثور على صحيفة همام بن منبه قد بدت القول الشائع بأن بداية تدوين السنة النبوية كانت في مطلع القرن الهجري الثاني ، وقد سبق أن أشرنا في الفصل الأول أن المحدث الشهير معمر بن راشد (ت ١٥٢ هـ / ٧٦٩ م) قد استوطن اليمن ونشر علم الحديث بها ، ولا نفسي الإشارة إلى أبي قرة موسى بن

(١) القنوجي ، المرجع السابق ، ص ٣٩٧ . د. صبحي الصالح ، علوم الحديث ومصطلحه ، ص ١٠٧ - ١١٣ .

(٢) القنوجي ، المرجع السابق ، ص ٣٦١ .

(٣) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ٥ ، ص ٢٥٣ ، النووي ، تهذيب الأسماء واللغات ، ج ٢ ، ص ٤٣٨ ، البيهقي ، مرآة الجنان ، ج ١ ، ص ٢١٦ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ج ٤ ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٦ .

(٤) نشرت مكتبة الخانجي بالقاهرة طبعها الأولى عام ١٩٨٥م بعد أن قام رفعت فوزي عبدالمطلب بتحقيقها وشرحها وتخراج أحاديثها من المصادر التي نقلت عنها .

(٥) محمد عجاج الخطوب ، السنة قبل التدوين ، دار الفكر ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٠م ، ص ٢٥٦ .

طارق الزبيدي^(١) (ت ٢٠٢ هـ / ١٨٨٠ م) صاحب (سنن أبي قرة) التي كان قال عنها للجندي^(٢) : " ولم يكن أهل اليمن يعولون في معرفة الآثار إلا عليه ، وذلك قبل دخول الكتب المشهورة " ، ولا ننسى (المُصَنَّف) تلك الموسوعة الحديثية الضخمة التي كتبها شيخ الأئمة الإمام عبدالرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١ هـ / ٨٢٦ م) قبل أن تُولف الأسماء والسُنن المشهورة^(٣) .

مما سبق يتضح لنا أن مدرسة الحديث النبوي في اليمن ممتدة الجذور عميقة الأساس ، وأسبقيتها التاريخية وريادتها هي التي جذبت إليها أشهر المحدثين والفقهاء للدراسة على أيدي علمائها لأوائل ، ومن رحل إلى اليمن لذلك العرض يذكر علماء الحديث وأصحاب الطبقات سفيان الثوري وسفيان بن عيينة وعبدالله بن المبارك والإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ويحيى بن معين ونعيم بن حماد وعلي بن المديني والإمام الشافعي وغيرهم^(٤) ، ولم ينته اهتمام اليمنيين بالحديث بانقراض جيل الرواد ، بل كان اهتمامهم به في اضطرد عبر القرون المتعاقبة .

وفي القرنين التاسع والعاشر الهجريين - والقرنين اللذين سبقاهما - كان اهتمام اليمنيين بالحديث الشريف وعلومه واضحاً ، إذ نال عندهم عناية عظيمة ، وبلغ من عنايتهم به أن أسست المدارس العلمية المتخصصة في تدريسه على أيدي السلاطين الرسولييين ، وعظمت بتدريسه عند من المساجد كمدرسة الحديث المنصورية بزبيد^(٥) ، وكان مدرس الحديث وقارئه من أعمدة الهيئات التدريسية في دور العلم وأماكنه التي

(١) ابن سيرة ، طبقات فقهاء اليمن ، ص ٦٩ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ج ٤ ، ص ١٧٨ ، الجندي ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) قام بتحقيقه ونشره حبيب الرحمن الأعظمي عن المكتب الإسلامي ببيروت ، وصدرت طبعته الثانية عام ١٩٨٢ م ، علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في تعز ، ص ٣٥٥ .

(٤) الرازي ، المحدث الفاضل بين الراوي والناقل ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ج ٤ ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٥) د أحمد العلمي ، أعلام مدرسة الحديث في اليمن وجهودهم في حفظ السنة ، ص ١٢٤ ، الجندي ، السلوك ، ج ٢ ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٧ ، ٥٤٣ ، الخرجي ، العقود الثلوثية ، ج ١ ص ٨٢ ، ١١٣ ، ج ٢ ص ٥٧ ، ٥٩ ، ١٠٦ ، ٢٦٠ .

عرفها اليمنيون عصرئذ^(١) ، بل خصص - في كل مدرسة أو جامع - عدد من الطلبة يكون اهتمامهم منصباً على تحصيل علوم الحديث - ودرجة أقل - العلوم الشرعية الأخرى^(٢) .

وكان بعض العلماء يخصص شهراً معينة في السنة لا يدرس فيها غير الحديث النبوي وعلومه ، وكانت شهور رجب وشعبان ورمضان هي التي كانت تخصص لهذا العلم ، وكان السلاطين الرسوليون يشاركون طلبة العلم في الحضور ، ويستمعون إلى مجالس العلم والذكر^(٣) ، وكانت مجالس الحديث تعقد عند نزول العلماء الوافدون إلى اليمن ، سواء كان مرورهم في طريق الحج أو زيارة لها ، وقد تمت الإشارة في الفصل الخامس إلى أن بعض السلاطين كانوا يحضرون للعلماء الوافدين كما حصل مع الفيروزآبادي وابن الجزري وابن حجر العسقلاني ، فمن النادر أن يدخل اليمن عالماً محدثاً دون أن تعقد له مجالس علمية يدرس فيها علومه لأناء اليمن من العلماء والفقهاء والطلبة ، وكان لذلك نتيجة طيبة ، إذ كثرت رواياته وتعددت طرقه لديهم ، وتشجع كثيرون للاشتغال به^(٤) .

تنوعت صور اهتمام اليمنيين - علماء وطلبة - بالحديث الشريف وعلومه ، وكانت أغلب أشكال عنايتهم به تنحصر في المطالعة والتدريس أكثر من التأليف ، وكانهم اكتفوا بما ألفه غيرهم من علماء المسلمين وأعلام المحدثين ، فكانت المؤلفات في هذا العلم قليلة مع أن دراسته كان جزءاً مهماً من تراجم العلماء وإجازاتهم التي حصلوا عليها ، وأغلب ما صُنّف في اليمن في علم الحديث في المدة التي نتناولها في

(١) سبق أن أوضحنا ذلك في الفصل الخامس بالتفصيل .

(٢) الوقفية الغسانية ، وثيقة المدرسة الأشرفية ، ص ١٣ ، وثيقة المدرسة الطاهرية ، ص ٣٩ ، وثيقة المدرسة المحتية ، ص ٤٦ ، وثيقة مدرسة جوه ، ص ٦٢ ، وثيقة المدرسة الفضلية ، ص ١٠٣ .

(٣) الخزرجي ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٣٥ ، المسجد المسبوك ، ٤٩٠ ، شريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣١٠ .

(٤) لشريهي ، المصدر السابق ، ٣٣٩ وما بعدها ، الشعبي ، تاريخ الشعبي ، ق ٤٩ - أنقلاً عن علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في نغز ، ص ٣٥٦ ، الحبشي ، حياة الأئمة اليمنيين في عهد بني رسول ، ص ١٠٥ .

دراستنا هذه هو من باب الشروح لبعض الأمهات أو جمع للأحاديث المتعلقة بالأحكام أو اختصار للأمهات وإعادة ترتيب مستوياتها بما يسهل حفظه للطلبة^(١) .

دخلت كل أمهات الحديث النبوي والسنن والمستنيد إلى اليمن بطرق مختلفة ، منها ما هو بالشراء من قبل التجار أو الحجاج اليمنيين ، ومنها ما أهدى إلى بعضهم من أقرانهم من العلماء ، ومنها ما تم استنساخه في اليمن ، ومنها ما اشتراه الملوك والسلاطين أو أهدى إليهم أيضاً ، ومنها كما تم استجلابه كجزء من مستلزمات إنشاء المدارس العلمية وخزائن الكتب المرتبطة بها ، إلا أن الأمهات لمت والصحيحين - على وجه الخصوص - حظيا بعناية خاصة واهتمام بالغ ، فكانا في صدارة مذهب الحديث في المدارس العلمية المختلفة^(٢) ، وتعود أقدم إشارة إلى دراسة صحيح البخاري في اليمن إلى منتصف القرن الرابع الهجري^(٣) ، واحتفى به طلبة العلم حتى حفظه بعضهم عن ظهر قلب ، وأكثروا من سماعه بشكل لافت ، حتى ورد الخبر أن هناك من سمعه أكثر من مائة وخمسين مرة^(٤) .

ومنأتي في تراجم بعض المشتغلين بالحديث والمهتمين به إلى ذكر مصادر الحديث الأخرى - غير الصحيحين - ونرى أن كل هذه الكتب قد كان الاهتمام بها كبيراً ، فترسنت وترسنت في كثير من المدارس ، ووصع على بعضها الشروح والاحصارات^(٥) ، وكان باليمن عدد من العلماء الذين كان لهم سند عالٍ في رواية هذه الكتب ، سواء من أهلها أو من النازلين بها .

فمن أوائل من نذكره من المهتمين بالحديث في اليمن في مدة الدراسة يأتي الفقيه أحمد بن موسى بن عمران الشافعي (ت بعد ٨٠٠ هـ / ١٣٩٧ م) الذي تصدر لتدريس الحديث في كثير من مدارس زبيد كالشمسية والسابقية ، وألف في الحديث مختصراً لكتاب (شفاء السقام في زيارة خير الأنام) للإمام تقي الدين السبكي المتوفى

(١) الحيشي ، المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

(٢) الوثوقية الفسائية ، وثيقة المدرسة الأشرفية ، ص ١٣ ، وثيقة المدرسة الظاهرية ، ص ٣٩ .

(٣) الجدي ، السلوك ، ج ١ ص ٢١٩ ، ابن سيرة ، طبقات الفقهاء اليمن ، ص ٨١ .

(٤) الخزرجي ، طراز أهلام الزمن ، ج ٢ ص ١٢٥ - ١ ، ابن حجر ، الفيل على صدر الكعبة ، ص ٢١٩ .

(٥) علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في تعز ، ص ٣٥٨ .

سنة (٧٥٦هـ / ١٣٥٥م) الذي ناقش فيه آراء ابن تيمية وابن القيم حول حديث شد الرحال^(١) ، ومنهم أيضاً الفقيه عمر بن داود بن عبدالله الشعبي (ت ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م) الذي تولى تدريس الحديث في جامع ثعبات طيلة حياته^(٢) .

ومن المحدثين اليمنيين في مدة الدراسة العلامة الحافظ شرف الدين حسين بن محمد القرشي الخُلَفي (كان حياً في مطلع القرن التاسع الهجري) ، وصفه المصدر بأنه شيخ الحديث بصنعاء في زمنه ، ومن أشهر تلاميذه الإمام الكبير محمد بن إبراهيم الوزير (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) ، وكان يُرحلُ إليه من أرجاء اليمن لطلب الحديث^(٣).

ومنهم العلامة صلاح بن جلال الدين بن محمد بن الحسن المعروف بابن الجلال (ت ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م) ، فقد قام بتكملة كتاب (شفاء الألوام في أدلة الأحكام) الذي صنفه الأمير الحسين بن بدر الدين بن أحمد بن يحيى الزبيدي (ت ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م) ولم يتمه ، وهو أشهر كتب الحديث عند الزيدية على الإطلاق، إذ أنه أصبح معتمدهم في دراسة الحديث منذ القرن السابع حتى اليوم في على مدار ثمانية قرون^(٤) .

وكان للإمام الموسوعي الكبير شيخ الإسلام مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزجادي الشيرازي (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) اهتمام بالحديث - ضمن اهتماماته الواسعة - وصنف فيه كتاباً نفيسة ، منها : كتاب (مطالع الأنوار) شرح فيه (مطالع الأنوار) للإمام أبي الفضائل الصمغاني ، كما شرع في شرح صحيح البخاري وعُفُوته بـ (منح الباري بالسيل الفسيح الجاري في شرح صحيح البخاري) وأنجز منه أربعة وعشرين جزءاً ، وبلغ فيه كتاب الصيام ، وكان يتوقع تكملة في ثلاثين مجلداً ، وله في الحديث النبوي الشريف أيضاً كتاب (الصلوات والبشر في الصلاة على

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٨٥ ، الشعبي ، تاريخ شعبي ، ق ٤٩ - أنقل عن علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في نعر ، ص ٣٦٢ ، الأكوخ ، المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ١٥٦ .

(٢) الشعبي ، تاريخ شعبي ، ق ٤٩ - أنقل عن علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في نعر ، ص ٣٦٢ .

(٣) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٠ .

(٤) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، الترجمة ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٣٩٠ ، ٤٩٩ ، الحبيشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٥ .

خير البشر) ، وكتاب (الوصول والمني في فضل مني) ، وكتاب (تسهيل طريق الوصول إلى الأحاديث الزائدة على جامع الأصول) ، وكتاب (الدر الغالي في الأحاديث العوالي)^(١) ، وهذه المصنفات ليست كل جهوده في خدمة الحديث النبوي والسنة المطهرة ، إذ أن جهوده التدريسية فيه - وفي غيره من العلوم - كانت ذات أثر كبير ، ولذلك نرى أن المحدثين اليمنيين في القرن التاسع للهجري إنما هم من تلاميذه وتلاميذ الإمام الحافظ نفيس الدين العلوي .

ومنهم أيضاً القاضي وجيه الدين عبدالرحمن بن محمد النحواني (ت ٨٢٣ هـ / ١٤٢٠ م) الذي عقد للمجالس العلمية - مع ممارسة القضاء في الجند - لتدريس الحديث النبوي في جامع ذي عدينة الكبير بمدينة تعز ، واستقام في تدريس الحديث النبوي مدة طويلة^(٢) .

لما شيخ شيوخ المحدثين اليمنيين وحافظ البلاد ومسندها الأكبر فهو الإمام الحافظ المحدث نفيس الدين أبو الربيع سليمان بن إبراهيم بن عمر بن علي العلوي^(٣) (ت ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م) ، كان هو وقرينه الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي فأرمني علم الحديث في اليمن بلا منازع، ولكن أغلب جهود الإمام الفيروزآبادي كانت منصبة على التأليف والتصنيف ، بينهما كانت جهود الإمام نفيس الدين العلوي مكرسة للتدريس ونشر الحديث النبوي والسنة المطهرة ، ويُعزى إلى هذا الإمام لتنتشر وشيوع أخذ الزيدية للحديث النبوي ودراسة أمهاته المشهورة ، فعنه أخذ عدد من أكبر رجال الزيدية وبعض أئمتها ، وقد أشرنا إلى ذلك في الفصل الخامس من هذه الدراسة ، ويكفي هذا الإمام فخراً أنه ما من عالم يمني اشتهر في القرن التاسع والعاشر للهجريين بعلم الحديث والاستغال به إلا وهو من تلاميذه أو تلاميذ تلاميذه .

(١) الأمد ، تحفة الزمن في تاريخ سادات السومن ، ج ٢ ص ٣٧ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، السحاري ، الضوء اللامع ، ج ١٠ ص ٨١ ، العسلي ، العقد الثمين في أخبار البلد الأمين ، ج ٢ ص ٤٩٤ - ٢٩٧ .

(٢) البريهي ، المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(٣) سبته (العلوي) جاءت إلى أحد أجداده كس يدعى علي بن راشد ، فهو ليس علوي مثلشمي قرشي ، وإنما هو يمني محض من قبائل عك التهامية اليمنية ، انظر ابن حجر ، إنباء الفهر ، ج ٣ ص ٢٨٦ .

كان سنده عال في الحديث النبوي ، فقد تضمن نص الإجازة العلمية للطويلة - التي أوردها نصها كاملاً في الفصل الرابع - والتي منحها الإمام العلوي للإمام محمد بن إبراهيم الوزير بأن سند صحيح الإمام البخاري الذي يرويه بمقد عبر ثمانية رجال فقط إلى مصنفه الإمام محمد بن إسماعيل البخاري نفسه ، وهي أعلى درجات العلو في الإسناد في هذه الحقبة التاريخية في العالم الإسلامي قاطبة ، وقد علل لذلك هناك بما لا حاجة إلى إعادة تفصيل ذلك هنا .

وقد لطنب المؤرخون في منحه وإطرائه عند التترجمة له ، فقال بالمخرمة^(١) عنه أنه : " شيخ مشايخ المحدثين في عصره ... " ، وله " أعرف أهل عصره بالحديث وطرقه وفنونه ومتونه ... " ، وقال عنه البرقي^(٢) : " الإمام العلامة الحافظ ، قطب العلماء للراشدين ، ونهاية المسترشدين ، ولي الله ، والمحدث عن سيدنا رسول الله ... كان رحمه الله مالك أزمة المعارف والطرائف ، الحائز فضيلتي التألق والطراف ، أحيا به من العلوم دارسها ، وأعمر به معالمها ومدارسها ، وفك ما استعجم من الأحاديث فشرحها ، وأبان ما استبهم من العلوم فأوضحها ، فهو في العلم كوكبه المنير ، وصوبه العذب للنمير ... " ، وقال عنه شيخ الإسلام الإمام ابن حجر^(٣) الصقلاني - وكان قد لقيه في زيارته لليمن - : " على بالحديث وأحب الرواية ... وكان محدث بلده ... ونعم الرجل كان " .

وكان للإمام الحافظ سليمان العلوي أخ يكبره في السن ، وردت ترجمته على أنه إمام علامة محدث حافظ ، هو جمال الدين محمد بن إبراهيم العلوي (ت ٨٢٢هـ / ١٤١٩م) ، كان من أعلام المذهب الحنفي في اليمن وأئمة الحديث فيه ، وشيوخه في الحديث هم بعض شيوخ أخيه نفيس الدين سليمان العلوي ، وله زيادة على مشايخ أخيه ، اشتهر بمدينة ربيد بمعرفة الحديث كشهرة أخيه في مدينة تعز والجبال ، وعكفت عليه الطلبة ، فأفاد وأجاد ، وعلى الرغم من أنه ابتلي في آخر عمره بداء الجذام إلا أن طلبته لم ينصرفوا عنه ، بل استمرت أحوالهم في القوم عليه والجلوس بين يديه ،

(١) ثلاثة النهر ، ج ٣ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ .

(٢) طبقات صلحاء اليمن ، ٢٠٧ .

(٣) إلهام النهر ، ج ٣ ص ٢٨٦ .

وكان من أصحاب السند العالي أيضاً^(١) ، وقد خلفه في رئاسة علم الحديث ومجلسه
 يزيد العلامة عفيف الدين عثمان بن علي الأحمر (ت ٨٣٨هـ / ١٤٣٤م) ، لأن
 معرفته بالحديث كانت قوية يقتلعه على الإمامين النفيس العلوي والمجد
 الفيروزبادي^(٢) ، وخلف الأحمر بعد وفاته على رئاسة الحديث والتصدر لتدريسه في
 زيد أيضاً الإمام العلامة كمال الدين موسى بن محمد الضجاعي (ت ٨٥١هـ /
 ١٤٤٧م)^(٣) .

ووصف القاضي العلامة جمال الدين محمد بن أبي بكر بن أحمد البرزنجي
 (ت ٨٣٨هـ / ١٤٣٤م) بأنه كان مجوداً في علم الحديث بعد أن تلقاه على الإمامين
 الحافظين نفيس الدين سليمان بن إبراهيم العلوي ومجد الدين الفيروزبادي^(٤) .
 وقام القاضي والمحدث العلامة عز الدين محمد بن حمزة بن المطهر
 (ت ٨٣٨هـ / ١٤٣٤م) بالاهتمام بالحديث على طريقة أهل مذهبه من الزيدية ،
 فوضع كتابه (منهاج الأبرار) في شرح الأربعين السليقية^(٥) ، وهي من مجموعات
 الأحاديث التي اعتنى بها أئمة الزيدية وعللوها ، فكان هذا الشرح مما استحسنه
 العلماء ، وقد جمع فيه ابن المطهر بين شرحي الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة
 (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) الحسني والإمام المؤيد يحيى بن حمزة الحسني (ت ٧٤٩هـ /
 ١٣٤٩م) للأربعين السليقية ، وقد قال الإمام الهادي بن إبراهيم السوزير
 (ت ٨٢٢هـ / ١٤١٩م) في تقرير كتاب (نهج الأبرار) ثلاث أبيات قال فيها :

انظُرْ إِلَى سَرِّ عَظِيمِ
 سَرِّ فِي لُبِّ خَمَزَةِ
 شَرَحُوا الْحَدِيثَ الْأَرْبَعِينَ

(١) البرزنجي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣١٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٩ .

(٥) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى . ج ٢ ص ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، الفوجي ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص
 ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، وقد اختلفوا في تاريخ وفاته .

وَالْكُلُّ لِنَسَمِ ابْنِهِ حَمْزَةُ

هَذَا ابْنُ حَمْزَةَ يَأْتِي

نَحْمُ ابْنَ حَمْزَةَ وَابْنَ حَمْزَةَ^(١)

وقد قام العلامة علم الدين قاسم بن يوسف بن معوضه (ت في مطلع في القرن التاسع الهجري) بشرح (منهاج الأبرار) بكتاب سماه (ذخيرة الأخيار المنتزع من منهاج الأبرار)^(٢) .

ويعد الخليفة الأول - في مدينة تعز خصوصاً - للإمام نفيس الدين سليمان العلوي هو تلميذه وقرينه شيخ الإسلام الإمام الحافظ محمد بن أبي بكر بن محمد بن صالح الهمداني الشهير بالخياط (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م) ، فقد كان ذا معرفة قوية في كثير من العلوم مثل الحديث والتفسير والفقه والنحو ، وكان يسمى الباقر لسعة فهمه واستنباطه وحفظه ، وتفرد بزيادة المتخصص لتحقيق علم الحديث ، وسلمت له الرئاسة فيه فكان لا يمارى بشيء منه ... وكان يتكلم على معنى الحديث ورجال الإسناد بكلام نافع بمحضر شيخه الإمام نفيس الدين فيصوب كلامه ، ونقل عنه المحققون من الفوائد في حياة الإمام نفيس الدين أشياء كثيرة ...^(٣) ، وهو الذي خلفه بعد موته بتدريس الحديث النبوي في مدينة تعز ، وانفرد بشغل مجلسه ، فتراحمت عليه الطلبة ، وكل يحضر عنده جمع كثير ، فكان مجلسه حافلاً جامعاً بالعلماء والمتعلمين على حد سواء ، وقد مدحه كل من عرفه ، وقد قيل أن السلطان الناصر للرسولي أحمد (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) سأل الإمام المقرئ الشهير شمس الدين محمد بن محمد للجزري - لما وفد على اليمن - : من رأيت كاملاً^(٤) من علماء اليمن ؟ فقال :

إِنَّ الْإِمَامَ فَتَى الْحِطْلِ أَفْضَلُ مَنْ

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، الترجمة ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٨٩٥ ، ٨٩٦ .

(٢) الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٥ .

(٣) البربري ، طبقات مشاهير اليمن ، ص ٢٣١ .

(٤) الكمال هنا نسبي ومجاري بالمقاييس مع الأكران ، أم للكمال البشري في معناه الصريح فلم يتصف به غير خير الحلق وأشرف المسلمين عليه صلوات ربي وسلامه .

رَأَيْتُ فِي الْيَمَنِ الْفَيْحَاءَ مِنْ رَجُلٍ
قُلَّ عِلْمُهُ وَاسْمُهُ بِهِ وَانْظُرْ إِلَيْهِ تَجِدُ
مِلَّةَ الْمَسَامِيحِ وَالْأَقْوَامِ وَالْمَقَلِّ (١)

وقد خلفه في رئاسة علم الحديث وإقامة مجالسه في مدينة نعر تلميذه النجيب الفقيه
للمحدث شمس الدين علي بن محمد الشعبي (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) (٢).
ومن تلاميذ الإمام نفيس الدين سليمان العلوي المبرزين أيضاً يُنكرُ الإمام
العلامة المقرئ والمحدث صفى الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أحمد البريهي
(ت ٨٣٣هـ / ١٤٣٠م) ، وكان قد تتلمذ في الحديث للنبوي أيضاً بمكة المكرمة على
يدي الشريف تقي الدين الفاسي المالكي المؤرخ حتى صار إماماً فيه وفي القراءات (٣).
ومنهم أيضاً المقرئ المحدث الفقيه وجيه الدين عبدالرحمن بن أحمد بن محمد
بن مسالم (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٦م) الذي عُرِفَ بكثرة مشائخه لسعيه الكبير للتلقي
والتحصيل حتى بلغوا نحو خمسين شيخاً ، وقد عُدَّ الحديث النبوي الشريف بين العلوم
التي برز فيها وتخرج به علي يديه العديد من الطلبة (٤).

ومن المحدثين في اليمن آنذاك أيضاً الإمام المؤرخ والمحدث الحسين بن
عبدالرحمن الأهدل (٨٥٥هـ / ١٤٥١م) صاحب كتاب (الكفاية في تحصين
الرواية) وكتاب (التنبيهات على التحرر في الروايات) ، وله أيضاً كتاب

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٣١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

(مصباح الفاري لجامع صحيح البخاري)^(١) وكتاب (عدة المنسوخ من الحديث) وكتاب (ناسخ الحديث ومنسوخه)^(٢).

ومنهم كذلك للفقير الأديب والمحدث شهاب الدين أحمد بن عمر بن أحمد المنقش (ت ٨٧٠هـ / ١٤٦٥م)، كان على معرفة لكيدة بالأدب وله يد قوية في الحديث، وكان يتصدر لتكريسه في مدينة زبيد، وقد صنف فيه مختصراً لصحيح الإمام البخاري، وجعله مثل المسندات، يذكر الصحابي ثم يذكر جميع ما رواه من الأحاديث^(٣)، ثم جعله باسم السلطان الظاهر يحيى الرسولي (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) ونسبه إليه^(٤).

ومن محدثي اليمن الكبار في القرن التاسع الهجري يأتي الإمام للمحدث الحافظ أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م)، فقد كان رئيس هذا العلم في تهامة على وجه الخصوص، كان مبرراً فيه مجيداً له، ومشاراً إليه فيه بعد وفاة أئمة المحدثين الزبيديين والتهاميين كمحمد بن إبراهيم العلوي وعثمان الأحمر وغيرهما ممن أشرنا إليهم آنفاً^(٥) - ويكفيه فخراً أن المحدث الحافظ أبا ركريا يحيى بن أبي بكر العامري - الأتي ذكره - ومحدث القرن العاشر ومؤرخه الإمام الحافظ عبدالرحمن بن الدبيع الشيباني هما من تلامذته، ومع أنه صب معظم جهوده في

(١) ذكرها السخاوي، الضوء اللامع، ج ٣ ص ١٤٥، ومن الكتاب الأخير نسخة أصيلة بخط المؤلف نصه في مكتبة مشرف عبدالكريم المحرابي بدمشق، انظر الحبشي، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، ص ٥٧.

(٢) من الكتابين الأخيرين نسخ في مكتبة الجامع الكبير القريبية تحت رقم (١١٨٨ كتب حديثة)، انظر الحبشي، لمرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) البريهي، طبقات صلحاء اليمن، ص ٣٠٩.

(٤) هذا من الحداغ والعش الذي لا يلق بالعلماء، فله من المقول - إلى حد ما - أن يغرب الشخص إلى الملك أو السلطان بالمدح أو ما شابهه، أما بالتأليف والتصنيف ونسبة العمل إليه فهو كمن يسب ولده إلى غيره، ويكفي للتدليل على فداحة الأمر أن من جاء لاحقاً وعاش في قرون متأخرة - كأمثالنا - سيئتهم أن السلطان الظاهر الرسولي كان مصفاً لهذا الكتاب بالفعل، ومن هذه الإشارات قد نقود إلى التشكيك في المصنفات الكثيرة جداً في شتى فروع المعرفة المنسوبة إلى السلاطين الرسوليين الأوائل.

(٥) باخرمة، قلادة النحر، ج ٣ ص ٧٥١، ابن الدبيع، بغية المستفيد، ص ١٨١، السخاوي، الضوء اللامع، ج ١ ص ٢٦٤، ٢١٥، ابن فهد، لحظ الأحاط، ٢٥٩.

الحديث في المجال التدريسي إلا أنه ترك مصنفين نفيسين فيه ، أولهما هو مجموع أسماء (الفوائد في الصلاة والعوائد)^(١) ، وأما الثاني فهو (التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح)^(٢) ، وقد ذكر في مقدمته دوافع قيلمه بتأليفه ، ثم أوضح أسلوبه وطريقته في تصنيفه ، وقد ختم مقدمته بإيراد سلسلة منسدة المتصل بالإمام البخاري رحمه الله^(٣) .

ويعتبر الإمام الحافظ المؤرخ أبو زكريا يحيى بن أبي بكر بن محمد العامري (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م) ، شيخ المحدثين في اليمن وأبرز حفاظها في عصره - النصف الثاني للقرن التاسع الهجري - على الإطلاق^(٤) ، غلب عليه علم الحديث فأتقنه وعرف طرقه وعلومه ، قرأ عليه الحديث خلق كثير من أنحاء اليمن كلها ، من تهامتها وجبالها ، حتى أن بعض أئمة الزيدية تنكروا على يديه في الحديث^(٥) ، وبإدلوته من الاحترام والإجلال ما لم يبنلوه لغيره ، وله في الحديث كتاب (الرياض المستطابة فيمن روى في الصحيحين من الصحابة)^(٦) .

(١) طبع في القاهرة سنة ١٣٤٤هـ في ٩٩ صفحة ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٧ .

(٢) طبع عدة طبعات ، وعى بشرحه جماعة من العلماء كشيخ الأزهر الإمام عبد الله الشرفاوي (ت ١٢٢٧هـ / ١٨١٢م) الذي شرحه بكتاب (فتح المبدي) ، وآخر طبعة له هي الصادرة عن المكتبة الإسلامية بالقاهرة سنة ٢٠٠٣م ، ومنه نسخة مخطوطة في مكتبة خديخش تحت رقم (٤١٢) ، انظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن .

(٣) الشرحي الربيعي، التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ، المكتبة الإسلامية ، القاهرة ، ٢٠٠٣م ، ص ٨ - ١٣ .

(٤) هو تلميذ للمحدث الحافظ الشرجي مع أنه من أقرانه لذلك فقد توفي في سنة واحدة ، هو أيضاً نعتاً من تلاميذ تلاميذ الإمامين نفيس الدين الطوي ومجد الدين الفيروزبادي .

(٥) اشتهر منهم بذلك الإمام الهادي عز الدين بن الحص (٩٠٠هـ / ١٤٩٥م) ، وقد سبق للحديث عنه في الفصلين الثاني والثالث في دراسة هذه .

(٦) طبع في الهند سنة ١٣٠٣هـ ، ثم طبعت مرة أخرى مكتبة المعارف ببيروت عام ١٩٨٣م ، ومنه نسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية تحت رقم (٣١٥ حديث) ، وفي دار الكتب أيضاً نسخة أخرى تحت رقم (٣٧٥ حديث) ، ومنه نسخة ثالثة في مكتبة الجامع الكبير القريبية تحت رقم (٦٦٦) ، انظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٨ .

وقد نَجِبَ من تلاميذه في الحديث - وإن سبقه وفاة - الإمام المحدث الحافظ أبو بكر بن عبد الرحمن بن شَرَّاحِيلَ بِشَرَّاحِيلَ الحَضْرَمِي (ت ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م) ، قد كان من أقرب تلاميذ المحدث الإمام العلمري وأكثرهم التصاقاً به ، قرأ عليه في الحديث كثيراً حتى صار فيه ماهراً ، فكان معرفة الحديث هي الغالبة عليه مع مشاركته في غيره من الفقه والنحو ، صنف كتاباً واحداً على صحيح البخاري وصحيح مسلم والموطأ على غرار كتاب (مشارق الأنوار) للقاضي عياض ، وقد عُنُوته بـ (مفتاح السنة) ، وقد وصِفَ بأنه " كتاب مفيد في فقه ... " (١) .

وقد ترك الإمام العلامة إبراهيم بن أبي القاسم بن إبراهيم جعمان (ت ٨٩٧هـ / ١٤٩١م) مصنفات تدل على حسن اشتغاله بالحديث النبوي الشريف ، وأهمها كتاب (شرح بلوغ المرام من أحاديث الأحكام) (٢) وصاحب بلوغ المرام هو الإمام ابن حجر العسقلاني ، وله كتاب (عمدة المتحصنين بعدة الحصن الحصين) (٣) والعدة هو أحد كتب إمام المقرئين شمس الدين محمد بن محمد الحزري .

وكان شيخ الإسلام الإمام أبو عبد الله جمال الدين محمد بن أحمد بن علي بالفصل الحَضْرَمِي (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٨م) يشتغل بالحديث النبوي وغيره من علوم الشريعة وتدريسها في مدينة عدن ، وأغلب علماء عدن وحضرموت في النصف الثاني من القرنين التاسع والعاشر الهجريين من تلامذته وتلاميذهم ، وله مصنفات متعددة ، منها في علوم الحديث كتاب موضوع على (تراجم البخاري) ، يذكر فيه وجه مناسبة

(١) بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٥١ ، ابن الديبع ، بغية المستفيد ، ص ١٨١ ، السقاوي ، الضوء اللامع ، ج ١٠ ص ٢٢٤ ، زبارة ، أئمة اليمن ، ٣٥١ .

(٢) بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٤٧ .

(٣) السقاوي ، الضوء اللامع ، ج ١ ص ١١٧ .

(٤) منه نسخة مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (٦٣ تصوف) ، ونسخة أخرى في مكتبة الجامع الكبير الشرقية ، تحت رقم (٥٦ مجاميع) ، كما لي منه نسخة ثالثة في المكتبة التيمورية تحت رقم (٥١٠) ، ونسخة رابعة في الأمبرورياتا بإيطاليا تحت رقم (٦٧٨) ، انظر الحبشي ، مصنفات الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٩ .

الترجمة للحديث ، وفيه فوائد جمة^(١) وله أيضاً كتاب (سر الأسرار في تحرير أنكار الأنكار)^(٢) جعله مختصراً لكتاب (الأنكار من كلام سيد الأبرار) للإمام النووي .
وللشيخ الفقيه عمر بن عبدالله بن إبراهيم بن أحمد بجمال (ت ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م) كتاب في الحديث هو (الكتاب الجامع في أحاديث الشافعي)^(٣) ، وكما أن العلامة الفقيه الشهيد أحمد بن عبدالله بن عبدالرحمن بافضل الحصرمي (ت ٩٢٩ هـ / ١٥٢٣ م) قد اعتنى بالحديث واشتغل به ، وصنف فيه كتاباً جامعاً في أرواد الليل والنهار معناه (مشكاة الأنوار)^(٤) .

ومن المحدثين في اليمن في مدة الدراسة أيضاً الإمام جمال الدين محمد بن عمر بن مبارك بخرق الحصرمي (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م) ، وهو من ذوي الإجابة في العلوم المتعددة ، وله مصنفات في كثير من فروع المعرفة ، وله في الحديث النبوي والسنة المطهرة عدد من المصنفات ، منها : كتاب (الأسرار النبوية في اختصار الأنكار للنووية)^(٥) ، وله كتاب (تجريد المقاصد عن الأمانيذ والشواهد) ، وهو مختصر لكتاب شيخه الإمام الحافظ السخاوي (المقاصد الحسنة في الأحاديث الدائرة على السنة)^(٦) .

ومهم أيضاً للعلامة أبو عبدالله الحسين بن أبي بكر بن إبراهيم النزيلى (ت بعد ٩٣٩ هـ / ١٥٣٢ م) صاحب كتاب (العَلَمُ الشَّامِخُ فِي مَعْرِفَةِ مَنْمُوحِ الْحَدِيثِ وَالنَّاسِخِ) وقد انفرد بذكره الحبشي^(٧) .

(١) بمخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٨٤ .

(٢) منه نسخة مخطوطة في مكتبة الاحتفال لمخطوطات بتريم - حضرموت تحت رقم (١٢ مجاميع) رقم التسلسل ٦١٠ ، نظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٩ .

(٣) الثلثي ، السنا الباهر ، ص ٩٧ .

(٤) المبدروس ، النور الصافر ، ص ١٢٦ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

(٦) الثلثي ، السنا الباهر ، ص ٢١١ مع أن الحبشي لم يذكره ضمن شروح المقاصد الحسنة وشروحيها ، انظر الحبشي ، جامع الشروح والحوالي ، ج ٣ ص ١٧٩٠ .

(٧) مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٦٠ ، وذكر أن منه نسخة مخطوطة في مكتبة عضاض بصنعاء ، ونسخة أخرى بمكتبة بوهار في الهند تحت رقم (٤٦٥) .

وفي بلاد الزيدية برر عدد من خيار الأعلام الذي اشتغلوا بدراسة الحديث وتدرسه ، يأتي في مقدمة الجميع الإمامين المهدي أحمد بن يحيى المرتضى (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) والهادي لدين الله عز الدين بن الحسن (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٥م) ، فالأول منهما جلس بين يدي الإمام نفيس الدين العلوي ورتاد مجلسه واستجازه ، وله في الحديث كتاب (الأنوار في صحيح الآثار للنصبة على مسائل الأزهار) ويسمى أيضاً (الأنوار من كلام النبي المختار)^(١) ، والآخر قرأ على الإمام الحافظ يحيى بن أبي بكر العامري^(٢) ، وهناك عدد كبير من علماء الزيدية ورجالها أخذوا عن هذين الإمامين العالمين بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

وكان الإخوان الإمامان الهادي بن إبراهيم الوزير (ت ٨٢٢هـ / ١٤١٩م) ومحمد بن إبراهيم الوزير (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) من العلماء الذين كانت لهم علاقة وطيدة بالحديث والمحدثين ، فهما من تلاميذ النفيس للعلوي ، ولهما منه إجازات مشهورة ، وأخذ الحديث عنهم كثير من أبناء عشيرتهم وغيرهم في صنعاء وصعدة ، فأما الهادي فلم يُعرف له أثر تألّفي في الحديث ، وأما أخوه إبراهيم فله في مصطلح الحديث كتاب (تنقيح الأنظار في علوم الآثار)^(٣) رسالة في التعقيب على الإمام ابن حجر العسقلاني في علم الحديث^(٤) .

ومنهم أيضاً الإمام صارم الدين إبراهيم بن محمد بن عبدالله بن الهادي الوزير (ت ٩١٤هـ / ١٥٠٨م) وهو من رموز الزيدية وفرسان علومها ، كان

(١) منه نسخة مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (٢٦٤ مجاميع) ، ونسخة أخرى مكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (٢٠١٦) ، ومنه نسخة ثالثة في مكتبة ورثة المرحوم يحيى علي الذارحي ، ونسخة مصورة في مكتبة مركز بدر الطلي حطت سنة ١٠٧٦هـ بصنعاء ، وأخرى في مكتبة الأستاذ محمد عبدالعظيم الهادي بصعدة ، ونسخة سابعة في مكتبة العلامة عبدالرحمن شايه بصعدة أيضاً ، ونسخة سابعة في مكتبة العلامة محمد بن حسن المتمير ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٢٠٧ .

(٢) قد سبق تناول ذلك في الفصول الثاني والثالث والخامس .

(٣) منه نسختان مخطوطتان في مكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقمي (٣٨ ، ٨٦ حديث) ، انظر الحاشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٧ .

(٤) منها نسخة مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (٤٧ مجاميع) ، انظر المرجع السابق ، نفسه نفس الصفحة .

الحديث النبوي الشريف من العلوم التي كانت له يد فيها ، وله في علوم الحديث كتاباً عنوانه (الفلك الدوار المحيط بطرأب دليل المختار)^(١) .

في بلاد الزيدية أيضاً اشتهر بعلم الحديث الإمام العلامة محمد بن يحيى بن أحمد بَهْرَان الصنعدي (ت ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠ م) ، وقد انعكست معرفته بالحديث على مصنعاته في الفروع المعرفية الأخرى ، فراه عندما صنف كتاب (تنقيح القلوب والأبصار للاهتمام إلى كيفية اقتطاف أثمار الأزهار) في الفقه يقوم بتخريج أحاديثه واستدلالاته فيه إلى الأمهات الحديثية كما يفعل المحدثون ، كما أنه صنف في الحديث النبوي الشريف كتاباً منها : كتاب (حواهر الأخبار في تخريج أحاديث البحر الزخار)^(٢) ، ويعد كتابه (المعتمد من حديث سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمد)^(٣) أكبر ذخائره في الحديث ، فقد جمع فيه الأمهات الحديثية لست المشهورة ، اختصر فيه كتاب (جامع الأصول في أحاديث الرسول) لابن الأثير على غرار كتاب (تيسير الوصول إلى جامع الأصول) للحافظ ابن الدبيع الشيباني ، غير أنه رتب محتواه على أبواب الفقه^(٤) .

ومنهم أيضاً الإمام العلامة فخر الدين عبدالله بن القاسم بن الهادي بن إبراهيم العلوي (ت ٩٦٠ هـ / ١٥٥٢ م) ، فقد كان جامعاً لعلوم عديدة ، كان الحديث من ضمنها ، لذلك جاء في وصفه من قبل أحد تلامذته قوله : " ولما علمه فلم أرَ أعلم منه ... وأما اللغة والحديث والفقه واستحضر مسألة فهو - وإيماناً - أوجد من رأيت من أصحابنا للزيدية ... " ^(٥) .

ونختم بذكر الإمامين المحدثين والمؤرخين الكبيرين الإمام الحافظ وجيه الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الشهير بابن الدبيع الشيباني (ت ٩٤٤ هـ / ١٥٣٧ م) وأبو

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٨١ ، قحشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٩ ، ٦٠ ، وقد طبع مؤحراً وصدر بتحقيق محمد بن يحيى سالم عراني عن دار الحكمة البغدية .

(٢) منه نسخة مخطوطة في مكتبة آل الهاشمي ، ونسخة أخرى بمكتبة جامع شهادة ، كما أنه طبع ضمن كتاب البحر الزخار نفسه ، نظير الوجيه ، أهلام المؤلفين للزيدية ، ص ٢٠٧ .

(٣) منه نسخة مخطوطة الأمبروزيانا A37 في مجلدين كبيرين ، نظير المرجع السابق ، ص ١٠٢١ .

(٤) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ١١٠٦ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٢٨ .

محمد الطيب بن عبدالله بن أحمد بامخرمة (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) ، فأما ابن الدبيع فهو حافظ القرن العاشر بلا منازع ، ودرسه على يدي الإمام الحافظ أحمد بن أحمد بن عبداللطيف الشرجي (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م) والإمام الحافظ محمد بن عبدالرحمن السخاوي بمكة المكرمة^(١) ، ومفخرته في مصنفات الحديث كتاب (تيسير الوصول إلى جامع الأصول) الذي درسه واشتغل به العلماء في اليمن وخارجها مدة طويلة ، وأفوا على غراره عدداً من الكتب ، وذلك أنه يُعَدُّ البوابة التي يستطيع الراغب في علم الحديث من خلالها أن يلج إليه ، وفيه غنى تامة عن الكتاب الأم (جامع الأصول) للإمام ابن الأثير الذي جمع فيه كل الأمهات الحديثية ، وله أيضاً كتاب (تمييز الطسيب من الخبيث مما يدور على ألسنة الناس من الحديث)^(٢) وكتاب (التحفة اللطيفة في نظم أحاديث البعثة الشريفة) ، كما صنف أيضاً (التأييد في مختصر التقييد في رواية السنن والمسانيد) وجمع الأحاديث القدسية في مصنف واحد^(٣) ،

(١) يقول ابن الدبيع عن ذلك في ترجمة الذاتية التي كتبها لنفسه . " ثم من الله علي بصيرة شيخنا الإمام العلامة المحدث ، بقية أهل اليمن ، زين الدين أبي العباس أحمد بن أحمد بن عبداللطيف الشرجي - كان الله له - فأخذت عليه علم حديث رسول الله ﷺ وكان هو المرشد إلى تلك - جراه الله عني خير الجراء - فقرأت عليه صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وموطأ الإمام مالك والشافعي للقاضي عياض وجميع مؤلفاته ومصنفاته وما لا يحصى من الأجرواء وكتب للطيفة ، وبه تخرجت وتفتحت ... وهو الذي علمني صيغة التأليف والتصنيف والترصيف والنصيف ، وارتحلت في حياته إلى بيت الفقيه ابن عَجَلْ لزيارة الفقهاء بني جهمان ... ثم حججت الحجة الثالثة في سنة (٨٩٦هـ / ١٤٩١م) ... فس الله علي بقاء الشيخ الإمام حافظ العصر ، مسدد الدنيا ، فريد الوقت ، شمس الدين أبي الخير محمد بن عبدالرحمن السخاوي المصري الشافعي فيها ، فصحبته وفتنت به وأخذت عليه علم الحديث النبوي ... " ابن الدبيع ، بقية المستفيد ، ص ٢٢٩ - ٢٣١ .

(٢) منه نسخة مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير بغربة تحت رقم (٢٠٧ حديث) ونسخة في مكتبة برلين تحت رقم (١٢٣١) ، ونسخة ثالثة في برستون تحت رقم (١٤٦٩) ، وقد طبع في القاهرة سنة ١٣٢٤هـ ، ثم طبع مرة أخرى في القاهرة أيضاً سنة ١٣٤٧هـ ، انظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٦١ .

(٣) منه نسخة مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (١٨٩ حديث) ، ونسخة في مكتبة دار بونس تحت رقم (٨٧٠) انظر المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

وقام كذلك بوضع كتاب (مصباح مشكاة الأنوار من صحاح أحاديث النبي المختار)^(١) .

وأما المحدث الآخر الطيب بن عبدالله بامخرمة الحضرمي العدني (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) فقد كان أبرز علماء عدن في النصف الأول من القرن للعشر ، ونقل عنه أحد تلامذته أنه قال أن إجادته في العلوم تشمل أربعة عشر علماً ، كان الحديث النبوي واحداً منها ، وله في الحديث كتاب (شرح صحيح مسلم) قيل أنه يتشابه كثيراً مع شرح الإمام النووي ، وله في علم الحديث كتاب (رجال مسلم)^(٢) غير أن هذين المصنفين - للأسف الشديد - يُعدّان من ضمن روائع التراث اليمني المفقودة .

ونشير هنا إلى أن علماء اليمن قد كانت لهم - في إطار الاهتمام بالحديث النبوي الشريف - عناية خاصة بالأربعيات في الحديث^(٣) ، فكان بعضهم يقوم بجمع أربعين حديثاً في موضوع معين ، تتقاطع فيما بينها في الغالب في وحدة الرواة أو وحدة الموضوع الذي تعالجه أو ما سوى ذلك ، ومن علماء اليمن الذي كتبوا فيها ننكر إمام المحدثين اليمنيين الإمام نفيس الدين سليمان بن إبراهيم العلوي (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢١م) ، فقد جمع أربعين حديثاً من مرويات الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام^(٤) ، كما

(١) منه نسخة مخطوطة في المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة تحت رقم (٨٢ حديث) ، ونسخة في مكتبة الأحفاف للمخطوطات بمدينة تريم - حضرموت تحت رقم (١٤٠) انظر المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) السحروس ، النور المسافر ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، الشُّلي ، معنا الباهر ، ص ٣٤٩ - ٣٥١ .

(٣) أورد الإمام النووي في مقدمة الأربعين النووية الشهيرة دواعي اقتدار هذا النوع من التصنيفات في الحديث فقال : * روي عن علي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود ومعاذ بن جبل وأبي الحرداء وابن عمر وابن عباس وأمس بن مالك وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم أجمعين من طرق كثيرة بروايات متنوعة أن الرسول ﷺ قال : * من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها بعثه الله يوم القيامة في رمة للفقهاء والعلماء * وفي رواية * بعثه الله فقيهاً عالماً * .. وافق الحفاظ على أنه حديث ضعيف وإلى كثرت طرقه * فنووي ، الأربعين حديث النبوية ، مكتبة المجد العربي ، القاهرة ، (٥ د) ، ص ٣ ، ٤ ، ٥ .

(٤) مخطوط صغير ، منه نسخة في مكتبة الأستاذ عبدالله الحبشي ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٦ .

صنف كتباً جمع فيه أربعين حديثاً حول فرضية الجمعة^(١) ، وخرّج له الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني أربعين حديثاً من مروياته أطلق عليها (الأربعين المهدية)^(٢) .
ومنهم أيضاً الإمام العلامة صفى الدين أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن محمد البريهي (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م) الذي جمع أربعين حديثاً سماها (الأربعين النافعة في بيان رحمة الله والواسعة)^(٣) .

ومن أصحاب العناية بالأربعينات القاضي للعلامة جمال الدين محمد بن عمر بن محمد بن صالح البريهي (ت ٨٣٦هـ / ١٤٣٢م) ، إذ ذكر في ترجمته أنه جمع أربعين حديثاً في المعجزات والكرامات التي صحت لمسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك أربعين حديثاً أخرى في مناقب الحلفاء الأربعة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم جميعاً^(٤) .

وللإمام المحدث الحافظ أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م) أربعين في الحديث عنوانها (المختار من مطالع الأنوار) ، نقل الحبشي^(٥) - عن المؤرخ زبارة في وصفها أن الشرجي " لورد عقب كل حديث حديثاً في الطب وفائدة من كتاب الله وغيره وحكاية لطيفة رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم " .

ومنهم أيضاً ثلثان من العلماء الناشئين هما : للفتية جمال الدين محمد بن عبد السلام الناشري (ت ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م) الذي جمع أربعين حديثاً في فصل التوسعة^(٦) ، والإمام حمزة بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي بكر الناشري (ت ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م) ، فقد صنف كتاب (الأربعون التهليلية) ، ولم يفصح المصنوع عن موضوعها^(٧) .

(١) منه نسخة خطية مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (٧٣ مجاميع) ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٦ .

(٢) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٣ ص ٢٥٩ .

(٣) البريهي ، طبقات سلحاء اليمن ، ص ٩٩ .

(٤) المصنوع السابق ، ص ١٤٠ .

(٥) مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٨ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(٧) المدروس ، النور السافر ، ص ١٢٩ .

ونختم حديثنا عن الحديث وعلومه لدى علماء اليمن في مدة الدراسة بتناول إحدى أشكال اهتمام اليمنيين به ، وهو حفظ أسانيدهم وطرق روايتهم له ، إذ أن المحدثين في اليمن - كغيرهم في بقية أقطار الإسلام - كان حرصهم على سلامة الحديث وروايته وإسناده نابعة من علمهم بأهميته ، فقد وردت في المصادر عددٌ من أقوال أئمة العلوم الشرعية والمحدثين التي تبين أهمية هذا الجانب في دراسة الحديث النبوي الشريف وعلومه ، من ذلك ما قلله عبدالله بن طاهر أن : " رواية الحديث بلا إسناد من عمل الذمّي " ، فإن إسناد الحديث كرامة من الله عز وجل لأمة محمد ﷺ^(١) ، وقال ابن حزم : " نقل الثقة عن الثقة كذلك حتى يبلغ إلى النبي ﷺ ... خص الله عز وجل به المسلمين دون سائر أهل الملل كلها ، وألقاه عندهم غصاً جديداً على قديم الدهور "^(٢) ، وفي هذا الباب يقول الإمام عبدالله بن المبارك : " لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء "^(٣) .

وقد أدرك العلماء والمحدثون اليمنيون تلك المعاني الدالة على أهمية هذا الجانب في علم الحديث الشريف ، وعلموا أن الإسناد جزء لا يتجزأ من روايته ورواية كل الأجزاء والكتب والأهليات والسنن والحديثية ، فاشتد حرصهم على تحصيل الأسانيد العالية من حفظ عصرهم ، كما اشتمت عنايتهم بضبط الرواية وتلقيها من أقصاه مشايخهم لحفظ سلسلة الإسناد ، وقاموا بتكوين اتصالهم بالشيوخ ووصف طرق أحدهم عنهم بالسماع كان أو بالإجازة ، وأطلقوا عليها (المشيخات)^(٤) (أو (المعاجم^(٥)) لو

(١) السمعاني ، آداب الإملاء والاستملاء ، ص ٦ .

(٢) ابن حزم ، الفصل في الملل والأهواء والنحل ، تحقيق د. محمد إبراهيم نصر وآخر ، دار عكاظ ، جدة ، ١٩٨٢م ، ج ٢ ، ص ٢٢١ .

(٣) السمعاني ، آداب الإملاء والاستملاء ، ص ٧ .

(٤) مفرد مشيخة ، وتطلق على التلاميذ التي يجمع فيها الإنسان شيوخه بالسماع أو الإجازة ، ويكون ترتيب ذكر الشيوخ فيها أبجدياً ، وقد أصبح المحدثون المتأخرون يستعملون مصطلح (الثبوت) بدلاً عنه ، الكتاني ، فهرس الفهارس والأكتبات ، تحقيق د. إسماعيل عباس ، دار الغرب الإسلامي ، ط ٢ ، ١٩٨٢م ، ج ١ ، ص ٦٧ - ٧١ ، ابن حجر ، المجمع المؤسس للمعجم المفهرس ، تحقيق د. يوسف عبدالرحمن المرعشي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٢م ، ج ١ ، ص ١٠ ، ١١ من مقدمة المحقق ، عبدالله قائد العبادي ، الحياة العلمية في زيب ، ص ٢٦٤ .

(٥) قيل أن المعاجم مرادف للمشوحات ، والتأرق بينهما أن المعلم يكون ترتيب السمع من العلم فيها على أسماء الكتب لا على الترتيب الأبجدي لأسماء الشيوخ ، عبدالله قائد العبادي ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(كراسات المشايخ والأسانيد) ، وقد امتد اهتمامهم بمحتواها حتى أضحي يشمل كل طرق تحصيلهم للعلوم كلها وليس الحديث وحده ، ويبدوا أن وجودها لدى كل عالم كانت من الأهمية بمكان إلى درجة لبداية ، فكانت الإشارة إليها لا تأتي إلا عرضاً^(١).

من المشيخات التي نذكرها هنا مشيخة الإمام الحافظ نفيس الدين سليمان بن إبراهيم العلوي (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢١م) ، وهي التي قال ذكرها المسخاوي - بعد استعراضه لشيوخه بقوله : " وخلق تجمعهم مشيخته "^(٢) ، وترك القاضي جمال الدين محمد بن سعيد بن علي بن محمد كسب الحضرمي (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) ثبتاً في تراجم الشيوخ والأسانيد^(٣).

وهناك أيضاً (معجم) الإمام الحافظ أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م) الذي ضمنه تراجم لشيوخه الذي أخذ عنه بالسماع^(٤) . ووردت الإشارة لدى المؤرخ البريهي^(٥) في ترجمته لشيخ الإسلام الإمام الحافظ محمد بن أبي بكر بن محمد بن صالح للخياط (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م) بأن له كراسة جمع فيها مشايحه وأساتيده وأتباعه .

وكان للإمام العلامة الفقيه قاضي القضاة جمال الدين محمد الطيب بن أحمد بن أبي بكر الناشري (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) - وهو أحد أشهر علماء اليمن وقضاة - مشيخة جعلها في كراس ، وشمل فيها كل مشايحه وأساتدته لما كثروا ، واحتفظ بمشيخته هذه لديه ، وقد أشار إليها تلميذه المؤرخ البريهي في ترجمته له^(٦) .

وقد وردت الإشارة كذلك إلى وجود (معجم) للإمام الحافظ وجيه الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الشهير بابن الدبيع الشيباني (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م)

(١) المرجع السابق ، نفس الصفحة.

(٢) المسخاوي ، الضوء الماسع ، ج ٣ ص ٢٥٩ ، وذكره فحشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٦ بسم (منايد الطوي) وذكر أن منه نسخة مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير الغريبة تحت رقم (٨٦ مجاميع) .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٧ .

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة ، الشرجي ، طبقات الخواص ، ص ٧ .

(٥) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٣٠ .

(٦) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣١٨ .

جمع فيه شيوخه وأساتيده^(١)، ولعله هو نفسه المسمى (أسابيد ابن الدبيع عن شيوخه الشرجي عن نفيس الدين العلوي)^(٢).

وكانت الزيدية حريصة جداً على الاحتفاظ بمعرفة الإسناد في علومها ، والحديث من بينها، وألفت في تلك كتباً خاصة حوتها ببليوجرافيتها ، من ذلك - في مدة دراستنا - مشيخة الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير (ت ٨٢٢هـ / ١٤١٩م) حوت إجازاته وأساتيده^(٣) ، ومثلها كذلك مشيخة الإمام عز الدين بن الحسن بن الهادي بن علي بن المؤيد (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٥م) التي جمعت مسنده وأسماء مشائخه وإجازاتهم^(٤)، وكذلك كان مثلها مشيخة العلامة علي بن الإمام المتوكل يحيى شرف الدين^(٥).

وفي الجملة فقد كانت عناية اليمنيين بالحديث النبوي كبيرة ، وبصور متعددة ، وما لوردناه هنا ليس إلا طرفاً من أخبار المبرزين فيه ، ومن أكتبت المصادر عنايتهم للخاصة بالحديث النبوي والسنة المطهرة ، دراسة وتكريماً وتأليفاً ، وهناك أعداد كبيرة من العلماء وردت الإشارة - هامشية - إلى عنايتهم بالحديث وعلومه ، وأخبرتنا بدراستهم له وقراعتهم فيه على أيدي رجاله وأئمة الحفاظ ، وأشهر من تم حصرهم وعرضنا عن ذكرهم هنا هم حوالي خمسة وعشرين عالماً في مصادر الدراسة^(٦).

(١) الحبشي ، مصنف الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٦١ .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير القربية تحت رقم (٨٦ مجاميع) ، انظر للمرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) ومنها نسخة خطية ضمن مجموع بمكتبة المرئسي الوزير ، بجمرة بيت السيد في وادي السمر بيني حنيش ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٧٢ .

(٤) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٦٧١ .

(٥) المصنف السابق ، ج ١ ص ١١٧ .

(٦) قطر ثلجهم وطرفاً من أخبارهم لدى الأهدى ، تحفة الزمن في تاريخ ملوك اليمن ، ج ٢ ص ١٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٩٩ ، القريشي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٥٤ ، ٦٤ ، ١٢٥ ، ١٥١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٩ ، ٢٨٤ ، ٣١٣ ، بالمخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٦٧٩ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ .

الفقه :

الفقه في اللغة هو الفهم ، وفي الاصطلاح هو العلم الذي يختص بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية^(١) ، وهو التصديق بالقضايا الشرعية المتعلقة بكيفية العمل تصديقاً حاصلاً من الأدلة التفصيلية التي نصت في الشرع على تلك القضايا^(٢) .

والفقه مكلفة عالية في حياة كل المسلمين بلا استثناء ، ومعرفة أسسه وما يرتبط منه بلوازم الحياة اليومية فرض عين على كل فرد ، ولعله المشار إليه في الحديث الشهير : " طلب العلم فريضة على كل مسلم " ^(٣) ، والفقه هو الذي يترتب عليه تنظيم أحوال الفرد المسلم والمجتمع المسلم وسلوكهم وتعاملاتهم وعباداتهم على مقتضى مراد الله تعالى وبحسب نصوص القرآن والسنة المطهرة وما رافقهما من مصادر أقرها فقهاء الشريعة وأجمعت عليها الأمة .

وإذا كان تعلم أبجديات العبادة والمعاملات مما تُعَيَّن على كل مسلم فإن الله تعالى قد افترض (كفاية لا عيناً) على الأمة والمجتمع - ككل - القيام بالانغمق في دراسة الفقه بتفصيلاته ، وتظل الأمة ملزمة به ما لم تتصدر طائفة منها للقيام به ، وهذا المعنى هو الذي تشير إليه الآية للكرامة : وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ يُنْفِرُوا كُلَّهَا فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١١﴾ وهذه الطائفة هي المنتدبة للقيام بمهمة تعليم باقي الأمة للقدَر

(١) الجرجاني ، كتاب التعريفات ، ص ٢١٦ ، الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، ج ٤ ص ٢٩١

(٢) القزويني ، أبعاد العلوم ، ص ٤٥٨ .

(٣) ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، ج ١ ص ٨١ ، رقم (٢٢٤) ، باب (فضل العلم والعلماء والعلم على طلب العلم) .

(٤) سورة التوبة .

المفروض عليها من التعلم ، ورغب النبي ﷺ المسلمين في أن يكونوا في عداد هذه الشريحة أو الطائفة فقال ﷺ : " من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين " (١) .

وفي ظل الحاجة العلمية الخاصة والجماعية إلى الفقه اتجه كثير من أبناء اليمن للتعلم في دراسته حتى أن المطلع على المصادر من كتب التراجم والتواريخ ليكاد يجد صفة (الفقيه) لازمة لمعظم علماء اليمن - إن لم نقل : كلهم - حتى لو كان لهم اهتمام كبير بفهم الفقه أيضاً ، فقد كان للفقه يدرس بعناية كبيرة في كل المراحل التعليمية .

ولا ننسى أن التدافع المذهبي في اليمن كان واحداً من العوامل التي أنكت جنوة هذا العلم فجعلته دائم للحضور في ذهن العالم والمثقف ، وكانت رغبة الإسهام في نصرة المذهب تبرز في محبة الكثير من المنصفين بالعلم والطالبين له ، إلا أن تبلور القناعة ورسوخها بأن زمن الاجتهاد قد ولى وأغلق بانه جعل التقليد يغطي بشكل مذهل في تلك الفترة من تاريخ اليمن ، فلا نجد من الكتب الفقهية المصنفة عصرئذ إلا ما هو اختصارات وشروح وحواشي على أمهات الكتب الفقهية المذهبية الشائعة ، ولا نستطيع أن نستثني من ذلك الزيدية الذين كانوا دائمي الدعوة إلى الاجتهاد وجعلوه شرطاً أساسياً للإمامة - على المستوى النظري - إلا أنهم لم يخرجوا في الغالب على ما أقره أسلافهم في القرون الماضية .

وعلى العموم فقد احتل الفقهاء في مدة دراستنا مكانة عالية لدى الحكام والعامه ، وكان الجميع يقربونهم ويولونهم احتراماً خاصاً ، وقد استعرضنا بعض صور تلك العناية في الفصل الخامس ، ومنها أن السلاطين كانوا يعفون أراضي الفقهاء من الخراج الذي يفرض على غيرها من أراضي المزارعين .

ظروف نشأة المذاهب والفرق الإسلامية وأسبابها :

إننا في لحظة التأهب للحديث عن الفقه وأصول الفقه ، وعن علم الكلام وأصول الدين ، واهتمام علماء اليمن وأوساطها العلمية بها ، وما صنغه اليمنيون فيها ، في تلك اللحظة نجد أنفسنا مجبرين على الوقوف - وقفة تمهيدية عابرة - توطئ للتسلسل الذي

(١) ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، ج ١ ص ٨٠ ، رقم (٢٢٠) ، ورواه (٢٢١) ، باب (فضل العلماء والحث على طلب العلم) ، البخاري ، صحيح البخاري ، ج ١ ص ٣٩ ، رقم (٧١) ، باب (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، مسلم ، صحيح مسلم ، ج ٢ ص ٧١٨ ، رقم (١٠٣٧) ، باب (انتهى عن المسألة) .

جرت عليه الأمور والأحداث لكي تستقر الأوضاع المذهبية والتفادية على الشكل الذي استقرت عليه في مدة دراستنا ، من بداية القرن التاسع الهجري حتى وقوع اليمن تحت السيطرة العثمانية في منتصف القرن العاشر الهجري .

نقول : لقد قضى الله سبحانه وتعالى أن يكون الاختلاف والتنوع سرّين من أسرار الحياة ومُسْتَتَبَيْنِ من سننه المرمدية التي وضعها في هذا الكون وقضى بسرّياتهما ، فكانا أبرز سمات الوجود الإنساني ومن أؤكد ضرورات الاجتماع البشري وأصوله ، وعلى المستوى الإنساني فإن الاختلاف والتنوع لا يعدان فقط من أصول الاجتماع البشري ، بل إنهما أيضاً مما تدعو إليه الفطرة وتقتضيه الطبيعة الإنسانية ، فهما من ظواهر الوجود التي أودعت في الإنسان ، فمن وجهة نظر الإسلام أنه لولا سنتي الاختلاف والتنوع لاستحالت الحياة ، وبعبابهما يفقد الإنسان جزءاً عزيزاً من مكانته التي كرمه الله بها، إذ سواه وبفخ فيه من روحه ، ثم منحه العقل وعلمه البيان وفضله على كثير من المخلوقات ، واستخلفه في الأرض وسخر له ما في الكون جميعاً ثم هيأ له مبادئ الروابط السامية التي تمكنه من الترفع عن كل تسفل ، وتدعوه إلى التعاون مع نظيره في عمارة الكون وتبجير المصالح وتبادل المنافع .

ومن صور التنوع والاختلاف لدى البشر التنوع الاجتماعي والديني والثقافي ، ومما يمكن إدراكه أن الإنسان كلما ارتقت قدراته الاستيعابية ، وكان واعياً بحقيقة الاختلاف باحثاً في الكون مكتشفاً لأسرارها ، كلما اتسعت دائرة علمه ومعارفه وخبراته، ومن شأن ذلك أن يثري الحياة الإنسانية على كل أصعدة مستوياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ومما يترتب على ذلك أيضاً للتنوع والاختلاف في ثقافتهم .

وقد أسهم في تطوير الحضارة الإسلامية أنواع عديدة من العناصر والأجناس والأديان المختلفة التي انضوت تحت نطاق نفوذها ، فساهمت في إثرائها ثقافات متعددة، لأن للجميع شارك بثقافته في تشييدها وازدهارها ، وكل ترك له بصمة في ناحية من النواحي الحياتية فيها ، وهذا التعدد في الإسهامات الثقافية من شأنه أن يغني أي حضارة ويعززها وينميها ، وعلى النقيض من ذلك ، الحضارة التي تقوم على لون واحد أو شكل واحد أو صورة واحدة تعد حضارة فقيرة .

لا يمكن فهم ظاهرة نشوء المذاهب والفرق في المجتمع الإسلامي بمعزل عن استحضار مفهومي التنوع والاختلاف السابق ذكرهما باعتبارهما أسس تفسير وتعليل بروز الظاهرة ووجودها ، ولا شك أن اختلاف الناس في امتلاك قدرات التفكير والعم

والاستيعاب ، وتمليزهم في توافر عدد من المَلَكَات والمواهب المختلفة ، وتنوع أهوائهم ورغباتهم الشخصية والجماعية القائمة على أسس الأنساب والمطامع وحب جلب المصالح والحماس لتحقيق الغايات والمرامي المتنوعة ، لا شك أن ذلك كله كان حاضراً بقوة في وصف ولادة الفرق والمذاهب .

يظل هناك عاملان أساسيان لهما أبلغ الأثر في نشوء المذاهب والفرق الإسلامية، هما : العامل الثقافي بكل ما يندرج تحته من تفصيلات نقيته سنأتي على ذكرهما ، والعامل السياسي بكل تعقيداته .

دور العامل الثقافي قديم ، تبدأ جذوره من تباين مستويات الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين - باعتبارهم قنوات نقل الإسلام إلى الأجيال التالية بالصورة المباشرة ، كما في عصر التابعين ، أو بالصورة غير المباشرة مع الأجيال التالية للتابعين - في الفهم الاستيعاب أولاً ، وفي مقدار الحصيلة العلمية التي تلقوها عن النبي ﷺ ثانياً ، فمن المعلوم أنهم كانت لهم مصادر رزقهم التي يطلبونها ، لأنهم لم يكونوا في أسر وفسحة من المعيشة ، فمنهم التاجر الذي يندو إلى الأسواق ويعسها طلباً لقوته وقوت عياله وما يجهز به نفسه للغزوات الكثيرة ، ومنهم من كان منهمك في إصلاح نخله ومزارعه ، وكانوا جميعاً - مع كل ما هم فيه من شدة وضيق - حريصين كل الحرص على ألا يضيع أحد منهم فرصة في الجلوس إلى النبي ﷺ والاستفادة منه إذا وجد أدنى فراغ مما هو فيه ، وكان بعضهم أوفر حظاً في هذا الجلوس من بعض ، وذلك لقلة مشاغلهم لعدم توافر مجالات ثابتة لهم للعمل والتكسب ، أو لارتباطهم برسول الله ﷺ بخيمته وما إليها ، فكانوا أكثر سماعاً من النبي ﷺ ، ومن هؤلاء أنس بن مالك خادمه ﷺ وأبو هريرة رضي الله تعالى عنهما .

ومن المعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستفتي ويحضر فتواه بعض الصحابة دون بعض ، وكان يفتي ويحضر قضاءه بعضهم دون بعض ، وكان ربما أمر بأمر أو نهى عن فعل في غير موقفين للفتوى والقضاء ، ويحضر ذلك بعضهم دون بعض ، فلا يعقل أن يحيط أحدهم بكل ما صدر منه ﷺ ، وهو ما أدرکه الصحابة - رضوان الله عليهم - فلم ينكر على بعضهم ، مقدمين الثقة الكبيرة القائمة بينهم في خبرة الجميع على الدين وحرصهم على تبليغه ، فلما فتحت البلدان ومُصِرَّتْ الأمصار تفرق الصحابة فيها ، واستقر مقام كل مجموعة منهم في مصر ، فكانت تنزل النازلة

بأهله أو يبرز في مواقف حياتهم ما يستدعي السؤال ، ففتى فيها من نزل بينهم من الصحابة ، وربما كانت هذه الفتوى مستندة إلى عموم أو اجتهد شخصي ، حتى لو كانت المسألة قد ورد فيها نص يخصها غالب عن أفتى هذه الفتوى ، وتلقف علم الصحابة لأجيال من أبناء الأمصار المختلفة ، فتباينت مواقفهم وتوعدت تبعاً لذلك .

وبعد انقراض عصر الصحابة سار على نهجهم طوائف من التابعين الذين تتلمذوا على أيديهم ، فظلوا يفتنون بما استقر عند من أذكوه من الصحابة وتعلموا على يديه ، ومن هنا طغت آراء ابن عمر على فتاوى من بالمدينة من التابعين ، وكذا الحال بالنسبة لأهل مكة مع ابن عباس وبالنسبة لأهل الكوفة مع الإمام علي وابن مسعود رضي الله عنهم ، فلم يكن أهل مصر يخرجون عن فتوى من رويوا عنه إلا نادراً ، وامتد النهج نفسه عند ظهور جيل ما بعد التابعين كأبي حنيفة بالعراق وابن جريج بمكة ، ومالك بن أنس الأصبحي بالمدينة ، وعبدالرحمن الأوزاعي بالشام ، والليث بن سعد بمصر ، إذ جرى هؤلاء الأئمة على نفس طريقة من سبقوهم ، وهنا بنرت نويات المذاهب للفقهية والفكرية في المجتمع الإسلامي ، فتمت واستعالت أشجاراً بأسفة صمد معظمها رغم مرور الزمن وتقلص الأيام .

إلى هنا كان الاختلاف قائماً في أبهى صورته الإيجابية ، فقد كان اختلاف تنوع وتعدد ، ولم يحمل في طياته أشكال الخلاف والتناقض ، بل اقترن الرأي مع مغايرة في تناسق وانسجام ، وأجمع المسلمون - بداهة - على قبول تعدد آراء الأئمة والعلماء المجتهدين ، فتعددت مدارس العلم في كل جانب من جوانب المعرفة ، فكانت مدارس المفسرين والمحدثين والأصوليين والفقهاء ، وتجاوز التعدد مجالات العلوم الشرعية ورافقها إلى غيرها لتتفرع مدارس النحاة والأدباء والمؤرخين وغيرهم .

أما العامل السياسي فكان له دوره في نشوء الفرق والمذاهب بشكل أقل من أن يوصف بالتأثير المباشر رغم قوته ، فقد كان الموقف السياسي هو الدافع الرئيس وراء نشوء فرق الشيعة - من ناحية كونها مذهب فكري وفقهي لا من ناحية كونها مجموعة مسلمة لها رؤاها في الفكر السياسي - وبالمثل فإن الكلام نفسه ينطبق على الخوارج الذين تجمعوا في البداية حول موقف سياسي أصبح فيما بعد مشروعاً متكاملأً أو شبه متكامل ، ومع مرور السنين وتتابع الأحداث ، أصبحت الآراء للفكرية والفقهية المرتبطة بالفرق ذات المشاريع السياسية ، وكذلك آراء العلماء وكبار الفقهاء والمحدثين مذاهب ومدارس لها شخصياتها الاعتبارية على أرض الواقع ، وجاءت الأجيال

لنتحس لهذا المذهب والفرقة أو تلك ، وبلغت الحماسة حد التعصب ، واعتمدت للدول بعض المذاهب حتى صارت مرتبطة بوجودها ، وسارت في ظلالها ، تتمدد مع امتدادات سيطرتها وتتحسر بانحسارها ، إذ - على سبيل المثال - ارتبط المذهب الحنفي بالدولة العباسية والمذهب المالكي بالكينانات السياسية القائمة في المغرب والأندلس كلها .

ومما يجدر الإشارة إليه هنا إلى أن كثير من لوجه الاختلاف والتنوع بين المذاهب والمدارس والفرق كان مرده - بالإضافة إلى ما سبق - إلى اختلافات في الفهم الفخري والدلالي - الحقيقي والمجازي - لبعض العبارات أو المفردات الواردة في النصوص القرآنية والنبوية وتأويلها ، أو في تقييم أكلة الأحكام الحديثة من ناحية القوة والضعف واستحقاق بلوغها درجة الاستدلال بها ، أو اشتراط البعض لصحة الدليل شروطاً لا يقرها البعض الآخر ، أو مدى لتساع وضيق مساحة التأويل الظاهري الصريح والباطني المتضمن للنصوص القرآنية والنبوية ، وكذلك مشروعية القياس والالتفات إلى العال والمقاصد الكامنة وراء نصوص الأكلة ، وذلك كله يأتي مرتكزاً على قاعدة تفاوت قدرات الناس في الفهم والاستيعاب والاستنباط مع افتراض سلامة النية لدى الجميع في الخيرة على الدين والسعي لخدمته والتعبد بها .

غير أن تشتغل أتباع كل مذهب بجمع أقوال إمام مذهبهم وكبار علمائه ، ووضع أصول للمذهب وتقييد قواعده قد أسهم في توسيع دوائر الخلاف إلى أن أصبحت مواطن الالتقاء قليلة جداً ، ونشأ في إطار ذلك الخلاف حول القواعد العامة فنتج عن ذلك اختلاف كبير في الفروع نفسها ، واتسعت دوائر الخلاف أكثر حتى شملت أتباع المذهب الواحد والفرقة الواحدة ، فبرزت في ثنايا بعضها مدارس يدعو بعضها إلى الأخذ بما قام عليه الدليل ولو لم يكن هو (مشهور المذهب) ، ودعا بعضها الآخر إلى الأخذ به ولو خالف الدليل .

خارطة المذاهب الفقهية في اليمن في مطلع القرن التاسع الهجري :

مع إطلالة القرن التاسع الهجري كانت خارطة الفرق والمذاهب في اليمن قد تشكلت واتخذت أبعاداً شبة محددة في ملامحها الفقهية والفكرية والعقيدية ، وقد تناولت مجموعة من الدراسات الحديثة الحياة المذهبية في اليمن في مرحلة ما قبل مدة دراستنا بشكل يتضمن الكثير من التفاصيل ، وقد تمت الإشارة إلى أشهرها في الفصل الأول

من هذه الدراسة ، وفي تلك الدراسات المتخصصة ما يغنينا عن تكرار تناول الكثير من محتواها هنا ، ولأن السياق والحدود الزمانية للدراسة لا يتيحان الحيز الكافي لتفصيل كثيرة .

أهم ما يمكن للتأكيد عليه هنا هو أن الفرق المذهبية والفكرية التي صمدت واستقرت راسخة في أرض الواقع اليمني في مطلع القرن التاسع الهجري هي فرقتان رئيستان : السنة والشيعة ، فقد انعدمت الإشارة تعاملاً إلى الخوارج ، حتى أن المطلع على المصادر اليمنية المتوافرة يلحظ اختفاء ذكرهم وعدم حصول أي تناول لفكرهم ولو من باب كونه تراثاً كان قائماً في اليمن ، وقد انحصر وجود أهل السنة - من الناحية الفقهية - تحت لافتتي (المذهب الشافعي) و (المذهب الحنفي)^(١) ، وإن كانوا

(١) كل مذهب الإمام مالك بن أنس لأصحبي - ومعه مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان - أقدم المذاهب الفقهية السنية حضوراً في اليمن ، ويبدو أن من عوامل ذلك الحضور القديم أن للإمام مالك رحمه في اليمن ، فهو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر لأصحبي من ذي لصبغ وهي بطر من حمير إحدى أشهر القبائل اليمنية الكبرى - وقد أشارت أقدم المصادر اليمنية إلى تنبؤ عدد من كبار علماء اليمن على يدي الإمام مالك في المدينة ولخذهم العلم عنه ، ولما كانت لم تصرح بكون أكثرهم تبعوا مذهبه الفقه وقاموا بشره ، ومن البديهي أنهم مثلوا جسوراً وفنونا فنقل خبرها فقه إلى اليمن ، ومن أشهر من وردت الإشارة إلى تنبؤهم على يدي مالك الإمام أبو قرعة موسى بن طارق الزبيدي (ت ٢٠٢هـ / ٨١٨م) صاحب (سنن أبي قرعة) التي كان قال عنها الجدي : " ولم يكن أهل اليمن يعملون في معرفة الآثار إلا عليه ، وذلك قبل دخول الكتب المشهورة " ، وأكثر الإشارات صراحة إلى الشخصية التي حملت مذهب الإمام مالك بن أنس - بعد نقلها إليه مباشرة عنه - وتنبئت نشره في اليمن هي شخصية الإمام علي بن محمد بن أحمد التباعي الحميري (يرجع لر تاريخ وفاته كان في أواخر القرن الثاني لوقى بداية القرن الثالث الهجري) ، يقول عنه الجدي : " وكان هذا علي من أدرك الإمام مالك بن أنس وأخذ عنه ، وعنه انتشر مذهبه في اليمن ... ومن دريته فقهاء وصاب للدين يعرفون بالتباعيين " ، وقد أدرك ظهور حملة فقه الإمام الشافعي ونشاط دعاة الشيعة من الرينية والإسماعيلية في أواخر القرن الثالث الهجري إلى انحصار مذهب الإمام مالك حتى خفت ذكره ، وهو ما يؤكد أن رجاله كانوا من القلة بحيث لم يحفظوه ويعملوا على نشره بالنظر الذي يضمن تجذره وترسيخه كما حظيت به المذاهب الأخرى ، ولا يُعفل تأثير فقدان هذا المذهب لمكانته الكبيرة التي كان يتمتع بها في بلاد الحجاز وانتقال غلبته على مجري مكة المكرمة والمدينة المنورة إلى المذهب الشافعي فتجف بذلك السبع الذي كان يفترض به رقد قواعده بالمنصر الجديدة ، ولهذا لم يأتي القرن الخامس الهجري إلا وقد أصبحت الإشارات إلى وجوده نادرة ، وتعود آخر الإشارات في المصادر إلى وجود مالكية في اليمن إلى القرن السابع الهجري ، ونظير ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ٥ ص ٢٨٧ ، ابن الجوزي ، المتنظم ، ج ٩ ص ٤٢ ، لأذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٨ ص ٤٨ ، لياقني ، مرآة الجنان ، ج ١ ص ٢٩٠ ، السامري ، غربال الزمن ، ص ١٦١ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ج ٤ ص ١٧٨ ، لأذهبي ، تكملة الحفاظ ، صحتها وعلق عليها

على غير انسجام أو اتفاق من الناحية العقائدية إلى حد ما ، إذ تتلزعززعهم العقيدة الحنبلية^(١) والأشعرية ، وأضافت بعض عقائد الغلاة من الصوفية بعداً ثالثاً للتنوع بينهم ، كما سيأتي بيانه قريباً ، وأما الشيعة فقد مثلتهم - من الناحية الفقهية والعقائدية - الزيدية والإسماعيلية ضمن امتداد قديم يبدأ من النصف الثاني للقرن الثالث الهجري ، غير أن الحصول على مصادر الفقه والعقيدة عند إسماعيلية اليمن يعد من المنعذر ، فقد

عبدالرحمن بن يحيى المظني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د ، ت) ، ج ١ ص ٢٠٧ ، طاش كبري رايه ، مفتاح السعفة ، ج ٢ ص ٢١٨ ، الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٧ ، ج ٢ ، ٣٤٤ ، ٥١٣ ، بين سيرة ، طبقات فقهائ اليمن ، ص ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٩ ، الأمل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ١ ص ٢٧٢ ، د. أيمن فؤاد سيد ، تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري ، دار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٨م ، ص ٥١ ، د. عبدالرحمن الشجاع ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، المقدمي ، أخصن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، وصنع مقدمته وهواشيه ومهارسه د. محمد معزوم ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٨٧م ، ص ٩١ ، ابن الجاور ، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز - المسماة تاريخ المستنصر ، اعتنى بتصحيحه أوسكر لومجريس ، دار التوير ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٦م ، ص ١٣٢ .

(١) غرّف مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني بأنه أقل المذاهب الفقهية السنية انتشاراً ، ولذلك لكونه آخر المذاهب الأربعة ولادة وظهوراً ، ولعدم توفر دعم الدولة يتمكن العلماء من أتباعه من شغل مناصب القضاء وتصدرهم للفتوى كما حصل ذلك للمذهب الحنفي - مثلاً - إلا أن ما ميز هذا المذهب عن غيره هو ارتباطه بأراء الإمام أحمد في العقيدة وعلم الكلام والتي مثلت - في الغالب - أغلب نقاط الالتقاء والاتفاق على العقيدة بين أهل السنة والجماعة ، وقد تعددت الإشارة إلى المذهب الحنبلية - من ناحية كونه مذهباً فقهياً - في اليمن في كل المصادر اليمنية للمطبوعة والمخطوطة التي تمكننا من الحصول عليها ، بالرغم من أن الإمام أحمد بن حنبل نفسه قدم إلى اليمن وتلمذ على يد طائفة من كبار علماء الفقه والحديث فيها سبق بيانه في الفصل الأول من هذه الدراسة ، إلا أن عقيدة الصابلية كانت هي عماد دفاع أهل السنة - والذين كان أغلبهم شافعية - عن مواقفهم في الأصول نجاء حصومهم ومفاسد منهم من المعتزلة الربيعيين ابن سمره ، المصدر السابق ، ص ١٨٠ ، ١٨١ ، الجندي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤٥ - ٣٤٨ ، ج ٢ ، ص ٢١٨ ، أبو زهرة ، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، (د ، ت) ، ص ٥٢٨ ، د. عبدالرحمن الشجاع ، المرجع السابق ، ص ١٨١ ، ٥٢٩ ، د. محمد رضا الدجيلي ، الحياة الفكرية في اليمن في القرن السادس الهجري ، مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ، ط ١ ، ١٩٨٥م ، ص ٢٧ ، أحمد عبدالله عارف ، مقدمة في دراسة الاتجاهات الفكرية والسياسية في اليمن فيما بين القرن الثالث والخمس الهجري ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩١م ، ص ١٥ .

عجزنا في الحصول شئ من مصادرها بسبب ما طبعت هذه الفرقة به نفسها من التكتف الشديد وعدم السماح بوصول تراثها - على وجه الإجمال - إلى أيدي غير أبنائها .

ويجدر الإشارة إلى أهل السنة - من الناحية الديمغرافية - هم أغلب سكان اليمن، والمشاغلين لأغلب مساحته الجغرافية ، أما الشيعة فإن الإسماعيلية يعدون أقل اليمنيين عدداً وأقلهم انتشاراً جغرافياً ، واضعفهم تأثيراً في مجريات الأمور العامة يال فترة الدراسة ، ولتسهيل تناول هذه المذاهب فإننا سنقوم بالحديث عنها تحت العناوين الآتية :

١. المذهب الحنفي :

سبق أن ذكرنا أن المذهب الحنفي والمذهب المالكي قد تزامنا ظهورهما - تقريباً - في أرض اليمن ، غير أن المذهب الحنفي كان له حضوراً أقوى بطبيعة كونه المذهب الرسمي للدولة العباسية ، فكان قاضي القضاة في بغداد لا يولي القضاء إلا من كان حنفياً مثله ، كما كان أغلب عمال العباسيين أحناف أيضاً^(١) ، وذلك كان له أبلغ الأثر في انتشار هذا المذهب ، ليس في اليمن وحدها ، بل في كثير من أقطار العالم الإسلامي ، ودور الدول الكبير في انتشار المذاهب والاتجاهات المرغوبة لديها قد أدرجه المؤرخ اليمني ابن سمره^(٢) فعبّر عنه قائلاً : " وللدول في طي العلوم ونشرها وإظهارها تأثيرات معجزة ، في تمكينات موجزة ، والدليل على ذلك أن مالك بن أنس كان يحدّثهم عن ربيعة الرأي ، فكان الناس يسترشدونه من حديث شيخه ربيعة ، فقل لهم ذات يوم : ما تصنعون لربيعة وهو نائم في ذلك الطاق ؟؟ فأتوه ونبهوه وقالوا له : أنت ربيعة الذي يحدث عنك مالك ؟؟ قال : نعم ، قلنا له : كيف حظي بك مالك ولم تحظ أنت بنفسك ؟ فقال : أما علمتم أن مقالاً من إمرة - وقيل : مقالاً من دولة - خير من حمل علم ؟؟ " .

(١) أبو زهرة ، تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص ٣٨١ ، أحمد تيمور ، نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة للحنفي ، المالكي ، الشافعي ، الحنبلي ، وقتشارها عند جمهور المسلمين ، دار القادري ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠م ، ص ٥١ ، د. عبد الرحمن الشجاع ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع ، ص ١٧٩ .

(٢) طبقات فقهاء اليمن ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

لم يكن الدور الرسمي هو العامل الوحيد في انتشار المذهب الحنفي في اليمن ليصبح القرن المذهب الأكثر انتشاراً بها حتى أواخر القرن الرابع الهجري ، بل كان لبعض علماء اليمن جهودهم الفعالة في حمل فقهه ونشره بين أبنائها^(١) ، فجاءت إشارات المصادر لتؤكد على أن المساجد في صنعاء وصعدة وزبيد وغيرها كانت في القرن الرابع الهجري وبعده في أيدي علماء أحناف^(٢) .

ثبتت أسس المذهب الحنفي في اليمن مدة من الزمن حتى كاد يشملها ، ولما دخلها الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين الرُّسِّي (ت ٢٩٨هـ / ٩١٠م) في سنة (٢٨٤هـ / ٨٩٧م) كان معظم اليمنيين أحناف^(٣) ، فكان جداله ومناظراته مع أهل السنة بين صنعاء وصعدة تدور مع علماء مذهب أبي حنيفة على وجه الخصوص لأنه كان المتغلب هنا ، ومنها المناظرة الشهيرة التي جرت بين الإمام الهادي في صنعاء - يوم دخلها - مع سبعين من فقهاء الحنفية بها والتي ذكر المصدر أنه استطاع من خلالها استمالتهم وإخالفهم في مذهبه^(٤) ، وكان لبروز الزيدية على الساحة في أواخر للقرن الثالث الهجري دوره المهم في التأثير على حضور المذهب الحنفي في المناطق الشمالية من المرتفعات الجبلية بما فيها صنعاء وصعدة ، فمع أن التلازم بين فقه الزيدية وفقه الإمام أبي حنيفة كان كبيراً حتى أن هناك من قبل إن الزيدية في الحقيقة معتزلة في الأصول وحنفية في الفروع - كما سيأتي بيانه - إلا أن علماء الزيدية وأنتمها دأبوا على أن يعزوا نقاط الاتفاق الكثيرة في فقه المذهبيين إلى أن الإمام أبي حنيفة كان يكثر التردد على الإمام جعفر الصادق والأخذ عنه ، وبالتالي فالمذهب الحنفي هو الأخذ عن أسلافهم وليس العكس .

مهما يكن الأمر ، فإن المذهب الريدي قد حل بالتدريج محل المذهب الحنفي في كثير من المناطق المذكورة ، وطمح مذهب الإمام الشافعي على أغلب المناطق الأخرى

(١) الجندي ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

(٢) المقسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقطار ، ص ٩١ ، ابن المجاور ، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجج ، ص ٨٨ .

(٣) ابن سيرة ، طبقات فقهاء اليمن ، ص ٧٤ ، ٧٩ ، د. أيمن فؤاد سيد ، تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري ، ص ٥١ .

(٤) يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية الصغرى ، ص ٤٦ .

في نهاية القرن الرابع الهجري لينزوي - تبعاً لذلك - المذهب الحنفي في مدينة زبيد وما حولها ، واستقر هناك ، لذلك نجد أحد مؤرخي القرن التاسع الهجري يقول : " ولما أعمال زبيد فأهل وادبها - وادي رُمع - جُلُّهم حنفية المذهب ^(١) ، ولم يبق له في اليمن وجود إلا هناك ^(٢) " إلى يوم الناس هذا بعد مرور أكثر من ألف سنة من المدة التي نتحدث عنها .

ومع انزواء المذهب الحنفي في مناطقه المشار إليها إلا أن المصادر التاريخية المتوفرة تشير إلى أن علماء مثلوا أُنْداء ونظراء للفقهاء الشافعية في مرحلة ما قبل القرن التاسع الهجري ، وكانت مكانة المذهبيين السنيين متكافئة هناك ، ورعت طوائف للمجتمع وكل الزعامات السياسية هذه المكافئة ولم يتجولوا إحداها لحساب الأخرى مهما كان تعاطفهم وميلهم موجزاً نحو إحداها ^(٣) .

أسهم علماء المذهب الحنفي في الحياة العلمية في اليمن خلال هذه الفترة بشكل واضح وفعال ، وهو دليل على بروز شريحة مجتهدة من علمائه في التحصيل العلمي الكبير وفي حماستهم لحمل فقه الإمام أبي حنيفة النعمان ، واستمرت منابع فقهه محتفظة بحيويتها وقائمة بدورها في تجديد رفته بالعناصر البشرية القائمة عليه والحاملة له ، وفي مقدمة هذه المنابع المدارس التي كانت مختصة بالمذهب الحنفي ، وكان عددها

(١) الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سلافت اليمن ، ج ٢ ص ٢٨٩ .

(٢) ابن الجاور ، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، ص ٨٨ ، د عبد الرحمن الشجاع ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع ، ص ١٧٩ ، حسن أحمد السمين ، المذهب السني وتشيعه في اليمن في القرنين الرابع والخمس الهجريين وأثرهما على الحياة السياسية والاجتماعية ، رسالة ماجستير ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٦م ، ص ٣٠٩ .

(٣) عمارة ، المفيد في أخبار صنعاء وزبيد ، ص ٢١٠ ، ٢٢٧ ، الجندي ، المملوك ، ج ١ ص ٥٠٧ ، ٥١٠ ، ٥١٣ ، ج ٢ ص ٤٩ ، ٥٣٧ ، الحرجي ، المسجد المصنوع ، ص ١١١ ، ١١٦ ، ، قزويني ، نفائس الفضائل فيمن أنشأ وصار من المساجد والمدارس ، ق ٢ ، ابن قديح ، بغية المستفيد ، ص ٧٦ ، ٧٧ ، حسن أحمد السمين ، المذهب السني والتشيع في اليمن ، ص ٣٠٢ ، الأكوع ، المدارس الإسلامية في اليمن ، ص ٢٤ ، عبد الرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ٢٦٠ .

ست مدارس ، والتي تولت التدريس والقيام بنظارتها أسر حنفية عريقة على مدار قرون ، وقد رصدها بعض الباحثين وتتبع أهم العلماء الذين تولوا التدريس فيها^(١) .

ومع وجود تراجم لعلماء الحنفية في اليمن في بعض المصادر اليمنية وغيرها إلا أن أحداً من أبنائها لم ينبر للتصنيف في طبقاتهم أو يندب نفسه لكتابة تراجمهم ، وهو ما أدى إلى غمط كثير من حقهم في الشهرة وسعة الذكر ، وجاءت تراجم بعضهم بسبب تتلمذ طلبة العلم من غير الحنفية عليهم عندما تميزوا في علوم كثيرة شرعية كالحدِيث والفقه وعامة العلوم الطبيعية والتطبيقية ، حتى أنهم كانوا يتدربون الفقه في غير مذهبهم ، كالفقه الشافعي مثلاً - وأتقنه بعضهم حتى جلس بين يديه طلبة العلم المرينيين له^(٢) ، وكثيراً ما وصفتهم المصادر التي ترجمت لهم بالفقهاء والعلماء .

ومن أشهر من وردت تراجمهم واقتُرنت نسبتهم إلى المذهب الحنفي في مدة دراستنا يأتي الفقيه العلامة أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان ، ترجمه الأهدل الشافعي^(٣) فقال : " كان فقيهاً كبيراً يقصده الفقهاء من نواح شتى ، ويقرأون عليه في المذهبين - أي للحنفي والشافعي - ... " ، ومنهم كذلك الفقيه والمفسر الكبير أبو بكر ابن علي الحداد (٨٠٠ هـ / ١٣٩٧ م) الذي كان شيخ الحنفية باليمن في عصره ، وصنف مؤلفات في فقه مذهب ، منها أنه " شَرَحَ الفتوري شرحين ، كبير وصغير ، وشرَّخ (النسفية) ، وشرَّخ (قيد الأولاد) (وبداية المبتدي) ، وصنف تفسيراً للقرآن الكريم ، وهو من مشائخ بعض رجال الحنفية الأعلام في القرن التاسع الهجري كمحمد بن شوعان الآتي ذكره^(٤) .

ومن أئمة الحنفية أيضاً والبارزين في مدينة زبيد الفقيه العلامة علي بن أحمد بن موسى الجلال الحنفي (ت ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م) ، كان عارفاً بالفقه والنحو واللغة

(١) عبدالله قائد الجادي ، الحياة العلمية في زبيد ، ص ١٨٩ - ١٩٣ .

(٢) الأهدل ، نحلة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ١ ص ٥٦٣ ، البريمي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٠٨ .

(٣) الأهدل ، المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣١٤ .

والقرآن والحديث والفرائض والجبر والمقابلة والحصاب والهيئة ، وصف بأنه كان بارعاً في كل فن منها ، مفرط الذكاء ، كامل الأدب ، حافظاً لأشعار العرب^(١) .

ومنهم الفقيه العلامة عفيف الدين عثمان بن إقبال القرطبي (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) ، كان موصوفاً - من قبل بعض معاصريه - بأنه جامع بين العلم والعمل والزهد والورع ، باذلاً نفسه للطلبة ، ولهذا كثر تلامذته^(٢) ، ومن المؤكد أن غالبيتهم من طلبة العلم الأحناف .

ومن فقهاء الحنفية كذلك الفقيه الكبير العلامة الحنفي جمال الدين أبو عبدالله محمد بن عمر بن عبدالله بن شوعان (ت ٨٢٢هـ / ١٤١٩م) ، أحد أبرز تلاميذ الفقيه القرطبي السابق ، كان متعدد العلوم ، له مكانة كبيرة بين أقرانه من العلماء ، الحنفية والشافعية ، لذلك امتنحوه بعلمه وديانته ، قال عنه الأهدل^(٣) - وهو من معاصريه - : " وكان ابن شوعان فاضلاً بالغة والقراءات والأصول وعلم الفرائض والحساب والجبر والمقابلة ، والديانة والزهد والورع ، سمع الحديث على سليمان العلوي ، وقرأ القراءات المقرئ محمد العدني والمقرئ أبي القاسم السهامي " .

ومن تلاميذ الفقيه ابن شوعان فقيه حنفي آخر يدعى الفقيه السراج^(٤) ، أصله بلدة جبرت في الحبشة ، إلا أنه قدم منها - وهو صاحب حصيلة علمية فقهية وأصولية - إلى اليمن فاستوطنها " فأكمل تفقهه بابن شوعان ، واجتهد وبحث وحقق ، أصلاً وفرعاً ، ودرّس وأفاد ، وجمع بين العلم والعمل والصلاح ، وله كرامات ومكاشفات ... " ^(٥) .

وقد تحدث المؤرخ الأهدل عن مقابله لفقيه حنفي في مدينة أبيات حسين، كان قد نزلها في صحبة القاضي يوسف العراف وزير السلطان الظاهر يحيى الرسولي ، وهذا الفقيه الحنفي هو للفقيه العلامة عفيف الدين عبدالله بن علي بن السراج

(١) البرهني ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٠٠ ، بمحرمه ، فتحة النهر ، ج ٣ ص ٦٧٩ .

(٢) الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ١ ص ٤١٤ .

(٣) تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ١ ص ٤١٤ ، البرهني ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩٣ .

(٤) لم يذكر الأهدل اسمه كاملاً ولا تاريخ وفاته ، إلا أنه تحدث عنه بوضعه واحداً من معاصريه

(٥) الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ١ ص ٤١٤ .

السلامي ، وهو تلميذ لابن شوعان والفقير المراج الجبرتي الحنفيين السابقة تراجمهم ، وعنه نقل الأهل - شفاهة - تراجم عند لا بأس به من الفقهاء الأحناف المعاصرين له والذين لم يكن على معرفة بهم ، قال عنه الأهل^(١) : " ومن تفقه عليه - أي على الفقيه المراج الجبرتي السابق - الفقيه عفيف الدين عبدالله بن السراج للسلامي ، وتفقه أيضاً العفيف هذا علي ابن شوعان ، وهو يُدرّس في بلده ، فحق المذهب - يقصد المذهب الحنفي - زاده الله من الخير ، قدم علينا في شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة صحبة القاضي يوسف العراف وزير الملك للظاهر وأقاني نكر هؤلاء الجماعة رحمهم الله تعالى ، وهو الآن يُدرّس الحنفية بقرية السلامة بمسجد الفقهاء بني للزيلعي نفع الله بهم " ، ووصفه البريهي للشافعي^(٢) بأنه كان أواحد أهل زمانه في تحقيق علم الفقه والتفسير ، غير أنه لم يصنف فيهما ، وكان جهده منصباً في التدريس ، وكانت له فيه براعة حمده عليها من عرفها فيه .

وكان من بين أبناء الحنفية بأعمال زبيد بيت علم يدين له اليمنيون بالفضل - من بعد الله تعالى - في انتشار علم الحديث النبوي الشريف وشيوع دراسته في أرجاء اليمن في مطلع القرن التاسع الهجري ، وهذا البيت العلمي هو بيت (آل العلوي) ، ونسبتهم (العلوي) لا تعود إلى النسب الشهير المتصل رجباً بالإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فهم ينتسبون إلى جدّهم علي بن راشد بن بولان بن عيس العكي اليمني الحنفي^(٣) ، وقد أوجب هذا البيت لليمن العديد من العلماء والورراء ، وكلهم نالوا حظاً واسعاً من العلم والديني والدنيوي ، ومن أشهر شخصياتهم في مدة دراستنا الفقيه العلامة الأديب وجيه الدين عبدالرحمن بن محمد بن يوسف بن عمر بن علي العلوي الحنفي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) ، وصفه بلخرمة^(٤) بقوله : " أوجه أهل عصره جلالة ورياسة ونباهة ورفاسة ... ترقى في الخدمة السلطانية والمباشرة

(١) تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ١ ص ٤١٤ .

(٢) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٨٤ .

(٣) الأهل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ١ ص ٤٠٦ ، ابن حجر ، إنباء الفخر ، ج ٣ ص ٢٨٦ .

(٤) قلادة النحر ، ج ٣ ص ٦٦٨ ، تاريخ نجر عدن ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

الديوانية ، وشهد في سائر الجهات اليمنية ... ولم يزل عنده - أي السلطان الأشرف الثاني إسماعيل الرسولي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) - مجللاً معظماً بمسوع الكلمة ... له نظر في كثير من العلوم ، ومشاركة في المشور والمنطوم ، ومن محاسن شعره القصيدة البديعة التي لودعها سائر فنون البديع ، وشرحها شرحاً شافياً ، وله عدة قصائد في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومنحه عدة من فضلاء الشعراء ... " ، وقد وصفه شيخ الإسلام الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني بقوله : " لسان البلاغة ، ومعين للفصاحة ... " ، وعُرف بأنه من البارعين في الألب نثراً ونظماً^(١) .

وكان للوزير عبدالرحمن الطوي مآثر واسعة ، وأدوار في رعاية المذهب الحنفي باليمن ، منها ما لورده بامخرمة^(٢) أيضاً في ترجمته ، إذ قال : " ... ومن محاسنه الدينية المدرسة التي أنشأها بزييد ، ورتب فيها إماماً ومؤذناً ومقيماً ومدرساً وطلبة على مذهب الإمام أبي حنيفة ، ومدرساً وطلبة على مذهب الإمام الشافعي ، وأوقف على الجميع وقفاً جيداً يقوم بكفالتهم ، وكانت عمارته للمدرسة سنة خمسة وتسعون وسبعمائة ، يقال أنه لما عزم على عمارة المدرسة اشترى أرضاً وحفر فيها بئراً للماء ، ثم استعمل من الأرض المذكور أجراً ، ونقل منها الطين إلى المدرسة ، فكان عمله الاجر والطين من تلك الأرض ، احترازاً منه أن يدخل في عمارتها شيئاً لا يملكه ، وهذا شيء لم يسبقه إليه أحد ، ومن محاسنه التي فاق بها أبناء جنسه وكثير من غيرهم أن ملكوله وملبوسه ونفقات أهله وقاربه وعمارة بيوته وأراضيه وجميع ما يتصدق به من غلة أرضه التي يملكها ، لا يستعمل في ذلك شيئاً من غيرها أبداً ، وكان كثير الصدقة على لقاربه وجيرانه وعبرهم ، لا يسأل شيئاً فيرد سألته خائباً ، رحمه الله ... " .

ولما من أشرنا إليه بأنه صاحب الفضل في انتشار علم الحديث النبوي الشريف وشيوع درسته في أرجاء اليمن في مطلع القرن التاسع الهجري من آل (العلوي) فهو العلم الذي سبق أن تناولنا له ضمن علماء الحديث من هذا الفصل ، وهو شيخ شيوخ المحدثين اليمنيين وحافظ البلاد ومسندها الأكبر ، الإمام الحافظ المحدث تقي الدين أبو

(١) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٤ من ١٥٣ ، ١٥٤ ، وسيتناول أصاله للتصنيفية في الفصل القادم ضمن اهتمام اليمنيين باللغة العربية وأدبها وتصنيفهم فيها .

(٢) فلكة النحر ، ج ٢ من ٦٦٨ ، ٦٦٩ .

الربيع سليمان بن إبراهيم بن عمر بن علي العلوي (٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م) ، كان - هو وقريته الإمام الفيروزآبادي - فارسِي علم الحديث في اليمن بلا منازع ، ويُعزى إلى هذا الإمام انتشار وشيوع أخذ الزيدية للحديث النبوي ودراسة أمهاته المشهورة ، فعنه أخذ عدد من أكبر رجال الزيدية وبعض أئمتها ، ويكفي هذا الإمام فخراً أنه ما من عالم يعني لشتهر في القرن التاسع والعاشر الهجريين بعلم الحديث والاشتغال به إلا وهو من تلاميذه أو تلاميذ تلاميذه .

وقد أطنب المؤرخون في مدحه وإطرئه عند الترجمة له ، فقال بامخرمة^(١) عنه أنه : " شيخ مشايخ المحدثين في عصره ... " ، وأنه " أعرف أهل عصره بالحديث وطرقه وفنونه ومتونه ... " ، وقال عنه البريهي^(٢) : " الإمام العلامة الحافظ ، قطب العلماء الراشدين ، ونهاية المسترشدين ، ولي الله ، والمحدث عن سيدنا رسول الله ... كان رحمه الله مالك أزيمة المعارف والطرائف ، الحائز فضيلتي الثالث والطارف ، أحيا به من العلوم دارسها ، وأعمر به معالمها ومدارسها ، وفك ما استعجم من الأحاديث فشرحها ، وأبان ما استبهم من العلوم فأوضحها ، فهو في العلم كوكبه المنير ، وصوبه العذب النмир ... " ، وقال عنه شيخ الإسلام الإمام ابن حجر العسقلاني^(٣) - وكان قد لقيه في زيارته لليمن - : " عني بالحديث وأحب الرواية ... وكان محدث بلده ... ونعم الرجل كان " .

وإرادنا لترجمة هذا العلم ليس بمسوغ كونه محدثاً ، وإنما لما عرف عنه أنه كان فقيهاً ، له معرفة كبيرة بفقهِ الإمام أبي حنيفة وفقهِ الإمام الشافعي معاً ، حتى أنه كن يفتي فيهما ، لذلك قيل عنه : " وكان رحمه حنفي للمذهب ، وقد يفتي بمذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ؛ لتحقيقه المذاهب كلها ، فهو عالم محقق ، وفوائده التي نقلتها عنه العلماء كثيرة ولا تتحصر في مجلد ... " ^(٤) .

(١) قلادة النحر ، ج ٣ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ .

(٢) طبقات صلحاء اليمن ، ٢٠٧ .

(٣) إنباء النحر ، ج ٢ ص ٢٨٦ .

(٤) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ٢٠٧ .

وكان للإمام الحافظ سليمان العلوي أخٌ يكبره في السن ، لا يقل عنه منزلة ومعرفة بالمذهب الحنفي والحديث النبوي ، غير أن شهرته كانت دون شهرة أخيه بكثير ، وقد وردت ترجمته على أنه إمام علامة محدث حافظ ، وهو جمال الدين محمد بن إبراهيم بن عمر بن علي العلوي (ت ٨٢٢هـ / ١٤١٩م) ، وشيوخه في الحديث وغيره هم بعض شيوخ أخيه نفيس الدين سليمان العلوي ، وله زيادة على مشايخ أخيه^(١) .

ومن كبار الشخصيات العلمية الفقهية الحنفية أيضاً الإمام المحدث الحافظ أحمد بن أحمد بن عبداللطيف الشرجي الحنفي (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م) ، فقد كان رئيس هذا العلم في تهامة على وجه الخصوص ، كان مبرزاً فيه مجيداً له ، ولا يستبعد بروزه في الفقه أيضاً ، وإن غلب عليه الحديث كسلفه الإمام نفيس الدين العلوي^(٢) ، ومن قبله كان جده الإمام العلامة الحافظ أبو عبدالله عبداللطيف بن أبي بكر بن أحمد بن عسر الشرجي الحنفي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) واحداً من أبرز رجال المذهب الحنفي في اليمن في عصره^(٣) .

نلك من وردت عنهم معلومات لا بأس بها من رجال الفقه الحنفي في اليمن في مدة الدراسة ، وهناك غيرهم من وردت أسماؤهم مع إشارات عابرة إليهم في كتب التراجم والتواريخ اليمنية ، ولعلمهم كانوا نظراء لمن تمت التوسعة في الترجمة لهم أو يفوقون بعضهم ، ومنهم الفقيه المتصوف محمد الأصغر بن طلحة بن عيسى الهتار الحنفي الشهير بالغزالي (ت ٨٢٨هـ / ١٤٢٤م) ، و، والفقيه إسماعيل بن عبدالله بن عبدالرحمن بن محمد العلوي ، وأخوه الفقيه أحمد بن عبدالله العلوي ، والفقيه المتصوف محمد بن محمد بن القاسم المزجاجي الحنفي (ت ٨٢٩هـ / ١٤٢٥م) ، والفقيه حسن بن عمر المزجاجي الحنفي المشهور بالفقيه (ت بعد ٨٢٠هـ / ١٤١٧م) ، والفقيه عبيد بن الوجيه بن الأحمر الأشعري الحنفي (ت ٨٣٠هـ / م) ، والفقيه عبيد الله بن علي العولجي الحنفي (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م) ، ، الأديب الشاعر الفقيه وجيه الدين

(١) البريبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩٨ .

(٢) بامخرمة ، فلاة النحر ، ج ٢ ص ٧٥١ ، ابن النبيع ، بغية المستفيد ، ص ١٨١ ، السخاوي ، الضوء المجمع ، ج ١ ص ٢١٤ ، ٢١٥ ، ابن لهد ، لحظ الأحاط ، ٢٥٩ .

(٣) بامخرمة ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٦٩ .

عبدالرحمن بن أبي بكر الشوبهر (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) ، وقاضي الحنفية في زبيد الإمام العلامة الصديق بن علي المطيب (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م) ، والفقيه العلامة جمال الدين محمد بن علي المطيب إمام مقام الحنفية في جامع زبيد الكبير (ت ٩٠٧هـ / ١٥٠١م) ، والفقيه عفيف الدين عبدالعليم بن أبي القاسم بن عثمان بن إقبال القرطبي الحنفي (ت ٩٠٧هـ / ١٥٠١م) ، والفقيه العلامة سراج الدين عبداللطيف بن محمد بن يحيى الجهمي المصباحي الحنفي (ت ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م) ، ومفتي الحنفية بزبيد للفقيه العلامة عفيف الدين عبدالمجيد بن عبدالعليم القرطبي (ت ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م) ، والفقيه إسماعيل بن علي العجل الحنفي (ت ٩١٢هـ / ١٥٠٦م) ^(١) .

٢. المذهب الشافعي :

تتلمذ الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤هـ / ٨١٩م) على أيدي عدد من علماء اليمن عندما قدمها طلباً للعلم ، وكان أشهر من جلس إليهم من أبنائها هشام ابن يوسف وأبو حنيفة بن سمالك وإسحاق الذهري ومحمد بن خالد الجندي ومطرف ابن مازن الكعبي ^(٢) ، لذلك نشأت عواطف المحبة والتعاطف بين الشافعيين ، وافتخر اليمنيون بهذه العلاقة ، إلا أن هذه العلاقة لم تترجم إلى الأخذ بفقهاء الإمام الشافعي إلا في النصف الثاني من القرن الثالث وبداية القرن الرابع للهجريين عندما برزت أخباره في بعض كتابات المؤرخين ^(٣) .

وأول البارزين من فقهاء الشافعية باليمن في مطلع القرن الرابع الهجري هو الفقيه موسى ابن عمران بن محمد الخداسي ، إلا أن الإمام أبو محمد القاسم بن محمد ابن عبدالله الجمحي القرشي (ت ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م) يعد المؤسس الفعلي للمذهب

(١) الأمل ، تحفة الزمن في تلويح سادات اليمن ، ج ٢ ص ٢١٣ ، ٣١٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، باحرمه ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٢٥ ، العبدروس ، فنون المسافر ، ص ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٨ .

(٢) الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٢١٦ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٣) لمصدر السابق ، الجزء نفسه ، ص ١٤٩ ، ابن فرحون ، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، تحقيق محمد الأحمد أبو النور ، دار التراث ، القاهرة ، (د . ت) ، ج ١ ص ٩٢ ، الأسي ، اتحاد ذوي القلم بمختصر أنباء الزمن ، تحقيق إسماعيل الجرفلي ، ملحق مجلة كلية الآداب ، منشورات جامعة صنعاء ، ربيع الثاني ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ص ١٦ .

الشافعي في اليمن والناشر الحقيقي له^(١) ، مع أن المذهب كان موجوداً قبله ، لذلك يقول ابن سمره^(٢) : " وكانت الشافعية وكتبها وشيوخها قبل القاسم بن محمد القرشي وأصحابه غير مشهورة في اليمن " .

وقد مر المذهب الشافعي بمراحل متعددة ، تناولها بعض الباحثين ووجعلها بعضهم ثلاث مراحل^(٣) ، وعدّها آخرون ست مراحل^(٤) ، كان خلالها يتجذر في الأرض اليمنية ويزداد رسوخاً عليها ، حتى غدا - مع وصول الأيوبيين في منتصف القرن السادس الهجري - المذهب الرسمي للدولة في اليمن مدة طويلة من الزمن .

وقد برر من أبناء اليمن من حملة المذهب الشافعي طوال المدة الممتدة بين ظهوره في اليمن ومدة دراستنا لابتداء من القرن التاسع الهجري ، إذ بذلوا جهوداً كبيرة في نشره وتعليمه ، وصنفوا الكثير جداً من المصنفات في فقهه وأصوله ، وحاز بعضهم من الشهرة والمكانة ما جعله معنوداً بين أبرز رجاله على مستوى العالم الإسلامي قاطبة ، وأشهرهم - بعد المؤسسين - الإمام أبو عبدالله جعفر بن أحمد بن محمد المخاببي (ت ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م) وولده أبو بكر ، والفقيه أبو محمد الحسن بن محمد بن أبي عقلمة (ت ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م)^(٥) ، والإمام أبو أسامة ريد بن عبدالله اليفاعي الشافعي (ت بعد ٥١٣هـ / ١١١٩م)^(٦) ، والإمام أبو الخير يحيى بن أبي الخير بن سالم بن أسعد العمراني (ت ٥٥٨هـ / ١١٦٢م)^(٧) ، الإمام جمال الدين محمد بن عبدالله الريمي (ت ٧٩٣هـ / ١٣٩٠م) .

(١) الجندي ، المستوفى ، ج ١ ص ٢٢٩ .

(٢) طبقات فقهاء اليمن ، ص ٨٧ .

(٣) عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ٢٦٥ - ٢٨٦ .

(٤) حسن أحمد السمين ، المذهبان السني والشافعي في اليمن ، ص ٣٠٥ - ٣١٨ .

(٥) الخزرجي ، طراز أعلام الزمن ، ص ١٠٤ .

(٦) الجندي ، المستوفى ، ج ١ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ .

(٧) الشرجي ، طبقات الخواص ، ص ٢٦٣ ، السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٧ ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، الحسيني ، طبقات الشافعية ، حققه عادل مويهي ، دار لآفاق الجديدة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٢م ، ص ٢١٠ ، ٢١١ ، ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٤ ص ١٨٥ ، ١٨٦ ، ابن سمره ، طبقات فقهاء

وقد تنوعت المصادر التي اعتمد عليها الفقهاء الشافعية في مراحل ما قبل مدة الدراسة ، إذ ابتدأوا بالتحويل على أمهات كتب الأصول والفقه الشافعي القديمة التي اعتمد عليها رجال المذهب مثل (الرسالة) للإمام الشافعي نفسه ، و (مختصر المزني) وشرحه لابن ملامس اليمني^(١) ، ثم انتقلوا إلى الاعتماد على كتب ومؤلفات الإمام أبي إسحاق الشيرازي (ت ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م) كـ (للمذهب) و (للتبصير) في الفقه ، وكذلك كتاب (اللمع) وشرحها في أصول الفقه ، إضافة إلى كتب أخرى مثل (التلخيص) و (التبصرة) و (المعونة) في الخلاف والحدل ، وكان الكتاب الذي استحوذ على جل الاهتمام وأصبح محور الدراسة والفتوى هو الكتاب الأول (المذهب)^(٢) ، بل إن المتتبع لأدوار علم الإمام الشيرازي في اليمن واضطلاعها بنشر الفقه الشافعي وترسيخ وجوده فيها مع صبغة المذهب برؤاه الخلسة ليقول : كان الأخرى بأن يسمى هذا المذهب بمذهب الشيرازي .

وقد لقيت كتب الإمام أبي إسحاق الشيرازي منذ دخولها اليمن قبولاً كبيراً وانتشاراً واسعاً ، وحظيت بعناية العلماء والطلاب ، فانتقلوا يتنافسون في دراستها تعليماً وشرحاً وتعليقاً ، بل ذهب بعضهم إلى حفظها عن ظهر قلب^(٣) ، وقام آخرون إلى نظم شيء منها شعراً لتسهيل حفظها على الطلبة^(٤) .

ومما زاد من ترسيخ المذهب الشافعي كذلك دخول طائفة من كتب المذهب غير اليمنية إلى اليمن ، وتلقف العلماء والطلبة لها بالدراسة والتحقيق والتعليق ، وهي مقدمتها الكتب الشهيرة لحجة الإسلام الإمام محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ / ١١١١ م) كـ (الوسيط) و (البسيط) و (الوجيز) و (إحياء علوم الدين) ،

اليمن ، ص ١٧٤ ، ١٨٢ ، ١٨٥ - ٢٠٩ ، عادل الفقيه ، ابن أبي الخير العمراني ومنهجه في كتب البيان ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة صنعاء ، ٢٠٠٣ م ، ص ١٨٨ - ٢٠٣ .

(١) عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٣) الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٣٤٤ ، ابن سيرة ، طبقات فقهاء اليمن ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٧٥ ، ١٧٨ .

(٤) الجندي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٦٢ .

فاعتمدها اليمنيون ضمن مقرراتهم الدراسية حتى مدة دراستنا كما لاحظناها في قائمة المقررات في الفصل الرابع من هذه الدراسة .

وقد حظي المذهب الشافعي بانتشار واسع في اليمن حتى كاد يشملها ، ولم يخرج من أهل اليمن في مدة دراستنا عن الأخذ به سوى بعض المناطق الجبلية الشمالية الممتدة فيما بين مدينتي نمار وصعدة ، مع أنها لم تصف تماماً للزيدية ، إذ تخللتها جزراً - إن صح التعبير - من المناطق التي دان أهلها بالإسماعيلية فكراً وفقهاً واعتقاداً ، بعضها على مرمى حجر من مدينة صنعاء .

ومن أهم علماء الشافعية في مدة دراستنا الدين شتغلوا بالفقه واعتقوا به وصنفوا فيه نذكر الفقيه العلامة محمد بن عمر بن علي الشعبي (ت في القرن التاسع الهجري) . وقد برع في الفقه بعد هجرته في طلب العلم إلى بلاد الشام ، ودرسته على ثلثة من فقهاءها ، وهو أول من أدخل منظومة الحاوي الشهيرة بـ (البهجة الوردية) إلى اليمن ، بعد أن قرأها على ناظمها العلامة عمر بن مظفر الوردي (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) ، وهي منظومة في حوالى خمسة آلاف بيت ، ولم تشتهر في اليمن عن طريق غيره ، وهو الذي أجزأها لكثير من الفقهاء اليمنيين (١) .

ومنهم أيضاً الفقيه صفى الدين أحمد بن حسن بن إبراهيم بن يحيى البريهي (٨٠١هـ / ١٣٩٨م) الذي كان على معرفة جيدة بكتب الخراسانيين - حسب تعبير المؤرخ البريهي (٢) - (كـ) الوجيز (و) الوسيط (، وكان دأبه الإقراء بهما وبـ (المنهاج) للنووي و (الحاوي) للقروني ، ومن حسن إقراءه للطلبة في الفقه أن كتبه كانت من أحسن الكتب ضبطاً ، وكانت كتبه كلها مُحشاة معجمة النظم في ضبطها وحسنها .

(١) البريهي ، طيقات صنعاء اليمن ، ص ١٣٩ .

(٢) ذكر البريهي ، المصدر السابق ، ص ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ أن هذا العالم سكن في بيت الإمام أحمد بن محمد البريهي المشهور سيف السنة (ت ٥٨٦هـ / ١١٩٠م) فأقام المسجد المبارك ولحق آثار الإمام ، وأحيا مسجده وحفظ كتبه من الصباغ ، وجد ما تشعث منها وصانها ، فانظر كيف بقيت هذه للكتب مكتولة في أيدي العلماء وطلابهم على مدار ما يزيد عن مائتي سنة ، كما قلم ابن عمه الفقيه برهان الدين إبراهيم بن علي بن إبراهيم البريهي (٨٠١هـ / ١٣٩٩م) من بعده بتجديد آثار جامع الإمام سيف السنة وتوسيعه وإتقان بنائه وإحكامه .

ومنهم أيضاً الفقيه المقرئ العلامة جمال الدين محمد بن عمر العملي البريمي (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) الذي وصف بأنه أصبح أكبر شيوخ (الحوي الصغير) في اليمن - بتلقيه عن شارحه الشيخ الإمام جمال الدين محمد بن حسين بن علي السراج بصنعاء ، وكان في أغلب أيامه متردداً بين جبلة ويريم يقرئ ويفتي ؛ فانتفعت به الطلبة ، وإن كان قد غلب عليه لقب (المقرئ المطلق)^(١) .

ويعد الإمام العلامة نور الدين علي بن أبي بكر الأزرق (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٧م) أحد أكبر علماء تهامة ، بل وعلماء الشافعية اليمنية في عصره ، وكان هو العالم الألفه في مدينة أبيات حسين في فروع العلم المختلفة ، وقد كانت له مشاركة في التصنيف في علوم عدة كالناريخ والفرائض والرقائق ، إلا أن لفقه كان لطاغياً عليه ، وله فيه شرحان لكتاب الشيرازي (التنبيه) ، أما الأول فأسماه (التحقيق الواقفي في شرح التنبيه على مذهب الشافعي)^(٢) ، وهو في نحو ثلاثة أجزاء ، والثاني هو (المحقق) في جرتين ، وصفه الأهل^(٣) - تلميذه - بأنه " شرح محقق كاسمه ... " ، كما أنه لختصر (المهمات على الروضة) لمحمد بن عبدالرحيم الأموي ، وله كتاب آخر في لفقه أسماه (نفائس الأحكام)^(٤) ، جعله خمسة أقسام ، للقسم الأول في المسائل الفقهية المخرجة على المسائل النحوية ، والقسم الثاني في المسائل الفقهية المخرجة على المسائل الأصولية ، والقسم الثالث في المسائل الفقهية المخرجة على المسائل اللغوية ، والقسم الرابع في المسائل التي تناقض فيها كلام الرافعي والنسوي ، وهذه الأربعة مأخوذة من تصانيف للأمنوي ، والثلاثة الأقسام الأولى بديعة جداً ، والخامس في مسائل ملتقطة من كتب المذهب على ترتيب أبواب لفقه ، انفرد رحمه

(١) البريمي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٥ ، ٢٢ .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الأحقاب - جامع المحضار بمدينة تريم في حضرموت تحت رقم (٦٢٧) ، نظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢١٦ .

(٣) تحفة الزمن في تفرغ مسادات اليمن ، ج ٢ ص ١٥٨ .

(٤) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (١٢٥٨) ، وأخرى في مكتبة برلين تحت رقم (٤٩٨٠) ، نظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢١٦ .

الله بجمعها ، وهي أكثر من نصف الكتاب ، وهذا الكتاب مفيد جداً للمبتدئين والمنتهمين^(١) .

وكان الإمام عفيف الدين عبدالله بن محمد الكاهلي الشافعي (ت ٨١٠هـ / ١٤٠٧م) أستاذ جيل كامل من الفقهاء الشافعية في شتى أنحاء اليمن ، وقد برز في الفقه لتتلمذه على أيدي عدد من أئمة الفقه في زبيد وغيرها ، فكانت معرفته بالفقه كبيرة ، وخاصة بـ (التنبية) و (المهدب) للإمام الشيرازي ، ولا يكاد يوجد له نظير في معرفتهما من أقرانه ومشاخه ، وقد اشتغل بتدريس الفقه وغيره في مدينة إب ، وكذلك تصدر للفتوى طوال عمره^(٢) ، وأفضل تلامذته هو ابنه العلامة جمال الدين محمد بن عبدالله بن محمد الكاهلي (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م) ، كان من أئمة العلماء الشافعية في عصره ، سلمت إليه رئاسة الفقه ببلده على الإطلاق ، وقل من وصف بالفقيه فيها وهو ليس من تلامذته ، " كما أجمع أهل وقته على جلالة وبراعته ، وأنه ممن لا يجارى في الفقه ولا يمارى ، فكان المرجوع إليه في المعضلات من المسائل الفقهية ، والمعول عليه في حل مشكلات الفروع ، وله في ذلك لباع الأطول ، إذ هو الأروحد الأجل الأكمل"^(٣) وكان قد تتلمذ على ثلثة من أبرر الفقهاء في اليمن ، منهم أبوه الإمام عفيف الدين عبدالله بن محمد الكاهلي وخاله الإمام صفى الدين أحمد بن حسن البريهي والفقيه رضي الدين أحمد الأصبحي الشيبني وشيخ الإسلام الإمام رضي الدين الخياط ، كما أنه قد قرأ بمكة على بعض الأئمة هناك ، منهم الإمام محمد بن عثمان المراغي والإمام منصور بن حسن بن علي الكلزوني وغيرهما ، فبرز بين أئديهم حتى استحق ثنائهم عليه ، وكان من التميز أن أثنوا عليه وطمعوا في اجتذابه للإقامة معهم بمكة ، غير أنه لم يطق استمرار البعاد عن اليمن ، فعاد إليها وأقام ببلده في تدريس العلوم والفقه خصوصاً مدة طويلة تزيد على أربعين عاماً ، " وامتنح بالقضاء في مدينة إب فسار في الناس سيرة السلف الصالح ، وسلك طريقة الحق النير الواضح ، فلم يدع له الحق صلحياً ..."^(٤) حتى صدق فيه قول القائل :

(١) الأهل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ١٥٨ .

(٢) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩١ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

نُولاها وَلَيْسَ لَهُ عَدُوٌّ وَفَارَقَهَا وَلَيْسَ لَهُ صَدِيقٌ

وكان يحضر مجلسه العلمي نيف وأربعون رجلاً من القضاة والفقهاء ، فما بالك بمن دونهم ، وقد عُرف الإمام الكاهلي بأنه كان ثباتاً محققاً للأقوال والوجوه ، وحسباً في (التنبيه) و (المذهب) و (الحاوي)^(١) .

وفي الظفر بعزلة بردان بمعشار حصن بردان في نواحي مدينة إب كان للقاضي جمال الدين محمد بن عبدالله الخطابي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) فقيهاً مميّزاً ، تلقاه على جلة من الفقهاء الكبار في تعز وإب وغيرهما بالاحترام والتقدير ، وكان يحفظ كتاب (التنبيه) ويدأوم على مطالعته وتصويره واستنباط المسائل منه حتى سمي بين أقرانه بـ (التنبيه)^(٢) .

وهذا القاضي وجيه الدين عبدالرحمن بن محمد بن حسن البريهي (ت ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م) كان فقيهاً عارفاً بـ (الحاوي) معرفة جيدة ، وشرحه في مؤلف خالص ، كما شرح (المنهاج) و (الوجيز) ، واختصر (التنبيه شرح للتنبيه) للإمام القريشي في ثلاثة مجلدات^(٣) .

ومن أكبر فقهاء الشافعية في القرن التاسع أيضاً القاضي العالم وجيه الدين عبدالرحمن بن محمد النحوي (ت ٨٢٢ هـ / ١٤٢٠ م) ، جاء في ترجمته أنه قرأ كثيراً من الكتب الفقهية على كبار الفقهاء في بلده ، منها أنه قرأ على للفيه دلود بن عبدالله الحرازي بوصاب كتاب (التنبيه) للشيرازي ، كما قرأ على الإمام صفي الدين أحمد الأصبحي الشنيني كتب (المذهب) للشيرازي نفسه ، و (الوسيط) و (الوجيز) للإمام الغزالي ، و (البيان) للعمرائي ، كما قرأ أيضاً عليه جملة من كتب الحديث ، لذلك فقد برز هذا الرجل كواحد من أبرز فقهاء طبقة ، ونصب للتدريس وهو لما يبلغ الثانية والعشرين من عمره بعد ، وتولى القضاء في مدينة ذي جبلة والجند وأعمالها وبعض الجهات الأخرى المحيطة بمدينة تعز^(٤) .

(١) البريهي ، طبقات مشاهير اليمن ، ص ٩١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٠ ، ٧١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٨٨ .

(٤) البريهي ، طبقات مشاهير اليمن ، ص ٩٠ .

وجمع الإمام العلامة صفى الدين أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن محمد البريهي (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م) كتاباً في المسائل المشتبهة والخلاف المتناظر على كتاب (التنبيه) للشيرازي وعنوانه بـ (النظائر) ، وكان معروفاً بحفظه لكتاب (التنبيه) غيباً ، كما قام بشرح خطبة أرجوزة (البهجة الوردية) ^(١) التي سبقت الإشارة إلى أنها نُظمت من قبل العلامة عمر بن مظفر الوردى (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) في حوالي خمسة آلاف بيت لتحتوي على مجمل ما في كتاب (الحواسي الصغير) للإمام القزويني في فقه الشافعية ، وهي الأرجوزة نفسها التي عُرفَ الإمام العلامة صفى الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أحمد بن محمد البريهي (ت ٨٣٣هـ / ١٤٣٠م) بأنه كان ذا معرفة جيدة بها حتى أنه انبرى لتأليف شرح لها أطلق عليه (التعليق) ، غير أن المنية افترمته قبل أن يتمه ^(٢) .

ومنهم كذلك الفقيه شهاب الدين أحمد بن محمد الربيعي الشافعي (ت ٨٢٢هـ / ١٤٢٨م) كتاباً في مناسك الحج سماه (هداية السالك إلى مقاصد الناسك) ، نقل فيه مسائل نفيسة غريبة ، وفروعاً من الفقه مفيدة ، وكان معاصروه من العلماء وغيرهم يجلونه ويعظمونه ، وكان هذا العالم ينظم الفوائد لحفظ ، من ذلك أنه أنه نظم في باب العقود اللازمة والجائزة في الفقه ما نقله عن كتاب (الرواق) للإمام أبي حامد الإسفرائيني ، فيما نظمه قوله :

جَمِيعُ عَقُودِ الْفَقْهِ ضَرْبَانِ لَا سَوَى
أَبُو حَامِدٍ فِي الرَّوْاقِ الْكُلَّ قَدْ حَوَى ^(٣)

ومن فقهاء الشافعية أيضاً لإمام العلامة شرف الدين قاسم بن عمر النعماني (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م) إماماً فاضلاً ، قرأ في كثير من العلوم على يد المبرزين من علماء اليمن والوافدين عليها ، غير أنه كان مشهوراً بمعرفة الفقه وتحقيقه وتدقيقه ، فكانت ترد عليه الفتاوى من جميع الجهات فيشفي بالجواب ، ويجود العبارة ، ولا يقع السائل العارف إلا بجواب هذا الفقيه مع كثرة الفقهاء بالبلد (تعز) ، وكان بلاذلاً نفسه

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٩٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٣ .

للطلبة ، وكان معدوداً في الصلحاء والعلماء والفقهاء والمحدثين ، وكان ورعاً لا يستحل أن يأخذ شيئاً مما قرر له من الوقف إلا إذا قام بما شرط عليه الوقف ، وترك موته فراغاً كبيراً في صفوف شريحة العلماء لمسها الطلاب والعامّة ، لذلك اشتد أسف الناس عليه ورثاء بعضهم - يدعى عبدالله بن داود بن منصور - بمرثاة جليلة قال فيها:

مَوْتُ الْأَكْمَةِ ثَلَمَةُ الْإِسْلَامِ
لَا ثَلَمَةُ تَطْهَرُ إِذَا كَمَوْتُ إِيَّامِ
فَإِذَا سَمِعْتَ بِمَوْتِ حَبْرٍ فَابْكِي
وَابْكِي الْأَكْمَ وَنَعْ عَلَى الْإِسْلَامِ

أَوْ مَا تَرَى الْأَفَاقَ كَيْفَ تَكْثُرَتْ
لَمَّا قَضَى لِإِمَانِنَا بِحَيَاتِهِ
فَاسِمِ حُزْنِ الْعِلْمِ ثُمَّ قَسَمَتَهُ
فَجَزَاكَ رَبُّكَ أَوْفَرَ الْأَقْصَامِ^(١)

ومنهم أيضاً الفقيه العلامة تقي الدين عمر بن محمد بن معيبد الأشعري الشهير بالفتي (ت ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م) ، الذي كان من أكبر فقهاء زبيد في عصره، حتى وصفه أحد معاصريه من الفقهاء المؤرخين بقوله : " وهو من أشهر العلماء بهذا العصر ... " ^(٢) ، تلقى العلم بجلوسه بين يدي أكبر من بابحيته من الفقهاء ، كان موصوفاً بالاجتهاد ، وقد كثر طلابه من زبيد وغيرها ، فكان بلائاً نفسه لهم ، صنف كتباً في الفقه منها (النكيات الحفيات على المهمات) ضمنه ثلاثمائة اعتراض ، وقد عارضه فيها بعض العلماء من أقرابه ^(٣) ، كما أن له في الفقه أيضاً كتاب (مهمات

(١) البرهني ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢١٤ .

(٢) الوصف له هو المؤرخ البرهني ، المصنف السابق ، ص ٣١٤ .

(٣) البرهني ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣١٤ .

المهمات) (١) الذي اختصر فيه كتاب (مهمات الروضة) للإمام عبدالرحيم بن الحسن الأسنوي (ت ٧٧٢هـ / ١٣٧٠م) على روضة الإمام النووي في فروع الشافعية ، وقد وضع ابن معيبد مهماته في جزء واحد ، لستوعب فيه جميع ما في مهمات الأسنوي ، والنقط زبدها ومعانيها ، كما قام - أيضاً - بتصحيح ألفاظ (الوجيز) للإمام الغزالي ، وضمنه جملة من الأقوال والوجوه ومراتب الخلاف ، وجعله جزءاً مفيداً للطلاب المستفيد (٢) ، ووضع كتاباً آخر في الفقه هو (الإبريز الغالي على وسيط الغزالي) (٣) ، وأضاف بامحرمته (٤) إلى مؤلفاته كتاب (أنوار الأنوار) الذي اختصر فيه كتاب (الأنوار) ليوسف بن محمد لأردبيلي ، كما صنف العلامة الفتى بن معيبد كتاب (الإلهام لما في الروض من الأوهام) في التعقيب على شيخه الإمام إسماعيل المقرئ في كتاب (الروض) كما سيأتي قريباً ، وله في الفقه أيضاً كتاب (تقريب المحتاج إلى زوائد شرح النحوي على المنهاج) ، وكتاب (جواهر الحواهر) وهو مخلص لكتاب (جواهر البحر الوسيط) للقمولي ، وله كذلك كتاب (الصفاة إلى زوائد شرح العجالة) (٥) ، وكتاب (المسائل الصريحة في عبارات الإرشاد الصريحة) (٦) .

ومن فقهاء الشافعية في اليمن الذين أسبغت عليهم بعض المصادر صفة (المفتين) شيخ الإسلام العلامة الإمام إسماعيل بن محمد بن عمر الحبائلي الحضرمي (ت ٨٢٤هـ / ١٤٣٠م) الذي بلغ للنهية في تحقيق عدد من العلوم ، منها : للفقه والتفسير والأصول والنحو واللغة ، واشتهر بالفقوى (الفقه) ، وقصد من أجلها من جميع الجهات اليمنية ، ولا سيما حضرموت ، وانتشرت فتاواه واشتهرت ، وقد اطلع

(١) سماء بامحرمته ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٤٦ : (مختصر المهمات) ، منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (١٢٦٧) ، وأخرى في مكتبة الأوقاف بالموصل ، نشر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٢٧ .

(٢) ابن الديبع ، نشر المحاسن اليمنية ، ص ٢٢٤ .

(٣) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣١٤ ، ٣١٥ .

(٤) قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٤٦ ، وهو كذلك لدى البريهي ، المصدر السابق ، ص ٣١٥ .

(٥) ورد هذا الكتاب والأربعة التي سبقته لدى الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٢٧ .

(٦) منه نسخة مخطوطة في مكتبة الأحقاف للمخطوطات - جامع تريم بحضرموت تحت رقم (٣١٣٢) ، وأخرى بمكتبة الإسكندرية تحت رقم (٢٨٢٧) ، انظر المرجع السابق ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

المؤرخ الإمام أبو محمد الطيب بن عبد الله بامخرمة على بعضها فقال : " وانتشر عنه الفتوى المشهورة ، من طالعها وتأمل مسلكه في تنقيح لجهينها وتحريرها وعدم إقصاره على حكاية المعتمد من الطريقتين أو القولين أو الوجهين أو غير ذلك حتى يأتي بجميع ما في المسألة من الخلاف بين الأصحاب ، ثم في آخره يختصر ما بسمطه أولاً ، فيقول : فتمخض من هذا - أو فتلخص ، أو فتحصل ، أو نحو ذلك - كذا وكذا .. (١) .

ومن أبرز فقهاء الشافعية في اليمن على وجه العموم الإمام الفقيه والأديب الشهير إسماعيل بن أبي بكر بن عبدالله المقرئ الشاذلي (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) كان مجتهداً بارعاً في العلوم الفقهية، وله فيها تصنيفات مفيدة ، منها (روض الطالب) (٢) الذي اختصر فيه كتاب (الروضة) للإمام النووي ، وله أيضاً (إرشاد الغلوي في مسالك الحاوي) (٣) اختصر فيه كتاب (الحاوي الصغير) للإمام القزويني وفيه زيادة قيود وألفاظ مفيدة مدرجة نبه عليها في دقائق ألفدها له ، ثم شرحه شرحاً متوسطاً متقناً في مجلدين أسماء (التمشية) (٤) ، وقد تضمن الشرح الأخير شرحاً لكتابه (الروض) و (إرشاد الغلوي) (٥) ، ووضع أيضاً شرحاً آخر على الإرشاد أسماء (إخلاص النلوي شرح إرشاد الغلوي) (٦) ، وله أيضاً (منظومة في نماء الحاج) (٧) .

(١) بامخرمة ، قلادة القدر ، ج ٣ ص ٦٩٢ .

(٢) منه نسخة مخطوطة في مسترقيتي تحت رقم (٤٩١٢) ، نظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٢٠ .

(٣) طبع سنة ١٣٢٠هـ ، نظر المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (٤٨٥) فقه ، وأخرى بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (١٣٠١) ، ومنه نسخة في مكتبة السيكا بالرباط تحت رقم (١٢٥) و (١١٨٥) ، وأخر بمكتبة الاسكندرية تحت رقم (١٣) فقه ، وقد طبع مؤخراً ، نظر المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٥) الأهل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ١٥٨ ، البردوي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٠٢ - ٣٠٧ .

(٦) منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٣٥٢٥) فقه ، وأخرى بالمكتبة الظاهرية في دمشق تحت رقم (٥ فقه شافعي) ، ومنه نسخة أخرى في مسترقيتي تحت رقم (٣٤٢٢) ، نظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٢٠ .

وقد اعتنى الكثير من الفقهاء الشافعية بكتبه عنلية كبيرة ، وخاصة كتاب (إرشاد الغلوي في مسائل الحاوي) ، وتمثلت عنايتهم به في الاعتكاف على دراسته وتدريسه ، وقام بعضهم بشرحه والتصنيف حوله ، منهم العلامة كمال الدين موسى بن زين العابدين بن أحمد بن أبي بكر الرذلا (ت ٩٢٣هـ / ١٥١٧م) ، الذي وضع عليه شرحين ، أولهما كتاب (الكوكب الوقاد شرح الإرشاد) ، وهو كتاب ضخم جاء في نحو أربع وعشرين مجلداً ، ، قيل عنه أنه "كتاب جليل لم يصنف مثله في كثرة الجمع والقوائد ..."^(١) ، كما وضع عليه - على كتاب إرشاد الغلوي - شرحاً لم يرد عنوانه^(٢) .

وممن اعتنى بكتاب (إرشاد الغلوي في مسائل الحاوي) للإمام إسماعيل المقرئ بذكر الفقيه أحمد بن عبدالله بن عبدالرحمن بافضل (ت ٩٢٩هـ / ١٥٢٣م) ، فقد ورد في قائمة مؤلفاته كتاب (نكت على الإرشاد) جاء في مجلدين ، كما أنه صنف كتاباً آخر في شرح كتاب (الروض) للمقرئ نفسه ، وأسماه (نكت على روض المقرئ) في مجلدين لطيفين^(٣) ، ومنهم أيضاً الإمام أحمد بن عمر المزجد ، الذي قام بنظم (إرشاد الغلوي) في منظومة طويلة بلغت خمسة آلاف وثمانمائة وأربعين بيتاً ، وأسماها (تحفة الطلاب في منظومة الإرشاد)^(٤) ، والعلامة تقي الدين عمر بن محمد بن معبد الشهير بالفتي (ت ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م) كذلك منظومة حوت كل كتاب (الإرشاد) لشيوخه الإمام المقرئ^(٥) .

وكان أبرز فقهاء الشافعية في مدينة عدن في النصف الأول من القرن التاسع الهجري هو القاضي جمال الدين محمد بن سعيد بن علي بن محمد كين (ت ٨٤٢هـ

(١) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (٢٢ مجلد) ، وأخرى بمكتبة الأوقاف ببغداد ، فنظر مصنف الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٢٠ .

(٢) العبدروس ، فنور السافر ، ص ١٠٨ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٤) الثعلبي ، أسنا الباهر ، ص ٢٠١ .

(٥) العبدروس ، فنور السافر ، ص ١٢٩ .

(٦) الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٢٠ .

(٤٣٨ م) ، وكانت له مشاركة في عدة علوم أخرى كالفرائض والتفسير والرقائق والأدب ، وله في الفقه كتاب (مفتاح الحاوي بين النصوص والعلاوي)^(١) وهو نكت على (الحاوي) للقرويني^(٢) ، وهو شيخ لعدد من فقهاء عدن الذين تصدروا تسديس الفقه والفتوى في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري .

وفي مدينة عدن أيضاً برز بين فقهاء الشافعية القاضي جمال الدين محمد بن مسعود باشكّيل الأنصاري الخزرجي (ت ٨٧١ هـ / ١٤٦٧ م) ، كانت له مشاركة في الفقه قوية ، وله فيه مصنفات ، برز منها شرح وضعه على (منهاج الطالبين) في فقه الشافعية للإمام النووي ، جمع فيه بين كلام الأسنوي والسبكي والأزرعي وابن النحوي في شروحاتهم ، ومثل فيه أسلوباً غريباً لم يعهد مثله في الشروح ، وبلغ فيه (النكاح) ، ومات عنه وهو مسودة ، فبيضه حفيده عمر بن عبدالرحمن بن محمد باشكّيل^(٣) ، يقول بامخرمة^(٤) : " سمعت الوالد رحمه الله يقول : إنه شرح جيد ، لو يوضع مثله على (منهاج) ، لو تم لأغنى عن كل شرح " .

وقد برز ونجّب من تلاميذ القاضي محمد بن مسعود باشكّيل في مدينة عدن اثنان ، وكلاهما مثله جاء من حضرموت لمستوطناتها ، أولهما الإمام أبو الطيب عبدالله ابن أحمد بن علي بن أحمد بامخرمة (ت ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م) الذي برز في الفقه فالف وفأشهرت فتاواه ، إذ صنف فيه (نكت على جامع المختصرات) للنشائي ، ينكر فيه المواضع التي وقعت في الكتاب في غير مظنتها على نمط (خبايا الزوايا) للزركشي ، وقد جُمعت فتاواه وتؤنّت لتمييزها ، ووضعت في مجموع مبنوية على أبواب الفقه^(٥) ، وهي التي وصفها العبدروس^(٦) بقوله : " وله كتاب في الفتوى ، وهو كتاب

(١) منه نسخة مخطوطة في لالة لي بتركيا ، هكذا ذكره العشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٢٣ .

(٢) بامخرمة ، قلادة النهر ، ج ٣ ص ٧٠٠ ، التريبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٣٢ .

(٣) بامخرمة ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٧٢٤ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٥) بامخرمة ، قلادة النهر ، ج ٣ ص ٧٨٢ ، ٧٨٣ .

(٦) أنوار المسافر ، ص ٢٢ .

جليل عظيم الفائدة ... " ، وأما ثانيهما فهو شيخ الإسلام الإمام أبو عبدالله جمال الدين محمد بن أحمد بن علي بالفضل الحصرمي (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٨م) الذي ترجم له بعض تلامذته وأطلق عليه لقب (شيخ الإسلام)^(١) ، وله في الفقه جهود كبيرة ، وعليه تتلمذ أغلب فقهاء عدن وحضرموت ، وقصده غيرهم من زبيد وتعز وغيرهما ، ولم يصلنا من عناوين مصنفاته الفقهية سوى كتاب (العدة والسلاح في أحكام النكاح) ، الذي وصفه تلميذه المؤرخ بامخرمة^(٢) بقوله : " لا يستغني عنه كل من تصدى لمقود الأنكحة ... " ، وكانت له مشاركة في علوم أخرى كالقرآن والحديث والتاريخ .

ومن كبار الفقهاء الشافعية في أواخر القرن التاسع الهجري يأتي الإمام العلامة الفقيه القاضي القضاة جمال الدين محمد الطيب بن أحمد بن أبي بكر الناشري (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) ، وهو أحد أشهر علماء اليمن وقضاتها ، وضع له القبول بين الناس فأحبه قاصيهم ودانيهم ، وكانت بارعته في التدريس مما يشير إليها المؤرخون ، وكان تلميذه كثيرون من أغلب مناطق اليمن ، وهو في الفقه حجة كبيرة ، ألف شرحاً للحاوي سماه (الإيضاح) في مجلدين ، وأتى فيه بمعظم الغرائب والبكت على بعض ألفاظ (الحاوي) ، وجمع فيه متفرق الكلام (التحرير) لأبي زرعة و (المفتاح) لابن كسب و (قوت المحتاج في شرح المنهاج) لشهاب الدين أحمد بن حمدان بن حمدان الأندلسي و (جواهر البحار) للقمولي و (المهمات) للإسنوي وغير ذلك ومن كلام متأخري الفقهاء الشافعية الكبار ، لذلك فقد اشتهر وانتشر ، وتلقاه الناس عامة في اليمن ومكة والشام بالقبول ، ومنحه بعض الفضلاء التبلغاء فقال : " هو كتاب عديم نظيره فيما مضى من الأيام ، وعز وجود مثله في الدهور والأعوام ، لم يسبق على منواله ، ولا يتصدي أحد من العلماء لمثاله ، فما لمثله في الوجود وحوود ، كما أن نظيره مؤلفه في العالم مفقود ... " (٣) .

وأبرز علماء الشافعية في اليمن في مطلع القرن العاشر الهجري هو الإمام القاضي أبو السرور أحمد بن عمر بن محمد بن عبدالرحمن المَرْجِد (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) ، وقد عكست مؤلفاته الفقهية مدى تمكنه من الفقه وتبحره فيه ، وأشهر كتبه

(١) بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٨٤ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء والصحة .

(٣) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣١٧ - ٣١٩ .

هو كتاب (العباب المحيط بمعظم نصوص الشافعي والأصحاب) ، قيل عنه : " هو
كلمته ... وجمع فيه مسائل (الروض) ومسائل (التجريد) ، " وهو كتاب عظيم
جامع لأكثر أقوال الإمام الشافعي وأصحابه ، وأبحاث من المتأخرين منهم ، على الغاية
من جزالة اللفظ وحسن التقسيم ، ولقد اشتهر هذا الكتاب في الأفاق ، ووقع على حسنه
ونفاسته الإجماع والاتفاق ، وكثر اعتناء الناس بشأنه وانتفاع الطلبة واعتباطهم ببيانه ،
واعتنى غير واحد من علماء الإسلام بشرحه ... " ، وقد قال مؤلفه في وصفه شعراً :

ألا إنَّ الغنابَ أجلُّ سفرٍ
من الكتب القديمة والجديدة
كتابٌ قد تعبتُ عليه ذهراً
وخصنتُ لجمعه كتباً عديدة
وقرئتُ القصيَّ لطالبيهِ
وقد كانت مسأفتُهُ بعيدة
وغصتُ على الخبايا في الزوايا
فها هي فيه بارزة عتيده
وكم قد رمتُ فيه جياذ فكري
ومرتُ لي به منذ مديده
إلى أن بلغ الرُخمن منه
مُرادي من مواهب المديده
فتونك كنز علمٍ لست تلقى
مدى الأزمان في الدنيا مديده
وثق بجميع ما فيه فإني
منحتُ العلم فيه مستقيده
للهي أجلة لي ذخراً وضاعفاً
نؤاسي من عطاياك الحميدة^(١)

(١) المعروض ، النور السافر ، ص ١٢٨ .

والإمام أحمد بن عمر المزجد في الفقه أيضاً كتاب (تجريد الزوائد وتقريب الفرائد) في مجلدين ، جمع فيه الفروع الزائدة على (الروضة) غالباً ، وله في الفقه كذلك كتاب (تحفة الطلاب في منظومة الإرشاد) الذي سبقت الإشارة إلى كونها بلغت خمسة آلاف وثمانمائة وأربعين بيتاً^(١) ، وقد ذكر المُسَلِّي^(٢) أن فتاواه مجموعة تحت مسمى (القلائد العسجدية) ، وقيل أن الذي جمعها هو ابنه القاضي العلامة حسين بن أحمد المزجد ، كما جمعها أيضاً ابن النقيب^(٣) وزار فيها من تفقيهاه ما لا غنى عنه .

وكان الإمام أحمد بن عمر المزجد شاعراً مجيداً ، استغل شعره في خدمة الفقه استغلالاً كبيراً ، ولذلك رأيناه ينظم كتاب (إرشاد الغاوي) في ٥٨٤٠ بيتاً كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، وقيل أنه كان يعظم في اليوم الواحد نحو الثمانين بيتاً من القيود والاحترازات ، وبسبب ملكته الأدبية كان إذا سئم القراءة والمطالعة يستدعي بمقامات الحريري ويسمبها (طبق الحلوى) ، وكان لا يرضى عن مؤلفاته ما لم تبلغ درجة برضاها من الرصانة والصبط والدقة ، لذلك روى حفيده قاضي القضاة أبو الفتح بن حسين بن أحمد المزجد أنه قال : " كان جدي رحمه الله شرح جامع المختصرات للنسائي في ست مجلدات ، ثم لما رآه لم يستوف ما حواه الجامع المذكور من الجمع والخلاف ألفاه في الماء فأعده ... " ^(٤) ، والإمام المزجد هو شيخ جليل كامل من العلماء والفقهاء الشافعية في اليمن ، برز منهم أعلام كبار كالإمام العلامة محمد بن عمر بحرق الحضرمي والإمام الحافظ المؤرخ عبدالرحمن بن السبيع الشيباني وغيرهما .

وهناك من فقهاء الشافعية عدد كبير آخر لا يقلون أهمية عن ذكرناهم هنا ، بل إن بعضهم كانت جهوده - غير التصنيفية - فائقة ، ونشروا الفقه وخدموه بتدريسه

(١) الحيدروس ، النور السافر ، ص ١٢٩ .

(٢) المسنا الباهر ، ص ٢١١ .

(٣) لم يزد الحيدروس ، النور السافر ، ص ١٢٩ أكثر من اسمه ، ولم أمتد قطعاً إليه ، ولعله معتمد بن عبد الوهاب المقداد ابن النقيب (ت ٩٢٢هـ / ١٥١٦م) صاحب كتاب فرة العيون وإشراح الخواطر فيما حكاه الصالحون في فضل مسجد الأشاعر ، الذي حققه عبدالرحمن الحضرمي ونشر ضمن العديد من المؤلفات والرابع من مجلة الإكثيل بصنعاء في سنتها الأولى عام ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

والعناية به ، وتقلّوت نسب إسهاماتهم في ذلك ، ومن هؤلاء نذكر الإمام العلامة الحافظ المحدث أحمد بن إبراهيم بن علي المسقلي (ت ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م) مفتي وادي مور بمنطقة تهامة ، والفقير أبو القاسم بن إبراهيم بن محمد بن مطير (ت ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م) ، والإمام الشهير مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد للسيرور لبادي الشيرازي (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) ، والإمام محمد بن علي بن عبد الله بن إبراهيم الخطيب الموزعي الشهير ببين نور الدين (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م) ، والفقير جمال الدين محمد بن إبراهيم بن علي بن إبراهيم اليربهي (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م) ، وشيخ الإسلام الإمام الحافظ محمد بن أبي بكر بن محمد بن صالح الهمداني الشهير بالخيّاط (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م) الذي مدحه الإمام المقرئ ابن الجزري بقوله :

بْنُ الْإِمَامِ فَتَى الْخِيَّاطِ أَفْضَلُ مَنْ
رَأَيْتُ فِي الْيَمَنِ الْفَيْحَاءِ مِنْ رَجُلٍ
قُلْ عَنْهُ وَاسْمَعْ بِهِ وَانْظُرْ إِلَيْهِ تَجِدْ
مِلَّةَ الْمَسْلُوعِ وَالْأَقْوَامِ وَالْمَقَلِّ (١)

والفقير العلامة شمس الدين يوسف بن أحمد بن عطية الخياط الجندي (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) المنتهية إليه الرئاسة بالفتوى والتدريس بجهات المنصوبة بالدملاء ، والفقير المؤرخ الإمام الحسين بن عبد الرحمن الأمل (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) بأبيات حسين من تهامة ، والفقير شمس الدين علي بن محمد الحضرمي (ت ٨٦٦هـ / ١٤٦١م) ، والفقير العلامة عفيف الدين عطية بن عبدالرزاق بن علي للنجدي (ت ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م) ، والفقير العلامة جمال الدين محمد بن عمر الفارقي الزبيدي (ت ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م) ، والفقير شهاب الدين أحمد بن عبدالله بن أحمد بامخرمة (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) ، والإمام الأديب حمزة بن عبدالله بن محمد بن علي بن أبي بكر الباشري (ت ٩٢٦هـ /

(١) اليربهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٣١ .

١٥٢٠م) ، والعقبة للقاضي عفيف الدين عبدالله بن أحمد مرومي الشحري (ت ٩٤٣هـ / ١٥٣٧م) ^(١) .

٣. المذهب الزيدي :

إن حجم الشيعة الزيدية في تاريخ اليمن العلمي والفكري والحضاري والعسكري والميلسي ليدفع الباحث والقارئ المنصفين كليهما ليجعلها ، عن قناعة ، في كفة واحدة - وجنباً إلى جنب - مع القوى السنية الفاعلة ، والشافعية منها على وجه الخصوص ، باعتبارهما اللتين رسمتا وجه اليمن وحددتا معالم تراثه وملامح حضارته الإسلامية ، ولن أبلغ إن رعت أن دور الزيدية في الحياة السياسية اليمنية - تحديداً - في معظم قرون تاريخها الإسلامي هو الأكبر والأبلغ بالمقارنة مع أدوار القوى الأخرى فيما يخص تفعيله وتحريك أحداثه ، ولهذا فإننا معنيون بالوقوف مع الزيدية لاستجلاء الكثير من جوانب العقيدة والفكر والفقه لديها ، مستحصرين ما أوليناه من الاهتمام بالمذهب الشافعي السني ، وتناولنا لجوانب العقيدة والفكر والفقه الزيدي إنما نتخذه - بالدرجة الأولى - طريقاً لمحاولة فهم النواضع الأساسية لتحديد مسارات السلوك الزيدي وعلاقاته مع الآخر ، وبالدرجة الثانية لفائدته في استعراض الإسهام العلمي الفقهي والعقائدي لعلماء الزيدية ضمن عناية علماء اليمن بالعلوم وتصنيفهم فيها .

تعود البدايات الأولى لظهور الزيدية في اليمن - من ناحية الحضور الفكري العقائدي والفقهي - إلى مطلع القرن الثالث الهجري ، عندما وضع بذورها الأولى إبراهيم بن القاسم العلوي المشهور في اليمن بالجرار ، إذ قدم اليمن ضمن حركة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن طباطبا العلوي الذي خرج بالكوفة على المأمون العباسي سنة (١٩٩هـ / ٨١٤م) ^(٢) ، يدعو إلى الرضا من آل محمد ، فإن صح خبر القيام

(١) لأهل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٤٧ - ٤٩ ، ٧٤ ، ١٥٧ ، ٣٦٠ ، البريهي ، طبقات صنعاء اليمن ، ص ٤٠ ، ٨٩ ، ١٢٥ ، ١٦٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، بامخرمة ، فلاة النحر ، ج ٣ ص ٢٩١ ، ٢٩٢ ، المحروس ، للنور السلف ، ص ١٢١ ، ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٢) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٨ ص ٥٢٨ - ٥٣٣ ، خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٥٠٦ ، الذهبي ، المعبر في خبر من غير ، تحقيق د. صلاح الدين المجدد ، دائرة المطبوعات والنشر ، الكويت ، ١٩٦٠م ، ج ١ ص ٢٢٨ ، ٣٢٩ ، زيارة ، أنباء اليمن ونبلاته بالإسلام . مطبوع ضمن مجلد الأنباء عن دولة بلقيس ومبا ، الدار اليمنية للنشر والتوزيع ، صنعاء ، ١٩٨٤م ، ص ٤٩ ، د. عبدالرحمن الشجاع ، للحياة العظيمة في اليمن في القرنين الثالث والرابع ، ص ٢٥ ، ٤٢ ، ٤٣ .

بدور تبشيري زيدي من قبل إبراهيم بن موسى العلوي فإنه من الممكن أن نطمئن إلى الأخذ بالقول : إن الزيدية هي أول فرق الشيعة وصولاً إلى اليمن .

المؤسس الفعلي لمذهب الزيدية في اليمن هو الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الرُّسُني الحسني العلوي^(١) (ت ٢٩٨هـ / ٩١٠م) ، وهو أحد أشهر علماء آل البيت وأئمتهم ، عالم فقيه راجه متكلم ، مصنف بارع ، ألف حوالي ٧٤ مصنفاً ما بين كتاب ورسالة ، وكان دخوله اليمن ثلثية لدعوة وجهها إليه بعض قبائل أهلها من مدينة صنعاء ، فكان أول من أدخل مذهب زيد بن علي بن الحسين إلى اليمن في سنة (٢٨٤هـ / ٨٩٧م)^(٢) النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وقد لبى دعوته عدد من قبائل اليمن ووجوهها وأعيانها في المناطق المتناثرة بين صنعاء وصعدة ، وبمساعتهم أسس أول دولة زيدية في بلاد العرب^(٣) .

أرسى الإمام الهادي يحيى بن الحسين دعائم الزيدية في اليمن ، ووضع اللبنات الأولى لدولتها ، وكان اهتمامه بعلم الكلام والعقائد قائداً ، ولذا نجد أن أغلب ما تركه من تراث علمي محصور في أصول الدين ، كما سننبه قريباً ، أما من الناحية الفقهية - التي تعنينا هنا أكثر من غيرها - فقد كان وجود المذهب الحسني وشيوع

(١) سيق سرد أهم مصادر ومراجع ترجمته في الفصل الأول من هذه الدراسة .

(٢) لم نتطرق لدخوله الأول إلى اليمن سنة (٢٨٠هـ / ٨٩٣م) لأنه لم يدم ، إذ سرعان ما انتابه الإحباط لما رآه من بعض المعطيات المتعلقة ببعض رجال القبائل التي نصرتة في البداية ومما رآه من القوى السياسية القائمة ، العلوي ، سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ، ص ٧ ، د. حسن حبشيري ، قيام الدولة الزيدية في اليمن ، ص ٥٦ - ٥٩ ، علي محمد زيد ، معتزلة اليمن : دولة الإمام الهادي وفكره ، دار الكلمة ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٩٨٥م ، ص ٧٧ .

Smith, G. Rex, The political history of the Islamic Yemen down to the first Turkish invasion, in Studies in the Medieval history of the Yemen and South Arabia, Variorum, 1997, p 129

(٣) د. محمد عيسى الحريري ، الاتجاهات المذهبية في اليمن حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٧م ، ص ٦٥ - ٦٨ ، فضيلة عبدالأمير الشامي ، تاريخ الفرقة الزيدية بين القرنين الثاني والثالث الهجري ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٦٩م ، ص ٢٠١

لننتشره مساعداً له ، وذلك أن الصلة الفقهية قائمة بين الزيدية والأحناف بسبب تتلمذ الإمام أبي حنيفة للنعمان على بعض أئمة آل البيت الأوائل المعدودين في قسماء التابعين ، حتى أن العالم الذي جمع فقه الإمام الهادي - وهو الإمام الناطق بالحق أبو طالب يحيى بن الحسين الهاروني (ت ٤٢٤هـ / ١٠٣٢م) - كان يرى أنه إذا لم يوجد نص على مسألة قد رويت عن الإمام الهادي فإن مذهبه يكون ما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة في هذه المسألة^(١) ، ويظل وجود دولة للزيدية ورجال - من تلاميذ الهادي وأبنائه - حملوا على عاتقهم نشر الفقه الزيدي هو أكثر العوامل وأبلغها تأثيراً في رسوخ المذهب وتجنزه في اليمن .

بيد أن الإمام الهادي يحيى بن الحسين لم يتقيد بمذهب الإمام زيد بن علي ، إذ صيغه باجتهاداته ورؤاه الفقهية والأصولية حتى وصل به إلى درجة التبين ، فأصبح للمذهب الذي أسسه الإمام الهادي ملامحه الخاصة ، ولذلك شاع إطلاق تسمية المذهب (الهاوي) عليه ، وكذلك على علمائه (علماء الهاوية) لدى البعض حتى يوم الناس هذا^(٢) .

قام عدد من علماء الزيدية خلال القرون التالية لوفاة الإمام الهادي يحيى بن الحسين بخدمة المذهب وتأكيد استقراره واستقلاليته ، وحوث ترجم عدد كبير منهم مصادر الزيدية وطبقاتها المتوافرة ، كالإمام المطهر بن علي بن الناصر أحمد (ت ٤١٥هـ / ١٠٢٤م) ، والإمام العلامة القاضي الحسن بن محمد بن أبي طاهر الرصاص (ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨م) ، والقاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام (ت ٥٧٤هـ / ١١٧٦م) ، والإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) ، والأمير للعالم الحسين بن بدر الدين بن أحمد بن يحيى (ت ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م) ، العلامة القاضي عبدالله بن زيد العنسي (ت ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م) ، والإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة الحسيني (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) ، والإمام العلامة

(١) أبو زهرة ، تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص ٦٨٣ ، د. عبدالرحمن الشجاع ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع ، ص ٢٤٥ .

(٢) السباغي ، الفروض المضير شرح مجموع الفقه الكبير ، مكتبة المؤيد ، الطائف ، ط ٢ ، ١٩٦٨م ، ج ١ ص ١١٥ ، ١١٦ ، د. عبدالرحمن الشجاع ، المرجع السابق ، نفس الصفحة ، عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ٣٠٧ .

الحسن بن محمد بن الحسن النحوي (ت ٧٩١هـ / ١٣٨٨م) ^(١) ، وكان أغلبهم يتصف بالاجتهاد والحصيلة العلمية العالية ، وهم من المعنودين في أعلام الفكر الإسلامي على وجه العموم لكثرة ما صنفوه في العنوم الشرعية المختلفة ، وقد قسمهم بعض الباحثين الزيدية المعاصرين إلى أربع طبقات بحسب الجهود المبذولة من قبلهم في خدمة المذهب ، فسمى للقدمية منها (طبقة المؤسسين) والثانية (طبقة المخرجين للمذهب) والثالثة (طبقة المحصلين) والأخيرة أطلق عليها (طبقة المذاكرين) ^(٢) .

وقد كان اعتماد أهل اليمن من الزيدية في الفقه على مجموعة من الكتب التي صنفها بعض أئمتهم وكبار علمائهم ، وفي مقدمتها كتاب (مجموع الإمام زيد بن علي) وهو الشهير بـ (للمجموع الكبير) ، وكتاب (التجريد في فقه الإمامين الهادي والقاسم) وبعض رسائل الإمام الهادي يحيى بن الحسين نوات المحتوى الفقهي ككتاب (الأحكام) ، وكتاب (الكافي) للعلامة علي بن محمد بن علي بن سليمان (ت ٥٠٠هـ / ١١٠٦م) ^(٣) ، وكتاب (شمس شريعة الإسلام في فقه أهل البيت عليهم السلام) و (الروضة في الفقه) للفقيه العلامة سليمان بن ناصر السماحي (ت ٥٦٦هـ / ١١٧٠م) ^(٤) ، وكتاب (أصول الأحكام في الحلال والحرام) للإمام المتوكل أحمد بن سليمان (ت ٥٦٦هـ / ١١٧٠م) ^(٥) ، و (نكت العبادات وجمل التبادات) للقاضي جعفر ابن أحمد بن عبد السلام (ت ٥٧٤هـ / ١١٧٦م) ^(٦) ، وكتاب (الانتصار لمذهب العترة

(١) ترجمهم لدى ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٢٧٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٨٢ ، ٥٩٦ ، ج ٢ ص ٦١١ ، ج ٣ ص ١٢٢٤ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٢٧٨ ، ٢٩٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٥٧٨ ، ٥٨٩ ، ١٠٣٣ ، ١١٧٤ .

(٢) علي بن عبد الكريم الفضيل ، الزيدية نظرية وتطبيق ، المصدر الحديث للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩١م ، ص ٢١ - ٢٣ .

(٣) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٢٧٧ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٧١٢ ، ٧١٣ .

(٤) ابن المؤيد ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٧٩ ، يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية الصغرى ، ص ٣٤ ، عبد الملك حميد الدين ، الروض الأغص ، ج ١ ص ٢٠١ .

(٥) ابن المؤيد ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٣٤ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١١١ .

(٦) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٢٧٩ .

(الأطهار) للعلامة الإمام الحسن بن محمد الرضا (ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨م) ^(١) ، وكتب الإمام المنصور عبدالله بن حمزة (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) ك (الدرة الثمينة في تبين أحكام السبي والغنime) و (الاختيارات المنصورية في المسائل الفقهية) و (الفناوى) و (العقد الثمين في أحكام الأئمة الهادين) ^(٢) ، وأشهر كتب الفقه الزيدية على الإطلاق وأكثرها شمولاً هو كتاب (الانتصار على مذاهب علماء الأمصار) للإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة الحسيني (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) ، وهو موسوعة فقهية شاملة مكونة من ثمانية عشر مجلد ^(٣) ، جمع فيه صاحبه كل ما وصل إليه من إسهامات علماء المذاهب المختلفة في الفقه الإسلامي ^(٤) ، وأخيراً نذكر كتاب (التذكرة الفاخرة في فقه العترة الطاهرة) و (مختصر الانتصار على مذاهب علماء الأمصار) للإمام العلامة الحسن بن محمد بن الحسن النحوي (ت ٧٩١هـ / ١٣٨٨م) ^(٥) .

لم يأت مطلع القرن التاسع الهجري إلا وقد أصبح المذهب الزيدي أحد مكونات التأثير الشرعي الثابتة في العقلية اليمينية ، وغنّته باستمرار جهود جيل من رجاله وأئمة ، صنفوا حللها العديد من الشروح والمختصرات على مؤلفات أسلافهم ، وأبدعت بعض شخصياتهم في وضع وتسمية الأسس الفقهية للمذهب الريدي الذي لم يحد عنها أتباعه حتى اليوم ، كما سوضحه في الصفحات القادمة .

ولئن الباحث في التراث العلمي لدى الزيدية ليواجه صعوبة كبيرة في التعامل مع جزئيات تتعلق بالفقه أو بعلم الكلام لديهم ، وبالتحديد عندما يكون الحيز المتاح لهما محدوداً ، لأنه يمكننا القول أنه مما يُعَدُّ شاذاً ونادراً لا يُقاس عليه أن نجد عالماً زيدياً لم يضع كتاباً في كل منهما ، في حين أن بعضهما قد وضع عدداً من المصنفات في الفقه وعدداً آخر في علم الكلام ، ولذلك سأجد نفسي محصوراً بالحيز المتاح للفقه عند

(١) عبدالله حميد الدين ، الروض الأخرى ، ج ١ ص ١٥٤ .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية الصغرى ، ص ١٣٦ ، عبدالله حميد الدين ، الروض الأخرى ، ج ٢ ص ٥٩ ، ٦٠ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٥٧٩ - ٥٨٥ .

(٣) ابن المؤيد ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢٢٩ .

(٤) الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١١٢٥ .

(٥) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٢٣٨ ، الوجيه ، المرجع السابق ، ص ٢٤١ .

الزيدية هنا ، ومضطراً للاختصار قدر الإمكان بما لا يخل في رسم صورة اهتمامهم بالفقه وتصنيفهم فيه .

ومن أشهر من اشتغل بالفقه من علماء الزيدية وأتمتها في مدة الدراسة نجد - في مطلع القرن التاسع الهجري - الفقيه أحمد بن عبدالله بن الحسن بن عطية النولري (٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) ، وهو من بيت علم شهير لدى الزيدية عامة وفي صعدة خاصة ، تلقى العلم على رجاله بصعدة ، وصنف في الفقه كتابه (التلخيص الجامع بين مسائل اللمع والتعليق)^(١) .

ومنهم للفقيه أبو القاسم بن علي بن محمد البؤسي (ت ٨١٠هـ / ١٤٠٧م) ، وصفه الوجيه^(٢) بقوله : " عالم أديب شاعر فقيه ، فرضي ... " ، ومن جهوده في التصنيف للفقيه أنه قام بنظم كتاب (التذكرة الفاخرة في فقه العترة الطاهرة) للعلامة النحوي ، وسمى منظومته (الزهور المضيئة والزهرة الروضية في نظم جمل التذكرة الفقهية)^(٣) ، ومنهم أيضاً للعلامة القاضي سليمان بن يحيى بن محمد بن يحيى الصعيتري (ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م) ، وهو سبط العلامة الحسن بن محمد النحوي صاحب (التذكرة الفاخرة) ، وقد استفاد كثيراً من قرابته منه ، فنهل من علمه الكثير ، واختص بكتبه فكان مدار اهتمامه كما سيتضح قريباً ، وتعلم على غير جده من كبار العلماء بصنعاء ، حتى أصبح معدوداً فيهم ، وله في الفقه كتاب (للبراهين الزاهرة في شرح التذكرة الفاخرة) في فقه الزيدية ، وهو في أربعة مجلدات ، ويسمى أحياناً بـ (الصعيترية الكبرى) ، وله شرح آخر على التذكرة لشتهر بين الناس بـ (الصعيترية الصغرى)^(٤) ، كما أن له كتاب تعليق على التذكرة يسمى (الكواكب النيرة على التذكرة) في ثلاثة مجلدات ، وهو غير المشرحين الأولين^(٥) .

(١) رابرة ، ملحق البدر الطالع ، ص ٢٨ ، منه نسخة مخطوطة بمكتبة جامع الإمام الهادي بصعدة ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية .

(٢) أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٧٧١ .

(٣) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرفية تحت رقم (٩٥٧) ، انظر المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ١٩٣ ، رابرة ، ملحق البدر الطالع ، ص ٩٨ ، منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (٣٦ فقه) ، ونسخة من المجلد الثاني منه في المكتبة نصبا تحت رقم (١٩٠ فقه) ، ونسخة أخرى في مكتبة محمد عبدالمعظم الهادي ، وأخرى

ومنهم كذلك الإمام الهادي بن إبراهيم بن علي الوزير (ت ٨٢٢هـ - ١٤١٩م) ، أحد أعلام العلمية للزيدية ، ومن أدبياتها الكبار ، وأغلب جهوده العلمية منصبة في علم الكلام ، وله في الفقه يد ومعرفة ، وصنف فيه كتاب (الأجوبة المذهبية عن المسائل المذهبية)^(١) ، وله كتاب (هداية الراغبين إلى مذاهب العشرة الطاهرين)^(٢) ، وكتاب (المسائل الذهبية في جواب المسائل الذهبية)^(٣) ، كما أن له منظومة رائية في مناسك الحج^(٤) ، ولعل كتابه (النفحات المسكية في الأحوال المكية والأعمال المنسكية) مصنف في الفقه كما يتضح من عنوانه ، وهو غير المنظومة الرائية ؛ لأنه ورد بعدها في (أعلام المؤلفين الزيدية)^(٥) .

ومن أعلام الزيدية في الفقه في مطلع القرن التاسع الهجري الإمام العلامة يوسف بن أحمد بن عثمان العيني الثلاثي (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٩م) ، تتلمذ على عدد

بمكتبة عبد الرحمن شاتم بصعدة ، ومنه نسخة أخرى بالمكتف البريطاني تحت رقم (٢٩٩٤) ، ونسختين في مكتبة برلين الأولى تحت رقم (٤٨٨٢) والثانية تحت رقم (٤٨٨٣) ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٤٧٢ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(١) منه نسخة مخطوطة بمكتبة محمد عبدالمعظم الهادي بصعدة ، انظر الوجيه ، المرجع السابق ، ص ٤٧٢ ، الحبشي ، المرجع السابق ، ص ٢١٧ .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (٢٣٧ مجاميع) ، انظر الوجيه ، المرجع السابق ، ص ١٠٦٩ .

(٣) لين المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ١١٨٤ ، منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (٣٣٢ هـ) ، وسنسخة أخرى بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (١٣٣٢) ، ومنه نسختان في الأمروزيانا ، الأولى تحت رقم (١٧) والثانية تحت رقم (٤٤) ، ومنه نسخة قديمة عليها حواشي بخط حميد المؤلف في مكتبة المرتضى الوزير في هجرة السر ببني حشيش ، انظر المرجع السابق ، ص ١٠٧١ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٤) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (٦٦٩) ، الحبشي ، المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

(٥) منها نسخة مخطوطة بمكتبة علي بن إبراهيم بسامع ، وصورة عنها في مكتبة نديم عيادي ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٧٢ .

(٦) للنسخة الأم التي بخط المؤلف في مكتبة المرتضى الوزير - من أحفاد المؤلف - في هجرة السر ببني حشيش ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢١٨ .

من فقهاء الزيدية الكبار كعبدالله بن الإمام يحيى بن حمزة والمحدث الفقيه أحمد بن سليمان الأوزري ، وهو كذلك من أجل تلاميذ الإمام العلامة الحسن بن محمد النحوي ، وله اهتمام بمصنفه الفقهي الشهير بـ (التنكرة الفاخرة) ، فقد ألف الثلاثي حاشية عليها أسماها (الرياض الزاهرة على التنكرة الفاخرة في فقه العترة الطاهرة) ، وقد ورد هذا الكتاب تحت عنوان (الجواهر للناظرة في كشف غرائب التنكرة للفاخرة)^(١) ، كما أنه صنف في الفقه كتاب (الاستبصار في مختصر كتاب الانتصار) ، وورد عنوانه على أنه (نور الأبصار المنتزع من كتاب الانتصار)^(٢) ، هو مختصر لكتاب (الانتصار على مذاهب علماء الأمصار) للإمام يحيى بن حمزة السابق ذكره ، كما وضع كتاب (الزهور المشرقة والنفحات العبقرة التي طلع بالجمع سناها المنير وتضمنت تفسير معاني كتاب الأمير) في أربعة مجلدات^(٣) .

وللسيدة العالمة الدعماء بنت يحيى بن المرتضى الحسنية (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) مشاركة في الفقه ، تمثلت مشاركتها في الشرح التي وضعته على كتاب (الأزهار في فقه الأئمة الطهار) الذي صنفه أحوها الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى - كما سيأتي - وقد حمل شرحها عنوان (الأنوار في شرح كتاب الأزهار) في أربعة أجزاء^(٤) ، كما شرحت (منظومة الكوفي) في الفقه والفرائض^(٥) .

(١) منه نسختان مخطوطتان بمكتبة الجامع الكبير الغربية ، الأولى تحت رقم (٢٢٩ فقه) والثانية تحت رقم (٣٣٦ فقه) ، وسختان بمكتبة الجامع الكبير الشرقية ، الأولى تحت رقم (١٣٣٣) والثانية تحت (١١٨ مجاميع) ، ونسخة أخرى في يحيى محمد عباس بصعاء ، ونسخة أخرى في المتحف البريطاني تحت رقم (٣٨٢٦) ، انظر لوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١١٧٣ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢١٩ .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ١٢٧٩ ، ربارة ، أئمة اليمن ، ص ٢٠٤ ، وهذه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغربية لم تذكر للمراجع رقمها ، انظر لوجيه ، المرجع السابق ، ص ١١٧٣ ، ١١٧٢ .

(٣) ابن المؤيد ، المعصر السابق ، ج ٢ ص ١٢٧٩ منه نسخ مخطوطة متعددة بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت أرقام (١١٥٢ - ١١٥٨) ، ونسخة أخرى في مكتبة جامع شهارة من أوقاف الشريعة زكية بدست للصين المؤيد ، ونسخة ثالثة في مكتبة محمد عبدالمعظم الهادي ، وأخرى في مكتبة المدرسة الشمسية بدمار ، وأخرى في مكتبة برلين تحت رقم (٤٨٨٧) ، انظر لوجيه ، المرجع السابق ، ص ١١٧٣ ، ١١٧٤ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢١٩ .

(٤) منه نسخة مخطوطة بمكتبة محمد عبدالمعظم الهادي ، انظر لوجيه ، المرجع السابق ، ص ٤٢٣ .

أما أشهر فقهاء المذهب الزيدي على الإطلاق - وإن لم يكن أفقهم - الذي بلغت شهرته الفقهية الآفاق حتى طغت على شهرة كل أعلام المذهب منذ نشوئه حتى اليوم على مدار أربعة عشر قرناً تقريباً فهو الإمام المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى بن مفضل الحسني (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) ، حتى أن المطلع على الفكر للزيدي ليحد أنه هو المقصود بـ (الإمام المهدي) كلما وردت الإشارة إليه في مصنفاتهم على الرغم من كثرة الحاملين لهذا اللقب بين أئمة الزيدية ، تعرض الإمام المهدي للسجن سبع سنوات في إطار الصراع الزيدي الزيدي على سلطة الإمامة^(١) ، فاستغل فراغه الإيجاري ليقوم بوضع أول متن في الفقه شامل لما رأى أنه فقه الأئمة للزيدية السابقين له ، هو كتاب (الأزهار في فقه الأئمة الأطهار)^(٢) ، وهو متن مختصر شامل ، سهل اللفظ ، بليغ العبارة ، استقى معظم مادته من أعظم الكتب الزيدية الفقهية التي صنفها سابقوه ، وخاصة كتاب (الانتصار على مذاهب علماء الأمصار) للإمام يحيى ابن حمزة ، وكتاب (التذكرة العاخرة في فقه العترة الطاهرة) للعلامة الحسن النحوي ، وكتاب (للمع) ، حتى قيل في وصفه أن : " أمه التذكرة وجدته للمع ... " ^(٣) ، ومع جودة وشمولية كتب فقهية سبقت ظهور (الأزهار) إلا أنه قد قيض له من الانتشار والشيوع بين الزيدية ما جعله الكتاب الفقهي الأول الذي طغى على كل المصنفات التي سبقت ، وأصبح المقرر الدراسي الفقهي الأبرز في كل المرافق التعليمية الزيدية^(٤) ، ودارت حول دراسته وشرحه والتعليق عليه وتخريج أدلته ونقده

(١) الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٤٢٣ .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، الشوكاني ، البدر الطالع ، ص ١٤٣ .

(٣) منه نسخ مخطوطة كثيرة جداً ، فهي مكتبة الجامع الكبير الشرقية والعربية سنة وثلاثين نسخة مخطوطة منه ، ولا يسمح المجال لسرد أرقامها ، وهي من الكثرة بما لا يجعل الوصول إليها صعباً لمن طلبها ، وقد طبع كثيراً ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٢٠٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٤١ .

(٥) قال الإمام الشوكاني ، البدر الطالع ، ص ٢٢٥ عنه في معرض حديثه عن كتاب (التذكرة العاخرة) للعلامة الحسن بن محمد النحوي : " أودع فيه - أي في التذكرة - من المسائل ما لا يحيط به الحصر ، مع إيجاز وحسن تعبير ، وكان الكتاب مخرّجاً للزيدية وعندهم حتى اختصره الإمام المهدي وجرده منه الأزهار ، حال الطلبة إلى المختصر .. " ، ومثله لدى ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٢٣٢ .

والدفاع عنه كثير جداً من جهود رجال الزيدية حتى مطلع العصر الحديث ، وتفنن الفقهاء والأئمة في تمييز مصنفاتهم حوله .

وأول شرح وضع على كتاب (الأزهار) هو الشرح الذي وضعه مصنفه نفسه ، والشرح الذي وضعته أخته الدهماء بنت يحيى - كما سبق - وقد أسمى شرحه (الغيث المدرار المفتاح لكلمات الأزهار)^(١) ، وهو شرح كبير جاء في أربعة مجلدات ضخمة ، ثم اعتنى بسرد أبلته التي اعتمدها على مسائل الأزهار ، وجمعها في كتاب (الأنوار في صحيح الآثار للنصبة على مسائل الأزهار)^(٢) .

ثم إن الإمام المهدي أحمد بن يحيى وضع موسوعة فقهية أصولية كبيرة ، ما زالت معدودة كواحدة من لفصل ذخائر التراث الإسلامي في اليمن ، ألا وهي موسوعة (البحر الزخار الجامع لمدح علماء الأمصار)^(٣) ، وله أيضاً كتاب في الفقه يحمل عنوان (القمر النوار في الرد على المرخصين في الملاهي والمزمار)^(٤) ، قيل أنه وضعه في الرد على قريبه الإمام محمد بن إبراهيم الوزير ، وقد جمعت فتاواه

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٢٣٠ ، منه نسخ مخطوطة متعددة بمكتبتي الجامع الكبير الشرقية والعربية ، ولم تحدد كتب البليوجرافيا بيانها ، وقال فوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٢٠٧ : " منه نسخ كثيرة مخطوطة في مكتبتي الأوقاف والعربية ، وفي المتحف البريطاني ، وفي عشرات المكتبات الخاصة ، منها نسخة بمكتبة السيد مجد الدين المؤيدي حطت سنة ٨٨٦هـ " .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (٢٤٦ مجاميع) ، ونسخة أخرى في مكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (٢٠١٦) ، ونسخة أخرى في مكتبة ورثة يحيى بن علي السدارحي ، ونسخة مصورة في مركز بدر العلمي ، ونسخة أخرى في مكتبة محمد عبدالمعظم الهادي ، وأخرى في مكتبة العلامة عبدالرحمن شايه ، وأخرى في مكتبة محمد بن حسن التميمي ، انظر المرجع السابق ، من الصفحة .

(٣) طبع عام ١٣٦٦هـ ، ثم أعيدت طبعته مصوراً من مؤسسة الرسالة ببيروت عام ١٩٧٥م ، وصدر مؤخراً عام ١٩٨٩م في ستة مجلدات من دار الحكمة الليمانية ، وطبع معه في مكتبته مجموعة كبيرة من المثنون التاريخية والكلامية وغيرها ، انظر فوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٤) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (١٨ مجاميع) ، انظر المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

جُمِعَتْ فتلاوه في مجلد^(١) ، وترك أيضاً مجموعاً يشمل ردوده على المسائل التي سأله عنها أحد علماء عصر يدعى النجري^(٢) .

وقد جاء هذا التراث الفقهي للإمام المهدي كنتاج منطقي وطبيعي لجهود جبارة بذلها في مرحلة الطلب ، بالإضافة إلى قدرة فطرية فائقة على الحفظ والاستنكار ، جعلته يحفظ كثيراً من المتنون الفقهية وغيرها ، فكانت ملكة الفقيه المجتهد القادر على الاستنباط قد بنيت عنده على وجه حس ، وهو ما أورث عنده ثقة بالنفس جعلته يعبر عنها في مناسبات كثيرة ، منها قوله :

وَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ فِي النَّاسِ قَدْ قَالَ إِنَّنِي
عَنِ الْفَقْهِ عَارٍ وَهُوَ عَنِّي غَائِلٌ
وَوَاللَّهِ مَا فِي الْوَقْتِ^(٣) أَعْلَمُ نَاقِلًا
مِنَ الْفَقْهِ غَنِيًّا مِثْلَمَا أَنَا نَاقِلٌ
فَمِنْهُ الْوَقْتُ صَبَرْتُ غَنِيًّا بِلَفْظِهَا
وَفِي الدَّهْنِ مِمَّا سِوَاهَا مُسَائِلٌ
كَثِيرٌ بِلَا حَصْرِ ، وَهَذَا تَحَلُّتُ
بِمَا اللَّهُ مِنْ إِحْسَالِهِ لِي فَاعِلٌ^(٤)

ومن فقهاء الزيدية في القرن التاسع للعلامة الفقيه علي بن محمد بن أبي القاسم النجري (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) - وهو غير العلامة علي بن محمد بن أبي القاسم الصني (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) شيخ الإمام محمد بن إبراهيم الوزير - وهو أحد تلاميذ الإمام المهدي أحمد بن يحيى ، وله في الفقه مصنف على كتاب (الفَيْثُ

(١) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير لغربية تحت رقم (١٣ تصوف) ، انظر التوجيه ، اعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٢١٧ .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة آل الهاشمي ضمن مجموع (٢٦٤) ، انظر المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

(٣) يقصد به (الوقت) عصره الذي عاش فيه ، أي لا يوجد من أقرنه من هو في مثل حفظه وبقائه للفقه .

(٤) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية للكبرى ، ج ١ ص ٢٣٢ .

المدرار) لشيوخه المهدي ، وقد أسماه (الأنوار وجلاء الأئمة المفتتح لكائنات الأهل المنقرع من الغيث المدرار)^(١) .

ومن الفقهاء في مساكن الزيدية وأراضيتها - وإن كان هناك قول في لفتناحه إلى الزيدية الهاديوية فكراً ولفهاً - يأتي الإمام الشهير محمد بن إبراهيم بن علي الوزير (ت. ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) ، وهو أحد قرناء الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى وأتباعه ، وهو يُعدُّ ، كالإمام المهدي ، من مفاخر اليمن وأعلام للفكر الإسلامي فيها ، وكان دون الإمام المهدي في الفقه - بحسب مصنعاتهما فيه - ونظيراً له في غيره ، والآثار الفقهية للإمام الوزير معظمها رسائل ، منها رسالة جلييلة في ثلاث من المسائل الفقهية ، قيل أنها في (زكاة الفطر ، وحمل الأراك ، ونكاح البتيمة)^(٢) ، كما أن له رسالة منفصلة في (زكاة الفطر)^(٣) ، ورسالة أخرى حول (عدم اشتراط وجود الإمام الأعظم في صلاة الجمعة)^(٤) ، وله كتاب (قبول البشري في التيسير للبشرى)^(٥) ، تناول فيه كل ما يترخص فيه من العلام والفتاوى والمعازف ، وقد انتقد الإمام المهدي الإطروحات التي أوردتها الإمام الوزير في هذا الكتاب ، وقد

(١) ابن المؤيد ، طبقات زيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٧٨٩ ، منه نسخة مخطوطة بالمتحف البريطاني تحت رقم (٣٩٤٣) ، ونسخة أخرى في مكتبة حمود شرف الدين في منية كوكبان ، ونسخة ثالثة في مكتبة محمد عبدالمعظم الهادي ، وأخرى في مكتبة العلامة عبدالرحمن شبيب في هجرة قلعة بصعدة ، وأخرى في مكتبة جامع الإمام الهادي بصعدة أيضاً ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٧١٦ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢١٨ .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (٣٢ مجاميع) ، ونسخة أخرى في مكتبة محمد بن محمد الكبسي ، انظر الوجيه ، المرجع السابق ، ص ٨٢٨ ، الحبشي ، المرجع السابق ، ص ٢٢١ .

(٣) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (١٨٤ مجاميع) ، انظر الوجيه ، المرجع السابق ، ص ٨٢٨ .

(٤) للوزير ، العواصم والقواصم في الذب عن سقاة أبي القاسم ، ج ١ ص ٧٦ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٢٢ .

(٥) منه نسختان مخطوطتان بمكتبة الجامع الكبير العربية ، الأولى تحت رقم (٩٦ مجاميع) ، والثانية تحت رقم (١١٩ مجاميع) ، ونسخة أخرى في مكتبة يحيى بن علي الدارحي ، ونسخة أخرى في مكتبة حمود شرف الدين ، وقد طبع في مصر عام ١٣٤٩هـ ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٨٢٩ ، الحبشي ، المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

جمع اعتراضاته عليه في كتابه (القمر للنوار في الرد على المرخصين في الملاهي والمزمار) كما سبق أن أشرنا إليه ، ولابنه عبدالله بن محمد بن إبراهيم الوزير (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) كتاب في الفقه أيضاً ، لم تذكر المراجع عنوانه^(١) .

ومن فقهاء الزيدية أيضاً العلامة أحمد بن محمد بن إدريس بن الإمام يحيى بن حمزة المعروف بالأزرقى (ت ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م) الذي صنف كتاباً جامعاً في فقه الزيدية أسماه (جامع الخلاف) غير أنه لم يتمه ، أسسه على ترتيب كتاب (الأزهار في فقه الأئمة الأطهار) للإمام المهدي أحمد بن المرتضى ، وسند أبوابه باستيعاب خلافتات العلماء الأخيار ، ومعتمده في النقل كتاب (التلمع) و (تطبيق) في الفقه نجم الدين يوسف بن أحمد ، وكذلك (البحر الزخار) و (التنكرة) و (الحفيظ) وغيرها من الكتب الفقهية ؛ لهذا أسماه بـ (جامع الخلاف)^(٢) ، ولما مات قبل أن يتمه انبرى له العلامة مطهر بن كثير الجمل (ت ٨٦٣هـ / ١٤٥٨م) فأنتمه^(٣) .

ومعهم كذلك الإمام العلامة يحيى بن أحمد بن علي مؤرخ (ت ٨٦٥هـ / ١٤٦٠م) ، أحد تلاميذ الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى ، وهو من فقهاء الزيدية المعتمدين بعد وفاة شيخه المهدي ، وصف بالعلم والورع والزهد والعبادة ، وكانت له منزلة مرموقة لدى الإمام المهدي رغم كثرة تلامذته ، حتى أنه أُنن له في تصحيح موسوعته (البحر الزخار) وشرحه^(٤) ، غير أنه توفي قبل أن يتمه فأنتمه من

(١) فطر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٦٦٢ .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ١٩٢ ، والعنوان الكامل طويل جداً ، هو (جامع الخلاف وصادع الأصداف عن فرائد الدر الثعاف ورائع أطراف الطراف عن تحقيق مذاهب النجوة والفقهاء من جميع الأطراف) ، منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير القزبية تحت رقم (٢٧٥ فقه) ، وفي المكتبة نفسها نسخة مخطوطة أخرى تحت رقم (١٢٢٨ مجموع) ، ونسخة أخرى في مكتبة الكبير الشرقية تحت رقم (١١٨٣) ، انظر الوجيه ، المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

(٣) ابن المؤيد ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٢٤ ، الوجيه ، المرجع السابق ، ص ١٠٣٤ .

(٤) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٣ ص ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، من الجزء الأول لهذا الشرح نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير القزبية تحت رقم (١٣٥ فقه) ، وفي المكتبة نفسها نسخة مخطوطة كاملة تحت رقم (١٤٠ - ١٤١ فقه) ، ونسخة أخرى في مكتبة ونسخة ثالثة في مكتبة محمد عبدالمعظم الهادي ، وأخرى في مكتبة مجد الدين المؤيدي ، ونسخة أخرى في مكتبة برلين تحت رقم (٤٩١٥) ،

بعده الإمام المتوكل المطهر بن محمد بن سليمان الحمزي^(١) ، وله (منعك الحج) على مذهب الزيدية^(٢) .

ومن التلاميذ المبرزين للإمام المهدي أحمد بن يحيى والعلامة يوسف الثالثي يُذكر العلامة عماد الدين يحيى بن أحمد بن علي بن مظفر (ت ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م) ، وهو معنود في قائمة فقهاء الزيدية الكبار ، وقد روى عن شيخه كل كتبهما الفقهية ، وروى عنه جمع كبير من فقهاء الزيدية المتأخرين في القرن التاسع الهجري والعاشر الهجريين^(٣) ، وأشهر مصنعاته الفقهية كتاب (البيان الشافي للمستزاع من البرهان الكافي)^(٤) ، قال الإمام الشوكاني^(٥) في ترجمته - عنه وعن كتابه - : " وهو أحد العلماء المبرزين من الزيدية في علم الفقه ، أخذ عن علماء عصره كالفقيه يوسف بن أحمد بن محمد بن عثمان ... وقد عكف الطلبة على كتابه المذكور في ديار الزيدية كصنعاء ودمار وصعدة وغيرها ، ووصلوا لديهم من أعظم ما يعتمدونه في الفقه ، ومن جملة مشائخه الإمام المهدي أحمد بن يحيى ... " ، وقال عنه الوجيه^(٦) : " من أشهر

انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٢٦ ، وهناك اختلاف في أرقام بعض النسخ عما هو عند الحبشي .

(١) الوجيه ، المرجع السابق ، ص ١٠٣٩ .

(٢) منه نسخة مخطوطة في مكتبة محمد محمد الكبسي بمسعاء ، انظر الوجيه ، المرجع السابق ، ص ١٠٩٠ .

(٣) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية للكبرى ، ج ٣ ص ١٢٠٦ .

(٤) منه نسخ مخطوطة كثيرة ، منها في مكتبة الجامع الكبير للمرية فقط أبعة وثلاثين مجلداً من أجزاءه المختلفة ، وهي المكتبة الشرقية للجامع الكبير حوالي عشرين مجلداً منه ، وقد طبع مصور من مخطوطته ، وأصدرته وزارة العدل اليمنية في أربعة مجلدات ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٩٣ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٢٦ ، وهناك اختلاف في أرقام بعض النسخ عما هو عند الحبشي .

(٥) البدر الطالع ، ص ٨٤٥ .

(٦) أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٩٣ .

كتب الفقه على مذهب الإمام زيد بن علي عليه السلام ، عكف عليه الطلبة في الديار اليمنية ... " ، وله في الفقه أيضاً كتاب (للكلاب النيرة شرح التكررة الفلخرة)^(١) .

ومن فقهاء الزيدية أيضاً الفقيه العلامة عبدالله بن أبي القاسم بن مفتاح (ت ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م) ، وهو مصنف أحد الشروح المشهورة على كتاب (الأزهار في فقه الأئمة الأطهار) ، وشرحه منتزع من الشرح الأصلي (العيث المدرار) الذي وضعه الإمام المهدي أحمد بن يحيى نفسه ، وقد أطلق على شرحه (المنتزع المختار من العيث المدرار في شرح الأزهار)^(٢) ، وهذا الشرح هو الأشهر على الإطلاق بين الزيدية ، ولعل شهرته قد ولكت شهرة متن (الأزهار في فقه الأئمة الأطهار) نفسه ، بل إن الكثير من أبناء الزيدية لم يعرفوا (الأزهار) إلا عن طريق هذا الشرح ، قال شيخ الإسلام الشوكاني^(٣) : " وميل الناس إلى شرحه وعكوفهم عليه - مع أنه لم يشتمل على ما اشتمل عليه سائر الشروح من الفوائد - دليل على نيته وصلاحي مقصده ... " ، فقد مال إليه طلاب العلم للزيدية واعتنوا به وعكفوا عليه ، وأصبح عمدة مدارس العلوم الشرعية للزيدية باليمن منذ تأليفه^(٤) .

ومنهم أيضاً الفقيه العلامة أحمد بن محمد بن دلود الخالدي (ت ٨٨٠هـ / ١٤٧٥م) ، كان معدوداً في أعيان علماء الزيدية في أواخر القرن التاسع الهجري ، قيل عنه : " كان الخالدي أحد الأعيان ، وريفة الأولن ، قطب من أقطاب الإسلام ،

(١) من الجزء الثاني منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير لمدينة تحت رقم (٢٠٣ فقه) وفيها نسخة أخرى تحت رقم (٢١٩ فقه) وفيها أيضاً نسخة ثالثة تحت رقم (١٠٣٠) ، ومكتبة الجامع الكبير الشرقية ثلاث نسخ مخطوطة منه ، الأولى تحت رقم (١١٢٦) ، والثانية تحت رقم (١١٢٧) ، والثالثة تحت رقم (١١٣٠) ، ونسخة أخرى بالمتحف البريطاني تحت رقم (٢٧٢٦) ، ولأخرى بمكتبة برلين تحت رقم (٤٨٨٤) ، ونسخة أخرى في مكتبة يحيى محمد عباس ، ومن الجرائن الأول والثاني نسخة في مكتبة جامع الإمام الهادي بصعدة ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٩٣ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٢) منه نسخ مخطوطة كثيرة في مكتبي الجامع الكبير الغربية والشرقية ، وقد صدرت أول طبعة منه عام ١٣٤٠هـ ، انظر الوجيه ، المرجع السابق ، ص ٦١٠ ، الحبشي ، وقد أصدرته وزارة العدل اليمنية في طبعة فاخرة عام ٢٠٠١م ٢٢٦ .

(٣) تبهير الطالع ، ص ٤٠٠ .

(٤) الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٦١٠ .

دارت بها رحي عدل اقسام المطهر بن محمد بن سليمان ، وكانت شهرته في
للفرائض أكبر منها في الفقه ، وله في الفقه كتاب (شرح التنكرة للفاخرة في فقه
العترة الطاهرة) في مجلدين ، جمع فيه بين تطبيق الفقيه العلامة يوسف الثالثي على
التنكرة وبين شرح ابن مفتاح لها^(١) .

ومن فقهاء الزيدية الكبار الإمام الهادي عز الدين بن الحسن بن الإمام الهادي
علي بن المؤيد (ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م) ، وهو واحد من أجل أئمة الزيدية وأكبرهم
شأناً ، وأكثرهم شهرة ، وأعزهم علماً ، جمع علم للزيدية وأهل السنة من خلال تعلمه
على ثلثة من أكبر علماء الطائفتين باليمن ، ومصادر الزيدية تزخر بمدحه والثناء
عليه^(٢) ، وكانت له في الفقه مشاركة ويد قوية ، تشهد بذلك مصنفاته التي تركها ، ومن
أشهرها كتاب (جمل من الفوائد المفيدة على المسائل الواضحة الفريدة)^(٣) ، قيل أنه
مجموع يشمل معظم فتاواه وابنه الإمام الناصر الحسن ، وقد رتبها على أبواب الفقه
حفيدة بدر الدين بن محمد بن عز الدين^(٤) ، وله كذلك كتاب (أجوبة المسائل)^(٥) ولعله
مشمول على بعض فتاواه كما ذكر ذلك عبدالسلام الوجيه^(٦) ، وفي فتاويه أيضاً يوجد
كتاب (بهجة المحافل) وما فيه من الفتاوى يختلف عن تلك التي جمعها حفيدة
بدر الدين^(٧) ، وله عدد من الرسائل الفقهية ، منها رسالة في (حكم الجباية التي يأخذها

(١) زبدة ، أئمة اليمن ، ص ٣٤٦ .

(٢) انظر مصادر ترجمته السابقة بالإضافة إلى الشوكاني ، البدر الطالع ، ص ٤٢٠ ، ٤٢١ ، الكبسي ،
اللطيف السنية ، ص ١١٦ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٦٤١ .

(٣) منه نسختان مخطوطتان بمكتبة الجامع الكبير الحربية ، الأولى ضمن الكتب المصنوعة - قسم
المدرسة تحت رقم (٤٨٦) ، والثانية ضمن الكتب المصنوعة أيضاً تحت رقم (١٣٣) ، ونسخة
أخرى في مكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (١٣٤٠) ، ونسخة أخرى هي الإمبروريات تحت رقم
B ١٠٧ ، ومنه نسخة أخرى في مكتبة يحيى بن محمد عباس ، ونسخة أخرى في مكتبة محمد
عبدالمعظم الهادي بصعدة ، انظر الوجيه ، المرجع السابق ، ص ٦٤١ ، ٦٤٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٦٤١ .

(٥) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (١١٧) ، ونسخة أخرى في مكتبة علي بن
محمد الذاري ، انظر المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٦) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٧) منه نسخة مخطوطة بمكتبة محمد عبدالمعظم الهادي بصعدة ، انظر المرجع السابق ، نفس الصفحة .

الإمام (١) ، و رسالة ضمنها جوابه على بعض شيعته في الركاة (٢) ، ورسالة منه بعثها إلى اهل تهامة يحذرهم من استعمال بيع الرجاء (٣) ، وله كذلك رسالة في (النهي عن التشكيك في الطهارة) (٤) ، كما صنف الإمام الهادي عز الدين كتاب (الكوكب السيار في مناسك الحج والاعتمار) (٥) ، ولما عمدة كتبه للفقهية وأكبرها فهو كتابه (الفلك السيار في لجج البحر الزخار) (٦) ، وهو في مجلدين كحاشية على كتاب (البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار) للإمام المهدي أمد بن يحيى المرتضى ، غير انه لم يتمه ، إذ وصل فيه فقط حتى باب الحج .

ومنهم كذلك الفقيه العلامة محمد بن الحسن بن حميد بن مسعود بن عبدالله المقرائي المنحجي (ت ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ م) الذي وضع كتابين في الفقه ، وشرع في كتابه الثالث فمات قبل أن يقطع فيه شوطاً كبيراً ، فأما الكتابان اللذان أتمهما فهما (المفاتيح الطاهرة لالتقاط لآلئ التذكرة العاجزة) في مجلدين كبيرين (٧) ، و(المصابيح

(١) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الحبشي ، انظر فوجه ، اعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٦٤٢ .

(٢) لم تذكر كتب البيولوجرافيا مواضع وجود نسخة الخطية ، انظر المرجع السابق ، ص ٦٤٥ .

(٣) لم تذكر كتب البيولوجرافيا مواضع وجود نسخة الخطية ، انظر المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرفية تحت رقم (٩١ مجاميع) ، انظر المرجع السابق ، ص ٦٤٤ .

(٥) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرفية تحت رقم (١١٢ مجاميع) ، ونسخة أخرى في مكتبة محمد عبدالمعظم الهادي بصعدة ، انظر المرجع السابق ، ٦٤٣ .

(٦) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرفية تحت رقم (٨٨٠) غير أنها ناقصة ، آخرها باب سجود السهو ، ونسخة أخرى في مكتبة آية الله المرعشي في مدينة قم بإيران تحت اسم (شرح كتاب الأحكام من البحر) ، ونسخة مصورة أخرى في مكتبة محمد عبدالمعظم الهادي بصعدة ، وأخرى ناقصة حتى باب الأوقات في مكتبة عبد الرحمن شايخ في هجرة طلة ، وأخرى مصورة في مكتبة يحيى راوية ، انظر المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٧) ذكره فوجه ، اعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٨٨٢ ، وذكر معه الكتاب قتالي ، وذلك نقلاً عن يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية الصغرى ، ولم يذكر أماكن وجودهما ، وهو في ذلك تابع للحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٢٩ .

لراهرة لانتقاط لآلى التنكرة العاخرة) وهو في جزئين ، والأخير مختصر للأول ، وأما الذي بدأه ولم يتمه فهو شرح للبحر الزخار^(١) .

ومن أبرز فقهاء الزيدية في مطلع القرن العاشر الهجري العلامة الإمام صارم الدين إبراهيم بن محمد بن عبدالله بن الهادي بن إبراهيم الوزير (ت ٩١٤هـ / ١٥٠٨م) ، أحد العلماء المعدون في سماء الزيدية ورمورها العلمية ، واشتهر في مصنفاتهم بـ (السيد صارم الدين) ، وأبوه حفيد للإمام الهادي بن إبراهيم العلامة المشهور ، كان السيد صارم الدين يبذل من الجهود في التدريس ما يفوق ما خصصه للتصنيف والتأليف ، وكانت له مكانة مرموقة لدى الزيدية وأئمتها ، وقد عبرت عنها مصانيرهم التاريخية وطبقاتهم ، كقول بعضهم : " كان السيد صارم الدين مبرزاً في علوم الاجتهاد جميعها ، مثلاً ، مشغلاً بخويصة نصه ، حافظاً للإسناد ، وإماماً للزهاد والعباد ، مستزكاً على الأوائل جامعاً لأئمة الفضائل ، مطلعاً على أخبار الأوائل والأواخر ... ولم يزل مشغلاً بالدرس والتدريس والتأليف ، والمواظبة على المساجد والطاعات والمطالعة في جميع اللوقات ... " ^(٢) .

وقد ترك السيد صارم الدين إبراهيم بن محمد الوزير بعض الآثار الفقهية مثل كتاب (هداية الأفكار إلى معاني الأزهار في حق الأئمة الأطهار) ^(٣) ، كما أن له أيضاً (الفلك الدوار المحيط بأطراف دليل المختار) ، قال عنه محقق

(١) الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٨٨٢ ، نفس الصفحة ، الحشوي ، ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٢٩ .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٨٥ .

(٣) منه نسخ مخطوطة كثيرة ، منها ثمان نسخ في مكتبة الجامع الكبير الغربية ، من رقم (٣٢٤) حتى رقم (٣٣١) ، وفي المكتبة الشرقية لجامع الكبير سبع نسخ مخطوطة منه ، من رقم (١٠٥٧) حتى رقم (١٠٦٢) ، ومنه نسخة في مكتبة يحيى بن محمد بن عباس ، وأخرى في مكتبة محمد بن محمد الكبسي ، وأخرى في مكتبة عبدالله المرتضى الوزير بجهة السر في بني حشيش ، ونسخة أخرى كذلك في مكتبة آل الهاشمي بصعدة ، وأخرى في مكتبة سراج الدين عدلان ، ومنه نسخ أخرى في مكتبات الفاتيكان والأميرورياتا بإيطاليا والمتحف البريطاني لم يرد أرقامها وبياناتها ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٦٩ ، ٧٠ ، الحشوي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٣١ .

(الطبقات الزيدية الكبرى) : جعله مقدمة لكتاب في الفقه عاجله للحمام قبل أن يتمه ... (١).

ومن فقهاء الزيدية في القرن العاشر أيضاً العلامة الفقيه محمد بن أحمد بن يحيى بن أحمد بن مظفر (ت ٩٢٦هـ / ١٥١٩م) ، وهو حفيد للعلامة يحيى بن مظفر السابق ذكره في تلاميذ الإمام المهدي أحمد بن يحيى والعلامة يوسف اللثاني ، وقد ولجه بعض المحن بسبب موقفه السياسي وتأييده للإمامين المنصور محمد بن علي الوشلي والمتوكل يحيى شرف الدين في حربهما ضد السلطان الظاهر الثاني عامر بن عبدالوهاب الطاهري بالكيفية التي سبق بيانها في الفصل الثاني من هذه الدراسة ، وقضى جزءاً من حياته في وادي السر ببني حشيش يوم أن كان مزداناً بالهجر العلمية والنشاط العلمي الزاهر ، وله في الفقه الزيدي مشاركة ومعرفة قوية ، وصنف فيه كتابه (البستان الجامع للفواكه الحسان الناطق بجميع مسائل البيان) (٢) ، والبيان كتاب لجده يحيى سبقت الإشارة إليه ، ثم قام بشرحه بكتاب لسماء (البرهان على البستان) (٣) ، كما ألّف في الفقه كتابه (التبيان في شرح وتهذيب معاني التنكرة والبيان) (٤) .

ونختم حديثنا عن فقهاء الزيدية في مدة الدراسة بالعلامة الفقيه والرجل الرياني الإمام محمد ابن يحيى بن أحمد بنوزان الصعدي (ت ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م) ، الذي كان من أفضل علماء وقته ، وصنف فأجاد في كثير من هروع المعرفة ، وله في النحو

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٨١ في حاشية الصفحة .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٨٨ ، ج ٢ ص ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (٣٧ فقه) ، وأربع نسخ في مكتبة الجامع الكبير للشرقية ، الأولى تحت رقم (٢١٥٩) تشمل الجزأين الأول والثاني ، والنسخ الثلاث الأخرى لا تشمل إلا الجزء الأول فقط تحت أرقام (١٢٣٠) (١١٦٠) (١١٦١) ، ومنه نسخة أخرى في مكتبة يحيى بن محمد بن عجلان ، ونسخة أخرى في مكتبة محمد العربي ، فنظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٨٥٤ .

(٣) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير للشرقية تحت رقم (١١٦٢) ، فنظر المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) أفاد الوجيه ، المرجع السابق ، ص ٨٥٤ ، ٨٥٥ بأنه فرغ منه تصليفه سنة ٨٩٨هـ ، وأن مخطوطته المحفوظة في المتحف البريطاني تحت رقم (٣٧٢٢) قد تم قفراغ من نسخها سنة ٩١٤هـ .

كتاب (تنقيح القلوب والأبصار للاعتداء إلى كيفية اقتطاف ثمار الأزهار)^(١) ، قيل عنه أنه : * جمع فيه الشوارد ، وما ندر من الفوائد ، واستوفى الصحيح من الكتاب والسنة والإجماع ، وخَرَجَ الأحاديث إلى الأمهات كما يفعل المحدثون ... »^(٢) ، ولم صنف في الحديث النبوي الشريف كتاب (المعتمد من حديث سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمد) رتب محتواه على أبواب الفقه .

(١) منه نسخ مخطوطة كثيرة ، ففي مكتبة الجامع الكبير لغربية ١٢ مجلد ، ، وفي مكتبة الجامع الكبير للشرقية نسخة من أربعة مجلدات تحت رقم (١٠٤٥) ، في مكتبة مركز بدر العظمي نسخة مصورة منه في ثلاثة مجلدات ، وهناك نسخة مصورة منه في مكتبة محمد عبدالمعظيم للهادي بصعده ، وهناك نسخة أصلية في مكتبة ورثة محمد بن علي الداري ، ولأخرى في مكتبة محمد بن يحيى المطهر بقر ، غير أنها ناقصة ، وفي مكتبة حمود شرف الدين بكوكبان نسخة كاملة منه في جزئين ، وأخرى مصورة في ثلاثة مجلدات بمكتبة محسن بن محمد المتوكل ، وأخرى في ثلاثة مجلدات في مكتبة عبدالله محمد ضمضان ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٢ .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ١١٠٧ في حاشية الصفحة .

(٣) علم الكلام :

قد يرد هذا العلم تحت هذا المسمى (علم الكلام) وقد يرد تحت تسميات أخرى متعددة أشهرها : علم التوحيد ، وعلم أصول الدين ، وعلم العقائد ، وعلم اللطيف ، وكل تسمياته مشتقة من موضوعه الذي يبحث فيه ، وإذا نظرنا إلى تسمياته كلها فإننا سنجد أنها مفردات شبه متطابقة من حيث الدلالة المعنوية الاصطلاحية لها ضمن المعجم الشرعي الإسلامي ، فـ (التوحيد) و (أصول الدين) و (العقائد) هي مترادفات لفظية ذات مفهوم واحد .

وقد عرف عند من أعلام الفكر الإسلامي هذا الفرع من العلوم بتعريفات كثيرة ، تنور حول ماهية علم الكلام ومجالاته ، كما أن معظم تعريفاتهم قد تضمنت مواقفهم منه تأييداً أو معارضةً أو محايدةً ، فهذا الإمام الفارابي^(١) يقول في تعريفه : " صناعة الكلام مَكَّةٌ يقتدر بها الإنسان على بصرة الآراء والأفعال المصنوعة التي صرح بها واضع العلة ، وتزييف كل ما خلفها بالأقاويل " ، وقال ابن خلدون^(٢) أيضاً معرباً إياه : " هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقاد عن مذاهب السلف وأهل السنة ، وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد ... " ، ولعل أشمل تعريف لعلم الكلام هو ذلك الذي أورده أبو حيان التوحيدي^(٣) وقال فيه : " ولما علم الكلام فإنه باب من الاعتبار في أصول الدين ، يدور النظر فيه على محض العقل في التنصيص والتفكيح والإحالة والتصحيح والإيجاب والتجويز والافتدال والتعديل والتجويز والتوحيد والتكفير ، والاعتبار فيه ينقسم بين دقيق ينفرد العقل به ، وبين جليل يفرع إلى كتاب الله تعالى فيه " ، ولندرك أن هذا التعريف هو أشمل من غيره كونه تناول معظم مجالات علم الكلام وميادينه .

نشأ علم الكلام كنتيجة منطقية للانتشار الجغرافي الواسع الذي بلغته الدولة الإسلامية في مشارف القرن الهجري الثاني ، والذي أربط به اندماج كبير لعدد هائل من العناصر البشرية - المختلفة المشارب والديانات - بالمجتمع الإسلامي ، على

(١) إحصاء العلوم ، نشره د. أمين عثمان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٣ ، ١٩٦٨ م ، ص ١٣١ .

(٢) مقامة ابن خلدون ، ج ٣ ص ٩٦٦ .

(٣) ثمرات العلوم ، نقل عن د. هسبل بدر عون ، علم الكلام ومدارسه ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨١ م ، ص ٥٠ .

مستويات تراوحت بين التحول الكامل إلى الإسلام أو للقبول بالتبعية السياسية لسلطته ، وما اقترن بذلك من التغييرات الكبيرة التي طرأت على العقلية المسلمة ، فلم تعد كما كانت - في العصرين الراشدي والأموي - قريبة إلى للسلطة في إطار موروث حضاري بدوي محدود أعانهم على الفهم العميق للإسلام من خلال القرآن الكريم ونصوص السنة النبوية المطهرة ، دونما كثير تكويل أو فيلس ، بعيداً عن التعقيد والتعمق والفوضى فيما وراء النصوص والأدلة ، فالتزمت نحلة من العلماء المسلمين العرب وغيرهم في العصر العباسي الأول أنهم قد غدوا ضمن مجتمع أصبح وعاء لتقافات رومانية ويونانية وفارسية وهندية ، ووجب نشرهم لدينهم الإسلامي في ظل المعطيات الطارئة حتم عليهم التفكير في وسائل جديدة وبراهين معقدة وأدلة مركبة ، كي يقنعوا أقوماً ألفوا وسائل أخرى في الجدل والمناظرة والبرهنة والحجاج ، وراة هذه الحاجة الجديدة ضرورة وإلحاحاً أن الشرائع والعقائد والمذاهب غير الإسلامية التي كان يدين ويتمذهب بها أبناء البلاد المفتوحة قد استفادت من رفض الإسلام وأهله طريق الإكراه في الدين فنست على الإسلام حرباً ضروساً ، مستعينة فيها الأسلحة التي لم تعرفها الجريرة العربية ولم يحققها من قبل للعرب المسلمون^(١) ، وهذه للنخبة المسلمة التي ابتدعت هذه المستجدات المنهجية هي من مثلت خميرة الفلسفة الإسلامية وبنرت نويات علم الكلام الأولى .

في أحضان العصر العباسي الأول ظهرت طليعة تيارات الفلاسفة والمفكرين المسلمين بعد أن كانوا في العصر الأموي أفراداً يسهل عددهم ، وكان لهم الدور الإيجابي الفعال في تحض حجج الزنادقة وإطفاء جذوة نشاطهم الذي شغل معظم مدة حكم الخليفة العباسي المهدي بن المنصور (ت ١٦٩هـ / ٧٨٥م)^(٢) ، غير أن نشاطهم بعد لقضاء هذه الأزمة قد تحول إلى ترف فكري داخلي تمحور حول تفصيلات للعقيدة الإسلامية مثل أحوال الصنائع سبحانه وتعالى من القَدَم والوَحدة والقدرة والإرادة ، وعن أحوال الجسم وللعرض من الحنوث والافتقار والتركيب والأجزاء وقبول الفناء ونحو ذلك مما تناولته التعريفات السابقة ، وكان المعتزلة هم فرسان هذا العلم بلا مراة ، وبلغ منحني قوتهم وسطوتهم في مدة حكم الخلفاء الثلاثة

(١) د. محمد عسارة ، المظلية ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، تونس ، ١٩٩٤م ، ص ١٠ ، ١١ .

(٢) قطري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٦ ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ .

للمسلمون والمعتصم والوائق العباسيين في مطلع القرن الهجري الثالث ، وفي عهدهم أصبح مجازاتهم في تلك الأقوال هي المعيار المسموح لتولي مناصب القضاء والمسؤوليات الإدارية في الدولة الإسلامية^(١) ، وكردة فعل على نهج المعتزلة وتعبيراً عن عدم القبول به ظهرت عقيدة الحنابلة التي نادى بها الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ / ٨٥٥م)^(٢) ، التي دعت إلى العودة إلى منهج المسلمين الأوائل - من الصحابة وتابعيهم - للمتيقن بالنصوص دونما تأويل ولا تعقيد ، وفي عهد المتوكل العباسي أصيب المعتزلة بنكسة سياسية وفكرية كبيرة^(٣) ، غدا فكرها في عهده مطارداً منبوذاً ، وفي القرن الرابع الهجري استبدل الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم الأشعري (ت ٣٢٤هـ / ٩٣٥م) عقيدته الاعتزالية بعقيدة أخرى اشتهرت بعقيدة أهل السنة والجماعة لشيوعها بين كثير من مذهبهم ، كما نسبت إليه فسميت بالعقيدة الأشعرية^(٤) .

لم تكن اليمن بمنأى عن هذه الأنشطة والتيارات الفلسفية والكلامية ، فقد وصل إليها بعض أعلام هذه التيارات وتلاميذهم ، واستوطنوها وغرسوا فيها فصول فكرهم وعقائدهم ، إذ نخلتها العقيدة الاعتزالية عن طريق الزيدية ، واقرن الفقه الشافعي

(١) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ص ١٩٧ ، ٢٠٠ ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ١٠ ص ٢٨٨ .

(٢) انظر طرناً من أخبار الإمام أحمد وجهوده في مواجهة المعتزلة لدى ابن العربي ، العواصم من الفواصم ، تحقيق محب الدين الخطيب ، المكتبة العلمية ، بيروت ، ١٩٨٥م ، ص ٢٥١ ، بن الجوزي ، المنتظم ، ج ١١ ص ٢٨٦ - ٢٨٩ - الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ١١ ص ١٧٧ ، ٢٥٨ ، ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ٧ ص ١٧١ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ص ٣٣٤ ، الباقمي ، امرأة الجنان ، ج ٢ ص ٩٩ ، ١٠٠ ، أبو نعيم الأصبهاني ، حلية الأولياء ، ج ٩ ص ١٤٣ - ٢٠١ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ج ١ ص ٤٣ ، ٤٤ ، النجوي ، تهذيب الأسماء واللغات ، ج ١ ص ١٢٢ - ١٢٤ .

(٣) بن الجوزي ، مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق سعد كريم الفقي ، دار ابن خلدون ، الإسكندرية ، (د. ت) ، ص ٣١٩ ، ٣٢٢ ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ١٢ ص ٣٥ ، ٣٦ ، د. عبدالحكيم عبدالحق سيف الدين ، عهد المتوكل على الله العباسي بين الحقيقة التاريخية وقلم المؤرخين ، مجلة المؤرخ العربي ، القاهرة ، عدد مارس ٢٠٠٧م ، ١٢٩ .

(٤) الأشعري ، الإجابة عن أصول الديانة ، تحقيق محمود بن الجميل ، مكتبة الأنصار ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٣م ، ٩ - ٣٦ من مقدمة المحقق .

بالعقيدة الحنبلية حتى أواخر القرن السادس الهجري ، وقدم الأيوبيون إلى اليمن سنة (٥٦٩هـ / ١١٧٣م) وفي جعبتهم العقيدة الأشعرية لتنافس العقيدة الحنبلية بين حملة فقه الإمام الشافعي ، وفي قرون متأخرة عن القرن السابع الهجري وصلت إلى اليمن طلائع الفكر الصوفي الفلسفي المتمثل في القول بوحدة الوجود ، هذا بالإضافة إلى العقيدة الإسماعيلية العنصرية المغرقة في التأويل للنصوص القرآنية والنبوية في شكلها الباطني والظاهري .

وقد تعددت قنوات انتقال العقيدة الاعتزالية إلى اليمن ، وكلها انحصرت في الزيدية كما سلفت الإشارة ، وكانت القناة الأولى هي الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين الرُّسِّي العلوي (ت ٢٩٨هـ / ٩١٠م) ، مؤسس المذهب الزيدي باليمن ، ومن خلال إلقاء نظرة على قائمة مؤلفاته ورسائله تكفي لمعرفة مدى الاتفاق بينه وبين المعتزلة حتى على مستوى المصطلحات المستحكمة ، كالأصول الخمسة وغيرها^(١) ، وعلى خطاه سار رجال الزيدية ، فلما زار العراق للقاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام البهلولي (ت ٥٧٤هـ / ١١٧٦م) عالم الزيدية الأول باليمن ومتكلمها الأبرز في عصره ، وجلس هناك إلى أكبر علماء الزيدية والمعتزلة وأخذ عنهم ، وتضلع بعلومهم^(٢) ، وكان يقول: "ناظرت علماء العراق وأقمت عليهم الحجة حتى رددت جماعة منهم عن مذاهبهم"^(٣) في إشارة تدل على مدى تضلعه بالفكر الاعتزالي وتمكنه منه ، وقد عاد من العراق وليس فيه من هو أعلم منه على حد قول بعض المصادر الزيدية^(٤) ، ونقل القاضي جعفر معه الأمهات من مصادر المعتزلة ، ما كان

(١) بذل عدد من الباحثين اليمنيين جهوداً ممنوعة في تتبع الصلات بين الزيدية والمعتزلة ، ورصدوا تفصيلاتها من خلال الإشارات التي تصنفها مصادر الفكر الإسلامي ، ومنهم: أحمد عبدالله عارف، الصلة بين الزيدية والمعتزلة، دار أزل ، بيروت ، والمكتبة اليمنية ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ص ٥٩ وما بعدها . د. عبدالمعز المقالح ، قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة ، دار العودة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٢م ، ص ١٨ ، ٢٤ ، علي محمد ريد ، معتزلة اليمن : دولة الإمام الهادي وفكره ، ص ٣١ - ٤٨ ، د. محمد عيسى الحريري، تطور المذهب الزيدي في اليمن ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٢٧٤ .

(٣) الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٣٤٦ .

(٤) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٢٧٧ .

منها باللغة العربية أو الفارسية ، وذلك قبل إتلافها على أيدي خصومها - من جهة - ومن قبل التتار - من جهة أخرى ، فيُنسَبُ إليه - بسبب ذلك - أنه هو الذي حفظ تراث المعتزلة من الانقراض ، ودعّم الارتباط بينها وبين الزيدية^(١) ، وقد مر على الزيدية زمنٌ أصبحت فيه نسخة نكاد تكون مطابقة للمعتزلة^(٢) ، ولهذا قال واحد من متأخري المحققين في علم الكلام عند الزيدية : " كالزيدية في هذا الجبل من اليمن ، هم معتزلة في كل الموارد إلا في شيء من مسائل الإمامة ، وهي مسألة فقهية ، وإنما عدّها المتكلمون من فنهم لشدة الخصام ... " ^(٣) ، وفي مطلع القرن التاسع الهجري قال الإمام المتكلم الكبير للهادي بن إبراهيم بن علي الوزير^(٤) (ت ٨٢٢هـ / ١٤١٩م) واصفاً مدى تقارب الزيدية والمعتزلة : " وإنهما فرقة واحدة في التحقيق ، إذ لم يختلفوا فيما يوجب الإكفار والتفسيق ... " ، وإذا كان هذا رأي واحد من أشهر رموز علم الكلام لدى الزيدية فلا نستغرب قول بعض الأشعرية - كما نقله المقبلي^(٥) - وهم خصوم لكليهما : " ولما الزيدية فلا ينبغي أن يُعتدوا فرقة مستقلة ، وإنما هم مقلدون للمعتزلة في الأصول وللحنفية في الفروع " .

وقد حكّت مصادر الزيدية وغيرها مدى براعة أئمتها ورجالها في علم الكلام ، إذ تضم الببليوجرافيا الزيدية عدداً هائلاً من مؤلفات علم الكلام ، أسهم في تصنيفها معظم علمائها ، وإن كانت موضوعاتها متكررة إلا أن الإحساس بأهمية هذا العلم ضمن

(١) انظر لخباره عند الأكوخ ، هجر العلم ، ج ٢ ص ٩٥٥ ، جنداري ، الجامع الوجيز ، ورقة ٦٨-١ ، الجندي ، الملوك ، ج ١ ص ٣٤٦ ، الرحيف ، مآثر الأئمة ، ج ٢ ، ٧٧٠ ، الشامي ، تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي ، ج ١ ص ٥٢٨ ، ج ٢ ص ٢٥٤ ، بن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٢٧٣ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ٢٧٨ ، الوزير ، تاريخ بني الوزير ، ص ٢٢٧ .

(٢) د. محمد عيسى الحريري ، تطور المذهب الزيدي في اليمن ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٣) المقبلي ، العلم الشامخ ، ص ١١ .

(٤) الهادي الوزير ، رياض الأئمة في ذكر الأئمة الأئمة والأطماء الأئمة وشيوخهم الأخيار ، نسخة مخطوطة ، مكتبة الجامع الكبير الشرقية ، رقم ٣١٥٤ ، نقلاً عن المقبلي ، العلم الشامخ ، ص ١١ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٢ ، وقد عقب المقبلي بعد إيراده لهذا التصريح بقوله : " لكنه - أي قائل التصريح - تعصب في هذا الكلام وما أنصف ، أو خبط وجارب ، فكم فيهم من إمام بظّار ، وسابق لا يُنقّ له ضار " .

للمنظومة الفكرية للزيدية دفعت الكثير منهم للإسهام في ازدهاره ونشره ، بما جعلهم
فرسانه في اليمن بلا منازع .

وفي مدة دراستنا كان علم الكلام يشهد مرحلة من ازدهار مراحل شيوعه في
اليمن ، إذ كثرت المصنفات فيه ، وتعددت شروح الكتب التي خلفها السابقون في بابيه ،
ومن أوائل رجال الزيدية اهتماماً بعلم الكلام في القرن التاسع الهجري يأتي الإمام
لؤلؤ بن الله المطهر بن محمد بن المطهر بن يحيى الحسني (ت ٨٠٢ هـ / ١٣٩٩ م) ،
وهو أحد أئمة الزيدية الذين نافسوا الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة الحسيني سنة
(٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م) ، كان موصوفاً بالعلم والاجتهاد والصلاح ، وكان قد تتحنى عن
الإمامة وانقطع للعلم دراسة وتديساً وتصنيفاً ، فكان من مصنفاته (الأبيات الفخرية)
في أصول الدين ، وهي التي جاء من بعده الإمام محمد بن يحيى القاسمي ليشرحها ،
وضمن شرحه الفروق بين الزيدية والمعتزلة ، وأسماه (اللؤلؤ الدرية في شرح الأبيات
الفخرية)^(١).

ومنهم كذلك الإمام الهادي بن إبراهيم بن علي الوزير (ت ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م) ،
أحد فرسان علم الكلام المحققين على الساحة اليمنية ، وكان من أشد الناس شكيمة في
نصرة مذهب الزيدية والتعصب لهم والرد على مخالفيهم ، وكان يقصد الفكر الاعتزالي
ويقدم رجال المعتزلة على علماء الزيدية ، واعتبرهم سادات الزيدية وعلماءها ، فقد
عند في كتابه (رياض الأبصار في ذكر الأئمة الأقطار والعلماء الأبرار وشيبتهم
الأخيار) لئمة للزيدية وعلماءها وعلماء المعتزلة متوسلاً بهم ، فرتب مادة كتابه
المذكور على النحو التالي : أولاً الأئمة الدعاة من الزيدية ، ثانياً علماء المعتزلة ، ثالثاً
علماء الزيدية من أهل البيت ، ثم علماء الزيدية من غير آل البيت ، وقد اعتذر عن
تقديم المعتزلة على علماء الزيدية وشيبتهم بقوله : " ولما المعتزلة فقد ذكرت بعض
أكابرهم ، وكراسي منابرهم ، ومع إجمال وإهمال ، إذ هم لأعداد الكثيرة ، والطبقات
الشهيرة ، ورأيت تقديمهم على الزيدية ، لأنهم سادتها وعلمائها ، فألحقت سمطهم
بسمط الأئمة ، وذلك لتقدمهم في الرتب ، ولأنهم مشايخ سادتنا وعلمائنا للقادات " ^(٢) .

(١) ربيعة ، أئمة اليمن ، ص ٣٣٤ ، ٣٤١ ، توجيه ، أعلام المنزلة الزيدية ، ص ١٠٤٠ .

(٢) الهادي الوزير ، رياض الأبصار في ذكر الأئمة الأقطار ، نقلاً عن المقتلي ، العلم الشامخ ، ص ١١ .

كانت أغلب الجهود العلمية للإمام الهادي بن إبراهيم بن علي الوزير منصبه في علم الكلام ، ولم يؤلَّ غيره من العناية كما لولاه ، وصنف فيه كتاباً ورسائل ومنظومات شهيرة ، وأشهر آثاره الكلامية كتاب (نرة الغواص في نظم خلاصة الرصاص)^(١) ، وهو عبارة عن منظومة شمل بها كتاب (الخلاصة النافعة بالأدلة القاطعة في قواعد التابغة) في علم الكلام للعلامة أحمد بن الحسن بن محمد الرصاص (ت ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م) ، ثم أنه قلم بشرح هذه المنظومة في كتابه (تلقيح الألباب في شرح أبيات اللب) كما ورد عند الوجيه^(٢) ، وقام كذلك بعمل تنزيل على الخلاصة بكتابه (نهاية التنويه في إزهاق التمويه)^(٣) ، وصنف عليه كتاب (شرح التنويه في إزهاق التمويه)^(٤) ، وله أيضاً وكتاب (التفصيل في التفصيل)^(٥)

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى . ج ٢ ص ١١٨٣ ، منه ثلاث نسخ مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرفية تحت أرقام (٦٥١) و (٧٧٦) و (١٥٣٧) ، ومنه نسخ في مكتبة الجامع الكبير للفريرية تحت أرقام (١٨ مجاميع) و (٢٤ مجاميع) ، و (٨٤ مجاميع) ، و (١٣٩ مجاميع) ، و (١٩٩ مجاميع) ، (٥٧ علم الكلام) و (٦٠ علم الكلام) ، و (٦٢ نحو) ، و (٥٢ فرائص) ، وسماها البعض (المصاحبة في نظم مسائل الخلاصة) ، ومنها نسخة تحت عنوان (نظم خلاصة الرصاص) في مكتبة محمد بن يحيى المطهر بقر ، ونسخة أخرى بمكتبة محمد بن محمد الكبيسي في صنعاء تحت عنوان (نظم الخلاصة) ، وأخرى في مكتبة جامع الإمام الهادي بصعدة ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٧٠ ، الحاشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ١٣٣ .

(٢) الوجيه ، المرجع السابق ، ص ١٠٦٩ ، منه سفتان مخطوطتان بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقمي (٣٤ علم الكلام) و (٣٥ علم الكلام) ، وأخرى مصورة في مكتبة محمد عبدالمعظم الهادي بصعدة ، انظر الوجيه ، المرجع السابق ، الصفحة نفسها ، الحاشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ١٣٣ .

(٣) منه ثلاث نسخ مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت أرقام (٤٩ مجاميع) و (٧٨ مجاميع) و (١٣٧ مجاميع) ، وأخرى في مكتبة محمد بن يحيى المطهر ، انظر الوجيه ، المرجع السابق ، ص ١٠٧٠ .

(٤) منه نسخة مخطوطة بمكتبة محمد بن يحيى المطهر بقر ، وأخرى ضمن مجموع في مكتبة عبدالرحمن شليم بهجرة فلة في صنعاء ، انظر المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٥) أشار كثير من الباحثين ومحققي كتب التراث الزيدي إلى أن هذا الكتاب في الرد على أبي بكر بن العربي الأندلسي صاحب كتاب (المواسم من القواصم في تحقيق موالف الصمالية) ، وبالنظر إلى الفترة التي عاش فيها الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير يعرف أن ابن العربي الأشهر والأكثر صيتاً عصره هو الشيخ محيي الدين بن العربي الطائفي الأندلسي المتصوف ، صاحب القول بوحدة الوجود ، وخاصة أن الإمام

(^١) ، وله أيضاً كتاب (نظم خلاصة العوائد) في أصول الدين(^٢) ، وكتاب (خلاصة الفوائد) هو أحد مصنفات القاضي الشهير جعفر بن أحمد بن عبد السلام ، ولالإمام الهادي الوزير أيضاً وكتاب (شريعة الفرات في شرح ما التمس من الأبيات)(^٣) .
ومن الكتب التي ابتدعها الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير - أي لم تكن تعليقاً أو شرحاً لمصنفات غيره - كتابه (السيوف المرفعات في الرد على من أخذ في الصفات)(^٤) ، وكتاب (جوهرة العقد للفريد في التوصل بأئمة العدل والتوحيد)(^٥) ، وكذلك كتاب (كفاية للقانع في معرفة الصانع)(^٦) ، وكتاب (الجواب الناطق بالحق للمبين)(^٧) .

الهادي الوزير قد وقف موقفاً صارماً من العقائد التي مآدى بها ابن الحري المتصوف في كتبه المشهورة ، ومواقفه في تأييد الفقهاء الشافعية في تهامة الذين كانوا في واجهة الأحداث في الصراع مع المتصوفين الفلاسفة من أتباع ابن عربي في اليمن مشهورة ومدونة ، وهي ديوان الإمام إسماعيل بن أبي بكر المقرئ القصائد لمرر التي ترسل بها مع الإمام الهادي الوزير ، وهذا يجعلني أرجح أن ابن العربي المذكور في طيات صون كتابه المذكور هو النيسوب لا الفقيه المالكي صاحب (المواسم من القواسم) .

(^١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ١١٨٣ - ١١٨٤ ، منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (١٤٧٦) ، وأخرى في الأمروزيانا ، ونسخة أخرى مصورة في مكتبة محمد عبدالمظيم الهادي بصعدة ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٦٩ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(^٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة محمد بن حسن للجلال ، وأخرى في مكتبة محمد بن عبدالمظيم الهادي بصعدة ، انظر الوجيه ، المرجع السابق ، ص ١٠٧٢ .

(^٣) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (٤٠ علم الكلام) ، وأخرى في مكتبة المرتضى الوزير بهجرة الصريبي حشيش ، انظر الوجيه ، المرجع السابق ، ١٠٧١ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ١٣٤ .

(^٤) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ١١٨٤ ، الوجيه ، المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(^٥) منه نسخة مخطوطة بمكتبة عبدالله بن محمد غصان بصعاء ، انظر الوجيه ، المرجع السابق ، ١٠٧٢ .

(^٦) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ١١٨٣ ، الوجيه ، المرجع السابق ، الصفحة نفسها وقال في تحقيقه لطبقات الزيدية الكبرى : لم ألق على نسخة خطية .

(^٧) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (٤٠ علم الكلام) ، انظر الوجيه ، المرجع السابق ، ص ١٠٦٩ .

ومن المشاركين في علم الكلام من رجال الزيدية أيضاً العلامة عبدالله بن علي بن محمد بن أبي القاسم بن محمد الحسني (ت ٨٢٩هـ / ١٤٢٥م) ، أخذ عن أبيه - الذي كان من أشد علماء الزيدية صيانة لمذهبها وتعصباً له - وتلمذ على أيدي غيره ، وبرز في علم الكلام حتى صنف فيه ، ومما تركه من المؤلفات كتابه (تنصيد ذهب اللؤلؤ في تشييد مذهب الآل)^(١) ، وكتاب (فتح العقيدة في شرح القصيدة)^(٢) ، وهو شرح لقصيدة أصولية للعلامة حمزة بن أبي القاسم بن محمد - عم أبيه - ، وله أيضاً كتاب (فاتحة العلا في الرد على ابن علا)^(٣) ، ولم تبيّن المصادر شخصية المردود عليه ، وله أيضاً كتاب (الشمس الكاشفة لشبهة الفلاسفة)^(٤) .

وللسيدة العالمية الدهماء بنت يحيى بن المرتضى الحسنية (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) مشاركة في علم الكلام ، كيف لا وهي شقيقة الإمام المهدي صاحب القمم المعلى في كثير من العلوم ، وفارس علم الكلام لأبرز في اليمن في عصره ، وقد صنفت الدهماء كتاباً كبيراً أسمته (الجواهر في علم الكلام)^(٥) ، جاء في ثلاثة مجلدات ليبدل على سعة مضمونه واتساع محتواه .

وأشهر علماء الزيدية في مضمار علم الكلام في القرن التاسع الهجري - بل في كل قرون تاريخها - هو الإمام المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) ، كان موسوعياً في علمه وتصانيفه ، وصفه مؤرخو الزيدية بأوصاف بالغة تدل على عظمة منزلته عندهم ، حتى قال بعض متأخريهم في ترجمته أنه : " أحد عظماء الإسلام وأئمة العترة الكرام ، عالم ، فقيه ، مجتهد مطلق ، علم شامخ في شتى

(١) النسخة الأم محفوظة بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (٧٧٢ علم الكلام) ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٦٠٥ .

(٢) توجد النسخة الأم في المجلد المتضمن للكتاب السابق بمكتبة الجامع الكبير الشرقية ، انظر المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) توجد النسخة الأم في المجلد المتضمن للكتاب السابق بمكتبة الجامع الكبير الشرقية ، انظر المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) توجد النسخة الأم في المجلد المتضمن للكتاب السابق بمكتبة الجامع الكبير الشرقية ، انظر المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٥) الوجيه ، المرجع السابق ، ص ٤٢٤ ، الحبشي ، معجم النساء اليمنيات ، ص ٧٥ ، ربارة ، أئمة اليمن ، ص ٣٠٨ ، كعالة ، معجم المؤلفين ، ج ٣ ص ١١٥ .

العنوان ، أثرى المكتبة الإسلامية بمؤلفاته الشهيرة الخالدة التي لازالت عمدة للمذهب الزيدي ...^(١) ، وكتب عنه بعض الباحثين المعاصرين رسالة علمية عنوانها بس (الإمام المهدي أحمد بن يحيى وأثره في الفكر الإسلامي سياسياً وعقائدياً)^(٢) ، وقد سبق ذكره مراراً في هذه الدراسة لمشاركته في معظم فروع المعرفة ، وهو في علم الكلام المقدم بين علماء الزيدية وأئمتها .

وقد صنف الإمام المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى في علم الكلام كثيراً من الكتب ، منها كتاب (الملل والنحل)^(٣) ، ثم قام بشرحه في كتاب آخر أسماه (للمنية والمل في شرح الملل والنحل)^(٤) ، وله أيضاً في علم الكلام كتاب (التحقيق في الإكهار والتسويق)^(٥) ، وكتاب (النبوات وما يتعلق بها)^(٦) ، كما صنف فيه كتاب (الإمامة)^(٧) ، ووضع رسالة أخرى تحمل عنوان (الإمامة) أيضاً^(٨) ، وله كذلك

(١) لوجيه ، أعلام المؤلفين للزيدية ، ص ٢٠٦ .

(٢) هو د. محمد محمد الكمال ، وقد صدرت طبعته الأولى عام ١٩٩١م عن دار الحكمة الليمانية بصنعاء .

(٣) منه ثلاث نسخ مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت أرقام (٦٤٩) و (٦٢٤) و (١٥٠٥) ، ومنه مسجل في مكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (٢٥٩ مجاميع) و (٤١ أصول فقه) ، انظر المرجع السابق ، ص ٢٠٧ .

(٤) منه ثمان نسخ مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت الأرقام من (١٥٢) حتى (١٥٨) علم الكلام) ، والنسخة الثامنة تحت رقم (١٧٧ تاريخ) ، ومنه ست نسخ في مكتبة الجامع الكبير الشرقية ، ونسخة منشورة في المكتبات الخاصة كمكتبة مجدولين المؤيدي بصعدة وغيره ، وقد طبع بتحقيق د محمد جواد مشكور بدمشق ، ونشرت منه مجرّداً مجلة كلية الآداب بجامعة تبريز في إيران ، كما صدر المن مع شرحه عن دار الفدى سنة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م . المرجع السابق ، ص ٢٠٩ .

(٥) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرقية ضمن مجلد يحويه مع غيره تحت رقم (٥٨٧) ، وأخرى في مكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (٩٥ مجاميع) ، وقد طبع ضمن كتاب المنسوبة والأمل السابق ذكره ، انظر المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

(٦) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (٧٩٨) ، وأخرى في مكتبة جامع شهادة ، وأخرى في المتحف البريطاني ، ونسخة أخرى في مكتبة آل الهاشمي بصعدة ، انظر المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٧) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرقية يتضمنه مع غيره تحت رقم (٥٨٧) ، وأخرى في مكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (١٥٥ علم الكلام) ، انظر المرجع السابق ، نفس الصفحة .

كتاب (رياضة الأفهام في علم الكلام)^(١) ، ثم قام بشرحه في كتاب (دماغ الأرهام في شرح رياضة الأفهام)^(٢) ، وله في علم الكلام كذلك كتاب (الدافعة للعنوان الهادي لأهل الإيمان)^(٣) ، وكتاب (القلائد في تصحيح العقائد)^(٤) ، وقد قام لاحقاً بشرحه في كتاب آخر حمل عنوان (الدرر الغرائد في شرح القلائد في تصحيح العقائد)^(٥) ، وله كذلك رسالة (للناصحة للمتذكر الفاضحة للمستهتر)^(٦) ، وكتاب (سلوة الأولياء

(١) منه نسخة مخطوطة ضمن مجموع مكتبة آل الهاشمي تحت رقم (٢٦٣) ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٢١٣ .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (١٤٨ مجاميع) ، ومنه ست نسخ في مكتبة الجامع الكبير الشرقية ، ومنه نسخ كثيرة في المكتبات الخاصة كمكتبات محمد عبدالمعظم الهادي ومكتبة عبدالرحمن شاييم ، انظر المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

(٣) من الجزء الأول منه ثلاث نسخ مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير لشرقية تحت أرقام (٥٧١) و (٥٧٢) و (٥٧٣) ، ويوجد من الجزء الثاني منه نسخة في المكتبة نفسها تحت رقم (٥٧٥) ، وأخرى مصورة في مكتبة عبدالرحمن شاييم ، ومن الجزء الثاني نسخة بمكتبة محمد بن يحيى الذاري ، ونسخة أخرى مصورة بمكتبة نديم عبادي ، انظر المرجع السابق ، ص ٢٠٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢١٠ .

(٥) منه تسع نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرقية ، ونسخة في المتحف البريطاني ، وأخرى في مكتبة جدامع شهارة ، وأخرى في مكتبة محمد محمد الكبي في صماء ، ونسخة أخرى في مكتبة آل الهاشمي بصعدة ، انظر المرجع السابق ، ص ٢٠٧ .

(٦) منه ست نسخ مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت الأرقام (٥٦ علم الكلام) و (٥٧ علم الكلام) و (١٥٢ علم الكلام) و (١٥٥ علم الكلام) و (١٠٧ علم الكلام) ، ونسخة أخرى مصورة في ثلاثة مجلدات في مكتبة عبدالرحمن شاييم بطلا في صعدة ، وأخرى في مكتبة محمد بن يحيى الذاري ، وفي مكتبة آل الهاشمي منه نسخة تحت عنوان (الفرق في معرفة الحي الواحد) ، انظر المرجع السابق ، ص ٢١١ .

(٧) المرجع السابق ، نص الصفحة .

في معرفة الأنبياء (١) ، وكتاب (القسطاس المستقيم في الحد والبرهان القويم) (٢) ،
وكتاب (الوعد والوعيد) (٣) .

كان المتوقع أن يشجع هذا الإنتاج الغزير في علم الكلام - وهي غيره - للإمام
المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى بأن يأخذ موقعه المناسب بين أبرز أعلام مفكري
الإسلام ، غير أنه كغيره من أعلام اليمن قد جهله الكثيرون ، وطوي ذكره ، ولو
خرجت كل كتبه - أو بعضها - لعلمة القاصي والداني ، ولفاق أعلاماً قد ملأوا سمع
الدنيا وبصرها شهرة وصيتاً وهم نومه بهرلحل ، غير أن اليمن قد هُصِمَتْ كثيراً في
عُصْط حق رجالها ، وموت نكرهم ، في الماضي والحاضر ، ولا شك أن على أبنائها
تقع المسؤولية الكبيرة في عدم نشر تراثهم والعناية به .

وإذا ما ذُكِرَ الإمام المهدي أحمد بن يحيى في علم الكلام نُكِرَ معه الإمام العلامة
محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل للوزير الحسن (ت ٨٤٠هـ /
١٤٣٦م) - الشقيق الصغير للإمام الهادي الوزير - الذي كان أمةً وحده ، تفرد في
عقيدته ومذهبه وأسلوبه ومنهجه ، ولم يمنعه كونه من بيت علم ريدي أصول في تشييعه
وعلويته - نسباً ونشأة - من أن يكون داعية العودة إلى موارد السنة النبوية للمطهرة -
المشهورة لدى عامة علماء الأمة الإسلامية - لاستقاء أصول الدين وفقهه منها ، في
أرض ما عهد أهلها الارتكاز عليها ، ومع ذلك فقد كان في المقام العالي والمنزلة
العظيمة ، وعرف له قدره كل من قرأ له أو درس على يديه ، وقد أوسعنا الحديث عنه
عند حديثنا عن الهجر العلمية في الفصل الثالث ، ونذكر بما وصفه به صاحب طبقات
الزيدية الكبرى (٤) ، إذ قال : " السيد الحافظ ، خاتمة المحققين ، المحيطة بالعلوم من
خلفها وأمامها ، والحري بأن يدعا بإمامها وابن إمامها ، كان متباً غليات ، وصاحب
آيات وعلامات ، بلغ من العلوم لأقاصي ، واقتادها بالنواصي ، وله في علوم الاجتهاد

(١) منه نسخة مخطوطة بالمتحف البريطاني ، الوجه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، نفس الصفحة .

(٢) منه نسخة مخطوطة ضمن مجموع مكتبة آل الهائمي بصعدة ، انظر المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

(٣) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير لشرقية ضمن مجلد يحويه مع غيره تحت رقم (٥٨٧) .
وأخرى في مكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (١٥٥ علم الكلام) ، وأخرى بالمتحف البريطاني ،
انظر المرجع السابق ، نفس الصفحة ٢٠٨ .

(٤) ابن المؤيد ، ج ٢ ، ص ٨٩٦ - ٩٠٢ .

المحل الأعلى ، والتدح للمعلى ، بلغ مبلغ الأوائل بل زاد ، وألف وصنف وأعاد ... كان اجتهاده اجتهاداً كاملاً مطلقاً ... وكان أنكى الناس قلباً ، ولزكاهم لباً ، وكان فواده جنوة نار تتوقد ، وهو الخبير الخريت الماهر في كل مقصد " ، لهذا قال شيخ الإسلام الإمام الشوكاني^(١) : " ... والحاصل أنه رجل عرّفه الأكابر ، وجهله الأصاغر ، وليس مختصاً بعصره ، بل هو كائن فيما بعده من العصور إلى عصرنا هذا ، ولو قلت : إن اليمين لم تنجب مثله لم أبعد عن الصواب " .

جلب اجتهاد عليه للكثير من المشكلات ، وتغير عليه لقرب المقربين إليه ، وكان أحد كبار شيوخه - علي بن محمد بن أبي القاسم (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) يذال منه وينسبه إلى الهوى والخروج عن الحق ، ودارت المراسلات والنقاش بينه وبين المنكرين عليه منهجه الجديد ، وأشهرهم شيخه السابق والإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى .

وكل المصنفات التي صنّفها الإمام محمد بن إبراهيم الوزير في علم الكلام هي في أساسها ردود مباشرة أو غير مباشرة على ما كان يطرحه جمهور الزيدية من قومه ، المعاصرين له والسابقين ، وكان يصرح فيها بأنه متبع لمذهب القماء من علماء آل البيت النبوي في الأصول ، وأن المتأخرين قد خالفوه في انغماسهم في علم الكلام على منهج المعتزلة ، ونقل عدداً من نصوصهم التي تدعوا شيعتهم إلى عدم الإيغال في الجدل وفلسفة العقيدة^(٢) ، وما تضمنته كتبه من الحجج الداحضة لمزاعم القائلين بأن طريق إثبات العقائد الإسلامية الوحيد هو القيام بعلم الكلام والإيغال في تفصيله دون غيره تكل على أنه لم ينفر ويُنفر منه عن جهل به ، بل لقد كان من قوة المنطق وجلاء البيان وعمق المعرفة به ما يدفع القارئ لمصنفاته إلى العجب من خفاء ذكره وقلة معرفة الناس به وهو للرجل المبرز ، ومن رواده في رفض طريقة المتكلمين قوله : " إن العلم بالله عن طريق الاستدلال - وهو أحد مصطلحات المتكلمين - لا يحصل لأحد إلا بعد الاتقان لأدلة المتكلمين ، بل كثير من الناس يفني عمره في درسها وما يحصل

(١) البدر الطالع ، ص ٦٠٩ ، ٦١٠ .

(٢) الوزير ، القواسم والقواصم ، ج ١ ص ٢٥ ، ٧٨ .

على طائل من تحقيقها ، بل الأقل من العلماء هو الذي يستفيد في هذا الفن .. (١) ،
وقوله أيضاً : " حتى أن المسلمين وقفوا لتحصيل علم المنطق بين أيدي اليهود
والفلاسفة ، وحتى شرحوا كتب علماء هذه الطائفة ، وحتى حكوا أقوالهم وعظموا في
بعض المسائل أنظارهم ... فما بال الأنبياء أهملوا هذا المهم ، ولم يبالغوا فيه كما بالغ
فيه غيرهم ، وكيف يصح في العقول أنه لا يعرف الصانع إلا بالعرض الحال في الجسم
ثم ينقضي عمر الدنيا منذ كان أبو البشر - آدم عليه السلام - والأنبياء يدعون الحلق
إلى الدين ، ولا يفترقون في كل وقت وحين ثم لا ينقل إلينا بقلاً متواتراً - بل ولا آحاداً
- تصريح من واحد منهم بأن العرض الذي في الجسم أمر ثبوتي حادث غير الجسم ،
ولما أقوال المتقدمين من الفلاسفة في ذلك فتتقل إلينا ... :

وَيَرَوْنَ ذَلِكَ مَذْهَباً مُسْتَعْظِماً
عَنْ طَوْلِ أَنْظَارِ وَحْشٍ تَقَكَّرَ
وَسَمَوْا عَلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ خُدُوثِهِمْ
عَنْ كُلِّ قَوْلٍ حَادِثٍ مُتَأَخِّرٍ
مَا ظَنُّهُمْ بِالْمُصْنُطَفَى فِي تَرْكِهِ؟
مَا اسْتَبْطُوهُ؟ وَنَهْيُهُ الْمُتَقَرَّرِ؟
أَيَكُونُ فِي بَيْنِ النَّبِيِّ وَصَنْحِهِ
نَفْسٌ؟ فَكَيْفَ بِهِ وَلَمَّا يَشْعُرُ؟
أَوْ لَيْسَ كَانَ الْمُصْنُطَفَى بِتَمَامِهِ
وَبَيَانِهِ أَوَّلَى؟ فَلِمَ لَمْ يَخْبِرْ (٢)

ومن أهم كتب الإمام محمد الورير في علم الكلام كتاب (إيثار الحق على الخلق
في رد الخلافات إلى المذهب الحق) (٣) ، وهو من أهم كتبه ، وله كذلك كتاب (البرهان

(١) الورير ، البرهان الفاطمي في إثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع ، مكتبة الجمعية العلمية
الأزهرية المصرية الملائكية ، القاهرة ، ١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م ، ص ٣٧ ، ومثله كذلك ص ٥٤ .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٣) منه تسختان مخطوطتان بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقمي (٨ علم الكلام) و (١٨ علم الكلام) ،
ونسخة أخرى بمكتبة عبدالسلام عيسى فوجيه ، وقد طبع في القاهرة عام ١٣٤٨هـ ، وطبع مراراً

القاطع في إثبات الصانع وما جاءت به الشرائع^(١) ، وله كذلك كتاب (الآيات الدالة على الله وعلى صدق أنبيائه)^(٢) ، وكتاب (الاختلاف في حد الله على الإيمان بين الأشعرية والمعتزلة)^(٣) ، وكتاب (تحرير الكلام في مسألة الرؤية وما دار بين المعتزلة والأشعرية)^(٤) ، وله كتاب (نصرة الأعيان من شر العميان)^(٥) رد به على أبي العلاء المعري حول أبياته المتعلقة بتقليد أصحاب المذاهب ، وفي هذا السياق نفسه صنف بحثاً في عدم جواز التقليد^(٦) .

وفي أغلب ما مضى كان الإمام محمد بن إبراهيم الوزير عندما يذكر المعتزلة إنما كان يشير بها إلى الزيدية ، وبالتحديد وإلى ما اتخذته الزيدية عقيدة لها من الفكر الاعتزالي ، فقد كان ينكر انتهاج الجدل والفلسفة في إثبات صحة العقائد الإسلامية ، واعتبر ذلك دخيلاً على الفكر الإسلامي وما لا يجب الالتجاء إليه من قل علماء الإسلام، وأنه صنعة يونانية قديمة ، لذلك وضع كتاباً مخصصاً في الإنكار على

بعدها ، ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٨٢٦ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(١) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (٩٦ مجاميع) ، وأخرى تحت رقم (٦٩٨) ، وأخرى ضمن مجموع بمكتبة محمد بن محمد الكبسي بصنعاء ، وأخرى بمكتبة الحبشي ، انظر الوجيه ، المرجع السابق ، ص ٨٢٧ ، الحبشي ، المرجع السابق ، ص ١٣٥ ، الحبشي ، فهرس المخطوطات اليمنية في حضرموت ، المركز اليمني للأبحاث الثقافية ، عدن ، ١٩٧٤م ، ص ٨٩ .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (٦٩٨) ، ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٢٠٨ .

(٣) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (٣٦ مجاميع) ، وأخرى ضمن مجموع بمكتبة محمد بن محمد الكبسي بصنعاء ، انظر المرجع السابق ، ص ٨٢٦ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ١٣٥ .

(٤) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (١٢٩ مجاميع) ، وأخرى بنفس المكتبة تحت رقم (٥٣ مجاميع) ، وأخرى ضمن مجموع بمكتبة محمد بن محمد الكبسي بصنعاء ، انظر الوجيه ، المرجع السابق ، ص ٨٢٧ ، الحبشي ، المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٥) فاشوكاني ، البدر الطالع ، ص ٦٠٩ .

(٦) منه نسخة مخطوطة بمكتبة يحيى بن علي الدارحي ، وأخرى بمكتبة محمد بن محمد الكبسي بصنعاء ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٨٢٩ .

معاصريه من الزيدية المغرقيين في ذلك ، وكان شديد الإنكار عليهم حتى أنه كان يصممهم بالابتداع ويرميهم بالعمّة والعمى ، وقد جعل كتابه ذلك تحت عنوان (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان)^(١) وقال في مقدمته : ' لما بعد : فإنه تبع في هذا الزمان من عادى علوم القرآن ، وفارق فريق الفرقان ، وصنف في التحذير من الاعتماد على ما فيه من التبيان في معرفة الديان ، وحث على الرجوع في ذلك إلى معرفة قوانين المبتدعة واليونان ، منتقياً لمن اكتفى بما في معجز التنزيل من البرهان ، مُتَّبِعاً لتلقي كثير من محكماته بالقول والإيمان ، لا جرم أن الله تعالى - وإن وصفه بأنه لقوم هدى - فقد وصف بأنه على قوم عمى ، فصبوه حين عموا عنه وصموا أنه لأمر يرجع إلى ذاته ، والخلل يعود إلى بين آياته ، ولم يعلموا أن ذلك يخصهم لما في قلوبهم من العمى والعمى ، والرداءة والردى ، فكانهم المواقفون ربياً وحبشاً وبهتاناً حين قالوا : أيكم زلخته هذه إيماناً ... »^(٢) .

ويعد كتاب (العواصم والقواصم في الذب عن سنة نبي القاسم)^(٣) هو أعظم كتب الإمام محمد بن إبراهيم الوزير ، بل لعله أهم كتاب صنفه علماء اليمن على مدار قرون ، وذلك بالنظر إلى محتواه وطبيعته موضوعاته ورصانة أسلوبه وقوة الحجة فيما تناوله فيه ، والأثر الكبير الذي أحدثه منذ تأليفه وحتى يوم الناس هذا ، فهو موسوعة

(١) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (١١٩ مجاميع) ، وأخرى تحت رقم (٤٦ مجاميع) ، ومنه نسختان في مكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقمي (٧١٩) و (٧٢٠) ، وقد طبع في مصر ١٣٤٩هـ ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٨٢٧ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ١٣٤ ، الحبشي ، مخطوطات مكتبة المؤرخ محمد بن محمد زبلرة ، ملحق بمجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، عدد مايو ، ١٩٧٣م ، ص ٨ ، ٩ .

(٢) الوزير ، ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ، مكتبة الجمعية العلمية الأهرية المصرية الملكية ، القاهرة ، ١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م ، ص ٨ .

(٣) منه نسخة مخطوطة - الجزآن الأول والرابع - بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (٧٩) ، ومنه نسخة أخرى بنص المكتبة - الجزآن الثالث والرابع - لم يردنا نصها ، وأخرى مكتملة تحت رقم (٤٣٥) علم الكلام) ، ونسخة أخرى بمكتبة السيكان بالرياض ، وأخرى في مكتبة ياريس الوطنية تحت رقم (١٤٦٠) ، وقد صدرت أول طبعاته عن مؤسسة الرسالة ببيروت عام ١٩٧٠م بتحقيق شبيب الأربلاوط ، وآخر طبعاته عن نفس الناشر عام ١٩٩٤م ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٨٢٩ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

كبيرة جاءت في تسعة أجزاء^(١) ، تصنفت نقائش كبيرة وواسعة ، في علم الكلام لدى الزيدية والمعتزلة والأشعرية وغيرهم ، وفي السنة والحديث ، وفي الفقه والأصول ، ومعظم مادته في الجدل الكلامي ، وهو دفاع عن السنة وأهلها ، ورد مفهم وحجة داحجة ضد المتقولين عليها من غلاة الزيدية ومنعصبيها وجهلهم ، وأساس تصنيفه هو الرد من الإمام محمد بن إبراهيم الوزير على شيخه العلامة بن محمد بن أبي القاسم (ت ٨٣٧هـ / ٤٣٣م) ، وعن كتاب (للعواصم والقواصم) ومؤلفه قال الإمام الشوكاني^(٢) : " وبالجملية فصلح الترجمة يقصر القلم عن التعريف بحاله ، وكيف يمكن شرح حال من يراحم أئمة المذاهب الأربعة فمن بعدهم من الأئمة المجتهدين في اجتهاداتهم ، ويضايق أئمة الأشعرية والمعتزلة في مقالاتهم ، ويتكلم في الحديث بكلام أئمة المعتزلين ، مع إحاطته بحفظ غالب المتن ، ومعرفة رجال الأسانيد شخصاً وحالاً وزماناً ومكاناً ، وتبحره في جميع العلوم العقلية والنقلية على حد يقصر عنه الوصف ، ومن رام أن يعرف حاله ومقدار علمه فعليه بمطالعة مصنفاته ، فإنها شاهد عدل على علو طبقته ، فإنه يسرد في المسألة الواحدة من الوجوه ما يهر لب مطالعه ، ويُعَرِّقُه بقصر باعه بالتمهيد إلى علم هذا الإمام كما يفعله في (العواصم والقواصم) ، فإنه يورد كلام شيخه السيد العلامة علي بن محمد بن أبي القاسم في رسالته التي اعترض بها عليه ، ثم ينسعه نفساً بإيراد ما يزيفه به من الحجج الكثيرة التي لا يجد العالم الكبير في قوته استحراج البعض منها ... ولو خرج هذا الكتاب إلى غير الديار اليمنية لكان من مفاخر اليمن وأهله ... " ، هذا وقد قام الإمام للوزير بتلخيص هذا الكتاب الكبير في مجلد صغير أسماه (للروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم)^(٣) .

(١) هذا في النسخة المطبوعة أما هي النسخة الأصلية فهو في أربعة مجلدات كبيرة .

(٢) فهر الطالع ، ص ٦٠٨ ، ٦٠٩ .

(٣) منه ثلاث نسخ مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت أرقام (٦٤ حديث) و (٦٩ علم الكلام) و (٧٠ علم الكلام) ، وأخرى في مكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (٦٩٨) ، وقد طبع في مصر عام ١٣٨٥م ، كما أصدرته المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع بصحراء عام ١٩٨٥م ، انظر لوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٨٢٨ ، الحبشي ، مصدر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ١٣٤ .

ومن علماء الكلام الزيدية العلامة الحسن بن حميد بن مسعود المقراني (ت ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م) الذي صنف كتاب (المنهج المستبين في أصول الدين) ^(١) ، وكذلك العلامة المطهر بن كثير الجمل (ت ٨٦٣هـ / ١٤٥٨م) ، الذي ألف كتاب (معراج الأفكار في توحيد ذات الملك الجبار) ^(٢) ، ومنهم أيضاً العلامة عبدالله بن محمد بن أبي القاسم العكي النجري (ت ٨٧٧هـ / ١٤٢٧م) الذي برز في علم الكلام بعد أن حصل العلم في اليمن وفي رحلته العلمية التي قطعها إلى مصر ، وصنف في علم الكلام كتابيه (شرح القلائد في تصحيح العقائد) ^(٣) و (مراقبة الأنظار المنتزع من غايات الأفكار) ^(٤) ، وللعلامة علي بن محمد بن أحمد بن علي البكري (ت ٨٨٢هـ / ١٤٧٧م) في علم الكتاب مشاركة أسفرت عن تأليفه لكتابين ، أولهما (الجواب المعقود في بيان القطع بإمامة آل الرسول) ^(٥) الذي رد به على الإمام الهادي عز الدين بن الحسن في الإمامة ، وثانيهما كتاب (شرح مصباح الظلمات في كشف معاني المؤثرات) ^(٦) الذي شرح فيه كتاب (المؤثرات ومفتاح المشكلات) للحسن بن محمد بن الحسن الرصاص ، وكان للعلامة الفقيه أحمد بن محمد بن حمزة بن مظفر (

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ من ٢٩٩ ، زيارة ، أمة اليمن ، ص ٣٢٩ .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ من ١١١٨ ، منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير لشرقية تحت رقم (٧٦٢ أصول دير) ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٣٤ .

(٣) منه ثلاث نسخ مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير لشرقية تحت أرقام (١٧٧) و (٥٧٩) و (٧٢٩) ، ونسخة أخرى بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (١٠٩ علم الكلام) ، ونسخة في مكتبة جامع شهارة ، وأخرى بمكتبة آل الهاشمي بصعدة ، وكذلك نسخة في مكتبة آل الصوء بصعدة ، ونسخة أخرى في مكتبة آل المتمير ، انظر المرجع السابق ، ص ٦١٧ ، الحبشي ، مخطوطات مكتبة المؤرخ محمد بن محمد زيارة ، ص ١٤ .

(٤) منه اثنتان وعشرون نسخة في مكتبة الجامع الكبير لشرقية والغربية ، وعدد كبير منها في المكتبات الخاصة بصعدة ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٦١٧ .

(٥) منه نسخة مخطوطة ضمن مجموع بمكتبة محمد بن محمد الكبيسي ، انظر المرجع السابق ، ص ٧٠٩ .

(٦) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (١٤٨ علم الكلام) ، وأخرى بمكتبة تحت رقم (٣٠) ، وأخرى في مكتبة الحبشي ، ومنه نسخة رابعة في الأميرورينا تحت رقم ٨٤ ، انظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ١٢٨ .

تبعه ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م) يد في أصول الدين أطلته لكي يصنف فيه (شرح الثلاثين مسألة في أصول الدين)^(١) التي كان الرصاص قد وضع منها .

ومن متكلمي الزيدية الكبار وعلمائها الأعلام الإمام الهادي عز الدين بن الحسن بن علي بن المؤيد (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٥م) ، وهو واحد من أشهر أئمة الزيدية وأغزرهم علماً ، وكانت له في علم الكلام مشاركة وبد قوية ، وترك فيها مصنفاته عدة ، كرس بعضها لمسألة الإمامة ، ومن أشهرها كتاب (الرسالة الفراء في بيان أحكام مثبت الإمامة ونافيها)^(٢) ، وكتاب (العناية للئمة بتحقيق مسائل الإمامة)^(٣) ، قيل عن الأخير بأنه : " أوسع ما ألف في بابه حول الإمامة ، وهو مقسم على فصول وأبواب متعددة ... " ^(٤) ، ولعله تكلم فيه والذي سبقه عن الإمامة بما حالف ما اجتهد أسلافه فقتضى ذلك صدور الردود عليه ؛ لأن العلامة علي بن محمد بن أحمد بن علي البكري (ت ٨٨٢هـ / ١٤٧٧م) - كما سبق بيانه - كان قد وضع كتاباً بعنوان (الجواب المعقود في بيان القطع بإمامة آل الرسول) رد به على الإمام الهادي عز الدين بن الحسن في الإمامة ، وقد عقب الإمام عز الدين عليه برسالة عنوانها (الرسالة في مسألة الإمامة)^(٥) ، لابنه العلامة أحمد بن عز الدين بن الحسن (ت ٩٤١هـ / ١٥٣٤م) في الإمامة كتّاب (أحوال الإمامة وما يلزم الإمام وما لا يلزمه)^(٦) ، وهز - كما يتضح من عنوانه - في تناول حقوق الإمام وواجباته ، كما أن

(١) العبسي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ١٢٧ ، الوجه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٦٦ .

(٢) منه نسخة في مكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (١٠٥) ، ونسخة أخرى في مكتبة مجلالدين المؤيدي ، وأخرى في مكتبة محمد عبدالعظيم الهادي بصعدة ، انظر للوجه ، المرجع السابق ، ص ٦٤٢ .

(٣) منه نسخة مخطوطة الشرقية تحت رقم (١٥٦) ، وأخرى في مكتبة محمد بن محمد الكبسي ، انظر المرجع السابق ، ص ٦٤٣ .

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٥) منه نسخة في مكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (١٣٤٠) ، ونسخة أخرى في مكتبة محمد بن محمد الكبسي ، وأخرى في مكتبة محمد عبدالعظيم الهادي بصعدة ، انظر المرجع السابق ، ص ٦٤٢ .

(٦) المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

حفيدة الإمام مجد الدين بن الحسن بن عز الدين بن الحسن (ت ٩٤٢هـ / ١٥٣٥م) قد شارك في علم الكلام ، فشرح جوهرة الرصاص في أصول الدين^(١) .

والإمام الهادي عز الدين بن الحسن في علم الكلام أيضاً كتاب (الرافعة للشك والالتباس لما ألقى من التعمية على الناس)^(٢) ، وله كذلك (رسالة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)^(٣) ، وكتاب (السلوك اللولؤية المشتغل على الدعوة الهاديية)^(٤) ، كما صنف أيضاً كتاب (المعراج في شرح المنهاج لتقويم الاعوجاج)^(٥) ، وكتاب (المنهاج لتقويم الاعوجاج) هو من تأليف العلامة يحيى بن الحسن القرشي الصعدي (ت ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م) ، وقد لاقى كتاب (المعراج) هذا قبولاً واسعاً ، فكل من الكتب التي اشتهرت وانتشرت ، واعتمده الكثير من طلبة العلم في مناطق الزيدية كواحد من أهم مناهج دراسة علم الكلام وأصول الدين لديهم^(٦) ، وفي الجملة أن الهادي الإمام عز الدين كان متصلاً في علم الكلام وأصول الدين بما جعل مؤرخي الزيدية يشيدون بدوره فيه ، من ذلك قول ابن المؤيد : " برع في كل فن خصوصاً للتوحيد والعدل"^(٧) ، فإنه كان فيه أوجد رمائه ، مبرزاً فيه على أقرانه ،

(١) الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٨٠٥ .

(٢) منه نسخة في مكتبة الجامع الكبير للشرقية تحت رقم (٢١٢ مجاميع) ، انظر الوجيه ، المرجع السابق ، نص الصفحة .

(٣) منه نسخة مخطوطة ضمن مجموع يشمل غير هذه الرسالة بمكتبة عبدالله الصعدي ، انظر المرجع السابق ، نص الصفحة .

(٤) منه نسخة مخطوطة ضمن مجموع مكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (١٢٢) ، وأخرى في مكتبة محمد عبدالمعظم الهادي بصعدة ، انظر المرجع السابق ، ص ٦٤٢ ، ٦٤٣ .

(٥) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (١٤٧ علم الكلام) ، وأخرى بمكتبة مجد الدين المؤيدي بصعدة ، ونسخة ثالثة في مكتبة محمد بن محمد الكبسي بصعفاء ، وسفقتين أخريتين بمكتبة محمد عبدالمعظم الهادي إحداهما حطت بعناية المؤلف نفسه ، وأخرى نسخة مصورة ضمن الجزئين الأول والثاني في مكتبة عبدالرحمن شايح بهجرة ظلة بصعدة ، انظر المرجع السابق ، ص ٦٤٥ .

(٦) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٦٧٢ .

(٧) (العدل والتوحيد) هو إحدى التسميات التي يستخدمها الزيدية في مصادرهم إشارة إلى علم الكلام وأصول الدين .

فصنف فيه شرحاً على منهاج القرشي ، وأكب على قراءته عليه ونسخه وتحصيله أعيان الزمان ، وجاءه لسماعه جماعة من ونواحي جهران وخبان وثمار ، وحدث بهذا المصنف الركبان حتى بلغ الصفراء وينبع وتلك البلدان ...^(١) .

ونختم حديثنا عن علماء الكلام الزيدية بالإمام إبراهيم بن محمد بن عبدالله بن الهادي الورير (ت ٩١٤هـ / ١٥٠٨م) المذكور آنفاً في فقهاء الزيدية ، وهو المشهور في مصادرهم بـ (السيد صارم الدين) ، تعدى اهتمامه الفقه وأصوله ، فوضع في علم الكلام كتاب (محجة الإنصاف في الرد على نوي البدع والاعتساف)^(٢) ، وكتاب (الجواب للفائق واللفظ الرائق)^(٣) رد به على بعض العلماء ، ولم ترد الإشارة إلى محتواه ، ولعله في علم الكلام .

قد سبقت الإشارة إلى ارتباط الفقه الشافعي بالعقيدة الحنبلية منذ ظهوره حتى القرن السادس الهجري ، وقد تعصب لها رجال الشافعية ، وخاصموها من قائل بغيرها حتى لو كان من أعمدة المذهب الشافعي^(٤) ، واعتبروها العقيدة الصحيحة ووصفوا غيرها بالسوء والضلال والمروق عن الدين^(٥) ، ودخلوا - في إطار الدفاع عنها - في مناورات ومساجلات متعددة مع بعض رجال الزيدية ، كالفقاضي جعفر بن أحمد بن

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، نص الجزء والصفحة .

(٢) منه نسخة في مكتبة بولن تحت رقم (١٠٣٠٢) ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٧١

(٣) منه ثلاث نسخ مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير للخرية ، الأولى تحت (١٣ مجاميع) ، والثانية تحت رقم (٦٧ علم الكلام) ، والثالثة تحت رقم (٨٩ مجاميع) ، انظر المرجع السابق ، ص ٧٠ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ١٢٩ .

(٤) وقد أجاد الباحث أحمد عبدالله عارب ، المدارس الكلامية في اليمن فيما بين القرن الثالث والخامس الهجري ، رسالة دكتوراه ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٦م ، ص ٤٥ - ٨٥ عرض ملخص العقيدة الحنبلية التي حملها شافعية اليمن ، ومجمل رؤيتهم ومواقفهم من غيرهم من الفرق التي جاورتهم في اليمن .

(٥) الجدي ، الملوك ، ج ١ ص ٣٢٢ ، أحمد عبدالله عارب ، المدارس الكلامية في اليمن ، ص ٤ .

عبدالسلام (ت ٥٧٤هـ / ١١٧٦م) ^(١) ومع بعض رجال الشافعية أنفسهم الذين قالوا بغير عقيدة الحنابلة ، حتى قامت الفتنة بينهم عندما احتكمت النقاشات حول العقيدة ^(٢) .

وابتداءً من النصف الثاني للقرن السادس الهجري بدأت تنتقل العقيدة الأشعرية إلى عقلية الحاملين للمذهب الفقهي الشافعي ، وبلغ انتشارها أن عمت كل السموات ، وهي المساحة الأوسع في جغرافية اليمن الطبيعية ، في مرحلة تعد نقطة انعطاف تاريخية مهمة في مسيرة هذا المذهب ، وهناك من يعتبر أن كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي كان القناة الأولى التي انتقلت من خلالها عقيدة الأشعرية إلى اليمن ^(٣) ، غير أنه من المهم التأكيد على أن علماء الشافعية في اليمن الذين تلقوا العقيدة الحنبلية على أيدي قداماء الفقهاء قد واجهوا العقيدة الوافدة بقوة ، واتخذوا من حاملها المتحمسين لها موقف المقاطعة والإنكار بشدة بالغة ، بل إن بعض أئمة الشافعية في اليمن عَصِرُوا قَدَ وصف الأشعرية وحاملها بالضلال والانحراف ، وهو ما أدى إلى ضعف انتشارها وعودة البعض عنها ^(٤) ، ولم تقم لها دعامة حتى جاء الأيوبيون في منتصف القرن السادس ليلقوا عليها الغطاء الرسمي الكافي لانتشارها فكانت النتيجة طفيلاتها على جميع أتباع المذهب الشافعي تقريباً ، واستقرت بينهم حتى يومنا هذا .

لم يحط الكلام باهتمام الشافعية ورجالها في اليمن ، فقد كان من العلوم غير المرغوب فيها كما كان لدى أسلافهم في القرون الهجرية الأولى ^(٥) ، ولذلك فإن

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٢٧٨ ، الجندي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٤٦ - ٢٤٨ ، د. علي محمد زيد ، تيارات معتزلة اليمن في القرن السادس الهجري ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٢) الجندي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٩٦ .

(٣) يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية الصغرى ، ص ١١٣ .

(٤) الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٣٢٧ ، عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ١٠٥ .

(٥) طاش كبري راند ، مفتاح السعادة ، ج ٢ ص ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، وقد نقل الأهل ، نقطة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ١ ص ٢٦٩ أحياناً بلقبه الشافعي عمر بن حمزة القباعي السُخُولِي (ت في آخر القرن السادس الهجري) - وهو من حمل العقيدة الحنبلية - بغير هيبة عن نفوره من طم الكلام فيقول فيها :

أحبُّ قُرُوعَةَ وألجُّ فيها
ولكثرة ما يصنَّفُ في الأصول

مصنفاتهم فيه كانت نادرة جداً ، ولم تكثر الإشارات في كتب التراجم الشافعية إلى اشتغالهم بأصول الدين ، وبعد بحث وتقيب دقيق في المصادر المتوافرة يتضح لنا أن معظم الجهود المبذولة من قبلهم في إطار الاهتمام بعلم الكلام كانت بدافع المعرفة بأصول الدين والإلمام الجزئي ببعض ما دار من الاختلافات فيها ، ولم يكن الجدل الكلامي والاستعداد للنقاش حول الأصول - على غرار ما جرى في قرون سابقة - دافعاً وراء تلك الجهود ، ويعزز هذا قولنا ندرة المصنفات الكلامية عندهم ، ومن كانت له عناية واهتمام بعلم الكلام فمن أعلامهم جاءت الإشارة إليه بكونه (له معرفة بأصول للدين) (وله مشاركة في الأصول) أو ما شابه ذلك من مرادفات هاتين العبارتين .

وفي بداية مدة دراستنا هذه نذكر أوائل المهتمين بعلم الكلام من الشافعية ، وفي مقدمتهم العلامة الإمام جمال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن محمد الحُبُوشِي (ت ٨٠٢هـ / ١٣٩٩م) الذي تمخض اهتمامه بعلم الكلام عن تصنيفه لكتاب جعل عنوانه (عمدة الطالب في الاعتقاد الواجب)^(١) .

وكان الإمام العلامة الحافظ المحدث أحمد بن إبراهيم بن علي العسقلي (ت ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م) المذكور بين الفقهاء والمفسرين والمهتمين بالتاريخ وأهل اللغة والنحو ، وله يد قوية في أصول الدين ، يتضح ذلك من القصيدة التي رد فيها على يهودي قذري من أهل الجبال ، أولها :

أَلَا إِلَٰهَآ النَّمِي كُفَّ عَنِ التِّي
سَأَلَتْ بِهَا بَغْيًا وَلَمْ تَنفَعْتِ
حَمَلَتْ إِيَّانَا فَامْسِدِ الْقَوْلِ مُوَهِّمًا
بَلَّغَتْ فِيهِ لَمَسَتْ بِالْمُتَعَفِّتِ

لأن مقالته فيه مقال
لأرباب الشريعة والقول
فلست بخاص ما عشت فيها
لأنتم فيه من خطر القول
لدين بأصل أحمد طول غري
وليس في سوى قلبي يد

(١) ابن قديم ، نشر المعاصن الهمجية ، ص ٢١٩ .

وَقُلْتُ : إِذَا مَا شَاءَ كَفَرِي بِزَعْمِكُمْ
وَلَمْ يَرْضَهُ مِنِّي فَمَا وَجْهَ حِيلَتِي
إِذَا شَاءَ رَبِّي الْكُفْرَ مِنِّي وَشَيْئَتُهُ
فَهَلْ لَنَا غَلَصٌ بِاتِّبَاعِ الْمُنْبِيتَةِ
نَعَمْ أَنْتَ غَلَصٌ وَاحْتِجَاجُكَ بِالَّذِي
زَعَمْتَ لَعَنَ اللَّهُ أَخْخَضُ حُجَّةٌ (١)

ومع أن ما ورد في المصدر من هذه القصيدة لا يبين كثيراً ملامسات نظمها ، غير أن فيها من المواهد ما يدل على أن القصيدة الأصلية - التي أشك كثيراً في كونها من نظمها يهودي - وهذه القصيدة قد تناولتا جانباً من أهم جوانب الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة في العقيدة ، وتَصَحَّرُ الإمامُ العسقلِيُّ للرد فيه إشارة إلى إجماعه بالقدره على ذلك ، وهو انعكاس لمعرفته بأصول الدين ومشاركته فيها .

وللعسقلِي قصيدة أخرى في الرد على من يبيح السماع المعتاد لدى الصوفية ، وهي طويلة قدر ثلاثمائة بيت وثلاثة وعشرون ، ذكر فيها دلائل الكتب والسنة على تحريم اجتماع آلات اللهو والغناء والذف والشبابية ، واختلاط النساء بالرجال (٢) ، وأطال الرد على القاضي أحمد بن أبي بكر الرداد الصوفي الذي كان من القائلين بعقيدة ابن عربي المتصوف في وحدة الوجود ، وكان - أي الإمام العسقلِي - لا يخاف في الله لومة لائم في إنكار ما ينكره الشرع ، إذ أنكر على صوفية زبيد أصحاب عقيدة الحلول ووحدة الوجود ، كابن الرداد وأتباعه ، وهم يومئذ أهل قبول تلم عدد السلطان الرسولي الناصر أحمد (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) ، فما بالي به ، وربما هموا به بمكروه ، فمنعه الله (٣) .

ومن أهل السنة الذين وردت الإشارة إلى اهتمامهم بأصول الدين الشيخ عبدالكريم بن إبراهيم الجيلاني (ت حوالي ٨١٣هـ / ١٤١٠م) ، ذَكَرَ عنه أن له كتب تشبه كتابات ابن عربي صاحب مذهب وحدة الوجود ، وأشهر كتبه هو (الإنسان

(١) الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٨ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

الكامل) ^(١) ، ويُذكر أيضاً العلامة الإمام إسماعيل بن محمد بن عمر الحنبلاني الحضرمي (ت ٨٣٤هـ / ١٤٣٠م) الذي أطنب المصدر في ترجمته وأنه كان قد بلغ النهاية في تحقيق عدد من العلوم ، وذكر منها أصول الدين ^(٢) ، ومثله كذلك المقرئ الفقيه للزاهد وجيه الدين عبدالرحمن بن أحمد أحمد بن محمد بن سالم (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٦م) ، تلقى الكثير من العلوم على عدد من أبرز علماء اليمن في عصره ، وقد ذكر أن من بين أبرز العلوم التي شارك فيها الأصوليين ، أي : أصول الدين وأصول الفقه ^(٣) .

وكان الإمام محمد بن علي بن عبدالله بن إبراهيم الخطيب الموزعي الشهير بابن نور الدين (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م) مشهوراً بشدته في أصول الدين وعدم قبوله لما ينكره الشرع - بحسب اعتقاده - من الاجتهادات الفلسفية المحدثة ، ولأن موطنه كان قريباً من زبيد حيث نشط المتصوفة القائلين بعقيدة وحدة الوجود فقد انبرى لهم ، وألف كتاباً في الرد على عقيدتهم منمثلة في كتب ابن عربي كـ (الفصوص) و (الفتوحات المكية) وأسماه (كشف الظلمة عن هذه الأمة) ، يقول الأهدل ^(٤) - وهو تلميذ لابن نور الدين - : "وأما ابن نور الدين فكان قد حقق ذلك من قبل ، وصنف كتاباً لطيفاً في الرد على (الفصوص) ، وقال بأنه أحق بأن يسمى الفصوص ... تكلم فيه على مقالاته الباطلة القبيحة ، كقوله بقدوم العالم ، ونفي العلم بالجزئيات ، وإنكار حقيقة بعث الأجساد ، وحقيقة عذاب الكفار وخلودهم في النار ، ودعواه صحة إيمان فرعون لعنه الله ، وأنه قبض مؤمناً طاهراً من الأثام ، وقوله بوحدة الوجود ، ومعناه اتحاد الخالق بالمخلوق والحق المنزه هو الخلق المشبه ، وأن الحق سبحانه وتعالى يتصف بصفات المخلوق حقيقة ، والمخلوق يتصف بصفات الحق حقيقة ، وأن القدر إجبار للعباد ، وبنى على ذلك أن عابد الصنم ما عبد إلا الله ، وغير ذلك من القباح ، وتحريف معاني القرآن العظيم بما لم يقله أحد من المفسرين ولا يجوز على الشريعة المطهرة ... وبين

(١) الأهدل ، لحظة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٣٣٩ .

(٢) باسخرمة ، قلادة النحر ، ج ٢ ص ٦٩٢ .

(٣) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٤) الأهدل ، لحظة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٧٠ ، ٧١ ، ٣٦٠ .

الإمام ابن نور الدين أن جميع مقالاته في كتاب (الفصوص) لا تخرج عن مذهب الفلاسفة ، إلا بما زاده عليهم من قوله بالاتحاد ، فإنه مذهب النصارى ، لكنهم ادعوه في عيسى عليه السلام خاصة ، وهذا راد عليهم فادعوا اتحاد الحق - سبحانه تعالى - بكل إنسان وبكل شخص ، ومن ثم صوب عبادة الأصنام من جهة ملاحظة القدر المحض أيضاً ، تعالى الله عن قوله علواً كبيراً ، وسمى ابن نور الدين كتابه (كشف الظلمة عن هذه الأمة)^(١) .

ومن أشهر من خاض غمار علم الكلام من فقهاء الشافعية وعلمائها في القرن التاسع الهجري المقرئ العالم شمس الدين علي بن أبي بكر السحولي (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) كانت له اليد الطولى في علوم كثيرة ، وكان شديد التعصب على أهل البدع ، وكان يرى أن الزيدية منهم ، وله في ذلك نظم بديع ، وله فيه " المقطعات العجيبة " المحتوية على المعاني الغريبة التي لم تسمح بها فريضة أهل الوقت بمثلها ، ولا نسجت على منوالها ، وذلك كثير مما ينبغي أن يجمع في جسر معرود لكثرتة وعجيب فوائده^(٢) ، وقد استغل هذه الموهبة في خدمة ما يعتقد من أصول الدين ، فلما وجهه للفقهاء إبراهيم الأخفاقي إلى علماء الزيدية مؤالاً بمسائل ، وردوا عليه بالكلام والنظم والسب له ، انتصر له المقرئ السحولي بنظمه (القصيدة البليغة في الرد على الزيدية) وهي رائية مكونة من ثلاثمائة بيت تقريباً ، وأقام الحجة - بحسب المصنر - بما أعجزهم عن الجواب ، حتى أن هلك من أسماها بـ (المسكتة) ، وسماها بعضهم (الشهب الثواقب الدامغة للفرقة القدرية الزائغة)^(٣) ، وقد اشتهرت في أيدي الناس وقدالوها البركبان في الأقطار والبلدان^(٤) .

ومنهم كذلك الإمام المؤرخ عبدالرحمن بن الحسين بن محمد بن أبي بكر الأهدل (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) ، وهو من أشد الناس تحملاً للعقيدة

(١) الأصل ، تحفة الزمن في تزيخ سفات اليمن ، ج ٢ ص ٢٠ و ٧١ .

(٢) البرهني ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١١٣ .

(٣) منها نسخة مخطوطة بمكتبة جامعة الملك سعود ضمن مجموع تحت رقم (١٨٧٣) ، وقد جمع الحبشي ، مصنف الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ١٣٦ (القصيدة البليغة) مختلفة عن (الشهب الثواقب) ، وإن منها نسخة في المكتبة نفسها وضمن المجموع نفسه .

(٤) البرهني ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١١٤ .

الأشعرية وتعصباً لها ، وكتابه (تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن) ملئ بالوقفات الكلامية التي تدل على تضلُّع ومعرفة تامة ، فتجده حيناً يناقش رفقاءه للعلماء الشافعية القائلين بعقائد الحنابلة ويجادلهم ، حتى أولئك الذين قد طواهم الموت^(١) ، ولورد نصوصاً صريحة تدل دلالة واضحة على استمرار حضور العقيدة الحنبلية لدى رجال الشافعية في مناطق الجبل اليمنية كما كانت منذ القرون الأولى لوصولها إليها^(٢) ، وفي حين آخر يخاطب الصوفية الحلولية ، ويفمرزهم بعقائدهم ويتهكم بهم ، في إشارة تدل على اطلاعه على كل عقائدهم^(٣) .

وأوضح جهود الإمام الحسين الأهلل التي تشير إلى مدى اهتمامه بعلم الكلام تصنيفه لكتاب بعد أهم أثر للأشعرية في اليمن طوال وجودها بها ، وهذا الكتاب يحمل عنوان (كشف الغطاء عن حقائق التوحيد وعقائد الموحدين وذكر الأئمة الأشعريين ومن خالفهم من المبتدعين وبيان حال ابن عربي وأتباعه المارقين) ، وفيه استعرض أهم معالم العقيدة الأشعرية ، مناقشاً مخالفيها ومدافعاً عن حياصها^(٤) ، وذلك من خلال استعراض أهم نصوص أعلامها ، سواء من علماء اليمن القائلين بها أو من غيرهم^(٥) ، ثم أنه استهدف عقائد المتصوفة من أتباع ابن عربي وابن الفارض وغيرهما بالنقد الشديد اللهجة ، وضمن كتابه مواقف من الصراع الذي دار بين الفقهاء وبينهم في ريد، ومعدداً أهم أعلامهم ورموزهم^(٦) .

وللإمام الأهلل مصنفات أخرى في علم الكلام ، ورد منها كتاب (الرمائل المرضية في نصرة مذهب الأشعرية وبيان فساد مذهب الحشوية)^(٧) ، وكتاب (الإشارة

(١) الأهلل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ١ ص ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٤٣ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٢ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ج ٢ ص ٧ ، ١٠ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٣٢٢ ، ٤١٤ .

(٤) الأهلل ، كشف الغطاء ، ص ٤ - ١٣٦ ، ١٥٩ - ١٨٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٧ ، ٢٢ ، ٣١ ، ٨١ ، ٩٧ ، ٩٩ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٨١ - ٢١٤ وما بعدها .

(٧) الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ١٣٦ .

الوجيزة إلى المعاني العزيزة) وهو في شرح أسماء الله الحسنى^(١) ، وله كتاب عن (مسألة الرؤية والكلام عليها) ، و(شرح جواب مسألة القدر في الرد على الجبرية) ، وآخر عن (ليلة القدر)^(٢) ، وله كذلك كتاب (اللعة المقنعة في ذكر مذاهب المبتدعة)^(٣) ، قيل : إنه مختصر لكتاب (مراهم العال) للإمام عبدالله بن أحمد اليافعي (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) .

ومن علماء الشافعية المشاركين في علم الكلام أيضاً الفقيه عبدالله بن أحمد باكثير الحضرمي (ت ٩٢٥هـ / ١٥١٩م) ، كان له نظم بديع استعله فنظم عدداً من الكتب المتداولة ، منها (الدرر اللوامع في نظم جمع الجوامع) ، وله في علم الكلام مشاركة أسفرت عن مصنفه المسمى (تنمة التمام وسفك المدلم في عقائد الإسلام) ، وقد قرضه له جماعة ، ووصف بأنه كثير الفوائد^(٤) .

ومن أفضل علماء السنة - الشافعية - مشاركة في علم الكلام في مدة الدراسة كان الإمام جمال الدين محمد بن عمر بن مبارك بخرق الحضرمي (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) ، وهو من العلماء ذوي الأقدام الميالة ، له مصنفات في كثير من الفنون ، وقد امتدحه المؤرخون الذين ترجموا له ، وقد خصص بعضها لأصول الدين ، ومنها في هذا الباب (عقد الدرر في الإيمان بالقضاء والقدر)^(٥) ، وكتاب (العقد الثمين في إبطال القول بالتنقيح والتحسين) ، وكتاب (الحسام المسلول على منتقضي أصحاب الرموز) ، وكتاب (العقيدة الشافعية في شرح القصيدة اليافعية)^(٦) ، وهي قصيدة

(١) الحيشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ١٣٦ .

(٢) يوجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب والكليين السابقين في مكتبة شستربنتي تحت رقم (١٨٢٢) ، انظر المرجع السابق ، نص الصفحة .

(٣) منه نسخة مخطوطة في مكتبة آل مهل بحضرموت ، انظر المرجع السابق ، نص الصفحة .

(٤) الميروس ، لنور السائر ، ص ١١٧ .

(٥) منه نسخة مخطوطة في مكتبة آل يحيى بمدينة تريم في حضرموت ، ومن نسخة أخرى في مكتبة جدة ، انظر مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ١٤٠ .

(٦) منه نسخة مخطوطة في مكتبة جاسع تريم في حضرموت ، انظر الحيشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ١٤٠ .

ضمناها الإمام عبدالله بن أسعد اليافعي (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) مجمل الخطوط العريضة للعقيدة الأشعرية باعتبارها في نظره عقيدة أهل السنة والجماعة ، وله كتاب (الحواشي المفيدة على أبيات اليافعي في العقيدة)^(١) ، وذكر في كتابه (ترتيب الملوك) أن له في أبيات الشيخ عبدالله بن أسعد اليافعي ثلاثة شروح (البسيط) و(لوسيط) و (الوجيز)^(٢) ، وله أيضاً رسالة في إثبات هارون عليه السلام - أخي موسى - وكفر فرعون^(٣) .

(١) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (٦٩٧) ، نظر المرجع السابق ، نفس الصفحة.

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٣ - ١٤٠ .

(٣) الثُلَي ، السنا الباهر ، ٢١١ .

(٤) علم الفرائض :

علم الفرائض - المعروف حالياً بعلم المواريث - هو ذلك العلم الذي يبحث عن كيفية تقسيم وتوزيع التركة بين الورثة على فروض مقدرة في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ^(١) ، وهو من العلوم المرتبطة بعلائق وثيقة بالفقه والصلب والمساحة والجبر والمقابلة، وبغيرها لا ينتصب لهذا العلم قائم ، إذ هي الأساس الذي يقوم عليه والدعامة التي يرتكز إليها .

اهتم اليمانيون بالتصنيف في علم الفرائض مبكراً بسبباً ، ولذلك نجد أن العلماء وطلبة العلم في اليمن قد اعتمدوا عليها دون غيرها من الكتب التي شاعت في أقطار العالم الإسلامي ، وهو دليل على أنهم وجدوا فيها ما يخفي عن دراسة غيرها ، ويعود أول تصانيفهم في الفرائض إلى مطلع القرن الخامس الهجري عندما قام محمد بن سراقفة العامري (ت ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م) بوضع كتابه الأول في الفرائض (كفاية المبتدي) فور عودته من دراسة هذا العلم في العراق التي رحل إليها للتحصيل ، فكان كتابه المذكور - بالإضافة إلى كتاب أبي بقية محمد بن أحمد الفرضي (ت ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م) - هما العمدة في بابهما ، ولقي (كفاية المبتدي) قبولاً واسعاً لدى الطلبة فاشتغلوا به كثيراً^(٢) ، ونقله للناس واكتفوا به مدة طويلة حتى حل مكانه كتاب (الكافي في الفرائض)^(٣) للإمام العلامة أبي يعقوب إسحاق بن يوسف الصرنقي (ت ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م) ، وهو الذي نال شهرة كبيرة لدى فقهاء اليمن وعلمائها ، وذاع صيته ، وتولى كثير من العلماء شرحه وتدريسه لطلابهم ، واستمرت العناية به قروناً ، وعكفوا على شرحه وبطمه لكي يسهل حفظه^(٤) .

(١) الجرجاني ، كتاب التعريفات ، ص ٢١٣ .

(٢) ابن سمره ، طبقات فقهاء اليمن ، ص ٨٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٣) ومنه عدة نسخ مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (١٤٠٣ فرائض) ، ورقم (١٤٠٤) ، ورقم (١٤٠٥) ، وقد حققه علي الهمداني مؤخراً ~ عام ٢٠٠٩ م - ومال به درجة الدكتوراه من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان ، الحبيشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٣٠٩ .

(٤) الخزرجي ، طراز أعلام الزمن ، ص ٨٢ ، الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٢٤٥ ، علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في تعز ، ص ٢٨٥ .

كان علم الفرائض واحداً من العلوم التي درسها المدارس العلمية وجعلته أحد مقرراتها ، وتشير وثائق المدارس الغرابية والمظفرية والمؤيدية والمجاهدية وجوهر في تعز ، والدعاسية والنظامية في زبيد إلى قيام الواقفين بتسمية هذا العلم لهيئات التدريس التي تم تعيينها فيها ، وبالفعل كان العلماء المدرسون يقومون بتدريسه في هذه المدارس وغيرها من الجوامع والهجر العلمية .

وفي مدة دراستنا هذه زاد اهتمام العلماء بعلم الفرائض ، وهو ما انعكس تراجهم ومصنفاتهم فيه ، إذ نجد في مقدمتهم في بداية القرن التاسع الهجري الفقيه العلامة علي بن أبي بكر الأزرق (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م) الذي كتب شرحاً على (الكافي) للصردي وأسماء (بغية الخائض في شرح الفرائض)^(١)، ومثله للفقيه العلامة علي بن أحمد بن موسى الجلاب (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م) الذي كان - كبقية أهل بيته - بارعاً في الحساب والجبر والمقابلة وعلم الفرائض ، وكتب أيضاً شرحاً على كتاب (الكافي)^(٢) ، وكان الفقيه أبو بكر بن أبي المعالي بن عبدالله الناشري (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) موصوفاً بأنه : " وحيد وقته في الفرائض " ^(٣) ، كما صنف الفقيه محمد بن علي الموزعي (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢١م) في علم الفرائض كتابه (كنوز الخبايا في قواعد الوصايا) إضافة إلى كتابه الآخر الذي شرح فيه كتاب (الكافي) للصردي أيضاً^(٤) ، ووصف معاصره الفقيه أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الحضرمي (ت ٨٢٦هـ / ١٤٢٣م) بأنه كان لجود الفقهاء المتأخرين معرفة بالفرائض^(٥) .

ومن العلماء المشاركين في علم الفرائض الفقيه أحمد بن محمد الربيعي الشافعي (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م) ، درس الفرائض على أيدي بعض العلماء

(١) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٥ ص ٢٠٠ ، منه نسخة خطية بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (١٣٩ فرائض) ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٣١٢ .

(٢) الحبشي ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ١١ ص ٩٦ .

(٤) تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٣٦٠ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٣١٢ .

(٥) ابن أسير ، الجوهر الفريد ، ق ٧٤ - ١ .

المجيدين له أمثال الإمام برهان الدين إبراهيم بن أبي بكر الأشعري فتتمكن من هذا العلم حتى كتب فيه منظومة أسماها (كفاية الفرائض في علم الفرائض) ثم شرحها في كتاب آخر وسَمَّه بـ (نهاية الخائض في شرح كفاية الفرائض)^(١) .

ومن علماء الفرائض اليمنيين في مدة الدراسة أيضاً الإمام الفرضي والنحوي العلامة أحمد بن محمد بن أبي بكر البرهبي (ت ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م) الذي برع في علوم عدة ، كان في مقدماتها الفرائض والنحو ، فكتب شرحاً مستحسناً على كتاب (الكافي) للصردي ، وله في الفرائض أيضاً كتاب (البديع في النسبة والتقطيع) ، كما كان له استنباطات عجيبة في المسائل الدورية^(٢) ، يذكر أيضاً الفقيه أبو بكر بن عمر بن عثمان الناشري (ت بعد ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م) الذي صنف شرحاً لكتاب (الكافي) للصردي في أربع مجلدات^(٣) .

ومن العلماء الذين ارتبط اسمهم بعلم الفرائض في اليمن في مدة الدراسة الفقيه العلامة شمس الدين علي بن عمران الحميدي (ت ٨٥٦هـ / ١٤٢٩م) ، الذي اجتهد في طلب جميع العلوم حتى انكشف له ما كان عن غيره مكتوم ، وحقق للمذهب والنصوص والقواعد والمراتب حتى صار إماماً محققاً وفاق أهل زمانه ، ولربى على لقائه ، وفضل على بعض مشائخه ، واشتهر بحل المشكلات وإيضاح المبهمات ، وقَصِدَ للمعضلات مع حداثة منه ، واشتهر بذلك شهرة سارت مسير الشمس ... واستنبط مسائل عجيبة ، وحرر قواعد صحيحة غريبة ، فمن نتائج فكره الشاهدة بعلوم قدره ما جمعه وصنفه وسطره في كتابه الذي ألفه المسمى (الانتخاب في حساب الفقه وفقه الحساب) فإنه أتى فيه ما شفى وكفى^(٤) ، وهو الكتاب الذي تظرف فيه عالم الفرائض والجبر والمقابلة والحساب للشيخ الإمام جمال الدين محمد بن أبي القاسم الضراسي فاستحسنه وأثنى عليه ثناء بالغاً وشكره عليه ، وقد مدحه المؤرخ البرهبي

(١) البرهبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٣١٤ .

(٢) البرهبي ، المصدر السابق ، ص ١٠٠ ، ١٠١ ، الحبشي ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) ابن سير ، الجواهر الفريدة ، ق ٤٣ - ب ، ق ٤٤ - ١ .

(٤) البرهبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

بقوله : " وهو جدير بأن نشد إليه الرجال ويجعله المحصلون معتمدهم في كل حال " (١).

وقد أسهم علماء الزيدية بحفظ وقر في دراسة علم الفرائض والتأليف في بابيه ، ومن أشهر مؤلفاتهم فيه كتاب (درر الفرائض في الجلي منها والغامض) للأمير علي بن الحسين (ت القرن السابع الهجري / القرن الثالث عشر الميلادي) ، وقد اهتم به علماء الزيدية وطلاب العلم من أبنائها بهذا الكتاب واعتنوا به عناية خاصة ، وكتبوا الشروح والتعليقات عليه ، منها الشرح الذي كتبه الفقيه أحمد بن موسى بن عمران العباسي (ت ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م) وأسماء (أسرار الفكر في كشف معاني الدرر) (٢) ، وكذلك التعليق الذي كتبه الإمام المفسر والفرضي يوسف بن أحمد بن عثمان الثلاثي (ت ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨ م) وعنوانه بـ (التعليق الوهاج على درر الأمير من هو في العثرة كالتاج) (٣) ، ثم كتب شرحاً غير التعليق عُرف بـ (الجواهر الفورية في كشف أسرار الدرر) (٤) .

وللزيدية كتاب آخر مشهور في الفرائض يأتي في المرتبة الثانية بعد (درر الفرائض) للأمير المنكور ، وهو كتاب (الفرائض في علم الفرائض) (٥) وهو كتاب ضخم واسع التفصيل في بابيه ، جاء في عشرة مجلدات ، لذلك فقد اختصره مؤلفه الفضل بن أبي السعد بن عزوي العنبري (ت القرن السابع الهجري /

(١) البرهني ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٣٧ .

(٢) الحشني ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٣١٣ .

(٣) منه نسخة خطية بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (٤٣ فقه) ، وأخرى برقم (١٢٨ مجاميع) ، المرجع السابق ، ص ٣١٤ .

(٤) منه نسخة خطية بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (١٤١٦) ، وأخرى في المتحف البريطاني برقم (١٤٢٨) ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٥) منه نسخة خطية بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت أرقام (١٩٧ - ٢٢٢) ، ومنه مجلد تحت رقم (١٣ فقه) ، المرجع السابق ، ص ٣١٠ ، لوجه ، أصنام المؤلفين للزيدية ، ص ٧٥٢ .

للقرون الثالث عشر الميلادي) في كتاب آخر أسماه (مفتاح الفائض في علم الفرائض)^(١) .

وقد نشط بعض علماء الزيدية في مدة دراستنا لشرح كتابي للصيفري ، إذ قلم للفقير محمد بن الحسن بن حميد المقراني (ت ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ م) بشرح الكتاب الأول (الفائض في علم الفرائض)^(٢) ، كما قام الفقير العلامة أحمد بن محمد بن داود الخالدي (ت ٨٨٠ هـ / ١٤٧٥ م) بشرح المختصر السابق وأسماه (إيضاح الغامض لمعاني مفتاح الفائض)^(٣) ، وبعده قام للفقير العلامة محمد بن أحمد بن محمد الناظري (ت قريباً من ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م) بشرحه أيضاً ، وغرف شرحه بـ (جوهرة الفرائض لمعاني مفتاح الفائض)^(٤) .

وفي القرن التاسع الهجري قام الإمام العلامة محمد بن سعيد بن علي كسبن (٨٤٢ هـ / ١٤٣٩ م) بكتابة مصنفه (رَقْمُ الْجَمَالِ فِي شَرْحِ نَظْمِ اللَّكْلِ) في الفرائض^(٥) ، كما قام محمد بن أبي القاسم بن ناصر النجزي (ت بعد ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) بتصنيف كتاب في الفرائض لشهر بـ (المختصر الفائق للمقنع الجامع

(١) منه نسخة خطية بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (٧ فرائض) ، أخرى في مكتبة الأمبروليانا تحت رقم (٨٤) ، وأخرى في مكتبة الحبشي ، وقد طبع مؤخراً ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٣١٠ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٧٥٢ .

(٢) الحبشي ، المرجع السابق ، ص ٣١٤ ، الوجيه ، المرجع السابق ، ص ٨٨٢ .

(٣) قال الوجيه : " كتاب شهير متوفر في المكتبات الخاصة والعامة ، منه عشر نسخ خطية بمكتبة الجامع الكبير الشرقية ، وأربع مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغربية ، وأربع في المتحف البريطاني ، ونسخة خطية بمكتبة يحيى محمد عباس ، وأخرى بمكتبة محمد بن محمد الكبسي وأخرى بمكتبة جامع المدان " ، الوجيه ، المرجع السابق ، ص ١٦٦ ، الحبشي ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) نسخة متوفرة في المكتبات الخطية العامة والخاصة اليمنية ، وقد طبع للمرة الأولى بنمط عام ١٣٣٤ هـ في ٢٥٨ صفحة ، ثم تكررت طبعاته ، الحبشي ، المرجع السابق ، ص ٣١٥ ، الوجيه ، المرجع السابق ، ص ٨٥١ .

(٥) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (٣٣٣ مجاميع) ، الحبشي ، المرجع السابق ، ص ٣١١ .

للخلاف الراجح^(١) ، وأوردت بعض المصادر أن للإمام جمال الدين محمد بن عمر بن مبارك بحرق (٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م) منظومة في العرائض^(٢) .

(١) منه نسخة بمكتبة الجامع الكبير العربية ضمن مجموع ، تحت رقم (١٢٨) في الصفحات ١٨٥ - ٢١٦ ، ومنه ثلاث نسخ بمكتبة الجامع الكبير الشرقية ، تحت أرقام (١٤٠٦ - ١٣٩٢ - ١٣٩١) ، ومنه نسخة بالمتحف البريطاني برقم (٣٨٧٧) ، ونسخة في مكتبة الأميرورينا برقم 98 h ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٣١٤ ، الوحيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٩٨٥ .

(٢) منها نسخه مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (٨٨ مجاميع) ، الحبشي ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

الفصل السابع

اهتمام علماء اليمن باللغة العربية وعلومها

وآدابها ومصنفاتهم فيها

من بداية القرن التاسع الهجري حتى السيطرة العثمانية عليها

تمهيد :

لا خلاف في أن اللغة العربية قد شرفت بنزول القرآن الكريم بها ، لأنه قد ضمن لها الخلود في الأرض والمير في ركاب الإسلام والمسلمون أينما حلوا وفي أي زمان كانوا ، وانتشرت - في ظل الفتوحات الإسلامية - حتى أصبحت على لسان أبناء سمرقند في أقصى الشرق بأواسط آسيا كما كان يتحدث بها ويدرسها أبناء البربر والأندلسيون المسلمون في أقصى الغرب ، أصبحت دراسة اللغة العربية والعناية بها عند المسلمين دين ، لأنها وعاء للشرعية ولغة القرآن ، ولا تستقيم دراسة العلوم الشرعية كلها بلا استثناء إلا بها ، ولم تكن دراسة اللغة العربية محصورة في علم واحد ولم أطرافها ، بل انقسمت إلى فروع تختص بجوانب متعددة منها ، فكان منها علم اللغة والنحو والصرف وعلوم البلاغة معانٍ وبدع ، والأدب نثراً كان لو شعراً وما ارتبط بهما من العروض والقوافي والكتابات المرسلات المتعددة .

وكان اليمينيون يؤلون اللغة العربية اهتماماً كبيراً ، فحققوا في علومها قدراً كافياً يؤهلهم للانطلاق في دراسة شتى العلوم الشرعية والعقلية الأخرى ، وتعمق بعضهم في دراستها حتى برز فيها ، وصنفوا في كثير من علومها ، وتوارثت أجيالهم هذا الاهتمام ، فلجدهم في مدة دراستنا وهم منكبون عليها وعلى كتب الأولين فيها دراسة وتدريساً تعليقاً وشرحاً ونظماً ، وتشير وثائق المدارس العلمية والجامع إلى أنها كانت واحدة من المقررات الأساسية التي لم يخفلها الواقفون والمؤسسون لها^(١) ، وسنرصده في العناوين القائمة شيئاً من صور اهتمامهم بها .

(١) الوثيقة القضائية ، وثيقة المدرسة الأشرفية ، ص ١٤ ، وثيقة المدرسة الظاهرية ، ص ٣٩ ، ٤٠ ، وثيقة جامع ثعبات ، ص ٩١ ، وثيقة مدرسة جوهر ، ص ٦٣ ، وثيقة المدرسة الأفضلية ، ص ١٠٣ .

(١) علم اللغة :

حظي هذا العلم بالكثير من الاهتمام والرعاية من كل العلماء في كل أقطار العالم الإسلامي ، وكان لبعض العلماء اليمنيين عناية فائقة به منذ القرن الهجري الرابع بالتوازي مع أقرانهم خارج اليمن ، وكان لهم فضل تأسيس هذا العلم ووضع أسسه في الوسط العلمي اليمني ، ومما لا شك فيه أن الرحلات العلمية إلى خارج اليمن كان لها دور كبير في ازدهار هذا العلم وغيره ، ومن اللافت للنظر وجود نسبة كبيرة من التداخل والارتباط بين علم اللغة وعلم النحو ، حتى أنك تجد أن في وصف بعض الكتب ما يجعله يندرج في فئتي العلمين كليهما ، ولا نفعل عن الإشارة إلى أن الاهتمام بعلم اللغة انحصر في البداية في دراسة المصنفات الولودة من خارج اليمن ، وذلك قبل أن ينبري بعضهم ليندلي بدلوه في التصنيف اللغوي .

وتدلنا بعض مصادر تاريخ اليمن على أن عدداً من الكتب والمصادر اللغوية - غير اليمنية - كان قد ساد الاعتماد عليها في تلقي علم اللغة قبل أن يلج اليمنيون باب التأليف فيه ، وهي من مصنفات علماء مصر والعراق وبلاد الشام ، ومن أهم هذه المؤلفات (مختصر العين) لأبي الحسن علي بن إبراهيم الخوافي المصري (ت ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م) وكتاب (غريب الحديث) لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي (٢٢٤هـ / ٨٣٨م) ، وكثيراً ما ورد ذكرها مع رديفاتها من الأسماء في مصادر النحو أمثال كتاب (الجمل الكبرى) في النحو لأبي القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت ٣٣٩هـ / ٩٥٠م) ، وكتاب (الكافي) في النحو لأبي جعفر أحمد بن محمد بن الصفار (ت ٣٣٨هـ / ٩٤٩م) وكتاب (مقدمة ابن بابشاذ) لأبي الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ المصري (ت ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م) (١) .

وشهدت اليمن في القرون الهجرية مما تلى القرن الرابع بروز عدد من المصنفين اللغويين الذين تعلموا بتلك الكتب وغيرها ، وصاروا يعرفون بهذا العلم ، وبعضهم لم يقتصر عليه ، وأسهموا في إثرائه بمصنفاتهم ، وبلغت بعض تلك المؤلفات من القبول ما جعلها تحل محل الأسماء السابقة في معظم حلق العلم ومجالسه في

(١) ابن سمره ، طبقات فقهاء اليمن ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٧٥ ، الجندي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٩١ ،

واللغة ، وتلمذ على يديه بعض السلاطين الرسولين ، وعين مدرساً في المدرسة
الصلاحية بزييد ، وكان قبلة للطلاب نحوه يعتقدون الرحلات من أنحاء اليمن للجلوس
بين يديه ، وقد صنف في علم اللغة كتاب (الإعلام بمواضع اللام في الكلام)^(١) .

ومنهم أيضاً الفقيه العلامة الإمام جمال الدين محمد بن عبدالرحمن بن
عمر الحبشي (ت ٨٠٢ هـ / ١٣٩٩ م) ، الذي ذو معرفة قوية في عدد من العلوم ،
وقد سبق الإشارة إليه بين المرزبين فيه ، كالفراءات السبع والتفسير والحديث والفقه
والأدب والطب ، وقد عُرِف كذلك بإجافته لعلم اللغة^(٢) ، ومما لا شك فيه أنه اشغل
بتدريسه كما اشغل بتدريس العلوم التي أجادها ، غير أنه لم يترك مصنفات فيها .

ومثله كان أخوه العلامة صفى الدين أحمد بن عبدالرحمن بن عمر الحبشي
(ت ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م) ، متقناً لعلوم عديدة ، مبرزاً فيها ، وصنف في الرقائق
والرياضيات والأدب ، وترك أشعراً كثيرة ، وكان علم اللغة أحد العلوم التي اتقنها ،
فجاء وصفه في مصدر ترجمته بأنه " كانت له فطنة وقادة وطبيعة منقادة ، حلو الكلام ،
محبباً إلى الناس ، مقرأً محدثاً فقيهاً بحويّاً لغويّاً حافظاً لافظاً ، محققاً شاعراً
فصيحاً ، جامعاً لفنون العلم ... " ^(٣) .

ومثلهما كان مفتي وادي مور الإمام العلامة الحافظ المحدث أحمد بن إبراهيم بن
علي السعدي (ت ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م) ، ورد في ترجمته أنه كان مجوداً للفقه نحويّاً
لغويّاً مفسراً محدثاً مؤرخاً^(٤) ، وعنه أحد ابن أخته الفقيه جمال الدين محمد بن حسن
بن الشمس (ت ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م) ، ففداً مجوداً في الفقه ومشاركاً في علوم أخرى
منها علم اللغة^(٥) .

ومن أهل هجرة شظب المستقرين لها كان العلامة صلاح بن إبراهيم بن
علي الوزير (ت ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م) ، وهو الموصوف بالمهارة في فنون البلاغة

(١) الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٣٨٢ .

(٢) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(٤) الأمدل ، لحظة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٩ .

والأدب واللغة ، وذلك لتعلمه فيها على يدي أخيه الأديب الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير (ت ٨٢٢هـ / ١٤٣٦م) ^(١) .

ومن علماء اللغة العربية في مدينة زبيد الفقيه العلامة علي بن أحمد بن موسى الجالد الحنفي (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م) ، كان عارفاً بعدد من علوم الشريعة كاللغة والقراءات والحديث والفرائض ومنعلقاتها من العلوم الرياضية ، وأشار بعض المؤرخين إلى علم اللغة بوصفه واحداً من العلوم التي أشير إليه بالبراعة فيها ^(٢) .

ومنهم كذلك الإمام الموسوعي الشهير مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزآبادي الشيرازي (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) صاحب أكبر عدد من المصنفات اللغوية ، وأحد أكبر شيوخ العربية في تاريخها ، وبسبب الشهرة التي نالها معجمه (القاموس المحيط) فإن أول ما يتبادر إلى ذهن القارئ لاسمه أنه أحد علماء اللغة الكبار فحسب ، مع أن تفوقه في علوم اللغة قد جاء مواز لإجادته وتفوقه في علوم عديدة كال تفسير والحديث والتاريخ والرقائق وغيرها ، وقد صنف الإمام الفيروزآبادي عدداً كبيراً من الكتب القيمة في علم اللغة ، اشتهر منها أربعة عشر كتاباً وردت في عدد من مصادر ترجمته وكتب الببليوجرافيا ، وأهم هذه الكتب هو المعجم المذكور آنفاً ، وعنوانه كاملاً هو (القاموس المحيط بما ذهب من لغة العرب شماطيظ) في مجلدين ، زعم أنه جمعه مختصراً من ألف كتاب ، وهو أحد أشهر معاجم اللغة العربية على الإطلاق ، ثم شرع في تأليف كتاب في اللغة أيضاً سماه (اللامع المعلم العجائب ، الجامع بين المحكم والعياب ، وزيادات ترغيب الوطاب) ، وخمن تعلمه في سنتين مجداً غير أنه لم يتمه ، وله في علم اللغة أيضاً كتاب (الروص المسلوف فيما له اسمان إلى ألف) ، وكذلك كتاب (تحبير الموشين في التعبير بالسين والسين) ، وكتاب (شرح قصيدة نانت سعاد) في مجلدين ، وكتاب (أنواء الخيف في أسماء اللبث) ، وكتاب (الجليس الأنيس في أسماء الحندريس) ، وكتاب (أسماء السراح في أسماء النكاح) ، وله أيضاً في علم اللغة كتاب (المثلث للصغير) الموسوم - أحياناً - بـ (الدرر المبتثة) ، وله كتاب (المثلث الوسيط) الموسوم بـ (الخرار المثلثة) ، وكتاب (المثلث الكبير) ، وكتاب (الإشارات إلى ما في كتب الفقه من

(١) ابن المؤيد ، طبقات فريعية الكبرى ، ج ١ ص ٥٠٨ .

(٢) بنمخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٦٧٩ .

الأسماء والأماكن واللغات) ، وكتاب (تحفة التماثيل فيمن يسمى من الملائكة إسماعيل) ، وكتاب (أسماء الفلذ في أسماء العادة) ، وتصانيفه في اللغة تثبت تبحره وغلبتها عليه^(١) .

وكان الفقيه محمد بن أحمد بن زكري (ت ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م) من أبرع العلماء في أبيات حسين بتهامة في علوم العربية لغة ونحواً وتصريفاً وعروصاً ، وهو أحد شيوخ الإمام المؤرخ الأهل^(٢) .

وفي تهامة أيضاً عُرِفَ الإمام محمد بن علي بن عبدالله بن إبراهيم الخطيب الموزعي تشهير بابن نور الدين (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م) براعته في العربية ومعرفة لها ، وله فيها مصنف يحمل عنوان (مصابيح المغاني في معاني حروف المعاني)^(٣) .

وفي ترجمة البريهي للإمام عفيف الدين عبدالله بن عمر بن عبدالله بن الممن (ت ٨٢٨هـ / ١٤٢٥م) اقتبس ما وصفه به أحد تلامذته النجباء ، فكان مما نقله قوله: " كان مشهوراً بالفضل والصلاح متضلماً في فنون العلم ، متحريراً فيها ، سيما علم العربية ، فإن له فيه اليد الطولى والغلبة للقصى ، وله قريحة مطلوحة ، وفطنة لامعة ، وفصاحة رائعة ، وقدم في العلوم بارعة ... قرأت عليه طرفاً من علم العربية وغير ذلك ... " ^(٤) .

ومنهم أيضاً المقرئ الفقيه وجيه الدين عبدالرحمن بن أحمد بن محمد بن سالم (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٦م) المشهور بكثرة المشائخ الذين تلقى عنهم ، وقد مر ذكره معنا في الفصل السابق في بعض العلوم التي شارك فيها كالتقراءات السبع والحديث والتفسير

(١) الأهل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩٥ ، السجاوي ، الصوء قلائع ، ج ١٠ ص ٨١ ، حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، ج ٢ ص ١٣٠٦ - ١٣١٠ ، الفسي ، العقد الثمين في أخبار البلد الأمين ، ج ٢ ص ٣٩٤ - ٣٩٦ ، الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، ص ١٣ - ١٥ من مقدمة المحقق ، الحبشي ، مصفر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٢) الأهل ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٩ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٦٠ ، البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

(٤) البريهي ، المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

والفقه ، وكان علم اللغة أيضاً من العلوم التي عرف بتميزه فيها ، واحتوت ترجمته الإشارة إلى دراسته وتدريبه له ، وكذلك إجازة غيره فيها^(١) .

ومنهم كذلك المقرئ العالم شمس الدين علي بن أبي بكر السحولي (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) صاحب اليد الطولى في علوم النحو واللغة والعروض والقوافي وأمثال العرب وشواهدهما ، كما شارك في بعض العوم العقلية كالمسطق والحكمة^(٢) .

ومنهم أيضاً أحد أئمة الحنفية بزييد ، وهو الأديب الشاعر الفقيه وجيه الدين عبدالرحمن بن أبي بكر الشوبهر (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) ، فقد كان إماماً في اللغة العربية ونحوها ، فتلقاهما عنه أناس كثير من الطلبة^(٣) .

ومن الفقهاء المشهورين بالمشاركة في علم اللغة - ضمن العديد من العلوم التي عرفها - في مدينة ذي جبلة الفقيه العلامة عفيف الدين عطية بن عبدالرزاق بن علي النجدي (ت ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م) الذي كان أبرز فقهاء مدينته في عصره ، وكان شيخه في اللغة وعلومها المختلفة الأمير إسماعيل بن محمد بن حسن الغساني^(٤) ، وأجازه فيه وأثنا عليه ، وقد علت منزلته حتى تُصدر للتدريس والفتوى والخطابة والإمامة في الجامع الكبير بذي جبلة ، وانتشر ذكره وقصده الطلبة للعلم ، فمنحهم كل ما يمكن لشيخ أن يمنحه ، وداوم على ذلك يدرس ويفتي مدة طويلة حتى وفاته ، ولهذا اكتساب الناس ومحبتهم ، حتى أنه لما توفي رثاه بعض رجال الدولة كالوزير العالم تقي الدين عمر بن أبي القاسم بن معيبد (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م) في قصيدة جاء في مطلعها :

مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِذَارٍ قَرَارٍ
سُحْقاً لَهَا ، بُعْداً لَهَا مِنْ ذَلِيلٍ
لَوْ مَا رَأَيْتَ يَذُ الْمُنُونِ وَبَطْشَهَا

(١) البرهبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٢ .

(٣) بالمخرمة ، قلادة النهر ، ج ٣ ص ٧٢٥ .

(٤) لم أجد ترجمة لهذا الأمير ، وبالظاهر من لقبه أنه من الأمراء الرسولين ، وقد ورد ذكره فقط في ثلثها ترجمة العلامة عطية النجدي فقط ، فظر البرهبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٢٥ .

تُفْنِي الْقُرُونُ بِسَيِّعِهَا النَّبَاتِ

مِثْلَ الْإِمَامِ ابْنِ الْكِرَامِ عَطِيَّة

السَّيِّدِ الْمَشْهُورِ بِالْأَقْطَابِ^(١)

وقد ترجم الإمام المؤرخ الطبيب بن عبدالله بامخرمة^(٢) لأخيه الفقيه عبدالله بن عبدالله بن أحمد بامخرمة الشهير بالعمودي (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٨م) فوصفه بأنه على معرفة جيدة باللغة والفن .

ونجد فيما تركه الإمام الأديب حمزة بن عبدالله بن محمد بن علي الناشري (ت ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م) من المصنفات ما يدل على اشتغاله بعلم اللغة ومعرفة له ، فقد نظم قصيدة - أليّة - في غريب القرآن الكريم^(٣) .

وممن اشتغل بعلم اللغة من علماء اليمن أيضاً الإمام جمال الدين محمد بن عمر بن مبارك بخرق الحضرمي (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) ، ويدل على معرفته بها واشتغاله بدراستها وتدريسها والتأليف فيها كتابان ، الأول عنوانه (فتح الرؤوف في معاني الحروف) - وهو منظومة في الحروف وشرحها ، والثاني سماه (البهجة في تقويم اللهجة)^(٤) .

ومنهم الإمام العلامة فخر الدين عبدالله بن القاسم بن الهادي بن إبراهيم العلوي (ت ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م) الذي كان من أكثر علماء الزيدية في عصره معرفة باللغة وعلومها ، حتى إن أحد تلامذته قال في وصفه : " وأما علمه فلم أرَ أعلم منه ... وأما اللغة والحديث والفقه واستحضار مسائله فهو - وإمامنا - أوحد من رأيت من أصحابنا الزيدية ... " ^(٥) .

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٢٥ .

(٢) بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٨٥ .

(٣) العبدروس ، النور السالر ، ص ١٢١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٣٦ ، ثلثي ، السنا الباهر ، ص ٢١١ ، ٢١٢ .

(٥) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٦٢٨ .

(٢) النحو والصرف :

كان للصعوبة التصاريسية لموقع اليمن الجغرافي دورها في التقليل من الاحتكاك بالكثير من عوام مجتمعات الأقطار العربية والإسلامية الأخرى ، وهو - من جانبه - أسهم بدور مهم في سلامة لغتهم إلى حد كبير وحمايتها من التأثيرات السلبية التي طرأت على السنة إخوانهم في تلك الأقطار ، فقد كان اللحن في لغتهم قليلاً قياساً مع غيرهم ، وكان الأمر يختلف نسبياً من منطقة إلى أخرى داخل اليمن نفسها ، وقد بلغ مدى سلامة اللغة ونقاؤها في بعض المناطق أن انعدمت في السنة أهلها شوائب اللحن تماماً ، حتى وجد من المؤرخين من يصف ذلك في أواخر القرن السادس الهجري ، وهو المؤرخ الأنيب عمارة بن الحسن بن علي بن زيدان الحكمي الشهير بعمارة اليمني (ت ٥٦٩هـ / ١١٧٣م) الذي نشأ في إحدى قرى سهل تهامة التي لم يكن أهلها قد اختلطوا بالغرباء ، سواء من أهل الحضرة اليمنيين أو من غيرهم - لا يسكني ولا يزواج - وخرج منها سنة (٥٣١هـ / ١١٣٦م) وهو يومئذ شاب إلى زبيد ليتلقى العلم على أكبر فقهاء تهامة ، يقول عمارة^(١) : " فكان الفقهاء في جميع المدارس يتعجبون من كوني لا ألحن بشئ من الكلام ، فأنقسم الفقيه نصر الله بن سالم الحضرمي بالله العزيز لقد قرأ هذا للصبي في النحو قراءة كثيرة ، فلما طالت المدة والحلطة ببني وبيته صرت إذا لقيته يقول : مرحباً بمن حنث في يميني لأجله ، ولما زارني والدي وستة من إخواني إلى زبيد أحضرت الفقهاء فتحضروا معهم فلا والله ما لحن أحدهم لحنة واحدة أثبتوها عليه " في تفاصيل أخرى رواها المؤرخ نفسه في تاريخه ، ولهذا لا نستغرب إن سمعنا الخليل بن أحمد العرامدي يقول عندما سئل : من أين أخذت علمك هذا ؟ : " من بولادي العجل ونجد وتهامة "^(٢) ، وكذلك نجد الرحالة ابن جبير (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) في القرن السابع الهجري يصف أبناء بعض القبائل اليمنية

(١) عمارة ، المفيد في أخبار صنعاء وزبيد ، ص ٢٢ ، ٣٢٨ ، دو النون المصري ، عمارة اليمني ، مكتبة النهضة المصرية ، (د ، ت) ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) الدودي ، طبقات المفسرين ، تحقيق علي محمد صر ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٧٢م ، ج ١ ص ٤٠٠ .

الذين قابلهم في مكة بقوله : " ولما فصاحتهم فديعة جداً ، ودعاؤهم كثير التشجيع للنفوس ... " (١) .

لا يعني ذلك أن اللغة قد ضعفت منذ القرن السابع الهجري ، فربما استمر وضع اللغة بالصورة التي وصفها عمارة وابن جبير - لو قريباً منها - قرون عديدة بعد ذلك ، كما لا يعني ذلك - أيضاً - أن هذا الوصف كان منطبقاً على عموم اليمنيين بلا استثناء ، وأنهم كلهم كانوا نماذج في استقامة اللفظ العربي وبعده عن التهجين ، فقد كان هناك من تحدث بلهجات قديمة لم يتغلب عليها اعتناق أهلها للإسلام أمثال قبيلة مهرة التي تقع مساكنها على خطوط التماس مع الحدود العمانية اليمنية ؛ وعلى العموم فقد كان الإقبال شائعاً بين اليمنيين كلهم - علماء وطلاب - لتعلم النحو (٢) .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن علماء اليمن كثيراً ما قرئوا - أثناء التدريس والتصنيف - بين علمي اللغة والنحو ، وكان الصرف من ملزمات النحو - أيضاً - في الغالب حتى يومنا هذا ، فكثيراً ما ينكر العلمان في قالب واحد ، ويضمهما تأليف ومصنفات موحدة ، وكان غالب اعتماد اليمنيين في البداية على مؤلفات علماء العربية والنحو في العلم الإسلامي ، واعتمدت مناهج ومقررات التدريس التي اعتمدها أقرانهم في الأقطار الأخرى ، وكان أشهر للكتب النحوية والصرفية التي بدأ الاعتماد عليها هي وكتاب (الجمل للكبرى) لأبي القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت ٣٣٩هـ / ٩٥٠م) ، وكتاب (الكافي) لأبي جعفر أحمد بن محمد بن الأصغر (ت ٣٣٨هـ / ٩٤٩م) ، وكتاب (الملح) لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢هـ / ١٠٠١م) ، وكتاب (مقامة ابن بابشاذ) لأبي الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ المصري (ت ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م) ، وكتاب (ملحة الإعراب وبخبة الآداب) لجمال الدين القاسم بن علي بن محمد الحريري (ت ٥١٦هـ / ١١٢٢م) ، وكتاب (المفصل في صناعة الإعراب) لجار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ / ١١٤٣م) ، وكتاب (الكافية) لجمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر

(١) رحلة ابن جبير ، ص ١٥٤ .

(٢) د. عبدالرحمن الشجاع ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، عبدالرحمن أحمد مختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ٣٢٨ .

ابن أبي بكر بن الحاجب للكردي (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) وهي مشهورة جداً باليمن ، واهتمامهم بها منعكس في كثرة المؤلفات التي وضعت في شرحها ، وشاع اسمها باليمن على أنها (كافية ابن الحاجب) أو (الحاجبية) .

وقد اشترك في تعزيز اندفاع اليمنيين باتجاه تعلم النحو والصرف عدد من الأسباب ، أهمها حرصهم على تقويم ألسنتهم وتعزيز رغبتهم في الحفاظ عليها بعيدة عن اللحن باعتبارها لغة القرآن ولغة الآباء والأجداد ، ولكون إتقان النحو والتصرف يمثلان الأساس لللازم قبل - وبالتزامن مع - الخوض في دراسة وتدريس العلوم الشرعية من قراءات وتفسير وفقه وأصول دين وغيرها .

ولوائل من نكره المؤرخون من العلماء اليمنيين إسهاماً بالتصنيف في علم النحو هم بعض رجال أسرة علمية يمنية عرفت بأبي عباد ، وأبرزهم الحسن بن إسحاق ابن أبي عباد وابن أخيه إبراهيم بن إسحاق بن أبي عباد (توفي الإثنان في مطلع القرن السادس الهجري) ، فقد " كانا إمامي النحو في بلاد اليمن في عصرهما ، وإليهما كل أهل اليمن يرتحلون من الأنحاء " ، ألف الحسن مختصراً في النحو عرف بـ (مختصر الحسن بن أبي عباد) ^(١) ، وكان من التميز بمكان جعل الفقهاء والمعلمون يتحذونه مقررأ رئيسياً للنحو في جميع أنحاء اليمن ، يقول الجندي : " لا يستفتحون الاشتغال بصناعة النحو إلا به ؛ وذلك لبركته وسهولة ألفاظه وتقارب عبارته " ^(٢) ، وأما إبراهيم فقد صنف مختصراً آخر في النحو عرف باسمه (مختصر إبراهيم ابن أبي عباد) كما اختصر (كتاب سيبويه) وسمى مختصره بـ (تلقين المعلم) ^(٣) .

(١) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الإمبروربانا ٨٧٨ ورقم ٢ ورقم ٤ ، ونسخة أخرى بمكتبة الفاتيكان برقم (١١٧٣ - ١) ، ونسخة أخرى بمكتبة الأحقاف بحصرموت برقم (٢٩٠١ مجاميع) ، ونسخة مخطوطة بمكتبة لجامع الكبير الغريبة تحت رقم (٢٩٨٢) ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٣٧٤ .

(٢) الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٢٤٨ ، الخرجي ، طراز أعلام الزمان ، ص ١٠١ .

(٣) الجندي ، المصدر السابق ، نص الجراء والصفة ، ابن سيرة ، طبقات فقهاء اليمن ، ص ١١٤ ، عبدالمالك حميد الدين ، الترويض الأذن ، ج ١ ص ٢١ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٣٧٤ .

وقد عَدَّ المؤرخون اليمنيون وغير اليمنيين الكثير من العلماء اليمنيين الذين كانت لهم بالنحو والصرف عناية خاصة طوال القرون ما قبل مدة دراستنا في القرن التاسع والعاشر الهجريين ، سواء كانت عنايتهم به تدريساً أو تأليفاً ، وسررت كتب البيلوجرافيا اليمنية وغير اليمنية قائمة بالمصنفات التي كتبوها في النحو والصرف ، تجاوزت في بعضها الخمسين مصنفاً^(١) ، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على أن النحو كان لديهم في المكان المعلى^(٢) .

وقد شهد النحو والصرف في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ازدهاراً واسعاً ، وزانت وتيرة العناية به والاهتمام بدراسته وتدريسه ، وتعكس تلك الإشارات الكثيرة جداً التي وردت في كتب التراجم والتواريخ اليمنية - كما سيأتي بيانه - والتي لا تكاد تنكر عالماً إلا وتشير في وصفه بأنه كان نحويّاً ، سواء صنف أو لم يصنف ، ويدعم ذلك أيضاً للعدد الكبير من كتب النحو التي ألفها اليمنيون في تلك المدة ، مع ملاحظة أن الغالبية منها كانت - كما هو الوضع في كثير من فروع العلوم المعروفة عصرئذ - تعليقات وشروح واختصارات ، وبعضها كان نظاماً لبعض الكتب لكي يسهل حفظها للطلبة والعلماء .

ومن أوائل علماء اليمن الذين كانت تربطهم بالنحو والصرف علاقات قوية يأتي الإمام المحدث عبداللطيف بن أبي بكر بن أحمد بن عمر الشرجي (ت ٨٠٢ هـ / ١٣٩٩ م) الذي كان شيخ الزبيديين في زمنه في علوم الحديث والنحو واللغة ، وقد كل المرجع في النحو ، وعليه التعميل عند من رام الإمام به من الطلبة والعلماء ، ولهذا استدعاه السلطان الأشرف الثاني إسماعيل الرسولي (ت ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م) إلى

(١) الحشبي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٣٧٢ - ٣٨١

(٢) الجندبي ، المطبوك ، ج ١ ص ٢٤٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ابن سيرة ، طبقات فقهاء اليمن ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، عبدالملك حميد الدين ، فروض الأفسى ، ج ١ ص ٢١ ، ٧١ ، ج ٢ ص ١٥٢ ، ج ٣ ص ١١٨ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٣٣٥ ، حجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، ج ٦ ص ٩٣ ، القفطي ، إنباء الرواه على أنباء الفحشاء ، تحفيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٦ م ، ج ١ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، ج ٢ ص ١٦٨ .

مجلسه ، وقرأ عليه النحو وغيره من علوم العربية ، وبلغ في إكرامه احتراماً للعلم ولفضله عليه^(١) .

وقد ترك الإمام عبداللطيف الشرجي عدداً كمس المصنفات في النحو ، اشتهر منها كتاب (شرح ملحة الإعراب ونخبة الآداب)^(٢) التي صنفها القاسم بن علي بن محمد الحريري ، ثم إنه نذب نفسه لنظم بعض الكتب المعتمدة في التدريس في إطار الجهود التي بذلها العلماء لتسهيل دراستها ، فقد نظم المختصر الذي وضعه النحوي الشهير الحسن بن أبي عباد لكتاب سيبويه ، وذلك ، ونظم أيضاً (مقدمة ابن بابشاذ) الشهيرة التي صنفها أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ المصري ، وبلغت المنظومة حوالي ألف بيت ، وللشرجي في النحو كذلك كتاب (المحرر) ، وكتب مقدمة مختصرة في علم النحو تفيد المبتدئ ، ونختم الحديث عن جهوده بذكر المجموع الذي حوى نقاط الاختلاف بين أعلام النحاة في مدرستي البصرة والكوفة والذي سماه (تتلاف النصره في اختلاف نحاة الكوفة والبصرة)^(٣) ، وقد نال الإمام الشرجي من الشهرة ما جعله قبلة للطلاب ومتجهاً لأفئدة المتطلعين للرقى في علوم النحو والتصريف من جميع أنحاء اليمن ، وكانت أغلب دروسه تعقد في مدرستي الدحمانيه والصلاحية في مدينة زبيد^(٤) .

وقد اشتهر الفقيه رصي الدين أبو بكر بن محمد الصبري (ت ٨١٠هـ / ١٤٠٧م) بمعرفة النحو والفقه ومشاركته في سائر العلوم ، وقد نال الخطوة بكفائته في

(١) الخرجي ، العقود للؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٥٧ .

(٢) نال الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٨١ : أن منه نسخة مخطوطة في مكتبة طوب قبو ، ولم يزد على ذلك شيئاً .

(٣) طبع سنة ١٩٨٧م في لبنان بتحقيق د. طارق الجنابي ص دار عالم الكتب ، انظر المرجع السابق ، ص ٣٨٢ ، عبدالله علي مهبوب اليوسفي ، الدرس النحوي في زبيد من القرن السادس حتى القرن العاشر الهجري ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ٢٠٠٣م ، ص ١١٢ .

(٤) الخرجي ، العقود للؤلؤية ، ج ٢ ص ٢٥٧ ، طراز أعلام الزمان ، ص ١٤١ ، عبدالله فتد العبادي ، الحصة العلمية في زبيد ، ص ٣١٨ .

العلم حتى عينه السلطان الأشرف الثاني إسماعيل الرسولي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) مؤنباً لأولاده^(١).

وفي سنة (٨١٢هـ / ١٤٠٩م) توفي شيخ النحاة في اليمن ومفخرتهم فيه ، وهو العلامة علي بن محمد بن سليمان بن أحمد بن هُطَيْل النجري ، أظهر من تحدث عنه إعجابه به ، وكل من تتلمذ على يديه في النحو برز ولمع نجمه ، وأشهر تلامذته ترجم هو الإمام الحسن بن محمد الشطبي الآتي ذكره ، قال عنه إبراهيم بن الفاسم بن المؤيد^(٢) مترجماً لياه : " علامة النحاة ، ومفخرة اليمنيين ، صدر العلماء ، كان أشهر من شمس النهار في علومه وفضائله ، أثنى النحو إتقاناً عجيباً ، وبرر فيه ، وألحق الأصاغر بالأكابر ، وجمع وفرق ، وعل وتكلم ، عن مَنَكَةِ راسخة في أصول النحو وفروعه ، فهو حريّ بأن يسمى (سبويه اليمن) ... " .

ولم تقتصر مظاهر اعتناء العلامة ابن هُطَيْل بالنحو في تدريسه فحسب ، فقد ترك فيه مصنفات أهمها : كتاب (عمدة ذوي الهمم على المحسنة في علم اللسان والقلم)^(٣) ، شرح فيه (مقدمة باشاذ) في النحو ، كما وضع شرحاً على (المفصل) للإمام الزمخشري سماه (التاج المكلل بجواهر أدب المفصل)^(٤) ، ثم حاول توطئة النحو للطلبة وتحبيبهم فيه من خلال تبسيطه كتاب (كافية ابن الحاجب) بكتاب عنوانه (معونة الطالب على كافية ابن الحاجب)^(٥) ، وشرح كتاب (الجمل

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٠٦ .

(٢) طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٧٩٩ ، ٨٠٠ .

(٣) منه نسخة مخطوطة بمكتبة جستريني بدهل ، وسختل أحرينار في مكتبة الجامع الكبير الغريبة ، الأولى تحت رقم (١٨٩٤ نحو) ، والثانية تحت رقم (١٧٩٩ نحو) ، وأخرى بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (١٧٩٤ مجاميع) ، وقد طبع بتحقيق د. خالد عبدالكريم جمعه عن المكتبة العصرية بالكويت ، انظر الحشوي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٣٨٣ ، لوجيه ، أعلام المؤلفين للزيدية ، ص ٧١٢ .

(٤) منه نسخة مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير للشرقية تحت رقم (١٧٦٨) ، وأخرى بمكتبة زيد بن علي الدبلي ، ونسحة مصورة بمكتبة محمد عبدالعظيم الهادي ، انظر الحشوي ، المرجع السابق ، نفس الصفحة ، لوجيه ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٥) منه نسخة مخطوطة ضمن مجموع في مكتبة الجامع الكبير للشرقية تحت رقم (١٧٩٤ مجاميع - من صفحة ٩٥ - ١٦٩) ، وأخرى بمكتبة زيد بن علي الدبلي ، ونسحة مصورة بمكتبة محمد عبدالعظيم

الكبرى) لأبي القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي ، وقد كان اشتغاله بالنحو قد أخذ عليه كل اهتمام ، فأقبل عليه بصحبة ظاهرة ، تمخض عنها جهودة المحمودة في هذا العلم والجليل ، وعبر عن حبه للنحو بقصيدة أنشأ فيها عليه كثيراً^(١) .

وقد اشتهر الفقيه شرف الدين إسماعيل بن إبراهيم البومة الزبيدي (ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م) بمعرفة النحر والصرف معرفة تامة ، فكان محققاً لهما حتى غدا رئيس وقته فيهما ، فتخرج على يديه جماعة من أهل مدينة زيد وغيرها^(٢) .

ومن علماء النحو في اليمن في مدة الدراسة أيضاً الإمام الكبير مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزبادي الشيرازي (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) ، وجهوده في العناية بالنحو كانت أقل بكثير مما بذله في الاهتمام بعلم اللغة والتفسير والتاريخ ، فكما رأينا أنه جمع أربعة عشر مصنفاً في علم اللغة ، نراه في النحو لم يصنف إلا كتاباً واحداً فقط ، هو كتاب (مقصود نوي الألباب في علم الإعراب)^(٣) .

وعد فيهم الفقيه العلامة شمس الدين علي بن أحمد الأصبحي (ت ٨١٨هـ / ١٤١٥م) ، فقد كان إماماً محققاً في الفرائض والنحو ، مشاركاً في غيرها من العلوم ، وقد أجاز له علماء وقته بدراسة علومهم ، وقد كان له إسهام كبير في تدريس علمي الفرائض والنحو ، فانتفع به جماعة من الطلبة^(٤) .

ومنهم أيضاً المقرئ عفيف الدين عبدالله بن يوسف بن عمر بن عثمان الحراري (ت ٨٢٠هـ / ١٤١٧م) المشهور باشتغاله بالنحو وتعليم القرآن الكريم

الهادي ، نظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٨٢ ، الوجيه ، أعماله المؤلفين الزبيدي ، ص ٧١٢ .

(١) الحبشي ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩٠ .

(٣) الأمدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩٥ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ١٠ ص ٨١ ، القاسي ، العقد الثمين في أخبار البلاد الأمين ، ج ٢ ص ٣٩٧ ، الفيروزبادي ، القاموس المحيط ، ص ١٣ - ١٥ من مقدمة المؤلف ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٨٣ ، عبدالله علي مهيوب البرهني ، أدرس النصوري في زيد من القرن السادس حتى القرن العاشر الهجري ، ص ١١٣ ، ١١٤ ، ١٣٣ - ١٣٥ .

(٤) البريهي ، المصدر السابق ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

وقراءاته ، حتى أنه كان يحفظ عنداً كبيراً من الكتب غيباً في النحو والقراءات^(١) ، ومنته قلم الفقيه العلامة شهاب الدين أحمد بن مطهر بن موسى الحميري الموسوي (ت بعد ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م) يحفظ بعض كتب النحو غيباً ، وذلك بعد أن اتجه إلى صنعاء لدراسة النحو على الأئمة بها^(٢) ، وحصل بخطه نحو عشرين كتاباً في النحو ، وانتفع بما قرأ ، وقد أوقف كتبه بمدينة إب على نظر الفقهاء من بني البريهي عند وفاته^(٣) .

ومنهم أيضاً الفقيه العلامة صفي الدين أحمد بن عبدالرحمن بن عمر الحبشي (ت ٨٢٢هـ / ١٤١٩م) ، الذي مر ذكره معنا كأحد علماء اللغة في مطلع القرن التاسع الهجري ، وهو كذلك من علماء النحو المعروفين باهتمامهم به ، وإليه وردت الإشارة في ترجمته ، مع كونه أيضاً متقناً لعلوم عديدة أخرى ، صنف في بعضها كالرقائق والرياضيات والأدب^(٤) .

ومنهم كذلك العلامة لإمام إسماعيل بن محمد بن عمر الحباني الحضرمي (ت ٨٣٤هـ / ١٤٣٠م) الذي كان بلغ النهاية في تحقيق عدد من العلوم ، منها : الفقه والتفسير والأصولين واللغة ، وكان ذا معرفة بالنحو واشتغال فيه ، واشتهر بالفقه والفتوى أكثر مما اشتهر بغيره^(٥) .

ومن أكبر علماء النحو في اليمن في القرن التاسع الهجري الفقيه العلامة للمقري النحوي بدر الدين حسن بن محمد بن سعيد الشطبي (٨٣٥هـ / ١٤٣٠م) ، اشتهر بكثرة علومه بتلمذه على الإمام الكبير محمد بن إبراهيم الوزير ، إلا أنه كان في النحو حجة وعلماً ، إذ أخذ على نحوي اليمن الشهير وسيبويهها العلامة علي بن محمد ابن سليمان بن أحمد بن هطيل (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م) ، فورث الشطبي من شيخه

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٣٧ .

(٢) الملاحظ اشتهار علماء الفريضة بصحاء بتميزهم في علم النحو تميزاً جعل من يربو إلى اتقانه ألقاً تافهاً من أبناء اليمن في المناطق الأخرى يتوجه إليها للتلقي على أيدي علمائها ، مثل الفقيه العلامة شهاب الدين أحمد بن مطهر بن موسى الحميري الموسوي الشافعي وغيره .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(٥) بخرمة ، قلادة النحر ، ج ٢ ص ٦٩٧ .

البراعة في النحو ، وكان متردداً ما بين صنعاء وتعز ، وهو محدود في كلا البلدين من علمائها الأعلام ، وقد صنف بصنعاء في النحو مختصراً سماه (تبصرة أولي الألباب في ضوابط الإعراب) ، فتقبله العلماء والأئمة بالقبول ، ومدحه بعضهم فقال فيه :

مَا كُنْتُ أَضْبُ أَنْ النَّحْوُ يَنْظُمُهُ
فِي سَبَلِكِ كُرْأَسَةُ شَخْصٍ مِنَ النَّاسِ
حَتَّى وَقَفْتُ عَلَى عَقْدِ جَوَاهِرِهِ
مَنْظُومَةً كُلُّهَا فِي بَطْنِ كُرْأَسِ
فَإِنْ عَجِبْتَ فَأَحْزَى فِي تَعَجُّبِهَا
مَنْ يَنْسِبُهَا وَفِي بَحْرٍ مَوْجُهُ رَأْسِي
لَمْ تَرُ مُؤَشِّبُهَا فَإِنْ لَمْ
فَكُرْأَ يَلِينُ بِهِ الْمُسْتَصْنَبُ الْقَاسِي
مَا سَبَّيُونَهُ وَلَا عَمَزُ وَإِنْ عَقَلْنَا
فَكُرْأَ وَجَلَّ لِتُنْشِئُهَا بِمِقْيَاسِ^(١)

وكان للقاضي العلامة عز الدين محمد بن حمزة بن المظفر (ت ٨٣٨هـ — / ١٤٣٤م) اهتمام بالنحو واشتغال به ، مع كونه مفسراً ومحدثاً وفقهياً وقاضياً^(٢) ، وله مصنف في النحو شرح فيه (مقدمة ابن بابشاذ) ، ويقال له (شرح الطاهرية)^(٣) نسبة إلى مؤلفها طاهر بن بابشاذ المصري .

وللعلامة الزيدي الكبير علي بن محمد بن أبي القاسم الهادي (ت ٨٣٧هـ — / ١٤٣٣م) في النحو مشاركة قوية ، تخصص عنها تصنيفه لكتاب قيم في النحو ، يعد من

(١) الفريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٢٣ ، السخاوي ، الضوء قلامع ، ج ٣ ص ١٤٣ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٣٤١ ، عبد الملك حميد الدين ، لروض الأغني ، ج ١ ص ١٥٥ .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٩١٥ ، ٩٦٦ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، وقد اختلفوا في تاريخ وفاته .

(٣) الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٨٣ ، الوجيه ، المرجع السابق ، ص ٨٩٦ .

أحسن شروح كافية ابن الحاجب ، وعنوانه (البرود الصافية والمعقود الوافية في شرح الكافية)^(١) ، وقد اختصره ابنه الإمام المهدي لدين الله صلاح بن علي (ت ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م) وسمى شرحه (المجمع الناقب في شرح كافية ابن الحاجب)^(٢) .

ومن أصحاب العناية بالحرف في القرن التاسع أيضاً الإمام إسماعيل بن أبي بكر المقرئ (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) فقد أفرد له مساحة مخصصة في كتابه الشهير (عنوان الشرف الوافي في الفقه والعروض والتاريخ والنحو والقوافي) ، وقد جعل النص النحوي في هذا الكتاب محتصر العبارة ، بدأه بقوله : " بحمد الله أستفتح ، والصلاة على رسوله محمد وبعد ، فأقول : الكلام ثلاثة أشياء ، وهي : اسم وفعل وحرف ، والاسم يعرف بدخول الألف واللام والإضافة والإخبار عنه وجره ، والأفعال ... " ^(٣) .

وقد كان القاضي العلامة جمال الدين محمد بن أبي بكر بن أحمد بن محمد البريهي (ت ٨٣٨هـ / ١٤٣٤م) موصوفاً بأنه إمام في النحو^(٤) ، ومثله المقرئ نقي الدين عمر بن عيسى الخطيب (ت ٨٢٩هـ / ١٤٣٥م) ، كان باذلاً نفسه للطلبة في مدينة إب ، حيث كان يعمل خطيباً في أحد لكبر مساجدها ، فانتفعوا به كثيراً في النحو والقراءات السبع^(٥) .

ومن إسهامات العلامة عبدالله بن الهادي بن إبراهيم بن علي الوزير (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) في علم النحو شرحه الذي صنّفه على شرح آخر لابن مالك الأندلسي النحوي الشهير ، وهو الكتاب المشهور بـ (التسهيل في شرح ابن عقيل)^(٦) .

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٧٧٩ ، ومنه نسخة مخطوطة في مكتبة الأمبروريانا تحت رقم A69 ، انظر الجبشي ، مصدر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٣٨٤ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٧١٨ .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة آل الهاشمي تحت رقم (١٩٦) ، وهو تحت التحقيق الآن ، الوجيه ، المرجع السابق ، ص ٥٠٥ .

(٣) المقرئ ، عنوان الشرف الوافي ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٤) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٩٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١١١ .

(٦) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٦٤٩ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٦٢٣ .

أما العلامة الفقيه الأديب جمال الدين محمد بن أبي القاسم المقتشي (ت ٨٤٢هـ / ٤٣٨م) فمع لشتهاره بمعرفة الأدب وتخرج جماعة من الطلبة على يديه فيه ، إلا أنه برز في النحو حتى صار محققاً ومدققاً فيه ، فكانت معرفته الكبيرة للنحو إحدى شروط استكمال له خصائص مؤدبي أبناء السلاطين ، فجعله السلطان الأشرف الثاني إسماعيل (ت ٨٠٣هـ / ٤٠٠م) مؤدياً لبعض أولاده ، ومنهم من أصبح سلطاناً للدولة كالسلطان الظاهر يحيى بن الأشرف^(١) .

وفي زبيد أيضاً كان الإمام العلامة حسام الدين عبد الوهاب بن عبد الله السراف النهام (ت ٨٤٤هـ / ٤٤٠م) قارئاً في فن الألب ، إماماً في الأصول والنحو ، وله في النحو مسائل تنقيح نكل على غزارة علمه وحرزه إياه ، وامتدت معرفته لتشمل علم اللغة والمعاني والبيان ، وقعد للتكريس في زبيد حتى فصل على شيوخه وفاقهم^(٢) .

ووردت لدى البريهي^(٣) ترجمة الإمام العلامة جمال الدين محمد بن حسين بن علي بن سليمان السراج (بعد ٨٥٠هـ) ، وتذكر أنه كان محدثاً نحويّاً بصنعاء ، وأنه كل جامعاً لأشتات العلوم ، ونقلت عنه الفوائد الصحيحة بالعبارات الصريحة ما ملأ السطور وشفى الصدور ، وحصل الإجماع على جلالته وعلو رقبته ، وأنه ترك تعليقات مفيدة على مواضع كثيرة من كتب الفقه والحديث والنحو وغيرها .

والفقيه العلامة الحسن بن حميد بن مسعود المقراني (ت ٨٥٠هـ / ٤٤٦م) كتاباً في علم النحو ، هو من شروح كاتبة ابن الحاجب الشهيرة ، وعنوانه (السدرة للصابية لكشف رموز الكافية)^(٤) ، والكافية هي نفسها التي وضع عليها

(١) قد مر علينا سابقاً أن السلطان الأشرف الثاني نفسه اتخذ مؤدياً أمر لأولاده ، وهو الفقيه رضي الدين أبو بكر بن محمد الصوري (ت ٨١٠هـ / ٤٠٧م) ، فالظاهر أن أولاد السلطان كانوا كثيرين أو أنه كان يرغب في تكليل عديمهم أمام العربيين ليرتب لهم أكثر من مربٍ واحد .

(٢) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٢٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٤) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٢٩٩ .

١٧٨ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط

٨٨٨ - ٨٨٨ -

١٧٩ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

١٨٠ - من : ١٨٠ - ١٨٠ -

١٨١ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

١٨٢ - من : ١٨٢ - ١٨٢ -

١٨٣ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

١٨٤ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

١٨٥ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

١٨٦ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

١٨٧ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

١٨٨ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

١٨٩ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

١٩٠ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

١٩١ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

١٩٢ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

١٩٣ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

١٩٤ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

١٩٥ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

١٩٦ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

١٩٧ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

١٩٨ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

١٩٩ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

٢٠٠ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

٢٠١ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

٢٠٢ - من : في نسخة المخطوط : مخطوط : مخطوط : مخطوط

العلامة أحمد بن محمد بن علي الرصاص (ت القرن التاسع الهجري) شرحاً
سماء (منهاج الطالب في كشف معاني كافية ابن الحاجب)^(١) .

ومن أعلام المذهب الحنفي الذين عدوا في المشتغلين بالنحو في مدينة ريبد
الفقيه العلامة علي بن أحمد بن موسى الجلال الحنفي (ت ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م) ، وقد
سبق ذكره بين علماء اللغة ، وذكرنا أنه كانت له يد في عدد من علوم العقاية
والشرعية كالفقه والقراءات والحديث والفرائض ومتعلقاتها من العلوم الرياضية ، وكان
النحو أحد العلوم الذي لزمته ترجمته وارتبطت بها لجهوده فيه دراسة وتدرساً^(٢) ،
وكذلك كان الأديب الشاعر الفقيه وجيه الدين عبدالرحمن بن أبي بكر الشوير الحنفي (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) ، عالماً في النحو ، إماماً في اللغة ، فتلقاها عنه أناس كثير
من الطلبة^(٣) .

والعلامة عبدالله بن محمد بن أبي القاسم العكي النجري (ت ٨٧٧ هـ /
١٤٧٢ م) فضل على علم النحو في صنعاء خاصة واليمن عامة ، وذلك لما رحل إلى
مصر في طلب العلم في سنة (٨٤٨ هـ / ١٤٤٤ م) ، إذ عاد حاملاً معه أحد أشهر
كتب ولوسعها انتشاراً ، والذي لم يكن اليمنيون قد عرفوه ، وهو كتاب (مغني اللبيب
عن كتب الأعريب) لصاحبه جمال الدين عبدالله بن يوسف بن هشام المصري
(ت ٧٦١ هـ / ١٣٥٩ م) ، وهو بذلك أول من أدخله إلى اليمن^(٤) ، وحرصه على جلب
نلك الكتاب له دلالة على معرفته للنحو وتقديره أهمية حمل الجديد من أمهات مقرراته
الدراسية في مصر ، وهو ما أكدته وجود كتابين من مصنفاته في النحو ، هما : (شرح

(١) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الأحقاب المخطوطات في مدينة تريم بحضرموت تحت رقم (٢٤٤٣) ،
ونسخة أخرى في مكتبة سليم أغا تحت رقم (١١٤٧) ، ومنه نسختان مخطوطتان بمكتبة الجامع الكبير
الغربية ، الأولى تحت رقم (١٨٤٧ نحو) ، والثانية تحت رقم (١٨٤٨ نحو) ، انظر الحبشي ، مصادر
الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٨٤ ، غير أن رقمي النسختين الأخيرتين جاء مختلفاً عدد الوحيه ،
أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٧٨ ، عنده أن النسخة الأولى تحت رقم (١٤٨ نحو) والنسخة الثانية
تحت رقم (١٤٦ نحو) .

(٢) بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٦٧٩ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٧٢٥ .

(٤) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٦٣٩ .

مقدمة التسهيل في شرح ابن عقيل (لابن مالك الأندلسي ^(١) ، وكتاب (مختصر في النحو) ، لعله شرح لكتاب (المفصل) للإمام الزمخشري ^(٢) .

ومن النحويين أيضاً الفقيه العلامة أحمد بن محمد بن داود الخالدي (ت ٨٨٠هـ / ١٤٧٥م) الذي صنف في شرح كافية ابن الحاجب كتاباً عنوانه (بغية الطالب وصية الراغب شرح كافية ابن الحاجب) ^(٣) ، وقيل عنوانه (تحفة الراغب شرح كافية ابن الحاجب) ^(٤) ، وقام كذلك بشرح كتاب (المفصل) للإمام الزمخشري ^(٥) ، وبعده قام القاضي العلامة عبدالله بن يحيى بن الناطري (ت ٩٢٢هـ / ١٥١٦م) بشرح الكافية أيضاً ، وسمى شرحه لها بـ (لآلئ الصافية في تسهيل معاني الكافية) ^(٦) .

ومن النحويين في القرن العاشر الهجري الإمام أبو الطيب عبدالله بن أحمد بن علي بن أحمد بامخرمة (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م) ، وهو أحد أكبر علماء مدينة عدن في أواخر القرن التاسع الهجري ، برز في علوم عديدة ، وترك مصنفات مختلفة في الفروع المعرفية التي اشتغل بها ، وكان للنحو واحداً منها ، وفيه صنف شرحاً على ألفية ابن مالك الشهيرة ، ثم أنه شرح (ملحة الإعراب) للحريزي ^(٧) ، وقد ورث عنه ولده الفقيه عبدالله بن عبدالله بن أحمد بامخرمة الشهير بالعمودي (ت ٩٠٣هـ /

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٦٣٨ ، الوجيه ، اعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٦١٧ .

(٢) الوجيه ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) منه ثلاث نسختان مخطوطتان في مكتبة الجامع الكبير الشرقية ، الأولى تحت رقم (١٨٣٠) ، ولأخرى تحت رقم (١٨٢٩) ، وسخة ثالثة في مكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (٢١ نصو) ، انظر الحشوي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٣٨٥ ، الوجيه ، المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

(٤) زيارة ، أمة اليمن ، ص ٣٤٦ ، الوجيه ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٥) الحشوي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٣٨٥ ، الوجيه ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٦) زيارة ، أمة اليمن ، ص ٣٨٢ ، الحشوي ، المرجع السابق ، ٣٨٦ ، الوجيه ، المرجع السابق ، ٦٢٨ .

(٧) بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، وهو ولد المؤرخ بامخرمة صاحب القلادة .

١٤٩٨م) إجلادة النحو ومعرفته ، فوصفه أخوه الطيب بن عبدالله بامخرمة في تاريخه^(١) بأنه على معرفة جيدة باللغة والنحو .

ومنهم أيضاً العلامة القاسم بن يوسف بن معوضة بن مباح الإلهاني (ت ٩١٧هـ / ١٥١١م) ، الذي صنف كتاباً في النحو هو أحد شروح كافية ابن الحاجب الشهيرة ، وعنون كتابه (إيضاح المعاني السنية من ألفاظ الحاجبية)^(٢) .

ومن المبرزين في علم النحو في حضرموت في القرن العاشر الهجري الإمام جمال الدين محمد بن عمر بن مبرك بخرق (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) ، وهو من أكثر علماء اليمن تأليفاً ، ومصنفاته كثيرة في فروع المعرفة الشرعية والعقلية ، ويعد من مفاخر اليمن في سعة المعرفة وجودة التصنيف^(٣) ، ترك - ضمن موروثة التأليفي - مصنفات في النحو ، منها كتاب (تحفة الأصحاب في شرح ملحة الإعراب) والملحة هي التي ابتدعها الحريري في النحو والصرف ، وله كذلك كتاب (شرح أبنية الأفعال في لامية ابن مالك) ، خصصها لما هو متعلق بالصرف في الألفية ، ووصف هذا الكتاب بأنه " شرح مفيد جداً ... " ^(٤) ، وكذلك قيل فيه : " شرح كبير ، وهو الذي رفع في هذا الفن الأمطار عن وجوه إعجازه ، وميز فيه بين حقيقة ومجلزه ، وجمع المفترق من الكتب النفيسة في هذا المعنى ، على أقصد سبيل وأقرب مأخذ ومعنى ... " ^(٥) ،

(١) ج ٣ ص ٧٨٥ .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية للكبير ، ج ٢ ص ٨٧٣ ، ومن الكتاب نسخة مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير الشرقية بصنعاء تحت رقم (١٨٥٦) ، انظر الوجه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٧٨٥ .

(٣) وصفه المؤرخ محيي الدين عبدالقادر العيدروس في تنوير المسافر ، ص ١٣٣ فقال : " كان من العلماء الراسخين والأئمة المتبحرين ، تشتمل بالعلوم ، وتفنن بالمنطوق منها ، وفهمهم ، وتمهر في المنثور والمنظوم ، وكانت له اليد الطولى في جميع العون ... ما رأيت أحداً من علماء حضرموت أحسن ولا أوجز عبارة منه ، عبدالله علي مهيب اليوسفي ، القدرس النحوي في زبد من القرن السادس حتى القرن العاشر الهجري ، ص ١٣٩ .

(٤) العيدروس ، تنوير المسافر ، ص ١٣٦ .

(٥) الشلي ، السقا الباهر ، ص ٢١١ .

وللإمام بحرق في النحو أيضاً شرح صغير على كتابه السابق ، وسماه (فتح الأفضال بشرح أبنية الأفعال) وهو للصرف أيضاً^(١) .

ومنهم كذلك الإمام العلامة محمد بن يحيى بن أحمد بهرّان الصنّدي (ت ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م) الذي اعتنى بعلوم اللغة والبلاغة والعروض والتفسير ، وكانت له يد قوية في النحو ، فصنف كتاباً فيه سماء (تحفة الطلاب في علم الإعراب)^(٢) .

ومنهم أيضاً الإمام العلامة فخر الدين عبدالله بن القاسم بن الهادي العلوي (ت ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م) السابق ذكره في علم اللغة ، ورد في وصف تلميذه لعلمه قوله : " وأما علمه فلم أرَ أعلم منه ، ولا ترى مثل نفسه في الأصوليين والنحو والتصريف والمعاني والبيان ، وأما اللغة والحديث والفقه واستحضار مسائله فهو - وإمامنا - لوحد من رأيت من أصحابنا للزيدية ... وأما حفظه فلم أرَ أحفظ منه ، يحفظ من الأمثال والشواهد والآداب شعراً ونثراً ومثلاً وتاريخاً بحراً لا ينفذ ... جمعنا أيضاً الشواهد والفوائد النحوية في مجلد أملاها علينا ولم نجمع عشر ما سمعنا منه ...^(٣) ، وهذا الفصل يتضمن عدداً من الإشارات ، وشاهدنا في الجملة الأخيرة ، فقد جمعت للشواهد النحوية التي يلقونها على تلامذته فبلغت مجلداً ، ومع ذلك فهي لم تبلغ عشر ما سمعوه منه ، إذاً فهو أكثر في تدريس النحو ، مجيد في سرد الشواهد والإكثار منها .

وهناك عدد كبير من العلماء اليمنيين الذين اهتموا بالنحو ، بعضهم دون من سبق ذكرهم ، وبعضهم قد مروا علينا في الحديث عن علم اللغة ، لأن التلازم بين علمي اللغة والنحو كان كبيراً ، وإن كنا قد كررنا بعض الأسباب تميزهم على غيرهم ، وفي المصادر من التواريخ وكتب التراجم والبيبلوجرافيا عدد آخر ، فليعد إليه من أراد التوسع^(٤) .

(١) الحيدروس ، فنون السفر ، ص ١٣٦ ، الثعلبي ، السقا الباهر ، نفس الصلحة .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ١١٠٦ ، ويوجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة جامع الإمام الهادي بصعدة ، انظر الوجه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠١٩ .

(٣) ابن المؤيد ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٢٨ .

(٤) تراجمهم عند البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٨ ، ٥٤ ، ٨٩ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٣١ ، ٢٨٤ ، ٣٠٩ ، ٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، الأمل ، نطقة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص

(٣) العلوم البلاغية :

اعتنى عددٌ من علماء اليمن بعلوم البلاغة عناية كبيرة حتى بلغ بعضهم - كما سولتني - شهرة جعلته يدرج في عداد المبرزين فيها على مستوى العالم الإسلامي ، وتأتي هذه العناية في إطار اهتمام علماء اليمن بالعلوم الخادمة لدراسة اللغة التي تمثل القوالب الحافظة والناقلة لعلوم الشريعة وغيرها من أبواب المعارف ، ولذلك كانت لهم القدرة الواضحة على تلمس الأسرار البلاغية في القرآن الكريم وإدراك مواضع إعجازه البياني اللغوي ، وقد تباينت إسهاماتهم في هذه العلوم ومشاركتهم فيها ، فمنهم من بسط كلامه فيها نهاية البسط ومنهم من أطل فيه ، ومنهم من أوجز فيه غاية الإيجاز^(١) .

مما يندر - بدايةً - أن الأزدهار إذا كان صفة لعلم اللغة - بدرجة أساسية - والنحو في المقام الثاني ، فإن علوم البلاغة ستكون في محاذاتها وتسير في ركبها ، شبراً بشبرٍ وزراعاً بزراع ، إذ أن الأولى مطية للثانية ووالدة لها ، وقد صنفت علوم البلاغة في إطار ثلاثة أقسام اصطلاح عليها أهل اللغة وعلمائها ، وهذه الأقسام هي : (علم البديع) و (علم المعاني) و (علم البيان) ، وهي - بدورها - شديدة الارتباط ببعضها ، فلا يكاد يُذكر أن عالماً له مشاركة في علم واحد منها إلا واقترن بأحد العلمين الآخرين إن لم يرتبط بهما معاً ، وهو السبب الذي دفعنا لوضع للعلوم البلاغية الثلاثة معاً في فئة واحدة هنا في هذه الدراسة .

وقد اعتمد للرواد من العلماء اليمنيين في دراسة علوم البلاغة على مؤلفات وافدة من خارج اليمن - كما هو الحال في غيرها من العلوم - ، وفي مقدمة هذه المؤلفات كتاب (الكشف عن حقائق التنزيل) لجار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ / ١١٤٣م) الذي اعتنى - على الرغم من كونه كتاب في التفسير - بعظمي المعاني والبيان ومواضع شواهدهما في القرآن الكريم ، وأورد كثيراً من النكات البلاغية بما جعله من أهم الكتب المعول عليها في دراسة هذا الفن^(٢) ،

٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، باسمرة ، قلادة النحر ، ج ٣ من ٧٥٥ ، ابن السويدي ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ من ٥٠٨ ، العبدروس ، النور المسافر ، ص ١٢١ ، .

(١) د. هادي الهادي ، نشأة الدراسات النحوية واللفظية في اليمن وتطورها ، دار آفاق عربية ، بغداد ، ١٩٨٤م ، ص ٣٤١ ، علي بن أحمد ، الحياة النحوية في شعر ، ص ٤١٠ .

(٢) الزرقاني ، معاهل تعرفان في علوم القرآن ، ج ٢ من ٧٠ .

وجاءت مقالات الحريري في قائمة أوائل الكتب البلاغية التي استعملها اليمنيون وكانت محط عنايتهم ، وخاصة الأبناء منهم ، ونهلوا منها كثيراً ، وقام بعضهم بشرحها ، وعمل البعض على محاكاتها وألف على مولها ، بل إن الفقهاء كانوا يطالعونها في حلقات الفقه ترويحاً للنفس واستمتاعاً بها وتنمية للذائقة الأدبية والبلاغية لدى طلابهم^(١) .

ومن أبرز المصادر الأولى ثراً في علم البديع هي بديعية صفى الدين عبدالعزيز بن سرايا الحلبي المشير بالصفي الحلبي (ت ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م) والمعروفة بـ (الكافية البديعية في المدائح النبوية) المتضمنة لمائة وواحد وخمسين نوعاً من محاسن البديع^(٢) ، واستحوذت على اهتمام المبرزين من أدباء اليمن وشعروا بإزائها بالتحدي فتقلدوا من مواضع الاعتكاف عليها لدراستها إلى التطلع لنظم مثيلاتها بإبراز كل قدراتهم الشعرية كما سيتضح قريباً .

ومن أشهر المشتغلين بالعلوم البلاغية قبل القرن التاسع الهجري في اليمن يأتي الفقيه أبو الغيث محمد بن راشد السكوني (ت ٧٥٩هـ / ١٣٥٧م) الذي جمع كثيراً من فنون المعرفة وجوانب العلوم ، فأنبرى لتكريسها ، وبرز كثيراً في علوم البيان والمعاني والعروض ، فتصدر للتدريس علوم العربية والبلاغة خصوصاً في المدرسة المؤينية بتعر^(٣) ، وكذلك الفقيه محمد بن موسى الذوالي الصريفى (ت ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م) ، كان من العلماء الموسوعيين ذوي المصنفات العديدة في العلوم الشرعية واللغوية ، وكلنت له يد في الشعر ، قال عنه الخزرجي^(٤) : " كان فقيهاً عالماً عارفاً بالفقه والنحو واللغة والحديث والتفسير والمعاني والبيان والمنطق ... " .

ومن أبرز علماء البلاغة المشاركين فيها في القرنين التاسع والعاشر الهجريين تذكر العلامة الأكيب وجيه الدين عبدالرحمن بن محمد بن يوسف بن عمر بن علي

(١) الحبشي ، حياة الأئمة اليمنى في عهد بني رسول ، ص ١٤٥ .

(٢) علي أبو زيد ، البديعيات في الألف العربي ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٣م ، ص ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، عبدالله قائد المبادي ، الحياة العلمية في زهد ، ص ٣٢٢ .

(٣) الأفضل الرسولي ، العطايا السنوية والمواهب الهندية ، ص ٦١٨ .

(٤) العقد الفلخر ، ج ٢ ق ١٤٥ - ب ، عبدالله قائد المبادي ، الحياة العلمية في زهد ، ص ٣٢٢ .

العلوي الحنفي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) ، وصفه بامخرمة بقوله : " لوجه أهل عصره جلاله ورياسة ونباهة ونفاسة ... ترقى في الخدمة السلطانية والمباشرات الديوانية ، وشد في سائر الجهات قلمانية ... ولم يزل عنده - أي السلطان الأتurf الثاني إسماعيل الرسولي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) - مجلداً معظماً مسموع الكلمة ... له نظر في كثير من العلوم ، ومشاركة في المنثور والمنظوم ، ومن محاسن شعره القصيدة البديعة التي أودعها سائر فنون البديع ، وشرحها شرحاً شافياً ، وله عدة قصائد في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومنحه عدة من فضلاء الشعراء ... (١) ، وقد وصفه شيخ الإسلام الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني بقوله : " لسان البلاغة ، ومعدن الفصاحة ... " ، وعُرف بأنه من البارعين في الأدب نثراً ونظماً (٢) .

لما القصيدة البديعة المشار إليها في ترجمته فهي القصيدة التي عارض بها الرائد للصفى الحلي في بديعته ، وقد سماها (الجوهر الرفيع ودوحة المعاني في معرفة أنواع البديع ومدح النبي العدناني) (٣) ، جاءت في ملأ واحد وثلاثين بيتاً ، وقيل أنه ضمها مائة وستة وثلاثين نوعاً ومُختصاً بديعياً ، وقال في مطلعها :

سَلْ مَا يَسْتَلِي ، وَسَلْ مَا رِيَّةَ الْمَلَمِ
وَحْصَ طَيِّبَةَ مَلَوَى الطَّيِّبِ وَالْكَرَمِ (٤)

وقد تقبل علماء العصر هذه البديعية بالقبول ، وأشادوا بها وبمصنفها ، من ذلك قول الإمام مجد الدين الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) :

(١) بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٦٦٨ ، نفيخ ثغر عدن ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٤ ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٣) منها نسخة مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (٩٩) ، وأخرى في المتحف البريطاني تحت رقم (٩٨٥) ، ونسخة أخرى في مكتبة برلين تحت رقم (٧٣٧٦) ، ورابعة مصورة في مكتبة الجامعة الأردنية ، انظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٣٨٢ ، الرقيحي ، فهرس مخطوطات الجامع الكبير بصغاء ، ج ١ ص ٤٨٤ ، وأما عمر كحالة ، معجم المؤلفين ، ج ٢ ص ٧١ فقد وهم في نسبتها إلى عبدالرحمن بن إبراهيم بن إسماعيل العلوي (ت ٩٢٠هـ / ١٥١٤م) ، عبدالله قائد العمادي ، الحياة الطمبة في زييد ، ص ٣٧٣ .

(٤) علي أبو زيد ، البديعيات في الأدب العربي ، ص ٨٠ ، ٨١ .

هذا القصيد حوى البدائع كلها
 ونسنى على نظم الأفاق وفقاً
 حتى أقر الحاسدون بحسنه
 فلان من أهل الخلاف وفقاً
 وإذا نظرت رأيت فيه جوهراً
 من بحر فضل لو دعيت لوزناً
 ورقي بنظمه ذرى لم يرقها
 من رق لقطاً في الوزى أوزاقاً^(١)

وممن تلقاها من مصلحتها الإمام الحافظ ابن حجر ، وفي هذا يقول : " وبولوني
 بديعته التي عارض بها الحلبي ، وكتب لي في استدعاء :

أجزت لسيد الإخوان طراً
 شهاب الدين ذي الفصل الرقيق^(٢)

ومنهم أيضاً الفقيه العلامة برهان الدين إبراهيم بن إسماعيل الجعافي
 (ت ٨١٠هـ / ١٤٠٧م) كان إماماً محققاً في علوم النحو واللغة والبلاغة ، مع
 مشاركته في الفقه والحديث والفرائض ، كان من نجباء تلاميذ الأئمة الفيروزآبادي ابن
 حجر العسقلاني والنقيس العلوي ، غلب عليه فصاحة الشعر وبلاغته حتى سمي
 (حريري الزمان) ، وجرت بينه وبين شيخه الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني - لما
 زار اليمن في رحلته الأولى - مراسلات أدبية وشعرية حوتها بعض المصانير^(٣) ،
 وسنورد بعضها عند حديثنا عن شعراء اليمن في مدة الدراسة .

وقد كان العلامة صلاح بن إبراهيم بن علي الوزير (ت ٨١٠هـ / ١٤٠٧م)
 ماهراً في فنون البلاغة والأدب واللغة بعد أن قرأ علوم الأدب والبلاغة وسائر فنونها

(١) بامخرمة ، تاريخ نجر عدن ، ص ١٥٤ ، عبدالله قائد العبادي ، الحياة الطمعية في زبيد ، ص ٣٢٤ .

(٢) ابن حجر ، المعجم المؤسس للمعجم المظهرين ، ج ٣ ص ١٦٢ ، عبدالله قائد العبادي ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٩٥ ، ابن حجر ، ديوان ابن حجر ، ص ٢١٣ .

على يدي أخيه الأديب الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير ، وكان له الشعر الجيد ، وكان بينه وبين الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) مودة عظيمة^(١) ، وذلك على الرغم من خصومه أخويه - الإمامين الهادي ومحمد بن إبراهيم - له .

ومن اشتغل بعلوم البلاغة في مدة الدراسة شقيقه الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير (ت ٨٢٢هـ / ١٤١٩م) والإمام محمد بن إبراهيم الوزير (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) ، ألف الإمام الهادي كتاب (الفوائح المسكية والعوارف للنسكية)^(٢) في علم البديع ، وفي المقامات وصع (للطرزين المعلمين في المغامرة بين الحرمين)^(٣) ، وصف الإمام محمد مختصراً في علم البيان والمعاني^(٤) .

ومن أعلام علم البديع أيضاً الإمام الشهير إسماعيل بن أبي بكر بن عبدالله الشلوري المقرئ (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) ، فقد حذا حذو الوجيه العلوي فأنشأ بديعاً جميلة سماها (الجواهر اللامعة في تجسيم الفرائد الجامعة للمعاني الرائعة) ، وقيل أنه نظمها استئلاً لأمر السلطان الناصر أحمد بن الأشرف الثاني الرمولي (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) ، ثم نذب بهمه للقيام بشرحها ، وسمى الشرح (الفريدة الجامعة للمعاني الرائعة)^(٥) ، ومما جاء في مقدمة الشرح قوله : " وقد نظمت هذه القصيدة مئة وأربعة

(١) ابن الميز ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٥٠٨ .

(٢) منه نسخة مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير لغربية تحت رقم (٢٧ مجاميع) ، وأما النسخة الأم التي هي بحط المصنف نصح فهي في ١١٠ صفحات ضمن مجموع في مكتبة حبيده المرتضى بن عثمان الوزير بهجرة السر في بني حشيش في محافظة صمعا باليمن ، انظر لحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٣٨٢ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٧١ ، ١٠٧٢ .

(٣) منه نسخة مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير لغربية تحت رقم (١٠ مجاميع) ، ونسخة أخرى في مكتبة الجامع الكبير لشرقية تحت رقم (٢١ مجاميع) ، ومنه نسخة بالأميروزيانا تحت رقم A34 ، انظر الوجيه ، المرجع السابق ، ص ١٠٧٢ .

(٤) الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٨٤ .

(٥) منه نسخة مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير لغربية تحت رقم (١١٧ تاريخ وتراجم) ، ونسختان في مكتبة الجامع الكبير لشرقية ، الأولى تحت رقم (١٩٩٤) والثانية تحت رقم (٨٨) ، ومنه نسختان أخريتان بمكتبة برلين ، الأولى تحت رقم (٧٣٧٠) والأخرى تحت رقم (٧٣٧١) ، ونسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٨٧ بلاغة) ، انظر الحبشي ، المرجع السابق ، ص ٣٨٤ ، محمد

وأربعين بيتاً ، فيها جميع أنواع البديع ، وهي مائة وخمسون نوعاً ، وقد يجتمع لي في البيت الواحد عدة من أنواع البديع ، ولكن المعول على ما أسس البيت عليه ، وقد أكثر في أكثر أبياتها من التورية والإيهام والتوشيح والاستخدام ، وغير ذلك من أنواع البديع ، مما يروق الأسماع ويحرك الطباع ^(١) .

وقد نسب الحبشي ^(٢) إلى الإمام إسماعيل المقرئ شرحين في البديعيات ، وجعل أحدهما شرحاً للبديعية المذكورة وسماه (شرح بديعية ابن المقرئ) ^(٣) ، والمقصود به الشرح للمشار إليه سابقاً بـ (الفريدة الجامعة للمعاني الرائعة) ، وذكر له شرحاً آخر هو (نتائج الألفية في شرح الكافية البديعية) ^(٤) ، ولم يحدد أي كافية بديعية شرحها فيه ، وذكر له أيضاً في علم البديع (الجمائات البديعية في مدح خير البرية) ^(٥) .

وكان لفقهاء الرحالة والعالم للحوي جمال الدين محمد المسلمي (ت ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م) قد طاف البلدان شرقاً وغرباً واجتمع بصلحائها وعلمائها ، وأحب البلاغة وعلومها ، وأثر عنه أنه كان يحفظ معامات الحريري غيباً ^(٦) .

سيد المنيح وآخر ، فهرس مخطوطات المكتبة القزوينية بالجامع الكبير بصنعاء ، نشر الهيئة العامة للأثار ونور الكتب ، الجمهورية العربية اليمنية ، ١٩٨٧ م ، ص ٤٥٦ ، علي أبو زيد ، البديعيات في الأدب العربي ، ص ٩٠ .

(١) المقرئ ، شرح الفريدة الجامعة للمعاني الرائعة ، تحقيق عبدالرحمن بن عبدالله الحصري ، ورقة الإعلام والثقافة ، صنعاء ، ط ١ ، ١٩٨٩ م ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٨٤

(٣) منه نسخة مخطوطة بالأصطفية تحت رقم (٥٨ بلاغة) ، انظر المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (٢٠ مجاميع) ، انظر المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٥) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (٢٦٧ مجاميع) ، انظر المرجع السابق ، نفس الصفحة ، غير أن عبدالله قائد العبادي ، الحياة العلمية في زيب ، ص ٢٨٤ ذكر أنه عنوان آخر لبديعيته (الجوهر اللامعة في تجنيس الفرائد الجامعة للمعاني لرائحة) .

(٦) البرهني ، طبقات صنعاء اليمن ، ص ٦٤ .

ومن المشار إليهم في البلاغة - دراسة وتطبيقاً - في القرن التاسع الهجري
 النقيض العلامة الأديب جمال الدين محمد بن محمد بن إدريس العلوي (ت ٨٤١هـ /
 ١٤٣٧م) ، كان مشهوراً بفن الألب والبلاغة ، والفصاحة في الشعر ، وكتب إلى
 السلطان الظاهر يحيى بن الأشرف الرسولي (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) ببديعية عجيبة،
 حذا بها حنو الصفي الحلبي المذكور سابقاً ، وشرحها شرحاً عجبياً ، وضمن القصيدة
 أنواعاً من البديع ، منها (الاقتباس) أو (التناص) كقوله :

مَاذَا أَقُولُ وَفِي (مَا ضَلَّ سَنَابِلُكُمْ
 وَمَا غَوَى) مَذْحُ أَزْرَتْ بِمَذْحِ فَعِي

والصفي الحلبي قال في مثل ذلك :

هَذِي عَصَايَ لَتِي فِيهَا مَلَوْبٌ لِي
 وَقَدْ أَهَشُ بِهَا طَوْرًا عَلَى غَنَمِي^(١)

وكما هو واضح أن الصفي الحلبي تخطأ في اقتباسه للآية الكريمة شيء من اللفظ
 غير القرآني ، لذلك قال العلامة الأديب جمال الدين محمد بن محمد بن إدريس العلوي:
 أنا لُتيت بآية كاملة في بيت واحد ولم يتخطأ بينهما كلام أجنبي ، فلأجل له السلطان على
 المتولي بحصن عز بخمسائة دينار^(٢) .

ومن اشتغلوا بعلوم البلاغة الإمام العلامة حسام الدين عبدالوهاب بن عبدالله
 السراف النهام (ت ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م) ، قرأ كثيراً في فن الألب على من له مشاركة
 فيه من علماء زبيد ، كما أنه كان إماماً في الأصول والنحو ، له فيه مسائل تدقيق تدل
 على غزارة علمه ، واعتنى باللغة والمعاني والبيان ، وقد سبقت الإشارة إليه أنه يذهب
 نفسه لتكريس الألب في زبيد حتى فضل وفاق شيوخه فيه^(٣) .

ومنهم العلامة شرف الدين أبو القاسم بن علي المعروف بابن زبيدة
 (ت ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م) ، كانت له قراءة في فن الألب على جمال الدين محمد بن أبي

(١) البربري ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٢٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٢٦ .

القلم المقنشي ، إذ لازمه حضراً وسفراً حتى برع فيه ، وأخذ عن غيره من الأئمة ، فكان في الجملة نحوياً محققاً للمعاني والبيان والأصليين والمنطق^(١) .

ومنهم كذلك الفقيه اللغوي وجيه الدين عبدالرحمن بن عمر الراعي المشهور بالعطاب (ت ٨٦٤هـ / ١٤٥٩م) ، كان عارفاً بعلم العربية ، محققاً لعلم المعاني والبيان وأوزان الشعر وبحوره ، وكانت له قريحة جيدة ، وأشعاره كثيرة^(٢) ، سسورد طرفاً منها فيما خصص للأدب من دراستها هذه .

ومنهم أيضاً العلامة عبدالله بن محمد بن أبي القاسم العكي النجدي الحنفي (ت ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م) ، درس البيان والمعاني ضمن العلوم التي حصلها في رحلته العلمية التي قلم بها إلى مصر في سنة (٨٤٨هـ / ١٤٤٤م) وذلك بتلمذه على أيدي نخبة من أفاضل العلماء المصريين المبرزين في علوم شتى^(٣) .

ومن اشتغل بعلوم البلاغة في مدة الدراسة للعلامة شمس الدين أحمد بن علي بن محمد بن علي الدواري (ت بعد ٨٨٤هـ / ١٤٧٦م) ، وهو ممن كثر عليه الطلبة لجودة تدريسه في صنعاء ، وقد صنف شرحاً على كتاب (المنخل في علم المعاني والبيان) للذي صنفه العلامة عضد الدين الإيجي^(٤) .

وكان الفقيه شمس الدين علي بن سعيد الزيندي الجيزي (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م) إماماً فاضلاً ، عالماً بكثير من العلوم والمعارف كالفقه والحديث والمعاني والبيان والحساب والمنطق ، ولم يحصل كل هذه العلوم إلا من عبر رحلة علمية طويلة طُف خلالها مصر والشام ومكة المكرمة والمدينة المنورة^(٥) .

ومنهم أيضاً شيخ الإسلام الإمام أبو عبدالله جمال الدين محمد بن أحمد بن علي بافضل الحضرمي (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٨م) الذي ذكرناه فيمن اشتغل بالحديث النبوي

(١) البرهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣١٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .

(٣) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٦٣٦ .

(٤) أبو الرجال ، مطلع القيدور ومجمع البحور ، ج ١ ص ٣٧٤ ، الحيشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٣٨٥ .

(٥) البرهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٤٩ .

وغيره من علوم الشريعة وتدريسها في مدينة عدن ، ونكرنا أن أغلب علماء عدن وحضرموت في النصف الثاني من القرنين التاسع والعاشر الهجريين من تلامذته وتلاميذهم ، كان لهذا العالم الحليل اهتمام بالبلاغة ، وصنف فيها كتاب (الغيث للهمل في شرح المدخل) ، شرح به كتاب (المدخل في علم المعاني والبيان) الذي صنفه العلامة عضد الدين الإيجي^(١) .

ولالإمام صارم الدين إبراهيم بن محمد بن عبدالله بن الهادي الوزير (ت ٩١٤هـ / ١٥٠٨م) عناية بعلوم البلاغة ، واشتغل بها دراسة وتكريساً ، وهو ما أهله للتأليف والتصنيف فيها ، حيث وضع كتابه (التخليص على التلخيص)^(٢) في علم المعاني والبيان^(٣) .

ومن المبرزين في علوم البلاغة كذلك العلامة المرتضى بن قاسم بن إبراهيم بن محمد القطايري (ت ٩٣١هـ / ١٥٢٤م) ، الذي كان له اهتمام بالمنطق وعلم المعاني والبيان ، حتى وصفه أحد تلاميذه بقوله : " كان السيد المرتضى بمن قاسم إماماً عظيماً ، منطقياً متفناً ، متقناً محققاً عالماً في المنطق والمعاني والبيان ومسائر علوم العربية ... " ^(٤) .

ومنهم أيضاً الإمام العلامة فخر الدين عبدالله بن القاسم بن الهادي بن إبراهيم العلوي (ت ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م) ، الذي ورد في ترجمته قول أحد تلامذته في وصف علمه : " ولما علمه فلم أرَ أعلم منه ، ولا ترى مثل نفسه في الأصوليين والنحو : والتصريف والمعاني والبيان ... " ^(٥) .

(١) الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٦٨ بلاغة) وهو فيها بعنوان (توضيح الفوائد المنظمة لتجريد القواعد) ، ونسخة أخرى منه في مكتبة تلاحقاف للمخطوطات بحضرموت تحت رقم (٥٢٢) ومجلد ٢١٠ .

(٢) منه نسختان مخطوطتان في مكتبة حبيده المرتضى بن عثمان الوريد في هجرة السر ببني حشيش في اليمن ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٧٠ .

(٣) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٨١ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ص ١١١٨ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٢٨ .

ومن اللافت لنظر الباحث في الحياة الأدبية في اليمس في القرن التاسع الهجري خصوصاً يجد وضوح وشيوع ظاهرة استخدام البدع والمحسنات البديعية بشكل واسع ، فظهر التلاعب بالألفاظ والحروف والإعراب والجناس والإقترام بحرف معين أو كلمة معينة لنهاية أبيات قصائد كاملة وأحياناً صدور أبياتها أيضاً ، فكان لذلك أثر سلبي على النواحي الجمالية للنصوص الأدبية التي تضمنت ذلك ؛ لأنه جاء على حساب عمق الدلالات وجزالة المعاني والمفردات ' حتى كانت النصوص الأدبية تتحول إلى كتل من الألفاظ والأسطر العقيمة ، أو إلى عمل لغوي بحت ^(١) ، ومن أمثلة تلك مجموعة من القصائد وردت في ديوان الإمام الأديب إسماعيل بن أبي بكر المقرئ (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) ، منها تلك القصيدة التي نظمها الإمام المقرئ في المدح والذم معاً ، فمن أراد بها المدح قرأها على حالها ، ومن أراد بها الذم قرأ كل بيت من آخره إلى أوله مقلوباً ، بالكلمات لا بالحروف ، يقول فيها :

مَلَّبُوا الَّذِي نَلَّوْا فَمَا مَنَعُوا
رَفَعَتْ فَمَا حُطَّتْ لَهُمْ رُتَبُ
وَهَبُوا وَمَا مَنَّتْ لَهُمْ خُلُقُ
مَلَّبُوا فَلَا لَوْذَى بِهِمْ عَطَبُ
جَلَّبُوا الَّذِي يُرْضِي فَمَا كَسَبُوا
حُمِلَتْ لَهُمْ شَيْئٌ وَمَا كَسَبُوا
غَضِبُوا وَمَا سَاعَتْ لَهُمْ خُلُقُ
سَكَّرُوا فَمَا هَتَكَتْ لَهُمْ حُجُبُ
ذَهَبُوا وَمَا يَمْنَعِي لَهُمْ ثَرُ
رَجُّوا فَلَا حَلَّتْ بِهِمْ قُوبُ
حَسَبَ لَهُمْ يَزْكُو فَمَا سَقَطُوا
كَلَّمَ لَهُمْ صَنَعَتْ فَمَا كَذَّبُوا

(١) يحيى محمد سنان ، الشعر اليمسي في القرنين التاسع والعاشر الهجري ، رسالة دكتوراه ، جامعة القاهرة ، كلية دار العلوم ، ١٩٩٩م ، ص ٨٦

حُصِبَ بِهِمْ نُصِيرَتُ فَمَا خُذِلُوا
شَرُّوْا فَلَا يَنْدُوْا لَهُمْ حُصْبٌ^(١)

وفيها يكون الشاعر محصوراً في الألفاظ بعينها تحافظ على اتساق المعنى عند قراءتها على الوجه الآخر ، ولذلك تتكرر اللفظة والمعنى ، وهناك قصيدة أخرى له نشر فيها لشكلاً من الجناس اللفظي التام والناقص ما جعلها - مع التأكيد على قدرته الفارقة في ذلك - تفقد الكثير من رونق الشعر الملبى لذائفة متذوقة ، والقصيدة كانت في مدح السلطان الظاهر يحيى الرسولي (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) ، ومما قاله فيها:

يَزْدَلُّ هَجْرًا كُلُّ مَا كَلَّمَا
فَيَمْنُ بِسَيْفِ الْهَجْرِ قَدْ كَلَّمَا
كَلَّمَهُ فِي جَفِيهِ مُقَمِّدًا
لَوْ سَلَّ مَا فِي الْجَفْرِ مَا سَلَّمَا

.....

.....

وَقَاتِرُ الْأَخَاطِ مِنْهُ نَمُوْ
عِي عَنْ بَمَا تَسْكُبُ أَوْ عِنْدَمَا
قَالُوا : فَتَوْرُ اللَّخْظِ قَدْ كَلَّمَا
قُلْتُ لَهُمْ : لَوْ كَلَّ مَا كَلَّمَا
مَهْلًا فَيَحْيِي الْيَوْمَ قَدْ هَذَا مَا
بَنِي مِنَ الْجَوْرِ وَقَدْ هَذَا
الظَّاهِرُ الْمَلِكُ الَّذِي قَطَّ مَا
كَبَحْرِهِ بَحْرُ نَدَى قَدْ طَمَا
مُظْفَرُ الْجَيْشِ فَمَا حَطَّةُ
لِلْحَرْبِ إِلَّا حَطُّ مَا حَطَّمَا^(٢)

(١) ديوان المفروق ، ص ٣٨٣ ، ٣٨٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

ولخيراً نذكر قصيدة الإمام المقرئ التي نظمها في صفر من سنة (٨٣٠هـ — / ١٤٢٥م) بطلب من السلطان الأشرف الثالث إسماعيل (ت ٨٣١هـ / ١٤٢٧م) وشرط عليه أن تبدأ صدور أبياتها بكلمة (زبيد) وتختتم جميع أبياتها بالكلمة نفسها ، فقال المقرئ فيها :

زَبِيدُ ، إِذَا مَا شِئْتُ سَكَنِي بِبَلَدِهِ	فَمَا تَمُّ فِي الْأَرْضِينَ غَيْرَ زَبِيدِ
زَبِيدُ هِيَ الْمَأْوَى الَّذِي سُرَّ أَهْلُهُ	سُرُوراً بِهِ فَلَقْتُ بَقَاعَ زَبِيدِ
زَبِيدُ هِيَ الْمَلُوكُ لِلنَّفْسِ وَالْهَوَى	فَمَا لَهُمْ مَخْلُوقاً بِأَرْضِ زَبِيدِ
زَبِيدُ ، وَيَكْفِيكَ اسْمُهَا عَنْ صِفَاتِهَا	فَمَا جَنَّةٌ فِي الْأَرْضِ غَيْرَ زَبِيدِ
زَبِيدُ هِيَ الْجَنَّتُ وَالْغَيْدُ حُوزُهَا	فَلَا عَيْشَ إِلَّا شَيْئَتُهُ بِزَبِيدِ
زَبِيدُ لِرُوحِ الْمَرْءِ رَوْحٌ وَرَاحَةٌ	فَمَا بَاتَ مُرْتَاحَ بِأَرْضِ زَبِيدِ
زَبِيدُ بِإِسْمَاعِيلَ تَزْهُو وَتَزْدَهِي	عَلَى كُلِّ مِصْرٍ فَالْفَخْرُ وَبِزَبِيدِ
زَبِيدُ مَتَى تُقْبَلُ بِهَمِّكَ نَحْوُهَا	نَخَلْتُ وَحْدُ الْهَمِّ بَابَ زَبِيدِ
زَبِيدُ تُنْفِسِي مَنْ أَتَاهَا بِأَهْلِهِ	وَلَا أَرْضَ تُنْفِسِي الْمَرْءَ أَرْضَ زَبِيدِ
زَبِيدُ هِيَ الْأَنْبَا فَخُذْهَا غَنِيمَةً	لِنَفْسِكَ ذَاراً فَالْهَوَى بِزَبِيدِ ^(١)

(١) المصدر السابق ، ص ٢٨٢ .

(٤) علما العروض والقوافي :

عرف بعض العلماء العروض بأنه : " ميزان الشعر ، يعرف به موزونه من غير موزونه ، ويبحث هذا العلم في بحور الشعر والجوزات القافية وخصائص التفعيلة والكتابة العروضية والدوائر والمقاطع ... " (١) ، وهذا العلم هو أحد العلوم التي أتركها العرب وأجادوها بشكل تام ، سليقة وبدون دراسة ، حتى إن الرجل منهم كان يدرك للكسر في البيت الشعري ويحدد موضعه بدقة ، وتوارثوا هذه المقدرة ، إلا أن منحني قوتها قد بدأ في الضعف حتى كانت تتلاشى ، فانبرى لها الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ / ٧٩١م) فوضع لها قواعد وأوزان تفعيلية ، وسمى كل قاعدة منها بحراً ، وأعطى كل بحر اسماً يدل عليه .

ظهرت الحاجة إلى دراسة العروض والقوافي مع مرور القرن ، وكانت الحاجة إليه تكبر لدى المشتغلين بالشعر ونقد أكثر من غيرهم ، وكان في اليمنيين من اهتم به كثيراً وشارك فيه وأسهم في تدريسه ، واتجه إليه الطلبة للأخذ والتلقي ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل ظهر في اليمن علماء متضلعون كانت لهم مصنفات قيمة تؤكد براعتهم وتفوقهم في العروض (٢) ، كما قام للبعض بنظم قواعده شعراً (٣) ، وقام البعض الآخر بكتابة الاستكرات على بعض المصنفات الشهيرة والمعتمدة فيه ، وبعضهم سلك مناهج الأندلسيين في علم العروض فصنف كتاباً جعله على حساب الجمل ، وجعل في كل ضرب من بحورها خمسة أبيات يمدح بها السلطان الأفضل للرسولي (٤) .

وتعود بدايات تصنيف العلماء والأنباء اليمنيين في علم العروض إلى منتصف القرن السادس الهجري ، إذ كان أولهم تصنيفاً فيه - كما نورد بعض

(١) محمد سعيد إسبر وآخر ، الشمل : معجم في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها ، دار العودة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٥م ، ص ٥٩٢ ، ٥٩١ .

(٢) بامخرمة ، تاريخ نجر عدن ، ص ١٥٢ ، ٢٥١ .

(٣) الخرجي ، المسجد المصنوك ، ص ٤١٦ .

(٤) الخرجي ، العقد الفلخر الحسن ، ق ١٤٥ - ب ، علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في تعز ، ص ٤٠٥ .

المصادر - هو العلامة محمد بن يحيى الزبيدي الحنفي (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) ^(١) ،
 وبقوة شهرة محمد بن الحضر الصمعي (ت ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م) ، وهو حنفي
 كسابقه أيضاً ، كان بارعاً في النحو والعروض وتولى تدريسهما - إضافة إلى فقه
 الإمام أبي حنيفة رحمه الله - في المدرسة المنصورية الحنفية بزبيد ، وألف في علم
 العروض كتابه (الفاية والمثال في العروض) ^(٢) .

وقد خلف الرواد اليمنيين في علم العروض عدد آخر ، لم يكونوا بأقل من
 سلفيهم عناية واهتماماً ، بل فاق بعضهم السابقين فيه ، حتى مطلع القرن التاسع
 الهجري كان لهذا العلم حضوراً لا بأس به في الوسط العلمي في اليمن ، واهتم غير
 واحد من العلماء ، ودرسه الطلبة في المدارس العلمية والجوامع الكبرى ، وألفت فيه
 المصنفات ، إلا أن ما بذل في العناية بتدريس العروض كان أكثر وأشهر - بحسب
 المصادر المتوافرة - من التصنيف فيه ، إذ يلمس المتابع قلة ما ألفه اليمنيون في علم
 العروض مقارنة بما ألفوه في فروع المعرفة الأخرى .

من العلماء المشهورين بالاهتمام بالعروض في مدة الدراسة في القرنين التاسع
 والعاشر للهجريين نذكر الفقيه علي بن أحمد بن سالم الزبيدي (ت ٨١٨هـ /
 ١٤١٥م) ، الذي كان ممن تولى تدريسه في بعض مدارس مدينة تعز كالمدرسة
 المجاهدية ^(٣) ، كانت له معرفة تامة بالعروض حتى قال عنه الفاسي ^(٤) : " كان بصيراً
 بالفقه والعربية والعروض والفرائض والحساب وغير ذلك ... " .

ومنهم أيضاً الإمام إسماعيل بن أبي بكر المقرئ (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) الذي
 كان موسوعياً لكثرة ما أتقن من العلوم ، وكانت له المكاة العليا والمرلة السامية بين
 أقرانه من العلماء اليمنيين ، وكانت معرفته في العروض ذات عمق خالص لأنه كان من

(١) القرشي ، الجواهر المضبية في طبقات الحنفية ، تحقيق د. محمد عبدالفتاح الطو ، دار العلوم ،
 الرياض ، ١٩٧٨م ، ج ٣ من ٣٩٤ ، الصوي ، معجم الأئمة ، ج ١٩ من ١٠٦ - ١٠٨ .

(٢) السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، ج ١ من ٩١ ، الأفضل الرسولي ، العطفا
 السنوية والمواهب الهندية ، من ٥٧٤ .

(٣) الفاسي ، العقد الثمين في أخبار البلد الأمين ، ج ٦ من ١٣٤ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٥ من ١٨٢ ،
 ١٨٣ ، ١٨٢ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الجزء والسفحة .

أبرز شعراء اليمن في عصره ، بل ومن أشعر اليمنيين في تاريخهم الإسلامي ،
فالعروض عنده لم يكن إطاراً معرفياً نظرياً فقط ، بل كان العروض لديه إطاراً
تطبيقياً من خلال أشعاره للكثيرة التي سيأتي الحديث عنها .

أمهم الإمام إسماعيل المقرئ في نشر علمي العروض والقوافي من خلال
تدريسه لياهما - مع غيرهما من العلوم - في عدد من المدارس الرسولية بمدينة نجر
وزبيد ، كما ألف فيهما ، إذ أورد للعروض مساحة في كتابه الشهير (عنوان الشرف
للقوافي في الفقه والعروض والتاريخ والنحو والقوافي) ، وقد أوضح هو بنفسه في
مقدمته أن تأليف الكتاب جاء بأمر من السلطان الأشرف إسماعيل (ت ٨٠٣هـ /
١٤٠٠م) ، يقول المقرئ : " أمر بتأليف هذا الكتاب وجمعه مولانا السلطان الملك
الأشرف إسماعيل بن العباس - أدام الله أيامه - وبعد ، فهذا الكتاب ألفته في العروض
... (١) ، وألحق بالكتاب السابق أيضاً جزءاً صنفه في علم القوافي قال في مقدمته :
وبعد فينبغي للباطر في علم القوافي أن يعرف المقيد والمطلق ، ثم المريف منها ، ثم
المؤسس والوصل والخروج ، ثم الحروف والحركات ... (٢) ، وقد انفرد الحبشي (٣)
بالقول أن لإسماعيل المقرئ كتاباً آخر في العروض والقوافي طبع في الهند في سنة
١٨٥٥م في ١٠٥ صفحات .

ومن اعتنى بالعروض أيضاً المقرئ العالم شمس الدين علي بن أبي بكر
السحولي (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) ، فقد وردت الإشارة في ترجمته إلى أنه كان ذو
يد طويلة في علم النحو واللغة والعروض وعلم القوافي وشاهد العرب وأمثالها ، مع
مشاركته في علوم الفقه والمنطق والحكمة (٤) .

ومنهم أيضاً الفقيه اللغوي وجيه الدين عبدالرحمن بن عمر الراعي
المشهور بالعطاب (ت ٨٦٤هـ / ١٤٥٩م) المذكور في علوم اللغة والبلاغة ، قال

(١) المقرئ، عنوان الشرف للقوافي، ص ٣٤ - ٣٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦ - ٣٩ .

(٣) مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٨٤ .

(٤) التبريبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١١٢ .

عنه البريهي^(١) : " كانت له معرفة بعلم العربية ، وكان محققاً لعلم المعاني والبيان وأوزان الشعر وبحوره ... وكانت له قريحة مطواعة وخط حسن ... " .

ومنهم كذلك الأنيب جمال الدين محمد بن أحمد الجبرتي (ت في آخر القرن التاسع الهجري) الذي كان على معرفة كبيرة بالنحو واللغة وبحور الشعر وما يتعلق بها ، وكانت له قريحة قوية وبديهة رائعة ، مدح للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بغير لفصائد^(٢) .

ومنهم كذلك الإمام جمال الدين محمد بن عمر بن مبارك بخرق الحضرمي (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) ، المشهور بكثرة علومه ومصنفاته ، جاء في قائمة كتبه ومؤلفاته عنوان كتاب في العروض شرح به منظومة الشيخ أبي الجيش الأنلسي^(٣) .
وآخر من اشتغل من علماء اليمن بالعروض والقوافي في مدة الدراسة هو الإمام العلامة محمد بن يحيى بن أحمد بهزآن للصعدي (ت ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م) الذي صنف كتباً عدة في فروع المعرفة المختلفة ، منها في العروض والقوافي كتاب (المختصر الشافي في علم العروض والقوافي)^(٤) .

(١) طبقات صلاح الدين ، ص ٢٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٩ .

(٣) لثلي ، المفاقيها ، ص ٢١٢ ، ومنها نسخة مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير للشرقية تحت رقم (٨٨ مجاميع) ، انظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٣٨٩ .

(٤) منه نسخة مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (٥ عروض) ، وأخرى بمكتبة الأمبروزيانا تحت رقم A105 ، ونسخة ثالثة يدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٢٥ مجاميع) ، انظر المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٥) الأديب :

إن الحديث عن الأديب متشعب وواسع ، بل هو أوسع الأبواب في ما أجاده العرب وعرفوا به منذ ما قبل الإسلام حتى اليوم ؛ لأنه متعلق باللغة وإجادة صياغتها ونظمها في قوالب تتميز بالبلاغة وقوة للتأثير وسهولة الفهم والقابلية للتذوق اللغوي والدلالي ، ونحن إن تحدثنا عن الأديب فذلك يعني أننا نتحدث عن نوعين أو شكلين لا يخرج كلام العرب في مجموعه عنهما ، أولهما النثر وثانيهما الشعر ، وقد عرف ابن خلدون^(١) الأديب فقال : إنه " الإجابة في فني المظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الكلمة من شعر عالي الطبقة ، وسجع متساوٍ في الإجابة ، ومسائل من اللغة والنحو مبنوثة لثناء ذلك متفرقة ، يستقروا منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية ، مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها ... ثم إنهم إذا أرادوا حدث هذا الفن قالوا : الأديب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها ، والأخذ من كل علم بطرف ، يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث ، إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب ... " .

تعريفنا على تعريف ابن خلدون للأديب والأديب كبير ؛ لأنه معاصر للمدة التي ندرسها ، إذ أنه توفي سنة (٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) ، ومما لا شك فيه أنه عثر عن المفهوم الشائع الذي كان يدرسه معاصروه لدلالة مصطلحي الأديب والأديب ، وتعريف ابن خلدون صدر عنه وهو في المغرب قبل انتقاله إلى مصر ، ولم يقدّر بالتعديل فيه بما يؤكد أنه هو التعريف عينه للذي قرره المصريون بالمصطلح نفسه ، ولم يكن اليمنيون بمختلفين عن أقرانهم في العالم الإسلامي قاطبة في مصادر العلوم والاتفاق حول مصطلحاتها ، ولهذا فإننا سنسقط تعريف ابن خلدون على الشريحة العلمية اليمنية بكل اطمئنان لنجد أن من ينطبق عليهم تعريف الأديب وشروطه من جمع وحصر لأشعار العرب وأخبارها ، وأخذ من كل علم من العلوم القائمة عموماً وعلوم العربية والشريعة القرآنية والحديثية بطرف ، وما يجمع عنه من تكوين ملكة إجادة الشعر والنثر ، سنجد أن من ينطبق عليهم هذا التعريف يمثلون شريحة واسعة جداً من علماء اليمن وطلبة العلم في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، فنور المخطوطات ومكتباتها الحاضرة

(١) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، ج ٢ من ١١٣٨ ، ١١٣٩ .

والعلماء تزدان بمنات الدواوين ، والمصادر التاريخية وكتب الطبقات مزدهرة بالاختصاصات والشواهد الأدبية من كلام المترجم لهم بما يعكس ازدهار الألب وانتشار الألباء على مجمل الساحة اليمنية من أقصاها إلى أقصاها .

ولكي نقوم برصد اهتمام اليمنيين في مدة الدراسة بالألب في شكله الرئيسي واهتمامهم به فلابد لنا من تناوله تحت عناوين رئيسيين هما (الشعر والنثر) كما يأتي :

الشعر :

الشعر في دلالته المجردة هو مصطلح يطلق على نوع محدد من كلام العرب له مبنى وتركيب معين ، فهو ذلك الكلام الموزون المقفى الذي تكون أوزانه على روي واحد وهو القافية^(١) ، وهذا التعريف ينحصر في الإشارة إلى شكل الكلام وتوزيعه ووزنه ومبناه الظاهري ، ولا يتطرق إلى جوهره ودلالاته المعنوية ، بمعنى أن كل كلام عربي موزون ومقفى فهو شعر وإن اتعمقت فيه المعاني القوية والمؤثرات التي تغذي نوي الذائقة الأدبية الرفيعة من المتلقين والباحثين في الشعر عن المعاني والدلالات ، وعلى هذا الأسس فإن اليمن منذ عهود الجاهلية قد أنجبت شعراء مجيدين فاق بعضهم أقرانهم وبظرفاتهم في العالم العربي ، وأقرب شخصية شعرية يمنية يمكن الإشارة إليها الشاعر الشهير امرئ القيس بن حجر الكندي الحضرمي صاحب ولادة من المعقلات .

وعلى مر التاريخ الإسلامي لليمن نراها تشهد نهضة أدبية وشعرية كبيرة ، ويرز من بين أبنائها شعراء فحول ، كما كانت المقدرة على نظم الشعر شائعة بين اليمنيين ، فقلما وجد من أعلامها - من خلال المصادر المتوافرة - من لا يشار إليه بعدم قول الشعر أو حبه وحفظ الكثير منه ، وهو السبب الذي جعل للشاعر يحتل منزلة سامية داخل المجتمع اليمني ، فقد كان بمثابة المنبر الإعلامي الذي يفوق تأثيره كثيراً من وسائل الترويج الأخرى ، وهو ما حدا بالأمراء والحكام والسلاطين والأئمة ووجوه المجتمع إلى محاولة كسب ولاء المبررين من الشعراء في طريق اكتساب من يصل تأثيرهم إليهم .

وقد تعددت أسباب ازدهار الشعر في القرنين التاسع والعاشر الهجريين وتتنوع بشكل كبير ، ونستطيع أن نحصر أهم الأسباب فيما يلي :

(١) القوي ، أجد العلوم ، ص ١٥٧ .

■ أسباب دينية عامة أو مذهبية وفكرية :

كان واضحاً في الفصول السابقة مدى التنافس المذهبي والفكري بين اليمنيين عموماً وكبار علماء المذاهب ورموزها العلمية خصوصاً ، وما ذكر سابقاً استمر على مدار القرون التالية ، وكانت الشريحة المنخرطة في إطار ذلك الصراع تتسع أحياناً لتشمل السليبيين والشعراء ، فكان الشعر يسجل حضوره في كثير من هذه الحلقات التنافسية ، وكان الشعر في هذا الباب في الغالب هو ما يصدر عن الفقهاء والعلماء جنباً إلى جنب مع مصنفاتهم ، كما كان بعض الشعراء يقوم بنظم للنصائذ الداعية إلى تدعيم بعض أسس الدين إجمالاً بدون النظر الضيق إلى رؤى المذهب وأفكاره ، كالحديث عن وحدانية الله تعالى أو الدعوة إلى التوكل والاحتساب ، وقد أسهم ذلك بشكل أو بآخر في ازدهار الشعر في اليمن في الأوساط العلمية ، ومنستعرض بعضاً من ذلك في الصفحات القادمة .

■ أسباب سياسية :

عند الحديث عن هذا السبب كواحد من عوامل ازدهار الشعر في مدة الدراسة هذه فإنه من اللازم علينا استحضار ما ذكر في الفصل الثاني من صور الصراع السياسي للرهب بين القوى اليمنية المختلفة والمتباينة في خلفيات وجودها وقيلامها للقبلية والمذهبية وغيرها وفي أسباب الصراع وحيثيات الصدام ، وعندها نقول : إن الشعراء كانوا أحد الأكتوات التي أقمحت في ساحات المعنوية للمعرك ، فقد كان الشاعر - كما سبق إيضاحه - أحد أبرز الوسائل الإعلامية الترويجية التي تقوم بصنع حالة من الفخامة والقداسة على الحاكم وعلى أهداف دخوله الصراعات ، كما أنه منبر هائل في السيل من الروح المعنوية لدى الطرب المقابل ، وقد رفع من مستوى المكانة التي احتلها الشعراء لدى الساسة في اليمن إن أولئك الساسة أنفسهم كانوا إما شعراء كبار لهم باع طويل في نظم الشعر ونقده ، أو أنهم من المتذوقين للشعر المقدرين لجمالياته وتأثيره ، ومن لديهم القدرة على تقدير غثه من سمينه .

كان البلاط الرسولي - على سبيل المثال - محقوقاً بالشعراء الكبار ، كما كان أولئك الشعراء محاطون بالرعاية والعناية ، وحظي كثير منهم بعباءات طائلة أثروا من خلالها كما سيأتي بيانه .

يضاف إلى ما مضى حالة الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي التي تمتعت بها أراضي العمق الرسولي والطاهري في أغلب الفترات ، وهي بدورها أفرزت توفر أجواء مشجعة للإبداع الأدبي عموماً والشعري خصوصاً ، وذلك هو ما دفع بروكلمان^(١) إلى القول بـ : " وقد ساعد الاستتباب الذي ساد اليمن إبان حكم الرسوليين والطاهريين على قيام نشاط أدبي فيض كان مركزه معاهد العلم في زبيد ، وهي على قصورها قد أبقت اليمن على صلات نشطة مع سائر الأصقاع الإسلامية " .

٦٨٠٢٨١

■ أسباب اجتماعية :

كان التركيبة الاجتماعية للمجتمع اليمني في مدة الدراسة - امتداداً لما كانت عليه في قرون سابقة - متنوعة ومتعددة الشرائح ، كما احتوت على عدة طوائف وفئات عرقية ودينية ، فمن الناحية العرقية كانت هناك الأغلبية للعظمى العربية الأصل المتجذرة في أرض اليمن منذ آلاف السنين ، وتتشكل في تجمعات قَبِيلَة متناثرة في أنحاء المساحة الجغرافية لليمن الطبيعية ، وتروحت مستوياتها المعيشية والاجتماعية بين العلو والانخفاض ، وتمايزت منازلها وتأثيراتها تبعاً لعوامل كثيرة ليس هذا المقام مناسب لعرضها ، فتشكلت منهم شرائح متعددة مثل : أرباب الدول من الحكام والسلاطين والأئمة والوزراء والأمراء والقادة العسكريين ، كما انحدر منها العلماء والقضاة والفقهاء ، والتجار والحرفيون والفلاحون ، ومن الناحية العرقية أيضاً وجدت في آخر السلم الاجتماعي طوائف للمماليك والعبيد والأخدام اللتان تميزتا - حتى اليوم - بلون وملامح خاصة بعيدة عن الملامح العلمية لأهل البلاد ، وينكر في الأخير لليهود ، للطائفة الدينية الوحيدة التي كانت تعود بديت وجودها وظهورها في اليمن إلى فترات تاريخية قديمة تعود إلى العهد الحميري ، وكانت - ولا تزال - حاضرة في اليمن في زمن الدراسة^(٢) .

(١) الأبيات اليمنية ، ص ١٤١ .

(٢) الحميري ، ملوك حمير وأقبال اليمن ، تحقيق علي بن سماعيل المؤيد وآخر ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٩٧٦م ، ص ٤٧ ، فضل علي أبو غانم ، القبيلة والدولة في اليمن ، دار المنار ، القاهرة ، ١٩٩٠م ، ص ١٧٩ ، ٢٤٤ ، أحمد فخري ، اليمن ماضيها وحاضرها ، بيروت ، المكتبة

وقد عاش الشعراء اليمنيون في القرنين التاسع والعاشر الهجريين في مجتمع يضم ذلك العدد من لفئات والشرائح المختلفة والمتباينة - نوعاً ما - وبما فيها من أصيل وبخيل ، وغني وفقير ، وحاكم جائر ، وسلطان أو بهام عالم عادل ، ويدوي متمرد ، وفلاح وبيع ، وكانت السمة الغالبة هي الصبر والتسامح ، فرغم ما يعانيه هذا المجتمع من فتن وحروب ومجاعات وكوارث ولوبنة إلا أنه استمتع بفرحاته وأعياده واحتفالاته الدينية والاجتماعية وغيرها ، وكان الشعر حاضراً بسجل ويؤرخ لتفاصيل غفل عنها لكبر المؤرخين كما سنرى قريباً^(١) .

■ أسباب أخرى :

من أسباب ازدهار الشعر أيضاً تتامخ التجارب الشعرية والأدبية بين الشعراء اليمنيين وغيرهم من الشعراء غير اليمنيين ، وتم ذلك من خلال ما استجلبه الشعراء اليمنيون من الدوليين الشعرية المشهورة خارج اليمن ، وقد يدهش البعض عندما يعلم أن خزانة كتب خاصة واحدة فقط كانت للفقير - وألعت الانتباه إلى كون الرجل فقيراً - عمر بن علي العلوي (٧٠٣هـ / ١٣٠٣هـ) قد حوت خمسمائة ديوان من دواوين الشعر^(٢) ، وكان لأدباء اليمن ولع واهتمام بدواوين شعراء العربية للكبار وبعدد من القصائد المميزة لبعضهم ، فكان بعضهم مضرب المثل في عصره في معرفة كتب الأدب وكثرة المحفوظات المنظومة والمنثورة ، حتى قيل أن محفوظاته من الشعر قد زادت عن عشرة آلاف بيت^(٣) .

ومن ناحية الشعراء أنفسهم كانت الخطوة التي لاقوها من عموم المجتمع وأعلامه سبباً ودافعاً كبيراً للتميز وإثبات الحضور ، فإن اشترك هذا العامل مع

اليمنية ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٩٨٨م ، ص ٣٥ ، عباس علي الشامي ، يهود اليمن قبل الصهيونية وبعدها ، سلسلة كتاب (المسيرة اليمنية) ، صنعاء ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨م ، ص ٤٧ ، د. شانت عبد سعيد ، الحياة الاجتماعية في اليمن في عهد الدولة الرسولية ، ضمن أبحاث ندوة الحياة العلمية والفكرية في عصر الدولة الرسولية ، جامعة عدن ، عدن ، ٢٠٠١م ، ص ٤٣ .

(١) يحيى محمد سنان ، الشعر اليمني في القرن التاسع للهجري ، ص ٦٢١ .

(٢) الخرجي ، الخطوة التوثيقية ، ج ١ ص ٢٩٥ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، الجندي ، السلوك ، ج ٢ ص ٢٩ ، بالحرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ص ٢٣٥ .

العامل السياسي إلا أننا هنا ننظر إليه بعين الشاعر نفسه لا بعين القائد والسلطان والحكم الذي تستغل موهبة الشاعر ، ومن المشهور أن ذلك كان بمفهوم حياة رغبة وعيشة مريحة لم ينفها كثير من أبناء المجتمع ، وتشهد بذلك المصادر التاريخية والأدبية المتوافرة^(١) .

وقد تعددت أغراض الشعر اليمني في القرن التاسع والعاشر الهجريين فشملت كل ما عرفته العرب من أغراض المدح والفخر والهجاء والغزل والرثاء وغيرها ، كما كان الشعر السائد آنذاك على صريين ، الأول : شعر فصيح بليغ يتقيد بالقواعد الصرفية والعروضية أطلق عليه بعض الباحثين (الشعر الحكيم)^(٢) وهو الغالب في نظم الشعراء ، والثاني : شعر ملحون تظهر عليه بعض صور لتكسير الأوزان الخليلية ، ولا يلتزم بقواعد الإعراب ولا المصطلحات والاشتقاقات الصرفية والعروضية التي تحويها أدبيات الأندلس العربي ، وتظهر فيها العديد من المفردات العلمية للدارجة ، وهو ما يعرف بـ (الشعر الحميني) ، وكان لبعض شعراء زييد وكوكبان دواوين كاملة منه ، وذهب البعض إلى أن (الشعر الحميني) كان جُلّ نظمته في الغناء والأشيد^(٣) .

ويمكننا حصر مجالات الشعر اليمني وأغراضه في عدد من الفئات ، مع ملاحظة أن التحرر من استخدام المصطلحات التي اعتاد النقاد ودارسو الأدب على استخدامها وإطلاقها على أغراض الشعر العربي في عومه جاء من منطق مسابقة ما وفرت المصادر المتوافرة لدينا من مادة أدبية ، وهذه هي الفئات التي يندرج تحتها شعر اليميين في مدة الدراسة :

(١) وطبوط ، تاريخ المعظم وطبوط ، سورة من ساحة والمكة المركزية ، جامعة صنعاء ، ق ٤٣ - ١ ، ديوان المقريئ ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٤٠ ، بانخرمة ، قلعة النهر ، ج ٣ ص ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ .

(٢) عبد الله قلند العبادي ، الحياة العظيمة في زييد ، ص ٣٣٢ .

(٣) عبد الله قلند العبادي ، المرجع السابق ، ص الصفحة ، يحيى بن الحسين ، غنية الأسامي ، ص ٥٧١ ، الشامي ، تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي ، ج ٤ ص ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، الحصري ، جامعة الأشاعر ، ص ٧٣ .

■ (١) الشعر الديني (أدب الفقهاء) :

معظم ما وصل إلينا من شعر اليمنيين في القرنين التاسع والعاشر الهجريين في هذا الباب هو من منظومات الفقهاء والعلماء أنفسهم ، وندر ما جاء فيه من قصائد لشعراء لغيرهم ، خاصة أن ما يمكن أن يقال في الشأن الديني يستلزم إحاطة بأجديات العلم - كجد أدنى - التي تقي الشاعر من الزلل فيما لا مجال فيه للخطأ ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن الشعراء من غير الفقهاء انصرفوا إلى الاهتمام بأمور أخرى بسبب عوامل متعددة ذكرناها آنفاً ؛ ولهذا نجد أنفسنا مضطرين إلى إطلاق هذا النوع من الشعر بـ (شعر الفقهاء) أو (أدب الفقهاء) ، ولا نغفل عن لفت الانتباه إلى أنه بالرغم من قدرة كثير من الفقهاء على قول الشعر إلا أنه من النادر أن عثر لهم على دواوين كاملة ، وأغلب ما وصلنا من أشعارهم هو نتف بمسيرة متناثرة في مصادر للتاريخ وكتب التراجم ، وكثير منه محصور في أغراض محددة كثناء شيخ أو قريب ، أو عتاب لأستاذ أو زميل أو أمير ، أو مناجاة وتوسل لله عز وجل ، أو تمجيد ومدح للذات العلية سبحانه وتعالى وما في حكم ذلك ، أو ما يصنف في إطار التنافس المذهبي الطائفي .

ومن مميزات الشعر في هذا الباب أن معظمه يتميز بالالتزام بالأخلاق الإسلامية والاجتماعية العامة ، فقلَّت فيه شواهد المديح المفرط والمعي للتكسب به أمام أبواب السلاطين ولرباب الدولة^(١) ، ولعل مرد ذلك إلى ارتفاع مستوى الوعي لدى الفقهاء بالموانع الشرعية وبعواقبها المترتبة عليه كقوله تعالى : **وَالشُّعْرَاءُ يَقِيْمُهُمُ الْغَاوُونَ** ﴿٥٠﴾ **أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيْمُونَ** ﴿٥١﴾ **وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ** ﴿٥٢﴾ **إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيْرًا** - ﴿٥٣﴾^(٢) ، كما أنه يتميز أيضاً باحتوائه على الكثير من اللفظات العلمية والحكم التربوية .

وأهم جانب من جوانب أدب الفقهاء هو قيام عدد منهم بنظم الكتب المشهورة التي كانوا يتداولونها بينهم درساً وتديساً ، وذلك في إطار المعى لتسهيل دراستها وحفظها ، فنظمت كثير من الكتب على أيديهم ، وقد تضمن الفصل السابق وسيتضمن

(١) الحبشي ، حياة الأديب اليمني في عهد بني رسول ، ص ١٥٥ .

(٢) سورة الشعراء .

الفصل للقائم عدداً لا بأس به من المنظومات التي وردت ضمن تراث علماء اليمن ، وقد بلغ بعضها من الطول إن زاد عدد أبياتها على خمسة آلاف بيت^(١) .

ومن أشهر الفقهاء الذين خلفوا دواوين - تم العثور عليها - تضم أغلب ما نظموه من الشعر ، لو وردت الإشارة إلى أن ثمة دواوين قد جمعوا فيها أشعارهم ، يأتي العلامة عبدالرحمن بن محمد بن يوسف العلوي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) ، والإمام عبدالرحيم بن علي البرعي الهاجري الصوفي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) ، والعلامة الأديب - حريزي الزمان - برهان الدين إبراهيم بن إسماعيل الجحافي (ت ٨١٠هـ / ١٤٠٧م) ، والإمام المؤرخ أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م) ، والفقير الأديب الشاعر علي بن محمد بن إسماعيل الفاشري (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م) ، والعلامة يوسف بن عمر العطاب (ت ٨١٦هـ / ١٤١٣م) ، الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير (ت ٨٢٢هـ / ١٤١٩م) ، الأديب عبدالله بن أبي بكر المزاح (ت ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م) ، أحمد بن عمر القيزم (ت ٨٣٥هـ / ١٤٣١م) ، والإمام إسماعيل بن أبي بكر بن عبدالله المقرئ (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) ، تقي الدين أبو حفص عمر بن أبي القاسم بن عمر بن أبي القاسم بن معبيد الشهير بالنقي ابن معبيد (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م) ، والإمام محمد بن إبراهيم الوزير (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) ، والعلامة علي بن أبي بكر الفاشري (ت ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م) ، والأديب علي بن محمد بن الحسن بن عيسى بن العليف (ت ٨٤٧هـ / ١٤٤٣م) ، وأخيه الأديب حسين بن العليف (ت ٨٥٦هـ / ١٤٥٢م) ، والعلامة عبدالرحمن بن إبراهيم بن إسماعيل العلوي (ت ٨٧٠هـ / ١٤٦٥م) ، والذاعي الإسماعيلي المطلق صمد الدين إدريس بن الحسن القرشي (ت ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م) ، والعلامة عبدالله بن محمد النجري (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) ، والعلامة يحيى بن المطهر بن محمد بن سليمان الحمزي (ت ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م) ، والفقير للمتصوف عمر بن عبدالرحمن بن محمد السقاف (ت ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م) ، والفقير العلامة أبو بكر

(١) هي منظومة (تحفة لطلاب في منظومة الإرشاد) التي وضعها الإمام أحمد بن عمر المرجد (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) على كتاب شيوخه الإمام إسماعيل المقرئ الموسوم بـ (إرشاد معاوي في مسائل الحاوي) في فقه الشافعية ، وقد بلغت خمسة آلاف وثمانمائة وأربعين بيتاً ، المديون ، الثور السقاف ، ص ١٢٩ .

بن محمد بن أبي بكر الحرصي (ت ٨٩٤هـ / ١٤٨٨م) ، والفقيه الصوفي علي بن أبي بكر السقاف (ت ٨٩٥هـ / ١٤٨٩م) ، والفقيه الأديب الصوفي أبو بكر بن عبدالله العبدروس (ت ٩١٤هـ / ١٥٠٨م) ، والفقيه الشيخ عبدالله بن أبي بكر بن عبدالله باشميلة (ت ٩١٦هـ / ١٥١٠م) ، الشيخ الفقيه للصوفي محمد بن علي بن إبراهيم الشهير بعبدالله الهادي السوداني (ت ٩٣٢هـ / ١٥٢٥م) ، والفقيه الأديب موسى بن يحيى بهران (ت ٩٣٣هـ / ١٥٢٦م) (١) .

فمن أشعار الفقهاء في تعظيم الله تعالى ومدحه ، وذكر بعض أسمائه وصفاته يقول الإمام عبدالرحيم البرعي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) :

مَلِكٌ تَدِينُ لَهُ الْمُلُوكُ وَيُنْتَجِي	يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَرُّهُمْ بِفَنَاءِ
هُوَ أَوَّلُ ، هُوَ آخِرُ ، هُوَ ظَاهِرُ	هُوَ بَاطِنٌ لَيْسَ الثَّيُّونَ تَرَاهُ
خَبِيئَةُ أَسْرَارِ الْجَلَالِ فَتَوَسَّ	تَقَبُّ الظُّنُونُ وَتُخْرَسُ الْأَفْوَاهُ
صَفَةً بَلَا كَفْوَ وَلَا كَيْفِيَّةَ	أَبْدًا ، لَهَا النَّظَرُ وَالْأَشْبَاهُ (٢)
شَهِدَتْ غَرَائِبُ صَنَعِهِ بِوُجُودِهِ	لَوْلَاهُ مَا شَهِدَتْ بِهِ ، لَوْلَاهُ (٣)

وله أيضاً في الغرض نفسه :

سُبْحَانَ مَنْ عَنَتِ الْوُجُوهُ لَوَجْهِهِ	وَلَهُ سُجُودٌ ، أَوْجَةٌ ، وَجِبَاءُ
مَطْوَعًا وَكَرْهًا خَاضِعِينَ لِعِزِّهِ	قَلَّةٌ عَلَيْهَا الطُّوْعُ وَالْإِكْرَاءُ
سَلَّ عَنَهُ ذَرَاتُ الْوُجُودِ فَاتَّهَمَا	تَدْعُوهُ مَعْبُودًا لَهَا ، رُبَّاءُ
تَجْرِي الرِّيَّاحُ عَلَى اخْتِلَافِ فُتُوبِهَا	عَنِ إِنَّهِ وَالْفُلُكِ وَالْأَمْوَاءُ
رَبُّ رَحِيمٍ مَشْفُوقٌ مَنَعُظٌ	لَا يَنْتَهِي بِالْحَصْرِ مَا أُعْطَاءُ (٣)

ومن أشعارهم في الإشارة إلى صفات الله تعالى ومدحه والدعوة إلى توحيده وتعظيمه يقول الإمام محمد بن إبراهيم الوزير (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) :

والعِزُّ من لُوصَافِهِ فَاتْرَكَ جَمِيَّ
لِلْعِزِّ تَرْعَاءُ مَخْلُوقَاتِهِ

(١) انظر عناوين هذه نواوين هؤلاء الفقهاء ولما ذكر وجود نسخها المخطوطة والمطبوعة عند الحبشي .
مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٢٢ - ٤٢٨ .

(٢) ديوان عبدالرحيم البرعي ، دار النكت الثقافية ، صنعاء ، (د ، ت) ، ص ١٠ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

ما كان يُطْلَعُكُمْ عَلَى الْغَيْبِ الَّذِي
يَا مُسْتَرِيْباً فِي الْوُجُودِ جَنَّتْ عَلَى
كَيْفِ التَّوَلَّى عَنْ تَوَلَّيْهِ لَنَا
مَا حَامِلٌ لِلْكَوْنِ يَمُدُّ وَجُودَهُ
مَا تَحْتَهُ ، مَا فَوْقَهُ ، مَا الْمُنْتَهَى
يَخْفَى ، بِهَذَا صَرَّحَتْ آيَاتُهُ
مَعْقُولِهِ الدَّعْوَى وَمُسْتَبْهَاتُهُ
وَجَمِيعُ ذِي الْأَكْوَانِ مَحْمُولَاتُهُ
فِي الْجَوْ صَنَعَ عَلَى الْهَوَاءِ ثَبَاتُهُ
مَا أَنْتُمْ إِلَّا اللَّهُ لَوْ كَلِمَاتُهُ^(١)

وله أيضاً في الوقوف على بعض أسماء الله الحسنى التي تتجلى من خلالها
العظمة والسعة المتناهية في الكرم قوله :

سَمِعَآ حِينَ أَدْعُوهُ عَلِيْمَآ
رَحِيْمَآ وَسَمِعَآ عَلَيَّكَ رُؤُوفَآ
إِذَا فَاجَأْتَنِيهِ وَاللَّيْلُ دَاجٍ
وَيَسْمَعُ حِينَ أَدْعُوهُ خَفِيْثَآ
وَيَسْعَى إِنْ أَتَيْتُ إِلَيْهِ مَشِيْآ
وَيَلَطُّ بِي وَيَعْطِفُ بَعْدَ بَغْدِي
وَكَمْ مِنْ لَيْلَةٍ أَمْسَى غُفُورَآ
مُجِيبَآ لَسْتُ أَخْشَى مِنْهُ لَيْثَآ
كَرِيْمَآ وَاحِدَآ بَرَّآ حَيِيْثَآ
لُجْلَبَ وَلَمْ يُنَاعِدْنِي نَجِيْثَآ
وَيَرْحَمُ حِينَ أَتَيْهِ لَجُوثَآ
وَيَسْتُرُ حِينَ يُصْبِرُنِي مُسِيْثَآ
وَيَمْلَأُ مِنْ أَيْدِيهِ بَدَنِي
يُسْتَرْكِي وَيَبْتَ يَهَا هَوِيْثَآ^(٢)

ومن أشعار الفقهاء الرائعة في مناجاة الله جل وعلا ما ورد عن الفقيه العلامة
الشهاب أحمد بن مطهر بن موسى الحميري الموسوي (ت بعد ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م) ،
قال مناجياً ربه :

سَأَلْتُكَ يَا اللَّهُ يَا سَامِعَ الْقَدَا
وَيَا مَنْ لَهُ النِّعْمَاءُ وَالْجُودُ وَالْجَدَا
بِحَقِّكَ يَا مَنْ أَمْلَأَ صَدْرِي سِرِّي
وَحَقَّقَ رَجَائِي وَأَتَى نَفْسِي لَهَا الْهُدَى
وَكُنْ لِي كُنْ لِي مُعْطِيَا وَمُلَاطِفَا
شَفِيقَا رَفِيقَا وَأَحْمَ رُوْحِي مِنَ الرَّذَى

(١) ديوان محمد بن إبراهيم الوزير ، عناية على بن إسماعيل المؤيد وآخر ، المطبعة السليمانية ، القاهرة ،
١٣٨١هـ / ١٩٦١م ، ص ٢١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٥ .

وَالْيَسْرُ يَسُرُّنَا وَالرُّشْدُ فَأَهْدِنَا
وَبِالْعَفْوِ سَامِحًا لَدَى فَلَاقَتِي عُدَا^(١)

وهذا هو للقاضي وجيه الدين عبدالرحمن بن محمد النحواني
(ت ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م) ممن يرفضون الوقوف على أبواب الحكام ، وينفر من ذلك
جداً ، وقد قال ناصحاً غيره من العلماء الذين يراهم يترددون على أبوابهم :
اتَّقِ نَعْرَ ، وَلَا قَنَاعَةَ فِي نَعْرٍ^(٢)

إِلَّا إِذَا اسْتَبَدَلَتْ عَنْهَا أَرْضَ عَيْرٍ

لَا خَيْرَ فِي خَيْرٍ يُنَالُ بِنَيْلَةٍ
وَالْخَيْرُ فِي خَفَضٍ إِذَا هُوَ جَا بَعْرٍ

فَإِذَا كُنَعَتْ وَلَمْ تَكُنْ تَأْتِي إِلَى
الْمَلِكِ الْعَزِيزِ^(٣) فَإِنَّكَ الْمَلِكُ الْمُعِزُّ^(٤)

كان الفقيه اللغوي وجيه الدين عبدالرحمن بن عمر الراعي المشهور بالعطاب
(ت ٨٦٤هـ / ١٤٥٩م) عارفاً بعلم العربية ، محققاً لعلم المعاني والبيان ولوزن الشعر
وبحوره ، وكانت له قريحة مطواعة ، وأشعاره كثيرة ، وله في المدح للكبراء والأمراء
قصائد كتبها بخطه للحسن الذي اشتهر به ، فأجازوه حتى ائزى وكثر ماله ، واستطاع
أن يقضي كل ديونه ، ولما كانت مدائحه في غاية الفصاحة أنكر بعضهم نسبتها إليه ،
وخاصة إحدى قصائده الغرر التي مدح بها الإمام الزيدي المنصور بالله علي بن الإمام
الناصر صلاح الدين (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) مما قاله ردأ عليهم :

وَقَالُوا سِنَّهُ مِنْ صَنْغِيرٍ

(١) البريهي ، طبقات صلاح الدين ، ص ٣٧ .

(٢) نعر الأولى فعل عكسه : نعل ، و نعر الثانية اسم المدينة اليمنية الشهيرة التي اتحدتها الرسولين
عاصمة لهم ، والفقيه ها يعرض بها باعتبارها مدرك السلطان وموطن عرشه ، لذلك نجد الأولى كلمة (فعل)
معربة قابلة للتصريف ، وتجد الثانية اسماً غير متصرف .

(٣) المقصود بالملك العزيز هنا الحاكم كائناً من كان ، وهو لا يقصد حاكماً من الحكام بعينه ، والعزير
ولمعر لقاب لاثنين من أشهر الخلفاء العاطميين .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩١ .

وَلَيْسَ يُجِيزُ فِي الشَّعْرِ النَّظْمَا
 وَمَا عَلِمُوا بِأَنِّي بَلِّتُ فَخْرًا
 لَوْ أَنَّ بَلَّغْتُ مِنْ عُمْرِي الْعِلْمَا
 وَأَنِّي الْيَوْمَ لَفَجِمُ كُلَّ فَذٍّ
 وَمَا وَفَّقْتُهَا عَشْرِينَ عِلْمًا^(١)

ومن عجب أن نجد له - وهو أحد الفقهاء المعنودين - قصيدة في الخطاب بين محبوبيين موصوفة بالجمال الفائق ، ضمنها بعض ما يمكن أن يعد مبالغة غير مستساغة، ولولا تلك المبالغة لعدت القصيدة - على قصرها - من الروائع في الشعر اليميني ، يقول فيها :

وَلَمَّا خَذَا الرُّكْبَانُ لِلْبَيْتِ عَيْنَهُمْ
 وَأَمَّوْا بِهَا الْبَيْتَ الْعَبِيْقَ الْمُسْتَرَا
 أَتَيْتُ إِلَى هَذَا أَرِيْذٍ وَدَاعِيَا
 وَنَارُ الْجَوَى فِي الْقَلْبِ تَكُونُ نَسْعَرَا
 فَرَأَعْتُ فَوَادِي بِالنِّكَاحِ وَأَتَمَسَدْتُ
 وَأَتَمَعْتُهَا تَحْكِي الْحَيَا الْمُتَحَدَّرَا :
 أَيَا زَلَّزِلْ لِبَيْتِ الْعَبِيْقِ وَتَارِكِي
 أَقْلَسِي الْهَوَى، لَوْ زُرْتَنِي كَانَ أَجْزَرَا
 تَخَجُّ احْتِمَابًا ثُمَّ تَقْتُلُ عَاشِقًا؟
 فَذِيْنِكَ لَا تَخْجُجُ وَلَا تَقْتُلِ الْوَرَى^(٢)

ومن شعر الفقهاء ما يندرج في إطار التناقض المذهبي ، ومثاله تلك القصيدة التي نظمها الفقيه الأديب أحمد بن القاسم الشامي في لوم الأئمة الزيدية على الخسلاف والصراع الدموي فيما بينهم ، ويحريضهم على الطاهريين ويُعرِّضُ بالمذهب الشافعي ، ويلمح إلى أنه يبيع بعض المحرمات عندما قال :

(١) البرهني ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٤٠ .

(٢) وقيل أن البيهقي الشاعر بمشني يقال له (الولواء) ، المصدر السابق ، ص ٢٤١ .

هلا سالت مطهراً وصلاً^(١)

هل خصلاً للمسلمين صلاً

لم جهزاً جيشاً لبثدة طاهر^(٢)

يزوي للتراب بها نقاً متفاحاً^(٣)

والتعريض بالمذهب الشافعي جاء فيه واضحاً - تحميد الشاعر الشامي شطحات
الصوفية ومجالس سماعهم على الفقه الشافعي نفسه ، إضافة إلى التقدير من بعض
تفصيلات الفقه التي ترد في كتب الفقهاء بما فيهم الشافعية باليمن ، إذ قال الشامي -
بعد أن عدّد المناطق التي بسط عليها السلطان المجاهد علي بن طاهر (ت ٨٨٢هـ /
١٤٧٨م) نفوذه - :

بذلك التي كانت لآل محمد

صينقاً وهم فيها مناً وصنلحا

فقطا عليهم شافعي سالك

في مذهب ، لكن فيه صنلحا^(٤)

فيه البذاء مع البراعة جائز

والطائر والشطرنج صنلحا

(١) مطهر وصلاح ، هما : الإمام المتوكل على الله المطهر بن محمد بن سليمان بن محمد الحمزي كانت
إمامته في المدة ما بين (٨٠١هـ - ٨٧٩هـ / ١٣٩٩م - ١٤٧٤م) والإمام المهدي لدين الله صلاح
بن علي بن محمد بن أبي القاسم (. - ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م) ، وقد كان هناك تدخل وتعارض بين
إمامة هذين لإمامين مع وجود إمام ثالث هو الإمام المنصور بالله الناصر بن محمد بن أحمد بن الإمام
المطهر بن يحيى (... - ٨٦٧هـ / ١٤٦٢م) ، وقد سبق تفصيل كل ذلك في الفصل التالي من هذه
الدراسة .

(٢) بلدة طاهر يقصد بها ما افتتحه هو طاهر في بداية دولتهم ، وهي مناطق ورد ذكرها في القصيدة .

(٣) البرهبي ، طبقات سلحاء اليمن ، ص ١١٣ .

(٤) اعتاد اليمنيين حتى يوم الناس هذا على وصف من يقوم بارتكاب المحظورات والتساهل في أمرها
بأن : " مذهبه مسيح " ، وهو ما ألمح به الشاعر في الأبيات بأن المذهب الشافعي لمسيح لتساهله - في
نظره - في أمور ثابتة حرمتها لديه .

وَكَذَا الْمُنْعَاعَ تَأَلَّفَتْ أَصْنَافُهُ
 مِنْ مَطَرِبَاتٍ تُخْبِثُ الْأَفْرَاحَا
 وَأَحْلَلْ لِلنَّاسِ الضَّبَاعَ مَكْلَبَا
 وَخُيُولَهُمُ وَالثُّغْلَبَ الصَّيْلَحَا
 هَلْ رَيْكُمُ قَالَ: ارْقُصُوا وَتَسَاقُطُوا!^(١)
 وَأَحْلَلْهُ وَجَدَا لَكُمْ وَلَهْلَحَا
 مِنْ شَاءَ طَارَ إِلَى السَّمَاءِ بِزَعْمِهِ
 شَوْقًا فَلَا يُحْتَاجُ فِيهِ جَنَاحَا^(٢)

وقد اغتاض المقرئ شمس الدين علي بن أبي بكر السحولي الشافعي (ت ٨٥٢هـ — / ١٤٤٨م) من تلك الأبيات كثيراً - وقد كان ذا معرفة بعلوم كثيرة ، شرعية وتطبيقية ، وكان شديد التعصب ضد الزيدية ، لأنه يرى أنهم من أهل البدع - فيادر إلى التعقيب على الفقيه الشاعر أحمد الشامي ، فكان مما قاله بالوزن والقافية وللروي نفسه - :

بَلْ أَنْتُمْ لَذِ صِرْتُمْ فِي خَيْرَةٍ
 لَا تَقْدِرُونَ تَصْنَحُونَ نِكَاحَا
 إِنْ قُلْتُمْ بِمُطَهَّرٍ فَصَلِّحْكُمْ
 يَتَغَيَّ إِلَى تَصْنِيزِ ذَلِكَ مِيفَاحَا
 وَكَذَا يَقُولُ النَّاصِرُ بْنُ مُحَمَّدٍ
 وَهُوَ الْإِمَامُ وَإِنْ يَكُنْ مِيزَاحَا^{(٣)(٢)}

(١) القصيدة بتمامها لدى الزحيف ، مآثر الأبرار ، ج ٣ ص ١١٣٢ ، ١١٣٣ ، وبعضها لدى الشرفي ، اللآلئ المضيلة ، ص ٥٢٢ .

(٢) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١١٣ .

(٣) موصوع الأبيات يتحدث عما جرى في ثلثي الصراع لواقع بين الأئمة الزيدية المتعارضين ، وخاصة قيام بعض أعيان صعدة سنة (٨٤٩هـ / ١٤٤٥م) بترويج فكرة صحح نكاح الإمام الناصر بن محمد علي الشريفة بدره بنت محمد بن علي أمام الإمام المتوكل المطهر بن محمد بن سليمان الحمزي ، وكانت فسي صعدة وزوجها مشغول ببعض الحروب مع خصومه بعد عنها ، وكانت حجة المروجين لفكرة لصحح نكاحها أن الإمام الهادي يحيى بن الحسين - مؤسس مذهب الزيدية في اليمن - كان يشترط عدالة شاهدي عقد الزواج ، وقالوا بل شاهدي رواج الناصر بن محمد علي الشريفة بدره غير عدلين ، فصحح النكاح

ونرى المصادر الزيدية تعكس إلى حد كان يلعب بعض الشعراء من فقهاء دور المحرض للأئمة الزيدية على منافسهم ، وكان من أكبر المحرضين في مدة دراستنا الفقيه الشاعر أحمد بن القاسم الشامي نفسه ، وقد رصد المؤرخ الزيدي الزحيف^(١) دوره - من خلال قصيدة بليغة - في تغيير رأي الإمام المنصور بالله على بن الناصر صلاح الدين (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) المتعلق بقبول الصلح مع الإسماعيلية في حصن ذي مرمر سنة (٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) ، مما أدى إلى إصرار الإمام على الحصار حتى اضطرت الإسماعيلية إلى تسليمه في آخر المطاف ؛ ولذا قال المصدر^(٢) عن هذا الشاعر : " وكتب إليه - أي : إلى الإمام المنصور - الفقيه أحمد الشامي من صنعاء ، وكان شاعراً مطلقاً يكره الإسماعيلية وغيرهم من أعداء أهل هذا المذهب الشريف ، وحثه بهذه القصيدة على مدلومة الجهاد والحصار لأهل الزيف والفساد ... وكان الفقيه أحمد الشامي نقمة على الإسماعيلية ، لا يكف عن الإغراء بهم ... " ، ثم لورد قصيدة له تتضمن التشهير بهم والتحريض بهم ، ومما قاله فيها :

سَلَا عَنْ أُمُورِ الْبَاطِنِيَّةِ مَنْ يَذْهَبُ
يُخَذِّتُكُمْ بِالسُّرِّ مِنْهَا وَبِالْجَهْرِ
لَقَدْ أَظْهَرُوا الَّذِينَ الْخَنِيْفَ وَأَبْطَنُوا
مَنْ الْكُفْرِ مَا يُخْلِي السُّحَابَ عَنِ الْقَطْرِ
وَكَمْ قَاتِلٍ لِي : كَيْفَ كَفَّرْتَ فِرْقَةً
عَلَى مِلَّةِ الْإِسْلَامِ فِي ظَاهِرٍ لِأَمْرِ
فَقُلْتُ لَهُ : إِجْمَاعُ أُمَّةٍ أَحْمَدُ
وَإِجْمَاعُ أَهْلِ الْبَيْتِ دَلَالَةٌ عَلَى الْكُفْرِ

وَلَا بُدَّ مِنْ يَوْمٍ مَسْجُودٍ مُبَارَكٍ

وتزوجها الإمام المتوكل المطهر الحمزي ، حمص زوجها الأصلي الناصر ، انظر يحيى بن الحسين .
غاية الأمان ، ص ٥٨٢ ، ٥٨٣ .

(١) مآثر الأبرار ، ج ٢ ص ١٠٥٩ - ١٠٦١ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٠٥٩ ، ١٠٦١ .

لَهُ لَيْلَةٌ غَرَّاءَ كَمَا لَيْلَةُ الْقَسْرِ
يَسِيرُ بِهِ الْجَيْشُ الْمَرْتَرَمُ لَابِساً
مِرْلَيْلٌ مِنْ نَقَعٍ يَلْوِيهِ خُرُ
فَيَنْصِبُ جَرْبِلًا^(١) وَيَقْصِمُ أَهْلَهُ
بَنِي مَكْرَمٍ^(٢) أَهْلَ الْمَكِيدَةِ وَالْمَكْرِ
فَهُمْ عُمْدَةُ الدَّاعِي الْحَبِيثِ وَهُمْ لَهُ
سُيُوفٌ نَضَاهَا لِلْعِدَا تَقْرِي^(٣)

■ (ب) الشعر السياسي :

كان الشعر السياسي في الغالب ديواناً لتسجيل ما أغفل المؤرخون تسجيله والالتفات إليه ، فكان للشعر فعلاً (ديوان اليمن)^(١) ، ولهذا فهو يتضمن مادة غنية بالتفاصيل التي لا ترد في المصادر التاريخية عن الحياة السياسية ، وخاصة فيما انتفع الشعراء لتسجيله من قصائد في مدح المنتصر ودم المنهزم وهجاء أعداء الحاكم - ذي النعمة عليهم - ورصد بعض صور الهزيمة ، والتعدي بالمتنرد ، ومنها ما نظمته الحكام والأئمة أنفسهم بهدف التحريض لأعوانهم على الدهوض واستتفادهم للنصرة .

(١) جَرْبِلَان : هي قرية صغيرة من صواحي صنعاء ، كانت إحدى مراكز الإسماعيلية في مدة الدراسة ، وأهلها اليوم كلهم زيدية .

(٢) (بني مكرم) هي إحدى التسميات التي يطلقها اليمنيون على الإسماعيلية ، ولم تَلَف في المصادر إشارة تذكر سبب إطلاقها عليهم ، ويبدو لي أنها نسبة إلى السلطان المكرم الصليحي ، والإسماعيليون أيضاً يطلقونها أحياناً على أنفسهم حتى تاريخنا المعاصر ، غير أن غيرهم يتلفظ بها بفرض انتهكم والسخرية منهم لأنها أصبحت في العرف الاجتماعي - لدى كل اليمنيين من غير الإسماعيلية - كلمة بقصد بها معاني التنسخ الأخلاقي والتحلل من القناعات الشرعية والاجتماعية ، وقد أورد أحد الباحثين رأياً يقول بأن (مكرم) اسم لقبيلة يمنية حميرية ينتسب إليها زعماء الإسماعيلية باليمن ، انظر أحمد بن مسافر الشيباني ، دهليزة اليمن - تحقيقات ومطالعات في ملف الإسماعيلية ، دار البشير ، عمان ، ط ١ ، ٢٠٠٢م ، ص ١٧ - ٢٣ .

(٣) الزحرف ، مآثر الأبرار ، ج ٣ ص ١٠٦٣ - ١٠٦٧ .

(٤) على وزن المقولة الشهيرة (الشعر ديوان العرب) .

من ذلك على سبيل المثال تلك القصيدة التي سجل فيها الإمام إسماعيل بن أبي بكر المقرئ (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) للعلاقة الدائمة المتأزمت بين السلطان الظاهر يحيى الرسولي (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) وبين قبيلة المعازبة التي اعتادت إحداث الفوضى وركنت على عفو السلطان وإغضائه عنها ، ظناً من رجالها أن بُعد مساكنهم وصعوبة الوصول إليها وتسامح السلطان سيجعله يتغاضى عنهم وينام عن تأديبهم ، وكيف فاجأهم السلطان بغزوه لهم ، وما أثبتته من شجاعة كبيرة ، وإقدام لا يبالي أو ينظر إلى صعوبة الوقت واشتداد الحر ، فقال الإمام المقرئ مسجلاً ذلك :

وَوَيْلٌ لِّأَعْرَابٍ طُغَمَ تَعَوُّدُوا

من المتَّصِدِّي والملوكِ التَّغاضِيَا

لِئَبْدٍ مَّنْلُوبِهِمْ وَسُوءِ مَعَالِيهِمْ

وطَّرَقَ بِهَا الْخَرِيتُ^(١) يَصْبِحُ غُلُوبَا

وظَنُّوكَ نَرَاماً عَنِ النَّارِ مَوْثِرَا

مُنَاجَاةً قَوْمٍ يُؤَثِّرُونَ الْمَلَاهِيَا

فَالْفَوْكُ أَهْدَى فِي الْفَيَافِي مِنَ الْقَطَا

وَأَصْنِيرُ مِنْ ضَنْبٍ عَلَى الْمَاءِ صَادِيَا

أَسَاعُوا كَمَا اعْتَانُوا وَلَزَخُوا بِنَابِهِمْ

وَلَمْ يَخْشَوْا مُسْتَبْعِدِينَ التَّغاضِيَا

يُرَاعُونَ أَنْ تَمْشِيَ الْوَسَائِلُ بَيْنَكُمْ

وَتَقْبَلُ مِنْهُمْ مَا تَسْفَى ، تَمَادِيَا

فَمَا رَاعَهُمْ إِلَّا النَّذِيرُ أَتَاهُمْ

هَرَبَتْ خُرُوبٌ لَا يَمِلُ الْمَغْزِيَا

سِوَاءَ عَلَيْهِ الصَّبْحُ وَاللَّيْلُ إِنْ غَزَا

وَبَرَدُ الْعَشَايَا وَالْخُرُورُ مَلَقِيَا

فَقَرُّوا خِفَافاً وَهِيَ مَلَأَى بُيُوتَهُمْ

فَمَا بَقِيَ إِلَّا فَارِغَاتُ خَوَالِيَا

(١) الليل الحلق ، ابن منظور ، ج ٢ ص ١١٢٤ .

وَعَنْتَ وَلَمْ تَلْبَثْ ، وَلَوْ شِئْتَ قَتَلَهُمْ

لَمَا كَانَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ مِنْكَ تَاجِياً^(١)

ومن الشعر السياسي تلك التي القصيدة التي نظمها الإمام المنصور بالله محمد بن علي الوُشَلِّي السراجي (ت ٩١٠هـ / ١٥٠٤م) يهدد فيها السلطان الظاهر الثاني عامر بن عبدالوهاب الطاهري (ت ٩٢٣هـ / ١٥١٧م) في غمرة صراعهما على صنعاء ، فقال الإمام الوُشَلِّي :

عَمِمَا خَلَلْنَا بِإِ لَمْ تَرَوْهَا
وَأَنْتُمْ بَيْنَ أَيْدِينَا نَعَامُ
وَنَجَزِيكُمْ بِمَعْلِكُمْ قَدِيمًا
جَزَاءَ لَا خَفَاءَ وَلَا انكِتَامُ
سَيَهْزَمُ جَمْعُكُمْ يَوْمَ التَّلَاقِ
وَلَا يُغْلِي عَنْ الْقَتْلِ انْهِزَامُ
وَلَكِنَّا سَنَقْتُلُ مَنْ لَرَنَّا
وَنَأْبِرُ مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُصَامُ
وَتُتْرَقُ لَرَضْنَا بِالْعَتْلِ فِيهَا
وَيُنْفَى الظُّلْمُ إِذْ حَصَلَ الْمَرَامُ
وَنُخَذُ رُبُّنَا وَنَقُولُ بَعْدًا
لَأَهْلِ الظُّلْمِ إِذْ حَصَلَ الْمَرَامُ
كَمَا بَعِثْتُ ثَمُودَ وَقَوْمَ عَادٍ
وَأَهْلَ الْأَيْكَةِ الْقَوْمَ اللَّئِيمَ^(٢)

ومنه كذلك تحريضه واستفاره لإمامين زيديين معاصرين له - هما: الإمام الهادي لدين الله عز الدين بن الحسن (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٥م) والإمام المؤيد بالله محمد بن الناصر بن محمد (ت ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م) - لكي يقوموا بصد السلطان

(١) ديوان المطرئ، ص ٣١٤ ، ٣١٥ .

(٢) إسماعيل بن محمد ، سبط اللال في شعر الآل ، مخطوط مصور على ميكرو فيلم بمعهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، تحت رقم (١٨٤١ أدب) ، ص ٣٣٢ .

الظاهر الثاني علم بن عبدالوهاب الطاهري ، وجعل مدخله لاستتارة حفيظتهما التركيز على (الجبرية) باعتبارها معتقداً يقول به السلطان ، من وجهة نظره ، وهي بحد ذاتها لدى الزيدية مسوغ كآب لقتاله ، وسبب مقنع لحربه ، وخاصة إذا ما كان قد أصبح خطراً محدقاً بالمذهب الزيدي نفسه ومهدداً إياه بالإزالة ، ولذلك قال الإمام المنصور الوشلي في تحريضهما :

وَصَنَعَاءُ الْمَدِينَةِ فِي بَلَاءٍ
أَحَاطَ بِسُورِهَا الْقَوْمُ الطُّغَمَاءُ
نُورُ الْجَبْرِ الَّذِينَ لَهُمْ قِتَالٌ
يُلَازِمُهُ الشَّنَاعَةُ وَالْمَلَامُ
إِلَى الْبَارِي لَصَافُوا كُلَّ فِعْلٍ
قَبِيحٍ لَا حَيَاءَ وَلَا احْتِسَامَ
وَأَنْ رَعَيْنَهُمْ رَجُلٌ غُثُومٌ
عَلَى صَنَعَاءِ لَيْثَةِ الْمَقَامِ^(١)

وقال أيضاً في السياق نفسه :

فَيَا مَلِكِي صَنَعْنَا وَصَحْنَةً لَنُتَمَّا
لِمَلِكِي نَجَاةً فِي بَحَارٍ تَفْرُقُ
وَيَا مَلِكِي آلَ الرَّسُولِ تَذَارِكَا
هُدًى كَادَ فِي بَحْرِ الصَّلَاةِ يَغْرُقُ
هُوَ الْمَذْهَبُ الرَّيْدِيُّ مَذْهَبُ جُنُكُمُ
بِطَّلَانِيهِ نُورُ الْهَدَايَةِ يَنْزِقُ
وَحَامُوا عَلَيْهِ بِالصُّوَارِمِ وَالْقَنَا
وَأَرَوْوَا ظَمَائِمًا مِنْ نَمِ الْقَوْمِ يَشْرِقُ^(٢)

ولما كانت فئة كبيرة من اليمنيين تنظر إلى أن السلاطين الرسولييين دخلاء على المجتمع اليمني ، وأن دعواهم بأنهم ينحدرون من آل جفنة الفساسنة لليمنيين

(١) إسماعيل بن محمد ، ضبط اللؤلؤ في شعر الآل ، ص ٣٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٣٥ .

الذين حكموا الشام حتى الفتح الإسلامي - كما سبق بيانه في فصول سابقة - لأن دعواهم تلك لم يأخذ بها ويسلم بها جموع غفيرة من اليمانيين ، وخالصة خصومهم السياسيين من الأئمة الزيدية ، فإن شعراء البلاط الرسولي والعلماء الموالين لهم قد تناولوا هذا الجانب محاولين إثبات صحة الدعوى ، ومن الشعراء الذين تحدثوا عن ذلك الشاعر العلامة برهان الدين إبراهيم بن إسماعيل الجحافي (ت ٨١٠هـ / ١٤٠٧م) ، إذ يقول :

أَنْتَ الْمُمَهَّدُ وَالْبِلَادُ مَهَادُ
وَالْمَلِكُ مَلِكُكَ وَالْأَنَامُ عِبَادُ
أَنْتَ الْمَلِكُ ابْنُ الْمَلِكِ وَإِنَّمَا
قَوْلُ الْغَوَاةِ الْمُرْجَفِينَ عِنَادُ
مَنْ ذَا يُدَابِّي أَلْ جَفَنَةَ فِي الْعَلَا
وَيَبْنُو رَسْمُولَ مَلُوكِهَا الْأَمْجَلَا
قَوْمَ لَهْمَ مَلِكِ الْبِلَادِ وَرِثَانَا
وَبِذَا التَّتَابِعُ^(١) يَشْهَنُونَ وَعَلَا
مَا زَالَ مِنْهُمْ كُلُّ وَتَتْ مَاجِدُ
يَحْتَمِي بِهِ الْزُّوْلُ وَالزُّوْلَانَا
مِنْهُمْ مَلِكُ الْغَضَرِ^(٢) مَوْلَانَا الَّذِي
يَنْهَلُ جُودَا وَالسُّحَابُ جَمَادُ^(٣)

فهذه القصيدة تلقي الضوء على بعض تفاصيل هذا النقاش بما لم يأتى للمصادر التاريخية ذكره ، ومما لا شك فيه أن الشاعر لم يقم بالتعرض لهذا الموضوع وتخصيص قصيدة له دونما مناسبة ، وأرجح أن قصيدته هذه لم تنظم إلا للرد على

(١) جمع تَبَع ، وهو لقب الملوك الجَمْعِيُون العلماء بالدين .

(٢) هو السلطان الأشرف إسماعيل (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) .

(٣) ديوان إبراهيم الجحافي ، مخطوط مصور على ميكرو فيلم بمعهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، تحت رقم (١٣٨٥ أدب) ، ص ١٤ .

فهذه القصيدة تلقى الضوء على بعض تفاصيل هذا النقاش بما لم يتأتى للمصادر التاريخية ذكره ، ومما لا شك فيه أن الشاعر لم يقم بالتعرض لهذا الموضوع وتخصيص قصيدة له دونما مناسبة ، ولرجح أن قصيدته هذه لم تنظم إلا للرد على آخرين ، وليس شرطاً أن المردود عليهم فيها قد نالوا من النسب الرسولي شعراً ، ولذلك يمكننا أن نصنفها تحت العنوان القادم ، أي في باب الشعر التاريخي ، ومن ناحية أخرى هي في صميم الشعر السياسي لأن الهدف منها ليس مدح السلطان فقط ، بل هي في إطار تثبيت ملكه الذي يقوم - من ضمن ما يقوم عليه - على انتساب الرسوليين إلى الأصل البعني والعنيت الوطني المحلي .

■ (جـ) الشعر التاريخي (القصصي) :

هناك اشتراك وتقاطع واسع بين الشعر التاريخي والشعر السياسي ، فكلاهما يتناولان حوادث تاريخية محددة ، ويوردان من التفاصيل التي تكتنف الحوادث الكبيرة ما كان يراه المؤرخون غير مستحق للذكر في مصنفاتهم ، والفارق بين الشعر التاريخي والشعر السياسي هو أن الأخير يلتمس القارئ له أن الشاعر يقوم بالتحدث عن الواقعة بالنيابة عن أحد طرفيها ، وغالباً ما يكون الحاكم ، فيعنف خصمه ويسفهه ، سواء كان ذلك مراعاة لنعمة أهدتها عليه الطرف الذي ينافح عنه أو رداً لجميل يرى الشاعر أنه يدين به له ، وقد يكون بدافع الانسجام مع موقف أحد طرفي الواقعة ، في حين أن الشعر التاريخي يصدر عن الشاعر في حالة رغبته في تسجيل ما جرى من باب للوصف أو التعاطف أو الإنكار على الطرفين - أو أحدهما - أو أن الشاعر نفسه هو واحد من أطراف الحدث ، كما أنه قد يأخذ صورة الشكوى من ظلم وقع على شخصه أو غيره من أبناء محيطه ، ولأن هذا النوع من الشعر يسلط الضوء - بالنسبة للباحث - على ما لم تذكره التواريخ المكتوبة ، فإنه يعد مصدراً غنياً من مصادر التاريخ .

ومن أمثلة هذا النوع من الشعر نذكر تلك القصيدة التي رفعها الإمام إسماعيل بن أبي بكر المقرئ (ت ٨٣٧ هـ / ١٤٣٣ م) إلى أحد السلاطين الرسوليين يطلعه فيها على ما يقوم به الزنبول - أميره وواليه على زبيد - إذ كان الرجل يستبد بالناس ويتخذ للعسف والجور سبيلاً لجمع الضريبة وإزعاجهم ، فعزم ابن المقرئ على قمع هذا المنكر بإبطال الضريبة نفسها ، فحرر طلباً مظلوماً - إلى السلطان بإعفاء الناس المقصودين منها ، يقول في طلبه :

هُمُ الرعايا العبيدُ الطائعون هُمُ
 وَأَنْتَ أَنْتَ الْمُطَاعُ الْمِيدُ الْمَلِكُ
 فَلَا تَكَلِّهْمُ إِلَى مَنْ لَيْسَ بِرَحِمِهِمْ
 وَلَا يَرَى مَلَكَهُمْ لَمَرَّ بِهِ تَرَكُ
 فَأَنْتَ أَكْرَمُ ، بِ مَنْ لَمْ يَخِبْ لَمَلُ
 فِي فَضْلِهِ كَلِمَا مَثَّتْ لَهُ شَبْكُ
 لَمَهْلَتَهُمْ وَفَعَلْتَ الْخَيْرَ أَجْمَعُ
 وَلَمْ يَكُنْ مِنْكَ تَعْنِيفٌ وَلَا نَهْكَ
 فَامْنُنْ بِأَحْرَى وَسَلِّحْهُمْ وَخُطِّ وَلَا
 تَتْرِكْ عَوَائِدَكَ الْخُسْكَى وَإِنْ تَرَكُوا

فلما وقف السلطان على طلبه قبل شفاعته وحقق طلبه^(١) ، فهذه الأفعال للصادرة عن
 هذا الوالي لم توردها أي من المصادر المعروفة التي عاصرت حياة الشاعر ، ولو حتى
 بإشارة عارضة ، ومن أشهرها للكتاب الذي ألفه الشاعر نفسه الموسوم بـ (عنوان
 لشرف الوافي في الفقه والعروض والتاريخ والنحو والقوافي) وكذلك تاريخ الحسين
 بن عبدالرحمن الأهدل (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) الموسوم بـ (تحفة الزمن في تاريخ
 سادات اليمن) ، أو غيرها من المصادر التي ألفها مؤرخون عاشوا بعد هذه المدة بفترة
 قصيرة كالتواريخ الثلاثة لعبدالرحمن بن علي بن الديبع (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م) أو
 (قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر) للطبيب بن عبدالله بامخرمة (ت ٩٤٧هـ /
 ١٥٤٠م) أو كتاب (الجوهر الفريد في تاريخ مدينة زبيد) لمحمد بن محمد بن
 منصور بن أسير (ت بعد ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) .

وهناك عدد كبير من القصائد الرائعة التي نظمها الإمام إسماعيل المقرئ ،
 وحواها ديوانه ، وهي تسجل تفاصيل مهمة عن الصراع المرير الذي خاضه في
 مناطق اليمن السنية ، وبالتحديد في تهامة ، بين الفقهاء والصوفية أتباع ابن عربي وابن
 الغارض والحلاج بشكل عام ، وما جرى منه بين الإمام المقرئ نفسه وبين أولئك
 الصوفية بصفة خاصة ، وميزة تلك القصائد أنها لم تسجل للحوادث فقط ، بل سجلت

(١) ديوان المقرئ ، ص ٣٦ ، شرح الفريدة الجامعة للمعاني الرائعة ، ص ١٩ ، ٢٠ .

كذلك جوانب من العقائد والأقوال التي صدرت عن الصوفية ، وبعضها لم يأت ذكره حتى في المؤلفات التي صنفت في إطار ذلك الصراع وخصّصت له^(١) .

إن المتصفح لديوان الإمام إسماعيل بن أبي بكر المقرئ (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) ليجد نفسه مدفوعاً للوقوف مع كثير من قصائده ، ليس لجمالها وعبوة معانيها وجزالة ألفاظها فحسب ، بل لكونه يجد في كثير منها ثروة تاريخية كبيرة ، لا يجدها في المصادر التاريخية المتوافرة ، وتكون الحسرة كبيرة عندما يتخيل أن عشرات - بل ربما المئات - من دوليين رجال اليمن التي فقدت في عمرة الأيلم وكر السفين وتلاحق الأحداث قد طمرت معها تفاصيل مثيرة عن الحياة الاجتماعية والرسومية ، وعن علاقة العلماء والشعراء مع غيرهم من بقية الشرائع ، بل حتى الكثير من تفاصيل الأحداث السياسية والعسكرية الكبيرة التي لم ترصدتها المصادر التاريخية ، ففي ديوان الإمام المقرئ - على سبيل المثال ، وهو في ٣٩٩ صفحة كبيرة - نجد قصائد منسوبة لم تذكر مصادر التاريخ أنها كانت محتفياً بها^(٢) ، وقصائد أخرى غنية بالمعلومات عن الشخصيات التي شغلت المناصب الرسمية العالية في البلاط الرسولي ولم تشر إليها المصادر إلا عَرَضاً^(٣) ، وفيها المراثي والمدائح والبقائض التي تدل على أن شخصيات بارزة قد ارتبطت بأخرى بعلاقات معقدة يستبعد استنتاجها من خلال للمسح الأفقي في المصادر الأخرى ، بل أن مما لا يتصور أن تجد في الديوان نتفاً من طرق الإدارة التي استعملها الرسوليون وكيفية استلام الناس أعطياتهم الممنوحة لهم من قبل السلطان عن طريق الحولات ، وكيف كان بعض ثمناء الخرائن في الولايات يماطلون في تنفيذها بما ينبئ عن تقضي الفساد المالي - بالاصطلاح المعاصر^(٤) .

وآخر شواهدنا على كون الشعر قد مثّل مصدراً للمعلومة التاريخية القصيدة الطويلة التي وردت في ديوان شاعر مغمور يدعى الجراح بن شاجر بن حسن (ت

(١) انظر تلك القصائد في ديوان المقرئ ، ص ٤ ، ٥ ، ١٠ ، ١١ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ - ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ - ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ - ٥٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٨ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢٠ ، ١٦٤ ، ١٧٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٨١ ، ١٩٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٦ ، ١٨٧ ، ٢٣٥ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ .

بعد ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م) وهو من معاصري الملك المجاهد شمس الدين علي بن طاهر الطاهري (ت ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م) ، أحد مؤسسي الدولة الطاهرية ، والشاعر في قصيدته يورد وصفاً بديعاً لبعض المظاهر الاحتفالية التي كان يقيمها السلاطين في الأعياد ، وللقارئ لها يجد نفسه أمام تقرير إخباري وصفي تام عن أحد أيام الأعياد لدى السلطان ، ومما قاله في قصيدته :

وَلَقَدْ خَرَجْتُ إِلَى الْمُصَلَّى مُخْلِصًا
لِلَّهِ رَبِّكَ خَائِعًا مُتَرَقِّبًا
فِي آلَةٍ مَسَامَرٍ فِيهَا قُبُورٌ
أَبْدًا وَلَا كِبَرٌ لِلْعِرَاقِ وَلَا سَبَا^(١)
لِلرَّجْلِ^(٢) قَبْلَكَ يَا ابْنَ أَحْمَدَ هَزَّةً
تَرَكْتَ عَذُوكَ وَهُوَ مَقُولُ الشُّبَا
مُتَوَسِّحِينَ خَنَاجِرًا وَبَوَاطِرًا
بَيْنَهُمَا يَحَاكِبِينَ النُّجُومَ الثُّقَا
زَهَتْ النِّبَارِقُ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ وَقَدْ
نُصِبَتْ وَمِنْ غِلَاقَاتِهَا أَنْ تُنْصَبَا
وَالطَّبْلَخَانَةُ وَهِيَ خَلْفَكَ لَسْمَعَتْ
مَنْ كَانَ فِي أَقْصَى الْعِرَاقِ مُغَيَّبَا
وَالخَلْقُ قَدْ شَخِصَتْ عَيْنُهُمْ إِلَى
مَارِقٍ حَيْلُودٍ وَسَرٍّ وَأَعْجَبَا
وَقَضَيْتَ فَرَضَكَ وَانْصَرَفْتَ وَكُفِّرْتَ
عَنْكَ الذُّنُوبُ وَلَسْتَ عَبْدًا مُذْنِبَا
وَوَقَّعْتَ فِي الْمِزَالِ تَنْظُرُ جُنْدَكَ إِلَى

(١) سبا المنكورة هنا هو اسم لدولة اليمية القديمة الشهيرة (ميا) المنكورة في القرآن الكريم ، وقد حذف الهمز هنا لكي تتسق نهاية البيت مع روي القصيدة .

(٢) لرجل هنا المفصود هو المشاة من الجيش ، وشاهد ذلك قهرة التي نحدثها مشيتها كما ورد في البيت نفسه .

مَنْصُورٌ أَنْ يُجْرِيَ الْجِنَادَ وَيُلْعَبَا
 فَكَلَنَهُمْ أَمَلًا غَابَ تَحْتَهَا
 سَيِّدَانِ بَرٌّ عَادِيَاتٍ أَوْ ضَبَا
 حَتَّى أَشْرَبَتْ إِلَى الطَّلُوعِ فَعَبْذَهَا
 نَزَلَ الْجَمِيعُ وَجَرَّتْهُمَا بَيْضُ الظُّبَا
 وَالنَّاسُ قَدْ مَلَّتُوا سُرُورًا كَامِلًا
 ظَلَّ الْحُصُونُ لَهُ حَزِينًا مُغْضَبَا
 وَنَزَلَتْ فِي الْقَصْرِ الَّذِي عُزِفَتْهُ
 لَوْ أَنَّهَا نَطَقَتْ لَقَالَتْ مَرَحَبَا
 هَذَا وَقَدْ مَدَّ السَّمَاءُ مُرْتَبَا
 طَاهِيَتِكَ لَا شَيْءَ يَدَاهُ مُرْتَبَا
 فِيهِ مِنَ الْأَنْوَاعِ مَا رَأَى الْوَرَى
 نَظَرًا وَطَعْمًا مُسْتَلَذَّ وَمُشْرَبَا
 وَدَعَا الْمُصَابِرَ وَالْمَقِيمَ إِلَى الْقَرَى
 طَرًّا وَأَقْلَبَ بِالْجَمِيعِ وَرَحَبَا^(١)

• (د) الشعر العلمي :

من المعروف أن الحيز الذي كانت تحتله المثنون والمختصرات في حياة العلماء وطلابهم كان كبيراً ، وأن الاعتماد على حفظها كان واسعاً ، وكان من حيثيات ارتفاع مكانة العالم في الوسط العلمي كثرة المثنون والمختصرات التي وعدها وفهمها بعد أن حفظها واستطهرها غيباً ، ولذلك فقد بادر عددٌ من العلماء اليمنيين القادرين على نظم الشعر إلى تسهيل مهمة الطالب في التعلم فقاموا بنظم عددٍ كبير من المصنفات الشهيرة في فروع متعددة من مجالات المعرفة والتي كانوا يتخذون منها مقررات دراسية ، ولذلك فقد أطلقنا على هذه النوعية من الشعر عبارة (الشعر العلمي) .

(١) ديوان الجراح بن شاجر بن حصن ، مخطوط مصور عن المتحف البريطاني ، ص ٨٥ ، وذلك نقلاً عن يحيى محمد سنان ، الشعر اليمني في القرن التاسع الهجري ، ص ٣١٦ .

يدخل في عداد الشعر العلمي كل كتاب منظوم ، سواء كانت نسخه الأولى ومسوداته البكر منظومة أم لا ، وذلك لأن هناك من المؤلفات ما وضعها أصحابها في هيئة قصائد مطولة منذ أن طرأت فكرة تأليفها ، حتى ولو لم يكن الهدف الأساسي من نظمها تسهيل حفظها ؛ لأن هناك من نظم بعض مصنفاته تقليداً لعلماء وشعراء آخرين - يمنيين وغير يمنيين .

وتتدرج في فئة الشعر العلمي أيضاً كل الأشعار التي تصممت الأغراض والأحاجي، أو تلك التي تخاطب بها بعض الشعراء مع بعضهم مستخدمين ألفاظاً ومحسنات بيدهية بيت عباراتها بصورة غريبة لافتة للنظر كما سيتضح من الأمثلة التي سبقت ومن الأمثلة القادمة .

فهذا الإمام العلامة صفي الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أحمد البريهي (ت ٨٣٣هـ / ١٤٣٠م) ، كانت له أشعار رفيقة في الوعظ والرفائق والغزل والزهد ، ونسبهم في نظم أشعار الأحاجي والأغراض العلمية الفقهية وغيرها ، منها رده على الشيخ الإمام المقرئ شمس الدين محمد بن محمد الجزري (ت ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م) في لغزه الذي وجهه إلى الإمام اسماعيل المقرئ عن لفظة (القرآن)^(١) ، كما رد أيضاً على الغز الذي أرسله إليه الفقيه بدر الدين حسن بن محمد بن سعيد الشظبي (ت ٨٣٥هـ / ١٤٣٠م) عن لفظة (حب) وفيه :

أَتَلَّحَ مَنِيَّ الدِّينِ عَنْ مَمْلُوكِهِ
بَعْدَ التَّحِيَّةِ دَاعِيًا بِلَعْفِيهِ
شَوْقُ تَرَائِفٍ فِي الْجَوَانِحِ نَقْلُهُ
قَلُّهُ عَلَى الْأَحْشَاءِ نَارٌ حَامِيهِ
لَهُ ذَرْكَ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ
مِنْ ذِي مَوْلُودٍ فِي الصَّدَقَةِ صَنَفِيهِ^(٢)

في أبيات أخرى كثيرة ، فلجابه العلامة صفي الدين أحمد بن محمد البريهي مبيناً حل ما ألغز به ، وألغز له أيضاً بالجواب ، وأوله :

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٠١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٢ .

أَفْلَأُ بِهِ مِنْ بَحْرِ عِلْمٍ جَائِي
 مِنْ عِنْدِ يَدْرِ ذِي الْمَرَاتِبِ عَالِيهِ
 حَمْنُ الْفَضَائِلِ وَالشَّمَائِلِ ، نَفْسُهُ
 لِدَرْيِ الْمَعَالِي وَالْمَعَالِي رَائِيهِ
 أَلْقَى بِحُسْنِ الظَّنِّ فِي مَمْلُوكِهِ
 أَخْجِيئَةً هِيَ فِي الْأَحَاجِي سَلَامِيهِ
 وذلك في قصيدة طويلة لم يوردها المصدر كاملة^(١) .

ومن الأشعار المتضمنة للأحاجي ما ورد في اسم (يونس) عند شمس الدين
 علي بن أبي بكر السحولي (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) ، يقول :
 فِي اسْمِ الَّذِي يُؤْمِنِي حُبَّةُ
 لَطِيفَةٍ يَفْهَمُهَا الْكَثِيرُ
 يَطْمَعُ بِالْوَصْلِ بِتَحْرِيفِهِ
 لَكِنْ إِذَا صَحَّفَتْهُ يُوتِسُ^(٢)

ومن الأحاجي والألغاز الواردة في هذا الشأن تلك التي صاغها الإمام المقرئ
 شمس الدين محمد بن محمد الجزري عندما وفد على اليمس ، وفيها :
 أَخِي إِنْ رُمْتَ تَسْخَرِي مَنْ حَبِيبِي
 وَتَعْرِفَ مَا اسْمُهُ وَتَحِيطْ عِلْمًا
 خُذْ اسْمًا مِنْ أَسْمَاءِ الْمَوْتِ وَأَقْلِبْ
 وَصَفْرُ ذَلِكَ الْمَقْلُوبِ حَتْمًا
 وَصَحَّفْ ذَلِكَ التَّصْنِيفَ وَلَجْعَلْ
 لِمَنْ أَحَبَّبْتَهُ مِنْ صِدِّهِ اسْمًا
 وقد رد عليه الفقيه العلامة جمال الدين محمد بن عمر المسلمي البزيمي
 (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م) بما حلها وفك رموزها ، وكان جوابه شعراً أيضاً ، إذ كان
 جوابه :

(١) البزيمي ، طبقات مشاهير اليمس ، ص ١٠٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٤ .

لَأَنْتَ أَخْبِيَّةٌ مِنْ بَخْرٍ عَظِيمٍ
لَتَعْرِيفِ الْحَبِيبِ وَمَا يُسَمَّى
بِاسْمِ الْمَوْتِ وَالْقَلْبِ ثُمَّ صَغُرُ
وَصَغُرَ ذَلِكَ الْمُقْلُوبُ حَتَّى
فَـ(قَتَحَ) قَلْبُ (حَتَفَ) ثُمَّ صَغُرَ
وَصَحُفُهُ (قَبِيحٌ) خُزَّتْ عَلَمًا
وَمَا ضَبُّ الْقَبِيحِ مِوَى مَلَوَحٍ
وَذَلِكَ الْقَصْدُ وَالْحُبُّ الْمُسْمَى (١)

ومن الشعر العلمي ما جمع فيه بعض الشعراء - وخاصة الفقهاء منهم - بعض المسائل العلمية المفردة ، منها ما نظمه القاضي العلامة عفيف الدين عبدالمعطي بن علي بن محمد بن سالم المخاذري (٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) في تنبيه طالب العلم إلى سفين الفطرة الواردة في السنة النبوية ، ويقول البريهي (٢) أنها هي الكلمات التي ابتلى الله تعالى بهن إبراهيم عليه السلام في بحسب ما جاء في سورة البقرة ، فقال :

لَقَدْ ابْتَلَى اللَّهُ الْخَلِيلَ بَعْثَرَةً
هِيَ الْكَلِمَاتُ لِللَّانِي فِي مُحْكَمِ الذِّكْرِ
فَكُنْ عَالِمًا فِيهَا وَكُنْ عَالِمًا بِهَا
فَهَا أَنَا أُرْوِيهَا لَكَ الْآنَ فِي شِعْرِي
تَمُضُّمُضْنٌ وَاسْتَشْقَاقٌ وَقَصٌّ لِمُتَارِبٍ
وَدُلُومٌ مَسْوُوكَاً وَاحْفَظِ الْفُرْقَ لِلشُّعْرِ
خُتَّانَ وَتَفْهُؤَ الْإِبْطِ حَلَقَ لَعَانَةٍ
وَلَا تَتَسَّ الْاسْتِجَاءَ وَالْقَلَمَ لِلظَّفَرِ (٣)

■ (هـ) الشعر الترهوي :

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٥ ، ٦٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٦ .

(٣) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٥٦ .

نقصد بالشعر التربوي كل قصيدة تضمنت تعاليم تربوية وتوجيهات ونصائح ، سواء وجهت من قبل الشاعر قصداً إلى لئاس محددين أو كانت عامة لكل قارئ ومطلع ، ويدخل في إطاره أيضاً كل مقطوعات العظات والرفائق وقصائدها ، وكل شعر حوى حكماً وقواعد اجتماعية عامة على هيئة النصيحة والتوجيه فهو شعر تربوي أيضاً ، والملاحظ أن أغلب هذا الشعر قد نظمته الفقهاء والعلماء ، وخاصة المتصوفون منهم ، وأوردناه في فئة مستقلة عن فئة (أدب الفقهاء) لكي يشمل ما جاء في باب من منظومات الشعراء من غير العلماء والفقهاء .

وهذا هو الفقيه بدر الدين حسن بن علي بن عبدالرحمن الملحاني (٨٢٠هـ - ١٤١٧م) ينشئ القصيدة - التي أوردناها في الفصل الرابع - بحث فيها ابنه أحمد على العلم والتحصيل ويوصيه بالتعلم وعدم التواني فيه ، وفيها تعبير واضح على مدى ارتفاع منحنى الدافعية الذاتية لدى هذا الفقيه إبان مرحلتى الدراسة والتلقي ، وهي التي أهلته ليصبح واحداً في عداد أعيان علماء اليمن في عصره ، يقول في مطلع قصيدته :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي يَا أَحْمَدُ
إِذَا فَسَّاتَكَ الْعِلْمُ هَلْ تَمْنَعُ
وَهَلْ يُفْصِلُ الْحُكْمُ فِي مَحَلِّ
إِذَا لَيْتَ فِي النَّسْتِ مُسْتَرْشِدُ
فَبَانِي جَهْدَتُ لِيَالِي الشَّبَا
بِوَمَنْ عَشِقَ الْعِلْمَ قَدْ يَجْهَدُ
نَهَارِي فِي الْعِلْمِ مُنْتَعَمِلُ
وَفِي اللَّيْلِ جَفْنِي لَا يَرْقُدُ
وَفِي الْعِلْمِ عِزٌّ لِأَهْلِ النَّقَى
وَجَلَّةٌ يُقَاسُ بِهِ الْعُسْجَدُ^(١)

وهذه الأبيات تذكر بالبيات أخرى أوردناها الأهل^(١) في تاريخه ، نتناول وصف أحد العلماء لمبلغ النشوة واللذة التي يحس بها في طلب العلم والمطالعة والعبادة ، وفيها

(١) البرهوي ، طبقت علماء اليمن ، ص ٤٤ .

، وفيها - بصورة غير مباشرة - دعوة للفاشنة ولفت لأنظارها نحو هذه الجوانب المهمة في حياة المسلم ، وتلك الأبيات هي :

شَيْتَانِ أَحَلَّى مِنْ عِنَاقِ الْخَرْدِ
وَالَّذُ مِنْ شَرْبِ الْقِرَاحِ الْأَسْوَدِ
وَأَجَلُ مِنْ رَقَبِ الْمُلُوكِ عَلَيْهِمْ
وَنَشْيُ الْخَرِيرِ مُطَرِّزاً بِالْعَسْفِدِ
مَوْءُودٌ لِلْفَقْرِ لَنْ تُكُونَ نَدِيمَهَا
طَوَّلَ النَّهَارِ وَبَرَّدَ ظِلُّ الْمَسْجِدِ
فَلِذَا هُمَا لَجِئَمًا لِشَخْصٍ فَارِغٍ
عَنْ كُلِّ هَمٍّ نَالٍ لِيَعْدَ مَقْصِدِ
وَعَلَا الْمَقَاحِرَ كُلَّهَا مُتَرَقِّعَا
وَحَوَى لِلْمَحَامِدِ فِي الْحَيَاةِ وَفِي عَدِ

ومن الشعر التربوي ما يندرج في إطار التوجيه من المُرَبِّي - ولداً كان أو معلماً - إلى المُرَبَّى ، وذلك في سبيل غرس خلق حسن أو التنفير من منقصة والتحذير منها ، ومنه ما جاء بفرض لفت الانتباه إلى مواضع التقصير في السلوك والعبادة ، والدعوة إلى الزهد والورع وما يقرن بها من الرقلاق ، ومن أمثلته قول القاضي الصوفي أحمد بن أبي بكر الرَّدَادِ (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) :

تَوَزَّعَ وَتَنَبَّأَ وَالزُّهْدُ وَصَلَ وَصُنْمٌ وَلَا
تَقَمُّ ، وَاعْتَزَلَ وَاصْمُتَ وَرَاقِبٌ وَأَيْقَنَ
وَكُنْ دَائِمًا فِي الذِّكْرِ وَالشُّكْرِ قَلَمًا
عَلَى الصَّنَقِ وَالْإِخْلَاصِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ
وَإِيَّاكَ : لِي ، أَوْ بِي ، وَإِيَّاكَ : لَوْ ، وَلَمْ
وَمِنْ : وَإِلَى ، وَاصْبِرْ وَصَابِرْ وَأَتَقِنِ
وَاخْذُ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ قَنَرًا مَا

(١) تحفة الزمان في تاريخ سادات الدين ، ج ٢ من ٢٧١ .

تَقُومُ بِهِ فِي اللَّهِ وَاعْدِلْ وَأُخْصِنُ^(١)

ومثله قصيدة الإمام محمد بن إبراهيم بن علي الوزير (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) التي وجهها إلى أحد تلاميذه الذين شكوا من التشتت بين الأقوال المتباينة للعلماء ورجال المذاهب المختلفة ، كما تفرق عزمهم وضعفت همهم بسبب كثرة اهتماماتهم وتعدد ميولهم العلمية في منولات الطلب ، فخاطبه الإمام الوزير بقوله :

يَا مَنْ تَفَرَّقَ عَزْمُهُ وَهَمُّهُ
وَتَغَارَضَتْ فِي الرَّأْيِ تَرْجِيحَاتُهُ
جَمْعُ قَوْلِكَ إِنْ لَرَنْتَ ثَبَاتُهُ
فِي الْحَقِّ لَا يُفْسِدُ قَوْلَكَ شَتَاتُهُ
فَوْضٌ ، فَمَا الْمَوْجُودُ إِلَّا وَاحِدٌ
حَقٌّ وَمَا حَقَّتْ بِهِ كَلِمَاتُهُ
وَبَيِّنَاتِهِ (الْأَجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ) مَا
يَحُلُّو الْعَمَى مِنْهَا نَجَتْ ظَلَمَاتُهُ
فَذِعِ التَّفَرُّقَ واجْتَمِعْ مَتَوَكِّلًا
تُكْفَى كَمَا وَعَدْتَ بِهِ آيَاتُهُ^(٢)

وقد كان للإمام صفى الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أحمد بن محمد البريهي (ت ٨٣٣هـ / ١٤٣٠م) شعر رقيق في الوعظ والرفائق والزهد ، منها الكثير في الوعظ ، كقوله :

احْفَظْ لِمَنَّاكَ لَا تَفُتْ بِبِمِيقَةٍ
وَاحْذَرْ تَفَةً بِالْكَذِبِ أَوْ بِالْغِيَةِ
فَإِنْ لَنْتَهَيْتَ فَقَدْ نَجَوْتَ وَإِنْ أَبَيْتَ
حَتَّ فَقَدْ بَلَّتَ ، وَيَا لَهَا مِنْ بَلِيَةٍ^(٣)

(١) الشرحي ، طبقات الخواص ، ص ٩٠ .

(٢) ديوان ابن الوزير ، ص ٢٠ .

(٣) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٠٠ .

وللفقيه اللغوي الأديب وجيه الدين عبدالرحمن بن عمر الراعي المشهور
بالعطاب (ت ٨٦٤هـ / ١٤٥٩م) أشعار كثيرة ، وهو الذي سبقت الإشارة إلى
بروزه المبكر في الشعر وإجادته له ، له أشعاره تربوية ، منها القصيدة التي أورد
البرهني^(١) بيتين من مطلعها في ترجمته له ، والبيتان هما :

وَإِذَا ضَلَلْتَ عَنِ الرُّشَادِ وَلَمْ تَكُنْ
أَهْذَ الزَّمَانِ عَلَى الْعِذَا مَنْصُورًا
فَاسْتَهْذِ وَاسْتَنْصِرْ بِرَبِّكَ ذِي الْعُلَى
وَكَفَى بِرَبِّكَ هَالِيًا وَنَصِيرًا

ومن روائع الشعر التربوي الذي خلفه رجال اليمن في أواخر القرن التاسع
المجري تلك القصيدة التي نظمها برهان الدين إبراهيم بن محمد بن إبراهيم العراقي
(ت ٨٦٦هـ / ١٤٦١م) ، وقد خاطب بها كل مسلم داعياً إياه إلى الرهد والورع ، قال
فيها :

دَعْ التَّبَاطُورَ فِيمَا لَسْتَ تَمْلِكُهُ
وَاتَّقِ بِقُوتِكَ يَوْمًا فَهُوَ يَكْفِيكَ
وَحُلْ عَنْكَ بَنِي الدُّنْيَا وَصُحْبَتَهُمْ
فَإِنْ صُحْبَتَهُمْ يَا صَاحُ تُرِيدُكَ
وَأَخٍ فِي اللَّهِ إِخْوَانًا تُصَانُ بِهِمْ
عَدَا انْتِقَالِكَ عَنْ قَوْمٍ يُعَادِرُكَ
وَاتَّقِ بِمَوْلَاكَ عَنْ كُلِّ الْأَنَامِ وَلَا
تَسَلْ بِبَوَاهِ أُنْسًا فَهُوَ يُغْنِيكَ
وَأَسْأَلُ مَا شِئْتَ مِنْ اللَّهِ تَوْكْرَمَ
وَإِنْ سَأَلْتَ بِبَوَاهِ لَيْسَ يُعْطِيكَ
وَأَسْأَلُ عَفْوَاً وَغُفْرَاناً وَعَافِيَةً
سُبْحَانَهُ رَبَّ الْعَالِي فَهُوَ بَارِيكَ

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤٠ .

وَلِخَضْعِ لِمَوْلَاكَ إِذْعَانًا لِقُدْرَتِهِ
فَهُوَ اللَّطِيفُ الَّذِي لِلْخَيْرِ يَهْدِيكَ^(١)

❏ النثر :

قال ابن خلدون^(٢) في تعريف النثر بأنه : " هو الكلام غير الموزون " ، وهو إطلاق وتعميم واسع للدلالة ، إذ أن كل كلام العرب - مما لا ينطبق عليه تعريف الشعر - هو نثر إذا ، غير أن ابن خلدون نفسه قد استترك فقيده بصنفين من الكلام غير الموزون ، جعل الصنف الأول (متجّعاً) والآخر (مرسلًا) وفرق بينهما بأن الأول هو ما يلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة ، وأن الثاني هو ما يرسل فيه الكلام لرسالاً من غير تقييد بقافية^(٣) ، وبدون أن نعارض التعريف الذي وضعه ابن خلدون للنثر نستطيع القول : إن النثر هو الأسلوب للمتنوع في التعبير عن معنى معين ، سواء كان منطوقاً أو مكتوباً ، وحاضراً لأصول اللغة ، دون أن يستعين بالبناء اللفظي القائم على تفعيلات ولوزان الحليل بن أحمد أو الروي الموحد مما هو معروف في فن الشعر^(٤) ، ويتأكد اشتراكه مع الشعر في خاصية الإيجاز والفصاحة ، ومنه ما يسحر السامع ويسلب لبه ، ومنه ما يفوق الشعر في قوة تأثيره .

وسنقوم بتقسيم ما نتناوله من موقع النثر في الحياة العلمية في اليمن في القرنين التاسع والعاشر الهجريين إلى قسمين بحسب تصنيف ابن خلدون^(٥) ، أولهما النثر المسجوع ، وثانيهما النثر المرسل وذلك بالشكل الآتي :

(١) طبقات صلاح الدين ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، ج ٣ ص ١١٥٤ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٤) د. مريز سعيد صيري ، الحياة العلمية في العراق في العصر المنجولي ، مكتبة المطالب الجاسمي ، مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٩٨٧ م ، ص ٣٧٩ ، عبدالله قائد العبادي ، الحياة العلمية في زبيد ، ص ٣٥٤ .

(٥) وقد اعتمد هذا التقسيم أيضاً بعض الباحثين في باب الحياة العلمية في اليمن في مناطق محددة من رقعتها الجغرافية ، مثل عبدالله قائد العبادي ، الحياة العلمية في زبيد ، ص ٣٥٤ .

• (أ) النثر المسجوع :

وهذا النوع من النثر هو الأكثر شيوعاً في الأوساط العلمية اليمن عصرئذٍ ، ويتضمن الخطابة والرسائل السلطانية والرسائل الإخوانية والمقامات ، وميرته في احتوائه على أشكال السجع والقافية بين الكلمات الواردة في ختام الجمل والعبارات ، وتضمنه للمعاني البيانية والمحسنات البديعية ، ولذلك فقط لصطنح عليه قبض بعض (النثر الفني) ^(١) ، وقد ملك بعض العلماء اليمنيين من القدرة على كتابة النثر المسجوع والحفاظ على تميزه مهما كانت مقطوعاته مغرقة في الطول ، إذ تجد أن كتاباً مثل (الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم) للإمام محمد بن إبراهيم الوزير (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) كله عبارة عن نص نثري مسجوع طويل ، استطاع أن يحافظ فيه المؤلف على جودة اللغة وقوتها رغم طول المتن ، من ذلك قوله : " وقد وهبت أيام شبابي ، وزمان لكتسابي ، لكدورة علم الكلام والجدال ، والنظر في مقالات أهل الظلال ... وسبب إيتاري لذلك ، وملوكي تلك المعالك ، أن أول ما قرع سمعي ، ورسح في طبعي ، وجوب النظر ، والقول بأن من قلّد في الاعتقاد كفر ، فاستغرقت في ذلك حدة نظري ، وبأكورة عمري ، ومازلت أرى كل فرقة من المتكلمين تنكوي أقوالاً مريضة ، وتقوي أجنحة مهيضة ، فلم أحصل على طائل ، وتمثلت فيهم قول القائل ... فرجعت إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وقلت : لا بد أن يكون فيهما براهين وربود على مخالفتي الإسلام ، وتعليم وإرشاد لمن اتبع الرسول عليه والصلاة والسلام ، فتكبرت ذلك فوجدت الشفاء كله ، بقية وجله ، ولفشرج صدري ، وصلاح أمري ، وزال ما كنت به مهتلي ، وأنشدت متمثلاً ... ^(٢) .

سنتناول أنواع النثر المسجوع الذي أبدعه اليمنيون في مدة الدراسة في

التفرجات التالية :

○ الخطابة :

سبق أن أشرنا في تعريف النثر أنه يشمل المنطوق من الكلام ، ولعل الخطابة هي أوضح أمثلة النثر المنطوق ، وقد لحتلت الخطابة مكانة خطيرة في

(١) د. مريز سديد عسيري ، الحياة العلمية في العراق في العصر المنجوفي ، ص ٣٧٩ ، علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في تعز ، ص ٤٢٥ .

(٢) الوزير ، الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم ، ص ٩ .

ذلك فوجدت الشفاء كله ، بِنَّةً وَجْهَهُ ، وانشرح صدري ، وصلاح أمري ، وزال ما كنت به مبتلى ، وأنشئتُ ممثلاً ... (١) .

سنقتول أنواع النثر المسجوع الذي أبدعه اليمينيون في مدة الدراسة في

التفريعات التالية :

○ الخطابة :

سبق أن أشرنا في تعريف النثر أنه يشمل المنطوق من الكلام ، ولعل للخطابة هي أوضح أمثلة النثر المنطوق ، وقد احتلت الخطابة مكانة خطيرة في حياة العلماء والمجتمع المسلم بشكل عام ، فالعلماء من خلالها يقومون بنشر مفاهيم الخير وتوعية الناس بأمور دينهم ، ولذلك فكان معظم المتصدرين لها هم من أبرز العلماء والفقهاء ، وكان الحكام والملاطين والأئمة يسندون الخطابة في الجوامع الكبيرة إلى أكثر العلماء والفقهاء علماً وأقدرهم على التأثير ، فكانوا يتحIRON من بينهم ذوي القدرة القوية على ارتجال الكلام دون تكلف مع عمق البيان وقوة الحجة .

وكان للخطباء دور كبير في حياة الناس الاجتماعية كما سبق أن أوضحناه في فصل سابق ، إذ اهتموا برعاية مصالح التجمعات التي كانوا يسكنون فيها ، واستغلوا المكانة التي كانوا يحظون بها لدى رجوة المجتمع في نقل مطالب الفقراء إليهم ، واشتركوا في فض النزاعات والقيام بالتوسط وحل المشكلات الناشئة .

وقد جاءت أوصاف بعض القدرات الخطابية للخطباء المشهورين في المصادر التاريخية بما يعكس انبهار مصنفها بهم ، ومدى قوة تأثيرهم في السامعين ، ومدى بلاغتهم وفصاحتهم ، فكانوا بذلك أدباء ناثرين مبرزين ، إذ أن الارتجال للكلام مع الحفاظ على قوة اللغة باختيار أجزل ألفاظها وأفصح تراكيبها لتحقيق قدر كبير من شدة التأثير يعد من أفضل خصائص الأديب الناثر .

ومن أشهر الخطباء الذين وردت تراجمهم في المصادر المتوافرة نذكر الفقيه العلامة رضي الدين أبو بكر بن يوسف بن إسحاق المشهور بابن المستأمن (ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م) كان ذو براعة في فن الأديب ، واشتهر أيضاً بالوعظ ،

(١) فوزير ، عروض النظم في الذب عن مئة أبي القسم ، ص ٩ .

المنبر أتى بوعظ توجّل منه القلوب ، وتجري به العيون ، باللفظ الرقيق ، والمعنى الدقيق (١) .

ومنهم كذلك الإمام المقرئ عفيف الدين عثمان بن عمر النافري (ت ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م) ، أحد الأئمة للبلغاء الأمجاد ، كان متصرفاً بالكلام بما يشاء كيف شاء - بحسب تعبير البريهي (٢) - مطيعاً له على البديهة الإنشاء ، حسن المحاضرة ، بليغ العبارة ، ذا فطنة وبلاغة .

وقد جاء مما مدح الإمام بدر الدين حسن بن محمد الشظبي (ت ٨٣٥هـ / ١٤٣٠م) للإمام العلامة كمال الدين موسى بن محمد الضجاعي (ت ٨٥١هـ / ١٤٤٧م) وهو يومئذ خطيب المسجد الجامع بمدينة ربيع قوله :

إِذَا رُمْتَ مِنْ وَعْظِ شِفَاءٍ فَإِنَّهُ
بِوَعْظِ كَمَالِ الدِّينِ لِلدَّاءِ يُسْتَنْطَبُ
يَقُولُ مَقَالاً مُسْتَنْطَاباً لِصِدْقِهِ
وَكَمْ مِنْ مَقَالٍ لَمْ يَلِدْ وَيُسْتَنْطَبُ
إِذَا مَا تَرَقَّى مِنْثَرّاً فَاحِ عَنَبَرّاً
وَسَاعِدَةً فَصَلَ الْخُطَابُ إِذَا خُطِبَ
فَدَلَمْتَ بِهِ لِلدِّينِ قُرَّةَ أَعْيُنٍ
وَبَلَغَ مِنْ خَيْرِ الْحَقِيقَيْنِ مَا أَحَبُّ (٣)

كما جاء في ترجمة الفقيه العلامة شهاب الدين أحمد بن عمر بن خالد الأصبحي (ت ٨٦٤هـ / ١٤٥٩م) أنه كان " استمر خطيباً في جامع النغر بعدن ، ثم انفصل عنه ، وكان فقيهاً عالماً عاملاً ، خطيباً مصقفاً ، فصيحاً نجيباً ، متطلعاً على كتب التواريخ ، حافظاً للمسير ، مجتهداً محترماً ، وإذا قرأ أو حدث

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١١١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣١٠ .

عن النبي صلى الله عليه وسلم تخال الدر يتناثر من فيه ، وله في نقادة العلم اليد العالية (١) .

ومن أشهر الخطباء باليمن في مدة الدراسة المقرئ العلامة شمس الدين علي بن محمد الرفدي للشرعي (ت ٨٧١هـ / ١٤٦٦م) ، وهو كذلك أشهر للمقرئين في مدينة تعز وشيخ شيوخ قرائها ، وأحد رجال القراءات في عصور اليمن في القرن التاسع الهجري ، تلقى هذا العلم على عدد من أكبر رجاله وأئمنه في اليمن ، " كان جهوري الصوت ، لاهطاً ، حافظاً ، ثباتاً ، محققاً ... (٢) ؛ لذلك كان من أشهر الخطباء وأبلغهم في اليمن ، رتب خطيباً في أكبر المساجد الجامعة بمدينة تعز - حاضرة الدولة ، فدام على الخطابة فيه أربعين سنة ، وكان " إذا وعظ وجلت القلوب لوعظه ، وشفيت الصدور ببليغ لفظه ، وأسكبت الدموع وحصل الخشوع ... (٣) .

ومن الخطباء المشهورين أيضاً الإمام العلامة المفتي جمال الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن يحيى بن أبي الرخاء (ت ٨٨١هـ / ١٤٧٦م) ، أحد من البلغاء والفصحاء ، وصف بأنه : " كان خطيباً مصقلاً ... " ، وقد أعجب بفصاحته شيخ الإسلام محمد بن أبي بكر الخياط حتى أنه كان يلقبه بـ (خطيب الخطباء) (٤) .

○ المكاتبات السلطانية :

للمكاتبات السلطانية نوع من أنواع الكتابة النثرية الفنية التي عرفها نظام الحكم في الإسلام من القرون الهجرية الأولى ، وهي عين ما كانت تسمى به نواوين الرسائل في الخلافة الإسلامية ، وهي تشير إلى كل نص كتابي صدر عن رأس للدولة في إطار تدبير شؤونها ، بغض النظر عن الجهة التي حوطبت به ، سواء كانت في إطار المساحة الجغرافية التي تسيطر عليها الدولة أو خارجها ، وبالتالي

(١) البرهني ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٤٢ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

المكائبات السلطانية نوع من أنواع الكتابة للنثرية الفنية التي عرفها نظام الحكم في الإسلام من القرون الهجرية الأولى ، وهي عين ما كانت تعنى به دواوين الرسائل في الخلافة الإسلامية ، وهي تشير إلى كل نص كتابي صدر عن رأس الدولة في إطار تدبير شؤونها ، بعض النظر عن الجهة التي خوطبت به ، سواء كانت في إطار المساحة الجغرافية التي تسيطر عليها الدولة أو خارجها ، وبالتالي فهي تضم كل ما صدر من الرسائل والمراسيم والمناشير الموجهة إلى الملوك والأمراء الآخرين ووجوه الدولة وأمرائها ، أو ما كان متعلقاً بأمور خاصة داخلية كنسخ الأمان للخارجين وتقليد ولاية العهد للأمراء أو مراسيم تنصيب الولاة وغيرها ، وقد اصطلاح المجتمع المسلم على تسمية الجهة المناط بها ترتيب ذلك كله والقيام عليه بـ (ديوان الإنشاء)^(١) .

وثمة أمر مهم هنا نشير إليه ، فنحن في دراستنا هذه سندرج في هذا الباب كل رسالة وجهت من الحكام والسلطين والأئمة إلى بعضهم أو إلى غيرهم ، حتى لو لم يكن لبعضهم من دواوين الإنشاء ما يستكمل به للصورة التاريخية الدنيا المعروفة لدى الدول القائمة ؛ وذلك لأن بعض للحكام والأئمة لم يستعينوا مكاتب الإنشاء ، إما ثقة بالنفس والشعور بعدم الحاجة إليه ، أو بسبب بساطة شكل النظام الإداري القائم كما كان الحال لدى بعض الأئمة الزيدية ، إذ كان الإمام نفسه - مع التأكيد على أنه كان على قدر عالٍ من الكفاءة - هو الذي يتصدر لكتابة الرسائل والتعليم اللازمة .

بالنسبة للدولة الرسولية فقد اعتنت بدواوين الإنشاء عناية كبيرة ، وسارت في تنظيمه وفق الأساليب التي عرفتها دواوين الإنشاء في دولة المماليك في مصر^(٢) ، كما استعارت كذلك اسم القائم عليه وصفته ، فكان يدعى بـ (كاتب الإنشاء)^(٣) ثم

(١) الظاهري ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والممالك ، عناية بولس راويس ، المطبعة الجمهورية ، باريس ، ١٨٩٤م ، ص ٩٩ ، د. حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والفولكلور على الآثار العربية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٥م ، ج ٢ ص ٦٦٧ ، ٦٦٨ .

(٢) الحصري ، ممالك الأيوبيين في ممالك الأمس ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، المعهد العلمي الفرنسي بالآثار الشرقية ، القاهرة ، (د ، ت) ، ص ١٥٤ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٣٤ .

(٣) الحصري ، ملخص لفظان والألقاب ومصباح الهدى للكتاب ، ق ١٠ - ب .

بتطوير ديوان الإنشاء باستقدام الكتاب المشهورين للقيام بمهمة الإشراف عليه^(١) ، كما قلنوا عدداً من لأفاضل أدياء اليمين من ذوي الخبرة والدراية بالمكتبات والمبرزين في علوم اللغة والبلاغة والأدب ليكونوا كتّاباً للإنشاء في بلاطهم^(٢) .

ولم يحفل المؤرخون اليمينيون وغيرهم كثيراً بإيراد نصوص الرسائل والمكتبات السلطانية ، وبعضهم اكتفى بالإشارة إلى صدورها ، لذلك فقد قلّت النماذج كثيراً ، ومن خلال ما توفر منها يتضح شيوع الاعتماد على السجع ، والدقة في انتقاء الألفاظ ، وكثرة الاقتباسات والتناص من للقرآن الكريم والشعر وغيره ، وموازنة المقاطع الكلامية ومرانفتها لإحكام الصنعة لتتشابه في ذلك مع ما كان شائعاً في غيرها من الأقطار الإسلامية^(٣) ، كما تنوعت أساليب الاستهلال والخاتمة بحسب مقام المرسل إليه^(٤) .

ومن أشهر من تولى ديوان الإنشاء في مدة الدراسة الأديب أحمد بن أبي بكر بن معدن (ت ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م) ، والإمام الفقيه الأديب إسماعيل بن أبي بكر المقرئ (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م)^(٥) .

(١) الجندي ، الملوك ، ج ٢ ص ٥٦٦ - ٥٦٩ ، السحاي ، الضوء السامع ، ج ٢ ص ١٤٩ ، ج ٤ ص ١٥٣ ، ج ٥ ص ٢٠٥ ، ج ١٠ ص ٢٥٥ ، ابن عديمجد ، بهجة الزمن ، ص ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥

(٢) الجندي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٥٦٤ ، الفاسي ، العهد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، ج ٤ ص ١١٠ ، ١٢٢ ، ابن فهد ، غاية المرام بلخيار سلطنة البلد الحرام ، تحقيق فهم محمد شلتوت ، معهد البحوث الحمية وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٩٨٨م ، ج ٢ ص ٢٨٥ - ٢٨٧ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، عبدالله قائد الجادي ، الحياة العلمية في زهد ، ص ٢٥٥ .

(٣) د. شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي - عصر الدول والإمارات ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٩٠م ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٤) الفاسي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ ، القلقسدي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٧٢ ، ٧٣ ، ٤٩٢ ، ٥٠٠ . التولوية ، ج ١ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ ، القلقسدي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٧٢ ، ٧٣ ، ٤٩٢ ، ٥٠٠ .

(٥) الفاسي ، العهد الثمين في أخبار البلد الأمين ، ج ٤ ص ١٣٢ ، الحرجي ، طرق أعلام الزمن ، ص ٦١ - ب .

وقد ذكر البريهي^(١) أن الفقيه الأديب أحمد بن محمد بن علي بن ميلس (ت ٨١٦هـ / ١٤١٣م) قد كان بارعاً في البلاغة ، وله معرفة قوية في فن الألب والإنشاء ، لذلك طلبه السلطان الناصر الرمولي (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) ليستخدمه في ديوانه إلا أن أباه تضرع إليه ليعذره عن ذلك ويعفيه فأجابه وتركه .

وهذا الفقيه الكاتب الوزير أبو الحسن علي بن يحيى العمراني (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) ، كان واحداً ممن برع في الكتابات بديوان الإنشاء في اليمن بالقرن التاسع الهجري بصنعاء ، فنصبه الإمام الناصر صلاح الدين كاتباً له ومسؤولاً عن مراسلاته^(٢) .

وفي صنعاء أيضاً كثر المقرئ جمال الدين محمد بن إبراهيم المساوي الخولاني (ت ٨٦١هـ / ١٤٥٦م) مفوضاً إليه كتابة الإنشاء وأمر للوقف والوصايا في عهد الإمام المنصور بالله للناصر بن محمد (ت ٨٦٧هـ / ١٤٦٢م) بصنعاء ، ففاق أهل زمانه برسائله المبهجة وكلامه المسجوع - حسب تعبير المصدر - ومما يذكر عن بلاغته الشفوية أنه كان خطيباً ، فكان إذا وعظ كمن لانت له صم الصخور ، وأذهب كلامه كل زيع في الصدور ، يلغظ موافق لعقيدة أهل السنة والجماعة^(٣) .

وممن امتلكوا مهارات كتاب الإنشاء والقدرة على القيام بالمكتوبات السلطانية العلامة المتصوف شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن عبد الرحمن العقيلي القرشي المشهور بالجبرتي (ت ٨٦٨هـ / ١٤٦٤م) ، فقد كان له خط حسن ، قيل لم يوجد في اليمن جميعه لخطه نظير ، حتى قال من رأى خطه أنه يحس فيه قول البستي :

إِذَا بَرَى قَلَمًا يَوْمًا لِيُعْصَمَهُ
يَقُولُ هَـزْ غَدَاةَ الرُّوْعِ غَائِلُهُ
وَلَيْنَ أَمَرُ عَلَى رَقٍّ أَتَمِنُهُ
أَقْرُ بِالرَّقِّ كِتَابُ الْأَنَامِ لَهُ^(٤)

(١) طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٢٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤ .

(٤) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٤٣ .

وكان يقول أنه يعرف لغة أربعة ألسن من ألسنة العجم ، وأنه محقق للأقلام السبعة^(١)، ويكتب بها ، ويفرعا فروعاً كثيرة ، ويذكر عليها ، وأنه لو شاء أن يصنف فيها كتاباً في علمها لصنف ، وقد كان البلغاء وأصحاب صناعة الإنشاء والكتابة يفنون عليه من الشام ومصر والعجم^(٢) .

ومنهم أيضاً الشيخ جمال الدين محمد بن إبراهيم المغربي الأندلسي أصلاً العدني مولداً ووطناً الشهير بالشماخ (كان حياً في ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م) ، كانت له إجابة كبيرة في فن الأدب والرسائل وكتابة الإنشاء والمسائل ، " سهل الألفاظ ، عذب الكلام ، لوحد البلغاء ، وأشهر النصحاء ... " ^(٣) ، وكان تاجراً يبيع الشمع في متجر له في مدينة عدن ، إلا أن تجارته لم تكن تقطعه عن الاشتغال بفن الأدب ، وقد جمع كتاباً يحتوي على فصول فيما يحتاجه الإنسان من العقائد الدينية والقواعد الإسلامية ، وفيه أدعية وعزائم مشهورة ، وأشعار ومكاتبات بيده وبين أقرانه من أهل الأدب^(٤) .

من نماذج المكاتبات السلطانية في مدة الدراسة تلك الرسالة التي بعث بها السلطان الرسولي الأشرف الثاني إسماعيل (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) إلى السلطان المملوكي الظاهر برقوق (ت ٨٠١هـ / ١٣٩٨م) رداً على رسالة كانت قد وردت

(١) ذكر الحيشي في حاشية البرهبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٤٤ أن المقصود بالأقلام السبعة بعض أنواع الخطوط المشهورة لدى كتاب الإنشاء وقدواوين ، وهي كثيرة منها : قلم الطومار وهو أجلها ، ومنها قلم الثقلين ، وقلم السجلات ، وقلم اليهود ، وقلم المؤامرات ، وقلم الأمانيات ، وقلم الديباج ، وقلم المديح ، وقلم المرمع ، وقلم النشاجي ، وأن الفصل بن مهمل الوزير المباسي في عهد الخليفة المحتشم قد تم اختراع قلماً آخر ، وقد عد كأحسن الأقلام وهو القلم الرناسي ، وأنه بدوره قد تفرع منه عدة أقسام منها قلم الرناسي الكبير ، وقلم النصف من الرناسي ، وقلم الثلث ، وقلم صمغير للنصف ، وقلم خفيف الثلث ، وقلم المحقق ، وقلم المستور ، وقلم قوشى ، وقلم الرقاق ، وقلم المكانيات ، وقلم عبار الحنية ، وقلم الفرص ، وقلم البياض ، ولم أجد من القرائن ما يبين على التأكد من أن المقصود في المصدر التاريخي في ترجمه هذا الفقيه المتصوف هي هذه الأقلام أو غيرها ، انظر الحموي ، معجم الأقباء ، ج ٦ ص ٦٠ .

(٢) البرهبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٤٢ - ٢٤٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٣٨ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

إليه منه ، وقد نقلها القلقشندي^(١) كلمة ، ومما جاء فيها : " أعز الله تعالى أنصار المقام الشرف العالي السلطاني الظاهري ، وزاده من السطة والقدرة ، وضاعف به مواد الاستظهار والنظر العزيز ، وجعل الظفر مقروناً برأيه أنما يمت ما بينهما تمييز ، ومحبوياً إلى عساكره المنصورة حيث نوجعت وفتح بركة أيامه كل مقفل تمتع بأمر وجيز ، ولازال متمثل الأوامر والمواسم ، رافلاً في أردان الفز والمكارم ، ممدوداً على الأمة منه ظل المراحم ، بمحبه وكرمه .

أصدرها إليه من زبدة ربيع المحروسة ، معربة عن صدق ولاته ، متمكنة بوثيق أسباب الآله ، ناشرة طيب ثنائه ، مترجمة ناطقة لمنثور الكتاب الكريم الطاهري الوارد على يد المجلس العالي الدرهماني ... قتلقياء باليدين ، ووضعاه على الرأس والعين ، واستدلنا به على شرف همت ، وصفاء مودته وتأكيده أخوته ، وسألنا الله تعالى أن يمنحنا بقاء دولته القاهرة ، وبشر في المشارق والمغرب أعلامه الزاهرة ، فقصنا ختامه ، فوجدنا فيه من نشر السلم الأريج أذكاه ، ومن أنوار ما يحه القلم الشرف ما يجعل منه نوار الربيع وهاء ، فانشرحت به الصدور ، وتزايد به السرور ، وقرت به الأعين .

... وبرزت مراسمتنا إلى النواب في تفر عدن المحروس أن لا يتعرض في عشور ونول ، وحملناه على ظهور مراكبنا عرماً مكراً ، وعرفناه أن لا يصرف على الحمل السعيد ولا الدرهم الفرد ، وذلك قليل منا لأجل غلمان بابكم الشرف شرعه الله وعظمه ... ووضح لعلله الكريم ما أفاء الله به علينا من النصر الذي خففت بنوده ، وأشرقت سعوده ، وبرت سيوفه على رقاب المارقين ، وأطردت في راياته المآرب فتناولها بالبين ، **تَصَرُّ مِنْ اللَّهِ وَفَتَحَ قَرِيبٌ^(٢) وَيَقْبِرُ الْمُؤْمِنِينَ** (١) .

وقح القلاع والمصانع ، والاستيلاء على المزارع والمزارع ، واستملا شاة المارقين ، واسترحمنا حصن قاف المحروس بعد طول مكثه تحت يد العرب ، فكمن من كمي مقول ، وأسير مكبون ، حصان ترك سبيلها ، ورب حصان كثر عليه عويلها ، فحرثنا المعقل ، وأطلقنا الصقائل ، وأوظفناهم الحسيم ، ومنا

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٨ ص ٧٣ - ٧٧ .

(٢) سورة الصف .

جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُفَرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ^١ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ
اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١).

... ولولا المهم الشرف لاستوقفنا عدداً عاماً كاملاً من هذا التاريخ . ليملي علينا آيات
المقام الشرف ، شرفه الله تعالى وعظمه لسانه ما يديه في المواقف الشريفة شفاهاً إن شاء الله تعالى في
سابع حمادي الآخرة سنة ثمان وتسعين وسبعمائة ، أحسن الله ختامها ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وبإحسان
وظاهراً " .

ومن نماذج الرسائل السلطانية أيضاً الكتاب الطويل الذي بعثه الإمام العتوكل
على الله يحيى شرف الدين (ت ٩٦٥ هـ / ١٥٥٧ م) إلى السلطان الظاهر الثاني
علمر بن عبدالوهاب الطاهري (ت ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م) آخر سلاطين الدولة
الطاهرية ، بعد أن اشتدت وطأة الأخير على رجال الزيدية وعلمائها في إطار
الصراع القائم بين الطرفين في مطلع القرن العاشر الهجري ، ومما جاء في الكتاب
ما يأتي : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولنظروا نفس ما قدمت لقد ، واتقوا الله إن الله خير بما تعملون
، ولا تكونوا كالدِّينِ نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أولئك هم الفاسقون ، أما بعد : حمداً لله حق حمده ،
وشهادة ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة حاتم لوعيدده ، راج لوعده ، والصلاة والسلام على
سيدنا رسوله وعبيده ، وعلى الناجين بنحوه ، والفاصدين بقصده ، فهذا كتاب ممن هو لجميع أمة محمد
كالوالد الشفيق ، باعتبار النصيحة التي هي الدين ، مع سيد المرسلين ، للخاص والعام والقريب
والبعيد ، كيف ممن يرجى قبوله للنصيحة صلاح عامة المسلمين ، وسداد كافة المؤمنين ، ودفع البلية
عن أهل بيت الأمين ، وسكون واعينهم الحاصلة بما نالهم من التحجيس والتحجين ، وحقن دماهم ودماء
الناس أجمعين ، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، لا جرم من كان القصد الحسن التصدير بهذا البلاغ النور
إلى ملك اليمن ، فأقول : ... أيها الملك الذي ترينت له دنياه ، فظن أن رضى مولاه في فعله ما يطابق
هواه ، وغرّه قول جهال أوليائه : إن الله أكرمهم بالقهر لأعدائه ، سلام عليك ، والله وسيلتي إليك ، في أن

(١) سورة آل عمران .

تبع كلامي في كتابي هذا تتبع طالب الرشاد ، مفرغ قلبه من الأحقاد ، منصف من نفسه ، ذاكر قرب حلول رسمه ، وحيداً لا مؤنس له ولا وِزَرَ ولا مهوب ولا مفر إلا ما اكتسب من صدق اليقين ، واستصحاب تقوى المتقين ، ولا يصدك ثقة المتكبر عن تأمل ما أتى به مذكره ، فتصبحة في تحشين ، حبر من خديعة في لبن ، إياك أن تتبع هؤلاء فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب . . . وإذا كنت من أهل التقليد ، لن لم يعرف حكم الشرائع المفيد ، فإن عليك فرضاً واجباً ، وحنماً لازماً ، وهو التوام من تركي على فصله ووعد ، وعدم طمعه في الدنيا ومله ، أن يتلو عليك نصوص العلماء المتقدمين من الشافعية والحنفية والمالكية ، إذ لم يكونوا يميلون عن علماء أهل البيت الطاهرين ، ثم تنظر هل أنت في أفعالك وأقوالك أحق بالأمر أم من يتأهل لهذا المرس أهل البيت الجامع لشروط الزعامة ، وأسباب الإمامة ، التي هي كلها أمور دينية ومصالح كلية . . . (١)

ومن نماذج المكاتبات السلطانية أيضاً الرسالة التي أرسلها الإمام الزيدي السابق نفسه - الإمام شرف الدين - إلى أمير الحملة المملوكية التي كانت قد وجهتها دولة المماليك الجراكسة بمصر لمواجهة البرتعاليين ، إذ بعث الإمام رسالة إليه محاولاً استملاكه إلى جانبه ضد السلطان الطاهري ، معهداً له مساوئه ومشيراً إلى صور اضطهاده لآل البيت النبوي - من علماء الزيدية - يقول في الرسالة : " بسم الله الرحمن الرحيم ، نعمة سبقت وشملت ، ومنحة تمت وكملت ، بلغت من لدن حكيم خير ، على أهل بيت نبيه الشير لنذير ، أحرأها على يد ملك السيف الأمير ، الهمام الخطير ، أمير الأمراء الإسلامية ، مفرج كرب العزة الطاهرة الزكية ، الناقم بآثار الحسين من الفرقة الغوية ، الظالمة العائرة ، المنحلي من أجل ذلك بكل زبر ، المنحلي عن كل شين ، الوافي بحق سيد الشهداء الحسين ، الأمير الجليل النبيل حسين ، حياء الله من السلام بأسائه ، ومن الإكرام بأركائه وأهناه ، والله المسؤول أن يوقفنا وإياه لإصابة مراده ، وهداية عباد ، وإجراء أحكام شرعته الطاهرة في بلاده ، وتطهيرها من آثار الجائر وتطهيرها من ظلمات جرائمه وعناده ، وبعد : فإن كتابنا هذا تعرف خاطر الأمير ، وفقه الملك

(١) شرف الدين ، المواهب السنية ، ص ٢٦ - ٢٧ ، وأشار إليه شرف الدين ، في سلوك الذهبية ، ص ٢٥ باقتضاب .

القدير ، بأن لم نزل إلى الله مبتهلين ، ولما لديه من الفرج منتظرين ، وبالتجرد لما بدت من عدو الله الحائر
 عامر ، والقيام بالدعاء إلى دفاعه وجهاده استقلالاً لأوامر الله الملك القادر ، ولكن منع من ذلك عدم المعين
 والناصر ، وخذلان من أهل الزمان المشؤوم القاصر ، وسيل من الناس إلى الأطماع الخبيثة ، وانخداع
 برخارف الأباطيل الفاضحة الميعة ، حتى تمكن منهم هذا الظلم النشوم ، وأوقعهم من الخزي والوبال
 والهوان في أقصى النجوم ، وشمل شره المرنى والمروى ، والضعيف والقوي ، والشجي والحلي ، وشجع بمعظم
 جيشه ومكره أهل بيت النبي ، ولم يبق في سلطانه لأهل البيت أقية ، ولا أحبيب لهم بإحاطة نافعة واعية ،
 حتى يدهم الظلم في البلاد ، وفرق بين الآباء منهم والأولاد ، ومات الأكثر منهم في تحوم اليمن مطرودين
 متبددين ، يتننى الولد أن يحضر موت أبيه ، والوالد أن يشاهد أحوال بنيه ، وفعله في آل المصطفى ما حرم
 الله في ملكه اليمين ، بل في سبي الكفار الخارجين عن الدين ، وأعانهم على ذلك رجل منا أهل البيت .
 ادعى ما ليس له بحق ، فأكبر عليه الإمام الوشلي ، [فلم يزل صاحبنا يعرض هذا الطاغية ، وينصر
 فرقه الباغية ، حتى تمكن من الإمام الوشلي] ، محمد بن علي ، ولم يذرف أهل زماننا عن القيام في
 مقامه الجلي ، ولقد همم - أحزاه الله - بقصد الحرمين ، وإخراج من فيه من ولد الحسين ، فرحمتنا مع
 بذل ما بقي معنا من جهد في دفاع مجهود المذاكرة له كثير من الحدود إلى الله سبحانه وتعالى ، وسألناه
 تعجيل الفرج ، وإطفاء وهج المهج ، على يد من هو أهل للمحامد المبرورة ، والمتعصدين المشهورة ، في
 حياطة الدين والرعاية لحق رسول رب العالمين ، وما ذاك إلا لسرورة صلحة ، وتجارة رابحة ، من السلطان
 الأكرم ، والمستطيل الأعظم . فأنصوه أطال الله بقاءه وتوفيقه ، وأوضح إلى كل مقصود مبرور طريقه ،
 ولقد رعا لسر الله العظيم في أهل البيت والنسب الكرم ، الذي جعله الله في مصر خليلة إبراهيم ، وخاتم
 أنبيائه محمد عليهما وعلى آلهما أفضل الصلاة والتسليم ، ونرجو أن الله تعالى قد وفقكم ، أيها القراء
 الأعلام ، لمشاهدة من قال فيهم الملك العلام : " فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ،
 أعزة على الكافرين ، يجاهدون في الله ولا يحامون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع
 عليم .

وقد رجحنا إرسال هذه الرسالة بيد صاحبنا الفقيه العالم العامل صلاح الدين ، نقيب المجاهدين صلاح بن سراج الله ، كتب الله هدايته ، وأحسن رعايته ، وهذا كتابنا يحتوي على التهئة الستية ، عما فتح الله به من الفتوحات الحسية ، ولحث لكم على استدراك هذه البقية ، من عزة نيكم الظاهرة الركية ، وبذل المعاونة على استخلاص سائر البلاد من يد هذا الطاغى وأعوانه وأنصاره ، وقد بقيت لنا بلاد مجاورة لبلادنا ، ونحن نقتصر إلى الإعانة سكم ، بما أمكن من الرجال والعدة ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، والله خير الناصرين ، والفقيه الصالح صلاح يحقق لكم ما لا يتسع له الكتاب ، ولا يقوم به إلا المشافهة والخطاب ، رصلة الله على سيدنا محمد وآله وسلم (١) .

○ المكاتبات الإخوانية :

تختلف المكاتبات والرسائل الإخوانية عن المكاتبات والرسائل السلطانية في أن الأخيرة تكون بين طرفين يكون أحدهما لو كلاهما حاكماً أو سلطاناً ، وقد يكون الآخر - المستقبل للرسالة - حاكماً أو سلطاناً أيضاً ، كما أنه قد يكون أميراً أو ولياً أو متمرداً ، بينما يكون طرفا الرسائل الإخوانية في مقام ومنزلة اجتماعية واحدة أو متقاربة ، وغالباً ما يكون الطرفان قرينين أو كفوئين أو نظيرين في علم وفن واحد ، وقد يندرج في فنتها ما كتبه الأبناء إلى الحكام لا العكس ، ويكون موضوع الرسائل الإخوانية في إطار ما يتبادلونه الأبناء والعلماء فيما بينهم من علاقات ، وما يقع لهم من أحداث ، وبسبب الخلفيات العلمية والأدبية العالية التي يتمتع بها المرسل والمرسل إليه فإننا نلاحظ أن نصوص الرسائل تأتي في هيئة مقطوعات شرية عالية السبك ، جزیلة اللفظ ، قوية البناء ، بليغة فصيحة ، وقد حفظت لنا بعض المصادر عدداً من نصوص الرسائل الإخوانية التي تعكس لغة العصر في القرنين التاسع والعاشر الهجريين وما قبلهما ومميزاتها الفنية الرفيعة . ومن أفضل أمثلة الرسائل الإخوانية تلك التي أرسلها الشاعر الأديب محمد بن جعفر الوصافي إلى صديقه الشاعر الأديب القاسم بن هتيم ونقلها في

(١) شرب الدين ، المواهب السنية ، ص ٢٦ - ٢٨ ، شرب الدين ، السلوك الذهبية ، ص ٢٥ - ٢٦

ديوانه^(١) ، ويقول - في مطلعها بعد أن صدرها بأنبات شعرية - : " وسبب هذه الرسالة المختصرة ، والألفاظ القاصرة المنقصة ، إلى ذلك الجنب المحروس ، والفناء المأثوس ، والآداب العربية ، والنساب البهرية ، والطلعة الوضعية ، والأخلاق الروحية لرضية ، قول العلماء : المعارف ذم مؤكدة ، وقول النبوة : " اقلوب جود مجتدة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف " ، وما عسى أنحمل من المجازي إلى الجوهر ، وما عسى أنحمل من ورق المرار إلى العير والمندر . وما عسى أنحمل من خشف التمر إلى خبير .

ولما ينسبط المنبسط على أهل الأحساب البيض ، وسحب المنسحب على أهل الذخيرة المرض ، والله تعالى يقول في القرآن الذي ليس في حكمه تقصير : **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ** ... **﴿٢﴾** ، ولما حدث في أرض اليمن ما حدث من حاشية الزراعة ، وألف الأديب لأمله من الزراعة ، وهي أشرف بضاعة ، وحث قصائد أنتاجها ، وسطرتها البراعة . وسيرت هذه الرسالة على أيدي الجماعة ، ولولا عوفق الزمن ما تأخرت ساعة ، والله على الناس حج البيت من استطاعه .

ولكنه يصل بي من رواة الأخبار ، وجوانة الأقطار ، من البلاد الشريفة ، والأفنية الشمسية ، أن أقواماً من سقط المتاع ، ومن يجب أن يباع ولا يبتاع ، يتولون الأقاويل . ويحرفون الكلم عما رزق به جبريل ، ويستزقون بالأباطيل التي يزورون ، وينسبون إليّ بعض ما يصورون ، وما يكونون إلا بأنفسهم وما يشعرون ، وأيم الله لو زارت لأسكت الذين يصغفون ، ولو قرأت من بعض قلم وما يسطرون ، إلا أنهم يحرفون على ذلك في المواضع البعيدة ، ويغفون به من لا يعرف القصيدة من القصيدة ، وأولوا أشرف متبعين بديرية هؤلاء الأنكاس ، وما على الأمد البيهاس ، من النواحي من بأس ، والنبي ﷺ تعود من

(١) ابن حمير ، ديوان ابن حمير ، تحقيق محمد بن طلي الأكرع ، دار العودة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٥ م ، ص ١٤٩ - ١٥٣ ، العقيلي ، قتلبيخ الأديبي لمنطقة جازان ، منشورات نادي جازان الأدبي ، ط ١ ، ١٩٩٠ م ، ص ١٥١ - ١٥٣ .

(٢) سورة الأنفال .

الْوَسْوَاسَ الْخَنَّاسَ ﴿١﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٢﴾ مِنَ

الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٣﴾ (١) فإن احتاج الملوك إلى مشورة فيها السداد ، وتقيمة نفعه ، لجهلهم بأهل

البلاد ، فعولاي - أيده الله - أولى من أشار عليهم ، وأفضى إليهم ، فطالما حملني أملاك اليمن ،

وشروا شِعْري بأنفس ثمن ، وهذه أول تحفة إلى أشرف بني حسن ، وأول صيف ضيقت فيه اللين ،

وهم - كرم الله أصلهم ، وكثر نسلهم - أهل العوارف والمكن ، وإن لم يكونوا فمن الله تعالى تقي تلك

النفس النفيسة ، والهمم الرئيسة ، وعليها أفضل السلام ، وأسنن التحية والإكرام .

وقد رد الأديب للقاسم بن هُتَيْمِل على هذه الرسالة البديعة بما يناظرها من

الإجادة والبلاغة والفصاحة وقوة العبارة ، وجاء في رده عليها قوله : " وردت - أدام

الله سعادة مولاي - التحفة المرضية ، والنفحة الرضية ، الجليلة الخطر ، الدقيقة النظر ، المحاصرة الحبيب ،

المعجزة الأسلوب ، الطالعة في تلك أرجح ، الموصحة في كل أمر مرجح ... ورود العافية على السقيم ،

والثروة على اليتيم ، والنفى على القدير ، والإطلاق على الأسير ... كانت ألد من غفلة الرقيب ، وأهيج

من طلعة الحبيب ، وأحسن موقعاً - مني وعندي - من البشرية أنت بعد النعي ، وكأن حبيباً أنشأها ،

والولد وشأها ، والحسن ذهبها ، وحسان هذبها ، وأنا اهتدت لها الأفهام البشرية لولا الروية الحُيُوتَةُ ،

فعلت أنها جوهرة من خواطره ... فما ردت عن الحيرة في أمري ، والفكر في سري وجهري ، فرأيت

أني أستبعدت الشقة ، ولم أتكلف المشقة ، فسرت حوارِي ، وأغصيت إهْزاري ، ميلاً إلى التخفيف ،

على خاطر الشرف ، هنكت حرمة الأدب ، وأغرقت شواطئ القصب ، وإن أمرت بالجوب ، وبعت

بالكتاب ، جعلت عروضي من حرى الولد لثنا ، وقابلت بالشمس السها ... ولو أنني ذهبت إلى مدح

فصاحته وشجاعته لجاوزت حد الإسهاب ، وتجرعت في الإطناب ، وكنت كمؤيد الإصباح بالمصباح ،

أو كالذي قال : ما أحلاك يا غسل ... (٢)

(١) سورة الخناس .

(٢) ابن حمير ، دهول ابن حمير ، ص ١٥٣ - ١٥٥ .

ومن الرسائل الإخوانية أيضاً تلك الرسالة التي أرسلها الأديب علي بن محمد بن إسماعيل الفاشري (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م) إلى السلطان الرسولي الأشرف الثاني إسماعيل (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) ، ولم يورد فيها كلمة واحدة تحتوي على حرف معجم منقوط ، وكلها مهملة عارية من النقط ، وأورد السخاوي^(١) جزءاً منها ، يقول فيها كتابتها : " أعلى الله سماء سمو علك ، ورعاك صدوراً ووروداً وحماك ، وأسمى أسماك علاء السمك ، وكللك مدى الدهور ، وعمرتك لكل معمر ، وأكل لك مدى السرور ، وكل عددك ، وسدد أودك ، وملكتك عام الملوك ، وسهل لك وعمر السلوك ، وكم سؤال أسك ، ودام مدى السعود لك ، ما هلك لله ملك ، ومحرمها حال الدهر حاله ، وحرر سؤاله ، وأعلم رحاله ، مؤملاً أعلى الآمال ، ولا عمل له إلا المدح وهو أعلى الأعمال ، ومراده القود مسروراً وطواع الأعداء حرلاً وعوراً " .

ومنها تلك الرسالة التي بعثها الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير (ت ٨٢٢هـ / ١٤١٩م) إلى شيخه - في الحديث النبوي - وتربيته ، وناحية السن ، الإمام للمحدث الحافظ نفيس الدين سليمان بن إبراهيم بن عمر بن علي العلوي (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م) والتي زعم فيها المؤرخ البريهي^(٢) أنها قد احتوت على شواهد تثبت أن الإمام الهادي قد دخل مذهب أهل السنة والجماعة وهجر معتقد آبائه وأجداده من الزيدية ، وجاء في متن الرسالة وما يلي : " ... ثم إنني كنت في إبان الحداثة مولماً بعلم الكلام ، وفي هذه المدة رعبت عنه إلى علم الحديث ، ورجعت عما كنت عبده الفهري ، وفصلت في الحديث من قرى ، وقلت : (الصيد كل الصيد في خوف العرا) وكم بين علم نزل لا يعلق صاحبه عن الهوى ، معصوم في جميع أحواله عن الخطأ ، وقد تلقى في حصرة القدس شباب النجوى ، وكان من القرب قاب قوسين أو أدنى ، وأراه الله ثواب نفسه وبمث التمس في حنة المأوى ، وجاوز به ولم يقف عند سدره المنهى ، (ما راع البصر وما طغى ، ولقد رأى من آيات ربه الكبرى) ، وبين علم ثارت بين أهله عجاجة المراء ، فأعشى أبصار كثير منهم عن طريق الهدى ، وأصحابه أهل الصراط السوي ومن اعتدى أولئك أهل المصطفى ، المعهود على رؤوسهم تبجان الرضى من الملك العلى ، وأشد :

(١) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٥ ص ٢٩١ .

(٢) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٨ .

عَلَيْكَ رَحْمَتُهُمْ فَأَحْمِلْهُ قَرْضًا
 وَقَسِّمْ حَبَّهُمْ فِي اللَّهِ قَرْضًا
 وَأَتَسَبِّحُ بِالْقَوَائِمِ مِنْ هَذَا أَمْرٍ
 وَخُضْ فِي عَلَيْهِمْ تَرْضَى وَتَرْضَى
 أَحِبُّ سَمَاءَ أَرْضِهِمْ وَأَرْضًا
 تَكُونُ لَهُمْ سَوَادَ الْعَيْنِ أَرْضًا
 أَجِبَاءَ الْقُلُوبِ هُمْ إِذَا مَا
 عَدَتْ مِنْ كَرَّةِ التَّدْقِيقِ تَرْضَى (١)

ثم قال : وهذه الطريقة الجادة ، وهي اتباع الكتاب والسنة ، وحسنا ما ورد في آيات آداب القرآن الكريم : (قل
 آما بالله وما أنزل علينا ...) الآيات ... (٢) .

ويأتي في هذا الباب أيضاً التقريض الذي كتبه الإمام الأديب إسماعيل بن أبي
 بكر المقرئ (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) على تاريخ الإمام تقي الدين محمد بن أحمد
 القاسي (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٩م) المعروف بـ (العقد الثمين في تاريخ البلد
 الأمين) وقال فيه : " الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، وقفت
 على هذا التأليف التالي فوائد العبر ، والآتي بأحاديث الموعظة الحسان بأصح خبر ، فله در مصنفه من
 إمام حافظ ، وبحر بجواهر العلوم لافط ، ولا حق مرز على السابق ، وبذل في علو مرتبة الأعلام الحفاظ
 موافق ، وبلغه الله غاية الأمانة ، وأحرل ثوابه على هذا المقرون بحسن التبة ، آمين آمين " (٣) .
 وذكرت بعض المصادر أن للإمام المقرئ أيضاً رسالة إنشائية كتبها
 للسلطان الناصر أحمد الرسولي (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) (٤) .

(١) البرهني ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣١٠

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٣) القاسي ، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، ج ١ ص ٣٥١ .

(٤) قاسي ، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، ج ٤ ص ١١٠ - ١٢٣ ، ابن هبذ ، اتحاف السورى
 بأخبار أم القرى ، تحقيق فهم شنتوت ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى،
 مكة المكرمة ، ١٩٨٤م ، ج ٣ ص ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ .

ونختم بالرسالة التي أرسلها الفقيه المتصوف أحمد بن عبدالله بن عبدالرحمن بالفضل (ت ٩٢٩هـ / ١٥٢٣م) إلى الشيخ الفقيه المتصوف عمر بن عبدالله بن إبراهيم بن أحمد باجمال للحضرمي (ت ٩١٦هـ / ١٥١٠م) ، ومع أنها ليست كسابقاتها من ناحية الفصاحة والبلاغة ، ولا نوردها هنا إلا لكونها بين شخصيتين صوفيتين مختلفتين عن النماذج السابقة ، ومما جاء فيها : "تمّ المسؤل " سيدي - أن تلاحظوا محكم بنظرة إلهية ، نطلع فيه الأخلاق الجميلة ، ونسبحي عنه الأخلاق الرذيلة ، فإن لي قيسه عجن فيها ، وبها أخلاق ذميمة عجزت عن معالجتها ، ولعل نظرة تريح من المنا ، أنال بها المنى ... كان الله لكم ، وحراكم الله عن المسلمين حيراً ، وما ذلك على الله بعزيز ، زادكم الله من فضله وعطائه " (١) .

■ (ب) النثر المرسل (التأليفي) :

إذا كان النثر المسجوع الشامل للخطابة والرسائل السلطانية والرسائل الإخوانية والمقامات يتميز باحتوائه على أشكال السجع والقافية بين الكلمات الواردة في ختام الجمل والعبارات ، ويتضمنه للمعاني البيانية والمحسنات اليدعية ، فإن النثر للمرسل المعروف بخلوه من تلك المميزات الخاصة بالنثر المسجوع - قد كان ، في الغالب ، لغة المصنفات العلمية في جميع فروع المعرفة ، والإشارة التي أوردها إلى أن هناك من المؤلفين من العلماء من حرص على أن يجعل مصنفه كاملاً كمقطوعة طويلة من النثر للمسجوع لا تعني انتهاج كل المصنفين للأسلوب ذاته ابتداءً فالشريحة التي بين أيدينا من مصادر الدراسة التي صغيت في للمدة التي ندرسها معظماً ثراً مرسلأ .

لن ينحصر حديثنا عن أمثلة للنثر المرسل في المصنفات العديدة في فروع العلوم ، بل إن المؤلفات والموسوعات الأدبية التي كان الأدب للنثري محوراً الأول هي لبُّ النثر المرسل وشاهده الأكبر ، وخاصة أنها جمعت بين شأياها فنونه المتعددة من حكم وأمثال وقصص وأخبار وفوائد وملح وطرائف وغيرها .

ومن اليمنيين الذين برعوا في الأدب وسويه - معرفة ورواية - في القرنين التاسع والعاشر للهجريين لنذكر الأديب الزبيدي أحمد بن أبي بكر بن معدان

(١) الهدروس ، النور السافر ، ص ٢٠١ .

(ت ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م) الذي اشتغل بقنون الأدب وشارك في كثير من العلوم ، وبرز في منثورها ومنظومها ، كما روت بعض المصادر أن الشيخ للمؤرخ والنسابة أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م) كان ممن قرأ في الأدب ونظم الشعر تعصباً للقحطانية^(١) .

ومنهم أيضاً الأديب علي بن محمد بن إسماعيل النشري (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م) ، وصفه الخزرجي^(٢) فقال : " أحد البلغاء العصريين ، كان لوحد زمانه ، وقريع لقرائه ، شاعراً أنيباً لبيباً ، نال شفقة من السلطان الملك الأشرف فكان لوحد جلسائه ، وأوحد أصقيائه ، وله فيه للقوائد العاخرة ، والمدائح الناهرة ، وكان السلطان يعطيه عطاءً جزيلاً ، ويحتمل أقواله وأفعاله جداً وهزلاً ، وكان حسن المحاضرة ، كثير المحفوظات ، عارفاً بالأخبار والتواريخ والأساب ، وآداب الملوك ، وكان مشاركاً في كثير من العلوم ... " وصنف في الأدب كتاب (السلسل الجاري في ذكر الجوارى)^(٣) .

ومنهم للفقهاء العلامة رضي الدين أبو بكر بن يوسف بن إسحاق المشهور بابن المستأذن (ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م) ، الخطيب المعروف بجامع عدن ، عرف - مع تميزه في الخطابة - ببراعة في فن الأدب^(٤) .

ومن رجال الأدب آنذاك أيضاً الإمام إسماعيل بن أبي بكر المقرئ (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) الذي كان له في الأدب المنثور باع طويل ، ولا نقل مشاركته فيه عن مشاركته في الشعر التي رأيناها في العنوين السابقة من هذا الفصل ومن الفصول السابقة ، وصنف في الأدب كتابه (غاية للكمال في سوائر الأمثال)^(٥) .

(١) قزويني ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩٢ .

(٢) الخزرجي ، العقد الفلج الحسن ، ق ٥٠ - ب .

(٣) السحاوي ، الضوء اللامع ، ج ٥ ص ٢٩١ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٢٢ .

(٤) قزويني ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٢٩ .

(٥) منه نسخة مصورة بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي التابع لجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، ميكروفيلم رقم (٢٩٥ أ ب) ، وهي مصورة عن النسخة المحفوظة ببلد في هولندا تحت رقم ٣٥٩ ، علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في تهز ، ص ٤٣٧ .

ومنهم أيضاً الفقيه شهاب الدين أحمد بن أبي القاسم السهامي (ت ٨٣٨هـ / ١٤٣٤م) الذي تتلمذ على يدي أبي بكر الدماميني الإسكندراني المصري الذي زار اليمن ، واشتهر السهامي بمعرفته بالأدب والبلاغة^(١) ، وكذلك زميله في التلمذ على يد الدماميني الإسكندراني الفقيه الأديب شهاب الدين أحمد بن عمر بن أحمد المنقش (ت ٨٧٠هـ / ١٤٦٥م) الذي برز في الأدب أيضاً حتى صنف فيه كتاب (درر الأخبار وجواهر الآثار)^(٢) .

ومن المشتغلين بالأدب أيضاً العلامة الفقيه الأديب جمال الدين محمد بن أبي القاسم المقنشي (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) كان مشهوراً بعلمه لأدب ، وقد تخرجت به جماعة من الطلبة في هذا الفن ، وقد اختير مؤدياً لبعض أولاد السلطان الأشرف الثاني إسماعيل ، ومن تأديوات على يديه السلطان الظاهر يحيى بن الأشرف^(٣) .

ومنهم الإمام العلامة الأديب حسام الدين عبد القوهاب بن عبد الله السراف النهام (ت ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م) ، قرأ كثيراً في فن الأدب على من له مشاركة فيه من علماء زبيد ، ولجأه حتى قعد لتكريسه فيها حتى فضل على شيوخه ، وكان به شعر جيد ، منه ما كتبه إلى بعض أصدقائه يطلب منه قضاء حاجة له :

سلامي يحاكي المسك طيب نكاته

ويشبه ضوء الشمس وسط سمائها

عليك جمال الدين ما لاح بارق

وما هملت مسح السماء بمائها

وقد عرضت لي يا فتى الجود حاجة

فحقق رجائي باعتاء قضائها^(٤)

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩٩ .

(٢) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣١٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٢٦ .

ومنهم أيضاً الأديب المقرئ العالم شمس الدين علي بن أبي بكر السحولي (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) ، كانت له اليد الطولى في علوم النحو واللغة والعروض والقوافي وأمثال العرب وشواهدهما ، ويشترك في علوم الفقه والمنطق والحكمة ، ووقد وردت في ترجمته بعضاً من أشعاره ، وكما ذكر فيها أن له " المقطعات العجيبة ، المحتوية على المعاني الغريبة التي لم تسمح بها قريحة أهل الوقت بمثالها ، ولا نمجت على منوالها ، وذلك كثير مما ينبغي أن يجمع في جزء مفرد لكثرة وعجيب فرائده " (١) ، والعجيب أن هذا العالم الأديب لما ابتلي بفقد بصره لم يمنعه ذلك عن دوام الكتابة الأدبية ، فقد كان يملئ ما ينظمه من شعر أو نثر ، يجمع العشرة الأبيات فأكثر ثم يلقبها على من يكتبها ، حتى إذا اجتمع شيء كثير عرضه على ظهر الغيب (٢) .

ولما وجهه للفقير إبراهيم الأختافى إلى علماء الزيدية سؤالا في مسائل تتعلق بما يقع الاختلاف فيهن بين الزيدية وأهل السنة ، وردوا عليه بالكلام والنظم والسب له ، انتصر له المقرئ السحولي بنظمه (القصيدة البليغة في الرد على الزيدية) وهي رائية مكونة من ثلاثمائة بيت تقريباً ، وأقام الحجة - بحسب المصدر - بما أعجزهم عن الجواب ، حتى أن هناك من أسماها بـ (للمسكنة) ، وسماها بعضهم (للشهب الثواقب للدمعة للفرقة القدرية الزائغة) ، وقد اشتهرت في أيدي الناس وتداولها الركبسان في الأقطار والبلدان (٣) .

ومن المشاركين في الأدب كذلك المحدث أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م) صاحب كتاب (نزهة الأحباب في النواير والمناج) (٤) .

وقد مر علينا ذكر الشيخ جمال الدين محمد بن إبراهيم المغربي الأنطلسي العذني الشهير بالشماخ (كان حياً في ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م) ، وفكرنا أنه عرف بالإجادة الكبيرة لفن الأدب والرسائل والمسائل ، وأنه كان سهل الألفاظ ، غلب الكلام ،

(١) الفريسي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١١٣ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(٤) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ١ ص ٢١٤ ، ومن كتبه المذكور نسخة خطية بدار الكتب المصرية ، برقم (٧٢٦ أدب) ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٢٢٦ .

لأوحد البلغاء ، وأشهر للفصحاء ، وأشرنا إلى أنه قد جمع كتاباً يحتوي على فصول فيما يحتاجه الإنسان من العقائد الدينية والقواعد الإسلامية ، وفيه أدعية وعزائم مجربة مشهورة ، وفي أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ومواظ من أقوال العلماء وحكايات وأخبار عن السلف ، وفيه أشعار ومكاتبات بينه وبين أقرانه من أهل الأدب^(١) .

وممن ذكر عنه الاشتغال بالأدب الشيخ عبدالله بن أبي بكر بن عبدالله بن عبدالرحمن للمقاف باشميلة الحضرمي (ت ٩١٦هـ / ١٥١٠م) ، قيل أنه كان متقناً في علم الأدب ، متمكناً منه بأقوى سبب ، وله نظم كله جوهري ، وإنشاء جميعه محرر ، وديوانه معروف ، وله قصيدة طويلة مرضية سماها (العلوبة في مدح خير البرية)^(٢) .

وكذلك كان الإمام الأديب حمزة بن عبدالله بن محمد بن علي بن أبي بكر الناشري (ت ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م) ، اشتغل بالأدب وصنف فيه كتباً ، وكانت له حظوة كبيرة عند السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب الطاهري (ت ٩٢٣هـ / ١٥١٧م) ، وقدم له هدية أنبية قيمة ، هي كتاب صنفه في الأدب ، ضمنه الكثير من الطرائف والملح والذكاء العلمية والمسائل الفقهية المتعلقة بالصيد ، وقد أسماه (انتهاز الفرص في الصيد والقنص) ، وله في الأدب كتابان آخران هما كتاب (عجائب الغرائب وغرائب العجائب) ، وكتاب (سألقة العذار في الشعر المضموم والمختار)^(٣) .

(١) البرهقي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٢٨ .

(٢) النشلي ، الصفا للياهر ، ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(٣) العبدروس ، النور المسافر ، ص ١٢١ .

الفصل الثامن

اهتمام علماء اليمن بالعلوم الاجتماعية
والعقلية والتطبيقية ومصنفاتهم فيها

من بداية القرن التاسع الهجري حتى السيطرة العثمانية عليها

تمهيد :

لعله من الانطباعات الشائعة لدى كثير من غير المتخصصين في التاريخ ، وخالصة في مجالاته العلمية والحضارية ، أن علماء الإسلام انكفأوا على العلوم الشرعية وما تفرع منها ، وما دار في فلكها من العلوم المساعدة فقط ، وأنهم قضوا في دراسة ذلك كل أعمارهم جيلاً بعد جيل ، وما أثبتته المصادر التاريخية المتعددة هو أن أولئك العلماء في كل أقطار العالم الإسلامي - قد قد طفقوا في حقول المعرفة الكثيرة ، وأسهموا فيها ، وأدلوها في تطويرها بنلوهم ، فدرسوا ما توافر وصنف بلغتهم ، وأنبرى بعضهم لدراسة ما كتب باللغات الأخرى ، وحلّكوا السابقين من العلماء في الأمم الأخرى في دراسة العلوم الاجتماعية من تاريخ وجغرافيا بعد أن صبغوه بصبغتهم وفكرهم ، وكذلك فعلوا مع العلوم التطبيقية والعلمية كالطب والفلك والملاحة البحرية والرياضيات .

وفي هذا الفصل سيتبدى لنا ما قدمه علماء اليمن وبنلوهم من جهود وأوقات في دراسة العلوم اللغوية والأدبية والاجتماعية والتطبيقية ، وما صنفوه وألفوه من الكتب فيها ، وهو جزء يعبر عن إسهامات علماء الإسلام في تطوير العلوم الحاضرة للبشرية والرافعة من شأنها .

أولاً : العلوم الاجتماعية :

نحن عندما نستخدم مصطلح العلوم الاجتماعية في دراستنا هذه فلنما نشير به إلى ذلك الحقل المعرفي الذي يهتم بدراسة الإنسان في تفاعلاته الاجتماعية على مختلف الأصعدة في علاقته مع إنسان آخر أو جماعة أو دولة ، وقد كانت نشأة العلوم الاجتماعية عبر سلسلة من التراكمات الفلسفية ابتداء من الإرهافيت الأولى لحضارات الشرق القديم مروراً بالتراث الفلسفي الإغريقي والإسهامات الرومانية والإسلامية التي استفاد من الإسهامات السابقة ثم إعطائه لدفعة منهجية قوية لهذه العلوم لينقلها من فلسفة اجتماعية إلى علوم اجتماعية ذات تقنيات منهجية مستقلة طورت التعامل مع الظواهر من مستوى التوصيف إلى مستوى التحليل والتفسير .

(١) السيرة النبوية :

جاء التصريح الرباني واضحاً في أن سيرة رسول الله ﷺ هي النموذج الأكمل لمن أراد البحث عن القدوة والمثال في السير إلى الله تعالى ، وتلمس المضي على صراطه المستقيم ، فقال تعالى : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ^(١) ، فكانت دراسة السيرة النبوية والتأليف - كما استقر في وعي الشخصية المسلمة دوماً - هي الطريق إلى استخلاص مواطن صور للتأسي بصاحبها ﷺ ، فهي بالفعل قد مثلت سجلاً حافلاً بالمآثر ، علمراً بالمكرمات ، مفعماً بالفضائل ، كما أنها غدت منبعاً دافعاً للجريان لاستقاء التصورات للصحيحة عن كيفية تطبيق مبادئ الإسلام الحنيف ، وفاضت بدروس الخير ، وكيفية إيقاظ الهمم ، وشحذ العزائم وإذكاء الإيمان ، ورسم الطريق إلى بلوغ مرضاة الله عز وجل .

ومن جانب آخر فإن دراسة ما وقع في السيرة من مغازٍ وسرايا ، وما نشأ عن تلك الغزوات والسرايا من فتوحات أسهم في حل مشكلات فقهية عديدة تتعلق بنظام الأرض ، والتعامل مع نتائجها ، وذلك حسب فتحها صلحاً أو عنوة ، بالجزية أو الخراج

(١) سورة الأحزاب .

وغير ذلك ، ومن السيرة النبوية استقى المسلمون أحكام أهل الذمة وملاحم أوضاعهم في إطار المجتمع الإسلامي .

ولعلنا نجل هنا - إضافة إلى ما سبق - أهم ملامح الأهمية التي أدركها العلماء المسلمون في دراسة السيرة والمغازي والتأليف في بابها ، وذلك كما يأتي :

١. أنها تعد مذكورة تفسيرية للقرآن الكريم ، أو هي التطبيق والتفسير العملي له ، فلا شك أن النبي ﷺ هو أفضل من فهم القرآن الكريم وفق مراد الله تعالى ، فهو مبلغ الرسالة عن ربه عز وجل ، وهو أعظم من فسر كتابه ، كما أنه ﷺ لم يقدم تفسيره للقرآن في ألفاظ منطوقة فحسب ، بل قدمه سلوكاً من خلال حياته العملية والدعوية كلها ، فكانت حياته كلها ترجمة فعلية حية للقرآن الكريم ، حتى صدقت في وصفه مقولة أنه " كان خلقه القرآن " وكذلك " كان قرآناً يمشي على الأرض " ، فكانت سيرته كلها أرضاً خصبة للمفسرين بما توفره من معرفة لأسباب نزول الآيات والمواقف التي نزلت فيها ، وكيفية تطبيق الجليل الأول من المسلمين لها .

٢. في دراستها والاهتمام بها صمان لعدم الغلو أو للتعسف في فهم النصوص وضبط ذلك بتطبيق النبي ﷺ ، فقد جاء أن السيرة النبوية هي (الحكمة) المشار إليها في قول الله تعالى : كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وقوله تعالى : وَأَذْكُرْتِ مَّا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿١٠٢﴾ ، كما أن علماء الإسلام أدركوا أنه ليس في الإمكان فهم النصوص - قرآناً وسنةً - فهماً لغوياً مجرداً هي معزل عن طريقة تطبيق النبي لها .

٣. ربط القلوب بصاحب السيرة العطرة محمد ﷺ ، وتقديم القدوة العملية الخالدة للأجيال المسلمة على مر العصور من خلال حياة الرسول ﷺ وصحابته كقصة

(١) سورة لقدر

(٢) سورة الأحزاب .

حياة كاملة ، يقول الله تعالى : أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ^١ فَبِهِدَنَهُمْ

أَقْتَدِرُ^٢ ... ﴿١﴾ ، والمطالبة بالافتداء بالنبي تستوجب دراسة مسيرة حياته بكل

دقائقها وتفاصيلها للناسي بها في كل موقف من مواقف الحياة المعاصرة .

٤. أن السيرة النبوية - مع الحديث الشريف - يمثلان معاً السنة النبوية التي أجمع المسلمون على أنها المصدر الثاني للتشريع الإسلامي ؛ لأن السنة النبوية تشمل الأقوال والأفعال والتقرير ، وإذا كان علم الحديث يقوم في المقام الأول على الأقوال فإن المواقف والأفعال والمواقف التقريرية تعتبر عماد السيرة النبوية ، وبالتالي فإن العناية بها غاية بالمصدر الثاني للشريعة المطهرة .

لم يغب ذلك كله عن علماء اليمن عبر فترات تاريخها الإسلامي ، فكان الاهتمام بدراسة السيرة النبوية يجمعهم ، إلا أن من التصنيف فيها عندهم اتخذ ثلاثة صور : إما التأليف المنفرد فيها بمصنفات تخصصها ، أو جعلها فصلاً كبيراً في إطار مصنفات تشملها مع غيرها من القرون التالية من تاريخ الأمة ، أو الحديث عنها في شكل منظومات شعرية تتناول نفعاً منها بحسب ما تعلية المواقف التي قيلت فيها .

ومن علماء اليمن في مدة هذه الدراسة الذين اعتنوا بالسيرة النبوية نذكر للفقير عمر بن علي بن أحمد الأتصاري المعروف بابن الملقن - واشتهر كذلك بابن النحوي - الزبيدي (ت ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م)^(١) ، فقد صنف في السيرة النبوية والشمال المحمدية كتاباً في خصائص النبي صلى الله عليه وسلم ، وسماه (غاية السؤل في خصائص الرسول)^(٢) ، وقد ورد ذكره عرضاً في ثنايا الترجمة الذاتية الخاصة التي كتبها الإمام المؤرخ الأهل عندما قال : " واختصرت خصائص النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي وضعها ابن النحوي ، وزدت فيه مواضع بسيرة^(٣) " .

(١) سورة الأنعام .

(٢) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٦ ص ١٠٠ ، ١٠٢ .

(٣) يقول الحبشي أنه قد طبع ، ومنه عدة نسخ مخطوطة ، وسب قوله إلى كتابه معجم الموضوعات المطروقة ص ٤٨٧ ، وذلك في هامش ص ٢٥٧ من تحفة الزمن للأهل .

(٤) الأهل ، تحفة الزمن في تاريخ ملوك اليمن ، ج ٢ ص ٢٥٧ .

ومنهم أيضاً أحد أعلام المؤرخين اليمنيين الإمام المؤرخ أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي بكر الخزرجي (٨١٢هـ / ١٤٠٩م) ، فهو وإن لم يصنف في السيرة النبوية كتاباً خاصاً بها فقد اقتطع لها جزءاً عزيزاً في صدر كتابيه (طراز أعلام الزمن في تراجم علماء اليمن) و (العقد الفخر الحسن في طبقات أكابر اليمن)^(١) ، نراه يقول في المقدمة^(٢) : " إن أول ما بدّلنا به من كتابنا هذه مقدمة في ذكر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ هو المقصد الأسنى والغاية الحسنى ، تشتمل على نسبه ومحتده ومشأه ومولده ، وماكل من شرف حالته إلى يوم وفاته ، وما يندرج تحت ذلك من ذكر بنيه وبناته ، وأعلمه وعماته ، ورسله ومواليه ، وبعوته ومغازيه ، وعُزّه وحجّاته ، وخدمه وزوجاته ، ونقبائه وأمرائه ، وكتبه وشعرائه ... " ، وقد شملت السيرة النبوية قريباً من ثلاث وعشرين ورقة من مخطوطة الكتاب .

ومنهم أيضاً الفقيه أحمد بن محمد بن يوسف بن حفيص المعروف بمعوضة القرشي الأموي (ت ٨١٦هـ / ١٤١٣م) ، فقد ذكر في قائمة اهتماماته من العلوم وما اشتغل به منها السيرة النبوية ، وهو فيها من تلاميذ الإمام العلامة الحافظ المحدث شهاب الدين أحمد بن إبراهيم بن علي العسقلّي (ت ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م) ، وكان الفقيه معوضة الأموي يقرأ ويقرئ في اليوم الواحد العديد من الدروس ، منها ما هو له على شيوخه ومنها ما هو منه لتلاميذه ، وكان مسجد بني شيبه - وهو إمامه وخطيبه - في وادي موز هو موضع حلقته التي كان للسيرة النبوية حيز كبير فيها^(٣) .

وكان للإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) اهتمام خاص بالسيرة النبوية ، فنراص وقد وضع فيها أكثر من مصنف واحد ، وأشهر كتبه في السيرة النبوية كتابه (الجواهر والدرر في سيرة سيد البشر وأصحابه الغرر

(١) على القرامس أنهما كتابين مختلفين لا كتاباً واحداً ، فقد ذكر بعض الباحثين أنهما في الأصل كتاباً كماً سيأتي بيانه .

(٢) العقد الفخر الحسن ، ج ١ ق ٥ - ب .

(٣) الأجل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٥٠ .

وعرقته الأئمة الزهر^(١) ، كما أن له كتاباً آخر فيها عنوانه (الدرر المنيرة في الغريب من فقه السيرة)^(٢) ، ثم أنه شرح كتابه الأول بكتاب آخر سماه (يولقيت السير في شرح كتاب الجواهر الدرر)^(٣) .

وعلى نهج الإمام المؤرخ الجندي وغيره سار الإمام الأمل في استهلال كتابة تاريخه (تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن) بالسيرة النبوية المطهرة ، فقد اقتطع في الحديث فيها جزءاً لا بأس به من الكتاب^(٤) ، ثم أنه - كما مضى آنفاً - قام باختصار كتاب (غاية السؤل في حصائص الرسول) الذي ألفه الفقيه عمر بن علي ابن أحمد الأنصاري ابن النحوي المعروف بابن الملقن الزبيدي (ت ٨٠٤هـ / ١٤٠١م) ، وقد أشار الأمل نفسه إلى أنه زاد فيه زيادات في مواضع يسيرة^(٥) .

وممن اعتنوا بالسيرة النبوية أيضاً الإمام الحافظ أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م) ، فقد صنف في السيرة النبوية كتابه (الجواهر اللطيف في المولد الشريف) ، وهو ما أشار إليه الحبشي بنون ذكر مصدر هذه المعلومة^(٦) .

ومنهم كذلك الإمام الحافظ المؤرخ المحدث أبو زكريا يحيى بن أبي بكر بن محمد العامري (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م)^(٧) ، فقد ترك فيها أثراً يعد أفضل ما صنفه

(١) منه نسخة مخطوطة ضمن مجموع في مكتبة جامع شهارة ، ومنه أيضاً ثلاث نسخ أخرى بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت أرقام (٢٠٥٥) و (٨٢ مجاميع) و (١٠٢ مجاميع) ، ومنه نسخة رابعة مصورة - في مكتبة عبدالله عبدالله الحوشي ، نظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٢٠٨ .

(٢) ذكرها الوجيه ، للمرجع السابق ، ص ٢٠٨ ، ولم يندبها إلى مصدر ذكرها .

(٣) منه نسخة مخطوطة في مكتبة العلامة مجد الدين المؤيدي بصحة ، ونسخة أخرى بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (٢١١٦) ، نظر المرجع السابق ، ص ٢٠٩ .

(٤) الأمل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ١ ص ٣١ - ٤٠ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٥٧ .

(٦) مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٩٨ ، وذكر أن منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (٣٦٣ ككب حديثة) .

(٧) بالمكرمة ، قلادة النهر ، ج ٣ ص ٧٥١ ، ابن النديم ، بغية المستفيد ، ص ١٨١ ، السخاوي ، الضوء الملاح ، ج ١٠ ص ٢٢٤ ، زيارة ، أئمة اليمن ، ص ٣٥١ .

العلماء اليمنيين في السيرة النبوية ، ألا وهو كتاب (بهجة المحافل وبغية الأمان في السير والمعجزات والشمال)^(١) ، وهو كتاب شامل في السيرة النبوية ، لم يترك فيها شاردة ولا واردة إلا وتطرب إليها ، وعليه اعتمد عدد من المؤرخين اليمنيين الذين صنفوا تواريخ تضمنتها كما سيأتي بيانه .

وكتاب (بهجة المحافل) من الكتب التي لاقت قبولاً واسعاً في اليمن لدى أهل السنة والزيدية على السواء حتى يوم الناس هذا ، وجاء القبول للكتاب - في وجهة نظري - كجزء من حالة الرضا التي تمتع بها المؤلف العامري نفسه ، فهو - كما سبقت الإشارة - أحد أكبر المحدثين اليمنيين عموماً ، وأكبر المحدثين في اليمن في أواخر القرن التاسع الهجري على الإطلاق ، واهتمت به الزيدية لاتصال أسانيد بعض أئمتها وعلمائها في علوم الحديث بالإمام العامري .

وللإمام أبو زكريا يحيى بن أبي بكر بن محمد العامري كتاباً آخر في السيرة النبوية غير (بهجة المحافل) ، هو كتاب (حادي القلوب إلى وطن المحبوب)^(٢) ، ولعلها سيرة منظومة شعراً ، إضافة إلى ما أورده باختصار كبير في مقامة كتابه (غريال الزمان ووفيات الأعيان) في التاريخ العام ، فقد افتتحه أيضاً بالسيرة النبوية . ومنهم أيضاً الفقيه أبو بكر بن محمد بن أبي بكر الحرشي (ت ٨٩٤هـ / ١٤٨٨م) الذي وضع كتاب (روضة الحنفا)^(٣) في السيرة ، وكذلك الفقيه المتصوف الصنين بن الصديق الأهل (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م) الذي صنف كتاب (بغية

(١) منه نسخة مخطوطة قديمة في مكتبة أحمد بن عبدالقادر الأهل بمدينة ربيع ، ومنه نسخة أخرى بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (١٠ تاريخ) ، وقد صدر مطبوعاً للمرة الأولى في القاهرة سنة ١٣٣١هـ ، مقروناً بشرحه المسمى (العلم الكامل بشرح بهجة المحافل) للعلامة محمد بن أبي بكر الأنخري (ت ٩٩٢هـ / ١٥٨٤م) ، وطبع مرة أخرى بتحقيق زكريا عسيرة علم ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م عن دار الكتب العلمية ببيروت ، فنظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٩٨ ، الحبشي ، مخطوطات مكتبة المؤرخ محمد بن محمد زيار ، ص ٨ .

(٢) منه نسخة مخطوطة في العام (٨٨٤هـ / ١٤٩٧م) في عصر المؤلف نفسه ، وجاءت في ٢٢٢ ورقة ، ولعلها النسخة الأم ، وهي محفوظة في المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة ، ومنها صورة بمكتبة جامعة الرياض بالسعودية ، فنظر المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٩٨ .

للظريف في المولد الشريف^(١) ، كما كان ووصف الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبدالله بن علوي بن حسن شنبيل (ت ٩٢٠هـ / ١٥١٤م) بأنه عارف بالسيرة النبوية وأيام العرب وأنسائها^(٢) .

وصنف العلامة عبدالله بن المطهر بن محمد الحمزي (ت ٩٢٣هـ / ١٥١٧م) كتاباً في السيرة النبوية سماه (رياحين الأنفاس المهتزة في بساتين الأكياس في براهين رمول الله إلى كلفة الناس) ، ولعل الإمام الشوكاني قد اطلع على هذا الكتاب في القرن الثالث عشر الهجري ؛ لأنه وصفه بأنه "كتاب نعيم"^(٣) ، وقيل في وصفه أنه "لورد جزءاً من مقنة الكتاب من مضمونها أن الكتاب في خمس مقالات في خلقه صلى الله عليه وآله وسلم ، والثانية في خلقه ، والثالثة في أسمائه ، والرابعة في كراماته ، والخامسة في المعجزات وغيرها مبنوية في ثمانية أبواب ..."^(٤) .

وللإمام العلامة جمال الدين محمد بن عمر بن مبارك بخرق الحضرمي (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) إسهام في الاهتمام بالسيرة النبوية والتصنيف فيها ، فمما ألفه كتاب (تبصرة الحضرة الشاهية الأحمدية بسيرة الحضرة النبوية الأحمدية)^(٥) ، وكذلك وضع كتاباً بعنوان (سيد مولد الأولين والآخرين)^(٦) .

وقد أسهم الإمام المحدث المؤرخ عبدالرحمن بن علي بن لديبع (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م) في الاعتناء بالسيرة النبوية فألف مجموعاً فيه قصائد في مولده ومعجزاته

(١) منه نسخة مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (٥٤ سيرة) لكنه فيها تحت عنوان (المنهج الأعدل) ، وهناك نسخة أخرى بمكتبة نوح بحصرموت ، وأخرى بمكتبة الظاهرية في دمشق تحت رقم (٨٢١٤ تاريخ) ، ونسخة ثالثة في مكتبة الأحقاف بحصرموت تحت رقم ١٩١ ، وفي مكتبة الحرم المكي نسخة منه تحت رقم ٨/١٠٠/٥٣ ، ونسخة بدلا للكتب المصرية برقم (١٤١٨) ، فظهر للحبشي ، مصائر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٩٨ .

(٢) لشلي ، السنا الباهر ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٣) الشوكاني ، البدر الطالع ، ص ٤٠٥ .

(٤) الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٦٢١ .

(٥) العبدروس ، لتور الصافر ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ ، لشلي ، السنا الباهر ، ص ٢١١ ، ونكره الحبشي ، مصائر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٩٩ ، ولكن بالإشارة إلى أنه قد طبع مؤجراً .

(٦) منه نسختان مخطوطتان بمكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقمي (١٠٧٩٩) و (٨٥٧١) ضمن مجموع في الأوراق (١٣٩ - ١٥١) ، انظر المرجع السابق ، نفس الصفحة .

صلى الله عليه وسلم وسماء (سرور المؤمنين بمولد النبي الأمين)^(١) ، وله أيضاً كتاب (تحاف اللبيب بإسراء الحبيب)^(٢) ، ثم شرح القصيدة الشهيرة التي مدح بها الشاعر الصحابي كعب بن زهير بن أبي سلمى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وعنوان الشرح بـ (شفاء الفؤاد بشرح بانث معاد)^(٣) .

ويعد الإمام المؤرخ أبو محمد للطيب بن عبدالله بن أحمد بن علي بامخرمة (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) واحداً من كبار رجال اليمن في القرن العاشر الذين اهتموا بالسيرة النبوية كثيراً ، وما خصصه من كتابه الكبير (قلادة النحر في وفيات أعيان قديم) يشهد بذلك ، وهو - من جانب آخر - أحد المؤرخين اليمنيين الذين اعتمدوا على ما كتبه الإمام العامري في (بهجة المحافل) ، غير أنه تميز عليه بالزيادات الحسنة التي كان لم تكن تسورها كتب السيرة للنبوية المتقدمة ، ففراء يقسم في (القلادة) بعض المعلومات المتأخرة المتعلقة ببعض الأماكن والمواضع الواردة فيه ، مثل حديثه عن تحول دار أبي أيوب الأنصاري في العهد الأيوبي إلى مدرسة للفقه على المذاهب الأربعة^(٤) ، وكذلك حديثه عن دور السلاطين الرسولييين في العناية بالمسجد النبوي واستبدال منبره لما احترق في القرن السابع الهجري^(٥) وغير ذلك .

تناول الإمام الطيب بن عبدالله بامخرمة السيرة في محورين ضمن الجزء الأول من الكتاب المذكور ، أما المحور الأول فهو أثناء إيراده - وبإسهاب كبير - لترجمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في وفيات العام الحادي عشر للهجرة النبوية^(٦) ، ثم أنه تعرض لغزوات النبي عليه الصلاة وأتم التسليم وسرايا أصحابه رضي الله تعالى عنهم

(١) طبع للمرة الأولى في الهند سنة ١٣١٢هـ ، ثم تكررت طبعاته ، ، انظر المبشئ ، مصدر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٩٩ ، وبعضها عن مكتبة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (٢ تاريخ) ، انظر المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ١ ص ١٨٠ .

(٥) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٦ .

(٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٣٥ - ١٥٧ .

أجمعين في الحوادث الخاصة بالطبقة الأولى من القرن الهجري الأول^(١) ، ومجموع ما في الصحورين يمكن إفراده في جزء خاص مستقل صغير لينتدئ أحد الباحثين بدراسته والعناية به .

وقد قام بعض علماء اليمن بنظم مدائح شعرية كبيرة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم تضمنت العديد من الإشارات إلى موقعه وغرواته وشمائله ، ثم قام بعض النظميين أنفسهم ، وأحياناً بعض تلاميذ تلاميذهم - بشرح هذه القصائد ، فجاءت الشروح وكأنها كتب وصعت في الميرة النبوية نفسها ، وتظهر من شرح هذه المنظومات العلامة يحيى بن محمد حنّس (ت في أواخر القرن التاسع الهجري) ، إذ قيل أنه شرح المنظومة الشهيرة التي أبدعها الإمام المتوكل على الله المطهر بن محمد بن سليمان بن محمد الحمزي (ت ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م) والمسماة بـ (انقضاء الوطر في مدح خير البشر)^(٢) .

وقد حظيت منظومة (القصص الحق في مدح وذكر معجزات سيد الخلق)^(٣) التي نظمها في ١٥٠ خمسين بيتاً الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين بن شمس الدين بن أحمد بن يحيى (ت ٩٦٥هـ / ١٥٥٧م) بكثير من الاهتمام ، واعتنى بها معاصروه كثيراً ، وتعددت شروحها ، ومن هذه الشروح ما تأخر تصنيفه إلى أواخر القرن العاشر وما بعده ، ومن شروحها المبكرة في العدة للداخله في مدة دراستنا كتاب (ابتسام البرق شرح القصص الحق في مدح وذكر معجزات سيد الخلق)^(٤) الذي

(١) بلخرمة ، قلادة النحر ، ج ١ ص ١٧٨ - ٢٢٧ .

(٢) ريلرة ، أئمة اليمن ، ص ٣٢٧ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأمل ، ص ٥٧٦ ، العشي ، مصفر للفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٩٨ ، شوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١١٥٠ .

(٣) لكتفي لوجيه ، المرجع السابق ، ص ١١٣٥ بالقول : " عليه شروح كثيرة ، منها شرح (ابتسام البرق) مطبوع ، ومن المنظومة نسخ خطية كثيرة في الجامع - أي الجامع الكبير بصنعاء - ولندن ولمبروزيلنا

(٤) منه نسختان مخطوطتان بمكتبة الجامع الكبير الشرفية تحت رقم (٢١١٤) و (١٣٩) مجاميع) ، ونسخة ثالثة في مكتبة مركز بدر العلمي بصنعاء ، ونسخة رابعة في مكتبة آل الهائسي ، وخامسة بمكتبة العلامة مجد الدين المؤيدي صمن مجموع (غايات الأمل) ، ونسخة سادسة في مكتبة الجامع الكبير لغربية تحت رقم (١٠٢ تاريخ) ضمن الكتب المصادرة ، ونسخة سابعة بدور الكتب المصرية تحت رقم (٢٤ مجاميع) ، وقد طبعت في بيروت عام ١٩٧٤م عن مؤسسة غصائل ، نظر العشي ،

وضعه الإمام العلامة محمد بن يحيى بن أحمد نهزان الصنخدي (ت ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م) ، والشرح الذي وضعه العلامة محمد بن أبي بكر المقرئ الحرازي (ت بعد ٩٦٥هـ / ١٥٥٧م) ^(١) ، كما قام العلامة عبدالله بن النازم الإمام شرف الدين نفسه بوضع ثلاثة شروح عليها هي (بلوغ السؤل في مدح الرسول) ^(٢) و (فتح العلي الحق شرح القصص الحق) في مجلدين ^(٣) ، و (مواهب الملك الحق في شرح القصص الحق) ^(٤) .

(٢) التاريخ :

الإيمان عبر تاريخه الطويل مرتبط أشد الارتباط بجنور تاريخية في كل جوانب حياته المختلفة ، وما المرحلة التي يعيشها إلا إحدى حلقات سلسلة تاريخية طويلة وعميقة للجنور ، ذلك أن وعي الإنسان التاريخي يبدأ منذ إدراكه لنفسه وشعوره بإنسانيته وإحساسه ، لما له في ماضيه - من خلال أسلافه - من رصيد تاريخي ، وقد دأب الإنسان على تسجيل تجاربه الحياتية المختلفة ، بمختلف الوسائل وبما تتيسر له ظروف عصره ؛ لأن هذا الإجراء هو جزء من متطلبات النفس الإنسانية وإحدى طبائع تكوينها الخلقى وفطرتها التي فطرها الله عليها .

مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٩٩ ، الحبشي . مراجع تاريخ اليمن ، منشورات وزارة الثقافة ، ١٩٧٢م ، دمشق ، ص ١٧ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠١٩ .

(١) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (٥٣ مجاميع) ، ونسخة أخرى تحت رقم (٢٣ نحو) ، انظر الحبشي ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (١٤٦ نحو) ، ونسخة أخرى في مكتبة العلامة حمود شرف الدين ، فطر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٢٦٨ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٩٩ .

(٣) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (٢١٢٣) ، نسخة أخرى من المجلد الأول بمكتبة العلامة حمود شرف الدين ، انظر الوجيه ، المرجع السابق ، الصفحة نفسها ، الحبشي ، المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) منه نسخة مخطوطة في خزانة الناصر بن عدلارب ، ويرى الوجيه ، المرجع السابق ، الصفحة نفسها ، أنه هو نفسه (فتح العلي الحق في شرح القصص الحق) ، أما الحبشي ، المرجع السابق ، الصفحة نفسها فإنه عدما منفصلة ، وذكر أن منها نسخة بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (٢١٢٣) وأن منه نسخة أخرى بمكتبة مكة المكرمة تحت رقم (١١ تاريخ) .

ولما كان اليقين راسخاً لدى معظم الأمم أن تاريخ البشرية يسير وفق سنن إلهية ثابتة ، تسري على الكون والبشر ، ولا يعثرها التغير أو للتبدل ، فقد وجدت في التاريخ منبعاً لاستعراض التجارب التي من شأنها تهذيب مسيرتها وتقويم سلوكها الفردي والجماعي ، وزاد من أهمية هذا الجانب أن الإسلام رسخه وجعله ركناً مهماً في حياة الأمة ، إذ لفت القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة انتباه المسلمين إلى تنقده وأخذ العبرة والعظة منه ، وذلك من خلال تضمنهما لعدد كبير من القصص التاريخية التي جاءت في ثنايا السور والآثار النبوية ، فاستمد المسلمون نظرهم إلى التاريخ ، من خلالهما فكانت نظرتهم له نظرة شاملة تكاملية أفقية واسعة ، بحيث شمل التاريخ تسجيل كافة النشاطات البشرية القابلة لأن تتخذ للعظة والعبرة والعوامل المؤثرة فيها ؛ ولذلك تميز التاريخ الإسلامي عن غيره من تواريخ الأمم الأخرى بهذه الشمولية والعلمية ، كما تميز بارتباطه الديني بالعقيدة القائنة على التوحيد والشمولية التاريخية للإنسانية جميعها ، وشمولية موضوعاته الأخلاقية الحصارية لتشمل رصد كافة الجوانب الحياتية المختلفة للنشاط البشري ، وهو في الوقت ذاته تاريخ هذه للعقيدة التي بقيت لنا جزءاً من يلتزم بها وجزءاً من يخالفها .

وقد بلغ اهتمام العلماء للمسلمين بالتاريخ قدراً لم يمنحوه علم آخر ، حتى غدا علم التاريخ - في نظرهم - هو مرآة الأمة التي تعكس ماضيها ، وتعين على ترجمة مفاخره في حاضرها ، ويساعد على الاستدلال على معالم الخير التي تثير مستقبلها ؛ لذلك كان اهتمامهم به ومداومتهم على دراسته ونقله إلى الأجيال نقلاً صحيحاً - بحسب الواسع والطلاقة - من أولوياتهم ، هم وطلابهم .

يقول ابن خلدون^(١) في بيان طبيعة التاريخ وأهميته : " إن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال ، وتُشد إليه الركائب والرحال ، وتسمو إلى معرفته السُّوقَة والأغفال ، وتتنافس فيه الملوك والأقوال ، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال ، إذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والنول ، والسوابق من القرون الأول ، تنمو فيها الأقوال ، وتضرب فيها الأمثال ، وتطرب بها الأندية إذا عصها الاحتفال ، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال ، واتسع للنول فيها النطاق والمجال ، وعسروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال وحن منهم للروال " .

(١) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، ج ١ ص ٢٨٢ .

والمطلع على كتب الطبقات والرجال يجد الكثير من العلماء وأصحاب الأئمة وذوي الاطلاع على العلوم المختلفة ، قد جعلوا من التاريخ أسماً لكثير من العلوم التي تحدثوا وكتبوا فيها ، وقلما نجد علماً من كبار العلماء على مدار التاريخ الإسلامي من ذوي الإنتاج العلمي المكتوب إلا وله مصنف - أو أكثر - في التاريخ أو العلوم المرتبطة به^(١) ، وذلك له لم يكن - في نظرهم - علماً منفصلاً عن غيره من العلوم ، بل كان وثيق الصلة بكثير منها ، فهو علم يحتاج إليه المفسر للحكم على الآثار الواردة في تفسيره ، ويحتاجه الفقيه والحاكم والقاضي للحكم بموجبه ، ويحتاجه المحدث للحكم على الحديث ومعرفة اتصال الأسانيد من عندها ، بل هو مما يتعين معرفته على المحدثين خصوصاً وعلى سائر العلماء المعبرين عموماً ، وهو عند أئمة الحديث المتقنين وحفاظه المحققين مما يجب تقديم الاهتمام به والاعتناء بحفظه ومطالعه كتبه ؛ لكونه يُعرف به للصادق من الكاذب ، والمطلوب من الطالب ، قال سفيان الثوري : لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ بنعرف به الكاذب من الصادق ، وقال آخر : لم نستعن على الكاذبين بمثل التاريخ ، نقول للشيخ : سنة كم ولدت ؟؟ فإذا أقر بمولده عرفنا صدقه^(٢) .

وقد اهتم اليمنيون بالتاريخ كما لم يهتموا بعلم آخر مثله ، وألقوا في فروعه المختلفة عدداً كبيراً من الكتب ، إلا أن اهتمامهم به جاء من بعد القرن الرابع الهجري ، إذ لم توجد إشارات تفيد بوجود من تخصص في كتابة التاريخ أو جعله في دائرة اهتمامه من أبناء اليمن ، وأبرز الرواد في الاهتمام بالتاريخ والتصنيف فيه من اليمنيين هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٥م) ، وأشهر كتبه هو كتاب (الإكليل) وهو كتاب تاريخي يفلب عليه الحديث عن الأنساب والآثار ، وقد فقدت ستة أجزاء من أجزائه العشرة ، وباتت في حكم المنقرضة ، وجاء بعده عدد من المؤرخين في القرن الخامس الهجري كالمؤرخ المجهول الذي كتب (تاريخ اليمن في الكوفاني والفتن وملوك حمير وفي رجال الحديث من الصحابة والتابعين وتابعي تابعيهم ومن وفد إلى رسول الله ﷺ من أهل اليمن ومن خرج من

(١) بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ١ ص المربعة بالحرف (د) من مكتبة المحقق .

(٢) الحكي ، الفرة المرسومة في شرح المنظومة ، تحقيق مهدي محمد يوسف الحراري ، رسالة ماجستير ، كلية الشريعة والقانون ، جامعة الأزهر ، ٢٠٠٠م ، ص ١٧ ، ١٨ .

العمال وما جرى في اليمن إلى القرن الخامس من الهجرة^(١) وكذلك أحمد بن عبدالله الرازي (ت ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م) صاحب كتاب (تاريخ صنعاء) .

ومن المهم الإشارة هنا إلى أن موقع اليمن الطرقي في الزاوية الجنوبية الغربية للجزيرة العربية ، إضافة إلى ما اكتنف ذلك الجزء العزيز من ظرف خاصة ، طبيعية كصعوبة التضاريس وتعقيد أشكال سطحه جغرافياً بما فرض عليه شيئاً من قبيل العزلة وصعوبة التنقل ، واجتماعية كتشكيلته القبلية وما يرتبط بها من صراعات دافعة مع بعضها ، ومذهبية بعد أن نشرت بين أبنائه دعوات العديد من المذاهب الفقهية والفكرية وما ترتب على ذلك من تعدد للحكومات والدول ، كل ما مضى أسهم بشكل كبير في تعدد الكتابة التاريخية ما بين التاريخ للمذهب ، والتاريخ للدول والممالك ، والتاريخ لليمن كلها كونه قطراً مسلماً ، والتاريخ المحلي الإقليمي للمدن والأسر والعشائر وغير ذلك^(٢) .

وقد تتابعت المصنفات التاريخية في القرون الهجرية التالية حتى بلغت مرحلة النضوج والإبداع في مدة رداستنا في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، إذ انتفع الكثير من العلماء والمؤرخين إلى تسجيل مجمل الأحداث القائمة في عهدهم وفي العهود التي سبقت أيامهم ، وخلدت في مؤلفاتهم مآثر السلاطين والحكام والأئمة والعلماء في الميادين المختلفة ، وبشطت حركة التأليف التاريخي كثيراً ببروز عدد من كبار المؤرخين اليمنيين^(٣) .

ولتسهيل دراسة جهود المؤرخين اليمنيين في هذه المدة سنقوم بتقسيم مصنفاتهم بحسب موضوعاتها إلى مجموعة من الفئات ، وذلك على النحو التالي :

(١) نسخة خطية مصورة عن نسخة بمكتبة يحيى الشحري ، صنعاء ، ص ١ .

(٢) سامية أحمد فرج عبدالخير ، الكتابة التاريخية في اليمن في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٧م ، ص ١٠٦ ، ١٧٧ ، ١٨٩ ، ٢٠١ ، ٢٤١ ، ٢٥٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨٤ ، ٢٩١ ، ٣١٣ .

(٣) د. لؤي نؤاد سيد ، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، ص ١٢٨ - ١٧٩ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٦٨ وما بعده .

❖ التواريخ العلمية :

من أكبر المؤرخين ضمن هذه الفئة السلطان الأشرف الثاني إسماعيل بن الأفضل الرسولي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) ، فهو - رغم تربعه على العرش الرسولي سلطاناً - محدود في العلماء اليمنيين الذين أسهموا في ازدهار الحياة العلمية في اليمن ، لذلك وفد على اليمن في عهده مجموعة من كبار علماء الإسلام كالإمامين الشهيرين ابن حجر العسقلاني ومجد الدين الفيروزبادي كما سبق بيانه في الفصل الخامس ، وله في التاريخ العام كتاب شهير ، هو كتاب (العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك)^(١) ، وذكره البعض تحت عنوان (العسجد المسبوك والجوهر المحكوك والزيبرجد المحكوك في أخبار الخلفاء والملوك)^(٢) ، وقد اختلف المؤرخون المعاصرون في نسبته إليه أو إلى الإمام الخزرجي ، والخزرجي والأشرف الثاني - في الأصل - متعاصران ، وربطت بينهما علاقة كبيرة ، وقد قسم الأشرف هذا الكتاب إلى قسمين ، وهو كله مرتب على السنين ، قسمه الأول يشتمل على مجمل لتاريخ الإسلام ابتداءً من صدره الأول ومروراً بالخلافة الراشدة فالعصر الأموي حتى نهاية العصر العباسي ، أما القسم الثاني منه فهو يشتمل على ذكر ملوك مصر الشام والمغرب والأندلس ثم تاريخ لليمن حتى نهاية القرن الثامن الهجري .

وقد اعتنى المؤرخ الدكتور شاكِر محمود عبدالمعظم بكتاب (العسجد المسبوك والجوهر المحكوك والزيبرجد المحكوك في أخبار الخلفاء والملوك) وأقرده له دراسة واسعة سماها (الملك الأشرف الغساني وكتابه العسجد المسبوك) ، ونشرها مع الكتاب - محققاً - وجعلها في مقدمته على شكل دراسة وافية له ، وفيها أثبت بقرائن عديدة أنه

(١) منه نسختان مخطوطتان بدار الكتب المصرية ، الأولى تحت رقم (١٢٨٩ تاريخ) ميكروفلم ، والثانية تحت رقم (٣٨٦٢ تاريخ) ، ومنها نسخة مصورة بمكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد ، وسنة أخرى بمعهد المخطوطات تحت رقم (١١٣٦ تاريخ) ميكروفلم ، وأخرى بمكتبة الحرم المكي تحت رقم (٤٧) ، وأخرى بالمكتبة المحمودية بالمدينة المنورة تحت رقم (٥٥ تاريخ) ، ومنه نسخة في مكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (١٣٢ تاريخ) ، وقد نشر بتحقيق د. شاكِر محمود عبدالمعظم عن در البيان ببغداد عام ١٩٧٥م ، د. ليم فولد سيد ، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٢) الحشني ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٨٩ لكنه أوردته ضمن مصنفات الإمام الخزرجي .

فعلاً من تصنيف السلطان الرسولي الأشرف الثاني إسماعيل^(١) ، كما أنه نشر عنه دراسة أخرى خصصها لتحليل مصادر الأشرف الثاني إسماعيل في كتاب (المسجد المسبوك) ، ووسمها بـ (تحليل مصادر المسجد المسبوك) للغساني^(٢) .

مع مطلع القرن التاسع الهجري فقدت اليمن الإمام المؤرخ أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي بكر الخزرجي ، وذلك بوفاته سنة (٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م) ، فقدت بعده واحداً من أبرز شيوخ المؤرخين اليمنيين في عصرها الإسلامي ، فقد كان الخزرجي من علماء اليمن الذين ضربوا لأنفسهم في معظم العلوم بسهم ، وكان لهم في الأنساب والتاريخ والأدب القدم المعلى ، ومن اللافت للنظر أن الإمام جمال الدين محمد بن أبي بكر الحياط قد كتب عنه واصفاً إياه بـ (الإمام)^(٣) ، ولمكانة ابن الحياط العلمية العليا فإننا نوقن بأنه لم يخاطب الخزرجي بـ (الإمام) إلا لما كان يراه فيه من استحقاق لذلك اللقب الرفيع .

وقد وردت في بعض المصادر إشارات بالغة الأهمية في حياة الخزرجي ، وذلك متمثل في كونه كان محترفاً للزخرفة والبناء المعماري ، تلكم الحرفتان اللتان لا تزدهران إلا في عهود الرخاء الاقتصادي ، ولذلك فقد تسببت هاتان الحرفتان الفنيهتان في اقتراب الخزرجي من الدوائر السلطانية الرسولية ، وهو دليل على مدى إتقانه لها وبراعته فيها ، حتى أنه كان يتلقى التفويضات بقبضاء والزخرفة للبلات الرسولي من السلاطين الرسوليين أنفسهم وبشكل مباشر ، ولم يترك الخزرجي الانطباع الحسن عنه لدى السلاطين الرسوليين إلا بعد أن شارك في زخرفة الكثير من المدارس والدور الملكية^(٤) ، لذلك كان في مقدمة المزخرفين في دار الديباج بمنطقة ثعبات - خارج مدينة تعز ، ولما كان الحسن التاريخي راسخ في عقلية الإمام الخزرجي فقد كان يقوم

(١) د. شاكِر محمود عبدالمعزم ، الملك الأشرف الغساني وكتابه المسجد المسبوك ، ملحق بكتب المسجد المسبوك والجواهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك ، للملك الأشرف الغساني إسماعيل بن الحسن (ت ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م) ، ص ١١ - ١٢٩ .

(٢) د. شاكِر محمود عبدالمعزم ، تحليل مصادر المسجد المسبوك للغساني ، مجلة لمؤرخ العربي ، بغداد ، العدد العشرون ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، ص ٢١٥ - ٢٢٩ .

(٣) البربري ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩٢ .

(٤) المعاصر السابق ، نفس الصفحة .

إثبات لسمه في المنشئات التي يقوم بزخرفتها ، كما عمله في بعض المدارس العلمية كالمدرسة الأفضلية بتعز^(١) .

والمهم في ما ذكرناه أن الإمام الخزرجي أصبح على علم واطلاع بكثير من مجريات الأحداث الدائرة بسبب عمله القريب من البلاط الرسولي ، كما أن حرفته - بلا شك - قد أعانته في بناء كثير من الصداقات مع رجال الدولة إضافة إلى علاقات الصداقة القائمة أصلاً من قبل مع زملائه وأقرانه في الأوساط العلمية كونه معوداً فيهم، ولهذا فقد كان ممن تم تعيينهم ضمن هيئة التدريس في جامع المملاح^(٢) المشهور بدوره التعليمي في تلك الحقبة .

لم يكن الإمام أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي مهتماً بالتاريخ والتراجم والطبقات فحسب ، بل إنه كان مشاركاً في الأدب ناظماً ونائراً ، وكان له صلح في علم الأنساب كما سأتى في موضعه ، وله إسهام كبير في تأليف كتب التاريخ العام ، إذ نراه وقد ترك أثراً كبيراً سماه (المسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك) ، وورد لسمه بصيغة مختلفة هي (المسجد المسبوك والزيبرجد المحكوك فيمن ولي اليمن من الملوك)^(٣) ، ومما يؤسف له أن هذا الكتاب قد فُقد معظمه ، ولم يتبق منه إلا شيئاً محدوداً يتناول تاريخ اليمن المحلي ، بل وأجزاء بسيطة من تاريخه المحلي فقط ، وقد نشر الجزء الرابع فقط من هذا الكتاب في صورته المخطوطة مصوراً تحت

(١) البرهي ، طبقات صنعاء اليمن ، ص ٢٩٢ ، الخزرجي ، فيمن في عهد الولاة ، فصول الخمسة الأولى من كتاب الكلية والإعلام ، تحقيق راضي دشغوم ، منشورات الجامعة التونسية ، ١٩٧٩م ، ص ٦ ، ٧ ، عبدالله قائد المبادي ، الحياة العلمية في زبيد ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(٢) الخزرجي ، العقود الثمينة ، ج ٢ ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٣) د. أيمن مؤاد سيد ، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، ظاهرة غريبة لدى بعض المؤرخين اليمنيين في القرن التاسع الهجري في تسمية مصنفاتهم ، فهو لا يخرجون من تطبيق اسم مصنفين تماماً أو - على الأقل - تشابه الاسمين إلى حد كبير ، وهذا تسبب في إحداث لغط ولارتباك بين الباحثين والمؤرخين المعاصرين في محاولة نسب هذه الكتب إلى مؤلفيها الحقيقيين ، لهذا الإمام الحسين الأمدل ، تحفة الزمن في تاريخ ملوك اليمن ، ج ٢ ص ١٤٧ يصرح بنفسه بأن شيخه ابن الأزرق قد سلف كتاباً عنوانه (تحفة الزمن في تاريخ ملوك اليمن) ثم يقوم هو بوضع كتاب يحمل العنوان نفسه بتطابق تام ، وقد بالدور نفسه تلميذه الإمام العمري كما سأتى بيانه الآن ، ومثلها ما جرى لاحقاً - كما نلاحظه هنا - بين السلطان الأشرف الثاني إسماعيل والإمام الخزرجي في استخدام معرديات المسجد والمسبوك والزيبرجد وغيرها في عناوين كتب تتشابه موضوعاتها

العنوان الأول (المسجد المسبوك هيمن ولي اليمن من العلوك)^(١) ، وهو ما يدل على فقدان الأجزاء الثلاثة الأولى ، ومن المؤكد أنها تضمنت تلرخ الإسلام العلم على غرار العصف الذي وضعه السلطان الأشرف الثاني إسماعيل لرمول السابق ذكره .

ومن جانب آخر كرس الإمام المؤرخ الخرجي بداية كتابه (طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن) للحديث عن السيرة النبوية والخلفاء الراشدين ومن تبعهم من الخلفاء الأمويين والعباسيين ، ثم انتقل إلى الترجمة لعلماء اليمن الذي لم يوضع الكتاب - من الأساس وكما هو واضح من عنوانه - إلا لذلك الغرض ، وبهذا يمكن تصنيف هذا الكتاب في فئة التاريخ العام والتاريخ المحلي معاً .

وقد صنف الإمام المؤرخ عبدالرحمن بن الحسين بن محمد بن أبي بكر الأهل (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) كتاباً مختصراً في التراجم والتاريخ العام ، وسماه (غريال الزمان في وفيات الأعيان) ، وهو مرتب على السنين على النهج الذي سلكه الإمام أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان الياضي (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) في كتابه (مرآة الجنان وعبرة اليقظان فيما يعتبر به من حوادث الزمان) الذي جاء كتاب الأهل مختصراً له ، ولما كانت العناية قد احترمت الإمام المؤرخ الحسين الأهل قبل أن يتمه فقد انبرى لإتمامه تلميذه الإمام الحافظ المؤرخ أبو زكريا يحيى بن أبي بكر بن محمد العامري (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م) ، وأسبغ على كتابه الاسم نفسه الذي أطلقه شيخه الأهل على مختصره ، فهو (غريال الزمان في وفيات الأعيان)^(٢) .

آخر من أسهم من المؤرخين اليمنيين - في مدة الدراسة - في التأليف في التاريخ العام بعد المؤرخين السابقين هو الإمام المحدث المؤرخ أبو محمد الطيب بن عبدالله بن أحمد بالمخرمة السبباني (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) فقد ورد في ترجمته لدى

(١) وهو ضمن مصادر دراستنا هذه .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة باريس الوطنية تحت رقم (١٥٩٣) ولهذه النسخة صورة محفوظة بمعهد المخطوطات بالقاهرة ، ومنه نسخة ثانية بمكتبة عارف حكمت لم يذكر النسخة رقمها ، ومنه نسخة في مكتبة الجامع الكبير لخرية تحت رقم (١١ تاريخ) ، وقد طبع مؤخر في دمشق بعناية الرئيس اليمني الأسبق القاضي عبدالرحمن الإرياني ، وهو من مصادر دراستنا هذه ، انظر الحديث ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩٦ ، ٤٩٧ .

بعض مؤرخي حضرموت^(١) بأنه له كتاب في التاريخ العام الموسع على نمط كتاب (تاريخ الإسلام) الكبير الشهير للإمام الحافظ الذهبي ، إلا أن هذا الكتاب أيضاً - للأسف الشديد - من ذخائر التراث اليمني الإسلامي المفقود ، وقد اشتبه على البعض في أن هذا الكتاب هو كتاب (قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر) ، غير أنه لا يوجد تشابه بين هذا الكتاب الأخير وبين (تاريخ الإسلام) للإمام الذهبي في شيء إلا في طبيعة الموضوع المطروق فيه ، فتاريخ الذهبي موسع مفصل إلى حد كبير بينما كتاب (القلادة) فيه اختصار شديد جعله يخرج - في صورته النهائية - في ثلاثة مجلدات فحسب .

وقد قام الباحث بدراسة الجزء الأول من (قلادة النحر)^(٢) فوجد فيه العديد من الإحالات إلى الكتاب الأصلي ، وذلك عند اختصار بعض الأحداث أو تجنب إيراد بعض الحكايات والتراجم ، وهي شواهد وقراء قوية تؤكد أن القلادة ليست الكتاب الكبير المنسوب إلى الإمام الطبيب بن عبدالله بالمخرمة^(٣) .

وقد تضمن كتاب (قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر) التاريخ العام للإسلام منذ السنة الأولى للهجرة النبوية حتى سنة (٩٢٧هـ / ١٥٢٠م) على طريقة الحوليات ، ولكنه قسم هذه المدة الطويلة على هيئة طبقات ، تشمل كل طبقة مدة عشرين عاماً ، كان بالمخرمة يبدأ بذكر تراجم الأعلام المتوفين في سنوات الطبقة ثم يختم بذكر حوادثها مرتبة على السنين .

❖ التواريخ المحلية وتواريخ المدن والدول اليمنية :

أكثر المؤرخون اليمنيون من الكتابة ضمن هذه الفئة ، وتعددت مصادر كتاباتهم ما بين المعاصر للأحداث والأعلام ووصفها وصف الشاهد المعين ، وما بين النقل عن كتابات المؤرخين السابقين ، وأقدم هؤلاء المؤرخين في مدة دراستنا هو السلطان

(١) للميدروس ، القنور المسافر ، ص ٢٠٦ ، قسلي ، السفا للهاجر ، ص ٢٥٠ .

(٢) وبه لذة درجة الماجستير من كلية الآداب - جامعة صنعاء في العام ٢٠٠٢م ، وقد طبعته وزارة الثقافة اليمنية طبعة فاخرة ضمن إصداراتها لعاصمة الثقافة العربية في العام ٢٠٠٤م .

(٣) انظر على سبيل المثال بالمخرمة ، قلادة النحر ، ج ١ ص ٩٦٣ ، ٩٧٥ ، ٩٧٧ ، ٩٩٣ ، ١٠١١ ، ١٠١٢ ، ١٠٤٣ .

الأشرف الثاني إسماعيل بن الأفضل الرسولي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) ، فقد سبقت الإشارة إلى كونه جعل لتاريخ اليمن حيزاً في كتابه (العسجد المسبوك والجواهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك) ، فنكر فيه ملوك صنعاء وعدن ، ثم ملوك زبيد وأمرائها ووزرائها^(١) .

وقد تضمن الجزء الرابع الذي تبقى من كتاب (العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك) للإمام المؤرخ أبو الحسن علي الخزرجي (٨١٢هـ / ١٤٠٩م) الذي سبقت الإشارة إلى نشره مصوراً في هيئته المخطوطة ، تضمن بابين فيهما لثان وعشرون فصلاً ، حوت هذه الفصول أخبار ملوك عدن وصنعاء ومن سكن زبيد وحكمها ، وأخبار الدول اليمنية التي سيطرت عليها حتى مدة حكم معاصره السلطان الأشرف الثاني إسماعيل الرسولي للمتوفي في سنة (٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) .

والخزرجي أيضاً كتاب مطبوع منذ أوائل القرن العشرين (سنة ١٩١١م) ، وهو مشهور لدى المختصين والمهتمين بتاريخ اليمن ، وهذا الكتاب هو (العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية) تضمن تفصيلاً لتاريخ هذه الدولة التي حكمت اليمن لمدة تقوى القرنين من الزمان ، هي من أخصب قرون تاريخه الإسلامي ، وقد انتهت تسجيله للأحداث عند السنة التي توفي فيها السلطان الأشرف الثاني إسماعيل الرسولي ، أي سنة (٨٠٣هـ / ١٤٠٠م)^(٢) .

(١) الحبشي ، مصنف الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ١٨٩ .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (٨٠ تاريخ) ، ونسخة أخرى تحت رقم (٧٧ تاريخ) ، ومنه نسخة ثالثة في مكتبة الجامع الكبير للشرقية بصورته دار الكتب المصرية فهي محفوظة بها تحت رقم (١٢٩٠) ، د. أمين لؤي سيد ، مصنف تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، ص ١٦٤ ، الحبشي ، مصنف الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، وقصة إخراج هذا الكتاب تبدأ عام ١٨٨٤م عندما قام المستشرق رد هوس Sir J.W. Redhouse بنسخه وشرحه باللغة الإنجليزية ، ووضع فهرسه في خمسة مجلدات ، ولودعه مكتبة جامعة كامبردج ، ثم لوصى المستشرق إدوارد براون E. G. Browne للجامعة بعد ذلك بطبعه ، فكلفت الأستاذ مصد بسيوي عمل - مدرس اللغة العربية بها - بالقيام بالمهمة ، فاعتمد على نسخة رد هوس ، ورلجها وأصلح ما بها من نقص وقصور ، وطبع الجزء الأول منها عام ١٩١١م والجزء الثاني عام ١٩١٤م باللغة العربية ، وقد قام القاضي محمد علي الأكوخ بتحقيق الكتاب وصدرت طبعته الثانية عام ١٩٨٣هـ عن مركز الدراسات والبحوث اليمني بصنعاء .

وللإمام الخزرجي أيضاً كتاب شهير في تاريخ اليمن هو الموسوم بـ (الكفاية والإعلام فيمن ولي اليمن وسكنها من أهل الإسلام)^(١) ، ووصف محتوي هذا الكتاب ينطبق حد كبير على وصف محتوي الجزء الرابع من كتاب (المسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك) لذلك رجح البعض أن (الكفاية) ما هو إلا الجزء الرابع المشار إليه نفسه^(٢) ، ولعل تصحيحات النساخ واجتهادات بعض ملاك النسخ - عندما فقد الغلاف المتضمن لعنوان الكتاب واسم مصنفه - هي ما أوجد هذه التسمية المختلفة ، والجدير بالذكر أن جزءاً من (الكفاية) قد حققه الدكتور راضي دغفوس وطبعه ضمن منشورات الجامعة التونسية سنة ١٩٧٩م تحت اسم (اليمن في عهد الولاة) ، كما نسب إلى الإمام المؤرخ أبي الحسن علي الخزرجي مصنف تاريخي آخر ، هو كتاب (مرآة الزمن في تاريخ زبيد وعدن) ، ولم يتم العثور عليه ، كما لم يرد وصفه في أي مصدر آخر^(٣) .

ومن المؤرخين اليمنيين في هذه الفئة ومدة الدراسة المؤرخ عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن عمر الحبشي (ت حول ٨١٠هـ / ١٤٠٧م) ، فقد وضع كتاب (الاعتبار في التواريخ والأخبار)^(٤) ، وخص به ملوك اليمن وفقهاء وصاب

(١) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير لغربية تحت رقم (٢٧ تاريخ) ، ونسخة أخرى بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٢٠٦) ميكروفيلم ، ونسخة ثالثة في مكتبة باريس الأهلية تحت رقم (٥٨٣٢) وفي هذه المكتبة نسخة أخرى رقم (٣٠٢) ، وفي مكتبة جامعة لندن بهولندا نسخة خامسة تحت رقم (١٦١) ، ونسخة سادسة في مكتبة خدابخش تحت رقم (٢٨٨٢) ، انظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٨٩ .

(٢) د. شاكور محمود عبدالمعزم ، الملك الأشرف الغساني وكتابه المسجد المسبوك ، ص ٨٤ ، الحبشي ، المرجع السابق ، نص الصفحة .

(٣) الحبشي ، المرجع السابق ، ص ٤٩٠ .

(٤) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير لغربية تحت رقم (٨ تاريخ) ، ونسخة أخرى بدار الكتب المصرية تحت رقم (١١ تاريخ) ، ومنه نسخة ثالثة في الأمبروزيانا تحت رقم 47 G ، انظر المرجع السابق ، ص ٤٩٠ ، وقد صدر بتحقيق عذاه الحبشي من مركز الدراسات والبحوث اليمني عام ١٩٧٩م .

وصلحاتها ومشائخها ، ولم يتعرض كثيراً لغير علمائها ، وأوردنا ذكره هنا لأنه هو تاريخاً لبعض ملوك اليمن^(١) .

ومنهم كذلك الإمام الشهير مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروزآبادي الشيرازي (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) فقد ورد في قائمة مؤلفاته عدد من المصنفات التاريخية التي تناولت تاريخ عدد من البلدان الولد اسمها في ثنايا العلويين ، ومصنفاته التاريخية ضمن هذه الفئة هي كتاب (المعالم - وقيل المغامم - المطابة في تاريخ طابة) ، وكتاب (أحاسن اللطائف في محاسن اللطائف) ، وكتاب (نزهة الأذهان في تاريخ أصبهان)^(٢) .

ومنهم أيضاً المؤرخ عبدالرحمن بن علي بن حسان الحضرمي (ت ٨١٨هـ / ١٤١٥م) ، الذي اشتغل بالتاريخ المحلي لحضرموت - على وجه التحديد - وصنف فيه كتاباً بعد في حكم المفقود إلى اليوم ، وقد أشار الشُّلِّي^(٣) إلى عنوانه فسماه (البهاء) ، ولا ندري إن كان فقط عِلِمَ باسمه فأثبتته أم أنه رجع عليه في تواريخه ، كما أن له ثلاثة سير لكبار الشخصيات الصوفية التي عاصرها وتأثر بها ، وسيأتي الحديث عنها قريباً .

ومنهم كذلك العلامة محمد بن عبدالله الناشري (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) ، الذي وضع كتاباً في تاريخ اليمن ، لم يحدد عنوانه ، ولم يرد في أي من المصادر التي بين أيدينا ذكره ، وانفرد به صاحب (كشف الظنون)^(٤) ، ولم يورد في وصف محتواه شيئاً ، تلاماً كما أشار إلى وجود كتاب في تاريخ اليمن للإمام إسماعيل بن أبي بكر المقرئ (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) من دون أن يتعرض لذكر عنوانه^(٥) ، وهو ما جعل

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩٥ ، الأمل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ١٠ ص ٨١ ، النسي ، العقد الثمين في أخبار قبيلة الأسين ، ج ٢ ص ٣٩٤ - ٣٩٧ ، الفيروزآبادي ، الغاموس المحيط ، ص ١٣ - ١٥ من مقنة المحقق .

(٣) المشرع الروي ، ج ٢ ص ١٨٨ ، الحيشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩١ ، مراجع تاريخ اليمن ، ص ٦٤ .

(٤) حاجي خليفة ، ج ١ ص ٣١٠ ، الحيشي ، المرجع السابق ، ص ٤٩١ .

(٥) حاجي خليفة ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٣١٠ .

بعض المؤرخين المعاصرين لا يتبعد أن يكون هذا الكتاب هو الجزء التاريخي المتضمن في كتاب المقرئ الشهير الموسوم بـ (عنوان الشرف للولقي في الفقه والعروض والتاريخ والنحو والقوافي)^(١) ، فإن كان هو المشار إليه في (كشف الظنون) في تاريخ مختصر جداً في تاريخ الدولة الرسولية وليس في تاريخ اليمن كلها .

ومنهم أيضاً للعلامة أحمد بن عمر بن أحمد بن عيسى الأنصاري الشاذلي المشهور بـ الشاب القاتب (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م) ، وهو مصري زار اليمن في مطلع القرن التاسع ، وصنف فيها كتاباً عن تاريخها ، لعله خصص لتاريخ الدولة الرسولية ، وقد سماه (الدلائل النبوية على شرف المملكة اليمنية)^(٢) .

وكان لشيخ الإسلام الإمام الحافظ محمد بن أبي بكر بن محمد بن صالح الخياط (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م) كتاب في التاريخ اليمني ، غير أن تاريخه واحد من التواريخ اليمنية المفقودة ، وقد نقل عنها البريهي العديد من التراجم في كتبه (طبقات صلحاء اليمن) ، ومن خلال ما نقولات البريهي نستشف أن تاريخ الخياط قد حوى تراجم كل من عرفهم وبلغه خبرهم من العلماء والصلحاء بلرض اليمن ، وكل من نزل بها ووفد إليها من غير أهلها^(٣) ، وقد صنف الإمام ابن الخياط كتاباً آخر في تاريخ عمارة البيت الحرام وأسماء (عين التحقيق في عدد بناء البيت العتيق) ، ونُكر أن سبب تصنيفه وصول سؤال من مدينة زبيد مضمونه : أن الفقهاء اختلفوا كم بنيت الكعبة مرات ، فأجابهم بجواب شوافي أظهر فيه الدلائل على صحة بنائها إحدى عشر مرة ، ونكر من بناها^(٤) ، وجعل جوابه في هذا المصنف .

ومن المؤرخين كذلك العلامة كمال الدين موسى بن أحمد الذوالي المعروف بالمكشكش (ت ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م) أحد كبار العلماء بمدينة زبيد ونعز^(٥) ، وله

(١) الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩٣ .

(٢) السقاوي ، الضوء اللمع ، ج ٢ ص ٥ .

(٣) نظر البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٧٥ ، ٢٠٠ ، ٢٩٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .

(٥) المدبر ومن ، فنون السفر ، ص ٣٩ .

مصنفات في الطبقات و (تاريخ اليمن)^(١) ، وكذلك محمد بن محمد بن منصور بن
أسير (ت في القرن العاشر الهجري) الذي وضع كتاباً في تاريخ مدينة زبيد وسماه
(الجواهر الفريد في تاريخ مدينة زبيد) ، وقد جاء مطابقاً للجزء الثاني من تاريخ
الأهدل (تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن) ، بل وجزم الحبشي^(٢) بذلك .

والعلامة الإمام صارم الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن الهادي بن
إبراهيم الوزير (ت ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م) تاريخ منظوم شمل به أخبار دول أئمة الزيدية
باليمن وغيرها ، مبتدئاً إياه من فترة مبكرة ، من فترة النبوة ، حتى مطلع القرن العاشر
الهجري ، وقد سمي تاريخه هذا بـ (الجواهر المضية في سيرة الأئمة الأخيار)
ويعرف أيضاً بـ (النسامة الجامعة لأخبار من قام ودعا من أئمة آل عليهم
السلام)^(٣) ، واختصر اسمه أثناء التداول بـ (النسامة) ، وقد اهتم علماء الزيدية بهذا
التاريخ اهتماماً فائقاً ، فمنهم من قام بشرح النسامة وتوضيح ما تضمنته أبياتها ،
فصارت تلك الشروح من أهم مصادر التاريخ الريدي في اليمن ، وبالتالي غنت من أهم
مصادر تاريخ اليمن إجمالاً ، ومنهم من قالم بتكلمة أبياتها لتتضمن من توقف الإمام
الناظم صارم الدين إبراهيم الوزير قبل تصميم سيرتهم ودولهم .

وأشهر شروح (النسامة) في مدة دراستنا هو ما وضعه المؤرخ العلامة
محمد بن علي ابن يونس بن علي الزحيف (ت ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م) ، الذي كان
ضالماً في التاريخ ، له قريحة منقادة ، وخطنة وقادة^(٤) ، وأطلق على شرحه عنوان

(١) منه نسخة مخطوطة بمكتبة برلين تحت رقم (١٦٤٠) ، انظر الحبشي، مصادر الفكر الإسلامي في
اليمن ، ص ٤٩٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٨٧ .

(٣) منه نسخ مخطوطة عديدة ، فمنها في مكتبة الجامع الكبير العربية أربع نسخ ، لأولى تحت رقم (٧
مجاميع) ، والثانية تحت رقم (١٠٧ مجاميع) ، والثالثة تحت رقم (٩٠ مجاميع) ، والرابعة تحت
رقم (١٤ مجاميع) ، وفي مكتبة الجامع الكبير الشرقية ثلاث نسخ ، الأولى تحت رقم (٤٤ مجاميع) ،
والثانية تحت رقم (٦٩٤ مجاميع) ، والثالثة تحت رقم (٢٩٤ مجاميع) ، ومنه نسخة في مكتبة آل
الهاشمي ، وأخرى بمكتبة عبدالله بن عبدالله الحموشي ، انظر المرجع السابق ، ص ٤٩٩ ، لوجيه ،
أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٧٠ .

(٤) ابن المزي ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ١٠٣٧ .

(مآثر الأبرار في تفصيل مجملات الأخبار) وقد يسمى أحياناً (للولوح للندبة بالحدائق الوردية)^(١) ، ولما الشرح الثاني لـ (البستامة) فهو ما تضمنه كتاب (الترجمان المفتاح لثمرات كرائم البستان الجامع لأسماء جماهير الصحابة والتابعين والأئمة السابقين وفقهاء الأمة ولتباعهم المسترشددين ، وخلفاء السوء المعاندين المفسدين ، والفوائد والشوارد التي تروق للناظرين)^(٢) ، الذي وضعه الفقيه العلامة محمد بن أحمد بن يحيى مظفر (ت ٩٢٦ هـ / ١٥١٩ م)^(٣) ، وكثيراً ما يختصر عنوان هذا الشرح فيقتصر منه على (الترجمان المفتاح لثمرات كرائم البستان) ، وكان فيه حداً عند شرحه الأبيات التي تناولت بعض خصوم الزيدية ، خاصة من المتقدمين^(٤) .

وكان الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن علوي بن حسن شنبّل الحضرمي (ت ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م) اهتماماً بالتاريخ ، فقد وصف بأنه كان عارفاً بالسيرة النبوية

(١) منه نسخ مخطوطة عديدة ، فعندنا في مكتبة الجامع الكبير الغربية نسخان ، الأولى تحت رقم (١٢ تاريخ) ، والثانية تحت رقم (١٥ تاريخ) ، ومنه في مكتبة الجامع الكبير الشرقية أربع نسخ ، الأولى تحت رقم (٢١٣١) ، والثانية تحت رقم (٢١٢٩) ، والثالثة تحت رقم (٢١٦٠) ، والرابعة تحت رقم (٢١٣٩) ، ومنه نسخة أخرى في مكتبة العلامة محمد بن يحيى المطهر ، وأخرى بمكتبة آل الهاشمي ، ونسخة أخرى بمكتبة العلامة عبدالرحمن شام ، ونسخة بمكتبة علي بن إبراهيم بصنعاء ، وقد طبع أيضاً ونشر بتحقيق عبدالسلام الوجيه وخالد المتوكل عن مؤسسة الإمام زيد بن علي بالأردن ، نظر الحبيشي ، مصائد الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩٩ ، الوجيه ، اعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٩٧٦ .

(٢) من الواضح أن هذا العنوان الطويل قد تضمن ما يشبه الفهرس لمحتواه ، منه نسخ مخطوطة عديدة . فعندنا في مكتبة الجامع الكبير الغربية أربع نسخ ، الأولى تحت رقم (٥٩ تاريخ) ، والثانية تحت رقم (٦٠ تاريخ) ، والثالثة تحت رقم (٨٦ مجاميع) ، والرابعة تحت رقم (٢١٤ مجاميع) ، ومنه نسخة بمكتبة أحد مشايخ قبيلة أرعب من آل السحيمي [وصورتها أحد مصادر دراستك هذه] ، وأخرى بمكتبة علي يحيى الذارحي ، ومنه نسخ في مكتبات يحيى محمد عباس الوجيه وعباس الحطيط وعباد السلام الوجيه ، ومنه نسخة بمكتبة جامع شهارة ، ومنه نسخة أخرى في المكتبة التيمورية بالقاهرة تحت رقم (١٤٧٨) - دار الكتب المصرية - وأخرى بمكتبة برلين تحت رقم (٣٣٧٣) ، وفي مكتبة الأسبروزيانا تحت رقم B356 ، ونسخة بمكتبة المؤرخ محمد زبارة ، قطر الحبيشي ، المرجع السابق ، ص ٥٠٠ ، مخطوطات مكتبة المؤرخ محمد بن محمد زبارة ، ص ٩ ، الوجيه ، المرجع السابق ، ص ٨٥٤ .

(٣) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٩٢٥ .

(٤) ذلك واضح مما تضمنته بعض عبارات العنوان ، فهم في نظره معاندون معسبون .

وأيام العرب وأصلها ، وألف تاريخاً مفيداً لمنطقة حضرموت سماه (التاريخ الأكمل) واشتهر بـ (تاريخ شنبل)^(١) ، جمع فيه تاريخ حضرموت من مطلع القرن السادس الهجري حتى مطلع القرن العاشر الهجري ، وحوى كتابه هذا بحسب وصف المصدر لطائف تاريخية ، وأحكام شرعية ، وفوائد بارعة ، ومواعظ نافعة ...^(٢) .

ولئن كان هناك من المؤرخين اليمنيين يدارع الإمام أبو الحسن الفخرجي على زعامة المؤرخين اليمنيين فهو الإمام المؤرخ الحافظ وجيه الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الشهير بابن الدبيع الشيباني (ت ٩٤٤ هـ / ١٥٣٧ م) ، فهو مؤرخ يعني بارز ، ولا غنى لأي باحث في تاريخ اليمن من العودة إلى مؤلفاته المتعددة والمتنوعة ، منها كتاب (قرة العيون بأخبار اليمن الميمون)^(٣) ، وهو مقسم إلى ثلاثة أبواب ، الأول منها خصصه للحديث عن الدول التي حكمت صنعاء ، والثاني حول تاريخ مدينة زبيد وملوكها وأمرائها ووزرائها ، وخصص الثالث منها للدولة الظاهر التي نعم كثيراً بعطايا حكامها ، وهذا الكتاب من أشمل التواريخ اليمنية لمرحلة ما قبل الربع الأول من القرن العاشر الهجري ، ومن مميزاته أن مصنفه كان شاهداً عياناً لمعظم ما تضمنه الباب الثالث من الحوادث على وجه الخصوص .

وله في تاريخ الدولة للظاهرية كتاب (العقد الباهر في تاريخ دولة بني طاهر)^(٤) ولعل محتواه لم يختلف كثيراً عن ما تضمنه الباب الثالث من الكتاب الأول

(١) منه نسخة مخطوطة بمكتبة العظام بحريضة في حضرموت باليمن ، ونسخة أخرى بمكتبة الشعب في مدينة المكلا في اليمن ، ونسخة ثالثة بمكتبة آل الحسيني في مدينة تريم ، وقد طبع بتحقيق الأستاذ عبدالله الحبشي عام ١٩٩٤م ، نظراً الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، الحبشي ، فهرس المخطوطات اليمنية في حضرموت ، ص ١٠١ .

(٢) للشَّيْ : السنا الباهر ، ص ١٢٥ .

(٣) منه نسخة مخطوطة بمكتبة علي أمير تحت رقم (١٢٣٧٢) ، ونسخة أخرى منه في دار الكتب المصرية تحت رقم (١٣٥٥) ، وأخرى بمكتبة الحرم المكي تحت رقم (٧١ تاريخ) ، ونسخة رابعة منه في مكتبة المؤرخ اليمني محمد بن محمد ربابة ، وقد طبع عدة طبعات بتحقيق القاضي محمد علي الأكرع ، نظراً الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٠١ .

(٤) هذا الكتاب معدود ضمن التراث اليمني المفقود ، غير أن الحبشي ، المرجع السابق ، ص ٥٠١ يقول : " وفي مكتبة الجامع الغربية كتاب بعنوان (تاريخ بني طاهر) لمؤلف مجهول ، لعله من كتابها هذا ، وهو برقم (١١٥ تاريخ) " .

(قرة العيون) ، وقد احتفى بتأليف هذا الكتاب السلطان الظاهر الثاني عامر بن عبدالوهاب فأكرم ابن الديق وأجزل له العطاء ، يتحدث ابن الديق عن ذلك بنفسه فقال : " ثم حصلت في هذا التاريخ تحصيلاً عظيماً ، وتقدمت به إلى مولانا السلطان وهو إذ ذاك بمحرسة المقرانة مقيماً ، وقدمته إليه فأثابني بثواب عظيم عليه ، وأفاض عليّ من مواهب كرمه ما يقصر صوب الغمام عن عزيز ديمة ، ولم أزل عنده في روض أريض وجود فائض عريض حتى أذن لي في الرجوع إلى وطني ، وخلع خلعة نغيسة وأكرمني ، وتصدق علي بدمنة سلطانية بمدينة زبيد للسكنى ، وأعفى لي قطعة نخل بولاي زبيد » (١) .

ويعد كتاب (بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد) (٢) لابن الديق الشيباني أيضاً من أشهر كتب التواريخ اليمنية ، وتاريخ مدينة زبيد على وجه الخصوص ، فقد تضمن بتفصيل لا بأس به تاريخ المدينة وما ارتبط بها من أحداث شملت مع اليمن كله أو معظمه ، وقسم محتواه إلى أبواب ، بلغ عددها عشرة أبواب ، جعل الباب الأول منها في وصف مدينة زبيد وما ارتبط به ، والأبواب من الثاني حتى السابع للدول التي تعاقبت على حكم المدينة منذ تأسيسها في مطلع القرن الثالث إلى منتصف القرن التاسع الهجري ، وخصص الأبواب الثلاثة الأخيرة لتاريخ الدولة الطاهرية ، وأفرد للسلطان المنصور عبدالوهاب وابنه الظاهر الثاني عامر بن عبدالوهاب - حتى أحدث سنة (٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م) - فصلين كاملين ، ذوّن فيهما تفاصيل كثيرة عنهما ؛ وأورد كثيراً من تفاصيل الصراع المرير الذي شمل معظم أمراء البيت الطاهري على العرش بعد وفاة السلطان المنصور عبدالوهاب ، وهي من مادة تاريخية ذات قيمة عالية ، أولاً لمعاصرة المصنف لها ، وثانياً لعلاقاته الواسعة مع أقطابها ، ابتداء من السلطان نفسه ومروراً بكبار رجال الدولة .

(١) ابن الديق ، بغية المستفيد ، ص ٢٣٢ .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة باريس الأهلية تحت رقم (٦٠٦٩) ، وقد نشره المستشرق جوهانس سعة (١٨٢٨م في ٣٠٠ صفحة ، انظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٠١ ، وقد أعيد نشره عن طريق مركز الدراسات والبحوث اليمني في طبعين (أحدهما بتحقيق عبدالله الحبشي والأخرى بتحقيق د. يوسف شلحد .

الكتاب الرابع لابن الديبع هو كتاب (الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد)^(١) ، وهو - كما ينضح من عنوانه - ذيل على التاريخ السابق (بغية المستفيد) ، وقد استكمل فيه - بتفصيل كبير - أحداث الدولة العاهرية - تحت حكم السلطان الظاهر الثاني عامر بن عبدالوهاب^(٢) - واليمن في عهدها حتى سقوطها ومقتل سلطانها ووقوع اليمن في أيدي المماليك الجراكسة على النحو الذي تم تناوله في الفصل الثاني من هذه الدراسة ، وتكمن أهمية (الفضل المزيد) في كونه تناول بعض حوادث الظهور البرتغالي على السواحل اليمنية ، وما جرى من محاولاتهم السيطرة على بعض مدنه .

وللإمام ابن الديبع الشيباني تاريخ خامس يختلف عن الأربعة الكتب السابقة كونه جاء منظوماً ، وهو الموسوم بـ (أحسن الملوك في نظم من ولي مدينة زبيد من الملوك) ، وقد تناول فيها معظم ما احتوته كتبه السابقة عن تاريخ تلك المدينة وحكامها ووزرائهم وأمرائهم^(٣) .

ومسانس للكتب التي صنفها ابن الديبع في تاريخ اليمن كتاب (تحفة الزمن بفضائل اليمن)^(٤) ، وفيه أورد كل الآثار النبوية التي تتحدث عن فضائل اليمن ، وقد

(١) منه نسخة مخطوطة يمتدح آيا صوفيا بتركيا تحت رقم (٢٩٨٨) ، ونسخة أخرى بمكتبة رجب برامبور تحت رقم (٣٦٢٣) ، ، انظر الحبشي ، مصغر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٠١ ، وقد طبع محققاً من قبل د. يوسف شلح مع كتاب (بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد) في مجلد واحد صادر عن مركز الدراسات والبحوث اليمني .

(٢) لم يختص هذا للكتاب بكامل المدة التي حكم السلطان الظاهر الثاني عامر بن عبدالوهاب فيها الدولة العاهرية - والتي شملت أغلب مناطق اليمن الطبيعية - بل تناول جزءاً - يمتد حوالي ربع قرن من الزمان - من مدة حكمه ، وهي المدة من سنة (٩١١ هـ / ١٤٩٥ م) حتى نهاية الدولة في سنة (٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م) .

(٣) صدرت عن مركز الدراسات والبحوث اليمني ملحقه بكتاب (بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد) بتحقيق الحبشي سنة ١٩٧٩ م ، انظر الحبشي ، بغية المستفيد ، ص ٢٢٠ - ٢٢٥ .

(٤) توقفت كثيراً قبل إضافة هذا النوع إلى فئة التواريخ المحلية فلم أجد بداً من ذلك ، لأنها أقرب ما تكون إليه ، وقد حدثني نفسي بمرسه ضمن تحت عنوان الحديث القوي في الفصل السابق ، ثم عذمت على إيراد هذا ، ومن هذا الكتاب نسخة مخطوطة في مكتبة الأميروزيانا تحت رقم H 170 ، ومنها هذه النسخة صورة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، ومنه نسخة أخرى بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (٣٩٩ مجاميع) ، ونسخة أخرى بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت عنوان (نقول المعين)

نقل عن هذا الكتاب كثير من المتأخرين الذين صفوا في بابيه ، منهم العلامة محمد بن علي الأهدل في كتابه (نثر الدر للمكتون في فضائل اليمن الميمون)^(١) ، وابن الديبع في ذلك ليس برائد في طريقه لهذا الشكل من التصنيف ، فقد سبقه إليه الجندي والخزرجي في مقدمة بعض كتبهم .

وأخر الكتب التي صنعها الإمام ابن الديبع الشيباني هو كتاب (نثر المحاسن اليمنية في خصائص اليمن ونسب القحطانية)^(٢) ، وهذا الكتاب في مجمله كتاب في الأنساب ، وبالتحديد أنساب القبائل اليمنية القحطانية ، إلا أنه احتوى الكثير من المضامين والتاريخية - وكذلك الجغرافية والفلكية - فقد تضمن عدداً كبيراً من تراجم علماء وصاب وأخبار المذهب الإسماعيلي في تلك الجهات ، وأشار إلى ما وقع من الحوادث المتناثرة في عدة نواح من اليمن .

وقد ألف الإمام أبو محمد الطيب بن عبدالله بن أحمد بامخرمة (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) كتاباً بعنوان (تاريخ نجر عدن) ، وهو كتاب صغير الحجم ، عظيم الفائدة ، يعد من أفضل ما كُتِبَ في وصف مدينة ، وقد أُنْتُصِفَ للمصنف فيه - بعد تعداد لهلامح مدينة للجغرافية - تراجم أشهر رجالها ابتداءً بالتابعي الجليل أبان بن الحكم العدني إلى أيامه هو تقريباً^(٣) .

وتحت رقم (٨ مجاميع) ، وقيل أنه قد طبع مؤخراً ، لنظر العيشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٠١ ، مراجع تاريخ اليمن ، ص ٩٢ .

(١) انظر محمد علي الأهدل ، نثر الدر للمكتون من فضائل اليمن الميمون ، مطبعة زهران ، القاهرة ، ١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م ، ص ٣ .

(٢) لم نشر كتب البليوجرافيا اليمنية إلى هذا الكتاب ضمن كتب هذا المؤرخ ، ومنه ثلاث نسخ بالمكتبة الظاهرية بمشق ، الأولى تحت رقم (٣٧٥٤٧) ، والثانية تحت رقم (٣٧٥٤٩) ، والثالثة تحت رقم (٣٤٨٥) في ٦٣ ورقة ضمن مجموع ابتداء من ص ٧٠١ ، انظر مقدمة محقق كتاب ، نشر المحاسن اليمنية ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٣) طبع للمرة الأولى في لينن بهولند في منتصف أربعينات القرن الماضي عام ١٩٣٦م - بتحقيق المستشرق لوفجرين O. Lofagren ، ثم أعادت طبعة مكتبة مدبولي بالقاهرة بنفس هيئته التي أخرجها عليها المستشرق المنكور في التاريخ السابق .

❖ التراجم والطبقات العامة :

لعلنا نتذكر هنا ما سبق أن ذكرناه في سبيل الحديث عن أهمية علم التاريخ ضمن منظومة العلوم الاجتماعية من أن المطلع على كتب الطبقات والرجال يجد الكثير من العلماء وأصحاب الأدب ودوي الاطلاع على العلوم المختلفة ، لم يكن التاريخ - في نظرهم - علماً منفصلاً عن غيره من العلوم ، بل كان وثيق الصلة بكثير منها ، فهو علم يحتاج إليه المفسر للحكم على الآثار الواردة في تفسيره ، ويحتاجه الفقيه والحاكم والقاضي للحكم بموجبه ، ويحتاجه المحدث للحكم على الحديث ومعرفة اتصال الأسانيد من عندها ، بل هو مما يتعين معرفته على المحدثين خصوصاً وعلى سائر العلماء المعتمدين عموماً ، وهو عند أئمة الحديث المتقنين وحفاظه المحققين مما يجب تقديم الاهتمام به والاعتناء بحفظه ومطالعه كونه ؛ لكونه يُعرف به الصادق من الكاذب ، والمطلوب من الطالب ، قال سفيان الثوري : لما استعمل الرواة للكذب استعملنا لهم التاريخ نعرف به الكاذب من الصادق ، وقال آخر : لم نسمعن على الكاذبين بمثل التاريخ ، نقول للشيخ : سنة كم ولنت ؟؟ فإذا أقر بمولده عرفنا صدقه^(١) ، إننا عندما ذكرنا ذلك فإننا على وجه التحديد كنا نعني هذا الفرع من الكتابات التاريخية، بل هي وحدها المقصودة في ذلك كله .

فعلم الطبقات والرجال من العلوم التي احتضنت بها الأمة الإسلامية دون غيرها من الأمم ، وقد ولد هذا العلم في أول أمره ليلبي حاجة المحدثين للقيام بالجرح والتعديل في رجال الأسانيد التي اعتمدوا عليها في تنقية السنة النبوية والمطهرة مما يمكن أن يكون قد أدرج فيها كذباً واقتراءً على رسول الله ﷺ ، ويمكننا أن نشير إلى أهمية علم الطبقات التي دفعت العلماء والمؤرخين ورجال الحديث والجرح والتعديل للتأليف في بابها ، منها :

(١) أن علم الطبقات يعين على معرفة المتعاصرين من الناس ، كما يسهم في تحديد الصواب والخطأ في حال تشابه الأسماء والاشتراك فيها .

(٢) أنه يعين على معرفة تاريخ الرواة وملاحم مسيراتهم العلمية ، وخاصة من جهة وقت الطلب واللقاء بالمشايخ والعلماء ، والرحلة في طلب العلم والاختلاط

(١) للحكي ، قدرة الموسومة في شرح المنظومة ، من ١٧ ، ١٨ .

والتغير، وسنة للوفاء ، وحال الراوي من جهة الصدق والعدالة ، وهو ما جعل الأمة تنق في قدرة هذا العلم على تصفية السنة النبوية إلى أبعد مدى ممكن .

(٣) أن علم الطبقات يقوم بدور تربوي كبير ، إذ من خلاله يقوم المعلمون بشحن هم الأجيال الشابة من طلبة العلم لكي يشمروا عن سواعد الجد في التحصيل والرحلة في سبيل طلب العلم لكي يدركوا مقزلة من تضمنتهم كتب الطبقات ، وخاصة عندما تستعرض هذه الكتابات التاريخية معاناة الأعلام في مراحل الطلب ، والتي قد تكون شبيهة بما يفاسيه الطالب القارئ نفسه ، فتبعث فيه روح جديدة وطاقة إضافية تدفعه لتحمل كل المشاق ، وتعزي فيه الرغبة في التناقص على الخير والصلاح والعطاء .

(٤) ومن فائدة علم الطبقات للأمة جمعاء أنها تبرز القدوات الصالحة التي دخلت التاريخ من لوسع أبوابه ، وتركت صفحات بيضاء ناصعة لا تنسى على مر الأيام والسنين لما بذلته من جهود وتضحيات نبلوع مآربها .

(٥) ومن أهم ما يفيد دراسة علم الطبقات - بل كل الكتابات التاريخية عموماً - معرفة أخطاء السلفين ، والحذر من المزالق التي تم الوقوع فيها عبر التاريخ ، أخذاً بالهدي النبوي فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين " (١) .

وكان العلماء والمؤرخون اليمنيون قد أولوا هذا الفرع من التاريخ اهتماماً لا بأس به ، فالفوا في الطبقات العلمية والخاصة كتباً عديدة ، منها ما اختصر برجال المذاهب ، ومنها ما تمحور حول رجال الأسر العلمية الشهيرة ، وفي هذه الجزئية من دراستنا سوف نتناول ما كتبه اليمنيون في باب التراجم والطبقات العامة .

وقد ظهرت بواكير الطبقات العامة في اليمن في القرن السادس الهجري من خلال ما صنّفه المؤرخ الفقيه عمر بن علي بن سمره الجعدي (ت ٥٨٦هـ / ١١٩٠م) عن علماء اليمن وفقهائها ، وخاصة أهل السنة منهم ، والشافعية على وجه أخص ، وذلك في كتابه الشهير (طبقات فقهاء اليمن) ، ونحن إذ نورد هذا فبسبب ما

(١) البخاري ، صحيح البخاري ، ج ٥ ص ٢٢٧١ ، رقم (٥٧٨٢) ، باب (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين) ، مسلم ، صحيح مسلم ، ج ٤ ص ٢٢٩٥ ، رقم (٢٩٩٨) ، باب (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين) .

تضمنه الكتاب من تراجم عامة لعدد من الصحابة والتابعين وتابعيهم في القرنين الأول والثاني الهجريين ، ثم أنه جمع في ثلثيه تراجم لعلماء من مختلف أنحاء اليمن ومنها الكبيرة ، وقد نبه الفقيه أبو محمد الحسن بن علي بن محمد الحميري (ولد سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م) وذكر فيه جماعة من العلماء والفقهاء الذين لم يرد ذكرهم عند ابن سمرة ، وذلك واحد من مصادر الخرجي في طبقاته^(١) .

ويظل كتاب المؤرخ الفقيه أبو عبدالله محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) المشهور بـ (السلوك في طبقات العلماء والملوك) واحداً من أهم كتب الطبقات اليمنية العامة ، مع التأكيد على اشتراكه في عدد من الملاحم مع كتاب ابن سمرة السابق ، فهو قد تضمن تراجم عامة لشريحة واسعة من جيل الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وخاصة أولئك الذين كانت لهم علاقة باليمن وأهلها ، أو نزّلوا فيها، زيارة أو مروراً ، كما أنه تتبع أخبار الكثير من علماء اليمن الذين عاصروهم أو سمع عنهم ، وكتب لهم تراجم ضمنها الكثير من نغائص المعلومات التاريخية عن اليمن وأهلها ، مع حرصه على تخصيص النفعاء الشافعية بأكبر قدر من الكتاب كونه من فقهاء المذهب المعروفين في اليمن .

وبعد ابن سمرة والجندي كتب الإمام أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي الياضي (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) كتابه المهم في التاريخ للعام والطبقات العامة الموسوم بـ (مرآة الجدان وعبرة الیقطان) .

وقد وجد من مؤرخي اليمن من اشتغل بكتابة التراجم والطبقات العامة في اليمن في مدة دراستنا في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، وظهرت العديد من المصنفات فيها ، منها ما اقتص بالتراجم والطبقات العامة وحدها ، ومنها ما أدرجت فيه التراجم على شكل وفیات تنتهي بها الحواريات التاريخية ، وفي كل فإننا لا نستطيع أن نغص الطرف عن أن هذه الكتابة جامعة للتراجم كما هي شاملة للتاريخ الحولي ، وبالتالي فلا غرابة في وجودها ضمن للفنّين من الكتابة التاريخية .

ومن الملاحظ أن مناهج المؤرخين المصنفين اليمنيين لكتب التراجم والطبقات قد تنوعت في ترتيب مادة كتبهم ، فمما ما اعتمد مصنفوها على الترتيب الهجائي لأسماء المترجمين ، ومنها نمط آخر اتبع في ترتيب مادته تقسيم المترجمين إلى طبقات ، كل

(١) الخرجي ، طرزا أعلام الزمن ، ص ١٠٣ .

طبقة تضم وفيات عشرين سنة ، مع يتبعها سرد للأحداث الكبيرة التي دارت في غضون العشرين السنة الشاملة للطبقة .

ويأتي في مقدمة مصنفي كتب الطبقات الإمام أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي (ت ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م) ، الذي سبقت الإشارة إلى اشتغاله بعدد من العلوم ، منها التاريخ والتراجم والطبقات والأنساب ، والأدب نظماً ونثراً وغيرها من العلوم ، ويعد كتابه (طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن) واحداً من أفضل كتب الطبقات اليمنية وأشملها ، خاصة أنه استفاد من كتب من سبقوه في هذا الفن ، وفي مقدمة من استفاد منهم من غير اليمنيين شيوخ المؤرخين كالطبري وابن الأثير والمسعودي ، ومن أهل اليمن استقى الخزرجي أخباره وتراجمه من مؤلفات من سبقوه أمثال : المؤرخ ابن سمرة الجعدي في (طبقات فقهاء اليمن) وعمارة اليمني في (المفيد في أخبار صنعاء وزيد) والشريف عماد الدين إدريس الحمزي في كتابه (كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار) ومحمد بن حاتم الياضي في (السمط العالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن)^(١) ، وأكثر من الرواية عن البهاء الجندي نقلاً من (الملوك في طبقات الفقهاء والملوك) ، وقد صرح هو بنفسه بذلك فقال : « وكتابه - الضمير عائد على البهاء الجندي - الذي جمعه في تاريخ فقهاء اليمن »^(٢) يدل على علم واسع ومعرفة الرجال قديماً وحديثاً ، ولم يستوعب أحد ممن تصدى ذلك وتصدى له كاستيعابه ، ولولا جمعه وبحثه واستقصاله ما تصدبت لتصنيف كتابي هذا ولا اهتديت إلى شيء من ذلك ... فهو في السلم شيعي وإمامي ، وفي الحرب ترسي وحصامي ...
(٣)

(١) د. شاکر محمود عبدالمعزم، نظرة في مصنفات وموارد الخزرجي مؤرخ اليمن ، مجلة المؤرخ العربي، بغداد ، السنة الثانية عشرة ، العدد ٢٧ ، ١٩٨٦م ، ص ١١١ - ١١٤ ، د. شاکر محمود عبدالمعزم ، الملك الأشرف النضلي وكتابه المسجد الممبوك ، ملحق بكتاب المسجد الممبوك والجوهر المحبوك في طبقات الخلفاء والملوك ، ص ٨١ - ٨٥ .

(٢) لمطلع على الكتاب المشار إليه هنا يجد أنه أقرب ما يكون إلى التصنيف ضمن كتب الطبقات العامة ، وليس طبقات فقهاء اليمن وعلمائها فقط كما يقول الخزرجي ، لقد ترجم للصحية والتابعين الذين برلوا اليمن ، ولعد لا بأس به من أعلام الفقه والعلم الشرعي في العالم الإسلامي .

(٣) الخزرجي ، العقد الفلاني الحسن ، ق ١٥٥ - أ .

والخزرجي أيضاً كتاب (العقد الفاجر الصن في طبقات أكابر اليمن) وهو كذلك في الطبقات والتراجم ، وهناك من يقول إتيهما - أي (طراز أعلام الزمن) و (العقد الفاجر الحسن) - كتاباً واحداً ، وفيهما كان اعتماده على الترتيب الهجائي لأسماء المترجمين ، وأفرد للنساء فصلاً في آخر كل واحد منها ، ولالإمام الخزرجي الفضل - من بعد الله تعالى - في معرفة كثير من علماء اليمن وفضائلها وسبلابها ونسائها الذين عاشوا بعد وفاة سلفه الإمام البهاء الجندي ، فكتبه هي المصدر الوحيد التي تناولت تراجمهم .

ومن مصنفي كتب التراجم العامة في اليمن الإمام المؤرخ عبدالرحمن بن الحسين بن محمد بن أبي بكر الأهدل (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) كتاباً مختصراً في التراجم والتاريخ العام ، وسماه (غريال الزمان في وفيات الأعيان) ، وهو مرتب على السنين على النهج الذي سلكه الإمام أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) في كتابه (مرآة الجنان وعبرة اليقظان فيما يعتبر به من حوادث الزمان) الذي جاء كتاب الأهدل مختصراً له ، ولما كانت المنية قد احترمت الإمام للمؤرخ الحسين الأهدل قبل أن يتمه فقد انبرى لإتمامه تلميذه الإمام العافظ المؤرخ أبو زكريا يحيى بن أبي بكر بن محمد العامري (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م) ، وأسبغ على كتابه الاسم نفسه الذي أطلقه شيخه الأهدل على مختصره ، فهو (غريال الزمان في وفيات الأعيان)^(١) .

وفي مطلع القرن العاشر قام العلامة محمد بن الحسن بن حميد بن مسعود المقرائي (ت ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م) باختصار كتاب (وفيات الأعيان) لابن خلكان ، وسماه (السلوان المنتزع من وفيات الأعيان لابن خلكان)^(٢) .

وقد سبق أن أشرنا إلى كتاب (قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر) لمصنفه الإمام للمؤرخ أبو محمد الطيب بن عبدالله بن أحمد بامخرمة (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) ، وهو أشهر كتب هذا الإمام العالم ، بل وأكثر كتب الطبقات اليمنية اشتمالاً على الطبقات العامة وترجم الأعلام في أرجاء العالم الإسلامي قاطبة ، وقد ضمته

(١) سبق الحديث عن هذه الجريدة في فئة التاريخ العام ، وهناك تم تحديد أماكن وجود النسخ المخطوطة من هذا الكتاب.

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٩٥٦ .

مُصَنَّفُهُ تَرَاجِمَ مَا يَرِيوْ عَلَى أَرْبَعَةِ آلَافِ عِلْمٍ مِنْ كُلِّ أَقْطَارِ دَارِ الْإِسْلَامِ ، شَمِلَتْ تَرَاجِمَ
الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَلَابِيهِمْ ، وَرِجَالِ الْمَذَاهِبِ وَالْفِرَقِ ، وَالْخُلَفَاءِ وَالْوُزَرَءِ وَالْقَوَادِ
الْعَسْكَرِيِّينَ ، وَصَفُورَةَ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْقَضَاةِ وَالْقُرَّاءِ ، وَشَمِلَ - كَذَلِكَ -
تَرَاجِمَ الْأَدْبَاءِ وَالشُّعْرَاءِ ، وَالْخَارِجِيِّينَ وَالْمُتَمَرِّدِينَ ، وَقَسَمَ تَرَاجِمَهُمْ بِنِظَامِ الطَّبَقَاتِ ،
وَجَعَلَ كُلَّ طَبَقَةٍ عَشْرِينَ عَاماً ، وَرَتَّبَ التَّرَاجِمَ بِحَسَبِ تَارِيخِ وَفَاةِ أَصْحَابِهَا ، وَكُنْ
يُورَدُ التَّرَاجِمُ الَّتِي لَمْ يَتِمَّكَنْ مِنْ تَحْدِيدِ سَنَوَاتِ أَصْحَابِهَا فِي نِهَايَةِ الطَّبَقَةِ .

إِنْ مِمَّا عَلَبَ هَذَا السُّقَرُ الْقِيمَ تَحْيِزَ صَاحِبِهِ إِلَى أَهْلِ السَّنَةِ - فِيمَا يَخْصُ تَرَاجِمَ
أَهْلِ الْيَمَنِ - فَهُوَ يَتَرَجَّمُ لِعُلَمَاءِ الْحَنْفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ عَلَى السَّوَاءِ ، وَالْقَادَةَ الْعَسْكَرِيِّينَ
وَالْأَدْبَاءِ وَالشُّعْرَاءِ ، سِوَا مَا نَقَلَهُ عَنِ الْمَصَادِرِ الَّتِي اعْتَمَدَ إِلَيْهَا أَوْ تِلْكَ الَّتِي عَلَصَرَهَا
وَتَتَلَمَّذَ عَلَى أَيْدِيهَا ، إِلَّا أَنَّهُ أَغْفَلَ تَمَاماً تَرَاجِمَ عُلَمَاءِ الرِّيْذِيَّةِ وَأَعْلَامِهَا وَأَتَمَّتْهَا ، مَعَ
كُونِهِمْ - بِحَسَبِ مَنَهِجِهِ - جَدِيرِينَ بِالْتَّرْجُمَةِ ، فَقَدْ تَرَجَّمُ لِمَنْ هُمْ أُنْسَى مِنْهُمْ فِي أَقْطَارِ
وَقُرُونٍ أُخْرَى .

وَمِنْ مُؤَرِّخِي التَّرَاجِمِ وَالطَّبَقَاتِ يَأْتِي الْإِمَامُ الْمُؤَرِّخُ الْحَافِظُ وَجِيهِ الدِّينِ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ الدَّبِيْعِ الشَّيْبَانِي (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م) ، فَقَدْ وَرَدَ
فِي كُتُبِ الْبَيُولُوجَرَاْفِيَا الْيَمْنِيَّةِ أَنَّ لَهُ كِتَابَ (تَحْفَةُ الْإِخْوَانِ بِمَا ضَبَطَهُ ابْنُ خُلَكَانٍ مِنْ
أَسْمَاءِ الْأَعْيَانِ وَالنَّسَبِ وَالْبُلْدَانِ) ، وَكَذَلِكَ كِتَابُ (إِخْلَاصُ النِّيَّةِ فِي تَحْصِيلِ الْعَطَايَا
لِلسَّنِيَّةِ وَالْمَوَاهِبِ الْهَنِيَّةِ فِي الْمَنَاقِبِ الْيَمْنِيَّةِ)^(١) وَهُوَ اخْتَصَارٌ لِكِتَابِ يَمْنِيٍّ شَهِيرٍ فِي هَذَا
الْفَنِّ هُوَ كِتَابُ (الْعَطَايَا لِلْسَّنِيَّةِ وَالْمَوَاهِبِ الْهَنِيَّةِ فِي الْمَنَاقِبِ الْيَمْنِيَّةِ) لِلسُّلْطَانِ الْأَفْضَلِ
الْعَبَّاسِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ دَاوُدَ الرَّسُولِيِّ (ت ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م)^(٢) .

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ بِأَمْخَرَمَةٍ رَائِداً فِي افْتِحَامِ مِيَادِينِ التَّرَاجِمِ الْعَامَةِ وَالطَّبَقَاتِ بِالْمُقَارَنَةِ
مَعَ عُلَمَاءِ وَمُؤَرِّخِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ ، إِلَّا أَنَّهُ الرَّائِدُ - بِلَا مَنَازِعٍ - لِهَذَا الْفَنِّ بَيْنَ عُلَمَاءِ
الْيَمَنِ وَمُؤَرِّخِيهَا ، فَلَمْ نَسْمَعْ وَلَمْ نَجِدْ فِي الْمَصَادِرِ ذِكْراً لِأَحَدٍ سَبَقَهُ ، وَيَتَمَيَّزُ (قِلَادَةُ
النَّحْرِ) بِأَنَّهُ لِحَتْوَى تَرَاجِمَ لَعَدَدٍ كَثِيرٍ مِنْ عُلَمَاءِ حَضْرَمَوْتِ وَعَدَنَ وَبَعْضِ أَعْلَامِ زَيْدِ

(١) انظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٠١ .

(٢) وقد تم تحقيقه من قبل عبدالواحد عبدالله الحامري كرسلة ماجستير في كلية الآداب بجامعة صنعاء عام ٢٠١١ ، ثم صدر عن وزارة الثقافة اليمنية عام ٢٠٠٤م في طبعة فاخرة ضمن إصداراتها بمناسبة اختيار صنعاء عاصمة للثقافة العربية عامذاك .

وتعز وإب لا يوجد لهم تراجم في غيره ، فهو المصدر الوحيد لتراجمهم ، كما أنه رصد لنا مشاهداته للبدائيات الأولى للظهور البرتغالي على الشواطئ اليمنية ، وتناول محاولتهم لاقتحام عدن - وإذ هو من مواليدها وسكانها .

وقد سلفت الإشارة إلى أن هناك من ذكر أن لبامخرمة كتاب في التاريخ الإسلامي العام على نمط كتاب (تاريخ الإسلام) للكبير الشهير للإمام الحافظ الذهبي ، فمما لا نستبعده أن (قلادة النحر) ليس إلا اختصاراً له ، وبالتالي فهو شامل لعدد كبير من التراجم والطبقات العامة ، ولعله - لو قُيِّضَ له الظهور - أن يشكل دفعة قوية للدراسات التاريخية اليمنية .

وفي الأخير أعبر عن الحسرة التي تصيب الباحث منا وهو يقرأ في المصادر التي خلفها أعلام المؤرخين اليمنيين وأوسعوا غيرهم حديثاً وتعريفاً ، ثم تجد أقل القليل ما يجب ذكره عنهم ، فلا هم الذين تجاوزوا سوء الفهم في إنراك التواضع فترحموا لأنفسهم بما هم أهله ، ولا هم الذين وجدوا من يقوم بهذه المهمة الجليلة من تلاميذهم^(١) لو ممن عاصروهم وعرف قدرهم ، ويجد الباحث نفسه عاجزاً عن القيام بالدراسة التفصيلية عن كل المؤرخين العظام وأحوالهم ، أمثال الخزرجي وابن الديبع والطوب بامخرمة .

❖ طبقات رجال المذاهب والفرق وتراجمهم :

لعل ما تم تناوله في الفصل الأول من هذه الدراسة ، وكذلك ما تمت مناقشته عن خارطة المذاهب الفقهية والفرق الفكرية والمدارس الكلامية يفى بغرض إيضاح مدى للتوثيق الكبير الذي كان يتخذه أتباع تلك المذاهب والفرق لإبرار محاسنها ، وكانت - في الغالب - نوافع ذلك تنحصر في ثلاثة أسباب رئيسية هي :

■ الترويج والدعاية للمذهب أو للفرقة على سبيل التبشير بهما ، وسعياً في سبيل الاستئثار من الاتباع ، وهو نشاط مبرر عقلاً ومنطقاً لكل أصحاب الدعوات والمشاريع الفكرية والعقائدية في حياة البشرية ، سواء نظر للمنافس إلى هذه الفرقة أو للمذهب على أنها مارقة أو صالحة غير واقية

(١) كما قام الإمام السقاوي بالترجمة للوسعة الشهيرة لشيخه شيخ الإسلام الإمام ابن حجر السفلائي الموسومة بـ (الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر) .

الشروط ، فالمروج لمذهبه وفرقته لا يرى فيها إلا أنها اللافتة المثلى للإلتصاء تحتها ، وبالتالي تقوده قناعاته هذه إلى الإندفاع لنشر أفكارها ومبادئها ، فكانت الكتابة التاريخية عن رجال هذا المذهب أو الفرقة أول ما يبادر إلى الذهن كوسيلة وطريقة تؤدي إلى تحقيق العنف المتوخى ، وفي ثانيا هذه التلرجم تجد المدح الكبير والإسهاب المفرط - أحياناً - في الثناء على المسيرة والمنهاج ، وفي مدحهما رسالة غير مباشرة للدعاية والتبشير .

■ الدفاع عن المذهب والفرقة من هجوم المنافسين والحصوم المعادين ، وإقامة الحجة على صواب الموقف وصولب الفكر والعقيدة ، والبرهنة على استقامة المنهج والمسيرة، وذلك بعد بروز مطاير الصراع الفكري والجدل المتعدد الاتجاهات ، وكانت بعض صور هذا الدفاع تأتي بالتوازي مع الصدامات العسكرية الدموية التي كانت تقع أحياناً بين القوى الممثلة للمذاهب والفرق ، حتى وإن لم يكن اختلاف الانتماء للمذهب والفرقة هو سبب الصراع أصلاً، ويندرج في هذا الصنف أيضاً ما تم تأليفه في إطار الصراع بين رجال المذهب الواحد حول أحقية التصدر والرعاية ، فقد تم استعراض القدرات الكتابية التاريخية في سبيل إثبات الاستحقاق والبرهنة على اكتمال شروط الزعامة ، وهذا في الغالب كانت له شواهد بين أبناء الزيدية دون غيرهم بعد أن وقعت للصدامات بين من وجدوا في أنفسهم مؤهلين للتصدر لإمامة الفرقة وزعامة الأتباع .

■ توثيق الأحداث المندرجة في رصيد المذهب أو الفرقة ، والسعي نحو تسجيل المنجزات التي تأتي داعمة لهما ، وذلك خوفاً من النسيان مع تقدم العهود وكر المنين والأيام أو رداً على المحاولات المشابهة الصادرة عن رجال المذهب المنافس والفرقة الموزية ، وما كتب في هذه الفئة هو أقل ما وجد .

ولا يغيب عن بالنا أننا كثيراً ما وجدنا في إطار الكتاب الواحد ما يمكننا تصنيفه في إطار الأسباب الثلاثة الأنعة الذكر ، فهي ترويج ودعاية للمذهب والفرقة في مواضع متأثرة ، وهي دفاع وحماية لهما من المنافس والمُعادي في مواضع أخرى ، وهي توثيق وتسجيل لما يمكن نسيانه من الأحداث والمنجزات في مواضع مماثلة .

وعلى العموم فقد كان تراث علماء اليمن في هذا الباب وافراً في مدة الدراسة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، ويأتي في مقدمة من صنف منهم في رجال الفرق الإمام للعلامة نور الدين علي بن أبي بكر الأزرق (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٧م) أحد أكبر علماء تهامة ، وهو العالم الأفضل في لييات حسين في فروع العلم المختلفة ، له في تراجم رجال الصوفية كتاب لحصه من كتاب آخر له يسمى (الباهر في مناقب الشيخ عبدالقادر) ومن كتاب (روض الرياحين في حكايات الصالحين) لمصنفه الإمام عبدالله بن أسعد اليافعي ، وقد عُنُوَ هذا للكتاب بـ (المطرب للسامعين في كرامات الصالحين)^(١) .

ومنهم الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن سلامة (ت أول القرن التاسع الهجري) ، وهو من العلماء الجامعين بين للتصوف والفقه ، وقد غلب عليه علوم الحديث والتفسير والنحو واللغة ، وكان له في تراجم المتصوفة كتاب (الروص الأغنى في معرفة الصالحين بأرض اليمن)^(٢) .

ومنهم أيضاً الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب بس محمد الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) الذي صنف كتابين ، أحدهما في طبقات الحنفية وسماه (المرقاة الوفية في طبقات الحنفية) ، والآخر في طبقات الشافعية وسمه بـ (المرقاة الأرفعية في طبقات الشافعية) ، وقد انفرد المجد الفيروز آبادي بالترجمة للمستغنين بعلوم معينة ، هي علوم اللغة والنحو ، إذ صنف في تراجمهم كتاب (البلغة في تراجم أئمة للنحاة واللغة)^(٣) .

ونذكر الأهل^(٤) بين المصنفين في تراجم الفرق القاصي الشيخ والصوفي الكبير أبي العباس أحمد بن أبي بكر الرزاق (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) ، رعيم المتصوفة في

(١) الأهل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ١٥٨ .

(٢) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٦٧ ، ٢٧٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، الأهل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٣٧ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، لسخاوي ، الضوء للامع ، ج ١٠ ص ٨١ ، لفاسي ، العقد الثمين في أخبار البلد الأمين ، ج ٢ ص ٣٩٤ .

(٤) تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٣٣٦ .

مطلع القرن التاسع الهجري كما سبق بيانه ، ونكر أن له كتاب (نظم شيوخ الرسالة القشيرية) ، وأنه جمع مختصرين في طرق الصوفية وأسماء رجالها .

ولالإمام الهادي بن إبراهيم الوريث (ت ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م) كتاب في تراجم أئمة الزيدية وعلمائها ، وقد سمي كتابه هذا بـ (ريلض الأبصار في ذكر الأئمة الأكرام والعلماء الأبرار وشيبتهم الأخبار)^(١) ، وهو من التواريخ المنظومة شعراً .

وفي تراجم أئمة الزيدية باليمن أيضاً ألف أحدهم - وهو الإمام الهادي علي بن المؤيد بن أحمد بن جبريل (ت ٨٣٦ هـ / ١٤٣٢ م) - كتاباً بعنوان (الدلائل المصيبة في مراتب أئمة الزيدية وتفصيل منازلهم العلية)^(٢) .

وممن جمع تراجم رجال الصوفية وحكايات أهلها ذكر الشيخ محمد بن محمد ابن أبي القاسم المزجاجي (ت ٨٢٩ هـ / ١٤٢٦ م) ، وذلك في كتاب له سماه (هداية السالك إلى أسنى المسالك)^(٣) (١) .

ومنهم أيضاً المؤرخ عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن الحطيب الحصرمي (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) ، فقد ترك أثراً تاريخياً في تراجم الصوفية بحضرموت ، وخالصة المنتسبين إلى آل البيت النبوي هناك ، وهم مشهورون بآل (باعلوي) ، وعنوان كتابه (الجوهر للشفاع في فضائل ومناقب السادة الأشراف من آل باعلوي

(١) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (٣١٥٤) ، وفي مكتبة الجامع الكبير العربية بسقطان ، الأولى تحت رقم (٢٥٥ مجاميع) ، والثانية تحت رقم (١٩٧ مجاميع) ، وبمكتبة الأمبروزيانا نسخة رابعة تحت رقم ٨ 119 ، ونسخة خامسة في مكتبة محمد محمد الكبسي بصنعاء ضمن مجموع ، ونسخة سادسة بمكتبة عبدالرحمن شليم بمحافظة صنعاء ، ونسخة سابعة بمكتبة جامع لإمام الهادي بصعدة ، لطر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٧٠ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩٢ .

(٢) ذكر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩٣ أن منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الخريبة إلا أنه - على غير عادته - لم يذكر بيانها كاملة .

(٣) الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٢٢٨ ، وقال الحبشي في حاشية الصفحة ذاتها أن لديه نسخة من مخطوطة الكتاب .

(٤) وقد أخطأ الأهدل في وصف الكتاب - تبعاً لموقعه من المتصوفة المتفلسفين فقال : " وقد صنف كتاباً بالثناء على ابن عربي والحلاج ، وجمع فيه حكايات وخرافات ... " ، لطر المصنف السابق ، ج ٢ ص ٣٢٨ .

وغيرهم من الأولياء العراف^(١) ، وهو من أهم مصادر المؤرخ بامخرمة في تراجمه لعلماء ورجال حضرموت في كتابه للقيم (قلادة النحر) .

ويُعد الإمام المؤرخ عبدالرحمن بن الحسين بن محمد بن أبي بكر الأهدل (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) من أحسن المؤرخين اليمنيين الذين صنفوا في تراجم علماء المذاهب والفرق اليمنية ، وذلك في كتابه القيم جداً (تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن) فقد كان - بحق - منصفاً في الترجمة لكل من بلغه خبرهم من أعيان العلماء والفرق والمذاهب والسياسة ، فكان كتابه المذكور جامعاً لأهل السنة من الشافعية والحنفية ، وللفرق المختلفة والمتباينة ، كالزيدية والإسماعيلية ، وترجم لرموز التصوف المعتدل والمغالي ، ولم يمنعه عدم اتفاقه في العقيدة أن يتناول تراجم الشافعية القائلين بعقيدة الحنابلة^(٢) ، وكذلك من بلغه خبرهم من رجال الزيدية وهم الحاملون لفكر ومعتقدات المعتزلة ، كما لم يدفعه خلافه الكبير مع أتباع ابن عربي والحلاج وابن الفارض من المتصوفة إلى التعاطل عن الترجمة لأعلامهم وتضمينها في صلب كتابه .

وقد قسم الإمام الأهدل مادة كتابه على المنهج نفسه الذي سار عليه الإمام الجندي ، خلاصة أن تاريخ الأهدل - في الأصل - ليس إلا امتداد لتاريخ الجندي نفسه^(٣) ، فكان يرتب التراجم على البلدان اليمنية ، فيبدأ بالبلدة فيقبل من تراجم أعلامها معظم ما أورده الجندي ثم يتم بذكر تراجم من عاصروه منهم ، وشمل بها معظم مناطق اليمن الرئيسية ، واستمر في إضافة التراجم إلى كتابه حتى قبل وفاته .

وللإمام الحسين بن عبدالرحمن الأهدل أيضاً في التاريخ كتلب (طبقات الأشعرية) ، وقد أشار إليه في كتابه (كشف الغطاء)^(٤) ونقل عنه .

(١) منه نسخة مخطوطة في مجيدين بمكتبة خاصة بمدينة تريم في حضرموت - لم يذكر الحبشي أكثر من هذا - ونسخة أخرى بمكتبة الأحقاف بحضرموت تحت رقم (٢٠٣٧ - ٢٠٤٢) ، ونسخة ثالثة في المتحف البريطاني تحت رقم (٧٤٢) ، انظر الحبشي ، مصنف الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩٥ .

(٢) كان الإمام الأهدل شافعياً أشعري معتقداً . وقد سبق الحديث عن عقب الخلاف بين شافعية الجبال القائلين بعقيدة الحنابلة وشافعية تهامة الحاملين لمعتبة أبي الحسن الأشعري .

(٣) تبلغ المسافة الزمنية بين الإمام الأهدل والإمام الجندي - من خلال تاريخ وفاتهما - حوالي قرن ونصف .

(٤) الأهدل ، كشف الغطاء ، ص ١١٠ .

وفي أخبار المذهب الإسماعيلي ورجاله وعلمائه قام الداعي الإسماعيلي المطلق لإبراهيم عماد الدين بن الحسن بن عبدالله القرشي (ت ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م) بتصنيف ثلاثة من الكتب ، هي : كتاب (عيون الأخبار وفتون الآثار في ذكر النبي المختار ووصيه علي بن أبي طالب قاتل الكفار وألهم الأئمة الأطهار عليهم صلوات الغفار) وهو مقسم إلى سبعة أقسام ، وسمى كل قسم منها (السبع)^(١) ، وكتاب (نزهة الأفكار وروضة الأخبار في ذكر من قام من الملوك الكبار والدعاة الأخيار)^(٢) ، وهذا الأخير جعله على قسمين ، خصص القسم الأول منه لتاريخ الدول الإسماعيلية باليمن التي دانت بالولاء للدولة الفاطمية بمصر حتى قيام الداعي الإسماعيلي السابع عشر ، والقسم الثاني من الكتاب اهتم بسيرة الداعيين السابع عشر والثامن عشر ، والكتاب الأخير لهذا الرجل هو (روضة الأخبار وبهجة الأسرار في ذكر حوادث اليمن الكبار والخصوص والأصهار)^(٣) .

ومن صنف في تراجم الفرق الإمام الحافظ أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م) ، فقد ترك كتاباً هو العمدة في تراجم الصوفية بأرض اليمن حتى زمن المؤلف ، وهذا الكتاب موسوم بـ (طبقات الخوارج أهل الصنق والإخلاص)^(٤) ، وقد نقل عن المؤرخين الذين سبقوه ، واستفاد منه من جاء بعده من المؤرخين .

(١) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الدكتور الإسماعيلي الشهير حسين الهمداني الخاصة ، وقد نشر (السبع الرابع) من هذا الكتاب بتحقيق د. مصطفى غالب وصدر عن دار الأناضول في بيروت ، نظراً للحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩٦ ، د. أيمن مؤيد سيد ، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة د. حسين الهمداني الخاصة ، ونسخة أخرى مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٢٥٣) ، ونسخة ثالثة بمكتبة جامعة استنبول بتركيا تحت رقم (٣٥٢١) ، انظر الحبشي ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) وهذا الكتاب تناول حوادث تاريخ اليمن في المدة من (٨٥٤هـ / ١٤٥٠م) حتى سنة (٨٧٠هـ / ١٤٦٥م) ، منه نسخة مخطوطة بمكتبة جامعة ليندسجهولندا تحت رقم (٢٦١٤) ، انظر د. أيمن مؤيد سيد ، المرجع السابق ، ص ١٨٢ ، الحبشي ، المرجع السابق ، نفس الصفحة . وقد نشرته - بتحقيق القاضي محمد علي الأكوع - الهيئة العامة للكتاب باليمن عام ١٩٩٥م .

(٤) منه نسخة مخطوطة بالمتحف البريطاني تحت رقم (٣٠٣٦) ، ونسخة أخرى في مكتبة جامعة ليندسجهولندا تحت رقم (٥٧٩) ، وقد طبع قديماً في سنة ١٣٢١هـ بالهند ، انظر الحبشي ، مصادر الفكر

وقد صنف شيخ الإسلام الإمام أبو عبدالله جمال الدين محمد بن أحمد بن علي بافضل الحضرمي (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٨م) كتاب (تراجم رجال البخاري) في سياقات اهتمامه بالتاريخ والحديث ورجاله ، وكان ينكر فيه وجه مناسبة الترجمة للحديث ، وقد وصفه المؤرخ الإمام الطيب بن عبدالله بالمخرمة^(١) - أحد تلاميذ المصنف - بقوله " وفيه فوائد جمعة ... " .

ومن المشتغلين بالترجمة لرجال المذاهب والفرق في مدة الدراسة للمؤرخ عبدالوهاب بن عبدالرحمن البريهي (ت ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م) ، فقد وضع في تراجم رجال المذهبين السنيين - الشافعي والحنبلي - كتابين من أهم مصادر تاريخ اليمن في القرن التاسع الهجري ، وكان اشتغاله في تراجم الشافعية من أهل المناطق الجبلية المرتفعة كتعز وب وعر والمناطق والقرى المتناثرة بينها أكثر من اشتغاله بغيرهم ، وكانت له عناية خاصة بتراجم المتصوفة منهم ، وفي كتابيه من التراجم التي لم يعتن بها غيره للعدد الكبير ، ومن هنا جاءت القيمة العالية لهما ، وأحد هذين الكتابين عبارة عن تاريخ موسع ، شمل الكثير من الإشارة الفنية والمضامين الأدبية والفقهية والمعرفية ، وقد أعطاه الحبشي عنوان (تاريخ البريهي الكبير)^(٢) ، وأما الكتاب الآخر فهو (طبقات صلحاء اليمن)^(٣) ، وهو مختصر للكتاب الأول ، وفيه العدد الهائل من الإحالات إليه ، فهو يشير إلى مطالع للقوائد الشعرية والاستشهادات الأخرى ، فيورد منها بيتين أو ثلاثة ويحيل من يود الاطلاع على البقية

الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩٧ ، وصدر مؤخراً - عام ١٩٨٦م - عن دار البنية للنشر والتوزيع بتحقيق عبدالله الحبشي .

(١) بالمخرمة ، قلادة الفجر ، ج ٣ ص ٧٨٤ .

(٢) هذا التاريخ المهم من التفاضل اليسيرة المفقودة ، ولم يعثر منه حتى الآن إلا على الجزء الأول منه ، ونسخته محفوظة بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (٢٦٢) ، نظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩٦ .

(٣) أستطيع أن أذكر بأن هذا الكتاب من أكثر المصادر نفعا لهذه الدراسة ، فقد كان التحويل عليه كبيرا في أخبار العلماء في القرن التاسع في المناطق التي اختص بها ، ومنه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير بمدينة تريم بحضرموت ، ولها صورة في معهد المخطوطات بالقاهرة ، وقد طبع محققاً من قبل عبدالله الحبشي ، وآخر طبعاته صدرت عن مكتبة الإرشاد بصماء عام ١٩٩٤م ، انظر المرجع السابق ، والصفحة ذاتها ، الحبشي ، فهرس المخطوطات اليمنية في حضرموت ، ص ١٦ .

إلى التاريخ الكبير - ويسميه الأصل - وكذلك القصص والكرامات والمواقف السياسية والأدبية والعلمية التي صدرت عن المترجم لهم ، ومن خلالها اتضح لنا ماهية المحتوى المتضمن في (تاريخ البريهي الكبير) .

وقد رتب المؤرخ البريهي مضمون تاريخه على الطريقة نفسها التي سار عليها الإمامان الجدي والأهدل ، فهو يرتب التراجم على البلدان اليمثية ، فلا ينتقل عن البند حتى يترجم لأكثر علمائها ، مستأ بالآتم وفاة وانتهاء بالمعاصرين له ، فهو لم يترجم لمن توفي فقط ، لذلك فإن عبارة " وهو على الحياة حال جمع هذا المختصر " متاثرة بين تراجمه .

ولعلنا نذكر أننا تناولنا - في فئة التاريخ المحلي - التاريخ المنظوم الذي صنفه العلامة الإمام صارم الدين إبراهيم بن محمد بن عبدالله بن الهادي بن إبراهيم الوزير (ت ٩١٤هـ / ١٥٠٨م) ، والذي شمل به أخبار دول أئمة الزيدية باليمن وغيرها ، مبتدئاً إياه من فترة مبكرة ، من فترة النبوة ، حتى مطلع القرن العاشر الهجري ، وهو المسمى بـ (الجواهر الماضية في سيرة الأئمة لأخبار) ويعرف أيضاً بـ (البسامة الجامعة لأخبار من قام ودعا من أئمة آل عليهم السلام)^(١) ، واختصر اسمه أثناء التداول بـ (البسامة) ، من منطلق أن مادته مصنفة بحسب الترتيب التاريخي لقيام الأئمة الزيدية فيحق لنا أن نضعه ضمن كتابات هذه الفئة بصفة أئمة الزيدية رجال مذهب وفرقة إسلامية باليمن .

وما قيل عن (البسامة) يقال عن شروحها ، وهي - كما سبق ذكرها - الشرح الذي وضعه المؤرخ العلامة محمد بن علي ابن يونس بن علي الزحيف (ت ٩١٦هـ / ١٥١٠م) والمسمى بـ (مآثر الأبرار في تفصيل مجملات الأخبار) وقد يسمى أحياناً (اللوحق للندية بالحدثائق الوردية)^(٢) ، وكذلك شرحها الثاني (الترجمان المفتوح لثمرات كمانم البستان) الذي وضعه الفقيه العلامة محمد بن أحمد بن يحيى مظفر (ت ٩٢٦هـ / ١٥١٩م)^(٣) .

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٨١ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٠٣٧ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٩٢٥ .

وممن صنف في تراجم المذاهب والفرق يأتي الأديب المؤرخ عمر بن محمد بن أحمد بن أبي بكر باشيبان الحضرمي (ت ٩٤٤هـ / ١٥٢٧م) ، وهو شاعر أديب ، له نظم بديع ونثر حسن ، وأما جهوده في تاريخ الفرق فقد تمخض عن كتاب سماه (ترياق القلوب للوف بنكر أحوال السادة الأشراف) ^(١) ، جعله في ثلاثة أقسام وخاتمة ، قسمه الأول فضل الأولياء والصالحين ، والثاني في تراجم صوفية حضرموت من العلويين وغيرهم ، والثالث في فضل أهل البيت النبوي ، وخصص الخاتمة لتناول فضل مدينة تريم بحضرموت ، موطن للتصوف والصوفية هناك .

وقام الإمام المؤرخ المحدث أبو محمد الطيب بن عبدالله بن أحمد بامخرمة (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) بتصنيف كتاباً على (أسماء رجال مسلم) ويبدو أنه على غرار كتاب شيعه الإمام محمد بن أحمد بافضل (تراجم رجال البخاري) السابق ذكره . ^(٢)

❖ السير المفردة للشخصيات العامة :

لقي هذا النوع من الكتابة التاريخية عناية خاصة لدى اليمنيين ، بل إن أول كتابة تاريخية في تاريخ اليمن الإسلامي هي سيرة مفردة لإحدى الشخصيات اليمنية العامة التي عاشت في آخر القرن الثالث الهجري ، ألا وهي شخصية الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي (ت ٢٩٨هـ / ٩١٠م) مؤسس المذهب الزيدي ودولته في اليمن ، إذ قام أحد أقربائه - ويدعى علي بن محمد بن عبيدالله العلوي - بكتابة سيرته المعروفة بـ (سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين) .

وقد تبين أن للعلماء من أهل السنة والزيديية باليمن غرام كبير بكتابة سير أصحاب الأثر العلمي والسياسي ، وكذلك أهلصلاح والتقوى - من المتصوفة - وسير ومناقب المشهورين من أهل اللطم والفضل ، ويظل علماء الزيدية هم فرسان هذا النوع من الكتابة التاريخية ، بل إنها أصبحت تقليداً وعرفاً لديهم ، إذ كتبت سير معظم أئمتهم ، سواء بتوجيه من الأئمة أنفسهم أو بدافع ذاتي ممن حولهم من العلماء ،

(١) لشلي ، السنا الباهر ، ص ٣٥٠ ، المشروع الروي ، ج ٢ ص ٢٤٨ ، العندروس ، انوار المسافرين ، من ١٩٩١ ، ومنه نسخة في المتحف البريطاني تحت رقم (١١٢) ، انظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٠٢ .

(٢) لشلي ، السنا الباهر ، ص ٣٢٨ .

فتوفرت بذلك مصادر أصلية ذات قيمة عالية لمدد زمنية مهمة من تاريخ اليمن ، خاصة فيما يتعلق بأخبار الزيدية وصراعاتها الدائمة مع القوى اليمنية المتعددة ، سواء كانت من النول أو القبائل ، ولم نظفر بشيء من إنتاجهم التاريخي يتناول مدينة أو بلدة قط^(١) ، إذ كان التاريخ - في وجهة نظرهم - يتمحور حول الإمام الذي يمثل مركز الاهتمام وقطبه الجانب .

ومن أشهر السير التي أفردت لشخصيات عامة في مدة الدراسة نذكر كتاب (المنهج القويم في مناقب للشيخ عبدالله القديم) الذي صنّفه العلامة الشيخ محمد بن أبي بكر بن عمر بن محمد باعبد (ت ٨٠١هـ / ١٣٩٨م)^(٢) ، وعبدالله القديم المشار إليه في عنوان الكتاب هو عبدالله بن محمد باعبد الحضرمي ، أحد أكابر علماء حضرموت وصوفيها الكبار^(٣) ، ولم يقتصر المؤلف على سرد سيرة الإمام عبدالله القديم فقط ، بل شمل كذلك تراجم أولاده وأحفاده ، والمصنف نفسه أحد أحفاده .

ولمناسبة ذكرنا للإمام عبدالله القديم فقد صنّف المؤرخ عبدالرحمن بن علي بن حسان الحضرمي (ت ٨١٨هـ / ١٤١٥م) سيرة خاصة به في إطار اهتمامه بتاريخ حضرموت - على وجه التحديد - ولم يردنا عنوان هذه السيرة ؛ لذلك سماها الحبشي^(٤) (مناقب الشيخ عبدالله بن محمد القديم) .

ونذكر الأهل^(٥) والشرجي^(٦) أن أبا القاسم بن عمر بن محمد بن حسين بن علي بن الحسين النجدي قد جمع سيرة خاصة بالشيخ الصالح والصوفي الكبير أحمد بن محمد الحرّضي الحكي (ت ٨٠١هـ / ١٣٩٨م) ، وسماها (مناقب الحرّضي)

(١) عبدالرحمن أحمد المختار ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الشيخ علي بن عبدالرحمن باعبد الخاصة بحضرموت ، انظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٨٨ .

(٣) باحسان ، جواهر تاريخ الأحقاف ، ج ٢ ص ٩٨ ، الحداد ، عقود الأكماس بمناقب لعارف بالله الحبيب أحمد بن حسن العطاس ، ج ٢ ص ١٧ ، الحبشي ، المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) الحبشي ، المرجع السابق ، ص ٤٩١ .

(٥) تحفة الزمن في تاريخ ملوك اليمن ، ج ٢ ص ٥٢ .

(٦) طبقات الفواص ، ص ٢٩ .

وفي صنعاء صنف العلامة الناصر بن أحمد بن المطهر بن يحيى الحمسي (ت ٨٠٢هـ / ١٤٠٠م) سيرة لجدّه الإمام المتوكل على الله المطهر بن يحيى (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م) ، ثم أنه ضمنها سيرة عمه الإمام المهدي محمد بن المطهر (ت ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م) وابن عمه الإمام الوثق المطهر بن محمد بن المطهر (ت ٨٠٢هـ / ١٣٩٩م) ، وهي سيرة وصفت بأنها مختصرة^(١) .

وكما سبقت الإشارة إلى أن الإمام العلامة نور الدين علي بن أبي بكر الأزرق (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٧م) أحد أكبر علماء تهامة ، قد أسهم في الترجمة لرجال التصوف في اليمن من خلال كتابه (المطرب للسامعين في كرامات الصالحين) ، وذكرنا أن هذا الكتاب قد تم تلخيصه وترتيب ملدته من كتابين آخرين ، أحدهما للمصنف ابن الأزرق نفسه هو كتاب (الباهر في مناقب الشيخ عبدالقادر) ، وهو سيرة خاصة مفردة للإمام الصوفي الشهير عبدالقادر الجيلاني^(٢) .

وممن أسهم في التاريخ بتأليف السير المتعلقة بالشخصيات العمة في اليمن في مدة الدراسة العلامة يحيى بن القاسم العلوي (ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م) ، فقد صنف كتاب (سيرة الإمام علي بن صلاح الدين) والمقصود بالسيرة هو الإمام المنصور بالله علي بن الإمام الناصر صلاح الدين (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) الذي مر علينا ذكره وطرفاً من تاريخ إمامته في الفصل الثاني ، ولأن المصنف قد توفي أثناء إلمة المترجم له فقد تكفل ابنه الناصر بن يحيى بن القاسم العلوي بإتمامها^(٣) .

وفي مناقب الإمام عبدالقادر الجيلاني أيضاً ألف الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزآبادي الشيرازي (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) كتابه الموسوم

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ١١٦٧ ، ومنها نسخة مخطوطة بمكتبة الأميروريانا تحت رقم ٨٥٥ ، نظار الوجيه ، أعلام المؤلفين للزيدية ، ص ١٠٥٧ ، ربارة ، ملحق البندر الطالع ، ص ٢١٩ ، إلمة اليمن ، ص ٢٩١ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٨٨ .

(٢) الأمل ، تحفة الزمن في تاريخ ملدات اليمن ، ج ٢ ص ١٥٨ .

(٣) منها نسخة مخطوطة بخط المؤلف نفسه بمكتبة المرتضى بن هذاف الورير في معرة السر ، وقد انتزعت عدة أوراق من بدايتها ، ومنها صورة بمكتبة عبدالله الحبشي الخاصة ، نظار الوجيه ، أعلام المؤلفين للزيدية ، ص ١١٤٥ ، ١١٤٦ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩٠ .

بـ (روضة الناظر في ترجمة الشيخ عبدالقادر)^(١) ، كما أن له (الفضل الوفي في العدل الأشرفي) خصصه لفضائل ومدح السلطان الرسولي الأسرف الثاني إسماعيل (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م)^(٢) .

وقد سلف ذكر السيرة التي خصصها المؤرخ عبدالرحمن بن علي بن حسان الحضرمي (ت ٨١٨هـ / ١٤١٥م) للإمام عبدالله القديم ، ونذكر هنا أنه صنف أيضاً سيرتين خاصتين بآلئتين من الشخصيات الصوفية الحضرمية ، الأولى هي (مناقب الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم محمد بن علي) ، والثانية هي (مناقب الشيخ سعيد بن عيسى العمودي)^(٣) .

وقد صنف الشيخ محمد بن أبي بكر بن أحمد الأشكل (ت ٨٢٠هـ / ١٤١٧م) سيرة خاصة كرسها لشيخه المتصوف الإمام إسماعيل الجبرتي سماها (فيض الوهب الإلهي الأقدس عن سر شيخ الإسلام الجبرتي بالفيض الأقدس)^(٤) .

وقد صنف القاضي والصوفي الكبير أحمد بن أبي بكر الرداد (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) كتاباً في سيرة الإمام علي بن أبي بكر الشاذلي ، وعنون كتابه بـ (المجموع الشريف المحتوي على كل معنى لطيف)^(٥) .

وفي الدفاع عن موقف الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن الإمام المهدي علي بن محمد (ت ٧٩٣هـ / ١٣٩٠م) عندما ثار الجدل حول اتخاذ الآلات الموسيقية العسكرية ، صنف الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير (ت ٨٢٢هـ / ١٤١٩م)

(١) السخوي ، الضوء اللامع ، ج ١٠ من ٨١ ، العاسي ، العقد الثمين في أخبار البلد الأمين ، ج ٢ من ٣٩٦ ، الفيروزبادي ، القاموس المحيط ، ص ١٤ من مقدمة المحقق .

(٢) الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩١ .

(٣) ولم أهد إلى تعريف للشخصيتين المترجم لهما في الكتابين ، انظر المرجع السابق ، ص ٤٩١ .

(٤) منها نسخة مخطوطة بمكتبة مشرف بن عبدالكريم المحرابي الخاصة بتعز ، ونسخة أخرى بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (١٩٥) ، ونسخة أخرى في المكتبة نفسها في قائمة (كتب حديثة) ، انظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩١ .

(٥) منها نسخة مخطوطة بمتحف آي صوبيا بتركيا تحت رقم (٣٢٤٤) ، انظر المرجع السابق ، ص ٤٩١ .
٤٩٢ .

كتبه (كريمة العناصر في الذب عن سيرة الإمام الناصر)^(١) وقد جعلها ترجمة ضافية له ولكثير من أئمة الزيدية السابقين له ، وامتكحه فيها بمدائح واسعة ، وعن سيرة الإمام الناصر صلاح الدين نفسه ألف العلامة علي بن سليمان المعروف بابن الرغوف كتاباً خاصاً بها^(٢) .

ولما لحكم الخلاف الفكري والعسكري النعوي بين الزيدية حول شرعية إمامة أحد المتعارضين والمناوئين عليها في مطلع القرن للتاسع الهجري ، وكانت المناقشة محتكمة بين ثلاثة من الأئمة أحدهم الإمام المنصور بالله علي بن الإمام الناصر صلاح الدين ، كان الهادي بن إبراهيم الوزير قد اتخذ جانب الإمام المنصور ، وجرد قلمه ولسانه للدفاع عنه وتعداد مناقبه بما يثبت استحقاقه للإمامة وامتلاكه شروطها ، ومن جهوده في ذلك تأليفه كتاب (كشف الغمة عن حسن سيرة إمام الأئمة)^(٣) .

وقد وقف الإمام الشهير محمد بن إبراهيم الورير (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) للموقف نفسه الذي وقفه أخوه الهادي بن إبراهيم في الصراع العشار إليه آنفاً ، واتخذ

(١) منها نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (١١٥) وعنها صورة بالميكرو فيلم في دار الكتب المصرية تحت رقم (٢٢٠٤) ، وأخرى بخط المؤلف نفسه بالمكتبة الغربية نفسها تحت رقم (١٦٠ تاريخ) ، ومنها نسخة بالمتحف البريطاني تحت رقم (٥٣٩٣) ، ونسخة أخرى بمتحف آيا صوفيا بإستانبول تحت رقم (٣١٨١) . انظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩٢ ، الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٧١ ، د. أيمن فؤاد سيد ، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، ص ١٧٠ .

(٢) هكذا حكاهما الحبشي ، المرجع السابق ، ص ٤٩٢ دور أي معلومات أخرى سوى أن ابن الرغوف كان معاصراً للهادي الوزير .

(٣) منه نسختان مخطوطتان بمكتبة الجامع الكبير العربية ، الأولى تحت رقم (١٥٧) ، والثانية تحت رقم (١٥٨) ، ونسخة أخرى في مكتبة الجامع الكبير للشرقية تحت رقم (٥٣٥٠) ، وأخرى بدار الكتب المصرية تحت رقم (٤٩) ، وأخرى في مكتبة علي لميري تحت رقم (١٣٨١) ، وبنسخة آيا صوفيا نسخة منه تحت رقم (٣٣٨١) ، ومنها نسخة بالمتحف البريطاني تحت رقم (٣٣٩١) ، ونسخة بخط المؤلف نفسه لدى ورثة أحمد بن قاسم حميد الدين وعنها صورة بمكتبة معهد القضاء العالي بـصنعاء ، ونسخة في مكتبة عبدالرحمن شايه ، ونسخة في الأمروزيات تحت رقم ٨٩٥ ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٧٢ ، الحبشي ، المرجع السابق ، ص ٤٩٢ ، د. أيمن فؤاد سيد ، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، ص ١٧٠ .

جانب الإمام المنصور علي بن الإمام الناصر ، ودافع عنه كأخيه ، وصنف في سيرته كتاب (للصام المشهور في الذي عن دولة الإمام المنصور)^(١) .

وهذا الفقيه الشيخ محمد بن عمر بن محمد للعراقي الشاوري بجمع مصنف في سيرة والده الشيخ الصوفي الشهير باليمن محيي الدين أبو حفص عمر بن محمد العراقي الشاوري للمكي الحراري (ت ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م)^(٢) ، وسمى هذه السيرة بـ (السر الرابي في مناقب الغوث العراقي)^(٣) .

ونرى العلامة الحسن بن أحمد بن يحيى بن المرتضى (ت ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م) يترك أثراً كبيراً في ترجمة والده الإمام المهدي لدين الله أحمد بن يحيى المرتضى (ت ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م)^(٤) ، وهي ترجمة - بل سيرة - ضافية جامعة ، صممتها معظم ما كُتِبَ عن والده لعلم الكبير ، من الأشعار والخطب والرسائل والوصايا ، كما تناول فيها سيرته الغزيرة بالأحداث العلمية والسياسية والعسكرية ، وسمى سيرته بـ (كبر الحكماء وروضة العلماء)^(٥) .

وجمع العلامة علي بن أبي بكر النشاري (ت ٨٤٤ هـ / ١٤٤٠ م) كتاباً في السير الخاصة ، وجعله على اسم السلطان الناصر أحمد بن إسماعيل الرسولي

(١) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغربية ، الأولى تحت رقم (٥٢ مجاميع) ، والثانية تحت رقم (١١٩ مجاميع) ، وبها نسخة ثالثة تحت رقم (٩٦ مجاميع) ، انظر التوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٨٢٨ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩٣ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ص ٥٦٠ ، د. أيمن فؤاد سيد ، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٢) ترجمته لدى البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٤١ ، ٤٢ ، السخوي ، الضوء اللامع ، ج ٥ ص ١٣١ .

(٣) منه نسخة مخطوطة في مكتبة شستري في مدينة بلن تحت رقم (٥١٥٤) ، انظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩٢ ، ٤٩٣ .

(٤) توفي الوالد والولد في السنة نفسها في واحد من لشدة الأوبئة فتكاً بالناس في تاريخ اليمن ، وهو معرض الطاعون لوالد في سنة (٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م) .

(٥) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (١١٥ تاريخ) ، ونسخة أخرى بمكتبة الجامع الكبير للشرقية تحت رقم (٢٣٧٦) ، ونسخة أخرى في مكتبة محمد بن محمد الكبسي ، انظر المرجع السابق ، ص ٤٩٣ ، التوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٣٠٤ .

(ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) ، وجعل عنوان هذا الكتاب (روضة الناظر للملك الناصر)^(١) ،
غير أن الحبشي^(٢) قال : إن هذا الكتاب مأخوذ من (وفيات الأعيان) لابن خلكان ، فإن
كان ما قاله صحيح فكان هذا الكتاب ضمن فئة التراجم والطبقات العامة .

وقد جمع - أيضاً - العلامة أبو القاسم بن أحمد بن إبراهيم مطير الحكيم
(ت ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م) في سيرة أبيه الإمام أحمد بن إبراهيم مطير الحكيم
(ت ٧٦٢هـ / ١٣٦١م) كتاباً بعنوان (مناقب أحمد بن إبراهيم مطير)^(٣) .

وكان للفقير المتصوف سراج الدين عمر بن عبدالرحمن بن محمد بن علي
باعطوي (ت ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م) ، أحد أشهر الشخصيات الصوفية في القرن التاسع
الهجري في اليمن ، شاعراً محباً للعلماء والصالحين ، ومدائح فيمن أحبه منهم
مشهورة ، كعلماء لبني جعمان الذين تتلمذ على بعضهم ، يقول بامخرمة : " وله شعر
حسن وقصائد طنانة في مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي مدح السادة بني
جعمان كالنبي إبراهيم بن أبي القاسم بن جعمان وغيرهم من العلماء الكبار كشيخ
الإسلام جمال الدين محمد بن أحمد بافضل الحضرمي ... " ^(٤) ، وله في مناقب شيوخه
عبدالله العيدروس (ت ٨٦٥هـ / ١٤٦١م) كتاب (فتح الرحمن الرحيم في منسب
الشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس)^(٥) ، وفي سيرة الشيخ عبدالله العيدروس أيضاً

(١) منه نسخة مخطوطة بمكتبة باريس الوطنية تحت رقم (٥٨٢٣) ، ونسخة أخرى بمكتبة آيا صوفيا في
تركيا تحت رقم (٣٢٣٥) ، ونسخة أخرى في مكتبة بحري المتوكل الخاصة بصنعاء ، انظر الحبشي ،
مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ١٩٤ . د. أيمن فوزي سيد ، مصادر تاريخ اليمن في العصر
الإسلامي ، ص ١٧٥ .

(٢) الحبشي ، المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

(٣) الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ١٥٧ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ١١
ص ١٣١ ، الحبشي ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٤٩ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ومنه نسخة مخطوطة في مكتبة محمد بن عبدالله بن بصري
في مدينة سينون بحضرموت ، انظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ١٩٦ .

صنف الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بلوزير (ت آخر القرن التاسع الهجري) كتاباً بعنوان (للتحفة النورية)^(١) .

كما جمع الإمام المؤيد بالله محمد بن الناصر بن محمد (٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ م) كتاباً في مناقب الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وسيرته ، وسماه (نهضة الرسول في مناقب وصي الرسول)^(٢) .

والعلامة الإمام جمال الدين محمد بن عمر بن مبارك بخشرق الحضرمي (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م) كتاب في السير الخاصة ، هو الموسوم بـ (مواهب القدوس في مناقب ابن العبدروس)^(٣) ، وضعه مصنفه في سيرة أبي بكر بن عبدالله العبدروس (ت ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م)^(٤) ، وقد وصفه المصدر بقوله : " أجاد فيه كل الإجابة ، ولم يترك غيره مجالاً للريادة ... " ^(٥) .

❖ السير الذاتية الخاصة :

تطَبَّع علماء الإسلام على كرامة مدح النفس والحديث عن فضائلها بعد قرأوا الكثير من الآثار التي تعد ذلك من أمراض النفس التي يتعين على المسلم التخلص منها ، ودفعهم ذلك إلى غمط أنفسهم ، فأخفى للكثير منهم مكارمهم وتجنبوا الحديث عن منجزاتهم ، ولعله من غير المبالغ فيه أن نزعهم أنهم جعلوا الاستعراض الطبيعي غير المبالغ فيه لسيرهم ضرباً من العجب والغرور المحبط للعمل ، إذ نفتقر إلى التراجع

(١) منه نسخة مخطوطة في مكتبة الحسيني بمدينة تريم في حضرموت ، انظر الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩٨ .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (٩ تاريخ) ، وعنه صورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة ، ونسخة أخرى بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (٢١٣٧) ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩٨ .

(٣) العبدروس ، النور السافر ، ص ٢٨ ، لشُّلِّي ، المساء الباهر ، ص ٢١٢ ، ونكر الحبشي ، المرجع السابق ، ص ٥٠٠ أن بمكتبته نسخة مخطوطة منه ، وأنه قد طبع ضمن المجموعة المبدروسية .

(٤) أخبار المترجم له بتفصيل كبير عند العبدروس ، النور السافر ، ص ٧٧ - ٨٥ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٨٢ .

الواقية لعدد من المؤرخين اليمنيين الذين أتبعوا تراجم غيرهم بكثير من التفاصيل ولم يتحدثوا عن أنفسهم إلا ما جاء عرضاً في سياق التراجم التي كتبوها لغيرهم .

في هذا السياق نورد ما كتبه أحد الباحثين مبدئياً حسرته بسبب فقدان الكثير مما كان ينبغي كتابته من سير علماء اليمن بسبب التواضع ، يقول : " من الأسباب التي جعلتنا نفقد كثيراً من التراث التاريخي المتعلق بالأعلام في اليمن والحكمة والفقه أن معظم العلماء كان لهم عناية بعلم القوم فلاذ ذلك إلى سلوكهم سبيل التواضع وغمط النفس ، ورغم أنهم قضوا حياتهم في الإفتاء والتعليم والقيام بمصالح الناس وحل الخصومات والمنازعات إلا أن معظمهم لم يكتبوا عن أنفسهم ، اعتقاداً منهم أنهم لم يبلغوا درجة تستحق أن تتلى العناية والتسجيل ، ولم يسمحوا لغيرهم بالكتابة عنهم ، وآثروا طَوْنِي صفحاتهم ، بل وصل الأمر ببعضهم إلى كتمان نسبهم الشريف وإيثار الاعتزاء إلى المشيخة ... وهكذا حرمانا التواضع المفرط الذي نهجوه من خير كثير ، وكثر وفير ، وهذا على عكس غيرهم من علماء البلاد الإسلامية الأخرى ، فإنهم اهتموا بالتاريخ والتراجم ، وصرفوا إليها نفائس أوقاتهم ، ووصل الأمر بكثير منهم إلى أن كتب عن نفسه ، لو تمنى أن يكتب عنه غيره ... ولم يحرصهم ما صدعوا عن التواضع الممدوح ، بل خلفوا لنا ثروة عظيمة ، وقوة حسنة ، وزاداً طيباً ، وقد عبرت عن ذلك المسلك الذي سلكه علماء اليمن شعراً فقلت :

إنَّ الأفاضل من أبناءِ بلدينا

لم يكتبوا ما لهم في الخير من قديم

قد أخلصوا لرضا المولى فكان لهم

بُعْدٌ عن الذاتِ بل عِثْوَةٌ في اللُئيم ^(١)

ومما يؤكد إفراط بعض علماء اليمن في التواضع وسعي كثير من غيرهم إلى الظهور للشيوع الذكر بين الناس ما حكاه الإمام السخاوي ^(٢) أن أبا علي الحسن بن أحمد بن عبدالله بن البناء القرشي الحبلي قال : ليت الخطيب البغدادي ذكرني في

(١) المهدي محمد الحرازي ، تراجم علماء اليمن بين الواقع والطموح ، ص ٥٠ ، ٥٣ .

(٢) السخاوي ، الإعلان بالتوبيخ لمن فم التاريخ ، دراسة وتحقيق محمد عثمان الحشت ، مكتبة بس سناء ، القاهرة ، (٥ ، ٣) ، ٢٩ .

تاريخه ولو في الكذابين ، وقال أيضاً : " ونحوه قول بعضهم ممن توهم اقتصاري على تراجم الأموات : ليتني أموت في حياة السخاوي حتى يترجمني ^(١) .

غير أن الرواد من علماء اليمن الذين كمروا هذه القاعدة قد عاشوا في مدة دراستنا ، الأول منهم توفي في العقد الرابع من القرن التاسع الهجري ، أما الثاني فقد توفي في العقد السادس من القرن نفسه ، في حين توفي الثالث في أواخر النصف الأول من القرن العاشر الهجري ، أما الأول فهو الإمام إسماعيل بن أبي بكر المقرئ (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) الذي قام بالترجمة لنفسه في آخر كتابه الشهير (عنوان الشرف الوافي في الفقه والعروض والتاريخ والنحو والقوافي) .

يقول الإمام المقرئ ^(٢) في مستهل ترجمته الذاتية : " قال مؤلفه الرلجي غفر ربه إسماعيل بن أبي بكر المقرئ الشاوري ، سلمحه الله ، : كانت هجرتي من الموطن بيت حصين إلى الأبواب الأشرفية علم اثنتين وثمانين وسبعمئة في حادثة من السن ، وقد أخذت شيئاً من العلم في الشرع والأدب ، ونظمت القافية ، ثم لما دخلت زبيد أخذت في الاستغفال بطلب الفقه عند الإمام جمال الدين الريمي - رحمه الله - وللنظر في علم الأدب وغيره من العلم وقتاً إلى شهر رمضان سنة أربع وتسعين ، وزترعرت لمعرفه ثانياً ، فأفاض علي سحاب كرمه ، وملاً يدي بالكرامة والنعمة ، وأصاب إلي تدريس المدرسة المجاهدية ونظرها ، ونظر مدرّس عدة ، وجعل لي جامكية كل شهر ثلاثمائة دينار ، ومائة أيضاً لعلمان مضامين ، وصرف إلي داراً كاملة المرافق ، وفيها عين ماء جارية ، ونعم واقية ، فأقيمت عنده - كرمه الله - في روض أريض ، وجود فائض عريض ، إلى أن توفاه الله ، قلبه الله برضوانه ومُلكه أعلى مرتبة في جنانه ، ثم انتقل الملك إلى أمير المؤمنين ولده الملك الناصر - مد الله في أيامه - فأعطاني ألف دينار ، وأجرى لي الجائزة والجامكية ، وشغل بأمر الجهاد والبلاد ... وقد جاعني منه وعود صديقة ، فلما في في رجاء وفاتها وانتظارها ، وعُوْدَة صانقه ، ومروءته سابقة ولاحقة ، ومعارفه في عوارفه المتكافئة غارقة ، مد الله ملكه ، وجعل الله الدنيا كلها ملكه ... " .

(١) السخاوي ، الإعلان بالتوبيخ لمن تم التاريخ ، ص ٢٩ .

(٢) المقرئ ، عنوان الشرف الوافي ، ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

وأما ثاني المؤرخين الثلاثة فهو الإمام الحسين بن عبدالرحمن بن محمد بن أبي بكر الأهدل (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) ، الذي قام بكتابة أشهر سيرة ذاتية كتبها مؤرخو اليمن - وإن لم تكن أطولها^(١) - وضمنها تاريخه المعروف بـ (تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن) ، وهي سيرة ضافية قياماً مع غيرها ، تربو على السبع صفحات ، أخرج فيها ذكر أهم محطات حياته ، الاجتماعية والعلمية ، وشهرتها تفوق شهرة غيرها مع أن سيرة الإمام المقرئ لذاتية أقدم منها بمقولات .

ومما جاء في سيرة المؤرخ الأهدل الذاتية : " وإذ قد ذكرت أهلي ببعض أخبارهم ، فذكر بعض أمري مما يعتني بمثله العلماء والفقهاء ، فمولدي لنحو تسع وسبعين وسبعمائة تقريباً ، بالقهرية^(٢) عربي الجنة^(٣) ، ونشأت بها ، وحفظت القرآن بها ، وكنت في المكتب أسمع الأهل يقولون : هذا الولد قال أبوه فيه أنه يكون فقيهاً ، فلما حفظت القرآن رغبت في الفقه ، فانتقلت إلى المزروعة^(٤) قبل اللوغ ، فقرأت (التنبيه) ، وحفظت ربعه ، وطالمت في (المهذب) وغيره ، وحصلت (التنبيه) ، ثم (مختصر الحسن) في النحو ، و (بداية الهدية) و (التيان) للنووي بخطي ، وكانت قرأنتي على الفقيه العلامة علي بن آدم الزيلعي ، وكان فقيهاً محققاً مفتياً بذاحية سهام ، يعرف (الروضة) والتفسير والعربية والفرائض معرفة جيدة ... وقد سمعت عليه (البداية)^(٥) و (منهاج العابدين) للغزالي ، وبعض (تفسير الواحدي)

(١) أطول سيرة ذاتية كتبها عالم يمني عن نفسه هي سيرة شيخ الإسلام الإمام محمد بن علي الشوكاني التي أنجزها ضمن تاريخه ، القدر الطالع ، ص ٧٣٢ - ٧١٢ .

(٢) لم أَسُد على تعريف لها في كتب البذل اليمنية التي توافرت لدي ، ويستدل على موضعها من خلال تعريف الجنة قتالية لها .

(٣) قرية خربة في وادي سهام من محافظة الحديدة ، بالقرب من مدينة المزروعة ، المقضي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ١ ص ٢٩١ .

(٤) مدينة تقع في على الطريق الواصلة بين مدينتي الحديدة وبلح ، وهي إلى باجل أقرب ، تبعد عن الحديدة حوالي ٣٠ كيلومتراً شرقاً ، وتشتهر بصناعة عدد من المنتجات المحلية و زراعة بعض المحاصيل الزراعية ، وهي تمثل مركزاً لإحدى مديريات محافظة الحديدة المسماة باسمها ، وهي من المواطنين الرئيسية لبعض الأسر الطيبة كالأهدل ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقيادتها ، ج ٤ ص ٧٠٤ ، المقضي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، ج ٢ ص ١٤٨٢ ، ١٤٨٣ .

(٥) أي بداية الهدية للإمام محمد بن محمد العراقي .

بأخذه له قراءة على الفقيه محمد بن موسى الذوالي ، وطالعت (شرح التنبيه)
للزكلاوني ، وحفظت معظم الربع الأول منه تصويراً وتصحيحاً ...

ثم دخلت إلى أبيات حسين في رجب من سنة ثمان وتسعين فاقمت بحاقفة
للشريحة عند الفقهاء بني العرضي ... فقرأت على شياخي الفقيه الصالح محمد بن
إبراهيم العرضي ، فأعدت عليه (التنبيه) وشرحيه ، فحفظته جميعاً ، ثم قرأت
عليه (المهدب) ثم (المنهاج) و (الأنكار) للنووي ، ثم أعدت (المنهاج) على
شياخي الفقيه الإمام علي بن أبي بكر الأزرق ، وحصلت اختصاره لـ (المهمات)^(١) ،
وتخرجت به وطالعت معه أصل (المهمات) ، واستفدت منها معرفة أسماء العلماء ،
الشافعي وأصحابه رحمهم الله تعالى ، ومنابعهم ، والتصحيح والتناقض الواقع في كتب
الإمامين الراقي والنووي ، واستدراكات الإسائي عليهما ، ثم حصلت كتاب
(النفائس) لشيخي نور الدين الأزرق ، ثم قرأت عليه (الأنكار) للنووي و (التبيان)
و (الأربعين) له أيضاً ، وكتاب (الشهاب والنجم والكوكب) وقرأت عليه جميع
(تفسير الإمام للواحد) و (الشفاء) للقاضي عياض ، وجميع البخاري ومسلم ،
وسمعت الترمذي و (الموطأ) و (سنن أبي داود) و (سيرة ابن هشام) على غيره ،
وأخذت على الأزرق كثيراً ، وله بي اختصار تام - رحمه الله تعالى وجراء عني
خيراً - وقد بشرني - رحمه الله تعالى - بالخير ، وسمعت ، ولنا عنده أعلق ، بقول
لغيري : هذا قد صار مثل الفقهاء الكبار كالحافري وغيره ، هذا لفظه رحمه الله تعالى
عليه ، وقال مرة : إن وقف هذا بالبد فما يكن مفتيها إلا هو ، وروى لي الثقة أنه
قال : قلت له : من يكون بعدك في مقامك في العلم ؟ فقال : فلان لأقل العبيد^(٢) وقد
أمرني في حياته بالإفتاء ، وأمرني يكتب جواب بعد جوابه ، فكتبت بخطي في حضرته
بالجواب ، ولقد رأينا من فضل الله كثيراً^(٣) .

(١) وهو كتاب (المهمات على الروضة) في فقه الشافعية لمؤلفه جمال الدين محمد بن عبد الرحيم الإسعوي
(ت ٧٨٢هـ / ١٣٨٠م) وهو من الكتب التي كثرت شروحاها والتطبيقات عليها ، نظر ذلك كله لدى
الحبشي ، جامع الشروح والحواشي ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، ط ١ ، ٢٠٠٤م ، ج ٣ ص ١٩٥٧ - ١٩٦٠ .

(٢) يشير المصنف بـ (أقل العبيد) إلى نفسه تواضعاً .

(٣) الأهل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

إننا إذ ننقل مثل هذا النص الطويل فإننا نهدف من وراء النقل إلى عرض بعض ملامح هذه السيرة الذاتية الغنية بكثير من الشواهد ، أولاً على كونها سيرة ذاتية مبكرة في اليمن وفي غيرها من الأقطار الإسلامية ، وثانياً لأنها تعكس في ثناياها مقطوعة من قوائم المناهج الدراسية وأسماء المقررات الدراسية التي كان الاعتماد عليها شائعاً عصرئذ ، كما أنها تمثل دليلاً على تعدد الشيوخ في الكتاب الواحد ، وحرص الطالب للعلم على استيعاب ما يدرسه حتى أنه يقوم بحفظ المتن الطويلة جداً واستظهارها غيباً .

وقد استنورد الإمام المؤرخ الأهل في سيرته الذاتية فقال - بعد أن عدّد الكثير جداً من الكتب والأمهات التي درسها في جميع فروع المعرفة المشهورة آنذاك - : " وطالعت الطبقات والتواريخ والخلاف وكتب المبتدأ والأوائل ، وكتب للقراءات ورسم للمصاحف ... وبالجملة فقد بارك الله لي في العلم فعرفت ماهية كل علم لمشاركتي في علوم شتى ، وعرفت عقائد الأئمة من أصحابنا الأشعرية ، وغيرهم من الحنفية والحنابلة السنية والحنوية ، وعرفت مذاهب المبتدعة من كل فريق، وعرفت مصطلحات العلماء من الفقهاء والمحدثين والمفسرين والأصوليين والأدبيين .

وحققت علوم الصوفية ومصطلحاتهم ، وميزت بين محققهم ومُطّاحهم ، ومارست مشكلات كلامهم ، واطلعت على خفايا معانيهم بتوفيق الله تعالى ، وميزت للعلوم المحمودة من المذمومة ، وانقسمها إلى خمسة أقسام ، وعرفت مذهب الفلاسفة ، وما يقتضي الكفر وما يقتضي التبديع ، وقد حصر الغزالي مذهبهم في عشرين أصلاً ، وطلعت كتب الجرح والتعديل ، وعرفت الأسباب والأنساب بحمد الله تعالى .

ويسر الله لي سبع حجات وزيارتين ومجلورة مدة بالمدينة ، ولي إجازات من مشائخي في كتب كثيرة ، تحصر أكثرها فهرستي ، منها فهرس شيخنا الأزرق عن الفقيه إبراهيم بن مطير وعن الياضي فهرست شيخه الطبري المكي ومصنفاته ، وغير ذلك ، ولي أخذ وإجازات من فقهاء الحرم الذين لقيتهم في سنة تسع وثمانمائة هي حجتى الأولى ، كالشيخ جمال الدين بن ظهيرة ونقي الدين الفاسي المكيين ، وزين الدين

المراعي وأبي حامد المطري للمدنيين ، وغيرهم من القانمين كالشيخ مجدالدين الشيرازي وشمس الدين الجزري صاحب (عدة الحصن الحصين)^(١) .

وقد أحسن الإمام الأهل إذ أشار في ثانيا سيرته الذاتية إلى أمرين مهمين ، أولهما : منهجه في تحصيل العلوم وروايتها في خضم العدد الكبير الذي استعرضه مما قرأه أو سمعه أو رواه ، وثانيهما : جريدة مصنفاته التي كتبها ، فليس هناك من أحد أعرف بها منه ، خاصة أنه عرف بالإكثار من التصنيف ، ففيما يخص منهجه في الرواية وتحصيل العلم يقول : " ومن طريقي إني لا أحب الرواية إلا عن ثقة ، ولا آخذ عن دب ودرج ، ولا عن لا أعرف ديانتته ولم أختبر عقيدته " (٢) .

ولقد كان الأهل متواضعاً بالغ التواضع ، لا يدعي معرفة ما لا يتقنه ، لا يستكف من الاعتراف قبل أن يطلب إليه ذلك ، فما هو يبذل في سيرته ليقول : " ولا أقول : إني عارف كل ما نشرت إليه من العلوم معرفة تامة ، بل معولي على علوم الدين كفقاه الشافعي وأصوله ، وأصول الدين على مذهب الأشعرية ، والحديث والتفسير وعلم الصوفية السنية ، وما عدا ذلك فمشاركة صالحة إن شاء الله تعالى ، مع اعتراضي بالتقصير ، وأسأل الله من فضله أمين أمين " (٣) .

وأما كتب المؤرخ الأهل فهي مبنوثة في فئاتها من هذه الدراسة ، وهي في مجملها مستفاد من ترجمته الذاتية ، إما مباشرة أو عن طريق المراجع الجامعة لمصادر الفكر العربي والإسلامي في اليمن .

وأما ثالث المؤرخين الثلاثة الذي كتبوا سيرهم ذاتياً في مدة دراستنا فهو الإمام للمحدث والفقهاء العلامة المؤرخ عبدالرحمن بن علي بن الدبيع الشيباني (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م) الذي نجده يختم بها تاريخه (بعية المستفيد في تاريخ مدينة ربيع) ، يقول في مطلع سيرته : " وأل أنكر بعد ذلك خاتمة في ذكر مولدي ومنشأ ، وطلبي للعلم في مبدئي ، وتعميد نعم الله علي وما سلقه من الحيرات ، لا لأعرف بعضلي ولكن اقتداء بمن سبق من العلماء قبلي ، فقد سبقني إلى ذلك شيخ شيوخنا شرف الدين إسماعيل بن أبي بكر المقرئ ، تغمده الله برحمته ، فهو قدوتي في ذلك ... كان

(١) الأهل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

مولدي بمدينة زبيد المحروسة في آخر يوم الخميس الرابع من المحرم ، أول سنة ست وستين وثمان مائة ، بمنزلة والدي منها ، وغلب والدي عن مدينة زبيد في آخر السنة التي ولدت فيها ، ولم تره عيني قط ، ونشأت في حجر جدي لأمي العارف بالله العلامة الصالح شرف الدين أبي المعروف إسماعيل بن محمد بن مبارز الشافعي رحمه الله ، وانتفعت بدعائه لي في أوقات الاستجابة وغيرها ، وهو الذي حذب علي ورباني ولطعمني ومقاني وكسائي وولماني وعلمني وأوصلني ، جزاء الله عني بالإحسان وقبله بالرحمة والرضوان ... وكان رحمه الله يؤثرنني حتى على أولاده الذين من صلبه - آثره الله بحبه وقربه - ثم أني تعلمت للقرآن الكريم عدد سيدي الفقيه نور الدين علي بن أبي بكر بن خطاب - كان الله له - حتى بلغت سورة يس ، فانتفعت به كثيراً ، وظهرت نجابتي عنده .

ثم انتقلت إلى سيدي وخالي الفقيه العلامة جمال الدين أبي النجا محمد الطيب بن إسماعيل بن مبارز جزاء الله عني خيراً ، فلما رأى نجابتي أمرني بفنل القرآن العظيم من أول سورة البقرة إلى آخره ، فقرأته عنده شرفاً واحداً حتى ختمته وحفظته لذلك الشرف عن ظهر قلب ، وأنا إذ ذاك ابن عشر سنين والله الحمد ... ثم توفي ولدي في إلى رحمته بيندر الديو من أرض الهند في أواخر ست وسبعين ، ولم يحصل لي من ميراثه سوى ثمانية دراهم ذهباً ثم إنني أخذت بعد القرآن على خالي المذكور في علم القراءات السبع فنقلت (الشاطبية) ، ثم قرأت القراءات عنده مفردة ومجموعة ، وتم لي ذلك بحمد الله وعونه .

ثم أخذت في علم العربية على خالي المذكور وعلى غيره ، وأخذت عليه خصوصاً في علم الحساب والجبر والمقابلة والمساحة والفرائض والفقه حتى انتفعت في كل علم منها ... ثم حججت إلى بيت الله للحرام في آخرها - أي سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة - وأنفقت الثمانية الننانير التي ورثتها من والدي رحمه الله في تلك الحجة ... ثم من الله علي بصحة شيخنا الإمام العلامة للمحدث بقية أهل اليمن زين الدين أبي العباس أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي - كان الله له - فأخذت عليه في علم حديث رسول الله ﷺ ، وكان هو المرشد لي إلى ذلك - جزاء الله عني أحسن الجزاء - فقرأت عنده (صحيح البخاري) و (مسلم) و (سنن أبي داود) والترمذي والنسائي و (موطأ) الإمام مالك و (الشفاء) للقاضي عياض و (عمل اليوم والليلة) لابن

السفي و (لشمائل) للقرمذي و (الرسالة) للقشيري ، وجميع مصنفاته ، وم لا يحصى من الأجزاء والكتب الطيبة ، وبه تخرجت وانتفعت ، وألفت في حياته كتابي المسمى بـ (غاية المطلوب وأعظم المنفعة ، فيما يغفر الله من الذنوب ويوجب الجنة) وهو الذي تعلمت منه صنعة التأليف والتصنيف والترصيف والتصنيف ... وراحت في حياته بإشارته إلى بيت الفقيه ابن عجيل لزيارة الفقهاء بني جعمان .

ثم حججت حجتي الثالثة في سنة ست وتسعين وثمانمائة ... فمن الله علي بلقاء الشيخ الإمام حافظ العصر ، مسند الدنيا ، فريد الوقت ، شمس الدين أبي الخير محمد بن عبدالرحمن السخاوي المصري الشافعي فيها ، فسحبته وانتفعت به وأخذت عليه في علم الحديث النبوي ... وكان يجلسني ويشير إلي ، ويعظمني ويقدمني على سائر الطلبة ، ويؤثرني ، وأحسن إلي كثيراً جزاه الله عني خير الجزاء ثم لما رجعت من الحج إلى وطني ألفت كتابي (كشف الكربة في شرح دعاء الإمام أبي حنيفة) ثم ألفت بعده كتابي في التاريخ هذا المسمى بـ (بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد) ، ولما وقف عليه مولانا السلطان صلاح الدين الملك الظاهر عامر بن عبدالوهاب ... طلبني إلى مجلسه الشريف العالي ، واستحاده واستحسنه ودعا لي ، ونهني على إلحاق أشياء فيه كنت أعفلتها ، ثم اختصرت له منه كتابي المسمى بـ (العقد الباهر في تاريخ دولة بني طاهر) ... (١) .

نختم القول هنا بالإشارة إلى أن الفائدة التي تضمنتها هذه السيرة كبيرة ، وإن كانت تختلف أهميتها ومقدار الفائدة فيها من ولادة إلى أخرى ، إلا أنها كلها مثلت نوعاً جديداً في بابها ، لم يكن أحد من اليمنيين قد اقتحم عقبتهم قبل هؤلاء المؤرخين ، هذا إضافة إلى أنها تمثل عينة عن حياة العديد من علماء اليمن ، وكيف حصلوا العلوم وترقوا في سلم المكانة العلمية حتى أصبحوا أعلاماً في تاريخ اليمن الإسلامي عموماً ، بل إن شهرتهم قد فاقت شهرة كثير من الملوك والسلاطين أنفسهم .

❖ تراجم رجال الأسر اليمنية الشهيرة :

ظهر في اليمن في القرنين التاسع والعاشر الهجريين نوع جديد من الكتابة التاريخية يتمثل في التأريخ لرجال مجموعة من الأسر والعشائر الشهيرة بالعلم والفضل في الوسط العلمي اليمني ، والمتصدرون للكتابة في هذا الشأن هم بعض أفراد تلك

(١) ابن فديح ، بغية المستفيد ، ص ٢١٩ - ٢٢٢ .

الأسر والعشائر نفسها ، إذ لم نجد بين من كتب عن الأسرة العلمية من هو من غير المنتسبين والمُعْتَرِّين إليها ، وهذا النوع من الكتابة قد التقى - بصورة لو بأخرى - مع الكتابة في علم الأنساب ، إذ أن الاستحالة قائمة أن تُكتب تراجم الأسر بعيداً عن أنسابها .

والملاحظ أن الأسر التي كتبت تراجم للمشهورين من رجالها هي أسر قد شاع العلم والرئاسة بين أبنائها ، فلم نجد تاريخاً لأسرة هامشية غير مسهمة في صياغة تاريخ اليمن العلمي والسياسي .

والرائد في الكتابة لتاريخ الأسر العلمية اليمنية في مدة الدراسة هو القاضي تقي الدين عمر بن محمد بن صالح البريهي (٨١١هـ / ١٤٠٨م) ، فقد ورد عنه أنه كان قد شرع في جمع تاريخ يشمل سيرة وتراجم علماء عشيرته من (آل البريهي) الذين استوطنوا ذي السفال ولغيرهم معهم ، إلا أنه لم يتمه^(١) .

وهذا المؤرخ الإمام الحسين الأهدل ينقل في كتابه (تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن)^(٢) عن كتف في منقلب العلماء من (بني سَوْد) المنتسبين إلى الفقيه سَوْد بن الكميت (ت ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م) والذين كان لكثير منهم ميل إلى الزيدية مذهباً ومعتقداً ، وطالهم الأذى كثيراً بسبب وشاية بعض المتصوفة في تهامة بهم إلى السلاطين للرسوليين بأنهم يدعون إلى طاعة أئمة الزيدية بصنعاء لأنكارهم عليهم إقامة السماع ، وقد سلق الأهدل^(٣) نفسه طرفاً من أخبارهم ، ونسب الكتاب المُنشَر إليه في منقلب بني سَوْد إلى الحضرمي ، ولم يذكر بقية اسمه .

كما صنف العلامة محمد بن عبدالله النائري (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) كتاباً في أنساب وتراجم علماء بني نَاشِر ، أصحاب قرية الناشرية المشار إليها في القرى العلمية الشهيرة بتهامة ، بل في اليمن كلها ، في الفصل الثالث من هذه الدراسة ، حيث ورد ذكرها هناك بوصفها واحداً من أكبر قرى العلم وأشهرها ، وقد سَمَّى المصنف كتابه (

(١) البريهي ، طبقت صنعاء اليمن ، ص ١٣٩ .

(٢) ج ٢ ص ٩٢ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ١٨٧ .

(٣) تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٩٢ - ٩٦ .

غرر الدرر في مختصر السير وأنساب البشر^(١) ، ولم يقتصر المؤلف فيه على علماء أسرته ، بل أورد طرفاً من أنساب العرب واليهانميين الأشراف في اليمن خصوصاً ، وعنه نقل الكثير الأهدل^(٢) في تاريخه ، ولذلك فإن هذا الكتاب يوضع في فئتين : فئة للكتب المصنفة في تراجم الأسر الشهيرة بالعلم والاشتغال به في اليمن في مدة الدراسة ، وفي فئة الأنساب - القائمة - كذلك .

وفي تراجم وأنساب وطبقات علماء (بني ناشر) أيضاً صنف الإمام العلامة المقرئ الشهير عفيف الدين عثمان بن عمر الناشري (ت ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م) ، الذي منحه المؤرخون بالذبوغ في البلاغة وحسن المحاضرة والعطفة والدكاء وجودة الفهم ، وانفرد بالبراعة في حفظ القرآن الكريم وعلم القراءات السبع وهو لما يبلغ العشرين من عمره بعد^(٣) ، صنف هذا الإمام كتاب (البستان الزاهر في طبقات بني ناشر) ، قال عنه الإمام السخاوي^(٤) - بعد أن رجع إليه واستفاد منه في تاريخه - : " مفيد في بابيه ، وقد طالعتة وفيه استطرادات لغير بني ناشر ... " .

والرجل الثالث الذي وضع في تراجم وأنساب العلماء الناشريين هو كتاب يحمل العنوان نفسه الذي أطلقه الإمام عثمان الناشري على كتابه ، أي (البستان الزاهر في طبقات بني ناشر) ، وقد صنفه الإمام الأديب حمزة بن عبدالله بن محمد بن علي بن أبي بكر الناشري (ت ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م) ، وقد علق المصدر عند إيراده لهذا الخبر بقوله : " نيل به على مؤلف قريبه " ^(٥) .

(١) منه نسخة مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير قربية تحت رقم (٢١٥٦) ، انظر العيشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩١ .

(٢) تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ١٣ ، ١٤ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٦ .

(٣) البرهني ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١١٤ - ٣١٧ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٦ ص ١٣٤ .

(٤) الضوء اللامع ، ج ٦ ص ١٣٤ ، العيشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩٤ ، ٢ . اليمن فؤاد سيد ، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، ص ١٧٨ .

(٥) المعديروس ، الذور السفر ، ص ١٢١ .

وممن جمع تراجم أهل بيته الإمام العلامة رضي الدين أبو بكر بن أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن دعصين القرشي (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٩م) ، وقد سمي مصنفه (الدر المنصود في أنساب بني أسيد)^(١) .

وقد ذكر المؤرخ محمد زبارة^(٢) في ترجمة العلامة أحمد بن عبدالله بن أحمد بن إبراهيم الوزير (ت ٩٨٥هـ / ١٥٧٧م) أنه قد انبرى لإتمام كتاب (الفضائل في تاريخ السادة الأعلام) الذي صنفه الأمير محمد العفيف الوزير في تاريخ علماء وأعلام أسرته من (آل الوزير) ، وهم من الشهرة بالعلم في اليمن بما لا يحتاج إلى توضيح ، فعمل كتاب (الفضائل)^(٣) هذا مما جُمع في مدة الدراسة في القرن التاسع^(٤) .

وورد في قائمة مؤلفات الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير (ت ٨٢٢هـ / ١٤٣٦م) أن له مصنفاً في تاريخ أسرته (بني الوزير) ، وقد سمته بعض كتب الببليوجرافيا اليمنية^(٥) (تراجم آل الوزير) وسمته أيضاً (تاريخ بني الوزير)^(٦) .

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، السخوي ، الضوء اللامع ، ج ١١ ص ١٧ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩٤ .

(٢) أئمة اليمن ، ص ٤٨٣ ، ٤٨٤ .

(٣) من كتاب (الفضائل) في تاريخ آل الوزير نسخة مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (١١٩ تاريخ) ، ولدي منه نسخة إلكترونية على CD في مكتبي الخاصة صادرة عن مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، وقبل أن منه نسخة مصورة على ميكروفيلم بدر المكتبة المصرية ، لطر الحشبي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٨٧ .

(٤) لدي شك في أن هذا المصنف قد وُضع في القرن التاسع الهجري ، خاصة أن هناك من آل الوزير من حمل لقب (محمد العفيف) في زمن الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة في مطلع القرن السابع الهجري ، غير أن هذا المعاصر للإمام المنصور هو أول من أطلق عليه (الوزير) من علماء أسرته ، وبالتالي استبعد أن يكون هو المشار إليه بتأليف كتاب (الفضائل) ، إذ لم يكن هناك من علماء أسرته في عهده من حمل لقب (الوزير) ، ومن حملها منهم فهم ممن جاؤا بعده من أجداده لانتسابهم إليه ، وعلى هذا فقد أوردت المصنف وصاحبه من منطلق احتمالية أن يكون من المصنفات التي وصفت في مطلع القرن التاسع الهجري ، على افتراض أن محمد العفيف الوزير المنسوب إليه مسودة كتاب (الفضائل) الأولى هو غير محمد العفيف أول من نودي بالوزير من علماء أسرته وعشيرته .

(٥) لوجيه ، أعلام المؤلفين اليمنية ، ص ١٠٦٩ .

ومما لا شك فيه أنه اعتمد - في ذكر السابقين من أعلام أسرته - على كل قد كتبه الأمير محمد الحبيب الوزير المشار إليه آنفاً .

ومن مصادر كتاب (طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص) المشار إليه في طبقات المذاهب والفرق والذي جمعه الإمام الحافظ أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي (ت ٨٩٣ هـ / ٤٨٨ م) ، من مصادره كتاب (تراجم وأعيان بني مرزوق) ويسمى أيضاً (تاريخ بني مرزوق) المنتميين إلى الشيخ المتصوف مرزوق بن مبارك ، وإليه رجع الشرجي^(١) واستقى منه بعض تراجمهم .

❖ الأنساب :

الاهتمام بالأنساب عادة عربية أصيلة ، جذورها ضاربة في تاريخهم إلى أحقاب بعيدة قبل ظهور الإسلام ، وكان اهتمامهم بالأنساب وحفظها وروايتها كبيراً ؛ وذلك لأن تشكيلاتهم الاجتماعية - كقبائل - يقوم على وشائج النسب ودرجات القرابة ، فليست القبيلة إلا تجمعاً بشرياً تربط بين أفرادها علاقات أنساب متقاربة ، ومن لم يكن من أبناء القبيلة - وهو حر - فهو مولى ، ولا يكتسب نسب القبيلة أو يعتز بها إلا ولادة ، وكان النسب هو معيار تمايزهم ، وكلما تباعد الزمن وتباعدت الأنساب عبر الأجيال كان الاهتمام بالأنساب أكبر لتكوينها وحفظها حتى لا تنسى ؛ لذا وجد أناس متخصصون بفحص الأنساب وروايتها وتكوينها .

مع أن الإسلام قد ألغى التعصب للأنساب والتفاخر بها ضمن المظاهر السلبية التي كانت شائعة في الجاهلية ، وجعل التقوى والصلاح والعمل الصالح والإيمان هي الأسس التي يجب على المرء أن يعتز بها بشواهد كثيرة مثل قوله تعالى : **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ^(٢) **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ^(٣) **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ^(٤) مع ذلك إلا أن الاهتمام

(١) نسخة المخطوطة الأم التي بيد المؤلف نفسه محفوظة بمكتبة الجامع الكبير الشرقية تحت رقم (٢٢١٧) .

ومنه نسخة أخرى بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (٤١ تاريخ) ، وهو الآن تحت الطبع بتحقيق زيد بن علي الورير من المركز اليمني للتراث ببلن ، انظر للمرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢) طبقات الخواص ، ص ٣ ، ١٥٥ .

(٣) سورة الحجرات .

بالأنساب وتوارثها وحفظها قد استمر بصورة أخرى وبدوافع مختلفة ، إذ اقتضت الحاجات الاجتماعية والشرعية والإدلية التنظيمية والحربية إلى جوانب كثيرة من الأنساب ، فكان منها ما يجب للتعارف واصلته الأرحام ومعرفة للفرد ما يجب عليه تجاه أسرته وأقاربه وقومه ، أمثالاً لأمر النبي ﷺ في قوله : " تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ... " (١) ، ومنها ما ما يتعلق بحديثه تقديم الناس وتأخيرهم عند تقسيم عطاءات بيت المال وهكذا .

ومنذ بداية العصر الأموي ، ونتيجة لاهتمام الخلفاء الأمويين بالتاريخ والأنساب وتحويلهم على المسلمين العرب دون غيرهم بدأ الاهتمام بالأنساب ينحو منحى ما كان عليه في الجاهلية من التعصب القبلي والأسري ، ولذكت كتب المثلث والمناقب التي أفرزتها دعوات للشعبوية في العصر العباسي الصراع بين أفراد المجتمع الإسلامي على أساس من التعصب ، ومن مظاهر ذلك الصراع زيادة التأليف في الأنساب بوصفة جزءاً منه .

وقد تغير مفهوم الأنساب بعد التوسع الكبير للدولة الإسلامية ، فبعنما كان النسب معروفاً لدى العرب ومحسوراً في الانساب إلى القليلة ، ظهرت النسبة إلى الصفات العلمية أو المهنية أو الصفة السلوكية أو الجسمانية ، أو النسبة إلى البلد الذي ولد فيه الشخص أو استوطنه .

لم تكن اليمن بعيدة عن الاهتمام بالأنساب للدوافع ذاتها ، إضافة إلى عامل جديد لفتح الوسط الاجتماعي اليمني ، وهو هجرة العديد من أفراد آل البيت النبوي عموماً - واللويين خصوصاً - ضمن الظروف التي فصلتها كتب التاريخ ، وأبرزها الفرار من بطش العباسيين ، وقد تمكنوا - هم ومن شايعهم فكراً ومنهجاً - من إقامة دول متعددة ومتتابعة ، لم يكن من ميسور لهم للزعامة والرئاسة فيها إلا سببهم وما تضمنته فرقهم ومذاهبهم من مبادئ تنادي إلى حصر استحقاق الزعامة والرئاسة فيهم ، وقد حرصوا على تكوين أنسابهم ووضعوا مشجرات لها تتصل إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي

(١) مسند الإمام أحمد ، ج ٢ ص ٢٧٤ ، رقم (٨٨٥٥) ، القرمذي ، متن القرمذي ، ج ٤ ص ٣٥١ ، رقم (١٩٧٩) ، باب (ما جاء في تعلم النسب) ، الحاكم ، المستدرک علی الصحیحین ، ج ١ ص ١٦٦ ، رقم (٣٠٢) ، الطبراني ، المعجم الأوسط ، تحقيق طارق عوض الله و آخر ، دار الحرمين ، القاهرة ، ١٤١٥ هـ ، ج ٨ ص ١٧٢ ، رقم (٨٢٠٨) .

الله عنه ، وتوارثها أجيالهم ، وتمكنوا من ترسيخ مجموعة من الحدود والضوابط والامتيازات في علاقتهم الاجتماعية بمن سواهم من اليمنيين ، وجعلوا أنفسهم يحتلون المرتبة الأولى على بقية الشرائح الاجتماعية اليمنية .

وقد ولد ذلك الأمر نفوراً منهم لدى فئة من اليمنيين ، فقامت مجموعة من علماء اليمن أمثال الإمام الأديب واللعوي الشهير نشوان بن سعيد بن أبي حمير الحميري (ت ٥٧٣هـ / ١١٧٧م) والمؤرخ الشهير أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٥م) بإبراز أنساب القبائل اليمنية ، ودورها التاريخي والحضاري الضارب جذوره في أعماق التاريخ ، وإثبات الدور الكبير لأبناء اليمن في نشر الاسلام والدفاع عنه وتوليهم المراكز القيادية الأولى في المراكز العلمية والقضاء والوظائف الإدارية والعسكرية ، وجاء دورهم ذلك كله في مقام ردة الفعل الناتجة عن تصدر العلويين لمجمل واجهات الحياة في مناطقهم .

توالى عبر القرون الإسلامية كتابة الأنساب في اليمن ، واختلفت مشاربها ، فمنها ما كان في أنساب القبائل اليمنية ، وبعضها في أنساب الأسر العلوية ، وبعضها في الأسر العلمية - كما سنقت الإشارة إليه - ، وكذلك في الأسر الحاكمة لاحتل علم الأنساب مرتبة عالية في مجال التدوين التاريخي عند اليمنيين .

ومن تراث اليمنيين المكتوب في علم الأنساب في مرحلة ما قبل القرن التاسع الهجري الكتب الثلاثة التي صنفها السلطان الرسولي الأشرف الأول عمر بن المظفر يوسف (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م) ، وهي : كتاب (تحفة الآداب في التواريخ والأنساب)^(١) وكتاب (جواهر التيجان في الأنساب)^(٢) وكتاب (طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب) ، وقد في خصص الأخير جزءاً للحديث عن أنساب الرسولين باليمن

(١) حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، ج ١ ص ٣٦٢ ، الهمداني ، إيضاح المكشوف في دليل كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٠م ، ج ٢ ص ٢٣٦

(٢) الملك الأشرف الرسولي ، طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب ، تحقيق ك. وسترسدتر ، منشورات المدينة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٥م ، ص ٥٥ ، الحشبي ، حكم اليمن المؤلفون والمجتهدون ، ص ١١٧ .

ومن اشتهر بخدمتهم من أكابر الأشراف والأعراب في عصره مما اطلع عليه وتلقاه من أصحابه^(١) .

ويبدو أن اهتمام بعض السلاطين الرسوليين بالتصنيف في علم الأنساب قد جاء نتيجة ما شعروا به من عدم تصديق طائفة كبيرة من اليمنيين بأنهم يمنيون مثلهم ، خاصة في ظل التعبئة الدائمة والمصادرة والمشككة في نسبهم التي شنّها عليهم الأئمة الزيديون ، وأن شيوع لفتسابهم إلى قبيلة الفضالمة اليمنية التي تأصل الملك فيها ليس إلا على سبيل ترميخ الوهم لدى المجتمع بأنهم ليسوا بخلاء عليهم ، ليصبغوا على أنفسهم ظلالاً من الشرعية وذلك محاكاة لما يقوم به العلويون في الإطار نفسه بما سبق بيانه .

ومن اليمنيين المصنفين في علم الأنساب نذكر الفقيه علي بن أحمد بن علي للجنيدي (ت ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م) ، فقد أورد البغدادي^(٢) اسم كتابه (نزّهة العقول والأكباب في معرفة الأوائل والأنساب) .

والسلطان الرسولي الأفضل للعباس بن المجاهد علي (ت ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م) مصنفات مفيدة في علم الأنساب منها : كتاب (بغية ذوي الهمم في معرفة أنساب العرب والعجم)^(٣) ، وله رسالة أخرى في الأنساب^(٤) ، وهناك كتاب (الإيضاح في الأنساب) للفقيه أبي بكر بن يحيى بن أبي بكر بن عجيل (ت ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م)^(٥) .

ويمكننا أن نعد كل الجهود التي ذكرناها لعلماء اليمن في تواريخهم التي جمعوها لعلماء الأسر العلمية الشهيرة في إطار الاهتمام بالأنساب ؛ لأنه من المستبعد أن يتم

(١) تلك الأشراف الرسولي ، طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب ، ص ٤٣

(٢) إيضاح المكتفون ، ج ٥ ص ٧١٦ .

(٣) الخزرجي ، العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٢٥ .

(٤) سه نسخة خطية بدار الكتب المصرية ، تحت رقم (٣٥١) ، د. أيمن فؤاد سيد ، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، ص ٢٣ .

(٥) حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، ج ١ ص ٢١٤ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ١٨٧ .

الحديث عن علماء أي أسرة بدون الرجوع إلى أصل أنسابها ، ولذلك اقرنت الإشارات إلى تصنيف تواريخ الأسر مع علم الأنساب .

في القرنين التاسع والعاشر الهجريين كان اهتمام اليمنيين بعلم الأنساب مثل اهتمامهم به في القرون السابقة ، فصنفوا فيها عدداً من الكتب والمشجرات ، ومن أشهر العلامة صلاح بن جلال الدين بن محمد بن الحسن بن المهدي بن علي بن الحسين الجلال (ت ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢ م) ، وقد وصفته بعض مصادر الريدية بأنه (الثمينة)^(١) ، وقد ترك في الأنساب متنجراً في أنساب من باليمن من العترة النبوية وسماء (روضة الأكياب و تحفة الأحباب)^(٢) .

وأما الإمام المؤرخ أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي (ت ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م) - فهو مع كونه شجاعاً للمؤرخين اليمنيين - معدود في النسابين الكبار ، حتى أن البرهقي^(٣) وصفه بـ (السابة) عندما تعرض لترجمته ، ومن جهوده في الأنساب أنه أنبرى للمناقحة عن السلاطين الرسولين ، وجرّد قلعه لتأكيد يمينتهم وتعزيزها لدى العامة والخاصة ، وهو عندما نظم القصيدة الشهيرة بـ (الروحة اليمرية والنفة للخرجية) وتعصب فيها للقحطانية إنما كان يقصد الرسولين لا نفسه^(٤) ، فهو خزرجي ثابت النسب ولا جدال حول قحطانيته ، ولذلك أردفها بكتب

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ٥٢٤ .

(٢) منه نسخة خطية بمكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (٢٤ تاريخ) ، وأخرى بالأميرورينا تحت رقم A68 ، ومنه نسخة مصورة بمكتبة محمد عبدالعظيم الهادي ، وأخرى بمكتبة محمد بن حسن المجري ، والنسخة لأم بمكتبة العلامة مجد الدين المؤيدي ، انظر الحشبي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٨٨ ، لوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٥٠٠ .

(٣) البرهقي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٩١ .

(٤) لتلّيل على ذلك أن الإمام جمال الدين محمد بن عبدالرحمن العوالي (ت ٨٨٠ هـ / ١٤٧٥ م) لما سحب نفسه للرد على المنتصرين للقحطانية كالخررجي وغيره لم يستطع الاستمرار في ذلك خوفاً من السلطان الرسولي ، لأن دمه للقحطانية يقتضي ذمه للسلطان نفسه بعد أن ألحق نفسه بغيلة عثمان اليمانية القحطانية ، بل صرح المصدر بقوله : " هذا كله والإمام جمال الدين العوالي في رباط مقرة خائف من السلطان ... " ولم ينته خوفه إلا بعد أن شفع له حاكم البلد لدى السلطان ، ولما قابله السلطان قتل به : " يا قاصي جمال الدين ، قطعت الشجرة من أصلها ... " فاعتز إليه الإمام العوالي ، فلو كان الخزرجي يتحدث عن قحطانيته هو لما تسبب ذلك في غضب السلطان الرسولي ، انظر تفاصيل ذلك عند البرهقي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٢٠ ، ٣٢١ .

خلص في الأنساب عثرته بـ (المحصول في انتساب بني رسول) ، وقد نقل الإمام ابن الدبيع في كتابه (نشر المحاسن اليمنية)^(١) نصوصاً طويلة عن كتاب في الأنساب ونسبه إلى الإمام الخزرجي ، ولم يرد لهذا الكتاب إشارة عند غيره ، وهو كتاب (الباب في معرفة الأنساب) .

وللإمام الخزرجي أيضاً في الأنساب (شجرة أنساب أسرته)^(٢) ، ولم يصلنا من وصف محتواها شيء في المصادر ، وهي كما يتضح من هذه الإشارة أنها شملت أعلام أسرته على غرار ما صنفه النشيريون وغيرهم ، ولكن المصادر اليمنية في تلك الفترة لم تُقدِّم بوجود شخص من الخزرجيين الزيديين ممن يمكن أن يكون معدوداً في العلماء غيره هو .

ومنهم أيضاً الشاعر الأنبي علي بن محمد بن إسماعيل النشيري (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م) الذي وصفه الخزرجي^(٣) بأنه " كان حسن المحاضرة ، كثير المحفوظات ، عارفاً بالأخبار والتواريخ والأنساب ، وآداب الملوك ، وكان مشاركاً في كثير من العلوم ... " .

ومن اهتم بالأنساب ولم يصنف فيها مع شهرته الكبيرة بمعرفته الكبيرة بها العلامة عبدالله بن الإمام الهادي بن إبراهيم بن علي الوزير (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) ، فقد وصفه المصدر بكونه : " كان له معرفة بالأنساب وأحوال المتقدمين وأيام المؤرخين ... " ^(٤) .

وكذلك كان ابنه العلامة محمد بن عبدالله بن الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير (ت ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م) " إماماً في الأنساب ، وخاصة أنساب الأشراف باليمن ، وله معرفة بأحوالهم وأيام غيرهم ، مطلعاً على ذلك الاطلاع ، حفاظة لما سمعه ، متقناً لما يرويه مرجوعاً إليه في ذلك " ^(٥) ، وما أرجحه في هذا الشأن أن براعته في

(١) ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢) ابن الدبيع ، نشر المحاسن اليمنية ، ص ٢٩٢ .

(٣) الخزرجي ، العقد الفاخر الحسن ، ق ٥٠ - ب .

(٤) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٦٤٩ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٩٩٤ .

هذا العلم كانت تختص بأنساب الأشراف الزيديين فحسب ؛ لأن العلاقة العلمية والاجتماعية بينهم وبين أقربائهم من الأشراف في تهامة وحضرموت كانت ضعيفة جداً بسبب الاختلاف في المذهب الفقهي والفرقة الاعتقادية .

ومن اهتم بالأنساب شيخ الإسلام الإمام الحافظ محمد بن أبي بكر بن محمد بن صالح الهمداني الخياط (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م) ، وخاصة أنسابه وبني الخياط من آبائه ، لذلك فقد تضمنت مشيخته (للكراسة) - التي أشرنا إليها في الفصل السابق تحت عنوان الحديث النبوي - التي تضمنت مشائخه وأسانيده ، تضمنت كذلك أنسابه ، فكانت عنده محتفظاً به^(١) ، وهي مما فقد من تراث اليمنيين .

ومنهم أيضاً الفقيه أبو بكر بن أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن دعسين القرشي (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٩م) الذي رصع كتابه (الدر النضيد في أنساب بني أسيد) ، كما سبق بيانه ، وكتاب هذا ليس إلا ذيلًا لكتابين صنفهما جده الأول الفقيه أبو بكر بن أحمد بن دعسين القرشي (ت ٧٥٢هـ / ١٣٥١م) الأول عنوانه - (للعقد الفريد في أنساب بني أسيد) والآخر (الكامل في الأنساب) ، وذكر فيهما سيرة جده زكريا بن خالد الأموي القادم إلى اليمن ، وذكر عقبه وعقب الدين قدموا معه إلى اليمن إلى ومنه هو^(٢) .

وقد مر معنا أن الإمام المقرئ الشهير عفيف الدين عثمان بن عمر البشري (ت ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م) قد جمع مصنفاً في تراجم وأنساب وطبقات علماء أسرته (بني ناشر) وسماه (البستان الزاهر في طبقات بني ناشر) ، فهو معدود أيضاً في كتب الأنساب ، إضافة إلى أنه كتب مشجراً إضافياً في أنسابهم ، جعله كالشجرة جمعهم فيها ، وذكر منهم من سكن في زبيد وغيرها ، نكره البريهي^(٣) عند حديثه عن أشهر علماء هذه الأسرة .

ومن صنف في الأنساب الفقيه العلامة شمس الدين علي بن عمر بن الحميدي (ت ٨٥٦هـ / ١٤٢٩م) ، وكان لتأليفه في الأنساب مناسبة أوردتها بعض

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٣٠ .

(٢) العبادي ، الحياة العلمية في زبيد ، ص ٣٦٧ .

(٣) طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٦٧ .

المصادر ، تحكي أنه جرت بينه وبين السلطان الرسولي المظفر الثاني يوسف بن عمر بن الأشرف الثاني (ت ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م) حسابات بسبب ميله للأمراء الطاهريين وتوطئته للناس لهم وسعيه في خدمتهم ، فاسترجبت ذلك غلظة السلطان معه وحبسه له ، ففر منه والتجأ إلى الطاهريين ، فلما أحسنوا وفادته وبألغوا في إكرامه صنف كتاباً في أنسابهم ، مادحاً إياهم ومعرضاً بالرسوليين في نسبهم ، وسماه (المعك الفتيق في فضل حر الأصل على الرقيق)^(١) ، وفي ثانياً العنوان ما يفيد بتشكيكه في أصلهم ونسبهم ، وأنهم لم يسوا بضامنة يمينيين كما زعموا ، وإنما هم من عبيد وموالي الأيوبيين .

ومنهم كذلك العلامة جمال الدين محمد بن علي بن أبي بكر المذهن القرشي (ت بعد ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م) ، اهتم بالأنساب وصنف فيها ، وكانت عنايته بالأنساب العرب واليمنيين عامة ، واهتمله بالأنساب الزيديين خاصة ، وله في ذلك كتابين : الأول منهما هو الموسوم بـ (جواهر التيجان في أنساب عدنان وقحطان)^(٢) ، ولما الثاني فعنوانه (رسالة في أنساب القبائل التي سكنت مدينة زبد)^(٣) .

ومن اشتهر بعلم الأنساب أيضاً الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبدالله بن عسوي بن شبل (ت ٩٢٠هـ / ١٥١٤م) الذي جاء وصفه بأنه كان عارفاً بالمسيرة النبوية وأيام العرب وأنسابها^(٤) ، وقد سبق حديثنا عنه في فئة المصنفين للتواريخ المحلية .

وهناك طائفة من المؤرخين اليمنيين كانت على معرفة جيدة بعلم الأنساب ، ولكن إسهاماتها فيه لم تكن مفردة بمصنفات مخصصة بها ، وإنما ألفت في ثانياً بعض المؤلفات الأخرى المعنية بالتاريخ أو بغيره ، ومن هذه الطائفة نذكر المؤرخ الإمام الحسين بن عبدالرحمن الأهل (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) ، فقد جعل مستهل الجزء الثاني من كتابه الشهير (تحفة الزم في تاريخ سادات اليمن) مخصوصاً بالأنساب ، فتحدث عن أنساب الأشراف في مناطق اليمن التهامية وغيرها ،

(١) البرهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٢٨ .

(٢) ذكره الشرجي ، طبقات الخواص ، ص ٨٠ ، الحبيشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٤٩٨ .

(٣) منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية تحت رقم (٩٤٥ مجاميع) ، انظر الحبيشي ، المرجع السابق .
نص الصفحة

(٤) القلي ، السنا الباهر ، ص ١٢٥ .

وكان معتمده في ذلك ما سمعه من ابيه وما نقله عن شيخه النسابة العلامة محمد بن عبدالله الفاشري (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) في كتابه (غرر الدرر في مختصر السير وأنساب البهر) .

وعلى شاكلة الإمام الأمل كان الإمام الحافظ المؤرخ وجيه الدين عبدالرحمن ابن علي بن محمد بن الديبع الشيباني (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م) ، فقد وضع كتاباً خصص معظمه لأنساب اليمنيين ، وأقسم فيه بعض المضامين الفلكية والجغرافية كما سبق بوانه ، وكتابه المقصود هو (نشر المحاسن اليمنية في خصائص اليمن ونسب القحطانية) ، وقد قسمه ابن الديبع إلى سبعة أبواب ، خصص البابين الأولين للحديث عن جغرافية اليمن وخصائصها وعن موقعها من الأقاليم الجغرافية والمناخية - بما هو مفصل في عناوين الجغرافيا والفلك من هذه الدراسة - وجعل الباب الثالث في ذكر قحطان وكبار أبنائه المنتسبة إليهم قبائل القحطانية ، والرابع في استعراض البطون القحطانية ومن انتقل منهم من اليمن إلى الشام وغيره من البلدان ، والباب الخامس ضمنه ذكر من تولى أمر الحرمين الشريفين ومن سكن بهما من بطون القبائل القحطانية، في حين خصص الباب السادس للمفاخرة بذكاء أبناء قحطان وكرم طباعهم وملوكهم ووفاتهم وشجاعتهم ، ولكنه خصص الباب السابع لواحدة من البطون القحطانية المستوطنة بنواحي وصاب ، فترجم لأعلامها من العلماء والصالحين ، وذكر فيه من التراجم ما لم يرد في أي مصدر آخر .

(٣) الجغرافيا والبلدان :

تعود بداية ظهور علم الجغرافيا في العالم الإسلامي أو علم المسالك والممالك - بحسب تعبير العلماء المسلمين - إلى القرن الرابع الهجري ، وكانت الصورة التي ظهر عليها هذا العلم بسيطة ، إذ كانت محصورة في وصف الأقاليم وطرقها ومجاطها ، وبدايات حدودها ، واستعراض بعض ملامح طبيعتها وأنواع الزرعات والمحاصيل فيها ، ووصف مناخها من حيث الحرارة والبرودة ، وتناول أوقات نزول الأمطار بها ، وما إلى ذلك مما يدرجه الجغرافيون المعاصرون في إطار الجغرافيا الطبيعية للعلمة .

وقد كان لليمن إسهامهم المميز في إبراز هذا العلم بالتأليف للشهير للمؤرخ والتسمية الجغرافي اليمني أبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (ت ٣٢٤هـ / ٩٤٥م) الموسوم بـ (صفة شبه جزيرة العرب) والذي يعد أم المصادر التي كتبها الجغرافيون المسلمون عن الجزيرة العربية ، بل هو مصدرهم وموردتهم الأقدم والوحيد ، وشهد بقيمته العلمية عند من الجغرافيين الأوربيين^(١) ، قام الهمداني فيه بوضع مقدمة رياضية جغرافية تعرض فيها لمختلف طرائق تحديد العروض والأطوال ، كما قدم وصفاً عاماً لأقاليم الأرض المعبدة ، ثم شرع في وصف للجزيرة العربية كلها ، وتناول أجناس سكنتها وقبائلهم ، وتطرق إلى ذكر الحيوانات والمعادن والطرق والمسالك المتناثرة في أقطابها ، وقسمها خمسة أقسام رئيسية ، هي : تهامة والحجاز وتجد والعروض واليمن^(٢) .

والمعجب أن الباحث في تاريخ اليمن ومصادر فكرها العربي الإسلامي يجد مدة من الانقطاع عند علماء اليمن في التأليف في هذا العلم أو الاهتمام به ، وتمتد هذه المدة لتتجاوز الثلاثة قرون تقريباً ، ويعزو بعض الباحثين اليمنيين أن العناية المبكرة التي أولاهها الجغرافيون والرحالة المسلمون - كالهمداني وسواه من غير أبناء اليمن - إياها

(١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، مقنة المحقق ، د. عبدالرحمن حميدة ، اعلام الجغرافيين العرب ، دار الفكر ، دمشق ، ط ٢ ، ١٩٨٠م ، ص ٢٣٩ .

(٢) د. عبدالرحمن حميدة ، المرجع السابق ، ص ٤٩ ، عبدالله قائد العبادي ، الحياة العلمية في زيبعد ، ص ٣٧٤ .

قد صرف اليمينيون عن الاهتمام به والتفتيح فيه ، وكل من حالهم في ذلك قائل : " ما ترك الأول للأخر شيئاً " (١) .

وقد بدأ العلماء اليمينيون في العودة إلى الاهتمام بعلم البلدان والجغرافيا في العصر الرسولي ، وخاصة في القرن الثامن منه تدريجياً ، إذا كانت حاجتهم قائمة إليه في الكتابة التاريخية ، إذ أن الذكر العريض للمواضع والبلدان في سياق سرد الأحداث يورد الوهم في إدراك مواضعها ، كما أن إشكالية وجود أكثر من موضع مكاني واحد يحمل الاسم نفسه كانت ماثلة لدى المصنفين في مجال التاريخ ، فتلج عليه الحاجة إلى التعريف للمواضع والبلدان والمدن غير المشهورة الواردة في كتابه ، بل وأحياناً الإشارة إلى التفريق بينها وبين سمياتها .

ومن المؤرخين اليمينيين الذين مزجوا بين الوصف الجغرافي والتاريخ السياسي للأحداث والرجال يأتي المؤرخ الفقيه أبو عبدالله محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) في (السلوك في طبقات العلماء والملوك) ، ولعله هو الذي من هذه الطريقة في اليمن ، وتبعه الإمام أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي بكر الخزرجي (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م) الذي كان يقف أحياناً عند ذكر البلدان التي يتنادر إلى ذهنه أن احتمال التصحيف ووقوع اللبس وارد في قراءتها فتراه يقوم بضبط اسم البلد ومن ثم للتعريف به ، من ذلك ما ذكره في إحدى تراجم الأعلام اليمانية التي ترجم لها : يقول : " أبو إسحاق إبراهيم بن محمد ، كان قتيها صالحاً يسكن قرية الدوم من جبل ملحان ، بكسر الميم وسكون اللام وفتح الحاء للمهملة وبعد الحاء ألف ونون ، وهو جبل شرقي مدينة للمهجم ... " (٢) ، ومنها قوله : " ويروى أن رجلاً كان على جبل للموسم : وهو جبل صغير منفرد في خبت الحقلية من وادي مهام ... " (٣) .

وتبعه كذلك المؤرخ الإمام الحسين بن عبدالرحمن الأهل (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) في كتابه (تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن) الذي كان مليئاً بالإشارات المماثلة ، منها قوله : " ومنهم قيس بن حجر الحميري ، نُسب إلى قرية مَنَرَات - بفتح

(١) د. حسين عبدالله العمري ، في صفة بلاد اليمن عبر العصور ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠م ، ص ٣٥ - وما بعدها ، عبدالله قائد العبادي ، الحياة العلمية في زبده ، ص ٢٧٤ .

(٢) الخزرجي ، العقد فلفخر الحسن ، ق ١٦ - ب .

(٣) الخزرجي ، العقود النثرية ، ج ١ ص ٥٢ .

الميم والدال والراء ، ثم ألف مثناة فوق - وهي على نصف مرحلة من الجند من قبليها ...^(١) ، وكذلك قوله في موضع آخر : * واعلم أن اليمن سمي يمعاً لكونه على يمين الكعبة ، وهو ما يلي الحجاز - وسمي حجازاً لأنه حجز بين الشام واليمن - وآخر الحجاز من جهة اليمن حلي والخليف والخلف وما والاها ، وأول اليمن من تهامة موضع بقرب حلي يقال له عئر ، بفتح العين المهملة ومسكون المثناة ، آخره راء مهملة ...^(٢) .

ورابع هؤلاء المؤرخين هو الفقيه المحدث أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي (ت ٨٩٣ هـ / ١٤٨٨ م) الذي ضمن كتابه (طبقات الخوارج أهل الصديق والإخلاص) عدداً كبيراً من التعاريف لبلدانية وتعريفات للعشائر والقبائل والجماعات ، كقوله : " وقرية الشويرى : المذكورة هي بضم الشين وفتح الواو ثم ياء مثناة من تحت ساكنه وراء مفتوحة وآخره ألف مقصورة ، وهي معروفة بجهة وادي سهام ، وقد خربت منذ زمان ...^(٣) ، وقوله أيضاً : " الخويرة : بفتح الحاء للمعجمة وكسر الواو وفتح الهاء الأولى وآخرها هاء تانيث ، قريبة من ساحل البحر من جهة مدينة حيس ...^(٤) .

وخامس المشتغلين بشيء من علوم الجغرافيا من علماء القرن العاشر الهجري الإمام الحافظ وجيه الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الشهير بابن الدبيع الشيباني (ت ٩٤٤ هـ / ١٥٣٧ م) ، فقد أفرد لبعض فروع الجغرافيا أجزاء كبيرة من كتابه (نشر المحاسن اليمنية في خصائص اليمن ونسب القحطانية) ، فكما سبق أنه تناول القبائل اليمنية الكبرى وبعض فروعها فيما يصنف ضمن علم الأنساب فقد تناول كذلك بعض الجوانب الجغرافية ، سواء في تعداد بعض خصائص اليمن الجغرافية أو شيئاً من الظواهر المناخية فيها وفي غيرها ، منها قوله في تحديد بعض الأقاليم المعتمدة عند الجغرافيين وأصحاب الفلك وموقع اليمن منها : * واعلم أيها الناظر ... أن

(١) الأجل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ١ ص ٦٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٦ .

(٣) الشرجي ، طبقات الخوارج ، ص ٤٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٨ .

سرنديب من بلاد الهند ... هي قبة الفلك وموضع الاعتدال ، وأول الأقاليم ... شمالها إقليم اليمن بإجماع أهل المعرفة بالفلك ، ووسط هذا الإقليم مأرب ، وهي مدينة ملوك حمير بن سبا الأكبر ... ويقابل هذه الأقاليم من جهة الشرق بلاد الصين وبلاد الهند وطرف بلاد السند ، ويقابله من جهة المغرب بلاد اللوبة والحبشة والبيضاء ، وليس وراء عدن وأبين في اليمن مياكن ، فصارت هذه ثلاث فصائل : الأولى أنه أول الأقاليم ، والثانية أنه أعلاها في الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، الثالثة أنه أقربها لخط الاستواء وفلك الاستقامة ... (١) .

ولورد ابن الديبع ما يراه في تقسيم سطح اليمن وتناول تضاريسها فقال : " إن أرض اليمن مقسومة ثلاثة أجزاء : جزء بَرَارٍ سهلة ، وجزء جبال وعرة ، وجزء بحر ، فعذ من البراري السهلة مواضع شرقية ومواضع غربية ، فمن الشرقية مأرب ونجران وحضرموت وجوف هَمْدَان والشَحْرَ ويتَحَن ، وعد من الغربية زبيد وعَلَافَة وصيبر وسَرَنْد ومَوَز وأرض حَكَم . وهي للمنبة - إلى حلي ... وعد من جزء الجبال جبال اليمن المشهورة بالشموخ والمعة والخصب والمنعة والجناب والرفعة ، وهي صِبْر ومخلاف جعفر وزحر وبَغْدَان ووَصَاب وعُثَم وبِرْع وخَفَاش ومِلْحَان وخَضِر وبَيْش ومَمْنُور والشُرَف وجبل هَوَم ... فيها من الخيرات والفصائل ما لا يحصى إلا على جاهل أو متجاهل ... فكم في هذه الجبال من النساكين والعيون الجارية والفواكه ... والأشجار والثمار والمعاقل المنيعات والحصون للقاهرات مما لا يوجد مثله ولا يوصف شكله ... " (٢) .

كما أن الإمام ابن الديبع تحدث عن الجغرافية المناخية فتناول أقطار اليمن ومواسم سقوطها ومطولها ، وتفاخر بكونها " في تموز وأب ، وذلك الوقت هو الذي يشتد فيه ظمأ أهل نجد والحضر وغيرها من المخاليف والبلدان ، وتشتد فيه الحرارة ، وينقطع فيه الغيث عن الجهات المذكورة ، واليمن يُغاث فيه في كل يوم من وقت الزوال إلى غروب الشمس ... " (٣) ، ثم أنه قال في تعداد أنواع الرياح ومواسماتها : " لرياح أربع ، وهي : الشمال والجنوب والصباء والندبور ... وأما صفاتها ، فصفة

(١) ابن الديبع ، نشر المحققين اليمنية ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٥ - ٨٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

الشمال أنها تفرق السحاب وتمحوه من الجو ، وبردها في الشتاء أشد من هبوبها ،
وتصبح الأرض منها كأنها مغمورة بقدرة الله تعالى ، وصفة الجنوب أنها إذا هبت
كانت قوتها في العلو والهواء أكثر ، لأنها موكلة بالسحاب تجمعها وتزلفه وتسوقه ،
وتلقح الأشجار وتحرك رؤوسها وأغصانها ، وتقلع العماد ... وصفة الصبا أنها ربيع
معها روح ونسيم ، تلقح الأشجار أيضاً ، ولا تهب بالليل حتى يسفر النهار وتطلع
للشمس ثم تقف ... وصفة الدبور أن قوتها في الأرض أشد من قوتها في الهواء ، وأنها
تكمن الأرض ، وتتير الغبار ، ويسمع للأشجار منها في البوادي دوي ... كل ربيع من
هذه الأربع إذا جرت بين ريحين سميت نكباء لعدولها عن مهب الرياح
الأربع ... (١).

ويظل الإمام المحدث أبو محمد الطيب بن عبدالله بامخرمة (ت ٩٤٧هـ /
١٥٤٠م) واحداً من أكثر المؤرخين اليمنيين توسعاً في هذا الباب ، وذلك واضح في
كتابه (تاريخ ثغر عدن) و (قلادة النحر في وقفات أعيان الدهر) ، فقد كان
دقيقاً وكثير الحرص على ضبط الأسماء : أسماء الأعلام والنسب إلى الآباء والعشائر
والبلدان بطريقة لافتة للنظر ، وذلك ما يلمسه المتصفح لكتابه المذكورين ، ولا سيما
القلادة ، من ذلك قوله : أبو إسحاق الرعاعي - بعينين بينهما وقبلهما راه ، مهملات
- نسبة إلى الرعاع ، القرية المعروفة من أعمال لحج ، بينها وبين عدن أبين مرحلة
- الفقيه البارع المشهور ، وكان ترباً لأبي قره موسى بن طارق الزبيدي - بفتح الزاي
نسبة إلى مدينة زبيد ... (٢).

وكانت حاجة المشتغلين بالحديث والجرح والتعديل إلى التطرق إلى البلدان وما
كُتب في التعريف بها كبيرة ، وذلك لأن نسبة بعض الرواة إليها تتعدد بتشابه كبير أو
تطابق أحياناً مما يوقع اللبس في المقصود بالنقد منهم ، فتجد أن المنتسبين إلى (زبيد)
و (زبيد) أو (تريم) و (يريم) تتشابه ألقابهم المعزوة إلى بلدانهم - مع وضع
شروع عدم تنقيط الحروف وتشكيلها في النسخ - مما يوجب على الذاكر لهم في
مصنفاته أن يحدد البلد المنتسب إليه الراوي المذكور ، ولهذا نجد أن في قوائم مؤلفات
بعض المحدثين المشهورين كتباً صنّفوها لبيان هذا الباب من أبواب المعرفة ، منهم

(١) ابن الديبع ، نشر المحاسن اليمنية ، ص ١٢١ ، ١٢٥ .

(٢) بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ١ ص ٦٦٤ ، ٦٧٥ .

على سبيل المثال كتاب (ما اتفق لفظاً واختلف وضعاً) للإمام الحافظ شمس الدين الذهبي وكتاب (تبصرة المنتبه بتحرير المشتبه) لشيخ الإسلام الإمام ابن حجر العسقلاني .

وهذه الحاجة المذكورة هنا هي التي دفعت بعض أكابر علماء الحديث في اليمن إلى التصنيف في هذا العلم ، ومنهم الفقيه القاضي مسعود بن سعد بن أحمد باشكئيل والد الإمام القاضي جمال الدين محمد بن مسعود باشكئيل (ت ٨٧١هـ / ١٤٦٧م) الذي وضع مسودة لكتاب في البلدان ، ذكر فيها جملة منها ، مقتصرأ على ذكر البلد وصفتها وبعض من ينتسب إليها من العلماء والرؤساء المشهورين ، وإلا أن القدر لم يمهله ليتمه ، بعد أن وصل فيه إلى آخر باب الرأء وذكر بعد ذلك في حروف متفرقة من كل حرف بلد أو بلدين^(١) ، ويأتي بعد ذلك أحد أفعاده - من ناحية البنات - ليكمل ما بدأه هو ، والمقصود بالحفيد هنا هو الإمام المؤرخ والمحدث أب محمد الطيب بن عبدالله بامخرمة (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) الذي وضع أشهر كتاب يمني في هذا الباب ، وهو الكتاب الموسوم بـ (النسبة إلى المواضع والبلدان) ، ومع أنه مهتم بالنسبة إلى البلدان إلا أنه لم يكن يأتي على ذكر المنتسبين إلى البلد المعين إلا بعد أن يقوم بتعريفه تعريفاً ضافياً .

وقد أنان الإمام الطيب بن عبدالله بامخرمة عن قصة تأليفه للكتاب المذكور - في مقدمته - بقوله : " فإن كتابي هذا جمعته لنفسي ولم ينتفع به من بعدي ، وسبب جمعي له أنني وقفت على كتاب في الأنساب إلى القبائل والأبء ، وتطلعت نفسي إلى الأنساب إلى البلدان ، ولم أقف فيه على كتاب يخصه ، ثم أنني وقفت على مسودة للقاضي مسعود بن سعد بن أحمد أبي شكيل الأنصاري الخزرجي ، ذكر فيها جملة من البلدان ، مقتصرأ على ذكر البلد وصفتها وبعض من ينتسب إليها من العلماء والرؤساء المشهورين ، ولم يتمه ، ووصل فيه إلى آخر باب الرأء ، ثم ذكر بعد ذلك في حروف متفرقة من كل حرف بلد أو بلدين ، فهممت بإتمامه وتبييضه ، ففقدت السخة المذكورة مدة طويلة ولم أظفر بها ، فشرعت في جمع شيء من ذلك ، حانياً حنوه في الضبط والتبيين ، فجمعت من ذلك جملةً صالحةً " .

(١) بامخرمة ، النسبة إلى المواضع والبلدان ، المقدمة ، ق ١ - ب .

وفي جزء آخر من المقدمة يقوم بلمخزمة بتوضيح منهجه في تصنيف الكتاب ومصادره التي اعتمد عليها - سواء كانت يمنية أو غير يمنية - بقوله : " وأخذت غالبها من تاريخ القاضي ابن خلكان ... وأخذت بعض ذلك من طبقات السبكي الكبرى ، ومن تاريخ الفاسي ، ومن تاريخ الجندي وغير ذلك ، ثم إنني رأيت ذلك قليل الجدوى والنفع ، فضمنت إليه من يُنسب إلى تلك البلدة من المحدثين المشهورين وغيرهم ؛ لاحتياج قارئ الحديث وطالب الفقه إلى معرفة ذلك ، وإن كان ثمة من يشبه نسبه بسب المنتسب إلى تلك البلدة وهو متسرب إلى غيرها - لم بلدة أخرى أو أب أو قبيلة بيئته ، وعمدتي في ذلك كتاب (ما اتفق لفظاً واختلف وضعاً) للشيخ الحافظ شمس الدين الذهبي وكتاب (تبصرة المنتبه بتحرير المشتبه) للحافظ أبي الفضل بن حجر ، وأكثر اعتمادي على الثاني لالتزامه الصط باللفظ بخلاف الأول فإنه اكتفى بضبط القلم ، وقد أخل به النساخون ... إلا أنني أبلغت جهدي في تحقيق ذلك من كتب اللغة كـ (القاموس) للمجد الشيرازي و (تكملة الصحاح) للإمام الصغاني ، فما نقلته عن أبي نقطه أو أبي العلا القرصي أو ابن مأكولا أو الخطيب فمن الكتابين المذكورين ، وما نقلته من غير الكتابين عزوته إلى قائله ، ثم ظفرت بمسودة القاضي مسعود فنقلت منها أشياء لم أكن ذكرتها ، وما نقلته عنه عزوته إليه ... (١٦) .

ومما لا يغفل عنه أيضاً أن للتطرق إلى علم الأنساب وولوج بابيه يضع العالم في مواجهة الحاجة إلى طرق سبيل البلدان ومصنفاتها ومحاولة الإسهام بعد الثغرات التي فيها ، حيث أن تتبع الأنساب يقتضي تتبع البلدان التي تستوطنها فروع القبائل والعشائر ، وهذا المعنى هو جزء مما أشار إليه الإمام الطيب بن عبد الله بامخرمة في قوله : " فإن كتابي هذا جمعته لنفسي ولمن ينفع به من بعدي ، وسبب جمعي له أنني وفقت على كتاب في الأنساب إلى القبائل والأبواء ، ونطلعت نفسي إلى الأنساب إلى البلدان ، ولم ألق فيه على كتاب يخصه (١٧) .

وللإمام أبي محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد بامخرمة (ت ٩٤٧ هـ / ١٥٤٠ م) أيضاً كتاب (تاريخ ثغر عدن) مصالمين جغرافية مهمة ، فهذا الكتاب - ما سبق وصفه - صغير الحجم ، عظيم الفائدة ، يعد من أفضل ما كُتب في وصف مدينة ،

(١٦) بامخرمة ، النسبة في المواضع والبلدان ، المقدمة .

(١٧) المصدر السابق ، والورقة نفسها .

أثبت المصنف فيه ما قرأه عن عدس من حيث تسميتها ، وما قيل في بديلة أمرها ، وما ورد في كتب التفسير والحديث عنها ، وقد استعرض أيضاً أهم معالم المدينة من الدور المشهورة والقصور والأسوار والأبواب وغيرها ؛ لذلك فمن الممكن أن يصنف هذا الكتاب بين مصادر تاريخ عدن الجغرافية ، والشاهد في ذلك اهتمام مصنفه بالحديث عن موقع المدينة الجغرافي ، كالحديث عن جبالها ، وما يقع بين تلك الجبال من أماكن منبسطة وغيرها ، وعن مصادر للمياه فيها .

وأخر للمجالات التي استدعت الحاجة إلى الجغرافيا وتناول البلدان وتعريفها هي الكتابات الإدارية التي تعنى بأمور جبالية الخراج وما يفرض على أهل الأراضي المزروعة والأنشطة التجارية والصناعية ، فقد ورد في كتاب (ملخص الفطن والأكباب ومصباح الهدى للكتاب) الآتي ذكره قريباً للعلامة الحسن بن علي الشريف الحسيني (ت بعد ٨١٥هـ / ١٤١٢م) تعريف وتقسيم لبعض الجهات اليمانية ، وإن كان للتقسيم فيها قائم على قواعد الأموال من وجهة نظر المتولين لخزائن الدولة الرسولية^(١) .

(١) الحسيني ، ملخص الفطن والأكباب ومصباح الهدى للكتاب ، ق ٦ - أ ، ق ٦ - ب .

ثانياً : الأحكام السلطانية والنظم المالية والإدارية:

أدرج بعض الدارسين لتاريخ اليمن^(١) مثل هذه النوعية من العلوم والكتابة النثرية التلخيصية ضمن الكتابة التاريخية وعدوها في أنواعها ، وذلك أن جانباً منها اهتم بتكوين تاريخ النظم ومؤسسات الدولة ودولويتها - كديوان الخراج السلطاني - أكثر من كونه في التنظير لها والتوعية بأصولها وما يجب أن تكون عليه ، غير أن الجانب التنظيري المشار إليه لم ينعدم في ثناياها مما يجعلنا نتحدث عنها كونها إحدى العلوم التي اهتم بها العلماء اليمنيون وأسهموا في الكتابة فيها .

ومن خلال نظرة على أمهات المصادر اليمنية والمراجع الحديثة من كتب الببليوجرافيا يتضح أن اليمنيين لم يكن لهم أي اهتمام بهذا المجال قبل القرن الثامن الهجري ، ويعزى السبب إلى أنهم لم يجدوا أنفسهم في حاجة ماسة إليه إلا في مرحلة النضج الحضاري الكبير الذي اتسمت به الإدارة في عهد الدولة الرسولية ، بسبب الحرص الذي أبداه سلاطينها على الاستفادة من الخبرات التي كانت قائمة في الدول المجاورة والتي أقامت معها علاقات اقتصادية وطيدة ، كدولة المماليك في مصر ، ويعود أول كتاب يمني تم تصنيفه في هذا الشأن إلى مطلع القرن الثامن الهجري ، وينسب إلى مؤلفه الفقيه أحمد بن عبدالدائم بن علي الميموني (ت ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م) ، ولما الكتاب فهو (للقبر المسبوك في صفات الملوك) وقد قام بتأليفه بدءاً على رغبة السلطان الرسولي الأشرف الأول عمر يوسف (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م)^(٢) ، وإذا لم يتم العثور على قرائن لوجود اهتمامات سابقة لليمنيين عن هذا التاريخ فإن الفقيه الميموني سيعد فعلاً رائد في علم النظم السلطانية والإدارية في تاريخ اليمن .

ويعد الفقيه الميموني ألف السلطان الأفضل العباس بن علي الرسولي (ت ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م) كتاباً في سياسة الدولة ورسوم الخلافة ، ووسومه بـ (نزهة الظرفاء وثحفة الخلفاء) ، وقد أوضح في مقدمته الخطوط العريضة لمحتواه ، إذ

(١) د. طلال الرادعي ، لبذة من كتاب ملخص الططن والأكباب ومصباح الهدى للكتاب ، منشورات المكتبة التجارية ، مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٩٩٢م ، ص ٢٣ - ٢٦ ، عبدالله قائد العبادي ، الحياة النظمية في زهد ، ص ٣٦٧ .

(٢) الرافعي ، فهرس مخطوطات الجامع الكبير بصنعاء ، ج ١ ص ١٨٨٩ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٦٢ .

يقول: "أما بعد : فهذا مختصر يشتمل على رسوم الخلفاء وأداب خدمتهم ، والتحية والسلام وتقدير الأرض بين أيديهم ، وغير ذلك من آداب مجالستهم ، وآدابهم في أنفسهم ، وبيان ما يجب عليهم ، وقد جعلنا هذا الكتاب على ثلاثة ... الباب الأول في آداب خاصة الملوك وجلساتهم وعلمائهم ، والباب الثاني في آداب الملوك أنفسهم وما يجب عليهم ، والباب الثالث فيما لا يسع الملوك والرؤساء جهله من أنواع العلوم ... (١)" ، ومن خلال هذا النص يتضح أن السلطان الرسولي كان يعي حدود هذا العلم ويضيف إليه بعضاً مما كتبه العلماء للمسلمون في باب آداب صناعة الإنشاء وتولي دواوينها .

وقبل بداية القرن التاسع الهجري كتب الفقيه عبدالرحمن بن عمر الحبيشي (ت ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م) مؤلفه في النظم الإدارية ، ووضعه تحت عنوان (أحكام الرئاسة في آداب السياسة) (٢) ، وصنف الإمام العلامة جمال الدين محمد بن موسى الصيرفي النذالي (ت ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م) كتاباً أسماه (التحفة المدونة في أسرار السلطنة) (٣) .

وأشهر علماء اليمن الذين اهتموا بهذا الجانب من العلوم الإدارية في مدة دراستنا في مطلع القرن التاسع الهجري هو العلامة الحسن بن علي الشريف الحسيني (ت بعد ٨١٥هـ / ١٤١٢م) الذي كان أحد كتّاب الدوليين في الدولة الرسولية ، فتولدت لديه الرغبة في وصف خبرته واستعراضها بالإضافة إلى سرد مجمل رؤاه في النظم المالية ودواوين الخراج السلطاني ، وقد ألف كتابين فيها ، أولهما كتاب (الديوان الجامع المسير في معرفة التغليل والتسعير) وثانيهما كتاب (ملخص الفطن والألباب ومصباح الهدى للكتاب) ، والأول منهم ورد نكره في الأخير (٤) .

قد قسم العلامة الحسن بن علي الحسيني كتابه (ملخص الفطن) إلى أربعة فصول ، تناول أولها فضل القلم وأهله ، وثانيها في معرفة قواعد ودواوين الخراج

(١) الأصل الرسولي ، نزهة القراء وتحفة الخلفاء ، ص ١٥ .

(٢) الحبيشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٦٢ .

(٣) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٨٨ ، الحبيشي ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) الحسيني ، ملخص الفطن والألباب ومصباح الهدى للكتاب ، ق ٥ ب .

السلطاني ، وما هو الذي وقع عليه اسم الديوان ، وما يجب له وعليه ، وعلى المتصرفين والمبشرين في الجهات وما يجب لهم وعليهم ، أما الثالث فهو مخصص لمعرفة قواعد أموال الجهات اليمانية بأقسامها المختلفة ، من جبال وتهام وثغور وبنادر - حسب تعبير المصدر - والفصل الرابع في معرفة ما يسترفع في الأشغال والحسابات إلى الديوان الرسولي السعيد^(١) .

ومن العلماء الذين أسهموا في التصنيف في هذا المجال الفقيه المؤرخ محمد بن عبدالله بن عمر الفاشري (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) والذي كان بارعاً في كثير من العلوم الشرعية والتاريخية والقلمية ، ومنها علم الحساب ، وصنف كتاب (النصائح الإيمانية لذوي الولايات السلطانية)^(٢) ومن خلال عنوان الكتاب يرجح أنه لم يخل من الحديث عما يجب على ذوي الولايات عمله في إدارة أعمالهم .

ومنهم أيضاً أحمد بن الحسين بن محمد بن إبراهيم الهادي (من أهل القرن التاسع الهجري) الذي وضع كتاباً في الأحكام السلطانية ، وعنوانه بـ (التبر المنسبك في تكبير الملك)^(٣) .

ومنهم كذلك العلامة الإمام محمد ابن يحيى بن أحمد بهزّان الصعدي (ت ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م) ، الذي كان من أفضل علماء وقته ، وصنف فأجاد في كثير من فروع المعرفة ، وله في الأحكام السلطانية كتاب (بهجة الجمال ومحجة الكمال في المعلوم والممدوح من الخصال في الأئمة والعلماء)^(٤) .

(١) الحسني ، منخص الفطن والأكباب ومصباح الهدى للكتاب ، ق ٦ - ب .

(٢) السحوي ، الضوء اللامع ، ج ٨ ص ١٠٠ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٦٣ .

(٣) منه نسخة خطية بمكتبة الأمبروريك تحت رقم G88 ، الحبشي ، المرجع السابق ، ص ٥٦٣ ، فوجهه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٠ .

(٤) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (٢٩) ، وأخرى في المكتبة نفسها تحت رقم (٢٧١) ، ونسخة أخرى منه في مكتبة المؤرخ محمد بن محمد ربابة بصعاء ، ونسخة أخرى في مكتبة علي بن إبراهيم بسندع ، وقد طبع في القاهرة بمطبعة الجمالية سنة ١٣٤٩هـ ، انظر الوجهه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠١٩ ، الحبشي ، مخطوطات مكتبة المؤرخ محمد بن محمد زبارة ، ص ٨ ، مراجع تاريخ اليمن ، ص ٦٤ .

ثالثاً : العلوم العقلية الطبيعية والتطبيقية :

(١) الفلك أو الهيئة :

من المعروف أن علم الفلك هو ذلك العلم الذي ينظر في حركة النجوم والكواكب واتجاهاتها ، ويمتد من حركتها على أشكال الأفلاك وأوضاعها^(١) ، كما يستلطفها في تحديد الجهات والمواقع ومواسم عديدة تكون الأرض فيها تحت حالات معينة وأوضاع محددة من البرودة والحرارة ، والرياح والأمطار ، لما يترتب عليها من الإقدام أو الإحجام على الإبحار أو الزراعة وغيرها من الأنشطة البشرية ، وذلك من خلال قواعد ثابتة وأصول راسخة نتجت عن تراكم الخبرة البشرية .

وقد كان للعرب منذ الجاهلية - واليمينيون منهم - اهتمام كبير بالفلك ولو في صورته البدائية ، أملت عليهم ظروف حياتهم القائمة على الترحال الدائم في مجاهل الصحارى التي لا معالم لمسالكها - بالنسبة للبدو منهم في شمال الجزيرة ووسطها - أو البحار - بالنسبة للمشغنين بالتجارة من عرب الجنوب - والشعر الجاهلي زاحر بذكر للنجوم والكواكب بما يجعلنا على دراية بأن كثير من الأسماء العربية للنجوم ترجع إلى العصر الجاهلي .

وكان فصل الإسلام كبيراً على علم الفلك ، إذ أنه لست «اهتمام المسلمين للعناية به ووضع بذور النهضة الفلكية في العصور الوسطى ، وذلك لأن الإسلام ربط مواعيد أداء عدد من العبادات بمعالم فلكية ، فالمسلم يبدأ نهاره قبل شروق الشمس فيراقب مطلع الفجر لكي يصلي الصبح ، وفي آخر نهاره يرقب العسق ليصلي العشاء ، وبين ذلك يتابع حركة الشمس في الأفق لينترك مواعيد صلواته في الظهر والعصر والمغرب لكي يصليها في حينها ، وهو يصوم رمضان ويفطر مع رؤيته لهلاله حسب التقويم القمري ، وإذا صلي في أي بقعة من الأرض فهو ملزم بتحري معرفة اتجاه الكعبة ، أي بمصرف مكانه على ظهر الأرض بعد أن يحدد الجهات الأربع من موضعه الذي هو فيه ، ثم تأتي آيات القرآن الكريم فتأمره بأن يتأمل في الفضاء الخارجي من حوله لكي يعرف قدرة الله ومعجزة الخلق ، بل ويذكر كواكب معينة ونجوماً بأسمائها كـ (النجم الثاقب) و (الشُعْرَى) .

(١) ابن خلدن ، مقدمة ابن خلدون ، ج ٣ ص ١٠١٩ .

وقد اهتمت شريحة من أسلاف الأمة فيما بعد القرن الثالث للهجري بالفلك واعتنوا به عناية خاصة ، فاقبلوا ابتداءً على تجميع إسهامات السابقين من الإغريق والفرس والهنود وغيرهم في علم الفلك ، وقاموا بترجمة للمهم منها ، ثم شرعوا لاحقاً في الإنتاج العلمي على غرارها بالإبداع والابتكار ، حتى أن طائفة منهم نبغت فيه وتفرغت له إلى حد كبير ، أمثال الكندي والفارابي والبيروني وابن باجة الأندلسي وابن يونس المصري وابن رشد والقزويني وابن فرناس وغيرهم كثير ، بل واقتحم شمار علم الفلك عدد من الأطباء كالرزي وابن سينا والعديد من الفقهاء والأدباء والشعراء ، وتعددت مسميات فروعه عددهم ، واشتهر منها فروع الزيج والنجوم والأرصاد والمواقيت^(١) .

واليمنيون كثيرهم من أبناء العالم الإسلامي أولوا علم الفلك عنايتهم منذ فترة مبكرة من تاريخهم الإسلامي ، وكتبوا عدداً من الأعمال الكتابية الفلكية كالمواقيت ومطالع النجوم ومطارحها ، وغيرها من متعلقات علم الفلك وجوانبه ، وقد عدد بعض الباحثين أحد عشر عالماً من علماء اليمن الذين أسهموا بجهد في علم الفلك قبل القرن التاسع الهجري ، كما عدد طبيعة إسهاماتهم وعناوينها^(٢) .

والواضح من إشارات المصادر أن علم الفلك لم يحظ بالاهتمام في تاريخ اليمن كله كما حظي به في العهد الرسولي ، إذ أن الدراسات الفلكية في عهدهم بلغت أوج تقمها^(٣) ، ويُعزى هذا الازدهار إلى عناية السلاطين أنفسهم واشتغالهم به^(٤) ، كما كان لاهتمامهم بالوفدين من الفلكيين إلى اليمن والدراسة على أيديهم وتمكينهم من تدريس

(١) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، ج ٣ ص ١٠٢٠ ، ١٠٢١ ، القزويني ، أبجد العلوم ، ص ٤١٢ ، ٤٨٨ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، طاش كبري راد ، مفتاح السعادة ، ج ١ ص ٣٥٧ .

(٢) الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٦٦ - ٥٦٨ .

(٣) ديفيد كنج ، حول تاريخ الفلك في العصر الوسيط في اليمن ، ص ٦٣ .

(٤) الخرجي ، المسجد المسبوك ، ص ٢٧٦ ، الحبشي ، حكام اليمن المؤلفون المجتهدون ، ص ١١٢ .

علومهم لليمنيين ولإسناد الوظائف النبوانية العليا إليهم^(١) دوره الكبير في إخلاصهم في التعليم وبروز رغبتهم في الإفادة من علمهم .

ومن أبرز علماء الفلك في اليمن في العصر الرسولي الفقيه إبراهيم بن علي الأصبحي (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦١) الذي كان كتابه (المواقيت في معرفة المواقيت)^(٢) عمدة اليمنيين دهرأ ، يتكولونه فيما بينهم ويعتمدون عليه في معرفة المواقيت وضبطها^(٣) ، وكذلك للفقيه أبو بكر بن عمر الناشري (ت ٧٦٠ هـ / ١٣٥٨ م) الذي نظر كثيراً في علم الفلك وكتب فيه أراجيز أشارت إليها بعض المصادر^(٤) .

ومن علماء اليمن الذين كان لهم عناية بعلم الفلك في مدة الدراسة - القرنين التاسع والعاشر الهجريين - يأتي أبو العقول^(٥) ، وهو صاحب (الزيج المختار) المحفوظ بمكتبة برلين الأهلية^(٦) ، وقد تحدث عنه المستشرق الأمريكي دافيد كنج بعد دراسته للزيج المذكور ، وإليه أشار الحبشي^(٧) ولم يزد على ما ذكره المستشرق سوى تعداد للنسخ المخطوطة لهذا الزيج .

العلامة أبو بكر بن عثمان بن أبي بكر الناشري (ت في بداية القرن التاسع الهجري) ، فقد كان بارعاً عدد من العلوم ، منها الفرائض والحساب والجبر والمقابلة والمنطق ، وكانت له - كذلك - يد في علم الفلك^(٨) .

(١) الجندي ، السئوك ، ج ٢ ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الحربية تحت رقم (٢٧٦٣ فلك) ، نظر الرقيحي ، فهرس مخطوطات الجامع الكبير بصنعاء ، ج ٤ ص ١٩١٧ .

(٣) الجندي ، السئوك ، ج ٢ ص ٦١ .

(٤) وطبوط ، تاريخ المعلم وطبوط ، ق ٦١ - أ .

(٥) لم يصل إلينا من اسمه غير الكنية المثبتة أعلاه فقط ، ولعل المستشرق دافيد كنج اعتمد اسمه مما هو مكتوب على غلاف الزيج نفسه .

(٦) الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٦٨ .

(٧) المرجع السابق ، ص ٥٦٨ ، ومنه نسخة في الأمبروريات لم يذكر الحبشي رقمها ، ونسختان أخريتان بمكتبة الجامع الكبير الحربية ، الأولى تحت رقم (٧٧ مجاميع) ، والثانية تحت رقم (٥٩ حديث) .

(٨) الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سفات اليمن ، ج ٢ ص ٧٤ .

وكذلك كان الشيخ علي المصري الكاتب (ت في مطلع القرن التاسع الهجري) على معرفة عالية بعلم الفلك ، مع مشاركة في الفرائض ، وسلمت إليه الرئاسة في صناعة التقويم ، فرزق الحظ عدد السلاطين المرسلين فرتبوا له الجامعة^(١) ، وتبعه ابنه الشيخ جمال الدين محمد بن علي المصري الكاتب (ت بعد ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م) ، إذ أخذ عن والده علم الفلك والحساب والفرائض والضوابط المحتاج إليها لصناعة التقويم ، فكان وحيد عصره^(٢) .

ومن المشتغلين بالفلك أيضاً الفقيه محمد بن عيسى بن يوسف الشاوري (ت ٨٢٨هـ / ١٤٢٤م) ، فقد وصف بأنه ذو معرفة بعلم الفلك واشتغل به^(٣) .

ومنهم كذلك الأمير العلامة صارم الدين دلود بن علي بن أبي بكر بن قايمز الأصغري البغدادي (ت ٨٣٥هـ / ١٤٣١م) ، المعروف بقراءته في عدد من العلوم العقلية كالطب والحكمة على جماعة من الوافدين ، أجلمهم العلامة رضي الدين أبو بكر ابن رباح المصري ، فكان حكيماً طبيباً ، عارفاً بعلم الفلك^(٤) .

وفيههم أيضاً للفقيه المحدث شمس الدين علي بن محمد الشعبي (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) ، وهو أحد تلاميذ شيخ الإسلام الإمام الحافظ محمد بن أبي بكر الخياط النجباء ، وهو الذي خلف شيوخه في مجلسه العلمي بمدينة نعر - كما سبق توضيحه في عنوان الحديث النبوي الشريف - وقد كان لهذا العالم اشتغال بشيئ من علم الفلك بجوار مهامه التكريسية والقضائية^(٥) .

ومنهم أيضاً العلامة عبدالله بن محمد بن أبي القاسم العكي النجري (ت ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م) ، فقد كان الفلك واحداً من العلوم التي درسها في رحلته العلمية التي وصل فيها إلى مصر في سنة (٨٤٨هـ / ١٤٤٤م) ، وكان شيوخه في

(١) التبرهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٨٧ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) الأمدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٦ .

(٤) التبرهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢١٧ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .

الفلك بمصر عالم يُدعى العز بن عبد السلام الميقاتي ، فكان يطالع في في الفلك وغيره ، ومهما لشكل عليه شيء راجع إليه شيخه^(١) .

وقد ورد في كتاب (أعلام المؤلفين الزيدية) ضمن قائمة مؤلفات الإمام الزيدي الهادي لدين الله عز الدين بن الحسن (ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م) منظومتان ، إحداهما في المواقيت ، وهي رائية^(٢) قد قام بشرحها لاحقاً العلامة محمد بن أحمد بن عر الدين المعروف بـ (ابن العنز) (ت ١٠٥٣ هـ / ١٦٤٣ م)^(٣) ، ولها المنظومة الأخرى فقد موضوعها النجوم ، غير أن المرجع لم يورد شيئ من التفصيل في شأن محطواها^(٤) .

ونكرت بعض المصادر أن للشيخ حسين بن عبدالله العيّدروس (ت ٩١٧ هـ / ١٥١١ م) قد كانت له اليد الطولى في علم الفلك^(٥) ، غير أنها لم تذكر له مصنفات فيه، ومثله كذلك الإمام العلامة عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر بافضل الحضرمي (ت ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م) ، فقد اشتمل بالفلك واعتنى به ، وصف فيه (وصية نافعة ورسالة صغيرة في علم الفلك)^(٦) ، وكذلك له رسالة أخرى في (سمت القبة)^(٧) .

وقد كان علم الفلك واحداً من العلوم التي اهتم بدراستها الإمام العلامة جمال الدين محمد بن عمر بن مبارك بخرق الحضرمي (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م) ، وقد ترك فيه مصنفات وصف على أنه رسالة في علم الميقات^(٨) ، وقد نسب إليه كتب آخر يتوقع

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٦٣٦ .

(٢) الوجيه ، ص ٦٤٤ .

(٣) قال الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٦٩ في وصف هذا الشرح بأن ابن العنز قد تكلم فيه على مواد نافعة من علم الفلك وما يحقّقه من الكموب ، ومن هذا الشرح نسخة مخطوطة بمكتبة آل الفضوء ضمن مجموع ، ونسخة أخرى بمكتبة عبدالرحمن شايم بمدينة صنعاء ، انظر الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٦٤٤ ، ص ٨٤٥ .

(٤) الوجيه ، المرجع السابق ، ص ٦٤٥ .

(٥) العيّدروس ، أنوار قصائر ، ص ٨٨ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٧) الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٦٨ .

(٨) العيّدروس ، أنوار قصائر ، ص ١٣٦ ، أشلى ، السنا البهر ، ص ٢١١ .

يتوقع أن محتواه في علم الفلك ، وهو تحت عنوان (كشف الحجاب في شرح اللباب في أصول الحساب) ، وهو كتاب صغير لا يتجاوز ثمان صفحات^(١) .

ونختم حديثنا عن اهتمام اليمنيين بعلم الفلك وتصنيعهم فيه في مدة الدراسة بالحديث عن مشاركة الإمام الحافظ والمؤرخ وجيه الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الشهير بابن الديبع الشيباني (ت ٩٤٤ هـ / ١٥٣٧ م) ، فقد كان لهذا العلم مشاركة في علم الفلك ، إذ تضمن كتابه (نشر المحاشن اليمنية في خصائص اليمن وسبب القحطانية) العديد من الأطروحات الفلكية التي جاء بها في سياقات متعددة تنور حول مفخرة انساب العديد من النجوم والأبراج السماوية إلى اليمن ، فيقال : البروج اليمنية والجنوبية ، وقولهم : النجوم اليمنية كسهيل اليمنية^(٢) ، واستدل بقول الشاعر عمر بن أبي ربيعة عندما كان يُغرضُ بشخص اسمه سهيل تزوج امرأة لسمها الثريا ولا يراه أهلا لها :

لَيْثُهَا الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلًا
عَمْرُكَ اللهُ كُنْفَ بَلَّتَقَيْنِ
هِيَ سَامِيَّةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ
وَسُهَيْلٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّ بِمَلْيِ

هذا بالإضافة إلى أن الإمام ابن الديبع كان قد أفرد فصلاً كاملاً في الكتاب المذكور تحدث فيه عن الشمس والقمر والسعوات والسحاب والمطر والبرق والرعد وغير ذلك ، وهي أمور يتحد فيها الفلك والجغرافيا المناخية بالتحديد كما سبق تناوله في موضع سابق^(٣) .

(١) الحيشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٦٨ ، وذكر أن منه نسخة مخطوطة في مكتبة الأوقاف الوطنية العراقية بعداد تحت رقم (٩٢٩٣) .

(٢) ابن الديبع ، نشر المحاشن اليمنية ، ص ٧١ ، ٧٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١١١ - ١٢٠ .

(٢) علوم البحار والملاحة :

علاقة اليمنيين بالبحار علاقة قديمة ، ارتبطت بحضارة اليمن القديمة الأوسمانية والقَبَائِيَّة والسَّبَائِيَّة والحِمَيْرِيَّة والمعَبِيَّة ، تلك الحضارات التي قامت على اقتصاديات قوية تعالت منابعها ومواردها في رافدين أساسيين ، أولهما : زراعة واسعة اعتمدت على أرض شاسعة خصبة ، ووفرة مياه حفظتها السدود والصهاريج الجبلية التي أنشأوها في مختلف المناطق ، وثانيهما : تجارة الرجلة ، سواء بسلع يمنية رراعية كالخبور واللبن ، أو سلع وافدة كانت اليمن معبراً لها باعتبارها أهم محطة في طريقها إلى موطن استهلاكها في حواضر الشام ومصر والرومان في روما وأسيا الصغرى وغيرها .

لم يكن لليمني أن يتخذ صفة النجاح في التجارة دون أن يكون ماهراً في تعامله مع البحار والمحيطات التي مخرت سَفْلَهُ أموالها ، وإن كنا لم نجد في القرون الماضية من الشواهد المكتوبة ما يدل على براعته في التعامل مع البحار ، إلا أن أثر تلك البراعة قد كانت واضحة للعيان ، إذ أصبح اليمني خير حامل للعقيدة الإسلامية وأفضل داع لها في المناطق الشرق ، وأسفرت جهوده الدعوية التي قرنها بأسفاره التجارية هناك عن دخول مجتمعات كاملة في الإسلام ، دون أن تصلها جيوش الفتح الإسلامي أو أن تبذلها سيطرة دُولِهِ ونفوذه حُكْمِهِ

كما أن ما استعرضناه من إسهامات علماء اليمن في مجال الفلك يعد من القرائن الثانوية التي تدل على أن تلك المعرفة قد أقيمت كثيراً البحارة اليمنيين ، فالعلاقة بين الملاحة البحرية وعلم الفلك أكيدة ، إذ أن للنجوم هي معالم للطرق والسبل في البحار والمحيطات .

وفي مدة دراستنا هذه ، وبالتحديد في مطلع القرن العاشر ، برزت شخصية يمنية لها مشاركة كبيرة وبد قوية في علوم البحار والملاحة البحرية ، ألا وهو الملاح والبحار سليمان بن أحمد بن سليمان المَهْرِي (ت بعد ٩١٧ هـ / ١٥١١ م) ، فقد ترك تراثاً مكتوباً يدل على براعة كبيرة وخبرة واسعة بالبحر وعلوم الإبحار فيه ، وبلغ عدد مؤلفاته في هذا الباب خمسة مصنعات ، أولها كتاب (العُنْدَةُ للمَهْرِيَّة هي ضبط العلوم

البحرية) ، وهو مكون من مقدمة وسبعة أبواب^(١) ، وصياغة عنوانه تعكس مدى اعتزازه بنفسه وافتخاره بلصله ، فقد جعلها عمدة (للمَهْرِيَّة) لأنه هو (مَهْرِي) أصلاً ، وقد قال في مقدمة هذا الكتاب : " علم البحر قليل تأليف كتبه المحققة ، بل في وريقات ملفقة ولأرجيز مفرقة ... " ^(٢) ، وهذه العبارة تدل على ما يشبه الشكوى من قلة ما كتبه اليمنيون من أقرانه في هذا الباب - علم البحر - كما تدل أيضاً أن هناك من كتب " وريقات ملفقة ولأرجيز مفرقة " ، ولكنه للأسف لم يصلنا شيء منها .

وأما الكتاب الثاني من مصنفات البحار سليمان بن أحمد المهري فهو كتاب (المنهاج للفاخر في علم البحر الزاخر) ، ويشتمل على مقدمة ، سبعة أبواب وخاتمة وفائدة^(٣) ، وقد عتّل فيه جميع قياسات العرض في طرق المحيط الهندي التي ذكرها في كتابه (العمدة للمَهْرِيَّة) ، وذلك أنه من المحتمل أنه صنف (العمدة) في مرحلة مبكرة من عمره ، قبل أن تحتمر خبرته بالبحر ومعارفه ، كما أضاف المهري إلى (المنهاج) طرقاً جديدة لرحلات طويلة إلى شرق المحيط الهندي ، قام بها بعد تأليف (العمدة) ، ومسافات الطول بين ساحل الهند الغربي والسواحل المقابلة له من شرقي أفريقيا وجزيرة العرب ، وبين ساحل الهند الشرقي وساحل سiam المعروفة الآن بـ (بورما) و (تايلند) و (ماليزيا) ، ولوقات حلول الشمس والقمر في البروج والمنزل^(٤) .

والكتاب الثالث للمهري هو رسالة مختصرة في قواعد الملاحة وشروطها ، وقد جاءت في حوالي أربع وعشرين صفحة متوسطة مشتملة على سبعة أبواب وخاتمة^(٥) ، وجعلها تحت عنوان (تحفة الفحول في تمهيد الأصول) في أصول علم البحر ، وفي شرحها وتفصيل مجملاتها وضع كتابه الرابع (شرح تحفة الفحول في

(١) حسن صالح شهاب ، فن الملاحة عند العرب ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، ودور العودة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٢ م ، ص ٧٣ .

(٢) حسن صالح شهاب ، البحار اليمني سليمان بن أحمد المهري مرشد الملاحة العربية في المحيط الهندي ، مركز الشريعة للطباعة والنشر ، صنعاء ، ط ١ ، ٢٠٠٠ م ، ص ١٠ ، ١١ .

(٣) حسن صالح شهاب ، فن الملاحة عند العرب ، ص ٧٣ .

(٤) حسن صالح شهاب ، البحار اليمني سليمان بن أحمد المهري ، ص ١١ ، ١٢ .

(٥) حسن صالح شهاب ، فن الملاحة عند العرب ، ص ٧٣ .

تمهيد الأصول^(١) ، قال في مقدمته : " أما بعد : فهذه حواشي علقته على كتابي المسمى بنحفة الفحول في تمهيد الأصول في أصول علم البحر ؛ لينتفع بها من له اشتغال بالكتاب المذكور ، وللعذر كل العذر من وجهين ، الأول : لفتته مع تشويش خاطر ، والثاني : لم أسبق لمثله فتكون ملاتي من ذلك الممايق ، بل استخرجته من علوم شتى ، وجمعت له نفسي ولسان الإخوان ... " (٢) .

ولما المصنف الخامس لسليمان بن أحمد المهري فهو رسالة قصيرة موسومة بـ (قلادة الشمس في استخراج قواعد الأسوس) شرح فيها طريقة استخراج التواريخ بمختلف السنين المشهورة ، جعل الفصل الأول في أس السنة القمرية ، والفصل الثاني في أس السنة الشمسية ، وهي سنة البروج الرومية والقبطية ، والثالث في معرفة السنة الشمسية ، والرابع في معرفة السنة الرومية ، والخامس في معرفة السنة القبطية ، والسادس في معرفة السنة الفارسية^(٣) .

يقول حسن شهاب^(٤) : " وفي هذه الكتب ابتغ المهري المنهج العلمي في معالجة قواعد الملاحة البحرية وشروطها ، وقد ترجم سيد شلبي - إلى التركية - أغلب محتويات مؤلفات المهري في كتابه المعروف بـ (المحيط) ، وتناول فيه بالتركية قواعد الملاحة في المحيط الهندي سنة (٩٦٠ هـ / ١٥٥٢ م) بعد وفاة سليمان المهري ... " (٥) ، كما أنه أشار إلى أن الدكتور إبراهيم خوري قد قام بتحقيق كل كتب سليمان المهري الخمسة ، وأن مجمع اللغة العربية بدمشق قد طبعها^(٦) .

(١) حسن صالح شهاب ، البحار اليمنية سليمان بن أحمد المهري ، ص ١٢ .

(٢) سليمان المهري ، شرح نحفة الفحول في تمهيد الأصول ، المقدمة ، فلاح حسن صالح شهاب ، فن الملاحة عند العرب ، ص ٧٤ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة ، حسن صالح شهاب ، البحار اليمنية سليمان بن أحمد المهري ، ص ١٢ .

(٤) مؤرخ يمني معاصر كرس كل جهوده العلمية لدراسة التاريخ اليمن والعرب البحر ، وهو أول من عرف قباشرين المعاصرين بالبحارة للملاح سليمان بن أحمد المهري وتبع مصنفاته بالدراسة والتحليل

(٥) حسن صالح شهاب ، البحار اليمنية سليمان بن أحمد المهري ، ص ١٢ ، ١٣ .

(٦) حسن صالح شهاب ، فن الملاحة عند العرب ، ص ٧٤ .

(٣) الطب :

اهتم الإنسان بمسألة شعوره بالألم منذ وجد على الأرض ، وبذل جهداً كبيراً في استكشاف طرق تجنبه والتقليل منه ، وتراكت خبراته على مدار القرون والأحقاب ، ولما جاء الإسلام كانت البشرية قد فرزت الخبرة والمهارة التي تتعامل مع الصحة والمرض والألم والتداوي لتجعلها علماً إنسانياً عاماً قائماً بذاته .

ولم يكن الإسلام إلا دافعاً للعلوم مذكياً العقول لاقتحامها ، فراه - فيما يخص الطب - بأمر بالوقاية وعدم تعريض الإنسان نفسه لما يتسبب في إتلاف صحته وجسده، فيقول تعالى : **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا** ... ﴿١﴾ وهذا النبي ﷺ يقول : " ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فتلت لطعامه وتلت لشربه وتلت لنفسه " (٢) ، وكان المسلمون منذ عهد النبوة وصدر الإسلام يهتمون بالتداوي ، سواء من الأمراض أو للجراح الناجمة عن الاشتراك في الغزوات والفتوحات ، واضطرد اهتمام الأمة بهذا العلم حتى برزت فيه منها طائفة ، تعلمته درساً وتصنيفاً وممارسة ، ومؤلفاتهم ومكتشفاتهم في علم الطب والتشريح معروفة .

ولول من علمناه من علماء اليمن الذين كانت لهم بالطب عناية الإمام أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٥ م) ، وكانت مشاركته في الطب قرينة تدل على وجود من تعلم منه هذا العلم ، وإن لم يذكرهم التاريخ وتكون المصادر أخبارهم ، فللهمداني كتاب (القوي) في الطب بالإضافة إلى الإشارات الطبية التي ضمنها بعض كتبه الأخرى (٣) ، ثم توالى الأجيال اليمنية التي رصدت المصادر

(١) سورة الأعراف .

(٢) الترمذي ، سنن الترمذي ، ج ٤ ص ٥٩٠ ، رقم (٢٢٨٠) ، باب (ما جاء في كراهة كثرة الأكل) ، النسائي ، السنن الكبرى ، تحقيق د. عبد الغفار الهنداوي وآخر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩١م ، ج ٤ ص ١٧٧ ، رقم (٦٧٦٨) ، باب (ما جاء في كراهة كثرة الأكل) ، ابن قيم الجوزية ، الطب النبوي ، مراجعة وتطبيق عبد القني عبد الخالق ، دار الفكر ، بيروت ، (د ، ت) ، ص ١٢ .

(٣) الهمداني ، كتاب الجوهريتين المصنفين من الصفراء والبيضاء الذهب والفضة ، تحقيق محمد محمد الشمعي ، ط ١ ، ص ١١٠ ، ١١١ ، د. عبدالرحمن الشجاع ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

بعض أنشطتها وصور عنايتها بالطب دراسة وتطبيقاً ، في صنعاء وصعدة وجبلة وشبام والمهجم^(١) .

وفي العهد الرسولي بلغ علم الطب في اليمن ذروة ازدهاره ، وانتشرت الدراسات الطبية بشقيها النظري والعملي بما يؤكد تطورها ، وقد حوت مضامينها - إضافة إلى أمراض الأعضاء وأعراضها - فصولاً في طبائع الأدوية والحمية ، ومباحث فيما يصلح للبدن في حالة الصحة مما يقبها الأمراض ، ومعلومات قيمة حول أهمية الهواء والتنفس لسلامة البدن ، ومباحث عن الصحة النفسية^(٢) .

المفترض أن تقتزن حالة الازدهار القائمة لعلم الطب ودراساته بنشاط عمراني للمنشآت الصحية ، إلا أن المصادر المتوافرة لم تسعفنا بأي إشارة إلى وجود واحدة منها ، ومجمل ما ورد في ذلك أن السلاطين استعانوا بأطباء لختصوا بهم في قصورهم، كما استعانوا بأطباء من خارج اليمن فاستفادوا بهم في التطبيب وفي تدريس العلوم الطبية^(٣) .

وقد كان أثر وجود الأطباء المهرة في البلاط الرسولي واضحاً في حياة بعض السلاطين الرسوليين الذين تلقوا الطب على أيديهم حتى أصبحوا في قمة الكفاءة ، فأثمرت كفاءتهم في ظهور مصنفات تعد من مفخر الإسهام الإسلامي في الطب ، منهم السلطان المنظر يوسف بن عمر الرسولي (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م) الذي ألف كتابين في الطب هما : (البيان في كشف الطب للعيان) و (المعتمد في الأدوية

(١) التحفي ، طبقات مسلم الحنفي ، ج ٤ ص ١٦٣ من سمرة ، طبقات فقهاء اليمن ، ص ١٩٧ .
الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٣٤٢ ، الشرجي ، طبقات الخوارج ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، أبو الرجال ،
مطلع البدور ومجمع البحور ، ج ١ ص ١٦٩ ، ج ٢ ص ١٣٥ ، ١٣٧ ، ج ٣ ص ٨٤ ، يحيى بن
الحسين ، طبقات الزيدية الصغرى ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .

(٢) د. نوال التلاوي ، التعريف بكتاب تسهيل المنافع في الطب والحكمة لابن الأرق ، مجلة الإكليل ،
العدد الأول ، السنة الأولى ، يناير ١٩٨٠م ، ص ٦٨ - ٧٣ ، عبدالله قائد السباني ، الحياة العلمية في
زبيد ، ص ٣٨٢ .

(٣) الجندي ، السلوك ، ج ١ ص ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ج ٢ ص ٥٣ ، ١٢٦ ، ٥٦٩ ، الفرجي ، المسجد
المسيوك ، ص ٣٩٩ ، عبدالله قائد السباني ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

المفردة) ، وقد وقف خير الدين الزركلي على إحدى مخطوطات الكتاب الأول^(١) ، وأما الكتاب الثاني فهو مطبوع متداول ، وقد اعتمد في تصنيفه على عدد من الكتب الطبية الشهيرة ، ورتبه على حروف المعجم^(٢) ، وألحق به المفردات الطبية وتفسيرها مما لاصطلح عليه أهل اليمن^(٣) ، ولابنه السلطان الأشرف الأول عمر بن يوسف الرسولي (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م) ثلاثة كتب في علم الطب تشهد بتقوه على أبيه ومن جاء بعده من السلاطين للرسوليين في هذا العلم ، أولها عنوانه (الإسدال لما عظم في الحال)^(٤) والثاني (شفاء الليل)^(٥) أما الثالث فهو (للجامع في الطب)^(٦) ، بالإضافة إلى كتاب رابع في البيطرة عنوانه (المغني)^(٧) .

كان للسلاطين الرسوليين مشاركات في الطب لكنها كانت دون مشاركات من مر ذكرهم ، منهم السلطان المجاهد علي بن داود الرسولي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) والسلطان الرسولي الأفضل العباس بن علي (ت ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م) ، وكذلك أسهم معهم في تطويره وازدهاره عدد كبير من علماء اليمن وأبنائها

وقد أورد الإمام الخزرجي - عرضاً - اسم مدرسة الطب في زبيد ، وجاء ذكرها استطراداً في ترجمة الطبيب عمر بن محمد الجبلي (ت ٧٥٨هـ / ١٣٦٠م) ، يقول الخزرجي^(٨) : " كان - أي الطبيب الجبلي - من أعظم أهل عصره بالطب في

(١) الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٨ ، ١٩٨٩م ، ج ٨ ص ٢٤٤ ، الحيشي ، حكام اليمن المؤلفون المجتهدون ، ص ١١٤ .

(٢) المطهر الرسولي ، المعتمد في الألفية المفردة ، تحقيق مصطفى السقا ، دار القلم ، بيروت ، (د ، ت) ، ص ١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٥٨ - ٥٨٩ .

(٤) مله نسخة مصورة بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، بجامعه أم القرى ، ميكروهم وضم ١٦٧ طب ، وأصله في مكتبة الأحقاف بحصرموت ، ضمن مجموعة للكتاب ، تحت رقم ١٢٨ / ١٠ ، ترويم ، علي بن علي أحمد ، الحياة العلمية في تعز ، ص ٤٧٩ .

(٥) الخزرجي ، العقود النولوية ، ج ١ ص ٢٣٤ .

(٦) الألوخ ، المدارس الإسلامية ، ص ١٨٩ .

(٧) الأعلام ، ج ٥ ص ٦٩ ، الحيشي ، حكام اليمن المؤلفون المجتهدون ، ص ١١٩ .

(٨) العقود النولوية ، ج ٢ ص ٩١ ، المسجد المسيوك ، ص ٣٩٩ .

مدرسة زبيد ، ، وانتفع به كثير من الناس ، وله أوصاف في الطب يعرفها كثير من أهل زبيد ، ، فهل كانت مدرسة للطب وحده ، أما أنها إحدى المدارس العلمية التي انتشرت في المدينة وغيرها عصرئذ ، وقد نسب أحد المؤرخين المعاصرين هذه المدرسة إلى هذا الطبيب ، وعرا إليه فضل إنشائها^(١) ، ورجَّح بعض الباحثين^(٢) أن هذه المدرسة لم تعدو أن سوى دار الطبيب عمر بن محمد الجبلي اتخذها مدرسة لتعليم مهنته ولتطبيب المرضى أيضاً ، وأياً ما كان فمن المؤكد أن هذه المدرسة وطبيبها كان لهما نور كبير في تعليم هذه المهنة وممارستها - على الأقل في مدينة زبيد نفسها - حتى القرن التاسع الهجري نفسه .

وقد كثر المشتغلون بالطب في القرنين التاسع والعاشر الهجريين بين علماء اليمن ، منهم من كان اشتغاله به درماً وتديساً ، ومنهم من كان اشتغاله به ممارسة وتطبيقاً ، ومن أبرز الأطباء وقتئذ الإمام العلامة جمال الدين محمد بن أبي القاسم الضراسي (ت ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م) الذين كان موصوفاً بأنه من الأئمة المحققين لكثير من العلوم ، وله معرفة تامة بالطب والتشريح ، وسلمت له الرئاسة فيه حتى أصبح في عصره لا يجاريه أحد ولا يماريه ، وقصده طلبة العلم من أنحاء اليمن ، وانتفعوا به كثيراً في علم الطب وغيره ، واستمرت حلقة التي درس فيها منعقدة لمدة ستين سنة كاملة في مدينة تعز^(٣) .

ومن قبله كان الفقيه العلامة الإمام جمال الدين محمد بن عبدالرحمن بن عمر الحبشي (ت ٨٠٢هـ / ١٣٩٩م) ذا معرفة قوية في الفرائد السبع والتفسير والحديث والفقه واللغة والأدب و (الحكمة)^(٤) ، والحكمة هي أحد مرادفات علم الطب قديماً ، إذ أن الطبيب كان يدعى (حكيماً) طيلة قرون ، بل حتى مطلع القرن العشرين .

(١) الحضرمي ، جامعة الأشاعر ، ص ٧٥ .

(٢) عبدالله قلند المبادي ، الحياة العلمية في زبيد ، ص ١٩٩ .

(٣) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٨ .

ومنهم أيضاً الفقيه المقرئ مهدي بن علي بن مهدي الصنبري (ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م) الذي برع في للقراءات واشتهر بانشغاله بالطب ، وله فيه كتاب سماه (الرحمة في الطب والحكمة) ^(١) ، وهو مختصر نافع ، يعد من الكتب التي أقبل طلبه الطب على دراستها ^(٢) .

وكان الأمير العلامة الطبيب صارم الدين دلود بن علي بن أبي بكر بن قايماز الأصغري البغداني (ت ٨٣٥هـ / ١٤٣١م) معروفاً بقراءته في الطب والحكمة على جماعة من الواقفين ، لأجلهم العلامة رضي الدين أبو بكر بن رباح المصري ، فكان لذلك حكيماً طبيباً ، كما كان عارفاً بعلم الفلك مع مشاركته في علوم للشريعة كالحديث والفقه ^(٣) ، وهو شيخ الإمام جمال الدين محمد الضرسي في الطب وإن تأخرت وفاته عليه ^(٤) .

وفي السنة التي توفي فيها الأمير ابن قايماز (٨٣٥هـ / ١٤٣١م) توفي أيضاً الطبيب العلامة محمد بن أبي الغيث بن علي القرشي الكمراني ، وقد كان له اشتغال في أول حياته بعلمي النحو والفقه حتى برع فيهما ، ثم اعتنى بقراءة للطب وعكف على كتبه ، حتى غدا طبيباً مشهوراً ، وألف فيه كتاب (شفاء الأسقام) ^(٥) .

ومنهم كذلك المقرئ الفقيه وحيد الدين عبدالرحمن بن أحمد بن محمد بن سالم (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٦م) الذي ورد ذكره في أكثر من موضع في هذا الفصل والفصل السابق لكثرة مشاركته وعنايته بالعلوم ، فقد ورد في عناوين مصنفاته كتاب (الشفاء

(١) منه نسخة خطية بمكتبة الجامع الكبير الشرفية تحت رقم (٢٢٥١ طب) ، وهو مطبوع بهمش (التذكرة في الطب) للقلوبي بمصر سنة ١٣٠٠هـ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ، الرقعي، فهرس مخطوطات الجامع الكبير بصنعاء ، ج ٤ ص ١٩٢٩ .

(٢) الأمدل ، تحفة الزمن في تاريخ سلالات اليمن ، ج ٢ ص ٢١٣ ، ابن حجرري ، غابة النهاية ، ج ٢ ص ٣١٥ ، ٣١٦ ، عبدالله قائد الحادي ، الحياة العلمية في زبيد ، ص ٣٨٤ .

(٣) البرهبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢١٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

(٥) السخاوي ، الضوء القلبي ، ج ٨ ص ٢٨٧ ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٨٢ .

التام من الآلام والأسقام والأسماء العظام^(١) قلل محتواه - استقتاجاً من عنوانه -
كان يتضمن شيئاً من الطب .

ومنهم أيضاً الإمام العلامة القاضي جمال الدين محمد بن سعيد بن علي كِبْن
(ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) ، فقد روى البريهي^(٢) في ترجمته أنه كان مشاركاً في علم
الطب ، وكذلك ورد أن للمفري شمس الدين علي بن أبي بكر السحولي (ت ٨٥٢هـ /
١٤٤٨م) كانت له اليد الطولى في كثير من علوم الشريعة واللغة العربية وآدابها ، وأنه
كان أيضاً يشارك في المنطق والحكمة^(٣) .

ومن المشتغلين بالطب في مدة الدراسة أيضاً ، فقد كان الإمام العلامة
إسماعيل بن إبراهيم بن بكر (ت ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م) فقد ذكرت بعض مصادر
ترجمته أن له مشاركة في الطب^(٤) .

وقد ذكر المؤرخ ابن النديم أن الأمير الطاهري يوسف بن عامر كان في سنة
(٨٧٨هـ / ١٤٧٣م) قد استقر في زبيد والياً عليها من قبل عمه الملك المجاهد
الطاهري ، وكان له رغبة في العلوم مع اشتغاله بالسياسة ؛ لذلك أقبل تحصيل الكتب
وقراءتها ، وقد أولى عناية خاصة بكتب اللغة والطب ، ولم يحصل شيئاً من كتب
الحديث والتفسير^(٥) .

ومن أشهر الأطباء في أواخر القرن التاسع الهجري في اليمن الطبيب إبراهيم
بن عبدالرحمن بن أبي بكر الأزرق (٨٩٠هـ / ١٤٨٥م) ، وله كتاب بعنوان (تسهيل
المنافع في الطب والحكمة المشتغل على شفاء الأجسام وكتاب الرحمة)^(٦) وقد اعتمد

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٣١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٢ .

(٤) بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٤٩ ، ابن النديم ، بغية المستفيد ، ص ١٧٣ .

(٥) ابن النديم ، فرة العيون ، ص ٤١٩ .

(٦) طبع الكتاب وصدر عدة مرات ، آخرها في بيروت سنة ١٩٧٨م ، وبهامشه كتاب (الطب النبوي) لأبي
عبدالله عبدالرحمن محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، فطر عبدالله قائد العبادي ، الحياة العلمية في زبيد
، ص ٣٨٥ ، ومنه نسخة خطية في مكتبة جامع تريم للمخطوطات بحضرموت ، الحبشي ، مصادر التفكير
الإسلامي في اليمن ، ص ٥٨٢ .

في تصنيفه - كما يتضح من خلال العنوان - على كتابي الصنبري والكمزني ، مادة وتبويباً ، كما قسمه إلى خمسة أقسام ، الأول : منها في أشياء من علم الطبيعة والأمر بالتدوي ، والثاني : في طبائع الأغذية والأدوية ومنافعها ، والثالث : فيما يصلح للبدن في حال الصحة ، والرابع : في علاج العلل الحاصلة بكل عضو من أعضاء الجسم ، والخامس : في الأمراض العامة ، وتفرعت من كل قسم أبواب وفصول^(١) .

ولم يمنع اشتغال الإمام الحافظ والمحدث الكبير أبي زكريا يحيى بن بكر العلزمي (ت ٨٩٣ هـ / ١٤٨٨ م) بالحديث والاشتهار بالإجادة للعائقة فيه من يكون له عناية بالطب واهتمام به ، فقد ترك فيه كتاباً سماه (التحفة الجامعة لمفردات الطب النافعة)^(٢) .

وكان الإمام حمزة بن عبدالله بن محمد بن علي بن أبي بكر الناصري (ت ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م) قد اعتنى بالطب فدرسه وألف فيه منظومة وسمّها بـ (جلب الزبون في منافع البون) وقال في مطلعها :

أَصْرَحْ بِمَنْعِ اللَّهِ فِي الْبَدْءِ لَوْلَا

مَنْعُ الْخَطِّ لِلَّهِ الَّذِي وَجَدَهُ عَلَا^(٣)

وأما الإمام الحضرمي صاحب القلم السيل والمصنفات الكثيرة العلامة جمال الدين محمد بن عمر بن مبارك بخرق الحضرمي (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م) ، الذي قال عنه العبدروس بأنه : " كان من العلماء الراسخين والأئمة المتبحرين ، اشتغل بالعلوم ، وتفنن بالمنطوق منها والمفهوم ، وتمهر في المنثور والمنظوم ، وكانت له اليد الطولى في جميع الفنون ... ما رأيت أحداً من علماء حضرموت أحسن ولا أوجز

(١) د. موال الحلوي ، التعريف بكتاب تصهيل المنافع ، ص ٦٦ ، ٦٧ ، عبدالله قائد العسادي ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢) منه ثلاث نسخ مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير الغربية ، الأولى تحت رقم (٦١ مجاميع) ، والثانية تحت رقم (٩٥ مجاميع) ، والثالثة تحت رقم (١٢١٦) ، كما أن منه نسخة رابعة في مكتبة برلين تحت رقم (٦٣٢٥) ، ونسخة خامسة في مكتبة الفاتيكان تحت رقم (١١٥٧) ، انظر الحبشي ، مصطلح الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٨٧ .

(٣) الحبشي ، المرجع السابق ، ص ٥٨٣ ، ومن هذه المنظومة نسخة مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير للشرقية تحت رقم (١٢ مجاميع) .

عبارة منه ...^(١) فقد حوت قائمة مصنفاته (منظومة في الطب) و (شرح عليها) ،
ولعله من المحتمل أن هذين العاملين لم يصدرا عن قراءة وإطلاع فقط ، أي لعله مارس
الطب وجمع ما تراكم من خبرته المعرفية والعملية فيه فيهما .

(١) السندروس ، فنون المفاقر ، ص ١٣٦ .

(٤) المنطق والفلسفة :

للمنطق - كما عرفه ابن خلدون^(١) - هو : " قوانين يعرف بها الصحيح من الفساد في الحدود المعرّفة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات " ، وقد قرن تعلمه وذكره بالفلسفة ، وقد نتج عن معرفة طائفة من المسلمين في القرون المتقدمة للمنطق والفلسفة ودراساتهم المعمقة لها بروز علم الكلام^(٢) ، وكان اليمينيون في الموقف من المنطق والفلسفة قسمين ، القسم الأول اعتنى بها وجعلها من العلوم التي تنمي ملكة النظر العقلي في إثبات وجود الصانع جل وعلا ، وهو بالدرجة الأساسية أصحاب مدرسة الاعتزال في الأصول ، وهو في اليمين الزيدية بلا نزاع ولا مرأى ، وبالتالي تجد في علمائها من درس المنطق وألف فيه الكتب ، أو اكتفى بدراسته وتدريسه ، ولعل ذلك من مكارم الرجال عندهم ، ومجاهد العلماء والأعلام من أمتهم .

ولما القسم الثاني فقد كان قبول الاشتغال بهذا العلم عندهم - في البداية - من القوادح في العقيدة ، بل أن الاشتغال به يعني المروق عن الحداثة ومخالفة الشائع الراسخ بالتقادم ، حتى إنك لتجد انعداماً تاماً للإشارات إلى المنطق والفلسفة والمشتغلين بها في المصادر القديمة - نسبياً - حتى مطلع القرن الثامن الهجري ، وهو ما قد يلقي للروع عند الاطلاع بأن هذه العلوم لم يوجد من يشتغل بها ويعتني بها ، وذلك غير صحيح بتاتاً ، فقد صرح أحد أشهر المؤرخين اليمينيين - الإمام المؤرخ الجندي - بأنه قد تمثل حالة من التجاهل التام المقصود نحو المشتغلين بالمنطق والفلسفة ، وسماهم بالمشتغلين بمذهب للحكام ، وقال عنهم : " وظهر فيهم بأس تعانوا بالطب ومذهب الحكماء ، فانسبوا إلى الخروج من المذهب ، لذلك فمن تحققته نسب إلى ذلك لم أنكره ... " ^(٣) ، وهي إشارة تقي بررع الإحساس بفداحة الأمر .

ولعل الدافع إلى ذلك يكمن في معرفتنا بأن أغلبهم كان يعتقد بعقيدة الحنابلة ، وهي العقيدة المعروفة بحدّة مواقفها لتجاه المخالف ، وشدة أصحابها في النظر إلى المعاند ، مع قناعتها بصواب مضمونها لا بمواقف حاملها ، إضافة إلى ما كانوا يروونه

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ١٠٢١ .

(٢) د. رشاد بن عباس معنوق ، الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي ، معهد البحوث وحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٩٩٧م ، ص ٣٨٤ .

(٣) الجندي ، السلوك ، ج ٢ ص ٣٧٥ .

من إخوانهم في المناطق الزيدية من الشطوط في الأخذ بالمنطق ، ولعلمهم كانوا يعززون الاختلاف في العقيدة بينهم وبين الزيدية إلى أنه أحد إقرارات الاشتغال بهما .

خير أن هذه المواقف قد بدأت تلين مع الأيام ، وظهر في مناطق العقيدة الحنبلية نفسها من يشتغل بالمنطق والفلسفة ، وكتب (طبقات صلحاء اليمن) الذي ألفه أحد كبار علماء القرن التاسع الهجري ، وكان أحسن شاهد على عصره ، كونه كان أحد المماهين في الحياة العلمية والحاضين في معتركها ، هذا الكتاب وجدت فيه عدد من الشواهد في تراجع بعض الأعلام بما يفيد عنايتهم بالمنطق واشتغالهم به .

وفي المقابل لا يمكن التسليم بأن الإجماع بين العلماء في المناطق الزيدية قد كان تاماً حول سلامة لنتائج الاشتغال بالعلوم المنطقية والفلسفية والعناية بها ، خاصة في أصول الدين وإثبات صحيح العقيدة وريعتها ، فقد وجدت بعض النماذج التي عارضت هذا النهج ، وأبرزها الإمام الشهير محمد بن إبراهيم الوزير (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) ، فقد ألف في الاستنكار على ذلك كتابه الشهير (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) .

ومن أهم الشخصيات اليمنية التي أولت المنطق عنايتها في مدة الدراسة بالقرنين التاسع والعاشر الهجريين - كما تذكر المصادر - العلامة أبو بكر بن عثمان بن أبي بكر الناشري (ت في بداية القرن التاسع الهجري) ، الذي تعددت الفنون التي شارك فيها ، وكان علم المنطق أحدها^(١) .

ويأتي الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) في مقدمة علماء اليمن عموماً في العلوم العقلية ، ومنها المنطق ، فقد اشتغل به واعتنى به عناية فائقة^(٢) ، ومن يلقي نظرة على قائمة مؤلفاته التي الكثيرة فإنه سيجد أنه كان ذا باع طويل في أصول الدين على طريقة المعتزلة والتي يعد المنطق والفلسفة من أكبر أنواتها ، وبحكم أنه كان قريباً وتربياً للإمام محمد بن إبراهيم الوزير (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) فلعل كتاب الأخير لم يولف إلا في الرد على الإمام المهدي ومن سار على

(١) الأهل ، تحفة الزمن في تلخيص سلاسل اليمن ، ج ٢ ص ٧٤ .

(٢) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية للكبرى ، ج ١ ص ٢٢٨ .

مؤلفه ، ولإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى في علم المنطق أثر نفيس ، هو كتابه (القسطاس المستقيم في الحد والبرهان القويم)^(١) .

وقد وفد إلى صنعاء من خراسان سنة (٨٤٩هـ / ١٤٤٥م) الشيخ العارف الرحال تاج الإسلام بن صدر الدين بن فخر الملة القرشي الخراساني ، وكان من أكابر العلماء العارفين ، وأكثر معرفته في علم المنطق ، وقد توفي بصنعاء في تاريخ مقارب لوفوده عليها^(٢) ، وبالتأكيد أن وفود المبرزين في علوم معينة على اليمن يؤدي إلى إثرائها فيها ، وترسيخ العناية بها بين أهلها ، ولنا في وفادة إمام المقرئ محمد الجزري خير مثال على آثار الوافدين ، ولو لم يكن لهذا الوافد الهندي من دور في تدريس المنطق ما عرف أنه كان ماهراً فيه ، ولما قال عنه المصدر بأن " أكثر معرفته في المنطق ... " ^(٣) .

ومن علماء المنطق في القرن التاسع الهجري المقرئ للعالم شمس الدين علي بن أبي بكر السحولي (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) ، فقد كان من المشاركين إليهم في الاشتغال بعلم المنطق ، بالإضافة إلى معرفته الواسعة بعلوم النحو واللغة والعروض وأمثال العرب والقوافي والفقه والطب^(٤) .

وفيهم يعد العلامة شرف الدين أبو القاسم بن علي المعروف بابن زبيدة (ت ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م) ، فقد كانت له قراة في فنون عديدة كالآداب والنحو والبيان والمعاني وحقق المنطق واعتنى به^(٥) ، ومثله العلامة المطهر بن كثير المشهور بـ " الجمل " (ت ٨٦٣هـ / ١٤٥٨م) ، فقد ورد في ترجمته بأنه " قرأ في المنطق تحقيقاً شافياً ... " ^(٦) .

(١) منه نسخة مخطوطة ضمن مجموع تحت رقم (٢٨١) بمكتبة آل الهاشمي ، انظر التوجيه ، اعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٢١٢ .

(٢) البرهبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٥ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٤) المصدر السابق ، ص ١١٢ - ١١٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣١٣ .

(٦) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ١١٢٧ .

ومنهم أيضاً العلامة عبدالله بن محمد بن أبي القاسم بن علي بن ثامر العكي النجري (ت ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م) ، فقد رحل إلى مصر في سنة (٨٤٨هـ / ١٤٤٤م) ، وهناك تعلم على أيدي نخبة من أفاضل العلماء المصريين المبرزين في علوم شتى ، منها المعاني والبيان والمنطق ، وكان يطالع فيها كثيراً ، ومهما أشكل عليه منها شئ رجع فيها شيوخه ، وبرع وصنف^(١) ، كما صنعه في علم للمنطق كتاب سماه (هداية المبتدي وبداية المهتدي)^(٢) .

ومنهم أيضاً العلامة أحمد بن محمد بن داود الخالدي (ت ٨٨٠هـ / ١٤٧٥م) الذي نسبت إليه بعض المصادر كتاب (الجواهر الشفاف والنكت اللطاف) في علم المنطق^(٣) .

وكان الفقيه شمس الدين علي بن سعيد الزيندي الجيزي (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م) إماماً فاضلاً عالماً بكثير من العلوم كالفقه والحديث والعربية والحساب والمنطق ، وأنه لتحصيل هذه العلوم قد رحل إلى مصر والشام ومكة المكرمة والمدينة المنورة^(٤) .

ومنهم كذلك العلامة المرتضى بن قاسم بن إبراهيم بن محمد القطري (ت ٩٣١هـ / ١٥٢٤م) ، فقد كان له اهتمام بالمنطق وعلم للمعاني والبيان في العربية، حتى وصفه أحد تلاميذه بقوله : " كان السيد المرتضى بن قاسم إماماً عظيماً ،

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٦٢٨ .

(٢) منه نسخة مخطوطة في مكتبة الجامع الكبير العربية تحت رقم (٢٥٢ مجاميع) ، ومنه نسخة أخرى في مكتبة المرتضى الوزير بهجرة بيت السيد بيبي حشيش - صنعاء ، وسعة نائلة في المتحف البريدي تحت رقم (٣٩٠٨) ، ونسخة مخطوطة رابعة في مكتبة الحيكان بالرباط تحت رقم (٤٩) ، كما من منه نسخة حاسية في الأميروزيان تحت رقم D357 ، انظر الحشيش ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٨٦ ، لوجه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٦١٨ .

(٣) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ١٦٦ ، لوجه ، المرجع السابق ، ص ١٦٦ ، الحشيش ، المرجع السابق ، ص ٥٨٦ .

(٤) البرهسي ، طبقات صنعاء اليمن ، ص ٢٤٩ .

منطقياً متقناً ، متقناً محققاً ، علماً في المنطق والمعاني والبيان وسائر علوم العربية ... (١) .

ونختم الحديث عن العلماء اليمنيين الذين اهتموا بالمنطق والفلسفة بالإمام العلامة فخر الدين عبدالله بن القاسم بن الهادي بن إبراهيم العلوي (ت ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م) ، الذي مدحه أحد تلاميذه فقال واصفاً مشاركته في العلوم المتعدد بما فيها المنطق : * وأما علمه فلم أرَ أعلم منه ، ولا ترى مثله في الأصوليين والباحثين والتصنيف والمعاني والبيان ، وأما اللغة والحديث والفقه واستحضار مسائله فهو - وإمامنا - لوحد من رأيت من أصحابنا الزيدية ، وهو في علم التاريخ وعلم الأرائل وعلم المنطق - وإن لم يكن له فيه سماعات - آية باهرة ... (٢) .

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ١١١٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٢٨ .

(٥) العلوم الرياضية :

غالباً ما تأتي الحاجة إلى الشيء في مقدمة نوافع الإنسان إلى العناية به لو إهماله ، والحديث عن (الحاجة إلى الشيء) هنا يشمل الأطر الفكرية والثقافية كما يشمل المجالات الحياتية المحسوسة في صورتها البسيطة والمعقدة ، ومن هذا المنطلق يمكننا القول : إن ارتباط العلوم الرياضية بحياة الناس اليومية - للعلمة والتعبدية - وعدم استغنائهم عنها هو الدافع الأساس لاهتمامهم بها ، فالرياضيات لازمة لكل فرد في المجتمع مهما كانت ثقافته أو عمره ، وتلحظ أهميتها السببية من مجتمع إلى آخر تبعاً لتقدمه وتعقد حياته ، فتصرف أمور الناس وتنظيم أمور معاشهم في مجتمع متحضر ، وحل ما يقع بينهم من تعاملات يدخل فيها القياس والترتيب وبيان الكميات والمقادير والأزمان والمسافات والأحجام والأوزان والأموال وغيرها يستلزم معرفة قدر من الرياضيات يفوق بكثير ما يحتاجه مجتمع بدوي أو قروي بسيط لا تتعدى تعاملات أفراد أشكال المعايضة وما في حكمها .

ولأن المسلمين قد أقاموا حضارة الإسلام وسعوا إلى تطوير العلوم اللازمة لمسيرة تلك التقدم والحداثة له فقد كانت الرياضيات في قائمة اهتمامهم ومركز عنايتهم، ومن ضمن دوافع المسلمين الإضافية إلى الاهتمام بدراسة الرياضيات أن أدء عدد من العبادات وإقامتها لأوقاتها لا يتم إلا بمعرفة بعض الجوانب الرياضية وفهمها ، مثل تحديد مواقيت الصلوات وبدايات الأشهر القمرية - كرمضان ودي الحجة وغيرها - إضافة إلى تحديد اتجاه القبلة ومقادير الزكاة والصدقات وقسمة الموارث والعنائم .

كما أن الرياضيات كانت تمثل هي أمّاً وأُسّاً لكثير من العلوم العقلية والتطبيقية الأخرى ، فيها تستقيم علوم الفلك والطب والكيمياء والجغرافيا وغيرها ، وهذا علم الهندسة الذي يعد الأساس - على المستوى التطبيقي - للبناء والتشييد العمراني ما هو إلا فرع من فروع العلوم الرياضية ، والنهضة العمرانية التي عاشتها المجتمعات الإسلامية في مختلف القرون تعد مظهراً بارزاً لاستعاب كثير من أبنائها للعلوم الرياضية بما فيها الهندسة .

وقد كان لعدد من علماء اليمن عناية بالرياضيات في كل القرون الإسلامية من تاريخها ، انعكست هذه الاهتمامات في الإنشاءات الكبيرة التي أقامتها الدويلات اليمنية المتعبد ، إلا أن الإشارات التاريخية لبواكير الاهتمامات جاءت متأخرة نوعاً ما ، إذ

تعود في مجملها إلى العصر الأيوبي في القرن السادس الهجري^(١) ، ولعل مرد ذلك عائد إلى قلة المصنفات التاريخية لتراجم العلماء في القرون السابقة للقرن السادس الهجري .

يعد العصر الرسولي هو عصر ازدهار العلوم الرياضية في اليمن ، كالحساب والهندسة والجبر والمقابلة^(٢) ، فقد شهد عصرهم بروز عدد من الرياضيين اليمنيين الذين بلغوا من التميز درجة جعلتهم قبلة الطلاب ومتجههم للتلقي ، وكانت مؤلفاتهم هي المصادر المعتمدة لدى الراغبين في دراسة الرياضيات عصرئذ ، كما كانت العلوم الرياضية ضمن قائمة المقررات الدراسية التي يعكف طلبة العلم لتحصيلها^(٣) .

ومما يلفت للنظر أن المعلومات الواردة في مصادر الدراسة عن العلماء اليمنيين المبرزين في العلوم الرياضية قد جاءت مقرونة بمعرفتهم لعلم الفرائض ، ولأكاد أجزم أنني لم أجد ترجمة واحدة لعالم من ذوي المعرفة والمشاركة القوية في فروع الرياضيات إلا وهو معنود ضمن علماء الفرائض .

تذكر المصادر التاريخية أن من أشهر علماء اليمن في الرياضيات في العصر الرسولي - فيما قبل مدة دراستنا هذه - الفقيه محمد بن حسين الحضرمي (ت ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م) الذي كان يحقّد دروسه في الحساب والفرائض في مسجده الذي نسب إليه بزييد ، وعنه أخذ جماعة من العرضيين^(٤) ، وكذلك العلامة أحمد بن عمر بن هشام المزيجي (ت ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م) الذي اشتهر بمعرفته للهندسة والحساب ، وصنف عدداً من أهم مصادر هذا العلم لدى اليمنيين - طلاباً ومعلمين - لدقته فيها وبسررها

(١) ابن مسرة ، طبقات فقهاء اليمن ، ص ١٠٧ .

(٢) الجبر والمقابلة ، وهما ما يتعرف من حلّهما على كوفية استخراج المجهولات العددية بمعادلاتها لمعلومات تحصيلها ، والجبر تحديداً هو : زيادة قدر ما نقص من الجملة المعادلة بالاستقضاء من الجملة الأخرى لتعادلا ، ويعرّف أيضاً بأنه علم بأصول يعرف بها استخراج كمية المجهول بمقدرات معلومة ، وفائدته ضرورة تلك المقادير المجهولة مطومة باستعمال قوانينها ، والمقابلة هي : إسقاط الرائد من إحدى الجمليتين لتعادلا ، الألبصري ، اللؤلؤ النظيم في روم التعلم والتعظيم ، تحقيق د. هشام مشايه ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٨ م ، ٢٠٩ ، ٢٣٧ ، ٣٨١ ، الخرجي ، أبعاد العلوم ، ص ٥٠٣ ، ٥٠٤ .

(٣) الجندي ، السلوك ، ج ٢ ص ١٢٤ ، ١٤٤ ، ٢٣٧ ، ٣٨١ ، الخرجي ، المسجد المصبوك ، ص ٣٢٨ ، ٤٢٦ ، ٤٦٣ .

(٤) الجندي ، السلوك ، ج ٢ ص ٣١ .

وكثرة فوائدها، وأشهرها: (شرح مختصر الخوارزمي في الجبر والمقابلة)^(١) و(جواهر الحساب) في عدة أجزاء ، و (مقدمة في علم الحساب)^(٢) ، وكذلك (المزحفية) المنسوبة إليه^(٣) .

ومنهم أيضاً الفقيه صلاح بن عمر البريهي (ت ٧١٤هـ / ١٣١٤م) الذي كان عالماً بالفرائض والحساب والجبر والمقابلة ، وتصدر لتدريس هذه العلوم فانتفع به كثير من طلبة العلم^(٤) ، ومنهم أيضاً العلامة أبو بكر بن عمر بن عثمان الناشري (ت ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م) الذي وصف بأنه أشهر أهل زمانه في الحساب والجبر والمقابلة ، وصنف فيها (شرح مختصر الخوارزمي في الجبر والمقابلة) كما نظم أرجوزة في علم الحساب^(٥) ، ومنهم كذلك العلامة أحمد بن موسى بن علي الجلاب الأشعري (ت ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م) الذي كان - ككل العلماء من أسرته - صليحاً في علوم الرياضيات بارعاً فيها ، بحيث وصفه الخرجي^(٦) بقوله : " كان فقيهاً فليلاً فرضياً ... بارعاً في الحساب والجبر والمقابلة ، وعليه استعاد كثير من الطلبة ، وقصده من الأماكن البعيدة ... " ، وصنف كتاب (المقدمة الذرية في استنباط الصناعة الجبرية)^(٧) .

(١) أئد الحبيشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٧٧ ، ٥٧٨ أن منه نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٦٠٧) .

(٢) الجندي ، السلولك ، ج ٢ ص ٣٨١ ، الخرجي ، العقد الفلخر الحسن ، ج ١ ق ١٧٩ .

(٣) منها نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغريبة تحت رقم (١٤٠٢) ، ونسخة أخرى في المكتبة نفسها ، تحت رقم (٣٨ مجاميع) ، نسخة ثالثة في مكتبة الأحفاد لمخطوطات بتريم - حصر موت ، تحت رقم (١٧ مجاميع) ، الحبيشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٧٧ .

(٤) الجندي ، السلولك ، ج ٢ ص ٢٣٧ ، الخرجي ، العقود اللؤلؤية ، ج ١ ، ص ٢٣٨ .

(٥) وطبوط ، تاريخ المظم وطبوط ، ق ٦٤ - أ .

(٦) الخرجي ، العقد الفلخر الحسن ، ج ١ ق ١٨٧ - أ .

(٧) المصدر السابق ، نص الصفحة ، عبد الرحمن الحمري ، جامعة الأنباغر ، مخطوط مسودة الطبعة الثانية ، ص ١٧٣ ، عبدالله قائد العبادي ، الحياة العلمية في زيب ، ص ٣٧٩ ، ومن الكتاب نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغريبة تحت رقم (٣٤٠ مجاميع - كتب حديثة) ، الحبيشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٧٧ .

وفي القرنين التاسع والعاشر الهجريين كانت علوم الرياضيات من العلوم التي حظيت بالاهتمام والعناية من قبل شريحة من علماء اليمن ، وفي مقدمة هؤلاء العلماء يأتي الإمام العلامة الفَرَضِي جمال الدين محمد بن عبدالله بن عمر بن سلم الخولاني (٨٠٥هـ / ١٤٠٢م) الذي تميز في علوم الفرائض والحساب فأجادها ، وعلت معرفته بها بأخذه إياها عن بعض الأعلام المبرزين ، وكانت شهرته كبيرة في هذه العلوم ، فدرسها للطلبة^(١) ، وألف شرحاً في الحساب أسماء (طوالع السعدي في شرح الهندي) وله فيها مصنفات قيمة أشهرها (طوالع السعدي في شرح الهندي)^(٢) ومصنف في (ضوابط الحساب) ، وكتاب (عجالة للمبتدي في شرح الهندي)^(٣) ، وله أيضاً (كفاية المهندي في شرح الهندي)^(٤) .

ومنهم أيضاً العلامة الفقيه أبو بكر بن عثمان بن أبي بكر الناشري (ت في بداية القرن التاسع الهجري) بارعاً في الفرائض والحساب والدور والجبر والمقابلة ، وله (شرح مختصر الخوارزمي) إذ شرحه شرحاً وافياً في أربع مجلدات ، وكانت له أيضاً يد في علم الفلك والمنطق وأصول الفقه وغيرها^(٥) .

ومن علماء الرياضيات في اليمن في مدة الدراسة أيضاً الإمام العلامة الفَرَضِي الشهير جمال الدين محمد بن أبي القاسم الضراسي (ت ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م) ، أحد أئمة العلوم في عصره ، كانت له معرفة تامة بعلوم الطب والفرائض والحساب والجبر والمقابلة والأقدار المتناسبة ، انتهت إليه رئاسة هذه العلوم فقصده الطلبة من كل ناحية باليمن لتلقيها عنه ، فانفقوا به كثيراً ، وقد عُمِرَ طويلاً ، يقول عنه المصدر : " وكل

(١) البرهني ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) لم أجد المصدر الذي اعتمد عليه الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٧٧ ، ٥٧٨ في إيجاد هذه المعلومات ، كما أنه لم يشر إلى من هو الهندي المقصود في العنوان ، وما هي كتبه الرياضية التي أشير إليها هنا في الفروع الثلاثة للعلامة الخولاني .

(٣) منه نسخة مخطوطة بمكتبة آل الحبشي الخاصة بحضرموت ، ونسخة أخرى في مكتبة علي بن يسر هم بمدينة صنعاء ، الحبشي ، المرجع السابق ، ص ٥٧٨ .

(٤) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الغربية تحت رقم (١٤١٧ فرائض) ، ونسخة أخرى في مكتبة علي بن إبراهيم الخاصة بصنعاء ، المرجع السابق ، نفس الصفحة

(٥) الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ، ص ٧٤ .

مدرس بعلم الفرائض والطب - والحساب والجبر والمقابلة - من درسته أو ترسة درسته ، وسلمت له الرئاسة ... وأنه فيهما لا يجرى ولا يملأ ، ومد الله له في عمره وبارك له فيه حتى ألحق الأحفاد بالأجداد ، وافتتح به الشيوخ والأولاد ، ودرس بهنئين الفنين زيادة على ستين سنة باذلاً نفسه للطلبة ، وحفظ الله عليه سمعه وبصره مع الطعن في السن والضعف من أجل حقيقته ...^(١) ، ولم تشر المصادر إلى كونه صنف فيها أم لا سوى عبارة " وله قواعد وضوابط قررهما للمستفيدين بعظم قدرهما ويجل نفعهما"^(٢) ، فيكفيه من الفخر أن أغلب المترجم لهم في كتب التاريخ والتراجم من علماء الفرائض والعلوم الرياضية في أغلب مناطق اليمن هم تلاميذته وتلاميذهم ، وورود اسمه ضمن مشايخ العالم يعد تركية له إجابة في تلك العلوم .

ومن المشاركين أيضاً في العلوم الرياضية الإمام العلامة أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد السجان (ت حوالي ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م) ، ذكر عنه البريهي^(٣) بأنه كان مشهوراً بعلمي الفرائض والجبر ، وقصد للتلفي فيهما ، وصنف شرحاً مفيداً بمخارج العدد الذي في آخر كتاب الهندي ، ومثله الفقيه جمال الدين محمد بن عبدالله بن عمر النافري (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) ، كان له عناية بالحساب والهندسة ، ولذا صنف كتابه (مختصر في الحساب ومساحة المثلث)^(٤) نقل عنه الإمام السخاوي^(٥) قوله :

إذا رُئِيَ تكبير المثلث يا فتى
فجمعك للأضلاع أصل لنا أتى
ونصف لمجموع الضلع فابنته
وخذ كل ضلع فأعرضه مفاوتاً
على النصف ثم الضرب للبعض ببعض
ونفذ ببعض ونصف فأعلمن متبناً

(١) البريهي ، طبقات شيوخ اليمن ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

(٤) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٨ ص ١٠٠ ، الحبيشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٧٨ .

(٥) السخاوي ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .

وصنف الإمام العلامة صفى الدين أحمد بن عبدالرحمن بن عمر الحنبلى (ت ٨٢٢هـ / ١٤١٩م) في الحساب كتاباً - عجباً مفيداً بحسب وصف المصدر^(١) - أسماء (الإرشاد في سبائيات الأعداد)^(٢) ، وقد أورد المؤرخ الأهدل^(٣) أن الفقيه أحمد بن إبراهيم الحضرمي الزبيدي (ت ٨٢٤هـ / ١٤٢١م) كان مجوداً في الفرائض والجبر والمقابلة ، وكان له فيها تلاميذ فيها اشتهروا بها في بلدانهم ، كما ذكر أيضاً أن بالمنهجم فقيه من أهلها يدعى أحمد المدرس (ت ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م) كان مشهوراً بالذكاء ، وأنه كان ذا بصيرة في الحساب وعلم الجبر والمقابلة^(٤) .

وكان الفقيه العلامة شهاب الدين أحمد بن أبى بكر النجدي (ت ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م) أحد أشهر علماء اليمن في القرن التاسع الهجري في الفرائض والحساب والجبر والمقابلة ، وكان قد تلقاها عن طريق علماء بني الحداد من أهل زبيد ، فبرز فيها حتى كان العمدة في ناحيته ، وتخرج على يديه عدد غير قليل من العلماء وأجاز لهم فيها^(٥) .

والعلامة النجدي تلميذ نجيب في هذا العلم هو العلامة صفى الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن أحمد بن محمد البريهي (ت ٨٣٣هـ / ١٤٣٠م) الذي وصف بكونه إماماً في الفرائض ، وأتقن الجبر من خلال أخذه لـ (شرح الجبر) للمزيحفي - الذي وضعه على كتاب الخسوارزمي - من غير شيخ ، وكان فطناً يسهل عليه حل المشكلات العويصة بدون تلعم ولا تردد^(٦) .

ومن أئمة الفرائض والعلوم الرياضية في مدينة زبيد الفقيه العلامة علي بن أحمد بن موسى الجلال الحنفي (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م) ، كان عارفاً بالفقه والنحو

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٠ .

(٢) قال عنه الحنبلى في حاشية الصفحة ذاتها أنه كتاب كبير في العدد ٧ ، منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير القريبية تحت رقم (١٤ - معارف عامة) ، المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(٣) تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ١٢٥ ، ١٣٣ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣٧ .

(٥) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

واللغة والقراءات والحديث والفرائض والجبر والمقابلة والحساب والهيئة ، وصف بأنه كان بارعاً في كل فن منها ، مفرط النكاه ، كامل الألب ، حافظاً لأشعر العرب^(١) .

وفي حَرَضَ بَلْقَصى شمال تهامة كان العلامة يوسف بن محمد بن يوسف عبدالله بن علي العامري (ت ٨٣١هـ / ١٤٢٨م) ذي معرفة عالية بالفرائض والجبر والمقابلة والمساحة ، رحل من بلدته لدراستها على أئمة العلم في مدينة أبيات حسين ، ثم ارتحل إلى زبيد فقرأ الجبر والمقابلة على الفقيه علي بن أحمد الجلال الأشعري عالم الفن في زمانه ، وقد برع العلامة يوسف في هذه العلوم حتى قصدته الطلبة من نواح شتى ، واستفاد به جماعة كثيرون من نواح شتى من اليمن^(٢) ، وقد اقتص به هذه العلوم دون غيرها حتى قال معاصره الإمام الأهدل^(٣) عنه : " ولم يكن له يدٌ في غير الفرائض والحساب " .

ومنهم أيضاً الفقيه محمد بن عبدالله الحراري (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م) ، الذي قرأ الجبر والمقابلة على علماء عصره المشهورين ، ثم تصدر لتدريسها ، فأفاد كثيراً من طلبة العلم في مدينة تعز وغيرها ، وأسهم في نشرها^(٤) ، وكان للفقيه عفيف الدين ناجي بن محمد الشرقي اليمامي (ت بعد ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م) معرفة جيدة في الفقه والنحو والحساب والمساحة والجبر^(٥) ، وكذلك الفقيه علي بن عمران الحميدي (ت ٨٥٦هـ / ١٤٥٢م) الذي كان بارعاً في الحساب والفرائض ، وصفه بعض المؤرخين فقال : " اجتهد في طلب العلوم حتى اكتشف له ما كان عن غيره مكتوم ... حتى صار إماماً محققاً ، فاق أهل زمانه ، وأربى على أقرانه ... " ^(٦) وله مصنف في الحساب أسماه (الانتخاب في حساب الفقه وفقه الحساب) ، أثنى فيه

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٠٠ .

(٢) الأهدل ، نقطة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٣٧ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٤) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٨ ص ١٢١ ، البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٢٨ .

(٥) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٣٨ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .

بما شفى وكفى ، حتى قيل : " هو جدير بأن تشد إليه الرحال ، ويجعله المحصلون معتمد في كل حال " (١) ، وله كذلك كتاب (تفتيح الأبواب في روضة الحساب) (٢) . وكان الفقيه شهاب الدين أحمد بن علي النرجي (٨٧٣هـ / ١٤٦٩م) قد درس مقررات الفرائض وأمهات مصادرها على عدد من رجالها ، وقد أجاد الفرائض والرياضيات إجابة كبيرة جداً ، وأتقن أصولها ، وحقق نقائنها ، حتى قيل عنه أنه " كان وحيد عصره ببلده في فن الفرائض والحساب والجبر وغير ذلك ، وأتقن المتناسحات والدوريات وإخراج المجهولات ومساحة الدوريات ، وغير ذلك مما يتعلق بهذا الفن ... " (٣) وكان مع ذلك - وبجوار تدرسه - مهتماً في أعمال الزراعة حتى توفي (٤) .

ومن علماء اليمن المشاركين في الرياضيات الفقيه محمد بن حسين الحلواني (ت ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م) الذي تتلمذ على شيخ الرياضيين في تعز العلامة محمد بن أبي القاسم الضراسي ، وأخذ عنه الفرائض والجبر والمقابلة ، وتتلّمذ على غيره أيضاً ، ثم تصدر للتدريس هذه العلوم وغيرها في بعض مدارس مدينة تعز ، فأعاد الكثير من طلبة العلم بمعارفه (٥) ، ويذكر منهم كذلك العلامة الحنفي أبو بكر بن البرهان الضجاعي (ت القرن التاسع للهجري) صاحب كتاب (بغية الطلاب في عصر ضوابط الحساب) (٦) .

ومنهم كذلك للفقيه الوزير والفرضي العلامة بدر الدين حسن بن عبدالرحمن الصباحي (ت ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م) ، كان بارعاً في الفرائض والحساب والجبر والمقابلة بتلقيه وتتلّمذه على يدي الإمام للمتقن لها الإمام جمال الدين محمد الضراسي ، فلما تولى

(١) البرهني ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٣٧ .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير العربية ، ولم يحدد الحبشي رقمها في فهرسها ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٧٨ .

(٣) البرهني ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٥١ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .

(٦) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ١١ ص ٢٨ ، ومنه نسخة مخطوطة بمكتبة عبدالعزيز في الوادي باليمن كما يقرر ذلك الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٧٨ .

السلطان الظاهري الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب (ت ٩٢٣هـ / ١٥١٧م) السلطنة
اتخذهُ وريثاً له^(١)؛ فاشغل بها عن الجهود الفكرية والتصنيف .

ومنهم أيضاً - في مدينة عدن - الإمام أبو الطيب عبدالله بن أحمد بن علي بن
أحمد بامخرمة (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م) كان موسوعياً في علمه ، مجيداً فيما له
مشاركة ويد فيها ، ترجم له ابنه المؤرخ الطيب بامخرمة فنكر أنه كتب شرحاً
لـ(منظومة ابن ياسمين) في الجبر والمقابلة^(٢) ، وله كذلك رسالة في الهندسة^(٣) ،
وكان ولده الفقيه شهاب الدين أحمد بن عبدالله بن أحمد بامخرمة (ت ٩١١هـ /
١٥٠٥م) كذلك من أفضل من أجاد الفرائض والحساب والجبر والمقابلة في عدن ،
وصار المرجع إليه فيها كلها ، أخذها عن والده ، وأغلب الفرضيين في عدن من
تلاميذه وتلاميذ أبيه^(٤) ، وقد شهد له أئمه بالإجادة ، بل قال : " هو أمهر مني ... " ^(٥)
، وبالمثل كذلك كان ابنه الآخر الفقيه عبدالله بن عبدالله بن أحمد بامخرمة
المشهور بالعمودي (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٨م) ، فقد كان له اشتغال بالحساب ، وهو
على إجابة له ومعرفة تامة به ، درسه على يد أخيه الفقيه أحمد^(٦) .

ويذكر منهم أيضاً الفقيه برهان الدين إبراهيم بن عمر البجلي (ت ٩٢١هـ /
١٥١٥م) أحد كبار علماء زبيد وأئمتها ، كان له مشاركة في علوم الرياضيات ،
لذلك فقد صنف فيها كتابان هما : (مفيد الحاسب)^(٧) وشرحه (كشف الأسرار
الغوامض عن مخبئات البرهان الرائنض)^(٨) .

(١) التريبي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٤٩ ، بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ٢ ص ٧٥٥ ، ابن طديم ،
بغية المستفيد ، ص ٧٠١ .

(٢) بامخرمة ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٧٨٢ ، ٧٨٣ .

(٣) العبدروس ، انوار المنظر ، ص ٣٢ .

(٤) بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٩١ ، ٧٩٢ ، العبدروس ، المصدر السابق ، ص ٥٧ .

(٥) العبدروس ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٦) بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ٣ ص ٧٨٥ .

(٧) مع نسخة مخطوطة بقلم المؤلف بمكتبة الجامع الكبير الغريبة تحت رقم (٩٠٩) وأخرى تحت رقم
(١٠٠٠) ، وسنحت بمكتبة الجامع الكبير الشرقية ، تحت رقم (١٤٠٢ و ١٤١٩) ، وسنحت

ومن العلماء المذكورين هنا أيضاً الإمام جمال الدين محمد بن عسر بن مبارك بخرق (٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) المشهور بسعة علمه وشمول معارفه ، كانت له في الرياضيات مشاركة تمخض عنها كتابه (تحفة الطلاب في شرح الباب في أصول الحساب)^(٢) ، وله كذلك أرجوزة في علم الحساب وشرح عليها^(٣) .

وورد في كتاب (أعلام المؤلفين الزيدية)^(٤) أن الإمام العلامة محمد بن يحيى بن أحمد بهزّان الصُّعدي (ت ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م) قد صنف كتاباً في سماه (الملاحاة في علم المساحة) غير أنه لم يشر - على غير عادته - إلى أماكن وجود نسخ من الكتاب .

ولجماًلاً فقد كان للعلوم الرياضية اهتمام كبير في الأوساط العلمية اليمنية في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، وما أروناه هنا يمثل انعكاساً لذلك الاهتمام ، وفي حضور للقناعة التامة بأن المصادر التاريخية لم تسجل كل جهود العلماء في كل فروع المعرفة ، بل ولم تأت كذلك على ذكر كل العلماء الذين عاشوا في تلك الفترة وغيرها - من قبل ومن بعد - فإنه من غير المستبعد أن يكون هناك من هو في منزلة من ورد ذكرهم إن لم يفهم ، وقد تجاوزنا هنا ذكر عدد ممن أشارت إليهم ونكرت أن العلوم الرياضية كانت في دائرة عنايتهم ، ولخبارهم في كتب التراجم وبعض مصادر الدراسة^(٥) .

أخرى في مكتبة الأصفية ، كما أن هناك نسخة سادسة في مكتبة محمد بن قاسم البحر الحاصلة بمدينة الزيدية في اليمن ، الحبشي ، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٥٧٩ .

(١) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرفية ، تحت رقم (١٤٢٧) ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الأوقاف في بغداد ، تحت رقم (٢٩٣٢) ، المرجع السابق ، ص ٥٧٩ .

(٣) العبدروس ، النور الصافر ، ص ١٣٦ ، الشَّيْ ، الصفا الباهر ، ص ٢١٢ .

(٤) لوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٢١ .

(٥) بعضهم عند البريهي ، طبقات صحاء اليمن ، ص ٢٢٨ ، ٢٤٩ ، ٢٧٦ ، ٢٨٧ ، الأمل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ١ ص ٤١٤ ، ج ٢ ص ٧٦ ، ابن المؤيد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ٢ ص ٦٣٦ .

الخاتمة

- في ختام هذه الدراسة ، وبعد هذا التطواف مع معظم مصادر تاريخ اليمن العلمي والحضاري وبعض مراجعته ، خلصت إلى عدد من النتائج ، أهمها ما يأتي :
- (١) أن التاريخ الحضاري والعلمي لليمن كان يشكل منحنى مرتفعاً طوال القرون العشرة الأولى من تاريخه الإسلامي ، وفي وثيرة شبة مضطردة ، مختلفاً في ذلك تمام الاختلاف عن مجريات التاريخ السياسي والعسكري له الذي كان دائم الانحدار تقريباً ، حتى كاد يتسم الوضع بالانعدام الدائم للاستقرار الأمني .
- (٢) أن التنافس والصراع ذي الأبعاد المذهبية والعقائدية - بين العرق - في اليمن طوال فترات ما قبل مدة الدراسة قد كان منبعاً لكثير من أشكال التراث العلمي اليمني ، وعامل تحفيز للعلماء للتأليف والتصنيف والاشتراك في المنظرات والمسابقات ، بصورة ربما لم تكن لتحدث بتلك الكثافة والغزارة في غياب تلك التنافس والصراع .
- (٣) أن كثافة الأنشطة العلمية والأنشطة العلمية المضادة وجذبتها قد خففت بين الأطراف المذهبية في اليمن ، وندرت شواهدا في مدة الدراسة ، ولكنها لم تنعدم قطعاً ، إلا أنها تعددت بين أبناء المذهب الواحد ، كما جرى بين الشافعية ، إذ تجادل وتناقش - بالصورة المباشرة وغير المباشرة - القائلين بالعقيدة الأشعرية مع غيرهم من الحاملين للعقيدة الحنبلية ، أو بين الطرفين - في كفة - وبين المتصوفة القائلين بعقيدة الحلول والاتحاد الفلسفية في كفة أخرى ، وجميع الأطراف - من الناحية الفقهاء - أتباع للمذهب الشافعي .
- (٤) أن حكام اليمن في مدة الدراسة - كلهم تقريباً - بالرغم من انهماكهم في الصراعات العسكرية والسياسية الدائرة ، كانوا علماء كبار ، ومعظمهم تركوا مصنفات غزيرة في شتى فروع المعرفة ، بل إن بعضهم كان قبلة للعلماء للتلقي عنه لا لتدريسه ، وكان في مقدمتهم الأئمة الزيدية ، الذين لم يسوألوا مناصب الإمامة إلا بعد بلوغهم درجة الاجتهاد .
- (٥) أن حكام اليمن وأعيان المجتمع وشرائحه الفنية قد رعت العلم وأهله وطلبته وكفلتهم ، وفورت لهم الكثير من التسهيلات اللازمة لطلب العلم وتدريسه وتحصيله ، وتعددت المنشآت التعليمية كالمدارس والهجرات والجوامع والأربطة ،

ثم أحاطوهم بالعناية والحماية ، فكان ذلك من أسباب عدم تأثر الحياة العلمية بالصراعات الدموية المحيطة بهم .

(٦) أن اليمن لم يختلف عن غيره من الأقطار الإسلامية الأخرى في أشكال أنظمة التعليم ومحتوياتها من مقررات وطرق ووسائل للتدريس والتلقي ، اللهم إلا ما كان مرتبطاً بالتباين المذهبي والعقائدي ، كما تشابه تماماً مع غيره من الأقطار في الأماكن التي كانت مسرحاً للدراسة ، من كتاتيب ومدارس وجوامع وأربطة .

(٧) أن ثمة اختلافين كبيرين بين اليمن وغيره فيما يتعلق بآماكن التعليم ، أولاهما بشأن انتشار الهجر العلمية التي تضمنت هذه الدراسة تفاصيل مهمة عنها ، من ناحية طبيعتها ومواقعها ، ومن ناحية أدوارها الاجتماعية والعلمية ، وثاني الاختلافين هو أن أغلب أماكن التعليم باليمن كان منتشراً في مناطق الريف أكثر مما هو في المناطق الحضرية .

(٨) أن الأماكن التعليمية التي بُنيت في المناطق الواقعة تحت السيطرة الرسولية شمع الطاهرية كانت أكثر حظاً من العناية والاهتمام الرسمي ، فقد كان لها - في الغالب - هيئات تدريسية ثابتة ، تخضع لشروط صارمة ومحددة ، وتشمل كل التخصصات الدراسية المهمة ، وبما يغطي كلا المرحلتين التعليميتين ، وتتقاضى عائدات مادية وعينية تحينها على التفرغ العلمي ، وهو ما افتقدته نظائرها في المناطق الشيعية الزيدية ، إذ كان الدعم الشعبي الاجتماعي أكبر من الرسمي ، كما لم تتحدد معالم الهيئة التدريسية فيها ، فلم يوجد المحدث والقارئ وقارئ الحديث والمعيد والفقير والناظر ... إلخ ، مع التأكيد أن ذلك لم يكن محل استنكار أحد من العلماء هناك ؛ لأن الأدوار الوظيفية لأماكن التعليم في المناطق الزيدية قد أدت بشكل سلس وجيد أيضاً .

(٩) أن قرب اليمن - من الناحية الجغرافية - من الحرمين الشريفين كان أحد روافد الحياة العلمية فيه ، فقد كان الحرمين الشريفان حلقة الوصل الكبرى بين العلماء اليمنيين وبين أقرانهم ونظرائهم ، وهناك وُجّهت الدعوة إلى عدد كبير من العلماء الممتهنين فكانت وفادتهم على اليمن .

(١٠) أن كثرة قوافلين من العلماء الكبار والمشهورين والمبرزين في العالم الإسلامي إلى اليمن قد كان أحد أكبر العوامل التي أدت إلى نشاط الأوساط العلمية ،

كانتشار ألقاب (المقرئ) والمبرزين في علوم القرآن بعد زيارة المقرئ
الشهير الإمام محمد بن محمد الجزري ، أو شيوخ لقب (الحافظ) و (المحدث)
بعد الزيارتين للثنين قام بهما شيخ الإسلام الإمام ابن حجر العسقلاني إلى اليمن ،
وقد كان أولئك الوافدون حلقة الوصل الثانية بين علوم الأقطار العربية الأخرى
وبين اليمن .

(١١) أن خلفيات الصراع الذي أدى إلى انتفاء وجود بعض الفرق في بلاد الزيدية
كالخوارج والحصينية والمطرفية - في مرحلة ما قبل القرن التاسع الهجري -
قد أدى إلى استمرار انتعاش بعض العلوم الفلسفية هناك كعلم الكلام مما أدى
إلى زيادة اقتراب الزيدية من المعتزلة إلى درجة كبيرة جداً .

(١٢) بالمقابل شهدت بلاد الزيدية حالة من الانفتاح على أهل السنة في المناطق
اليمنية الأخرى أو خارج اليمن ، فكثر الإشارات إلى تلقيهم لعلوم أهل السنة
على أيدي رجالها ، فيما كان الانفتاح من قبل قائماً على مستوى تلقي علوم
السنة عبر مؤلفات أهلها ومصنفاتهم ، وأدى ذلك إلى سيادة حالة من التآلف
للكبير بين عدد كبير من رجال للطرفين .

(١٣) أن الانفتاح الزيدي على أهل السنة قبله انفتاح مقابل من قبل علماء الشافعية ،
فتوجه عدد منهم - في صور فردية - للتلقي على أيدي علماء الزيدية في
معاقلها ، كما أن ذلك تمخض عن نشوء فريق من رجال الزيدية أنفسهم - ممن
تأثر بعلوم أهل السنة - يقوم بالاعتراض والرد على رفاقهم من العلماء للزيدية
الأخرين ، سواء فيما يخص مواقفهم من بعض علوم السنة ومناهج أهل الحديث
أو فيما يخص مواقفهم من المعتزلة وعقائدها ، فكان ذلك سبباً في تأليف عدد
كبير من الفضل مؤلفات أهل اليمن ، بعضها استحق أن يسمى بالموسوعة ،
كـ (العواصم والقواصم) للإمام محمد بن إبراهيم الوزير .

(١٤) وجدت شواهد - مع قلتها - تدل على أن ذلك التألف والتواد لم يكن القاعدة
الشاملة للجميع ، منها التعارض بالقصائد الهجائية بين الفقهاء والعلماء أنفسهم
على خلفيات التنافس السياسي والمذهبي ، وكان البعض يحرض حكامه على
البعض الآخر ويتهكم ويسخر من عقائده ومن لخصائره الفقيه ، كما وقع بين
المقرئ المحولي والفقيه أحمد الشامي ، وبين الفقيه أحمد الشامي
والإسماعيلية الباطنية في ذي مرمر وبعض معاقلهم القريبة من صنعاء .

(١٥) أن المصادر التاريخية قد غمطت حق المرأة اليمينية في رصد أدوارها العلمية ، وقد عكست طرفاً من أدوارهن الترجمات التي وردت لبعض النساء اللواتي كن أكثر حظاً من غيرهن بوجود من ترجم لهن ، بالرغم من أن ترجمتهن قد جاءت بسبب قرابتهن - رَجماً - من أعلام مشهورين .

(١٦) أن علماء اليمن كانوا الصابطين الأكبر لأداء الحكام والسلطين في المناطق السنية ، وأنهم كانوا رقماً صعباً في حسابات كل الشرائع اليمينية ، فكان للحاكم لا يستطيع الاحتجاج عنهم - رغبة ورهبة - وكانوا لا يألون جهداً في خدمة الفقراء والسعي بما يصلح بين المتخاصمين ، ولو كان أحد الأطراف السلطان نفسه .

(١٧) أن العلماء في المناطق الشيعية الزيدية لم يُعرف عنهم انتقاد أئمتهم لو الاحتجاج عليهم - إلا ما كان نادراً لا حكم له - ومرد ذلك إلى أحد سببين محتملين ، الأول : أن الأئمة الزيدية أنفسهم كانوا على قدر كبير من العلم الشرعي الذي كان عاصماً لهم من افتراء ما يستوجب الاحتجاج والانتقاد ، وهذا القول يعتريه مخالفة الطبيعة البشرية المعرضة للوقوع في الخطأ ، والثاني : أن العلماء كانوا يقدسون الأئمة لمكانتهم التي أولتها لهم العقيدة الزيدية التي تجعلهم أفضل الخلق من الأحياء ، مما يشكل حاجزاً نفسياً يمنع من الخواطر الفكرية للاعتراض فما بالنا بالتحرك الإيجابي في ضوءه .

(١٨) أن اختلاف المذهب لم يكن مانعاً للعلماء اليمينيين - في مدة الدراسة - من التواد والتألف ، حتى لو لم تربطهم علاقة للتلمذة والمشيخة ، فوجدت بينهم الرسائل الإخوانية ، وعبر بعضهم عن تأييده للبعض الآخر في موقفه مما اعتُبر خروجاً من الدين ومروقاً عنه ، ومثال ذلك مراسلات الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير الزيدي والإمام إسماعيل بن أبي بكر المقرئ الشافعي بشأن التصدي للمتصوفة من أتباع ابن عربي وابن العارض القائلين بوحدة الوجود في تهامة .

(١٩) أن النزعة الزيدية العقلية في مدة الدراسة التي لربطت بالمعتزلة والعكر المعتزلي قد أوجد مساحة جغرافية يمنية واسعة لم تصل إليها تأثيرات تيارات الصوفية كما حصل في مناطق السنة للشافعية والحنفية ، وإن وجد من يوصف بالتصوف فهو أقرب ما يكون إلى تصوف القدماء الملتزم منه إلى التصوف

الفلسفي الذي شهد مدة ازدهاره في مطلع القرن التاسع الهجري في تهامة وحضرموت -

(٢٠) أن المذهب الحنفي - فقهاً ورجالاً - كان يتبعاً في اليمن إذا ما قورن بالانتشار الواسع للشافعية بالدرجة الأولى ثم للزيدية ، وأن الأحناف قد قصروا كثيراً في تدوين علومهم والترجمة لأعلامهم إلى حد انعدام كتاب واحد يتناول تاريخهم وجهودهم في خدمة مذهبهم ، وأن نكرهم - إن وجد - فهو بسبب تنمذ غيرهم على أيديهم .

(٢١) أن الإسماعيلية - كمذهب شيعي فلسفي - كان لها وجود متناثر في مجموعة من المناطق الحصينة في حراز ووصاب وأقصى شمال اليمن ناحية نجران ، إلا أن ذلك للتواجد كالمقروناً بحالة من الخوف والتربص مما أدى إلى اختفاء معظم تراثها المكتوب المتعلق بفقهاء وعقائدها ، ومزال ذلك إلى يوم الناس هذا ، وهو ما أدى إلى تعذر تناولها ضمن دراستنا هذه ، وجعل الحديث عنها أشبه بالرحم بالغيب منه إلى البحث العلمي الرصين .

(٢٢) أن المد والجزر للمبشرين والعسكريين لم يكونا مؤثرين على انتشار المذاهب أو انحصارها ، فإذا ما وقعت منطقة جغرافية سنية تحت سيطرة زيدية شيعية فإنها تحتفظ - غالباً - بقناعاتها العقائدية واختياراتها المذهبية ، ولا تنحصر بسبب وجود قوة عسكرية تعتمد مذهباً فقهياً وعقائدياً مختلفاً ، وهو بالمثل مع الجانب الآخر ، فقد احتفظت صنعاء بمذهبها الزيدي الشيعي بالرغم من تكرار سقوطها في أيدي الرسولين والظاهرين والأكراد والمماليك للشراسة وهم كلهم من السنة الشافعية .

(٢٣) أنه على الرغم من أن اليمن قد اركز في تطوير العلوم لدى رجاله على إسهامات العلماء المسلمين خارج اليمن ، وأن سمة التقليد لأعلام الأمة من قبل أبنائه كانت صفة غالبية ، إلا أنه أوجب رجالاً رواداً في جوانب معرفية محددة ، منها ريادة الإمام المؤرخ الحسين بن عبدالرحمن الأهدل في كتابة أول مسيرة ذاتية لنفسه ، لم يسبقه مؤرخ مسلم آخر إلى عملها على حد علمي .

(٢٤) أن عدداً كبيراً من المبرزين من علماء اليمن كان إسهامهم في الحياة العلمية كبيراً ، غير أنهم لم يقوموا بالتصنيف والتأليف لعلومهم التي أجادوها ، وكان جهدهم منحصراً في التدريس ، وهو ما أدى إلى غمط حقهم في التعريف بهم

وبجهودهم في عدد من الدراسات السابقة ؛ ولذلك كان التركيز على الحديث على (اهتمام اليمثيين بالعلوم وتصنيفهم فيها) في علوين الفصول الثلاثة الأخيرة من هذه الدراسة لتتلافى إهمال أمثال هذه الفئة فيما لو انحصر الحديث حول المصنفين منهم فقط .

(٢٥) من المدهش حقاً كثرة اهتمام العلماء اليمثيين في مدة الدراسة بالعلوم الشرعية واللغوية والأدبية ، وغزارة مصنفاتهم فيها ، إلى درجة أجبرت الباحث على إفرااد فصلين كاملين لها في محاولة لرصد صور ذلك الاهتمام وتتبّع مصنفاتهم فيها .

ملحق رقم (١)

رسالة تربية (١) :

رسالة من الأمير نصير الدين أبي الطامي جيساش بن نجاح
(ت ٤٩٨هـ / ١١٠٤م) - حاكم زبيد - إلى مؤدب ولده حين سلّمه إليه^(١) :

"الأمانة ديانةٌ ، مُحَرَّمٌ فيها الخيانة ، والمرءُ مُرْتَمٍ بِعَمَلِهِ لِمَعَادِهِ ، فَإِنْ رَاعَى فَمَجْرِيٌّ ، وَإِنْ أَضَاعَ
فَمَجْزِيٌّ ، وقد رأيتُ اتدابك ... فكُنْ - أَيْدِكَ اللَّهُ - عند ظني بك ، إني آتيتك بضعةً مني
... فذهبت إلى نوط الأمانة بك ، والحازم يوصي بالمال من قبله ، وأنا أوصيك بمن اكتسبت المال له ،
فاستغنيك ، فاصف ذهنيك بوصائبي ، واستكفيتك فيما أثرتك به عن كفايتي ، فخذ به بالتعيس
والإبتسام ، وعلمه وقار القعود وعدل القيام ، ولا تُسَيِّئْهُ بِطَوْلِ المكث بين يديك ، ولا ترخي له في
الإبطاء لِنِ اسْتَدْنَكَ ، وروِّضْهُ بالصلوات في أوقاتها ؛ لِيَتَمَرَّنَ عَلَى أداء مفترضاتها ، وعلمه إسباغ
الوضوء من ابتدائها إلى انتهائها ، وإذا أراد الكتابة فَمَوِّقِلُهُ ، وصوره وضع الخط بمثال التصوير في
مواضعه ، وعلمه الفرق بين الواوآت والقافات ، وعلمه تلك المخلفات ؛ لِيَسْلَمَ لَهُ سلوك الصنعة من
الآفات ، ولا تثبل من دوائه إلا الإصلاح ، ومن أقلامه غير القند الصحاح ، وعلمه كتاب الله ، فإنه
الحبل المتين ، ولا ترخص له في نسيانه ، فإنه الخسران المين ، وعلمه قراءة أبي عمرو ، فإنها أشهر
القراءات في البدو والحضر ، واختر له مذهب الشافعي الشيخ محمد بن إدريس - رحمه الله عليه -
فإذا بلغتني فيه المأمول جزيتك الحسنى بمشيئة الله ، والله يلفنا وإياك ، ويسعد عقبانا وعقباك ،
والسلام الجزيل على المؤدب الجليل ورحمة الله وبركاته "

(١) الجَدِّي ، السلوك ، ج ٢ ص ٥٠٦ ، ٥٠٧ .

ملحق رقم (٢)

رسالة تربية (٢) :

رسالة من الإمام المنصور بالله القاسم بن علي العياني (ت ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م) إلى ولده علي حين ولاء على بلاد ولادة من أرض اليمن^(١) :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، تعلم يا بني - أرشدك الله وأسعدك - أن حكماء الأمة من جعل الآثاء نصب عينيه وشعار قلبه ، ثم استظهر بآراء ذوي التجربة ، الذين كثرت عليهم فوائب الزمان وثناجع الحداث ، وأنت غر من الزمان وما يدور به على الإنسان ، فإن استشرت من قد قهحت التجربة عقله ، رشدت وسعدت ، وليس كل الناس يستشار ، فإنما الرأي لأهل العقول الرصينة والديانة والأمانة ، وليس رأي الواحد يكاد أن يبين صوابه إلا لحصل حكيم ، فإذا أردت بيان الرأي فشاور جماعة من ذوي الرأي كلاً على حياله ، فإن اتفقت آراؤهم فلن يكون مع الإجماع خطأ ، وإن اختلفت واختلقت فتخذ منها بما أوجب العفو والآثاء ، واجعله المقدم ، فإنك مع ذلك ستدرك الفاتت وتأمين الدائمة ، فهذا وجه اجعله مقدم أحوالك ، واجعل لجميع متصرفاتك أن تستشير في مأكلك ومشربك ما لا مشورة فيه ولا غنى عنه ، لكن ضرته مثلاً ؛ لتلا تدع المشورة في صغير ولا كبير ، ولا قليل ولا كثير ، الله الله واحذر نفسك ، فإنها من أعدى أعدائك لك ، وأشدهم مضرة عليك ، وقد قال الله تعالى : "إن النفس لأماراة بالسوء"^(٢) وقال عز وجل : "وأما من يخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى"^(٣) والهوى فاصل كل معصية ، وإذا خطر ببالك مخاطران فتخذ بأكرهما إليك ، فإن الرشد فيما تكرمه النفس ، وسوف تدعوك نفسك إلى الدنيا وزينتها

(١) للمعالي ، للحقائق الوردية ، ج ٢ من ١١٧ ، ١١٨ .

(٢) سورة يوسف ، الآية رقم ٥٣ .

(٣) سورة النازعات ، الآيتان رقم ٤٠ ، ٤١ .

من وقتك هذا إلى آخر عمرك ، فإن أجبت دعوتها وضعك ذلك وأذهب بهاك ، ونظر إليك بين الدائمة من عاداتك ، وماء ذلك من والاك ، والزم الصبر ، فإن الصبر مفتاح الفرج ، وقل من صبر فلم يحصل حاجته ، واستعمل عن كل ما تدعوك تمسك إليه الصبر ، وأحذر إدمان من ينقصك إدناؤه ، وثقل من الناس ما استطعت ، فإن مثل خيارهم كمثل الدر ، ومثل شرارهم كمثل الصخر ، فالدر خفيف محمله كبير منفعة ، والصخر ثقيل محمله قليل نائله ، واحذر الرغبة في الدنيا ، فإنها فضيحة كشافة ، وليس تدرك لها غاية ، واحذر أن تطلب حوائجك مما فيقتل عليك مطلبها ، ويحزنك قوتها ، واطلبها بدداً فإن ذلك أحرى ليلها ، وأخف لتكلفتها لمن كلفها ، فهذا وجه فاعرفه ولا تغلط فيه ، وهو الذي أدخل بكل من دخل في مدخلك ، فكأن بمنزل عما يفتيك ، ولست تحظى بشيء قد وصيتك به إلا أن تتقي الله وتقوم بما حض عليه ، ولا تذر أكساب العلم والافتداء بآثار العلماء والحكماء ، وهذا مفتاح الرزق ، والنجاة من غضب الخالق ، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "من عرف بالحكمة لاحفظه العيون بالوقار" والسلام ، والله يحفظك ويصلحك ويرفقك " .

ملحق رقم (٣)

رسالة نربوية (٢) :

كتب علي بن حرب المطرقي إلى المؤدب الذي لخير لابن أخته أحمد بن القاسم الربيعي^(١) :
" إني قد أتيتك بسلام هائل ، فلا تردني إلي مجنوناً ، إياك أن تفرغه حتى يستشعر الخوف منك فيشرده خوفاً ، فإنك متى فعلت ذلك لم آمن أن تعلمه فلا يفهم ، أو تدعوه فلا يأس أن تكون تريد به شراً ، اغتم أوقات نشاطه وإقباله إليك ، ولا تبع حالات ضيقه وقوره ، ولا تقلظ عليه عند زملائه " .

(١) التلمحي ، طبقات مؤسّم اللخمي ، ج ٤ ص ٩٥ .

ملحق رقم (٤)

حكام الدولة الرسولية باليمن^(١):

الملك (السلطان)	مدة حكمه
١) المنصور الأول عمر بن علي بن رسول (نائباً للأيوبيين)	٦٢٦هـ / ١٢٢٨م
المنصور الأول عمر بن علي بن رسول (سلطاناً)	٦٢٨ - ٦٤٧هـ / ١٢٣٠ - ١٢٤٩م
٢) المظفر يوسف بن المنصور الأول عمر بن علي بن رسول	٦٤٧ - ٦٦٤هـ / ١٢٤٩ - ١٢٩٤م
٣) الأشرف الأول عمر بن المظفر يوسف بن المنصور الأول	٦٩٤ - ٦٩٦هـ / ١٢٩٤ - ١٢٩٦م
٤) المؤيد داود بن المظفر يوسف بن المنصور الأول عمر	٦٩٦ - ٧٢١هـ / ١٢٩٦ - ١٣٢١م
٥) المجاهد علي بن المؤيد داود بن المظفر يوسف بن المنصور	٧٢١ - ٧٦٤هـ / ١٣٢١ - ١٣٦٢م
٦) الأفضل العباس بن المجاهد علي بن المؤيد داود بن المظفر	٧٦٤ - ٧٧٨هـ / ١٣٦٢ - ١٣٧٦م
٧) الأشرف الثاني إسماعيل بن الأفضل العباس بن المجاهد	٧٧٨ - ٨٠٣هـ / ١٣٧٦ - ١٤٠٠م
٨) الناصر الأول أحمد بن الأشرف الثاني إسماعيل	٨٠٣ - ٨٢٧هـ / ١٤٠٠ - ١٤٢٣م
٩) المنصور الثاني عبدالله بن الناصر الأول أحمد بن الأشرف	٨٢٧ - ٨٣٠هـ / ١٤٢٣ - ١٤٢٦م
١٠) الأشرف الثالث إسماعيل بن الناصر الأول أحمد	٨٣٠ - ٨٣١هـ / ١٤٢٦ - ١٤٢٧م
١١) الظاهر يحيى بن الأشرف الثاني إسماعيل بن الأفضل	٨٣١ - ٨٤٢هـ / ١٤٢٧ - ١٤٣٨م
١٢) الأشرف الرابع إسماعيل بن الظاهر يحيى بن الأشرف	٨٤٢ - ٨٤٥هـ / ١٤٣٨ - ١٤٤١م
١٣) المظفر الثاني يوسف بن عمر بن الأشرف الثاني إسماعيل	٨٤٥ - ٨٥٤هـ / ١٤٤١ - ١٤٥٠م
قد ناقسه علي عرش المنطقة كل من :	
• المفصل محمد بن إسماعيل بن عثمان بن الأفضل العباس ، خرج من زبيد في المعزم من سنة ٨٤٦هـ / ١٤٤٢م واستمر إلى ربيع الآخر من العلم نفسه .	
• الناصر الثاني أحمد بن الظاهر بن يوسف بن عبدالله بن المجاهد علي ، خرج في زبيد في رجب سنة ٨٤٦هـ / ١٤٤٢م واستمر حتى ربيع الأول من سنة ٨٤٧هـ / ١٤٤٣م .	
• المسعود صلاح الدين أبو القاسم بن الأشرف الثالث إسماعيل بن الناصر الأول أحمد ، ناقسه من ربيع الأول سنة ٨٤٧هـ / ١٤٤٣م حتى تنازل له المظفر الثاني عنها سنة ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م	
١٤) المسعود صلاح الدين أبو القاسم بن الأشرف الثالث	٨٥٤ - ٨٥٨هـ / ١٤٥٠ - ١٤٥٤م
• وقد ناقسه علي عرش السلطنة المؤيد حسين بن الظاهر يحيى الذي خرج في زبيد سنة ٨٥٥هـ / ١٤٥١م ، واستمر خروجه على المسعود صلاح الدين حتى خرج من عدن فدخلها هو ، وسقطت سلطنة الدولة الرسولية عندئذٍ بتنازله عن الحكم لبني طاهر سنة ٨٥٨هـ / ١٤٥٤م .	

(١) عبدالله قائد العبادي ، الحياة العلمية في زبيد في عهد الدولة الرسولية ، ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

ملحق رقم (٥)

حكام الدولة الطاهرية باليمن^(١) :

الملك	مدة حكمه
(١) الملك الظافر الأول عامر بن طاهر بن معوضة	٨٥٨ - ٨٦٤ هـ / ١٤٥٤ - ١٤٥٩ م متصديراً على العرش ٨٦٤ - ٨٧٠ هـ / ١٤٥٩ - ١٤٦٦ م بالاشتراك مع أخيه الملك المجاهد علي بن طاهر
(٢) الملك المجاهد علي بن طاهر بن معوضة	٨٥٨ - ٨٦٤ هـ / ١٤٥٤ - ١٤٥٩ م بالاشتراك مع أخيه الملك الظافر عامر بن طاهر ٨٦٤ - ٨٨٣ هـ / ١٤٥٩ - ١٤٧٨ م متصديراً على العرش ثم منفرداً بعد وفاة أخيه الظافر
(٣) الملك المنصور عبدالوهاب بن داود بن طاهر بن معوضة	٨٨٣ / ٨٩٤ هـ / ١٤٧٨ - ١٤٨٩ م
(٤) الملك الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب بن داود بن طاهر	٨٩٤ - ٩٢٣ هـ / ١٤٨٩ - ١٥١٧ م
(٥) عامر بن داود	٩٢٣ - ٩٣٣ هـ / ١٥١٧ - ١٥٢٦ م

(١) اعتماداً على : د. محمد عبدالملك أحمد ، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهديهما ، بمحرمة ، قلادة
التحرر في وفات أعيان الدهر ، ابن الديبع ، قرية العيون بأخبار اليمن الميمون ، بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد ،
المدخل ، الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية في عصر السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري .

ملحق رقم (٦)

الأئمة الزيدية في فترة الدراسة^(١):

الإمام	مدة إمامته
(١) المنصور بالله علي بن الناصر صلاح الدين	٧٩٣ - ٨٤٠ هـ / ١٣٩١ - ١٤٣٦ م
(٢) الهادي إلى الحق لدين الله علي بن المؤيد	٧٩٦ - ٨٤٦ هـ / ١٣٩٤ - ١٤٣٢ م
(٣) المهدي لدين الله صلاح بن علي	٨٤٠ - ٨٤٩ هـ / ١٤٣٦ - ١٤٤٥ م
(٤) المنصور بالله للناصر بن محمد	٨٤٠ - ٨٦٧ هـ / ١٤٣٦ - ١٤٦٢ م
(٥) المتوكل على الله المطهر بن محمد بن سليمان الحمزي	٨٤٠ - ٨٧٩ هـ / ١٤٣٦ - ١٤٧٤ م
(٦) المؤيد بالله محمد بن الناصر بن محمد	٨٦٩ - ٩٠٨ هـ / ١٤٦٥ - ١٥٠٢ م
(٧) الهادي إلى الحق عز الدين بن الحسن	٨٧٩ - ٩٠٠ هـ / ١٤٧٤ - ١٤٩٥ م
(٨) المنصور بالله محمد بن علي المراجي الوشلي	٩٠٠ - ٩١٠ هـ / ١٤٩٥ - ١٥٠٤ م
(٩) الناصر لدين الله الحسن بن عز الدين بن الحسن	٩٠٠ - ٩٢٩ هـ / ١٤٩٥ - ١٥٢٣ م
(١٠) المتوكل على الله يحيى شرف الدين بن شمس الدين	٩١٢ - ٩٦٥ هـ / ١٥٠٦ - ١٥٥٧ م

(١) أشواق أحمد مهدي غليم ، التجديد في فكر الإمامة عند الزيدية في اليمن ، مكتبة مطبوعي ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ /

١٩٩٧ م ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

ملحق رقم (٧)

إحدى أسانيد رواية صحيح البخاري في اليمن في القرن الهجري التاسع^(١) :

- الإمام نقيس الدين سليمان بن إبراهيم بن عمر الطوي الحنفي (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م) .
- عن والده الإمام الحافظ أبي إسحاق برهان الدين إبراهيم بن عمر الطوي الحنفي (ت ٧٥٢هـ / ١٣٥١م) .
- وعن الإمام شرف الدين أبي عمران موسى بن مري بن رباح الغزولي الحنفي الدمشقي الزبيدي (ت ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م) .
- عن أبي العباس أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم بن علي بن حسن بن بيان، عرف بابن الشحنة (ت ٧٢٠هـ / ١٣٢٩م) .
- عن الشيخ الإمام الحسين بن المبارك بن عمران بن مسلم الزبيدي (ت ٦٣١هـ / ١٢٣٠م) .
- عن الشيخ الصالح أبي الوقت عبد الأول بن علي بن شبيب الصوفي الهروي السجزي (ت ٥٥٣هـ / ١١٥٨م) .
- عن الشيخ أبي الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر بن محمد بن داود بن أحمد بن معاذ الداوودي (ت ٤٦٩هـ / ١٠٧٧م) .
- عن الشيخ أبي محمد عبدالله بن أحمد بن حمويه الحموي السرخسي (ت ٣٨١هـ / ٩٩٢م) .
- عن الشيخ الصالح محمد بن يوسف بن مطر القريري بفرير (ت ٣٢٠هـ / ٩٣٢م) .
- عن الشيخ الإمام الحافظ أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري (ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م) .

قال الإمام نقيس الدين سليمان بن إبراهيم الطوي معلقاً عن سند صحيح البخاري المتصل إليه :

" فبني بين البخاري سبعة رجال ، وللمجاز له ثمانية رجال ، وهذا غاية الطوفي وقتنا ، قال مشائخنا : ليس على وجه الأرض أعلى من هذا السند ، وإنما كان كذلك لأن كلاً من المشايخ عُمَرُ مائة أو قريباً منها أو زيادة عليها " .

(١) الورير ، العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم ، ج ١ ص ٢٦ - ٣١ .

ملحق رقم (٨)

إحدى أسانيد رواية صحيح البخاري في زبيد باليمن في القرن الهجري العاشر^(١):

- نقي الدين أبو العباس حمزة بن عبدالله بن محمد بن علي الناشري (ت ٩٢٦هـ / ١٥١٩م) .
 - عن قاضي القضاء الإمام محمد الطيب بن أحمد بن أبي بكر بن علي بن محمد الناشري (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) .
 - عن والده القاضي شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن علي بن محمد الناشري (ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م) .
 - عن والده القاضي رضي الدين علي بن محمد بن أبي بكر الناشري .
 - عن الإمام الحافظ أبي العباس شهاب الدين أحمد بن أبي الخير بن منصور بن أبي الخير الشماخي (ت ٧٢٩هـ / ١٣٢٨م) عن والده الإمام الحافظ أبو الخير بن منصور بن أبي الخير الشماخي (ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٤م) .
 - عن الإمام ضياء الدين أبي بكر بن أحمد الشراحي .
 - عن الشيخ الإمام العلامة أبي عبدالله محمد بن إسماعيل بن أبي الصيف .
 - عن الشيخ أبي الحسن علي بن حميد بن عمار الأنصاري الطرابلسي .
 - عن أبي مكوم عيسى بن أبي ذر عبدالله بن محمد الهروي .
 - عن والده الإمام الحافظ أبي ذر عبدالله بن محمد الهروي .
- وأبو ذر الهروي رواه عن ثلاثة هم :
- الإمام أبي محمد عبدالله بن أحمد بن حمويه السرخسي الحموي (ت ٣٨١هـ / ٩٩٢م) .
 - والإمام أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم المستلي .

(١) النشري، اقتضاء الفروع في الصيد والفنن، تحقيق عبدالله محمد الحبشي ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، ط ١

ملحق رقم (٩)

أنموذج لإجازة علمية أصدرها عالم سني حنفي في القرن التاسع الهجري باليمن
نص الإجازة التي منحها المحدث نفيس الدين العلوي بمدينة تعز للإمام محمد بن إبراهيم
الوزير^(١) :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله حمداً يوافي نعمه ، وبكافي مزیده ، لا نحصى ثناء عليه ، والصلاة
والسلام على رسول الله محمد النبي المي ، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأصهاره ، كلما ذكرهم
الذاكرون وغفل عن ذكرهم الغافلون ، وبعد : فإنه شرفني الله تعالى ورحل إليّ وقدم عليّ إلى بلدي بمنز
المحروس - مستر المملكة اليمنية الرسولية ، عمرها الله بالعلم الشرف - الشرف سيدنا الإمام حقاً والمجاهد
صدقاً ، الفائق على أقرانه من الأغصان النبوية والأفنان المصطفوية ، المؤيد بالتأييد الإلهي ، المخار الله تعالى ،
الموفق في اجتهاده ، جمال العترة النبوية : محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل بن منصور بن محمد
العفيف بن المفضل الحسيني السُّنِّي بحمد الله تعالى ، وسمع من لفظي ، وقرأ عليّ ثلاث كتاب (الجمع بين
الصحيحين) - صحيح البخاري ومسلم رحمة الله عليهما - جمع الإمام الحافظ أبي عبدالله محمد بن أبي
نصر قنوج بن حميد الأزدي الحميدي ، الأندلسي ، الظاهري المذهب ، من كبار تلامذة ابن حزم ، مولده في
سنة عشرين وأربعمائة ، أجمع العلماء أنه لم يكن في العلماء له نظير في براعته وعفته وورعه ، وتوفي سابع عشر
من ذي الحجة (٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) ، وأجزته باقي الكتاب لأهليته لذلك ودينه وأمانته وعلمه وبراعته ، وسمع
معه ما ذكرته النقيب الصالح النبيه صالح بن قاسم بن سليمان بن محمد الحنبلي ثم المصري القادم معه وآخرون
من بلادنا ، وأخبرهم أنني قرأته على شيعي الإمام الحافظ المجتهد المقدم على مقرئي كتاب الله تعالى أبي الحسن
موفق الدين علي بن أبي بكر بن محمد بن شداد المقرئ الحمداني ، ومولده سنة (٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م) ووفاته

(١) الوزير ، العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم ، ج ١ ص ٢٦ - ٣١ .

في شهر شوال سنة (٧٧١هـ / ١٣١١م) قال : أنا الشيخ الإمام الحافظ الجتهد أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي الخير بن منصور بن أبي الخير الشماخي السعدي ، ومولده في سنة (٦٥٧هـ / ١٢٥٩م) ووفاته سنة (٧٢٩هـ / ١٣٢٨م) ، قال : أنا والدي الإمام الحافظ المجتهد أبو الخير ، ومولده في سنة (٦١١هـ / ١٢١٤م) ووفاته في (٦٧٣هـ / ١٢٧٤م) قال : أخبرنا الحافظ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن علي بن عبد العزيز الفشلي ، قال أنا الإمام برهان الدين أبو الفرج نصر بن علي الحصري البغدادي ، عرف بالبرهان ، بروايته عن أبي الفتح عبد الباقي بن أحمد الحنفي ، عرف بابن البطي ، بروايته عن الحسيني .

وأرويه عن والدي الإمام الحافظ أبي إسحاق برهان الدين إبراهيم بن عمر العلوي الحنفي ، إجازةً منه لي في سنة (٧٥٢هـ / ١٣٥١م) ، قال : أنا الإمام أحمد بن أبي الخير بسنده ، قال والدي رحمه الله : أخبرنا الإمام الحافظ أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزني والشيخ الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي وغيرهما قالوا : أخبرنا الشيخ المسند علي بن أحمد البخاري عن الإمام أبي محمد بن أبي بكر بن أبي القاسم بروايته عن الإمام الحافظ أبي القاسم إسماعيل بن أحمد بن عمر السمرقندي بروايته عن المصنف الحسيني . وأرويه عن والدي عن الذهبي قال : قرأته على أبي الفهم بن أحمد السلمي ، قال : أنا أبو محمد بن قدامه ، قال الذهبي : وقرأت على أبي سعيد الحلبي عن عبد اللطيف بن يوسف ، قالوا : أنا أبو الفتح محمد بن عبد الباقي عن الحسيني .

وأجزته - أي الإمام محمد بن إبراهيم الوزير - وصاحبه جميع رواية صحيح الإمام الحافظ الجتهد المقلد ، المتبع لكاتب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالجامع الصحيح المسند من أمور سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيامه ومغازيه ، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحفيرة بن بردزبه البخاري الحنفي رحمه الله تعالى ، وأخبرته أنني قرأته جميعاً على الشيخ الصالح العابد الناسك ، شرف الدين أبي عمران موسى بن مر بن رباح الفزولي الحنفي الدمشقي ، الزمّدي المنسوب إلى القيلة المعروفة ، رحمه الله

، وقد قدم علينا ديارنا إلى تمز الحروس من البلاد البنية في خامس ربيع الأول من سنة (٧٩٥هـ / ١٣٩٣م) ،
 وتم ذلك في ثلاثة وعشرين مجلساً ، آخرها يوم الخميس ثاني وعشرين شهر ربيع الأول من السنة المذكورة ،
 ومولده في سنة (٧٤١هـ / ١٣٤٠م) ، وتوفي عندنا في تمز الحروس في المدرسة الجامعية في ليلة الأحد من
 شهر جمادى الأول من سنة (٧٩٥هـ / ١٣٩٣م) ، وكأنه لم يصل إلينا إلا لتأخذ طريق الحجاز عنه بحققة فله
 الحمد .

ووالدي رحمه الله وآخرون قالوا : أخبرنا بالجامع الصحيح المذكور - الذي هو أصبح الكلب بعد القرآن العزيز
 عند جماعير العلماء - الشيخ الصالح الكبير ، ملحق الأصاغر بالأكابر ، والأحفاد بالأجداد - بعد أن
 استدعي به إلى مدينة دمشق المحروسة - أبو العباس أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم بن علي بن حسن بن
 بيان ، عرف بابن الشحنة ، الحجار ، وهو المعمر الذي أجمع علماء مصر والشام على الأخذ عنه لقرب سنده
 ، وعلو مشايخه ، ومولده سنة (٦٢٤هـ / ١٢٢٧م) ، وفاته في خامس وعشرين صفر من سنة (٧٣٠هـ /
 ١٣٢٩م) وبلغ عمره ١٠٦ رحمه الله تعالى ، قال : أنا الشيخ الصالح الحسين بن المبارك بن عمران بن مسلم
 الزبيدي - بفتح الزاي - ومات في صفر سنة (٦٣١هـ / ١٣٣٠م) ومولده في سنة (٥٤٥هـ / ١١٥٠م) ،
 قال : أنا الشيخ الصالح أبو الوقت عبد الأول بن علي بن شعيب الصوفي الهروي السجزي ، ولد في ساج ذي
 القعدة في سنة (٤٥٨هـ / ١٠٦٦م) ومات في ذي القعدة سنة (٥٥٣هـ / ١١٥٨م) قال : أنا الشيخ النقيب
 أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر بن محمد بن داود بن أحمد بن معاذ بن سهل بن الحكم الداودي
 الشافعي ، ولد في شهر ربيع الآخر سنة (٣٦٤هـ / ٩٧٥م) ومات في شوال سنة (٤٦٩هـ / ١٠٧٧م) ،
 قال : أخبرنا الشيخ أبو محمد عبدالله بن أحمد بن حمويه الحموي السرخسي ، ومولده في سنة (٢٩٣هـ /
 ٩٠٥م) ومات في ذي القعدة لليلتين بقيتا منه سنة (٣٨١هـ / ٩٩٢م) قال : أنا الشيخ الصالح محمد بن
 يوسف بن مطر القرطبي بقرط ، ولد في سنة (٢٣٦هـ / ٨٤٥م) ومات سنة (٣٢٠هـ / ٩٣٢م) ، قال : أنا

الشيخ الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري الجعفي مولاهم ،
ومولده بعد صلاة الجمعة لثلاث عشرة خلت من شوال سنة (١٩٤ هـ / ٨٢٠ م) وتوفي ليلة السبت ، هي الفطر
بعد صلاة العشاء وذلك سنة (٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م) ..

قلت : فبين وبين البخاري سبعة رجال ، وللمجاز له ثمانية رجال ، وهذا غاية العلوي وقتنا ، قال مشائنا
: ليس على وجه الأرض أعلى من هذا السند ، وإنما كان كذلك لأن كلاً من المشايخ عترة مائة أو قريباً منها أو
زيادة عليها .

وأجزته أيضاً رواية صحيح مسلم بن الحجاج بن مسلم بن الورد بن شاهنشاه القشيري ، ورواية سنن الإمام
أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ، ورواية جامع الإمام أبي عيسى بن محمد بن عيسى بن سورة بن
صلمة بن الضحاك الترمذي ، وكتابه الشمائل ، ورواية سنن الإمام أبي عبد الرحمن النسائي ، وصحيح أبي
حاتم بن حبان ، وابن خزيمة ، ومسند الشافعي ، وأبي حنيفة ، وغير ذلك .

وسمع من لفظي الأربعين للإمام الحافظ القطب أبي زكريا يحيى بن شرف النووي في مجلس واحد ، وأجزته بحق
سماعه لذلك من لفظه هو وصاحبه صالح المذكور بروايته لها قراءة على شيخني الإمام موفق الدين علي بن أبي
بكر بن محمد بن شداد بروايته عن جبريل عن الحريري عن المؤلف .

وأجزت الشرف المذكور رواية جميع ما أرويه من سائر العلوم الدينية ، فليرو ذلك عني موقفاً مسدداً ، بتاريخ
يوم الثلاثاء ثامن ذي القعدة سنة (٨٠٦ هـ / ١٤٠٤ م) ، وكان ذلك في منزلي من مدينة تعز المحروس حرسها
الله ، وكتب العبد الفقير إلى الله تعالى سليمان بن إبراهيم بن عمر بن علي العلوي الجعفي ، خدام السنة النبوية
، لطف الله به وغفر له وتاب عليه ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً طيباً مباركاً فيه
، وحسبنا الله ونعم الوكيل " .

ملحق رقم (١٠)

أنموذج لإجازة علمية أصدرها عالم شيعي زيدي في القرن العاشر الهجري باليمن^(١)

نص الإجازة التي منحها الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين (ت ٩٦٥هـ / ١٥٥٧م) لأحمد بن عبدالله الوزير (ت ٩٨٥هـ / ١٥٧٧م)^(٢) :

قال الإمام شرف الدين - عليه السلام - في إجازته للمذكور ما لفظه بعد بالبسملة والحمدلة : " وبعد فإن السيد الولد^(٣) ، الصدر ، العلم ، العلامة ، الحبر ، الغرة الشاذخة في سادات العصر ، والسراج الوهاج في علماء الدهر ، شمس الدنيا والدين ، (قطعة البيكار في آل الأئمة البطين)^(٤) ، ودرة التقصار في العزة الأطهار الطليين : أحمد بن عبدالله بن أحمد بن إبراهيم أسع الله مجيائه ، وكثر في أمثاله ، ومد عليه رواق رضوانه وإحسانه وبركاته ، سألنا إجازة فيما يأتي ذكره في هذه الورقات المباركة من علوم الدين ، ونحن من أعلين لما سأل ، ونبله وعرفانه وجمه لخلال الكمال وكمال الخصال على يقين ، ولنذكر كلامه - أعاه الله

(١) ابن المويد ، طبقات الزيدية الكبرى ، ج ١ ص ١٥٤ - ١٥٧ .

(٢) قد يتبادر إلى ذهن لدى القارئ الكريم أن هذه الوثيقة لا تدخل في مدة الدراسة بالنظر إلى تاريخ وفاة طرفيها ، لذلك أقول : بإلقاء نظرة فاحصة إلى ما ورد في الفصل الثاني يتضح بجلاء أن كل الأنشطة العلمية التي قادها الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين كانت في الفترة التي أعقبت إعلان إمامته في سنة (٩١٢هـ / ١٥٠٦م) حتى دخول القوات العثمانية اليمن ؛ لأن الأيام لم تصف له بعد ظهورها على مسرح الأحداث في اليمن ، إذ أنها وسعت جداً نفوذه بامتلاكه للقوة الأبرز في الساحة ، فللكمش وجوده وانحسرت سيطرته بالكفاءة نحو مناطق الحصون والقلاع التي كانت مطلقه الأول ، وبالتالي لم يعد له متسع من الوقت والنسبة للقادرة على لبذل العلمي ، مما يجعلنا نرجح أن هذه الإجازة العلمية صدرت قبل العام (٩٤٥هـ / ١٥٣٨م) .

(٣) ذرّج علماء اليمن وأئمتها المستمين إلى آل البيت على مخاطبة التلميد بـ (الولد) وذلك عندما يكون مستلهم متمسباً آل البيت ، وهو ما نتضح هنا في العبارة أعلاه .

(٤) لم أستطع التوصل إلى معنى منطقي لما بين القوسين مع ما بذلته من جهد في محاولة التأكد من أن الذي قلم بتحقيق المصدر قد صَحَّحها .

- بلفظه ، ولترقمه في هذه الورقات حرصاً على بقاء وحفظه ، والذي أذكره في سياق كتاب كرم وصل منه ، وفي أثناء خطاب عظيم ورد منه علينا ، فقال أمة الله بحبائه ، وحماه من محن الدهر ونكباته ، ما لفظه : هذا وأصغر مما يليك أمير المؤمنين يشرح لسمعه الكريم أنه لم يزل يُجمع العزم على الوصول إلى ذلك المقام ، على مر هذه الأيام وتوالي هذه الأعوام ؛ لتقيل الأقدام ، والاشتقاء والتعب بالنظر إلى الغرة الإمامية عليها أفضل السلام ، ثم لسماح كتب الحديث من طريق الآل الكرام ، كـ (شفاء الأوام) و (أصول الأحكام) ، فما زالت ممانعة الزمان حاجزة ، والهمة لمماطلة الأيام بمحصل الثاني عاجزة ، والحال منادية على وضوح العذر ، مصروحة ببيان موجبات التأقل عن هذا الأمر ، والله المسؤول بمعاقد العزم من عرشه ، ومنتهى الرحمة من كتابه ، أن يمن عليّ برؤية سيدي أمير المؤمنين ، وعبد سائى من تفضلاته ، متوصلاً إلى معلولاته بنطولاته ، أن يمن علينا بإجازة كريمة ، وإذن في رواية هذه الأمهات العظيمة : (شفاء الأوام) و (أصول الأحكام) و (أمالي أحمد بن حنبل) و (الجامع الكافي) و (أمالي السيدين الإمامين المؤيد بالله وأبي طالب) و (أمالي المرشد بالله) و (مجموع الإمام زيد بن علي) ، وهولاي سماح على سيدي أمير المؤمنين في قصر صماء ، وكذلك كتب أهل البيت الفقهية ، وما احتوت عليه من الأحاديث النبوية ، وأما الكتب التي من طرقها الفتفاء فليعلم - كتبت فداء - على وكرهه⁽¹⁾ -

إجازة (جامع الأصول) ، وقد سمعت عليه - عليه السلام - لأكثر من النصف من (تلخيص ابن حجر) ، وسمعت (مشكاة المصابيح) المحتوية على جميع الأمهات على المقرئ محمد بن أبي بكر في مجالس عديدة ، بقراءة سيدي عبدالله بن أمير المؤمنين بعض تلك المجالس في الحضرة الإمامية ، وبعض (البخاري) على الفقيه صالح التماري ، ، فليعلم - حفظه الله - بإجازة هذه الكتب ، وكذا ما كان مسموعاً له أو مجازاً في هذا الفن الشرف عن الإمام المنصور بالله محمد بن علي - عليه السلام - وعن حي سيدي

(1) هي هذه اللفظة الاعتراضية - الوالد - تأكيد على ما سبق إيضاحه في الحاشية قبل السابقة .

إبراهيم ، وسيدى الهادي ، وعن جميع مشايخ الإمام الأعلام ، وأئمة الإسلام ، ليفيد ولده وعبد به ذلك اتصال الإسناد الذي هو ذريعة الاتصال برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ووصلة الوصول إلى رضوان الله سبحانه بالدخول في زمرة العلم النبوي ورجاله من طريقه التي هي أعلى طرق أهل البيت سنداً وشرقاً ، وروايته المتصلة بالحاجة الأعلام إلى المصطفى ، وإن أنعم على ولده وعبد به بإجازة مسموعات ومجازاته ومصنفاته نظماً وشرأ في كل فن فذلك فضل غامر على أصغر ممالكه ، ومن وإن لم يكن عبده أهلاً لذلك ولا جديراً بالارتفاق على هذه الأرائك فهو جاد في التحصيل ، متبث في الرواية ، راج من فضل الله وبركات سيده أمير المؤمنين أن يعين ويسر بلوغ تلك الغاية ، إنه جواد كريم ، سميع عليم^(١) ، انتهى كلامه أبقاه الله ، وهو كما ترى جدير أن يكتب بما الذهب ، وأن يحفظ مثله كي لا يُفقد أو يذهب ، وقد ذيله - أبقاه الله - بما ترى من قوله : وإن لم يكن عبده . . . إلى آخره ، على عادة الفضلاء ، وسلوكاً لمنهج النبلاء ، وعملاً بقول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : " اللهم اجعلني في عيني صغيراً وفي أعين الناس كبيراً " ، والولد - أبقاه الله تعالى - كبيراً عند الله وعند خلقه ، ونحن نعلم قطعاً وقيناً أن هذه الورقات لا تسع لما يجب ذكره من محاسنه للقيام ببعض حقه ، وقد أجزأنا له - أبقاه الله تعالى - كل ما كان لنا فيه طريق من طرق الرواية بالسماع والمناولة والإجازة ، وكل مصنفاً ومؤلفاً ومنظوماً ، وعلى الجملة فقد أجزأنا له كل ما تضمنته الإجازة الكبرى التي أخذها عنا من عرقه الولد - أبقاه الله تعالى - من أشياحنا وأتباعنا وأهل ولايتنا ، فليرو على نحوه المذكور ، جارباً على ما جرى عليه مثله من الأعلام الصدور ، آمداً الله وإياه بمواد التوفيق ، ، انتهى . .

(١) أن يبدأ العالم المُجيز باستعراض محتويات طلب الإجازة المقدم من المُجرب له هو ما لم أجده في العدد الكبير الذي توافر من الإجازات المختلفة - المسببة والمقتضية - في المصادر التي تم الحصول عليها ، وهو ما ميز هذه الإجازة ، إذ أنه من بديتها حتى هذا الموضع قام الإمام المتوكل على الله بحسب شرف الدين باستعراض نص طلب الإجازة الذي قدمه العلامة أحمد بن عبد الله الوزير ، وقد برر الإمام شرف الدين إقامته الطلب في نص الإجازة في السطر التالي كما يأتي .

ملحق رقم (١١)

قاعدة تربوية (١) :

أورد الإمام المؤرخ بدر الدين الحسين بن عبدالرحمن الأهدل (٨٥٥هـ — / ١٤٥١م) في سيرته الذاتية التي ضمنها في تاريخه منهجه في التلقي وحطه من العلوم التي تلقاها فقال : "ومن طريقي إني لا أحب الرواية إلا عن ثقة ، ولا آخذ عن هب ودرج ، ولا عن لا أعرف دياته ولم أختبر عقيدته ، ولا أقول أني أعرف كل ما أشرت إليه من العلوم معرفة تامة ، بل معولي على علوم الدين كلفه الشافعي وأصوله ، وأصول الدين على مذهب الأشعرية ، والحديث والتفسير ، وعلم الصوفية السنيّة ، وما عدا ذلك فمشاركة صالحة إن شاء الله تعالى ، مع اعترافي بالتقصير ، وأسأل الله من فضله آمين آمين " (١) .

(١) الأهدل ، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، ج ٢ ص ٢٥٥ .

ملحق رقم (١٢)

قاعدة تربوية (٢) :

عَبَّرَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْخَرْزُزِيُّ الْحَكَمِيُّ (ت ٨٠١هـ / ١٣٩٨م) فِي نَصِّ تَرْبَوِيٍّ صُوفِيٍّ عَنْ بَعْضِ مَا تَتَنَاوَلُهُ طُرُقُ التَّرْبِيَةِ الْحَدِيثَةِ مِنْ وَسَائِلِ الْمُرَبِّينَ فِي تَوْجِيهِ النَّاشِئَةِ إِلَى السَّلُوكِ الْمُرْغُوبِ ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : " إِنْ الْمُرَبِّينَ ثَلَاثَةٌ ، مُرَبِّي مَقَالٍ ، وَمُرَبِّي فِعَالٍ ، وَمُرَبِّي بَحَالٍ ، فَالْمُرَبِّيُّ بِالْمَقَالِ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ : افْعَلُوا كَذَا أَوْ اصْنَعُوا كَذَا لِأَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ وَالْآدَابِ وَالْخُلُقِ الْحَسَنِ ، وَالْمُرَبِّيُّ بِالْفِعَالِ لَا يَكْلِمُهُمْ بِذَلِكَ ، بَلْ أَيْ حَالَةٍ أَرَادَ أَنْ يَتَصَفَّوْا بِهَا اتَّصَفَ بِهَا هُوَ ، مِنَ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ وَالذِّكْرِ وَالْآدَابِ ، ففَعَلُوا كَأَفْعَالِهِ ، وَأَمَّا الْمُرَبِّيُّ بِالْحَالِ ، فَأَيْ حَالَةٍ خَطَرَ لَهُ أَنْ يَتَصَفَّ بِهَا بَعْضُ أَصْحَابِهِ التَّجَاؤُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي بُلُوغِهِ لَهَا ، حَتَّى يُلْقِيَ اللَّهُ ، وَرِعَا أَلْبَسَهُ الشَّيْخُ تِلْكَ الْحَالَةَ بِتَصَرُّفٍ بَاطِنٍ وَتَوْفِيقٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ أَصْحَابُهُ بِذَلِكَ " (١) ..

(١) الأهل ، تحفة الزمن في تاريخ معاداة اليعن ، ج ٢ ص ٥٢ .

ملحق رقم (١٣)

سند اتصال الطريقة الجيلانية القادرية في اليمن إلى مطلع القرن التاسع الهجري :

ليس الشيخ أبو القاسم بن عمر البجلي الخرقه الجيلانية القادرية من الشيخ أحمد بن محمد المرّضي الحَكَمي ، وليس المرّضي الحَكَمي الخرقه من الفقيه إبراهيم بن عمر بن عثمان الحَكَمي صاحب قرية البروة ، ولبسها إبراهيم بن عمر من أخيه علي بن عمر الحَكَمي ، ولبسها علي بن عمر من أخيه أبي بكر بن عمر الحَكَمي ، وليس أبو بكر الخرقه ذاتها من أبيه عمر بن عثمان المعروف بزعم الدارين ، ولبسها أبوهم زعم الدارين من عمه عبدالواحد بن محمد بن أبي بكر الحَكَمي الذي لبسها بدوره من أبيه الشيخ محمد بن أبي بكر الحَكَمي ، ولبس أبوه الشيخ محمد بن أبي بكر الخرقه من الشيخ علي بن الحداد ، ولبسها الشيخ علي بن الحداد من شيخ الشيخ الإمام عبدالقادر الجيلاني بسنده المعروف ، فنع الله بهم ، آمين^(١) .

(١) الأعدل ، تحفة الزمن في تلخيص سادات اليمن ، ج ٢ من ٥٣ .

ملحق رقم (١٤)

أ نموذج لإجازة علمية أصدرها عالم شيعي زيدي في القرن التاسع الهجري باليمن^(١)

نص الإجازة التي منحها الفقيه العلامة محمد بن أحمد بن يحيى مظفر (ت ٩٢٦هـ / ١٥١٩م) للعلامة شمس الدين بن محمد بن صلاح الهادي (ت آخر القرن التاسع الهجري)^(٢) :

" لما قرأ عليّ وسمع الشرف العالم الورع ، العامل الكامل ، الأزهد الأعدل ، شمس الدين كتاب (البيان) لحي والدي عماد الدين يحيى بن أحمد ، وتكرر لي فيه السماع ، وصحت لي فيه الإجازة من لدنه ، وكتاب (البستان) و (البيان) قراءة من اطلع على معانيها وحقق حقائقها ، واستفاد وأحاط بما عند شيخه وزاد ، استخرت الله وأجزت له رواية هذه الكتب المباركة بعد أن صحت كبه بطريق المقابلة على الأئمة^(٣) ، فلبس الناقل عنه وعنها ، والآخذ منه ومنها ، وفقنا الله وإياه لما يحب ويرضاه ، وهو المسؤول الدعاء في الحياة وبعد الحياة ، وذلك مؤخّة عليه ، قال تعالى : (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) ، وكان ذلك في أوقات متفرقة ، وبحال متعددة ، آخرها اليوم السابع من شهر رمضان سنة ست وتسعين وثمانمائة ، وكب العبد الفقير إلى الله محمد بن أحمد بن يحيى بن مظفر عفى الله عنه ، آمين ،،، انتهى " .

(١) ابن المؤيد ، طبقات الزيدية لكبرى ، ج ١ ص ٤٨٨ ، ٤٨٩ .

(٢) وإن تأخرت وفاة المجيز إلى منتصف العقد الثالث من القرن العاشر إلا أن تاريخ الإجازة كما هو مثبت في نصها في العقد الأخير من القرن التاسع الهجري ، لذلك نسبناها إلى القرن الذي كتبت فيه .

(٣) للوضوح تماماً من هذه العبارة أن الإجازة في نظر العلامة محمد بن أحمد بن يحيى مظفر تستلزم كذلك النظر للدهن في طبعة النسخ التي يقرأ منها طالب الإجازة ، وذلك عن طريق مقابلتها على النسخ الخاصة بالمعالم المجيز نفسه ، لذلك دعنا مباشرة إلى الوثوق بها .

قائمة مصادر الدراسة ومراجعتها

قائمة المصادر والمراجع

المصادر المخطوطة

ابن أسير: محمد بن محمد بن منصور (ت بعد ٩٥٠ هـ / ١٥٤٣ م)

١- الجوهر المفيد في تاريخ مدينة زبيد ، نسخة مصورة عن معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، تحت رقم (٧٣ تاريخ) .

إسماعيل بن محمد: إسماعيل بن محمد بن الحسن بن القاسم بن محمد (ت ١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م)

٢- مسط اللآل في شعر الآل ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، تحت رقم (١٨٤١ أدب) .

الجحافي: برهان الدين إبراهيم بن إسماعيل الجحافي (ت ٨١٠هـ / ١٤٠٧م)

٣- ديوان إبراهيم الجحافي ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، تحت رقم (١٣٨٥ أدب) .

الجندري: أحمد بن عبدالله بن عبدالرحمن (ت ١٣٣٧هـ / ١٩١٨م)

٤- الجامع الوجيز بوفيات العلماء أولي التبريز ، نسخة مصورة عن نسخة بمكتبة محمد عبدالله الشرعي ، صنعاء .

الحسيني: علي بن الحسن (ت بعد ٨١٥هـ / ١٤١٢م)

٥- ملخص الفطن والألباب ومصباح الهدى للكتاب ، نسخة مصورة عن مكتبة القاضي إسماعيل الأكوع - صنعاء .

الحضرمي: عبدالرحمن بن عبدالله

٦- جامعة الأشاعر زبيد ، نسخة مصورة بالمكتبة المركزية ، جامعة صنعاء عن مسودة الطبعة الثانية ، محفوظة أصلها لدى أبناء المؤلف بزبيد .

الخزرجي: شمس الدين أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي بكر بن الحسن (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م)

٧- طراز أعلام الزمن في طبقات أعلام اليمن ، نسخة مصورة عن مكتبة د.عبدالرحمن الشجاع ، صنعاء ، (للحزبين الأول والثاني فقط) .

٨- العقد الفاخر للحسن في طبقات أكابر اليمن ، نسخة بمكتبة الجامع الكبير الغربية ، صنعاء ، رقم (٤٣ ترلجم) .

٩- العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر اليمن ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، تحت رقم (٢٥٤) .

١٠- المسجد المسيوك فيمن ولي من اليمن من الملوك ، نسخة مصورة منشورة ، وزارة الإعلام والثقافة بالجمهورية العربية اليمنية ، مشروع الكتاب ، ودار الفكر ، دمشق ، للطبعة الثانية ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

داعر: عبدالله صلاح للدين بن داعر (١٠١٠هـ / ١٦٠١م)

١١- الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية ، صورة عن نسخة بخط المؤلف في مكتبة القاضي محمد علي الأكوع ، صنعاء .

داعر: صلاح بن داعر المرهبي (ت في القرن العاشر الهجري)

١٢- سيرة الإمام يحيى شرف الدين ، صورة عن نسخة مخطوطة بمكتبة زيد الحوثي ، صنعاء .

أبو الرجال: للقاضي أحمد بن صالح بن محمد بن علي (ت ١٠٩٢هـ / ١٦٨١م)

١٣- مطلع البدور ومجمع البحور ، صورة عن نسخة بمكتبة د. عبدالرحمن الشجاع ، صنعاء .

ابن الرشيد: عامر بن محمد بن عبدالله بن عامر بن علي بن محمد بن علي (ت ١١٣٥هـ / ١٧٢٢م)

١٤- بغية المرید وأنس الفريد فيمن أولاده علي بن محمد بن علي بن الرشيد ، صورة عن نسخة مخطوطة بالمكتبة المركزية ، جامعة صنعاء .

الزبيدي: علي بن محمد قهر (ت بعد ٩٦٢هـ / ١٥٥٤م)

١٥- نقائص النفائس فيمن أنشأ وعمر من المساجد والمدارس ، نسخة مصورة عن مكتبة القاضي إسماعيل الأكوع ، صنعاء .

شرف الدين: الحسن بن عبدالرحمن بن أحمد بن محمد بن الحسين (ت ١٢٦٥هـ / ١٨٤٨م)

١٦- المواهب السنية مما من به الله تعالى من الفواكه الجنية من أغصان الشجرة المتوكلية ، صورة عن نسخة مخطوطة لدى إبراهيم عبدالكريم

شرف الدين ، كوكبان .

لللّخمي: مسلم بن محمد بن جعفر (ت ٥٤٥هـ / ١١٥٠م)

١٧- طبقات مُسلم اللّخمي ، مخطوطة مصورة على قرص ليزر ، صادر عن

مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، عمّان .

بامخرمة: الطيب بن عبدالله بن أحمد (ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م)

١٨- النسبة عن إلى المواضع والبلدان ، نسخة مصورة عن المكتبة المحمودية

بالمدينة المنورة ، تحت رقم ٢٥٦٩ .

المرتضى: الحسن بن أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م)

١٩- كنز الحكماء وروضة الطعام ، مخطوط بمكتبة الجامع الكبير للفربية،

صنعاء ، تحت رقم (١١٥) .

ابن مظفر: مُحمد بن أحمد بن يحيى (ت ٩٢٦هـ / ١٥١٩م)

٢٠- الترجمان المفتاح لكلمات ثمرات البستان ، صورة عن مكتبة أحد مشايخ

قبيلة أرحب من آل السخيمي .

٢١- وثيقة الوقف الخاص بالمدرسة الظاهرية العلمية في نعر ، ضمن الوقفية العثمانية المحفوظة

بمكتب وزارة الأوقاف والإرشاد بمحافظة نعر ، الجمهورية اليمنية .

٢٢- وثيقة الوقف الخاص بالمدرسة الجوهريّة العلمية في نعر ، ضمن الوقفية العثمانية المحفوظة

بمكتب وزارة الأوقاف والإرشاد بمحافظة نعر ، الجمهورية اليمنية .

٢٣- وثيقة الوقف الخاص بالمدرسة الأنضلية العلمية في نعر ، ضمن الوقفية العثمانية المحفوظة

بمكتب وزارة الأوقاف والإرشاد بمحافظة نعر ، الجمهورية اليمنية .

٢٤- وثيقة الوقف الخاص بجامع ثعبات في نعر ، ضمن الوقفية العثمانية المحفوظة بمكتب وزارة

الأوقاف والإرشاد بمحافظة نعر ، الجمهورية اليمنية .

٢٥- وثيقة الوقف الخاص بمدرسة سلامة العلمية في نعر ، ضمن الوقفية العثمانية المحفوظة بمكتب

وزارة الأوقاف والإرشاد بمحافظة نعر ، الجمهورية اليمنية .

٢٦- وثيقة الوقف الخاص بالمدرسة الأشرافية العلمية في نعر ، ضمن الوقفية العثمانية المحفوظة

بمكتب وزارة الأوقاف والإرشاد بمحافظة نعر ، الجمهورية اليمنية .

٢٧- وثيقة الوقف الخاص بالمدرسة المؤيدية العلمية في تعز ، ضمن الوقفية الغسانية المحفوظة بمكتب وزارة الأوقاف والإرشاد بمحافظة تعز ، الجمهورية اليمنية .

٢٨- وثيقة الوقف الخاص بالمدرسة الياقوتية العلمية بذي السفال ، ضمن الوقفية الغسانية المحفوظة بمكتب وزارة الأوقاف والإرشاد بمحافظة تعز ، الجمهورية اليمنية .

٢٩- وثيقة الوقف الخاص بالمدرسة المعتبية العلمية في تعز ، ضمن الوقفية الغسانية المحفوظة بمكتب وزارة الأوقاف والإرشاد بمحافظة تعز ، الجمهورية اليمنية .

الوزير: أحمد بن عبدالله بن أحمد بن إبراهيم (ت ٩٨٥هـ / ١٥٧٧م)

٣٠- تاريخ بني الوزير ، صورة عن نسخة بمركز التراث والبحوث اليمني ، مركز التراث والبحوث اليمني ، صنعاء .

الوزير: محمد بن عبدالله بن الهادي بن إبراهيم (ت ٨٩٧هـ / ١٤٩١م)

٣١- ترجمة موسعة للإمام محمد بن إبراهيم الوزير ، مخطوط بالمكتبة الجامع الكبير الغربية ، صنعاء ، تحت رقم (٢٩ مجاميع) .

الوزير: الهادي بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفصل (ت ٨٢٢هـ / ١٤٢٢م)

٣٢- رياض الأبصار في ذكر الأئمة الأئمة ، نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير الشرقية ، تحت رقم (٣١٥٤) .

٣٣- كشفة الفمة في حسن سيرة إمام الأمة ، مخطوطة مصورة على قرص ليزر ، صادر عن مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، عمان .

وطبوت: حسين بن إسماعيل (عاش في القرن التاسع الهجري)

٣٤- تاريخ المعلم وطبوت (في مناقب الصالحين من مشايخ سهام) ، نسخة مصورة عن المكتبة المركزية - جامعة صنعاء .

يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي (ت ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م)

٣٥- طبقات الزيدية الصغرى المعروف بالمستطاب ، صورة عن نسخة بمكتبة د. عبدالرحمن الشجاع ، صنعاء .

قائمة المصادر والمراجع المطبوعة

١- القرآن الكريم

إبراهيم أنيس وآخرون:

- ٢- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، دار الدعوة ، استانبول ،
الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م)

- ٣- الكامل في التاريخ ، تحقيق علي شيري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،
الطبعة الأولى ، ١٩٨٩م .

أحمد بن مسفر بن معجب العتيبي:

- ٤- دهاقنة اليمن - تحقيقات ومطالعات في ملف الإسماعيلية ، دار البشير ،
عمّان ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢م .

أحمد تيمور:

- ٥- نظرة تاريخية في حوث المذاهب الفقهية الأربعة الحنفية ، المالكية ،
الشافعية ، الحنبلي ، وانتشارها عند جمهور المسلمين ، دار القادري ،
بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م .

د. أحمد دراج:

- ٦- المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي ، دار
الفكر العربي ، ١٩٦١م ، (د ، ط) .

أحمد سالم شيبان:

- ٧- الوجود المملوكي في اليمن ٩٢١ - ٩٤٥ هـ / ١٥١٥ - ١٥٣٨ م ، دار
الثقافة العربية ، الشارقة وجامعة عدن ، الطبعة الأولى ، (د ، ت) .

د. أحمد شلبي:

- ٨- التربية الإسلامية ، نظمها - فلسفاتها - تاريخها ، مكتبة النهضة المصرية ،
القاهرة ، الطبعة السادسة ، ١٩٧٨م .

أحمد عبدالله عارف:

- ٩- مقدمة في دراسة الاتجاهات الفكرية والسياسية في اليمن فيما بين القرن الثالث والخامس الهجري ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت . الطبعة الأولى ، ١٩٩١م .
- ١٠- الصلة بين الزيدية والمعتزلة ، دار آزال ، بيروت ، والمكتبة اليمنية ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

أحمد فخري:

- ١١- اليمن ماضيها وحاضرها ، بيروت ، المكتبة اليمنية ، صنعاء ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨م .

د. أحمد فكري:

- ١٢- مساجد القاهرة ومدارسها - العصر الفاطمي ، الأيوبي ، دار المعارف ، القاهرة ، (د ، ت) .

د. أحمد محمد نور سيف:

- ١٣- من أدب المحدثين في التربية والتعليم ، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ، دبي ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م .
- ١٤- مجالس المذاكرة وأهميتها في حفظ السنة ونقدها ، دار لبحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ، دبي ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤م .

د. أحمد محمود صبحي:

- ١٥- لزيدية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

- ١٦- الإمام المجتهد يحيى بن حمزة وآراءه الكلامية ، منشورات العصر الحديث ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

ابن الأخوة: محمد بن محمد (ت ٧٢٩هـ / ١٣٢٨م)

- ١٧- معالم القرية في أحكام الحسبة ، تحقيق محمد محمود شعان وآخر ، الهيئة

المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦م .

إبريس عماد الدين بن الحسن بن عبدالله القرشي (ت ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م)

١٨- عيون الأخبار وفنون الآثار في ذكر النبي المختار ووصيه علي بن أبي

طالب قاتل الكفار وآلهما الأئمة الأطهار عليهم صلوات الغفار ، الصبيح

الرابع ، تحقيق د. مصطفى غالب ، دار الأندلس ، بيروت ، (د ، ت) .

الأسنوي: جمال الدين عبدالرحيم (ت ٧٧٢هـ / ١٣٧٠م)

١٩- طبقات الشافعية ، تحقيق كمال يوسف الحوت ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،

الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م .

الأشرف الرسولي (الأول): عمر بن يوسف (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م)

٢٠- طريقة الأصحاب في معرفة الأنساب ، تحقيق ك . وسرستين ، منشورات

المدينة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م .

أشرف الرسولي (الثاني): إسماعيل بن العباس (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م)

٢١- السجد المسبوك والجواهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك ، تحقيق

د. شاكِر محمود عبدالمنعم ، دار البيان ، بغداد ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

الأشعري: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم الأشعري (ت ٣٢٤هـ / ٩٣٥م)

٢٢- إبانة عن أصول الديانة ، تحقيق محمود بن الجليل ، مكتبة الأنصار ،

القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .

أشواق أحمد مهدي غليس:

٢٣- التجديد في فكر الإمامة عند الزيدية في اليمن ، مكتبة مدبولي ، الطبعة

الأولى ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

الإصطحري: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (توفي في منتصف القرن الرابع الهجري)

٢٤- المسالك والممالك ، تحقيق د. محمد جابر الحيني ، سلسلة النخائر (١١٩)

، القاهرة ، مايو ٢٠٠٤م .

الأفضل الرسولي: العباس بن علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي

٢٥- العطايا السنوية والمواهب الهندية في المناقب اليمنية ، تحقيق عبدالواحد عبدالله

الخامري ، من إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ٢٠٠٤م .

٢٦- نزعة الظرفاء وتحفة الخلفاء ، دراسة وتحقيق نبيلة عبدالمنعم داود ، مكتبة

للتقافة ، مكة المكرمة ، (د ، ت) .

الأكوع: القاضي إسماعيل بن علي

٢٧- المدارس الإسلامية في اليمن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية

، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

٢٨- الإمام محمد بن إبراهيم الوزير وكتابه العواصم والقواصم ، دار البشير ،

عمان ، ١٩٨٨م .

٢٩- أئمة العلم المجتهدون في اليمن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ، ودار

البشير ، عمان ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢م .

٣٠- المدخل إلى معرفة هجر العلم ومعاقلة في اليمن ، دار الفكر ، دمشق ،

ودار الفكر للمعاصر ، بيروت .

٣١- هجر العلم ومعاقلة في اليمن ، دار الفكر ، دمشق ، ودار الفكر المعاصر

، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .

أعراف وتقاليد حكم اليمن في العصر الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،

١٩٩٤م .

آلاء أحمد الأصبحي:

٣٢- المدرسة الأشرفية بتعز ، من إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ،

صنعاء ، ٢٠٠٤م .

الأنسي: القاضي عبدالملك بن حسين

٣٣- اتحاف نوي الفطن بمختصر أنباء الزمن ، تحقيق إسماعيل الجرافي ،

ملحق مجلة كلية الآداب ، منشورات جامعة صنعاء ، ربيع الثاني

١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

الأهمل: بدر الدين أبو محمد الحسين بن عبدالرحمن (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م)

٣٤- تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي ،
المجمع الثقافي، أبو ظبي ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤م .

٣٥- كشف الغطاء عن حقائق التوحيد وعقائد الموحدين وذكر الأئمة
الأشعريين ومن خالفهم من المبتدعين وبيان حال ابن عربي وأتباعه
المارقين ، تحقيق أحمد بكير محمود ، تونس، ١٩٦٤م .

الأهمل: محمد علي

٣٦- نثر الدر المكنون من فضائل اليمن الميمون ، مطبعة زهران ، القاهرة ،
١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م .

الأهمل: عبدالرحمن بن سليمان (ت ١٢٥٠هـ / ١٨٣٥م)

٣٧- للنفس اليماني في إجازة القضاة بني الشوكاتي ، تحقيق ونشر مركز
الدراسات والأبحاث اليمنية ، صنعاء ، ١٩٧٩م .

ابن إياس:

٣٨- بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة،
١٩٦١م .

د. أيمن فؤاد سيد:

٣٩- مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، المعهد الفرنسي للأثار
الشرقية، القاهرة ، ١٩٧٤م .

٤٠- تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري
، الدار المصرية للكتاب ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨م .

البخاري: أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة (ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م)

٤١- الجامع الصحيح: صحيح البخاري ، تحقيق د. مصطفى ديب البغا ، دار
ابن كثير ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

البرعي : عبدالرحيم بن علي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م)

٤٢- ديوان عبدالرحيم البرعي ، دار الكتب الثقافية ، صنعاء ، (د ، ت) .

البريهي: عبدالوهاب بن عبدالرحمن السكسكي (ت ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م)

٤٣- طبقات صلحاء اليمن ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٤م .

ابن بطوطة: محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي

٤٤- تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار [رحلة ابن بطوطة] ، دار الشروق العربي ، ط ١ ، (د ، ت) .

البغدادي: إسماعيل باشا

٤٥- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٠م .

الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى (ت ٢٩٧هـ / ٩٠٩م)

٤٦- سنن الترمذي ، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحسن (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م)

٤٧- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق د. محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طبعة ١٩٨٥ .

٤٨- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق د. علي طرخار ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧١م .

د. توفيق الطويل:

٤٩- من تراثنا العربي الإسلامي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة رقم ٨٧ ، مارس ١٩٨٥م .

ابن جبير: محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م)

٥٠- رحلة ابن جبير ، تحقيق د. حسين نصار ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٩٢م .

الجزائري: علي بن محمد بن علي (ت ٨١٦هـ / ١٤١٣م)

٥١- كتاب التعريفات ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

ابن الجزري: شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد يوسف (ت ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م)

٥٢- غاية النهاية في طبقات القراء ، نشره ج . براجستراسر وبريستل ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٣٣م

٥٣- التمهيد في علم التجويد ، تحقيق غانم قدوري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦م .

٥٤- النشر في القراءات العشر، صححه علي محمد الصاع، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، (د ، ت) .

جماعة: إبراهيم بن سعد الله

٥٥- تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم ، تحقيق محمد هاشم الندوي ، ١٣٥٣هـ ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م ، وقد نشرته - مصوراً عن الطبعة السابقة - دار الكتب العلمية ، بيروت .

جميلة هادي الرجوي:

٥٦- يهود صنعاء ، مركز عبلاي للدراسات والنشر ، صنعاء ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م .

الجندي: بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب (ت ٧٣٧هـ / ١٣٣١م)

٥٧- الملوك في طبقات العظماء والملوك ، تحقيق محمد علي الأكوخ الحوالي ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م .

ابن الجوزي: عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ / ١٢٣١م)

٥٨- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق محمد عبدالقادر عطا وآخر ،
دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٥م .

٥٩- مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق سعد كريم الفقي ، دار ابن خلدون ،
الإسكندرية ، (د ، ت) .

ابن أبي حاتم: عبدالرحمن بن محمد بن إدريس الرازي (ت ٣٢٧هـ / ٩٣٨م)

٦٠- الجرح والتعديل ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، الهند
، ودار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٢٧١هـ / ١٨٥٤م .

حاجي خليفة: مصطفى بن عبدالله (ت ١٠٦٧هـ / ١٦٥٦م)

٦١- شفا الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٠م .

الحاكم: محمد بن عبدالله بن محمد النيسابوري

٦٢- المستدرک علی الصحیحین ، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا ، دار الكتب
العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م .

الحبشي: عبدالله محمد

٦٣- حياة الألب اليماني في عصر بني رسول ، منشورات وزارة الإعلام
والثقافة بالجمهورية العربية اليمنية ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠م .

٦٤- حكام اليمن المؤلفون المجتهدون ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، الطبعة
الأولى ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

٦٥- جامع الشروح والحواشي ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، الطبعة الأولى ،
٢٠٠٤م .

٦٦- الصوفية والفقهاء في اليمن ، مكتبة الجيل ، صنعاء ، ١٣٩٦هـ /
١٩٧٦م .

٦٧- مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، مجمع أبو ظبي الثقافي ، الطبعة الثانية
، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م .

٦٨- معجم النساء اليمنيات ، دار الحكمة اليمنية ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٩هـ /

١٩٨٨م .

٦٩- مخطوطات مكتبة المؤرخ محمد بن محمد زبارة ، ملحق بمجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، عند مايو ، ١٩٧٣م .

٧٠- مراجع تاريخ اليمن ، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق ، ١٩٧٢م .

٧١- فهرس المخطوطات اليمنية في حضرموت ، المركز اليمني للأبحاث الثقافية ، عدن ، ١٩٧٤م .

الحبيشي: عبدالرحمن بن محمد (ت حوالي ٨١٠هـ / ١٤٠٧م)

٧٢- تاريخ وصاب [الاعتبار في التواريخ والآثار] ، تحقيق عبدالله محمد الحبيشي ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩م .

ابن حجر: أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)

٧٣- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، تركيم محمد فؤاد عبدالداقي ، نشر وتوزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة الإرشاد ، السعودية ، ١٩٥٩م .

٧٤- تهذيب التهذيب ، باعتماد مكتب التحقيق بمؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م .

٧٥- الإصابة في تمييز الصحابة ، مؤسسة التاريخ العربي ودار إحياء التراث العربي ، الطبعة الأولى ، ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م .

٧٦- إنباء الغمر بأبناء العمر ، تحقيق د. حس حبيشي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٩٤م .

٧٧- نيل الدرر الكلمنة ، تحقيق عدنان درويش ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، ١٩٩٢م .

٧٨- ديوان ابن حجر العسقلاني ، تحقيق د. صبحي رشاد عبدالكريم ، دار الصحابة للتراث ، طنطا ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م .

٧٩- المجمع المؤسس للمعجم المفهرس ، تحقيق د. يوسف عبدالرحمن

المرعشلي ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢م .

الحجري: محمد بن أحمد

٨٠- مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، تحقيق إسماعيل الأكوع ، مكتبة الإرشاد ،
للطبعة الثالثة ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .

٨١- مساجد صنعاء ، علمها وموفيقها ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت
، ومكتبة اليمن الكبرى ، صنعاء ، (صورة عن طبعة وزارة المعارف ،
صنعاء ، ١٩٤١م) ، للطبعة الثانية .

الحداد: علوي بن طاهر بن عبدالله الحضرمي

٨٢- عقود الأمان بمناقب الإمام العارف بالله الحبيب أحمد بن حسن العباس
، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

الحداد: محمد بن يحيى

٨٣- التاريخ العام لليمن ، منشورات المدينة ، بيروت ، الطبعة الأولى ،
١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .

ابن حزم:

٨٤- الفصل في الملل والأهواء والنحل ، تحقيق د. محمد إبراهيم نصر وآخر
، دار عكاظ ، جدة ، ١٩٨٢م .

د. حسن الباشا:

٨٥- الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، دار النهضة العربية ،
القاهرة ، ١٩٦٥م .

د. حسن خضير أحمد:

٨٦- قيام الدلة الزيدية في اليمن ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ،
١٩٩٦م .

حسن صالح شهاب:

٨٧- أحمد بن ماجد والملاح في المحيط الهندي ، سلسلة الملاح العربية

الفلكية ، رقم (٨) ، مركز الدراسات والوثائق في الديوان الأميري بـرأس
الخميمة ، (د ، ت) .

٨٨- أضواء على تاريخ اليمن البحري ، دار الفلرابي ، بيروت ، لجنة نشر
الكتاب اليمني ، عدن ، ١٩٧٧م .

٨٩- عدن فرضة اليمن ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، الطبعة
الأولى ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

٩٠- البحار اليمني سليمان بن أحمد المهري مرشد الملاحة العربية في المحيط
الهندي ، مركز الشرعي للطباعة والنشر ، صنعاء ، الطبعة الأولى ،
٢٠٠٠م .

٩١- فن للملاحة عند العرب ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ،
ودار العودة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢م .

د. حسين بن عبدالله العمري:

٩٢- تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، دار الفكر ، دمشق ، ودار الفكر
المعاصر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م .

٩٣- في صفة بلاد اليمن عبر العصور ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ،
١٩٩٠م .

٩٤- الأمراء العبيد والمماليك في اليمن ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ،
الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

حسين بن علي الويسي:

٩٥- اليمن الكبرى ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، الطبعة الثانية ، ١٤١٢هـ /
١٩٩١م .

حسين بن فيض الله الهمداني:

٩٦- التصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ، إصدارات وزارة الثقافة
والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .

الحسيني: أبو بكر بن هداية الله (ت ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م)

٩٧- طبقات الشافعية ، حققه عادل فويهض ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ،
الطبعة الثالثة ، ١٩٨٢م .

الحضرمي: عبدالرحمن بن عبدالله

٩٨- جامعة الأشاعر زبيد ، نشر الشركة اليمنية للطباعة والنشر ، صنعاء ،
الطبعة الأولى ، ١٩٧٤م .

٩٩- زبيد : مساجدها ومدارسها العلمية في التاريخ ، المعهد الفرنسي
للدراسات اليمنية ، صنعاء ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ،
٢٠٠٠م .

الحمادي: محمد بن مالك بن أبي القبائل المعافري (ت وسط القرن الخامس الهجري)

١٠٠- شف أسرار الباطنية ولخبار القرامطة ، تحقيق محمد علي الأكوع ، مركز
الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، الطبعة الأولى ،
١٤١٥هـ / ١٩٩٤م .

حمزة علي لقمان:

١٠١- تاريخ الجزر اليمنية ، ١٩٧٢م ، (د ، ن) .

الحموي: شهاب الدين أبو عبدالله باقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)

١٠٢- معجم البلدان ، دار صادر ، دار بيروت ، بيروت ، ١٩٧٩م .

١٠٣- معجم الأنبياء ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٠هـ / ١٩٨٠م .

حميد الدين: عبدالملك بن أحمد بن قاسم

١٠٤- الروض الأخر في معرفة المؤلفين باليمن ومصنفاتهم في كل فن ، دار
الحارثي ، الطائف ، (د ، ت) .

ابن حمير: محمد بن حمير الوصافي (ت ٦٥١هـ / ١٢٥٣م)

١٠٥- ديوان ابن حمير ، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، دار العودة ، بيروت ،
الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م .

الحميري: لشوان بن سعود (ت ٥٧٣هـ / ١١٧٧م)

١٠٦- منتخبات من أخبار اليمن من شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم

، عناية وتصحيح عظيم الدين أحمد ، مطبعة بريل ، لندن ، (د ، ت) .

١٠٧- ملوك حمير وأقبال اليمن ، تحقيق علي بن اسماعيل المؤيد وآخر ،

المطبعة السلفية ، القاهرة ، صدعاء ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٦هـ — /

١٩٧٦م.

١٠٨- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ، تحقيق د. حسين عبدالله

العمري وآخرين ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٣م .

الحميري: محمد بن عبدالمعزم (ت ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م)

١٠٩- لروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق د. إحسان عباس ، مؤسسة

ناصر الثقافية ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠م .

باحثان: محمد بن علي بن عوض بن سعيد بن زانن

١١٠- جواهر تاريخ الأحقاف ، راجعه ووصع فهارسه وصححه حسن جلا حسن

، مطبعة الفجالة ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

ابن خالوية: الحسين بن أحمد (ت ٣٧٠هـ / ٩٨٠م)

١١١- للحجة في القراءات المبيغ ، تحقيق د. حسن عبدالعال سالم ، دار

الشروق ، بيروت ، ١٩٧١م .

الخزرجي: شمس الدين أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي بكر بن الحسن (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م)

١١٢- العقود النولوية في تاريخ الدولة الرسولية ، تحقيق محمد علي الأكوع ،

مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ /

١٩٨٣م .

١١٣- اليمن في عهد الولاة ، الفصول الخمسة الأولى من كتاب [الكفاية

والإعلام] ، تحقيق راضي دغفوس ، منشورات الجامعة التونسية ، تونس ،

١٩٧٩م .

الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م)

١١٤-الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، تحقيق د. محمود الطحان ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤٠٣هـ .

١١٥-الكفاية في علم الرواية ، تحقيق عبدالحليم حسن محمود ، دار الكتب الحديثة، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٢م .

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)

١١٦-مقدمة ابن خلدون ، حققها وشرحها رعلق عليها د. علي عبدالواحد وافي ، سلسلة مكتبة الأسرة ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ٢٠٠٦م .

ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ / ١٢٨١م)

١١٧-وفيات الأعيان، تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت، (د ، ت).

خليفة: خليفة بن خياط (شهاب) العصفري (ت ٢٤٠هـ / ٨٥٤م)

١١٨-كتابات الطبقات ، تحقيق د. أكرم ضياء العمري ، دار طبية للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م .

١١٩ تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق د. أكرم ضياء العمري ، دار طبية للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

خير الدين الزركلي:

١٢٠- الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثامنة ، ١٩٨٩م .

أبو داود: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م)

١٢١- سنن أبي داود ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الفكر ، بيروت ، (د ، ت) .

الداودي: شمس الدين محمد بن علي بن أحمد (ت ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م)

١٢٢-طبقات المفسرين ، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٢م .

ابن الديبع: أبو الضياء عبدالرحمن بن علي (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م)

١٢٣- بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي ،
مركز الدراسات والبحوث اليمنية ، صنعاء ، ١٩٧٩م .

١٢٤- الفضل المزيد علي بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، تحقيق د.
يوسف شلحد، مركز الدراسات والبحوث اليمنية ، صنعاء ، ١٩٨٣م .

١٢٥- نشر المحاسن اليمنية في خصائص اليمن ونسب القحطانية ، تحقيق
أحمد راتب حمروش ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، الطبعة الأولى،
١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

١٢٦- قرة العيون في أخبار اليمن الميمون ، تحقيق محمد علي الأكوع ، الطبعة
الثانية، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م ، (د ، ن) .

الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)

١٢٧- سير أعلام النبلاء ، تحقيق مجموعة من الباحثين تحت إشراف شعيب
الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الحادية عشرة ،
١٤١٩هـ / ١٩٩٨م

١٢٨- العبر في خبر من غير، تحقيق د.صلاح الدين المنجد ، دائرة المطبوعات
والنشر، الكويت ، ١٩٦٠م .

١٢٩- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ، تحقيق بشار معروف
وآخرون ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨م .

١٣٠- تذكرة الحفاظ ، صححها وعلق عليها عبدالرحمن ابن يحيى المعلمي ،
دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د ، ت) .

ذو النون المصري:

١٣١- صارة اليمنى ، مكتبة النهضة المصرية ، (د ، ت) .

الرازي: أحمد بن عبدالله (ت ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م)

١٣٢- تاريخ مدينة صنعاء ، تحقيق د. حسين عبدالله العمري وآخر، دار الفكر ،
بيروت، الطبعة الأولى ، ١٩٧٤م .

الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت ١٠٦هـ / ١٢٠٩م)

١٢٣- مختار الصحاح ، مؤسسة علوم القرآن ، بيروت ، ١٩٨٦م .

الرامهرمزي: الحسن بن عبدالرحمن (ت ٣٦٠هـ / ٩٧٠م)

١٢٤- المحدث الفاضل بين الراوي والواعي ، تحقيق د. محمد عجاج الخطيب ،

دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٤م .

الربيعي: مفرح بن أحمد (توفي في القرن الخامس الهجري)

١٢٥- سيرة الأميرين الجليلين الشريفين الفاضلين ، تحقيق ودراسة رضوان السيد

وآخر ، دار المنتخب العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣م .

د. ربيع حامد خليفة:

١٢٦- الفنون للزخرفية اليمنية في العصر الإسلامي ، لدار المصرية اللبنانية ،

القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢م .

د. رشاد بن عباس معتوق:

١٢٧- الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي ، معهد البحوث وإحياء

التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤١٨هـ /

١٩٩٧م .

د. رضوان أحمد التليث:

١٢٨- الحياة العلمية في بلاد الشام خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين ،

إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ٢٠٠٤م .

الرقيعي: أحمد عبدالرزاق وآخران

١٢٩- فهرس مخطوطات الجامع الكبير بصنعاء ، شارك في الفهرسة عبدالله

محمد الحبشي وعلي وهاب الأتسي ، نشر وزارة الأوقاف بالجمهورية

العربية اليمنية ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م .

زيارة: محمد بن محمد بن يحيى (ت ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م)

١٤٠- اتحاف المهتدين بذكر الأئمة المجددين ، مطبعة المقام الشريف ، صنعاء ،

١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م .

١٤١- خلاصة المتون في أنباء ونبللاء اليمن الميعون ، تحقيق أحمد محمد زيارة

، مركز التراث والبحوث اليمني ، ساري ، بريطانيا ، الطبعة الأولى ،

١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .

١٤٢- نشر العرف لنبللاء اليمن بعد الألف ، للجزء الأول ، مركز الدراسات

والبحوث اليمني ، صنعاء ، (د ، ت) .

١٤٣- أئمة اليمن ، مطبعة للنصر الفاصرية ، تعز ، ١٩٥٢م .

١٤٤- أنباء اليمن ونبلائه بالإسلام ، مطبوع ضمن مجلد [الأنباء عن دولة

بنقيس وسبأ] ، للدار اليمنية للشر والتوزيع ، صنعاء ، ١٤٠٤هـ /

١٩٨٤م .

١٤٥- ملحق البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، [ملحق بكتاب البدر

الطالع للإمام الشوكاني] ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٤٨هـ /

١٩٢٩م ، (د ، ن) .

للزحيف: محمد بن علي بن يونس المعروف بابن هند (ت ٩١٦هـ / ١٥١٠م)

١٤٦- مآثر الأبرار في تفصيل مجملات جواهر الأخبار ويسمى [اللواحق الندية

بالحدائق الوردية] ، تحقيق عبدالسلام الوجيه وآخر ، مؤسسة الإمام زيد

ابن علي الثقافية ، عمان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .

للزرقاني: محمد عبدالمعظيم

١٤٧- مناهل العرفان في علوم القرآن ، تصحيح الشيخ أمين سليمان الكردي ،

دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥م .

للزركشي: محمد بن عبدالله (ت ٧٩٤هـ / ١٣٩١م)

١٤٨- إعلم المساجد بأحكام المساجد ، تحقيق أبو الوفا مصطفى المراغي ، لجنة

إحياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ،

الطبعة السادسة ، ٢٠٠٥ م .

أبو زهرة: محمد

- ١٤٩- تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية،
دار الفكر العربي ، القاهرة ، (د ، ت) .
١٥٠- تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية،
دار الفكر العربي ، القاهرة ، (د ، ت) .

زيد بن علي الوزير:

- ١٥١- حوار عن المطرفية ، مركز التراث والبحوث اليمنى ، صنعاء ، الطبعة
الأولى ، ٢٠٠٢ م .

المسكي: عبدالرهاب بن تقي الدين (ت ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م)

- ١٥٢- طبقات الشافعية للكبرى ، تحقيق د. عبدالفتاح الحلو وآخر ، مطبعة حجر
للطباعة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٢ م .
١٥٣- معبد النعم ومبيد النقم ، تحقيق محمد علي النجار وآخرين ، دار الكتاب
العربي ، القاهرة ، ومكتبة المثنى ، بغداد ، الطبعة الأولى ، ١٩٤٨ م .
السخاوي: شمس الدين محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م)

- ١٥٤- الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ، تحقيق د. حامد
عبدالمجيد وآخر ، لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ،
١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

- ١٥٥- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٣ هـ /
١٩٣٤ م .

- ١٥٦- الإعلان بالتوبيخ لمن فم التاريخ ، دراسة وتحقيق محمد عثمان
الخضت ، مكتبة ابن سينا ، القاهرة ، (د ، ت) .

ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م)

- ١٥٧- الطبقات الكبرى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ،
١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .

د. سعد عبدالفتاح عاشور:

١٥٨- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، دار النهضة ، القاهرة ،
الطبعة الثانية ، ١٩٩٢م .

الصفاف: عبدالرحمن بن عبيدالله

١٥٩- معجم بلدان حضرموت المسمى [إدام القوت في نكر بلدان حضرموت] ،
تحقيق إبراهيم المقحفي وآخر ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، الطبعة الأولى ،
١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .

السمعاني: عبدالكريم (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٦م)

١٦٠- آداب الإملاء والامتلاء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ،
١٩٨١م .

السياعي: الحسين بن أحمد بن الحسين بن أحمد (ت ١٢٢١هـ / ١٨٠٦م)

١٦١- الروض النضير شرح مجموع الفقه الكبير ، مكتبة المؤيد ، الطائف ،
الطبعة الثانية ، ١٩٦٨م .

د. سيد رزق الطويل:

١٦٢- في علوم القراءات ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ،
١٩٨٥م .

د. سيد مصطفى سالم:

١٦٣- الفتح العثماني الأول لليمن ، معهد البحوث والدراسات العربية وجامعة
صنعاء ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧م .

السيوطي: جلال الدين أبو الفضل عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)

١٦٤- تكريب الراوي في شرح تكريب النووي ، تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف ،
المكتبة العلمية ، المدينة المنورة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٢م .

١٦٥- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل
إبراهيم ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م .

١٦٦- طبقات الحفاظ ، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

١٦٧- الإتقان في علوم القرآن ، مكتبة المعارف ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م .

الشاطري: محمد بن أحمد

١٦٨- أدوار التاريخ الحضرمي ، مكتبة تريم الحديثة ، حضرموت ، اليمن ،
الطبعة الثالثة ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م .

الشامي: محمد أحمد

١٦٩- تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي ، دار النفائس ، بيروت ،
١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

الشرجي: أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م)

١٧٠- طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص ، الدار اليمنية للنشر والتوزيع ،
اليمن ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م

١٧١- التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ، المكتبة الإسلامية ، القاهرة ،
٢٠٠٣م .

شرف الدين: أحمد حسين

٣٦- اليمن عبر التاريخ ، مطابع الفرزدق ، الرياض ، الطبعة الخامسة ،
١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

شرف الدين: محمد بن إبراهيم بن المفصل بن إبراهيم بن علي (ت ١٠٨٥هـ / ١٦٧٤م)

١٧٢- سيرة الإمام شرف الدين المسمى [السلوك الذهبية في خلاصة السيرة
المتوكلية] ، (د ، ت ، ن) .

شرف الدين: علي بن عبد الكريم الفضيل

١٧٣- الزيدية : نظرية وتطبيق ، العصر الحديث للنشر والتوزيع ، بيروت ،
الطبعة الثانية ، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م .

شرف الدين: عيسى بن لطف الله بن المطهر (ت ١٠٨٤هـ / ١٦٧٣م)

١٧٤- روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، تحقيق

إبراهيم المقحفي ، مركز عبادي للدراسات والنشر ، صنعاء ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣م .

الشلي: محمد بن أبي بكر باعلوي (ت ١٠٩٣هـ / ١٦٨٢م)

١٧٥- المنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر ، تحقيق إبراهيم

المقحفي ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، للطبعة الأولى ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .

١٧٦- المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي ، بيروت ، الطبعة

الثانية ، ١٩٨٢م ، (د ، ن) .

شنبل: أحمد بن عبدالله بن عبدالله (ت ٩٢٠هـ / ١٥١٤م)

١٧٧ تاريخ حضرموت المعروف بتاريخ شنبل ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي ،

الطبعة الأولى ، ١٩٩٤م ، (د ، ن) .

الشمهاري: جمال الدين علي بن عبدالله بن القاسم بن المؤيد بن القاسم (ت بعد ١١٧٦هـ / ١٧٦٢م)

١٧٨- وصف صنعاء - مسئل من كتاب المنشورات الجليلة ، تحقيق عبدالله محمد

الحبشي ، المركز الفرنسي للدراسات اليمنية ، صنعاء ، ط ١ ، ١٩٩٣م .

د. شوقي صيف:

١٧٩- تاريخ الألب العربي - عصر الدول والإمارات ، دار للمعارف ، القاهرة ،

الطبعة الثالثة ، ١٩٩٠م .

د. شوقي عبدالقوي عثمان:

١٨٠- تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية ، سلسلة عالم المعرفة ،

رقم (١٥١) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ذو

الحجة ١٤١٠هـ / يوليو ١٩٩٠م .

الشوكاني: محمد بن علي بن محمد (ت ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م)

١٨١- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع ، تحقيق د. حسين العمري ،
دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ودار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ،
١٩٩٨م .

١٨٢- ألپ الطلب ، تحقيق عبدالله محمد الحشي ، مركز الدراسات والأبحاث
اليمينية ، صنعاء ، ١٩٧٩م .

الشيزري: عبدالرحمن بن نصر (ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣م)

١٨٣- نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق د. السيد للباز العريني ، دار الثقافة
، بيروت ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

د. صبحي الصالح:

١٨٤- علوم الحديث ومصطلحه ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة
العاشرة ، ١٩٧٨م .

صبري فارس الهيثي:

١٨٥- الشيخ شهاب الدين أحمد بن ملجد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ،
الطبعة الأولى ، ١٩٨٩م .

ابن الصلاح: تقي عثمان بن عبدالرحمن (ت ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م)

١٨٦- مقدمة ابن الصلاح ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، الطبعة الأولى ،
١٩٩٧م .

الصيرفي:

١٨٧- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، تحقيق د. حسن حشي ،
وزارة الثقافة ، مركز تحقيق التراث ، القاهرة ، ١٩٧٠ - ١٩٧٣م .

طاش كبرى زاده: أحمد بن مصطفى (٩٦٨هـ / ١٥٦٠م)

١٨٨- مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، مراجعة وتحقيق د. كامل كامل بكري
وأخر ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

للطبراني:

أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠هـ / ٩٧٠م)

١٨٩- المعجم الأوسط ، تحقيق طارق عوض الله وآخر ، دار الحرمين ،

القاهرة ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

للطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م)

١٩٠- تلخيص الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت ، الطبعة

الثانية ، ١٩٦٧م ، (٥ ن) .

د. طلال الرفاعي:

١٩١- نبذة من كتاب ملخص الفطن والأكبب ومصباح الهدى للكتاب ،

مشورات المكتبة التجارية ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢م .

د. طه أبو زيد:

١٩٢- إسماعيل المقرئ : حياته وشعره ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ،

الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

للظاهري: خليل شاهين (ت ٨٧٣هـ / ١٢٦٨م)

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، عناية بولس راويس ، المطبعة

الجمهورية ، باريس ، ١٨٩٤م .

العامري: أبو زكريا عماد الدين يحيى بن أبي بكر بن محمد بن يحيى (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م)

١٩٣- غربال الزمان في وفيات الأعيان ، تحت إشراف القاضي عبدالرحمن

الإرياني ، طبعة دمشق ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

عباس علي الشامي:

١٩٤- يهود اليمن قبل الصهيونة وبعدها ، سلسلة كتاب (المسيرة اليمنية) ،

صنعاء ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨م .

ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبدالله (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م)

١٩٥- جامع بيان العلم وفضله ، تحقيق أبي الأشبال الزهيري ، دار ابن

الجوزي، الدمام ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

١٩٦- الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، مؤسسة التاريخ العربي ودار إحياء

التراث العربي ، الطبعة الأولى ، ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م ، (في هامش

كتاب الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر) .

د. عبدالحميد البطريق:

١٩٧- من تاريخ اليمن الحديث ، معهد البحوث والدراسات العربية ،

القاهرة ، ١٩٦٩م .

د. عبدالرحمن حسن جبار الله:

١٩٨- ذي السفال : مدينة الآثار الإسلامية ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ،

صنعاء ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .

د. عبدالرحمن حميدة:

١٩٩- أعلام الجغرافيين العرب ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠م .

د. عبدالرحمن عبدالواحد محمد الشجاع:

٢٠٠- اليمن في صدر الإسلام ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م .

٢٠١- الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع ، إصدارات وزارة

الثقافة والسياحة ، صنعاء ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤م .

د. عبدالشافي محمد عبداللطيف:

٢٠٢- العالم الإسلامي في العصر الأموي ، دار الوفاء للطباعة ، مصر ، الطبعة

الأولى ، ١٩٨٤م .

د. عبدالعباس لمصباح الغريزي وآخرون:

٢٠٣- جغرافية اليمن ، المكتبة المركزية ، تعز ، ٢٠٠٠م .

د. عبدالعزيز المقالح:

٢٠٤- قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة ، دار العودة ، بيروت ، الطبعة

الأولى ، ١٩٨٢م .

عبدالعزیز بن راشد السیدي:

٢٠٥- المدارس الیمنیة فی عهد الدولة الرسولية ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣م ،
(د ، ن) .

د. عبدالغنی محمود عبدالعاطي:

٢٠٦- الصراع الفكري فی الیمن بین الزیدية والمطرفیة ، عین للدراسات
والبحوث الإنسانية الاجتماعية ، لقاہرة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢م .

عبدالله عبدالسلام الحداد:

٢٠٧- مدینة حمص الیمنیة تاریخها وآثارها الدینیة ، دار الأفق العربیة ،
الطبعة الأولى ، ١٩٩٩م .

عبدالله فیاض:

٢٠٨- تاریخ التریبة عند الإمامیة وأسلافهم من الشیعة ، مطبعة أسعد ، بغداد ،
١٩٧٢م .

عبدالله قاسم الوشلي:

٢٠٩- المسجد ودوره الاجتماعي علی مدار التاريخ ، مؤسسة الكتاب الثقافیة ،
بیروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م .

ابن عبدالمجید: تاج للدين عبدالباقی (ت ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م)

٢١٠- بهجة الزمن فی تاریخ الیمن ، تحقیق عبدالله الحبشي ومحمد السنبانی ،
دار الحکمة الیمنیة ، صنعاء ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

العبدلي: أحمد بن فضل

٢١١- هدية الزمن فی أخبار ملوك لحج وعدن ، تحقیق خالد أبنا زید الأنرعي ،
مکتبة الجيل الجديد ، صنعاء ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .

ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبدالله بن محمد (ت ٥٤٣هـ / ١١٣٩م)

٢١٢- العواصم من القواصم فی تحقیق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله
عليه وسلم ، تحقیق محب الدين الخطيب ، المکتبة العلمية ، بیروت ، ١٩٨٥م .

العرشي: حسين أحمد

٢١٣- بنو الخمر في شرح مسك الختام ، عبادة الأب أنمتاس ماري الكرمل ،
دار إحياء للتراث العربي ، بيروت ، (د ، ت) .

د. عصام الدين عبدالرؤف الفقي:

٢١٤- اليمن في ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام الدولة الرسولية ، دار الفكر
العربي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ م .

العقيلي: محمد بن أحمد عيسى

٢١٥- التاريخ الأدبي لمنطقة جازان ، منشورات نادي جازان الأدبي ، الطبعة
الأولى ، ١٩٩٠ م .

باعلوي: علي بن أبي بكر السكران (ت ٨٩٥هـ / ١٤٨٩ م)

٢١٦- البرقة المشوقة في ذكر لباس الخرقاة الأنيقة ، طبع على نفقة علي بن
عبدالرحمن بن سهل ، القاهرة ، ١٣٤٧هـ / ١٩٢٨ م .

العلوي: علي بن محمد بن عبيدالله العبسي (توفي في مطلع القرن الثالث الهجري)

٢١٧- سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ، تحقيق د. سهيل زكار ، دار
الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م .

علي أبو زيد:

٢١٨- البديعيات في الأدب العربي ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ،
١٩٨٣ م .

علي بن علي جابر الحربي:

٢١٩- ابن الوزير وآراؤه الاعتقادية ، مكتبة عبدالله علي عامر ، الرياض ، الطبعة
الأولى ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧ م .

د. علي محمد زيد:

٢٢٠- معتزلة اليمن : دولة الهادي وفكره ، دار الكلمة ، صنعاء ، الطبعة
الثانية ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥ م .

٢٢١- تيارات معتزلة اليمن في القرن السادس الهجري ، المركز الفرنسي
للدراسات اليمنية ، صنعاء ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧ م .

العلمي: مجد الدين عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٢٨هـ / ١٥٢١م)

٢٢٢- الأكس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، النجف الأشرف ، العراق ،
١٩٦٨م ، (د ، ن) .

ابن العماد: أبو الفلاح عبدالحى (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م)

٢٢٣- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، بيروت ،
١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م .

عمارة: نجم الدين عمارة بن علي اليمني (ت ٥٦٩هـ / ١١٧٣م)

٢٢٤- المفيد في أخبار صنعاء وزبيد ، تحقيق محمد الأكوع ، المكتبة اليمنية ،
صنعاء ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

العمرى: أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م)

٢٢٥ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق أيمن فؤاد مسيد ، المعهد
العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، (د ، ت) .

د. عوض إبراهيم الحويان:

٢٢٦- الجغرافيا العامة للجمهورية اليمنية ، إصدارات جامعة صنعاء ، ٢٠٠٤م .

العبدروس: أبو بكر بن عبدالله العننى (ت ٩١٤هـ / ١٥٠٨م)

٢٢٧- ديوان محجة السالك وحجة النفسك، الطبعة الثانية، ١٩٣٦م، القاهرة، (د
، ن) .

الميدروس: محيي الدين عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله (١٠٣٨هـ / ١٦٢٨م)

٢٢٨- النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥م بيروت
، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م .

العنبي: محمود بن أحمد بن موسى (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥٢م)

٢٢٩- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان القسم الخامس بحوادث ٨٢٤ -

٨٥٠هـ تحقيق عبدالرزاق الطنطاوي ، دار الزهراء للإعلام العربي ،
القاهرة ، ١٩٨٩م .

عسان علي محمد الرمال:

٢٣٠- صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر خلال القرن العاشر
الهجري - السادس عشر الميلادي ، ١٩٨٥م ، (د ، ن) .

الفارابي: أبو نصر

٢٣١- إحصاء العلوم ، شره د. أمين عثمان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة
الثالثة ، ١٩٦٨م .

ابن فارس: أحمد (ت٣٩٥هـ / ١٠٠٤م)

٢٣٢- معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبدالسلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ،
الطبعة الأولى ، ١٩٩١م .

د. فاروق أحمد مجاهد:

٢٣٣- التعليم في اليمن في عهد دولة بني رسول خلال القرنين السابع والثامن
الهجريين ، إصدارات جامعة صنعاء ، ٢٠٠٤م .

د. فاروق عثمان أباطة:

٢٣٤- عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، الهيئة المصرية العامة
للكتاب ، ١٩٨٧م .

٢٣٥- الحكم العثماني في اليمن ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦م .

الفاسي: تقي الدين محمد بن أحمد بن علي (ت٨٣٢هـ / ١٤٢٨م)

٢٣٦- العقد الثمين في أخبار البلد الأمين ، تحقيق فؤاد سيد وآخر ، مؤسسة
للرسالة، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥م .

قائمر هنتس:

٢٣٧- المكاييل والأوزان الإسلامية ، ترجمة د. كامل الحسني ، منشورات

الجامعة الأردنية ، الطبعة الثانية ، (د ، ت) .

ابن فرحون: إبراهيم بن علي بن محمد المالكي (ت ٧٩٩هـ / ١٣٩٧م)

٢٣٨- الدباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، تحقيق محمد الأحمد أبو

النور ، دار التراث ، القاهرة ، (د ، ت) .

فضل علي أبو غانم:

٢٣٩- القبيلة والدولة في اليمن ، دار المنار ، القاهرة ، ١٩٩٠م .

بافضل: محمد بن عوض بن محمد

٢٤٠- صلة الأهل بتكوين ما تفرق من من مناقب بني فضل، مكتبة تريم ،

حضر موت، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠م .

بافقيه: محمد بن عمر الطيب

٢٤١- تاريخ الشجر وأخبار القرن العاشر ، تحقيق عبدالله محمد الحشي ، مكتبة

الإرشاد ، صنعاء ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م .

ابن فهد: تقي الدين أبو الفضل محمد بن محمد بن محمد بن فهد المكي (ت ٨٧١هـ / ١٤٦٦م)

٢٤٢- لحظ اللاحاظ بذيل طبقات الحفاظ ، صححها وعلق عليها عبدالرحمن بن

يحيى المعلمي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ٢٥٩ ، (د ، ت) .

ابن فهد: النجم عمر بن محمد (ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م)

٢٤٣- اتحلف الوري بأخبار أم القرى ، تحقيق فهد شلتوت ، مركز البحث

العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ،

١٩٨٤م .

٢٤٤- معجم الشيوخ ، تحقيق محمد الزاهي ، دار اليمامة ، الرياض ، ١٩٨٢م .

ابن فهد: عبدالعزيز بن عمر (ت ٩٢٢هـ / ١٥١٦م)

٢٤٥- غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ، تحقيق فهد شلتوت ، معهد

البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة

المكرمة، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨م .

الفيروز ابادي: مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م)

٢٤٦- القلموس المحيط ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، الطبعة الثانية، ١٩٥٢م .

د. فيصل بدر عون:

٢٤٧- علم الكلام ومدارسه ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨١م .

القابسي: أبو الحسن علي بن محمد بن خلف (ت ٤٠٣هـ / ١٠١٢م)

٢٤٨- الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين ضمن موسوعة الفكر التربوي العربي الإسلامي ، تحليل وتحقيق د. عبدالأمير شمس الدين ، الشركة العالمية للكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م .

ابن القاسم: الحسين بن القاسم بن محمد بن علي

٢٤٩- آداب العلماء والمتعلمين ، الدار للبيعية للنشر والتوزيع ، صنعاء ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م .

ابن قاضي شهاب: أبو بكر بن أحمد (ت ٨٥١هـ / ١٤٤٧م)

٢٥٠- طبقات الشافعية ، تحقيق د. الحافظ عبدالعليم خان ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م .

ابن قدامة: أحمد بن عبدالرحمن بن قدامة المقدسي (ت ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م)

٢٥١- مختصر منهاج القاصدين ، دار المنار ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥م .

القرشي: عبدالقادر بن محمد (ت ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م)

٢٥٢- الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، تحقيق د. محمد عبدالفتاح الحلو ، دار العلوم ، الرياض ، ١٩٧٨م .

د. قصي كامل صالح شبيب:

٢٥٣- أهمية مضيق باب المنذب في التواريخ الحديث والمعاصر ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٤م .

القنطري: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م)

٢٥٤- إنباه الرواه على أنباه النفاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر

العربي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦م .

القنطري: أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)

٢٥٥- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ،

وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، والمؤسسة المصرية العامة للتأليف

والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، (د ، ت) .

القنوجي: صديق بن حسن (ت ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م)

٢٥٦- أبجد العلوم ، دار ابن حزم ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢م .

القيسي: مكي أبوطالب (ت ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م)

٢٥٧- الإبانة عن معاني القراءات ، تحقيق عبدالفتاح إسماعيل شلبي ، المكتبة

الفيصلية ، مكة المكرمة ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

ابن قيم الجوزية: شمس الدين محمد بن أبي بكر أيوب (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م)

٢٥٨- الطب النبوي ، مراجعة وتعليق عبدالغني عبدالخالق ، دار الفكر ،

بيروت ، (د ، ت) .

كارل بروكلمان:

٢٥٩- الأدبيات اليمنية في المكتبات والمراكز الثقافية العالمية ، ترجمة صالح

بن الشيخ أبويكر ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، الطبعة

الأولى ، ١٩٨٥م .

الكفيجي: محيي الدين محمد (ت ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م)

٢٦٠- المختصر في علم الأثر ، تحقيق د. علي زوين ، دار الرشيد ، الرياض ،

الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م .

الكبيسي: محمد بن إسماعيل (ت ١٣٠٨هـ / ١٨٩٠م)

٢٦١- اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ،

١٩٨٤م .

للكتاني: عبدالحى بن عبدالكبير (ت ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م)

٢٦٢- فهرس الفهارس والأكتبات ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢م .

ابن كثير: عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثير القرشي النمشقي (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧١م)

٢٦٣- البداية والنهاية ، تحقيق مكتب التحقيق بدار إحياء التراث العربي ، دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة للتاريخ العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م .

٢٦٤- الباحث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د ، ت) .

كحالة: عمر رضا

٢٦٥- معجم المؤلفين ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (د ، ت) .

للكندي: سالم بن محمد (ت ١٣١٠هـ / ١٨٩٢م)

٢٦٦- تاريخ حضرموت للسياسي [القعدة المفيدة الجامعة لتواريخ قديمة وحديثة] ، تحقيق عبدالله الحيشي ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .

ابن ماجه : أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م)

٢٦٧- سنن ابن ماجه ، تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبدالباقي ، دار الفكر ، بيروت ، (د ، ت) .

ابن المؤيد: إبراهيم بن القاسم (ت ١١٥٢هـ / ١٧٣٩م)

٢٦٨- طبقات الزيدية الكبرى [بلوغ المراد إلى معرفة الإنسان] ، تحقيق عبدالسلام الوجيه ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، عمان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م .

المؤيدي: داود بن الهادي بن أحمد (ت ١٠٣٥هـ / ١٦٢٥م)

٢٦٩- ذيل البسمامة ، (ملحق بكتاب مآثر الأبرار) تحقيق عبدالسلام اللوجيه
وأخر ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، عمّان ، الطبعة الأولى ،
٢٠٠٢م .

الإمام مالك: مالك بن أنس الأصبحي (ت ١٧٩هـ / ٧٩٥م)

٢٧٠- الموطأ ، تحقيق يشار عواد معروف وآخر ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ،
الطبعة الثانية ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .

الموردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م)

٢٧١- أدب الدنيا والدين ، تحقيق مصطفى السقا ، سلسلة النخائر (١٢٧) ،
القاهرة ، سبتمبر ٢٠٠٤م .

ابن المجاور: يوسف بن يعقوب (ت بعد ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)

٢٧٢- صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز - المسماة تاريخ المستبصر ،
اعتنى بتصحيحه أوسكر لوفجرين ، منشورات للمدينة ، ودار التصوير ،
بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦م .

مجهول: أحد رجال الدولة الرسولية (ت بعد ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م)

٢٧٣- تاريخ الدولة الرسولية في اليمن ، تحقيق عبدالله الحبشي ، دار الجيل ،
صنعاء ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

المحلي: حميد بن أحمد بن محمد (ت ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م)

٢٧٤- الحدائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية، تحقيق د. المرتضى المحطوري،
مطبوعات مركز بدر العلمي، صنعاء، طبعة أولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

محمد أحمد دهمان:

٢٧٥- معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، دار الفكر ، دمشق ،
الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م .

د. محمد الخطيب:

٢٧٦- دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ، مطبعة الحسنيين الإسلامية ،
القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١م .

د. محمد الطاهر السبيطلي:

٢٧٧- للدولة العثمانية والأمة في تاريخ اليمن الحديث ، المنتدى الجامعي للنشر
والتوزيع ، صنعاء ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .

محمد بن عبدالمملك المروني:

٢٧٨- الوجيز في تاريخ بناية مساجد صنعاء القديم والجديد ، مطابع اليمن
العصرية ، صنعاء ، ط١ ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

محمد حميد السلطان:

٢٧٩- الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة من ١٥٠٧ -
١٥٢٥م ، مركز زايد للتراث والتاريخ ، العين ، ٢٠٠٤م .

د. محمد رضا حسن الدجيلي:

٢٨٠- الحياة الفكرية في اليمن في القرن السادس الهجري ، مركز دراسات
الخليج العربي ، جامعة البصرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م .

محمد سعيد إسبر وآخر:

٢٨١- الشامل : معجم في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها ، دار العودة ،
بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥م .

محمد سعيد المليح وآخر:

٢٨٢- فهرس مخطوطات المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء ، نشر الهيئة
العامة للأثار ودور الكتب ، الجمهورية العربية اليمنية ، ١٩٨٧م .

د. محمد عبدالحميد عيسى:

٢٨٣- تاريخ التعليم في الأندلس ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ،
١٩٨٢م .

محمد عبدالسلام الشقيري:

٢٨٤- المئذنين والمبتدعات المتعلقة بالأفكار والصلوات ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٨م .

د. محمد عبدالعال أحمد:

٢٨٥- البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه ، نصوص جديدة مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمني بامخرمة كما سجلها في مخطوط قلادة النحر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠م .
٢٨٦- بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٠م .

د. محمد عبده محمد السروري:

٢٨٧- الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في عهد الدويلات المستقلة ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ٢٠٠٤م .

محمد عجاج الخطيب:

٢٨٨- السنة قبل التدوين ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠م .

د. محمد صلالة:

٢٨٩- السلفية ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، تونس ، ١٩٩٤م .

د. محمد عيسى الحريري:

٢٩٠- الاتجاهات المذهبية في اليمن حتى نهاية القرن الثالث الهجري، عالم الكتب ، بيروت ، للطبعة الثانية ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

٢٩١- تطور المذهب الزيدي في اليمن - قطعة منتزعة من كتاب شفاهاً صدر للناس لأحمد بن محمد بن صلاح الشرفي ، ضمن كتاب دراسات وبحوث في تاريخ اليمن الإسلامي ، عالم الكتب ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨م ، بيروت .

محمد قنديل البقلي:

٢٩٢- التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،
١٩٨٣ .

محمد لطف عبدالرزاق:

٢٩٣- محدث اليمن - الإمام عبدالرزاق بن همام الصنعاني ، إصدارات وزارة
للثقافة والسياحة ، صنعاء ، ٢٠٠٤ م .

محمد ماهر حمادة:

٢٩٤- المكتبات في الإسلام : فضائلها وتطورها ومصائلها ، مؤسسة الرسالة ،
بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

د. محمد محمد الحاج الكمالي:

٢٩٥- الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى وأثره في الفكر الإسلامي سياسياً
وعقائدياً ، دار الحكمة اليمانية ، صنعاء ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .

محمد ياسين الحموي:

٢٩٦- الملاح العربي أحمد بن ماجد ، مكتب النشر العربي ، دمشق ، ١٩٤٧ م

محمود رزق سليم:

٢٩٧- الأشرف قانصوه الغوري ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، (د ، ت) .

بالمخرمة: الطبيب بن عبدالله بن أحمد (ت ٩٤٧ هـ / ١٥٤٠ م)

٢٩٨- تاريخ نجر عدن ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٩١ م .

للمرتضى: المهدي لدين الله أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م)

٢٩٩- الجواهر والدرر في سيرة سيد البشر وأصحابه العشرة الغرر وعترته ●

الأئمة المنتخبين الزهر [مقدمة البحر الرخاير] ، الطبعة الأولى ،

١٣٦٦ هـ / ١٩٤٨ م ، ونشرته مصوراً دار الحكمة اليمانية ، صنعاء ،

١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م .

٣٠٠- تاج علوم الألب وقاتون كلام العرب ، دراسة وتحقيق د. نوري ياسين

حصين الهيئي ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥هـ /

٢٠٠٤م .

د. مريزن عسيري:

٣٠١- الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ، مكتبة الطالب الجامعي ،

مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م .

مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ / ٨٧٤م)

٣٠٢- صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي

، بيروت ، (د ، ت) .

مصطفى عبد الكريم الخطيب:

٣٠٣- معجم المصطلحات والأكواب التاريخية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة

الأولى ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .

المطاع: أحمد بن أحمد بن محمد

٣٠٤- تاريخ اليمن الإسلامي ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي ، منشورات المدينة

، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .

بالمطرف: محمد عبدالقادر

٣٠٥- الشهداء السبعة ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، بإشراف وزارة الثقافة

والسياحة بجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بالتعاون مع حكومة العراق

، ١٩٧٤م .

المظفر الرسولي: يوسف بن عمر بن علي (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م)

٣٠٦- المعتمد في الأنوية المفردة ، تحقيق مصطفى السقا ، دار القلم ، بيروت ،

(د ، ت) .

للمقبلي: صالح بن مهدي (ت ١١٠٨هـ / ١٦٩٦م)

٣٠٧- العَلَمُ الشامخ في تفضيل الحق على الآباء والمشائخ ، عناية القاضي
عبدالرحمن بن يحيى الإرياني ، مكتبة البيلن ، دمشق ، ١٩٨١م .

للمتحفي: إبراهيم أحمد

٣٠٨- معجم البلدان والقبائل اليمنية ، دار الكلمة ، صنعاء ، المؤسسة الجامعية
للدراسات ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م .

للمتقسي: محمد بن أحمد البشاري (ت ٣٧٥هـ / ٩٨٥م)

٣٠٩- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، وضع مقدمته وهوامشه وفهارسه د.
محمد مخزوم ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٨٧م .

للمقري: إسماعيل بن أبي بكر (ت ٨٣٧هـ)

٣١٠- عنوان الشرف اللوافي في علم الفقه والعروض والتاريخ والنحو
والقوافي، تحقيق عبدالله إبراهيم الأنصاري ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ،
٢٠٠٤م .

٣١١- شرح الفريدة الجامعة للمعاني الرائعة ، تحقيق عبدالرحمن الحضرمي ،
وزارة الإعلام ، صنعاء ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

٣١٢- ديوان بن المقري ، مطبعة نخبة الأخبار ، بومبي ، الهند ، ١٣٠٥هـ .

للمقري: يحيى بن محمد بن حسن بن حميد (ت ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م)

٣١٣- مكنون السر في تحرير نهارير السر ، تحقيق زيد بن علي الوزير ،
مركز التراث والبحوث اليمني ، صنعاء ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ /
٢٠٠٢م .

للمقريزي: أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)

٣١٤- درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، تحقيق محمد كمال الدين
عز الدين ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢م .

٣١٥- السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، دار الكتب

المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م .

٣١٦- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ،
(د ، ت) .

د. مناع القطان:

٣١٧- مباحث في علوم القرآن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة التاسعة ،
١٩٨٢م .

المنذري: زكي الدين أبو محمد عبدالحكيم بن عبدالقوي (ت٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)

٣١٨- التكملة لوفيات النقلة ، تحقيق بشار عواد معروف ، مؤسسة الرسالة ،
بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١م .

ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ / ١٣٣١م)

٣١٩- لسان العرب ، تحقيق عبدالله علي الكبير وأخسرين ، دار المعارف ،
القاهرة ، (د ، ت) .

د. منير الدين أحمد:

٣٢٠- تاريخ التعليم عند المسلمين ، ترجمة سلمي الصفار ، دار المريخ ،
الرياض ، ١٩٨١م .

المهدي محمد الحرازي:

٣٢١- تراجم علماء اليمن بين الواقع والطموح، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٥م ، (د ،
ن) .

الموزعي: عبدالصمد بن إسماعيل بن عبدالصمد (من علماء القرن الحادي عشر الهجري)

٣٢٢ الإحسان في دخول اليمن تحت ظل آل عثمان ، تحقيق عبدالله الحبشي ،
منشورات وزارة الأوقاف والإرشاد بالجمهورية العربية اليمنية، (د ، ت) .

الناشري : نقي الدين أبو العباس حمزة بن عبدالله بن محمد بن علي (ت٩٢٦هـ / ١٥١٩م)

٣٢٣- انتهاز الفرص في الصيد والقتل، تحقيق عبدالله محمد الحبشي ، المجمع
التقاني ، أبو ظبي ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢م .

النشري: عثمان بن عمر (ت ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م)

٣٢٤- المشرح على متن الدرّة في القراءات الثلاث المتممة للقراءات العشر ،
تحقيق عبدالرزاق علي إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٨٩م .

د. نايف محمود معروف:

٣٢٥- الخوارج في العصر الأموي ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ،
١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

النسائي: أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣هـ / ٩١٥م)

٣٢٦- السنن الكبرى ، تحقيق د. عبد الغفار البنداري وآخر ، دار الكتب
العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

أبو نعيم: أحمد بن عبدالله الأصفهاني (ت ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م)

٣٢٧- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، تحقيق سعيد بن سعد الدين الإسكندراني
، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١هـ /
٢٠٠١م .

النعمي: عبدالقادر بن أحمد (ت ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م)

٣٢٨- الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، طبعة دار
الكتاب الجديد ، دمشق ، ١٩٨١م .

النفيع: محمد بن عبدالوهاب للمقداد (ت ٩٢٢هـ / ١٥١٦م)

٣٢٩- قرّة العيون وأنشراح الخواطر فيما حكاها الصالحون في فضل مسجد
الأشاعر ، تحقيق عبدالرحمن الحضرمي ، ضمن مجلة الإكليل ، صنعاء ،
العددان ٣ - ٤ ، السنة الأولى ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

النهرولي: محمد بن أحمد (ت ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م)

٣٣٠- البرق اليماني في الفتح العثماني ، منشورات المدينة ، بيروت ، الطبعة
الثانية ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .

النوي: أبو زكريا يحيى بن شرف الدين (ت ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م)

٣٣١- التبيان في آداب حملة القرآن ، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣م

٣٣٢- تهذيب الأسماء واللغات ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

د. هادي الهلالي:

٣٣٣- نشأة الدراسات النحوية والنحوية في اليمن وتطورها ، دار آفاق عربية ، بغداد ، ١٩٨٤م .

هادي عبدالله ناجي:

٣٣٤- تشوان الحميري وجهوده اللغوية والنحوية ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ٢٠٠٤م .

الهاروني: الإمام الناطق بالحق أبو طالب يحيى بن الحسين بن هارون (ت ٤٢٤هـ)

٣٣٥- الإفادة في تاريخ الأئمة السادة ، تحقيق إبراهيم المؤيدي وآخر ، مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية ، صنعاء ، للطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .

الهمداني: الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٦٠هـ / ٩٧٠م)

٣٣٦- صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد علي الأكوخ ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

٣٣٧- كتاب الجواهرتين العتيقتين الملتصقتين من الصفراء والبيضاء الذهب والفضة ، تحقيق محم محمد الشعبي ، الطبعة الأولى ، (د ، ت ، ن) .

الواسعي: عبدالواسع بن يحيى

٣٣٨- تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حواث وتاريخ اليمن ، مكتبة اليمن الكبرى ، صنعاء ، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

٣٣٩- البدر المزيل للحزن في فضل اليمن ومحاسن صنعاء ذات المنن، مطبعة التعاون الأخوي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م .

الوجيه: عبد السلام عباس

٣٤٠- أعلام المؤلفين الزيدية ، مؤسسة الإمام زيد بن علي للثقافة ، عمان ،
الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .

بلوزير: سعيد بن عوض

٣٤١- صفحات من التاريخ الحضرمي ، مكتبة الثقافة ، عدن ، (د ، ت) .

الوزير: محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الوزير (ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م)

٣٤٢- العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم ، تحقيق شعيب
الأرنؤوط ، دار البشير ، عمان ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٤م .

٣٤٣- الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم ، المكتبة اليمنية للنشر
والتوزيع ، صنعاء ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥م .

٣٤٤- ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ، مكتبة الجمعية العلمية
الأزهرية المصرية للملايوية ، القاهرة ، ١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م .

٣٤٥- البرهان القطع في إثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع ، مكتبة
الجمعية العلمية الأزهرية المصرية للملايوية ، القاهرة ، ١٣٤٩هـ /
١٩٣٠م .

٣٤٦- ديوان محمد بن إبراهيم الوزير - مختارات ، عناية علي بن إسماعيل
المؤيد وآخر ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .

الوزير: الهادي بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل (ت ٨٢٢هـ / ١٤٢٢م)

٣٤٧- هداية الراغبين إلى مذهب العترة الطاهرين ، تحقيق عبدالرقيب بن مطهر
حجر ، مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية ، صعدة ، الطبعة الأولى ،
١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .

اليافعي: أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م)

٣٤٨- مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة
الأولى ، ١٩٩٧م .

اليلمي: محمد بن حاتم بن أحمد (ت بعد ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م)

٣٤٩- السمت الغالي الثمن في أخبار المنوك من الفز باليمن ، تحقيق ركس

سميث، طبع ضمن مجموعة جب التنكارية ، لندن ، ١٩٧٤م .

الرحصبي: للقاضي عياض بن موسى (ت ٥٤٤هـ / ١١٤٩م)

٣٥٠- الإلماع إلى معرفة الرواية وتقييد السماع ، تحقيق أحمد صقر ، دار

التراث ، القاهرة ، للطبعة الثانية ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

يحيى بن الحسين: يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي (ت ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م)

٣٥١- غنية الأملتي في أخبار القطر اليماني ، تحقيق د. سعيد عبدالفتاح عاشور

، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

د. يوسف محمد عبدالله:

٣٥٢- أوراق من تاريخ اليمن وآثاره ، دار التنوير للطباعة والنشر ،

بيروت ، ١٩٩٠م .

٣٥٣- الموسوعة اليمنية، مؤسسة العفيف الثقافية ، صنعاء ، للطبعة الثانية ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م .

قائمة الرسائل العلمية

أحمد عبدالله عارف:

- ١- المدلول الكلامية في اليمن فيما بين القرن الثالث والسادس الهجري ،
رسالة دكتوراه في كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٦ م .

حسن أحمد عبدالرزاق السمين:

- ٢- المذهبان السني والشيوعي في اليمن في القرنين الرابع والخامس الهجريين
وأثرهما على الحياة السياسية والاجتماعية ، رسالة ماجستير ، كلية دار
العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٦ م .

حصة ناصر المبارك:

- ٣- الحياة الاقتصادية في اليمن في عهد الدولة الرسولية ، رسالة دكتوراه ،
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى ، ١٩٩٦ م .

الحكمي: إبراهيم بن أبي القاسم بن عمر بن مطير

- ٤- الليرة الموسومة في شرح المنظومة ، تحقيق مهدي محمد يوسف الحرازي ،
رسالة ماجستير ، كلية الشريعة والقانون ، جامعة الأزهر ، ٢٠٠٠ م .

دلود دلود المنذعي:

- ٥- الزراعة في اليمن في عهد الدولة الرسولية ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب
، جامعة اليرموك ، ١٩٩٢ م .

ابن الديبع: أبو الضياء عبدالرحمن بن علي (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م)

- ٦- الفضل المزيدي على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، دراسة وتحقيق
محمد عيسى صالحية ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة
عين شمس ، ١٩٧٠ م .

رزق أحمد الحجر:

- ابن الوزير ومنهجه الكلامي ، رسالة ماجستير ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ،
١٩٧٧ م .

سامية أحمد فرج عبدالخير:

٧- الكتابة التاريخية في اليمن في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٧م .

مسعود محمد العصفور:

٨ الحياة الثقافية في دمشق في عصر المعاليك الجراكسة ، رسالة دكتوراه ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .

شرف الدين: عيسى بن لطف الله بن المطهر (ت ١٠٨٤هـ / ١٦٧٣م)

٩- روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، دراسة وتحقيق محمد عيسى عبدالله صالحية ، رسالة دكتوراه ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٣م .

الشرقي: أحمد بن محمد بن صلاح (ت ١٠٥٥هـ / ١٦٤٥م)

١٠- اللاتى المضينة في أخبار أئمة الزيدية ، تحقيق ودراسة سلوى المؤيد ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة صنعاء ، ٢٠٠٢م .

شوقي درهم عبدالله الفضلي:

١١- الحياة العلمية في إقليم جبلة خلال عهد الصليبيين ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة أسيوط ، ٢٠٠٥م .

عادل الفقيه:

١٢- ابن أبي الخير العسمراني ومنهجه في كتاب البيان ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة صنعاء ، ٢٠٠٣م .

عبدالرحمن أحمد المختار:

١٣- الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة صنعاء ، ٢٠٠٤م .

عبدالرحمن أحمد المصنف:

١٤- الحياة العلمية في الحجاز في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، رسالة

دكتوراه ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة صنعاء ، ٢٠٠٣م .

عبدالمعظم حامد خطاب:

١٥- فائضه الفوري ونهاية الدولة المملوكية في مصر والشام ، رسالة دكتوراه ،
كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٣م .

عبدالله عثمان علي المنصوري:

١٦- علم القراءات في اليمن من صدر الإسلام إلى القرن الثامن الهجري ، رسالة
دكتوراه ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ،
٢٠٠٢ / ٢٠٠٣م .

عبدالله علي مهديوب اليوسفي:

١٧- الدرس الفحوي في زبيد من القرن السادس حتى القرن العاشر الهجري ،
رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٣م .

عبدالله قائد حسن العبادي:

١٨- الحياة العلمية في مدينة زبيد في عهد الدولة الرسولية ، رسالة ماجستير ،
قسم الدراسات العليا التاريخية ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة
أم القرى ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

علي بن علي بن حسين بن أحمد:

١٩- الحياة العلمية في تعز في عصر بني رسول ، رسالة ماجستير ، قسم
الدراسات العليا التاريخية ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم
القرى ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

فتحي علي حسن هلال:

٢٠- الحياة الاجتماعية والفكرية في اليمن من منتصف القرن السادس الهجري
حتى منتصف القرن التاسع الهجري ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامع
طنطا ، ١٩٩٢م .

فضيلة عبدالأمير الشامي:

- ٢١- تاريخ الفرقة الزيدية بين القرن الثاني والثالث الهجري ، رسالة ماجستير ،
كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٦٩ م .

محمد بن يحيى بن محمد الفيقي:

- ٢٢- الأحوال السياسية في الدولة الرسولية في عهد السلطان الناصر أحمد ،
رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ،
١٤٢٠هـ / ١٩٩٩ م .

محمد ربيع هادي عمير المنخلي:

- ٢٣- الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية في عصر السلطان عامر بن
عبد الوهاب الطاهري ، رسالة ماجستير ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية،
جامعة أم القرى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥ م .

محمد عبدالفتاح عليان:

- ٢٤- الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد بني رسول ، رسالة دكتوراة ،
كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٣ م .

محمد عبداللطيف علي أبو غانم:

- الإمام محمد بن إبراهيم الوزير ومنهجه في كتابه العواصم والقواصم، رسالة ماجستير،
جامعة صدام للعلوم الإسلامية ، ١٩٩٩ م .

محمد علي عسيري:

- ٢٥- أبو الحسن الخزرجي وآثاره التاريخية ، رسالة دكتوراة ، كلية العلوم
الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٩٨٦ م .

بامخرمة: أبو محمد للطيب بن عبدالله بن أحمد (٩٤٧هـ / ١٥٤٠م)

- ٢٦- قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ، الجزء الأول ، تحقيق عبدالغني
الأهجري ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة صنعاء ، ٢٠٠٢ م .

- ٢٧- قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ، الجزء الثالث ، تحقيق محمد مسلم

عبدالنور ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة صنعاء ، ٢٠٠٣م .

الموزعي: محمد بن علي بن عبيد الله بن إبراهيم الشهير بابن نور الدين (ت٨٢٥هـ / ١٤٢٢م)

٢٨- تيسير البيان في أحكام القرآن ، تحقيق أحمد محمد يحيى المقري ، رسالته

دكتوراه ، كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .

يحيى محمد حسان سنان:

٢٩- الشعر البيهقي في القرن التاسع الهجري ، رسالة دكتوراه ، كلية دار العلوم ،

جامعة القاهرة ، ١٩٩٩م .

الأبحاث

د. إبراهيم خليل أحمد:

- ١- مراحل الاحتلال العثماني المبكر لليمن الكبرى وردود الفعل الوطنية إزاء ذلك ، أحد أبحاث ندوة " اليمن عبر التاريخ " عدن ، ١٩٨٩ م .

د. أحمد محمد العليمي:

- ٢- أعلام مدرسة الحديث في اليمن وجهودهم في حفظ السنة ، مجلة الآداب ، جامعة الإمارات ، العدد ٥ ، ١٩٨٩ م .

د. أيمن فؤاد سيد:

- ٣- المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي ، من أبحاث ندوة تاريخ المدارس الإسلامية في مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢ م .

بشير حمود كاظم:

- ٤- حركة الكشف البرتغالية وأهدافها ، ضمن أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية، مركز الدراسات والوثائق ، رأس الخيمة ، ١٩٨٧ م .

جمال قاسم:

- ٥- الصراعات المحلية والدولية في البحر الأحمر ، ضمن أبحاث ندوة البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ، من أبحاث الأسبوع العلمي الثالث (١٩٧٩ م) ، جامعة عين شمس ، ١٩٨٠ م ، القاهرة .

الحبشي: عبدالله محمد

- ٦- علماء بني تاشر، بحث ملحق بكتاب أنتهاز الفرص في الصيد والقنص لنقي الدين حمزة الناصري ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي ، المجمع الثقافي، أبو ظبي ، ٢٠٠٢ م .

حسن محمد زيد:

- محنة المطرفية وشيخ الإسلام العمري ، مجلة المصار ، مركز التراث والبحوث اليمني ، العددان (١١) و (١٢) ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣ م .

دلفيد كنج:

- ٧- حول تاريخ الفلك في العصر الوسيط في اليمن ، مجلة الإكليل ، صنعاء ،
العدد الأول، صفر ١٤٠٠هـ / كانون الثاني ١٩٨٠م .

سعد زغول عبدي:

- ٨- البرتغاليون والبحر الأحمر ، ضمن أبحاث ندوة البحر الأحمر في التاريخ
والسياسة الدولية المعاصرة ، من أبحاث الأسبوع العلمي الثالث (١٩٧٩م
) ، جامعة عين شمس ، ١٩٨٠م ، القاهرة .

د. سعيد عبدالفتاح عاشور:

- ٩- العلم بين المسجد والمدرسة ، من أبحاث ندوة تاريخ المدارس الإسلامية
في مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م .

د. شائف عبده سعيد:

- ١٠- الحياة الاجتماعية في اليمن في عهد الدولة الرسولية ، ضمن أبحاث
ندوة الحياة العلمية والفكرية في عصر الدولة الرسولية ، جامعة عدن ،
٢٠٠١م .

د. شاكز محمود عبدالمنعم:

- ١١- تحليل مصادر المسجد المسموك لنفساتي ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد
العشرون ، بغداد ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
- ١٢- نظرة في مصنفات وموارد الخزرجي مؤرخ اليمن ، مجلة المؤرخ العربي
، العدد ٢٧، السنة الثانية عشرة ، بغداد ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- ١٣- الملك الأشرف إسماعيل الغساني وجهوده الثقافية ، مجلة المؤرخ
العربي ، بغداد ، العدد ٨ ، ١٩٨٧م .

الشبيحة:

- ١٤- دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية واليمنية ، من أبحاث ندوة تاريخ
المدارس الإسلامية في مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م .

د. عبدالحليم عبدالحق سيف الدين:

- ١٥- عهد المتوكل على الله العباسي بين الحقيقة التاريخية وظلم المؤرخين ،
مجلة للمؤرخ العربي ، القاهرة ، عند مارس ٢٠٠٧ م .

عبدالرحمن الحضرمي:

- ١٦- تهامة اليمن ، مجلة الإكليل، صنعاء ، السنة الأولى ، العدد ٢ ، ١٩٨٠م.

عبدلرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم:

- ١٧- النشاط التجاري في البحر الأحمر في العصر العثماني ، ضمن أبحاث
ندوة البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ، من أبحاث
الأسبوع العلمي الثالث (١٩٧٩ م) ، جامعة عين شمس ، ١٩٨٠ م ،
القاهرة .

د. عبدالوهاب عباس القيسي:

- ١٨- المجابهة البرتغالية العثمانية في المياه العربية ، ضمن أبحاث ندوة رأس
الخيمة التاريخية ، مركز الدراسات والوثائق ، رأس الخيمة ، ١٩٨٧ م .

فالح حنظل:

- ١٩- الأنطاع البرتغالية في المقدسات الإسلامية ، ضمن أبحاث ندوة رأس
الخيمة التاريخية ، مركز الدراسات والوثائق ، رأس الخيمة ، ١٩٨٧ م .

محمد سالم شجائب:

- ٢٠- قبيلة الزرانيق وحركتهم التاريخية ، مجلة اليمن الجديد ، السنة ١٦ ، العدد
١٢ ، ١٩٨٧ م .

د. محمد سيف النصر:

- ٢١- نظرة عامة على تخطيطات المدارس اليمنية، مجلة الإكليل ، العدد الأول
، ١٩٨٥ م.

د. محمد عبداللطيف الفرفور:

- ٢٢- أدب الإجازات عند المسلمين ، مجلة الفيصل ، السعودية ، العدد ٧٩ ،

محرم ١٤٠٤هـ .

د. محمد علي العروسي:

مدارس العلوم الإسلامية في اليمن - الأيوبيون والمدارس في اليمن ، مجلة الإكليل
، صنعاء ، العدد ٢٥ ، أبريل - يونيو ، ٢٠٠١ م .

د. نجاح القاسبي:

٢٣ المعاهد والمؤسسات التنظيمية في العالم الإسلامي، مجلة المؤرخ العربي،
العدد ١٩ ، بغداد ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م .

د. نوال النحلاوي:

٢٤- التعريف بكتاب تسهيل المنافع في الطب والحكمة لابن الأريق ، مجلة
الإكليل ، العدد الأول ، السنة الأولى ، يناير ١٩٨٠ م .

يوسف بن علي بن رابغ النقي:

٢٥- موقف المماليك ودول الخليج العربي من النفوذ البرتغالي في القرن
السادس عشر الميلادي ، ضمن أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية ،
مركز الدراسات والوثائق ، رأس الخيمة ، ١٩٨٧ م .

المراجع الأجنبية

- (1) **Kamerer, M.**, La Mer Rouge L'Alyssinie L'Arabie L'antiquite, La Cairo, Memoires De La Societe De Geographie D, 1929 .
- (2) **Miles, S. B.** The countries and Tribes of Persian Gulf, 2nd Ed, London, 1966
- (3) **Sadek, Noha**, Patronage and architecture in Rasulid Yemen , 626-858 A.H. / 1229-1454 A.d., PH.D. thesis, the university of Toronto, Canda, 1990 .
- (4) **Serjeant, R.B.**, The Portuguese off the South Arabian Coast, London, 1963 .
- (5) **Smith, G. Rex**, The political history of the Islamic Yemen down to the first Turkish invasion, in Studies in the Medieval history of the Yemen and South Arabia, Variorum, 1997 .
- (6) **Smith, G. Rex**, The Tahirid Sultan of the Yemen, in Studies in the Medieval history of the Yemen and South Arabia, Variorum, 1997 .
- (7) **Sousa, M. F.**, The History of the Discovery and Conquest of India, Translated from German by John Stevens, 2nd Ed, W. Germany, 1971 .
- (8) **Varisco, T. M.**, Al-tawqi, at fi taqwim al-zira'a al-majhul min asr mukh Bani Rasul, in Mediaval Folk Astronomy and Agriculture in Arabia and the Yemen, Various, 1997 .

فهرس محتويات الدراسة

(١)	المقدمة	١- ز
الفصل الأول		
السمات العامة للحياة العلمية في اليمن قبل القرن التاسع الهجري ومظاهر ازدهارها		
(١)	تمهيد	٢-٣
(٢)	الجدل الكلامي والمناقشات الفكرية القائمة على تنوع الخلفيات المذهبية	٤-٢٠
(٣)	الرحلات العلمية للعلماء وطلبة العلم	٢١-٤٨
أ - أولاً الرحلات العلمية الداخلية		
	ب - ثانياً الرحلات العلمية الخارجية	٢٤-٣٤
	• الرحلة إلى مكة	٣٤-٣٧
	• الرحلة إلى العراق	٣٧-٣٩
	• الرحلة إلى مصر	٣٩-٤٠
ج - ثالثاً الرحلات العلمية لعلماء وفدوا إلى اليمن من غير أهلها		
(٤)	الهامش الكبير للحرية الفكرية	٤٠-٤٨
(٥)	وفرة أماكن التعليم و المراكز العلمية	٥٤-٨١
	• المكتب - المعلمة	٥٤-٥٨
	• المساجد الجامعة	٥٨-٦٧
	• الجامع الكبير بصنعاء	٥٩-٦١
	• جامع معاذ بن جبل بالجدة	٦١-٦٣
	• جامع الأشاعر بزييد	٦٣-٦٥
	• مسجد أبان بن الحكم العدني بحدن	٦٥-٦٦
	• جامع الإمام الهادي يحيى بن الحسين بصنعدة	٦٦-٦٧
	• الهجر العلمية	٦٧-٧٥
	• هجرة سناع	٦٧-٧٠
	• هجرة وقش	٧٠-٧٣
	• هجرة حوث	٧٣-٧٥

٧٨-٧٥	• القرى العلمية
٧٧-٧٥	• قرية سنهنة
٧٨-٧٧	• قرية ذي أشرق
٨١-٧٩	• للمدارس العلمية
٧٩	• المدارس غير النظامية
٨١-٨٠	• المدارس النظامية

الفصل الثاني

الأوضاع السياسية في اليمن من بداية القرن التاسع الهجري حتى السيطرة العثمانية عليها

٨٧-٨٣	(١) تمهيد
١٥٧-٨٨	(٢) أولاً : الأوضاع الداخلية
١٠٧-٨٨	الدولة الرسولية في النصف الأول من القرن التاسع
٩١-٨٨	أ- الأشرف الثاني إسماعيل بن الأفضل
٩٥-٩١	ب - السلطان الناصر الأول أحمد بن الأشرف إسماعيل
٩٧-٩٥	ج - السلطان المنصور الثاني عبدالله بن الناصر الأول
٩٨ ٩٧	د - السلطان الأشرف الثالث إسماعيل بن الناصر الأول
١٠١-٩٩	هـ - السلطان الظاهر يحيى بن الأشرف الثاني إسماعيل
١٠١	و- السلطان الأشرف الرابع إسماعيل بن الظاهر
١٠٧-١٠٢	الصراع الرسولي الداخلي وسقوط الرسولية
١٠٦-١٠٢	ز - السلطان المطهر الثاني يوسف بن عمر
١٠٧-١٠٦	ح - السلطان المسعود صلاح الدين بن الأشرف الثالث
١٣٧-١٠٨	قيام الدولة الطاهرية
١٣٧-١١٧	أ - ملوك الدولة الطاهرية وأيام دولتهم
١٢٤-١١٧	• الملك المجاهد شمس الدين علي بن طاهر
١٢٤-١١٧	• والملك للظفر صلاح الدين عامر بن طاهر
١٢٨-١٢٤	• الملك المنصور تاج الدين عبدالوهاب بن دلود بن طاهر
١٣٧-١٢٨	• الملك الظفر الثاني صلاح الدين عامر بن عبدالوهاب
١٣٧-١٢٩	• المرحلة الأولى : صراع الملك الظافر مع الأمراء

لطايرين

- ١٣٧-١٣٦ ■ المرحلة الثانية : الصدام بالأئمة الزيدية
- ١٣٧ ■ للمرحلة الثالثة : المواجهة مع الخطر الخارجي
- ١٥٧-١٣٨ الأئمة الزيدية من بداية القرن التاسع الهجري حتى السيطرة العثمانية عليها
- ١٤٠-١٣٩ أ - الإمام المنصور بالله علي بن الناصر صلاح الدين
- ١٤١-١٤٠ ب - الإمام الهادي علي بن المؤيد
- ١٤١ ثلاثة أئمة كبار في آن واحد
- ١٤٢ ج - الإمام المهدي صلاح بن علي
- ١٤٤-١٤٢ د - الإمام المنصور بالله الناصر بن محمد
- ١٤٧-١٤٤ هـ - الإمام المتوكل المطهر بن محمد الحمزي
- ١٤٩-١٤٨ و - الإمام للمؤيد بالله محمد بن الناصر بن محمد
- ١٥٠ ز - الإمام الهادي عز الدين بن الحسن
- ١٥٧-١٥١ مستهل قرن جديد يشهد وجود ثلاثة أئمة زيدية متعارضين
- ١٥١ ح - الإمام الناصر الحسن بن عز الدين
- ١٥٣-١٥٢ ط - الإمام المنصور محمد بن علي الوشلي السراجي
- ١٥٧-١٥٣ ي - الإمام المتوكل علي الله يحيى شرف الدين
- ١٧١-١٥٨ (٣) ثانياً : القوى الخارجية وأثرها على الأوضاع اليمنية
- ١٦٤ ١٥٨ النشاط البرتغالي في المحيط الهندي وأنشطته العدائية في المياه اليمنية
- ١٦٩-١٦٥ دخول جيوش المماليك الجراكسة اليمن وعلاقتها مع القوى اليمنية
- ١٧١-١٦٩ ظهور العثمانيين على الساحة اليمنية

الفصل الثالث

أماكن التنظيم والمراكز العلمية في اليمن من بداية القرن التاسع الهجري حتى السيطرة العثمانية عليها

- ٢٢٧-١٧٣ (١) أولاً : أماكن التعليم
- ١٧٥-١٧٣ (٢) تمهيد
- ١٨١-١٧٥ أ - الكتابات أو الملاحظات
- ١٧٨-١٧٦ ■ الملاحظات الملحقة بالمدارس (ملاحظات الأيتام)
- ١٧٧ ■ معلومة المدرسة الأشرفية الكبرى

١٧٧	• معالمة الأيتام في المدرسة الفرحانية
١٧٨-١٧٧	• معالمة الأيتام في المدرسة للظاهرة
١٧٩-١٧٨	• المعالمة الملحقة بالمساجد
١٧٨	• معالمة بمسجد الأمير بهادر الأسرفي
١٧٩	• معالمة جامع المصالح
١٨١-١٧٩	• المعالمة المنفصلة عن المساجد والمدارس
١٩٣-١٨١	ب - المساجد الجامعة
١٨٥-١٨٣	• جامع الشجر بحضرموت
١٨٧-١٨٥	• جامع الأشاعر بزبيد
١٨٩-١٨٧	• للجامع الكبير بزبيد
١٩١-١٩٠	• جامع السلطان المظفر بذي عدينة
١٩٣-١٩١	• الجامع الكبير بمدينة إب
٢٠٢-١٩٣	ج - المدارس العلمية
٢٠٩-٢٠٢	د - القرى العلمية
٢٠٧-٢٠٤	• قرية للناشرية
٢٠٩-٢٠٧	• قرية الشرجة
٢٢٣-٢٠٩	• - للهجر العلمية
٢١٩-٢١٦	• هجرة الظهر اوين بشطب
٢٢٣-٢٢٠	• هجرة الظفير
٢٢٧-٢٢٣	و - الأربطة والزوايا والخانقاوات
٢٢٥-٢٢٣	• الأربطة والزوايا
٢٢٧-٢٢٦	• الخانقاوات
٢٦٧-٢٢٨	(٣) ثانياً : المراكز العلمية
٢٤٧-٢٢٨	أ المراكز العلمية في المناطق السنية
٢٢٣-٢٢٨	• تهامة اليمن
٢٣٠-٢٢٩	• مدينة زبيد
٢٢٢-٢٣٠	• مدينة أبيات صين
٢٣٢-٢٣٢	• مدينة خررض

٢٣٧-٢٣٣	• مدينة تعز
٢٤٣ ٢٣٧	• مدينة عدن
-٢٤٣	• حضرموت
٢٤٦-٢٤٤	■ مدينة تريم
٢٤٧-٢٤٦	■ مدينة الشحر
٢٦٧-٢٤٧	ب - للمراكز العلمية في المناطق الشيعية
٢٥٣-٢٤٨	• مدينة صنعاء
٢٥٢-٢٥٠	■ الجامع الكبير
٢٥٣-٢٥٢	■ مسجد الفاتحي
٢٥٣	■ مسجد الأجدم
٢٥٨-٢٥٣	• وادي السُر
٢٥٨-٢٥٥	■ هجرة الأبناء
٢٥٨	■ مسجد الموسم
٢٦٧-٢٥٩	• منطقة صعدة
٢٦٣-٢٦٠	■ جامع الإمام الهادي يحيى بن الحسين بصعدة ...
٢٦٤-٢٦٣	■ مسجد الصرحة بصعدة
٢٦٧-٢٦٥	■ هجرة قللة

الفصل الرابع

نظام التعليم في اليمن من بداية القرن التاسع الهجري حتى السيطرة العثمانية عليها

٣٦١-٢٦٩	(١) نظم التعليم في اليمن في حقبة الدراسة
٢٨٠-٢٧٠	أ - المميزات العامة لنظام التعليم في اليمن وسماته الرئيسية
٢٧٢-٢٧٠	• الغياب الكبير للدوافع المادية وراء مواصلة التحصيل في ظلاله وبروز الدافع الديني
٢٧٤-٢٧٢	• فاعلية العلماء وواقعيتهم
٢٧٥-٢٧٤	• التوسع لأقفي والرأسي في تلقي العلوم
٢٧٦	• عدم وجود سقف زمني معين لمرحلة طلب العلم
٢٧٧-٢٧٦	• قناعة المجتمع بوجوب التكفل بتوفير متطلبات التعليم

٢٧٧	• انتشار العلم كيفاً و النصله كماً
٢٧٨-٢٧٧	• ارتفاع يد الحكام والأمراء عن التدخل السلبى فى شؤون التعليم
٢٨٠-٢٧٨	• مجيئ التأثير المذهبى فى الدرجة الثانية فى قائمة القسوى المؤثرة على النظم التعليمى بعد تأثير العلماء
٢٩٤-٢٨١	ب - المرحلة الأولى (تعليم الصبيان)
٢٨٢ ٢٨١	• أهداف المرحلة الأولى
٢٨٨-٢٨٢	• أهم المقررات الدراسية فى المرحلة الأولى
٢٩٣-٢٨٩	• الطرق والوسائل المستخدمة فى المرحلة الأولى للتعليم
٢٩١	▪ الأول من ناحية أساليب التعامل مع الصبيان
٢٩٣-٢٩١	▪ الثانى من ناحية طرق للتدريس
٢٩٤ ٢٩٣	• أدوات التعليم
٢٩٤	▪ الجدول الدراسى اليومى فى المرحلة للتعليمية الأولى
-٢٩٥	ج - المرحلة الثانية
-٢٩٦	• الأهداف
٢٩٨-٢٩٦	▪ أهداف العلماء المظمين
٣٠١-٢٩٩	▪ أهداف الطلاب المتعلمين أنفسهم
٣١٠-٣٠١	• المقررات الدراسية
٣٠٤-٣٠٣	علوم القرآن
٣٠٥-٣٠٤	- مقررات الفقه
٣٠٥	- مقررات أصول الفقه
٣٠٦	- مقررات الحديث وعلومه
٣٠٧-٣٠٦	- مقررات النحو وعلوم اللغة
٣٠٨-٣٠٧	- مقررات أصول الدين وعلم الكلام ..
٣٠٨	- مقررات السنة النبوية وما فى حكمها ..
٣٠٩-٣٠٨	- السيرة والتاريخ والأنسب
٣١٠ ٣٠٩	- علوم الصوفية والرقائق
٣١٠	- مقررات أخرى

٣٣٤-٣١٠ أنظمة التدريس	•
٣١٤-٣١١ نظام الحلقات الدراسية	■
٣١٤- نظام المجالس العلمية	■
٣١٨-٣١٥ مجالس التدريس	-
٣٢١-٣١٨ مجالس السماع	-
٣٢٣-٣٢١ مجالس الإملاء	-
٣٢٧-٣٢٤ مجالس الإفتاء	-
٣٣٠ ٣٢٧ مجالس الوعظ والذكر	-
٣٣٤-٣٣٠ نظم المذاكرة والمناقشة	■
٣٤٥-٣٣٤ صور تلقي العلم	•
٣٣٧-٣٣٤ السماع	■
٣٤٢-٣٣٧ القراءة على الشيخ (العرض)	■
٣٤٥-٣٤٢ الوجادة	■
٣٥٦-٣٤٥ الإجازة العلمية	•
٣٥٣ ٣٤٨ النوع الأول: الإجازة من معين لمعين	■
٣٥٥-٣٥٤ النوع الثاني: الإجازة لمعين في غير معين	■
٣٥٥ النوع الثالث: الإجازة لغير معين في غير معين	■
٣٥٦-٣٥٥ النوع الرابع: الإجازة بالمكاتب	■
٣٦١-٣٥٧ تعليم المرأة في اليمن	د -

الفصل الخامس

العلاقات العامة للركائز البشرية للحياة العلمية في اليمن في مدة الدراسة وأوقارهم في الحياة العامة

٣٧٩-٣٦٣ الركائز البشرية للحياة العلمية (١)
٣٧٢-٣٦٣ أ - أولاً : العلماء (المدرسون)
٣٦٦-٣٦٤ معلمو المرحلة الأولى
٣٦٥-٣٦٤ معلمو المصطلحات
٣٦٦-٣٦٥ المؤيدون
٣٧٢-٣٦٧ معلمو المرحلة الثانية

٣٦٩-٣٦٨	▪ الفقيه
٣٦٩	▪ المعيد
٣٧٠	▪ المُحَنِّث
٣٧١-٣٧٠	▪ قارئ الحديث
٣٧١	▪ المقرئ
٣٧٢	▪ مدرس النحو واللغة
٣٧٢	▪ شيخ الخانقاه
٣٧٦-٣٧٣	ب - ثانياً : طلبة العلم
٣٧٣	• طلاب المرحلة الأولى (الصبيان)
٣٧٤-٣٧٤	• طلاب المرحلة الثانية (البالغون)
٣٧٥-٣٧٤	▪ طلبة العلم غير المتفرغون
٣٧٥	▪ طلبة العلم المتفرغون
٣٧٦	▪ مريدو شيخ الخانقاه (لطلبة الصوفية)
٣٧٩-٣٧٦	ج - ثالثاً : شاغلو الوظائف الإدارية والدينية وما في حكمهما
٣٧٧	• الناظر
٣٧٧	• للنائب
٣٧٨	• الإمام
٣٧٨	• أمين المكتبة
٣٧٩	• القَـيِّم
٤٣٠-٣٧٩	(٢) العلاقات العامة للركائز البشرية وأثرها على الحياة العلمية
٣٩٣-٣٨٠	أ - الرحلات العلمية
٣٨٥-٣٨٢	• الرحلة العلمية الداخلية لطلبة العلم اليمنيين
٣٨٧-٣٨٥	• الرحلة العلمية الخارجية لطلبة العلم اليمنيين
٣٩٣-٣٨٧	• العلماء والطلبة الوافدون على اليمن
٣٩٩-٣٩٤	ب - علاقات العلماء مع بعضهم
٤٠١-٣٩٩	ج - علاقات العلماء مع طلابهم
٤٠٢-٤٠١	د - علاقات طلبة العلم بالعلماء
٤٠٥-٤٠٢	• - علاقة طلبة العلم مع بعضهم

- و - علاقات العلماء مع الحكام والسلاطين والأئمة ٤١٢-٤٠٥
- مواقف العلماء من التعامل مع الحكام ٤١٢-٤٠٦
- الفئة الأولى ٤٠٨-٤٠٧
- الفئة الثانية ٤١٠-٤٠٨
- الفئة الثالثة ٤١٢-٤١٠
- ز - مواقف الحكام من العلماء ونظرتهم إليهم ٤٣٠-٤١٢
- احترام العلماء ومعاملتهم بإحسان ٤١٤-٤١٢
- تواضع الحكام مع العلماء والجلوس بين أيديهم للتلقي ٤١٦-٤١٤
- دعم الحركة العلمية عمرانياً ومالياً ٤١٧-٤١٦
- التشجيع برصد الجوائز وإغداق العطاء على إنجازات العلماء ٤١٩-٤١٧
- الحفاوة بالعلماء الوافدين إلى اليمن ٤٢٥-٤٢٠
- قبول شفاعتهم في الخارجين حينما تتقرر عقوبتهم ٤٢٦-٤٢٥
- قبول توسطهم لحل الخلافات بين الحكام والأمراء وزعماء القبائل ٤٢٧-٤٢٦
- إنزال الأذى ببعض العلماء على أيدي الحكام ٤٣٠-٤٢٧
- (٣) دور العلماء في الحياة اليمنية العامة ٤٤٧-٤٣١
- أ - أنوار العلماء الاجتماعية الخيرية ٤٣٣-٤٣١
- ب - تولي بعض المناصب الدينية والإدارية ٤٣٤-٤٣٣
- ج - الإسهام في التنقيف الديني والتوعية الدائمة ٤٣٥-٤٣٤
- د - الأمر بالمعروف وإنكار المنكر على العامة والسلاطين والمبتدعة ٤٤٤-٤٣٥
- هـ - الاشتراك في صد البغاة والغزاة ٤٤٧-٤٤٥
- (٤) الأوضاع المالية والمعيشية للركائز البشرية للحياة العلمية ٤٥٤-٤٤٨

الفصل السادس

اهتمام علماء اليمن بالعلوم الشرعية ومصنفاتهم فيها

من بداية القرن التاسع الهجري حتى السيطرة العثمانية عليها

- (١) تمهيد ٤٥٦
- (٢) علوم القرآن الكريم ٤٨١-٤٥٧
- أ - علم القراءات ٤٧١-٤٥٩

٤٨١-٤٧٢ ب - التفسير	
٥٠٤-٤٨٢ علم الحديث	(٣)
٥٥٨-٥٠٥ الفقه	(٤)
٥١٠-٥٠٦ أ - ظروف نشأة المذاهب والفرق الإسلامية وأسبابها	
٥٥٨-٥١٠ ب - خارطة المذاهب الفقهية في اليمن في مطلع القرن التاسع الهجري	
٥٢٢-٥١٣ • المذهب الحنفي	
٥٣٩-٥٢٢ • المذهب الشافعي	
٥٥٨-٥٣٩ • المذهب الزيدي	
٥٨٧-٥٥٩ علم الكلام	(٥)
٥٩٣-٥٨٨ علم الفرائض	(٦)

الفصل السابع

اهتمام علماء اليمن باللغة العربية وعلومها وآدابها ومصنفاتهم فيها
من بداية القرن التاسع الهجري حتى السيطرة العثمانية عليها

٥٩٥ تمهيد	(١)
٦٠٣-٥٩٦ علم اللغة	(٢)
٦١٨-٦٠٤ النحو والصرف	(٣)
٦٣٠-٦١٩ العلوم البلاغية	(٤)
٦٣٤-٦٣١ علما العروض والقوافي	(٥)
٦٣٥- الألب	(٦)
٦٦٧-٦٣٦ أ - الشعر	
٦٤٠-٦٣٧ • أسباب ازدهار الشعر في القرنين التاسع والعاشر	
٦٣٧ • أسباب دينية عامة أو مذهبية وفكرية	
٦٣٨-٦٣٧ • أسباب سياسية	
٦٣٩-٦٣٨ • أسباب اجتماعية	
٦٤٠-٦٣٩ • أسباب أخرى	
٦٤٠- • أغراض الشعر في مدة الدراسة	
٦٥٠-٦٤١ • الشعر الديني (ألب الفقهاء)	

٦٨٠٢٨١

٦٥٥-٦٥٠	■ الشعر السياسي
٦٥٩-٦٥٥	■ الشعر التاريخي (القصصي)
٦٦٢-٦٥٩	■ الشعر العلمي
٦٦٧-٦٦٢	■ الشعر التربوي
٦٨٩-٦٦٧	ب - النثر
-٦٦٨	■ النثر المسجوع
٦٧١-٦٦٨	■ الخطابة
٦٨٠-٦٧١	■ المكاتبات السلطانية
٦٨٥-٦٨٠	■ المكاتبات الإخوانية
٦٨٩-٦٨٥	■ النثر المرسل (التأليفي)

الفصل الثامن

اهتمام علماء اليمن بالعلوم الاجتماعية والعقلية والتطبيقية ومصنفاتهم فيها
من بداية القرن التاسع الهجري حتى السيطرة العثمانية عليها

٦٩١	(١) تمهيد
٧٦٩-٦٩٢	(٢) أولاً : العلوم الاجتماعية
٧٠١-٦٩٢	أ - السيرة النبوية
٧٦١-٧٠١	ب - التاريخ
٧٠٩-٧٠٥	■ التواريخ العامة
٧١٩-٧٠٩	■ التواريخ المحلية وتواريخ المدن والدول اليمنية
٧٢٦-٧٢٠	■ التراجم والطبقات العامة
٧٣٤-٧٢٦	■ طبقات رجال المذاهب والفرق وترجمهم
٧٤١-٧٣٤	■ السير المفردة للشخصيات العامة
٧٤٩-٧٤١	■ السير الذاتية الخاصة
٧٥٣-٧٤٩	■ تراجم رجال الأمر اليمنية الشهيرة
٧٦١-٧٥٣	■ الأنساب
٧٦٩-٧٦٢	ج - الجغرافيا والبلدان
٧٧٢-٧٧٠	(٣) ثانياً : الأحكام السلطانية والنظم المالية والإدارية